

Tim Mackintosh-Smith

تيم ماكنتوش - سميث

عرب

3000 سنة

من تاريخ شعوب وقبائل وإمبراطوريات

ترجمة: عامر شيخوني

جسور للترجمة والنشر



لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

عَرَبٌ

3000 سنة من تاريخ شعوب وقبائل وإمبراطوريات

الشَّعب:... جَماعة أو اتِّحاد، وكذلك انفصال، أو انقِسام،
أو تَفكُّك... أمّة، أو شَعب، أو عِرق، أو عائلة من البَشَر...

Edward William Lane, *An Arabic - English Lexicon*

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(سورة هود، ١١٨ ـ ١١٩)

وهكذا كان لدينا أكثر من ١٤٠٠ «حكومة» قَبَلية في الدولتَين
«الحَضرَميَّتَين»، كما كانت هناك مئات من البلدات المستقلَّة
من رجالٍ غير مسلَّحين... حَسَبتُ أن هنالك ما مَجموعُهُ
نحو ٢٠٠٠ «حكومة» مستقلّة في حَضرَمَوت.

Harold Ingrams, *Arabia and the Isles*

عَرَبٌ

3000 سنة من تاريخ شعوب وقبائل وإمبراطوريات

مكتبة | 1619

تِيم ماكنتوش - سميث

ترجمة

عامر شيخوني



جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

عَرَبٌ: 3000 سنة من تاريخ شعوب وقبائل وإمبراطوريات/ تِيم ماكنتوش ـ سميث؛ ترجمة عامر شيخوني.

٧٨٣ص.

ببليوغرافية: ص٧٦٥ ـ ٧٨٣.

ISBN 978-614-431-739-6

١. العرب ـ تاريخ.

909.04927

Arabs

A 3000 - Year History of Peoples, Tribes and Empires

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢٣

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت

josour.pub@gmail.com



في ذكرى اليَمَن المُوحَّد (١٩٩٠ ـ ٢٠١٤)

وعَليّ حسين أشعَب (١٩٩٨ ـ ٢٠١٦)

وجميع الآخرين الذين ماتوا مع اليَمن المُوحَّد

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

تصدير
العَجَلَة والساعة الرَّملية

لا أحسبُ الدَّهرَ يُبلِي جِدَّةً أبداً ولا تُقسِّمُ شَعباً واحِداً شُعَبُ

ذو الرُّمَة

بدأتُ العمل على كتابي الأول عن استكشافِ أرضِ اليمن وتاريخِه منذ سبع وعشرين سنة، البلاد التي كنتُ أعيشُ فيها آنذاك، وحيث مازلتُ أعيشُ الآنَ. اتَّحَد الجُزآن السابقان من البلاد منذ فترةٍ ليست بعيدة، في أيار/مايو ١٩٩٠ قَبل فترة وَجيزة من توحيد ألمانيا. كانت الجدران تُهدَم والجِدار الحديدي يُرفَع بينما كان خَطٌّ في البَراري يُمحَى. كانت فَترةَ تفاؤلٍ في اليمن، على الرغم من نُشوبِ حَربٍ قصيرة بسبب محاوَلة انفصِال سنة ١٩٩٤ أطلَق خلالها النظامُ السابق في الجنوب عدداً من صواريخ سكود على صَنعاء كاد أن يُماثِل ما أطلَقَهُ صدّام حسين على إسرائيل قَبل ذلك بثلاث سنوات. وبالمقابل، وجَّهَ حكّامُنا في الشمال حَشداً من الإسلاميين المُلتَحين إلى عَدَن، فخرَّبوا «انترااليا»، مصنع البيرة الوحيد في شبه الجزيرة العربية. ولكن اليمن المُوحَّد نَجا، ويبدو أن الماضي قد أصبح من الماضي.

كان ذلك أولَ كتُبي تحيةً لأرض تمسَّكَتْ بكثيرٍ من تاريخها، موجَّهَةً إلى وحدَتها الثقافية الألفية. وفيما بين سُطورِهِ، كان الكِتاب كذلك تحيةً لوحدَتِها السياسية المُجدَّدة. كانت اليمن دولةً موحَّدَة في فترات سابقة: في عصر ما قبل الإسلام، ولفترةٍ وَجيزة في القَرن الرابع عشر، وكذلك لفترة قصيرة حتى في القَرن السابع عشر. مازالتْ تلك الوحدة تبدو بالنسبة لكثيرٍ من اليمنيين، وكذلك بالنسبة لي صحيحةً وسليمة، شيئاً طبيعياً. ظَهَرتْ طبيعيةً على الأقل

حتى القَرن الرابع عشر. كتَبَ مُتابعٌ من مصر: «إذا اتَّحدَت اليمن في ظِلِّ حاكِم واحِد فستَزداد أهميتها وسيَقوَى موضِعُها بين الأمم المَرموقَة»(١) [غير حرفيّ](*).

ولكن في الواقع، لم تكن اليمن موحَّدَةً خلال أكثر من تسعة أعشار تاريخِها المعروف، بل كانت بعيدةً عن ذلك. والآن، بينما أخُطُّ هذه السطور، يبدو أنها تتفكَّك مرة أخرى. ويبدو الأمر كذلك في العراق وليبيا، ويبدو أنّ سورية ربما تتماسَك بالكاد في قبضَةٍ حديدية، وتبدو سلامةُ مصر في أمان، غير أن مجتمَعها منقَسِمٌ بعُمق. تضُمُّ هذه الدول الخَمس نصف عدد سكان العالَم الذين يتحدَّثون باللغة العربية. حسب تقريرٍ حديثٍ للأمم المتحدة فإن ذلك «العالَم» يضُمُّ نحو ٥ بالمئة من البشر، إلا أنه يُنتِجُ ٥٨ بالمئة من اللاجئين في الأرض، ونحو ٦٨ بالمئة من قَتلَى الحروب(٢)... يبدو أحياناً أنّ أمراً واحِداً يَجمَع العرب، هو عدم قدرتِهم على التواصل مع بعضِهم. لماذا هذا الانقسام؟ ولماذا هذه الدرجة غير العادية من أذى الذّات؟

ربما يقول الغربيون (و«الغربيون» مصطلح مختصَر لكنه مفيد): «إنه غياب الديموقراطية ومؤسساتها». وربما يكونون مُحِقِّين في ذلك، غير أن تدخُّلاتٍ أجنبية حديثة زَعَمَتْ تَعزيزَ الديموقراطية يبدو أنها لم تَفعَل شيئاً سوى زيادة الفوضى. وحيثما توجَد انتخابات حُرّة ونزيهة، يَميلُ الإسلاميون إلى الفوز فيها، وتُلغَى الانتخابات بانقلابٍ عسكري، ويَغرَقُ الغربيون في صَمتٍ مُريب. يبدو أنهم يقولون ما لا يفعلون.

يقول الإسلاميون باختصارٍ آخَر: «إنه فَشلُ الإسلام في توحيد نفسِه»، ولكن تلك الوحدة كانت سَراباً في حَدِّ ذاتها ربما منذ القَرن الأول للإسلام، حين نَشَبَ الصراع حول السلطة والشرعية بين المسلمين بالكلمات وبالسلاح منذ العَقد الرابع لعَصر الإسلام.

---

(١) Ibn Fadl Allah al-Umari quoted in: Sarah Searight and Jane Taylor, *Yemen: Land and People* (London: Pallas Athene, 2003), p. 12.

(*) [غير حرفي] هي إضافة من المؤلف، وتشير إلى أن الاقتباس السابق لها لم ينقل حرفياً وإنما تمت ترجمته.

(٢) *UNDP Arab Human Development Report 2016*, quoted in: *The Guardian*, 2/1/2017.

وربما يقول القوميون العرب (ومازال هناك قليلٌ منهم): «إنه ميراثُ الإمبريالية». ولكن كل محاولة للوحدة تقريباً في عَصر ما بَعد الإمبريالية قد فَشِلَتْ غالباً بسبب شُكوكٍ وصراعاتٍ بين العرب. كتَبَ أحَدُ المُعلِّقين العرب في نَقدِ وتَشريحِ الحرب بين العرب وإسرائيل سنة ١٩٤٨: «كان العربُ يستطيعون كَسبَ المعركة في فلسطين لولا وجود شيءٍ زائفٍ ومتَعَفِّن في داخلِهم»[٣]. كان ذلك «الشيء» هو عدم الثقة فيما بينهم والحقد والخوف المتبادلان. كان تَعفُّنَ الدّم الفاسِد الذي يَظهَر مِراراً وتكراراً في التاريخ العربي.

لا شك بأن الانقسام والفُرقة ليسا احتكاراً عربياً، فقد كان الجزء الكبير من خريطة أوروبا مرقَّعاً عشوائياً من الدُويلات حتى فترةٍ قريبة في العَصر الحديث. وإنّ توحيد ألمانيا سنة ١٩٩٠ في حَدِّ ذاته هو جزء من عمليةٍ معاكِسة أدّت إلى تفكيك الاتحاد السوفياتي، وعودَةٍ إلى وحدَةٍ كانت موجودة قَبل جِيلَين فقط. في تلك الفترة، كانت أوروبا مَركزَ حروبٍ مَزَّقَت الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، وأدّت إلى الذوبان الأبطأ للإمبراطورية البريطانية، ولكنْ تَمَخضَّتْ عنها ولادة الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي (مَعاقِل الإجماع المَعروفة). بَوتَقةُ العالَم التي احتَوتْ ذات يوم مُجمَّعاتٍ ثابتة، تتفكَّكُ الآن باستمرار، وتتشكَّل تجمُّعات جديدة. لو لم يكن هنالك مثل هذا التّغير فلن يكون هنالك تاريخ. الاتحادُ والانقِسام هما جُزآن من العملية نفسها، ومِن هنا جاء الاقتِباس الذي افتُتِحَ به هذا الكتاب، من قاموس لاين العربي ـ الإنكليزي:

الشَّعب: . . . جَماعة أو اتّحاد، وكذلك انفصال، أو انقسام، أو تفكُّك. . . أمّة، أو شعب، أو عِرق، أو عائِلة من البَشر[٤]. . .

(تصبح الأمورُ أكثر وضوحاً عندما نَرى كيف يَعملُ هذا التناقض الظاهري في المفردات: إضافة إلى «الشّعب» [بمَعنى جماعة من الناس] وجميع تلك الأشياء الأخرى، فإن «الشعب» هو أيضاً مناطق اتصال أجزاء

(٣) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 185.

(٤) Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), s.v. sh'b.

الجمجمة حيث تلتَقي عظام الجُمجُمة وتنفَصل عن بعضها في الوقت نفسه. تُسَمَّى العِظام ذاتُها «قَبائل»... وكأنما رأسُ الإنسان «بشُعوبِه» و«قَبَائِلِه» يُقدِّم تَشريحاً عَرَبياً للإنسانية ذاتها).

ومع ذلك يبدو العربُ دائماً حالَةً فَريدة، ألا نُسمِّيهم وكذلك يُسَمُّون أنفسَهم عادةً ببساطة «ال» عرب بأداة التعريف، وكأنهم جماعةٌ منفَصِلة ومُمَيَّزة بسهولة؟ وإذا كانوا كذلك، فمَن هُم؟ ولماذا يَبدون منقَسِمين بشكلٍ خاص ومُنفَعِلِين؟ ألا يجب أن يكون هناك على الأقل اتحاد عربي، أو حتى اتحاد للدول العربية؟... وإذا فكَّرنا قليلاً، فقد كان هنالك اتّحاد باسم «اتحاد الجمهوريات العربية» الذي نَسِيَهُ أغلبُ المؤرخين؛ كان اتحاداً فيدرالياً ضَمَّ الجمهورية العربية المتحدة (التي تشكَّلتْ بذاتها من اتحادٍ سياسيٍّ بين مصر وسورية في ذروة القومية العربية) وانضَمَّتْ إليهما ما كان آنذاك مَملكةَ اليمن الشمالي. استَمرَّ ذلك الاتحاد ٤٤ شهراً من سنة ١٩٥٨ حتى ١٩٦١.

لا يوجَدُ سَببٌ يَجعَلُ الاتحاد السياسي أمراً جيداً في حَدِّ ذاته، ولكنني أعتقد بأن هناك سَبَبٌ للادعاء بأن الوحدة بوجْهٍ عام على الأقل، بما فيها من انسجام وغياب الخلافات وترسيخ التّعايش السّلمي والتعاون، هي أفضَلُ للمجتمع الإنساني من التمزق والتنافس العنيف. وعلى سطح كوكبٍ صغير فيه كثيرٌ من البشر وقليلٌ من المَوارد، خاصة في دُوَلٍ مُزدَحِمة مثل سورية ومصر واليمن، فإن الوحدة تَبرُزُ كأمَلٍ وحيد، إلا إذا قَتَل بعضُنا بعضاً وبَدَأنا من جديد.

* * *

كثيراً ما تبدأ تواريخ العرب مع الإسلام، ربما مع إشارةٍ تمهيدية لما سَبَقَهُ. يُقدِّمُ الإسلام دون شكٍّ جماعَةً مُمَيَّزَة من الناس اتَّحَدوا في لحظةٍ تاريخية عظيمة. إلا أنها كانت وحدة ظاهرية وليست حقيقية. حَسبَ السَّردِ التقليدي فإن قبائل شبه الجزيرة العربية تَجمَّعتْ في سنة ٦٣٠ ـ ٦٣١، وهو عامُ الوفود، عندما قَدِمَتْ وفودٌ من القبائل إلى النبي محمد وبايَعوه في الدولة التي أسَّسَها. وخلال سنتَين بعد وفاة محمد، ارتَدَّتْ غالبيةُ هذه القبائل إلى استقلاليتِها القديمة وخصوصياتِها السابقة. تم تَرمِيم الخلافات في بداية الأمر، وأخرَجَت الفتوحاتُ الرائعةُ العربَ من جزيرتهم، وفَجَّرَتْ فيهم روحَ

الجماعة بما يُشبِه المعجزة، وكأنها مِن روحِ الله، غير أن الانقسامات القَبَلية الكامِنة لم تَختَفِ تماماً، وخلال ثلاثين سنة فقط أصبَحَ الحُكم العربي المُوحَّد ذكرى غالية واضِحة. وعلى مَرّ ألف سنة بعد ذلك تقريباً، كان العربُ أنفسُهم، باستثناءاتٍ قليلة، مُتفرِّقين يَحكُمُهم التُّرك والفرس والبَربر والأوروبيون وغيرهم. تقطَّعتْ إمبراطوريتهم، وخَفَّ الألم مع الوقت، إلا أن ذكرياتها ظَلَّتْ حَيَّةً وكأنها ألمٌ شَبَحيٌ في طَرَفٍ مَبتور.

نتيجة كل ذلك هي أنَّ التواريخ السياسية للعرب التي يَكتُبها الحَديثون تصبح غالباً، عند وصولِ السَّردِ التاريخي إلى حوالي سنة ٩٠٠، تواريخ للثقافة العربية، ثم تتحول، مع اختفاء العرب من الصورة، إلى تواريخ لإمبراطوريات شعوب أخرى. يكمنُ جزءٌ من المشكلة في كلمة «العرب» ذاتِها. ومِثل أيّ اسمٍ آخر فهو لا يَنطَبقُ تماماً على مُسَمَّاه، بل هو وَسمٌ يُلصَقُ بذلك الشيء. الأسماءُ مفيدةٌ ولكنها مُضَلِّلة، إذ إنها قد تُغَطّي اختلافات كثيرة، وتَجمَع بين انقسامات عديدة، وقد تَروي أكاذيب. ومع الزمن تَبهَتُ المُلصَقات ويُكتَبُ عليها، بينما يَضيعُ مَعناها الأصلي إذا كان لها مِثلُ ذلك المَعنى أصلاً. في الحقيقة نحن كلنا نشبه صناديق سفر قديمة مغطاة بكثير من المُلصَقات الجغرافية والوراثية واللغوية وهكذا... (إضافة إلى أمور أخرى، فأنا:

(بريطاني/ إنكليزي/ اسكتلندي/ أنكلوساكسوني/ سلتيك/ أوروبي/ هندياوروبي/ يمني/ عربي...).

هناك جماعات قليلة من البشر ممن وصِفوا مثل أولئك الرُّحَّل القدماء الذين يُعرَفون باسم العرب، ولكن في النهاية يَرتَبطُ أغلبنا بصِفَة واحِدة ويَتَمَسَّكون بها. وكلما كانت أوسَع وأعرَض كان الارتباط بها أقوى.

«العرب» صِفةٌ عريضة واسِعة وقوية الارتباط (لقد وجِدَتْ منذ ٣٠٠٠ سنة تقريباً)، ولكنها زَلِقَةٌ جِداً في الوقت نفسه، وهي تَعني أموراً مُختَلِفة لأناسٍ مُختَلِفين في أوقات مختلفة. تَغيَّر المَعنى وغابَ وعادَ إلى الظهور مرات عديدة بحيث أصبَحَ الحديثُ عن ال «عرب» مُضلِّلاً، ولهذا فإن هذا الكتاب لا يَفعلُ ذلك. يُشبِهُ فِعلُ ذلك محاولةَ التعريف بهوية بروتيوس Proteus [إلهٌ مائيٌّ يوناني مُتقلِّب الصورة]. كل ما يستطيع المَرء قولَه هو أنه

خلال أغلب التاريخ المعروف أشارَ مَعنى الكلمة إلى جماعات من القبائل التي عاشَتْ خارج نطاق المجتمع المستقِرّ. ذلك في الغالب هو ما كان عليه العرب خلال أغلب الفترة الطويلة حتى جاء الإسلام. ومن المؤكَّد أن تلك كانت حالتهم خلال أغلب الألف الثانية بعد الميلاد. وفي كِلتا الفترتَين، هناك سببٌ قوي لتَصويرهم كاسم مُشترَكٍ وبِخَطٍّ مائلٍ وليس «كشعبٍ» حقيقي؛ أي بوصفِهم «عرب» وليس «العرب». ومن المُدهِش أن هؤلاء البشر الهامِشيين المُتنقلّين القليلين في العَدَد (الذين لا يوصَفون كشَعبٍ مُحدَّدٍ، وليس لهم عاصِمة)، كانوا دائماً أصحاب هوية. مَيَّزَت المجتمعاتُ نفسَها بوضوح بالمقارَنة مع البَدو الرُّحَّل «غير المتَحَضِّرين» و«البَرابرة» منذ أيام المُدُن ـ الدول الإغريقية في القَرن الخامس قَبلَ الميلاد، وعَبرَ الصين الإمبراطورية، إلى المجتمعات الأوروبية الاستعمارية الحديثة. إلا أنّ الحضارة العربية لا تأخُذ اسمَها فقط، بل صِفَتَها الثابتة الوحيدة ـ وهي اللغة ـ من تلك القبائل ال «عرب» التي اتَّسَمتْ دائماً بالبَداوة والتَّنقل.

العرب الذين نَعرِفُهم هذه الأيام هم مَزيج عِرقِيّ من عنصُرَين أساسيَين رئيسيَين من القبائل العربية البدوية وشبه البدوية، ومن الشعوب المستقِرّة في جنوب شبه الجزيرة العربية. وربما جاء كِلاهما أصلاً مِنَ الهلال الخصيب في شمال الجزيرة العربية في عصور ما قَبل التاريخ. انحَدَرتْ لُغاتُهم من عائلة اللغات «السَّاميّة» القديمة ذاتها، ومع مرور الزمن، تفرَّعَتْ ألسِنَتُهم وتَنوَّعتْ أساليبُ معيشتهم، فتطَوَّرت لدى الجنوبيين من أهل شبه الجزيرة العربية مجتمعات مستقرَّة ارتكَزتْ على نظام رِيٍّ وزراعة (ربما وَرِثوا هذه الأنظِمة من شعوب مَحَلية قديمة كانت مستقرّة في جنوب شبه الجزيرة العربية واندَمَجوا معهم). وبالمُقارنة، مارَسَ الأعراب عادات رَعَوية متنقِّلة، وتوجَّهوا في مَسيرتهم بين آبار المياه والأمطار والغارات. اقتَضَت المَصالح المشترَكة التجارية والسياسية أن يَلتَقي هَذان العنصُران الأساسيان في القُرون التي سبَقَت الإسلام. وفي بداية عَصر الإسلام صَهَرتْ بينَهما التجربة المشترَكة في بناء الإمبراطورية، وجعَلَتْ تركيبَتَهما أقوى انصهاراً واندِماجاً لفَترةٍ ما، إلا أنهم أصبَحوا أكثرَ تعقيداً بالاندماج والاختِلاط مع شعوبٍ من خارجِ شبه الجزيرة العربية. وعلى مَرِّ تلك العملية الطويلة، كانت القَبائل العربيَة جُزءاً في قَلبِ العرب بمَعنًى عام، على الرغم من قِلَّة عَدَدهم، غير

أنهم دائماً ما عَقَّدوا تاريخَ العرب من داخِلِه، لأن التوتر والخلافات بين العناصِر المستقرَّة وغَير المستقرَّة في المجتمع المُركَّب خَلَقَتْ قوةً كبيرة، ولكنها سبَّبَتْ عدم استقرارٍ قاتِلٍ في الوقت نفسه. سنَبحَثُ في نقاط القوة ونقاط الضعف هذه في الفصول القادمة.

القوة الأساسية الرئيسية التي جَمَعتْ كل المُكَونات مع بعضها هي اللغة؛ ليس اللغة المَحكِية كل يوم، بل اللغة العربية الفُصحى الغنية الغريبة الرقيقة المُنَوِّمَة بلُطف، والمُقنِعَة بسِحر، والصَّعبة بجنون، والتي تَطَوَّرتْ على ألسِنةِ كَهَنةِ القبائل وشُعرائها، وكانت دائماً ومازالت وسيلة لتحفيز الهوية العربية الكبرى. اللغةُ المُشتَرَكةُ ضروريةٌ لأي هوية عِرقية، وهي محاولةٌ لِعَكسِ الانقسام المقدَّس الذي أصاب الله به البَشَرَ في قصة بابل، تلك الثرثرة من عدم الفَهم التي تمنَعُ الناسَ من التآلف والتَّجمع. لم تكن اللغةُ بالنسبة إلى العرب علامةً عِرقية فحسب، بل هي العَبقرية العِرقية. تمتدُّ كما يقول مَثَل مأثور كان يُعتَبر قديماً منذ القَرن التاسع «إنَّ الحِكمةَ نزلَتْ من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: على أدمِغة اليونان، وأيدي أهل الصين، وألسِنَة العرب»[٥].

ولهذا السبب، بينما يُنظَر إلى التاريخ عادةً كتَسلسلٍ من الشخصيات والأفعال، فإن تاريخَ العرب هو في أغلبِهِ تَسلسلٌ من رجالٍ ونساء الكَلِمة (شُعراء كَهَنَة، رُواة، كُتّاب، وبِشَكلٍ خاص كاتِبُ (أو بالنسبة إلى المسلمين «رسول») أولِ كتابٍ عربي: القرآن)، لأنهم والكلمات البارزة في هذا الكتاب شكَّلوا الهوية، وصَاغوا الوحدة، وحَدَّدوا مَسار التاريخ. ولذا فمِن حِين لآخر على مَدى صفحة أو صفحتَين سنَبحثُ كيف دَفعَت اللغةُ نحو التَّقدّم، وكيف أعاقَتْهُ في أحيان أخرى. يَستمر التَّقدم والتَّخلف، والأحداثُ الجديدة مثل «الربيع العربي» وما تَلاهُ مِن فوضى تُظهِرُ كيف أن الكلمات - الشّعارات والنّداءات والدّعاية والتّضليل الإعلامي والسِّحر الفتَّان القديم، سواء كان أبيضَ أو أسودَ - مازالت تُشَكِّل مَسار العالَم العربي.

أو بشكلٍ أدَقّ، عالَمُ العربية **the Arabic world** أو دائرة العربية، مازالت

(٥) الجاحظ، ورد في: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٣، ص ١٦٣.

اللغة هي صِفَتُه الأساسية، أما «العرب»، فالأصح أنهم «الناطِقون باللغة العربية». وإنّ تَسمية كلّ مَن يعيش في المنطقة من جَبل طارق إلى مَضيق هرمز «عرباً» هي بمثابة تسمية كل سكان أمريكا الشمالية وجنوب إفريقيا وأسترالاسيا وإيرلندا وبريطانيا «إنكليزاً»؛ بغضّ النظر عن أصولهم؛ بل بمثابة تسمية جميع هؤلاء «أنْكَلَ (Angles (Anglo-Saxons» ـ وهم جماعة... أصبَحتْ لغَتهم بقيةً خلّفها جَزْرُ امبراطوريةٍ زائلة.

* * *

هناك هوية مشترَكَة قد جَعَلَت العربَ ـ على الرغم من كل شيء ـ يطارِدون سَرابَ الوحدة، ولكي نَبحثُ عن أصول تلك الهوية، فعلينا أن نُصغي للغَتِهم. كما يجب علينا البحث بعيداً قَبل الإسلام، ولا شك بأن المَعارف عن الماضي قَبل الإسلام أقلّ وأصعَب. ولكن باعتبار التاريخ المَكتوب فهي فترةٌ يساوي طولُها امتدادَ الفترة التي تَلَتْ بُزوغَ فَجرِ الإسلام المَصيري من شبه الجزيرة العربية. أولُ نَصٍّ قديم معروف يَذكُرُ العربَ يَرجِعُ تاريخُهُ إلى سنة ٨٥٣ قَبل الميلاد[٦]، وأنا أكتُبُ أول مسودة لهذه الكلمات سنة ٢٠١٧، وحسب التقاليد المعروفة، فإن الصَّبي محمد قد تم الاعتراف به كنَبيّ في سنة ٥٨٢، وهي بالضبط في منتصف الفترة بين النَّصِّ القديم وحاضِر الحَال.

بدأ الإسلام بضَوءٍ ساطِعٍ يعمِينا عمّا سَبَقَهُ، وبالمِثل فإن الضَّوءَ السَّاطِعَ أضفَى نورَهُ على التاريخ من بَعدِه، وألقَى بكثيرٍ مِن الأمور في خَفاء الظِّلال. يجب علينا أن نبحث في الصورة التاريخية الكاملة تحت نورِ ضَوءٍ مُتعادِل، وأن نُعطِي صورةً مُجَسَّمَة شاملةً تدركُ أنَّ الذي حَدَثَ منذ السّنة الإسلامية «صِفر» حتى الآن يساوي نصف الصورة المُجَسَّمَة الشامِلة التي تمتدُّ في الزمن قَبلَها عدداً من السنين يساوي ما بَعدَها على الأقل.

ما بَدأ بالإسلام، وما يُعطِي الانطباعَ ببَدء سَردٍ عربي موحَّد آنذاك، هو تقنيةُ معلوماتٍ عربية، أو بكلمة أخرى طرائق جديدة في استِخدام اللغة والسيطَرة عليها، ومن ثَمّ تَشكيل الهوية. كانت الهوية الأدبية والثقافية

(٦) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), p. 59.

والتاريخية قَبلَ الإسلام شَفَهيةً بشكلٍ كبير؛ أما بَعدَ الإسلام، فقد دفَعَتْ تقنياتٌ جديدة معظَم التطورات الكبيرة في تاريخ العرب. سنَبحثُ في هذه التقنيات اللغوية عن قُرب كلما ظَهَرتْ مع الوقت، أما الآن فسيُعطينا مُلخَّصٌ فكرةً عن أهميتها في سَردِ القصة. في بداية القَرن السابع، ظَهَر أولُ كتابٍ عربي: القرآن. ظهَرَ فجأةً بالنظر إلى مِقياسِنا الزمني الذي يمتدُّ ٣٠٠٠ سنة، وجَعَلَ اللغةَ والبشرَ الذين يتَحدَّثونَها مَقروئين مَرئيين. وفجأة وُجِدُوا على صَفحَة التاريخ بالأبيض والأسود. كان لديهم ماضٍ، ودَخَلوا حاضِرَهم التاريخي بِطاقَةٍ رَبِحوا بها إمبراطوريةً واسعة.

في نحو سنة ٧٠٠، اتُّخِذَ قرارٌ سريع بالتَّخلي عن اللغتَين اليونانية والفارسية المَوروثتَين في الإدارة الإمبراطورية لصالِح اللغة العربية، مع تَعريبِ جميع الإمبراطورية وشعوبِها بسرعةٍ مذهِلة. أصبَحَت العربية هي اللاتينية الجديدة. وفي أواخر القَرن الثامن، مكَّنت صناعةُ الورق العربية مُستَخدِميه مِن سَبْق نظرائهم الأوروبيين الذين كانوا مُنطَوين في عصر الرَّقّ والكتابة على الجلود، وأنتَجَتْ فيضاناً من المفردات والأفكار العربية. بعد ذلك بسَبعَة قرونٍ، عندما اختُرِعَت الطباعة، اتَّخذَتْ أوروبا مَسارها الذاتي، ولم ينجح الخَطّ العربي المُتَّصِل بشكلٍ جيد مع حروف الطباعة المُنفَصِلة، بينما نَظَرَ العرب دائماً إلى الخَطّ العربي المَطبوع باستخفاف، مثلما يَنظُر الطليان إلى المَعكرونة الجاهزة. وأخيراً، بعد فترةٍ طويلة في القَرن التاسع عشر، بدَأت المَطابعُ العربية العملَ ببطءٍ مع نهضة العرب. وبعد مئة سنة أخرى، نشَأتْ قوميةٌ عربية نابِضة أُذيعَتْ شعاراتها في الراديو الترانزيستور العابِر للحُدود. بعد جِيلٍ واحِد، وَجَدَت المطبوعاتُ العربية أخيراً الحَلَّ لِلَعنَةِ الحروفِ المُتَّصِلَة في مُعالَجَة النصوص رقمياً، وفي الوقت نفسه انطَلَقتْ محطاتُ التلفزيون الفضائية، وطارَت الكلمات أبعَدَ وأسرَع. بدَأت وسائلُ التَّواصل الاجتماعي في بداية القَرن الواحد والعشرين في قَلبِ البيانات القديمة ونَشرِ حقائقَ بَديلَة... حتى وَصَلَ الرجعيون إلى الفيسبوك أيضاً. ويَسعى ديناصورات العالَم الرَّقَمي جُهدَهُم الآن للسيطَرة على وسائل الإعلام والتَّواصل وعلى العقول.

ومع ذلك فقد كان لتاريخ العرب الذي سَبَقَ الإسلام ـ وهو نصف

تاريخهم - وسائل تواصلِهِ الاجتماعية وأصواته المُسَيطِرَة وكلماته المُنتَشِرَة أيضاً. ذَهَبَ مُعظَمُها أدراجَ الرياح، ولكن بَقِيَ بعضُها مثبَّتاً على أحجار وفي الذاكرة، ونَستطيعُ، بل يجبُ علينا، أنْ نُصغي إليها.

* * *

بدَأ مُؤرِّخٌ متَميِّز، هو ألبرت حوراني[7]، عند الوَسَط الزمني، فَجر الإسلام، وأخَذَ يَشدُّ القارئ إلى موضوعِهِ بصورةِ المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون من القَرن الرابع عشر. رَحَلَ ابن خلدون إلى قريةٍ مُحصَّنَة في ريف الجزائر بعد أن عاش عُقوداً من الزمن في جَوٍّ كثيفٍ من المؤامرات والفصائل المُتحارِبة، ودَخلَ في فَترةٍ من العزلَة الفِكرية المُكثَّفَة. نظَرَ بعُمقٍ فيما كان يَدورُ حَولَهُ: «فسالت... شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها»[8]، حَسبَ وَصفِهِ، (رجُلٌ مَحظوظ!)، وجاءَ بنموذجٍ لصُعود وسقوط السلالات الحاكِمة. يُفسِّرُ ذلك النموذجُ باختصار كيفَ يمكن أن تتَّحدَ قبيلةٌ بَدَوية فيما يُسميه «العَصَبية» (تَعني حَرفياً ما يُشبِهُ الرابِطَة، ولكنها تُترجَمُ عادةً إلى «تماسُك الجماعة») ثم تكتَسِبُ قوّتها القتالية. تَستولي القبيلةُ بالقوة على حُكم دولةٍ مستقرة، ويُصبح زعماؤها سُلالَةً حاكِمة جديدة، وما كان ذاتَ يوم هامِشياً ومُرتَحِلاً، يُصبحُ مَركزياً ومُستقِرّاً. ولكن مع مرور الزمن، خلالَ ثلاثة أجيال في الغالب، تَضعف حَيوية السُّلالَة بالتَّرَف، وتسقط أمام سُلالَة جديدة مازالت تَتمتَّع بحيويتها البَدَوية («مِنَ القباقيب إلى القباقيب في ثلاثة أجيالٍ فقط»، كما كانوا يقولون في لانكشاير في وَصفٍ مُماثِلٍ للحَركة الاجتماعية).

كان حوراني أكاديمياً ورَجُلَ مكتباتٍ يكتُبُ في أرجاء مَعهد سانت أنتوني في أوكسفورد St. Antony's College, Oxford. واعتَبَرَ بنظرَتِهِ الأكاديمية أنّ ابن

---

(7) Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, with afterword by Malise Ruthven (London: Faber and Faber, 2002), p. xiii.

(8) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), pp. viii-ix;

النسخة العربية في: أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ - ١٤٠١**، عارضها بأصولها وعلّق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي؛ حررها وقدم لها نوري الجراح (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ أبو ظبي: دار السويدي، ٢٠٠٣)، ص ٢٦٦.

خلدون شخصيةٌ تُمثِّل عَصراً وثقافة. عندما قرأتُ هذَين الكاتِبَين وأنا في بَيتي البُرجِيّ اليَمنيّ، بينما أنا قابعٌ في مكاني منتَبِهاً ومتيقِّظاً بفِعلِ قذائفِ المَدافع والصواريخ (الصراع الكبير الثالث بالنسبة إليّ)، وبينما يَسقطُ عَليَّ وابِلٌ من الشعارات والمَواعظ والقصائد (السياسية وليس الشِّعرية) طوال اليوم، رأيتُ ابن خلدون كَزَميلٍ باحثٍ مُراقِبٍ يَجلسُ في مَعقِلِهِ المُنعَزِل في الجزائر مثلما أجلسُ أنا في صنعاء بينما تَشُنُّ القبائلُ والسُّلالات حروبها واتفاقاتها ومؤامراتها لمزيد من الحروب من حَولِنا. يُشكِّلُ كلٌّ مِنَّا فلسَفته في التاريخ من التجربة الحَيَّة. وبينما استَخدَم حوراني ابنَ خلدون كوسيلةٍ أدبية، أجِدُ نفسي أُجَسِّدُه مِن غَير قَصد. أو بكلمة أخرى، أشعرُ بأنني أعيشُ التاريخَ في المكان، وتوجد مُخلَّفات مِن ذلك التاريخ مَدفونة تَحتي، لأنّ بُرجِيَ الصغير يَنتصِبُ في طَرَفِ تَلٍّ من الأطلال بُنِيَ من بقايا صنعاء ما قَبلَ الإسلام، ربما واحِدةٌ مِن مُدُن سَبَأ العظيمة، ومن خَرائب قَصرِ الحَاكِم العَباسيّ، وأشياء أخرى لا يَعلَمُها إلا الله. في عَين المَكان وفي حقيقة الزمن: مواد التاريخ الخام موجودة هنا خارج نافذتي (مَرَّت الآن جماعةٌ من الأطفال الصغار تَهتفُ «الموت لأمريكا»، ترافقهم ضرباتُ طبول وأصوات مُفرقَعات، وخَلفَهم نَعشٌ أحمر مرفوع على الأكتاف يضُمُّ شهيداً آخر، وللأسف كان النَّعشُ صغيراً أيضاً).

يبدو أن المواد الخام هذه الأيام هي غالباً الفولاذُ والرصاص. عَلِقتُ مؤخَّراً بسبب فراغ بطارية السيارة، وكان برفقَتي صديقٌ في سيارةٍ ثانية، ولكن لم يكن لَدَيهِ سِلكُ توصيلٍ لتَشغيل البطارية، وخطَرَتْ لنا معاً فكرةَ الاستعانة برَجُلَين من رجال القبائل. استَعرنا منهما بُندقِيتَيهما الحَربيتَين من نوع AK47 واستَخدَمناهما لتَوصيل البطاريتَين، واشتَغَلَت السيارة في المحاولة الأولى. «فقط تَواصَل!» قلتُ فرِحاً وأنا أُعيدُ البُندقيتَين: «لهما فوائد إيجابية إذاً»، أجابَ أحدُهما: «فائدَتهما هي القَتل».

ماذا يستطيع المرءُ أن يقول؟ كتَبتُ في كتابي الأول أنني شَعرتُ في اليمن وكأنني الضَّيفُ في مَأدُبَة، والذُبابةُ على الجِدار. أما الآن فإنني أشعرُ وكأنني الهَيكلُ العَظميُّ في المَأدُبَة، والذبابة في الحساء. ولكن يجب على المَرء أن يُحاوِلَ التفاؤل. فإن رؤيةَ البلاد التي أعيشُ فيها وأحبُّها تتمَزقُ، تُشبِهُ رؤية صديقٍ عزيز قديم يَفقدُ عَقلَه ويَرتَكِبُ انتحاراً بطيئاً مقصوداً عن عَمد.

* * *

أجِدُ أنَّ نَموذجَ ابن خلدون وصيغَتَهُ الأنيقة مازالا متحقِّقين، ولكنني أعتَقِدُ أنه يُمكِن أن يُضبَطَ بطرائق تَجعَلُ عَمَلَهُ أكثر وضوحاً وأكثر انطِباقاً على فترة الثلاثة آلاف سنة تقريباً من تاريخ العرب المُسَجَّل. مازالت العَصَبية هي أهمّ صفاته الرئيسية، تلك الطاقة الكامنة الجماعية التي تُحَفِّزُ على وحدَةٍ قصيرة العُمر:

تُشَكِّلُ العصبيةُ مع الوقت الزَّخَمَ للقيام... بغارَةٍ ناجِحة، أو غَزو، أو انقِلاب... ونتيجة للغارة أو الغَزو أو الانقلاب واحتكار الجماعة للمَوارد (جِمال وضَرائب وبترول وغاز) تزدَهِر أحوالها.. وبعد ذلك، إما أن تُصبح المَوارد غير كافية للجماعة عندما يزداد عدَدُها، أو أن يَختلِفَ زعماؤها على اقتِسام الثروة.. وتتفَرَّقُ الوحدة. وفي النهاية، تتشكَّل عَصَبيةٌ جديدة وتَتكَرر العملية.

وجدتُ كذلك أنَّ ابن خلدون كان مُحِقّاً في رؤيته للبَدو كمَخزَنٍ للتَّغيير، وأعتَقدُ أن هذا صحيح هذه الأيام مهما بدا ذلك غريباً، على الرغم من أن عَددَ البَدو بين العرب قد أصبح قليلاً جداً، وأن النظام الثنائي الذي وضَعَهُ ابنَ خلدون للمجتمع الإنساني مازال صحيحاً:

المجتمع السياسي الحَضَري هو مجتمعٌ مستقرّ «نسبياً» يتَّصِفُ بالكلمة المتعلِّقَة بتلك «الحضارة»، بمَعنى أن الناس يعيشون مع بعضِهم في مكان مستقرّ، قرية أو مدينة، بينما المجتمع البَدَوي أو البَدو هم مجتمعٌ غير سياسي ونظام ديناميكي يعيش فيه الناس فيما وراء الكيان المَدَني حيث تكون «المؤسَّسة» الأساسية فيه هي الغَزو أو الإغارة (أو الانتِزاع أو الانقِلاب).

النقطة التي أريد التَّركيز عليها هي أنه بينما البَدو الحقيقيون هم سُلالة مُتلاشِية، فمازال هناك منهم لاعِبون كُثُر في اللُّعبَة العربية، وتَتوافَقُ أفعالُهم تماماً مع النظام المُجتَمِعي الخلدوني الثاني «البَدَوي». ذُكِرَ المجتَمَعان من قبائل الحَضَر والبَدو في آية مشهورة في القرآن استَوحَيتُ منها جُزءاً من عنوان هذا الكتاب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[٩].

كانت هذه الثُّنائية موجودة منذ بداية تاريخ العرب المَكتوب، ولم تكن دائماً مسألةَ تَعارُض. يَتعلَّقُ أولُ ذِكْرٍ للعرب سنة ٨٥٣ قَبل الميلاد بتَوظِيف الدولةِ الآشورية مُقاولاً للنَّقل اسمُهُ «جِنْدِبو»، وكان زعيماً عربياً يَمتلكُ قطعاناً كبيرةً من الجِمال، واستفادَت المجتمعاتُ المستقرَّة والبَدَوية من بعضها بشكلٍ مُتبادَل. وبالانتقال إلى منتصف الزمن في تاريخ العرب، فإن جزءاً من نجاح النبي محمد يَرجِعُ إلى جَمعِهِ عَناصِر من النظامَين الحَضَريّ والبَدَويّ لتأسيس الدولة الإسلامية الأصلية. وفي زمننا الحاضر فإن الفَشَلَ التام تقريباً للثورات الشعبية الديموقراطية سنة ٢٠١١ ارتَبَط بتَرسيخِ النظام البَدَويّ على الحَضَريّ المستقرّ. فمثلاً، اليمن التي أُطِلُّ عليها من نافذتي كانت تُعتَبر حتى صيف ٢٠١٤ قصةَ نجاحٍ للربيع العربي الطَّموح لِبناء مجتمعٍ مَدَنيّ حضاريّ مستقرّ. إلا أنه منذ ذلك الحين، سَيطَرت على الجزء الشماليّ من الدولة في غَزو مُسلَّح عودةُ ظهور فَصيلٍ قديم كان قد حَكَمَ ألف سنة، واشتَعلَتْ حربٌ أهلية، وتدخَّلتْ دولٌ مُجاوِرة (تَحكُمُها جميعاً ما يُصَنِّفُهُ ابن خلدون سُلالاتٍ بَدَوية). وهذا هو ما سَمَّيتُه: التاريخ في الوقت الحاضر. الحروب هي أسوأ ما في التاريخ، والحروب الأهلية هي أسوأ الحروب، ليس لأنها داخل المجتمع الأهلي فحسب، بل لأنها ضد ذلك المجتمع الأهلي. لم يكن لدى ابن خلدون أي شكّ بِمَن هُمُ المُذنِبُون الرئيسيون، فقد كتَبَ: «تَنهارُ الحَضارةُ دائماً حيث يُسيطِرُ البَدو»[١٠].

في هذه الأيام لا يُقوِّضُ بَدوٌ حقيقيون على ظُهور الجِمال المؤسساتِ المَدَنية ويَختَطِفونَ الانتفاضات الديموقراطية أو يُشعلونَ الصِّراع المَدَنيّ، ولكن يبدو واضِحاً أن المؤسسة البَدَوية الرئيسية، الغَزو، مازالتْ حَيَّة. وربما كان ذلك هو سبَبُ قوة تأثير صورة مؤيديّ النِّظام الذين رَكِبوا على الجِمال لِبَثِّ الفوضى بين المُعارِضين في مَيدان التَّحرير في القاهرة سنة ٢٠١١. وفي أماكن أخرى تَظهَر بقوةٍ صُوَرُ سيارات تويوتا الناقِلَة الحديثة مُحَمَّلَةً برشاشاتٍ ثقيلة.

---

(٩) القرآن الكريم، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

(١٠) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 119.

«الغَزو» كلمة ذات معاني سَلبية بالطبع، تَحمِل طَعمَ القَرصَنة البَربرية غير المتحَضِّرة بدلالاتِها الحقيرة. غَيرَ أنّ الغَزو والإغارة نِظامٌ راسِخٌ، بمَعنى أنه وسيلةٌ مَقبولَة منذ زمن طويل لإعادة توزيع الثروة بشكلٍ أكثر عَدلاً أحياناً. قد لا تُعتَبَرُ وسائلُ تطبيقِهِ مقبولَة أخلاقياً في رأي بعض الناس، ولكن قد يبدو عَقلانياً إذا نُظِرَ إليه ببرود: لديكَ فائضٌ ولَدَيَّ نَقصٌ ولذلك سآخُذُ ما هو فائِضٌ عندكَ. من الضروري تَذَكُّرُ أنَّ ثقافاتٍ مختلفة لديها مَنطِقٌ مُختَلِفٌ، حتى آكلو لُحوم البَشر[11] لديهم مَنطِقهم الخاص حسب تفسير مُعَلِّقين ثقافِيين مثل مونتين Montaigne ومارشال سالِنز Marshall Sahlins. قد يبدو البشرُ متشابِهين أساساً في كل مكان إلا أنهم يَتشابَهون بطرائق مختلفة.

وُجِدَتْ عقليتان معاً على مَرّ أغلب تاريخ العرب: عَقليةُ «الحَضَر»، وعَقليةُ «البَدو». الشعوبُ والقبائل في ازدواجِيةٍ أبَدِيَّة تتصارَع وتَلتَقي بمَحبةٍ وكَراهية مثل مفهوم الين واليانغ Yin and Yang في الصين. ولكن أي من هاتَين العقليتَين أكثر «عروبة»؟ تلك هي المُعضِلة الكبرى في الهوية العربية. وكما ذَكرتُ فإن اصطلاح «العرب أو الأعراب» قد استُخدِمَ عادةً في وَصفِ الجماعات القَبَلية التي عاشَتْ خارج المجتمع الحَضَري المستقرّ وفيما وراء صفاتِ المؤسسات المَدَنية وسياساتها. أي إنه كلما خَضَعَ العرب إلى مجتمعٍ مَدَني، أصبَحوا أقلَّ «عروبةً أو أعرابية»، لأنهم يَفقِدون شيئاً مِن روحِهم. وفي عالَم متمَدِّن شامِلٍ تُطمَسُ فيه الهويات، فإن احتمال فُقدانِ ذلك الجانب القديم من الأعرابية أو العروبية، والانضِمام إلى الضَّبابية العالَمية يُصبح عَمليةً مؤلِمة.

* * *

هناك ما هو أكثر في القضية من الشعوب والقبائل. تَراجَعْ قليلاً وتأمَّلِ الصورة الكبرى على الخريطة مع مرور الزمن، فستُصبحُ أوضَح تلك الدَّورةُ من الاتّحاد والتَّفرق التي أُشيرَ إليها فيما سَبَقَ وهي تتحَرّكُ في سياق الإمبراطوريات الآشورية والرومانية والفارسية والبيزنطية والعثمانية والبريطانية والأمريكية. إنها دَورَةٌ ذاتُ أسنان، غير أنها ليست وحشِيةً بالضرورة، فقد

(١١) اقتبس مونتين عن آكلي لحوم البشر، في: Neil Rennie, *Far-Fetched Facts: The Literature of Travel and the Idea of the South Seas* (Oxford: Clarendon Press, 1995), p. 52, in: *The London Review of Books* (9 May 2013), p. 29.

اندَمَجَت الأسنانُ أحياناً مع المَصالِح الإمبراطورية على نقاطِ التَّماسّ في الهلالَين الخَصيبَين (سيأتي تفصيلٌ عن ذلك فيما بَعد) ومصر وإيران، بينما اصطَدَمتْ في أحيان أخرى. وهناك احتكاكٌ في كِلتَا الحالتَين، وحَرارة وحَريق، فالدَّورة هي دائرةٌ من النار خَلَّاقَةٌ ومُدمِّرةٌ تَمزُجُ وتَصهُرُ وتُشَكِّلُ الهوية العربية في آنٍ واحِدٍ على مَرِّ ثلاثة آلاف سنة.

في سَردِ القصة العربية، سيَبحَثُ هذا الكتاب أكثر فيما تبدو دَورةً أبدية مأسوية في أغلب الأحيان من الوحدة والتَّفرق، وكذلك إلى تلك القوة التي تُغَذِّي النارَ وتُقدِّمُ الوقود للثورات والتي حَدَّدَت العربَ أكثر من أيّ أمرٍ آخَر عَبرَ تاريخ من الهويات المُتحَوِّلَة والمُتآلِفَة، ألا وهي اللغة العربية. اللغةُ هي ما يَربِطُ جميع هذه التطورات التاريخية الرئيسية بالاستناد إلى تقنيات المَعلوماتية، مِن كلمة «الله» المُصَوَّرَة في الكتابة، إلى مُعالَجة النُّصوص الرقمية، حتى مُعالَجة العقول بِيَدِ الأنظمةِ الرَّجعية الجديدة. اللغةُ هي الخَيطُ الذي حاوَلَ التمسك به جميعُ الزعماء العرب الطامِحون، وكان هدفُهم دائماً خَلق العَصَبية، تلك «الرابطة» أو ذلك الإجماع، في «جَمعِ كَلِمَةِ» شعوبِهم وقبائلهم كما تُعبِّرُ عنه اللغةُ العربية.

هذا تاريخُ العرب وليس تاريخ العربية، ولكنّ متابَعَةَ الخَيط اللغوي عَبرَهُ تَعني استِكشاف أعمَق الحِبال التي تَنظُمُ وتُشكِّلُ العروبية[١٢] بجميع جوانِبِها المختلفة، لأن ذلك الخَيط هو الرابطة الوحيدة التي تمكَّنَتْ من جَمعِ العرب مع بعضهم ومَنَحتْهم الهوية والوحدة. وحتى الوحدة التي حقَّقَها الإسلام كانت تَستَندُ في النهاية إلى الكلمات. بالنسبة إلى الأوروبيين ووَرَثَتِهم، كما بَيَّنَ توماس كارلايل Thomas Carlyle، فإن البارود والطباعة والبروتستانتية تَكمُنُ وراءَ القوة؛ أما بالنسبة إلى العرب وَوَرَثَتِهم فقد كانت القوة في الكلمات والقوافي والبلاغة.

والمشكلة هي أن الكلمات تستطيع أنْ تُوحِّد وأنْ تُفَرِّقَ. والتَّفريقُ هو ما يَحدُثُ الآن حيث أُقيمُ، وفي كثيرٍ من أصقاع بلاد العرب، ولهذا تَظَلُّ الوحدَةُ سَراباً. موضوع هذا الكتاب هو كيفية حُدوث كل ذلك على مَرِّ تاريخ العرب المَعروف على مَدى ثلاثة آلاف سنة.

* * *

---

(١٢) قارن: ص ٢٨ السابقة.

كلمةٌ أخيرة من طَرَفي قَبلَ جَمعِ الكلمة العربية، فإضافة إلى الاستماع إلى الناس وأصواتهم، سنَتَفَحَّصُ الأمورَ أحياناً. وما يمكن أن يُسمَّى «المَلموسات *tangibilia*» هي طريقةٌ جيدة لفَهم الماضي، ويمكن أن تُستخدَم كاستِعاراتٍ أحياناً تُساعِد على فَهم التَّعقيد. قد تكون الاستعارات أشياء كبيرةً مثل بناءٍ ضخم جُمِعَ من أجزاء، مَسجِدٍ بُنِيَ من مواد بناءٍ وَثَنيّ أو كنيسة، أو تكون صغيرةً مثل قطعةِ نقودٍ عربية سَكَّهَا المَلك أوفا **King Offa** في وسَط إنكلترا، وقد توصَفُ بأنَّها لُغزٌ مثل تعويذةٍ كُتِبَتْ كلمةُ «الله» على أحَد وَجهَيهَا وكلمةُ «كريشنا» على الوَجهِ الآخر، أو غَنيَّةً بالتناقضات مثل مُسَدَّسٍ حُفِرَ عليه اسم رئيسٍ للولايات المتحدة من زمن الحرب الباردة. إنها مثلما فَعَلَ الكاتبُ خورخيه لويس بورخيس **Jorge Luis Borges** في صياغَةِ مَعنًى جديدٍ لاشتقاقٍ عربيٍّ قديم يسمى «الظاهِر»(١٣): أيْ شيءٌ مَرئيٌّ مَسكونٌ يمكن أنْ يأخُذَ أشكالاً مختلِفة في أماكِنَ وعصور مختلِفة.

استعاراتٌ أدبية أخرى قد تكون مفيدة أيضاً في السَّردِ القادِم، منها عَجَلَةُ النار، والإشارة الرمزية للمُعاناة الأسطورية فيها ليست مُصادَفَة (ففيها تَشبيهٌ بمُعاناة إيكسيون [الذي تآمَرَ على النظام المقدَّس])، أو بمأساة المَلك لير [في مسرحية شكسبير] الذي قَسَّمَ مَملَكَتَهُ، وكِلاهما «رُبِطَ إلى عَجَلَةٍ مِن نار». والعَجلات كذلك هي وسائل جيدة للقصص والتاريخ لأنها تُسافِر على طريقٍ لانهائي في الزمن، في حين أنَّ حَرَكَتَها الذاتية دَوَّارة، فهي تَجمَعُ الاستمرارَ والتَّغيُّر. ولكنها ليست الصورةَ الوحيدةَ التي يَجبُ تَذَكُّرُها في تاريخ العرب.

كتبتُ في كتابي الأول أن الماضي حاضِرٌ دائماً في اليمن. لم أُدرِكْ في ذلك الوقت أن هارولد إينغرامز **Harold Ingrams** الإداريّ الإمبريالي والرَّحالَة في الجزيرة العربية قد كتَبَ ذلك أيضاً في كتابه عن اليمن: «إنها بلادٌ يَظلُّ الماضي فيها حاضِرٌ أبَداً»(١٤).

يَفصِل بين مَقولَتَينا جِيلٌ وثَورَةٌ أو ثورَتان، ولكن الماضي الذي كتَبْنا عنه كان هو نفسه، ومازال حاضراً. إنه حاضِرٌ الآن بَعدَ جِيل آخر ومزيد الثورات. وليس ماضي اليمن وحدَهُ كما شاهدَه مُراقِبون بريطانيون هو ما لا

(١٣) Jorge Luis Borges, *"The Zahir", Labyrinths* (London: Penguin, 1970), p. 189.

(١٤) Harold Ingrams, *The Yemen: Imams, Rulers and Revolutions* (London: John Murray, 1963), p. 36.

يُمكِنُ الهربُ منه، ففي بداية كتابِهِ الكبير «**الثابت والمُتَحَوِّل**»، يكتُبُ الشاعر والناقد السوري أدونيس عن مَيلِ عالَم العربية إلى «جَعلِ الماضي حاضِراً باستمرار»[١٥]. هذا الماضي ـ الحاضر هو ما دَفَعَ المُراقِب الفَطِن يان موريس Jan Morris لوَصفِ المملكة العربية السعودية سنة ١٩٥٥ بأنها «مَملَكَةٌ عَتيقَة»[١٦] بَعد سنتَين فقط من وفاة مؤسِّسِها المُستَبِد.

لا شك بأننا نُصَرِّحَ جميعاً بالأمر الواضح الجَليّ للعَيان، وما أصبَحَ واضِحاً بعد مرور الزمن هو كيف أنّ الماضي الحاضر دائماً يتضَمَّنُ المستقبلَ كذلك، بالمَعنَيَين: يَشمُلُ ويَحصُر. يمكن أن يكون للماضي الحاضر دائماً تأثيراتٌ إيجابية لأنه يَحفَظُ المجتمعات متأصِّلَةً في ذاتِها وجُذورها. وبالمقابل، قد يُقَيِّدُ تلك المجتمعات نفسها ويعوقُ مستقبلَها. قد يكون عِبئاً حَيّاً مُهلِكاً. المثالُ الحديث الواضح هو الربيع العربي، الثورةُ المُتَدَحرِجَة التي بدَأتْ سنة ٢٠١١ وعَبَّرَتْ عن آمال جِيلِ الشباب، ولكنها خُنِقَتْ في كل مكان تقريباً بِيَدِ القوى الرجعية للماضي العربي.

استكشافُ التاريخ العربي يَعني من ثَمَّ القَفز من حين لآخر عن مَسار الزمن والنَّظَر إلى الأمام وإلى الوراء أيضاً. «الزمن الحاضر والزمن الماضي» كما أدرَكَ الشاعر إليوت Eliot:

ربما يَحضران في المستقبل
والمستقبلُ مُتَضَمَّنٌ في الماضي[١٧].

هذا التعقيدُ هو لَعنَةُ جميع المؤرخين، وربما أكثر من ذلك بالنسبة لمؤرِّخي العرب: تَتَوالَى السنواتُ والصفحاتُ بالتَّسَلسل، ولكن ذلك لا يَنطَبِقُ بالضرورة على الأفعال ورُدُودِ الأفعال، وعلى الأسباب والمُسَبِّبات. قد تَظَلُّ الأسباب والعوامل والأخطاء المأسوية كامِنَةً فترة قرون، بل آلاف السنين، حتى تَظهَر نتائجها، إنْ ظَهَرتْ. في مِثالٍ شديدِ الغَرابة ـ ولو كان تافِهاً ـ في منتصف القَرن العشرين طَلَبَ شيخُ قريةٍ مِنْ سُلطاتِ الاستعمار

---

(١٥) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ١: **الأصول**، ص ١٩.

(١٦) Jan Morris, *Sultan in Oman* (London: Eland Books, 2000), p. 23.

(١٧) T. S. Eliot, *Four Quartets*, "Burnt Norton", part 1.

البريطاني في عَدَن أن تَدفَعَ تكاليفَ حَفرِ بِئرٍ قديمة وإعادة ترميمِها. كانت حجَّتُهُ أنَّ البِئرَ كانت قد طُمِرَتْ بِيَدِ قوةٍ غازِيَة رومانية سنة ٢٦ قَبل الميلاد، لأن الرومان والبريطانيين هم مِن نوعٍ واحِد هم «الفِرَنجَة»[١٨]، أي الأوروبيون. موقفٌ آخر أكثر جدِّية يتعلَّقُ بأنتقال السُّلطة وبطبيعَتِها في فترةٍ ما بَعدَ الدولة المُحمَّدية: ثارَت المُشكِلَة بشكلٍ مُتكَرِّر ودَمَوي أحياناً على مَرِّ ١٤٠٠ سنة. من الواضح أن العَجَلة التي تتدَحرَج وحدَها بثبات على طريقها الزمني لا تكفي دائماً. نحتاجُ إلى صورةٍ أخرى تَكرارية ولكنها عَشوائية.

وكالعادة، يَحمِلُ الشعراءُ الإجابة، وقد شاهَدَ الشاعر السوري نزار قباني الماضي العربي الحاضر دائماً بقوله:

ساعة الرمل التي تبلعكم
في الليل والنهار[١٩]

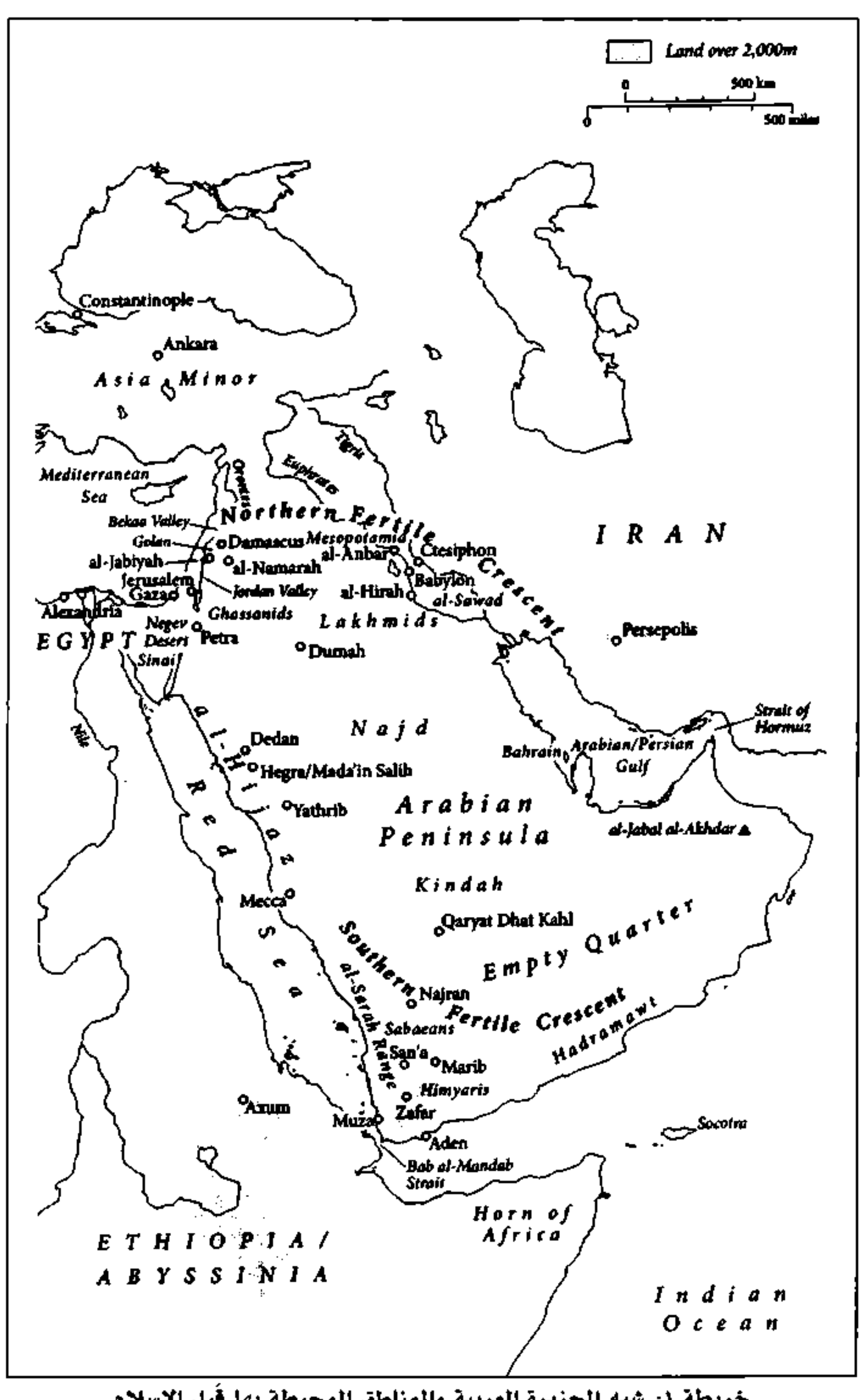
ذلك الماضي هو الرَّملُ في أسفَلِ الساعة يَنتَظِرُ التَّقَلُّبَ التالي للأحدَاث. أدركَ قباني أن التاريخ ليس مُجَرد ساعة زَمَنٍ، أو لُعبةٍ لتمرير الوقت، بل هو لاعِبٌ في حَدِّ ذاتِه، وحاقِدٌ خَبيثٌ أحياناً. إنه الساعةُ الرملية القابِعة لا تَقيس الزمنَ بل تَصبر عليه، حتى يتم قَلبُها مَرَّةً أخرى، وعندها سَتَرى أنَّ حبَّات الرَّمل هي حَيَوات بَشَرٍ أو مَوتهِم، لأن الناسَ هم الرَّملُ المُتَحرِّكُ وضَحاياه في الوقت نفسِه، وساعةُ الرَّملِ هي أيضاً ساعة الأرامِل.

تستطيعُ أن تَعدَّ حبّات الرّمل: قَتَلَت الحرب ٦٦٦٠ مَدَنيّاً في الأرض التي تَبَنَّتْني، وقُتِلَ ٥٠٠٠٠ مقاتِل على الأقل، كثير منهم ليسوا أكثر من أطفال، وربما قَضَى نحو ٨٥٠٠٠ من الأطفال الصغار الجائعين بصَمتٍ ضَحيةَ الفقر، خَليف الحرب القديم. هذه هي الإحصائيات الصّارِخة حتى الآن من الأمم المتحدة ومنظمة ACLED ومنظمة أنقِذوا الأطفال بينما أُنهِي هذا الكتاب في آخر سنة ٢٠١٨. هل كان أولئك الذين قَلَبوا الساعةَ الرملية سيَفعَلون ذلك لو أنهم عَرفوا، أو حتى لو أنهم تَوقَّعوا حدوث ذلك؟.

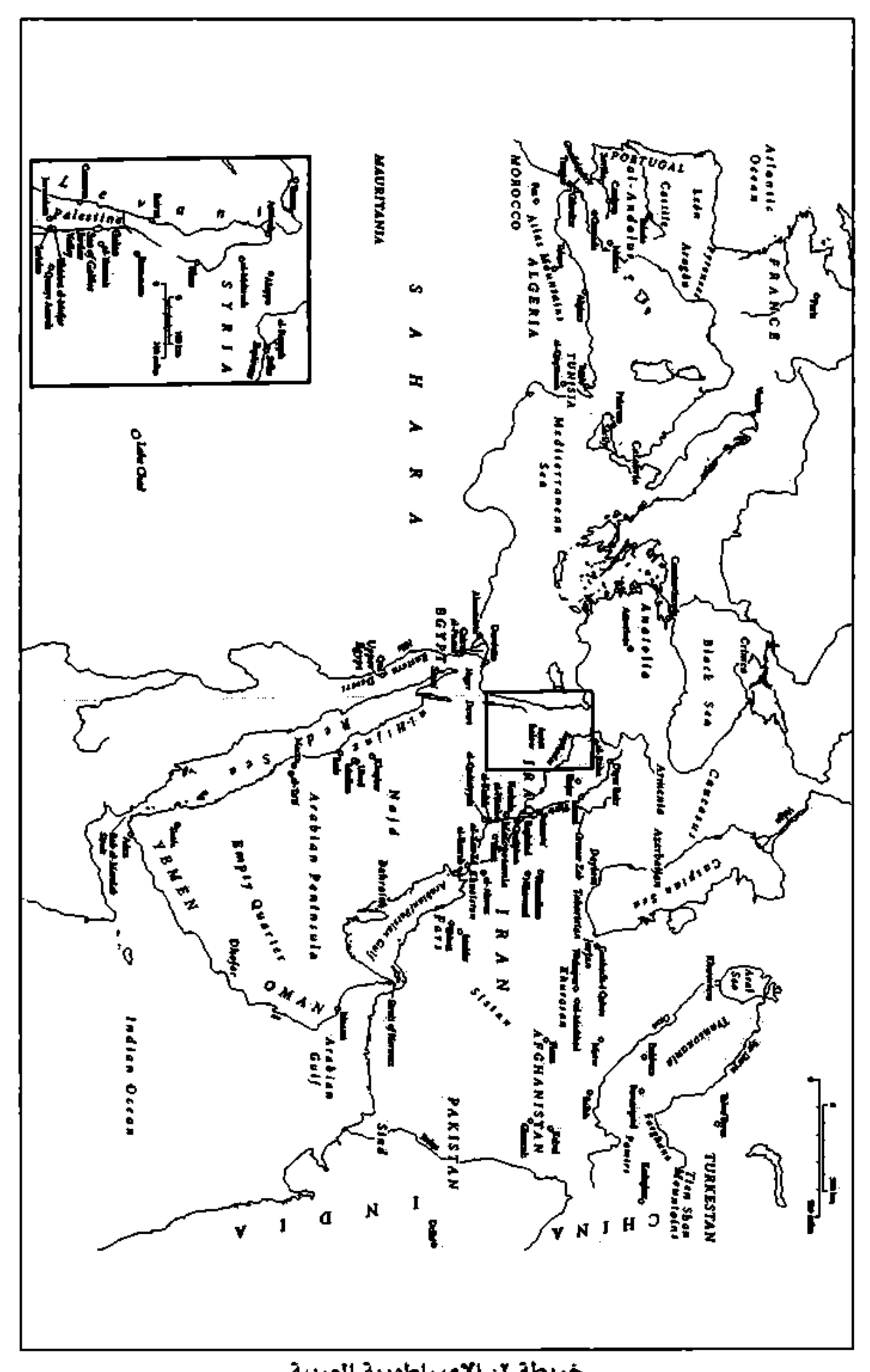
---

(١٨) Ingrams, *The Yemen: Imams, Rulers and Revolutions*, p. 36.

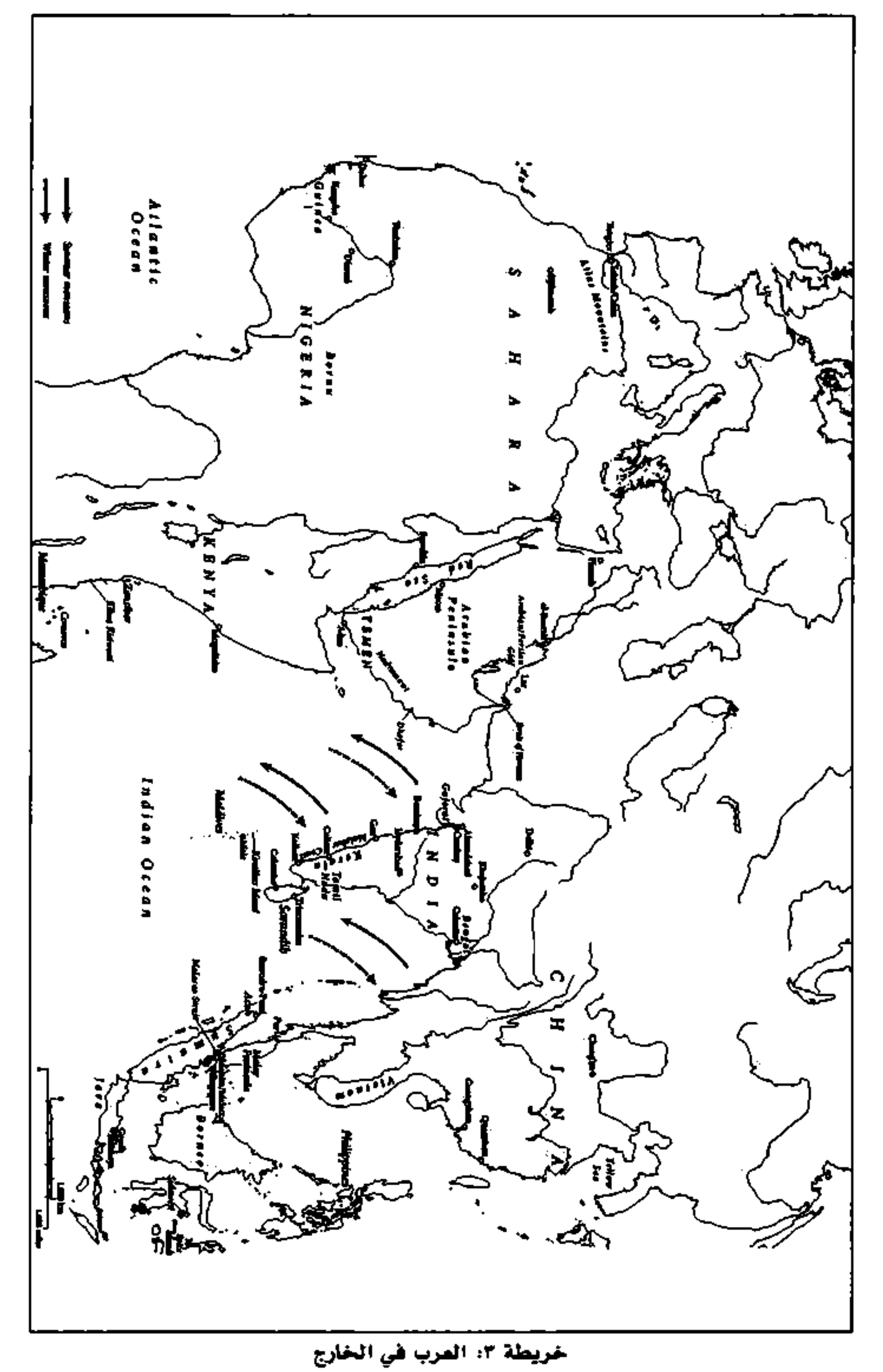
(١٩) نزار قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ٣ ج، ط ١٦ (بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧)، ص ٧٦٠.



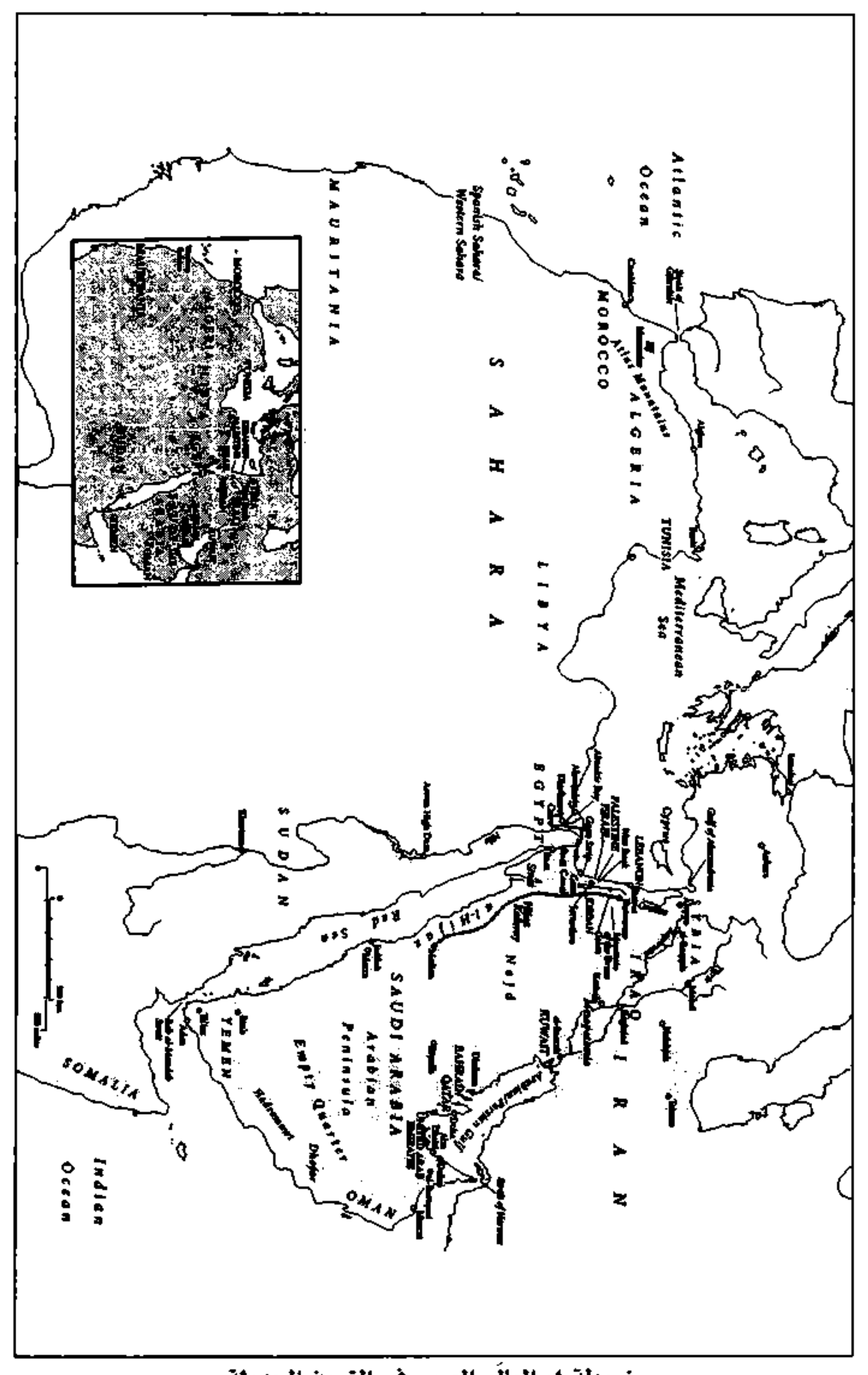
خريطة ١: شبه الجزيرة العربية والمناطق المحيطة بها قبل الإسلام



خريطة ٢: الإمبراطورية العربية



خريطة ٣: العرب في الخارج



خريطة ١: العالَم العربي في القرون الحديثة

مقدمة
جَمعُ الكلمة

«الواجب الرئيسي للشيخ هو جَمعُ كلمة الكُلّ»(١)

بول دريش

الخطباء والمُفترَسون

قَبل شروق الشمس ذات يوم شِتائي في أوائل سنة ٦٣٠(٢)، تأمَّلَ أسيرٌ في المدينة العربية يَثرِب بينما تَجمَّع رجالُ المكان في ساحةٍ خارج زنزانتِه. لم يتمكَّن من تمييز شيء من خلال وَمضاتٍ قليلة من ضَوء القنديل. ولكن عندما وَصَلَ زعيمهم توقَّفَ الهَمس وسَحَبَ الرجالُ أنفسَهم إلى صفوف. أحسَّ الأسير بأن أمراً مهمّاً سيَحدُث، وخطَرَتْ له فكرةٌ أكثر بُرودة من الفَجر: «ما شأنهم يريدون قتلي؟».

لن يكون ذلك مستغرَباً لأن رجال يَثرب كانوا يُغيرون لسنوات عديدة على قوافل التجارة الغنية لجماعة الأسير، وقد قادَ بنفسِه عدَداً من الغَزوات المُضادَّة. قُتِلَ كثيرون وكان هناك دَمٌ وثاراتٌ فيما بينهم. على الرغم من أن اتفاقيةً كانت قد عُقِدَتْ مِن قَبل في تلك السنة وأوقَفَت المُناوشات، إلا أنها

---

(١) Paul Dresch, *Tribes, Government and History in Yemen* (Oxford: Clarendon Press, 1989), p. 100.

(٢) تظهر قصة أبي سفيان في يثرب/المدينة المنورة، في: أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٤٧.

اختُرِقَتْ من قِبَلِ حُلفاءِ قبيلةِ الأسير. ولكن في الحقيقة لم يَتمكّن من التَّكَهُّن بما يمكن أن يَفعله رجالُ يَثرب، فقد كانوا جماعةً مُنفَلِتَةً اختَرَقَتْ حُدودَ القبائل وقادَهم نَذيرٌ مُنشَقٌّ مَحبوبٌ هو ابنُ عَمّ الأسير، ويَصعبُ التَّنبؤ بتصرفاتِهم.

إلا أن ما حدَثَ بعد ذلك أدهشَ الأسير. فقد وَقَفَ النَّذير وحدَه أمام الصفوف وسَردَ شيئاً من التعاويذ الغريبة التي اشتُهر بها، وانحَنى، ثم سَجَد. قلَّدَ رجالُ الصفوف خلفَهُ جميعَ حركاتِه. ظَهَرَ الأمر وكأنما فيه شبه بصَلاةِ المَسيحيين التي شاهدَها الأسيرُ خلال رحلاته التجارية إلى سورية. ولكن هؤلاء الرجال كانوا أكثر دِقَّةً ويبدو أنهم تدَرَّبوا على حركاتِهم حتى تحرَّكوا وكأنهم جَسَدٌ واحد. بينما كان الأسير يُراقِب المَشهد، ردَّدَ في نفسه قَسَماً للإله القديم الذي تَعبُدُهُ قَبيلَتُهُ:

تاللهِ ما رأيتُ كاليوم طواعيةَ قومٍ جاؤوا مِن ها هُنا وها هُنا، ولا فارِسَ الكِرام، ولا الرُّوم ذات القُرون.

كان الأسيرُ زعيم عَشيرة من مَكّة اسمُه: أبو سفيان[٣]. وكان اسمُ ابن عَمِّهِ المُنشَقّ: محمد. وكان الرجال الذين أسَروهُ يُسَمُّونَ أنفسهم: «المسلمون».

كان ما أدهَشَ أبا سفيان كثيراً هو اتحاد هؤلاء الرجال من يَثرب (أو مَدينة رسول الله، أو باختصار: المَدينة، كما أصبَحوا يُسمّونَها تكريماً لقائدِهم). كانوا جماعةً من الرجال من أصولٍ مختلفة لم توحِّد بينهم قَرابَةُ الدّم ولا حتى ادِّعاء مِثل هذه القَرابة كما كانت العادَة في أغلب تَجمّعات القَبائل؛ بل كان بعضُهم في الواقع من قبيلتِه قريش التي انقَسَمَتْ على مَرّ الخمسة أجيال الأخيرة إلى عشائر متَنافِسة. إلا أن أكثرهم كانوا من قبائل استقرَّت في يَثرب منذ زمن طويل، ولكنهم جاؤوا في الأصلِ من جنوب الجزيرة العربية، من اليمن ـ كلمة تعني «الجنوب» ـ وهي أرضُ جبالٍ وأودية

(٣) تؤكد بعض المصادر أن أبا سفيان لم يكن أسيراً، لكنه كان في يثرب/ المدينة المنورة للتفاوض مع محمد. قارن بـ: *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), s. v. "Mu'āwiya".

وغابات وحقول، بعيدة ومختلفة في ألسِنَتِها وعاداتِها. كان هناك بعض اليهود العرب بين صفوف الرّاكعين، إلا أنهم كانوا جميعاً يَتحرّكون ويَستَجيبون كجَسدٍ واحد. لقد نَجَحَ محمد نجاحاً باهراً في تحقيق ما حاوَلَ تنفيذه جميعُ زعماء العرب دائماً، لقد «جَمَعَ كَلِمَة» الناس وحقَّقَ الإجماع وأخرَسَ كل المُعارِضين.

إنّ أبا سفيان، لمّا قارَنَ رجالَ يَثرب بالفرس والروم، كَشَفَ عن واقِعٍ مهمّ. فقد كان أبو سفيان تاجِراً متمرِّساً في التجارة الدولية ولم يكن جاهِلاً بجيرانِ شِبهِ الجزيرة العربية الإمبرياليين المُتحارِبين. كما كان عارِفاً بأن تلك الإمبراطوريات كانت مُنقَسِمة بخلافاتٍ سياسية ونِزاعات طائفية على الرغم من جميع ادِّعاءاتها عن الوحدة الداخلية، ويَشهَدُ هنا أمامَ عينيه مِثالاً للوحدة والإجماع في قَلبِ النزاعاتِ الأبدية في شبه الجزيرة العربية، يَشهَدُ تجمّع الكلمة الذي تَخجَلُ أمامه جميعُ تلك الادعاءات الإمبراطورية.

كان ذلك جيداً جِداً لو استمرّ. ولكن خلال أقلّ من ثلاثة عقود سيَخوضُ ابن أبي سفيان حرباً دموية ضِدَّ صِهر محمد حَولَ مسألةِ السُّلطة والسيطَرة على الناس والدَّخل الذي كان سيُدَوِّخُ رأس التاجر الغني المُسِنّ. ويستمر ذلك الصراع بشكلٍ ما حتى هذه الأيام بأرقام مضاعَفة وتشعبات كبيرة. يُطرَح الصراع أحياناً بمَعانٍ طائفية كصراع بين السّنة والشيعة، بينما هو في الحقيقة مازال يَرتَبط ليس بالعقيدة، بل بقوّى مادية دُنيَوية: السيطَرة على الثروة والسُّلطة والناس والقوة.

غير أنه في تلك اللحظة وَجَدَ محمد مفتاحَين للوحدة؛ المفتاحُ الفَوري كان الإيمان المُشترَك بإله واحِد كما أظهَرَتْهُ صفوفُ المُصلّين. على الرغم من الشَّكل الشبيه بالمسيحي للصلاة وسَجداتِها، إلا أن المَعبود لم يكن مثل إلهِ البيزنطيين والأثيوبيين بالتداخلات اللانهائية لطبيعة المُقدَّس، كما أنه لم يكن مِثلَ إلهِ اليهود تماماً، وربما كان يمكن أن يكون كذلك لو سارَت الأحداث بشكلٍ مختلف، ولكن أغلبَ يهود يَثرب رَفضوا اقتراحات محمد في أيامِه الأولى في المدينة. وبَدَلاً عن ذلك، اتَّخَذَ الإلهُ اسمَهُ من اسم المَعبود الأكبر لبلدة أجداد محمد في مكّة التي كانت إحدى آخر المَعاقل الكبرى لتَعَدُّد الآلهة في الشرق الأدنى الذي كان بمعظَمِهِ مسيحياً أو يهودياً.

أما بالنسبة إلى طبيعة ذلك الإله التي كانت بسيطة إلى درجة قصوى، ومُجرَّدة من جميع الصفات بحيث لا تُثير حولَها الصراع والمُشاحنات؛ بل كانت بسيطة وواضحة مثل صخور الصحراء التي كان البَدو يَجدونَها ويَنصبونَها كأنها آلهة لَهم، بل ربما أبسَط من ذلك. وبالفعل، كان ذلك الإله لا يمكن تَخَيُّلُهُ إلا من خلال خَلقِهِ وكَلِمَتِهِ التي أوحَاها إلى نَبِيِّهِ. غَرَسَتْ تلك الكلمةُ إيماناً مشترَكاً بالله من خلال الصلوات اليومية، كما أنها أقامَتْ وحدة أوسع وأعمَق لا يُعبَّرُ عنها بالقَرابة، بل بالعِبادة.

المفتاحُ الآخر للوحدة، وهو المفتاح الأعظم الذي فَتَحَ القفلَ الأول، كان قوة سيطرة محمد على اللغة، ليس على اللغة المَحكِيّة كل يوم، بل على لِسانٍ حَيٍّ خاص، اللغة العربية العالية [الفُصحى] التي ألهَمَتْ بها الجنّ والأرواح العَرَّافين والكَهَنة التقليديين العرب. غير أنه في حالة محمد كانت اللغةُ موحى بها إليه عَبرَ مَلاكٍ من الإله المجَرَّد هو نفسه الذي اختارَ محمداً ليكون «رسولَهُ الكريم»(٤). تلقَّى محمد كلمةَ الله وجَمعَ كلمةَ الناس. ولكن الله عرف أن الوحدة التي أوجَدَها بينهم كانت فريدةً ومَحكوماً عليها بالزوال. وسواء كان صحيحاً أن محمداً قد ذَكَرَ أن هذه الوحدة ستَتَفرَّق إلى ثلاث وسبعين فرقة(٥)، إلا أنه عرف من القرآن، وهو مجموعَةُ السَّرد الذي أُوحيَ إليه مِنَ الله وبلَّغَها للناسِ بنفسِه، أن الواقع هو التَّفرِقَة:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾(٦).

كان مُدرِكاً كذلك لوجود تَناقُض، فالرسالةُ الشفوية المقدَّسة التي نَقَلَها على لسانِهِ كانت موجَّهَةً بشكلٍ خاصٍّ لأناسٍ يَستطيعون فَهمَها جيداً، وهم البشر الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية، وعَرفوا أو على الأقل تأثَّروا باللغة العربية الفصحى في التنبؤات والشعر؛ أي بكلمة أخرى معظَم قبائل العرب. ربما تبدو هذه نقطة واضِحة جَليَّة، ولكنها نقطةٌ يؤكِّدُ عليها القرآن بشكلٍ متكَرِّر، فمثلاً:

---

(٤) القرآن الكريم، «سورة الحاقة،» الآية ٤٠.
(٥) نقل في مجاميع حديث أبي داود وابن ماجه والترمذي.
(٦) القرآن الكريم، «سورة الليل،» الآيات ١ ـ ٤.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[7].

ولكنّ الشعب الوحيد الذي ذُكِرَ في القرآن بصِفَتِهم عَرَباً، والذين يُتوقَّعُ أنهم سيَتأثّرون بالرسالة أكثر، والذين ستُحَفِّزُ عندهم فوائدَ روحية، سيَكونون أقلَّ مَن سيَتَّبِعها:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[8].

والكلماتُ المقدَّسة تَنزِلُ على آذانٍ صم. ومن المُسَلَّم به:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[9].

ومن المُسَلَّم به أيضاً أن المُفرَدة «أعرابٌ» (وهي جَمعٌ، بينما كلمةُ «عَرَبٌ» تدلُّ على جَماعة... اختلافٌ طفيف) تُستخدَم غالباً للإشارة إلى البَدو الذين كانوا يَعيشون على أطراف مجتمع محمد من التجار المُستقرّين. ولكن على الرغم من ذلك، فإن شخصية الإغارة والغَزو التي حَمَلَها هؤلاء البَدو بالذات هي التي اعتَمَدَتْ عليها النجاحاتُ العسكرية للمجتمع الجديد، والتي ستَمنَحُهُ مع الوقت تَفَوُّقَهُ على الإمبراطوريات المُسِنَّة مِن حَولِه. كان لا بد من دَمجِ البَدو ومهاراتِهم في الافتِراس إلى داخل مجتمعِ المؤمنين.

القرآن هو أقدَمُ كتابٍ عربي، ويبدو أنه يَصِفُ مَفهومَين لِصِفَة العروبة: بلاغةُ اللغة العربية الفصحى، وفَوضَى الناس الذين تَطوَّرَتْ بينهم هذه اللغة. يَستطيعُ العربُ أن يكونوا خطباء ووعَّاظاً، ويستطيعون أن يكونوا مُفتَرِسين. يتَّضِحُ ذلك عند دراسة تاريخ العرب قَبلَ محمد وبَعدَه. مزيجٌ قويٌّ من البلاغة والغَزو حَرَّكَ دَورةَ الوحدة والتَّفرق، ومازال يُحَرِّكُها.

أدركَ محمد أن وحدةً حقيقية دائمة كانت مستحيلةً من دون مَبدأ عظيم واحِد هو المساواة المُطلَقة في عبادة الله. يحتاج توحيد القبائل والعَشائر المُتفرِّقة في شبه الجزيرة العربية إلى التنازل عن السُّلطة، والتنازلُ عن السُّلطة

---

(٧) المصدر نفسه، «سورة يوسف،» الآية ٢.

(٨) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٩٧.

(٩) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٩٩.

لأي شخصٍ أقوى منكَ غير الله القوي المُطلَق هو إقرارٌ بالهزيمة. ولكن، حتى عندما يكون الله هو المُسيطِر، فإن مبدأ المساواة، وهو واحدٌ من أُسُسِ الإسلام، كان دائماً صَعبَ المَنال في الأرض. وهكذا، تَظَلُّ الوحدة سَراباً يلوحُ في الأفق بينما يَجمَعُ الكلمة في الطريق أحياناً بعضُ الزعماء الذين يتمتَّعون بالفصاحة والبلاغة والإقناع، أو ربما بالصوت المُرتَفع، ويَفرضون انسجاماً ووحدةً محفوفَةً بالمَخاطر، ولكن يبدو محتماً أنها تَنهارُ في لَغَطٍ من الخطابات المتنافِسة. الانسجامُ، وهو تَناغُمُ أصواتٍ مختلفة يمتلكُ فيه الجميع حقوقاً متساوية في التعبير وواجباتٍ متساوية في الإصغاء، لم يُسمَع إلا نادراً.

وهكذا كما تَرى كَم هو أمرٌ سَهلٌ، فقد بَدأتُ أنا كذلك في الوسَط، بمحمد وأبي سفيان والإسلام. يبدو أنها «لَحظَةٌ مُضيئة»، أو ربما «اللحظةُ» المُضيئة في تاريخ العرب، إذا أمكَنَ وجودُ مثل هذه الأمور، وهي تُضفي الضَّوءَ على ما جاء قَبلها وما سيأتي بَعدها. المَدينةُ المنورة كذلك هي وَسَطٌ آخَر: لأنها تتوسَّط بين بَداوةِ الجزيرة العربية في الشمال والشرق، وبين حَضَريَّتِها واستقرارها في الجنوب والغرب؛ بين قبائل الأعراب وشعوب جنوب الجزيرة العربية، وهما العنصران الرئيسيان اللذان التَقيا مَعاً مؤقَّتاً في «عروبة» واحدة. ولكن المَدينة كانت بعيدةً عن أن تكون نقطة الوسَط الوحيدة في شبه الجزيرة العربية، ومحمد الذي كان أعظَم مَن جَمَعَ الكلمة لم يكن أول مَن فَعَلَ ذلك. البَحثُ فيما مَضى عن بدايات السَّعي القديم نحو الوحدة يَقتَضي جُزئياً «فَصْلَ الإسلام» عن تاريخ العرب، وتركيز الضوء على الشعب بَدَلاً من رؤيتهم فقط في الخَلفية الإسلامية الغنية التي قد تُشتِّتُ الانتباه؛ كما يقتَضي إعادةَ تَعريب تاريخ الإسلام وتاريخ العرب أنفسِهم لرؤيةِ الإسلام، ليس فقط كالدِّين العالَمي الذي هو الآن، بل لرؤيتِهِ كعقيدةٍ قومية مُوحِّدَة، ولرؤيةِ محمد كبَطَلٍ عربي قومي[10].

يتَّضِحُ أمرٌ آخر إذا عُدنا إلى البداية. اعتبَر فيليب حتّي في كتابه الضخم القديم (ومازال مفيداً حتى الآن) «**تاريخ العرب**» أن اللغة العربية «هي

(١٠) انظر آراء الأرسوزي، في: Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), p. 157.

المَرحلَة الثالثة في سلسلةٍ من الفتوحات» العربية[11] بعد فتوحات السلاح والإسلام. في الحقيقة، كانت اللغة العربية هي الفَتحُ الأول، ليس بالعرب، بل للعرب، فمن دونِها لم تكن الفتوحات الأخرى ممكِنة، ومن دونها لم يكن ممكِناً كتابةُ تواريخ العرب.

المَسعودي هو أحَدُ أفضَلِ المؤرخين العرب الأوائل، وقد شَبَّهَ مهمَّةَ رواية قصة العرب بـ«من وجد جوهراً منثوراً ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنظم منها سلكاً واتخذ عقداً نفيساً»[12].

بعد ١١٠٠ سنة أصبَحَ الكَنز أكبر بكثير عَدداً وتَنوعاً، إلا أن المهمّة مازالت ذاتها. التسلسل الزمني يُثبتُ تَسلسلَ الترتيب، ولكن التصميم النهائي يَعتمدُ على كيفية اختيار المؤرخ للأشكال والألوان المختلفة وصياغَتها معاً، وكذلك إلى حَدٍّ ما على ذَوقِ العَصر. كما أن نجاحَ صياغة العِقد يَعتمد أيضاً على قوة الخَيط الذي يَنظُمُ الجواهر. الخَيط الذي استَخدَمْتُهُ هو اللغة العربية التي سَميتُها «أعمَق الحِبال التي تَنظُمُ وتُشكِّلُ العروبة»[13]. ربما يفيد سَردٌ سريع عَبرَ ٣٠٠٠ سنة منها في الصفحات القليلة التالية قَبل سَردِ الأحداث نفسها، وكثيرٌ من الأحداث المثيرة والبَرّاقة والمُذهِلَة قد صيغَتْ على خَيطِ اللغة. اللغة هي الخَيطُ الخَفيّ، وهي في النهاية ما جَمَعَتْ عليه الوحدةُ العربية نفسَها في كثير من الأحيان.

في البدء كان الشاعر

أطلَقَت الكلمةُ الجامِعَة عَبْرَ ٣٠٠٠ سنة من تاريخ العرب ثلاثَ موجاتٍ من الوحدة، وإذا استَخدَمنا اصطلاحَ ابن خلدون مرة أخرى فإن «العَصَبية» قد اكتَسَبَتْ زَخَمها دائماً من «العربية»[14]، اللغة العربية الفصحى ذاتها، إلا أن قياسَ هذه المَوجات كان أوسَع بكثير من المقياس الخلدوني في القبيلة

---

(11) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 361.

(12) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٤، ص ٣٨٦.

(13) انظر: ص ٢٨ ـ ٢٩ من هذا الكتاب.

(14) انظر: ص ٢٤ من هذا الكتاب.

أو السّلالة. كانت الموجة الأولى قديمة وبطيئة، ولكنها عميقة. كانت موجَةً من الوَعي الذاتي الإثنيّ (العِرقيّ) الذي تزايد على مَدى ألف سنة قَبل الإسلام. وكانت الثانية مَوجَةً طاغيةً من التوسع الجغرافي هو الفتوحات العربية في القَرنَين السابع والثامن ونتائجها، وقد تلاشَتْ بسرعة مثلما بدَأتْ وانتَهتْ في هدوءٍ طويلٍ، ولكنها ترَكَتْ خَلفَها تراثاً لُغَوياً غنياً ومَتيناً. أما المَوجَةُ الثالثة، فقد غذَّتها قوى كامِنة أيقَظَتْها حركاتٌ قومية في أوروبا القَرن التاسع عشر، وكانت مَوجَةَ إعادة اكتِشاف الهُوية العِرقية والثقافية والتَّعبُّدية. مازالَت المَوجة الأخيرة في طَور الانكسار الآن. تُشكِّلُ الموجاتُ الثلاث الأجزاء الكبرى من الكتاب في مجموعات ثلاث غير متساوية في سنواتها ولكنها متساوية تقريباً في عدد صفحاتها: «النشأة» و«الثورة» (٩٠٠ ق.م ـ ٦٣٠ ب.م)، و«السيطَرة» و«الانحِدار» (٦٣٠ ـ ١٣٥٠)، ثم «الكسوف» و«النهضة» (١٣٥٠ حتى الآن).

بداياتُ الموجة الأولى من الوَعي الذاتي مُبهَمَةٌ وغير مُحدَّدَة ويَصعُبُ تَحديدُها زمنياً. يبدو أنه مع زيادة القدرة على التَّحرك بتَدجين الجِمال وتدريبها على حمل البضائع، ومع اشتِغال العرب في النَّقل البعيد والتجارة، كان يجب أن تتطورَ لُغَةٌ يمكن التفاهم بوساطتها بين مُتَحدِّثين بلهجات عربية شمالية مختلفة (تحدَّثَ سكان جنوب الجزيرة العربية بمجموعة مختلفة من اللغات المُرتَبِطة بشكلٍ بعيد، ولكنها غير مفهومة للعرب الشماليين، وكان الفرقُ بينها يُشبه الفرقَ بين اللغة الألمانية واللغة الإيطالية). بعد ذلك، وفي فترةٍ قَبلَ القَرن الخامس بكثير، وربما في وسَط شبه الجزيرة العربية، تشكَّلَتْ كذلك لُغةٌ «عُليا» من اللغة الشمالية الموحَّدَة. لم تكن تلك اللغة «العربية» اللغةَ المَحكِيَّة اليومية، بل نوعاً من «اللسان السّحري» الذي استُخدِمَ في «النُّبوءات وإنشاد الشّعر»[١٥]. وكلُّ مَن كان ماهِراً في استِخدام هذا اللسان استطاعَ جَذبَ الأتباع، وكان الشعراءُ أعظَمهم، ولكن ربما كان قَبلهم ما يُشبِهُ العَرَّافين أو الكَهَنة. وفي زمن الغزوات، كان الشاعرُ يَلعبُ أيضاً الدَّورَ الذي وَسَمَهُ به الأديب وِثمان، وهو دَورَ شاعر القبيلة «أكبر قوةٍ قاتِلة في

(١٥) Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), p. 40.

الحرب... يَستطيعُ أن يَجعلَ كلَّ كلمة يقولُها سلاحاً قَتَّالاً»[١٦].

الغبارُ الذي أثارَهُ اندفاع دخول الإسلام في سهوب التاريخ يَمحِي كثيراً مما كان موجوداً قَبلَه، ولكن تتَّضِح بعضُ السِّمات في الغَياهب التي تَمتَدُّ من ذلك الذِّكرِ الأول للعرب سنة ٨٥٣ ق.م إلى ظُهورِهم المُفاجئ في ضوء المَسرح العالمي. كان الوجودُ البشري في كثير من أرجاء شبه الجزيرة العربية المبكرة بِشكلِ مجموعاتِ النَّسَب المتحرِّكَة والمتَجَزِّئة والمُتقَطِّعَة التي تَنتَقل في ظروفٍ قاسية، وتَنقَسِمُ بطبيعَتِها، وتَتَنافَسُ في سبيل البقاء. تم تقسيم الزمن بحسب أسماء الأجداد وليس بحسب آثارٍ مُشيَّدَة أو سنواتٍ مُسَجَّلَة. ومع نهاية الألف الأول قَبل الميلاد، بدأتْ أطرافُ هذا المجتمع المُتَنوِّع (إذا أمكَنَ تَسميتُهُ كذلك) تأخُذُ شَكلَها بفَضل احتكاكِها بالإمبراطوريات المُجاورة، الرومانية والفارسية والعربية الجنوبية حيث توجَدُ أرضٌ خصبة وجبالٌ في أخمَصِ منحدراتِ شبه الجزيرة، وحيث حَكَمَتْ إمبراطوريةُ سَبَأ وما جاء بَعدها على شَعبٍ حَضَري مستقرّ.

تُفَضِّلُ الإمبراطورياتُ بحُكم طبيعتها الهَرَمية أن تتعامل مع سلسلة قيادَةٍ عمودية واضحة على التعامل مع هياكِلَ أفقيةٍ من القبائل والعشائر. وهكذا بدَأتْ تَظهَر ترتيبات هَرَمية بين العرب من خلال الاعتراف بها من جِهة القوى العظمى، مثل زعماء القبائل ثم «ملوك العرب». بدَأت الحياة البَدوية الهَيولية القديمة بالاستقرار على الأطراف، وبدأ الملوكُ بالحُكم من مَراكز بين طُرُق الصحراء والأراضي المَزروعة التي كانت نصفَ مخيمات ونصفَ عواصم. كأنما كان المجتمع في الأراضي العربية في شمال ووسط شبه الجزيرة العربية يبدأ بالتماسك من الخارج إلى الداخل مِثل شَمعٍ في قالَب. وإذا كان الملوك يحتاجون إلى اعترافٍ مِن جيرانِهم، فهم يحتاجون إليه كذلك مِن شَعبِهم، فَهُم يعيشون على المَديح والدعاية، وهما مادة الشعراء في مَظهَرهم الأخير. ومن هنا جاءَت اللغة الفصحى وأخذَتْ شَكلَها الذي هو عليه الآن. حَمَلَت اللغةُ أيضاً إمكانية شعور أعمق بالوحدة. أدركَ هيردر Herder، قوة الشِّعر، ويُعتبر هيردر أحَد المُنظِّرين المؤسِّسين للقومية الأوروبية الحديثة. كتَبَ

(١٦) Walt Whitman, *The Portable Walt Whitman*, edited with an introduction by Michael Warner (New York: Penguin, 2004), p. 34.

سنة ١٧٧٢: «الشاعِرُ خالِقُ الأمّة مِن حَولِه، فهو يَمنَحها عالَماً يمكن رؤيته، ويَحمِلُ روحَها في يَدِهِ لقيادَتِها إلى ذلك العالَم»(١٧).

كان ذلك العالَم مازال جديداً في أوروبا هيردر، وفي بعض مناطق فرنسا آنذاك مثلاً «كان الانتقالُ مَسيرةَ يومٍ في أي اتجاه يَجعَلُ التفاهمَ غير ممكن»(١٨)، وكانت فكرة لغة قومية واحِدة بعيدةً عن التنفيذ؛ إلا أن ذلك لم يكن الوضع في العالَم العربي. أما رينولد نيكلسون Reynold Nicholson الذي أدركَ الحالَةَ بشَكلٍ أفضَلَ مِن كثيرين فقد كان مُحِقّاً بقولِهِ إن الشِّعر قد جَعلَ العربَ «أمّةً، أخلاقياً وروحياً، قَبلَ محمد بكَثير»(١٩).

لم يتحدَّثْ أحدٌ بالطبع بلُغَةِ الشّعراء في الحياة اليومية، وكانت «القومية» فكرةً شاعرية وفكرة موجودة فقط في الخَطابة والبيان، وكانت دائماً كذلك.

الكلمة تَنتَشر

في القَرن السادس، بينما كانت تَتشَكّلُ عمليةُ تكوين الهوية والاستقرار الجغرافي وبِناء الأمة الروحي وتَجمَعُ زَخمَها، كانت القوى حول شبه الجزيرة العربية تَتقاتَل: الرومان البيزنطيون ضد الفُرس، وإمبراطورية أكسوم [الأثيوبية] ضد الحِميَريين في الجنوب. بينما تحطَّم القالَبُ الإمبراطوري مِن حَولِهم، انهارَ مجتمعُ العرب الذي كان يَتشكَّل. وفَقَدَ ملوكُ العرب سَبَبَ وجودِهم عندما خَسِروا دَعمَ مُسانِديهم الإمبراطوريين. وخَسِرَ العرب أداةَ تَعريفِهم، وأعيدَت البَداوة في شبه جزيرة العرب في جَوٍّ متحركٍ من الخطابات المتنافِسة، وكلُّ قبيلة لها شاعِرها، وتَكاثرتْ مِهنَةُ الكلمات، وتَخصَّصتْ، وظَهَرَ خطباؤها ووعَّاظُها وكَهَنَتُها وعَرَّافوها ومُتَنَبّئوها.

ومِنْ خَميرةِ الكلمات والتَّنبؤات جاءَ محمد. إلا أنه نَقَلَ البلاغة والخَطابة نَقلةً هائِلة أبعدَ ممَّن سَبَقوه، وما أصبَحَ الإسلامَ {فيما بَعد}، تَمَكَّنَ

---

(١٧) Johann Gottfried von Herder quoted in: Neal Ascherson, *Black Sea: The Birthplace of Civilisation and Barbarism* (London: Farrar, Straus and Giroux, 1996), p. 205.

(١٨) Graham Robb, *The Discovery of France* (London: Picador, 2007), p. 14.

(١٩) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 72.

باللّغة {في الأساس}(*). ليس فقط بعالَم القرآن الجديد المُثير الصوتي - الروحي الذي نَشَأتْ لُغَتُهُ مِنَ اللغة العربية الفصحى القديمة المُوحى بها، ولكن كذلك من استِخدِام الشعارات، وأهمُّها نِداء: الله أكبر، الذي أعلَنَ قوةَ إلهِ مكّة القديم الأعظَم. كان محمد رسول الله والموفَد مِنه.

وكما عَبَّرَ عن ذلك ابن خلدون، فإن محمداً «جَمَعَ العربَ على كلمة الإسلام»[٢٠]. كان المِثال الأساسي لِعَمَلِ شيخ القبيلة الأساسي: جَمْع الكَلِمَة. وكان المِثالَ الكامل لكيفية استِخدام الكلمات لنَشرِ الأفكار فوراً، ولزَرعِ تلك الأفكار في العقول. وربما كان في الواقع المِثال الأعظَم في تاريخ البشرية عن كيف أنَّ اللغة هي التي تستطيع كَسبَ التفوق، وليس المَصلَحَة الذاتية الدَّارونية والقوة الجَسَدية[٢١]؛ وذلك لأنه خلال أقلَّ مِن مئة سَنة بَعدَ دَهشَةِ أبي سفيان من الانضِباط الذي بَثَّهُ محمد، كانت القوى العربية المُسلِمة قد فَتَحَتْ، أو ربما الأصح قد غَزَتْ واحتَلَّتْ بشكلٍ غير مُكتَمِل، منطقةً أكبر بكثير مما بَلَغَتْهُ الإمبراطورية الرومانية في أوجِها. وبَعدَ عُقودٍ قليلة، أصبَح العربُ قوةً عالمية، عاصِمتُها الجديدة بغداد، التي تَنفَتِحُ بواباتُها الأربَع إلى الجِهات الأربع من العالَم المَعروف. كما أصبَحَت اللغة عالمية أيضاً، تؤسِّسُ ثم تَربُطُ بأسرع مما تستطيعُهُ العقائدُ الدينية[٢٢] أرجاءَ الإمبراطورية العظيمة الثقافية الثابتة التي تسمى: الإسلام.

في الوقت نفسه كان العرب ضحايا نجاحِهم، فاللغةُ التي مَنَحَتْهم الوحدة الثقافية قَبل الإسلام، والوحدة السياسية تحت ظِلِّ الإسلام، قد دَمَّرَتْ تلك الوحدة الآن؛ فاللغة العربية الفصحى القديمة التَّنَبُّئِية الشاعرية التي كانت «العَلامة» العِرقية المُمَيِّزة العليا، قد أصبَحتْ بَعدَ أجيال قليلة وِعاءَ الثقافة والعِبادة والإدارة في الإمبراطورية، والكلمةُ التي جَمَعَتْ ذات

(*) ما بين { } هي إضافة من المترجم لمزيد من التوضيح.

(٢٠) أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ - ١٤٠١**، عارضها بأصولها وعلّق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي؛ حررها وقدم لها نوري الجراح (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ أبو ظبي: دار السويدي، ٢٠٠٣)، ص ٣٩١.

(٢١) انظر أفكار مارتن نوفاك، في: Martin Nowak, *Supercooperators: Altruism, Evolution, and Why We Need Each Other to Succeed* (New York: Free Press, 2011).

(٢٢) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 93.

يوم، تَوزَّعَت الآن على طَيفٍ واسِع من المُستَعرِبين مِن جبال باميرز [في آسيا الوسطى] إلى جبال البيرنيه [في إسبانيا]. كان العرب في كل مكان من الناحية العِرقية، أما من الناحية اللغوية فإن لِسانَهم رَبَطَ هذه الثقافة المُترامية الأطراف بِذَوقِها المتميّز، إلا أنهم أنفسهم أصبَحوا غَيرَ مَرئيين، وذَابوا في إمبراطوريتهم مثلما يَذوبُ الملح في ماء البحر.

يمكن مشاهدة تصويرٍ حَرفيّ متأخِّر لهذا الغياب في كتاب يوجين روغان Eugene Rogan «**تاريخ العرب**»، الذي يُغطّي الفترة ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠: أولُ صورتَين ليسَتا للعرب، بل لوحات فلورنسية لأتراك. وكما سَنَرى، فإن قُرونَ «الغياب» قد أخفَتْ في الحقيقة توسّعاً عربياً لا يَقلُّ رَوعةً في مَداه عن ثورة الإسلام الأولى؛ بل ربما أكثر رَوعَة لأنه كان هادئاً، غَيرَ أنه كان توسُّعاً عَبرَ الباب الخَلفي للعالَم العربي: المحيط الهندي. أما في بقية الأماكن، فقد ظَلَّ العرب في أماكِنِهم وراقَبوا آخرين وهُم يقومون بأعمالِ بِناء امبراطوريات.

قد يكون للتاريخ نَوعٌ من «القواعد» التي يمكن إعرابُها بحيث إنَّ معظم العرب الذين كانوا فعَّالين و«حاضِرين» في العالَم قد غَرِقوا في صِيغَةِ «مَجهولٍ» طويلة، وعاشوا في «الماضي». في مصطَلحات الإعراب العربية قد يكون الفاعلُ «مَبنِياً للمَجهول»، وإلى حَدٍّ ما، فَقَدَ العرب اسمَهم واختَفوا «مجهولين» في شمولية المسلمين الكبرى.

يقظة الكلمة

انتهى الغياب كذلك بالكلمة. ومثلما أعادَ الألمان والطليان اكتشافَ هويتهم القومية في الأدب قَبلَ أن يُحاوِلوا فَرضَها في السياسة، فقد كان الشعراء هم الذين أَطلَقوا صرخةَ العرب، فمثلاً يُنشِدُ إبراهيم اليازجي سنة ١٨٦٨:

تَنبَّهوا واستَفيقوا أيها العَرَبُ   فقد طَمى الخَطبُ حتى غاصَتِ الرُّكَبُ[٢٣]

---

(٢٣) al-Yaziji, *Diwan*, quoted in: George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (London: Routledge, 1938), epigraph.

ولكن الطريقَ إلى «القومية» بالنسبة إلى العرب من الغياب إلى الإجماع الجديد ستكون صَعبةً وشاقَّة. انطَلقتْ «النهضة» في القَرن التاسع عشر، بمَعنى «القيامة» أو «الصحوة» (التي يسميها الغربيون عادة «الميلاد الجديد» أو «الإحياء»)، وانبَعثتْ من أفكار أوروبية سَبَقَتْها في القومية اللغوية ـ العِرقية ـ الجغرافية؛ إلا أنها كانت في معظمها صَحوةَ النُّخبَة، بينما ظلَّتْ غالبيةُ العرب نائمةً. كما ظَهَر أن العنصر الثالث من النموذج القومي الأوروبي (الجغرافيا) سيكون مُشكِلَة. خاطَبَ اليازجي وزملاؤه من المفكّرين والشعراء مُستَمعينَ وصَفوهم بأنهم عرب بشكلٍ خاص لأنهم يَتحدَّثون باللغة العربية. وجَدَ هؤلاء الكتّاب القوميون أنفسَهم كخالِقي واقع عربي مُجدَّد: كانوا يَنتَمون إلى التقاليد الأوروبية الحديثة لِمُنَظِّرين من أمثالِ هيردر Herder، وفي الوقت نفسه إلى تقاليد العَصر العربي البعيد قَبل الإسلام، عصر تأسيس الإثنية العِرقية العربية. ولكن ما كان قابلاً للتحقيق في شبه الجزيرة العربية القديمة، وما كان يَحدُثُ آنذاك في الدول القومية في أوروبا الجديدة، سيكون تَحقيقُهُ أصعَب بكثير في المنطقة الواسعة الناطقة باللغة العربية التي توسَّعتْ مع الإسلام وامتدَّتْ حول رُبع محيط الكرة الأرضية تقريباً. كانت المنطقةُ الناطقة بالعربية واسِعة جداً ومُتَبايِنة جداً، ولا سيما اقتصادياً، لكي تشكِّلَ كُلّاً مُستقِرّاً. كانت الإمبراطورية العثمانية التي حاوَلتْ حُكم أغلب أرجاء تلك المنطقة الواسعة قد أصبَحتْ مُتهالِكة الآن بعد قرون من الجُهد. لم يُساعِد على تحقيق آمال توحيد المنطقة ما حَدَثَ بعد الحرب العالمية الأولى من تقسيم لِجُثَّةِ الإمبراطورية العثمانية بين القوى المنتصِرة، إضافة إلى الإسفين الصغير المؤلِم الذي غَرَسَهُ المشروع الصهيوني في قَلبِ العالَم العربي، والاكتشاف المُتزامِن بأن أكثر الأجزاء فَراغاً على الخريطة يَحتوي أغنَى آبارِ النفط، فحُدِّدَت الحدود واحتدّت الخناجر.

فَشِلَت القوميةُ في توحيد كلمة العرب وفي توحيد عالَم العربية. وفي العُقود الأخيرة، طارَدَ بعضُ العرب سَرابَ الوحدة على الطريق القديمة التي قادَتْ إلى الإسلام، ولكن في هذه الأيام مازالت اللغة والهوية ومثالية الوحدة متشابِكة مثلما كانت في عصور شِعر المَديح قَبل الإسلام وفترة الوحي القرآني. ومازالت اللغة العربية الفصحى «يَعتَبِرها أغلبُ العرب أهمّ

عامِلِ توحيدي في العالَم العربي»[٢٤].

على الرغم من أنه لو كتَبَ معظم الناس بالفصحى (أو حاوَلوا ذلك ولَم ينجَحوا)، فإنّ المشكلةَ هي أنه لا أحَد يتكلّمُها عملياً، ولا يَستَخدِمها أحَدٌ كلغتِهِ الأمّ منذ ذلك الوقت الضّبابي الذي تشكَّلتْ فيه. العربيةُ الفصحى هي رابطةٌ خيالية، ولكنها قَيدٌ كذلك، لأنها مِثالٌ لا يمكن الوصول إليه، يُقيّدُ التَّعبيرَ الحُرّ. الواقعُ هو اللهجة والانقسام. لم يتَّحد العربُ أبداً بالكلام ولا بأي شكل آخَر غير الخطابات، ولكن ليس بالكلمات الحقيقية في العالَم الواقعي، فقط على الورق.

يَشترَكُ باللغة الفصحى أكثر من ٤٠٠ مليون إنسان بصِفَتِها الشَّكلَ الأدبي المِثالي للغتهم المَنطوقة (إضافة إلى ١,٤ بليون مسلم يَعتَبرونها لغتَهم الطُّقوسية). يختلفُ الوضعُ على الأرض. فحتى في دَولةٍ صغيرةٍ مِثلَ تونس، حيث يعيش ١١ مليون إنسان، هناك أربَعُ مُفرداتٍ مختلفة في لَهجاتٍ مختلفة للتعبير عن الضَّمير «أنا» (وهي: اني، أني، نا، ناي)[٢٥]. حالَةٌ أخرى أكثر وضوحاً في البحرين، دَولةُ الجزيرة الصغيرة التي مساحَتها نحو ٦٦٠ كيلومتراً مربّعاً، حيث يتحدَّثُ غالبيةُ المَحكومين الشيعة (البَحارنة) بلهجَةٍ حَضَرية، بينما يتحدَّثُ غالبيةُ الحاكِمين السّنة (العرب)، الذين سَيطَروا بَعدَ غَزو سنة ١٧٨٣، بلهجةٍ بَدَوية[٢٦]. وبِغَضّ النَّظر عن الطائفية، فما هي فُرصَةُ الوحدة حتى في مَملَكة أصغَر من جزيرة مول [في غرب اسكتلندا] عندما يتحدَّثُ أهلُها بلِسانَين مختلفَين[*]؟

كتاب العَصَا

اعتَقَد الجاحظ، خَبيرُ القَرن التاسع في شؤون العروبة، وآمَن بأن اللغة

---

(٢٤) Versteegh, Ibid., p. 196.

(٢٥) منصف المرزوقي، «أي لغة سيتكلم العرب القرن المقبل؟،» الجزيرة. نت، ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١، <https://bit.ly/3Cgtz8O>.

(٢٦) Jonathan Owens, ed., *The Oxford Handbook of Arabic Linguistics* (Oxford: Oxford University Press, 2013), pp. 434 and 437.

(*) [هل هما لسانَان مختلفَان فعلاً؟! وألم تكن البحرين ولم تزل دولة موحدة فترة طويلة من الزمن على الرغم من اختلاف اللهجتين؟!] (المترجم).

هي أهم «صفات الأمّة» التي كانت موضوع كتاباته. كما أدركَ أهمية جَمعِ الكلمة وخَصَّص لها كتاباً صغيراً ولكنه مُهمٌّ أطلَقَ عليه اسم **«كتاب العَصَا»**. كان هذا الكتاب ذو العنوان الغريب رفضاً لحركَةٍ معارَضةٍ متَنامِيةٍ ظَهَرتْ بشكلٍ رئيسي بين المسلمين من أصول فارسية الذين ادَّعوا بأن رسالةَ المساواة والانسجام التي بَشَّرَ بها النبي محمد قد تم هَدمُها بِيَدِ الأسيادِ العرب الذين اتَّصَفوا بكونِهم أجْلاف القبائل وأصحاب الأصوات العالية الذين تعوَّدوا على الصُّراخ وهَزِّ العَصَا.

دافَعَ الجاحظ عن تقاليد العرب بتَمجيدِ العَصَا التي كانت تَضرِبُ ظُهورَ العرب. قالَ إن العَصَا كانت وسيلةَ القوة منذ أن تَحوّلَتْ عَصا موسى بمعجزةٍ إلى أفعَى. العَصا هي عَصا الساحر، وصَولَجان الحَاكِم، ورَمزُ الخَطيب ودعامَته. والعَصا تقودُ الناس، وهي مَجازٌ أدبيّ يُستَنَدُ إليه، وهي عَصا النار التي تُشعِلُ ثورات، والهراوة التي تُطفِئها. وسَّعَ آخرون صورَ الجاحظ أكثر بقولِهم إنّ العَصا بشكلِ قَلَمِ القَصَب الذي يَستخدِمُه الكاتِب يمكن أن تَنشُرَ البَلسَم والسُّم:

وأخش اليراعة وارجها فهي التي

عرفت بنفث السم والدرياق[٢٧]

العَصَا هي الاستعارَة الكاملة لقوة الكلام والسيطَرة على الناس وكلِ مَفهومِ جَمعِ الكَلمة. وما إن تَجتَمع الكلمة وتُفرَضُ الوحدة، فإن القتال ضِدَّ الوحدَة «هو شَقُّ العَصا»[٢٨].

لم يكن هؤلاء المُعارِضون الفُرسُ وحدَهم، فقد اجتَمعَ المسلمون من أصول قبطِية وبَربَرية وإسبانية وغيرهم عَبرَ أرجاء الإمبراطورية العربية وعارَضوا عَدَمَ المساواة، واتُّهِموا بمُحاوَلة شَقِّ العَصا. ولكن مع مرور الزمن أمكَنَ استيعابُ، بل ودَمجُ معظم تلك الجماعات المُنشَقَّة، ولا تَستمرُ

(٢٧) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ٤٣١.

(٢٨) Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), s.v. 'ṣw.

الذكرياتُ العِرقية طويلاً كما يَظُنُّ المَرء. إلا أن الفُرس أعادوا التأكيد على تاريخِهم واستَرجَعوا لغتهم وثقافتهم، ومازالت علاقاتُهم بجيرانِهم العرب مَشوبَةً بالاستياء.

أما في الأراضي العربية، فهناك مشكلةٌ أساسية عامّة باقية حتى الآن، لأن النجاح في جَمعِ الكَلمة لا يَعتمِدُ بالضرورة على الحقيقة الموضوعية لتلك الكلمة. لا شك بأن التَّلاعب العام بالحقيقة ليس احتكاراً عربياً بالطبع، ولكن اللغةَ العربية بالذات ماهِرةٌ في ذلك. وكما لاحَظَ ابنُ خلدون فإن «الشِّعر والنَّثر يتعامَلان مع الكلمات وليس مع الأفكار، والأفكارُ تابِعَةٌ للكلمات»(٢٩) [غير حرفي]. باختصار، إذا حفَّزَت البلاغةُ عدَداً كافياً من الناس، وخَلَقَتْ وحدةَ الجَماعة فذلك دَليلٌ كافٍ على صحَّتِها. المَثَلُ الرئيسي بالعربية هو مَعجِزةُ القرآن: إنه معجزةٌ وحقيقةٌ لأن كثيراً من الناس يؤمنون به.

إلا أن أعمالَ الناس الإيمانية لا تَنحَصر بالإيمان بالخِطاب المقدَّس وحدَه. لاحَظَ أدونيس، الشاعر والكاتب السوري، أنه بسبب «العلاقة العضوية» بين الدِّين والسياسة «تُصبِحُ السياسةُ نوعاً من التسليم وعَمَلاً إيمانياً في النظام الحالي، وأيُّ عملٍ آخر يساوي التَّمرد والتَّجديف»(٣٠) [غير حرفي].

وفي سياقٍ آخر، يُتابعُ التفسير أبعَدَ من ذلك بقولِهِ إنّ «التوحيد» هو مسألةٌ دينية وسياسية «إن فَهمَ كيف يَعمَل هذا التوحيد في المُستَويَين هو أول قاعدة في فَهم طبيعة السُّلطة في الإسلام، وفَهم تاريخ العرب»(٣١) [غير حرفي]. أو بكَلمة أخرى فإن قولَ «نعم» لكل ما تقولُهُ السُّلطة أو تفعَلُهُ يساوي قولَ «آمين» لأوامر الله(٣٢)، وإن الانضباطَ غير العادي الذي شاهَدَهُ

---

(٢٩) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 450.

(٣٠) Adonis, *An Introduction to Arab Poetics* (London: Saqi Books, 2003), pp. 83-84.

(٣١) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ١: **الأصول**، ص ٣١.

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ٢٣٣.

أبو سفيان في المَشهد الذي وَرَدَ في بداية هذه المقدمة قد فَرَضَ نفسَه على الحياة المَدَنية كأمرٍ مقدَّس: المُعارَضَةُ تَجديفٌ. هذا على الأقل هو ما يبدو أنَّ القادَةَ العَلمانيين يَعتَقدون به.

يؤيِّدُ عِلمُ أصول الكلمات هؤلاء القادَة، لأن أساسَ دلالة كلمة «السياسة» مختلفٌ تماماً في اللغة العربية. ليس في الأصل اللغوي لكلمة «السياسة Politics» في اللغة العربية ما يتعلق بالعَيش المشترَك في «المَدينة Polis»، فالسياسة بمَعناها الأولي تدلُّ على «إدارة وتدريب الخيول والجِمال وغيرها»[٣٣].

بسبب ذلك، فإن فكرة صَوتِ الفَرد (رأيِ الفَرد) تصطَدمُ تماماً مع جَوهر «السياسة» ومع الكلمة المُجَمَّعَة. هناك بالطبع مناطق أخرى في كوكب الأرض يُقمَع فيها تَنوُّعُ التَّعابير والآراء، ولكن قوةَ البلاغة والخَوف مِن شَقِّ العَصا قويةٌ جداً في عالَم العربية، بحيث يكون القَمعُ أسهَل بكثير.

كانت انتفاضات سنة ٢٠١١ مَسرَحاً سُمعَتْ فيه أصواتٌ مُنفَرِدَة لفترة فَصلٍ قصير، وكتَبَتْ أهداف سويف عن المُتظاهِرين في ساحة التحرير بالقاهرة: «كلُّ شخص، كلُّ واحدٍ هنا، أصبَحَ خطيباً. لقد وَجَدنا صَوتَنا»[٣٤]. والآن مَرة أخرى، تَمَّ قَمعُ جميع هذه الأصوات تقريباً وأغرقَتْها الكلمة المُجَمَّعَة.

التَّوريق [التَّفَرع النَّباتي]

هناك نوعٌ آخر من الوحدة أكبر من التَّضامن المؤقَّت والسياسة التي تَخلُقُها البلاغة والخَطابة، وتوضِّحُ مَعناها حكايةٌ من أوائل القرن التاسع في مدينة الكوفة بالعراق، حيث كان ابن الأعرابي [أبو عبد الله بن الأعرابي] يَعقِدُ مجلسه الأدبي المعتاد (اسمه هو مُفرَدٌ من الأعراب، أولئك البَدو الذين

---

(٣٣) Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon*, s.v.'ṣw. Siyasah also went through a long period meaning, additionally, 'non-canonical punishments inflicted by a ruler to maintain his authority': *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Siyāsa.

(٣٤) Ahdaf Soueif, *Cairo: My City, Our Revolution* (London: Bloomsbury, 2012), pp. 145-146.

ذُكِروا في الآية القرآنية السابقة)، وكان خبيراً مشهوراً باللسان العربي الصافي الذي يَنطق به سماتُه الأعرابيون البدويون، وكان قد كتَبَ كذلك في تاريخ قبائل العرب وأنسابها، وفي الشعر العربي، وأنساب الخيول العربية، وتلقيح النَّخيل، وكثير من المواضيع الأخرى التي تهمّ العرب. قالَ أحدُ تلاميذه الذين حَضروا مَجلِسَه عشرةَ أعوام إنه خلال تلك الفترة لم يُشاهِد أبداً كتاباً في يَدِ ابن الأعرابي على الرغم من أنه كان يُملي من الذّاكرة «حِملَ بَعيرٍ من الكُتُب» [غير حرفي].

بعد انتهاء محاضَرتِهِ الرئيسية ذاتَ يوم، لاحَظَ ابن الأعرابي غريبَين يَخوضَان مناقشةً حامية حول موضوع حديثِهِ. سألَ: مِن أين أتَيا؟ واتَّضح أن أحدَهما جاء من منطقة تركستان [على حدود مملكة تانغ الصينية]، بينما جاء الآخر من الأندلس في غرب أوروبا البعيد. ارتفَعَ ابن الأعرابي إلى المناسَبة وأنشَد بَيتاً من الشِّعر القديم عن لقاءِ صاحبَين من منطقَتَين بعيدَتَين:

رفيقان شتى ألّف الدهرُ بيننا   وقد يلتقي الشتى فيأتلفانِ[٣٥]

وصَفَ الشاعِرُ القديم لقاءً بين رجلَين من أطراف شبه الجزيرة العربية، غير أن التلميذَين المُحبَّين للثقافة العربية في مجلس ابن الأعرابي قَدِما من طَرَفَي أوراسيا وفَصَلَ بينهما نحو ٧٠٠٠ كيلومتر. ولكن مازال هناك شيء أكثر إثارة للدهشة في الحكاية، وهو أصلُ «ابن الأعرابي» نفسه؛ فبِخِلافِ كَونِهِ من نَسلِ بَدَويّ أو كونِه من عِرقٍ عربي، فقد كان ابنَ رَقيقٍ من بلاد السِّند، وهي جُزءٌ من دولة باكستان الحالية. وقد اكتَسَبَ اسمَهُ من مَعرفَتِهِ بكل الأمور العربية.

لم تكن أعظم إنجازات العرب الجَمعَ العابِر لكلِمَتِهم، بل نَشرَها. كان الانتشار عالمياً وامتدَّ أكثر من ألف سنة. عَصَا الخطباء المَجازية هي أيضاً من جذور ثقافةٍ زُرِعَتْ في شبه الجزيرة العربية القديمة ولكنها انتَشرتْ أفقياً في المكان، وعَمودياً عَبرَ الزمان، وكان النّمو عضوياً وشَكلياً في تَوريثِ

(٣٥) سيرة ابن الأعرابي، بما في ذلك هذه القصة، في: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

نَباتِيّ ثلاثيّ الأبعاد، أو في نَمَطِ «الأرابيسك»، يَتفرّعُ باستمرار في أغصان جديدة، ويُرسِلُ في الوقت نفسه جُذوراً جديدة في ثقافات أخرى في تَهجينٍ ومَزجٍ امتدَّ إلى الأندلس وتركستان والسّند وما وراءها.

العربيةُ لغةَ ثقافةٍ عالمية مهمّة مثل أهميةِ اللاتينية والإنكليزية، وعلى مستوى الانتشار الجغرافي، فإن حروفَها تأتي في المَرتبة الثانية بَعدَ اللاتينية. ربما كان قَدَرها دائماً أن تذهَبَ بعيداً. المَعنى الأوليّ للكلمة العربية «الخَطّ» هو المَسار، مَسار سَفَر أو طَريق. والكتابة العربية تشبِهُ طُرُقَ السَّير ونَسجَ النُّصوص، وهو تَشبيهٌ يُناسبُ مُنشِئيها العرب الذين تُشبِهُ هويتُهُم زواجَ عوليس بزوجته بينيلوبي Odysseus and Penelope [في أساطير الإغريق، الأوديسّة] الذي جَمَعَ البَحّار المُسافِر بالزوجة النَّسّاجَة، والمُتحرِّكُ بالمُقيمَةِ. وبينما تَنتَشر الكلمةُ العربية مع الكَتَبَة والرَّحالَة، فكذلك شَجَّعَت الإيديولوجية الاجتماعية الدينية على الانتشار. كما أنها اندَمَجتْ وحَمَلتْ أخيراً ثمرةَ الروح العربية التي ألهَمَتْ محمداً إلى أماكِن بعيدة عن جُذورِها العربية، تلك الثمرة، الانسجام، التي استَعصَتْ على كثير مِن أهلِهِ العرب. من المثير للاستِغراب أنْ يبدو العربُ أقلّ مَن استفادَ مِن رسالَتِهِ فيما عَدا فَترةَ قَرنَين قَصيرَين تقريباً مِن الوحدة والسَّيطَرة، وأنَّ الوحدة التي بَهَرتْ أبا سفيان في المَدينة قد ثَبتَ أنَّها سَرابٌ أُمسِكَ به فَترةٌ وَجيزَة.

السَّعي المستمر وراءَ السَّراب أخذَ معه العربَ إلى أمكِنةٍ موحِشَةٍ مُنفَرِدةٍ بعيدةٍ عن النمو والوَفرة والازدهار التي زَرَعوها. الكلمةُ المعتادة التي تدل على التَّجمع بالعربية هي «الوحدة»، ولها جَذرٌ مشترَك مع «الواحِد»، ولكن مَعناها الأقدَم يدل على «الانفراد والعزلة والتَّباعد». «الوحدة» هي الواحِدية، ولكنها يمكن أن تَعني «العُزلة المُنفَرِدة». إنها ليست عُزلةَ فَردٍ بَطَلٍ لِوَحدِه، بل عُزلَةَ مجتمعٍ بَطَلٍ مُتَفَرِّد ومُتَميِّز. وعلى سطح كوكب مزدَحم يصعب الوصول إلى مجتمع كامل يستطيع أن يكونَ مُكتَفِياً ثقافياً. اكتظّت أرضية اليوتوبيا بالمَباني منذ زمنٍ طويل، ومع ذلك فإن البحثَ مستمرٌ بالنسبة لبعضهم. ولِطَرحِ مَثَلٍ أعتَرِفُ بأنه بعيدٌ، فإن دولةً مِثل المَملكة العربية السعودية تَرفُضُ كثيراً من أعراف بقية العالَم، لا سيما معظم أعراف الديموقراطية وجَميع أشكال حرية التعبير. رُفِعَ المَنعُ عن دُورِ السينما، وعن

قيادة المرأة للسيارة وحُضورِها مباريات كرة القَدَم سنة ٢٠١٨، وقد وصِفَ ذلك بأنه خطوة كبيرة إلى الأمام في المَملكة، وهي كذلك فِعلاً بطريقةٍ ما في مجتمع يُصِرُّ على أن يَعتَبر نفسَه مُختَلِفاً، ولكن بَقِيَتْ كثيرٌ وكثيرٌ مِنَ المَمنوعَات.

ربما يَرجِعُ كل ذلك لكونِهم في الأصل عِرقاً نَشَأ في جَزيرةٍ كما يَتَصَوَّرُ العربُ أنفسَهم ثقافياً. ولكن الحقيقة هي أقلّ بساطَة وأكثر إثارة للإعجاب بكثير، لأن الأصول متعدِّدة، والعِرقُ ليس عِرقاً واحداً، والجزيرةُ ليست حتى جزيرة.

النَّشأة

٩٠٠ ق.م - ٦٠٠ ب.م

الفصل الأول

أصوات من الصحراء
أوائل العرب

جزيرة العرب

البَدء من الأرض هو وَضعُ عَرَبةِ الاشتقاقِ أمامَ الحصان. ربما كان هناك عربٌ قَبل أن يُسمَّى المكانُ بلاد العرب، ومن المؤكَّد أنهم وجِدوا قَبل أن يُطلَقَ اسمُهم على شبه الجزيرة بزمنٍ طويل. كما أنه بالنظر إلى المستقبل المتحرك الذي يَنتَظِرهم، فإن قصةَ العرب هي عن الشعب أكثر منها عن الأماكن، وعن العِباد وليس عن البلاد. بَعدَ هذا القول، بما أن أصولَ العرب يَصعبُ تحديدها فهي شَبه قارّة، في شبه الجزيرة وما حولَها من مناطق، وهي منطقة واسعة مناسِبة للبدء منها. والأهمّ من ذلك هو أن جغرافيتها قد صَنعَتْ مصيرَ العرب الذين ينتَشرون الآن في مناطق واسعة من سطح الأرض. لا نستطيعُ أن نَبدأ في فَهم هذا الشعب وما آلَ إليه مصيرهم دون أن نَعرفَ مِن أينَ أتوا.

السِّمَةُ الأبرَز في شبه القارة العربية هي شبه الجزيرة نفسها التي تُشبِهُ قَدَماً سَمينَةً حَنفاء تحاوِل أن تَركُلَ الجانبَ السُّفليّ من إيران، إلا أن القَرنَ الأفريقي الكَركَدَّنّي يُناطِحُ كَعبَها ويَحصُر حَركَتها. ربما تكون تشبيهاتٌ أخرى أكثر فائدة، خاصة بالنسبة إلى أشباه القارة الأخرى المُلتَصِقة ببقية أوراسيا[1] وهما: شبه القارّة الهندية (التي تشمل الهند وباكستان ونيبال وبنغلاديش وسريلانكا)، وأوروبا (فيما عَدا الأجزاء الأوروبية من الاتحاد السوفياتي

---

(١) انظر المقارنة بين الهند وأوروبا، في: John Keay, *India: A History* (London: Harper Collins, 2004), pp. xxii-xxiii.

السابق). شِبهُ الجزيرة العربية هي شبه قارّة حقيقية. وفقَ أحَدِ تعريفات المصطَلَح هو أن شبه الجزيرة، إضافة إلى الهلال الخصيب في العراق وشرق المتوسط، تَقَعُ على صفيحةٍ قارّية واحدة (أو على طَبَقٍ قارّيّ بالنظر إلى صغر مساحَته) اسمُها: الصفيحة العربية.

أشباه القارّات هذه متساوية في المساحة تقريباً بما يساوي أكثر من ٤ ملايين كيلومتر مربّع، وفي ذلك ينتَهي ما بينها من تَشابه. لا تكادُ توجَد في شبه القارة الهندية فيما تحت جبال الهيمالايا حواجز جغرافية تَعوق حركةَ البشر وتَواصلهم وتَعاملهم، فهي أرضٌ تَمنَحُ نفسَها لتشكيل وحدات ومَمالك وإمبراطوريات يمكن أن تستمر طويلاً، ولو تَخلَّلتها حروب يُعيدُ اللاعبون فيها تَمَوضُع أنفسِهم في لُعبة العُروش. أما أوروبا، فهي مَقسومَة في منتَصَفِها تقريباً بسلسلة جِبالٍ تشكّل حاجِزاً وَعِراً من قمم فينيستير Cape Finisterre [من إسبانيا إلى البلقان]، وتَنحَدر أطرافها بشكلٍ متعرِّج في مناطق من أشباه الجُزر ومن جُزر كبيرة مثل بريطانيا. تشكّل أوروبا مَسرحاً لكثيرٍ من الإمبراطوريات وشبَكَة من القبائل المُتصارِعة التي تحالَفتْ على مَضَض في فترةٍ متأخرة من التاريخ لتشكِّلَ دولاً قومية[٢]. أغلبُ مناطق شبه الجزيرة العربية تشبه الهند في امتدادها دون عوائق جغرافية واضحة، غير أن هناك عقبة واحدة أكبر من جبالِ أوروبا وخِلجانِها، وهي عدم توفر الماء العَذب. جغرافيةُ الهند وأوروبا غنيةٌ بالماء والخضرة والأمطار، أما شبه الجزيرة العربية فهي بُنْيَةٌ جافَّة يَحجُزُها خَطُّ أمطارٍ مُعدَّلُهُ أقَلّ مِن ٢٥٠ مم سنوياً، فيما عدا زواياها البعيدة التي تتلقَّى بعضَ الغَيث: في جبال اليمن في أقصى الجنوب الغربي، وفي بعض النقاط في عُمان، خاصّة في الجَبل الأخضر في أقصى الشرق، وفي جِبال لبنان في أقصى الشمال الغربي. يُستَثنى من ذلك نَهرَا دجلة والفرات في الطَّرَف الشمالي الشرقي، إذ تَتَدفَّق فيهما وَفرةٌ من الماء، وهما يَرويان الهلال الخَصيب الذي يُمثِّل تَبايُناً واضِحاً مع شبه الجزيرة الواسعة الجافة في الجنوب.

ولذلك فليس من المُستغرَب أن تكون شبه الجزيرة العربية مختلفة عن الأخريات بطريقة مختلفة. كانت الهند بسكانها الذين يَبلغُ عددهم ١,٧ بليون

(٢) انظر مرة أخرى في: Ibid., p. xxiii.

إنسان هَدَفاً للهجرة إليها دائماً وتشكّل جَيباً مزدَحماً بالسكان، وكذلك أوروبا بعَدَدِ سكّانها الذي يَبلغ ٥٤٠ مليون إنسان على الرغم من أن ٥٠٠ سنة من الهجرة الاستعمارية قد خفَّفَت الضَّغط السكّاني فيها. أما شبه الجزيرة العربية فيَبلغ عَدد سكانها نحو ١٦٠ مليوناً[٣]، حتى مع إضافة سكان الأراضي الخصبة في منطقة الهلال الخصيب، وهذا العَدَد الكليّ أقلّ من عُشرِ عدد سكان الهند. منذ جِيلٍ واحد فقط قَبل تَدَفُّقِ ثروة النفط وإضافة الجنسيات المختلفة من الوافِدين، مثل العمال من بنغلاديش، والموظفين من كيرالا، والعاملين في النفط من تكساس، والمُقيمين المختلفين في دبي، وغيرهم، ربما كان عدد السكان الكليّ خُمس العَددِ الحالي، وأهلُ شبه الجزيرة العربية لوحدِهم أقلّ من عشرة ملايين.

كانت شبه الجزيرة دائماً الأكثر جَفافاً، وتتلَقّى بعضَ السكان من أهل الهلال الخصيب ولكنها لم تكن أبداً جاذِبَةً لاحتواء الناس، بل يبدو أنها كانت غالباً مَمَراً وطريقاً. ساعَدَت الجغرافيا على ذلك. تَفصِلُ مَضَائقُ استراتيجية شبهَ الجزيرة عن جيرانها في ثلاث نقاط: يَقَعُ في كَعبِها وأصابِعِها مَضيقان مائيان هما: مَضيقُ باب المَندَب الذي يَبلغُ عَرضُه ٢٦ كيلومتراً (أي أكثر بقليل من العُبور بين دوفر وكاليه [في ساحل بحر المانش])، ومضيقُ هرمز الذي يَبلغَ عَرضُه ٥٤ كيلومتراً (يساوي تقريباً المسافة من كيب كود Cape Cod إلى نانتكيت Nantucket [على ساحل أمريكا الشمالية]). أما النقطة الثالثة الفاصِلة فهي «مَضيق» سيناء الجاف الذي يَبلغُ عَرضُه ٢٠٠ كيلومتر. تَدعو هذه المناطق إلى عبورها.

يبدو أن عبورَ هذه المناطق هو ما فَعَلَهُ الإنسان الأول في رحلات خُروجِهِ من أفريقيا، عَبَرَها الإنسان المُنتَصِب *Homo erectus* منذ نحو مليونَي سنة، ثم عَبَرَها الإنسان العاقِل *Homo sapiens* في فترات مختلفة منذ ٤٥٠٠٠ إلى ١٢٥٠٠٠ سنة، وربما قَبل ذلك (يجب القيام بكثير من الأبحاث عن ذلك). قادَهم أحدُ طُرُقِ خروجِهم عَبرَ سيناء والمناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وأخذَهم طريقٌ آخر عَبرَ باب المَندَب عندما كان مستوى

---

(٣) الأرقام التقريبية تعود لعام ٢٠١٥.

البحر أخفَض بكثير وكان المَضيقُ أصغَر، ثم عَبرَ المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة، ومن ثَمَّ عَبرَ مَضيق هرمز الذي كان أصغَر كذلك.

بالمقارنة مع هذه المَضائق الثلاثة، فإن الاتجاه إلى البحر من مشطِ قَدَمِ شبه الجزيرة والساحلِ الجنوبي لا يُشجِّعُ على العبور، إذ لا توجَدُ مساحةٌ منَ الأرض أمامكَ حتى تَصِلَ إلى قارة القطب الجنوبي. إلا أن ذلك الساحل الجنوبي نفسه يَقَعُ على مَسار رياحٍ موسمية ستَحمِلُ البحارةَ العرب والمُستوطِنين حول سواحل المحيط الهندي في هلالٍ كبير تجاري مزدَهر سيَمتَدُّ من موزمبيق [في أفريقيا] إلى مَضيق مالاكا [في المَلايو] وما وراءها. ستكون جِمالُهم البحرية ناعمةً وقوية مثلما كانت سُفُنُهم الصحراوية، وسَيُسَخِّرون الرياح ويَمتَلِكونَها: فكلمة «المونسون monsoon» مأخوذةٌ من الكلمة العربية «المَوسِم»، التي تَعني «فَصْلَ الإبحار».

بالعودة إلى الشمال حيث تَتصِّلُ شبه الجزيرة مع كتلة أرضِ أوراسيا دون عائق، ليس هناك جبال هيمالايا يمكن أن تمنَعكَ عن العبور من شبه الجزيرة إلى الهلال الخصيب وما وراءه من الأرض. وهذا ما فَعَلَهُ الأعراب عادةً قَبل الإسلام بزمنٍ طويل حين غادَروا مخيماتهم المؤقَّتة في شبه الجزيرة نحو مَراكز داخلية في أوراسيا في الجغرافيا التاريخية. تَصِفُ «نظرية المَوجات» اندفاعاتٍ متتالية من البَدو يَتدفَّقون خارجين من شبه الجزيرة نحو أودية أنهار دجلة والفرات والنيل(٤). توجدُ أدلة واضحة على ذلك، ولا شيء أوضَح من المَوجَة الأخيرة العُظمى، وهي مَوجَةُ التسونامي من العرب الذين أطلَقَهم الإسلام إلى خارج شبه الجزيرة العربية. إلا أنه لا يوجَدُ ما يدل على وجود أي انتظام في تيارات الهجرة، ومن المهم ملاحظة أن الحركةَ على هذا الطريق الشمالي كانت في الاتجاهَين، فهناك أدِلَّةٌ لغوية تُظهِر أنه، على الأقل في مراحل تاريخية، كانت شبه الجزيرة العربية مأهولةً إلى حَدٍّ كبير بالقادِمين إليها من الهلال الخصيب. ومما لا شك فيه أن منطقةَ شرق المتوسط هي المنطقة التي نَشَأتْ فيها عائلة اللغات «السَّاميّة»، وأن اللغة العربية قد حَفِظَتْ كثيراً من السِّمات الأولية الأصلية لتلك اللغات.

---

(٤) انظر على سبيل المثال: Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), pp. 11-12.

وهذا سببٌ آخر للنَّظر إلى المنطقتَين معاً كشبه قارَّة بمَفهوم الصفائح القارّية واللغوية. وربما الأفضل اعتبار المَوجات مثل تَناوب المَدّ والجَزر، وفي الفترة الحديثة جاءَ المَدُّ من كافة أرجاء أوراسيا وما وراءها، تَشُدُّهُ جاذبيةُ حقول النفط ودولارات البترول.

يُبيِّنُ كل ذلك أن جزيرة العرب (كما سَمَّى الجغرافيون العرب شبهَ جزيرةِ أجدادِهم حتى واديَي دجلة والفرات، ولا تميِّزُ اللغة العربية الأقدَم بين «الجزيرة» و«شبه الجزيرة») هي ليست جزيرةً البَتَّة، بل هي في الواقع متَّصِلَة بشكل جيد مع ما يُجاورها من الأرض، وأن الانعزال هو في الخواطر أكثر مما هو على الخرائط.

كما أنه يُبيِّنُ لماذا كان سكان شبه الجزيرة العربية في حركة مستمرة وفي صراعات داخلية، ولماذا كانت شبه الجزيرة العربية مكاناً للقدوم والذهاب والتَّدفُّقات البطيئة والتَّشتت المُفاجئ. مِن بعض النواحي، تشبه جزيرة العرب جزيرةً متواصِلةً أخرى أسَّسَتْ كذلك إمبراطورية وصَدَّرَتْ شَعباً ولُغَة، هي بريطانيا. وربما يمكن القول أيضاً إن العرب قد حَمَلوا معهم عادةً شيئاً من عُزلَتِهم النفسية مثل البريطانيين، مع فارِقٍ كبير هو أن جزيرة العرب بذاتِها سرعان ما وضِعَتْ جانباً بَعدَ هِجرَتِهم العُظمى الإسلامية فيما عَدا كونِها مكاناً للحجّ. وكأنما أصبَحَتْ بريطانيا ذاتها مَكاناً مُنعَزِلاً بعد نمو الإمبراطورية البريطانية واتساعها.

المناظر الطبيعية العربية

أحدُ أسباب هذا التصدير الصافي للناس هو اللون البُنيّ على خارطة سقوط الأمطار: ربما يكون الهلال الخصيب مَروياً، ولكنّ بقيةَ أنحاء شبه القارّة ليست في الوهلة الأولى أرضَ الحليب والعَسل، مع إهمال النفط والغاز. ومع ذلك فهناك من التنوع أكثر مما يبدو للنظرة الأولى.

الأقسامُ الثلاثة الرئيسية لشبه الجزيرة العربية مازالت تلخيصاً مفيداً: تمتَدُّ شبه الجزيرة العربية الصَّخرية Arabia Petraea في الأجزاء الشمالية الغربية، خاصة في منطقة الأنباط التي كانت عاصِمتها البتراء (ويَعني اسمُها «الصخرة»، والاسمُ المَحَلي مَجهول). أما البلاد العربية السَّعيدة Arabia Felix

فتُغَطّي الثُلُثَين الجنوبيَين لشبه الجزيرة تقريباً، والتي خضَعَتْ غالباً لحُكم مَمالِك جنوبية مَحلية. تمتَّعتْ أجزاء من هذه المنطقة بمناخٍ أفضل حَظّاً بكل تأكيد من بقية المَناطق، إلا أن السعادة كانت تَرجِعُ كذلك لكميات كبيرة من المال الأجنبي التي دَخَلَتْ إليها بفضل العُطور، بالإضافة إلى الصُّموغ التي صُدِّرَتْ منها لِتُحرَقَ في طقوسِ المَعابِد، ولِتُعَطِّرَ الأحياءَ والأموات في أراضي منطقة البحر الأبيض المتوسط. تأتي عُطورُ اليمن السّعيد في الحقيقة من أشجار شَوكية قزمَة لا تَعيشُ إلا في بيئةٍ شائِكَة جافّة. أجزاء من هذه المنطقة، خاصة في دولة اليمن الحالية، هي مناطق خضراء فِعلاً وتُسرُّ الناس، ولكن كما سنَرى فإنها تحتاجُ إلى رعاية البشر لكي تصبحَ منتِجَةً للأغذية والصّموغ التي يمكن تَصديرها. أما القِسم الثالث، فهو البلاد العربية الصحراوية Arabia Deserta، وهو يَشملُ المَناطِقَ القليلةَ السكان في شرق سورية وفي منطقة ما بين النَّهرَين Mesopotamia.

تتعلَّقُ هذه التقسيمات الكلاسيكية بالجغرافيا وكذلك بالسياسة، كما تُعطي فكرةً عن المناظر الطبيعية. فما لم يُلاحظهُ الجغرافيون في منطقة المتوسط هو أن الأجزاء الصخرية والصحراوية من شبه الجزيرة العربية هي أغلب أجزائها، ومن ناحية المناخ فإن الغالبية العظمى من مناطِقِها هي غير مَحظوظَة بامتياز. وما أدرَكَهُ الباحثون الحَديثون هو أن التَّصَحُّر جديد نسبياً، وقد كانت شبه الجزيرة العربية بشكلٍ عام أكثر رطوبة مما هي عليه الآن، وقد عاشَ الناسُ واصطادوا في قَلبِ شبه الجزيرة الجَاف الذي يُسمّى الآن «الرُّبع الخالي»، (أو الربع الخالي)، ويمكنكَ أن تلتَقطَ رؤوسَ حِرابِهم الصُّوانية في تَجاويفِ الكُثبان التي كانت ذات يوم أماكِن تَجمُّع للماء تَمرَّغَتْ فيها حيواناتُ فَرَس النَّهر في «الرُّبع المائي». تَرجِع هذه الفترة الرّطبة الكبرى الأحدَث إلى نحو ٨٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ سنة ق.م، أو أحدَث من ذلك بقليل. وكان سببها تغيّرات في ذلك النظام الجويّ المَصيري الواسِع «الرياح المَوسمية»[٥]. حَدَثَ الجَفاف الكَبير بسرعة، ويمكن أن تَحدُث التغيرات المناخية بسرعة دون تَدَخُّلٍ بَشَري.

---

(٥) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), p. 10, and A. G. Parker and J. I. Rose, "Climate Change and Human Origins in Southern Arabia," *Proceedings of the Society for Arabian Studies*, vol. 39 (2009), pp. 29 and 33.

ومع ذلك، فحتى في أكثر الصحاري جَفافاً، فإن «الرُّبوع الخالية» ليست خاليةً بالفعل بالنسبة لِمَن يَعرفونَها مباشرة. فمَثلاً يَسرُدُ عالِم الجغرافيا الهمداني في بدايات القَرن العاشر شروطَ صِفات الصحراء في كتابِهِ «**صِفة جزيرة العرب**» ويُصَنِّفُ الكُثبانَ والسُّهول والسُّهوب بدقَّةٍ مدهِشة. لنأخُذ مَثلاً صِنفاً واحِداً من الاصطلاحات ونَجِدُ أسماء تحتوي على أزواج متكرّرة من الأحرف: «النَّفانِف» هي «الأرضُ التي تُطيلُ الرحلات بارتِفاعاتِها وانخفِاضاتِها»؛ «السَّباسِب» أو «البَسابِس» هي «السهول المستَوية المنبَسِطة الخالية من الأعشاب والماء والبَشَر؛ «الدَّكادِك» هي هِضاب رَملية بين الجبال، خاصة تلك التي تَنمو عليها «الرِّمث»، شُجيرات الملح. وتستمر اللائحة بأسماءَ مِثل: الفَدافِد، العَثاعِث، السَلاسِل، الصَحاصِح... هناك إيقاعٌ، بل وشِعرٌ حتى في أصغَر المَناظر الطبيعية[٦].

الزَّارِعون والحَلّابون

ثَبتَ هذا الجَفاف النسبي الحديث نسبياً بمقياسِ الزمن الجيولوجي قَبل فترة قصيرة من بداية التاريخ البَشَري المَكتوب في شبه القارة العربية، ومع ذلك فقد كان له تأثيرٌ عميقٌ في ذلك التاريخ. في الحقيقة فإن ظروف البيئة، خاصة الطريقة التي يتعلَّق بها سكان المناطق الجافة والرطبة ببعضهم ربما كانت عامِلاً مَصيرياً، أو العامِل المَصيري، في ذلك التاريخ.

وهكذا، ربما لم تكن شبه الجزيرة العربية جزيرةً في حَدِّ ذاتها، بل كانت منفَصِلة بشكلٍ أعمق بكثير من قاع البحر الذي رَبَضَتْ عليه في صَفيحَتِها القارّية. كما أن خَطَّ الصَّدع الغربي الذي يمتَدّ على مَسار وتحت البحر الأحمر هو استمرار لواحِدٍ من أكبر خطوط الصَّدع وأعقَدها في الكرة الأرضية، وهو الصَّدع ذاته الذي شكَّلَ وادي الصَّدع في شرق أفريقيا؛ وشكَّلَ وادي الأردن إلى الشمال أعمَقَ وادٍ في الأرض. تَدفَعُ الحركة القارّية كَعبَ شبهِ الجزيرة إلى الأعلى فتَرفَعُ وتُجَعِّدُ زاويَتَها الجنوبية الغربية. شكَّلَ الرَّفعُ على مَرِّ ملايين السنين سلسلةً طويلةً من الجبال. أطلَقَ الجغرافيون

(٦) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣)، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

العرب اسم «السَّراة» على هذه السلسلة المتعرِّجَة وتقَعُ في أقصى الجنوب على مَدار السرطان، وتَرتفع أعلى قمَمِها إلى ٣٧٠٠ متر، فلا تَتناسبُ مع تَشكُّل الثلوجِ ومياهِ ذَوَبانِها. إلا أن القمَمَ الباردة تمتَصُّ المياه من السهول الساحلية الرَّطبة تحتها، والأهمّ من ذلك أنها تَلتَقِطُ حافةَ الرياح الموسمية وأمطارها.

وهكذا تتوفَّرُ المياهُ في الجنوب والغرب مثلما هي الحال في الهلال الخصيب، غير أنها لا تحتوي أنهاراً مثل دجلة والفرات، ويَجبُ على سكانِها مِن أجلِ الاحتفاظ بمياه الأمطار والسيول القيام بأعمال بَشَرية مُرهِقَة وضَخمَة أحياناً. وهناك بَيتٌ من الشِّعر يُنسَبُ إلى حاكِمٍ جاهلي يَمَنيّ [المَلك أسعَد الكامِل] يَصِفُ المَشهَدَ في يَخْصُب، وهو سَهلٌ جَبَلي في جبال السَّراة:

وفي البُقعَةِ الخضراءِ مِنْ أرضِ يَخْصُبٍ ثمانون سَدّاً تَقذِفُ الماءَ سائلا[٧]

ربما ليس هناك مبالَغةٌ في العَدد لأن مواقِع أكثر من ستّين سَدّاً كانت موجودةً قَبل الإسلام ومازالت مَعروفةً حتى الآن في تلك المنطقة[٨]. وعلى مَقرُبة من منطقة البينون، حَفَرَ مهندسون قَبل الإسلام نَفَقاً طولُهُ ١٥٠ متراً يَتَّسِع لقيادة سيارة خلالَه في قاعدَةِ جَبَلٍ صغير لكي تَمرَّ فيه مياهُ الرّي من وادٍ إلى آخَر. يقَعُ أشهَرُ أعمال الرّي إلى الشمال الشرقي في مأرِب حيثُ يوجَدُ سَدٌّ ضخم يُنَظِّمُ تَدَفُّقَ الماء من خَزّانٍ مساحَتُهُ ١٠٠٠٠ كيلومتر مربّع[٩]. احتاجَ استغلالُ هذه المَوارد الطبيعية إلى إدارةٍ واستقرارٍ اجتماعي، وساعَدَ على ترسيخِها، لأنّ سوءَ الإدارة وعدَم الاستقرار يؤدي بالضرورة إلى الاضمِحلال والخَراب. وقد حَدَثَ ذلك مع مرور الزمن، وأوحَى انهيارُ سَدِّ مأرِب بروايةٍ عن انهيارٍ اجتماعي ذُكِرَتْ في أول وأقوى كتابٍ عربي حتى

---

(٧) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، حرره وعلق حواشيه نبيه أمين فارس (برنستن: جامعة برنستن، ١٩٣١)، ج ٨، ص ٢٩.

(٨) **الموسوعة اليمنية**، إعداد وإشراف وتحرير أحمد جابر عفيف (صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ١٩٩٢)، كلمة يَخْصُب.

(٩) Werner Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix* (Innsbruck; Frankfurt/Main: Pinguin Verlag, n.d. [c. 1988]), p. 58.

الآن: القرآن[١٠]. كما أنّ مَغزَى الرواية هو واحِدٌ من عِبَرِ التاريخ (إذا أمكَنَ الحديثُ عن وجودِ ذلك): إذا أردتَ بناءَ سُدودٍ ومَصارِف للمياه، وأنفاقٍ، ومُدرَّجات زراعية، والمُحافَظةَ عليها، فيجب أنْ تَبني مجتمعاً عامِلاً مستقرّاً، وأن تُحافِظ عليه. أي أنَّ الهَندَسة المَدَنية تَرتَبطُ بالقانون وحِفظِ النظام مثلما ترتَبط بالحجارة والإسمنت.

بالمقارَنة مع جنوب وغرب شبه الجزيرة فإن هطولَ الأمطار نادرٌ في الصحراء والمَناطق شبه الصحراوية، ولا يمكن التَّنبؤ بها. فقد تَحدُث فيضانات مفاجِئة حتى «تَنبتُ الأوراقُ على أشجار الشِّيح»، كما ذَكَرَ رائِدٌ [كشَّافُ مَراعٍ لِقطعان جِمال البَدو] في القَرن التاسع:

خلع شيحُها، وأبقل رمثُها، وخضب عرفجُها، واتّسق نبتُها، واخضرّت قُريانُها، وأخوصت بطنانُها، وأحلست أكمامُها، وأعتم نبتُ جراثيمها، وأجرت بقلتُها وذُرَقتُها وخبّازتُها[١١].

إلا أن اكتشاف هذه الجِنان الريفية العابِرة يَعني ضرورةَ الاستمرار في السَّير مع قِطعانِكَ وخيماتِكَ، وعندما يَفعَل الجميع مِثلَ ذلك لا بد من أن يَقَعَ تَنافسٌ على المَوارد، وأن يَحدثَ عدم استقرار اجتماعي.

يؤدي كل هذا إلى ثنائية «الحَضارة» و«البَداوة»؛ أي حياة الاستقرار في الجنوب والغرب والهلال الخصيب الأوفَر ماء، وحياة التَّنقل والتَّرحال في البادية (السُّهوب المفتوحة والصحراء) التي تَفرُضُ التَّحرّك، كما تؤدي من جانبٍ سَلبي إلى الانقسام السياسي والاجتماعي. الصِّفة المشتَقَّة من البَداوة هي «البَدَويين»، انتَقلتْ إلى لغات أخرى بكلمة «البَدو Bedouin». إنها ثُنائيةٌ بَشَرية أساسية تمتدُّ في الزمان إلى قابيل وهابيل التَّوراتِيين: الزَّارع المُستَقر والرّيفي المُتَنقّل. هناك نظريةٌ معقولة بأن الاسمَين التوراتيَين لولَدَيْ آدم ـ وهما «كَين وأيبل» ـ يمثِّلان في أصليهما كلمتَين عربيتَين هما «القَيْن»، وتَعني «صانِع المَعادن أو الحَدَّاد»، وهي مهنةٌ ترتَبطُ بالحياة المستقرّة في عَصر

---

(١٠) **القرآن الكريم**، «سورة سبأ».

(١١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٢٢٩.

البرونز، والاسم «آبِل»، ويَعني «راعي الإبل»[١٢]. يُحبُّ العربي الثُّنائيات، خاصةً المُقفَّاة منها (مثل قابيل وهابيل)، فَيَصِفُ الازدواجية «مَدَرٌ وَوَبَرٌ»، أي الطِّين اليابِس (كنايةً عن البيوتِ المَبنِيّة)، ووَبَر الجِمال (كنايةً عن الخِيَم)، أو ثنائية: «زَرعٌ وَضَرعٌ»، أي نَثرُ البُذور (كنايةً عن الزراعة) ودَرُّ الحليب (كنايةً عن ضروع المَواشي)[١٣].

تَظهَر ثُنائيةٌ أخرى في القرآن: «شَعبٌ وقَبيلة». الآيةُ القرآنية التي أُشيرَ إليها في عنوان هذا الكتاب تَقترِحُ أنها ثنائية، أو تَناقُض ومُقابَلَة يُشبه مقابَلَة الجِنسَين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ...﴾[١٤].

شَرَحَ أغلبُ المُفسِّرين هذه الآية بأنها تُشيرُ إلى شعوبِ الفُرس المستقرّة وقبائل العرب البَدوية، بينما يُناقِش بعضُ الدَّارسين بشكلٍ أكثر إقناعاً بأن هذا التَّفسير لا يُناسب إلا عَصر ما بَعد الفتوحات[١٥]، وأنَّ الثُّنائية تُشير في الحقيقة إلى ثُنائية اجتماعية أساسية راسِخة في الدائرة العربية ذاتها.

سنعود إلى هاتَين الفئتَين: تُفَسِّرُ طريقةُ تفاعلِهما كثيراً من القوى والتوترات التي سادَتْ في تاريخ العرب بشكلٍ عام. وتكفي الإشارةُ الآن إلى أن «الشعب» المستقر يُعَرِّفُهُ المكان وليس صِلَة القَرابة، ويبدو أنه يتَّحدُ منذ البداية من جماعات كبيرة مستقرّة نسبياً بالولاء إلى إلهٍ رئيسٍ واحِد. وبالمُقارَنة، فإن القبيلة لا تُعَرِّفُ نفسَها بالإقامة في منطقة معيَّنة، بل بفكرةٍ من النَّسَب والقَرابة. وتبدو تلك الفكرة هَشَّةً بعد التدقيق، وأحَدُ الأمثلة على هذا هو قبائل عَسير التي كانت جميعها قَحطانيّة حتى قُبَيل القرن العاشر حين

(١٢) Richard S. Hess, *Studies in the Personal Names of Genesis 1-11* (Neukirchener: Butzon and Bercker, 1993), pp. 24-25.

(١٣) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٤.

(١٤) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

(١٥) انظر على سبيل المثال: ميخائيل بيتروفسكي، **اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة: القرن الرابع حتى العاشر الميلادي**، تعريب محمد الشعيبي (بيروت: دار العودة، ١٩٨٧)، ص ١٣٦، و Robert Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature* (London: Penguin, 2000), p. 311.

تحولَّتْ كلها وادَّعَتْ أنها نِزاريّة[١٦]. لا يوجَدُ نظيرٌ أوروبي لهذا، وربما يبدو مُشابِهاً لعائلةٍ أنكلوساكسونية تُنكِرُ جُذورها فجأة وتؤكِّد على أنها في الحقيقة قد جاءَتْ إلى إنكلترا مع النورمانديين. يحدُثُ هذا الانتقال من شجرةِ «عائلة» إلى أخرى حتى الآن؛ فمنذ جِيلٍ واحد فقط أو جِيلَين، تخلَّى قِسمان كبيران من قبيلة «بكيل» اليمنية الضخمة عن رفاقِهما وانضَمَّا إلى قبيلةٍ ضخمة أخرى هي قبيلة «حاشد». تسمى هذه العملية «المُؤاخاة»[١٧]، وقد صَرَّحَ ابن خلدون: «النَّسَبُ هو أمرٌ مُتَخَيَّلٌ وغير حقيقي، وتَتركَّز فائدتُه في العلاقات الناتِجة فقط»[١٨] [غير حرفي].

اختلافٌ آخر بين الشعب المستقرّ والقبيلة هو أن القبيلة يُمكِنُ أن تَشتَرِكَ في عبادة إلهٍ أو آخر، إلا أن ولاءَها الرئيسي هو لزعمائها الدّنيويين.

هذه الثنائيات المتشابِكة (وليست المُتفرِّعَة) من الحَضَر/البَدو، أي المستقِرّ/المتنقِّل، والشعب/القبيلة، لا تُصبِحُ واضِحةً إلا بمرور الزمن، غير أن ما هو واضِحٌ في البدايات الضَّبابية قَبلَ الإسلام بكثير، وحتى قَبل السنة الأولى الميلادية، هو أن البَشَر الأكثر تَنقُّلاً الذين كانوا يُعَرِّفون أنفسَهم حَسَبَ أجدادِهم يَشملون أوَّلَ شعبٍ عُرِفَ باسم «العرب».

جَدَلُ الصحراء والمَزارع

كثرةُ التَّنقل لا تَعني البَداوة التامة بالضرورة، ولكن التَّنقل المتأصِّل والشّعور بأن المكان والولاء يمكن أن يَنتَقِلا هو جزءٌ مما مَنَحَ تاريخَ العرب نكهَتَهُ الخاصة. التاريخُ مَلحَمَة، إلا أنها مَلحَمَة متحَركة، هي نوعٌ من الأوديسة أكثر من الإلياذة. وكثيرٌ مما فيه [التاريخ] يتعلق بالمواجَهات، مثل الأوديسة، بعضُها مُثمِرٌ وبعضُها الآخر مُدَمِّر، وتَدور فُصولها الأخيرة عن الأبطال الباحِثين عن العَودة إلى البيت، العَودة إلى هويتِهم المُحدَّدة، مثلما فَعَلَ عوليس [في الأوديسة]، ليكتَشِفوا أن البيت قد تغيَّر مع الزمن (أم أنهم

(١٦) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٣٠.

(١٧) Dresch, *Tribes, Government and History in Yemen*, pp. 329f.

(١٨) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 99.

هم الذين غَيَّرَتْهم الرِّحلة؟). وحتى عندما يبدو أن الحركة قد توقَّفتْ، فإن الطاقَةَ الكامِنة مازالت موجودة، وربما يكون ذلك جزءاً من السبب لماذا كانت تجربةُ العرب مع الدولة ذات الحدود الثابتة محفوفَةً بالمَخاطر دائماً منذ القرن العشرين حتى الآن. فما هي الدولة إذا لم تكن مستقِرّة؟ ولا تَنسَجِمُ الحدودُ الثابتة مع شَهوَة التَّجول والتَّنقل.

في الوقت نفسه، كان على هؤلاء العرب غير المُستقرِّين أن يَشتَركوا باسمِهم مع سِلسلةٍ من الشعوب المستقرة. سيُصبح اسم «العرب» الذي كانت تَحمِلُهُ أقلَيَّة هامشية متحرِّكة مصطَلَحاً عاماً في النهاية يُغطِّي شَعبَ الصحراء وشعبَ المَزارِع وكلَّ ما بينهما. ربما تبلغ نسبة البَدو إلى الحَضَر بين عَرَب هذه الأيام أقلَّ مِن واحدٍ بالمئة، إلا أن وجهَةَ النَّظر البَدوية للتاريخ مازالت تَحرُفُ الطريقة التي يَنظُرُ بها العربُ وغيرهم إلى ماضي العرب. البَداوة والتّرحال هما جزءٌ فقط من القصة، ولولا العنصر المستقِرّ في تكوينِهم لكان العرب مُجَرَّدَ فَرعٍ صغير من تاريخِ العالَم، مثل الطَّوارِق والغَجَر، أو لا أكثر من فيضانٍ مفاجِئٍ دَمَّرَ ثم انحَسَر مثل المَغول. من المهم كذلك أنه على الرغم من أن الثنائية سَهلَة الفَهم، إلا أن الواقع أكثر تعقيداً، فمن المؤكد أن أصول البَدو من أوساط شعوبِ حَضَرٍ مستقرة، وغالباً ما يتم دَمجُهم معهم، ولا يَتبدَّى الحَضَر جميعهم فجأة، بل ربما يكونون بَدواً من النواحي الثقافية. كما أن البَداوة نفسها تحتوي على ألوان وأشكال تعكسُ تنوع المناظر الطبيعية، من ممارسة الرعي المؤقَّتَة، إلى الانتقال المَوسمي المُنتظَم، إلى البداوة التامة القَديمة الجذور، والأخيرة حالَةٌ نادرة.

وهكذا لم تكن ثنائية البدو/الحَضَر مانَويّةَ النَّمَط أبداً بحيث لا تَجتَمع الصحراءُ بالمَزارِع، ولا تلتَقيان أبداً؛ بل على العَكس، إذ يلتَقي الطَّرفان ويَتداخَلان ويَتفاعَلان، وتكون الحالَةُ أفضلَ ما يمكن عندما يلتَقي المُستقِرّ والمتَحرّك في محطاتِ الطريق: الواحات والأسواق، الخاناتُ ومَزارات الحَجيج، ومِثالُها النموذجي هو مكّة، ولو أنها لم تكن النموذج البَدئيَ. كلمةُ «السُّوق» ذاتها هي تقاطُعٌ دلالي، فهي المكان الذي تَتوقَّفُ فيه لكي تَبيعَ حيواناتِكَ، ولكنّ مَعنى جَذرَ الكلمة هو فِعلُ قيادة الحيوانات إلى ذلك المكان.

قد يَتعارَضُ الحَضَر والبَدو مثلما أنهم يلتَقيان. وتُعبّرُ الآيةُ القرآنية

المذكورة سابقاً بتركيزٍ جميل عن العلاقة الغامِضة بين الشعب المستقرّ والقبيلة المتنقِّلة، وقد خَلَقَهم الله «لكي يَتَعارَفوا»، ولكن هذه العبارة تَحملُ مَعنَيَين: المَعنى الظاهر هو «لكي يَعرف بعضُكم بعضاً بالاتصال المتَبادَل»[١٩]؛ ولكن هناك مَعنًى آخر في الظِلّ الباطِن، وهو «لكي يُمَيِّز بعضُكم بعضاً وتَتَعرَّفوا على الفوارق بينكم»[٢٠]. يَتداخَل الأمَلُ بالوحدة مع إمكانية التَّفَرُّق المَخفية.

درَسَ إرنست غيلنر Ernest Gellner عِلم الاجتماع في الإسلام على ضوء نظامٍ ثنائيّ، «الحَضَري» بالمقارَنة مع «القَبَلي»، وتم انتقادُه بسبب ذلك[٢١]، فقد أصبح الإسلام دِيناً عالمياً أكبر بكثير، وأكثر تنوّعاً من رؤيتِهِ من وجهَةِ نَظَرٍ ثنائية (أو من وجهة نظر واحدة)، ومع ذلك فمن الواضح في التاريخ العربي وجودُ «جَدَلٍ» بين البَدو والحَضَر[٢٢]. أعتقدُ بأن الجَدَلَ أعمَق من ذلك، لأنه أحَدُ مفاتيح فَهم تاريخ العرب بشكل كامل، ليس فقط في شبه الجزيرة العربية، بل فيما وراءها، ومن بداية الزمان حتى الوقت الحاضر.

شعبٌ مُنفَصِل

يصعب تحديدُ وقت البداية الأولى، وما نَعرفُه قليلٌ جداً عن الناس في العَصر الحَجَري القديم الذين خَلَّفوا أدوات متفرّقة في أرجاء شبه الجزيرة العربية. من الواضح أنهم كانوا مُتفرِّقين ومُوزَّعين بشكلٍ كبير إلا أن شبه الجزيرة لم تكن فارِغة، ولم يكن تاريخهم خالياً. أظهَرتْ دراساتٌ حديثة لمَواقِع العَصر الحَجَري في المملكة العربية السعودية أن أولئك العرب الأوائل قد مَرُّوا على مَدى الزمن وتأقلَموا مع تغيّرات مَناخية[٢٣] مبكرة، ولا

(١٩) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

(٢٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٢، ص ٣٧.

(٢١) انظر على سبيل المثال: Daniel Martin Varisco, *Islam Obscured: The Rhetoric of Anthropological Representation* (New York; Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2005), p. 65, and Sami Zubaida, *Beyond Islam: A New Understanding of the Middle East* (London: Tauris and Co., 2011), pp. 34-38 and 65.

(٢٢) يوسف محمد عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠)، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢٣) انظر على وجه الخصوص أعمال ريمي كراسارد.

نَعرفُ إلا القليل عن الصيادين في العَصر الحَجَري الحديث في منطقة الرُّبع الخالي التي كانت رَطبةً قَبل أن يَستقرَّ فيها الجَفاف الكبير. إلا أننا بدأنا نتَصَور جوانب أخرى من الحياة في العَصر الحَجَري الحديث. كان الناس يَرعون الأبقار في الألف السادس قَبل الميلاد، وبعد نحو ٢٠٠٠ سنة بَدؤوا بزرع المَحاصيل، والمهم، يبدو أنهم بَدؤوا تطويرَ هياكل اجتماعية استَنَدَتْ على ضرورات التعاون المُتزايدة لعمل أنظِمَةِ الريّ في مناطق المنحدرات العالية، وفي الداخل الذي يزدادُ جَفافاً[٢٤]. وكذلك مع حلول الألف الرابع قَبل الميلاد، كان السكان على طول الساحل العربي، خاصة ساحل الخليج، يَستَغلّون ما عليه من أشجار المَنغروف، وما في مياهه الغنية بالأسماك والمَحار، واستَخدَموها في الطعام والبناء. في بداية العَصر البرونزي، كان سكان الساحل يُصَدِّرون أيضاً اللؤلؤ الثمين المستخرج من مَحاراتهم، والذي أصبَحَ أحَد أوائل مواد التجارة وأغلاها قيمةً في مناطق المحيط الهندي. ستَظَلُّ شعوبُ الساحل على مرور الزمن هامِشيَّةً سياسياً وجغرافياً، ولكنّ «الهامِشَ الخصيب» سيَظَلُّ حيوياً من الناحية الاقتصادية، ولذلك هم هدفٌ لغاراتِ شعوبِ الدّاخل. كما أنهم سيكونون نقطة انطلاق التوسع العربي حول المحيط الهندي.

تحتوي تواريخُ العرب القديمة على تصوّرات غامضة مَحصورة وخيالية تماماً عن العرب قَبل التاريخ، صَاغوها في قبائل تُناسب تَصوّرهم اللاحِق للهوية العربية، ويَبرز بينها قبائل عاد وثمود، الذين لم يُعرَف عنهم الكثير سوى أنهم قَضوا بأعداد كبيرة في زمنٍ غير معروف في الماضي البعيد. يَصِفُ شاعرُ القرن السادس امرؤ القيس مثلاً موقع مذبَحَة قائلاً:

حَتَّى تَزُورَ الضِّباعُ مَلْحَمَةً   كَأَنَّها مِنْ ثَمُودَ أَوْ إِرَما [؟][٢٥]

وإرَم هي العاصِمة الأسطورية لقبيلة عاد، وهي نوعٌ من أطلانتس العربية، أو شانغريلا [الهندية]. يَرِدُ اسمُ القبيلتَين مِراراً في القرآن في حكاياتٍ وأمثال عن عقوباتٍ إلهية لخَطايا البَشر، مثلما تسألُ إحدى الآيات:

---

(٢٤) Michael Harrower, *Water Histories and Spatial Archaeology: Ancient Yemen and the American West* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2016), passim.

(٢٥) امرؤ القيس، **ديوان امرؤ القيس** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ١٦١.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[٢٦]. وما فَعَلَهُ الله هو أنه قَضَى عليهم بصاعِقة[٢٧] أو بريح صَرصَرٍ[٢٨] عاتِية لأنهم رَفَضوا رسالةَ التوحيد. من المُغري أن يُعتَبَر هذا العِقاب السماوي كاختصارٍ دراماتيكي لعَملية طويلة من الجَفاف والتَّصَحر، وأنَّ قومَ عاد هم ذِكرى لأولئك الصيادين من العَصر الحَجَري الحديث الذين انتَهتْ طريقةُ حياتِهم نحو ٤٠٠٠ ق.م. مع نهاية آخر فترة رَطبة كبيرة[٢٩]. تفسيراتُ القصة القرآنية تَجعلُ الفكرة أكثر إغراء: فمثلاً وَرَدَ فيما يمكن أن يُعتَبَر أول تاريخ للعرب، وهو نصوصٌ من المفتَرَض أنها جُمِعَتْ في منتصف القرن السابع ونُسِبَتْ إلى عبيد بن شَرية، أنَّ قومَ عاد عَانُوا ثلاثَ سنوات من الجَفاف قَبل نهايتهم[٣٠]، ولكن القصةَ تَنزلِقُ إلى منطقة أكثر التِباساً عندما تَضرِبُ الريحُ المُدمِّرةُ الأخيرةُ، ولكنها لا تُصيبُ امرأةً اسمها «هذيلة»، بل تَحمِلُها إلى مكّة لكي تَنقُل الخَبر في نسخة «عادِيّة [نسبةً إلى قوم عاد]» لشخصيةِ دوروثي في قصة **ساحِر أوز** Dorothy in *The Wizard of Oz*[٣١]. ومن المفهوم أن يكون المؤرخون اللاحقون متشكّكين، فقد كتَبَ أبو الفِداء، وهو مؤرخٌ أكثر مِصداقية في سورية القرن الرابع عشر: «يَختلفُ الباحثون كثيراً فيما بينهم، وكل ما يقولونه مُلتَبِسٌ وبَعيدٌ عن الحقيقة، ولذا فقد أمسَكْنا عن الحديث فيها»[٣٢] [غير حرفي].

أما بالنسبة إلى قبيلة ثَمود البائِدة، فنحن على أرضٍ أكثر صَلابة من الناحية التاريخية. الاسم معروفٌ بأنه اسمُ قبيلةٍ حقيقية في غرب شبه الجزيرة، ومن بين ارتباطاتِها احتِفَاظها بعلاقة مع الرومان في القرن الثاني،

(٢٦) **القرآن الكريم**، «سورة الفجر،» الآية ٦.

(٢٧) المصدر نفسه، «سورة فصلت،» الآية ١٥.

(٢٨) المصدر نفسه، «سورة الذاريات،» الآية ٤١.

(٢٩) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), p. 192.

جميع الإشارات إلى طبعة ١٩٩٧ الأصلية ما لم ينص على خلاف ذلك.

(٣٠) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في: وهب بن منبه اليماني، **كتاب التيجان وملوك حمير** (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف، العثمانية، ١٩٢٨)، ص ٣٤٤.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٣٢) عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر** (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.])، ج ١، ص ٩٨.

ودَعمهم بمقاتلين من رجال القبيلة[٣٣]. وقد ذُكِروا في القرآن، مثل قَوم عاد، برفضِهم التوحيد ودَفَعوا جَزاء ذلك، كما تم ذِكرُهم كأسطورة في ذاكرة العرب. ومن ذلك أنهم عندما عَرفوا باقتراب منيّتِهم، غَطَّوا أنفسَهم بالمرّ، ولَفُّوا أجسادَهم بأكفانٍ جِلدية، واستَلقوا استعداداً للموت في قبورٍ مَحفورة جاهِزة[٣٤]؛ وهذه الأسطورة تفسيرٌ شعبي طَريف لوجود مومياءات مَلفوفَة بالجُلود يُفتَرَض أنها كانت في قبور مَحفورة في الصخور بمنطقة الحجاز، ومازالت موجودة في مواقع قليلة يصعب الوصول إليها في الجنوب.

يَذكُرُ المؤرخون في العصر الإسلامي قبائلَ عاد وثمود وأمثالهما من القبائل الأسطورية باسم «العرب العارِبة»، أي العرب الحقيقية الأصلية. أما الآخرون الذين سيأتونَ بَعدَهم فيُصَنَّفون باسم «العرب المُتَعَرِّبَة» و«العرب المُستَعرِبَة». وربما تَعكسُ هذه الصفات بعضَ الحقيقة، لأن الناس الذين أصبَحوا يُعرَفون بالعرب قد اكتَسبوا ما لديهم من وحدة خلال عمليةٍ تدريجية من التَّثاقُف، وبشكلٍ رئيسي من خلال اندماجِهم واكتسابِهم اللغة. والأهم من ذلك هي الحقيقةُ الأخرى التي يقبَلُها ضمنياً المؤرخون التقليديون، وهي أن العرب لم يكونوا شَعباً واحداً في الأصل، بل جماعة مختلطة جيداً.

عند الانتقال من الذاكرة التاريخية للعرب المتأخرين إلى أول دليل تاريخي مَكتوب، يتَّضِح أمرٌ واحد فوراً هو ما لَم يَكُنْهُ العرب: لم يُطلِق أي شَعبٍ من الشعوب التي سَكَنَت الهلال الخصيب، أو في «الهامش الخصيب» الساحلي، أو في جنوب شبه الجزيرة على أنفسِهم اسمَ العرب في الأصل. بالنسبة إلى الشعوب المستقرّة في الهلال الخصيب والسواحل والجنوب، كان العرب بوضوح شعباً منفَصِلاً آخر.

النظر إلى الداخل من الخارج

تركَ الآشوريون أولَ ذِكرٍ مؤكَّدٍ للعرب باسم «العَريبي»، وكانوا شَعباً

---

(٣٣) Michael C.A. Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language* (Oxford: Oxford University Press, 2010), p. 19.

(٣٤) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في: وهب بن منبه اليماني، كتاب التيجان وملوك حمير، ص ٤٠١.

مختلِفاً عنهم جغرافياً واجتماعياً، وذَكَروا «أنهم الذين يَعيشون بعيداً في الصحراء ولا يَعرفون المُشرِفين ولا الموظَّفين الحكوميين»(٣٥). ربما كانت واحدَة أو اثنتَين من الإشارات التوراتية أبكَر من ذلك، إلا أن التَّنقيحَ المُتأخِّر شَوَّشَ التسلسل الزمني. ولذا فإن أقدَمَ إشارة مَعروفة حتى الآن بشكل لا يَقبل الجَدل عن العرب تَرِدُ في نقوش تَركَها المَلك الآشوري شَلمَنصر الثالث، إذ يُسجِّلُ المَلك في سنة ٨٥٣ أنه حارَبَ وغلَبَ تَحالُفاً سورياً ـ فلسطينياً دَعَمَهُ ذلك العربي الأول المَعروف، هو جِنْدِبو وجِمالُهُ(٣٦)، ألفٌ لا أقل(٣٧). يتكاثر ذِكرُ العرب (وجِمالِهم) بَعد ذلك التاريخ، ثم يَزداد أكثر فيما بَعد في المَصادر الإغريقية والعبرية.

يناقِشُ روبرت هويلاند Robert Hoyland، مؤرخُ بدايات تاريخ شبه الجزيرة العربية، قائلاً: بما أن النصوص الآشورية والتوراتية بَدأتْ بِذِكرِ العرب في الفترة نفسها بشكلٍ مستقل، فلا بد من أن «العرب» هو الاسمُ الذي أطلَقَهُ هؤلاء الناس على أنفسِهم(٣٨)، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أنهم كانوا مُتردِّدين جِداً في جَدارَتِهم بهذا الاسم، لأنهم لم يُسَمّوا أنفسهم «عَرَباً» في نقوشِهم إلا بَعدَ نحو ١٢٠٠ سنة من ظُهور اسمِهم في النصوص الآشورية(٣٩). وعلى كل حال، يمكن الحُكم من أسمائهم الشخصية أنهم كانوا عَرَباً في تلك النصوص الأولى، لأن أولَ اسم شَخصيّ «جِنْدِبو»، أو باللفظ الحَرفي العربي «جُنْدُب»، هو اسمٌ حَمَلَهُ العربُ بشكل عادي، ولكن قليل في آلاف السنين التالية، وهو اسم صرصار الليل أو الجَراد الصحراوي، ويُنبي عن تاريخ طويل من تسمية الناس بأسماء الحيوانات. على المستوى القَبَلي فإن أسماء القبائل مثل «كلب» أو «أسد» ربما كانت أسماء حيوانات اتَّخَذتْها أوثاناً. وعلى المستوى الفردي فإن أسماء الحيوانات مُتَّخَذَة كتَعاويذ لِصَرف الشرّ. وذَكَرَ ابنُ الكَلبي، مُؤرِّخُ شبه

---

(٣٥) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 8.

(٣٦) انظر: ص ٢٦ ـ ٢٨ من هذا الكتاب.

(٣٧) Hoyland, Ibid., p. 59.

يعطي هويلاند ملخصاً ممتازاً لأقدم الإشارات إلى العرب (ص ٥٩ وما بعدها).

(٣٨) Ibid., pp. 5-8.

(٣٩) كما في نقش النمارة، انظر أدناه: ص ١٢٥ ـ ١٢٨ من هذا الكتاب.

الجزيرة العربية القديمة، أن العرب كانوا «يُسَمُّون أبناءهم وهم يفكِّرون بأعدائهم»[٤٠] [غير حرفي].

لم يكن غريباً أن يُسمَّى رَجُلُ قَبيلَةٍ باسم «وَكيع»، ويَعني الحصان القوي، وأن يوجَدُ في أسلَافِهِ من كان اسمه «كلب بن عوف» (ومن معاني العوف: الأسد والذئب والديك)[٤١]، وكذلك «يَربوع بن حَنظَلة ـ والملاحظة أن النبات المرّ والشائك كالحَنظَل له أيضاً قوة تعويذية مثل ما للحيوان، وللأسف لم تَعد هذه الأسماء مُستَخدَمة هذه الأيام، ولكن بعض الأسماء الأخرى التي تظهَر في النصوص الآشورية مازالت مُستَخدَمة، مثل «هَمدانو»[٤٢] (أول بَيتٍ سَكَنتُ فيه في اليمن كان اسمُ صاحِبِه السيد الهَمداني).

«العَربي» في النصوص الآشورية هم عَرَبٌ بشكلٍ واضح بطرائق أخرى أيضاً، خاصة في استِخدامِهم للجِمال التي يبدو أنهم قد احتَكَروها، وكذلك في حرية التَّنقل التي مَنَحتْهم إياها الإبِل، وشكَّلوا قوةً مُقاتِلَة مُتَحركَة مُساعِدَة لطَرَفٍ أو لآخَر مثلما ذُكِرَ في النَّص الآشوري الأول. مَنَحَتْهم مَطاياهم الشديدة الاحتمال مَزايا ماكِرة تمكِّنهم من التَّنقل والاختراق والاستِخدام التكتيكي للأرض التي كانت بيئةً صعبة، خاصة بالنسبة إلى الجيوش الكبيرة الثقيلة الجائعة. وكما ذَكَرَت النصوصُ مراراً، يبدو أنهم كانوا يَحمِلون عَبرَ الفَيافي تِجارةَ العُطور، ويَنقلون إلى الشمال صُموغَ الجنوب العَطِرة، ثم ظَهَروا فيما بَعد كلاعِبين مهمِّين في تلك التجارة، وحاوَلوا السيطَرة على طُرق التجارة.

تتكاثر المَصادر وكذلك تَكثُرُ الإبِل. كان للآشوريين روحٌ توسّعية ويَسعون للسيطَرة على تجارة شبه الجزيرة العربية، وتفاخَروا دائماً بإخضاعِهم

---

(٤٠) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، **فقه اللغة وسر العربية**، تحقيق عبد الرزاق المهدي (بيروت: إحياء التراث العربي، ٢٠١٠)، ص ٢٥٧.

(٤١) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٤٠٨.

Waki' was passed over for the post of governor in Khurasan because he was 'too rough and desert-Arab': (p. 401).

(٤٢) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 1, p. 562.

البَدو غير المتَحضِّرين. نُقِشَ نُصَبٌ تخليداً لانتصار المَلك الآشوري تغلث فلاسر الثالث Tiglath-Pileser III على «شمسي» مَلِكة العرب في الربع الثالث من القرن الثامن قبل الميلاد. وتم تصويرها كامرأة عربية ممتلئة الجسم، ولكن جميلة، وهي تقودُ قطيعاً من الجِمال التي كانت جزءاً صغيراً من ٣٠٠٠٠ جَمَل ادَّعى المَلكُ أنه استولى عليها[٤٣] في النَّص المُرفَق. وفي القَرن التالي، أسَرَ المَلكُ آشور بانيبال قطعاناً كثيرة من أرضِ العرب لدرجة أنه «في أرضي استطاعَ الرجل شراء جَمَلٍ عند باب السُّوق بأفلاسٍ قليلة»[٤٤].

لم ينقَضَّ الآشوريون على العرب مثلما وَصَفَ الشاعر بايرون Byron «ذئبٌ على قطيعِ خِراف»، بل على مِثل عصابة سرقة الجِمال تعمل على نِطاق دَولي. ومن البَديهي بالطبع حِرمانُ العرب من وسيلَتِهم الرئيسية في تنقُّلهم واستقلاليتهم.

تعرَّضَ العربُ لتلك الحالة الأخيرة من النَّهبِ العِقابي الجَماعي (وبالطبع مع استِرقاق البَشَر) بسبب دَعمِهم عَدُوّاً للآشوريين، مثلما فَعَلَ جِنْدِبو قَبل ذلك بقَرنَين، وكان العدو في هذه الحالة هم البابليون، القوةُ العظمى التي تُنافِسُ الآشوريين آنذاك. وفي الوقت نفسه، كان العرب يتجمَّعون ويَجمَعون كلمتهم وقوتهم، وظَهَرت عدة مواضيع من كل ذلك سيَتكرر ذِكرُها مع الزمن.

أولاً، كان جَوهر تشكّل تلك الوحدة المَبدئية الأولى المَعروفة هو مَركزُ حَجٍّ وعبادة في دومة الجندل التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية، والتي كان يقدِّسُها عَدَدٌ من القبائل. كانت أقوى تلك القبائل هي كيانٌ سياسي، ربما نوعٌ من اتحاد فيدرالي بين قبائل اسمها قيدار[٤٥] Qedar التي وُجِدَتْ من نحو ٧٥٠ إلى ٤٠٠ ق.م. وهي غير مَفهومة تماماً، إلا أنها ربما كانت في الواقع أول تجربة وَحدَوية مَعروفة في تاريخ العرب، فيما عدا جنوب شبه الجزيرة العربية، كمحاولة لتشكيل وحدة أكبر من القبيلة التي يَربطُها النَّسَب.

---

(٤٣) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 60.
(٤٤) Ibid., p. 61.
(٤٥) Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language*, p. 14.

وربما لم تكن غير متصلة بموضوع تاريخ العرب بشكلٍ عام، لأنها كانت أولَ تَعبير عن موضوع الوحدة تم إعلانُهُ في مَركَزٍ للحَجّ. سيَبرُزُ هذا الموضوع بشكلِهِ الكامل بعد ١٣٠٠ سنة وعلى بُعدِ ١١٠٠ كيلومتر إلى الجنوب في مكانِ حَجٍّ آخر، هو مَكَّة.

موضوعٌ آخر سَيَرِدُ مرات عديدة هو مَنحُ القوى المُجاورة ألقاباً مَلَكية لزعماء القبائل العربية، وهكذا سَمَّى الآشوريون الزعيمةَ العربيةَ المَهزومة شمسي: «مَلِكة العرب»، كما لَقّبوا زعيمَين قيداريَين هما زبيبة (في العَقد الرابع من القَرن الثامن ق.م.) وحزائيل (في بداية القَرن السابع ق.م.) باللقب المَلكي أيضاً [توضيح من المؤلف]. وفي لحظةٍ ما، في القَرن السابع قَبل الميلاد، فَرَضَ الآشوريون دُميَتَهم «المَلِكة» التي كانت امرأةً قيدارية اسمُها «تبوعة»(٤٦) على ذلك الكِيان. تَسمِيةُ المَلك وصُنعُهُ أحياناً من جِهةِ قوى خارجية هو موضوعٌ سيَتكَرَّر عَبرَ ثلاثة آلاف سنة من تاريخ العرب مع نتائجِه الخاصة بالهوية العربية والتَّضامن العربي.

موضوعٌ ثالث سيَعودُ للظهور بانتظام مِراراً في الزمن هو الطريقةُ التي سيَستَخدِم بها الآشوريون العربَ كَمَصَدٍّ ضِدَّ خصومِهم عندما لا يُطَبِّقون عليهم عقوباتٍ بسبب تحالُفِهم وانحيازِهم لِقُوى أخرى. كان ذلك مُهماً بشكلٍ خاصّ في حالة مصر. يُرجّحُ مَصدرٌ للمؤرخ هيرودوت Herodotus أيضاً أن الفُرس سيَستَخدِمون العرب لكي يَعزلوا منطِقَتِهم عن المَصريين في القَرن الخامس قَبل الميلاد(٤٧). سيَتكَرَّر هذا التَّعايش والفائدة المتبادَلة خلال آلاف السنين بعد ذلك.

كان العرب هامشيين بشكلٍ عام تجاه جيرانهم الشماليين الآشوريين والبابليين ثم الفُرس بَعدَهم، إلاّ أنهم كانوا مفيدين جداً عندما لا يُسببوا الإزعاج. كان المتوقع منهم ـ ولو أنهم لا يستطيعون الانصياع والخضوع أبداً ـ هو أنه يُمكن قيادتُهم على الأقل، ويُقِرّون بالجَميل كما يَنبَغي. يُسَجِّلُ آشور بانيبال مثلاً بعد حَملَتِهِ على العرب أنه «سألَ أهلُ العرب بعضهم بعضاً: لماذا حَلَّ هذا الدَّمار بأراضينا؟ لأننا لم نلتَزم بعهود آشور العظيمة

(٤٦) Hoyland, Ibid., p. 134.

(٤٧) Ibid., p. 63.

وأخطأنا تجاه كَرَم آشور بانيبال»[٤٨]. كثيرٌ من العرب الذين يَقرؤون هذا الآن سيَسمَعونَه كأنما هو إعلانٌ مُبكرٌ لموضوع متكرِّر آخر حتى هذه الأيام؛ موضوع متكرّر في علاقاتهم مع القوى العظمى حتى في فترة ما بَعدَ الحرب الباردة: التَزِمْ بالمَسار وإلا ستَدفَع الثمن.

يقَعُ هلالٌ متصَدِّعٌ من الإمبراطوريات في الشمال التي قد تتلاقَى مصالِحُها أو تصطَدِمُ مع مصالِح العرب، وكذلك في الجنوب حيث الجِبال المُمطِرة والهِضاب والأنهار الجارية، وحيث تَنحَدِرُ الأودية نحو البراري، وتوجَدُ مَمالك راسِخة مستقرة توحَّدَتْ في إمبراطورية في فترات مختلفة عبر آلاف السنين قَبل الإسلام. كانت إمبراطورياتٍ صغيرة في امتدادِها، ولكنها قوية بِتأثيرها الثقافي، وكانت سَبَأ أهمّ تلك المَمالك العربية الجنوبية.

في البدء، لا يَكاد يَرِدُ ذِكْرٌ للعرب في نقوش المَمالك الجنوبية، ولا يَبدأ ذِكرُ المُغيرين من المنطقة الشمالية بوضوح في السِّجلات الجنوبية[٤٩] إلا منذ آخر عُقودٍ قَبل الميلاد وما بَعدها، ويَرِدُ ذِكرُهُم غالباً كمُقاتِلين مأجورِين. الاستِنتاجُ الواضح هو أن العرب انتَشَروا جنوباً من الحدود الصحراوية للهلال الخصيب في الجزء الأخير من الألف الأخيرة قَبل الميلاد. حتى عندما يَبدؤون بالظُّهور بشكلٍ منتَظم في النقوش الجنوبية[٥٠]، فَحسب بيستون A.F.L. Beeston، الباحثُ الكبير في النصوص، «من الواضح أنهم عناصر دَخيلة لم تَندَمج تماماً في الثقافة الجنوبية العربية النموذجية»، وهكذا فقد كان العرب في الجنوب شعباً منفَصِلاً مثلما كانوا في الشمال.

سيَحدُث الاندماج مع الوقت إنما في اتجاهٍ غير متوقَّع؛ إذ سيَتَعَرَّبُ سكان الجنوب ثقافياً ولغوياً. إنه الإعلان الأول لمَوضوع متكَرِّرٍ آخَر سيُصبحُ مهمّاً جِداً في التوسّع الهادِر للإمبراطورية العربية التي ارتَبطَتْ بالإسلام، والتي كان فيها «التَّحَول» اللغوي والثقافي دائماً أكثر عُمقاً وشُمولاً[٥١]،

---

(٤٨) Ibid., p. 62.

(٤٩) there is a lone appearance of arab in a single Sabaean inscription of the seventh or sixth century BC: Ibid., p. 230.

(٥٠) Alfred F.L. Beeston, "Kingship in Ancient South Arabia," *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 15 (1972), p. 257.

(٥١) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 93.

وربما سُرعةً، من التَّحول الدِّيني. وبالفِعل، فسَينضَمُّ السَّبئيون وغيرهم من شعوب الجنوب تماماً إلى عالَم العروبة بحيث أصبح جميع سكان شبه الجزيرة العربية «عرباً» على حَدٍّ سواء من وجهة نظر الجاحظ، الذي قال في القَرن التاسع: إن «العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة والأخلاق والشيم واحدة واللغة واحدة»(٥٢) (ولكن كيانَهم السياسي لم يَتَوحَّد أبداً).

والأكثر من ذلك هو أن سكان الجنوب عَرَّبوا أنفسَهم كما سنَرى لدَرجة أنهم أعادوا تَعريفَ أنفسهم تماماً بأنهم هم العرب الأُصَلاء. سيَتَذكَّرُ المؤرخون الأكثر تطوراً دائماً الفَرقَ بين العربي الصحيح والعربي الجنوبي. فمَثلاً يُصَنِّفُ ابن خلدون ثلاث مجموعات من «السَّاميّين»: «انحَدَرَ مِنْ نَسلِ سام بن نوح العربُ والعَبرانيون والسَّبئيون»(٥٣) [غير حرفي]. ويَقصِدُ بالسَّبئيين الشعوب الجنوبية بشكلٍ عام. مازال الانقسام العربي ـ العَبراني يُطارِدُ التاريخ، أما التمييز بين عرب الشمال والجنوب فقد انتَهى وكاد أن يُنسى تماماً، ولكنّ ذكرياتهم تَظهَر من حين لآخر، ويُحييها مَثلاً المُتحارَبون تحت نافِذَتي، والذين قد يفهَم صراعهم حسب بعض التفسيرات على أنه خلافٌ بين عرب الجنوب والشمال. وكما ذَكَرَ أحَدُ المُعلِّقين عن الانقسام القديم بين الشمال والجنوب، «ربما يكون مفيداً لعلماء السياسة أن يَمتَلِكوا هذه النظرة الإضافية لتَفسير صعوبة تحقيق الوحدة العربية»(٥٤).

هذا الإدراكُ هو قمةُ الجبل الجَليدي لهذه الرؤية؛ فمثلاً، عند النظر إلى الشمال فإن المزارعين الأصليين غير القَبَليين المُستقرِّين في الهلال الخصيب الشمالي سيأخذون وقتاً أطولَ بكثير كما سَنَرى لكي يتم قَبولهم في عالَم العروبة في أوائل العصر الإسلامي مما احتاج إليه نُظَراؤهم الجنوبيون. كما

(٥٢) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ١١٢.

(٥٣) أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١**، عارضها بأصولها وعلّق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي؛ حررها وقدم لها نوري الجراح (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ أبو ظبي: دار السويدي، ٢٠٠٣)، ص ٣٨٩.

(٥٤) Edward J. Keall, reviewer, "The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads by Jan Retsö," *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 330 (May 2003), p. 98.

أن ذلك القبول تم على مَضَض وبشكلٍ غير كامل. يَميلُ التعبير عن الانقسام والتَّفرقِ الكامِنِ للظُّهورِ بأشكالِ صراعٍ طائفي سنّي ـ شيعي، مثلما يَحدُثُ الآن في العراق.

يكفي هذا في الشعوب التي لم تتَّسم بصفات العروبة. أما العرب القدامى بحَدِّ ذاتهم، فللبَحثِ عن هويةِ وحقيقةِ هؤلاء الناس الهامِشِيّين المبهَمين، يجب علينا النَّظَر في السِّجلات المقتَضَبَة البليغة التي تَركوها عن أنفسِهم. وبالنسبة لأناسٍ ليس لهم وَطَنٌ مُحدَّدٌ، ولا تمثيل واضح في ثقافة مكتوبة، فقد تَركوا كميةً مدهِشة من الكتابات.

«سالم كان هنا»

في الصحاري الصخرية التي تمتد في المناطق التي أصبَحَت الآن سورية والأردن وشمال المملكة العربية السعودية، حيث تَتَّصل شبه الجزيرة بالهلال الخصيب، أي بالضبط في المنطقة التي انتَشَر فيها العرب الأوائل مع قطعانهم، توجَدُ عشرات الآلاف من الرسوم البدائية التي نُقِشَتْ في الصخور التي تُلَوِّنُ وتُشَكِّلُ المَنظرَ الطبيعي[٥٥]. الكتابةُ الرئيسية المستخدَمة هي النَّبَطِيَّة، وهي سَلَفُ الكتابة العربية. تاريخُها أحدَث بكثيرٍ مِنَ الإشارات الأولى عن العرب في المَصادر الآشورية والتوراتية، وربما تَعودُ إلى أواخر الألف الأخيرة قَبل الميلاد. ولكن، قَبلَ ظُهورِ النَّبطية في الثلث الأخير من تلك الألفية، ربما لم يكن لدى الكتّاب حروفٌ للتعبير عن أنفسهم. لم تكن اللغةُ عربيةً تماماً كما نَعرفُها الآن، ولكنها كانت قريبة منها، ربما أقرَب من تَشابُهِ اللغة الأنغلوسكسونية مع اللغة الإنكليزية. إن نَستخدِم التصنيف اللغوي بشيءٍ من المرونة، فلا نَبتَعِدُ كثيراً إذا قُلنا إنها أول وثائق عربية أصيلة مَوثوقة. وعلى الرغم من أن كلمة «عرب» لا تَظهَر فيها، فقد يكون من المؤكَّد بأنها أولى الوثائق التي سَطَّرَها العرب.

ألا يُدهِشُ المَرءَ ذلك الادّعاء؟ أليس العرب البَدو الأوائل تَلخَّصَتْ عروبَتهم بالعَيش «بعيداً في الصحراء ولا يَعرفون المُشرفين ولا الموظَّفين

(٥٥) Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language*, p. 16.

الحكوميين»[٥٦]، كما وَصَفَهُم الآشوريون. أليس هؤلاء آخرَ مَن يمكن أن يَستَخدِم الكتابة؟ ومع ذلك يبدو أنهم قد فَعَلوا ذلك. أفضَلُ تفسير لذلك هو أنها كانت لُعبَةً لتَمضِية الوقت. لو كنتَ جالِساً في ظِلِّ صخرة تُراقِبُ الجِمال وهي تَرعَى طوال اليوم، فسيكونُ لديكَ رغبةٌ تَصعُبُ مقاوَمَتُها لالتقاطِ حَجَرٍ تَنقُشُ به على الصخرة، وأنْ تَرسُمَ على الصخرة ما يمكنكَ رؤيته في ذلك المَنظر الطبيعي البسيط، مثل الجِمال، ربما يكون مُرضِياً فَنِّياً. وبالفِعل، فإن رُسومَ الجِمال كثيرة. ولكن الرِّضَى بِرَسم الجَمال سَيَزولُ في النهاية، وستُصبِح كتابَةُ اسمِكَ، وربما نَسَبِكَ، أكثرَ متعَة، لأنها تَصريحٌ بالفَردية، وإعلانٌ عن الانتماء إلى عائلة أو قبيلة. إذا اقتَضَى ذلك استيراد أحرُفٍ من جيرانِكَ النَّبطيين، فلا يختلف ذلك عن استيراد مُنتَجات أخرى من المجتمعات المستقرّة، مثل أسِنَّة الرِّماح ونِصال الخناجر. يَطرَحُ ماكدونالد M.C.A. Macdonald تَشبيهاً مُفيداً مع بَدو الطَّوارِق في هذه الأيام الذين «لديهم نظامُ كتابَتِهم الخاص وهو أبجَديةُ التيفيناغ Tifinagh، التي يَستخدِمونها للتسلية فقط». إلا أن الكتابَةَ من أي نوع كان ليسَتْ للتسلية المَحضَة[٥٧]، وفي التصريح «كنتُ هنا» فإن الكتَّاب على مَرِّ العصور يضَعون تَصريحاً تاريخياً.

تُسمَّى لغةُ هذه الرسوم: «العربية الشمالية»، ولها تَنويعاتٌ مختلفة، أكثرها شيوعاً فيما سَمَّاهُ الآشوريون «أرض العرب» تُعرَفُ باسم «الصَّفائية»، نِسبَةً إلى «الصَّفا»، وهو الاسم العربي للسُّهوب المليئة بالصخور البركانية حيث وجِدَتْ أكثر هذه الرسوم. يُعرَفُ حتى الآن نحو ١٨٠٠٠ من الرسوم الصَّفائية[٥٨]، أغلبها أسماء، وأغلب الأسماء فيها نَسَبٌ، «مثل: فلان بن فلان بن فلان...»، ويمتدُّ النَّسَبُ أحياناً إلى خمسة عشر جِيلاً أو أكثر (كم تتذكّر من أجيالِ أسلافِكَ؟)، ومِنَ المدهِش في الحالات التي ساعَدَ فيها الحظ والصبر البَحثي أن يَثبُتَ اتِّساقُها عند المُقارَنة مع نقوشٍ أخرى[٥٩].

(٥٦) انظر: ص ٧٤ ـ ٧٥ من هذا الكتاب.

(٥٧) Macdonald, Ibid., p. 7.

(٥٨) Michael C.A. Macdonald, "Nomads and the Ḥawrān in the Late Hellenistic and Roman Periods: A Reassessment of the Epigraphic Evidence," *Syria*, vol. 70 (1993), p. 304.

(٥٩) Ibid., p. 384.

وهذا ما يعادِلُ في الوقت الحاضِر أن يتذكَّرَ شخصٌ نَسَبَهُ بالرجوع إلى زمن شكسبير أو الآباء الحُجَّاج.

لم يتحدَّث كتّاب النقوش عن شجرة عائلاتهم فقط، بل هناك وَمَضاتٌ من الحياة اليومية مثل ذلك الراعي الذي «قضى أوائلَ الربيع في هذا السَّهل يأكلُ الكَمأ»(٦٠)، وتفاصيلُ أكثر إثارةً مثل ذلك الشخص الذي اسمه «سالم» (لا توجَد أحرفٌ صوتية وقد يكون اسمُهُ: سالم، سلام، سليم، أسلم...)، بن مَن بن سلم بن بَدر بن ذن مِن عشيرة أو قبيلة آل عبشت، الذي «ساعَدَ النِّعاج في الولادة، فلتَحْمِهِ اللّات»، ثم رَثَى ابنَهُ «منءل» الذي ماتَ وهو حزينٌ مكتَئب(٦١). يمكن التّعاطف مع أحزانِه حتى الآن. هناك بعضُ اللطائِف أيضاً، إذ نَقَشَ كاتبٌ آخر أنه «كان مريضاً بالحب... لامرأةٍ استَمتَع بالعَلاقة الجنسية معها»(٦٢). وهناك بعضُ الفُحشِ أيضاً، مثلما أضافَه بعضُ الكتّابِ من «أشياء غير مهذَّبة»(٦٣) إلى كتابات منافِسيهم. هناك أيضاً كثيرٌ من الافتراضات المُرهِقة بين مُفَسِّري تلك الأصوات القديمة، فهل يَعني الفِعلُ «ءتم» مَثَلاً «أتَمَّ وأنهَى»، أم «أقام مأتَماً»، أم «أتَمَ»؟(٦٤) فتِلكَ هي النقوش، والسِّياقُ في الغالب بسيط مثل بَساطَة المَناظر الطبيعية حولَها.

لعلَّ الأكثرَ مَدعاةً للدَّهشة هو السِّياق الاجتماعي واستمراره، إذ تتكَرَّرُ أنماطُ الترحال الريفي التي يمكن استنباطها من النقوش، ليس فقط في الماضي: «هذا هو موقِعُ خيامِه سنةً بعد أخرى»(٦٥)، بل حتى إلى الحاضر. وكذلك يَحدُثُ ذلك في الكلام، ففي أحَدِ النقوش يُسجِّلُ الكاتب أنّ «سَيلاً قد دَفَعَهُ للهَرب في فَصلِ سُهيل»، أي في أواخر آب/أغسطس عندما يظهَر نَجمُ سُهيل. وفي المنطقة ذاتها في القرن العشرين بَعدَ نحو ٢٠٠٠ سنة يُحَذِّرُ

(٦٠) Michael C.A. Macdonald, "The Seasons and Transhumance in Safaitic Inscriptions," *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 2 (1992), p. 3.

(٦١) Macdonald, "Nomads and the Ḥawrān in the Late Hellenistic and Roman Periods: A Reassessment of the Epigraphic Evidence," p. 366.

(٦٢) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 207

(٦٣) Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language*, p. 16.

(٦٤) F. V. Winnett, "Studies in Ancient North Arabian," *Journal of the American Oriental Society*, vol. 107, no. 2 (April-June 1987), p. 239.

(٦٥) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 206.

مَثَلٌ يَرويهِ بَدو قبيلة الرُوَلَّه: «إذا طلع سهيل لا تأمن السيل»[٦٦]. وهناك موضوعٌ آخر مَذكور في كلمات وعبادات، ويظهَر في صور، وسيُكَرِّر نفسَهُ بانتظام كارثيّ، وقد «لَعِبَ دون شك دَوراً في الثقافة والاقتصاد»[٦٧]، هو الإغارة على قطعان الآخرين.

انتقَلَ الرَّعي والإغارة بهؤلاء الناس إلى السهول، وأبقاهم في حالَةِ ترحال، وأدّى إلى عدم اتِّحادِهم سياسياً. بدأ هذا النَّمَط قَبل تلك الأصوات القديمة بزمن طويل، قَبل الآشوريين وقَبل الفَصل الأول من التوراة.

وِلد من شجرة الرِّمثَة

هناكَ أسطورة قديمة تَدَّعي أنّ الجَمَل قد خُلِقَ مِن شجرة الرِّمثَة[٦٨]، شكَّكَ بها الجاحظ الذي رَوَى الأسطورة، ولكنه يقول إن طَعمَها المالح لا يَتقبَّله إلا الجَمل. هناك حَبَّةٌ من الحقيقة بين حَبَّات الملح الكثيرة: فالجَمَل بكل تأكيد هو الحيوان المُدَجَّن الذي يستطيع العَيش في أمكِنة قاسية، وأن يأكل أطعِمَةً لا يستطيع غَيره تناولَها.

كُتِبَ كثيرٌ عن تاريخ الجَمل[٦٩]، ويبدو الإجماع على أنه قد تم تَدجينُه من أجل الحصول على الحليب في الألف الثالثة قَبل الميلاد[٧٠]، ربما في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية[٧١]. تطَوّر استِخدَام الجِمال في التَّنقل خلال الألفية التالية. ومما لا شك فيه هو أنه في أوائل الألفية الأولى قَبل الميلاد بدأ ظُهور البَدو الرَّاكِبين على الجِمال في السِّجلات المَكتوبة لجيرانهم. تطَوَّرَ استِخدَام الجِمال كحيواناتِ نَقلٍ ورُكوب إلى دَرجةٍ عالية، وانتشَر إلى شمال شبه الجزيرة، ومع حلول زَمَنِ أولِ ذِكْرٍ مَكتوب عن العرب

---

(٦٦) Macdonald, "The Seasons and Transhumance in Safaitic Inscriptions," p. 2, with my rhyming version of the rhyming original.

(٦٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, pp. 761-762.

(٦٨) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٣٢.

(٦٩) أكثر إثارة للاهتمام: Richard W. Bulliet, *The Camel and the Wheel* (New York: Harvard University Press, 1975).

(٧٠) Jared Diamond, *Guns, Germs and Steel* (London: Vintage, 2005), p. 167.

(٧١) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 90.

سنة ٨٥٣ ق.م(٧٢) كانت الجِمال عمَلاً تجارياً كبيراً بالنَّظَر إلى أن جِنْدِبو العربي تمكَّن من تأجير نحو ألف حيوان (من المُفتَرض أنه لم يُقدِّمها مَحَبَّةً). وكما رأينا بعد ذلك، سرعان ما بدأ الآشوريون بنَقلِ الجِمال بعَشرات الآلاف، على الرغم من أن المَرء يجب أن يَحذَر من كثرة الأصفار في العَدَد.

أهميةُ الجَمل في حياة العرب القدماء واضحةٌ جداً في الطقوس التي كانت تُتَبَع عند وفاة أحدِهم، ويمكن مشاهدة لَمحَة من تلك الطقوس فيما أنشَدَه شعراء القَرن السادس. إذا كان المُتوفَّى مقاتِلاً، يُربَطُ جَملُ ركوبٍ إلى قَبرِهِ حتى يموت، أو ربما يُذبَح الجَمل ويُدفَن مع صاحبه(٧٣)، وذلك مثلما كان يَفعَلُهُ المَغول مع أحصِنتِهم، والفايكينغ مع سُفُنِهم. يُفتَرَضُ أن العربيَّ المُقاتِل المُتَوَفَّى يَحتاجُ إلى وَسيلةِ نَقلٍ لكي يُصبح مُرتَحِلاً بَعدَ وَفاتِه. ذَكَرَتْ هند بنت الخُسّ الخَطيبةُ القديمة التي يُقالُ إنها تَنتَمي إلى بقايا قبيلة عاد البائِدة، في تلخيصٍ أنيقٍ عن الفوائد العديدة للجِمال الحَيّة بأنها: «أركابُ الرجال، وأرقاء الدِّماء، ومهور النساء»(٧٤)؛ أي إنّ الجِمالَ حَمَّالَة، ولكنها كذلك عُملَةٌ تُدفَعُ بها دِيَةُ القتيل وبذلك تَمحو العَداوات، كما يُدفَع بها مَهرُ الزوجة. ولكن أهمّ أدوار الجَمل هو أنه وسيلةُ نَقلٍ، وسيُصبح ذلك دَوراً في كثير من أنحاء العالَم، فعندما حَذَّرَ خليفةُ المسلمين الثاني عُمر قادةَ العرب الفاتحين ألا يذهَبوا إلى أي مكان لا يَستطيعون الوصولَ إليه على ظَهرِ جَمَل(٧٥)، كان ذلك يَعني عملياً لا أقلَّ من أغلب مناطق الأرض في أفريقيا وأوراسيا.

كانت بدايةُ تاريخ هذا التَّنقل أبسَطُ بكثير، ومع ذلك فإن الجَمَل هو

(٧٢) انظر: ص ٢٦ ـ ٢٨ من هذا الكتاب.

(٧٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٣، ص ١٤٩، و Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), s.v. blw.

(٧٤) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٧٥) ورد في: Bernard Lewis, *The Arabs in History*, 6th ed. (Oxford: Oxford University Press, 1993), p. 126.

الذي مكَّنَ البَشَر الذين سيُسَمَّونَ «العرب» من اقتِلاعِ أنفسِهم من الهلال الخصيب، والتَّوَجُّهِ إلى ما وراء حُدودِ الحضارة، والخوضِ في براري الجنوب، التي كانت في نظِر السَّاميين الحَضَر بمثابة براري الغرب لدى المُستعمرِين في أمريكا. كان الجَمَلُ هو الذي جَعَلَ الناسَ أعراباً (عرباً) في البداية. ربما كانت جاذبية البراري مَحدودَة بالنسبة إلى معظم الناس المستقرّين، ولكنْ وَضَّحَها عربيٌّ للحاكِم الفارسي كسرى أنو شروان في القَرن السادس بقوله:

مَلَكوا الأرض ولم تَملِكهم، وأمِنوا عن التَّحَصن بالأسوار، واعتَمدوا على المُرهَفات الباتِرة، والرماح الشَّارِعة جُنَناً وحُصوناً. فمَن مَلَك قطعة من الأرض فكأنها كلها لَه[٧٦].

كانت هنالك مَفاتِنُ أخرى يمكن تَسميتُها نفسية ـ جسدية:

فتأمَّلوا شأن المُدن والأبنية، فوجَدوا فيها مَعَرَّةً ونَقصاً، وقال ذو المعرفة والتمييز: إن الأرضين تَمرضُ كما تَمرضُ الأجسام، وتَلحَقُها الآفات. والواجب تَخَيُّر المواضِع بحسب أحوالها من الصَّلاح.

وبالطبع فإن العقول السليمة في الأجسام السليمة، «ومع تهذيب الأحلام في هذه المَواطِن، ونَقاء القَرائح في التَّنقل في المَساكن، مع صِحة الأمزِجَة، وقوة الفِطنة، وصَفاء الألوان، وصِيانة الأجسام، فإن العقول والآراء تتولَّد من حيث تولّد الهواء، وفي هذا الأمن من العاهات والأسقَام والعِلل والآلام، فآثرَت العرب سُكنى البوَادي، والحُلول في البَيداء»[٧٧]. نداءُ الصحراء ليس مجرد وَهمٍ أو فكرةٍ غربية استشراقية.

أما بالنسبة لهوية الناس الذين استَجابوا لِنداء الصحراء، فيمكننا فقط أن نَتَخَيَّل أن أصولَهم كانت من المزارعين والتجار من البَشَر المُستقرِّين[٧٨]، مثل أولئك المُستكشِفين الأمريكان من رعاة البقر والرّواد. أن يكون المَرءُ عربياً ربما كان في البداية مسألةَ اختيارٍ، أو حاجة ضرورية وليس نَسَباً

---

(٧٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ١٢١.

(٧٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٠.

(٧٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 872.

وولادَة؛ أي أن يُصبح المَرءُ عربياً. وربما كان الناس الذين جَذَبَتْهم الحياةُ في البراري العربية متَنوعِي الأصول، مثل غُزاة الغرب الأمريكي.

«العرب» أم «عرب»؟

هناك احتمال يَقبَلُه الباحثون الأوائل في تاريخ العرب ضمنياً، وهو أن كلمة «عرب» تعني بمَعناها الدَّلالي الأولي «مُتَنوعِي الأصول». يَذكُر كتَّاب المَعاجِم العربية أيضاً أحَدَ مَعاني كلمة «عرب» بأنه «جَماعَةٌ مُتَنَوِّعَة مُختَلِطَة»[٧٩]. إذا كانت الحال كذلك فهي تتضَمَّن منذ البداية تفرُّقاً متأصِّلاً ومُحاوَلَةً للوحدَة. ومن المؤكَّد أن كثيراً من الأسماء الأخرى لِفِئات الناس في شبه الجزيرة، وهي أسماء استمرَّتْ طويلاً، تَستَمدُّ أصولَها من جُذورٍ تَحمل مَعنى «ضَمَّ» أو «وحَّدَ» أو «تَحالَف». تَشملُ هذه الفئات تَحالُفَ الجنوب الكبير من قَبائل «حاشِد» (حَشَدَ تَعني جَمَعَ الناس مع بعضهم)[٨٠]، وقبائل «بَكيل» (بَكَلَ تَعني خَلَطَ وربَطَ)، كما أن قبيلة النبي محمد هي قرَيش (تَقَرَّشَ تَعني جَمَعَ أو تَجَمَّع)، وربما الشعب الجنوبي العربي حِميَر (مِنَ السَّبَئية «حمر» وهو نوع من الحِلف أو التَّحالف بين مجتمعات)[٨١]. لا شك بأن عِلمَ أصول الكلمات السَّاميّة هو منطقةٌ مَحفوفَةٌ بالمَخاطر، لأنها ساحَةٌ من المَعاني مَسكونَةٌ بالسَّراب السَّاحِر، ومن السَّهل على المَرء أن يَجعلَ الأشياءَ تَعني ما يُريدُ منها، إلا أن مثل هذا التَّوافق في المَعنى في هذه الأسماء أبعَدُ مِنَ الصُّدفَة أو الخَيال.

رؤيةٌ أخرى مَقبولَة منذ زمن طويل هي أن «عرباً» كانت تَعني في الأصل «بَدوَ الصحراء»[٨٢]؛ أي إن مفردتَي «البَدو» و«العرب» لهما الدَّلالة نفسها. من المؤكَّد أن تلك كانت هي الحالَة في الكتابات الآشورية

---

(٧٩) Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon*, s.v. ʻarab.

(٨٠) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣)، ص ١٩٧.

(٨١) Alfred F. L. Beeston [et al.], eds., *Sabaic Dictionary* (Beirut; Louvain-la-Neuve: Peeters, 1982), s.v. ḤMR II.

(٨٢) D. M. Dunlop, *Arab Civilization to A.D. 1500* (London: Longman Group Ltd.; Beirut: Librairie du Liban, 1971), pp. 5-6; Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), p. 41, and Lewis, *The Arabs in History*, pp. 2-3.

والجنوبية العربية المبكرة. ومن المؤكَّد أيضاً أنه المَعنى فيما بَعد وحتى الأزمنة الحديثة، وحتى في القرن العشرين، فإن معظم الناس الذين يَفتَخرون بتَسميتِهم «العرب» الآن سيَمتَعِضون إذا تم تَصنيفُهم بصِفَةِ «الأعراب» أو «البَدو». هل كان ذلك هو المَعنى «الأصلي»؟ ذلك أمرٌ يَصعبُ الاتفاقُ عليه، ومع ذلك لا يوجد شكٌّ بأن المَعنى الآخر لـ «العرب»، وهو: «النَّاطِقون باللغةِ العربية»، ليس مَعنى قديماً. يَضَعُ بعضُ الباحثين تاريخَهُ في الفترة الإسلامية[٨٣]، ولكن كما سيَظهَر لاحِقاً فإن وَعيَ العرب لأنفسِهم كجماعةٍ إثنيةٍ يَعتمِدُ جُزءٌ من هويتها على اللغة المشترَكة قد بَدَأ قَبل ذلك بكثير.

هناك احتمالات أخرى؛ فبالنَّظَر إلى كلماتٍ مشابِهة فإن كلمة «عرب» قد تتَعلَّق بمَعنى: «القادِمون من الغرب»[٨٤]، أي من غرب شبه الجزيرة العربية. وتَتراكَم الاحتمالات، فقد دَرَسَ مطَولاً أحَدُ الدَّراسِين المتحمِّسين للعرب، هو يان ريستو Jan Retsö، كلَّ المواد الأولى المُتوفِّرة، واستَنتَج أن «العرب» كانوا جماعات هامشية يقودُها أبطالٌ، ويعيشون في خِيام، ويَحمون مَراكِز تعبُّدية، وهم مَعروفون بالكَهانَة، وبكونِهم حُرَّاس الحُدود، وأنهم بشكلٍ خاص «أولئك الذين دَخَلوا في خِدمَة إلهٍ مقدَّس وظَلّوا عبيداً أو مَملوكِين لَه»[٨٥]. لا شك بأن كل ذلك غير قابِلٍ للإنكار، أو لا جدال فيه، ولكنه كتعريف فإنه يبدو واسِعاً ومحدَوداً في الوقت نفسه؛ فهو واسِعٌ جداً بمَعنى أن الصِّفات كثيرة جداً، وهو مَحدودٌ بمَعنى أن كثيراً ممَّن اعتُبِروا عرباً في الماضي لا تَنطَبقُ عليهم جميعُ هذه الأوصاف.

لأسبابٍ لُغوية ستُوضَّحُ في الفقرة التالية، فإنني أميلُ إلى الاحتمال الأول في مَعنى «عرب» المَذكور سابقاً: خليطٌ أو اتِّحادٌ. ولكن لكي نكون صادقين في النهاية، لا يمكننا، وربما لا نستطيع فعلياً أن نَعرفَ المَعنى الأصلي للكلمة. قالَها المفكّر المَصري طه حسين بقوة: إننا [illegible]في ارتباكٍ

---

(٨٣) انظر على سبيل المثال: Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), p. 51.

(٨٤) Ibid., pp. 52-53.

(٨٥) Ibid., p. 598 and passim.

تام»[٨٦] [غير حرفي] حول المَعنى. يبدو أنكَ عندما تحاول سَحبَ المَعنى من أعماق بِئرِ أصولِ الكلمات فإنه يأتي مُوحلاً وغامِضاً.

بشكلٍ عام، يبدو أنه من الصعب وَضع أساسٍ جيد لكتابة تاريخ للعرب إذا لم نَعرف ما هو مَعنى اسمهم. ولذا فربما الأفضل عدم التَّحديقِ في بِئرِ أُصولِ الكلمات، بل النَّظر بَدَلاً من ذلك وراءَ الأفق، وعدم الحَديث عمَّن هُم العرب بالضبط، ومَن الذين كانوا على وَجهِ التَّحدِيد، إنما الحديث عَمّن يُشبِهون، وكيف وجِدوا في ظروفِ الإنسانية الأوسَع. تأتي مقارنةٌ مفيدة من منطقة آسيوية أخرى تقع إلى الشرق من بلاد العرب؛ تقولُ المؤرخةُ الهندية روميلا ثابار Romila Thapar عن الآريين: «مِنَ المَشكوكِ فيما إذا كان الاصطلاحُ «آريا *arya*» قد استُخدِم في أيّ وقتٍ مَضى بمَعنًى عِرقِيّ»[٨٧]، وربما قالَت الشيءَ ذاتَه عن «العرب»، أو بشكلٍ أصح عن «عرب». وهناك تشابهات أبعَد، فقد تَسلَّلَ كلّ منهما في شبه قارّة، وكل منهما شَعبُ رعاةٍ مُتنقِّلين مُهاجِرين ناهِبين (للأبقار/للجِمال)، وكان في كل منهما طَبقاتٌ من العَرَّافين، وخُبراء خارِقون (الريسي/الكَهَنة)، ومن المهم أن كلاً منهما قد طَوَّرَ تعريفاً لُغَوياً ذاتياً قوياً يُميّزهم عن غيرهم ممن لا يتَحدَّثون لغاتهم (الملشّا/الأعاجِم)، كما طَوَّرَ كلٌّ منهما بشكلٍ مبكر أدبياتٍ شفهية بديعة كُتِبَتْ بَعدَ قرون عديدة (الفيدا/الشِّعر الجاهلي)، كما طَوَّرَ كل منهما خطاباً مقدَّساً مَهيباً مُبهَماً انتَشر بَعد ذلك كلُغةِ ثقافَةٍ مَكتوبَة (السَّنسَكريتية/العربية الفصحى)، والتي أصبَحتْ مُتَحَجِّرَة[٨٨].

كل هذا ليس أكثر من خطوطٍ متوازية عامة رُسِمَتْ بين الأعراب والآريين، وربما يمكن رَسمُ خطوطٍ متوازية مماثِلة بين الأعراب وكثير من الشعوب المُتنقِّلَة، مثل الإسكندنافيين والمَغول والكِلتيين وغيرهم. ولكن مثل هذه الخطوط ربما تُحدِّدُ شيئاً عن وَضعِ العرب في تاريخ الإنسانية العام. وربما الأهم من ذلك هو أنها توضح كذلَك أهميةَ اللغة في تغيير ما يبدو في

---

(٨٦) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ٢٧.

(٨٧) Romila Thapar quoted in: John Keay, *India: A History* (London: Harper Collins, 2004), p. 19.

(٨٨) عن الآريين، انظر: Ibid., pp. 20, 24, 34-36, 59, 132, 151 and 153.

الأصل أنه اسم مشترك (آريا/عرب) إلى اسم عَلَم (الآريين/العرب). وبالعودة إلى فكرة أن «عرب» تَعني «جماعة مُتَنوِّعة»، فإذا لم تجمَعهم الوراثة، يبدو أنهم قد ارتَبَطوا باللغة على مَرِّ الزمن.

أبناءُ سام

يبدو أن جميع شعوب شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب تقريباً، سواء كانوا مستقرِّين أو متنقِّلين، قد استَخدَموا لغات متقارِبة، كما يَظهَر منذ وجود سجِلاتِهم المَكتوبة على الأقل. وتَرجعُ جميع هذه اللغات إلى ما أطلَق عليه علماءُ اللغة الألمان في القَرن الثامن عشر اصطلاحَ العائلة السَّاميّة. وهي تَستمدُّ اسمَها من سام بن نوح الذي يدَّعي علماء الأنساب التقليديون أنه جَدُّ العرب والعبريين وغيرهم من الجماعات المرتبطة به من حيث السلالة. لَعِبَ علماءُ اللغة المتأخِّرون ما يمكن تسميته: «العبة الأوَّلية-proto»، وركَّبوا شجرةَ عائلةٍ للّغات السّاميّة بتَتبُّع كلٍّ منها إلى نسخةٍ مِن جَذرٍ افتراضي أوّلي مثل العربية الأولية proto-Arabic، والعبرية الأولية proto-Hebrew، وهكذا، وجَذرٍ أصليّ عام هو السّامية الأولية proto-Semitic. وبالإضافة إلى ذلك، بتقديرِ مُعدَّلِ حُدوثِ تَغيُّرِ اللغة ثم قياس ذلك بالرجوع في الزمن، يَستطيع الباحِث أن يُقدِّر تقريباً عُمرَ اللغة المَدروسَة. أو بكلمة أخرى، كأنما يستطيع الباحِث أن يَعُدَّ الحلقات في شجرةِ اللغة. افتُرِضَتْ تواريخُ مختلفة لأصل اللغة السَّاميّة الأولية، ومن المؤكَّد أن ذلك بدأ في الهلال الخصيب. والأكثر ثقةً هو أن العربية لها سِماتٌ ثابتة أقدَم من أي لغة سامِيَّة أخرى، وأن بعض هذه السِّمات ربما تفرَّعَتْ عن الأصل السَّاميّ قديماً جِداً، ربما نحو ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق.م. كما أن ذلك الجَذر السَّاميّ ربما لا يكون الجَذرَ الأصلي في الحقيقة، إنما هو نفسه ينتَمي إلى عائلةٍ أوسَع من اللغات الأفريقية ـ الأوراسية[٨٩]... ويَصِل فقط بين هذه اللغات.

كل ذلك أمرٌ ذهنيٌّ فقط يتعلَّقُ بفَكِّ رموزٍ وحَلِّ أرقام وتحليلِ مَنطِق، ولكن بما أننا نَتَعامَل مع شعبٍ بَدَوي لم يَترِكْ آثاراً أثَرية تقَريباً بِحُكمِ طريقة

(٨٩) لوجهات نظر مختلفة، انظر: Jonathan Owens, ed., *The Oxford Handbook of Arabic Linguistics* (Oxford: Oxford University Press, 2013), pp. 15-16.

مَعيشَته، فإن كَنزَ الثروة اللغوية الكبير في دراسة العرب يُشبهُ طروادة [الإغريقية] أو كنوسوس Knossos[*]. قد يكون اكتشافُ الدليل سَارّاً، خاصةً إذا أثبتَ القِدَم والاستِمرار. فمثلاً، يُقدِّمُ جوناثان أوينز Jonathan Owens نموذجَ فِعلَين متَشابهَين بشكلٍ لافتٍ للنَّظر ويُسميهما «العِراقيّ» و«العَرَبي النَّيجيري» ـ إلا أنه يوضح فيما بَعد أن «العِراقيّ» هو في الحقيقة «أكَّادِيّ» من ٢٥٠٠ ق.م، بينما كُتِبَ المِثالُ النَّيجيري في ٢٠٠٥[(٩٠)] ـ: استمرارٌ جغرافي على مسافة ٤٥٠٠ كيلومتر، وزَمَنيّ على مَدى ٤٥٠٠ سنة. وهناك تينك الفُتات والجُزئيات من الأدِلَّة التي تُعقِّدُ الاستمرار حيث خضَعَت الشجرة إلى تَلقِيحٍ مُتبادَل. يَشملُ ذلك في اللغة العربية استِعارةَ كلمات مبكرة، مثل أسماءِ السِّلاحَين اللذَين يَتنافَسان دائماً في القوة، تينك الأداتين الرئيستين في الحضارة ونظيرتيهما، كلمة «كلاموس *kalamos*» في اليونانية التي تُناظِر مفردة «قلم» في العربية، وربما كلمة «كسيفوس *xiphos*» في اليونانية التي تُناظر مفردة «سيف» في العربية[(٩١)]. وماذا عن كلمة «توروس *Taurus*» في اللاتينية وكلمة «ثور» في العربية، وكلمة «أوينوس *oinos*» في اليونانية التي تَعني النبيذ، وتُناظرها كلمة «الوَين» بالعربية، وتَعني العِنَبَ الأسود، وكلمة «وين» بالسَّبئية، وتَعني كَرمُ العِنَب. ولا نَدري أيّاً منهما استَعارَتْ مِن الأخرى. إلا أن الواضحَ هو وجودُ تَبادُلٍ مبكر، وكذلك قد تكون ما أُطلِقَ عليها لُغة ما قَبل السَّاميّة في «الطبقة التحت ـ متوسطية»[(٩٢)] قد اشتَرَكَتْ في أرضيةٍ لُغوية سَبَقَتْها في الحُدود اللغوية بين «السَّاميّة» و«الهندية ـ الأوروبية».

بالعودة إلى اللغة العربية ذاتها، فإن جُذورَها تَقَعُ في «مجموعة اللهجات» من فَرع السَّاميّة الذي يُسمّى «العربية الشمالية»[(٩٣)]. وتَنتَمي تلك اللغات في النقوش الصّفائية والثَّمودية وغيرها إلى مجموعة أخرى من غُصونٍ

(*) في جزيرة كريت، وتُعتَبر أكبر مَوقع أثري من العَصر البرونزي، وربما أقدَم مدينة في أوروبا.

(٩٠) Jonathan Owens, *A Linguistic History of Arabic* (Oxford: Oxford University Press, 2006), pp. 29-30.

(٩١) Geert Jan van Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology* (New York; London: New York University Press, 2013), p. 400, note 717

(٩٢) Giovanni Garbini in: Werner Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix* (Innsbruck; Frankfurt/Main: Pinguin Verlag, n.d. [c. 1988]), p. 105.

(٩٣) Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language*, pp. 16-17.

ميتةٍ تَفرَّعَتْ عن العربية الشمالية نفسها. جميع تلك الألسنة العربية الشمالية مَفهومَةٌ فيما بينها، ربما بسهولة. أما العربية الجنوبية من جهةٍ أخرى (أو من فَرعٍ آخر) فهي تَشملُ لغات الشعوب المستقرّة في جنوب وغرب شبه الجزيرة مثلَ سَبَأ وحِميَر وغيرهما، ولم تكن مَفهومَةً للمُتحدِّثين بالعربية الشمالية. تلاشَتْ وذَوَتْ معظمُ فروع العربية الجنوبية مع زَحفِ التَّعريب والاستِعراب الذي حَدَثَ قَبل الإسلام بكثير. ولكن ظهَرتْ لغاتٌ عربية جنوبية قليلة في أرجاء بعيدة مازال يَنطِقُ بها هذه الأيام عشراتُ الآلاف من الناس في اليمن وعمان. عندما أستَمِعُ في هذه الأيام مثلاً إلى رجالِ الجِبال في جزيرة سُقَطرَى مقابلِ القَرن الأفريقي، أرتَبِكُ كمَتَحدِّثٍ باللغة العربية في محاوَلَة فَهم ما يقولونَه، وأشعُرُ أنني يجب أن أفهَمَ ما يقولون، إلا أنني ألتَقِطُ فقط الجَوهَر الغَريب لكلمةٍ مَعروفَة.

لا تبدو الأمور واضحة تماماً عند تَصنيف اللغات المختلفة في فَرعٍ واحِد، يُقالُ إن السِّمة المميّزة للعربية عادةً هي «ال» التعريف[٩٤]، بينما أداة التعريف في الصّفائية وأخواتها هي «ه» أو «هن». سُجِّلَ أحَدُ أوائل ظُهور أداة التعريف «ال» في القَرن الخامس قَبل الميلاد عند هيرودوت الذي ذَكَرَ «اَلِيلَت» و«الإلَت»، والتي تُكتَب «اللّات»، أو ببساطة «لات»[٩٥] (التي ظهَرتْ في نقوشِ «سالم» الحَزين المَذكور سابقاً)[٩٦]، وهي من آلهة العرب، بالمقارنة مع نَظيرِها «المُذكّر» الإله أو الله. ولكن تَصنيفَ اللغاتِ في الحقيقة باستِخدَام موادِّها المُعَرَّفَة يُشبِهُ تَصنيفَ مُفكّات البَراغي بِحَسَبِ شَكلِ قَبضاتِها بدلاً من تَصنيفِها حَسبَ شَكل رؤوسها. فمثلاً، في اليمن المعاصِرة، يَستَخدِمُ كثيرٌ من المُتحدِّثين بالعربية أداة التعريف «ام»، وحتى النبي محمد، وهو أفضَلُ الناطِقين بالعربية، قد عُرِفَ عنه استِخدَام أداة التعريف «ام» عندما تَحدَّثَ مع أولئك الذين يَستَخدِمونها[٩٧].

---

(٩٤) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 201.

(٩٥) Ibid., p. 607.

(٩٦) انظر: ص ٨٣ ـ ٨٤ من هذا الكتاب.

(٩٧) مثال محفوظ في الحديث «ليس من البر الصيام في السفر». انظر: عبد الله محمد الحبشي، معد، **اليمن في لسان العرب** (صنعاء: مطابع المفضل للأوفست، ١٩٩٠)، ص ٢٢.

تَتضِحُ صعوبةُ مشاكِل التَّصنيف حتى في العائلة السَّاميّة الأوسَع في واحدٍ من أوائل النصوص العربية المبكرة، فهناك كتابةٌ على قَبرٍ من سنة ٢٦٧ الهجرية بمنطقة الحِجْر/مَدائن صالح تَرمي أكواماً من اللَّعنات على كل مَن يُدنِّس أو يُحاوِل إعادةَ استِعمال الضَّريح. كان يُعتَقَد أنها لغةٌ نَبَطِية، وتُصنَّفُ الآن كلغةٍ عربية مع لَمَسات من النَّبَطية[٩٨]. ولتَوضيح تَمازج المُمارَسات اللغوية، فما يُظَنُّ الآن أنه أقدَم نَصّ عربي، وهو ثلاثةُ أسطُرٍ من الشُّكر للإنقاذِ مِن جُرحٍ مُتقيِّح، قد وجِدَ في عين عبدة En Avdat في النَّقب، ويَرجِعُ تاريخُهُ إلى القَرن الأول ضِمنَ نِصّ آرامي[٩٩].

والخلاصة هي أن المَرء يجب أن يَعترِفَ بِعَدم وجود شيءٍ اسمُهُ اللغةُ العربية بصيغَةِ المُفرَد، وإنما كان هناك ومازال حتى الآن كثيرٌ من اللغات العربية. لم تَتفرَّع اللغة العربية أبداً بشكلٍ دقيق تام عن السَّاميّة، ولم تكن مَجموعةَ أغصانٍ مُتجانِسَة، بل غُصونُ نامِيةٍ مُعقَّدة كثيرة الطُّعوم تَحمِلُ سِماتٍ قديمة جِداً وغريبة جِداً[١٠٠]. وإن تَنَوّعَ مجموعةِ اللهجات التي أصبَحَتْ عربيةً في حَدِّ ذاتِها يَعكسُ شُعوراً بأن العرب كانوا جماعةً متنوعَة مختَلطة، وهم تَجَمُّعٌ كُلِّي وراثي ولُغوي كان يَمتَصُّ أعضاء جُدُداً بانتظام منذ غابِرِ الأيام. كل هذا دليلٌ حاسِم على الفترة الأولى من تاريخ العرب، وأنَّ النظريةَ القديمة من «مَوجَة» الهجرة من شبه الجزيرة لا تروي سوى جزء من القصة، فمن الواضح أن تَموّجاتٍ مِنَ البَشَر ظَلَّتْ تَتدفَّق في تَياراتٍ بَشَرية مستمرة من الهلال الخصيب منذ التاريخ التَّقريبي المَذكور سابقاً، والذي يُرَجِّحُ فترة ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ قَبل الميلاد، لأنّ زمن انفصال أقدَم سِماتِ لُغَتِهم عن جَذرِ اللغة السَّامية الأولية ربما يُقدِّمُ مفتاحاً لتقدير متى بدأت التَّموجات، وما هو العمر الحقيقي لأول العرب.

يصعبُ إيجادُ دليلٍ قوي مَحَليّ الصُّنع لتأييد ذلك، ولكنّ ذاكِرَةَ العرب الأسطورية ربما تؤكّد هذا التّنوع اللغوي والوراثي، وكذلك وجود أصلٍ

---

(٩٨) John F. Healey and G. R. Smith, "Jaussen Savignac 17: The Earliest Dated Arabic Document," *Atlal*, vol. 12 (1989), passim, and Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language*, p. 19.

(٩٩) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 32.

(١٠٠) Ibid., pp. 18-21 and 24.

مستقرٌّ في الهلال الخصيب للعرب ولألسَنَتِهم. فمثلاً، تروي إحدى القصص كيف أنه بَعدَ الكارثة في بابل وتَنوّع الألسِنة فإن عَشرة مُتَحدِّثين بالعربية الأصلية انتَشَروا من منطقةِ ما بَين النَّهرَين، واتَّجه كل منهم إلى جزء مختلف من شبه الجزيرة مع عائلته وأتباعه، وأنَشَدَ كل منهم قصيدةً عن نفسه في الطريق؛ «كانوا كلهم من البَدو، وانتَشَروا في أرجاء الأرض»(١٠١) [غير حرفي]. هذه القصة وغيرها من الروايات المُماثِلة تَحمِلُ عَدمَ واقعيةِ الحُلم، ولكنها مِثلَ الأحلام قد تَنشَأ من ذكرياتٍ قديمةٍ مُختَزَنة عن حقيقةٍ يَقَظَة.

لدَى العرب مُفردَةٌ لَها (وغالباً مُفردَاتٌ كثيرة)

كل التَّنَوع المبكر الذي حَدَثَ وتَراكَم فيما بَعد في اللغة العربية يَعني أن قاموسَها غنيّ لدَرجَةٍ مُحرِجَة، فهناك مُترادِفات كثيرة، مثل وجود ٨٠ مفرَدَة لاسم «العسل»(١٠٢)، ٢٠٠ للِّحيَة(١٠٣)، ٥٠٠ للأسد، ٨٠٠ للسيف(١٠٤)، ١٠٠٠ للجَمَل(١٠٥)... والعَدَدُ الأخير يبدو قليلاً. هناك رأيٌ قديم بين دارِسِي العربية يَقولُ إن كل كلمةٍ عربية لها ثلاثة معانٍ: مَعناها، وضِدّها، ونوع من الجِمَال. وهذا القول ليس خَطأً تاماً(١٠٦). هناك مفرداتٌ مُحدَّدة لأشياء لا يستطيع المرء أن يَتخيَّلَ حاجَتَها إلى ذلك التَّحديد، مِثل تمييز فضلات طيور الحُبارى عن فضلات النَّعام، والأنواع المختلفة للضّراط مُصنَّفَةً حسب ارتفاع صَوتِها(١٠٧)، وصوت الجَراد وهو يأكُل(١٠٨)، والمسافات بين الأصابع(١٠٩)، فلكلٍّ مسافة اسمُها المُحدَّد.

---

(١٠١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ١٣٢ ـ ١٣٦.

(١٠٢) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(١٠٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٧.

(١٠٤) Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 10.

(١٠٥) Hitti, *History of the Arabs*, p. 22.

(١٠٦) e.g. rāsh, 'to eat much, to eat little, a camel with hairy ears'.

انظر: ج. هافا، **الفرائد الدرية في اللغتين العربية والإنكليزية، وهو كتاب مدرسي لأحد الآباء اليسوعيين** (بيروت: المطبعة الكاثولوكية، ١٩١٥)، كلمة روش.

(١٠٧) الثعالبي، **فقه اللغة وسر العربية**، ص ٩٢ ـ ٩٣.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٦٦.

التَّنوع القديم هو أحَدُ أسباب وجود أكثر من خَمسين لَهجة عربية، وثماني لغات أجنبية تم سَردُها في لائِحَة الإسهامِ في مفردات القرآن(١١٠)، وهو كذلك سَبَبُ اعتِبار كلمة «القاموس» (تَعريبٌ للكلمة اليونانية «أوقيانوس *okeanos*» التي تَعني «البحر») مُرادِفةً لكلمة «المُعجَم». كَتَبَ العالِم الكبير الشَّافعي في القَرن الثامن والتاسع أنّ «لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي»(١١١). وذَهَبَ الجاحظ الذي كان مُعاصِراً للشافعي أبَعَدَ مِن ذلك قائلاً إنه لا أحَد يَستطيعُ مَعرِفَة كافة الاحتمالات في اللغة العربية، «إلا من أحاط بقطر السحاب وعدّ التراب، وهو الله الذي يحيط بما كان والعالِم بما سيكون»(١١٢).

لو تساءَلَ شارل ديغول عن القُدرة على حُكم الفرنسيين الذين يَصنَعون ٢٤٦ نوعاً من الأجبان، فإن السؤال نفسه ربما يُطرَح عن الناس الذين لَدَيهِم ألف اسمٍ للجَمل. وبشكلٍ أكثر جدّية، فإن التّنوع الظّاهر في بدايات لُغَتِهِم، وهي الحِزمَةُ الكثيفة من اللهجات التي تَفرَّعَتْ عن غُصنِ العربية الشمالية، يَطرَحُ سؤالاً مهماً: هل كان لدى العرب الأوائل أي شعور بوحدَتِهم؟

البحث عن صَوتٍ مُوحَّد

من المؤكَّد أن جيرانَ العرب قد أضْفَوا على «العرب» في بدايات الألفية الأولى(١١٣) قَبل الميلاد نوعاً من الوحدة بمَنحِهِم ذلك الاسم، مَهمَا كان الاسمُ الذي يُسمّي به العربُ أنفسَهم(١١٤). ومنذ نحو ٧٥٠ ق.م إلى ٤٠٠ ق. م. هناك أدلة على وجود ذلك التَّجمع المُتعَدِّد القبائل الذي كان يُسمَّى «قيدار» في نوعٍ من الهيكل السياسي ولو لم يكن وحدةً حقيقية. قد تبدو

(١١٠) al-Wasiti cited in: Chaim Rabin, *Ancient West-Arabian* (London: Taylor's Foreign Press, 1951), chap. 3,

قارن بـ: السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ٢٠٩ ـ ٢١٢.

(١١١) السيوطي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣.

(١١٢) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٢، ص ١١ ـ ١٢.

(١١٣) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 230.

(١١٤) Ibid., p. 254, n. 1.

الوحدة ظاهرةً بالطبع في نَظَرِ المُراقب الخارجي، أما بالنسبة إلى العرب، فإن اشتِراكهم بنَمَطِ حياةٍ مُتنقِّل واستِخدَام الجِمال والسَّعي وراء المَرعى والتجارة المَحمولَة على الإبل يَعني تَقاطُع طُرُقِهم، ولا بد من أنّ ذلك قد نَسَجَ حولَهم نوعاً من الشعور بالهوية المشترَكة، ثقافياً إن لم يكن سياسياً.

ربما كانت أهمية اللغة من هذه الناحية مثل أهمية نَمَطِ الحياة، وإن مجرد تَصنيف جميع هذه اللغات صَعبٌ جداً، مما يوضح مَدى قُربِها من بعضها. يَرَى روبرت هويلاند اللغةَ رابِطاً وعلامةً للعرب حتى في الألفية الأولى قَبل الميلاد، وأنها أهم شَرط للهوية العربية. كان ذلك قَبل ظُهور اللغة الفصحى الواحِدة بزمنٍ طويل. كانت العربيةُ وستَظَلُّ الرمز الأعظَم لوحدة العرب.

وفي الوقت نفسه فإن تلك الأصوات القادِمة من صخور الصحراء وكل تلك التسجيلات الشعبية الصّفائية تُلَمِّحُ بالتَّنوع والكَثرة، لأنها أصواتُ الناس وليست صَوتَ شَعبٍ، أصواتُ أفرادٍ في مجتمعٍ طَليقٍ مُنقَسِم، يَتبَعُ طُرُقاً مُتشَعِّبة متفرقة في رَعيِ ماشيتهم الطويل. كانت الكلماتُ مَفهومَةً بين الناطِقين باللغات واللهجات، ولكن كَلِمَتَهم بِمَعناها السياسي الأوسَع كانت بعيدةً عن التَّجمع. لا يمكننا سوى تَخمين الأحاديث الدَّائرة بين اللهجات وتَخَيُّل المَفاهيم التي فَرَّقَتْ بينهم.

أما بالنسبة إلى التيارات الأعَمّ في التاريخ، فإن العرب لَمَسوها بأطرافِ أصابِعهم كمُرتَزَقَة أو حَمَّالين بين الشعوب المستقِرّة. كانت حياتُهم رعَوية محدودة النطاق كما تبدو في النقوش والرّسوم، ولكن مع نهاية الألف الأولى قَبل الميلاد فُتِحَتْ أمامَهم آفاقٌ جديدة. ظَهَرَ سَرجٌ مُحَسَّنٌ للإبل[115] يُمَكِّنُ راكِبَها مِنَ السَّفر مسافات أطولَ بكثير، وزادَ التفاعل مع الخارج في المنطقة. بَدَأ «الروم» بالظُّهور في النقوش، وبَدأ العرب بالظُّهور بشكلٍ منتظَم في الكتابات الرسمية للمَمالك في جنوب شبه الجزيرة، وبَدَأت النقوش ذاتها

(١١٥) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 24.

في الظُّهور في أماكِنَ جديدة فيما يُسمَّى الآن لبنان[١١٦]، وحتى على جِدارِ مَمرٍّ في مَسرحِ مدينة بومبي الرومانية[١١٧]. كانت قِطعان الجِمال على الحدود العربية تتحركُ نحو مُروجٍ جديدة.



(١١٦) Hoyland, Ibid., p. 65.

(١١٧) J. Calzini Gysens, "Safaitic Graffiti from Pompeii," *Proceedings of the Society for Arabian Studies*, vol. 20 (1990), passim.

الفصل الثاني

الشعوب والقبائل
السَّبئيون والأنباط والبَدو

«مَن دَخَلَ ظَفار حَمَّرَ»

في قاموس ياقوت [الحَموي] الجغرافي تحت عنوان «ظَفار» توجد القصة التالية عن المدينة العربية القديمة في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية:

وبها كان مسكن ملوك حمير وفيها قيل «من دخل ظفار حمّر». قال الأصمعي: دخل رجل من الأعراب على ملك من ملوك حمير وهو على سطح له مشرف فقال له الملك «ثِبْ» فوثب فتكسّر فقال الملك «ليس عندنا عربيت، من دخل ظفار حمّر». قوله «ثب»[1] أي اقعد بلغة حمير وقوله «عربيت» يريد «العربية».

كان الأصمَعي، وهو مَصدَرُ القصة، مُؤرِّخاً مُحتَرماً ومَوثوقاً بشكلٍ عام من القَرن الثامن، وكلمة «ثِب» هي من فِعلٍ عربي جنوبي حقيقي ومَعناه «اجلس»، وقد لفظَ المَلكُ كلمة «عَرَبِيَّتْ»، وهو يَقصد «العربية»، هو لفظٌ قديم أيضاً. ولكن القصة فيها نفحَة قوية من القصص الإسلامية الحَضَرية المتأخرة.

سواء حَدثتْ تلك القَفزة المميتة أم لـم تَحدثْ، فإن وَصفَ خلفية المكان صَحيح، لأن قَصراً مَلَكياً متعدِّد الطوابق في مدينة ظَفار الجبلية

---

(١) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ٧ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠)، كلمة ظفار.

سيكون غريباً لزائرٍ عربي لم يَعرف سوى السهوب الصخرية والزعماء المَحَليين وخِيام الشَّعر، وسيَدوخُ ويَرتَبِكُ بالفعل خارج سياقِه الاجتماعي واللغوي. كما أن ردّ الفِعل المَلكي يبدو صحيحاً، ويستطيع المَرء تصوّرَ الحاكِم وهو يَنظرُ إلى الأسفل من عَليائه وهو يَهزُّ رأسه ويُتَمتِم الجُملة الحاسِمة. وحتى لو أن العربي لم يُنفِّذ كلمته حَرفياً، فإنّ قولَ المَلك صادِر من الأعلى إلى الأسفل، من مُضيفٍ حَضَري إلى ضَيفٍ بَربَري.

تَرَفُّعُ الجنوب الحَضَري على الشمال البَدوي يَظهَر كذلك في العصر الإسلامي: قال الشاعر أبو نواس، معاصِر الأصمَعي، لجماعةٍ أصولُهم من جنوبِ شبه الجزيرة العربية:

إذا ما تَميميٌّ أتاكَ مُفاخِراً	فقُلْ عدِّ عَن ذَا كيفَ أكلُكَ للضَّبِّ
تُفاخِرُ أبناءَ المُلوكِ سَفاهَةً	وبَولُكَ يَجري فوق ساقِكَ والكَعبِ
إذا ابتَدَرَ الناسُ الفِعالَ فَخُذْ عَصَا	ودَعدِعْ بِمَعزَى يا ابنَ طالِقَةِ الذَّربِ
فنحنُ مَلَكنا الأرضَ شَرقاً ومَغرِباً	وشَيخُكَ ماءٌ في التَّرائِبِ والصُّلبِ[٢]

سنَرى أن موضوع الحَضَر مقابل البَدو، وانقسام الشمال ـ الجنوب قد تفاقَم بالسياسة في العصر الإسلامي، إلا أنه نَشأ من وقائع قديمة. كما تُبيِّنُ قصةُ ظَفار، فإنّ سكانَ شبه الجزيرة العربية قد ضَمَّتْهم الأرض، ولكن اللغة فرَّقَتْهم، جَمَعتْهُم أصولٌ ساميّة، ولكنّ تفرّعات دَلالات الألفاظ فرَّقَتْهم، وكانت الفروقُ أعمَق على المستوى الاجتماعي. ستَمنَح الجماعات المَنعوتَة بكلمة «عرب» اسمَها إلى المُرَكَّب العِرقي الذي سيُعرَف في التاريخ باسم «العرب»، ولكنهم لم يكونوا سوى جزءاً واحِداً من ذلك المُرَكَّب الذي ضَمَّهم إلى السَّبَئيين والحِميَريين وغيرهم من الشعوب المستقرة في شبه الجزيرة العربية الذين يُشكِّلون الموضوع الرئيسي في هذا الفَصل. من المهم أن نلاحِظ في هذه المَرحلة المبكرة كيف يَختلف السكان المُستقرون عن البدو، وكيف بَدؤوا بالتلاقي، فبِذلك سيُصبح واضحاً فيما بَعد كيف حَدَثَتْ

---

(٢) أبو نواس، **ديوان أبي نواس**، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤)، ص ٥١٠ ـ ٥١١.

فترة الاتحاد القصيرة التي حقّقها الإسلام، وفتراتُ التفرق الكثيرة التي تَلَتْها، وكيف منَحَتْ الفروقُ القديمة العربَ قوّتَهم غير العادية وضَعفَهم القاتِل.

لنلخِّص ما نَعرفُه عن الجماعات البدوية المبكرة: كان العربُ قليلين في العَدَد، وربما كانوا من أصول مختلفة. وكانوا معروفين، على الأقل بالنسبة إلى الأجانب منذ بداية الألف الأول قَبل الميلاد بأنهم صَنَعوا حياةً في الأجزاء الأقلّ حَظّاً من أرجاء الأرض. لا ندري كيف كانوا يُعَرِّفون أنفسَهم في البدء، ولا حتى إذا كانوا يَعتَبرون أنفسَهم كجماعة معيَّنة أصلاً. ولكن مع حلول الوقت الذي بدأنا نَسمع فيه أول أصوات عربية أصيلة مَنقوشَة على صخور الصحراء في أواخر الألفية الأولى قَبل الميلاد، كانت هنالك قوى كثيرة قد توفَّرتْ يمكن أن تَخلُق نواةً عِرقية مثل: نمَط العَيش المشترَك، وفُرَص الالتقاء المستمر، واهتمامٌ بالنَسب قد يَصل إلى دَرجة الهَوَس، ولغات مُتقارِبة.

يبدو أن القبائل البدوية كانت تختلف تماماً عن الشعوب «الحَضَر»، وأن اختلافهم مثل الفَرق بين مَعنى «اقفِز» و«اجلس». ولكن على مَدى القرون الميلادية الأولى ستبدأ الأمور بالتغير، إذ تطورت اللغة «الفصحى» للنبوءات والشِّعر بين قبائل العرب، كما أن اللسان الشِّعري الجديد ونَمَط حياةِ الترحال القديم سيُصبحان العَلامتَين العِرقيتَين الفَارِقتَين وعناصِر أساسية في «الثوب القومي» العربي. هذه الاستعارةُ ملائِمةٌ بطريقتَين، لأن العِرقية (الإثنية) لها أساليب متغيِّرة مثل الثياب، كما أن أشكال الثياب قد تَنتَشر وتُصبح شائعة بعيداً عن مَنشَئها. إضافة إلى هذه الثياب، سيَبدأ العرب بالظهور بهذا الوَسم الذي أضفاه عليهم آخرون لفترة طويلة وسيُصبحون «العرب». والأمر الغريب هو أن مجتمعات أخرى في شبه الجزيرة كانت تصِرُّ على أنها ليست عرباً، وكانت تَختلف تماماً في نمَط ثيابها العرقية ولغتها، ستَتحول منذ القرن الثالث تقريباً، وتَتَلبس بأشياء من ثياب العرب، وتَكتَسب عادات العرب، وستَتَبنى اسم «العرب» في النهاية في القَرن السابع مع الإسلام؛ بل وستدَّعي أن الاسم واللغة كانا مِنهُم ولَهُم منذ البداية. كان هذا مدهِشاً كَيانِ نمَطِ ثيابٍ عِرقيّ، لأنه جاء من شعوبٍ مستقرة في الجنوب هم السَّبَئيون والحِميَريون وجيرانهم، وحتى في ظَفار حيث كان القصر العالي

والمَلك الحِميَري المَغرور سَيَستَبدِلون لسان أجدادِهم، ويَتَبنَّونَ «العَرَبيَّتْ» لغة الرعاة الذين يَسكنون خِيام الشَّعر، وسيَنضَمون إلى المزيج الاجتماعي ـ السياسي في الإمبراطورية العربية، وسَيلبِسون الثوبَ العربي القومي بكل فَخر.

مثالٌ متأخر ولكن حرفيّ عن استِبدال الثوب العِرقي فيما رُويَ عن المَلك الحِميَري ذي الكلاع، الذي أسلَم وزارَ خليفةَ المسلمين الأول أبا بكر «ومعه ألف عبد... وعليه تاج وما وصفنا من البرود والحلل»، أي ثوباً مزركَشاً بالذهب مقارَنةً بأبي بكر الزاهد الذي كان يرتدي أبسَط ثياب العرب. «فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيّا بزيّه، حتى إنه رئي يوماً في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة». هناك ما يُشبه ذلك في ارتداء الثوريين البرجوازيين في القَرن العشرين بَدلَةَ ماو تسي تونغ. وبالطبع، أُضفِيَ على القصة تعليقٌ أخلاقي: استَنتَجَ المَلك العابِد أنّ المَرء لا يُظهِرُ طاعَتَه لله إلا إذا أظهَرَ تَواضُعَهُ وزُهدَه في الدنيا[3]. كما أن طاعةَ الله في ذلك الوقت كانت جزءاً آخر من أن يكون المَرء عربياً.

وعلى كل حال، سيأتي كل ذلك في مستقبل الأمور، أما تفاصيل انتشار نمَط الثياب العِرقية العربية في شبه الجزيرة، فسيتم شَرحُها في الفصول القادمة. وللبدء في ذلك كما تُظهِر القصة من ظَفار، فقد اعتَبَر الجنوبيون، خاصة في كيانهم السياسي الأعظم في سَبَأ، أن أساليب العرب غير أنيقَة بالبتَّة، وأن أكلَ السَّحالي المُحمَصَة، ومشارَكة الحشرات في قطعانهم الجَرباء، كانت أبعد ما يكون عن عالَم القصور النبيلة ومَمالك الجنوب المُتَحَضِّرة.

العرب الأصليون (إنما ليسَ بَعد)

عرفنا لَمحَةً عن السَّبئيين وأنهم أشهَر الشعوب الجنوبية، أما أصولهم فيُحتَمل أنها تَرجِع ـ كأصول العرب ـ إلى الهلال الخصيب، وربما أصول غيرهم كذلك من جماعات الجنوبيين، مثل الحِميَريين. وبالمقارنة مع

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٣٠٥.

العرب، فإن السَّبَئيين كانوا جماعةً متماسِكة نوعاً ما. وبالنظر إلى اللغة السَّبئية في البحث عن مفاتيح بداياتهم، ومقارنتها بفروع أخرى من السّاميّة، فقد اقتُرِحَ أنّ «الناطقين باللغة السَّبئية الأولية غادَروا حدود سورية - فلسطين قَبل سنة ٢٠٠٠ ق.م.»[٤]. تؤيِّدُ الأبجديةُ الدليلَ اللغوي، لأن الكتابةَ العربية الجنوبية «هي بقايا الأبجدية الكنعانية الأولية التي زالتْ من فلسطين نحو سنة ١٢٠٠ ق.م»[٥] (وبدورها فإن فَرعاً من الكتابة العربية الجنوبية بَقِيَ في أثيوبيا حيث يُستخدَم في كتابة اللغة الأمهَرية وأمثالها). إلا أن تحليلات أخرى تضَع أصولَ السّبئيين أبعَدَ من ذلك إلى الشرق في الهلال الخصيب[٦]. وعلى كل حال فإن تَسلسُلَ الأحداث والأزمِنة للهجرة المفتَرَضَة التي قامَ بها السَّبَئيون الأوائل إلى جنوب شبه الجزيرة العربية غير معروف[٧].

مرة أخرى رمَى عِلم الآثار مفاجأةً في أعمال اللغة والكتابة، فكما رأينا، كان نظام الرّي المنظَّم موجوداً في المنطقة منذ الألف الرابعة قَبل الميلاد، وكان سَدّ مأرب الذي ذُكِرَ سابقاً ذُروةَ فترةٍ طويلة من التطور في استغلال الماء والمَوارد البشرية. لا يُعرف حتى الآن كيف تَواصَل السَّبَئيون والجماعاتُ الأخرى، وكيف تَعامَلوا مع البَشَر الذين كانوا موجودين قبل مجيء الدخلاء. ويُعطي بعضُ الدارسين قيمةً أكبر للحضارات المَحَلية البدائية في جنوب شبه الجزيرة العربية. ما هو واضحٌ من الأدلَّة على الأرض هو أن السَّبئيين طَوَّروا حضارةً مستقرة مزدَهِرة في الجنوب، وكذلك فَعَلَتْ جماعاتٌ مستقرة أخرى ذات لُغَةٍ مُشابِهة، مثل شعوب مَعِين وقَتَبان والحَضرَميين ثم الحِميَريين. شَكَّلَتْ هذه الشعوب على مَرِّ الزمن «هِلالَها الخَصيب» في جنوب شبه الجزيرة العربية[٨].

---

(٤) Ernst Axel Knauf, "The Migration of the Script, and the Formation of the State in South Arabia," *Proceedings of the Society for Arabian Studies*, vol. 19 (1989), p. 84.

(٥) Ibid., p. 79.

(٦) Walter W. Müller in: Werner Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix* (Innsbruck; Frankfurt/Main: Pinguin Verlag, n.d. [c. 1988]), p. 49.

(٧) Alessandro de Maigret, "The Arab Nomadic People and the Cultural Interface between the "Fertile Crescent" and "Arabia Felix"," *Arabian Archaeology and Epigraphy*, vol. 10, no. 2 (1999), pp. 220-224.

(٨) Alfred F.L. Beeston, *A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian* (London: Luzac, 1962), p. 1.

أحاطَ الهلالَان الخَصيبَان بما بينهما من أراضي شبه الجزيرة الواسعة، ولكن منذ أوائل الألف الأولى قَبل الميلاد، بَدأت الشعوبُ العربية الجنوبية بالتجارة عَبرها بفضل العرب وجِمالِهم الحَمَّالَة. كان الجنوبيون أنفسهم وسَطاء يُرسِلون إلى الشمال بضائع فاخِرة من منطقة المحيط الهندي وصَلَتْهم عَبرَ حافة السواحل الخصبة. كما صَدَّروا بَضَائعَهُم الخاصة بهم، مِثلَ المواد العَطِرة بشكلٍ رئيسي. ولكن المَصدر الأول لمَعيشَتهم كان الزراعة.

احتاجَت الدَّورَة الفَعَّالة لاستغلال الأمطار بناءَ مجتمع مستقر سَرَّعَ بِدَورِهِ تطوّر الزراعة، وقد تمت مناقشة ذلك سابقاً[9]. تركَ السَّبئيون وجيرانهم تُراثاً غَنياً من الكتابات يؤكِّد دائماً على أهمية الماء. ربما تَرجِع أولى الكتابات السَّبئية إلى القَرن الثامن قَبل الميلاد، وتَشكُرُ الإله عَثْتَر على بَركَة المطر[10]. تُسَجِّلُ بعض الكتابات السَّبئية الأخيرة من القَرن السادس الميلادي إصلاحات في سَدّ مَأرب المُتهالِك باسم الثالوث المقدَّس قام بها مسيحيون من أهل أكسوم الأثيوبية الذين احتلّوا الجنوب آنذاك[11]. ويُذكَر في إهداءٍ نموذجي من فترةٍ بينهما لِتمثالٍ في معبد أوام، وهو أهم مَعابد السّبئيين ليس بعيداً عن سَد مَأرب، ويَنُصُّ على أنّ المُتعبِّدين:

تقربوا للإله المقه... بعل أوام بهذا الصنم ذي الذهب، حمداً له لما منّ به عليهم من غلات وافرة من الساقي والضاحي... عبر كل مدرجاتهم وحقولهم ومن مزارع الري بالقنوات والشرج وأرياف قراهم[12].

تتكَرر أمثالُ هذه الكتابات على مَرِّ قُرونٍ من حَصاد السَّبئيين.

أما بالنسبة إلى سَد مأرب الذي كان أعظم إنشاءات الرّي، فربما وصَلَ إلى شَكلِهِ وحجمه النهائي في القَرن السادس قبل الميلاد، واستمر في العمل منذ ذلك الحين مدة ألف سنة. تم تصميمه لتحويل وتوزيع مياه الأمطار

---

(٩) انظر: ص ٦٥ ـ ٦٨ من هذا الكتاب.

(١٠) Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix*, p. 49.

(١١) **الموسوعة اليمنية**، إعداد وإشراف وتحرير أحمد جابر عفيف (صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ١٩٩٢)، كلمة أبرهة الحبشي.

(١٢) مطهر علي الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ط ٢، مزيدة ومنقحة (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٠)، ص ٢٨٧.

النازِلة من الجبال (أكثر من تَخزين الماء)، وربما كان واحداً من أنجَح أعمال الهندسة المَدنية في تاريخ البشرية. يمكن بوضوح مشاهدة رواسب الطَّمي من «جَنَّتَيهِ» المَذكورَتَين في القرآن[١٣]، وكذلك القناتَان القديمتَان الباقيتَان اللتَان كانَتا تَرويانِهما (لم يَصمد جِسم السَّد نفسه). يُظهِرُ عُمقُ الترسبات أن السَّبئيين كانوا يَزرعون هناك منذ ألف سنة قَبل وجود أولى كتاباتهم المُتبقِّية، أو ربما وجِدَ أناسٌ قَبل السّبئيين، وبَدؤوا في أعمال الرّي[١٤]. يُبيّنُ مَدى الطين والطَّمي أن مساحة الجَنَّتَين بلغَت ٩٦٠٠ هكتار في مَداهما الأوسع[١٥]. كانت تلك نتائجُ التعاون (بالمقارنة، فإن أنظمة الرّي الحديثة، ومعظمها من آبار ارتوازية، تُشجِّع على التنافس، وأن يُغيرَ المزارعون المتجاورون على المياه الجوفية المُتناقِصة باستمرار). وعلى كل حال فقد توقَّف ذلك التعاون مع مرور الوقت، وَحلَّ الدَّمار، وتغيَّر دَور سَدّ مأرب في تاريخ شبه الجزيرة. أو بكلمة أخرى، في نوعٍ من المَلحَمة الشعبية المُتجَولة، تتقاطَع طُرق الحقائق والخيال مراتٍ عديدة في «أوديسَّة عربية».

الشعب والحجّ

كان في مَأرب بناءٌ آخر كبير جَلَبَ إليه كل عامٍ في موسم محدَّد تيارات من أماكِن تجميعٍ عديدة. كان ذلك البناء هيكل معبد أوام الّذي وجِدَتْ فيه الكتابات التي ذُكِرتْ سابقاً، وهو حَرَمٌ بيضاوي الشَّكل يضمُّ مَزارات، وكانت التيارات بَشَرية. جاءَ إليه الناس في شهر أبهي (month of Abhay) الذي يُناسِب حضارةً مائية مِثل حضارة السّبئيين لأنه يُصادف موسمَ الأمطار الصيفية[١٦]. فُرِضَتْ شروطٌ على الحجاج، مثل ارتداء ثيابٍ معيَّنة، والامتناع عن ممارسة الجِنس والقتال، مثلما كان الحجّ في أماكن غيره في شبه الجزيرة العربية[١٧]. ومازالت مثل هذه الشروط تُطبَّقُ في هذه الأيام أثناء الحجّ لإلهٍ عظيم آخر ربما كان هو نفسُهُ في مكّة.

---

(١٣) **القرآن الكريم**، «سورة سبأ،» الآية ١٥.

(١٤) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 4, p. 559.

(١٥) Ibid., vol. 4, p. 563.

(١٦) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), pp. 137 and 161.

(١٧) Ibid., p. 161.

على الرغم من أن الحجّ في مَأرب لم يكن فَريداً، غير أنه كان كبيراً، لأن «بَيت المَقَه»[١٨]، كما كان يُسمى معبد أوام، كان بَيتاً لواحدٍ من أكبر آلهة شبه الجزيرة العربية، وهو كبير آلهة سَبأ. أصبح فيما بَعد شخصيةً غامضة، وربما كان في الأصل إلهَ الحرب أو النباتات[١٩]، واعتَقدَ أحدُ الباحثين أنه أُقنومٌ ذُكوريّ يمثّل إلهَ الشمس[٢٠] (الذي يكون أنثى عادة). وحَسبَ القرآن، فقد كان السَّبئيون «يَعبدون الشمس» فِعلاً[٢١]، ولكن ربما تكون الإشارة إلى واحدٍ أو آخر من نماذِجِه الأنثوية. لا يُساعد اسم هذا الإله في تَحديده، ومهما يكون لَفظُه ـ ولا يُستَبعَد تَشكيلُه بـ«ألْمَقَه» ـ فيبدو أن اسمه يتألفُ من «إل»، وهو الاسم العام للإله السَّاميّ العظيم (كما هو في «الإله» التي تطورت إلى «الله»)، إضافة إلى عنصرٍ آخر ربما كان من الفِعل السَّبئي «وَقَه» بمَعنى «أمَرَ»[٢٢]، وهكذا فإن «المَقَه» ربما تَعني «الإله الآمِر» أو «المُسَيطِر».

مهما كان مَعنى اسمه، فمن الواضِح أن المَقَه كان مركزياً في الهوية والوحدة لشعبٍ كبير اسمه سَبَأ. وهو شعبٌ تألَّفَ من اتحادِ شعوبٍ أصغَر. بالاصطلاحات اللاهوتية، ربما كان «يُمثِّلُ وظيفياً الإرادةَ الجماعية للشعب»[٢٣]. وكان السَّبئيون «أولاد» المَقَه[٢٤]. وجميع الأفراد الجُدد في الاتحاد كان عليهم الحجّ إلى مَأرب[٢٥]، ويُصبحون بذلك أولاد الإله بالتَّبني. فُرِضَ ذلك الواجِب على شعبٍ يُسمَّى «سَمْعَي» في كتابةٍ وجِدَتْ في

---

(١٨) الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ص ٣٣٩.

(١٩) Giovanni Garbini in: *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 665.

(٢٠) Jacques Ryckmans in: Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix*, p. 107.

(٢١) **القرآن الكريم**، «سورة النمل،» الآية ٢٤.

(٢٢) Alfred F. L. Beeston [et al.], eds., *Sabaic Dictionary* (Beirut; Louvain-la-Neuve: Peeters, 1982), s.v. WQH.

(٢٣) Alfred F.L. Beeston, "Kingship in Ancient South Arabia," *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 15 (1972), p. 262.

(٢٤) Ibid., p. 267.

(٢٥) Christian Robin, *Les Hautes-Terres du Nord-Yémen avant l'Islam I* (Istanbul: Nederlands Historisch Archaeologisch Institut, 1982), p. 96, and M.A. Ghul, "The Pilgrimage at Itwat," *Proceedings of the Society for Arabian Studies: A.F.L. Beeston at the Arabian Seminar* (2005), p. 147.

منطقةٍ جبلية على بُعد ١٣٠ كيلومتراً إلى الغرب من مَأرب، ويبدو أن ذلك الشعب قد انضَمَّ حديثاً إلى الاتحاد السَّبئي. كان كبير آلهة سَمْعَي «تَأْلَب» قد أمَرَ شَعبَهُ ألا يَتخاذَلوا في الحجّ إلى مَأرب (تَعرِفُ الآلهةُ مواقِعَها في سلسلةِ الأوامِر المقدَّسة). ذَكَّرَ تَأْلَب شَعبَهُ كذلك أنه في حجِّهم إلى مَأرب يجب عليهم الامتِناع عن الجِنس وعن أنواع معيَّنة من الصَّيد، وأنهم يجب عليهم ذَبحُ ٧٠٠ خروف في كل يوم من اليومَين في الحجّ[٢٦]. وهنا أيضاً تُذَكِّرُ الطقوس وما يُفعَل ولا يُفعَل بِمَكَّة هذه الأيام. يقولُ تَأْلَب لشَعبه إنهم إذا أرادوا ذَبحَ جَمَل في مَأرب يجب عليهم رُكوبه بلُطفٍ إلى هناك، وهي نصيحةٌ كرَّرها النبي محمد في سياق الحجّ إلى مكَّة بعد ذلك بقُرون[٢٧]. هناك سِماتٌ غير موجودة في حجّ مكّة الآن، وواحدة منها ربما تكون مفاجِئةً: وهي أن المَقَه لم يكن وحيداً. لم يخضَع له تَأْلَب فقط، ولكن الأضاحي في مأرب كانت تقدَّم بشكلٍ مشترَك عادَة إلى جَمْعٍ من الآلهة الصغرى، أو إلى كَوكَبةٍ من الآلهة الأقلّ شأناً، لأن كثيراً منها كانت سَماوية.

على الرغم من هذا الاستِثناء الكبير، فيجب أن يكون واضِحاً الآن كم هو خطأ اعتِبار أن «تاريخ العرب» يبدأ بالإسلام، أو حتى «بالعرب» حتماً. يكمُن وراءَ ذلك التاريخ أن الجنوبيين لم يَعتَبروا أنفسَهم أبداً من «العرب» بأي شَكل، وأن الإسلام والعرب كانوا جزءاً من استمرارٍ طويل لا يمكن ضَغطُهُ في مقدِّماتٍ قليلة أدَّتْ إلى السَّنَة الأولى من الإسلام. كان كثيرٌ من المؤرخين المسلمين العرب واعِين لذلك؛ ففي القَرن العاشر كما سنرى، سيُعطي المَسعودي في تواريخِه الشاملة الحقَّ الكامل للماضي قَبل الإسلام، كما أنّ مُعاصِره اليمني الهَمداني أهمَلَ تماماً تاريخ حُكم السُّلالة الإسلامية، واعتَبرَ الأحداثَ المُعاصِرة له استمراراً لصراعاتٍ قَبل الإسلام[٢٨]. تَبرزُ سِماتٌ باقية أخرى عند النظر إلى هذه الصورة الأوسَع للماضي. فمثلاً بالنظر إلى ارتباط الكيان السياسي السَّبَئي بإرادةِ الإله، وهي فكرةٌ وَرِثَها المجتمعُ

---

(٢٦) Ghul, Ibid., p. 148.

(٢٧) Ibid., p. 152.

(٢٨) Robert T. O. Wilson, *Gazetteer of Historical North-West Yemen* (Hildesheim: G. Olms, 1989), p. 23.

الإسلامي، يبدو الاصطلاح الجديد «الإسلام السياسي» تكراراً للمَعنى، على الأقلّ في دائرةِ بيتِهِ في شبه القارة العربية.

سِمَةٌ أخرى للجنوب القديم ستَستَمر إلى حضارة الإسلام الأوسَع هي الطريقةُ التي تتعلَّقُ فيها بالأماكن وليس بالنَّسَب. فعَلى العَكس من القبائل، يُعَرِّفُ شعبٌ جنوبي نفسَه بحسب منطِقَتِه التي يَرتبِطُ بها لاستغلال الماء، وبحسب مَعابِدِه ومَزاراتِه ومَراكِزه الحَضَرية. ويُعتَبر أفرادُه أبناءَ إلهٍ، لَهُ بَيتٌ في مكانٍ محدَّد، ولَيسوا ذُرِّيَةَ سَلَفٍ مُرتَحِلٍ مُفتَرَض. كان الجنوبُ حَضَرياً جِداً بالمقارنة مع شبه الجزيرة العربية ككلٍّ في عَصر ما قَبل الإسلام. تَذكُر النقوش الجنوبية[٢٩] أكثر من مائة مكان يتَّسِم كل منها بكلمة «هجر»، أي حاضِرَة أو بلدة، تتراوح أحجامُها بين كبير وصغير. قد تَتجمَّعُ قبائلُ شمالية مثل «قيدار» حول مَعبدٍ «حَضَري» مثل «دومة الجندل»، ولكن في حالة أهل الجنوب المستقرّين، فإن المَعابِدَ تُبنَى للتعبير عن وحدَة الجماعة وتَحديدِها[٣٠]. سيُشكِّل تعريفُ القبيلة لذاتِها بالنَّسلِ والنَّسَب رابِطَةً أخرى لإثنيَّةٍ عربية إسلامية، إلا أنها لن تَنقُلَ الإسلام في حَدِّ ذاتها إلى ما وراء العرب. وبدون التراث الجنوبي ومراكزه الحَضَرية، فربما أصبَحَ الإسلام دِيناً عالَمياً، ولكنه سيَظلُّ مثل اليهودية مرتبِطاً بفكرةِ علاقةِ الدّم والنَّسَبِ مهما كانت تلك العلاقة ضعيفة. لا يوجَد في الإسلام ما يماثِل الاَثنتَي عشر قبيلة يهودية، ولا ما يشابه النعت بال «أمَمِيّ» (غير اليهودي عرقياً)، ويَرجع ذلك جزئياً على الأقل إلى تُراثِه من جنوب شبه الجزيرة.

قدَّمَ جنوبُ شبه الجزيرة العربية نموذجاً للوحدة السياسية التي ستَصبو إليها الأجيال التالية دون أن تستطيع تحقيقَها إلا نادراً، وربما خَلَّفَتْ للإسلام بهذا تُراثاً حيوياً. يَرِدُ اللَّقَب «مكرب» كثيراً في الكتابات السَّبئية الأولى، وربما يُلفَظُ هذا اللَّقَبُ «مُكَرِّبْ» (ربما لا يبعد مَعنى هذا الجَذر عن الكلمة العربية «مُقَرِّب»، أي الشخص الذي يُقارِب، أو الذي يَجعل شخصاً آخر شَريكاً. تُستَخدَم كلمةٌ عربية مماثلة هي «مُجَمِّع» بمَعنى سياسيّ يدلُّ على

---

(٢٩) يوسف محمد عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠)، ص ٣٤١.

(٣٠) الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ص ٤٤٧.

المُوَحِّد)[٣١]. كان المُكَرِّب مَلك الشعبِ المُسيطِر في شعوبٍ متَّحِدة أو متَحالِفة، إنما فقط عندما يكون حامِلاً تاجَهُ الآخر كرئيسٍ للاتحاد. تم تَشبيههُ جيداً بالمَلكة البريطانية كرئيسةٍ للكومنولث[٣٢]. يوجَد نوعٌ مهمّ من الكتابات يُسميها الباحثون «صيغة الاتحاد» يوضح دَورَ المُكرب كَمُوحِّدٍ «أَسَّسَ كلَّ جماعةٍ لإلَهٍ أو لزعيم أو لِحَبلٍ أو لِتَحالُف»[٣٣]. أنشِئَتْ هذه الاتحادات بأسماء الإلَه الأعظَم المَقَه، والآلهة الرئيسة الأقلَّ شأناً. وتَبرزُ من هذه الصيغة كلمةٌ تدلُّ على قدسِية الرابطة «الاتفاقية»، هي الكلمة السَّبئية «حَبل»، التي ستَظهَر في القرآن: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٣٤].

الكلمة العربية «حَبل» تعني «الرِّباط»، كما تعني «العَهد المُلزِم». لا أقصد أن أهل مكّة في القَرن السابع قد دَرَسوا الاصطلاحات الدستورية السَّبئية في القَرن السابع قَبل الميلاد، ولكن لا يوجد شكٌّ بأن الاصطلاح هو نفسه، وأن المُجتَمعين قد اشتَرَكا بأفكار عن الاتحاد السياسي باسم إلهٍ أو آلهَة، وفي الحالة الأخيرة باسم الله. وهنا يَقعُ الفارقُ، لأن الاتحاد الذي يَقترِحُهُ الإسلام نهائيٌّ ومُطلَق سياسياً وعقائدياً، حُكمٌ واحِد وإلَهٌ واحِد.

ذكَرَ فيليب حتّي في كتابه المفَصَّل «**تاريخ العرب**»، الذي نُشِر أولاً سنة ١٩٣٧، أنّ المجتمع الإسلامي في المدينة «كان أول محاوَلة في تاريخ شبه الجزيرة العربية للتنظيم الاجتماعي على أساسٍ ديني وليس بحُكم النَّسَب كأساسٍ له»[٣٥]. كان متأخراً بأكثر من ألف سنة في تأريخه، وبالطبع، فإن كثيراً مما نَعرِفُهُ عن جنوب شبه الجزيرة العربية (ومما نَعرِفُهُ أيضاً ـ وهو قليل ـ عن «دومة الجندل» المَركَز الدِّيني الشمالي لاتحاد قبائل قيدار)، لم يكن مَعروفاً عندما كان حتّي يُصنِّفُ الطبعة الأولى لكتابه. إلا أن مؤرخين آخرين بَعدَه كانوا يُركِّزون على الإسلام مِثلهُ بِعُذرٍ أقلّ تقديراً. الفَصلُ

(٣١) المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(٣٢) Beeston, "Kingship in Ancient South Arabia," pp. 264-265,

قارن أيضاً بـ: Alfred F.L. Beeston, in: *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 747.

(٣٣) Robert B. Serjeant, *South Arabian Hunt* (London: Luzac, 1976), p. 109, note 358.

(٣٤) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٠٣.

(٣٥) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 120.

الأكاديمي بين دراسات الإسلام ودراساتِ ما قَبلَهُ، يدلُّ على أنّ معظم الباحثين لا يَرون النقاط التي تَرسمُ الصورةَ الأشمَل ولا يَصِلونَ فيما بينها. عندما نَتَبنّى تلك النظرة الأطوَل والأوسَع، نَجِدُ أنّ الإسلام لم يكن أمراً بَدأ فجأة في مكّة، بل كان نُمواً واسِعاً بطيئاً تَمتدُّ جُذورُه عميقاً في الزمن، وعلى مَدى شبه الجزيرة العربية كلها، خاصة في الجنوب الذي كان مأهولاً بشعوبٍ لم تُطلِق على نفسِها اسمَ «العرب».

يُردِّدُ السَّاعون نحو الأهداف البعيدة المَنال في الوحدة العربية والإسلامية كثيراً هذه الأيام تلك الآية القرآنية التي تأمُرُ بالتَّمسك بِحَبلِ الله، ولا يُدركون كَم هي قَديمةٌ تلك الدعوة، وكذلك كيف أنها تأتي مما كان قَبل الإسلام وقَبل العرب.

احتضانُ الحضارات

من وجهة نظرٍ متوسطية، كانت السياسات والمُعتقدات في الهلال الخصيب الجنوبي كتاباً مُغلَقاً، كما ستكون بالنسبة للمؤرخين المُعاصِرين حتى فترةٍ حديثة. وما أثار دهشَةَ الإغريق والرومان كان إنتاجَ عربِ الجنوب وتَصديرهم للعطور، خاصة البخور واللبان والمر. فمثلاً، حَسْبَ بليني الأكبر Pliny the Elder، فإن جَمَلاً يَحمِلُ بخوراً مِن مَصدَره في العربية السعيدة Arabia Felix إلى شواطئ المتوسط سيُسافِر ٢٤٣٧٥٠٠ خُطوة بَشَرية، وسيُضيفُ ذلك ٦٨٨ ديناري *denarii* [عملة فضية رومانية] إلى مَصاريف تاجِر البخور(٣٦). وقَبل ذلك بنحو ألف سنة كانت رحلة مَلكة سَبأ التوراتية في القَرن العاشر قَبل الميلاد تَحمل العطور وغيرها من البضائع إلى سليمان. على الرغم من أن تحديد هوية المَلكة قد حَيَّرَ أجيالاً من الدَّارِسين، إلا أن أغلبهم وافَقَ على أنها جاءت من سَبأ في جنوب شبه الجزيرة العربية. لم يُكتَشَف حتى الآن شيءٌ في موطِنها يُؤكِّد أو يَنفي وجودَها، غير أن مُنتَجاتٍ سَبَئِية وجِدَتْ في الأردن الحديثة تُثبِتُ أن أهلَ بلادها كانوا يقومون بالرحلة

(٣٦) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), p. 39.

نحو سنة ٨٠٠ ق.م على الأقل[٣٧].

في القرون التالية قَبل الميلاد كان شعبُ المَعين جيران السَّبئيين هم التجار الأكثر نشاطاً والأبعَدَ مَجالاً. مثلاً، تَركَ أحدُهم مَذبَحاً للإلهِ ودّ (الحُبّ؛ لُعِنَ في القرآن فيما بَعد كأحد أصنام المشركين) في الجزيرة الإغريقية ديلوس ربما في القَرن الثاني قَبل الميلاد[٣٨]، وتَركَ آخر نفسَهُ بشكل مومياء في المدينة المصرية ممفيس. سُجِّلَ على صندوق تلك المومياء أنه جَلَبَ المرّ لكي يُستَخدَم في المَعابد المصرية، وبالمُقابل صَدَّرَ أقمشة إلى بلاده[٣٩]. فيما بَعد خلال صعود الحِميَريين في القَرن الأول، كتَبَ جامِعُ كتاب *Periplus*، وهو دليلُ تاجرٍ بَحري، عن تجارةٍ واسعة لمدينة مَوزَع Muza التي لا تبعُدُ كثيراً عن مدخل البحر الأحمر[٤٠]. هذه التجارة المزدَحمة هي دليلٌ بليغ كيف أنّ «أمّة نائية»[٤١] في شبه جزيرة كما وصِفَ السَّبئيون في سِفر يوئيل [في التوراة] قد ارتَبَطَتْ بعلاقاتٍ اقتصادية بعيدة. كانت العطور واللّبان آنذاك، وأصبَحت النفط والغاز الآن.

كان الأنباطُ شَعباً آخر ارتَبط بالتجارة مع اقتصاديات أوسَع. غَطّى مَجالُهم تَوزُّعَ طُرُقِ التجارة، حيث خَرَجَتْ من شمال غرب شبه الجزيرة العربية. من المؤكَّد أن الأنباط قد تحدَّثوا بنوعٍ من العربية[٤٢] واختلَفوا بذلك عن السَّبئيين وجيرانهم من الجنوبيين. إلا أنهم مثل السَّبئيين لم يَعتَبروا أنفسَهم عرباً. كانوا شَعباً مستقراً يعيش في بلاد الشام في حضنِ البحر الأبيض المتوسط وليس في طَرَفٍ عربي، وكانت علاقاتهم الثقافية قد جَعلَتْهم عالَميين حقيقيين. التَقَطوا مثلَ النّسور ما رَغبوا فيه من الثقافات المُسيطرة

(٣٧) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, pp. 38-39.

(٣٨) D. M. Dunlop, *Arab Civilization to A.D. 1500* (London: Longman Group Ltd.; Beirut: Librairie du Liban, 1971), p. 7.

(٣٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 887.

(٤٠) Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land*, p. 143.

(٤١) **الكتاب المقدس**، «سفر يوئيل،» الأصحاح ٣، الآية ٨.

(٤٢) Michael C.A. Macdonald, "Nomads and the Ḥawrān in the Late Hellenistic and Roman Periods: A Reassessment of the Epigraphic Evidence," *Syria*, vol. 70 (1993), p. 381, and Michael C.A. Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language* (Oxford: Oxford University Press, 2010), p. 19.

المُجاوِرة الآرامية والهيلينية والرومانية، وعادوا إلى مَعقلهم الصخري لهَضم واستِرجاع ما التَقَطوه. كانت النتائجُ باهرة، وكان أكثرها بقاءً هو الهندسةَ المعمارية الكلاسيكية لعاصِمتهم البَتراء تلك المدينة المُكَوَّنة من مجرّد واجِهات ـ لكنها ليست واجِهات سينمائية زائفة.

والحقيقة هي أنها ليست مَبنية، بل مَنحوتة في الصخور الصَّلبة، مما يَمنَحها عَظَمة باهِرة من المُنحدَرات المرتفعة ذات الأعمدة والقمم المَروية التي تَخرُجُ منها جِرارٌ ضخمة.

إلى الشمال الشرقي وُجِدَتْ مدينةُ تدمر التجارية التي شَغَلَتْ مَكاناً حُدودياً مماثِلاً بين ثقافاتٍ، وبين منطقة خَصبة والصحراء. كان التدمريون كذلك يَتحدَّثون العربية ـ ولو لم يَعتَبروا أنفسَهم مِن العرب البدو ـ ولهم طبيعة عالَمية أيضاً. كانت عَمارَتهم الخاصة مُستَلهَمة من الإغريق والرومان، وكان للبَشَر أيضاً واجهاتٌ كلاسيكية، وهكذا فإن الأمير وَهْبَ اللّات، أو هِبة اللّات، (هَديَّةُ اللّات كبيرة الآلهة) ظَهَر على النقود باسم «قيصر وَهْب اللّات أغسطس»[٤٣]، بينما والدته زنوبيا (الشكل اللاتيني للاسم العربي «زينب» المُستَخدَم الآن) مَنحَتْ نفسَها أساساً أكثر انتقائية بعدم الاكتفاء بتَبنّي اسم «أوغسطا»، بل والادعاء بأنها مِن نَسلِ كليوباترا[٤٤]. مِن هذا المَزيج المتَعدِّد الثقافات وفي الفترة نفسِها يمكن أن تَظهَر شخصيةٌ مزدَوجة الهوية مثل فيليب العربي من أهل دمشق [من أهل مدينة شهبا في السويداء] يَبرزُ بين صفوفِ إدارة المقاطَعات ليُصبح المحافِظ البريتوري، ثم الإمبراطور الروماني سنة ٢٤٤. سارَت التأثيرات في الاتجاهَين، وقَبل قَرن ونصف من ملاحظة جوفينال Juvenal أنه:

مَرَّ زمنٌ طويل على جريان نهر العاصي وهو يَصبُّ في نهر التيبر [في روما]

يحملُ معه أشكالاً من الكلام وأنماطاً من الحياة[٤٥]

(٤٣) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, pp. 1930-1934.

(٤٤) Ibid., pp. 75-76.

(٤٥) Juvenal, *Satires*, no. 3, l. 62.

كل ذلك بعيدٌ جداً عن صراع الحضارات، بل كان احتِضاناً للحضارات.

لا شك بأن تَبنِّي الأقوى يمكن أن يَنتَهي بخَنقِ الشَّريكِ الأضعَف؛ وبالفعل، أطاحَتْ روما في النهاية باستقلال الأنباط والتدمريين (تَغزو الإمبراطورياتُ مثلما تَفعَل القبائل، وهكذا ولِدت في الأصل). ضَمَّتْ روما مناطقَ الأنباط سنة ١٠٦[٤٦]، وكانت تدمر قد نُهِبَتْ مبكراً على يد مارك أنتوني مُغتصِب الشرق، واحتلَّتْها روما في النهاية سنة ٢٧٢[٤٧]. وفي الوقت الحاضر، سقَطَتْ نسورُ ثقافةِ تدمر ضَحيةً لمُفترِسين خَطِرين آخرين، لما سُمِّيَ «الدولة الإسلامية»، التي شَنَّتْ حَملةً مخطَّطةً مُعلَنة لنَهبِ آثار المدينة القديمة وتَخريبِها وتَحطيمِها. كان يجب أن يتفكَّروا بمصير من سَبَقَهم من السارقين والنَّاهبين (الذين كانوا أقلّ ضراوة). يُقالَ إنَّ الخليفة الأموي مروان الثاني قد استَخرجَ في تدمر تمثالاً لملكةٍ عليه كتابةٌ تَلعَنُ أي شخص يُزعِجهُ، وبعد فترة قليلة سَقَطَ حُكمُ السلالة الأموية[٤٨] وطورِدَ الخليفةُ وقُتِلَ، والآن سَقطت «الدولة الإسلامية» كذلك.

ربما تحدَّثَ الأنباطُ والتدمريون بالعربية، إلا أنهم باستقرارهم ونمَط معيشتهم المُترَفة أحياناً، وبأذواقِهم المستورَدة لم يكن لديهم أهمّ صفات العرب، وهو بساطة نمَطِ الحياة وبَداوتِها في السُّهوب. سيأتي يومٌ سيعتَبر فيه الأنباطُ مَعنًى مُناقِضاً للعرب[٤٩]. وقد تَتجاذَبُ الأضدادُ. وبالفِعل، ارتبطَتْ جميعُ هذه العناصر العربية مع بعضها ومع عالَمٍ أوسَع ليُصبِحوا أكثر عروبة مع مرور الزمن.

مُدُن القوافل

استفادَ عَرَبُ بَدو الإبِل من العلاقات مع اقتصاديات عالمية مثلما حدَثَ

---

(٤٦) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 73.

(٤٧) Ibid., pp. 74-76.

(٤٨) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٧٣.

(٤٩) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٢٢٧، و *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 836.

مع السَّبئيين والأنباط. إذا كان أهالي شبه الجزيرة ككلّ هم الوسطاء التجاريين بين المَدارات التجارية من المحيط الهندي إلى البحر الأبيض المتوسط، فقد أصبَح العربُ البدو الوسطاءَ المتَنقلّين بين قطبَيْ ومَركَزَيِ الحياة المستقرة في الهلالَين الخَصيبَين الجنوبي والشمالي. بعيداً عن الحياة الانعزالِية المنغَلِقة في الصحراء، فقد اتَّصَلوا هم أيضاً مع العالَم الخارجي. بَدأ الرومُ بالظهورِ في نقوشِهم، وذُكِرَ الصراع بين الروم والفرس في «نَشرات» النقوشِ الصَفائية السّاميّة مع أسماء لشخصياتٍ عالمية مثل جرمنكس (Germanicus) وقصر (قيصر Caesar) وفلفس (فيليبُس Philippus)[٥٠].

كانت الاهتماماتُ متبادَلة؛ فبينما امتدَّت أنظارُ العرب فيما وراء شبه الجزيرة نَظَرَ الخارجيون إليها بِغَرضِ الاستِحواذ. أرسَلَ الرومان قوة استكشافية سنة ٢٦ ق.م تحت إشراف محافِظ مصر آليوس غالوس Aelius Gallus وصلَتْ حتى مَأرب قَبل أن تتَخلى عن كل ذلك كعَملٍ غير ناجح، لأن التقارير كانت تقولُ إن العربية السعيدة Arabia Felix ذَهَبٌ حقيقيّ، واتضَحَ أنها غُبار كلما تقدَّم الجنود بصعوبةٍ أكثر في الهضاب الجافَّة قُربَ عاصمة السَّبئيين. ضَمَّتْ القوةُ بعضَ الأنباط الذين سَبقَ أن تدخَّلوا بأنفسِهم في شبه أمور شبه الجزيرة، وأسَّسوا مَوطِئَ قَدَم في الحِجر (وهي الآن مَدائن صالح في المملكة العربية السعودية) التي أصبَحتْ نوعاً من البَتراء الصغيرة. قَبل ذلك، كان الجنوبيون أيضاً قد احتَفظوا بمستعمرات تجارية بعيداً إلى الشمال من مناطِقهم، مثل دادان التي أسَّسها المَعينيون إلى الجنوب قليلاً من الحِجر. كانت مُدُن القوافل هذه مَسرَحاً للحِوار المُتَنامي بين الحَضَر والبَدو.

ربما الأكثر أهمية منها جميعاً بالنسبة لتطور الهوية العربية كانت الروابطُ التي نَشَأتْ منذ القَرن الثالث بين قبيلة كِندَة البَدوية ودول الجنوب. بالمقارنة مع البَتراء ذات اللون الوردي ـ الأحمر، ظَلَّتْ مدينة قوافل كِندَة في قرية ذات كهل، (الآن قرية الفاو في المملكة العربية السعودية) مَجهولَةً، ولم يَتَغنَّ بها شعراءُ العَصر الفيكتوري، ليس لأن اسمَها يَصعبُ دَمجُهُ في الشِّعر

(٥٠) Macdonald, "Nomads and the Ḥawrān in the Late Hellenistic and Roman Periods: A Reassessment of the Epigraphic Evidence," pp. 341-342.

الإنكليزي، بل لأن أهميتها لم تَظهَر إلا في سبعينيات[٥١] القَرن العشرين. لا تبدو آثار قرية ذات كَهل مثيرة للإعجاب على الفور مثل آثار البَتراء وتدمر المتأثرتَين بالحضارة الهيلينية والرومانية، لكنها تدلُّ على أن عَرَبَ القرية تأثَّروا بحضارة الجنوب. فمَثلاً، في قَبرِ رَجُلٍ من قرية ذات كهل يَحمِلُ اسماً عربياً واضِحاً، هو عِجل بن سَعد اللّات، الذي يُشير نَسَبُه إلى الآلهة الأنثى العُظمى لِبَدو الشمال، كُتِبَتْ على شاهِدَة قَبرِه بالسَّبَئية أدعِيةٌ لإلَه جنوبيّ هو عثتَر شرقان[٥٢]. يُشيرُ المَشهَدَان المَنحوتَان على النُّصُب أيضاً إلى اجتماعِ عربٍ مع جنوبيين: في الجزء الأسفل هناك جَمَلان يَحمِلُ الأولُ الشخصَ المُتوفَّى مُمسِكاً بعَصا ورُمح، وهما أداتَا الرّعي والإغارة، وفي الأعلى يَظهَر المُتوفَّى عِجل بن سَعد اللّات وهو يأكلُ مُستخدِماً الأداتَين الأساسيّتَين للحياة الحَضَرية: الطاولة والكرسي. كان العربُ الذين يَتَتبَّعون الأثَر ويَنقلون البضائع في البراري يَبدؤون الظُّهورَ في المجتمع وهم يأكلون ويَشربون مع خير الناس، وسرعان ما سيَتَحولون من إضافاتٍ هامِشية إلى لاعبين أساسيين.

سِجِلُّ العرب

على الرغم من أن وفاةَ عِجل قد سُجِّلَتْ بالنَّثر السَّبئي المَصقول، فمن المؤكَّد أنه قد تم رثاؤه بالطريقة الأكثر مُرونة، وهي الشِّعر العربي الشَّفهي. أنتَجَتْ كِندَة ـ القبيلة المُسيطِرة على قرية ذات كهل ـ بعضَ أوائل الشعراء المَذكورين في اللغة. لا يوجَد لدينا قصائد رِثاء من العَصر الذي عاشَ فيه عِجل، ولكن أقدَم كتابة عربية مَعروفة، وهي الدّعاء من القَرن الأول المَذكور في الفصل الأول، حَمَلَتْ إيقاعاً متكَرراً[٥٣]. ومن المحتمل أن الأدعية، وربما التَّرانيم أيضاً، قد أخذَتْ أشكالاً شِعرية منذ القِدَم. وكذلك كانت تَسبيحات الشُّكر، إذ تَرِدُ في التاريخ الإغريقي إشارةٌ أجنبية مبكرة إلى الشِّعر العربي بعد فترةٍ قصيرة من ازدِهار قرية ذات كهل، وهي تَذكُرُ عرباً من القَرن

---

(٥١) عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات**، ص ٢٦٦.

(٥٢) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 232.

(٥٣) Ibid., pp. 211-212.

انظر أيضاً: ص ٩١ ـ ٩٤ من هذا الكتاب.

الرابع يَحتفِلون بانتصاراتٍ بطريقةِ أوداي *odai* (الأغاني الشعبية)[٥٤]. في نهاية القرنَين الأخيرَين قَبل الإسلام سيَنتَشر الشِّعر ليُحيط بكل جوانب حياة العرب ومَوتهم، سيُصبح «ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم»[٥٥]. وحسبَ قَولٍ قديم، هناك أربَع صفاتٍ للعرب: «العمائم تيجانهم والحُبى حيطانهم والسيوف سيجانهم والشعر ديوانهم»[٥٦].

الشعر، الديوان، الأرشيف، هو سِجِلٌّ شفَهيّ تماماً في الأصل. تؤثّر تصريفات العربية الفصحى في الخَطابة التي تكون مُقَفَّاة وإيقاعية، والأهم من ذلك أن تكون مُعرَبَة، ولا تُضبَطُ نهاياتُ الكلمات فقط، بل بداياتُها كذلك وحتى داخِلها وهي صَعبة جداً. إلا أن القصائد بدأت بشكلٍ مؤكَّدٍ كإعلانٍ ليس عن أفعَال مَضَتْ، بل كذلك عن أحداث ستأتي في المستقبل في تَعبير العَرَّافين والمُتَنَبّئين في القبائل. إحدى النظريات التي ذُكِرَتْ سابقاً هي أن لغةَ الشِّعر العربي المتطَورة بدأتْ كلِسَانٍ روحانيّ نبوئيّ[٥٧]، ومن المؤكَّد أن المَعنى الأصلي لكلمة «الشاعر» هو «العَرَّاف»، وبمَعناها الأساسي تدلُّ على «الشخص الذي يَشعر بما لا يَشعر به الآخرون»[٥٨] [غير حرفي].

على الرغم من غياب الوجود الواضح لما يُشبه الشِّعر في آلافِ النقوش والكتابات الصّفائية على صخور الصحراء، إلا أن كثيراً من أغراضِ الشِّعر، مثل الحب والشَّهوة والحِرمان والغَزو والحَنين. . . موجودةٌ فيها. كما أن أقدَمَ القصائد لدينا تَرجِعُ إلى شُعراءِ كِندَة من القَرن السادس، ويبدو من المحتمل أنها لم تُولَدْ تامَّةَ الشّكل مكتملة الخلقة فقط، بل حَلَّقَتْ عالياً.

---

(٥٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, pp. 225-226.

(٥٥) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 330.

(٥٦) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٢٧٣.

The 'girdles' are shawls or belts bound about the loins by a person squatting, so he can maintain his squatting position.

(٥٧) Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), p. 40.

(٥٨) السيوطي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤١٦.

يبدو أن الشّعر كان يتطَور في تلك القُرون الأولى بَعدَ الميلاد، وانتَقلَت القَصائد مُشافَهَة شمالاً وجنوباً على طرق التجارة تَحمِل مَوادّها وتأخذُ شَكلها وشَخصيتها على الطريق. وبالفعل، فإن معظم القصائد القديمة تَدورُ حول السفر والترحال والحَنين. هتَفَ الشَّنفَرَى «ارحَل» في أوائل القَرن السادس:

فَقَد حُمَّتِ الحاجاتُ واللَيلُ مُقمِرٌ   وَشُدَّتْ لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرحُلُ
لَعَمرُكَ ما في الأَرضِ ضِيقٌ عَلى امرِئٍ   سَرَى راغِباً أَو راهِباً وَهوَ يَعقِلُ[(٥٩)]

لم تكن مَلحَميةً، ولكنها كانت مِثلَ يونانيةِ هوميروس، لها شَكلُها الخاصّ من العربية الأعلى من اللغة المَحكِية، والذي يَجمَع عناصِرَ متنوعة من لهجات عديدة. وتُبنَى كلُّها في صورةٍ لغويةٍ شامِلة لامِعَة رَسمية، وذات أسلوبٍ صارِم، ولكنها تحتوي مواضيع ومواد مألوفة. مازال الإصغاء إلى الشِّعر العربي يشبه الدخول إلى مَغارة مُتقَنَة من الكلمات والأصوات، مألوفَة وغير مألوفَة في الوقت نفسِه، ومازالت في شَكلِها الأفضَل مَسكونَةً بشيءٍ من ذلك السّحر النبوئيّ القديم. في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية، وليس فقط في عواصم القوافل مثل قرية ذات كهل، بل وقُربَ نيران المخيَّمات في الفَراغات الكبيرة المُظلِمة فيما بينها، بدأ العرب بالوقوع تحت تأثير سِحرِ الشِّعر. لكي تَفهَم قوَّتَهُ يجب أن تَنسَى المَكانَةَ اللطيفة الجانبية المُهمَّشة للشِّعر في العالَم النَّاطِق بالإنكليزية. فقد كان الشِّعر بالنسبة إلى العرب (ومازالَ إلى حَدٍّ ما) هو وسيلةُ إعلام عامّة واسِعةُ الانتشار مِثل مَحطات التلفزيون الفضائية، ومُسلِّية وفاتِنة مِثل هوليوود، وقد لَعِبَ دَوراً هائلاً في وَضعِ أُسُسِ الثقافة الواحِدة لشعبٍ مُتنَوّع ومُتَنَقِّل.

كان التَّنقل والترحال هو الذي أعطَى الزَّخم لِدَورَةٍ عربية فاضِلَة. كان العرب متَنوعين ومتَنقلين، وعملوا في النَّقل عَبرَ شبه الجزيرة العربية، واختَلَطوا مع بعضهم، وكان عليهم أن يتمكَّنوا من التَّواصل، وأدَّى التبادل والاستِعارة المتبادَلة بين اللهجات إلى تسويةِ اللغة، خاصةً كما يبدو في

---

(٥٩) Robert Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature* (London: Penguin, 2000), p. 19.

نَجد[٦٠]، وهي المنطقة التي تَقعُ فيها قرية ذات كهل. صَنَعَ الشِّعرُ نسخةً أخرى، لغةً لم تكن مستويةً فقط، بل مرتفعةً في هضبة عالية يَصبو إليها الشعراء والمُتَنبِّئون والزعماء في جميع القبائل، وكذلك شعوبهم. بكلمةٍ أخرى، كانت حركةُ «عرب» هي أُمّ اللغة العربية، وكانت اللغةُ العربية هي أمّ ال «عرب». لم يكونوا أُمَّةً بالمَعنى الحديث، ولا شَعباً بالمَعنى المُتداوَل في جنوب شبه الجزيرة، بل تَجمُّعٌ من قبائل كان أكبرَ من مجرَّد مَجموعِ عناصره، بُنيَةٌ إثنِيَّةٌ. باستِخدام اصطلاحاتِ القومية الألمانية، إذا لم تكنْ *Staatsnation* (الدولة ـ الأمّة) مُتَخَيَّلةً حتى ذلك الحِين، فإن *Kulturnation* (الثقافة ـ الأمّة) كانت تَتَشَكَّل[٦١]. كانت الدَّورَة العربية الفاضِلة تزداد زَخَماً، وربما كانت قرية ذات كهل، مدينة القوافل، هي مركزها الرئيسي في الفترة من القَرن الثالث إلى الرابع. سيَنتَقِل الزَّخَم مع الوقت إلى وَتيرَةٍ أعلى، وسيَنتَقِل المَركزُ في النهاية إلى مكّة التي كانت مَركزاً تجارياً آخر للحروب والكلمات، والتي افتَخَر أهلُها باستِخدام ما كان أفضلَ كلام العرب آنذاك[٦٢]، وحيث سيَصِلُ القرآن بتلك اللغة إلى أقصى عُلُوِّها، إلى السماء.

مع بداية القُرون الميلادية بدأ تغيّرٌ مُدهِشٌ آخر، وبينما أخذَت الفروق بين لهجات العرب تتضاءَل، بَدأ لسانُ البَدو يتَّخِذ طريقه إلى أهل الحَضَر كذلك، وبَدأ العربُ البَدو يلعَبون دَوراً متزايداً، ليس فقط كمُرتَزِقة لحساب حُكّام مَحليين، ولكن كوسطاء للسُّلطة يؤثِّرون على نتائج الخلافات بين الجنوبيين المستقرين. تبدأ السِّجلات المَكتوبة بذِكرِ عُنصرَين في المجتمعات الجنوبية. فمثلاً، منذ القَرن الثاني تتحدَّثُ كتاباتُ تحالفِ هَمدان المتزايد نفوذهِ في الجنوب عن «أعراب همدان وهجّارهم» أيّ أهل مدنهم[٦٣]. ومنذ القَرن التالي، أخذَ حكّام أكبر الكيانات الجنوبية بوَصفِ أنفسِهم «مَلك سَبأ وحِميَر. . وأعرابِه طوداً وتهامةً». لقد وصَلَ العرب إلى الجنوب جَسَدياً

(٦٠) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 39.

(٦١) G.E. von Grunebaum, "The Nature of Arab Unity Before Islam," *Arabica*, vol. 10, no. 1 (1963), p. 5.

(٦٢) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ١٦٦.

(٦٣) عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات**، ص ٢٨٦.

واجتماعياً. بدأ الملوكُ المُتكَبِّرون في قصورهم العالية يَعتَمدون أكثر فأكثر على ضيوفِهم الشُّعْث.

في القَرن الأخير أو القَرنَين قَبل الإسلام، سيُصبح العرب سياسياً أكثر الناس أهمية في المجتمع الجنوبي، ولكن يبدو أن لِسانهم قد بَدأ بإغراقِ لُغاتٍ أخرى قَبل ذلك بكثير. فمثلاً، منذ القَرن الثالث، بدأ الحِميَريون بالتَّكلم بلغةٍ أخرى[٦٤] ربما شَملَت مقادير متزايدة من العربية، على الرغم من أنهم قد استَمروا في الكتابة بالسَّبئية التي كانت بِمَثابَة «لاتينية» جنوب شبه الجزيرة العربية، وتُعتَبر لُغةً كتابية بَحتَة (في أوائل القَرن العاشر اعتَبَرَ الهَمداني، الذي كان خَبيراً بتاريخ اليمن، أنَّ اللغةَ «الحِميَرية» التي كانت باقِيةً في جيوبٍ منعَزلة لغةٌ قديمة أصلية، هي اللغة العربية بشكل أساسي مع بعض السِّمات السَّبئية)[٦٥]. كما لو صَحَّ أن معظم الجنوبيين كانوا مَمنوعين من استِخدام اللغة السَّبئية كنوع من المُحرَّمات الكتابية[٦٦]، لم يُساعِد ذلك أيضاً على بَقاء تلك اللغة القَديمة. كان العرب البَدو يُطَورون لغةً واحدة قياسية، وكان سكان شبه الجزيرة بشكل عام في طريقهم لكي يُصبِحوا ناطِقين بالعربية، ويُصبِحوا عَرَباً بمَعنى ثقافي مُوحَّدٍ أشمَل. وهو شعورٌ مازال مستمراً حتى الآن، ووحدَةٌ مازالت تَجمَعُ الناس عندما يُفَرِّقُ بينهم الدِّين والسياسة.

ولكن حتى في تلك القُرون الأولى عندما كانت اللغة تَجمَع كلمة أهالي شبه الجزيرة، كانت قوى أخرى تفرّقهم.

لصوصٌ عُدولٌ

كان العرب يُنشِدون أشعارهم لبَعضهم، كما ازدادَ الغَزو والغارات. لدى دراسة شاهِدَة قَبرِ عِجل بن سَعد اللات حيث المُقاتِل الذي يَحمل الرمح ويَركَب الجَمل، يتَساءلُ المَرء فيما إذا كان قد نَهَبَ الجَمَل الثاني الذي يقوده.

---

(٦٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 663.

(٦٥) Chaim Rabin, *Ancient West-Arabian* (London: Taylor's Foreign Press, 1951), chap. 5.

(٦٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

كان الغَزو نمَطَ حياةِ البَدو منذ سِفر التكوين في التوراة الذي يَصِفُ إسماعيل بأنه مُهاجِمٌ بارع وخارِجي:

سيكون رجُلاً مثل حِمار وحشي، وستَطال يَدُهُ جميع الرجال الآخرين، وسيكون جميع الرجال الآخرين ضِدَّه[٦٧].

لاحَظَ الآشوريون أيضاً حُبَّ العرب للغَزو والإغارة[٦٨] (وهي مَلامَةٌ كان الآشوريون أنفسهم، بالطبع، أولَى بأن يُلاموا بها). صَوَّرَ النَّقاشون العرب الغارات بَعد ذلك في رسوماتهم، ووضَعوا أدعيةً مكتوبَة لِكَسبِ الغَنائم[٦٩]. لم تكن الغارات عَشوائية كطريقة في الحياة، فمَعَ مرور الزمن أصبَحَت مؤسسةً اقتصادية رسميةً بسلوكٍ ثابت وقِسمَة مُتعارَفٍ عليها، إذ يُعطَى رُبعُ أو خُمسُ الغَنائم لزعيم الغَارة، إضافة إلى بعض الامتيازات مثل انتِقاء أي شيء يَرغَبُ به[٧٠]. لم يكن الغَزو شائعاً في المجتمع فقط، بل نظامَ حياة.

يَحتاج الغَربيون المُعاصِرون إلى تغييرٍ ذهني لكي يَفهَموا كيف كانت الإغارة، ومازالت، أمراً مختلفاً عن السرقة العنيفة أو القَرصَنة الصحراوية. تُشبِهُ إلى حَدٍّ ما ممارَسَة القَرصَنة البحرية المُصَرَّح بها قديماً مِن قِبل الدولة، أو ثقافَةَ أخذِ الجائزة في بَحريَّةِ الدولة العادية، فحتى وقتٍ قريب في سنة ١٩١٨، خَصَّصَت البَحرية المَلَكية البريطانية ربعَ الجائزة للقبطان، وحصَصاً أصغَر لبقِية رجال السفينة، ويجب أن تكون الجائزةُ سَفينةً للأعداء في حالةِ حَربٍ بالطبع. ولكن أليست حالة الحرب إلا غطاءً قانونياً للإغارة؟ وبالمِثل، يمكن القول إن القبائل التي تتبادل الغَزو هي في حالةِ حرب دائمة.

في اقتصادِ الرّعي والغَزو، اعتُبِرَتْ سِرقة المواشي طَريقةً لزيادة ممتلكات الفَرد عندما تَفشَل الطّرائق الأخرى في الإدارة. تتَّضِح علاقةُ وطبيعة الرّعي ـ الغَزو في كلمة «الغنم» (أي الغَنَم والمَاعِز)، التي ربما كانت تدلُّ في الأصل على أي نوعٍ من أنواع المَواشي، والكلمة القريبة منها

---

(٦٧) الكتاب المقدس، «سفر التكوين،» الأصحاح ١٦، الآية ١٢.

(٦٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 525.

(٦٩) Ibid., vol. 7, pp. 761-762.

(٧٠) Ibid., vol. 2, p. 1005.

«الغَنيمة» التي تَعني «المَسلوب، المنهوب». وبالعودة إلى التوازي بين «العرب» و«الآريا»، فإن الكلمة السَّنسَكريتية للبقرة هي «غو *go*»[٧١]، وهي العُنصُر الأول في كلمة الحرب «غافيستي *gavisti*» التي تَعني حَرفياً «طَلَبُ البَقرة». لم تكن الحربُ والإغارة في هذين المُجتَمعَين من الرُّعاة الرُّحَّل مسألةَ إضافة أرضٍ ثابتة، بل إضافة الحيوانات المتحركة التي تَرعَى فيها. وفي مجتمعٍ لا يوجَد فيه مَفهوم أرضِ العقارات الثابتة، ربما يكون فيه مَفهوم المُلكِية الفَردية فَضفاضاً بشكل عام، مثلما هو الحال في أعالي البحار وجوائز البحرية، وكذلك في الصحراءِ وسُفُنِها [الجِمال].

مع مرور الزمن، حَمَلَ الغَزو نَفحةً داروينية وكأنه البَقاء للأصلَح. كتَبَ الجاحظ مقتَبِساً من متحدِّثٍ مَجهولٍ: «الخِصب يدعو إلى طلب الطوائل، وغزو الجيران، وإلى أن يأكل القوي من هو أضعف منه»[٧٢]. صَنَعَتْ مَراتِبُ الغُزاة نُبلَهُم وشَرَفَهُم، وكانت مؤهلاتهم عَكسَ مؤهلات نُبلاء الحَضَر التي تَرتَكِز على الثروة المَوروثَة. قال الشاعر وزعيم الإغارة دُرَيد بن الصِّمَّة، الذي بدأ عمره الطويل نحو سنة ٥٣٠ وانتَهى معارِضاً لمحمد:

أَعــاذِلُ إِنَّــهُ مــالٌ طَــريــفٌ أَحَــبُّ إِلَــيَّ مِــن مــالٍ تِــلادِ[٧٣]

وفي الوقت نفسه، يقدِّم الغَزو ضَماناً اجتماعياً للأضعف في المجتمع. كان عُروَة بن الوَرد من زعماء الصَّعاليك في القَرن السادس، وكان يَجمَع المَرضى والمسنِّين والضُّعفاء ويُطعِمُهم، ثم يأخذُهُم معه في الغَزو لإعالَةِ أنفسِهم[٧٤]. الغَزو وإعادَةُ توزيع الثروة يَسيران معاً، وتُوزَّعُ الثروة أولاً مِنَ المَغلوبين إلى المُنتَصرين، ثم بين أفراد قبيلة الغُزاة.

هناك وصفٌ ظريفٌ لحاكِم الموصِل العربي في القَرن الحادي عشر اسمه قِرواش وكان «وهّاباً نهّاباً»، أي الذي يَمنَحُ العَطايا ويَنهَب ممتلَكات الآخرين «جارياً على سنن العرب». على الرغم من أن العُرفَ كان يقتَضي

(٧١) John Keay, *India: A History* (London: Harper Collins, 2004), p. 25.

(٧٢) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٣٢.

(٧٣) لويس شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية** (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨٢)، ص ٧٦٩.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٨٩٢ ـ ٩٠٦.

عَدَم إهراقِ الدَّم، إلا أن قِرواشاً اعتَرَف: «ما في رقبتي غير خمسة أو ستة من أهل البادية قتلتهم، فأما الحاضرة فما يعبأ الله بهم»[٧٥]. مازالت ألقابٌ مشابهةٌ لِلَقَبِ قِرواش مُستخدَمةً حتى الآن في وَصفِ الوهّابين النَّهاشِين، مثل الرجُل الذي حَكَمَ البلادَ[٧٦] التي تَبَنَّتني مُدةَ ثُلث قَرن ونَهَبَ «حصة الزعيم» من اقتصادِها، ويقولُ مؤيِّدوه إنه كان «يأكُل ويُؤَكِّل». ويُلقِّبُهُ آخرون منهم بأنه «سارِقٌ عادِل». أما خُصومه ومُنتَقِدوه فيقولون إنه كان سارِقاً فقط.

تُغَذِّي الغاراتُ ونَهبُ القطعان أو الدولُ الدَّورةَ السَّرمَدية من الوحدة والتَّفرق. التَّأكِيل، النَّهب والوَهب، السَّلب وتوزيع الغَنائم هي أسرَعُ طريقةٍ لصِناعة الوحدَة. قِيلَ عن البرَّاق، زعيم القبيلة الكبيرة رَبيعَة في أواخر القَرن الخامس: «وامتلأت أيديه [كذا] من الغنائم وانقادت إليه قبائل العرب»[٧٧]، إلا أن الوحدَة النّاتِجَة كانت واهِية في مُعظَم الأحوال. ومن البَداهة أن «نظام» النهب وإعادة التوزيع لا يلائم تَشكيل دَولَةٍ مَركزية تَجمَع الضرائب، أو تحالفٍ بين مواطِنين يَشتَركون في الحقوق والواجبات، ولا يلائم أي شَكلٍ من الاستقرار على المَدى البعيد. وسيكون انتقال السُّلطة مُدمِّراً لا مَحالَة، ودَموياً في معظم الأحيان. يُخَلِّدُ الغَزو صِراعاً قديماً مُهلِكاً بين الثقافات: بين القبيلة والشعب، وبين التَّنافس والتعاون، وبين الانقِسام والتّعايش، وبين الأفراد والمؤسسات، وبين اللَّحن الواحِد والألحان المُنسَجِمة، وبين مجتمعٍ يعيشُ على الغارات المُتبادَلَة وآخَر بُنِيَ على المساعَدَة المتَبادَلَة.

كيف أصبحَ العربُ من بين كل الشعوب المتَنَقِّلَة أصحابَ الإغارةِ بامتياز؟

وِلدَ مِنَ الرياح المتَجمِّعة

تذكُر القصص الشعبية أنَّ الجَمَل وِلِدَ من شجرة الرِّمثَة. أما الحصان فهناك ذِكرٌ مِنْ مَرجِع أقوى قِيل إنه النبي محمد نفسه لروايةٍ أسطوريةٍ عن خَلقِ الحصان:

---

(٧٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ١٣٥.

(٧٦) انظر: ص ٦٨٥ ـ ٦٨٨ من هذا الكتاب.

(٧٧) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ١٤٤.

إن الله لما أراد أن يخلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوبي: إني خالق منكِ خلقاً فاجتمعي، فاجتمعت، فأمر جبريل فأخذ منها قبضة ثم قال الله: هذه قبضتي، قال: ثم خلق الله منها فرساً كُميتاً، ثم قال الله: خلقتك فرساً وجعلتك عربياً وفضلتك على سائر ما خلقته من البهائم بسعة الرزق، والغنائم تقاد على ظهرك...»(٧٨).

هناك حقيقةٌ مَجازية في كل هذا، فقد طارَت الخَيل في شبه القارّة العربية على رياحِ التغيير من خارِجها (من شمالها)، وأصبَحَتْ بالفعلِ جزءاً أساسياً من حياةَ العرب، بل حتى في اللغة الإنكليزية عندما لا تَدلُّ كلمة «عربي» على شخصٍ، فإنها تدلُّ على الحصان. أما بالنسبة إلى تاريخِها الثابت، فإن تاريخ دخول الخَيل إلى المَشهَد العربي غير مَعروف بالضبط، وربما تُشير أدلَّةٌ اكتُشِفتْ حديثاً على أن تَدجِينَ الحيوانات من فَصيلة الخَيليات يَرجِع إلى نحو ٦٠٠٠ سنة أو أكثر(٧٩). ومن المؤكّد أن العَربات التي تَجرّها الخيول قد صُوِّرتْ على الصخور في شمال شبه الجزيرة منذ نحو ٢٠٠٠ ق.م(٨٠). ويبدو أن ركوبَ الخَيل قد ظَهَر في النصف الثاني من الألف الأخيرة(٨١) قَبل الميلاد، ويُرجِعها بعضُهم إلى القَرن الرابع أو الثاني قَبل الميلاد(٨٢).

من الواضح أن الخيول سرعان ما اكتَسبَتْ أهميةً كبيرة في حياة العرب ـ ومَوتِهم ـ لأنها مِثل الجِمال كانت تُذبَح أحياناً وتُدفَن مع المُحاربين المَوتى(٨٣). لو أمكَنَ تَصديقُ ذِكرٍ عابِرٍ أورَدَهُ البَلاذُريّ، فإن الخيول كانت تُعبَدُ في البحرين(٨٤). وقد أقسَمَ بها القرآن في بداية سورة العاديات:

---

(٧٨) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٧٩) Peter Harrigan, "Discovery at al-Magar," *Saudi Aramco World* (May-June 2012), pp. 2-11.

(٨٠) Ibid., pp. 7-9.

(٨١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 884.

(٨٢) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 188.

(٨٣) Ibid., p. 175.

قارن: ص ٨٤ ـ ٨٥ من هذا الكتاب.

(٨٤) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٨٥.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾[٨٥].

وقد مُدِحَتْ كثيراً في أقدَم قصائد الشِّعر، وربما كانت أقدَمها وأكثرها شهرة تَرجِعُ إلى القَرن السادس للشاعر امرئ القيس من قبيلة كِندَة:

مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مـعـاً   كجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَّيلُ مِن عَلِ[٨٦]

في فترةِ نَظمِ تلك الأبيات، كانت بَعضُ القبائل تستطيع تَجهيزَ ألف فارس، وكان زعيم القبيلة يسمى أحياناً «الفارس»[٨٧]. لا شك بأن تَجهيزَ ألف فارس هو رَقمٌ مدهِش حتى بالنسبة إلى أكبر القبائل آنذاك بالنظر إلى ما تحتاجه الخَيل وصعوبة إطعامِها وسقياها في بيئةٍ قاسية. وبالفعل، ربما كانت الخَيل في حَدِّ ذاتها تَرَفاً مُكلِفاً، وربما فائدتها في المعركة مثل خَوضِ معركَة حديثة بسيارة سِباق فاخِرة، ولكن بإضافة الجَمَل إلى الحِصان تَحصلُ على فائدةٍ مزدوجة كاملة... تتهادى إلى المَعركة على جَمَلِكَ الذي يَحمِل أيضاً عَلَفَ حصانكَ وشرابه، ثم تتسارع إلى الأمام وتَدخل المعركة على جَوادكَ. ذُكِرتْ هذه الثنائية في النقوش الصَّفائية المتأخرة، ربما في القَرن الثاني إلى الرابع[٨٨]، وكذلك في الكتابات الرسمية لدول الجنوب العربية المُتضَعضِعَة التي اعتَمَد أعرابُها المُرتَزقة على الخَيل والجِمال معاً، بينما كانت جيوشُها النظامية مكوَّنة من المُشاة فقط[٨٩]. في بدايات العُصور الإسلامية، كان أي مقاتِل يَستحِقُّ هذا اللقب لا يَنفَصِل عن مَركوبَيه كما وَصَفَ مُعاصِرٌ للنبي محمد مُتَذَكِّراً زعيمَ غَزوٍ مَشهور:

«كان... في الليلة ذات الأزيز والصُّرّاد يركب الجمل الثَقال، ويجنب الفرس الجرور، وفي يده الرمح الثقيل، وعليه الشملة الفلوت، وهو بين المزادتين، حتى يصبح وهو متبسم»[٩٠].

---

(٨٥) **القرآن الكريم**، «سورة العاديات،» الآيات ١ ـ ٣.

(٨٦) ورد في: Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature*, p. 10.

(٨٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 1144.

(٨٨) Ibid., vol. 1, p. 884.

(٨٩) الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ص ٢٤٢.

(٩٠) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٢١٦.

تَصعبُ المُبالَغة في أهمية ثنائية الجَمل والحِصان، وهي فريدةٌ عند العرب: الجَملُ هو الرمحُ الذي يَمنَحُكَ المَدى، ولكن الحصان هو رأسُ الحَربَة. وهذا ما يَمنَحُكَ «الشَّوكَة»: الرأسُ المُدَبَّبُ والقوةُ والوَخزَة والشَّوكَة في جانب جَسَد الآخرين. إضافة إلى هذه الأسلحة، حصَلَ العرب على مِيزةٍ عسكرية وتَفوّقٍ على الآخرين. شُحِذَتْ هذه المِيزة أيضاً باختراع ربما اكتُشِفَ في القَرن الثاني أو الثالث، وهو سَرجٌ يمكِّنكَ من القتال على ظَهرِ الجَمل(٩١). ساعَدَ تطويرٌ تقني آخر على القتال والغَزو، وهو الرِّكاب (في البداية ربما كان مُنفَرِداً ومَصنوعاً من الخشب)(٩٢)، وربما وَصَلَ إلى العرب بعد ذلك بقليل ربما في القَرن الخامس. وسرعان ما أدركَ العربُ أن الرِّكاب هو «من أجود آلات الطاعن برمحه والضارب بسيفه»(٩٣).

كان الرِّكاب اختراعاً مُستَورَداً، ولكن ثنائية الجَمل + الحِصان كانت عربيةً خالِصة، وربما كانت حاسِمة في انتقال العرب من حَمَّالين مُتَثاقِلين إلى مُحارِبين حَيَويِّين. وربما كانت العامل الحاسِم الذي وضَعَهُم في اتصالٍ أقرَب مع القوى المجاوِرة شمالاً وجنوباً، كمُرتَزقة في البداية، ثم كوسَطاء للسُّلطَة، وأخيراً كمُحَطِّمين للقِوى. ووصَلَ بهم في النهاية كفاتِحين وإمبرياليين في الساحة العالمية، وربما كان كذلك العَيبَ المأسوي الذي خَتَمَ على مَصيرهم، وحَتَّم عليهم تَفرّقهم وانقسامهم: كان اختراعاً عَسكرياً انتَشر بسرعةٍ فائقة وأصبَحَ معروفاً لجميع العرب، ولكنه ضَمِنَ في الوقت نفسه عَدَمَ تفَوقِ أيٍّ منهم على الآخرين لفترةٍ طويلة. أدّى إلى جُمودٍ ساخِنٍ مُستَمر، وأثارَ انفجاراً في الغَزو.

«جميع العرب»

تحركتْ دَورَةٌ فَعَّالةٌ بين العرب، وحدَثَ توحيدٌ تدريجي في اللغة التي بَدأتْ خَلقَ «أمّة» ثقافية. غير أن دَوراتٍ قَبَلِية صغيرة كثيرة من الغَزو المتبادَل سارَت ضِدَّها، وكان تأثيرها مُفَرِّقاً على المَدى البَعيد. حَفَّزَتْ تلك الدَّوراتِ زيادةٌ مطَّردةٌ في قوة الأحصِنة، وانخفاضٌ تدريجي في السَّير البري الذي تَركَ

(٩١) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 24.

(٩٢) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٢، ص ٩.

(٩٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧.

الجِمال والجَمَّالِين بدون عَمَل وبلا نقود، وبشكلٍ خاص كان سقوطُ البَتراء وتدمر في القَرنَين الثاني والثالث، وعدمُ الاستقرار في الهلال الخصيب الجنوبي، من أسباب تَقويض التجارة في شبه الجزيرة(٩٤). ولكن على الأقل منذ الزمن الذي سُمِّيَ فيه أول عربي «جِنْدِبو» الذي حارَبَتْ جِمالُهُ الألف ضد الآشوريين، وَضَعَ العربُ خدماتهم تحت تصرف جيرانهم الأقوياء في النَّقل والتَّموين، ثم في السيطرة على الحدود، وكذلك في النَّقل التجاري. والآن، بينما غَطَّى الغَزو على التجارة، فُتِحَتْ فرصٌ جديدة لتغيير المِهنة من نَقلِ التجارة إلى القتال كمُرتَزقة.

وضَعَ احتلالُ الرومان لتدمر سنة ٢٧٢ المجالَ الحيوي للقوتَين العُظمَيين: روما وفارس، في تماسٍّ مباشَر أكثر من أي وقتٍ مَضَى. خَلَقَ هذا التَّماسُّ مخاطِرَ بالنسبة إلى العرب، ولكن كان فيه امتيازات كذلك. كما ذَكَرَ يوجين روغان Eugene Rogan، «كان العرب دائماً في وَضع أفضَل عندما تُوجَد أكثر من قوةٍ عُظمى واحِدَةٍ مُسيطِرة (قُربَهُم)»(٩٥). كانَ روغان يُفكِّر بقوى حديثة مثل بريطانيا وفرنسا، حِلف النَّاتو وحِلف وارسو، إلا أن رؤيتَهُ تَنطَبِقُ بالمِثل على عَصر روما وفارس (وكذلك عَصر الآشوريين والبابليين). أحدُ الأدلة على الوضع في القَرن الرابع موجودٌ في كتابةٍ على قَبرٍ اكتُشِفَ سنة ١٩٠١ قُربَ حُصنِ النَّمارة على بُعد ١٢٠ كيلومتراً جنوب شرق دمشق كُتِبَت «بشكلٍ متطور من الأبجدية النَّبَطية في طريقها لكي تُصبح عربية»(٩٦)، وقراءتها ليست سَهلة، ولكن على الرغم من الاختلافات في تَفسيرها ونقاط الصعوبة في فَهمها، فهي نقشٌ أساسيّ في تاريخ العرب، لا تَقِلُّ أهميتُه عن أوّلِ ذِكرٍ آشوري للعرب. مَرثِيَّةُ النَّمارة هي واحدةٌ من أوائل النقوش المكتوبة لما سيُصبِح اللغةَ العربية القياسية الموحَّدة(٩٧)، كما أنها أول ذِكْرٍ مَعروف للعرب كتبوه بأنفسِهِم وبلُغَتِهم. تَبدأ المَرثية: «هذا نصبٌ تذكاري لامرئ

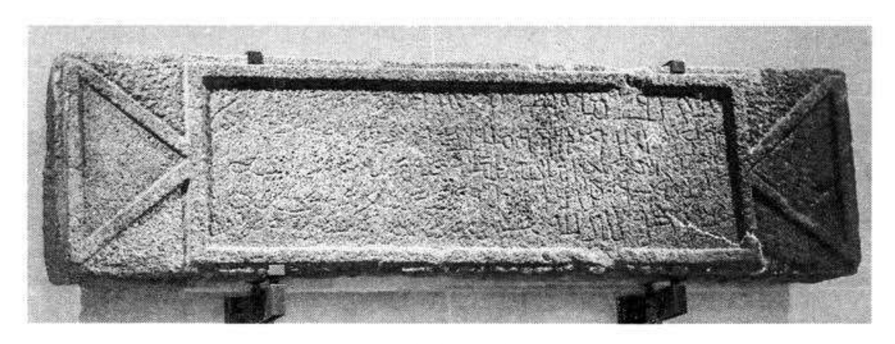
(٩٤) ميخائيل بيتروفسكي، **اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة: القرن الرابع حتى العاشر الميلادي**، تعريب محمد الشعيبي (بيروت: دار العودة، ١٩٨٧)، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٩٥) Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Penguin, 2011), p. 8.

(٩٦) James A. Bellamy, "A New Reading of the Namārah Inscription," *Journal of the American Oriental Society*, vol. 105, no. 1 (1981), p. 33.

(٩٧) عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات**، ص ٢٩٣، و Jonathan Owens, *A Linguistic History of Arabic* (Oxford: Oxford University Press, 2006), pp. 20-21.

القيس بن عمرو مَلكُ جميع العرب. . »، وتُتابع لتُسَجِّلَ أنه أخضَعَ أربَع قبائل عربية كبيرة في عَهدِه، وأغارَ على نَجران، على بُعد ١٧٠٠ كيلومتر جنوب النَّمارة «في الأراضي المَروية» للحاكِم الحِميَري. وتَنتَهي بالقول: «لم يتمكَّن أيُّ مَلِكٍ من تحقيق مُنجَزاتِهِ حتى زمن وفاتِه. . . سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من كيسلول»(٩٨)، والسنةُ مَذكورَةٌ حَسبَ تَقويمٍ مَحَليّ يَتوافَق مع السنة الميلادية ٣٢٨(*).



نقش النمارة

هناك اتفاقٌ عام حول ما ذُكِرَ أعلاهُ من النَّص، ولكن بالإضافة إلى الألغاز اللغوية في بقيَّتِه، هناك لغزٌ تاريخي، لأن مؤرِّخين عَرَباً متأخِّرين يُرتِّبون امرئ القيس على أنه الحاكِم الثاني في الحِيرَة التي كانت في منطقةِ

---

(٩٨) ورد في: Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 79.

(*) [وهذا تفسير القراءة بالعربية الحديثة:

«تي نفسُ امْرئ القَيس بن عَمرو ملك العرب كُلّها الذي أسرَ التاجَ ومَلَكَ الأسْدِيِّين ونزارَ وملوكَـهم، وهرَّبَ مذحجَ عكداً. وجاء يزجي في حَبَج نجران مدينةِ شمر. ومَلَك مَعَدَّ ونزَّلَ بنِيهِ الشعوبَ، ووكَّلهم فارس والروم. فلم يبلُغ مَلِكٌ مَبلغَه عكداً. هلكَ سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول. فليَسعد الذي ولدَه»، وتفسيرها الحديث:

«تي (هذه) نَفسُ (شاهِدَةُ قَبر) امرئ القيس بن عَمرو مَلِكُ العرب، ولَقَبُهُ ذو أسَد ومذحج. ومَلَكَ الأسديين ونزار وملوكهمْ وهَرَّبَ مذحج عَكدي (كلمة عامية تَدمُجُ الكَلِمتَين «عن قَضى»، بمَعنى بَعدَ ذلك) وجاء (أي امرؤ القيس) يَزجُها (يُقاتِلُها بضَراوة) في رُتِجِ (أبواب) نَجران، مدينة شمّر، ومَلَكَ مَعَد (بنو مَعَدْ في اليمن) ونَبَلَ بنَبه الشعوب (عامَلَ نُبلاءَهم باحترامٍ ولطف) وَوكَّلَهن (أي عَيَّنَ نبلاءَهم شيوخاً للقبائل) فرأسوا لروما (فاعتَرفوا بسِيادةِ روما عليهم) فلم يَبلُغ مَلِكٌ مَبلَغَه عكدي (بَعدَ ذلك) هَلكَ سَنَة ٢٢٣، يوم ٧ بكسلول (كانون الأول)، يالِسَعْدِ ذو (الذي) والاهُ (بايَعَهُ أو جَعَلَهُ وَلياً لَهُ)].

نُفوذِ الفرس في العراق[٩٩]، ويؤكِّدُ نقشٌ فارسي على أن والِده كان تابِعاً للإمبراطورية الساسانية[١٠٠]. ولكن قَبرَهُ في النَّمارة يَبعُدُ ٧٥٠ كيلومتراً عن الحِيرَة داخلَ منطقةِ نُفوذِ الرومان. ربما هناك تفسيراتٌ أخرى، ولكن أقرَبَ التفسيرات هو الانشِقاق، وأنه انتَقَل إلى الرومان مع جزءٍ على الأقل مِنْ قَبيلَتِهِ لَخم[١٠١]. يَدَّعي أحدُ المؤرخين العرب أنه انشَقَّ بمَعنى ديني وأصبَح مسيحياً[١٠٢]، كما أن قراءةً أخرى ممكِنة لأحَدِ المَقاطِع المُتَنازَع عليها في النَّقش تُشير إلى أنه عَيَّنَ نبلاء الشعوب نواباً له، وأصبَحوا «زعماء لصالح الرومان»[١٠٣].

مهما كانت حقيقة الأمر، فمن الواضح أن سياسات الدول العظمى كانت جزءاً من الصورة، ومن المحتمل أن امرئ القيس قد استَغلَّها لِمنِح نفسِه وجوداً عَبرَ شبه الجزيرة العربية من الهلال الخصيب الشمالي إلى الأراضي المَروية في الهلال الجنوبي. كما أنه من الواضح في دَورَة القَرن الرابع من اللعبة الكبرى في المواجَهَة الدائمة بين الإمبراطوريات في شمال شبه القارة العربية، أنَّ البَيادق العربية كانت تبدأ في عُبور رُقعَةِ الشطرنج لكي يُصبحوا مُلوكاً ولاعبين كِباراً في حَدِّ ذاتِهِم (يبدو أن موضَةَ المَلِكات لم تَعد مُنتَشِرة بَعد زنوبيا مَلِكة تدمر، التي كانت لامِعَة ولكنها هُزِمَتْ، وكان دَورُها يَصعُبُ تكرارُه).

كانت تلك اللعبة الكبرى قَديمَة مثل أقدَمِ اسمٍ وَرَدَ في ذِكرِ العرب قَبل ألف سنة من سقوط البَتراء وتدمر، ومازالت اللعبةُ بعيدة عن الزوال الآن. ولكن الدَّور الخاص الذي لَعِبَهُ امرؤ القيس «مَلكُ جميع العرب» يَطرَحُ سؤالاً: هل اتَّخَذَ هذا اللقَبَ المَلَكي بنفسِه، أم أنه مِنحَةٌ من واحدةٍ أو أكثر من الإمبراطوريات المُجاوِرة له؟ هناك أمثلةٌ متأخِّرة عن منح القوى العظمى ألقاباً مَلَكية. فمَثلاً، يَذكُر بروكوبيوس Procopius [مؤرخٌ بيزنطي قديم] أنّ الرومان قد أنعَموا على تابِعِهم الحاكِم الغَسَّاني في أوائل القَرن السادس لَقَبَ

(٩٩) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٩٨.

(١٠٠) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 79.

(١٠١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 632.

(١٠٢) al-Tabari in: Hoyland, Ibid., p. 79.

(١٠٣) after Bellamy, in: Versteegh, *The Arabic Language*, p. 31.

«مِلك العرب» كَرَدٍّ على دَعمِ الفرس لمَملَكة امرئ القيس اللَّخْمِيّة (التي رجعتْ إلى حُضنِ الفرس منذ زمن طويل). وفي الجهة الأخرى، تؤكّد مصادر عربية متأخرة أنّ الفرس كانوا هم الذين أنعَموا بلَقَب «مَلك العرب» على زعماء اللَّخمِيين في هذه الفترة(١٠٤). يبدو من المحتمل جِداً أن امرئ القيس كان المستفيدَ المبكر في لُعبة الألقاب، وبكلمة أخرى إنه اعتَبَر نفسَه «مَلِكاً لجميع العرب» لأن جِهةً أخرى رومانية أو فارسية قد وَصَفَتْهُ بذلك.

إذا كانت الفرضيةُ صحيحةً فإنها تَطرَحُ سؤالاً آخَر: هل جاء أول مَعنى للوحدة العربية الشاملة من داخل العرب أنفسِهم أو من الخارج، من الجيران غير العرب؟ لا يوجَدُ حافِزٌ أقوى من أن يُقالَ لكَ إنَّكَ مَلكٌ رسمياً من جهةٍ أو أخرى (أو ربما مِن كِليهما) من القوتَين العظمَيين في عَصركَ لكي يَجعلكَ تَشعر وتَتصَرف كمَلك، وأن تَعتَبر أتباعكَ كوحدة واحدة «الجميع العرب» مهما كانوا متفرِّقين في الواقع. بَعدَ أكثر من ألف سنة من قَولِ جيرانِهم لهم إنهم كانوا عرباً، كجَماعةٍ منفَصِلة مُحدَّدة بهوية، ربما وصَلَتْهم الرسالة أخيراً. أعتَرفُ بأنني أقرأُ ما بَينَ السُّطور في مَرثيةِ امرئ القيس، ولكن لا يمكُن إنكار أنه منذ عَصرِ حُكمِهِ في القَرن الرابع، كما سنَرى فإن قوةَ ثقافةٍ عربيةٍ موحَّدَةٍ ستَتقدَّم باندِفاع شديد تحت إشراف الملوك الإمبراطوريين التابعين الذين جاؤوا من بَعدِه على الطَّرفَين الروماني والفارسي.

من المؤكَّد أن الإمبراطوريات ومؤامراتها قد غَذَّتْ هوياتٍ قومية، وحَفَّزَتْ على السَّعي للوحدة السياسية في الأزمنة الحديثة؛ فمنذ قَرنٍ مَضى شَجَّعَ البريطانيون مَن أعلَنوه بأنفسِهم «مَلِكاً للعرب»، هو الشريف حسين في مكّة(١٠٥). ستؤدِّي أفعالٌ إمبراطوريةٌ وتعاملاتٌ ماكرة وخيبات آمَال إلى إثارةِ الاستياءِ وتَغذِيةِ القومية. ومن المؤكَّد أن مِثلَ ذلك قد حَدَثَ في أيام الروم والفرس. قدَّمَ السادةُ الإمبرياليون تيجاناً لأتباعِهم العرب، إلا أنهم كانوا مستعدِّين في الوقت نفسِه أحياناً لاستعادَةِ التِّيجان وتقويضِ الوحدة التي تَرمُزُ إليها بإشعالِ الفِتنة بين العرب. وفي النهاية، لا يؤدي ذلك إلا لتقويةِ شعورِ

---

(١٠٤) Thomas Sizgorich, ""Do Prophets Come with a Sword?": Conquest, Empire, and Historical Narrative in the Early Islamic World," *American Historical Review*, vol. 112, no. 4 (October 2007), p. 1012.

(١٠٥) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 133.

العرب بهويتهم، لأن بِذرَةَ الهوية الذاتية ستَنمو حتى لو زَرَعَها إمبرياليون آخرون، وستَنمو في تَناقُضٍ مع هؤلاء الآخرين، وستَنمو للبَحثِ عن تقرير المصير.

وعلى كل حال فقد كانت الوحدة في عصر المَلك امرئ القيس بِذرَةً فقط. لا شك بأن الغالبية العظمى من «جميع العرب» كانت ستُربِكها فكرةُ الانتماء إلى جماعة واحدة خاضِعة لمَلك واحِد، وإنَّ ذرائع المَلَكية وسياساتها سواء بنوعِ التوحيدِ والحُكم، أو نوعِ التَّفرقة والحُكم، كانت تَتناقَض مع الحقائق على الأرض، لأن العرب ظَلّوا مُتفرّقين وغَير قابِلين للحُكم. ومع ذلك فإن خلفاء المَلك سيَتَمسَّكون بتيجانِهم المُستعارَة، وستَظلُّ القوى العظمى تُلَوِّحُ فوقَهم وعلى شبه جزيرة العرب بِمَنحِ التيجان ونَزعِها مدة ثلاثة قرون أخرى. كما سيَضَعها عالِمٌ في العصر الإسلامي الأول بأن عرب تلك الأيام كانوا «مكعومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم»[١٠٦]، ويبدو أن ذلك الوَضع كان أكثر إزعاجاً من الوقوع ـ حسب القول الإنكليزي ـ بين الصَّخرة والمَكان الصّلب، أي بين المطرَقة والسّندان.

(١٠٦) Qatadah quoted in: M. J. Kister, "Al-Ḥīra: Some Notes on Its Relations with Arabia," *Arabica*, vol. 15, no. 2 (June 1968), p. 143.

الفصل الثالث

التَّفرق والتَّشتت البعيد: قواعد التاريخ المتغيِّرة

على صَخرَتِهِم بين أسَدَي إمبراطوريتَي الفرس والروم، كان على العرب مواجَهةُ أسَدٍ ثالث، هو الإمبراطورية الحِميَرية في الجنوب.

إذا كان تَباهي امرئ القيس «مَلك جميع العرب» صحيحاً، فقد كان شعبُهُ قد قَرَصوا ذَيلَ أسَدٍ جنوبي بغَزو الأراضي المَروية للمَلك الحِميَري شَمَّر في نَجران. إلا أن مِثل هذا التَّعرض للأسَد كان نادراً وقصير المَدى، وربما حَرَّضَتْ عليه إحدى القوى الشمالية؛ فهناك ذِكرٌ وَرَدَ عند الطَّبَري، المؤرخ الإسلامي المبكر، عن إرسالِ الشَّاه السَّاساني الفارسي حَملةً قوية ضد القبائل في شبه الجزيرة آنذاك، وربما كانت تلك هي الحَملةُ المَذكورة في مَرثية امرئ القيس[1]. وإذا كان الأمر كذلك فإن الإغارة على أراضي المَلك شَمَّر الخصبة في الجنوب ستكون مَساراً جانبياً مُغرِياً للحَملة الرئيسية ضد تلك القبائل، ومفيدة جداً في نظَر الفرس لأن شَمَّر نفسه كان في مِزاجِ الغَزو والتَّوسع في أوائل القَرن الرابع، وأرسلَ حَملاتٍ بعيدة في شمال وشرق شبه الجزيرة العربية[2]. ذَكَرَ الكتّاب خلال العَصر الإسلامي تقارير رائعة عن الجنوب القديم ادَّعتْ أنّ حَملات المَلك الحِميَري قد أخذَتْهُ بعيداً إلى سَمرقَند في آسيا الوسطى (وتدَّعي الأسطورة أنه أعطاها اسم شَمَّر ـ كَند، أي: شَمَّر دَمَّرَها)[3]، بل وأنه قادَ الحِميَريين إلى

---

(١) يوسف محمد عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠)، ص ٢٧٥.

(٢) **الموسوعة اليمنية**، إعداد وإشراف وتحرير أحمد جابر عفيف (صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ١٩٩٢)، كلمة شَمَّر.

(٣) انظر على سبيل المثال: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٢٦٢.

التبت[٤]. أما بالنسبة إلى الفرس الذين كانوا يوسّعون نفوذهم في شرق شبه الجزيرة العربية، فإن وصول شَمَّر إلى وسَطِها كان تهديداً كافياً.

إذاً يبدو مُحتَملاً أنَّ امرأ القيس قَبلَ انشِقاقِه إلى روما قد تصَرَّف مثل مخلَبِ القطّ لصالح الأسد الفارسي وأخضَع قَبائل متوحِشة. إلا أن الحَملة سيكون لها نتائج أكثر مصيريةً بالنسبة إلى الجنوبيين من مجرد إغارة واحدة على نَجران. يَذكُر امرؤ القيس أنه «أدَّبَ» في طريقِهِ تَجمُّعاً كبيراً للقبائل اسمُه «مَذحِج»[٥]. في ذلك الوقت تقريباً، وربما بضَغطٍ من الفرس، ارتَحلتْ مَذحِج مع زعمائها الكِنديين، وتَحرَّكتْ جميعاً نحو الجنوب[٦]. وكما رأينا فإن أجزاء من كِندَة عاشوا بوجودٍ شبه مستقر في مدينة القوافل قرية ذات كهل، ولكن قلوبهم ظَلَّتْ متعلّقة بالبَداوة مع القبائل التي ارتَبطَتْ بهم. سياسَتُهم في أوقات الشدّة لم تكن الرَّدَّ بالقوة، بل بِحَملِ خِيامِهم والابتِعاد عن مصدَر الضَّرر.

وصولُ عشرات آلاف من البَدو وأنصاف البَدو إلى الجنوب الحَضَري، ووجود تَجمُّع قبائل مَذحِج على السفوح في شرق المرتفعات الغنية الحِميَرية، ووصول كِندَة إلى قَلبِ المَناطق الخصبة التي تَحكُمها حِميَر في أودية حَضرَموت، سيؤدي إلى تغييرات عميقة. كان العرب ولغتهم قد دَخَلوا قَبل ذلك إلى الجنوب القديم الذي يَتحدَّث باللغة السَّبئية. والآن، زادَ تدفُّق قبائل البَدو، وأصبَحَ الأسَدُ الحِميَري مُسِنّاً وضعيفاً، وسيَنخُرون أساساتِ هذه الحضارة المستقرّة، وسرعان ما ستَتَرَنَّحُ أبراجُ القصور في ظفار.

الجِرذُ ذو الأسنان الحديدية

كان التعبير عن الوحدة في الجنوب بمَزيج مَمالِكِه الصغيرة المتعدِّدة يَظهَر في بلاغةِ الألقاب المَلَكية. ظلَّتْ سَبأ المَملَكة العَريقة منذ الأيام الأولى، وفي ظِلِّها نَهضَتْ مَمالكُ صغرى وتلاشَتْ على «شواطئ» الصحراء

---

(٤) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), pp. 33 and 46.

(٥) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), p. 79.

(٦) عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات**، ص ٢٧٦.

الداخلية، مثل المَمالك العابِرة مَعِيْن وقَتَبان وأوسَان. في بدايات الألف الأولى، بَرَزَ الحِميَريون الذين يَسكنون الجِبال بين الصحراء والبحر الأحمر، وشَهِدَت القُرون التالية صِراعاً على السَّيطرة، وأحياناً تحالفات بين الحِميَريين والسَّبئيين. بعيداً إلى الشرق وراء خليج من الرمال توجَدُ الواحَة الكبيرة حَضرَمَوت بوديانها المتفرِّعة، وكانت قد حافَظَتْ على استقلالها طويلاً، وكذلك على أنظِمَة ريِّها، إلا أنها وقَعتْ تحت سلطة الدولة السَّبئية التي سيطَر عليها الحِميَريون في نهاية القَرن الثالث. بلغَتْ وحدةُ جنوب شبه الجزيرة العربية أوجَها في عَهدِ قاهِر حَضرَمَوت المَلك التَّوسّعي شَمَّر الذي حَكَمَ من أواخر القَرن الثالث إلى أوائل القَرن الرابع، ومن المؤكَّد أنها كانت موحَّدَة آنذاك أكثر مما هي الآن وقتَ كتابةِ هذه السطور. ادَّعى الملك شَمَّر أنه كان «مَلكَ سَبأ وذي الرَّيدان (القصر الحِميَري الذي يَرمز إلى العالَم الحِميَري)، وحَضرَمَوت ويَمَنَات». الاسم الأخير «يَمَنَات» يَعني «أرض الجنوب» ربما يُشير إلى المَمالكِ القديمة في أوسَان وقَتَبان(٧). سيُضيفُ الملوكُ الحِميَريون إلى هذه القائمة فيما بَعد «وأعرابِه طوداً وتهامة» في محاولة اسميَّة لاحتواء المشكلة المتزايدة.

كان ذلك العنصُر الجديد الأخير من العرب هو الذي سيَمسَح بقية اللَّقَب المَلَكي ويُنهي الوحدة القصيرة في ذلك العالَم. انضمَّتْ إلى مرتزقة الأعراب في خِدمَة المَلك أعدادٌ متزايدة من رجال القبائل الذين دُفِعوا جنوباً وغرباً تحت ضغط الفرس. يمكن أن يكون المرتزقة قوةً مفيدةً لمَلكٍ قويّ مثل شَمَّر، غير أن حُكَّاماً أضعف بَعدَهُ استَخدَموا الأعراب ليحققوا «أهدافاً انتقامية ثأرية... لا تلحق بالبلاد إلا الخراب»(٨). إلا أنَّ نتيجةً أخرى ستَتَبيَّن بعد قَرنَين من زمن شَمَّر بحدوث الاحتلالَين الحَبَشي والفارسي. سيتَكَرر نَمَط تقويض المرتزقة لحُكم أسيادِهم في تاريخ العرب. كما سيتَكَرر تدميرُ البَدو لنمَط حياةِ جيرانِهم الحَضَر. من المفيد تكرار ذِكرِ أنَّ ابن خلدون قد لاحَظَ بنظرةٍ فاحِصَة إلى الوراء امتدَّت ألف سنة منذ عصر المَلك شَمَّر

---

(٧) Werner Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix* (Innsbruck; Frankfurt/Main: Pinguin Verlag, n.d. [c. 1988]), p. 52.

(٨) مطهر علي الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ط ٢، مزيدة ومنقحة (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٠)، ص ٣٢٩.

«كيف انهارَت الحضارة حيثما سيَطَر البَدو (العرب)» [غير حرفي]. يُتابِعُ بذِكرِ أمثِلة من جنوب الجزيرة العربية، ثم بَعدَ ذلك في العراق وسورية، وفي موطِنِه في شمال أفريقيا[٩] (يكَرِّرَ النمَطُ نفسَه الآن خارج نافذتي حيث يتَنكَّبُ البنادقَ رجالُ القبائلِ من جبال الشمال، ويَهجُمون على عاصِمةِ خليفة سَبأ، وحاكِمٌ مخلوعٌ يسعى إلى الانتقام. ويحدُثُ ذلك أيضاً مع مراعاة الفَوارق في العراق وسورية وليبيا بعد نحو ألف سنة من ابن خلدون).

ستُروى قصصُ انهيارِ وزَوالِ الحضارات المستقرّة في جنوب شبه الجزيرة العربية بِسَردٍ طويل مُحزِن في ذكريات العرب التالية، وتُلَخَّصُ في قصة انهيار سَدِّ مأرب، وهي قصةٌ يُعادُ سَردُها مِراراً في قصائدَ ونَثر ونَصٍّ مقدَّس. تبدأ رواية المَسعودي في القَرن العاشر بوَصفِ سَبأ في ذُروَة ازدِهارِها:

وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه، وأهنأ حال... وفي نهاية الخصب... وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة[١٠]...

أي إنهم كانوا مُتَّحِدين وتَحدَّثوا بصوتٍ واحِد. وكانت ثروتهم وخصوبة أرضِهم تَرجِع إلى ذلك السَّدّ عَبرَ الوادي في مَأرِب الذي كان أحَدَ أعظم أعمال الهندسة المائية في العالَم القديم. كان طولُهُ ٦٨٠ متراً، وارتفاعُهُ ١٨ متراً، وكما رأينا، أعاد توزيعَ المياه المنحَدِرة من منطقةِ تخزينٍ مساحتُها ١٠٠٠٠ متر مربع لتَروِيَة مساحةٍ تُماثِلُها من الهكتارات، بما يساوي مساحةَ ولاية رود أيلاند [في أمريكا]، أو خمسة أضعاف مساحة جميع الحدائق المَلَكية في لندن. وبدأت المَتاعب حسبَ روايةٍ شَعبية عندما شاهدَتْ كَاهِنَةُ المَلك أحلاماً مزعِجَة عن دَمار السَّد، ثم جاءَتْها أحلامُ يَقظَة عن زوالِ النظام الطبيعي: ثلاثةُ جرابيع [ترجمة المؤلف] واقِفة على أرجلها الخلفية وهي تُغطِّي عيونها بأطرافِها الأمامية، أو سلحفاة تَبول وهي مَقلوبة على ظَهرِها، أو أشجار تتأرجَح دون وجود ريح. فَسَّرَتْ مَعاني هذه الإشارات

---

(٩) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 119.

(١٠) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ص ١٨١.

[ترجمة المؤلف] قائلةً للمَلك إنه سيَجِدُ جرذاً يحفر تحت السَّد «فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً...»(١١).

ربما خَشِيَ المَسعودي على سُمعتِه فقدَّم لهذه القصة بسَردٍ أكثر رَصانَة يؤدي فيه الإهمالُ العام إلى انهيار السَّد. في السَّرد القرآني المُختصَر، يُقدَّمُ السَّدُ ومَزاياه كنعمَةٍ من الله، وأن تَجاهلها وإنكارها يَستدعي الدَّمار:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۞ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۞ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(١٢).

يَعرِفُ السَّبئيون مَعنى الآية الأخيرة في الماضي، واللاجئون العرب في الحاضر، وما فيها من إنذارٍ لما يُمكن أن يَحدُث إذا تُرِكَتْ أساساتُ المجتمع الحَضري المُتَّحِد لكي تَتهالَكَ وتَزول.

ربما أصابَتْ سَدَّ مَأرب نهايتُهُ الأخيرة خلال حياة النبي محمد في بدايات القَرن السابع(١٣)، ولكنّ كتاباتٍ في مَوقِعِه تُبَيِّنُ أن مَشاكِلَهُ كانت مستمرة على مَدى نحو ٣٠٠ سنة قَبل ذلك، وبدلاً من الصيانة المنتَظَمة التي كانت ضرورية لتَنظيف تَراكُم الطَّمي، مَرَّتْ فتراتٌ طويلة من الإهمال، تَخلَّلَتْها هجماتٌ مَحمومَة من الإصلاحات الإسعافية. يَشهَدُ كل ذلك على تَهالُكٍ تدريجي في السُّلطة المَركزية التي كانت قَبلَ ذلك تُنَظِّمُ صيانةً دَوريةً للبِناء. تَسارَعَ التَّهالكُ بسبب الاحتلالات الإثيوبية والفارسية خلال القَرن السادس، ولكنه كان في البداية بسبب تَسللِ قوةٍ متزايدة من قبائل الأعراب على مَدى قرنَين قَبلَ ذلك(١٤). يقول مؤرخٌ يَمنِي معاصِر دارِس لقدماء

(١١) المصدر نفسه، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(١٢) القرآن الكريم،» سورة سبأ،» الآيات ١٥ ـ ١٩.

(١٣) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 4, pp. 563-564.

(١٤) Ibid., vol. 4, p. 564.

الجنوبيين، ويبدو أنه مازال غاضباً بسبب الكارثة: «فإن هذه الفئران البشرية من مرتزقة البدو والأعراب... أسهمت بجد في القضاء على دولَتِهِ (أي دولة الجنوب) الأخيرة»[١٥]. لأن أعدادهم المُتزايِدَة وقوتهم القتالية حَوَّلَتْهم من مرتزقة إلى سَماسِرة للسُّلطة، ثم إلى مُحطِّمينَ للسُّلطة، ثم إلى الاستيلاء عليها. وما إن سَيطَروا حتى تَحكَّمَتْ طرائقهم القَبَلية في الحُكم التي تَعتَمد بشكلٍ رئيسي على التَّحكيم، وأصبَحوا بمَعنى آخَر عَشوائيين اعتِباطِيين. أدَّى تأثيرُ القَوارِض على هياكِلَ مَدَنيةٍ عُمرُها قُرون إلى تآكلُ قواعِد مجتمعٍ حَضَري.

مثل غيرها من الحكايات الرَّمزية المُتمَيِّزة، فإن قصةَ انهيارِ سَدِّ مَأرب يمكن أن تكون مفيدةً بمستوياتٍ مختلفة؛ فبالنسبة إلى مؤرِّخي التراث الشعبي والمُزارعين، فيها تَحذيرٌ عما يمكن أن يَحدُث عندما يتم تَجاهل إنذارات الطبيعة، وبالنسبة إلى النبي وأصحابه، فهي مِثالٌ عن المآسي التي يمكن أن تَحدُث عندما لا تُطاعَ الأوامر المقدَّسة، وبالنسبة إلى مؤرِّخي المجتمع، هي نموذجٌ لنُفوذية «سَدٍّ» أسطوريٍّ آخَر، هو الحاجِز المَساميّ بين البَدو والحَضَر والفيضانات البَشَرية الناتِجة عن اختِراقِه.

إذا كان هناك فِعلاً شَتاتٌ كبير من البَشَر المستقرّين نتيجة انهيار المجتمع وأنظمة الري في الجنوب كما تدَّعي الروايات، فلا بد من أن الانتشار قد حَدَثَ قَبل ذلك الانهيار الأخير للسَّد قَبل الإسلام[١٦]. التواريخُ الشعبية كما سنَرى، تتَحدَّث عن الهجرة من مَأرب لقبيلةِ «أزد» الكبيرة وفَخذِها المُهمّ «غسان»، التي ربما حدَثَتْ قَبل ذلك بقُرون. وليس من المَعروف فيما إذا كان هنالك فِعلاً هِجرةٌ واحِدة ضَخمَة، بل الأغلب هو حدوثُ انحسارٍ تدريجي للشعوب المستقرّة. وعلى كل حال، سيكون لها تأثيرات عميقة، وربما لم تكن كارثةً ضخمة مفاجِئة، ولكنَّ تَحرُّكَ الشعوب المستقرة بأعدادٍ كبيرة سيكون سبباً لحدوث تغيّر في شبه القارة العربية. مع تَسَرّبِ البَدو إلى الأراضي الحَضَرية القديمة وخروج الشعوب التي كانت مستقرة فيها، انحَلَّت الدولةُ القديمة الموحَّدَة، وزالَت الحُدود بين البَدو والحَضَر. تقول قصيدة

---

(١٥) الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ص ٣٢٩.

(١٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 564.

تُنسَبُ إلى حاكِم جنوبيّ قَبل الإسلام: «تركَ المُلوكُ ديارَهم... وتَرَحَّلوا إلى ديارِ البَدو والحَضَر»[١٧] [غير حرفي].

كانت شبه جزيرة العرب تتحرك وتدخل عصرَ الانقسام الديناميكي، وكانت تلك صَدمة ستُطلِقُ فيما بَعد الهجرات المَلحَمية والفتوحات الإسلامية. وإذا كانت الحضاراتُ الجنوبية العظيمة قد تهدَّمتْ على الطريق، فكما يُقال: لا يمكنكَ أن تَصنعَ العِجّة دون أن تَكسِرَ البَيض.

التاريخ المَبني للمَعلوم

أبرز شخصيةٍ في قصة مأرب هي الكاهِنة طَريفَة التي توقَّعَتْ انهيارَ السَّد، ثم قادَتْ هِجرة قَومِها بَني غَسَّان[١٨]. كان يَرجِع إليها حاكِم غسان، لأن طَريفَة هي التي اختارَتْ طريق الهجرة، وعندما سَدَّهُ أعداء، حَفَّزَتْ قومَها على قِتالِهم. وضَعتْ جميعَ تصريحاتِها بصِياغَةٍ عربية فَصيحة مَسجوعَة، وهو أسلوب بلاغَةٍ فيه إيقاعُ وقافية، ولكن بلا وَزنٍ شِعريّ، سيَظهَر فيما بَعد في القرآن. استُخدِم بيانُها الخاص في الكلام في سَردِ تصريحات تَستَند إلى رؤيا غَيبية[١٩]. وما تقولُهُ يُعتَبر صحيحاً بالضرورة، لأنها تُردِّدُهُ بذلك الأسلوب الخاص. الحُجَّةُ دائرةٌ مَنيعَةٌ لا يمكن اختِراقُها، ولا يَنطَبِقُ عليها نوع الحقيقة الأحدَث تاريخياً، ولا ذلك المَنطق الذي ظَهَر في أوروبا منذ نحو خمسة قرون، والذي يَستَند إلى التَّجريبية و«الحقائق» التي يمكن قياسها. الإثبات النهائي هو فيما إذا صَدَّقَها عَددٌ كافٍ من الناس، وقد فَعَلوا ذلك عندما أقسَمَتْ:

وحق ما نزل من علمي بالبيان وما نطق به اللسان[٢٠]...

---

(١٧) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣)، ص ٣٢٥.

(١٨) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في: وهب بن منبه اليماني، **كتاب التيجان وملوك حمير** (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف، العثمانية، ١٩٢٨)، ج ٢، ص ٢٨٧. وفي بعض المصادر، تكتب ظَريفَة.

(١٩) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٣٥.

(٢٠) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في: وهب بن منبه اليماني، **كتاب التيجان وملوك حمير**، ج ٢، ص ٢٩٠.

وبذلك فإن قول الحقيقة يُشبِهُ إلقاء نكتَة، فالمهمّ في ذلك هو طريقة إلقائها.

بوصفِها شخصاً يستطيع أن يَرى ما لا يراه الآخرون، ويستطيع أن يتَحدَّث كما لا يتَحدَّث به الآخرون، وبذلك تَستطيع الإلهام والقيادة، فقد كانت طَريفَة مُقدِّمَةً لشخصيةٍ جاءَتْ بَعدَها وُهِبَت التَّنبؤ والبلاغة والقيادة. تلك الشخصيةُ التالية هي محمد، وهو مؤكَّدٌ تاريخياً بخِلاف شخصية طَريفَة، التي قد تُستلهَم مِن شَخصٍ حقيقي، إلا أنها لا تُذكَر إلا بشكلٍ باهِت، وربما كانت التفاصيل الغامضة لشخصيتها تقع في مجال القصص الخرافية، ولكن يجب ألا نُلغِي وجودَها ذلك. سَردُ المؤرخين الشَّعبيين الإسلاميين المَعروفين الأوائل لقصة السَّد وطَريفَة (على الأقل منذ رواية وهَب بن مُنبِّه الذي عاش في القَرن الإسلامي الأول) يُرجِّحُ أنهم فَهِموا كيف أن الدِّين «الجديد» قد ظَهَرَ من تُراثِ شِبه الجزيرة القديم الذي شَمَلَ كلاً من الجنوب الحَضَري وبيئة محمد المَكّية.

كان وهَب نفسُه جنوبياً وفَخوراً بدون شك بماضي الجنوب الذي حَفَّزَهُ وغيره من الجنوبيين للتأكيد على أهمية المنطقة في التاريخ العربي الأوسَع الذي جاء بَعدَها. وكانوا على حَقٍّ في ذلك، لأن قبيلةَ غسان، وغيرها من الشعوب المستقرة التي هاجَرَتْ، لم يَعودوا جَنوبيين، بل أصبَحوا عرباً. توقَّفوا عن كونِهم «سَبئيين» أو «حِميَريين» مُترَكِّزين حول أنفسِهم، ومُكتَفين بذاتِهم في أرضِهم الخصبة البعيدة؛ بل اعتُبِروا «يَمنيين» من وجهة نظر عربية شاملة، وأنهم من يَمَنِ شبه الجزيرة، أي من جنوبه. وبمَعنًى ما، فإن قصةَ التَّفرق والتَّشتت بعد انهيار سَدِّ مَأرب وهجرة الشعوب واختلاطهم في هوية جديدة مشترَكة هي ملحَمَة «القومية» العربية[٢١]. يمكن روايتها في صفحة أو صفحتَين، ولذا فمن الصعب اعتبارها مَلحَمية من حيث الحجم، ولكن يبدو أنَّ الأحداثَ التي تَلَتْها تَجعَلُها أكبر من ذلك بكثير، ونموذَجاً لنُصبٍ تذكاري كبير. إنها النموذج المَبدئي لانتشار العرب في القَرن السابع إلى ثلاث قارات، ولمَلحَمَة انتشارِ الإسلام في العالَم.

ربما لم تكن قصة مَأرب تاريخاً صارِماً، ولكنها توضحُ أهميةَ قوة

---

(٢١) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 233.

الأسطورة في صُنع هويةٍ جديدة، وهي إثنيّةٌ جديدة تماماً لشعوب وقبائل متفرّقة سَيوحّدُها الإسلام. ربما تكون أهميتها التاريخية مثل **المَهابارتا** *Mahabharata* [الهندية] أو **الإنياذة** *Aeneid* [قصيدة الشاعر فيرجيل اللاتينية التي تروي قصة تأسيس الطروادين لروما]. قال رينان Renan [المستشرق الفرنسي] إنّ الأمَم تَنبَثِقُ من فَهم خاطئ للتاريخ(٢٢). ولكن ربما كانت كلمة «خاطئ» هي الكلمة المُخطِئة، لأن الخيالَ قد يكون صادقاً، حتى لو لم يكن حقيقة، والهوية القومية، مثل الدِّين، تَدورُ حول مسائل الإيمان أكثر من قضايا الحقيقة. يجب على المؤرخ بالطبع أن يحاول التمييزَ بين الحالتَين على الرغم من صعوبة ذلك في معظم الأحيان. فمثلاً، لا يوجد شك في حقيقة وجود البقايا العملاقة لبَوابَتَي السَّد في مَأرب، أو ثلاثة آلاف سنة من تَرَسُّب الطَّمي في «الجَنَّتَين» اللتَين كانَتا مَرويتَين، والمَذكورتَين في القرآن. وكذلك حقيقة وجود سَدّ مَأرب الجديد الذي مَوَّلَهُ في الثمانينيات الشيخ زايد آل نَهيان من الإمارات العربية المتحدة، رَحِمَهُ الله. ولكن، هل جاء أسلافُ الشيخ زايد حقاً من قبيلة أزد التي هاجَرتْ كما يُقال مِن مَأرب مع غَسان وطَريفَة؟ هذه مسألة اعتقاد، لأنه لا يوجد أي دليل لإثباتها سوى قصائد وقصص رُويَتْ بعد زمن طويل من وقائعها.

المُثبَت في كل هذا، هو أنه في القرون القليلة التي سبَقَتْ ظهورَ الإسلام حَدَثَتْ هجرات قَبَلية على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية(٢٣)، وأنّ هجرات مماثلة قد حَدَثَتْ قَبلها في التاريخ القديم. هناك بعضُ الأدِلَّة الخارجية على ذلك؛ فمَثلاً، قبائلُ معروفة مِثلَ التَّنوخِيين وبَني عَبد القَيس قد ذَكَرَ وجودَها الجغرافي بطليموس في القَرن الثاني في شمال شرق شبه الجزيرة، ويبدو أنها وصَلتْ إلى تلك المنطقة منذ كتابات سترابو Strabo [مؤرخ إغريقي] وبليني Pliny [الروماني] في القَرن الأول(٢٤).

تُشيرُ جميع هذه الهجرات الحقيقية أو المتَخيلة إلى سِمةٍ في «قواعد»

---

(٢٢) ورد في: Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), p. 27.

(٢٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 528.

(٢٤) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, pp. 26 and 231.

تاريخ العرب هي الشعور بأن العرب فَعَّالون «مَعلومون» خلال ترحالِهم، وغَير فَعَّالين «مَجهولين» حين يَستَقرون(*). قال الأحنف بن قيس، الخطيبُ الحكيم في أوائل العصر الإسلامي: إن العرب لا يكونوا عظماء إلا «إذا تَقَلَّدوا السيوف، وشَدُّوا العمائم، وركبوا الخيل»[٢٥]. البقاءُ ساكِناً في مَقامِكَ يَعني أن تَظلَّ مَجهولاً. أو بعبارة أخرى، الحَركَة بَركَة والتَّواني هَلَكَة.

التَّنقل والترحال هو موضوعٌ موجود دائماً في تاريخ العرب منذ الظُّهور الأول لجِنْدِبو وقوة جِمالِهِ المُرتحِلة، وقَبلَ ذلك فيما قَبلَ التاريخ المَكتوب منذ أن غادَرَ أول الرواد أرضَ الاستِقرار، واتَّجَهَ نحو السهوب وإلى الحياة الأعرابية، إلى هجرة النبي محمد إلى المدينة، ومئات الآلاف من الهجرات خارج شبه جزيرة العرب خلال قَرنَين بَعدَها، إلى الرحلات الحديثة المستمرة، كَرِحلَةِ جبران خليل جبران إلى بلاد المَهجَر (إلى بوسطن ونيويورك)، ورحلات اللاجئين هذه الأيام نحو أوروبا وما وراءها. يَقتَبِسُ فؤاد عَجَمي من نيتشِه: «ستكونُ هارِباً... ستُحِبُّ أرضَ أولادِك...»[٢٦]، كانطباعٍ عن روح العَصر في الخمسينيات والستينيات، ولكنها تنطَبقُ بالمِثل على فتوحاتِ القارّات الثلاث في بداية الإسلام، وعلى الهجرات الأولى التي سبَقَتْها، وكذلك على تدَفُّق اللاجئين في القَرن الواحد والعشرين.

لا يوجَد مَسكَن ثابت

يَتميَّز كثيرٌ من قصص الهجرات القديمة بطبيعةٍ أسطورية، ولكنها قد تقودُنا أحياناً إلى ماضٍ مَلموس. تقولُ مَثلاً واحدةٌ من القصص التي تَلَتْ روايةَ العَرّافة طَريفَة وقومَها من بَني غسان إنهم أقاموا في سورية التي كانت تحت الحُكم البيزنطي، وسرعان ما طُلِبَ منهم دَفعُ الضريبة التي تُمثِّلَ شهادةَ الحياة الحَضَرية. ولكن قبيلةَ غسان خلال سنوات ترحالِها كانت مثل عرب

(*) يتجاهل المؤلف هنا إنجازات العرب بعد استقرارهم بدمشق وبغداد والأندلس (المترجم).

(٢٥) ورد في: الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢٦) ورد في: Fouad Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey* (New York: Pantheon, 1998), p. 70.

الآشوريين «لا يَعرفون المشرفِين ولا الموظفين الحكوميين»[٢٧]، فالضرائب في عالَم البَدو لم تكن حتمية أبداً. رفَضَ معظم الغَساسِنة دَفعَ الضريبة، وعادوا إلى شبه الجزيرة، إلى الحرية والفقر[٢٨].

تُظهِر هذه القصة مَدى حَركية الناس آنذاك، كما تُبيِّنُ مَدى مُرونة الهوية البَدوية/الحَضَرية في ذلك الوقت، وأن قبيلة الغساسنة التي ادَّعت أنها بَدَأت الحياة كقَوم من الحَضَر في الجنوب، قَضَتْ فترةً طويلة في الترحال ولو لم تكن بَدَوية بالضرورة، ثم انقسَمَتْ إلى جماعتَين، استقرَّتْ واحدةٌ منها، بينما عادَت الثانية إلى حياة التَّنقل. هاجَرَت الجماعة المستقرة من الأراضي الأسطورية المُتَحَولة إلى أرضية تاريخية ثابتة. نحو سنة ٤٩٠ رسَّخَ فَرعُ جَفنَة من الغساسنة وجودَه في سورية كأتباع للبيزنطيين، وطَرَدوا جماعةً عربية أخرى كانت تلعَبُ دَورَ الحاجِز بين القُسطنطينية والفُرس والبَدو. أُنعِمَ على زعمائهم لَقَب «البطريق *patricius*» (أصبَحَت الكلمةُ فيما بَعد تَعني «المُتغَطرِس» ثم أشارَتْ بَعد ذلك إلى طَيرِ البطريق، ربما بسبب شَبَهٍ خَياليٍّ في المَظهَر)، كما أُعطِيَ لهم تاجُ الحُكّام العُمَلاء، وفي منتصف القَرن السادس، بَدءاً من الحارث بن جَبَلَة الغسّاني، أُسبِغَ عليهم اللَّقَب العالي «المَلك *basileus*»[٢٩]. أصبَحَ كثير منهم مسيحيين متحمِّسين، إنما من أتباع عقيدة الطبيعة الواحدة التي اختَلَفَتْ عن الأرثوذكسية الإمبراطورية[٣٠].

غير أن الجُذورَ كانت سَطحِية، واحتفَظَ الغَساسِنة بإحدى أقدامِهم على كل طَرَفٍ، فكانوا بَدَويين وحَضَريين؛ أو بكلمة أخرى، وضَعوا قَدَماً في الخَيمة وقَدَماً في البلاط. ومع كل ما تَمتَّعوا به من الزخارف المَلَكية، فقد عاشوا حياةً نصف متنقِّلة، ولم تكن لهم عاصِمة ثابتة[٣١]. أشبَهُ ما يكون بعاصِمة لهم كان مَوقِع المُخيَّم المَلَكي في الجابِيَة في تلال الجولان، حيث أُقيمَ قَصرٌ للملوك مكوَّن من خِيام على طَرَف الحَضارة، تَتَخَلَّلُها أبنِيةٌ ثابتة

---

(٢٧) انظر: ص ٧٤ ـ ٧٥ من هذا الكتاب.

(٢٨) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في: وهب بن منبه اليماني، **كتاب التيجان وملوك حمير**، ج ٢، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧.

(٢٩) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 81.

(٣٠) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, pp. 1020-1021.

(٣١) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), pp. 53-54.

ودَير[٣٢]. لم يكن لديهم استقرار لغوي كذلك، فقد احتَفَظوا بلغتِهم العربية، ولكنهم استَخدَموا أيضاً اللغة الآرامية في الكتابة[٣٣] التي كانت اللغة المحكية للحَضَر في شرق المتوسط فترةً طويلة. كَتَبوا بالأحرف النَّبَطية التي كانت مُستَخدَمة في تلك المنطقة[٣٤]، وأحَبُّوا الموسيقى الشعبية الإغريقية حسبما اتَّضَح لدى الغساسنة المتأخرين الذي كان لديه خمس جاريات يُغَنينَ «الرومية»[٣٥].

ربما كانت جُذورُ الغساسنة واهِية في سورية، ولكنهم أثبَتوا عنادَهم وتماسكهم. انضَمَّ بعضُهم إلى الدِّين الجديد تحت حُكم الإسلام، ولكن آخرين منهم تمسَّكوا بعقيدَتِهم المسيحية، وبعض المسيحيين في سورية الآن والمارونيين في لبنان يَدَّعون انحِدارهم من الغَساسِنة. وعلى كل حال فقد كانوا حُراسَ الحدود البيزنطية الذين أصبحوا دولاً عازلة، وزعماء رُحَّلاً أصبَحوا مُلوكَ مرتَزقة، وتمتَّعوا بالقوة وبدَرَجةٍ عالية من الاستقلالية.

ولم يكونوا وحدَهم بالطبع، إذ إنَّ رؤية يوجين روغان في تَنافُس القوى العظمى لتَقوية العرب[٣٦] وتَفويضِهم تنطَبِقُ أيضاً في الشرق في دائرة نفوذ الفرس. كان لدى الغَساسنة منافِسون في التَّفويض في سُلالَة امرئ القيس بن عمرو «مَلك جميع العرب» الراسِخَة منذ زمن طويل في قبيلة اللَّخميين بمدينة الحِيرَة في العراق، وكانوا مُلوكاً تابِعين للإمبراطورية السَّاسانية. تتَكَرَّر صورةُ العرب العالِقين على صَخرةٍ بين أسَدَين إمبراطوريين، وتبدو مُبَسَّطَةً جداً، لأنه إضافة إلى الأسَد الثالث في الجنوب، كان العرب في الواقع يَقِفون على صَخرَتَين مُتَجاورَتَين، وبَدَلاً من قِتال الأسَدَين، كانوا يُقاتلون بعضَهم.

خصومٌ في اللعبة الكبرى

هاجَرَ أجدادُ اللَّخميين إلى الشمال أيضاً من شبه الجزيرة، وكانوا

---

(٣٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, p. 360.

(٣٣) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 78.

(٣٤) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, pp. 241-242.

(٣٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 820.

(٣٦) انظر: ص ١٢٥ من هذا الكتاب.

يعيشون حياةً شبه بدوية جيراناً وحُراساً للفرس منذ بداية حُكم السُّلالة السَّاسانية تقريباً في القَرن الثالث، واحتَفَظوا مثل الغَساسنة ببَلاط متَنقِّل، إنما كان لديهم مَركَز ثابت في الحِيرة جنوب مَوقِع بغداد فيما بَعد.

كلمة «الحِيرَة» من السريانية «حِيرتا»، التي تَعني المُخيَّم أو المُعسكَر[٣٧]، وبذلك تُناسِب الحياة شبه البدوية، وكانت تشبه الجابِية مقر الغساسنة بأنها كانت مكاناً حدودياً التَقَتْ فيه ثقافات وامتزجت. ظَلَّ اللَّخميون عَرَباً، إلا أنه كان من المحتَّم أن يَلتَقِطوا تأثيراً فارسياً، فكان التَّاج المِثال الأساسي لعلاقَتِهم مُستَورَداً من فارس، مثلما كانت الكلمة المُستعارَة لوَصفِهِ باللغة العربية «التَّاج». ولكنهم كانوا متأثِّرين أيضاً بالبيزنطيين، خاصةً بالمسيحية النَّسطورية التي اعتَنَقَها كثيرٌ منهم[٣٨]. ومثلما كانت «القرى» في شبه الجزيرة مستوطنات مستقرة في مناطق البَدو، ومنها مركَز كِندَة في قرية ذات كهل التي كانت مِثالاً مبكراً، ومكّة «أمّ القرى» المِثال التالي البارز، كان موقع مُخَيَّم اللَّخميين كذلك مَزيجاً من نَمَطِ حياة البَدو والحَضَر. تُبيِّنُ ذلك قصةٌ رُويَتْ بعد سقوط الحِيرة بيد المسلمين، فقد سَمَّى بَدو العرب المزارعين المستقرين في جنوب العراق «نَبَطاً». وعندما سُئِلَ حكيمٌ مسِنٌّ في الحِيرة فيما إذا كان قومُهُ من العرب أم من النَّبط، تردَّدَ قليلاً ثم قال: «نحن عَربٌ أنباط... أو أنباطٌ مُستَعرِبون»[٣٩]. يجب أن يُعتَبر هذا الرجلُ حَكيماً بحُكم عُمره الذي بلَغ ٣٥٠ سنة كما قِيل.

مع بداية القَرن السادس، كان اللَّخميون لاعِبين مُتمَرِّسين في اللعبة الكبرى. وقد رأينا المَلك اللَّخمي امرأ القيس (ربما) يقودُ حَملةً كبيرة مَدعومَة بالفرس داخل شبه الجزيرة في بداية القَرن الرابع، ثم (ربما) انشَقَّ إلى الرومان. بعد مِئتَي سَنة، كان البيزنطيون يدعمون الغَساسنة في دَورِهم الرئيسي في المنطقة، فَرَفَعَ الفرس مِنْ دَعمِهِم للحكّام العرب في الحِيرة. وعندما اصطَدَمت الإمبراطوريتان الكبيرتان، مثلما كانتا تفعَلان دائماً آنذاك،

---

(٣٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, p. 360.

(٣٨) Ibid., vol. 3, p. 462.

[المسيحية النسطورية نشأت في شرق المتوسط، وليست بيزنطية، بل كانت معتقداً مسيحياً اضطهده البيزنطيون] (المترجم) انظر: Ibid., vol. 3, p. 462.

(٣٩) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٢٧.

كان عادةً أتباعُهم العرب هم الذين يَصطدِمون بالفِعل. كانت بعضُ تلك المواجَهات دمويةً أحياناً. وفي نحو سنة ٥٤٤، أَسَرَ المَلكُ اللَّخمي المُنذِر الثالث ابنَ المَلكِ الحَارِث بن جَبَلَة، وقدَّمَهُ قُرباناً للآلهة العربية «العُزّى»، وبَعد نحو عَقدٍ من الزمن، عادَ أبَطالُ الحارث، الذي كانت ابنَتُهُ قد عَطَّرَتْهُم، وكانوا يرتدون أكفَانَ الشهداء، وأَسَرَوا الحَاكِمَ اللَّخميّ وقَتَلوهُ انتقاماً[٤٠].

تَرافَقَ هذا التَّفويض في العنف بتَفويض سياسي من الفرس نحو القبائل في شمال شرق شبه الجزيرة. الأرضُ التي هي الآن في جنوب العراق، وتُعرف باسم «السواد» بسبب مزارع النخيل الكثيفة فيها، كانت هَدَفاً متكرِّراً للغارات، وسيَلجَأ حُكّام اللَّخميين إلى توكيل قطاعات منها إلى زعماء البَدو في محاولةٍ لوَقفِ الغارات[٤١]. كما حاوَلَ اللَّخميون فَرضَ ضرائب على القبائل، وغالباً ما كانت نهاية المُحَصِّلين سَيئة (الرَّجمُ حتى الموت في قَعرِ بئر في إحدى الحالات). كان الاحتفاظُ بالرهائن وسيلةً فعّالة في التَّعامل مع تَمرّد القبائل، وكانت الحِيرة في القَرن السادس مقاماً لخَمسِمئة شاب من أبناء زعماء القبائل في نوع من الإقامَة الجَبرية في مدارس لفترة ستة أشهر يتم استِبدال الشاب في نهايتِها بغَيرِهِ. وإذا لم ينفَع أيُّ أمرٍ آخَر، يُرسِلُ اللَّخميون قوافِلَ إلى المناطق المتمرِّدة تقومُ بمَزيجٍ من الإغارة والتجارة بما يَتوافَق مع مَوقِف تلك المناطق المتوسط بينَ الحَضَر والبَداوة، وبين الإمبراطورية والقبيلة[٤٢].

تَخطَّى اللَّخميون، مثل الغَساسنة، الحاجزَ اللغوي بين لِسان الحَضَر والبَدو، فتَحدَّثوا بالعربية، وكَتَبوا بالسريانية[٤٣]، كما استَخدَموا الأحرف النَّبطية[٤٤] مثل الغَساسنة. ولكن كل ذلك كان يتغير.

---

(٤٠) Hitti, *History of the Arabs*, p. 79.

(٤١) M. J. Kister, "Al-Ḥāra: Some Notes on Its Relations with Arabia," *Arabica*, vol. 15, no. 2 (June 1968), p. 153

(٤٢) Ibid., pp. 155-156, 161-162 and 167.

(٤٣) Hitti, Ibid., p. 84.

(٤٤) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, pp. 241-242.

مثل لعبة شطرنج!

لأنَّ الكتابة العربية واللغة التي تُسَجِّلَها مهمّةٌ جِداً في حكاية العرب، نحتاج إلى البحث باختصار في إشكاليات عَمَلِها المُلتَوية.

تدَّعي المَصادرُ الإسلامية أنَّ آدم قد استَخدَم الكتابة [العربية] على ألواح طينية(٤٥)، وأنها وجِدَتْ في السماء في «اللَّوح المَحفوظ»(٤٦)، وهو أصلُ القرآن القديم قِدَمَ الله ذاته. ترجَعُ الأصولُ الأرضية للكتابة العربية حسب روايات مَوثوق بها إلى عاصمة اللَّخميين في الحِيرة، ومدينة أخرى تُدعَى الأنبار إلى الجنوب منها في العراق الحديث(٤٧). بالنظر إلى أشكال الحروف العربية ذاتِها، يبدو من الواضح أنها تَطوَّرتْ عضوياً من الكتابة النَّبَطية(٤٨)، ربما مع تأثيراتٍ من أنظمةِ كتابةٍ عربية أخرى وُجِدتْ في شبه الجزيرة(٤٩). انتَشرَت الأحرفُ الجديدة ببطءٍ من الحِيرة، وهناكَ نقوشٌ قليلة جِداً بالكتابة العربية التي يمكن تَمييزُها قَبل القَرن الخامس(٥٠)، والاعتقادُ بأنها قد وصَلتْ إلى مكّة «قُبيل الإسلام»(٥١) في نهاية القَرن السادس يَدعَمُهُ الادّعاء بأن فئةً قليلة من أهل مكّة كانوا يَعرفون الكتابة في بداية البِعثة النَّبوية(٥٢)، وأن عَددهم كان أقلّ مِن عشرين. انتَشَرت الكتابةُ العربية خلال أجيالٍ قليلة على الرغم من بداياتٍ غير مُشَجِّعَة بسبب الحاجَة للمُحافَظة على النَّص المُقدَّس، وتطوير الإمبراطورية ونَشْرِ ثقافَتِها. كتَبَتْ نفسَها عَبرَ المسافات والأزمنة لتُصبحَ أكثر أنظمَةِ الكتابة انتشاراً في العالَم بَعدَ الحروف اللاتينية.

---

(٤٥) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٤٦) **القرآن الكريم**، «سورة البروج،» الآية ٢٢.

(٤٧) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ١٨ ـ ١٩ و٤١.

(٤٨) Michael C.A. Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language* (Oxford: Oxford University Press, 2010), pp. 20-21.

(٤٩) Alan Jones, "The Development of the Arabic Scripts by Beatrice Gruendler," *Vetus Testamentum*, vol. 44, no. 3 (July 1994), p. 429.

(٥٠) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 33.

(٥١) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٥٢) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٤٥٣.

تُعطِينا تجربةُ الخليفة هشام بن عبد المَلك[٥٣] في القَرن الثامن فكرةً عن كيفية عَمل الكتابة. لاحَظَ الخليفةُ وجودَ حَجَرٍ مَنقوشٍ في الطريق، وبدون أن يَنظُر إليه، طَلَبَ من أعرابيٍّ أمّيٍّ برفقَتِهِ أن «يَقرَأه». يَشتَهِرُ الأعراب حتى لو كانوا أمّيين بقدرَتِهم على قراءة مَناظِر الطبيعة، وأن يُلاحِظوا الخُضرَة النادِرة التي تَدلُّ على وجودِ ماء، وأن يتَتَبَّعوا أثَرَ الحيوانات، مثل الجِمال والخَنافس، وآثار أقدامِهم ومَسيرَ رفاقِهم. . . ويَستطيعون فَكَّ أسرار تتابع الترحال بكامِلِه في بقايا مُخيَّم مَهجور. تُقارَنُ الآثار على الأرض صَراحَةً في الشِّعر الصحراوي القديم أحياناً؛ فمَثلاً، استطاعَ الشاعر الجاهلي لَبيد أن يَقرأ آثارَ المخيم حيث كانت حَبيبَتُهُ تُقيم:

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها   زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها[٥٤]

عاشَ العربُ البَدو في عالَمٍ مَقروء، وبالنظر إلى الكتابة المَحفورة على حَجَرِ الطريق، قالَ الأعرابي:

عليه محجن	حـ
وحلقة	ـمـ
وثلاثة كأطْباء الكلبة	ـسـ
ورأس كأنه رأس قطاة	ـه

تَخيَّلَ الخليفةُ هشام الأشياءَ التي ذَكَرَها الأعرابي مع بعضها، وتَصَوَّرَ الشَّكلَ «**حمسه**»، أو بالتنقيط «**خمسة**»، وفَهِمَ أنها تُشير إلى مسافة خَمسَة [فَراسِخ].

إنها عمليةٌ منطقيةٌ جميلة. في الوقت نفسِه، هناك مشاكل داخلية، فعَلى العَكس من الكتابة باللغة اللاتينية (التي جاءَتْ أصلاً من حروفِ الكتابة الفينيقية القديمة، أو من استِلهامِها) فإن الكتابةَ العربية القديمة لا تُظهِر الحروف الصوتية؛ فمَثلاً الكلمةُ «خَمسةٌ» تتم قراءتها بقراءة حروفِها «خ م س ه»

(٥٣) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٩٩.

(٥٤) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 120.

من دون تَشكيل الحَركات. في لغاتٍ أخرى، أنتَ تَقرأ لكي تَعرِفَ ما يَقولُهُ النَّص، أما بالعربية فيُساعِدكَ على قراءة نَصٍّ أن تَعرِفَ ما يُريدُ النَّصُ قَولَهُ لكي تَقرأه(٥٥). ولكي تكون الأمور أكثر التِباساً، لا يوجَدُ في الكتابة العربية حروف كبيرة استهلالية Capital letters.

تَطورتْ وسيلةٌ لكتابةِ الأحرف الصوتية مع الوقت، ولكنها لا تُستخدَم إلا نادراً حتى في هذه الأيام، ومازالت الحروف الكبيرة غير موجودة. تَسهُلُ قراءةُ العربية بالتدريب والمُمارَسة، ولكن ذلك يَتطلَّبُ عمليةً ذهنية مختلفة عن فَكِّ رموز الأحرف اللاتينية، لأن قراءةَ الكتابة اللاتينية تُشبِهُ لُعبةَ الدَّامَة، أما قراءة العربية فهي مِثلِ لُعبة الشطرنج. كانت العربية أصعَب استِخداماً في البداية قَبلَ إضافة النُّقَط لتمييز الأحرف الساكِنة المختلفة ذات الشَّكل المُتماثل في الكتابة؛ فمثلاً كلمةٌ من حَرفَين «ى» بدون نقط ولا حركات تَشكيل يمكن أن تُقرأ بنحو ٣٠٠ طريقة(٥٦). أما الآن فجميعُ النُّصوصِ مَنقوطَة، ولكن تَشكيلَها بالحركات غائبٌ في معظم الأحيان فيما عَدَا القرآن. يُضيفُ هذا طَبقةً أخرى من الصعوبة فوقَ ما هي في الأصل لُغَةٌ صَعبة، وتَذَكَّر أنّ الكتابةَ العربية ليست اللسَانَ الأمّ لأيّ إنسان، وعلى الناطِقين بالعربية أن يتَعلَّموا القراءةَ والكتابة بلغةٍ «غريبة»(٥٧). والنتيجة هي أن القُرّاء يُقرِّبون مَعنى ما يَقرؤونه، ويَذهَبُ خيالُهم بعيداً في بعض الأحيان.

المشكلة الكبيرة الأخرى التي لم تَظهَر إلا بَعد تَطور الطباعة هي أن الكتابة العربية مُتَّصِلة الحروف: جميلةٌ للنظَر وممتِعَةٌ في خَطّ الكتابة، إلا أنها مُزعِجة ومُربِكة للمَطبَعيين ومُنضِّدِي الحروف. كما أنها معضِلَة صَعبة للغاية بالنسبة لمُستَخدِمي الآلات الكاتبة القديمة. سنُناقِشُ هذه المشكلة فيما بَعد، أما الآن فيكفي القول إن اختراعَ الإغريق حُروفاً مُنفَصِلة لرَسم الحروف

(٥٥) Niloofar Haeri, "Form and Ideology: Arabic Sociolinguistics and Beyond," *Annual Review of Anthropology*, vol. 29, no. 1 (October 2000), p. 74, and E. Shouby, "The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs," *Middle East Journal*, vol. 5, no. 3 (Summer 1951), p. 297.

(٥٦) 300 sounds a lot, but the first stalk could represent five possible consonants, each with three possible short vowels, the second pair of stalks another five consonants and three vowels plus the no-vowel sign, and (5 x 3) x (5 x 4) = 300.

(٥٧) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, pp. 439-441.

الصوتية، واحتِفاظِ كتابَتِهم بشكلِ الحروف المنفَصِلة، ربما مَنَحَهم ومَنَحَ كلَّ مَن استَنبَطوا أبجَديَّتَهم من الأحرف الإغريقية مِيزَةً تَطورية صغيرة، ولكن مهمَّة. الكتابةُ العربية هي مَجدُ الفَنِّ الإسلامي وأهم عَناصِره، وهي الشِّعار الرئيسي للثقافة العربية والإسلامية، ثقافَةُ فَنِّ الخَطّ التي أصبَحتْ عابِرَةً للقارّات، وهي تختلفُ بذلك عن نَظيرتِها الصينية المنتَشِرة التي يَكثُر مُستخدِموها، لكنها مَحصورة بحدودها الجغرافية. ولكن إذا أمكَن القَول إنّ هناك في التاريخ أخطاء مصيرية، فربما تكون الكتابة بالنسبة إلى العرب خللاً آخَر، بالإضافة إلى ثنائية الجَمَل والحِصان.

قصائدُ المَلك المَدفونة

قد يكون للمُلوك مِثل الكتابةِ تأثيرٌ مَلحوظٌ مُوحِّدٌ للثقافة، ومن المؤكَّد أن للسُّلالة اللَّخمية مِثل ذلك التأثير في الحِيرة، المكان الذي ولِدتْ فيه الكتابة العربية غالباً، وإنّ وجودَ شخصٍ عربي قوي وغني قد أدّى لتَدَفُّق الشعراء إلى الحِيرة لمَدحِهِ ورِثائِه، فالتَقوا مع بعضهم، وتنافسوا في إنشَاد القصائد. ربما استمر ذلك منذ أن عُرِفَ أول الحكّام التابعين للفرس فيها، وهو عمرو بن عَدِيّ[٥٨] والِد المَلك امرئ القيس الذي يُعتَقد بأنه قام بالانشقاق. كان هنالك تأثيرٌ مُوحِّدٌ آخَر على اللغة «الفصحى العالية» المتَطورة هو الذي يبدو أنه تَطوَّر أولاً في وسَط شبه الجزيرة العربية[٥٩] كما رأينا، خاصةً في المنطقة التي تَضُمُّ قرية ذات كهل عاصمة قبيلة كِندَة. والآن في الشمال الشرقي، اكتَسبَت العربية الفصحى احتراماً أكبر كأنها «عربيةُ المَلك».

مع حلول القَرن السادس ووجود ملوكٍ مهمّين في منطقتَين، كان هنالك تنافُسٌ حيويّ بين اللّخميين والغَساسنة في «جَمعِ» الشعراء[٦٠]. يُشبه هذا التَّنافس ما حدَثَ مَثلاً بين آل مدِتْشي Medici وآل سفورتْزا Sforza في رعايتهم للفنون في عصر النهضة الأوروبية. كل ذلك أفادَ سوق الشِّعر إفادَة

(٥٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 450.

(٥٩) انظر: ص ١١٧ ـ ١١٨ من هذا الكتاب.

(٦٠) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 226.

رائعة، يَعتَقِدُ كلُّ مَن يحبُّ الشِّعر العربي التقليدي بأن ذُروةَ الشِّعر كانت في الجزء الأخير من القَرن السادس[٦١]. يَصعبُ انتقاء أمثلة معيَّنة، ومن الصعب أكثر تَرجَمةُ قوة الأصوات في اللغة العربية، ولكنّ مِثالاً نموذجياً في المديح هو وَصفُ النابغة لآخِرِ مُلوكِ اللّخميين، النّعمان الثالث، الذي يَختَتمه بقولِه:

مُتَوَّجٌ بِالمَعالي فَوقَ مَفرِقِهِ   وَفي الوَغى ضَيغَمٌ في صورَةِ القَمَرِ

عندما سَمِعَ المَلكُ هذا المهرجان من المَقاطع «فتهلل وجه النعمان بالسرور، ثم أمر فحشي فوهُ جوهراً، ثم قال: بمثل هذا فلتمدح الملوك»[٦٢].

ربما يبدو رَنينُ المَديح فارغاً للأذن الحديثة، ولكن قوّتَه وحقيقتَه تَكمُنُ كالعادة في لُغَتِهِ الفصحى العالية، وبالذات في أصواتِها أكثر مِن مَعانيها. واستَمرَّتْ أهميتُه وقيمتُه أبعَد بكثيرٍ من قَوافٍ تُنشَد للملوك، فقد انتَشَرتْ قصائدُ البلاط المَلَكي مثل كلماتٍ من نار في القرن السادس، فمِن طبيعة الملوك وحاشيتهم أن يُقلِّدوا، وليس من المدهِش أن العنصُرَ الرئيسي في عملية التقليد كان في الشِّعر. باستثناء بعضِ المُستوطَنات القليلة شبه المَدَنية، كان الفنانون والأعمال الفنية نادِرين في المجتمع، وأي منتَجاتٍ ثقافية كانت يجب أن تكون مَحمولَة ومَصنوعَة من أكثر مادةٍ مُتاحَة بسهولة، وهي الكلمات. كما كان معظم المجتمع أُمِّياً، وكان على الأعمالِ الفنية الصوتية أن تكون مَحمولَة ويَسهل حِفظُها. يَسهُلُ حِفظُ الشِّعر بسبب الوزن والقافية، وقد حُفِظَتْ كمية جيدة منه منذ ما قَبل الكتابة، بالإضافة إلى كميةٍ لا بأس بها من النثر المَسجوع الذي صِيغَتْ به كلماتُ العَرّافين بسبب قافيتِه وإيقاعِه، إلا أنه لم يكن مَوزوناً. لم يُحفَظ نَثرٌ عاديٌّ إلا ما نُقِشَ منه على أحجار وصخور لا يمكن نَقلُها. وهكذا ساعَدَتْ رعايةُ اللَّخميين والغَساسنة للشِّعر على توحيد وتطوير اللغة العربية الفصحى بوضع مستوى واحِد مرتَفع، ليس فقط في البلاط المَلكي، بل كذلك في الأسواقّ وخِيَمِ الضيوف وحولَ نار

(٦١) Ibid., vol. 8, p. 119.

(٦٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

المخَيَّم، وفي كل مكان اجتمَعَ فيه الناس وتحَدَّثوا وأنشَدوا معاً، وهكذا ساهَمَتْ في توحيد العرب أكثر من أي شيء آخر.

حتى عندما أصبحَ الشِّعرُ مُنتَجاً ثقافياً وعَملاً فنياً بالنسبة إلى رُعاتِه اللَّخميين والغَساسنة، ظَلَّ يحتوي على لَمَساتٍ من الخيال الأسطوري القديم، ومازال نَسيجُهُ يضمُّ شيئاً من القوة الخارقة التي ستَظهَر بَعد قليل وبشِدَّة عجيبة في نَصِّ القرآن. يُقالُ إنَّ أحَدَ مُلوكِ الحِيرة قد ابتَهَجَ بقصيدةٍ للحارث بن حِلزَة لدرجة أنه لم يَسمَح للشاعر بإنشادِها إلا إذا تَوضَّأ[٦٣]. وهناك قصةٌ أخرى أقلّ مصداقِية عن بلاط اللَّخميين، إلا أنها تُلَخِّصُ الطريقةَ التي يَتقاطَع بها تاريخ الشِّعر في الحِيرة مع تاريخ الكتابة؛ يُروى أنَّ النعمان الثالث «أمر... فنُسخت له أشعار العرب في الطنوج وهي الكراريس، ثم دفنها في قصره الأبيض». بعد قَرنٍ من ذلك الوقت، في ظِلِّ حاكِمٍ مسلمٍ لتلك المنطقة:

قيل له إن تحت القصر كنزاً، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار. فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة[٦٤].

لا يمكن إنكار أن المَصدر الكوفِيّ للقصة قد ضُبِطَ أكثر من مَرة وهو يلفق القصائد وينسبها للقدامى، قاصداً بذلك تَشويه سُمعةِ البَصْريين الذين كانوا المُنافِسَ الأكبر للكوفِيين. ولكن روايةَ القصة تُظهِرُ كيف اعتَبرَ العربُ المتأخرون الشِّعرَ مثل كَنزٍ ثمينٍ من أسلافهِم قَبل الإسلام. إنه التِّبْر الخالص المُستخرَج من تراب المَنجم اللغوي.

الهوية الداخلية

تَتَّسِم العربيةُ الفصحى «عربية المَلك [تشبيهاً بإنكليزية المَلكة]» أحياناً على نَمَطِ النموذج الإغريقي بأنها «eniok»، أي «لغة مشترَكة»، أو لغة أدبية منتَشرة في منطقة واسِعة. وقد انتَشر معها ما يمكن وَصفه بـ «إثنيّة مشترَكة». إذا كان المَعنى الأصلي الغامِض لكلمة «عرب» كما وَرَدَ سابقاً هو «شعبٌ

(٦٣) لويس شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية** (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨٢)، ص ٤١٧.

(٦٤) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ١٩٧.

مُختَلط» من أصول متعدِّدَة[٦٥]، فإن لغةً مشترَكةً بينهم وتُسمَّى نسبةً إليهم «العربية» ستُقوي «العَصَبية» وشُعور تَماسكِ الجَماعة وتَضامُنِها. ولكن بعبارة أخرى فإن «جَمعَ الكلمات»، أو اللغة الواحِدة، ستقوي اجتماعَ الكلمة ووحدَةَ الصوتِ السياسي.

سَيرتَفع هذا الصوتُ في شِعر القَرن الذي سَبَقَ الإسلام على أصوات الآخرين. كان العربُ يخوضون تجربةَ خَلقِ هويةٍ لأنفسِهم، وكانت الخطوةُ التالية هي تقويةُ تلك الهوية بِبناء حُدودٍ لها، وهكذا فإن الثنائية المتكاملة من العربية ـ العَصَبية قد أُحيطَتْ بثنائيةٍ من الاصطلاحَين المتَضادَّين: العرب/العجَم، أي العرب/غير العرب. يَرتَبطُ الاصطلاح الثاني «العَجَم» بمَعنى «لا يَستطيع الكلامَ بشكلٍ سَليم»، وهكذا فهو يُشبهُ ثنائيات: آريا/ملِشّا *arya/mleccha*، إغريقي/بربري، سلافي/نيمتسي Slav/Nemtsi، وهكذا. يَختَلِفُ هذا النوع من «القومية» اللغوية عن القومية التّامة المَناطِقية ـ اللغوية التي ظَهرَت في القَرن التاسع عشر وما بَعدَه[٦٦]، ولكنه يُعتَبر نِصفَ الطريق إليها. كما أنّ التَّضاد في ثنائية العرب/العجَم له دلالةٌ أكبر كما قالَ المفكِّر المَغربي محمد عابد الجابري: «يُحبُّ العربُ لغتَهم لدَرجة تَقديسِها، يَعتَقدون بأنَّ تأثيرَها عليهم تَعبيرٌ ليس فقط عن قوَّتها، بل عن قوَّتِهم هم أيضاً»[٦٧] [غير حرفي].

يُتابعَ الجابري أنَّ العرب حيواناتٌ ناطِقة مِثل جميع البَشَر، غير أنهم «الحيوانات البَليغَة» الحقيقيةُ الوحيدة، وأنَّ جميع الآخرين أقلّ بَلاغَة، ومن ثَمَّ أقلّ قوة، وبمَعنى آخر أقلّ إنسانية. لا يبدو تسلسلُ الأفكار «مَنطِقياً»، ولكنه كذلك إذا قَبِلتَ، مثلما قَبِلَ قَومُ عَرَّافة مَأرب «طَريفَة»، أنّ الحقيقةَ كامِنةٌ في عُمقِ الأصوات والسَّلامَة النَّحوية وليس في مَعنى الكلمة المَنطوقة *logos*. كتَبَ ابن خلدون أنَّ التفكير بواسطة اللغة العربية إنما هي قَضيةُ إلهامٍ مقدَّسٍ وليست مَنطِقاً، ومن ثَمَّ فإن الناطِقين بغَير العربية مُعوَّقون في عمليةِ

---

(٦٥) انظر: ص ٨٧ ـ ٨٨ من هذا الكتاب.

(٦٦) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 32.

(٦٧) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ٧٥.

التفكير التي يَستَخدِمها العرب[٦٨]. لَخَّصَ ذلك فيلسوفُ القَرن العاشر أبو حيان التوحيدي بقوله: «النحو منطق عربي والمنطق نحو عقلي»[٦٩]. وصَرَّحَ عالِمُ اللسانيات اللبناني عبد الله العلايلي: «أنا أفكر بفكر عربي، فإذن أنا موجود عربي»[٧٠].

وأخيراً، فإن مَقولة «أنا والله العربي» هي إعلانٌ من شخصٍ أقلّ فَلسَفَةً تم التَّشكيكُ بعروبَتِهِ، «لا أرقع الجِربّان»، وتابَعَ بانتقادِ الأعجَمي الفارسي الذي يَلبِس الجوارب والسروال: «ولا ألبس التُّبّان، ولا أحسن الرطانة!»[٧١] (اعتَبرَ العربُ التقليديون أن الجوارب والملابِس الداخلية من ثيابِ النساء، وهم مِثل الأسكتلنديين الجامِحين لا يرتَدون ثياباً تُغطّي عَوراتِهم تحت مآزِرهم التقليدية). لا يَعتَبرون الناطِقين بِغَير لِسانِهم العربي أنَّهم أقلّ رجولَة فقط، بل هُم أقلُّ قدرةً على التَّعبير. إذا كان كل هذا يلمِّح إلى مَشاعِر عِرقٍ لغوي مُتفَوقٍ رَئيسٍ، فإن المَعنى الضّمني صَحيح.

كلما ازدادَ احتكاكُ العرب مع رَطانة الأجانب، خاصة في بلاط الحِيرة مع الفرس، ازدادَ تأكيدهم على هويتهم الخاصة من خلال رَفضِهم. ستَزدادُ هذه «الهوية من خلال التَّضاد» قوةً خلال القَرن السادس عندما يَنغَمِسُ الفرسُ أنفسُهم في جبهاتٍ حربية متعدِّدة ضد البيزنطيين في شمال الهلال الخصيب، وفي شمال وشرق شبه الجزيرة، وكذلك في الهلال الخصيب الآخَر في أقصَى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة كما سنَرى. بعدما ضَغَطَ الفُرس أصحابُ الرَّطانة الأجنبية الذين يلبِسون السَّراويل على «جزيرتهم»، سيُصبِحُ التَّضاد صِفةً رئيسية أخرى من صِفات العروبة.

كانت الإمبراطوريات المُجاورة هي التي تُحدِّدُ العروبة، ومن ثَمَّ تُشكِّل الهوية العربية حتى ذلك الوقت من خلال تَنصِيبِ «مُلوك العرب» وتَعيينِهم. وبالمقابل، كان هؤلاء المُلوك التابِعون شبه ـ الحَضَريين، الغَساسِنة

---

(٦٨) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, pp. 419-420.

(٦٩) ورد في: الجابري، المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

(٧٠) ورد في: Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 121.

(٧١) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٠٧.

واللَّخميون، يَشُدُّونَ قبائلَ البَدوِ إلى مَجالهم. كانت إرهاصاتُ اتِّحاداتٍ سياسيةٍ مَبدَئيةٍ موجودَةً بشكلٍ كتَلٍ كبيرة مِثل تَحالف القبائل المتَعدِّدَة في رَبيعَة ومُضَر، المتَحالِفة بشكلٍ فَضفاض مع البيزنطيين أو الفرس(٧٢). مع نهاية القَرن الخامس، سيَجمَعُ ذلك «الأسَدُ» الثالث، وهو الإمبراطورية الحِميَرية المريضَة في الجنوب، ما يكفي من قوَّته ليَخوضَ فَورَةً من التَّوسع، ويُعَيِّن «مَلكَ العرب» التابعَ له(٧٣).

ولكن إذا كان الضَّغطُ من ثلاث قوى مجاورة يُجبِرُ العرب على التَّجمع في تكتُّلاتٍ أكبر وأكثر، فإن هذه العملية كانت ذات اتِّجاهَين: كان التَّماسك العربي يَحدُثُ بشكلٍ لاإرادي، بالإضافة إلى كونِهم يَتَشكَّلونَ من الخارج وكأنهم يُصَبُّونَ في قَالَب مثل غُرَفِ الفنانة راشيل وايتريد **Rachel Whiteread** التي يَتَّخِذُ فيها فراغٌ داخلي شَكلَهُ فجأةً ويُصبحُ مَرئيّاً. بَدَأ الناس المُهمَلون طويلاً في الأطراف وما في بينها من «فراغ» داخلي يكتَسِبُون هويةً ويُصبحون مَرئيين. يَظهَر تَشبيهُ القَالَب الذي يشكِّل ويُوحِّد في نَصٍّ للجاحظ:

عندما أصبَح الأعرابُ وحدَةً، أصبَحوا متساوين فيما يتعلَّق بالمَعيشة واللغة والصِّفات والآمال والفَخر والعنف والطِّباع. كانوا يَتَشكَّلون في قَالَب ويُصَبُّون في لحظةٍ واحدة(٧٤) [غير حرفي].

لم يكن الصَّبُّ فَورياً، وكان تَماسُكُ المجتمعِ عمليةً استمرت قُروناً. بَدأتْ في الأطراف حيث احتَكَّ العرب بغَيرِهم، وانتَشرتْ إلى الداخل. ولكي تَنبَثِقَ الهوية أخيراً بشكلِها الكامل، كان لا بد أولاً من كَسر القَالَب الذي يُحيطُ بها، هذا القالَب المُكوَّن من إمبراطوريات الآخرين. سرعان ما سيَحدُثُ ذلك، وسَتُلهِمُ اللغةُ المُوحَّدَة الفصحى خطاباً جديداً سيُصبح مع الوقت القوةَ الدَّافِعةَ لأكبرِ انتشارٍ وأطولِ دَورَةٍ من الوحدة والتَّمزق في تاريخ العرب، وهي الإسلام. في بداية الدَّورة، وعلى مَدى قَرنَين مَجيدَين، سيَصنَعُ العرب إمبراطوريتهم بَعدَ أن أحاطَتْ بهم طويلاً إمبراطورياتُ شعوبٍ

---

(٧٢) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 240.

(٧٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 526.

(٧٤) الاقتباس بتصرف في: Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), pp. 21-22.

أخرى، وستُصبحُ قواعدُ تاريخِهم «مَبنيّة للمَعلوم» بشكلٍ لا يمكن إيقافه، وسيَحصلون على حَرفٍ كبير في بِداية اسمِهم، وليس هذا وحسب، بل سيُصبحون موضوعاً مُعَرَّفاً، وسيكونونَ فِعلاً «العرب» لفَترةٍ ما. ولكن السنوات التي سَبَقَتْ كَسرَ القالَب كانت فترةً ذات فَورَة استثنائية، لأن المادةَ التي كانت تتفاعل في القالَب العربي تَعرَّضَتْ لنوعٍ من الانفجار الداخلي.

الفصل الرابع

على حافة العَظَمَة

أيام العرب



ستارةٌ تُسدَل وتَرتَفع

كانت فترةُ القَرن السادس هي الفترة التي تَحوَّلَت شِبهُ الجزيرة العربية خلالها إلى ما هي عليه الآن بطريقة لا رَجعَة فيها. أصبَحتْ أكثر «عروبة»، بينما تَخلَّتْ عن صِفاتِها السَّبئية ـ الحِميَرية الجنوبية. لدى النظر إلى الوراء الآن، مازالت سَبأ وَوَرَثَتِهم الجنوبيون يَبدون لَنا «أمَّةً نائية» كما رآهم كاتبُ «سِفر يوئيل the Book of Joel» [في التوراة]، إضافة إلى البُعد في الزمن. وتبدو تماثيلهم بِأشكالِ الثور والوَعِل والقَمر الرخاميّ ذي القُرون، ونقوشهم العَجيبة الأنيقة... كلها تبدو قديمةً وغريبة. وبالمقارنة، يَشعرُ المَرء بِذَبذَباتٍ مَلموسَة على الخيوط التي تجري من ذلك القَرن السادس المُعَرَّب إلى الحاضر، مثل متابَعَة خيطِ قبيلةِ عنَزَة من أماكِنِ وجودها الحالية التي تمتدُّ عَبر حُدودِ العراق وسورية وشمال المملكة العربية السعودية، وإلى الهَدَّار في شرق شبه الجزيرة حيث استقرَّ أسلافُها قَبل الإسلام بكثير، وحيث مازال يعيش أبناء عمومَتها[1] الذين ظَلّوا في أماكِنهم حتى الآن. وهناك ما هو أكثر من ذَبذَبات، هناك أصواتٌ مميَّزَة تَصِلُنا عَبرَ الخَيط عاليةً وواضِحة. اعتَبَر العالِم المَغربي محمد عابد الجابري شاعر القَرن السادس امرأ القيس (وهو غير المَلك المُنشَق الذي ذُكِرَ سابقاً) الشخصية الأولى في لائِحتِهِ عن كبار العرب «الذين نتَصَورُ أنَّهم موجودون الآن ويَعيشون مَعَنا، أو يَقِفون أمامَنا... على مسرح الثقافة العربية، مسرح لم تَنزِلْ عليه السِّتارة

(١) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 1, pp. 482-483.

أبداً»[٢] [غير حرفي]. سنَعودُ إلى امرئ القيس الشاعر الذي فَشِلَ في توحيد القبائل.

في الجزء الأول من القَرن السادس، كانت السِّتارة على وشك النزول في نهاية فَصلِ الجنوبيين السابق. كان السببُ المباشر هو تَبَنِّي المَلك الحِميَري يوسف أسأر [ذو نُواس] للدِّين اليهودي رسمياً، واضطهاده لِغَير اليهود، وربما كانت دَوافِعُهُ سياسيةً أكثر منها عقائدية، لأنه كان معارِضاً لغَزو الإثيوبيين المَسيحيين. يُقالُ بشكلٍ خاص إنه قَتَلَ كثيراً من المسيحيين في نَجران نحو سنة ٥١٨[٣]، وتُسرَدُ الحادِثَةُ في القرآن كمَحرَقَة[٤]. كان لمَملكة أكسوم الإثيوبية المسيحية تاريخٌ من محاولات الغَزو العسكري لجنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت تُحاوِلُ تَرسيخَ وجودِها بدعمِ مُستوطَناتٍ إثيوبية تجارية هناك، واتَّخَذت من حادِثة نَجران حجَّةً لِغَزو شامِلٍ.

إنما كان هنالك أسبابٌ أخرى أقدَم لانهيار الجنوبيين؛ فعَلى مَدى القَرنَين السابقَين، ازدادَتْ غاراتُ العرب على الشعوب الحَضَر[٥]، وفي الوقت نفسِه، اعتَمدَ حُكّام الدولة المَركزية أكثر على عرب مرتزقةٍ للحِماية[٦]، وبذلك عرَّضوا أنفسَهم للخَطر. كانت تلك القبائل البدوية مثل الذبابة في المَرهَم، أو ربما مِثل الذبابة في الحَديث النّبوي المَزعوم[*] التي تَحمِلُ السُّم في جَناحٍ، والتِّرياقَ في الجَناحِ الآخَر، غير أن السُّمَّ كان يَطغَى على التِّرياق، وأصبح الجنوب أقلّ «استقراراً» بالمَعنَيين: أكثر اضطراباً، وأكثر «بَداوة».

أدركَ الإثيوبيون أن هذه المرة تَختلف عن رَدِّ فِعلِ الدولة السَّبئية ـ الحِميَرية القديمة القوية ضد الحَملات السابقة، وأن مقاوَمتَهم أضعَفُ كثيراً

(٢) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) Werner Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix* (Innsbruck; Frankfurt/Main: Pinguin Verlag, n.d. [c. 1988]), p. 53.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة البروج،» الآيات ٤ ـ ١٠.

(٥) انظر على سبيل المثال: مطهر علي الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ط ٢، مزيدة ومنقحة (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٠)، ص ١٣٦ ـ ١٣٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(*) [هذا الحديث النبوي صحيح وليس مزعوماً كما وصفه المؤلف] (المترجم).

من أن تكون مُنَسَّقَة. يبدو أن الجنوبيين قد حاوَلوا تجميعَ كَلمتِهم في النَّفس الأخير؛ فمَثلاً، يَتَباهَى نَقشٌ حِميَري باستمرارِ إدماج قصرَيِ سِلحِين وذي الرَّيدَان «في كيان واحد مربوط برباط لا انفصام له»، والقصران رمزان للدولة السَّبئية القديمة والدولة الحِميَرية الجديدة، اللتين اجتَمعَتا في مَملكةٍ مُتَّحِدَة[٧]. غير أن الواقع كان التَّفرق والتَّمزق. جاءَ يوسف أسأر إلى الحُكم بانقلابٍ، وليست هذه فكرة جيدة للاستقرار، وتفرَّقَتْ مَمالك سَبأ وذي الرَّيدَان وحَضرَموت ويَمَنات وأعرابهم طوداً وتهامة. يُقالُ إن المَلك يوسف دَفَعَ حِصانَهُ في البحر الأحمر الذي جاءَ مِنه الغُزاة واختَفَى بين الأمواج[٨].

نَصَّبَ الإثيوبيون في البداية مَلِكاً حِميَرياً مسيحياً سَهلَ الانقياد، ولكن تم استِبداله سريعاً بالقائد الإثيوبي أبرَهَة. مع مرور الوقت، اتَّخَذَ أبرَهَة لنفسِه الألقابَ المَلَكية القديمة في العالَم السَّبئي ـ الحِميَري، مستَغِلاً مَضيقَ البحر الأحمر والجبال العربية العالية التي حالَتْ بينَهُ وبين أسيادِه الأكسوميين. وبَدأ إطلاقَ حَملاتِهِ الخاصة نحو الشمال. سُجِّلَتْ إحدى هذه الحَملات في نَقشٍ سَبئيّ بتاريخ ٥٥٢[٩]، وربما تكون تلك الحَملة هي التي ذُكِرَتْ ليس فقط بالسَّبئية المُختَصرة، بل كذلك في السورة القرآنية النابِضَة «سورة الفيل» التي تَسردُ كيف تم رَدُّ الإثيوبيين وحيواناتِهم المُقاتِلَة عن الهجوم على مكّة بأسرابٍ من الطَّير الأبابيل[١٠] المسلَّحة بالحِجارة التي قادَتْها إرادة الله. وإذا كانت بالفعل هي الحَملة ذاتها، فإن السِّجل السَّبئي قد حَذَفَ هذه التفاصيل. ربما حَدَثَ «يومُ الفيل» في حَملةٍ إثيوبية أخرى، وهي تُوضَعُ تقليدياً في السنة ٥٧٠، ولكن إذا قادَها أبرَهَة بنفسِه كما تَدّعي التقاليد، فلا بُدَّ من أنه كان مُسِنّاً في ذلك الوقت. لا يَهمّ كلّ ذلك مِقدارَ ذرَّة إلا بما قِيلَ إنَّ يومَ الفيل قد حَدَثَ في السَّنة التي ولِد فيها النبي محمد، وسيكون مفيداً أن يُعرَفَ متى حَدَثَ ذلك بالضبط.

---

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٢٤ و٣٤٥.

(٨) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), p. 42.

(٩) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), p. 55.

تم عرض تواريخ أخرى على سبيل المثال ٥٤٧، في: Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix*, p. 53.

(١٠) **القرآن الكريم**، «سورة الفيل،» الآية ١ ـ ٥.

كان الحِميَريون بالذات ماهرين في تحديد التواريخ، أما بَعدَ ذلك، فإن تقدير المؤرخين في الفترة الإسلامية لتوقيت ما حَدَثَ قَبل الإسلام يَفقد الضَّبط، فمَثلاً حتى المَسعودي، وهو المَصدر المُعتَمَد عادَةً يقولُ: إن المَلك يوسف أسأر (الذي وجِدَ في القَرن الذي عاشَ فيه محمد) «وكان مُلكه مائتي سنة وستين سنة، وقيل أقلَّ من ذلك...»[11].

عندما أُسدِلَ الستار على الجنوب القديم، بَدَا وكأن الفَصلَ الذي استَمرَّ أكثر من ألفِ سَنَة في مسرحية شبه الجزيرة كان وَهماً وحُلماً.

تَفصِلُ بينها خُلجان

ماتَ أَسَدُ الجنوب الذي كان إمبراطوريةَ سَبأ وحِميَر القديمة، وخلال القَرن السادس أيضاً كانت الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية تتَّجِهان نحو المَرض والاحتِضار، وضَعُفَ دَعمُهما لأتباعِهما من ملوك العرب في الشمال. إنما في الجنوب الغربي، ظَهرَتْ فرصةٌ للشَّاه السَّاساني كانت أفضَلَ مِنْ أنْ تُهمَل. بَعدَ فترةٍ قصيرة من عام يوم الفيل، جاء نبيلٌ حِميَري هو سيف بن ذي يَزَن إلى الشَّاه من خلال تابِعِهِ اللَّخمِي، واشتَكى من استِبداد الإثيوبيين. أرسَلَ الشَّاهُ حَملةً بَحرية يُروى أنها كانت تتألفُ من سُجَناء (لا يُستغرَب ذلك فقد عُرِفَ عن أسلحةِ البحرية دائماً إجبارُ السُّجناء على الخِدمَة فيها). هُزِمَ ابنُ أبرَهَة الذي كان المَلك الإثيوبي المُستقلَّ في أرضِ حِميَر القديمة، ونُصِّبَ سَيفٌ مَكانَهُ كتابعٍ للفرس. ولكن سرعان ما اغتِيل سَيف بيَدِ إثيوبيين، فَعُيِّنَ مَكانُهُ نائبٌ فارسي للشّاه، وهو بلا شك ما كان السَّاسانيون يريدون فِعله أصلاً لأنهم كانوا يُريدون التَّدَخل في شبه القارة العربية منذ بداية عَهدِهم. ربما حَفَّزَهم نَصرُهُم السَّهل في الهلال الخصيب الجنوبي (أو على الأقل في مُدُنِهِ) على السيطَرة كذلك على الهلال الخصيب الشمالي، وتراجَعوا عن تركيز أنظارِهم على مناطق شبه الجزيرة بينهما.

يَستحيلُ تَقدير مَدى تأثير احتلال السَّاسانيين للجنوب على وَعي العرب لثُنائية العرب/ العَجَم، خاصةً للانقسام بين العرب/ الفرس، ومن ثَمَّ الشعور

(١١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٧٨.

بهويةٍ عربيةٍ وإثنيةٍ شامِلَةٍ تُغطّي كامل شبه الجزيرة. ولكن من المؤكّد أن وَعياً كهذا كان يَنمو سريعاً في مناطق التَّماس بين العرب والفرس في الشمال الشرقي حيث لم تُحَسِّن ثلاثةُ قُرونٍ من التحالف السياسي كثيراً من العلاقات العِرقية، وعندما طَلَبَ الشاه السَّاساني مِن تابِعِه مَلكِ الحِيرة النعمان الثالث أن يُزوجَّهُ أختَهُ، يُروى أنَّ النعمان قال: «أما لكسرى في مَها السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات؟». مجردُ فِكرة أنْ يتَّخِذَ فارسيٌّ زوجةً عربيةً كانت «من الغضاضة والشناعة»[١٢] (وبالطبع فإن العَكس كان مَقبولاً جِداً من وجهة نظر النعمان الأبوية).

يَقَعُ رَدُّ النعمان في المنطقة الغَيبية بين التاريخ والأسطورة، ولكن الواضِح هو أن موضوع العرب مقابل الفرس قد لَعِبَ دَوراً خلال التاريخ متكرراً بأشكال متنوعة: قبائل مقابل إمبراطورية، شيخٌ مقابل شاه، الرجعيون في الثقافة العربية مقابل الإحيائيين في الثقافة الفارسية، السّنة مقابل الشيعة، العراق مقابل إيران. والآن خارجَ نافذتي أرَى ما هو جزئياً حربٌ بالنيابة بين الرياض وطهران (على الأقل في خَيالِ الطَّرفَين وخِطابهما). كادَت الجزيرة العربية وبلاد فارس أن تتماسَّا جغرافياً عند مَضيق هرمز، ولكن تفصِلُ بينهما هاويةٌ من العَدَاوات العتيقة الأقدَم من الإسلام، والأعمَق من الخليج الفارسي... أم الخليج العربي؟ هذا أمرٌ مهمّ جِداً بحسب الطَّرف الذي تَلحَقُ إليه. في الأيام المتأخِّرة، عندما كان أمراءُ الحرب الفارسيون يُسيطِرون على الخِلافة العباسية قالَ المتنبي، أشهَر شاعرٍ وأكثرهم عروبة:

وَإِنَّما النـاسُ بِالمُلـوكِ وَما　　تُفلِحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ[١٣]

هناك فكرةٌ أخرى سنَعود إليها، هي أن الدولةَ الإسلامية الأصلية في المدينة جاءَتْ رَدَّ فِعلٍ عربياً على تزايد الوجود الفارسي في شبه الجزيرة العربية[١٤].

---

(١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

(١٣) ورد في: Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), p. 236.

(١٤) Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), p. 17.

من المستحيل موضوعياً تقديرُ مَدى تأثيرِ الوجود الفارسي في تَرسيخ الشّعور العربي المُتزايد، ولكن لا يوجد شكّ بأنّ عدم الاستقرار المضاعَف في الجنوب، من طَرف الإثيوبيين أولاً، ثم الفرس بَعدهم مباشرة، قد مَنَحَ مزيداً من القوة للعَناصر البَدَوية العربية في المجتمع. وسيَكتَشِفُ مغامرون آخرون بَعدَهم، مثل العثمانيين والبريطانيين (مثلما اكتَشَف الأمريكان في العراق)، أنه ربما يكون احتلالُ المُدُن سَهلاً، إلا أن دخولَ الغُزاة لا يَذهَبُ بعيداً في الدَّاخِل الذي يَصعُبُ اختِراقُه. تَسلَّلَ العرب منذ زمنٍ بعيد إلى مناطق الجنوب الريفية النائية الوَعِرة، وكانت المؤسساتُ القديمة في مناطق الاستقرار قد بدأت تَنهار مع تَكرار الغَزو الأجنبي، وتَفكَّكتْ عُرَى التَّواصُل الهشَّة بين الحَضَر والبَدو التي كانت دائماً مسألةَ اعتقادٍ وليست مَبنيَّةً على عقودٍ واتفاقات. رَسَّخَ كل ذلك قوةَ العرب وزعمائهم الذين كانت شَرعيتُهم تَعتَمد أولاً على سطوَتهم الشخصية وليس على مؤسسات، بل على الخطاب والشعارات.

أسوارٌ وأسلِحةٌ مِن كلمات

يَصعبُ الآن تقدير أهمية الخطابات والشعارات، إنما في القَرن السادس المضطَرب، عندما كان توازنُ القوى ينتَقِلُ من المجتمعات المستقرة إلى قبائل العرب، كانت الكلمات أسهَلَ المنتَجاتِ الثقافية نَقلاً، كما أنها قامَتْ بِدَورِ الأسوار الدفاعية والأسلحة الهجومية. من الناحية السياسية، كان أكثر الكبارِ بَلاغَةً يتَزَعَّمُ القبائلَ ويَجمع كلمةَ الناس، أما حَربياً فقد سبَقَتْ معارِكُ الشعراء اصطِدامَ القبائل بمناوشاتٍ شِعرية، كما يُسَجِّلُ المنتَصِرون أفعالهم في قصائد.

تتكررُ ثلاث تَسميات للخطباء ـ الزعماء: السيد، والخطيب، والشاعر. ولم تكن الصفاتُ منفصلةً دائماً، بل امتَزجَتْ غالباً في الشَّخصِ نفسِه. يأتي السَّيد عادةً من أسرة ورِثَتْ «شَرَفاً» خاصّاً، ولكن الزعامةَ ارتكَزتْ أساساً على الشخصية والإقدَام في القتال، وكذلك على البلاغة التي قد تُعَبِّرُ عن نفسِها بالنثر أو بالشِّعر أو بكِلَيهِما معاً. وهكذا كان السيد فارِسَ السيف والقَلَم، مع لمسَةٍ مَوروثَةٍ من سِحرَ البيان القديم «بكَشفِ مَعاني» السِّحر والعَرافَة. إذا كان لدى قبيلةٍ سُلالَةٌ من الخطباء، فغالباً ما لَعبوا دَورَ علماء

أنساب وتاريخ القبيلة بما يُشبِهُ دَورَ المُنادي أو ناشِرِ الأخبار في أوروبا، أو ربما أقرَب إلى دَور عائلات الجَلي *jeli* في غرب أفريقيا[١٥].

من حيث البلاغة البَحتَة، كان دَورُ الشاعر الأكثر أهمية منذ القِدَم، ولكنه أصبحَ أقلَّ قَدْراً عندما دَخَلَ الشعراء في عمليةِ بَيعِ مَدحِهِم للملوك وأمثالِهم مقابلَ المال[١٦]. إلا أن شِعرَ الحرب احتَفظَ بشيءٍ من قوةِ سِحرِهِ عَبرَ التاريخ. كانت قوتُهُ مثل قوة لَعنَةٍ تُلفَظُ بتأثيرِ إلهام خارق للطبيعة[١٧]، ولكي تَزول اللَّعنَة كان لسانُ الشاعر يُربَطُ عند أَسرِهِ حتّى أثناء قتله[١٨] (قد يُعاقَب خطباء العدو أيضاً بكَسرِ أسنانِهم الأمامية السفلية لتَحطِيم قدرَتِهم على النُّطق)[١٩]. ستَبقَى قوة الشِّعر في عَهدِ النّبوة، وقد أقرَّ النبي محمد نفسه أن حِرابَ شعرائه «أشدّ عليهم [أي على الكفار] من وقع السهام في غبش الظلام»[٢٠]. ومازالت تلك القوةُ موجودة مَعَنا هذه الأيام، فقد قالَ حاكِمُ دبيّ مؤخَّراً عن الزعيم الحوثِيّ الذي تدعَمُهُ إيران، وتَخفقُ شَعاراتُهُ تحت نافذتي مكتوبة على راياًت:

«لقد قَطَعنا يَدَه»

قطَعنا يَدَه وعايَنّا لاندِحارْ

وجيشهْ مِنْ الصَّدمةْ اتْحَطّما

ثم بإضافة سَهم إلى داعِميهِ في طهران (يُجَسِّدُهُم اسمٌ أُطلِقَ على ملوك إيران قَبل الإسلام هو «كِسرى»):

ورايات كِسرى طواها انكسارْ[٢١]

---

(١٥) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ١٤٧.

(١٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(١٧) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 73.

(١٨) لويس شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية** (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨٢)، ص ٧٩.

(١٩) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٣٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٧.

(٢١) الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، «أسود الجزيرة حماة الديار،» <http://baraqish.net> (تم الوصول إليه بتاريخ ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٥).

تبدو الادعاءات سابِقةً لأوانِها حتى الآن، فمازالت الرايات تُرَفرِف.

كذلك كانت مَرتَبةُ الكهّان عاليةً في أرستقراطية البلاغة، مثل الكاهِنة طَريفَة التي قادَت الهجرة الأسطورية من مَأرب. تُماثِلُ التسمية ـ والوظيفة أيضاً ـ نَظيرَتها في العِبرية القديمة «كوهِن *koμheμn*»[٢٢]، ويَعتَقد المَسعودي أن قُدرَتَهم على رؤية ما لا يَستطيعُ الآخرون رؤيته مُستَمَدَّةٌ من مَيلِهم للبقاء وَحدَهم في أماكِن موحِشة، وقضاءِ أوقاتٍ طويلة في التأمل ورؤيةِ العالَم «بعَين البَصيرة». ويُضيفُ المَسعودي أن كثيراً منهم كانوا مُشَوَّهين جَسَدياً، وعَوَّضوا نفسِياً وروحِياً عمّا كان يَنقُصُهم جِسمياً. كان جسم الكاهِن المَشهور «سَطيح»، مَثلاً، لا يحتوي على عِظام فيه، ويَستطيعُ أن «يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب»[٢٣]. عادَ سَجعُهم وكلامُهم العالي الخارق للعادة إلى الظُّهور كما سَنَرى في الوَحي القرآني المبكر. إلا أنَّ ابن خلدون يُشير إلى أنَّ الحقيقةَ تختلفُ بين الكاهِن والنّبي، لأن النّبي يتَّصِلُ مباشرةً بحقيقة عالَم الملائكة، بينما الكاهِن «تُلهِمُهُ الشياطين» فيَخلُطُ الحقيقةَ بالباطل[٢٤]. لا يَستطيع معظم الناس بالطبع تقدير هذا الفارِق الأهمّ في الإدراك والتصور والمَعرفة، وفي النهاية فإن قدرة العرافين والأنبياء على دَفع الناس وقيادتهم لا تَعتَمد على الحقيقة الكامِنة في أقوالهم، بل على مَهارتِهم في الخَطابة والبَلاغة وكيفية التَّعبير عنها.

ربما شَهِدَ الجنوبُ القديم المستقر عندما انهارَتْ مؤسساته المَركزية بُروزَ خطباء ـ زعماء. فخلال فترةِ الانحِدار ثم مقاومة المحتل الأجنبي في القَرن السادس، أصبَحَ لَقَبُ «الأقيال» منتَشِراً، وحَمَلَهُ أمراءُ حَربٍ مَحَليون أو زعماءُ قبائل، وربما يدلُّ على دَورِ «جَمع الكلمة»[٢٥] لأن جَذرَ الكلمة «قول» يتعلَّق بالكلام. ومن المؤكّد أن الأقيال كانوا أقوياء حينما كان الحاكِم

---

(٢٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 421.

(٢٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ١٧٩.

(٢٤) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 80.

(٢٥) Chaim Rabin, *Ancient West-Arabian* (London: Taylor's Foreign Press, 1951), chap. 11, no. 6, and Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), s.v. z'm.

المَركزي ضَعيفاً، فتكاثَروا وتَنافَسوا على ما بَقيَ من السُّلطة المُتَناقِصَة، وازدادَت غاراتُهم ونَهبُهم[٢٦].

وَحَدَتْ خطاباتُ وشِعارات مُجَمِّعي الكلمة المَذكورين قَبائِلَ وشعوباً، وصَنَعوا «عَصَبية» حَرَّكَتْ دورات دائرة النار.

المُوَثِّبات

بالنظر إلى كل تلك الأصوات المُتنافِسَة، ليس من المُستغرَب أنّ القَرن السادس الطويل كان حافِلاً بكثير من «الأيام» التي تُسمَّى أيام العرب. كانت أيام المَعارك أحياناً بسبب إغارةٍ منظَّمة خَرجَتْ عن السيطرة، وغالباً ما كانت صِراعاً صغيراً حول الرّعي، أو بسبب إهانة مَزعومة انفجَرتْ في حالة عُنف. ولكن سواء كانت مناوشاتٍ صغيرة أو حروباً كاملة فقد كان فيها نوعٌ من نظام الفروسية، ويتدَخَّل في النهاية عادةً طَرَفٌ مُحايدٌ، ويتَّفِقُ المتقاتلون على الصُّلح أو التعويضات، ويتمّ حساب القَتلى، وتُدفَع الدِّية إلى الطَّرف الذي عانَى أكثر. كانت التكاليف المالية ضَخمةً أحياناً، مثلما حدَثَ بعد حَربٍ قامَتْ بين قبيلتَي عَبس وذُبيان حين بلَغَت الدِّية ٣٠٠٠ جَمَل بعد ثلاث سنوات من القتال[٢٧].

الصراعُ التراثي في ذلك العَصر هو حَربُ البَسوس التي قامَتْ بين قبيلتَين «أخَويَّتَين» هما تَغلِب وبَكر اللتان كانت أوطانهما في شمال شرق شبه الجزيرة، وامتَدَّتْ في صحراء جنوب العراق وسورية قُربَ مَناطق مُلوك اللَّخميين. ادَّعَتْ كلٌّ من القبيلتَين انحدارَها مِنْ جَدٍّ واحدٍ مشترَكٍ هو «وائل». يُعتَقد بأنّ القتال بَدأ في العَقد الأخير من القَرن الخامس واستَمرَّ أربعين سنة، وكانت شرارةُ انطلاق الحرب حادثةً لا تبدو مهمّة في حَدِّ ذاتِها، وهي كَسر بَيضٍ في عشِّ طَيرِ القُبَّرَة في «الحِمَى»، وهي منطقةٌ مَحجوزَةٌ للرَّعي احتَكَرَها كُلَيب زعيمُ تَغلِب. قرَّرَ كُلَيب أن الجَاني هي ناقَةٌ خَرقاءُ الحافِرِ تُسمَّى «سَراب»[٢٨] يَملِكُها عَشيرٌ لقبيلةِ بَكر. كان كُلَيب قد

---

(٢٦) انظر على سبيل المثال: الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ص ١٥١.

(٢٧) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٥٢٦.

(٢٨) Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon*, s.v. *srb.*

اتَّخَذَ زوجةً له من قبيلة بَكر، وكان أخوها جَسَّاس هو المَلوم لأنه سَمَحَ للناقَةِ الخَرقاء بالدخول إلى مَرَاعيه. وبَدأت السُّخرية، ولم يَحدُث شيءٌ آخر حتى جاء يومٌ كانت الناقة المَشكوك فيها تَنتَظر دَورها في الشرب بَعدَ إبِلِ كُلَيب، إلا أنها شَرَدَتْ وخَرَجَتْ مِنَ الصَّف. غَضِبَ كُلَيب وأخَذَ قَوسَهُ ورَماها في ضِرعِها. غَضِبَت البسوس عمَّةُ جَسَّاس للإهانَةِ التي لَحِقَتْ بمالِكِ النَّاقَة الذي كان تحتَ حِمايتِها، فمَزَّقَتْ خِمارَها بسخطٍ وأنشَدَتْ أبياتاً من الشِّعر. وَرَدَ في تلك الأبيات التي عُرِفَت باسم «المُوثِّبات»:

وَلَكنّني أَصبَحتُ في دَارِ معشرٍ (*) مَتى يَعدُ فيها الذِّئبُ يَعدُ على شَاتي (٢٩)

في تلك اللحظة أصبَحَت المَهزَلة بَغيضَةً، لأنَّ جَسَّاساً قَتَلَ كُلَيباً، مما أدّى إلى اندلاعِ حربٍ شاملة بين القبيلتَين، وكانت حرباً في طَلائِعِها الكلماتُ، إلا أنها كانت مميتَةً، فَقَد تتابَعَ الشُّعراءُ في إنشادِ قصائدِهم المُهَيِّجَة لنيران الثأر والصراع، وتَزايدَت الأيامُ وتَراكَم القَتلَى. وإذا كان هناك شكٌّ بقوة الشِّعر، فإن كل تلك القضية المُخيفة لم يُطلَق عليها اسمُ كُلَيب ولا اسمُ قاتِلِه، ولا حتى اسمُ النَّاقة، بل سُمِّيَتْ باسم المرأة العجوز التي أشعَلَتْ أبياتُها الحرب. ولم تكن نساءٌ أخرياتَ أقلَّ شأناً من المُحاربين، فقد مَزَّقْنَ خُمُرهنَّ وعَرَّينَ رؤوسهنّ وأطلَقنَ صَرخاتِ الحرب العالية:

وغــى وغــى وغــى وغــى حَــرَّ الــحَــرارُ والــتــظَــى
ومُــلــئــت مــنــه الــرُّبــى يا حبّذا المحلّقون بالضحى (٣٠)

استمر الزَّئير أربَعين سنة ولم يتوقَّف إلا بسبب الإرهاق التام للمُتحارِبين، وبعد تَدَخُّل مَلك اللَّخميين (٣١).

(*) وردت في «دار غربة» في مصادر أخرى.

(٢٩) Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, p. 57.

(٣٠) Ibid., p. 60.

انظر أيضاً: شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٢٤١.

(٣١) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), p. 90.

اعتَقَدَ النَّاقِدُ المصري الكبير طه حسين أنَّ كثيراً من روايات الحرب قد رُويَتْ تحت تأثير خلافاتٍ في الفترة الإسلامية[٣٢]. سواء كان مُصيباً في ذلك أم لا، فإن حربَ البَسوس وأمثالها من الصراعات، (مثل حَربِ داحِس التي نَشَبتْ بسبب خِلافٍ مَزعومٍ في سباقِ خَيل)[٣٣]، تُصَوِّرُ الهَشاشة الاجتماعية المُزمِنة والتَّفرق الذيّ لازَمَ القَرن قَبل الإسلام. تُعتَبر حرب البَسوس مَلحَمَة ثانيةً مصغَّرة في مناطق العرب قَبل الإسلام، وهي تُبيِّنُ الجانبَ المدمِّر للهجرة بَعد خَراب سَد مَأرِب. انطلقَ الحَضَر في رحلتِهم نحو المَراعي الجديدة، ثم اقتَتَلوا فيما بينهم على حقوق الرَّعي في تلك المَراعي. أدركَ والِد جَسّاس قاتِل كُلَيب الأهميّةَ العَميقة المُمَزِّقَة لتلك الجَريمة فقالَ: «فرّقتَ جماعتك... والله لا تجتمع وائل بعدها أبداً»[٣٤].

بطريقةٍ ما، مازالت حرب البَسوس قائمةً حتى الآن. إنها قصةٌ تَحذيريةٌ لم تُدرَكْ دُروسُها بَعد، فهي تُلقي بظِلالِها على تَشتُّتٍ وتَفرُّقٍ ثَبتَ أنهما سَرمَديَّين، وبَعدَ نحو ١٥٠٠ سنة، تُظهِر الحاضِرَ بلَمحاتٍ من الماضي. في ذلك الوقت، مَزَّقَت البَسوس خِمارَها اعتراضاً، ومازالت النساءُ يَفعَلنَ ذلك الآن، أو يحرِقنَه، ومازال كُلَيب رَمزاً للزعيم الناجح المَحبوب «الديكتاتور الحَميد» الذي يَفقِدُ سَيطَرتَهُ على نفسِه مثلما يفعَلون عادَةً عندما يَبقونَ طويلاً في الحُكم، ويُصبحُ خَبيثاً. ومازال الثأر بين مَن كان ذات يوم ديكتاتورنا «الحَميد»، ومَن تَعدّى على مَراعيهِ، يُسمَّى حتى الآن «حرب البَسوس الأخرى» كما قالَ لِي أكثرُ من صَديق وهو يَهزُّ رأسَه أسَفاً.

المَلك الضليل

بينما انقَسَمتْ قبيلةُ وائل «الأب» إلى القبيلتَين المتَقاتِلتَين تَغلِب وبَكر«الأخوين»، انتَشَر المَيل إلى الانقِسام في جماعاتٍ أخرى كانت تتَمتَّع على الأقل بشيءٍ من وحدَة الأصل المُتَخيَّلَة. ولم تَنحَصِر هذه الظاهرة في قبائل البَدو، إذ يُقدِّمُ المؤرخُ الجغرافي الهَمداني لائحةً من القُرى التي

(٣٢) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ٢٤٠.

(٣٣) Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, p. 61.

(٣٤) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ١٥٥.

انقسمَتْ إلى فَصيلَين مُتَخاصِمَين[٣٥]، مثل عائلتَي مونتاغيو Montagues وكابولِت Capulets [المتخاصِمَتَين في مسرحية روميو وجولييت]. أنتَجَ المَيلُ للانشِطار سَرداً تَكَرَّرَ عَبرَ القُرون، إذ تتَمزَّق قبائل أو جماعات ذات أصلٍ واحِد، ويتَّصِلون، أو يُفرَضُ عليهم، بزعيم من خارج محيطِهم، ويُحقِّقُ هذا الزعيم وحدةً جديدة. ولكن، سرعان ما يُتعَبُ الفُرقاء من المَعيشة الودِّية، ويتَخلَّصون من الزعيم الجديد، ويَعودون إلى تَفرُّقِهم. تَحدُثُ النهايةُ الأكثر إثارةً للحُزن عندما يَقَعُ خلفاءُ الزعيم الجديد في قتالٍ وحربٍ فيما بينهم.

أوضَحُ مثالٍ على ذلك في القَرن السادس الطويل هو نموذجُ قبيلة كِندَة وعلاقاتِها مع قبائل وَسَطِ وشمال شبه الجزيرة. ربما تَعودُ أصول كِندَة إلى مناطق وسط شبه الجزيرة العربية حيث يَقَعُ مَركَزهم في قرية ذات كهل التجارية القديمة كما رأينا، طَوروا علاقاتٍ مع الجنوب المستقر، ومع نهاية القَرن الخامس، دَعَمَ حُكّام حِميَر ـ سَبأ زعيم كِندَة «حُجراً» كمَلكٍ تابعٍ لَهم على القبائل المتفَرقة في الشمال. انتَهَت الوحدةُ التي حقَّقها حُجر بوفاتِه. وبعد سنة ٥٠٠، استطاع واحِدٌ من أحفادِه هو الحارث إعادةَ تأسيسِ زعامَةِ كِندَة على القبائل؛ بل وتمكَّن مَرةً من طَردِ المَلك اللَّخمي التَّابع للفرس من الحِيرة. إلا أن اللَّخميين استَعادوا مَملَكَتهم وقُتِلَ الحارث. سارَت الأمور بشكلٍ سَيئ جِداً بَعدَ ذلك بالنسبة إلى عائلة الحارث، فقَبلَ مَوتِه كان قد نَصَّبَ أبناءَه الخَمسَة حُكّاماً على القبائل الخَمسِ الرئيسية تحت سُلطَته. بدأ اثنانِ منهم في القتال ضِد بعضِهم مَدعومين برجالِ قَبيلَتَيهما، بينما قَتَلَ رجال قبيلة ثالثة أخاً ثالثاً[٣٦]، وانهارَت الوحدة بين قبائل الشمال.

بَرَزَ من كلِّ هذا الحُطام شخصٌ رائع، فعندما جاءَ خَبَرُ قَتلِ الأخِ الثالث إلى ابنِه المُغترِب المُبَذِّر الذي كان قد طُرِدَ بسبب مطارِدَتِه للنساء وإنشادِ قصائدِهِ الغَزَلِية، كان الشاب المذكور في حالة قصوى من السُّكر. يُروى أنه قالَ عندما سَمِعَ خَبر قَتلِ والِده: «اليوم خَمر وغَداً أمر»، غير أنه لم يَستَطِع أبداً تحقيق الأمر، ولكنه في محاوَلَتِهِ الثأرَ لمَقتَلِ والِده قَدَّمَ للتاريخ العربي

(٣٥) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣)، ص ٢٣٧.

(٣٦) شيخو، المصدر نفسه، ص ١ ـ ٦.

أوَّلَ بَطَلٍ تراجيدي كامِل: الأمير الشاعر امرؤ القيس. هناك كثيرٌ من الغموض حولَ حياتِه بحيث لن يستطيع امرؤ القيس الحقيقي أن يتفوقَ على شَخصيتِه الأسطورية. وكما ذَكَرَ محمد عابد الجابري، فمازال موجوداً على المَسرح حتى الآن، وكأنه هَمِلِت [البطل التراجيدي في مسرح شكسبير] يُناجي نفسَه في غَمرة فوضَى القَرن السادس.

ربما يَجعلُهُ ذلك وكأنما هو رَجُلٌ «حديث»، وهو كذلك بطريقةٍ ما. فقد كان جُزءٌ منه شاعراً/سَيداً بطريقةٍ تقليدية كلاسيكية؛ زعيم قبيلةٍ شاعر يَحمِلُ اسماً عَتيقاً[(٣٧)] هو امرؤ القيس (ربما يَعني خادِمُ رَبِّ السماء «قيس»)[(٣٨)]. ولكنه في الوقت نفسه شاعرُ ذاتِه، أحبَّ واحتَفَلَ بالنساء، مِنهنَّ مَن وَصَفَها بقولِه:

«مُهَفهَفَةٌ بَيضاءُ غَيرُ مُفاضَةٍ   تَرائِبُها مَصقولَةٌ كَالسَّجَنجَلِ»
وَفَرعٍ يَزينُ المَتنَ أَسوَدَ فاحِمٍ   أَثيثٍ كَقِنوِ النَخلَةِ المُتَعَثكِلِ
غَدائِرُها مُستَشزِراتٌ إِلى العُلا   تَضِلُّ العِقاصَ في مُثَنًّى وَمُرسَلِ[(٣٩)]

قال الخليفةُ عُمَر إن «امرؤ القيس سابقهم، خَسَفَ لهم عين الشعر»[(٤٠)]. لم يكن الخليفة يفكّر بالشاعر البطولي المُحارِب اللّعان، شاعر العَصر القديم، بل كان أقرَب إلى ما نَعرفُهُ نحن الآن عن الشعراء.

إلا أن شهرة امرئ القيس كشاعرٍ تُغطّي على حقيقةِ أنه ربما كان كذلك «آخر حاكِم لدولة قامَتْ بآخر مُحاوَلة لتَوحيد القبائل العربية في شبه الجزيرة قَبل الإسلام»[(٤١)]، ولو أنَّ هذا الادِّعاءُ قد يَنسِبُ إليه مَشروعاً أكبر مما كان واعياً له هو نفسُه. لا يوجد شكّ بأنه سَعَى للحصول على دَعمِ البلاط

(٣٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, pp. 115 and 226.

(٣٨) Ibid., vol. 4, pp. 803-804.

(٣٩) الترجمة في: Tim Mackintosh-Smith, "Interpreter of Treasures: A Portrait Gallery," *Saudi Aramco World* (September-October 2013), p. 39.

(٤٠) [قول عمر بن الخطاب عن امرئ القيس هو: «امرؤ القيس سابِقُهم، خَسَفَ لهم عَيْن الشعر، فافْتَقَرَ عن معانٍ عُورٍ أصَحَّ بَصَرٍ»]. انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٢، ص ٤٠٥.

(٤١) يوسف محمد عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠)، ص ٢٩٦.

البيزنطي في مُحاولَته استعادَةَ سُلطَنه. على الرغم من عدم معرفة تاريخ ذلك بالضبط، إلا أن المحاوَلةَ جَرَتْ قَبل سنوات قليلة من حصول النبيل الحِميَري سيف بن ذي يزن على دَعم الفرس ضد الإثيوبيين، حلفاء البيزنطيين الذين احتَلُّوا أرضَهُ. وسرعان ما اكتَشفَ سيف أنَّ لَعِبَ اللعبة الكبرى هو لَعِبٌ بالنار، ووَجَدَ ذلك بشكلِ خنجَرِ قاتِلٍ إثيوبي وما تَبِعَهُ من احتلالِ الفرس للجنوب. ولم يَحصل امرؤ القيس على الدَّعم البيزنطي أبَداً، وماتَ خائِبَ الأمَل (يُعتَقدُ بأنه ماتَ بقميصٍ مَسموم عقاباً له على مغازلته البيزنطيين سياسياً، وأيضاً مغازلته لأميرةٍ بيزنطية غرامياً).

يصعبُ فَصلُ الخيال عن الواقع (القولُ بأن الأمر «حقيقة» هو مبالَغةٌ كبيرة في غياب دليلٍ قاطِع). أصبحَ سيف بن ذي يزن بَطَلاً لقصصٍ خياليةٍ شعبية بمحاولته استعادَة مَكانَة حِميَر، أما امرؤ القيس فلو أنه نجَحَ باستعادة ثروات كِندَة، فربما كان موحِّدَ القبائل العربية، ولكنه أصبَح مَحصوراً بصورةِ بطلٍ أدَبيّ. تَورَّطَ كلٌّ منهما في جهودِهما السياسية مع القوى العظمى، الأسَدَين الإمبرياليَين المُسيطِرَين، وسقَط كل منهما ضَحيةَ لُعبَةٍ سيئة، ولكن حيث فَشِلَ الوطني والشاعر، سيَنجَح نَبيٌّ قريباً، وسَيؤسِّس قوةً عظمى جديدة عربيةً خالصة.

اعتَقدَ طه حسين أن كثيراً من سِيرة امرئ القيس كانت إسقاطاً خلفياً كذلك مثل حرب البَسوس، خاصةً من سِيرة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[٤٢] زعيم كِندَة المَنفيّ في الفترة الإسلامية، والذي سَعى للثأر من قَتلَةِ أبيه. وربما كان طه حسين مُحِقّاً في ذلك أيضاً. ولكن، مثلما تُلَخِّصُ حربُ البَسوس العنفَ الداخلي في القَرن السادس بحادثةٍ واحِدة، فإن الأمير الشاعر امرأ القيس الذي يَنتَهي طَريداً مَنبوذاً، ويُلقَّب «المَلك الضَّال أو الضِّلّيل»، يُجَسِّدُ في شخصيةٍ واحدة الاضطرابات الكثيرة في عَصر ما قَبل الإسلام. يَنتَقِلُ من قصيدةٍ إلى قصيدة، ومن امرأةٍ إلى أخرى، ومن حَضرَمَوت إلى آسيا الصُغرى إلى البحرين[٤٣]. تَعكسُ سِيرتُه المُتنقِّلَة قَرناً من الحَركة والبَحثِ عما لا يمكن تَحقيقُه.

---

(٤٢) حسين، **في الشعر الجاهلي**، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٤٣) انظر: امرؤ القيس، **ديوان امرؤ القيس** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٥٥ ـ ٦٠.

ألـم أُنْـضِ الـمـطـيّ بـكـلّ خَـرْقٍ أمقّ الـطـول لـمّـاع الـسـرابِ[٤٤]

جَوَّابو آفاقٍ

كان امرؤ القيس الشابُ الخَليعُ قد أرسلَهُ أبوه الصَّارمُ إلى البادية، فجَمعَ حولَهُ ثُلَّةٌ من الصعاليك[٤٥]، ومن المفيد النظر قليلاً إلى هذه الفئة الشاذّة. كان كثيرٌ منهم شعراء مثل امرئ القيس، وكانوا كذلك رَمزاً لعَصرِ قَلَقٍ وتَفرُّقٍ، كما كانوا دُفعَةً مُتألقَةً أخيرةً للفَردية المطلَقة والتَّعدّد التي ستَنطَفئ على الأقلّ نظَرياً بتأثيرِ جَماعيةِ الإسلام وتَوحيدِه. يَميلُ المفكِّرون العرب المُعاصِرون للنَّظَر إلى الصَّعاليك نَظرَةً رومانسية، ووجهَةُ نَظرِهم هذه مُغرِيَة، لأنَّ الصَّعاليكَ أحرارٌ بمَعنَيَين: أولاً كشعراء ـ والشِّعر حَسبَ قَولِ أدونيس هو المَجال الذي يتحَرَّرُ فيه العَقلُ العربي من الإيديولوجية[٤٦] ـ وثانياً كمَنبوذين تَحرَّرُوا من القيود القَبَلية. إنهم واحِدٌ من أكثر الأمثِلَةِ العربية البارِزة للخروج على القانون من أجلِ البَحثِ عن الحقيقة [غير حرفي] (المِثالُ الآخر هو الصُّوفية[٤٧]، التيارُ الرُّوحي في الإسلام). غير أن هناك شيئاً رومانسياً بالفِعل في فَرديَّتِهم ومشاعِرهم القوية وقُربِهم من الطبيعة، حتى لو كانت رومانسيَّتهم صَعبة الهَضم. إنْ بَحثْنا عما يُماثِلُ تجربَتهم في سياقٍ حَديثٍ، فقد نقولُ إنَّ الصحفي«الصعلوك» هنتر تومبسون Hunter S. Thompson كان يُفكِّرُ بالصَّعاليك القُدامى عندما نَصَحَ مُعجَبيهِ «أنْ يَتكَبَّروا ويَتبَختَروا، ويُعانِدوا ويُعادوا، ويَتعلَّموا اللغة العربية، ويُحبُّوا الموسيقى، ولا يَنسوا أنهم أحفادُ نَسلٍ طويلٍ من الباحِثين عن الحقيقة والعشاق والمُحارِبين».

كانت اللغة التي تحدَّثَ بها الصعاليك هي العربيةُ الفصحى في الخَطابة والشِّعر. معظم العرب الذين استَخدَموا هذه اللغة كانوا جامِعي الكَلِمة والناطِقين باسمِ قبائلِهم وزعمائها، بينما كان الصعاليكُ رافِضين، واعتُبِروا

---

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٥.

(٤٦) Adonis, *An Introduction to Arab Poetics* (London: Saqi Books, 2003), p. 72.

(٤٧) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ١٦٣. وردت في الكتاب الأصلي: «المثل العربي البارز على رفض الشريعة من أجل الحقيقة».

مَنبوذِين بسبب جَرائِمَ ضد الشَّرف، ومن ثَمَّ كانوا ضد «العَصَبية» التي تَجمَعُ القبيلة. كان بعضُهم مُغالِياً في رَفضِهِ للعادات والتقاليد. عندما قُتِلَ الصعلوكُ الشاعر «تأبَّطَ شَرّاً» في معركةٍ بأوائل القَرن السادس، رَكِبَ أصحابُه إلى حيث كان جَسَدُهُ مُسَجّى لكي يأخُذوهُ ويَدفنوهُ، وعندما وصَلوا إلى المكان وجَدوا أنَّ الجَسَدَ مُحاطٌ بجُثَثِ حيواناتٍ برّية وطيور وفرائس وديدان أكَلَتْ لَحمَهُ[48] [غير حرفي].

يُقالُ إنَّ جَسَدَه كان سَامّاً بسبب كثرة تناوله غذاءً سَامّاً من الأفاعي والحنظَل. كان أشهَرُ وأبلَغُ رَفضٍ للقِيم القَبَلية هو إنشادُ قصائد الشَّنفَرَى الذي عاصَرَ تأبَّطَ شَرّاً الذي وَصَفَ الشَّنفَرَى بقوله:

حمّال ألوية شهّاد أندية   قوّال مُحكمةٍ جوّال آفاقِ[49]

واستَهَلَّ الشَّنفَرَى قصيدَتَهُ [اللامية] بالقول:

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم   فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُمْ لَأَمَيلُ
وَلِيْ دونَكُمْ أَهلَونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ   وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ
هُمُ الرَهطُ لا مُستَودَعُ السِرِّ ذائِعٌ   لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ[50]

وتُتابع القصيدة بلهجةٍ قوية من الرَّفض نفسِه، مثلما كتَبَ المُستَعرِب غيفورد بالغريف Gifford Palgrave في القَرن التاسع عشر: «إنها فَردانيةُ العقلِ المُطلَقة الذي يَتحدّى عَصره وكل ما حَوله»[51].

غير أن كثيراً من الصعاليك عاشوا وأغاروا بشكلِ عصاباتٍ، أو كما رأينا في حالَةِ عُروة بن الوَرد[52] كانوا يَجمَعون حولَهم أفراداً بؤساء على هوامش المجتمع القَبَلي ويَصحَبونهم لدَعمِ غاراتِهم. وهكذا شكَّلوا في

---

(٤٨) الترجمة في: Tim Mackintosh-Smith, "Interpreter of Treasures: Food and Drink," *Saudi Aramco World* (May-June 2013), p. 40.

(٤٩) Robert Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature* (London: Penguin, 2000), p. 19.

(٥٠) Ibid., p. 19.

(٥١) D. M. Dunlop, *Arab Civilization to A.D. 1500* (London: Longman Group Ltd.; Beirut: Librairie du Liban, 1971), p. 28.

(٥٢) انظر: ص ١٢١ ـ ١٢٢ من هذا الكتاب.

الغالب جماعاتِهم المختلِفة غير القَبَلية بينما رفَضوا قبائِلهم الأصلية. بُنِيَ مجتمع عُروة البَديل على العَدالة الاجتماعية إذا صَدَّقنا مشاعرَ قصائِدِه:

ما بالثراء يسود كل مسوَّدٍ مُثْرٍ ولكنْ بالفعال يسودُ
بل لا أكاثر صاحبي في يُسره وأصدّ إذا في عيشه تصريدُ
فإذا غنيتُ فإنّ جاري نيلُهُ من نائلي وميسَّري معهودُ
وإذا افتقرتُ فلن أُرى متخشّعاً لأخي عنًى معروفُهُ مكدودُ[٥٣]

كان الصعاليكُ الاستثناءَ الذي يؤكِّد قاعدة القبيلةِ العربية، وكانوا في بعضِ الحالات والأساليب طلائع المجتمع البَديل غير القَبَلي، ومجتمع المساواة الاجتماعية الذي سَيؤسِّسُه النبي محمد.

ربما كان هذا صحيحاً في بعض الحالات فقط، لأن فَرديةَ الصعاليك المُطلَقة، وتأكيدَهم على ما يُعتَبَرُ عادةً الفَردية «الحديثة» التي يمثِّلُها دونكيشوت و[الشاعر الأمريكي] وِيتْمان، ستُلغِيها الطبيعةُ الشُّمولية العَقائدية والسياسية في المجتمع القادِم، كما سيُلغيها مَفهوم السُّنة بشكلِها الإسلامي، وهو المَفهوم أن هناك فرداً واحِداً كامِلاً يجب على الجميع اتِّباع تصرفاته وسُنَّتِه. أما في القَرن السادس، فقد قدَّم الصعاليكُ بديلاً عن العادات القَبَلية والأعراف الدينية كما كانت آنذاك. كانوا العَرَّافين والمُحتَفِلين بِكَونٍ مَركَزُهُ الإنسان، كانوا يَرونَ «الخلودَ في الرجال والنساء»[٥٤]، كما قالَ ويتمان.

السياسة والشّاعرية

كثيراً ما يَظهَر للقَرن الذي سَبَقَ الإسلام مَظهَرٌ مَلحَميٌّ عظيم: محاربون أقوياء، شعراء عِظام، أبطالٌ قُدَماء يَمشون ويَركَبون في مَسرحِ شبه الجزيرة الكبير، ويَخوضون صراعاتِ معارك شَرِسَة وقصائد عنيفة نَهَّابين وَهَّابين. غير أن هذا الانطباع العام مُضَلِّلٌ قليلاً لأنه كان عَظَمَةً في فنجانِ شاي، فغالباً ما كانت البطولات مُشاجَرات حول الإبل، أما الأغلبية غير المَرئية التي كانت خَلفَ الأضواء: فالحياةُ مَسألة بَقاء باكتشافِ قطعةٍ صغيرةٍ من المَرعى حيث

---

(٥٣) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٩٠٦.

(٥٤) Walt Whitman, *The Portable Walt Whitman*, edited with an introduction by Michael Warner (New York: Penguin, 2004), p. 335.

لم تَهطُل الأمطار منذ سِنين، أو أن تَحتَفِظ بمُمتَلكاتِكَ الهَزيلة وبناتِكَ بأمان من جنود الأكسوميين أو السَّاسانيين، أو تَظلَّ بعيداً عن غاراتِ قبيلةٍ مجاوِرة ونَهبِها، وألا تَموتَ مع كثيرٍ من الألَم والمُعاناة. وعلى كل حال فإن روحَ «البطولة» في ذلك العَصر تُشمَلُ حقيقةً مؤكَّدَة. كانت الإغارة (ومن ثَمَّ القِتال) أسلوبَ حياةٍ، ونَشاطاً اقتصادياً رئيسياً، ولم يكن الشِّعر الذي احتَفَلَ بها ذلك التَّرف النَّادر الذي يَظهَر لنا؛ فمَثلاً، أشهرُ قصائد عمرو بن كلثوم (ابنُ عمٍّ بَعيدٍ لكُلَيب الذي بَدَأ قَتلُهُ حربَ البَسوس) «وكان بنو تغلب تعظم معلقته جداً ويرويها صغارهم وكبارهم»(٥٥)، وهذا إنجازٌ مثيرٌ للإعجاب بالنظر إلى أنَّ طولَ القصيدة أكثر من مِئةِ بَيتٍ.

أنْ يتَّحِدَ العرب سياسياً كان أبعَد من خيالِ أي شَخصٍ، ولكنهم كانوا متَّحِدين شِعريّاً في القرن السادس، ومتآلفين ثقافياً بشكلٍ لا يمكن فَصلُه، وبَقِيَ هذا التآلف حتى الآن بَعدَ كل الأيام والحروب التي لا تُعَدّ. فالآن يَستطيعُ امرؤ القيس أن يتحدَّث عن كل النساء اللواتي تَودَّدَ إليهنَّ بأنَّهُنَّ «عربيات»، وبهذا المَعنى نفسه سيَتَحدَّث القرآن عن محمد بأنه «عربي»، وليس على أنه أعرابي بصفاتٍ بَدَوية لم يَحمِلها محمد بكل تأكيد، إنما كفَردٍ من ثقافةِ شِبهِ القارّة التي يَجمَعُ أفرادَها كلَّهم لِسانٌ مُشترَكٌ شامِلٌ فَصيح. لا يستطيع كل فردٍ منهم أن يَستَخدِمَ ذلك اللسان بنفسِه، ولا حتى أن يفهَمهُ بكل تعقيداته، ولكنهم جميعاً يستطيعون تَقديره ويَطمَحون إليه ويَتجاوَبون معه. لقد جَعلَهم هذا التَّجاوبُ المُشترَكُ عَرَباً.

مازال هذا التَّجاوبُ المُشترَك يَربِطُ العرب في كلِ مكان، وهم يعيشون في الثقافة ـ الأمَّةَ (Kulturnation) الموحَّدَة ويُحِبّون لُغَتَهم حتى لو كانوا يَكرَهونَ تَعَلُّمَ قواعد النَّحو والصَّرف. أما الوحدة السياسية فمازالت غَير وارِدة. وكما قالَ لورنس T.E. Lawrence لروبرت غريفز Robert Graves [الشاعر والمؤرخ البريطاني]: «الوحدةُ العربية هي خَيالٌ مَجنونٌ في هذا القَرن وربما الذي يَليهِ. وكذلك وحدَةُ الناطِقين بالإنكليزية»(٥٦). ولكن

(٥٥) شيخو، المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(٥٦) ورد في: Efraim Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, 2nd ed. (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007), p. 8.

العرب يَظَلُّون شَعباً واحِداً في عالَم الخَطابة والشِّعارات، سواء كانت قوميةً أو إسلاميةً، حتى لو فَصَلَتْ هاويةٌ من خَيبةِ الأمَل بين السياسةِ والشَّاعرية.

بالطبع، فإنَّ رأيَنا مُتَحَيِّزٌ نحو أهمية الشِّعر، فهو التُّحفَة العربية الوحيدة التي بَقِيتْ منذ ما قَبل الإسلام من فنونِ الأدب وغيرها (مقارنةً بكل تحَفِ الحَضَر في جنوب شبه الجزيرة العربية من سدودٍ، وأصنام، وأفاريز مُكَوَّنَة من رؤوس الوعول، ونقوش وغيرها). لا يُعيقُ ذلك المؤرِّخين بالضرورة، ففي كثيرٍ من الثقافات الأخرى التي لم تَترِكْ سوى قليلٍ من النصوص المَكتوبة نَستطيعُ فَهمَ الماضي من خلال عِلم الآثار وحَفرِ هياكل مَبنِية وفَحصِ محتوياتها الباقية. الأبنيةُ القديمةُ نادِرةٌ في مناطق عرب شبه الجزيرة، ولكن القصائد العربية هي هياكلُ مَجازية ومناطق مَعيشَةٍ مَصنوعَة من وحداتِ أوزانٍ شِعرية تسمى الأسباب (حِبال الخَيمة) والأوتاد (أوتاد الخَيمة) التي تَصنَعُ أشْطُراً (أنصاف) ومَصاريعَ (فَردات أبواب مُزدَوجَة) يُشَكِّلُ كل زَوج منها بَيتاً مِنَ الشِّعر (خيمة، غرفة، منزل)(٥٧). تُشكِّلُ القصائد العربية كلهاً «مَواقع أثرية»، بمَثابة بقايا مدينةِ بومبي الأثَرية لعَصر ما قَبل الإسلام. تم إدراكُ هذا في وقتٍ مبكر، فقد كَتَبَ الجاحظ أن الفرس قد تَركُوا سِجِلاً خالداً لماضِيهم في أبنِيَتِهم، بينما تَركَ العربُ سِجِلَّ تاريخِهم في القصائد التي ربما تكون أكثر خلوداً لأن الأجيال التالية غالباً ما تَهدِمُ آثارَ وهياكلَ مَن سَبَقوهم(٥٨). والأكثر من ذلك هو أنّ الصورَ الشِّعرية تعكسُ سَماعِياً أصوات عَصرها. كَتَبَ ناقِد الشِّعر ابن رَشيق في القَرن الحادي عشر أنَّ «البيت من الشِّعر كالبيتِ من الأبنية: قراره الطَّبع، وسمكُهُ الرِّواية، ودَعائِمه العِلم، وبابُه الدّربة، وساكِنُه المَعنى، ولا خيرَ في بيتٍ غير مَسكون»(٥٩).

ربما لم يُحفَظ من الشِّعر القديم بشَكلِهِ الأصلي سوى القليل بسبب تقلبات الذّاكرة وتَزوير الرّواة المتأخرين. بعضُ النقاد، مِثل طه حسين، يَعتَبرون أن كلَّ الشِّعر الجاهلي تَزويرٌ متأخِّر فيما عَدا أبيات قليلة، ويَطعَن

---

(٥٧) Adonis, *An Introduction to Arab Poetics*, pp. 25-26.

(٥٨) Charles Pellat, ed. and trans. (into French), *The Life and Works of Jāḥiz*, trans. (into English) D. M. Hawke (London: Routledge and Kegan Paul, 1969), p. 132.

(٥٩) Geert Jan van Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology* (New York; London: New York University Press, 2013), p. 278.

أمثال هؤلاء النُّقاد في المَوروث الشِّعري كُلّه[60]، وفي ذلك مبالَغة. قراءةُ الشِّعر الجاهلي تُشبِهُ قراءةَ الكنائس القوطِية الإنكليزية التي «أُعيدَ تَرميمُها» بحماسٍ، ولكن بِفَنٍّ في الماضي القريب: بعضُها أصليٌّ دون شكّ، وبعضُها مزيجٌ عباسي ـ فيكتوري ذكيٌّ تَصعُبُ رؤيَةُ وَصْلاتِه. وإنَّ إنكارَ وهَدمَ كل هذه الهياكل المَبنية من كلماتٍ أو من حَجَرٍ هو تَخريب عَبَثيّ. فيما عَدا أقدَم كتاب عربي، وهو القرآن، وبعض اللَّمحات القليلة التي كتَبَها مراقبون مِن غَير العرب، تَمنَحُ دراسةُ آثار الشِّعر أفضَلَ صورةٍ، إن لم تكن الصورة الوحيدة، لحياة العرب قَبل الإسلام ومعتَقداتِهم وأحداثِهم.

تَخَيُّلُ عدَمَ وجودِ الجَنَّة

في تلك الصورة، الزمنُ عابِرٌ سَريعُ الزَّوال وليس خالِداً مثلما هو في الإسلام. سنَخرُجُ مِن فراغ ونَنتَهي إلى لا شيء، نَدفَعُ ما علينا ونَتَلَقّى ما نَستَحقُّ من نتائجِ أعمالِنا بالطريقة التي يَذكُرُنا بها الناس وليس في الجَنة أو في النار، وتُصَوِّرُ الحياةُ بتركيزٍ واضِح دون ضَبابِ الأبدية الذي يُظَلِّلُ أطرافَها في:

ما أبدَع وصف الطبيعة وحياة الصحراء، رحلات الليل والنهار بأحداثِها المختلفة من صَيد وطِراد ولَهو ورعايةِ الإبل وجَمعِ العَسَل البَريّ وغيرها من الأعمال[61].

يَروي الشاعرُ امرؤ القيس مثلاً ذَهابه إلى نارٍ قُربَ خَيمةِ صَديق:

لَنِعمَ الفَتى تَعشُو إلى ضَوءِ نارِهِ   طَريفُ بنُ مالٍ لَيلَةَ الجوعِ وَالخَصرِ
إِذا البازِلُ الكَوماءُ راحَتْ عَشِيَّةً   تُلاوِذُ مِن صَوتِ المُبَسّينَ بِالشَجرِ[62]

يبدو المَشهَدُ عادياً، ولكنه مَحفوظٌ وأصليٌّ بِكرٌ مثل الرُّسوم المُصغَّرة التي تُصوِّر الحياةَ الريفية في «كُتُبِ الساعات» الأوروبية من العصور الوسطى.

---

(٦٠) حسين، **في الشعر الجاهلي**، في مواضع متعددة.

(٦١) Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon*, vol. 1, p. x.

(٦٢) امرؤ القيس، **ديوان امرؤ القيس**، ص ٨١.

يبدو عالَمُ شعراء العَصر الجاهلي فَظّاً متَوحِّشاً ومحدود الأبعاد من الناحية السياسية، إلا أنه متحركٌ بشكلٍ رائع بطرائق أخرى، ويُغطّي مسافات واسِعة، ويتَمايلُ كذلك عَبر النِّطاق الأخلاقي الكامل من الشَّهوة والسُّكر إلى أقصَى مُمارَسات المُروءة والشَّرف (اليوم خَمر وغداً أمر). الدِّينُ المنظَّم غائبٌ، ولكن يوجَد التِزام بأعرافٍ أخلاقية وتقدير للكَرَم والشجاعة والضيافة والوَلاء للعَشيرة والقَبيلة والأجداد. الشخصياتُ التي تَحتَرمُ هذه الأعراف ستُذكَر للأجيال القادمة، مثلما فَعَلَ امرؤ القيس لعَشيرة بَني ثَعل التي آوَتْهُ وحَمَتْهُ في جَولاتِه(٦٣). وبالمِثل، فإن انتهاكَ العُرف سيَحكُمُ على المَرء بنوع آخر من السُّمعة في الأجيال القادمة. وصَفَ امرؤ القيس رجلاً حِميَرياً فَشِلَ في حِماية عَمِّهِ القتيل:

لا حِـمـيَـرِيٌّ وَفَـى وَلا عُـدَسٌ وَلا اِستُ عيرٍ يَحُكُّها الثَفَرُ(٦٤)

لَعِبَ الشعراءُ دَورَ ملائكةِ كتابةِ الأعمال في الإسلام، وعلى الرغم من عدم وجود جَنَّة ونار فقد كان هنالك نوعٌ من الحياة الأخرى التي سيَحيا فيها المَرء في ذِكراه وسُمعته إن لم يكن بروحِه، وسيَلقَى جَزاءَه مُكافأةً أو عقاباً. مهما كان نَسَبُ الإنسان أو مَن كان أجدادُه فإن إحياءَ ذكرى الأعمالِ النَّبيلة أو السَّيئة سيكون «الحَسَبُ»، مَفهوماً يوازي النَسَبَ، كنوعٍ من إرثِ أعمالِ الخير والشر الذي سَتَرثه أجيالُ المستقبل(٦٥).

كانت جميع هذه السِّمات لمُعتقدات العرب واضحةً في القَرن السادس، وستَستَمر، ومازالت مستَمرة على الأقل في عالَم المِثاليات، وكذلك مفاهيم الدِّين، بمَعنى واجب اتِّباع طريقةِ الأجداد(٦٦)، والسُّنة بمَعنى مُمارَساتِهم. سيَنقُلُ الإسلامُ مَفهوم الدِّين إلى مستَوى آخَر ويجعلُهُ مجموعةً من الواجبات لله هي «الدِّين» (بالمِثل المَعنى الأول لكلمة *religio* اللاتينية هو «الواجِب»)، وستُصبح «السّنة» أعمالَ النبي محمد حَصرياً. أما بالنسبة إلى الإنسان قَبل الإسلام، فإن هذه المَفاهيم كانت تتعلَّقُ بالسّلوك والواجِبات وليس بعَقائد

(٦٣) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٦٥) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 3, p. 239.

(٦٦) G.E. von Grunebaum, "The Nature of Arab Unity Before Islam," *Arabica*, vol. 10, no. 1 (1963), p. 15.

وتَعاليم سَماوية. عند محاوَلة فَهم مَعنى كلمة «الدِّين»، يجب على المَرء أن يَنسَى العلاقات التي تَنبُعُ من الكلَمة الإنكليزية «religion» التي ترتَبُط بالفِكر اليهودي ـ المسيحي ـ الأفلاطوني، فالمَعنى الأصلي لكلمة «الدِّين» العربية هو أقرَب إلى مَعنى كلمة «دارما *dharma*» البوذية، وهو في الأصل ليس قضيةً لاهوتية، بل انضباط المجتمع على الطريق المستقيم: طريق الأجداد(٦٧). كما سيكون من الخَطأ بالمِثل خَلطُ المَفاهيم الأولى للدِّين بالمَفاهيم الأخيرة، والتفكير في مَجالِ «عبادة» الأجداد قَبل الإسلام. عندما يتذكَّر المَرء كتّاب النقوش القديمة الصّفائية الذين سَجّلوا أسماءَ أجدادِهم على مَدى ١٥ جيلاً أو أكثر، وعندما يَجِدُ المَرءُ أنَّ قُريشاً قد عَلَّقَتْ رسوماً لجميع أجدادِها في الكَعبة قَبل الإسلام، يَبدأ بِفَهم بعض الأمور عن تقديسِ الأجداد(٦٨) (هل يُشبِهُ ذلك مَزارات الأجداد في الصين؟).

ربما توضِّحُ المَفاهيمُ القديمة للدِّين والسّنة تفكيرَ كثيرٍ من المسلمين هذه الأيام، خاصة العرب منهم، وتوضِّحُ الارتباطَ الوثيق غير العادي بالماضي في تلك الأفكار، والواجبات نحو الأجداد، والإخلاص غير العادي لمحمد (وهو الرجلُ الذي أصَرَّ كثيراً على أنه ليس أكثر من إنسان، ولكن أُضفِيَ عليهِ وِشاحُ المؤسِّس الجَدّ البطل للقبيلة العُظمى الجديدة، أمّة الإسلام). بالَغَ الشاعر محمد إقبال في القَرن العشرين بقوله: «يمكنكَ أن تُنكِرَ وجودَ الله، ولكن لا يُمكنكَ أن تُنكَر وجودَ النبي». وبما أن الله خالٍ مِنَ الصِّفات البَشَريّة مثلما يُؤكَّدُ عليه في الإسلام، فليس مُستَغرَباً أن تَنتَقِلَ مَشاعرُ الإخلاص إلى شخصيةٍ يُمكِنُ الاقترابُ منها أكثر. إنكارُ الله هو مسألةٌ إيمانية، أما إنكار النبي فهو قضيةُ إنكارِ أمرٍ أقدَم وأعمَق(٦٩). ربما يُفَسِّرُ كثيراً فَهمُ «الدِّين» بهذا الضوء القديم.

الذاكرة الجَماعية

مازال الشِّعر مرتَبطاً بالماضي، وقد صَمَدَت التقاليد الأدبية التي وضِعَتْ في القَرن السادس، وتَشمل شَكلَ القصيدة بقافِيتها الواحِدة التي تَبدأ في

---

(٦٧) John Keay, *India: A History* (London: Harper Collins, 2004), pp. 97 and 149.

(٦٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٦٩) ورد في: *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 377.

نموذَجها الكامل بفاتِحةٍ عن الحبّ والفَقد، ثم تأخُذُ السامع في رحلةٍ تضمُّ وصفاً لمَطايا الشاعر والمَناظر الطبيعية التي مَرَّ بها، ثم تَصِلُ أخيراً إلى هدَفِها سواء كان في المَديح أو الرِّثاء أو غيره. بعضُ هذه التقاليد لها جُذورٌ أقدَم مثلما يَبدأ امرؤ القيس أشهَرَ قصائِده بتَذكُّر:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِّوى بَينَ الدَّخولِ فَحَومَلِ

فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُها لِما نَسَجَتْها مِن جَنوبٍ وَشَمأَلِ

وَإِنَّ شِفائي عَبرَةٌ مهَراقَةٌ فَهَل عِندَ رَسمٍ دارِسٍ مِن مُعَوَّلِ(٧٠)

ولكن قَبل ذلك بخمسمئة سنة تقريباً، سَجَّلَ كتّابُ كثيرٍ من النقوش الصّفائية حُزنَهم لَدَى رجوعِهم لزيارة أطلالِ مخيَّماتِهم وتَلَمُّسِ آثارِ مُرورِ أحبَّائِهم(٧١).

الحنينُ هو واحدٌ فقط من أمزجَة شُعراء القَرن السادس، وقد رأينا امرأ القيس سابقاً يَحتَفل بالجَمال الحاضِر والحُبّ القديم. كان الأعشى من شعراءِ فترةٍ متأخرة قُبَيل الإسلام، وكان وصفُهُ لجَمال المرأة مشهوراً، وكان مَطلوباً «كمَكتَبِ زواج» لإصدارِ دعاياتٍ شِعرية مَصقولَة لفَتياتٍ عاديات(٧٢). وفي أواخر القَرن السادس اكتَسبَ الشعراء أنفسهم شُهرةً كبيرة عندما أقامَتْ قبيلةُ قريش سوقَ عُكاظ التي شملت تجارتها شبه الجزيرة بأسرها، على طريق التجارة الرئيسية التي تَصِلُ إلى مناطِقِ قريش من الجنوب حيث كانت منافَسات الشِّعر هي الجاذِب الأكبر للحُضور. وصَلَ المُتَنافسون على أفخَر مَطاياهم وهم يَرتَدون أفضَل ثيابِهم ليَتبارَزوا بالقَصائد(٧٣). كان الشعراءُ نجوم الجَماهير في ذلك الوقت. وكانت أهميةُ أماكِنَ مثل عُكاظ أكثر مِنْ أدَبية، فقد كانت أماكِنَ عَقدِ المُصالحات بين القبائل المُتَحارِبة حيث يمكن أن تَجتمعَ دون الضغط المستمر لمُتابعة القتال وأخذِ الثأر، وفي أرضٍ منقَسِمةٍ دائماً، كانت المهرجانات العامّة أماكِنَ سلامٍ ووحدَةٍ مؤقّتَة.

---

(٧٠) Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature*, p. 7.

(٧١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 762.

(٧٢) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٧٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 226.

استمرَّ الشعراءُ حتى الآن في نَظْمِ القصائد، ولم تَنتَهِ المُبارزات الشِّعرية، وأُعيدَ إحياء الاحتفالية ببرنامج «شاعِر المِليون» التلفزيوني، الذي يحَظى بِقَناةٍ خاصَّة تَبثُّ من أبو ظبي، وهو مِثل سوق عكاظ أكثر من مجرد مهرجانِ منافَسَةٍ شعرية، ففي بلادٍ يُهاجِمُ فيها الحكّامُ خصومَهم بالقصائد، مازال الشِّعرُ رائعاً وقوياً.

هناك أصحابٌ آخرون للكلمات، مثل الدّعاة والوعّاظ الذين يخطبون في تجمعاتٍ كبيرة وسيكونون أكثَر تأثيراً على مستقبل العرب. كان أكثرهم شُهرة وتأثيراً في الفترة قُبيل الإسلام هو قسّ بن ساعِدَة، الذي كان يَدعو إلى الأخلاق، ويَعِظُ عن الموت في نَثرٍ مَسجوع، وكان يَحضر مهرجاناتٍ مِثل سوق عكاظ وغيرها من أماكِن اجتماعِ القبائل، مِثل نَجران التي كانت مَركزَ عبادة مِثل مكّة، وكان منبَرُهُ المُعتاد هو ظَهرُ ناقَتِهِ، وكان يتساءلُ: «أين ثمود وعاد؟»، مثلما سيَسأل القرآن عن القبائل البائِدَة:

«وأين الآباء والأجداد؟ أين المعروف الذي لم يشكر؟ والظلم الذي لم يذكر؟ أقسم قسّ قسماً بالله أن لله ديناً هو أرضى له من دينكم هذا»[٧٤].

كان قُسّ خطيباً «مستقِلاً» وواعِظاً أو دَاعِياً غير مُرتَبِطٍ بقبيلة معيَّنَة. بَيَّنَ المَسعودي أهميته العابِرة للقبائل بوَصفِهِ «حكيم العرب»[٧٥]. وتتَّضِح أهميتُه كذلك بِذِكرِ قُسّ لله، الإله الأعظَم عند قريش والذي كان يَكسَبُ أتْباعاً مُتَزايدين في شبه الجزيرة العربية. وضِمنَ أتباعِ قُسّ الكُثُر، كان واحدٌ منهم متحمِّساً له بشكلٍ خاص هو رسول الله (محمد)، عليه الصلاة والسلام، الذي روى كلام قسّ بن ساعدة وموقفه على جَمَله بعُكاظ وموعظته، وهو رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه... ولذلك كان [قسّ] خطيب العرب قاطبةً[٧٦].

كان محمد هو النبي الذي سَيُبَشِّرُ كذلك جميع العرب وكل الناس دون استثناء، وسيَخطُبُ خطبةَ وداعِهِ الأخيرة على ظَهرِ ناقَتِهِ.

---

(٧٤) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٣١.
(٧٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٦٩.
(٧٦) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥ ـ ٢٦.

تَرسُمُ بعضُ التّصورات الإسلامية عن قُسّ بالنسبة إلى محمد بما يُشبِهُ يوحَنا المَعمَدان بالنسبة إلى يَسوع المَسيح. أعلَنَ قُسّ: «إنَّ لله دِيناً هو أحَبُّ إليهِ مِن دِينِكم الذي أنتُم عليه، ونَبيّاً قد حانَ حِينُهُ وأظَلَّكُم...»(٧٧). من وجهة نظَرٍ إسلامية يُعتَبرُ قُسّ بن ساعِدَة مبشِّراً أخبَرَ عن الرسالة القادمة، ولكنه ليس جُزءاً منها؛ أما من وجهة نظَرٍ أدبية ناقِدة، فهناك تشابُهات مدهِشة بين نَثرِ قُسّ المَأثور المَسجوع وبين الأجزاء الأقدَم من القرآن(*)؛ أما من وجهة نظَرٍ مَذهبيةٍ، فإن خطابَ قُسّ بَشَري، بينما خطابُ محمد إلهي لا يمكن أن تكون له أسلاف. قالَ بورغيس Borges: «يَخلُقُ كل كاتبٍ أَسلافه». الاستثناءُ هو القرآن الذي يَجُبُّ ما قَبلَهُ، إذا قَبِلنا وجهَةَ النَّظَر القَويمَة عن كتابَتِه.

جميعُ الدَّعوات والقَصائد والخِطابات المَهيبة في القَرن الذي سبَقَ الإسلام «أسَّستْ ذاكرةً جماعية»(٧٨). كما صاغَ ذلك الشاعر أدونيس: «جزءٌ كبيرٌ من اللاوَعي الجَماعي العربي مَخزونٌ هناك... إنه ليس فقط ذاكِرتنا الأولى، بل هو النَّبعُ الأول لخَيالِنا»(٧٩) [غير حرفي]. من دون تلك اللغة الجَماعية الشِّعرية والخَطابية، فإنَّ القرآنَ (إذا أرجَأنا فكرة الإيمان بخُلُودِهِ)، والإسلامَ، وربما كل فكرةِ العرب كَـ «أمّة»، كلُّ ذلك سيكون مستحيلاً. مازالت الذاكرة واللغة تُوحِّدُ العربَ بينما تُفرِّقُهم الحدودُ والحروب والعَقائد.

سيكون هناك ثمنٌ يجب دَفعُه. بما أنّ الكلمةَ مركزيةٌ في الهوية إلى هذه الدرجة، فإن أولئك الذين يَتحكَّمون بها سيتَمكَّنون دائماً من السَّيطرة على الناس الذين تُشكِّلُ اللغةُ بالنسبة إليهم جوهر ذاتِهم الإثنية والدينية. يمكن أن يُستَغلَّ الشِّعر والدَّعوة سياسياً ليُصبحَا مؤثِّرَين في العمق كدِعاية. قد يكون الاستغلالُ مُنَفِّراً: تحت نافِذَتي الآن يَدعو المُنادون والشعراء شباباً صِغاراً لكي يُفجِّروا أشلاءَ على يَدِ رفاقِهم العرب، يُقنِعونَهم بأنَّ أولئك الرِّفاق

(٧٧) Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology*, p. 111.

(*) [لم يدخل المؤلف في مناقشته الرأي الذي يعتبر أن الأقوال التي نسبت إلى قس بن ساعدة قد تكون منحولة على لسانه، وأنها قد كتبت بعد الإسلام وليس قبله] (المترجم).

(٧٨) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, pp. 242-243.

(٧٩) Adonis, *An Introduction to Arab Poetics*, p. 32.

العرب هم في الحقيقة أمريكان ويهود، وأنهم عندما يُقتَلون، فهي مَشيئةُ الله المحتَّمة، ويَدفعون أهلَهم للابتِهاج «بشهادَتِهم»، والابتسام عَبرَ دموعِهم، بينما يَدفِنون أطفالَهم مثلما فَعلَ جاري بأشلاءِ ابنِهِ منذ قليل. «إذا سَألَ أحَدٌ لماذا قُتِلنا/ قولوا لَهُم لأنَّ آباءَنا كَذَبوا علينا»... [للشاعر البريطاني جوزيف روديارد كيبلينغ Joseph Rudyard Kipling]. ولكن ربما لا تكفي الأكاذيبُ لتفسير المأساة. قد تكون الكلمات نفسُها مُذنِبةً، وإنه من دَواعي التَّعجب والتَّأسف أنَّ كلمةً واحِدةً فقط هي «الشهادة» تتضَمَّنُ مَعنى «الاستِشهاد»، ومَعنى «الإقرار بالإيمان الإسلامي»، ومَعنى «وثيقة دراسية». يوضِّحُ السّياقُ المَعنى المَقصود بالطبع، ولكنَّ أصحابَ الدعاية يَلعَبون بالكلمات والسِّياق، ويُنَظِّمونَ «أيامَ الشهادة» في كل مدرسة، ويُشَجِّعونَ الطلبة على الذهاب للموت: وما تَخسَره في الامتحان المدرسي، سيَعودُ إليكَ في الجَنة.

يُبيِّنُ كلُّ ذلك أهميةَ واحِدٍ من بين عوامِل الفتوحات الرائعة الثلاثة في تاريخ العرب، وهي السلاح، والإسلام، واللغة العربية، فإن النَّصر الأول والأكثر استمراراً هو انتِصارهم على أنفسِهم للِّسان الذي يَحمِلُ اسمَهم.

رُؤى الوحدة

مع نهاية القرن السادس، كانت هناك فكرة لا تتزعزع عن العرب كجماعة «ثقافية ـ إثنية»[٨٠] منتشرة على كامل شبه الجزيرة العربية، عابِرة الحدودَ القَبَلية كما أطلَقَ عليهم كيس فيرستيغ Kees Versteegh [عالِم اللغات الهولندي]، ملتَزِمين بعُرفٍ أخلاقي متَماسِك. تَطَوَّرَ العربُ كثيراً منذ بداياتهم البَدَوية المتَنقِّلة المُغيرَة في عالَم السَّاميين يستَلقون هُنا وهناك على أطراف الصحراء بمَثابَة أبناءِ إسماعيل المُرتَحِلين الغزاة، الجَمَّالين النَّقالين الذين عاشوا في الفَجوة بين الإمبراطوريات. مهما كانت أصولهم المختلفة، فقد جَمَعوا الآن قِيَماً ولغةً شائعةً كافية، وتاريخاً مُشتَرَكاً يؤهِّلُهم لهُويَّةٍ إثنيةٍ مُتَّحِدَة.

ربما كان ما وصلوا إليه كافياً، وربما ظَلُّوا في «جزيرتِهم» شِبه المُنفَصِلة

(٨٠) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 37.

كزائدةٍ في الجسم الرئيسي للتاريخ الأفريقي ـ الأوراسي يتَحَدّى بعضهم بعضاً في الغزوات والقصائد. لم تَكن رحلَتُهم مؤكَّدة بأي شكلٍ مِنْ تآلُفٍ عِرقِيٍّ وثقافيٍّ إلى وحدَةٍ سياسية، من أمة ـ ثقافة إلى أمة ـ دولة، فكيف بِرِحلَةِ المَرحَلة النهائية إلى الإمبراطورية؟! قبل ذلك بألف سنة، توصل الإغريق إلى قومية الثقافة واشترَكوا بلغة عالية واحدة، إلا أنهم لم يتمتعوا أبداً بوحدة سياسية عامة. وبعد مرور أكثَر من ألف سنة، سيشهد القَرن التاسع عشر والقَرن العشرون ولادةً جديدة لوحدَةٍ عربيةٍ ثقافية، ومَوتاً ثانياً لفكرة الوحدة العربية السياسية.

ومع ذلك فقد مَرَّتْ فترات وجَدَتْ فيها الشعوب والقبائل، والحَضَر والبدو، والأفكار والمَصالح توازناً، وانضَمَّت القبائلُ مع بَعضِها ولو مؤقَّتاً. ذُكِرَتْ جهودُ كِندَة في تَحفِيزِ الوحدَة، وكذلك تحالفاتُ القبائل التي تَجمَّعَتْ في ظِلِّ الغَساسنة واللَّخميين، إلا أن جميع تلك التجارب كانت تعتمد بدرجة أو بأخرى على وجود وإرادة قوى خارجية مِثل السَّبئيين ـ الحِميَريين والبيزنطيين والفرس. للتَوصُّل إلى وحدَةٍ أبعَد، يجب أنْ تَنبُعَ الإرادةُ من الداخل. كانت الهند الموحَّدَة بعد الاستقلال عند سلمان رشدي «أرضاً خيالية، دولة لا يمكن أن توجَد إلا بجهودِ إرادةٍ جماعية استِثنائية... إلا في حُلم اتَّفقنا جميعاً على أن نَحلُمَ بِهِ مَعاً»[٨١]. ـ وكان اتِّحاد شِبه القارّة العربية كذلك. كانت رُؤى وحدَة أقوى وأوسع موجودة، وكانت تلك الثنائيات المتَضادَّة مِنَ عرب/عَجم، العرب/غير العرب، راسِخَةً في المكان في أواخر القَرن السادس، إضافة إلى شعور «وَحدَنا فقط» وراء جدرانٍ تفصِلُنا عن الآخرين. الأمر الناقص فقط هو الإرادة الجماعية للتلاقي وللتماسك وراء الجدار، وبدون تلك الإرادة ستَظَلُّ الرُّؤى والآمالُ سَراباً.

تَحوَّلَت الرُّؤى أحياناً إلى كوابيس، مثلما تفجَّرَتْ في حرب البَسوس، وانتَهى القَرن الطويل قَبل الإسلام بدَوراتٍ أخرى من عَجَلة النار. وَرَدَ في محاولة تتجاوز القبيلة لتأسيس مستوطنة زراعية: «عندما أصبَحَ أحفادُهم أغنياءَ كُثُراً، نَسوا نِعمَهُم وثَرواتِهم، وقَطَعوا روابِطَ الوَلاء، ونَشبَت الحربُ

(٨١) Salman Rushdie, *Midnight's Children* (New York: Penguin, 1991), pp. 129-130.

بينهم حتى أفنى بعضهم بعضاً»[٨٢] [غير حرفي]. وبشكل أكثر كارثية، فإن قبائل عَدوان التي كانت مزدهرة ذات حين وأصبحت كثيرة العَدد حتى ضَمَّتْ «سبعين ألف غلام أغرل»[٨٣] سقطت أيضاً ضحية لغارات وحرب داخلية مهلِكة دمَّرت وحدَتها في النهاية، كما وصف شاعرها [ذو الأصبع العدواني]:

بَعد الحكومة والفضيلة والنُهى ... طاف الزمانُ عليهم بأوانِ
وتفرّقوا وتقطّعت أشلاؤهم ... وتبدّدوا فِرقاً في كلّ مكانِ
جَذَبَ البلادُ فأُعقمت أرحامُهم ... والدهرُ غيّرهم مع الحدثانِ

ربما أضافَتْ هِناتُ الرواية الشفهية صِفراً أو صِفرَين إلى عَدَد أفرادِ بَني عَدوان، وبمَسحة شخصية ربما تكون أقوى في وصف شبه الجزيرة العربية وقد مزقتها الغارات نراها في رِثاءِ رَجُلٍ اسمُهُ حارِثَة لابنِهِ الصغير زَيد، الذي أُسِرَ في إحدى الغارات:

بكيتُ على زيدٍ ولَمْ أدرِ ما فَعَلْ ... أَحَيٌّ يُرَجَّى أمْ أتَى دونَهُ الأجَل
تُذكّرنِيهِ الشَّمسُ عند طُلوعِها ... ويَعرِضُ ذِكراهُ إذا قارَبَ الطَّفَلْ
وإنْ هَبَّت الأرواحُ هَيَّجْنَ ذِكرَهُ ... فيا طول ما حُزني عليه ويا وَجلْ[٨٤]

(مع غروبِ الشَّمسِ وفي إصباحِها/ سنَتَذَكَّرُهُم)(*). ظهر أنّ زيداً كان حَيّاً فِعلاً، ولكنه لا يُرجَّى، فقد كان مُستَرَقّاً دون خَلاص. موضوعُ الأبيات نادر، على العكس من رِثاء قَتلى المُحاربين، وكان رِثاءُ الأطفال يتمّ في خصوصية لأنهم لم يَجمَعوا حَسَباً وسُمعَة ولا سِجِلاً من أعمال نبيلةٍ تَستَحِقُّ إعلانَ رِثائِهم. وربما حُفِظَتْ هذه الأبياتُ بسبب هُويةِ مَن سيُصبِحُ مالِكَ الشاب المُستَعبَد وأباهُ بالتَّبني، وكان مواطِناً مَغموراً في مكّة، ولكنه سيَصعَدُ

---

(٨٢) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ٣٣١.
(٨٣) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٦٢٥ ـ ٦٣٩.
(٨٤) عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر** (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.])، ج ١، ص ١٠٠.
(*) [من قصيدة الشهداء للشاعر الإنكليزي لورنس بينيون Laurence Binyon] (المترجم).

على مسرح عظماء العرب، وسيُصبح بَطلَ الميدان وقُرَّةَ الأبصار(*).

القدوم

مع نهاية القَرن السادس، حدثت تطورات سيكون لها نتائج أبعَدُ من الأمور الشخصية أو القَبَلية، تخلَّصَ البيزنطيون والفرس من خدمات مَمالِكِ الصَّدِ التَّابِعَةِ لَهم من الغَساسنة واللَّخميين، وحاولوا الدفاع عن حدودِهم بجيوشٍ نظامية مجَنَّدَة مِن شعوبِهم ذاتِها(٨٥). ولكن استمر ملوكُ العرب باستقطاب المَديح على الرغم من كَونِهم بلا عَمل، وظهرت في مدائحهم لمحات جديدة من التحدي والمشاعر «القومية». قال الشاعر حسان بن ثابت مادِحاً المَلك الغَسّاني جَبَلَة بن الأيهَم:

أشهرنها فإن مُلكك بالشا م إلى الروم فخرُ كلّ يماني(٨٦)

كان حَظُّ اللَّخميين أقلَّ من ذلك، ففي سنة ٦٠٢ أعدَمَ الشّاهُ السَّاساني مَلِكَ اللَّخميين النعمان الثالث ـ ذلك المَلك الذي رَفَضَ محاوَلَةَ الشَّاه مُصاهَرَته ـ بالسَّحقِ حتى الموت تحت أقدَامِ الفِيَلَة لأنه رَفَضَ محاوَلَةَ الشَّاه في جَذبِهِ إلى تَحالُفٍ عسكري بالمُصاهَرَة. لا يبدو أن سياسةً عليا خاصة كانت في الصورة، بل كان الأمرُ خلافاً شخصياً ومؤامرة دَنيئة في القَصر وشَجباً واستِنكاراً(٨٧). ولكن الإنهاء الحاسم لعلاقة دامت ثلاثة قرون مع اللخميين كان خطأً فارسياً كبيراً، فبَعدَ ذلك بسَنَتَين تَعرَّضَ الفرسُ ومَن بَقيَ معهم مِنَ حلفائهم العرب لهزيمةٍ مُخجِلَة في مَوقِعة ذي قار أمام تَحالُفٍ من قبائل عربية بقيادة قبيلة بَكر. ظَهَرتْ هذه الفورة من التحالف القَبَلي في حَدِّ ذاتها مثل غارَةٍ كبيرة انتَهتْ بالمُناوشات المعتادة، ولكن يبدو أن الهزيمة قد نَبَّهت الساسانيين، بل ووضَعَتْهم في روحٍ هجومية، فانطَلَقوا في آخِرِ تَوسُّعٍ لإمبراطوريتهم بعد سنة ٦١٠، وتغلَّبوا علَى البيزنطيين، واندَفعوا في سورية،

(*) [الفَتَى المَذكور هنا هو زَيد بن حارِثَة الذي سيُصبحُ مَولَى رسول الله وسيُذكَر اسمُهُ في القرآن] (المترجم).

(٨٥) Hugh Kennedy, *The Great Arab Conquests* (London: Orion Publishing, 2008), pp. 368-369.

(٨٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ١٠٨.

(٨٧) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. al-Nu'mān b. al-Mundhir.

بل حتى إلى مصر، ومع ذلك فقد كان هناك شعورٌ عام بعد هزيمة الفرس في معركة ذي قار أنَّ مَرحلَة انعطافٍ قد حَدَثتْ. كان محمد مازال شخصية مَجهولة مِن مكة، ويُروى أنه قالَ عن مَعركة ذي قار النائية وقتَ وقوعِها إنَّها: «يومَ طَلَبَ العربُ الثأرَ من العَجم وظَفَروا بِه»[88]. «اليوم انتصف العرب من العجم ونصروا» [حسب الرواية التي ترجمتُها]. لا يُعرَفُ فيما إذا كان ذلك الوَصفُ رؤيةَ بَصيرَةٍ أم نَظرَةً تاريخية، ولكن لا شك بأن العرب كانوا على وشك الظفر بانتصارات أكبر بكثير، وليس على الفرس فقط.

بالعودة إلى القَرن الذي سَبَقَ الإسلام، يبدو أن الضغط كان يتراكم من كل تلك الهجرات والغارات وأيام المعارك، وكان لا بد لهذه الطاقات من الانطلاق وإلا سبَّبَتْ انفجاراً داخلياً. والانطلاق سيأتي، وسيتم توجيه تلك الطاقات. اقتَرَبَ جَمعُ كلمة العرب وإرادتهم، وسيَتَّفِقون مَرحلياً على حُلم واحِد، وعلى العمل معاً في سبيل تحقيقه. سيَمدَحُ الشاعر حسان بن ثابتٍ سَيداً جديداً، لن يكون مَلِكاً، بل رَجُل مَغمور مِن مكة، ولكنه صاحب رؤية ثاقبة، ومؤسِّس غير مُتوقَّع لإمبراطورية ستَجمَعُ خلال جيلٍ واحِد بَعدَ وفاته أولئك اليمنيين الفخورين المُهاجرين في الشمال الغَسَّاني مع أبناء عمومتهم البعيدين في الجنوب الذي احتَلَّه الفرس ومَن بقي من خصومهم اللّخميين في الحِيرة وجميع ما بينهما من القبائل المُتشاحِنة باستمرار. ستَجتَمع في محمد كلُّ شعارات وخطابات كاهِنِ القبيلة وخطيبها وشاعرها وسَيِّدها بأصالةٍ جديدة وجاذبية استثنائية. ستتصاعَد الأدوار الخطابية إلى ما هو أكثر من مجموع أجزائها وستَصِلُ إلى النبوة.

النبي هو شخصٌ «يتحدث» باسم الإله المقدَّس. وفي حالة محمد سيكون الإله المقدَّس ممثِّلاً للإرادة الجماعية لجميع أتباعِهِ ومَرشِدهم ودَليلهم، مثلما كانت حالةُ شعوب الجنوب القدماء. والفرق هو أن هذا الإله لن يَقبَل بأي شَريك ولا مُنافِس، وسيكون توحيدُهُ عقيدةً لا هوادةَ فيها، وسيَفرضُ توحيداً آخَر لفترة قصيرة مُذهِلَة، ليس فقط في توحيد اللغة والثقافة، بل وفي توحيد العقيدة والسلاح. ولن ينطَبق ذلك على مجتمع

---

(88) [إحدى روايات الحديث: «يوم ذي قار أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم»]. انظر: شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ١٣٦.

الاستقرار فحسب، بل سيشمَل جميع الناس من الحَضَر والبدو في شبه الجزيرة، وسيُطلِقُهم من «جزيرتهم» مَوصوفين جميعاً بصِفَة العروبة. لم تَنتَهِ «أيامُ العرب»، بل ستعود هذه الأيام متزاحمة ومتسارعة، إلا أن العرب كانوا على مَوعدٍ مع يومهم في تاريخِ عالَمٍ أوسَع.

الثورة

٦٠٠ ـ ٦٣٠

الفصل الخامس

الوحي والثورة
محمد والقرآن

الحَجَر الأسود

تَروي قصة إعادة بناء كعبة مكة سنة ٦٠٨ بعد أن خَرَّبَها سيلٌ:

«ولما بَنَتْ قريش الكَعبة ورَفَعتْ سَمكَها وتأتَّى لها ما أرادَتْ في بُنيانها... وانتَهوا إلى موضع الحَجر الأسود... وتنازعوا أيهم يَضَعه، فاتفقوا أن يَرضوا بأول مَن يَطلع عليهم من باب بني شَيبة. فكان أول مَن ظَهر لأبصارهم النبيّ ﷺ من ذلك الباب، وكانوا يَعرفونَه بالأمين لوَقاره وهَديه وصِدق اللهجة واجتِنابه القاذورات والأدناس، فحكَّموه فيما تنازعوا فيه، وانقادوا إلى قَضائه، فبَسَط ما كان عليه من رِداء، وأخَذَ عليه الصلاة والسلام الحَجَر ووضَعَه في وسَطِه، ثم قال لأربعةِ رجالٍ من قريش من أهلِ الرِّياسَة فيهم... ليأخُذ كل واحد منهم بجَنبٍ من جَنبات هذا الرداء، فشَالوهُ حتى ارتفع عن الأرض، وأدنوهُ مِن موضِعه، فأخَذَ عليه الصلاة والسلام الحَجَر ووضَعَهُ في مكانه وقريش كلها حُضور، وكان ذلك أول ما ظَهَر من فِعلِه وفَضائله وأحكامِه»[1].

مازال الحَجَر الأسود مَوضِعاً مهمّاً في المَزار المقدس في الإسلام، ويُحاول بحَماسٍ كلّ حاجٍّ إلى مكة أن يُقَبِّلَهُ. إلا أن الأسباب الحقيقية لذلك غير معروفة. بعد نحو ثلاثين سنة من إعادة وَضعِ محمد للحَجَر في موضِعه

---

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

قالَ ثاني خلفائه عمر: «أنا أعلَمُ أن الحَجَر لا يَنفع ولا يَضرّ». فلماذا هو وغيره من الأتقياء يُقَبّلون الحَجَر؟ قال الخليفة إنّ ذلك كان من عادات النبي(٢)، ويُعتَبرُ كلُّ ما فَعَلَهُ محمد مِنَ السُّنة، وهذا سببٌ كافٍ لكي يتَّبِعَهُ المسلمون. إلا أنَّ هذا الحَجَر له قصةٌ أيضاً تَرجِع إلى زمن بعيد قبل السَّنَة الإسلامية الأولى التي يبدأ بها العَصر الإسلامي، وتَنتَهي بها ـ حَسبما يُفتَرَض ـ كلُّ العصور السابقة.

عندما أُعيدَ بِناءُ الكَعبة للمرة الأخيرة قَبل الإسلام، احتَوتْ عدداً من الأوثان التي تُجسِّد آلهةَ قبائلِ عربية مختلفة. لا نَعرفُ إذا كان هناك رَمزٌ مادي لإله قريش الأعظم، الله، أم لا. إذا لم يكن له رَمزٌ على الإطلاق فذلك أمرٌ استثنائي؛ وعلى العكس، لو كان له رمزٌ من أي نوع فمن الطبيعي أن تُغطَّى هذه الحقيقة في عصر الإسلام، لأن الكعبة، كما تُعتَبَر في الإسلام، هي أقدَم بَيتٍ أقيمَ للتوحيد الصَّارم الذي لا يَسمَحُ بأي تَجسيدٍ أو تَصوير لله، ويَرجع تأريخُه إلى زمن إبراهيم، أو ربما من عَهدِ آدم في بعض الروايات؛ بل ربما قَبلَ خَلقِ الإنسان عندما كانت الملائكة تتجمع للعبادة في هذا المكان.

من المَعقول افتراض وجود رابِط بين الله والحَجَر الأسود، ولو كان ذلك احتمالاً بعيداً. ربما يؤيدُ ذلك الكلمةَ غير العادية التي استُخدِمتْ في وَصف فِعل محمد عند تقبيل الحجر وهي كلمة «استَلَمَ» الموجودة في نقوشٍ عربية جنوبية قديمة بمَعنى «استَأمَنَ إلى الإله المقدَّس»(٣). يُعرَفُ أيضاً ارتباط إله اليهود المقدَّس المماثِل بحِجارةٍ مقدَّسة، كالحَجَر الأسود غير مَنحوتة، مثل تلك الموجودة في بَيتِ إيل في سِفرِ التَّكوين(٤) (بيت إيل هو نفسه «بيت الله» وهو الاسم الرسمي للكعبة). من المعروف أيضاً أنّ العرب قد استَخدَموا حجارةً غير مَنحوتَة لتُجَسِّدَ المَعبودات. يقولُ المؤرخ القديم ابن الكلبي في كتابه «**كتاب الأصنام**» إنهم عندما يتوقَّفون خلال ترحالِهم يَنتَقون

(٢) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 4, p. 320.

(٣) Alfred F. L. Beeston [et al.], eds., *Sabaic Dictionary* (Beirut; Louvain-la-Neuve: Peeters, 1982), s.v. S1LM.

(٤) **الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٢٨، الآيات ١١ ـ ١٩.

أربَعة حِجارة ويَستخدِمون ثلاثةً منها في تدعيم وعاءِ طَبخِهِم، والرابع لتَجسيدِ إلَهِهِم. يُقدِّمون الأضاحي لهذه الآلهة المُكتَشَفَة، ويَطوفون حولَها مثلما يَفعلون حَولَ الكعبة[٥]. أعظَمُ قَسَم يكون على حِجارةٍ مقدَّسَة[٦]، وبنظرَة أخرى نادِرةٍ إلى الحَجَر الأسود قَبلَ الإسلام، تم عَقدُ حِلفٍ بين عَشائر قريش بغَسلِ الحَجَر وشُربِ ماءِ غَسلِهِ وتقديم النُّذُر[٧].

هناك روايتَان أقلَّ إقناعاً: الأولى: عن استِلام إسماعيل بن إبراهيم الحَجَرَ الأسود من الملاك جبرائيل أثناء بِناء الكَعبة[٨] (لا يُستبعَدُ مَصدرٌ «سماويّ»، فربما كان الحَجَر نَيزكاً على الرغم من أنَّ هذا لم يُثبَت أبداً)، والثانية: أنه كان في الأصل أبيضَ اللون ثم اسوَدَّ بخَطايا «عَصرِ الجاهلية»[٩] قَبل الإسلام. ومهما كان مَعناه المَفقود قَبل الإسلام، فقد اكتَسبَ الحَجَر الأسود[١٠] مكانَةً رمزية كبيرة في تاريخ العرب منذ العمل العَلَني الأول الذي قام به محمد قَبل سنتَين من بدء دَعوته. إنه حَجَرُ الأساس لأمرٍ جديد تماماً، ولكن مادَّتَه تأتي من ماضٍ قديم. بَعدَ ذلك بأكثر من عشرين عاماً، عندما رَجعَ محمد من قاعدةِ قوَّتِهِ الجديدة في المدينة، كان أول ما فَعَلَه بعد فَتح مكة الوثنية هو تقبيل الحَجَر الأسود، ورسَّختْ تلك القُبلة مصالحَته مع مَسقطِ رأسِه وتقاليده العربية. وعندما حَطَّمَ أوثان الكَعبة، كان الحَجَر نقطةَ الاستمرار التي سمَحتْ لِماضٍ أكثره وَثَنيّ بالاتصال بالمستقبل التوحيدي، وأصبح مَوضعه المُعتاد في الزاوية الشرقية من المَزار نقطةَ تَحوّل. والأكثر

(٥) [نص ابن الكلبي: «فكان الرجل، إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجارٍ فنظر إلى حَسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره؛ وإذا ارتحل تركه. فإذا نزل منزلاً آخر، فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها: يحجونها ويعتمرون إليها. وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها»]. انظر: Hishām bin Muḥammad ibn al-Kalbī, *The Book of Idols*, translated by Nabih Amin Faris (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1952), pp. 28-29.

(٦) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ص ١٥.

(٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p. 389.

(٨) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), p. 100.

(٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 321.

(١٠) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٤٩.

أهمية من ذلك، بفضل حِكمة محمد وقيادته في تلك المناسبة المبكرة، لم يَعُد الحَجر الأسود مَصدَراً للخِلاف والتَّمزق وحَجَر عثرَة، بل جَمَعَ بينَ العشائر المتخاصِمة لكي تَحمِلهُ معاً، ليسَ مُلكاً لأيّة واحِدة منها، بل مُلكَها جميعاً، وليس كنقطةِ تنافُس وخِلاف، بل كنقطة تجمُّعٍ وتَوافُق. جَمَعَ محمدٌ كلمةَ الأمّة وإرادَتَها.

قَلَّ مَن يَعرف أهمّيَتَهُ من ملايين الحَجيج الذين يَتزاحَمون لتَقبيل الحَجر الأسود هذه الأيام تقليداً لسُنَّةِ محمد، ومع ذلك فإن تلك الأهمية تَزدادُ قليلاً قليلاً مع لَمسِ كل قُبلة.

أمُّ القُرى

يَعتَمدُ مَوقِعُ مكَّةَ على الماء مثل جميع مَراكز الاستقرار في شبه الجزيرة العربية. لم يتوفر الماء في مكة بفضل أي تَعاون بَشَري مثلما كان الأمر في الجنوب، بل بفَضلِ الطبيعة، أو بفَضلِ الله حَسبَ رواية العَصر الإسلامي عن هاجَر وإسماعيل. تقول الرواية إن إبراهيم أخذ إسماعيل الصغير إلى مكة حيث تَركَه مع أمّه الجارية هاجَر (أثارت ولادة هاجَر الناجحة غَيرة سَارة زوجة إبراهيم الحُرَّة التي لم تَنجَح في الحَمل حتى ذلك الوقت). عَطِشَ إسماعيل الصغير كثيراً في مكة، وبحثت أمّه عن الماء عَبثاً حتى تفجَّر ماءُ زمزم بمعجزة سماوية مقدَّسة. تزوج إسماعيل فيما بَعد من امرأة من قبيلة جُرهُم التي كانت تسيطر على مكة، وفي روايةٍ أخرى، فإن هاجَر قد سَمَحتْ لقبيلة جُرهُم القادمة في الأصل من جنوب شبه الجزيرة العربية بالاستقرار حول بِئر زَمزم عندما دَمَّرَ القَحطُ والجَفاف موطِنهم الجنوبي. في جميع هذه الروايات، كان إسماعيل يتحدَّثُ اللغةَ «السريانية» أو لِسَاناً سَامِيّاً آخر، وتعلَّم العربية إما من جُرهُم، أو بِوَحيٍّ سَماوي مقدَّس[11]. على الرغم من اضطراب الروايات، إلا أنها قد تعطي إيحاءات عن تاريخ مكة وعلاقاتها بجنوب شبه الجزيرة العربية، والهجرات التي نَتجَتْ عن تَغيّر المناخ، وتَثاقُف اللغة العربية. أما ماء زَمزم فمازال يُعتَبر بئراً مقدَّساً حتى الآن، وربما كان مقدَّساً في العصور المبكرة، إذ يُروى عن عبد المطلب جَدّ محمد أنه وَجَدَ

(١١) لكل هذه القصص، انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٤٦ ـ ٤٩.

تِمثالَين لِغَزالَتَين من الذهب فيها عندما أعاد حَفر البئر(١٢). ربما كانا كَنزاً تمَّ إخفاؤه بسرعة، أو قُرباناً قُدِّمَ للبئر.

لدى دراسة تاريخ مكة الأقل غموضاً وإعجازاً، فمن الواضح أن هذه «القرية» ـ أي المركز التجاري طريق القوافل ـ قد وَرِثَت البَتراء وتَدمُر وقَريبَتها قرية ذات كهل التي كانت تابِعةً لقَبيلة كِندَة. كانت تقعُ على طريق التجارة الشمالي ـ الجنوبي القديم في موضِع جغرافي متوسِّط بين الهلالَين الخَصيبَين. كما احتلّتْ موقِعاً ثقافياً متوسِّطاً بين غرب شبه الجزيرة العربية الأكثر استقراراً، وشرقِها الأكثر بَداوة، متوسِّطَةً بين الحَضَر والبَدو. ربما كان دَورها المقدَّس قديماً، ففي خريطة بطليموس في القَرن الثاني لشبه الجزيرة العربية يظهَر اسم «مكورابا Macoraba» في مَوقع مكة تقريباً(١٣). وربما تمثل الكلمة السَّبئية «مَكرب» التي لا تُعرَفُ أحرُفُها الصوتية، ولكن يبدو أنها تَعني «مَعبَد»(١٤). وربما اشتُقَّتْ من كلمة «مَغرَبة» وهي مفردة تستخدم في الجنوب العربي تُشير إلى مَوضِع بين التلال مثل مكة(١٥). ولكن كل ما يمكن أن يقال بالتأكيد، سواء اعتَبرنا تاريخ مكة المقدّس بدءاً من إسماعيل أو آدم أو حتى الملائكة قَبل آدم، فمن الواضح أنها كانت مركزاً تعبدياً قَبل عدة قرون على الأقل من عَصر محمد.

يبدو أن مكة قد عاشَتْ حياةً تجارية استمرتْ عبر فتراتٍ مختلفة من «حِمايات» قبائل متتالية مثل بقية القرى فترةَ قرونٍ قَبل الإسلام. في التاريخ التقليدي، اقتَتَلَتْ جُرهُم وقبائل أخرى للسيطرة(١٦)، ودَبَّ صِراعٌ في القرية بين قبيلَتَي مُضَر وإياد(١٧) ربما في بداية القَرن الثالث. دخلَ الحَجَر الأسود مَسرح الأحداث في ذلك الوقت مهما كانت أهميته آنذاك، وكان مقدَّساً لدرجةِ إخفائِهِ حمايةً له، ويبدو أن مكان إخفائه قد نُسِيَ. تَظهَرُ قبيلةٌ أخرى

---

(١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٧.

(١٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 103.

(١٤) Beeston [et al.], eds., *Sabaic Dictionary*, s.v. KRB.

(١٥) انظر على سبيل المثال: Moshe Piamenta, *Dictionary of Post-Classical Yemeni Arabic* (Leiden: Brill, 1990), s.v. ghrb.

(١٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٤٩ ـ ٥١.

(١٧) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Iyād.

هي خُزاعَة التي وَجَدَت الحَجَر مُصادَفة... وقالوا إنهم سيكونون مَسرورين بإعادة الرَّمز المَفقود بشرط أن يُصبِحوا حُراسَه. ويبدو أن حِراسَته كانت أمراً يتعلق باكتساب المال أكثر منه بالتَّعبير عن الإخلاص. وعلى كل حال، فقد كانت خُزاعَة في الرواية التوحيدية التالية هي التي صَنعتْ تعددية أوثانِ مكة بإدخال الوثَنية إلى ما كان بيتُ الإله الواحِد[١٨]. كان زعيمهم عمرو بن لُحَيّ بشكل خاص هو الذي جَلَبَ صَنَمَ هُبَل[١٩] (الذي يَعني بالآرامية «الروح») من سورية[٢٠]. ظلَّتْ خُزاعَة مسؤولة حتى القَرن الخامس عندما بدأ عَصر جديد في مكة لم يَنتَهِ حتى الآن.

بدأ هذا العَهد بوصول رجُلٍ عربيٍ إلى مكة اسمُهُ قُصَيّ. أصولُه مَجهولة، إلا أن الذين ادَّعوا أنهم مِن صُلبِه ظَلّوا في بُؤرَةِ الأحدَاث منذ ذلك الحِين، فالقبيلةُ التي تُسمَّى «قريش»، نسبةً إلى الاسم المُفتَرَض لِسَلَفِ قُصَيّ نفسه، هي أنجَحُ سلالة في تاريخ العرب، وربما في تاريخ البَشَر كله. لا يَستطيع أحَدٌ أن يتأكد من ذلك الاسم السابق، لأنّ عِلم الأنساب في الغالب كما رأينا هو «أمرٌ متخَيَّلٌ وغير حقيقي تَنحَصرُ فائدَتُهُ في العلاقات التي تَليه»[٢١] [غير حرفي]. ويبدو أن ذلك صحيح أيضاً في حالة نَسَب قُصَيّ. يُلَقَّبُ قُصَيّ أحياناً بأنه «المُجَمِّع»، ويُقالُ غالباً كما رأينا أنَّ كلمة «قريش» اشتُقَّتْ من الفِعل «تَقَرَّشَ» الذي يَعني «جَمَعَ الناس»[٢٢]. يُشير كل ذلك إلى أن قريشاً ربما كانت جماعة من أصول مختلطة. اشتَقَّ آخرون الاسم من «قَرْش» بمَعنَى «كَسب المَال»[٢٣]، وهو نَشاطٌ بَرَعَتْ فيه قريش. يُرجِعه آخرون إلى الاشتقاق اللفظِي من الاسم العام «قُرَيش»، وهو تَصغيرٌ لاسم «القِرش». تُنسَبُ هذه الأبيات إلى شاعر حِميَري قَبل الإسلام، هو المُشَمرِج بن عمرو[*]:

---

(١٨) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٦، وشمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٢٨٦.

(١٩) Hitti, *History of the Arabs*, p. 100.

(٢٠) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٨.

(٢١) ابن خلدون، مقتبس في ص ٦٨ ـ ٦٩ من هذا الكتاب.

(٢٢) قارن: ص ٨٧ ـ ٨٨ من هذا الكتاب.

(٢٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ١٣٥.

(*) [ينسب كثيرون هذه الأبيات إلى عمرو بن المُشَمرِج. وينسبها ابن عساكر وغيره إلى أبي أمية الجمحي، وهو جاهلي أيضاً] (المترجم).

وقريشٌ هي التي تَسكُنُ البَحرَ ... بـهـا سُـمَـيَّـتْ قـريـشٌ قـريـشـا
تأكلُ الغَثَّ والسَّمينَ ولا تترك ... يـومـاً لـذي الـجَـنـاحَـيـن ريـشَـا
هـكـذا فـي الـعِـبـادِ حَـيُّ قـريـشٍ ... يـأكـلـونَ الـبـلادَ أكـلاً كَـشـيـشـا
ولَـهُـم فـي آخِـرِ الـزَّمـان نَـبـيٌّ ... يُـكـثِـرُ القَـتـلَ فـيـهـم والـخُـموشا
تَـمـلأ الأرضَ خَـيـلُـهُ ورجـالٌ ... يَحشرونَ المطِيّ حَشراً كَميشا

مهما تكن حقيقة التشبيهات[٢٤]، فإن القصيدةَ غريبةٌ جداً لدَرجة يَصعُبُ تَصديقُها.

أياً كان قُصَيّ، فقد استطاع أن يُسيطِر على مَزار مكة، والرواية التقليدية عن الطريقة التي توصَّل بها إلى ذلك غير متوقَّعَة ويَصعبُ تَصديقها مثل الأبيات السابقة. كان الوصِيّ الخُزاعِي آنذاك بائساً، وقد أقنَعَهُ قُصَيّ ببساطة بالتَّخلي عن مفاتيح الكعبة مقابل ناقَة وقُربَة من الخَمر[٢٥]. سواء كانت علاقة قريش الطويلة التي مازالت مستمرة بمَزار مكة قد حدثَتْ فِعلاً بمِثل هذه البدايات السخيفة أم لا، فحسب السَّرد التقليدي، ترسَّخ بَعدَها وَضعُ قريش كأوصياء على الكعبة وزعامة مكة باتفاقات عُقِدَتْ مع القوات العربية الثلاث في شبه الجزيرة: الغَساسنة واللَّخميين والحِميَريين[٢٦]. وإذا كان هذا صحيحاً، فإنه سيَضَع أصول الدولة الإسلامية في تلك الشبكة القديمة من العلاقات العربية مع القوى الأجنبية البيزنطيين سادَة الغَساسنة، والفرس سادَة اللَّخميين.

من المؤكد أن مصير القوى المجاورة سيكون له تأثير مباشر على مصير قريش التي سرعان ما أضافَت التجارة إلى إدارة المَزار في سِجِلِّ نشاطاتها، لأن طُرُقَ الحجّ هي طُرق تجارةٍ سريعةٍ جاهزة. أما كَفيلهم الثالث، الحِميَريون، فقد كانوا قوةً عظمى بحَدِّ ذاتِها، ولكنهم كانوا في حالة ضَعف وانحِدار في أواخر القَرن الخامس. وكان ضَعف الإمبراطورية الجنوبية في

---

(٢٤) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٢٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٥٨.
(٢٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٩ ـ ٦٠.

صالح قريش، لأن القادِمين الجُدد استطاعوا فَرضَ سَيطَرتهم على طُرق التجارة العربية العامة في شبه الجزيرة[٢٧]. مع نهاية القَرن التالي، استفادَتْ تجارةُ قريش كذلك من الصراع البيزنطي ـ الفارسي آنذاك، والذي سبَّبَ انتقالاً في السَّير من الطرق الشرقية في شبه الجزيرة إلى الطرق الغربية التي كانت تُسيطِر عليها مكة[٢٨]. انشغَلَ القرشيون بتطوير شبكةِ تحالفات مع القبائل البدوية بالمال والإقناع لكي تَحمي قوافل مكة، وتُبعِد أو تَغزو المُتَدَخِّلين. ازدَهَرت الشبكة حتى غَطَّتْ معظم أرجاء شبه الجزيرة[٢٩]، ومع نهاية القَرن السادس، مَنَحَ تَطَور تقنيات الكتابة الجديدة بين أهل مكة قُدراتٍ أفضَل في ضَبط الحسابات التي كانت حيوية في متابعة المشاريع التجارية على نطاق واسع[٣٠]. كما بدأتْ في ذلك القَرن ممارَسَةٌ ستكون حاسِمةً في التَّوسُّع التجاري، وهي المُضارَبَة عن طريق جَمع رأسِ المال للاستثمار في قوافل تجارية أكبَر وأبعَد[٣١]. جَعَلتْ جميع هذه التطورات من مكة مَركَزَ التجارة الرئيسي في شبه القارة العربية. وكما سيَكتَشف الهولنديون والبريطانيون والفرنسيون مع شركاتهم منطقة المحيط الهندي بعد ألف سنة، ومع أساطِيلهم البعيدة المَدى، فإن التحالفات التجارية الواسعة ستَزرَع بُذورَ السيطرة الإمبريالية.

كانت أهم قوافل مكة هي تلك التي كانت تسير في «رحلة الشتاء والصيف»[٣٢] التي ذُكرتْ في القرآن. اتجَهتْ قوافلُ الشتاء جنوباً إلى ميناء عَدَن القديم، واتجَهتْ قوافل الصيف شمالاً إلى الهلال الخصيب، وكان ميناؤها الرئيسي في غزة، وبهذا وصَلَت القوافل دوائر التجارة من المحيط الهندي إلى البحر الأبيض المتوسط. أَحيَتْ هذه القوافل أنماطاً تجاريةً

(٢٧) Mahmood Ibrahim, "Social and Economic Conditions in Pre-Islamic Mecca," *International Journal of Middle East Studies*, vol. 14, no. 3 (August 1982), p. 344.

(٢٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 789, and Bernard Lewis, *The Arabs in History*, 6th ed. (Oxford: Oxford University Press, 1993), pp. 29-30.

(٢٩) Robert B. Serjeant, *South Arabian Hunt* (London: Luzac, 1976), p. 62.

(٣٠) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٣١) Ibrahim, "Social and Economic Conditions in Pre-Islamic Mecca," p. 344.

(٣٢) **القرآن الكريم**، «سورة قريش،» الآية ٢.

قديمة، فمنذ نحو ألف سنة قَبلَ ذلك، كان التجار من الدولة المَعينية العربية الجنوبية ينتَقلون شمالاً وجنوباً، وتَمتَّعوا بعلاقات وثيقة خاصة مع غزة(٣٣). إلا أن المَكيين رَسَّخوا أكثر البُعد الآخر من ذلك النَّمَط، إذ كانت جاذبيتهم الخاصة هي كَونهم مكان الحَج في شبه الجزيرة. دَعَّمت التجارة والحجّ بعضهما بعضاً، فمثلاً اعتادَ العباسُ عمُّ النبي محمد شراء العطور من اليمن وبَيعها في مكة أثناء الحجّ(٣٤). وبالدرجة نفسها من الأهمية، فقد شكَّلَت تجارةُ مكة العالمية أنماطَ توسعِهم الإمبريالي القادم. ولم تكن مصادفةً أن عمرو بن العاص الذي فتَحَ مصر وحكَمَها، كان يُتاجِر قَبل ذلك مع غزة، وهي البوابة نحو أرض النيل الغنية(٣٥). ولم يكن مُستغرَباً أن أول حاكِم في أول سلالة في الإسلام، وهي الدولة الأموية، قد نقَلَ العاصمة من المدينة إلى دمشق، وأن والده الغَني أبا سفيان كان قد استَثمَر بأرضٍ في سَهل البقاع الخصب القريب من دمشق، والذي يقع الآن في لبنان(٣٦).

استَثمَر أهلُ مكة في التجارة وفي الآلهة بفضل التجارة الخارجية والكعبة التي كانت مركز حجّ وثَني عامّ في قريتهم. كما استَثمَروا في الكلمات. ربما كانت اللهجة اليومية القديمة في قريش بعيدة عن العربية الفصحى(٣٧) في أواخر القَرن السادس، وربما كان فيها بعض نقاط التشابه مع الألسِنة الجنوبية(٣٨)، ولكن مع زيادة علاقاتهم الدولية، أصبح لِسان قريش أقرَب ما يكون إلى اللغة العربية المُشترَكة في السَّفر والتجارة، وأصبح أكثر غِنى وتطوراً. قِيلَ إن قريشاً «اختارت من الكلام والشِّعر (لوفود الحجّاج وغيرهم) أفضل اللغات المَحَلية وأصفَى اللهجات التي أُضيفَتْ إلى قدراتهم اللغوية الذاتية»(٣٩) [غير حرفي]. ربما يجعل هذا تلك العملية أكثر وعياً مما

(٣٣) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), p. 39.

(٣٤) Michael Lecker, "Kinda on the Eve of Islam and during the "Ridda"," *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 4, no. 3 (1994), p. 349.

(٣٥) Hugh Kennedy, *The Great Arab Conquests* (London: Orion Publishing, 2008ş, p. 73.

(٣٦) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٣١.

(٣٧) Charles Ferguson, "Review of "The Arabic Language: Its Role in History" by Anwar G. Chejne," *American Anthropologist*, vol. 75, no. 2 (April 1973).

(٣٨) Chaim Rabin, *Ancient West-Arabian* (London: Taylor's Foreign Press, 1951), chap. 1

(٣٩) ابن فارس، ورد في: السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ١٦٦.

هي عليه في الواقع، فهي أقرَب لكونها الطريقة المُتَعَمَّدَة التي سيَتِمُّ بها توحيد اللغةِ العربية في القرون التالية. ولا يوجَد شك بأنه عندما ظَهرَت الحاجة إلى اللغة الفصحى في كلمات رسمية عامة، كان لدى بعض أهل مكة بلاغة مميَّزة، وكما قال شاعرٌ زائر في تشبيه كلامَهم بـ«مطر الوَبْل على المَحْل»(٤٠).

مع ازدهار وتطور تجارة مكة ولُغتِها ازداد عدد سكانها. إذا كان صحيحاً أن عددهم بلَغ ١٥٠٠٠ ـ ٢٠٠٠٠ في بداية القَرن السابع(٤١)، فمن المؤكد أنها ستكون قد استَحقَّتْ وَصفَها في القرآن بأنها «أمّ القرى»(٤٢) استِناداً إلى حَجمها فقط. ولكن في ذلك الوقت، كانت مكة تُدَبِّرُ أمرَ سيادَتها كمَركَز عِبادة إضافة إلى كَونِها مَركَز تجارة. كانت المدينة الصغيرة مريحَة مزدَهرة ومُعجَبة بنفسِها، إلا أنها كانت ذاتها شبه جزيرة، ومُلحَقاً طَرفياً على الأحداث. لم يُدرِك أحدٌ أنها ستتَحول من بلدَةِ سوقٍ مَحَليّ إلى بؤرة زلزال، سيُرسِل موجات صادمة حول الكرة الأرضية.

سُرَّةُ الأرض

في زمن ولادة محمد، كانت قُدسِية مكة قد ارتفَعتْ بالطريقة المُعجِزة التي يبدو أنها صَدَّتْ فيها هجوم الأحباش بأسرابٍ من الطير الأبابيل في يوم الفيل(٤٣)، وارتفَعتْ مَكانَة القرية كَمركَزٍ للحَجّ. هناك إيماءات بأن جَبَلَ عَرفات، وهو موقِع ذُروَة طُقوس النسخة الإسلامية من الحجّ، كان الموقع الرئيسي قَبل الإسلام، وكانت الكعبةُ ذاتها نوعاً من العَرضِ المَحَلي الجانبي(٤٤). يَصِلُ الحُجّاج إلى عَرفات في مجموعات قَبَلية وهم يردّدون ترنيمات طقوسية خاصة بكل قبيلة، ويقلِّدون صَيحات حيوان القبيلة(٤٥)

(٤٠) Geert Jan van Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology* (New York; London: New York University Press, 2013), p. 199.

(٤١) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 21.

(٤٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ٩٢.

(٤٣) انظر: ص ١٥٨ من هذا الكتاب.

(٤٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, pp. 31-32.

(٤٥) Ibid., vol. 9, p. 424, and Ibn al-Kalbi, *The Book of Idols*, pp. 4-6.

الوَثني الخاص بها. أحَدُ التفسيرات لنُدرة المعلومات عن ذلك هو أنّ المَواقع حول الكعبة كانت مَركزاً لحَجٍّ «حَضَري» للسكان الحَضَر بشكل رئيسي، بينما رَكّزَ حَجٌّ بَدَويّ منفَصِل على المنطقة المحيطة بجبل عَرفات[٤٦]. سيوحِّدُ الإسلام طقوس الحَضَر والبدو في حَجٍّ واحد.

من المستحيل معرفة ما كان يدور في رؤوس القَبَلِيين العرب قَبل الإسلام، ومِن المحتمل أن الحَدَّ الفاصِلَ في أذهانِهم بين الروحي والتجاري كان مُختَرَقاً، مثلما هو الحَدُّ الفاصِلُ مُختَرَقٌ دائماً بين الروحيّ والسياسي. بالنسبة إلى مجتمع بَدَويّ يكون فيه الغَزو والإغارة هما النشاطين الاقتصاديين الرئيسيين، فإن الجاذبية الروحية لمكة ربما كانت تختلف قليلاً عن جاذبية التَّسوق واللَّهو في الأسواق الملحَقَة مثل سُوقِ عُكاظ. كان السَّلام أيضاً عُنصُرَ جَذبٍ آخر، إذ كان موسم الحجّ في وسط فترة الهدنة السنوية التي كانت تمتد ثلاثة أشهر حَلَّتْ فيها التجارة مَحَلَّ الغَزو والإغارة[٤٧]، يَستريحُ خلالها المقاتِلون ويَستمِعون إلى مبارزات الشعراء وكلمات الخطباء على ظهور الجِمال. تقاطَعَت الدوائرُ الثلاث السياسية والتجارية والروحية، وكان في مَركَزها حَرَمُ مَكّة.

المَركز الحالي في تلك المَحمية هو الكَعبة التي تبدو خالِدةً وأصيلة. أطلَقَ عليها جغرافيّ عربي لَقَبَ «سُرَّة الأرض»[٤٨]، وقد استَخدَم الإغريقيون اللقب نفسه في وَصفِ مركز حَجِّهِم في دِلفي (حيث قاموا بتمثيل «السُّرّة» ذاتِها في حَجَرٍ مقدَّس[٤٩]، ربما ليس بالمصَادَفَة). شَبَّهَ آخرون مَكةَ بالرَّحِم التي تتوسَّع لتَحضُن أعداداً متزايدة من الحَجيج[٥٠]. يبدو وكأنما الكعبة قد حَلَّتْ وليس بُنِيَتْ، مثل الكائنات الغريبة السوداء المتماثلة التي تطارِد تاريخَ الإنسانية في فيلم «٢٠٠١: أوديسة فضائية». إلا أن الكعبة خَضَعَتْ للتغيير

(٤٦) Ibn al-Kalbī, *The Book of Idols*, vol. 11, p. 441.

(٤٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, pp. 31-32.

(٤٨) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ٧ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠)، كلمة الكعبة.

(٤٩) Simon Hornblower and Antony Spawforth, eds., *The Oxford Classical Dictionary*, 3rd ed. (Oxford: Oxford University Press, 2003), s.v. omphalos.

(٥٠) انظر على سبيل المثال: محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير** (بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١)، ص ١٤٨.

والتَّهالك وإعادة البناء لا أقلّ من أيّ صَرح آخَر. كما ضَمَّتْ محتوياتٍ متَغيرة، فالصَّنَمُ هُبَل يبدو أنه جُلِبَ من سورية قبل القَرن الخامس، وكان يُسيطِر على عَرافَةٍ شعبية مُربِحَةٍ تُكَلِّفُ مئة دِرهَم أو ناقَة واحِدة. وكان يُكتَب على أسهُم «نعم» و«لا»، أو كلمات أخرى، وتُخلَط في جُعبَة مقدَّسة أمام وَثَن، وتُعطَى نَصيحةٌ للزُّوار بحسب السَّهم المَسحوب[٥١]. أضاف قُصَيّ، الأبُ القرشيّ المؤسِّس، إلى المُقيمين في المَزار ثلاثةً مِن أشهَر الآلهة المؤنَّثَة في شبه الجزيرة العربية، هي: اللات ومَناة والعُزَّى[٥٢]. ذُكِرَ هذا الثلاثي فيما بَعد في رواية «آيات شيطانية» السيئة السُّمعة. عندما حَلَّ زمن محمد، كان في الكعبة تَجَمُّعٌ قديمٌ للأوثان، وشَملَتْ عوامل الجَذب للكعبة زَوجاً من الأصنام هما: إساف ونائلة، ويُروى أنَّهما ارتكَبا الفاحِشَة في المَزار فمُسِخَا إلى حَجَرَين[٥٣]. أصبحت الكعبة آنذاك مَركز عَرضٍ لصُوَر أجدادِ قريش[٥٤]، بينما جَمَعتْ حَولَها مجالس عشائر قريش المختلفة، وبَيتَ الدّعوة الذي كان يَجمَع كل العَشائر[٥٥]. كما ضَمَّ المَزار صورةً لعيسى ومريم منذ أن أُعيدَ بِناؤها سنة ٦٠٨ وربما قَبلَ ذلك، وقد نَجَّى محمد تلك الصورة من التدمير الشامل لأوثان ما قَبل الإسلام[٥٦].

لم تكن الكعبة في مكة هي الكعبة الوحيدة، فقد كانت هنالك كعبة نَجران التي بُنِيَتْ تحت رعاية الإثيوبيين في ذكرى استشهاد الضحايا المسيحيين[٥٧] الذين قَتَلَهم المَلك اليهودي يوسف أسأر(*)، وكذلك كعبة سِنداد في جنوب العراق التي لا يُعرَف عنها الكثير[٥٨]. ولكن مع نهاية

---

(٥١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, pp. 263-264.

(٥٢) Ibid., vol. 5, p. 692

(٥٣) Ibn al-Kalbi, *The Book of Idols,ls*, p. 8.

(٥٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٢٧٨، وانظر: ص ١٧٥ ـ ١٧٦ من هذا الكتاب.

(٥٥) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٥٦) أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي، **كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات**، عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل ـ طومين (دمشق: المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ١٩٥٣)، ص ٨٥.

(٥٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 872.

(*) [يوسف بن شرحبيل أو ذو نُواس الحِميَري] (المترجم).

(٥٨) Ibn al-Kalbi, *The Book of Idols*, pp. 38-39.

القَرن السادس، أصبَحتْ كعبة مكة المَركز الكبير للعبادة والحجّ. وقد مَنَحَتْ شيئاً لكل فَرد في أيام الفرقة والتمزق، ومركزَ تقديسٍ وتجارة يُمَثِّلُ فيه هُبَل وبقية الأوثان نقطةَ الجَذبِ الرئيسية. كان هناك اعترافٌ عامٌّ بالله، ولكن يبدو أنه كان مَحدوداً ضمن عبادةِ النَّشيطِين. كان يُعتَبر بمثابة كبير آلهة قريش ويتمتع بدَور حافِظ أَبَويّ. رُويَ عن عبد المطلب جدّ محمد قوله: «نحن آل الله فيما قد مَضى»[٥٩]، ولكن كل ذلك كان على وشَكِ التغيير.

محمد

تتوسَّطُ حياة محمد منتَصفَ تاريخ العرب المَكتوب، ومثلما أن النصف الأول من ذلك التاريخ قَبلَ الإسلام غامضٌ ومُبهَم في الغالب، فكذلك الأمر في الجزء الأول من حياته. يُذكَر عادَةً أن ولادَة محمد كانت في سنة ٥٧٠، وذلك تَخمينٌ تَرقَّى إلى يَقينٍ كما رأينا، لأن تحديدها يَعتَمد على مشكلة تحديد سَنة يوم الفِيل التي لا يمكننا سوى تلمسها بالتقريب، وكذلك الحال مع تحديد تلك الرحلة إلى سورية التي قام بها في طفولته، والتي يُعتقد تقليدياً أنها حَدَثتْ سنة ٥٨٢. يصبح تحديد التواريخ أكثر صلابة في سنة ٦١٠ حين بدأ الوحي بالنزول على محمد. تتلاحق التواريخ بعد ذلك، إذ هاجَرَ بعض أتباعه إلى الحبشة ربما سنة ٦١٦، وربما حَدثتْ وفاةُ أولى زوجاته خديجة سنة ٦١٩. حدثتْ هجرةُ محمد من مكةَ إلى المدينة سنة ٦٢٢، وهي تاريخُ أول حَدَثٍ لا خِلافَ عليه في حياته، وتُعتَبر بدايةَ التقويم الإسلامي [الهجري]. التواريخ مؤكَّدَة ومَوثوقَة بَعدَ ذلك: معركة بَدر الحاسِمة ٦٢٤، حِصار المَدينة [غزوة الخندق] ٦٢٧، الهدنة مع الوثنيين المكيين [صلح الحديبية] ٦٢٨، استيلاء محمد على مكة [فَتحُ مكة] ٦٣٠، وفاته في سنة ٦٣٢.

أضافَت التقوى والقَداسة اللاحِقة كثيراً من الروايات على النصف الأول المَجهول من حياته، بل إنها تَنبأت بها قَبل أن تَبدأ؛ إذ فَسَّرَ الإسلام أن

---

(٥٩) [وَرَدَ ذلك في شِعرٍ يُنسَبُ إلى عبد المطلب في عام الفِيل:

نحنُ آلُ الله فيما قد مَضَى ... لم يَزل ذاكَ على عَهدِ ابْرَهَمْ]

(المترجم)

انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ١٢.

«المُعَزِّي» الذي بَشَّرَ عيسى بقدومه لمواساة العالَم[٦٠] إنما هو محمد[٦١] وليس الروح القُدُس. كما تم التَّنبؤ بالنبوّة، إذ يُعتَقد بأن محمداً قد ذهبَ في رحلة تجارة مع عمّه، والتَقيا بِراهِبٍ مسيحي عربيّ في جنوب سورية(*) توسَّم في الفَتى أمارات النبوة[٦٢]. وفي قصة أخرى رُوِيَتْ عن صَديقِهِ أبي بكر وذهابِهِ إلى اليمن حيث التَقى براهِبٍ أظهَر له صورةَ «محمد النبيّ». ارتَبكَ أبو بكر، ولكنه عادَ إلى مكة ليَجدَ أنَّ محمداً قد أعلَنَ نُبُوَّته بالفَعل[٦٣].

بالإضافة إلى هذه التداخلات مع الماضي الأوسَع لليهودية ـ المسيحية، هناك روايات أخرى تَربطُ محمداً بتقاليد عربية خاصة. تقول إحدى هذه الروايات إنه في منتصف القَرن السادس ذَكَرَ سَطيح، العَرَّافُ الذي ليس له عِظام[٦٤]، أنه استُشير بشأن حُلم رآه نَبيلٌ فارسيّ رأى فيه «إبلاً صعاباً تقود خيلاً أعراباً» عَبرَ نهر دجلة، وتَنتَشر في المَملكة السَّاسانية. وليس مُستغرَباً أن سَطيحاً تَنبَّأ بسقوط الإمبراطورية الفارسية بِيَدِ الغُزاة العرب وجَمعِهم القوي بين الجِمال والخيول، ولكنه تابَعَ بقولِه: «يرتفع أمر العرب، وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب»[٦٥].

تفسيراتُ الأناجيل والقرآن هي مسألةٌ إيمانية، وهي بذلك فوق الشك. ولكن يَحقّ للمَرء أن يشكَّ بالعَرّافين الذين ليس في أجسامهم عِظام، ولوحات الرَّهبَنة التَّخاطُرية. ويمتد ذلك إلى سَرديات قصة حياة محمد. حتى عندما لا تكون خيالية بوضوح، يجب أن تُقرأ بتحفظ، لأن جميعها تقريباً قد سُجِّلَتْ بعد القَرن الإسلامي [الهجري] الأول، كما أنها تَتعارَض في كثير من النقاط، والأوضَحُ من ذلك هو أنه «كلما كانت المَصادرُ متأخرةً، ازداد تأكيد مَعرفَتِهم بحياة النبي»[٦٦]. تحتاج قراءة الأحاديث أيضاً إلى الحَذَر. يَذكُر

---

(٦٠) **الكتاب المقدس**، «إنجيل يوحنا،» الأصحاح ١٤، الآية ١٦.

(٦١) **القرآن الكريم**، «سورة الصف،» الآية ٦.

(*) [هو الراهب بَحيرى] (المترجم).

(٦٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٧٥.

(٦٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٣٢.

(٦٤) انظر: ص ١٦١ ـ ١٦٢ من هذا الكتاب.

(٦٥) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨)، ص ٤٦٧ ـ ٤٧٨.

(٦٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 662.

رواةُ الأحاديث تَسجيلَ أقوالِ محمد وأفعَالِه، وأنهم قد جَمَعوا حوالي المليون من هذه «الأحاديث»، وهذا يَعني تَسجيل واحِدٍ منها في كل ثمانية دقائق من حياته كَنَبِيّ (باستثناء أوقات النوم). تُعتَبَرُ حوالي ٥٠٠٠ من هذا المليون أنها صَحيحة[٦٧]، أي أربعة أو خمسة في كل أسبوع من نُبُوَّتِهِ. يبدو هذا الرقم الأخير مَعقولاً أكثر، إلا أن تلك الكتلة الكبيرة من الأقوال والأفعال غير المَقبولة تَبلغ نِسبَتُها إلى الصحيحة ٢٠٠:١، ويُنذِرُ ذلك بأن التَّقوى والتَّقديس (أو الضرورة) قد تَصنَعُ الماضي.

كان محمد نفسه واعياً لذلك بشأن أسلافِه، إذ إنه أُلحِقَ بشَجرة عائلة الأنبياء في الكتاب المقدَّس من خلال إسماعيل، الطفل الذي لَجأ إلى مكة. وقد مَنَعَ محمد أي شخصٍ من محاولة تَتَبُّع نَسَبِهِ إلى أصلٍ أبعَدَ مِن مَعد[٦٨]، وهو الأصلُ المُفترَض للقبائل الشمالية، لأنه عَرفَ أن السِّجل لا يمكن الاعتماد عليه[٦٩]. وقد قال صَراحةً [ما مَعناه] «كذب النسَّابون»[٧٠]، ولكن تَرِدُ كلتا الروايتين في الأحاديث، فماذا تُصَدِّق؟

لدى دراسَة أسلافِه الأقرَبين، يتَّضِح أن محمداً كان يَتيماً، ومِن عَشيرة أفقَر من عَشائر قريش[٧١]، ويُروى في التقاليد القَبَلية أن اثنَين من أحفاد قُصَيّ، الأب المُؤسِّس لِقُرَيش، قد سَقَطا، ويُقال في إحدى الروايات إنّ هذَين الحفيدَين: هاشم وعَبد شَمس، قد ولِدا ملتَصِقَين وتم فَصلُهما عن بعضهما بالسيف[٧٢]. إذا لم يكن ذلك صحيحاً فله شيء من الصِّحة الرمزية، لأن خلافاتٍ سوف تُلَطِّخُ العلاقات بين نَسليهِما الهاشِمي والأموي (نِسبَةً إلى أميّة بن عَبد شَمس، لأن نسبة «الشمسيين» غير لائقة لسلالة قادمة من الخلفاء المسلمين بما في الاسم من إشارة إلى الوثنية). مازالت الدماء تسيل في هذه الأيام بسبب الجُرح المَفتوح بين السّنة والشيعة، وهو عاقبة متأخرة لذلك

(٦٧) رقم المليون منسوب لأحمد بن حنبل (ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٤٠). يقال إن البخاري جمع ٦٠٠٠٠٠ أكثر مصداقية (ابن خلكان، ج ٢، ص ٣٢٤). استبعد أبو داود نصف مليونه وأخرج ٤٨٠٠ حديث «صحيح» (ابن خلكان، ج ١، ص ٣٨٣).

(٦٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٦٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٤.

(٧٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٧١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, p. 146.

(٧٢) Ibid., vol. 10, p. 841.

الفَصل الدموي الأسطوري الأول. ازدَهر الاقتصادُ المكّي على مَدى الجيلَين التاليَين، ونجَحَ الأمويون أكثر من الهاشِميين في التّنافس الرأسمالي الحُر(٧٣)، والثروة تعني النفوذ والقوة، وخلال شباب الحَفيد محمد، كان الأمويون قد أخرَجوا الهاشميين عمَلياً من النُّخبَة الحاكِمة في قريش(٧٤).

ولِد محمد يتيماً بعد وفاة والِده عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ولكنه لم يكن مَحروماً في طفولَته لأنه كان بحماية وكفالة عمّه أبي طالب، ورعاية أرِقّاء في البيت، ومُربّيَة حَبَشية. ذَكرتْ بعض الروايات أنه تحدَّثَ اللغة الإثيوبية(٧٥) التي ربما تَعلَّمها من المُربّيَة. ربما أضافَتْ له لغة قريش «مطرُ الوبل على المَحْل»، وإمكانية ثنائية اللغة، غِنًى لُغوياً وثَراء ثقافياً. وحَسب تقاليد مكة، فقد أُرسِلَ محمد عندما كان طِفلاً صغيراً إلى البادية ليعيش مع البَدو الرُّحَل من قبيلة سَعد بن بكر(٧٦). ساعَدتْ هذه التربية البدوية المبكرة على تقوية عودِه وتَحسين لُغَتِه بطريقة البَلاغة بالمُمارسة. كانت حياة البدو المتنقلة أُمَّ العربيةِ الفُصحى، واعتُبرتْ الفصاحةُ سِمَةً فطريَّةً تقريباً عند قبائل المُتَنَقِّلَة. بينما اعتُبرَت المدن بالمُقارنة، حتى مكة البليغة نسبياً، غير مُتمَكِّنَة من اللغة الصافية، ويَختَفي فيها لَفظُ الهَمزَة الحَلقِيَّة الصحيحة. ربما تبدو غريبةً عادةُ التعليم عند البدو، إلا أنها ليست أكثر غرابة من إرسال الأطفال الصغار إلى المدارس الداخلية، كما أنها كانت أقدَمُ مِن زَمن محمد وأوسَع انتشاراً من مكة؛ ففي كتابات سبئية متأخرة عندما كان يتم تعريب الجنوب، يَذكُر كاتبٌ إرسالَ أبنائه للإرضاع عند البدو الأعراب(٧٧). واستمر الخلفاء الأمويون بممارَسة هذه العادة بعد انتقالِهم إلى سورية المُترَفة، باستثناء الخليفة عبد المَلك الذي اعتَرف بأنه دَلَّلَ ابنه الوليد بعدَم إرسالِه إلى البادية(٧٨). بَعدَ ذلك بزمنٍ طويل، حتى عشرينيات القَرن

---

(٧٣) Ibrahim, "Social and Economic Conditions in Pre-Islamic Mecca," p. 347.

(٧٤) Ibid., p. 353.

(٧٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 862.

(٧٦) Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), vol. 1, p. vii.

(٧٧) انظر على سبيل المثال: مطهر علي الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ط ٢، مزيدة ومنقحة (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٠)، ص ١٣٨.

(٧٨) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٢٥١.

العشرين، ظلَّ أثرياء مكة يُرسِلون أبناءهم إلى مدرسة البادية(٧٩).

يبدو أن تلك التجربة قد مَنَحَتْ محمداً رؤيةً إيجابية نحو الجيران من البدو وتعايشهم مع مكة. بعد فترة طويلة عندما أشارَتْ زوجتُه عائشة إلى البدو في صحراء مكة بأنهم «أعراب»، صَحَّحَ محمد ذلك بقوله: «إنهم ليسوا أعراباً، بل إنهم أهلُ باديَتِنا، ونحن أهلُ قريَتِهم»(٨٠). يتَّضِح من ذلك أن محمداً كان حَذِراً على الأقل من البدو الأبعدين والأكثرين غلاظَة. وكما سنَرى فإن علاقاتِه مع هؤلاء كانت مَحفوفَة بالمَخاطر، وأنه سيكون مستعِداً لاستِخدام أساليبِهم، مع بقائِه حَذِراً من خطورَتِهم.

أما في تلك الفترة، فيبدو أن تربيةَ محمد القصيرة مع البدو كانت سَارَّة، ويمكن أن تسمى تجربةَ تَعريب، وسيكون لها تأثير مُهِمّ أبعَدَ أثراً مِن كَونِها تجربة شخصية. بالنظر إلى الجو العام في مكة والتيارات الأوسع في تاريخ شبه الجزيرة، يبدو أن محمداً قد تمتَّع بالخلفية المثالية للتوسط في الحِوار الطويل بين الحَضَر والبدو، وأن يُحاوِل في النهاية جَمعَ كلمتهم في كلمة واحدة. نَشَأ في وسَطٍ حَضَريٍ تجاريٍ منغَمِس في بيئة تَعتَمد على البدو في تجارتها. يُعتقَد بأن أهل مكة كانوا يُشبِهون جيرانهم البدو(٨١) سياسياً وثقافياً ودينياً، إلا أنهم كانوا النسخة الألطَف من البدو، أو يمكن القول إنهم أكثر تهذيباً وتمدُّناً. إذا استُخدمت أوصافُ الجنَّة في القرآن كدَليل، فإنهم كانوا يَتمَنَّون نمَطَ الحياة التي يتمتَّعُ بها جيرانهم الأبعَدون والأكثرون تَحضُّراً. وصِفَتْ جَنَّةُ القرآن وكأنها ندوَة هلنستية خالدة، أو ربما تدمرية، حيث يَرتدي الحريرَ فيها المُختارون، ويَتكِئون على أرائك، ويَشربون من كؤوس من الفضة والبلّور يُقدِّمها إليهم فِتيان مُخلَّدون(٨٢). تَروي حدائقَها أنهارٌ تجري تحت الأرض مثل القَنوات(٨٣) التي صَنَعَها الفرس تحت الأرض، ولكن أهل مكة كانوا يَعرفون سابقاً الحليب الحامض في جلود

(٧٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, p. 160.

(٨٠) ورد في: يوسف محمد عبد الله، **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠)، ص ٢٩٤.

(٨١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, pp. 145-146.

(٨٢) انظر على سبيل المثال: **القرآن الكريم**، «سورة الإنسان،» الآيات ١٢ ـ ٢١.

(٨٣) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، «سورة الصف،» الآية ١٢.

المَعيز من حياة البدو، والماء الملوَّث الذي يُنضَحُ من آبارٍ في الرمال، أما في قَريتِهم فقد كانوا في مكانٍ وَسَطٍ، قَرية في بادية، سوق في السُّهوب، يَرتَوون من نَبعِ زمزم المقدَّس، ولو كان في طَعمِه بعض المَرارة(*).

بقيةُ المَراحل الأولى من حياة محمد خالية، فيما عَدا تلك الرحلة التي يُحتَمَلُ أنه قام بها إلى سورية في طفولته مع عَمِّه التاجر. قام برحلَة أخرى إلى سورية في شبابِه لِصالِح امرأةٍ أكبرُ منه سِنّاً هي الأرملَة القرشية خديجة التي كانت سيدةَ أعمالٍ مستقلة بذاتها. كانت تلك الرحلة ناجِحة، وكان زواجهما أحَد نتائِجها، ورُزِقا بخَمسَة أولاد، ثلاث بناتٍ وصَبِيَّين. توفِي الصَّبيان في سِنّ الطفولة، وكذلك تُوفِيَ ابنٌ آخَر لمحمد فيما بَعد كان اسمُه إبراهيم. أُطلِقَ على الولَدَين بعد وَفاتِهما اسمان إسلاميان هما «القاسم» و«عبد الله»، بينما حَسبَ سِيرتِه الرئيسية كان اسم أحَدهما «عَبد مناف»، وهو اسمُ عمّه وحامِيه أبي طالب[٨٤].

يُظهِر ذلك أن محمداً كان جُزءاً من بيئته الوَثَنية في مكة، وقد قال ابنُ الكَلبي إنه سبَقَ أن ضَحَّى بكَبشٍ أبيض إلى الإلَهة العُزَّى[٨٥]. ولكن كما سَنرى، لم تكن مكة مُحَصَّنَة ضد التَغيُّرات في مَجال العِبادة التي أثَّرتْ على مُعظَم أرجاء المنطقة على مَدى القرون الثلاثة السابقة. كانت عقيدة التوحيد منتَشرة على كامل ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتغلَّبَت على الآلهة القديمة، وانتَشَرتْ نحو الجُزُر البريطانية البعيدة (كان أوغسطين يُبشِّر بالمَسيحية في كانتربري في الوقت الذي كان محمد يتاجر في سورية نيابة عن خديجة). كما انتَشَرتْ عقيدة التوحيد في الهِلالَين الخَصيبَين: ففي الجنوب القديم السَّبَئيّ ـ الحِميَريّ مَثلاً تَدافَعتْ وتَنافَستْ على السيطرة أشكالُ التوحيد المختلفة المسيحية واليهودية والرَّحمانِيَّة (عقيدة تَطورت مَحليّاً، ملامِحها غير مَفهومَة تماماً). كانت مكة لاتزال جَيباً من التَّنوع العَقائدي، إلا أنَّ العُزَّى وأمثالها كانت مُهدَّدَة بالانقِراض. سنُناقَش هذه الثورة العَقائدية فيما يلي.

في العَقد الأول من القَرن السابع، بدأ محمد بتقليد آخَرين من المَكِّيين

(*) [ماءُ زمزم لما شُرِبَ له، يَعتَقدُ المسلمون أنَّ طَعمَها حُلو وليس مُرّاً!] (المترجم).

(٨٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 362.

(٨٥) Ibn al-Kalbī, *The Book of Idols*, pp. 16-17.

المُتَأمِّلين المُتَّقين بالانعزال للتأمل والتفكير. كان مَقصده المُفضَّل لذلك هو جَبل حِراء، وهو جَبلٌ يُشرِفُ على مكة(٨٦). هذا كل ما هو معروف عن تلك المُمارَسة. شَهِدَ القَرنان السابقان تكاثُرَ وجودِ عَرَّافِين مَسيحِيين ونُسَّاكٍ آخرين، خاصة في سورية ومناطق أخرى من شمال شبه الجزيرة. ربما يكون تَوقُّعُ بعض التَّأثُر بِهم مَعقولاً، إلا أن ذلك ليس أكثر من تَخمين. وعلى كل حال، بدأ الوحي أثناء واحِدٍ من هذه الانعِزالات التأملية. شَعَرَ محمد بالخوف في بداية الأمر، كما قال لزوجته خديجة، مِن أنه كان يَتحوَّل إلى كاهِنٍ(٨٧) أو عَرَّاف، وإذا كان لديه ميولٌ توحيدية، فإن فكرة خُضوعِهِ لتأثيرِ أرواحٍ شريرة عربية قديمة ستكون بالفعل فِكرة مُخيفة. كان ذلك هو تَشخيص خَليفَتِهِ فيما بَعد عمر أيضاً(٨٨)، وتَشخيص مُراقِبين مُحايِدين آخَرين، وفيما بَعد، عندما سَمِعتْ امرأةٌ قرشيةٌ بغياب الوحي عنه لفترة ما، قالت: «شَيطَانُهُ يَجعَلُهُ يَنتَظِر!»(٨٩). إلا أن محمداً أدرَكَ حِينَها أن رؤياه كانت مختلفة عن رؤى العَرَّافين العرب القدماء، لأن الوسيطَ غير الطبيعي الذي جاءَهُ بالوحي لم يكن شيطاناً، بل كان ملاكاً.

سيُشَكِّلُ مجموعُ الوَحي القرآنَ الكريم، وليس هذا هو السجل الوحيد المؤكَّد في حياة محمد فحسب، بل هو مُعجزته الرئيسية كَنَبِيٍّ أيضاً. ستُحَرِّكُ قوةُ خِطابِهِ أعظَمَ عَجَلات النار، ودَورَةً من الوحدة والتَّفرق مازالت تَتَحرك حتى الآن. إنه تُحفَةُ اللغة العربية، وواسِطَة قِلادَة التاريخ العربي، ذلك الخَيط من التاريخ الذي أصبَح فجأة مَرئياً ومُبهِراً. يجب أن نَبتَعد قليلاً عن غموض حياة محمد المبكرة ونَبحث في الكتاب المُعجِز.

اقرأ!

حسبما وَرَدَ في الروايات الإسلامية التالية، فقد تَسَلَّم إسماعيل الحَجَر الأسود من الله عن طريق جبريل. والآن، لم يتسَلَّم محمد من الله قِطعَة

---

(٨٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 98.

(٨٧) Efraim Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, 2nd ed. (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007), p. 11

(٨٨) Ibn al-Kalbī, *The Book of Idols*, vol. 8, p. 93.

(٨٩) Ibid., vol. 9, p. 407.

حَجَرٍ مُبهَمَة صَمّاء رَمزية، بل تَسَلَّم كلمةً حَيَّةً: «اقرأ!»، كانت أولى كلمات القرآن، وهو [القرآن] الوَحي الذي أظهَرَه جبريلُ لمحمد[٩٠]. إنه الدَّليل، لو كانت هناك حاجَةٌ إلى دليل، على صَدارة الكلمات وأصواتها. أجابَ محمد المضطَرب الخائِف: «ما أنا بقارئ»[٩١]. وهنا، حسبَما وَرَدَ في سِيرة ابن هشام أن جبريل وضَعَ في فَم محمد قِطعةً من قِماش عليها كتاباتٌ حتى كادَ أن يَخنقه. بعد ثلاث محاوَلات، أخرج محمد الكلمات[٩٢]. وفي تلك الأثناء في بريطانيا التي تَحوَّلَتْ حديثاً إلى عقيدة التوحيد، سيَنفُرُ أيضاً الشاعر كيدمون Caedmon، المُعاصِر تقريباً لمحمد، من زائرٍ مقدَّسٍ (قالَ لَه: غَنِّ! فأجابه: «ما أنا بمُغَنٍّ»!)[٩٣]، وكانت البِشارة مشابِهَة للمَلاك الذي لَمَسَ أشعياء بجَمرَةٍ مُشتَعِلَة[٩٤].

تُبيِّنُ «البَشائِرُ» سِياقاً يهودياً ـ مسيحياً، وهو معقول جزئياً؛ فبَعد بِشارة جبريل لمَريم، أصبحَتْ كلمةُ اللهِ إنساناً، أما بِشارة محمد فقد أصبَحَت الكلمةُ صوتاً. كانت مريم عَذراء، وكذلك كان محمد؛ كانت مريم عَذراء بالمَعنى الحَرفي للكلمة، إذ إنها لم تُنجِب من قَبل، وكذلك محمد بمَعنى أنه لم يَقرَأ. إلا أن السِّياق يُخفِي النَّصَّ الفَرعي، مثلما أدركَت المرأة القرشية التي تَحدَّثَتْ عن «شيطان» محمد أن جبريل قد لَعِبَ نوعاً من دَورِ وَسيطٍ روحانيٍّ أعظَم، مثل أولئك الذين كانوا يُلهِمون الكَهَنَة القدماء.

كانت الطبيعةُ التي تُشبِهُ الكَهانَة هي الانطباعُ الواضِحُ الأول للّذين استَمَعوا أولاً إلى ما جاء به الوَحي حتى بالنسبة إلى محمد نفسه الذي كان خائفاً مِن أن يُصبِحَ عَرَّافاً. لمعرفة سَبَبِ ذلك تَكفي مُقارَنَةُ قَسَم كاهِنٍ يَحكُمُ في خِلافٍ بين القُرَشيَّين هاشم وأميّة، بِقَسَمٍ يَسبِقُ سورةً قرآنيةً مبكرة. لنَبدأ أولاً بالكاهِن:

والقمر الباهِر، والكوكب الزاهِر، والغَمام الماطِر، وما بالجَو من

(٩٠) **القرآن الكريم**، «سورة العلق،» الآية ١.

(٩١) Abdelfattah Kilito, *Thou Shalt Not Speak My Language* (New York: Syracuse University Press, 2008), pp. xix-xx.

(٩٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 96.

(٩٣) James Sutherland, ed., *The Oxford Book of Literary Anecdotes* (Oxford: Clarendon Press, 1975), p. 1.

(٩٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 450.

طائر[٩٥]وما اهتدى بعِلم مسافِر، من مُخبِر وغائِر، لقد سبَقَ هاشم أميةَ إلى المآثِر، أوّل منه وآخِر، وأبو هَمهَمة بذلك خابِر]

ثم ما جاء في القرآن:

• ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[٩٦].

• سيُعَبِّرُ محمد فيما بَعد عن كراهِيَتِه لسَجعِ الكُهان لكي يُبعِدَ نفسَه عَنهُم[٩٧]. وانتهى بتَجاوز تقاليدهم بتَصريحِه: «لا كَهانة بَعدَ النُبوة»[٩٨].

اتُّهِمَ محمدٌ بالإضافة إلى الظَّنِّ بكهانَتِهِ، من طَرَفِ مُنتَقِديه الأوائل، بأنه واحِد من الشعراء المُتمَكِّنين من اللغة الفصحى، وقد تم نَفي هذه الاتهامات في القرآن:

• ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٩٩].

• من الناحية اللغوية، لا شك بأن الوحي يَنطِق باللغة الفصحى نفسها التي تَرِدُ في سَجعِ الكُهان وفي الشِّعر، أما بالنسبة إلى سامِعِيها من الدائرة التي انتَشرتْ في مكة من عائلة محمد المُقرَّبة، فقد كانت هذه اللغة الخاصّة إثباتاً للأصل الخارق للطبيعة لهذه الرسالة، وأنَّ كل ذلك هو جُزء من الدليل على صِحَّتِها. ولكن موضوع القرآن كان مختلفاً بوضوح عن مواضيع الشِّعر الكلاسيكي في الفَخر والمَديح والحب. يَسألُ القرآن عن الشعراء:

• ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾[١٠٠].

---

(٩٥) ورد في: Alan Jones, "The Qur'an in the Light of Earlier Arabic Prose," in: Alan Jones, ed., *University Lectures in Islamic Studies, volume 1* (London: Al-Tajir World of Islam Trust, 1997).

(٩٦) **القرآن الكريم**، «سورة الشمس،» الآيات ١ ـ ٤.

(٩٧) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٩٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 99.

(٩٩) **القرآن الكريم**، «سورة الحاقّة،» الآيات ٤٠ ـ ٤٢.

(١٠٠) المصدر نفسه، «سورة الشعراء،» الآيات ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

ولكن هل كان الموضوع مختلفاً دائماً؟ في غرب شبه الجزيرة العربية، في عَصر محمد تقريباً، ظَهَرَ نوعٌ من الشِّعر الجَديد النادر الذي يمكن وَصفُهُ بالشِّعر «التَّعَبُّديّ»، كان أفضَل مَن يُمَثِّلُهُ هو أميّة بن أبي الصَّلت الذي أصلُهُ من الطائف، وهي بلدة تبعد نحو ٦٠ كيلومتراً عن مكة. كان حَنيفاً متحمِّساً، و«الحَنيف» مصطلحٌ ذُكِرَ في القرآن كوَصفٍ لمَن يُطَبِّق عقيدة التوحيد «الأصلية» التي كانت ملامحها غير واضحة قَبل محمد، وتَرجِع إلى إبراهيم، وبَقِيَتْ خالية من التراكمات التالية لليهودية والمسيحية. يُروى أن أميّة بن أبي الصَّلت قد قَرَأ الكتب المقدَّسة الأقدَم، ولَبِسَ ثياباً مِنَ الشَّعر، وتَجنَّبَ الخَمر، وكانت لديه نزعَةٌ لتَحطيم الأوثان. تتضَمَّنُ أسطُرٌ نُسِبَتْ إليه نوعاً من المادة التي تَظهَر أيضاً في القرآن عن التوحيد المقدَّس والخَلق والجَنَّة والنار والأنبياء القُدَماء والقبائل البائِدة مِن عادٍ وثَمود، وأمور تتعلق باهتمامات مَحَلية مثل يوم الفيل[١٠١]. يَرِدُ في أحد أبياته:

كُلُّ دِينٍ يَومَ القِيامَةِ عِندَ اللهِ إلّا دِينَ الحَنيفَةِ زُورُ[١٠٢]

قارِنْ هذا بآياتٍ في القرآن مِثلَ:

• ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٠٣].

فيما عدا كَونِه مُعاصِراً لمحمد، فإن تواريخِه مَجهولة، ولكن الواضح أنه كان وظَلَّ معارِضاً لمحمد[١٠٤]، فبَعدَ أن أسَّس دَولةً في المدينة، كتَبَ أميّة رِثاءً لمَن قُتِلوا في غزوات محمد[١٠٥].

أما بالنسبة للمؤمنين، فإن القرآن هو كلمةُ الله الخالدة ولا يمكن أن تكون له أسلافٌ أو سوابق. ولكن، إذا وضَعنا الإيمان جانباً، هناك تساؤل

(١٠١) لويس شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية** (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨٢)، ص ٢١٩ ـ ٢٣١.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(١٠٣) **القرآن الكريم**، «سورة الروم،» الآية ٣٠.

(١٠٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٧٠ ـ ٧١.

(١٠٥) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥.

واضِح عَمَّنْ تأَثَّرَ بِمَنْ. حاوَلَ مُستَشرِقون مثل كليمنت هيوارت Clément Huart تبيانَ أنَّ أميةَ قد أَثَّرَ في محمد، كما أنّ بعض المُفكّرين المسلمين الأحرار (ولا بد من أن تكون حُرَّ التفكير لكي تَدخُل في مثل هذا الحِوار أصلاً)، مِثلَ طَه حسين، حاوَلوا إثباتَ العَكس(١٠٦). وكلتا المناقَشتَين غير مُقنِعَة. ولا يستطيع أن يكون أي شخص مُقنِعاً ما دمنا لا نستطيع الإجابة عن أسئلة أساسية عن تاريخ قَصائد أميّة بن أبي الصَّلت وأصالَتها. هناك اتفاقٌ على «احتمال وجود بعض المواد المَوثوقة»(١٠٧) بين الأبيات التي تُنسَب إليه، لا غير. وكل ما يُمكِن أن يُقالَ بثِقَةٍ وتأكيد هو أنه في غرب شبه الجزيرة العربية في أواخر عَصر الوَثنية كان هنالك نَوعٌ من المكتبة الشفهية المُتَناقَلَة من أمثالٍ قديمة وقُصاصاتٍ من المعلومات عن الكتب المقدَّسة اليهودية والمسيحية، وأفكار عن الخَلق وطَبيعة الإله الواحِد. استَقى الحُنَفاءُ من هذه المصادر، فقد لا تُجدِي مُحاولَة ضَبط الاتجاهات التي سارَتْ بها التأثيراتُ بين حَنيفٍ وآخر. الأمرُ الواضِح هو أن محمداً لم يكن فريداً في مُعتَقداتِه، وحتى الفِعل «أسلَمَ» والاسم «الإسلام»، بمَعنى التَّسليم والخضوع لإله واحِد، كان فِكرةً مُشترَكة. قارِن بدايةَ آخِرِ آيةٍ قرآنية ذُكِرَتْ سابِقاً مع بعض أبيات زَيد بن عمرو بن نُفَيل، وهو مَكيٌّ حَنَفِيٌّ قَبلَ محمد، ولكنه ربما عاصَرَه:

«أسلَمتُ وَجهي لِمَن أسلَمَتْ لَهُ الأرضُ تَحمِلُ صَخراً ثِقالاً، دَحاها فلَمّا رآها استَوَتْ على الماءِ أرسَى عليها الجِبالا»(١٠٨).

كان زَيد يَعتزِلُ الناسَ بانتظام في جَبل حِراء مثلما فَعَلَ محمد، كما أنه التَزَمَ بالإسلام مثله، وكان يُسلم وجهَه في الدعاء والسجود إلى إله واحِد هو الله(١٠٩)، ويَتَوجَّهُ نحو الكعبة. لم تُصبِح كلمةُ «الإسلام» اسمَاً مُعرَّفاً مُحدَّداً كعنوان نِظام «المسلمين» إلا بَعدَ الهجرة إلى المَدينة(١١٠)، وَتَحَوُّل التركيز من الروحانيات إلى السياسة. وحتى جاء ذلك الوقت، كان محمد وصَحبه وَمَن سَبقوهم جميعاً من الحُنَفاء.

---

(١٠٦) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ١٤٧ ـ ١٥٢.

(١٠٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 839.

(١٠٨) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٦٢١ ـ ٦٢٢.

(١٠٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 11, pp. 474-475.

(١١٠) Ibid., vol. 3, p. 165.

إذا لم يكن القرآن فَريداً في مُحتواه وأفكاره، فقد كان فَريداً في شَكله. لقد ذَهَبَ أبعَدَ من أي شِعرٍ تَعَبُّدِيّ أو غيره، وأبعَدَ مِنَ الخِطاب الساحِر القديم الذي كان يُسرَدُ بشكل مقطوعات. «نَزَلَ» القرآن بهذه الطريقة المُقَطَّعَة كذلك إلا أنه يتراكم فيكَوِّن شَكلاً أكثر استمراراً، وشَكلاً أعمَق حتى من أطوَل المُعلَّقات الشِّعرية قَبل الإسلام التي نادراً ما كانت أبياتها تزيد على المئة، كما يبدو «مَلحَمياً» بالفِعلِ. يَتراكَم ليُكَوِّن ما هو ليس أقلّ مِنْ أوَّلِ كتابٍ عربي في التاريخ، وسيَظَلُّ الكتاب العربي الوحيد لفترةٍ طويلة بَعدَ ذلك.

صارَت الكلمَةُ كِتاباً

يُقال «بالأبجدية يَستطيع شَعبٌ.. أن ينطَلِقَ في مَسيرة»[١١١]، وبِكِتاب، خاصة مثل القرآن الجامِع الذي يَشمَل الجَنّة والأرض وكل الزمن مِن لحظة الخَلق، فهناك واسِطَةُ نَقلٍ في هذه المَسيرة. فالقرآن ليس فقط الكتاب المقدَّس في الإسلام، بل هو النَّصُّ المُؤسِّس للعروبة كما نَعرفُها، بكلِّ الوزن التاريخي لأسفار موسى الخَمسة، والمَاغنا كارتا [أول وثيقة حقوق مَلَكية صَدَرتْ في إنكلترا سنة ١٢١٥]، وإعلان الاستقلال [الأمريكي].

يجب على كل باحِثٍ في تاريخ العرب أنْ يُمعِنَ النظرَ في القرآن. وهو مثل الحَجَر الأسود، الهَدية الأخرى التي جاء بها جبريل، نقطَةُ تَحَوُّلٍ يَدورُ حَولَها كثيرٌ من التاريخ. ربما للوَهلة الأولى، كما قال الشاعر ويتمان: «التأثيرات التي تَسِمُ تاريخ العالَم هي الحروب أو الثورات أو سقوط حُكمِ السلالات» (يميل إلى وَضع أصبعِهِ على الأمور):

ولكن، قد تأتي فكرة واحدة جديدة، أو حلم، أو مَفهوم مَبدئي، حتى في شَكلٍ أدبي يضَعُهُ أديبٌ عظيم، ويَنشُره للإنسانية، ربما تُسَبِّبُ تَغيُّراتٍ أو ازدِهاراً، أو سُقوطاً، أكبَر من أطول الحروب وأكثَرها دَموية[١١٢].

(١١١) Neal Ascherson, *Black Sea: The Birthplace of Civilisation and Barbarism* (London: Farrar, Straus and Giroux, 1996), p. 204.

(١١٢) Walt Whitman, *The Portable Walt Whitman*, edited with an introduction by Michael Warner (New York: Penguin, 2004), p. 400.

ستأتي الحروب الطويلة الدموية كذلك فيما بَعد، إلا أنَّ الكِتابَ والأدِيبَ محمداً، الذي يُفتَرَضُ أنه «أُمِّيٌّ»، سَيأتي بالتَّغيير.

مثلما تُظهِر الكلمةُ الأولى «اقرأ»، فإن القرآن يعني في الحقيقة نَصّاً شَفهياً يُقرأ بصوت مُرتَفع ويُستَمَعُ له. حتى في هذه الأيام، فإن النّسخ المطبوعة والإلكترونية تُنسَخ عن طَبعَة قياسية أُصدِرَتْ في مصر في العشرينيات، ولم تَستَند بذاتِها إلى نُصوصٍ مَكتوبة، بل إلى تقليد شَفَهي(١١٣). اعتُبر دائماً أن الناسخين وعُمّال الطباعة أكثر عُرضَةً للخطأ من الذاكرة الجَماعية لحُفَّاظِ القرآن. ولكن مثلما يَرِدُ في قصة وَضعِ جبريل قطعةَ القماش المَكتوبة في فَمِ محمد، فإن ترديد القرآن وكتابته مُرتَبِطان معاً منذ البداية، كما أن أول سورة في الوحي تَذكُر:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾(١١٤).

تَرتَبط التلاوة والكتابة مع بعضهما منذ بداية الوحي، وتُعتَبر الكتابة والتلاوة عَملاً إلهامياً مقدَّساً. ليس من غير المحتمل وجود تأثيرات تَلعَب دَورَها مرة أخرى، من الحضارات الأولى في جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث يبدو أنّ الكتابة عَمَلاً مَحصوراً بكتَّاب الكهنة(١١٥). ويَبدأ وَحيٌ مبكرٌ آخَر في سورة القَلَم بِقَسَمٍ قَديمٍ مُقدَّسٍ بتلك الأداة الحديثة:

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾(١١٦).

التَقى البَيانُ الذي يعود إلى عالَم الكَهَنة القديم الشَّفهي المُبهِر، بالعَصر الجديد، عَصر تَقنياتِ التَّسجيل.

إذا أشارَتْ جُملَة «تَقنياتِ التَّسجيل» إلى علاقةٍ بنظامِ التسجيل الصوتي هاي ـ فاي فلَن تكون بعيدة عن الصواب؛ ففي اللغة العربية «يُعتَبر الحَرفُ

(١١٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 426.

(١١٤) **القرآن الكريم**، «سورة العلق،» الآيات ١ ـ ٤.

(١١٥) انظر: ص ١١٩ ـ ١٢٠ من هذا الكتاب.

(١١٦) **القرآن الكريم**، «سورة القلم،» الآية ١.

المَكتوب مُطابِقاً للصوت الذي يَرتَبِطُ به»[١١٧] [غير حرفي]. فليسَت الحروف مجرد أصوات كلام Phonetic، بل هي أصوات مَسموعَة Phonic, Acoustic «كالخَطِّ يَملأُ مِسمَعَيْ مَنْ أبصَرا»، مثلما وصَفَها الشاعر المتنبي[١١٨]. وقد أصابَ الكاتب البريطاني روبرت بايرون Robert Byron في وَصفِ الخَطِّ الكوفِيّ، وهو أول خَطّ عربي، بقولِه: «يبدو في حَدِّ ذاتِه شَكلاً مِنَ الخَطابَة؛ نَقلاً للكلام مِنَ المَسموع إلى المَرئيّ»[١١٩]. ما يَعنيه ذلك عَملياً هو أنّ نَصّاً مَكتوباً لِسَردٍ شَفَهيّ ليس كياناً مُنفَصِلاً أو مرحَلة تالِية في التأليف، بل يُنظَرُ إليه (أو يُستَمَعُ له) كتَسجيل صَوتي مباشَر مِثل الرموز الموسيقية، وليس إملاءً للتَدوين. ومِن هنا جاء القول القديم: «القلم أحد اللسانين»[١٢٠].

كان للقرآن وجودٌ ماديّ مَكتوب منذ البداية، فقد تمّت كتابة الوحي على أي شيء مُتاح مثل الأوراق النباتية والعِظام وقِطَع الجِلد والخَشب والفَخار والحَجَر وأوراق البَردي المُستورَدَة[١٢١] التي أُعيدَ تَدويرُها. في مرحَلة مبكرة، ربما في العَقد الثاني من القَرن السابع، بدأ تداول أجزاء مَكتوبة منه. قيلَ في بعض الروايات أن عمر، الذي تَصَوَّرَ أن محمداً كان كاهِناً آخر، قد تحوَّلَ إلى الإيمان بقضيةِ محمد عند قراءة ورَقَةٍ واحِدة وجَدَها في بَيتِ أختِه[١٢٢]. ربما بَدأتْ مِثل هذه الأوراق كوسيلة تَذَكُّرٍ مُساعِدَة للحِفظ عند أَتباع محمد من عائلته وأصحابه[١٢٣]. أصبَحتْ كتابةُ الوحي في المدينة فيما بَعد أكثر انتظاماً، وكان محمد يُملِي آياتِ القرآن فَورَ وصولِها إلى «كتّاب الوَحي»[١٢٤]. وذاتَ مَرة، عندما غابَتْ آيةٌ سابقة عن ذاكِرة محمد، ذَكَّرَهُ بها

---

(١١٧) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 31.

(١١٨) [خَلَقَتْ صِفاتُكَ في العُيونِ كلامَهُ ··· كالخَطِّ يَملأُ مِسمَعَيْ مَنْ أبصَرا].
ورد في: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٥١.

(١١٩) Robert Byron, *The Road to Oxiana* (London: Picador, 1981), p. 271.

(١٢٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٣٧.

(١٢١) Chaim Rabin, "The Beginnings of Classical Arabic," *Studia Islamica*, vol. 4 (1955), p. 28, note 2.

(١٢٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 835.

(١٢٣) Gregor Schoeler, "Writing and Publishing: On the Use and Function of Writing in the First Centuries of Islam," *Arabica*, vol. 44 (1997), p. 430.

(١٢٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

أَحَدُ الكتّاب في حالَةٍ من التعاون بين النَّص المَكتوب والأداء الحَيّ المُباشَر(١٢٥). وفي حالَة أخرى، قامَ أحَدُ الكتّاب بتَغيير النَّصّ الصحيح بكلمات مَغلوطَة بشكلٍ ضارٍّ في نُسخَتِه؛ اكتُشِفَ أمرُهُ، فهَرَبَ إلى مكة الوثنية، ونَزَلَتْ آيةٌ قرآنيةٌ في انتِقاد عَمَلِه(١٢٦). يأخُذُ الوحي الانتقالَ من الشَّفَهي إلى الكِتابي بِعَينِ الاعتِبار، إذ تَميلُ الآيات المبكرة للحديث عن «تلاوة» القرآن، بينما تتحَدَّث الآياتُ المتأخِرة عن «الكتاب»(١٢٧).

أصبَحَ القرآن أول كتابٍ عربيّ. وهذه ليست فقط حقيقة في التاريخ الأدبي، فالقرآن أكثر من مجرد جَمع لتَدوينات مختلفة إلى بعضها البعض، وأكثر من مَجموع أجزائه. نقطةٌ رئيسيةٌ في جِدالِ محمد مع الوثنيين في مَكّة كانت أنهم لا يَمتلِكون كتاباً يُثبِتُ حقيقةَ عقائدِهم الروحانية الانتقائية. فمَثلاً، يتحدَّى القرآنُ الوثنيين أن يُثبِتوا ادِّعاءَهم بأنَّ كائناتٍ سَماوية كالملائكة هي بَناتُ الله:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١٢٨).

بالطبع لم يكن لدى الوثَنيين كتابٌ ليأتوا به. هَزَمَهم محمد، ليس فقط بتَقديم اللغة المقدَّسة القَديمة، بل بتقديم كتابٍ مقدَّس جَديد أيضاً.

كما أن جزءاً من معجزة القرآن هو أن المُوحَى إليه كان أمّياً، وهي كلمة تَعني عادَةً أنه لا يَقرأ ولا يَكتب، ولكن تفسيراً آخر أفضَل ربما يكون بمَعنى «مِن غَير أهلِ الكتاب Gentile»؛ أي إنَّ محمداً كان مِن جماعَةٍ (أمَّة) وَثَنيةٍ مختلفة عن اليهود والمسيحيين بأنَّه ليسَ لديهم كِتاب مقدَّس(١٢٩). وهناك بعضُ الإشارات إلى أنه كان يَعرِف الكتابة، ففي القصة المَذكورة

---

(١٢٥) al-Zamakhshari cited in: Alan Jones, "The Word Made Visible: Arabic Script and the Committing of the Qur'an to Writing," in: Chase F. Robinson, ed., *Texts, Documents and Artefacts* (Leiden: Brill, 2003), pp. 7-8.

(١٢٦) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(١٢٧) [كيف ذلك وأولُ سورةٍ نَزلَتْ تتحَدَّثُ عن التعليم بالقَلَم؟!]. انظر: Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 55.

(١٢٨) **القرآن الكريم**، «سورة الصافات،» الآيتان ١٥٦ ـ ١٥٧.

(١٢٩) [تعريفٌ مختلف لمَعنى Gentile الذي يُعرَفُ عادةً بكل مَن هم مِن غَير اليهود]. انظر: *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 403.

سابقاً عن الراهب الذي أظهَر صورةَ محمد لصَديقه أبي بكر وتَنَبّأ بنبوّته[١٣٠]، يُروى أن رَدَّ الفِعل الأول لأبي بكر كان قوله إنّ محمداً «لا يُحسن الكتابة»[١٣١]، ولم يَقُل إنه لا يَعرف الكتابة مطلقاً. ربما تؤكّد بعضُ الروايات مِن فَترة المَدينة أنه كان لَدَيهِ بعض القُدرة على الكتابة[١٣٢].

من المؤكد أنّ محمداً كان يَعرف قوة الكتابة، وسيَستخدِمها فيما بَعد بشكلٍ واسع خلال سنوات بِناء المجتمع والدولة في المدينة. وكما أكّدَ عليه بينديكت أندرسون Benedict Anderson في «**مجتمعاتٍ مُتَخَيَّلَة** *Imagined Communities*» لا توجَدُ قوةٌ مُوَحّدَةٌ أساسيةٌ للمجتمع أقوى مِنَ اللغة[١٣٣]. وإن قُدومَ اللغة مِن إله مقدَّس، وأن تُكتَبَ في كتابٍ للمَرَّةِ الأولى، سيُقَوّي تأثيرها أضعافاً مضاعَفة. سواء كان محمداً يستطيع الكتابة أم لا، فإن جزءاً من عَبقَريَّتِه هو إدراكه لإمكانيات الكتابة، القوة الدُنيَوية التي تُشهِرُها الأقلامُ إلى جانب السيوف. ربما يُشبِه مِن هذه الناحية زَعيمَ قبيلة نامبيكوارا Nambikwara الذي أقامَ معه كلود ليفي ـ شتراوس Claude Lévi-Strauss في البرازيل: «لا يَسَعني إلا الإعجاب بعَبقَريَّتِه في إدراكِهِ الفَوري بأنَّ الكتابة قد تُقَوّي سُلطَتَهُ، وعَرفَ أساسَ النظام قَبلَ أن يَعرِفَ كيفيةَ استِخدامِه»[١٣٤]. ربما يُشبِه أيضاً المَلك الأسطوري قَدموس Cadmus الذي يُروى أنّه نَشَرَ الأبجَدية اليونانية، وأسَّس لنفسِه جيشاً بزَرعِ أسنانِ تِنّين (يقال إنَّ هذا المَلك كان فينيقيَّ الأصل ـ وأصلُ كلٍّ من الأبجَديتَين الإغريقية والعربية هو أيضاً فينيقيّ).

وهكذا، مَن كان يَعرفُ الكتابة في مَكّة في القَرن السابع؟ فكما رأينا،

---

(١٣٠) انظر: ص ٢٠١ من هذا الكتاب.

(١٣١) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٣٢.

(١٣٢) [ينتقي المؤلف ويذكر ما يناسبه من أحاديث ولو كانت ضعيفة أو موضوعة، ويتجنب ذكر آيات قرآنية صريحة تنفي أفكاره، مثل هذه الآية التي تنفي أن النبي محمداً كان يقرأ ويكتب: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. انظر على سبيل المثال: Jones, "The Word Made Visible: Arabic Script and the Committing of the Qur'an to Writing," pp. 5-6.

(١٣٣) Benedict Anderson, *Imagined Communities* (London; New York: Verso Books, 1983), passim.

(١٣٤) Claude Lévi-Strauss, *Tristes Tropiques* (New York: Penguin, 1992), p. 300.

ربما كانت الكتابةُ تَقَنيةً جديدة نسبياً تسَرَّبتْ على طُرق التجارة من شمال شرق شبه الجزيرة العربية الذي كان يحكمه اللّخميون في أواخر القَرن السادس. أحدَثَت الكتابةُ ثورةً في ضَبط حِسابات تجار مكة، ورفَعَت التجارةَ إلى مستويات أعلى(١٣٥). يُروى أن شاعراً هَنَّأَ المَكِّيين في أبيات شعرية على فوائد كتابتهم العربية المكتَسَبة حديثاً:

أتاكُمْ بخَطِّ الجَزمِ حتى حَفظتُمو ... من المالِ ما قد كان شَتّى مُبعثَرا
فأجريتُم الأقلامَ عَوداً وبَدأةً ... وضاهَيتُمو كتَّابَ كِسرى وقَيصَرا
وراعيتُمُ مِن مسنَدِ القومِ حِميَرٍ ... وما زبُرتْ في الكُتْبِ أقلامُ حِميَرا(١٣٦)

تُوضِّح هذه الأبيات حقيقةً تاريخية ذات أهمية كبيرة، فهي لا تُشير فقط إلى أن أهل مكة كانوا يكتَشفون مَزايا ضَبط الحسابات، بل تُشير كذلك إلى أن العرب انضَموا أخيراً كأفراد مستقلين إلى النادي المَحَلي للحضارات التي تَستخدِم الكتابة: الفرس تحت كسرى، والرومان البيزنطيون تحت قيصر، والحِميَريون البائدون في جنوب شبه الجزيرة العربية. من ذلك الحين فصاعداً، سيَتَنافسُ العرب مع جيرانهم الإمبراطوريين على سَوية واحِدة، وسرعان ما سيَتَفوَّقون عليهم بفَضل الوحدة التي وَهَبَها الله لهم.

يُقال إن سَبع عَشراً قرشياً قد تعلموا الكتابة في بداية نُبُوَّةِ محمد، ولكن ارتفع العَدد بسرعة وأضيفَتْ إليهم نِساء(١٣٧). كان مِن بَين أولئك السَّبع عشرة بعضُ أصحاب محمد المُقرَّبين، وقد عَمِلَ خمسة رجال منهم في خَدَماتِه الكتابية(١٣٨)، وسيكون هؤلاء الخَمسة هم الذين سيَخلِفونَه، كُلٌ بِدَورِه كرؤساء للدولة الجديدة التي أسَّسَها، وعندما جاءَ دَورُ خامِسِهم كانت الدولة قد أصبَحتْ إمبراطورية. لم تكن إدارةُ تلك الإمبراطورية ممكِنة دون الكتابة في تسيير أمورها وتوسيعها، لأن الإيمان والسّلاح وحدَهما لن يكونا كافِيَين.

غَيَّرَ انتشارُ الكتابة أحوالَ العرب بَعدَ أن كانت مَحصورةً في بلاط

(١٣٥) الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه**، ص ٥٩ ـ ٦٠.
(١٣٦) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ٢، ص ٢٩٧.
(١٣٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.
(١٣٨) الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه**، ص ٦٠.

الملوك التَّابِعين، من اللّخميين في الحِيرة، والغَسّانيين في سورية. عندما تعلَّموا تَشكيل حروفِهم العربية في دفاتر الحسابات والكتب المقدَّسة، كانوا يُشَكِّلون شَخصيتهم وهويتهم كشَعب في الوقت نفسِه، ويُسَطِّرون ذلك على صفحات التاريخ.

مَنطِق القَوافي

أثناء حياة محمد، كان الكتاب المقدَّس [القرآن] يتكوَّن من كتلة من النصوص المَكتوبة على أوراق متفرِّقَة غير مجلَّدَة في مَصاحِف. سيَحتاجُ جَمعُها في كتابٍ واحِد إلى وقت طويل، ولن يكتَمِلَ هذا إلا بَعدَ حوالي ثلاثين سَنة بعد وفاتِه. كان تحرير النصوص جُزءاً من هذه المشكلة، إذ كان على المُحَرِّرين أن يلصقوا ويَجمَعوا، ولكن بالنظر إلى قُدسيّة المادة، لم يتمكَّنوا من حَذفِ شيء. وليس من المستغرَب أن النَّصَّ الذي صَدَرَ في النهاية مَليءٌ بالتكرار والأصدَاء الداخلية. يجب على المَرء ألا يتوقَّع قراءةَ سَردٍ تم إنشاؤه بالتتالي والتتابع في القرآن، بل سيَستَمع إلى مجموعة من المَواضيع والتَنويعات. إذا فكَّرنا من ناحيةٍ بصَرية، فهو ليس ذا مَنظور خَطّيّ، بل إنه رؤيةٌ شامِلَة لمَوضوعٍ كَونيٍّ بِعَينٍ مُرَكَّبَةٍ، ومِنْ زوايا مُتَعَدِّدَة. إنه ليس تَكعِيبِياً فقط، بل مُتَعَدِّدَ السطوح لدرجةٍ لانهائية، وهو يَعِي احتمالاته اللانهائية:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٣٩].

نَصُّ القرآن ليس طويلاً، حتى بَعدَ التَّرجَمة التي تكون عادةً بكلماتٍ أكثر عَدداً بكثير من النَّصّ الأصلي، فإن طوله لا يزيد على طول كتابٍ عاديّ متوسط الحَجم. إلا أنه وَلَّدَ مئات التَّفسيرات، وكلٌّ منها أطوَل بكثير من النَّصّ الأصلي. تُروى قصةٌ عن أحَدِ المفسِّرين أنه قَضَى ٣٦ سنة وهو يُملِي عَرضاً شفهياً، ولم يَصِل إلى نهايته، وهي قصة جَديرة بالتَّعجب، إلا أنها غير مستغرَبة[١٤٠].

(١٣٩) **القرآن الكريم**، «سورة لقمان،» الآية ٢٧.

(١٤٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٥٣.

أحد أسباب هذه الوفرة في التفاسير هو كَثرةُ ما في داخل النَّص من غموض. اعتَقَدَ إدوارد سعيد أن صعوبة تفسير القرآن هو موضوع استشراقيّ مُكَرَّر[١٤١]؛ ولكن صعوبةَ تفسيره مَذكورةٌ في القرآن نفسه:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[١٤٢].

والأهم في القرآن ليس ما يقوله، بل كيف يقوله؛ إنه ليس المَنطق، بل «السِّحر أو الماجيك» (بمَعناه الأصليّ المَنسِيّ هذه الأيام: فاشتقاق الكلمة من «الماجوي *Magoi*»، وهو اسم لدى الإغريق القدماء لحُفّاظ المأثور الشفهي في ميديا)[١٤٣]. شَبَّهَ محمد تجربةَ تَلقّي الوَحي برَنين الجَرَس الحَاد[١٤٤]. التَّشبيهُ بِرَنينِ صَوتٍ «مجرَّد» هو تَشبيهٌ مناسب، فالأفكار تَتبَعُ الكلمات[١٤٥] كما ذَكَرَ ابنُ خلدون، وهو ادّعاء غريب، فلا شك بأن الحقيقة موجودة فيما تقوله، وليس في كيفية قوله... نعم، ولكن هذا ليس صحيحاً عندما يكون قولكَ مُوحى إليكَ من الله مباشرة. بالنسبة لنا نحن الذين نعيشُ في بيئةٍ تَجاوَزت الخَوارق فوق الطبيعية، ربما يكون هناك تَشابُهٌ مع الفنون البَصَرية. يستطيع المَرء أن يَنظر إلى لوحةٍ لفرانسيس بيكون Francis Bacon مثلاً، ويَشعر أنها، على الرغم من كَونِها بعيدة عن التصوير الحقيقي، تُظهِر حقيقةً من نوع آخر، وأنها توحي بحقيقةٍ أعمَق من موضوعها، لا يمكن تقليدها، بل هي «مُلهَمَة» بطريقة ما. بالنسبة إلى مَن استمَع إلى القرآن في القَرن السابع، والذين كانت الكائنات الخارِقة للطبيعة بالنسبة لهم أموراً حقيقية، والكلمات هي الفَنُّ الوحيد، لم يكن هنالك أي شَكٍّ بالوَحي وبإعجاز ما أُنزِلَ على محمد. وكما قالَ غيرت يان فان غيلدر

(١٤١) A. Rippin, "The Qur'ān as Literature: Perils, Pitfalls and Prospects," *Bulletin of the British Society for Middle Eastern Studies*, vol. 10, no. 1 (1983), p. 42.

(١٤٢) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ٧.

(١٤٣) Hornblower and Spawforth, eds., *The Oxford Classical Dictionary*, s.v. magus.

(١٤٤) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 70.

(١٤٥) انظر: ص ٥١ ـ ٥٢ من هذا الكتاب.

Geert Jan van Gelder [الأكاديمي الهولندي الباحث في اللغة العربية]: من المؤسف أنّ عقيدةَ الأصلِ المُقدَّس للقرآن قد «حَرَمَتْ محمداً مَركَزاً بين أعظَم الكتّاب في العالَم مَوهِبَةً وأصالَة»(١٤٦).

وَرِثَ القرآنُ بَيان الكهّان الساحرَ القديم، وذلك البيان الذي ارتقَى إلى مَرتَبةِ القَداسَة هو إثباتٌ لِصِحَّةِ الكتاب نفسه. وفي النهاية ستَظهَر الحقيقةُ في أحداث التاريخ.

أشارَ عالِم اللسانيات جوشوا فيشمان Joshua Fishman إلى أن اللغة «ليست مجرّد ناقِل لمُحتَوى... اللغةُ مُحتَوى في حَدِّ ذاتِها...»(١٤٧)، والقرآن عملياً هو حالةٌ واضِحة من اللغة كمُحتَوى. ولا يَعني ذلك أن المحتَوى الذي يَحمله القرآن ليس مهمّاً، فذلك بَعيدٌ جِداً، فقد تأمَّلَ كثيرٌ من المسلمين عَبرَ العصور في المُحتَوى بعُمق، ودَرَسوا رسالاته بإخلاصٍ وإيمان. ولكن، قد يَصل المَرء إلى شيءٍ أقلّ بكثير. قالَ مؤسِّس المَذهَب الحَنبلي من الإسلام السُّني في القَرن التاسع:

رأيت رب العزة ﷻ في المنام، فقلت: يا رب ما أفضل ما يتقرب به إليك المتقربون؟ فقال: كلامي يا أحمد، قال قلت: بفهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم(١٤٨).

أقامَت الكلمة بَينَنا وسَكَنّا فيها

سيؤدي الغموضُ في القرآن إلى تفسيراتٍ متضارِبة، وستُفضِي إلى صراعاتٍ مُرَّة. ستَختَفي كثيرٌ من أسمَى رَسائل محمد الروحانية وراءَ مهمّة تسيير أمور الدولة، ثم وراء حُكم الإمبراطورية؛ إلا أن هذا الغموض لم يكن مهمّاً في البداية. لم يكن المَنطق هو المهمّ، بل كان المهمّ، ومازال،

---

(١٤٦) Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology*, p. xxvii.

(١٤٧) ورد في: Alan S. Kaye, "Reviewed Work: A War of Words: Language and Conflict in the Middle East by Yasir Suleiman," *Journal of the American Oriental Society*, vol. 125, no. 3 (July-September 2005), p. 447.

(١٤٨) ورد فـي: Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 12.

هو نِداؤه المُباشَر وجاذبيته للسَّمع والقلب والروح، مُتَجَاوِزاً العَقل[*]. ذَكَرَ العالِم المَوسوعي ابن قتيبة في القَرن التاسع أن عَصر موسى كان «عَصر السِّحر» (تحويل العَصا إلى أفعَى، وفَلقُ البحر)، وكان عَصر عيسى «عَصر الشِّفاء» (شفاء المَرضَى وإحياء المَوتى)، أما عَصر محمد فقد كان «عَصر البَيان»، بَلاغة خِطاب القرآن[١٤٩]. المُعجزات السابقة كانت خارِقَةً للطبيعة، أما مُعجِزَةُ محمد فكانت خارِقَةً للغةِ والتَّعبير.

القرآن هو مُعجزةُ محمد الكُبرى، وكانت كافيةً بالنسبة إلى العرب. وإثباتُ المعجزة هو العَدَد الكبير من الناس الذين وَحَّدَهم الإيمان به[١٥٠]:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٥١].

وكما صَاغَها المَسعودي، فإنّ قرآن محمد «تَحدَّى أبلَغَ الناس (العرب)... وأدهَشَ أسماعَهم، وشَلَّ عقولَهم»[١٥٢] [غير حرفي].

لا توجَد حاجَةٌ لِدَليلٍ أوضَح: فاللغة العربية ليست فقط الثالثة في سلسلةٍ من فتوحاتِ العرب على غيرهم بعد انتصاراتهم في السلاح والإسلام، بل كانت الفَتح الأول لهم وبهم[١٥٣]، ومن دونها لم تكن بقية الفتوحات ممكِنة أبداً؛ بل سيَظَلُّ العرب حاشِيةً على هامِشِ تاريخ العالَم وليسوا فَصلاً مهمّاً مستمراً. اللغةُ التي تَحمِلُ اسمَهُم سَحَرَتْهُم وفَتَنَتْهُم وقَوَّتْهُم ودَعَمَتْ إمبراطوريَتهم القادِمَة. يجب الإقرار بهذه النقطة لأنَّ الكتبَ الكثيرة التي ألهَمَ بها فَصلُ العرب في التاريخ لم يُوضِّحْها بما يكفي. إنه السبب وراء إمكانية حديثِنا عن «العالَم العربي» لأنه في الحقيقة عالَم العربية the Arabic world أو دائرةُ اللغة العربية، وهي سبَب بَقاء هذا العالَم العربي

(*) [لا يتفق هذا مع النداءات والأوامر المتكررة في القرآن لجميع الناس أن يفكّروا ويتدبَّروا ولا يقبَلوا الأمور بالتقليد الأعمَى] (المترجم).

(١٤٩) ورد في: أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ٢: **تأصيل الأصول**، ص ١٧٢.

(١٥٠) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, pp. 73-74.

(١٥١) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٦٣.

(١٥٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٢٩٩.

(١٥٣) انظر: ص ٤٢ ـ ٤٤ من هذا الكتاب.

واستمراره، بينما ماتَ العالَم الروماني مثلما ماتَتْ لُغَتُهُ. اللغة العربية، مثلما كتب مادِحُها مصطفى صادق الرافعي في القَرن العشرين: «بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم ولا تموت»[١٥٤]. قد لا يُوافِق البعض على شبابِها الخالِد، ولكن لا أحَدَ يَستطيعُ إنكارَ أنّها مازالَتْ حَيَّة.

ذهَبَ يان ريتسو Jan Retsö أبعَدَ مِن ذلك بقولِه إنّ محمداً والقرآن قد بَعثَا فكرةَ العروبة التي كانت على وشك الزَّوال[١٥٥]. يتحدَّثُ ريتسو عن تَعريفِه الخاص للعرب بكونِهم عَرَّافين تقليديِين وقائِمين على طَوائف مَحَلية[١٥٦]. ربما يكون الأقرَب للصواب القولُ إنه مهما كان العرب، ومهما أصبَحوا عليه، فإن محمداً قد أعادَ تَعريفهم من خلال الكتاب الذي أعطَاه لهم، ليس فقط كقائمين على مَراكِز عِبادة مَحَلية هامِشِية، بل كَطَليعَةٍ لثقافة عالَمية. ستَشمَل هذه الثقافة غير المسلمين، وتَضم غَير العرب. بالاقتِباس مِن الرّافعي ثانية: «إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة العربية»[١٥٧].

بالعودة إلى استعارَتي السابقة، فإن اللغة الرسمية الفصحى في الشّعر قَبلَ القرآن قد مَنحَت العرب أهمّ عَناصِر «ثيابِهم القومية»، وبوجود القرآن أضافَتْ كذلك كِساءً إلهياً سامِياً وجَعَلَتْهُ مَرئياً وَلَو مِن وراء حِجَاب (قِيلَ عن حَقّ إنَّ القرآن ليس نَظيرَ الإنجيل، بل هو نَظيرُ عيسى[١٥٨]، الكَلمة؛ لأنّ الإله المَسيحي حَجَبَ نفسَه في جَسد وأصبَح رَجُلاً، وحَجَبَ كبيرُ آلهَةِ مَكَّة نفسَهُ في نَصّ نُسِجَ مِن كلمات). غيرَ أنَّ آثار القرآن امتَدتْ أبعَدَ بكثير من العَقيدة. كانت العربية، الثَّوبُ القوميُّ، فضفاضَةً، وعلى مَرِّ القرون الإسلامية سيُحوّلُها المفسّرون وعلماء اللغة إلى شيء أكثر تجانساً بكثير، بشكلٍ يُمَكِّنُ تَبَنِّيهِ فيما وراء شبه الجزيرة ليُحوِّل شعوباً أخرى إلى عرب.

---

(١٥٤) ورد في: أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ١١٤.

(١٥٥) Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), p. 626.

(١٥٦) انظر: ص ٨٧ ـ ٨٨ من هذا الكتاب.

(١٥٧) ورد في: أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ١١٤.

(١٥٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 427.

كانت العربية ومازالت ثوباً رسمياً لا يَشعُرُ فيه الناس بالراحة، بل يتحدَّثون في حياتهم اليومية بألوان متنوعة من اللهجات، ومع ذلك فإن هذا اللسان الصَّعب الصّياغة الثَّابت المُتَيَبِّس المُنَشَّى على مَرِّ آلاف السنين، مازال واسِطَةَ القراءة والكتابة، ومازال يَجمَع العرب «من المحيط إلى الخليج». مهما كان مَعنى «العرب» في الماضي، رُعاة الجِمال الهامشيين، وحرّاس مَراكِز العِبادة، وغُزاة القبائل، فهو يعني الآن بشكلٍ رئيسيّ الناطِقين باللغة العربية. كتَبَ مُنصِف المَرزوقي، المثقَّف التونسي الذي أصبَحَ رئيساً للدَّولة: «فأمتنا خلافاً لكل الأمم، لا تسكن أرضاً وإنما تسكن لغتها»[١٥٩]. قَصَدَ اللغة القديمة التي تَرجِعُ إلى القرآن، وتَنتَهي إلى الشِّعر والخطاب السِّحري في شبه الجزيرة العربية قَبلَ الإسلام. اللغة العربية هي شيء يرتديه الإنسان، ولكنها في الوقت نفسه شيءٌ يعيش فيه.

لا إله إلا الله

إذا اعتُبِرَ أنّ مادة القرآن تابِعةٌ لأسلوبه، وأن المُحتَوى تابِعٌ للشَّكل، فإن رسائل معيَّنة تَبرُزُ بوضوح، وأهمّ هذه الرسائل هي أول جُملَةٍ في الشهادة الإسلامية:

لا إله إلا الله

محاولَةُ نَقلِها إلى لُغة أخرى سيُفقِدها سَلاسَتها، ولكنها بالعربية حُلوة مُعطَّرة ساحِرة تُشبِهُ التَّعويذَة.

أما بالنسبة إلى أهل مكة الوثنيين، فقد نَشأ ازدهارهم الاقتصادي الجديد، جزئياً على الأقل، بسبب التجارة اعتماداً على شَعبيَّةِ الكعبة كسوقٍ كبير مقدَّس، وسيَصعب عليهم قبول هذا التصريح ببَيان الرسالة. كانت هنالك آلِهَةٌ كثيرة في مكة غير الله، واكتَظَّ المكان بأصنام الآلهة من كافة أرجاء شبه الجزيرة العربية وما وراءها. ولكن بالنظر إلى سِياقٍ أعرَض، فقد كان محمد يَتبَعُ روحَ العَصر. كانت أرض الحجاز آخر جزيرة كبيرة للوثنية

(١٥٩) منصف المرزوقي، «أي لغة سيتكلم العرب القرن المقبل؟،» الجزيرة. نت، ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، <https://bit.ly/3Cgtz8O>.

في عالَم البحر الأبيض المتوسط وشبه الجزيرة العربية[١٦٠]. وكان محمد يَسبحُ مع تيار التوحيد، ولكن إلى أين سيتجه؟

كان الإلهُ الواحِد يتغَلغَل بمظاهِره المختلفة في غرب شبه الجزيرة العربية بحَركةِ كمّاشَة طويلة بطيئة، بدأ بانتشار اليهودية في الشمال خلال الألف الأولى قَبل الميلاد، وربما بشكل وحدانية أولية متردِّدة في جنوب شبه الجزيرة العربية بِعبادَةِ «ذي السماء»[١٦١] في منتصَف تلك الألفية. مع حلول القَرن الرابع، كان للمسيحية وجودٌ قوي في مناطق الشمال، بينما انتشَر شَكلٌ مَحَلي جديد من التوحيد في الجنوب بِعبادَةِ «الرحمن»[١٦٢] (الذي لا يُعرَفُ عنه الكثير فيما عدا أنه بَدَأ بإزاحة أسماء الأصنام القديمة في النقوش). بدأت اليهودية كذلك بكَسبِ مَوضِع قَدَم في الجنوب في بداية القَرن السادس كما رأينا في الحاكِم يوسف ذو نواس. كما تزايدَ الوجود المسيحي هناك مع الاحتلال الإثيوبي الذي أنهَى حُكمَ يوسف ذو نواس. انتشَرَت المسيحية في ذلك القَرن أيضاً في مَمالك العرب التابِعة من الغسّانيين واللّخميين في الشمال. كانت هنالك جيوبٌ كبيرة لليهودية في الحِجاز نفسها، خاصة في يَثرِب التي أصبَحتْ مدينة محمد. ووجِدَت المسيحية حتى في مكة الوثَنية، إذ كان بعض المكيين مسيحيين مَعروفين بأسمائهم[١٦٣]، وكان بين الموجودات المقدَّسة في قُدسِ الأقداس تلك الصورة الأيقونية لمريم العذراء في الكعبة.

والأكثر أهمية أن الحجاز كانت مَركَز الأحناف الذين كان لهم شِعرٌ تعبُّدي مُوحِّد رأينا فيه سِمات تَشتَرِكُ مع رسالة محمد، بما فيها اصطلاح «الإسلام». ربما تَمتَد المُشارَكة إلى ما وراء المواضيع والمفردات، فالحَنيفي خالد بن سنان العَبسي الذي عاشَ قُبيلَ زَمن محمد، وقَبِلَهُ محمد بِصِفَتِ النَّبي

---

(١٦٠) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 155.

(١٦١) الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ص ٤١٢.

(١٦٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(١٦٣) انظر على سبيل المثال: عبيد الله بن جحش (*The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, pp. 862-863)، عدي بن حاتم (Ibn al-Kalbī, *The Book of Idols*, p. 52) وورقة بن نوفل (شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٦١٦ ـ ٦١٨).

قَبلَ الأخير، وقال بعضُهم إنه سَبَقَ محمداً بسَردِ سورةٍ كاملة من القرآن[١٦٤] هي سورة الإخلاص أو التوحيد التي تَبدأ بجملة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[١٦٥]؛ وهي واحِدة من أقصَر السور، إلا أنها من أكثرها تلاوة بَعد الفاتحة، وهي أصفَى تعبير عن العقيدة القرآنية.

تحت تأثير هذا الضغط التوحيدي المُشترَك من الخارج والداخل، كانت الوثَنية تبدو مَحدودَة النفوذ، وكانت المقدَّسات القديمة تَفقِدُ قوَّتَها، وكانت مُعرَّضَة للمُعاملة القاسية إذا لم تَقُم بعَملها. فمثلاً، يُروى أن الشاعر امرأ القيس في منتصف القَرن السادس قد سَعى للحصول على موافَقة الإله ذي الخَلَصَة بشأن أخذ الثأر لِدَم أبيه، ولكن عندما تَكرَّرَ سَحبُ سِهام الإله التي قالَت: «لا تفعل»، فَقَدَ الشاعرُ أعصابَهُ وكَسَّرَها[١٦٦]. وبالمِثل، كان لقبيلة بني حنيفة صَنَم مَصنوع من مَزيجِ التَّمر والطَّحين والسَّمن، وعندما رَفَضَ الإلهُ الاستجابةَ لدعواتهم في مَجاعة، قاموا بأكلِه[١٦٧]. أدّى ضَعفُ الأصنام القديمة المتزايد إلى ظُهور بعض التحالفات الغريبة؛ فمَثلاً، ذَكَرَ ابن الكلبي قَسَماً شَهِدَ عليه الإله ذو الخَلَصَة، والله، والإله المسيحي[١٦٨] لضمان التأكيد الثلاثي. كانت المُرونَة والانتقائية هي الأمر اليومي للوثَنية المُحتَضِرة.

أما بالنسبة إلى أهل مكة فقد كان الله هو الإله الافتِراضي، وكانوا يحلفون في أيمانهم:

- وباللّاتِ والعُزّى ومَنْ دَانَ دِينَها وباللهِ، إنَّ اللهَ منهنَّ أكبَرُ[١٦٩]

بفَرضِ أنَّ هذه السطور صَحيحة، فإن هذا القَسَمَ وأمثاله يُظهِر كيف أن أهلَ مكة قد اعتَبروا اللهَ بمَثابة رَبِّهم الأعلى، على الرغم من استِنادهم كذلك إلى آلهةٍ مِثل اللّات والعُزّى وغيرها. يقولُ القرآن عن الوثَنيين في مكة:

---

(١٦٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٦٧ ـ ٦٨ وج ٢، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(١٦٥) **القرآن الكريم**، «سورة الإخلاص،» الآية ١.
(١٦٦) امرؤ القيس، **ديوان امرؤ القيس** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ١٢.
(١٦٧) الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، ص ٤٦٣.
(١٦٨) Ibn al-Kalbī, *The Book of Idols*, pp. 30-31.
(١٦٩) Ibid., p. 15.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[١٧٠].

وكذلك:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[١٧١].

تأكَّدَتْ صَدارة الله في مكة بتَقديم أُضحِية بَشَرية، ولو أنَّ تنفيذها لَم يَتِمّ، في رواية مَشهورة هي نَذرُ عبد المطلب جَدّ محمد إلى الله بأنه إذا رُزِقَ بعَشرة أولاد، وعاشوا حتى البلوغ، فإنه سيُضَحّي بأحَدِهم. استُجيبَ دعاؤه، وتم سَحبُ النَّصيب وانتقاء عبد الله والِد محمد ليكون الأضحية، ولكنه نَجا في اللحظة الأخيرة بذَبح مئة ناقَة فِدية له[١٧٢]. تَصدَحُ أصداءٌ إبراهيمية في هذه الرواية، ولو أن الفِدية قد ارتفَعتْ كثيراً عن الكَبش القديم الوحيد.

قَبلَ الإسلام بقرون عديدة، كان لله مَكانَةٌ عُظمى في مكة وفي قُدسِ أقداسِها، وكان يتمتَّع بسُمعة منتَشرة بين العرب كلهم. يَصعُب وَضعُ ترتيب بين الأصنام والمعبودات المتغيرة في شبه الجزيرة العربية القديمة، إلا أنّ الله ربما شَغَلَ مَكانَةً تُشبِهُ مَكانَةَ رَبِّ الأرباب زيوس وجوبيتر أو بْراهْما بَين آلِهتِهم. أو ما يمكن تَشبيهه، مع الفارق الكبير، برئيس مَجلس الأمناء الذي يَسعَى الجميعُ لنَيلِ رِضاه والتقرب إليه عن طريق وسَطاء[١٧٣]. كان إنجازُ محمد هو نجاحه في إقناع غالبية العربِ على اعتبار الله ليس كإلهٍ أعظَمَ، بل الإلَه الواحِد الأحَد. جاءَت مع عقيدة التوحيد فِكرةُ الوحدة السياسية ووسيلة تحقيقها، ولكن حتى في هذه الناحية أيضاً لم يكن الوَحيُ ثورياً كما يبدو.

الأسماء الحُسنى

كان لدى سكان الجنوب القدماء على مَرِّ قرون كثيرة، كما رأينا، مُيولٌ للوحدة السياسية المُستمَدَّة من عبادةِ إلهٍ مشترَك[١٧٤]. فمَثلاً، كانت سَبأ

---

(١٧٠) القرآن الكريم، «سورة الزخرف،» الآية ٨٧.

(١٧١) المصدر نفسه، «سورة العنكبوت،» الآية ٦٣.

(١٧٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 42.

(١٧٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ١٢٦.

(١٧٤) انظر: ص ١٠٨ ـ ١١٠ من هذا الكتاب.

«الشعب» الجَوهري لاتِّحادٍ أوسَع، وكان على الشعوب الأخرى التي تريد الانضِمام إلى هذا الاتحاد أن تُكَرِّمَ الإلهَ السَّبَئيّ «القومي»، وهو «المَقه»، والقيام بحَجٍّ سَنويّ إليه. من المحتمل أن الفكرة الإسلامية في الوحدة هي وارثة لتلك المُيول القديمة؛ بل وربما انحدَرَتْ منها على الأقل بشكلٍ جانبي إن لم يكن مباشَراً. مَفهومُ «حَبل الله»(١٧٥) في القرآن هو نفسه ما يُعبَّر عنه في اللغة السَّبئية «حَبلُ»(١٧٦) العَهدِ الإلهي، وهذا أكثر من مجرّد دَليل ظَرفيّ. ومِثلُهُ المَفهوم القديم المشترَك للشعوب على أنهم أبناء آلهتهم الأبوية، وأنَّ أهلَ مكة هم أهلُ الله أو شَعبُهُ كما وصَفَهم عبد المطلب نفسه قَبلَ الإسلام، وكما وصَفَهُم حَفيدُه محمد(١٧٧).

لا يوجد دَليلٌ إيجابي يُثبِتُ هذه العلاقة، ولكن من المؤكَّد أنَّ التشابه بين أنظِمة سكان الجنوب ونظام الإسلام أكثر من أن يكونَ ظَرفِياً إذا لم يكن مُدرَكاً. وعلى كل حال، فإن احتمالَ استيرادٍ مُدرَكٍ من الجنوب هو الاسم البديل الأكثر أهمية لاسم «الله»، وهو «الرحمن»، الذي استخدَمَهُ أهالي الجنوب الموحِّدون قَبلَ ثلاثة قرون على الأقل. بَدَأ محمد بتَلَقّي آياتٍ تتضَمَّنُ هذا الاسم بَعدَ بدءِ الوحي بنحو سنتَين(١٧٨). كان المَكّيون غير مسرورين في البداية، ثم نَزَلَتْ آيةٌ تَسمَحُ باستخدام هذا الاسم:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾(١٧٩).

«الرحمن»، والصِّفَةُ التي تُشبِهُهَا: «الرحيم»، مُنِحَتا المَركَز الأول كَجُزءٍ مما سيُصبِحُ فاتِحَةَ القرآن كلّه:

---

(١٧٥) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٠٣.

(١٧٦) Robert B. Serjeant, *South Arabian Hunt* (London: Luzac, 1976), p. 109, n. 358.

(١٧٧) بالنسبة إلى كلمات عبد المطلب، انظر: ص ٢٠١ من هذا الكتاب أعلاه. انظر أيضاً: عبارة محمد في: الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣)، ص ٤١. أبو بكر، ورد في: الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ١١٤.

(١٧٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 411.

(١٧٩) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ١١٠.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١٨٠].

مازالت هذه الجُملَة تُكتَبُ في بداية كلّ نَصٍّ يَكتُبُه مُسلِم، خاصة إذا كان في سِياقٍ رسمي، كما أنها تُلفَظُ قَبلَ البدء بكثير من الأعمال والتصرفات، مِنَ الزواج إلى تَناول طَعام الإفطار. لا يمكن إنكار أنَّ اسمَ «الرحمن» قد استُخدِم أولاً في جنوب شبه الجزيرة العربية، وربما كذلك غيره من «الأسماء الحُسنى» التي وَرَدتْ في آياتِ القرآن التي تُبيِّنُ جوانبَ من طبيعة الله، مثل: «البارئ، المُغيث، الخَالق»، وغيرها مما يَرِدُ في كتابات جنوبية قَبلَ الإسلام كصفاتٍ للإله الواحِد[١٨١]. هل كان تَبَنّي إله مكةَ القديم الأعظم لأسماء الإله الأعظَم وصِفاته عند أهالي الجنوب جُزءاً من سياسةٍ واعِية لجَذبِ الجنوبيين إلى رسالةِ محمد التوحيدية؟ إنها فَرضيةٌ مَعقولة، ولكن لا يُمكن إثباتُها أيضاً.

هناك أيضاً نظرية تَقِلُّ عن ذلك احتِمالاً، وهي فكرة أيّ استِلهام واعٍ لمَشروع محمد من الإمبراطوريات المجاوِرة في الشمال، البيزنطيةً والسَّاسانية. ولكن يجب تَذكُّر أنها كانت تسعَى كذلك للوحدة السياسية من خلال أرثودوكسيةٍ دينية مَسيحية وزرادشتية[١٨٢]. من غير المحتمل أن محمداً كان عارِفاً بهذه الميول بالتفصيل، ولكن خلال سنوات قليلة بعد وفاته، سيَضُمُّ أصحابُه مناطقَ واسِعة من تينك الإمبراطوريتَين، ومعها أعدادٌ كبيرة من الناس الذين قِيلَ لهم إنّ طاعَةَ الله وطاعَةَ القيصر، أو إنَّ طاعَةَ «أهورا مازدا» وطاعَةَ الشّاه، هي الأمر نفسه. بالنسبة لهم لن تبدو غريبةً الفكرةُ الإسلامية باتّباع خَطٍّ دِينيٍّ ـ دُنيَويّ واحِد. وبالمِثل، ربما يكون الإسلامُ المَرِنُ جِدّاً قد تَطَوّر وتَشَكّل وتأثّر أكثر بأفكارٍ بيزنطية وفارسية عن العقائد السياسية والأخلاقية[*].

سيأتي هذا فيما بَعد، أما الآن فإن جميع مُكوِّنات ما سيُصبح الإسلام

(١٨٠) المصدر نفسه، «سورة الفاتحة،» الآية ١.

(١٨١) الأرياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ص ٤١٤.

(١٨٢) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), p. 27.

(*) [ربما تأثّرت الممارَسات السياسية في الحُكم بالروم والفرس، ولكن هذا لا يَنطَبق على العقائد والأخلاق التي تختلف جَذرياً في أصولها الفكرية] (المترجم).

فيما بَعد كان مَصدَرُها مَحلياً. كانت عبقرية محمد (أو عبقرية الله إذا شِئتَ) هي في جَمعِها مَعاً في مَزيجٍ مُبهِر امتَزَجَتْ فيه العقائدُ السياسية لجنوب شبه الجزيرة العربية مع العقائدِ اللاهوتية المُستورَدة من المسيحية واليهودية، وصُبَّتْ معاً في اللّغة الفاتِنة الخَارِقَة للطبيعة لقُدَماء العرب من الشعراء والعَرَّافين. سَرى المَزيجُ في أرجاء شبه الجزيرة العربية على طرق التجارة والغزوات، ووصَل إلى أجزاء لا يمكن أن تَصِلَ إليها أفكار أخرى. لا غرابةَ في أنَّ أسماعَ الناسِ قد ذُهِلَتْ، وشُلَّتْ عقولُهم كما قالَ المَسعودي. وسارَ كل ذلك أبعَدَ نحو الوحدة النهائية في السماء والأرض. كما أدركَ أدونيس أنَّ فَهمَ هذا التأثير التوحيدي الذي يَعمَل في المُستَويَين هو مفتاح فَهمِ تاريخ العرب[١٨٣]: لم يَجمَع محمدٌ كلمةَ العرب وحدَهم، بل جَمعَهم مع كلمة الملائكة والله نفسه.

لأنَّ الناسَ على ما هُم عليه، فإن الوحدة الدنيوية مَحكومٌ عليها بالزوال، مثلما اعترفَ القرآن:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[١٨٤].

ومع ذلك فإن التوتر بين الأفكار السماوية والوقائع الأرضية هو واحدٌ من القوى الكبيرة التي تحرِّك تاريخ الإنسانية.

المُؤيِّدون الأوائل والمُعارِضون الأوائل

تَظهَر قوةُ القرآن في طريقة إقناعِه منذ البداية للفئة الأولى القليلة والمتحمّسَة من المؤمنين. قَبلَ أن تَبدأ الصلواتُ المنظَّمة، كانوا يَقضون وقتاً طويلاً من الليل وهم سَاهرون في التَّعبد[١٨٥]. تَسَلّى نظامُ مكةَ القديم في البداية بهذه الحماسَة الجَياشَة، ثم انتابَهم الذّعر عندما أدركوا أبعادَ رسالة محمد. كان تعدّد العِبادات في مكة هو بالضبط ما جعلَها جَذّابة لكثير من العرب، وكانت تُسَوِّقُ نفسَها بكل مَهارةِ التجار على أنها المَوضِع الذي يَجتَمعُ فيه عَبَدَةُ الأصنام. وقد جاءَ الآنَ مَن يَدعو مباشَرة ضِدَّ تَعدُّد الآلهة،

---

(١٨٣) انظر: ص ٥١ - ٥٣ من هذا الكتاب.
(١٨٤) القرآن الكريم، «سورة هود،» الآية ١١٨.
(١٨٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 97.

مثلما فَعَلَ زيد بن عمرو الحَنيفي في حَملاته، وكان عليهم أن يَطردُوه من القَرية. كانت رسالَة محمد تَذهَبُ أبعَد من ذلك، وكانت كثيرٌ من رسالاته «الاقتصادية» في القرآن ثَورية فِعلاً، مثل:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾[١٨٦].

يَسرُدُ ابن هشام في سِيرة محمد كيف أَنذَرَت النُّخبَة القرشية أصحابَها وأهلَها بأن وَحي محمد هو سِحرٌ سيُفَرِّقُ بين الآباء وأولادهم مما سيؤدّي إلى خَراب الجماعة[١٨٧]. كانوا مُحِقِّينَ تماماً في هذه النقطة الأخيرة. لم يكن لدى محمد اليتيم أبٌ لكي يَنفَصِلَ عنه، ولكن سورةً كاملة في القرآن نَزَلَتْ لِتلعَنَ عَمَّهُ أبا لَهب وزوجَتَه، وتُرسِلَهما إلى الخلود في جَهنَّم. وعندما قاتَلَ أحَدُ أبناء أبي بكر، وهو واحِدٌ من أوائل أصحاب محمد، وحارَبَ ضد أبيه في غزوة بَدر[١٨٨]، لم تكن تلك حالَة فريدة من نَوعِها. تَنبَّأَ أعيانُ النظام القرشيّ القديم في مكة بدِقّة كيف سَتَنفكُّ عَصبيّتهم، وكيف سيُدَمَّرُ مجتمعُهم المُريح المُزدَهر[*].

ولكن مجتَمعاً آخر سَيولَد. كانت عَجَلَةُ النار تَدورُ من جديد، وستكون دورتها (وثورتها) العظمى. وستكون التأثيرات غير المباشرة هي دَورات أقلّ من الفرقة والتجزئة والانهيار وإعادة التشكيل، مازالت تَدورُ هذه الأيام وتؤثِّرُ علينا جميعاً بدرجاتٍ مُتفاوِتَة.

---

(١٨٦) **القرآن الكريم**، «سورة الهمزة،» الآيات ١ ـ ٤.

(١٨٧) ورد في: أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ٢: **تأصيل الأصول**، ص ١٧٠.

(١٨٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 110.

(*) [ولكن تنبؤات أعيان مكة لم تكن دقيقة كما وصَفَها المؤلف، فقد رَفَعَ الإسلامُ في الحقيقة مَركَزَ قريش وازدِهارها أبعَدَ بكثير جِداً مما تَنَبَّأ به أثرياءُ مكة!] (المترجم).

الفصل السادس

الله وقَيصَر
دولةُ المَدينة

الانفصال

فوجِئ أبو سفيان تاجِرُ مِكَّةَ الثَّريّ الوثَنيّ بمَنظَر صُفوفِ المُصَلِّين في المدينة. لم يُشاهِد مثل هذا الانضباط من قَبل، كما قال: «تاللهِ ما رأيتُ كاليوم طواعيةَ قومٍ جاؤوا مِن ها هُنا وها هُنا، ولا فارِسَ الكِرام، ولا الرُّوم ذات القُرون!»[1]. ذُهِلَ بذلك مُشاهِدٌ آخر هو عُروَة بن مَسعود الذي كان قد زَارَ حُكَّامَ إثيوبيا والفرس وبيزنطة، وقال:

«لقد وَرَدتُ على النجاشي وكِسرى وقيصر... فما رأيتُ أطوَع ولا أوقر ولاأهيب من أصحاب محمد لمحمدهم، هم حوله وكأنّ الطير على رؤوسهم، فإنْ أشار بأمر بادروا إليه، وإن توضأ اقتسموا وضوءه، وإن تنخّم دلكوا بالنخامة وجوههم ولحاهم وجلودهم»[2].

لم يَعُد محمد مجرّد حَنيفي وَديع، بل أصبح مُنشَقّاً مُخَرِّباً في عيون أهل مكة، يدعو ضد تقاليد الوثَنيين فيها وضد تجارها الأثرياء. أدركَ أنه نَبيٌّ يأتي وَحيُهُ مِن قوة أكبر من نفسِه، وخارِجَة عن سَيطَرته. كما اكتَشَفَ أيضاً، مثل جميع الأنبياء، أن لا كَرامَة له في وطنه. وَجَدَ الحَلَّ المَنطقي في

---

(١) انظر: ص ٣٨ من هذا الكتاب.

(٢) Abū l-'Alā' al-Ma'arrī, *The Epistle of Forgiveness, Volume One: A Vision of Heaven and Hell*, edited and translated by Geert Jan van Gelder and Gregor Schoeler (New York; London: New York University Press, 2013), p. 37.

الهِجرة إلى بَلدَة أخرى، ولو أنه حَلٌّ صَعبٌ وصارِم. وفي تلك البلدة الأخرى وجَدَ الكَرامَة والطاعَة والإجلال، وصَنَعَ عَصبيةً عُظمى وشعوراً بالتضامن والوحدة لم يوجَد مِثله مِن قَبل.

قوةُ وإمكانياتُ هذه الوحدة الجديدة كانت واضِحة لأبي سفيان وعُروَة بعد سنوات قليلة من الهجرة إلى المدينة. لم يكن أقارب محمد معجَبين في البداية بَعدَ أن شاهَدوا كيف أنه حَطَّمَ عَصبيتهم القديمة بتَفكيكِ الهيكل الاجتماعي في مكة الوثَنية، وسيَصرخ أبو جَهل في مكة وهو يقاتِل ضد غزاة محمد في بدر: «اللَّهم أقطعُنا للرحِم، وآتانا بما لا يُعرَف، فأحْنِه الغَداةَ!»[٣]. ستَكتَسِبُ كلمة «الهجرة» فيما بَعد دَلالات أكثَر، ولكن «القَطعَ» هو مَغزَى الكلمة لدى أهل مكة[٤]، وفي السِّياق القَبَلي، كانت روابط القَرابَة الحقيقية أو المُتَخَيَّلَة هي أقوى دفاع ضد الفوضى والانحِلال الاجتماعي، ولذلك كان انشِقاق محمد صادِماً، والانتِقال إلى أرضٍ بعيدة هو ما تَفعَله إذا ارتكبتَ جَريمةً في القبيلة.

كانت أيضاً الخطوة الأولى في رِحلَة ـ ستَجعَل أفعالَ العربِ «مبنية للمعلوم» في «نَحوِ» تاريخ العالَم. على الرغم من أن الهجرة كانت تَعني القَطع، إلا أنها دَلَّتْ كذلك على الحركة والجُهد والخلاص، وليست بعَيدةً عن روحِ الصَّعاليكِ والشَّارِدين الرَّافِضين والمُنشَقِّين عن القَبَلية، غير أنها تُرجِمَتْ إلى حَركَةٍ جَماعِية. ارتبَطَت الهجرة فوراً بالإسلام، واعتَقَدَ بعضُ الناشطين الأوائل «لا يمكن أن تكونَ مُسلماً إذا لم تُهاجِر». استبعَدَ محمدٌ نفسه هذه الفكرة، وقالَ إنكَ تستطيع أن تكون مسلماً حيثما كنتَ تَعيش، ولكن كما سنَرى بَعَد وَفاتِه، عندما بدَأت حَملاتُ الفَتحِ البعيدة، فإن الهجرة قد أُعلِنَتْ رسمياً هذه المَرَّة كمَطلَبٍ مُفترَضٍ في الإسلام. وعلى العَكس، فقد اعتُبرت العودةُ إلى المنزل القديم والعادات القديمة «تَعَرُّباً» يَقتَربُ مِنَ الرِّدَّة[٥]. سيُعادُ تَعريفُ العربيّ كُلِّياً، وستَنفَتِحُ حَركِيَّةُ العرب تماماً،

(٣) al-Tabari quoted in: Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 158.

(٤) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), s. v. Hidjra.

(٥) Patricia Crone, "The First-Century Concept of "Hiğra"," *Arabica*, vol. 41 (1994), passim.

وسيَنفصِلون عن قَبائِلهم وجُذورِهم وأساليبِ مَعيشَة أجدادِهم وبادِيتهم، وحتى بعيداً عن «جَزيرتِهم» العربية وعن كل شيء كان يَجعلُهم عَرَباً فيما مَضى. تلك كانت النظرية على الأقل.

يَثرِب

اتَّبَعَ محمد وأصحابه القلائل بهِجرَتِهم سنة ٦٢٢ ممارَسَةً قديمةً بِفَصلِ أنفسِهم والتَّحالف مع جماعات قَبَلية مختلفة. عندما اتَّضَحَ أن النظام القديم في مكة كانوا يُخَطِّطون لإسكاتِه بالنَّفي، أو ربما ما هو أسوأ، بَدَأ محمد أولاً بالتَّفاوض مع أهلِ الطائف بِنِيَّةِ الانتقال إليهم، إلا أن ذلك لم ينجَح[٦]. ولكنه نَجَحَ مع أهل يَثرِب، المدينة التي تَبعُد ٣٥٠ كيلومتراً شمال مكة. كانت لديه صِلَةٌ مفيدة مع ذلك المكان، لأن جدَّه عبد المطلب كان قد نَشَأ هناك في بَيتِ والِدته اليَثربية[٧]. ربما كانت تلك العلاقة مهمّة لأهل يَثرِب الذين كان كثير منهم (بمَن فيهم أُسرَةُ جَدَّتِه الكبرى) من أصول جنوبية، وربما كانوا أقلّ حماسَة للروابط الأبوية من أهل مكة. يَتَّضِح ذلك من الدَّور الأكثر استقلالاً لدى النساء في جنوب شبه الجزيرة العربية القديم مما كانت عليه الحال في مجتمعات القبائل الشمالية. وربما كان أهل يَثرِب أيضاً أقلّ حَماسة لتَعدُّد الآلهة. من المؤكَّد أن ذلك كان صحيحاً في العُنصُر الرئيسي الآخر من سكان يَثرِب، وهم عدّة قبائل عربية تَهَوَّدَتْ، أو ربما يَهودٌ تَعَرَّبوا.

بعد أشهر قليلة من وصولِ طائفةٍ أولى من أصحاب محمد إلى يَثرِب، وَصَلَ محمد إليها في أيلول/سبتمبر ٦٢٢، وهذا أول تاريخ مؤكَّد في حياته، وهو تاريخُ عَصرٍ (على الرغم من أن التأريخ الرسمي يبدأ في ١٦ تموز/يوليو ٦٢٢ في بداية الشهر القمري). وَجَدَ المهاجرون أنفسهم في مكان يختلف كثيراً عن قريتِهم، إذ تُحيطُ التلالُ بمكة، وتَحُفُّ بها طقوسٌ، وتَغُصُّ بالآلهة والحجّاج؛ بينما يَثرِب مكانٌ أكثر انفتاحاً، في نوع من مدينة الحدائق التي عاشَ فيها أهلها المُتَنوِّعون بين الحقول وبساتين النَّخيل التي اعتَمدَت عليها

---

(٦) Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, p. 158

(٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 80.

مَعيشَتهم. لا توجَد فيها مَوانعُ دفاع طبيعية ولا أسوار، بل توزَّعَتْ فيها أبراجٌ صغيرة يلجأ إليها الناس من الغزوات(٨). كانت يَثرِب مُنفَتحةً للقادمين أيضاً، وفيها قَبيلتَان رئيسيتَان هما الأوسُ والخَزرَج اللّتان هاجَرَتا في الأصل من جنوبِ شبه الجزيرة العربية. كان اليهود مهاجرين أيضاً، ربما من أصول متعدِّدة، على الرغم من أنَّ الأساطير تَعتَبرهم لاجئين هَرَباً من حَملات المَلك البابلي بخت نصَّر(٩) في أوائل القَرن السادس قَبل الميلاد.

تؤكِّد الروايات المُتَدَيِّنَة أنّ محمداً قد استُقبِلَ كبَطَلٍ بحَفاوَة بالِغة في يَثرِب، وأن أهلها أنشَدوا: «طَلَعَ البَدرُ علينا!»، ومازال الناس يُغنّونها في الأعراس عندما يَصِل العريس. تنافَسَ أهل يَثرِب لاستِضافَته، وسَلَّموه زعامَة المدينة فوراً. لا يُفهَمُ فوراً سَببُ تعامُلِهم مع زعيم جماعة صغيرة من المهاجرين بهذه الطريقة، إلا أن محمداً كان النَّبيّ، وذلك سَبَبٌ كافٍ للتقاليد المُتَدَيِّنَة بالطَبع، ولا حاجة لمَزيد من التَّفسيرات. ولكن محمداً نفسه قَدَّمَ تفسيراً بقوله: «فُتِحَت المَدينةُ بالقرآن»(١٠). هذا تفسيرٌ معقول، لأن يَثرِب، التي سيُصبحُ اسمها: المَدينة، كانت واحِدَة من أكثر الأماكِن تَعلُّماً في شبه الجزيرة العربية فيما وراء دائرة اللّخميين والغَساسِنة، ومن المحتمل جِداً أنَّ طَليعةَ أصحاب محمد كانوا مَشغولين في نَشرِ رسائل القرآن العجيبة من السُّوَر المَكّية بين أهل يَثرِب، وبتَقديمِها إليهم في صحائف مكتوبة بالشَّكلِ غَير المَسبوق من السَّردِ العربي المقدَّس تحضيراً لوصول محمد. وربما لن يكون بعيداً تَخَيُّلُ أن الاعتبارات الدنيَوية قد أثَّرَت في أهل يَثرِب، بالإضافة إلى الاهتمامات الدِّينية، فقد جاء محمد من مكة، المَركَز المُزدَهر لتجارة العرب. كان من أوائل أعماله هو إعلان أن سوقَ يَثرِب هو منطقة مَعفِيَّة من الضرائب(١١). كان يومُ السوق التقليدي فيها هو يوم الجمعة، وهو اليوم الذي خَصَّصَهُ الآن لصَلوات جَماعية(١٢). لم يُصبِح مثل يوم «السبت» عند

---

(٨) Ibid., vol. 5, p. 994.

(٩) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٢٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٧.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 368.

اليهود يومَ إغلاقٍ للأسواق، بل إنَّ قدومَ المُصَلِّين سيُغَذِّي تجارةً نَشِطَةً أيام الجمعة في السوق. أسَّسَ محمد جامِعاً بسيطاً بأعمِدةٍ من شجر النخيل، وسَقفٍ مصنوع من سَعفِها، وأصبح هذا الجامع مَركَزَ يَثرِب السياسي[١٣]، وتقاطَعتْ فيه دوائر السياسة والتجارة والروحانيات مثلما كانت الأحوال دائماً في مكة الوثنية.

بدأت دائرةُ الروحانيات تأخُذُ شَكلاً ولَوناً مميّزَين؛ ففي البداية كان المُحتوى الانطباعي للتوحيد المحمديّ يتَّخذُ شَكلاً أكثر صَلابة من الناحية العَقائدية، وكان يُشبِهُ كثيراً في شَكلِهِ مُحتوى الكتب المقدَّسة المسيحية، خاصة اليهودية[١٤]. يُصَرِّحُ القرآن نفسه بأنه يُصَدِّقُ كتاب موسى باللسان العربي[١٥]. ومن الواضح أن أتباعَ موسى وافَقوا على ذلك، ففي وثيقةٍ يهودية كانت مُتداوَلَة بشكلٍ واسع في القرن السابع، وصِفَتْ فيها رسالةُ محمد بأنها عَملٌ مِن رَحمَةِ الله، أي دِينٌ صَحيح[١٦].

لكن مع مرور الزمن، أصبحتْ يَثرِبُ تُعرَفُ بأنها مدينة النبيّ، أو ببساطة: المدينة، وابتَعدَ القرآن عن مُعتقدات التوحيد الأخرى. كانت أسهَلَ طريقة لبناء الجماعة وإعطائها علامتها التجارية الخاصة هي نَفي أيّ انتِماء آخَر لهذه الجَماعة، وأنها بالتأكيد لا تُشبه عقائد المُشركين، وليست تماماً مثل اليهود ولا المسيحيين. ترسَّخَت الهويةُ الإسلامية مثلما ترسَّخَت الهويةُ العربية قَبلها من خلال الاحتكاك مع الآخرين، والتجاذب ثم التَّنافر. بَدأ منذ ذلك الوقت استِخدام لَقَب «المسلم» كاسم رسميّ لمَن يؤمن برسالة محمد التوحيدية بدلاً من الاصطلاح القديم العامِّ: «الحَنيف». كانت وقائع الحُكم في العالَم الدنيوي تَتنافَر مع مِثاليات التوحيد العالمية. يَجمَع الإلهُ الواحد كلَّ البَشَر معاً، بينما لا مَحالَة من أن يُضطَرَّ الرجال في سَعيهم للحصول على القوى الدنيوية إلى سحب أنفسِهم وإلهِهم إلى الانفِكاك.

---

(١٣) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٦.

(١٤) حول هذا، انظر على سبيل المثال: Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), pp. 125-126.

(١٥) **القرآن الكريم**، «سورة الأحقاف»، الآية ١٢.

(١٦) Joel Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity* (London: Allen and Unwin, 1969), p. 53.

يَحومُ سؤالٌ فوق تلك الفترة التكوينية في الإسلام وعلى كل تاريخ العرب: ما هو الدَّور الذي لَعِبَتْهُ العناصر من أهل يَثرِب/المدينة القادِمة أصلاً من جنوب شبه الجزيرة العربية في ذلك كله؟ قامَت القَبيلتان: الأوس والخزرج، في التاريخ التقليدي بدَور إضافي مساعِد بصِفَتهما «أنصار» الله ومحمد. ولكن هناك إشارات تدلُّ على أنهما ربما أثَّرَتا على تطور الممارَسات الإسلامية. فمَثلاً، كان الوضوء جُزءاً من العِبادة لدى قدماء الجنوبيين الذين صَنَعوا قَنواتٍ وآباراً في مَعابِدِ مَأرِب وغَيرها[١٧]. يبدو أن الجنوبيين قد أتوا بهذه المُمارَسة معهم إلى يَثرِب[١٨]. ربما تكون هذه حالَة أخرى مثل الاسم المقدَّس «الرحمن»، وكلّ فكرة السياسة العَقائِدية المُوحِّدَة، حَبل الله، حيث تَتوافَقُ المُمارَسة الجنوبية القديمة مع ما كان، أو ما أصبَح تقليداً إسلامياً. كانت الدولة الإسلامية في المدينة أكثر المحاولات نجاحاً في توحيد العرب، وربما تَرجِع جُذورها العميقة إلى الماضي غير العربي في الجنوب القديم، وهي جُذورٌ مَدفونَة في الأرض حيث بدأت السنة الهجرية الأولى.

الفَهمُ الاستشراقي المُعتاد هو حدوثُ تَعريب للإسلام في المدينة «كاستِجابة مباشرة لِرَفضِ اليهود لمحمد»[١٩]، ولكن ذلك التَّعريب كان بشكلٍ أصحّ هو «نَزعُ اليهودية» عنه، فقد كان الإسلام مَزروعاً بقوة في بِيئتِه في شبه الجزيرة العربية، وكانت تُشَكِّلُهُ على طولِ مَساره.

المجتمع الأعظَم

تكوَّنَ الشَّكلُ السياسي للمدينة وفق النموذج العربي التقليدي في شبه الجزيرة. يُشبه الكيان الجديد نوع التحالفات القَبَلِية التي نَشأتْ قَبل الإسلام، ومَنَحَ محمداً الغَلَبَة في فَضّ النزاعات واتخاذ القرارات[٢٠]. قَبل ذلك الحين، كانت معظم التحالفات تُختَمُ بالأقسَام والطُّقوس حول النار[٢١]. أما محمد الذي كان يُدركُ جيداً قوة الكتابة، فقد وثَّقَ التحالف بين الجماعات

---

(١٧) Brian Doe, *Southern Arabia* (London: Thames and Hudson, 1971), pp. 163 and 166f.

(١٨) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ١٠٨، والبلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٤.

(١٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 368, and Hitti, *History of the Arabs*, p. 118.

(٢٠) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, pp. 995-996.

(٢١) Ibid., vol. 3, pp. 388-389.

القديمة في مجتمع يَثرِب والقادِمين الجُدد من مكة في وثائق تُعرَفُ الآن بدستور المدينة. وحتى في هذه الخطوة، كان يَسيرُ حَسبَ العُرفِ والتقاليد؛ إذ يُروى أن جدّه عبد المطلب قد سَجَّلَ وثيقةً مماثلة في التحالف مع قبيلة خُزاعَة وعلَّقَها في الكعبة[٢٢].

ولكن الأمّة التي أسَّسها محمد ذَهَبَتْ أبعَدَ مِنَ النموذج القديم في تحالف القبائل، وكانت قبيلةً عُظمى، لأن اتحادَها لم يَستَند إلى قَرابَة دَم حقيقية أو مُتوَهَّمَة، بل قامَ على الإيمان بالله، الإله الأعظم. تصَوّرَ أهلُ مكةَ أنفسَهم بأنهم «آل الله»[٢٣]، وكانت شعوب الجنوب العربية «أبناء» آلهتِهم. الله في صورَتِهِ الإسلامية هو الخَالق، ولكنه تَنَزَّهَ سُبحانه، لم يُنجِبْ وليس له نَسلٌ، بل اعتَبَرَت الأمة الجديدة أنَّ أباها رَمزياً هو إبراهيم أول المُوَحِّدِين[٢٤]، وأنَّ زوجات محمد هُنَّ «أمَّهاتُ» المؤمنين، وأنَّ ذاتية أفراد الأمّة قد أزاحَتْها شخصيةُ محمد:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[٢٥].

وعلى كل حال، فقد كانت هنالك بعض الخلافات غير الأخوية، إذ لم يُرحّب جميع رجال الأوس والخزرج بالمهاجرين الجُدد، وبَنى هؤلاء المُنشَقون مَسجدهم المُنافِس [مَسجد الضِرار]. كان زعيمهم أبا عامر [الراهِب أو الفاسِق] الذي سرعان ما طُرِدَ وهَربَ إلى مكة الوثنية، ثم إلى سورية حيث قِيلَ إنه أصبَح مسيحياً[٢٦] كان المجتمع في البداية بشكلٍ عامٍ عَمَلياً واندِماجياً، وشَمَلَ دستورُ محمد في أصله يَهودَ المدينة، بل وحتى المُشركين فيها[٢٧].

ربما يبدو الأمرُ حالةً ثورية إذا اعتُبرتْ وحدَها كبداية جديدة في تلك

---

(٢٢) Gregor Schoeler, "Writing and Publishing: On the Use and Function of Writing in the First Centuries of Islam," *Arabica*, vol. 44 (1997), p. 425.

(٢٣) انظر: ص ٢٠١ من هذا الكتاب.

(٢٤) **القرآن الكريم**، «سورة الحج،» الآية ٧٨.

(٢٥) المصدر نفسه، «سورة الأحزاب،» الآية ٦.

(٢٦) [في رواية أخرى كان مسيحياً قبل هجرة الرسول إلى المدينة]. انظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٣ ـ ١٤.

(٢٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 367.

السنة الأولى للهجرة. ولكن عند النظر إليها في السِّياق على المَدى البعيد، فإن الدولة في المدينة يمكن أن تَبدو ناشِئةً من خَلفِيتها في شبه الجزيرة العربية. وبالفِعل كان كل شيء عن محمد ومجتمَعِه رفيعاً ومتميزاً، وكان مُنَبِّئاً أعظَم، لَه وَسيطٌ روحانيّ أعظَم، هو كبير الملائكة جبريل، يوحي إليه. وكان اللهُ هو الإله الأعظم، والأمّة هي قبيلة محمد العُظمَى، وشعبُ الله الأعظَم، وكانت لديهم العَصبية العُظمَى التي سرعان ما ستَدفَعهم في غزواتٍ عُظمَى لكي يَستولوا على إمبراطوريات وليس على إبِلٍ وغَنائم. ومع ذلك فلم تكن إلا نسخةً فائقةَ العَظَمة لأمرٍ كان موجوداً في ماضي العرب. وهذا أمرٌ يدركِهُ المؤرخون العرب أنفسهم، ويَميلُ المؤرخون غير العرب إلى بَدءِ مواضِيعهم عن العرب بظُهورِهم الصَّارخ المفاجئ على مَسرح التاريخ العالَمي بظاهرة الإسلام المولودَة الجديدة. يَميلُ المؤرخون العرب إلى اتِّخاذِ رؤيَةٍ أبعَدَ في الزمن تمتدُّ آلاف السنين قَبلَ محمد، ويَعتَبرون «جزيرة العرب» جزءاً من أرخَبيل متعدِّد الثقافات والإمبراطوريات. وهم يَتبَعون في الحقيقة أبعَدَ نَظرَةٍ مُمكِنَة، ويَبدؤون من لَحظَة الخَلق.

كانت هناك نقطةُ ابتعادٍ رئيسية عن ماضي شبه الجزيرة العربية. لا نَعرفُ مَدَى السُّلطَة التي كان يمارِسها «المكربون» في الشعوب القديمة من الجنوب، ولكن لا يبدو أن حُكمَهُم كان مُطلَقاً. ففي التقاليد القَبَلية الشمالية التي كانت الأمّة الجديدة وَارثتها المباشرة، لم يكن حُكمُ الزعماءِ فَردياً استِبدادِياً مُطلَقاً إلا فيما نَدَر، بل حَكَموا بالموافَقة والمُراضَاة، واتَّخَذوا قراراتهم على أساسٍ من التَّشاور مع رفاقِهم الأكبر سِنّاً. وكان الحصولُ على قوى ديكتاتورية، مثلما فَعَلَ كليب، الذي أطلَقَ السَّهم القَدَريّ الذي أشعَلَ حربَ ضرعِ النَّاقَة[٢٨]، يَستَدعي العَداوة والانتقام. وبالمُقارنة، كان محمد يَنطقُ باسم الله، ويَستطيعُ فَرضَ السُّلطة العظمَى التامة، وسرعان ما أصبَح واضِحاً أنه لا يمكن معارَضَتُه. فمَثلاً، عندما طُرِحَ سؤالٌ عمَّن يمكِنه استِخدام الأراضي التقليدية لمَرعى القبيلة، فإنه أعلَنَ ما مَعناه أن الأرض من الآن فصاعداً هي أرضُ الله ورسوله، وتستطيع الأمّة كلها استِخدامها للرَعي[٢٩]. أي بالاصطلاحات الحديثة فقد «أمَّمَ» أراضي الرعي.

---

(٢٨) انظر: ص ١٦٣ ـ ١٦٥ من هذا الكتاب.

(٢٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 12, p. 694.

عندما تأسَّسَت السُّلطةُ الشاملة، أصبَحَ كلُّ شيءٍ تَرفُضُهُ هذه السُّلطةُ خَصماً و«آخر» حَدَّدَ الأمةَ الجديدة بالانعكاس. تَلاشَى التَّعَددُ الأصليّ في الأمَّة، وحَلَّتْ مَحَلَّهُ ثقافةُ المُعارَضة، بل والعَداوَة. كانت المعارَضة حَرفِية، فبالنسبة إلى محمد وأحنافه في الأيام الأولى في يثرب، كان اتّجاه القِبلَة في الصلاة نحو القُدس، وفي السَّنة الثانية بعد الهجرة حَدَثَ تَحَوُّلٌ بنحو ١٨٠ درجة، وتَحوَّلَت قِبلَةُ المسلمين، فأعرَضُوا عن جَبَلِ صَهيون، وأسلَموا إلى الله، ربّ الكَعبةِ في مَكَّة[٣٠]. كان «تَحولاً» بالمَعنى الأساسي للكلمة. ولكنه كان في الوقت نفسه مُعاوَدَةً، فقد كانت العروبة في العقيدة الجديدة تُرَسِّخُ نفسَها.

ازدادَت العداوةُ ضد الأنماط الأخرى من التوحيد، وعلى العكس من التصريحات التصالحية الأولية، نزلَتْ آياتٌ قرآنية أكثر حِدّة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣١].

ظَهَرت العَداوة في المدينة سنة ٦٢٦ عندما طُرِدَ بنو النَّضِير، إحدى قبائل اليهود، وتم الاستيلاء على ممتلَكاتهم. وفي السنة التالية، قُتِلَ ٦٠٠ من أفراد القبيلة اليهودية الثانية بَنو قُرَيظَة بعد اتهامهم بأنهم تَصَرفوا كطابور خامِس لصَالح مُشرِكي مكة الذين أدركوا مَدى الخطورة التي وَصلَتْ إليها منافِستهم المدينة، فأرسَلوا جيشاً لحِصارها. تم طَرد مَن بَقِيَ حَيّاً من بني قريظة[٣٢]، ونزلت آيات قرآنية تُبَرِّر ذلك[٣٣].

بالنسبة إلى هذه النقطة الأخيرة، من الواضح أنه على الرغم من أن شَكلَ الوحي قد ظَلَّ رفيعاً وراقياً، إلا أن المُحتوى اتَّجَه بوضوح نحو الدنيا في الفترة المَدَنيَّة. فقد دَعَت الحاجَة لتَحديد مَن يَحقُّ له الانتماء إلى المجتمع الجديد، وبِناء ذلك المجتمع، بِتَدَخُّلٍ إلهيّ دائم. تُلمِّح بعضُ طَبعات القرآن إلى هذا التَّغيُّر في طبيعة الوحي بتَمييز السّور إلى «مَكّية»

(٣٠) قارن أبيات زيد بن عمرو: ص ٢١١ ـ ٢١٢ من هذا الكتاب.

(٣١) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ٥١.

(٣٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 117.

(٣٣) انظر على سبيل المثال: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨.

و«مَدَنية»(*). يُقدِّم محمود محمد طَهَ السوداني رؤيةً إصلاحية متبصِّرة نادِرة حَديثة بادّعائه أنّه: «من الواضِح أنّ الآيات المَدنية ذات طبيعة ومُحتوى تاريخي ولا تُلائم الأحوال المعاصِرة»(٣٤). تم شَنقُه بتهمة الردّة في الخرطوم سنة ١٩٨٥ وهو في منتصَف السَّبعينيات من عُمره. مازال يُحَفِّزُ ردودَ فِعل قوية مِن قِبَلِ البعض بإحياء ذكرى إعدامِه كل سنة في ١٨ كانون الثاني/ يناير بوصفِهِ يومَ حقوق الإنسان العربي. وعلى العَكس من ذلك، فقد كنتُ يوماً في غرفةٍ فَرغَتْ تماماً لمجرد التَّلميح ببعضِ أفكارِه.

واجَهَ محمدٌ تحديات تأسيس مجتمع وبِنائِه في دَولة تحت رئاسَتِه عند انتقالِه من مكة إلى المدينة. قاوَمَتْ شخصياتٌ دينية سابِقة عُروضاً مُغرِية للحصول على سُلطات دنيوية، أشهَرها المسيح خلال وجودِه في البَرِّيَّة، بينما تَبنَّاها محمد وجَعَلها جُزءاً من رسالتِه. كان المسيح مَلك اليهود فقط في النفوس السّاحِرة على الصليب، عندما توفي محمد كان سيِّدَ العرب بحُكم الأمر الواقع، وهو لَقَبٌ مازال أحفادُهُ يَلتَزمون به إلى الآن. أجاب الوحي المقدّس على الأسئلة التي لا بد منها بشأن بناء القوة والإمساك بالسّلطة في المدينة، وهكذا بينما الرسائل الجوهرية في القرآن جَديرة بأمير السلام، إلا أنها تُشير أيضاً إلى أمورٍ تُناسِب كتاب «**الأمير**» لماكيافيللي، وهذه هي نقطة الاختلاف الكبرى مع المسيحية، وليست رَفضَ الاعتقاد بالصَّلبِ أو بعَقيدة التَثليث(**). كما أنها تركَتْ تراثاً خالِداً، فبالنسبة إلى معظم الأخلاقيين الإسلاميين، لا يُعتَبر السَّعي للحصول على القوة والاحتفاظ بها في حَدِّ ذاته أمراً ملوَّثاً بشُبهات الخطيئة، وهم يَتركون الحُكّام يَفعلون ذلك، ويَصمتون على ما يبدو أنَّه غموضٌ أخلاقي. وإن شخصيات مِثل توماس بيكيت Thomas Becket وتوماس مور Thomas More هي شخصيات نادِرة جداً في

(*) [يوضَعُ هذا التميز أحياناً لِتِبيانِ مَكانِ النّزول وليس لِتِبيانِ اختلافٍ في طبيعة الوَحي] (المترجم).

(٣٤) Ali A. Allawi, *The Crisis of Islamic Civilization* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009), p. 130.

(**) [يركِّز القرآن صَراحةً على أن نقاط الاختلاف الرئيسية عن المسيحية المعاصِرة للرسول هي بالفِعل عقيدةُ التثليث وتَأليهُ المَسيح وعَدَم الاعتقاد بصَلبِه، إنما شُبِّهَ لَهُم] (المترجم).

المسيحية، ولكن أمثالها نادرة للغاية في الإسلام(*).

جاء بالسَّيف

عندما توسَّعت الدولة الجديدة سُرَّ محمد باستمرار بقاء اليهود الموجودين في أماكِن أخرى حيثُ هُم، خاصةً إذا كانوا يستطيعون العمل كمُزارعين مثلما فَعَلوا في خَيبر على بُعد ١٥٠ كيلومتراً شمال المدينة(٣٥). وكانت هناك استمراريات أخرى موجودة من قَبل، كانت إحداها على الجبهة العسكرية ـ الاقتصادية. في البداية، عندما كان محمد ضعيفاً من الناحية العسكرية، أخبَره الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(٣٦).

إلا أن ذلك سرعان ما تغيَّر عندما جَمعَ قوّته في المدينة. ويُشير دانييل فاريسكو Daniel Varisco إلى أن «عِلمَ الإنسان قد لَعِبَ دَوراً في تِبيان مِن أينَ لَم يأتِ الإسلام بشكلٍ مؤكَّد» وتحديداً أنه لَم يأتِ من «الصحراء بدَورَتِها اللانهائية مِنَ العَداوات والغارات التي تُعَرِّفُ التوحيد الجديد بأنَّه عَنيفٌ وغير مُتَحضِّر»(٣٧). يؤكِّد التاريخ ذلك، فقد أتَى القرآن من بيئة حَضَرية في مكة، وكما آمَلُ أنني قد وضَّحتُ، فهو يُدينُ بشيء ما للقدماء المتحَضِّرين بشكلٍ بارزٍ، إن لم يكونوا دائماً غير عَنيفِين، في ماضي شعوب جنوب شبه الجزيرة العربية. يأتي الإسلام مِن كل ذلك، وفي أعماقِه ينبوعٌ عَميقٌ من الروحانيات ومِن الشعور بإعجابٍ لا يمكن وَصفُهُ بعَظَمَةِ الخَلقِ، وغموضِ الخلود. والتوحيد الكامِل للإله المقدَّس خَالِق كل شيء. لا يستطيع أشَدُّ الملحدِين إنكارَ وجود أمرٍ خارِقٍ للطبيعة في أوائل الوَحي، وتَسقطُ جميع أسلِحة أعنَفِ السَّاخرين أمام جَمال القَداسة، مثلما صَرَّحَ ريتشارد بورتون Richard Burton السّاخر اللّدود عندما تأمَّلَ الكعبة أولَ مرة: «لا يوجد شيء البَتَّة في أي

(*) [هذا حُكمٌ جائر لا يُنصِف شخصيات جَهَرَتْ بالحق أمام سُلطان جائر مراتٍ كثيرة في تاريخ الإسلام منذ أيام معاوية والحَجّاج وخلفاء بني العبّاس والمَماليك وكثير غيرهم، ويُعتَبرُ قَولُ الحَقِّ أمامَ سلطانٍ جائرٍ بمَرتَبةِ الشَّهادة والجَنّة] (المترجم).

(٣٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٣.

(٣٦) **القرآن الكريم**، «سورة الحجر،» الآية ٨٥.

(٣٧) Daniel Martin Varisco, *Islam Obscured: The Rhetoric of Anthropological Representation* (New York; Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2005), p. 10.

مكان بمِثلِ هذه الجَلالة والتَّأثير»[٣٨]. يأتي الإسلام مِن هذا، وسيَعود إلى ذلك الأصل فيه مِنَ التوحيد الكامِل كما يقول القرآن عن آخِر الزمان:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٣٩].

ولكن رحلةَ العودة الكبيرة هذه مَرَّتْ بفتراتٍ حتى الآن استُخدِم فيها الخيار العسكري بسبب كونها عقيدة اجتماعية ـ سياسية، إضافة إلى كونها إيماناً. بدأتْ إحدَى هذه الفترات بعد سنتَين من الهجرة.

إضافة إلى قوة القرآن، فإن جاذبية محمد الشخصية، وإرسال المَبعوثين، والاستِخدام الناجح لخُطَط الإغارة، كانت أسباباً وراء ظُهور المدينة كقوة. تَعتَبر أولى المَصادر العربية هذا الظهور في سِياق هذه النظرة، فقد سُمِّيَتْ أولى كُتُبِ سيرة محمد «كُتُبُ المَغازي»، وهي تقارير متسلسلة لحَملاته العسكرية. أُرسِلتْ نحو ثلاثين عملية كبيرة، وشاركَ محمد بدَورٍ فعّال في نحو ثُلثها[٤٠]. وهناك في كُتُب المَغازي ما هو أكثر من أعمال الجرأة والشجاعة، ولكنها تَنتَمي في الأساس إلى تقاليد «أيام العرب»[٤١]، وهي أيام مَعارك قَبل الإسلام تُشكِّل أقدَمَ عِلمٍ في التأريخ العربي.

كانت أولى المواجَهات الرئيسية أكثرها تأثيراً من وجوه عديدة، وكان انتصارُ محمد فيها أمام عَدَدٍ أكبَر وأكثَر عَتاداً هو الذي أكَّدَ لَه ولشَعبِه بأنَّ الله في جانِبهم عسكرياً ومَعنوياً. كانت قافِلةٌ غنية من قوافل مكة عائدةً من سورية في السنة الثانية للهجرة بقيادة أبي سفيان (الوثَني الكبير الذي سيُدهَشُ بانضِباط المسلمين). قَرَّرَ محمد مع نحو ٣٠٠ رَجُل أن يَضربوا مكة حيث يؤلِمها ذلك على الطريق الرئيسي لتجارتها الأكثَر ربحاً. انطلَقَ لقَطعِ طريق القافلة قُربَ بِئرِ ماءٍ اسمُها بَدر تقَعُ على طريق التجارة من مكة إلى سورية في جنوب غرب المدينة. إلا أن أبا سفيان سَمِعَ بالهجوم المُدبَّر، وأرسَلَ

---

(٣٨) Richard F. Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Madinah and Meccah* (London: Tylston and Edwards, 1893), closing words of chapter XXXI.

(٣٩) **القرآن الكريم**، «سورة الرحمن»، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٤٠) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٤١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 661.

إلى مكة طَلَباً للدعم. عندما وصَلَت القوة المكية التي بلَغَ تَعدادها أكثر من ٩٠٠ مقاتِلٍ إلى بَدر، كان أبو سفيان قد اتَّجه بالقافلة نحو طريق آخر. ولكن قوة الدَّعم المكية قَرَّرتْ أنها يجب أن تُلَقِّنَ المُنشَقِّين إلى المدينة دَرساً. سارَت الأمورُ بشكل سيئ جِداً بالنسبة لهم، فقُتِل منهم سَبعون، وأُسِرَ عددٌ مماثل، بينما لم يخسَر محمد سوى خمسة عشر قتيلاً. يمكن تصور الشعور بانتصار الحق في جانب أهل المدينة. كانت الهجرة بدايةَ عَهدٍ جديد، وكانت معركة بَدر في السنة الثانية للهجرة نقطة تحوّل في مَصير محمد، وكانت البداية الحقيقية للمَلحَمة.

تَنظُر الذاكرة الشعبية لِمثل هذه المَعارِك بالأبيض والأسود، الحَقّ مقابل الباطل، إلا أن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً مثلما هي الحالة دائماً. كما ذُكِرَ سابقاً، فإن ابناً مِن أبناء أبي بكر، الرَّجُل المساعِد الأيمن لمحمد، قد حارَبَ إلى جانب المشركين المكيين[٤٢]، وكذلك فَعَلَ العبَّاس عَمُّ محمد، السَّلَفُ المُفتَرَض لسُلالة الخلفاء التي ستَستَمِر لاحِقاً خمسَمئة سنة[٤٣]. وكانت هنالك اندِماجات أخرى بين الماضي الوثَني ومستقبل الإسلام. لَعِبَ شِعرُ المعركة دَوراً مع الطَّرفَين في معركة بَدر، وفي مواجهات تالية، مثلما كان الأمر في أيام العرب قبل الإسلام. في معركة أُحُد في السنة الثالثة أو الرابعة للهجرة حَدَثَتْ هزيمة نادرة للمسلمين، ويَرجِع انتصارُ مُشرِكِي مَكَّةَ جُزئياً إلى دَورِ هند زوجة أبي سفيان ووالِدة أول خليفة في الدولة الأموية القادِمة، فقد أنشَدَتْ تُشَجّع المكيين قائلة:

نحن بَناتُ طَارِقْ نَمشِيْ على النَّمَارِقْ
الدُّرُّ في المَخانِقْ والمِسكُ في المَفارِقْ
إنْ تُقبِلُوا نُعانِقْ ونَفرُشُ النَّمارِقْ
أو تُدبِروا نُفارِقْ فِراقَ غَيرِ وامِقْ[٤٤]

ربما تبدو كفتاة مراهِقة مُشَجِّعَة ولكن تجب إضافة أن التقاليد الإسلامية

(٤٢) انظر: ص ٢٣٠ من هذا الكتاب.

(٤٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 9.

(٤٤) ورد في: Geert Jan van Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology* (New York; London: New York University Press, 2013), p. 94.

تُصورها بشكل أكثر شَناعَة، فقد قُتِلَ في معركة أُحُد عَمٌّ آخَر لمحمد، هو حَمزة وهو يحارِب إلى جانب ابن أخيه، ويُروى أن هنداً قد مَثَّلَتْ بِجُثَّتِهِ ومضَغَتْ كَبِدَه(٤٥). أما إلى جانب محمد فقد وقف أشهَر الشّعراء هو حسان بن ثابت، الذي كان مشهوراً بقصائده في مَدح مُلوك الغساسِنة. جَرَى الشاعرُ وقوافِيه مَجرى النبيّ ووَحيه، والمَلاكُ جبريل، الذي كان وَسيطاً في نَقلِ القرآن، قد عَمِلَ أيضاً عَمَلَ «شَيطان» الشاعر حسان أو مُلهِمَهُ في قصائد المَعركة بدلاً من الجنيّ العتيق(٤٦). لا نَعرفُ ما الذي فَعَلَهُ محمد بشأن استمراريات أخرى، مثلما مَدَحَهُ حسان بصورة تقليدية فيها خَمر فاخِر وقُبلات(٤٧)، على الرغم من أنه يفترض أنَّ النبي قد قال: «إذا رأيتُم المَدَّاحين فاحثوا في أفواهِهم التُّراب»(٤٨). شاعرٌ آخر نَوى أنْ يكون من المَدَّاحين هو أعشَى قَيس، الذي عَرفناه سابِقاً في مَدحِه للبَنات بأوصاف شاعرية لتَحسين فرصَتهن في الزواج، وكان قد نَصَحه المشركون في مكة ألا يعمَل مع محمد، واشتَروه بالإبل، وأرهَبوه بإنذارات عدم وجود الخمور في المدينة(٤٩).

هناك استمرارية أخرى مع الماضي العربي، إذ لم تكن الغارات بلا غَنائم، فقد أخَذَ محمد خُمسَ الغَنائم بوصفِه زعيمَ توزيع الغنائم التقليدي، كما أعطَى حصَصاً منها لأقارِبه مِن آل هاشم. يُقال إنه قد رَكَّزَ على التَّصريح بأنه النبي الوحيد الذي جُعِلَت الغنائم مَشروعَةً له(٥٠)، إلا أنها كانت مَقبولة على كل حال في التقاليد العربية، كما شَرعَها القرآن أكثر في سورة اسمُها «الأنفال»(٥١). كانت عملية توزيع الحصَص منضَبطَة بدقّة، ونزل التهديد

---

(٤٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 264.

(٤٦) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ١١٦.

(٤٧) al-Ma'arri, *The Epistle of Forgiveness, Volume One: A Vision of Heaven and Hell*, p. 167.

(٤٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٠٠.

(٤٩) لويس شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية** (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨٢)، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٥٠) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٣، ص ١١٤.

(٥١) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٤١.

بجَهنم إذا غَشَّ أحَدٌ فيها[٥٢]. ومن المعقول أن محمداً قد خَصَّصَ مَبالغَ مهمّة من خُمسِ زعامته لتوزيعها على مُعارِضيه من أجلِ ضَمِّهم إلى صَفِّه كما وصَفَهُم القرآن:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[٥٣].

سألَ عِراقيّ مسيحيّ في القَرن التاسع: «هل يأتي الأنبياء بالسَّيف؟»[٥٤] وهو يُفكِّر بالبدايات الهادئة بشكلٍ عام لعَقيدته الدينية، ويُقارنها بدِيانات التوحيد الأخرى. كانت إجابة ذلك الكاتِب هي: «كلا». إلا أنّ الإجابة الأكثر إنصافاً في حالَة محمد هي أنه لم يأتِ بالسيف في البداية، ولكن السَّوابق في ماضي العرب، وضغوط الوضع الحالي، وإمكانيات المستقبل، كلها تآمَرتْ لوَضعِ السيف في يَدِه، وربما كان ذلك ما سَيفعَله أنبياء آخرون يَظهَرون أكثر سِلمية، وأنهم سَيحملون السيوف لو أنهم غادَروا أوطانَهم التي لم يَجدِوا فيها الكرامة وقاموا بهجرَتِهم. أو بكلمة أخرى، لو تابَعوا ثوراتهم حتى النهاية. كانت الهجرة قَطعاً، ولكنها كانت أيضاً انتِقالاً من النشاط الروحاني الأخلاقي إلى العمل السياسي. كان العمل السياسي في ذلك الوقت، ومازال يَعني عادَة في تلك المنطقة هذه الأيام، تَشكيلَ عَصبيةٍ جديدة، وجماعة تَضامن جديدة، وحَمل السلاح، والاستيلاء على كل ما تستطيع، والتَّمسكَ به ما استَطَعتَ. وبالفِعل، فإن مَعنى كلمة الهجرة سيُصبح إعادة تَوطِين رجال القبائل في مُدُنِ الحاميات العَسكرية (الأمصَار)[٥٥]. وَضَعَتْ إحدى السلطات كلمة الهجرة صَراحة بمَعنى «الخِدمة العَسكرية»[٥٦].

---

(٥٢) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١٦٢.

(٥٣) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٦٠.

(٥٤) انظر على سبيل المثال: Thomas Sizgorich, ""Do Prophets Come with a Sword?": Conquest, Empire, and Historical Narrative in the Early Islamic World," *American Historical Review*, vol. 112, no. 4 (October 2007).

(٥٥) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), p. 102, and Patricia Crone, "The First-Century Concept of "Hiğra"," *Arabica*, vol. 41 (1994), p. 367.

(٥٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, p. 1006.

بصورةٍ ما، يمكن اعتِبار الدِّيانة الرسمية طائفةً عِبادية حَصَلَتْ على جَيش، ولكن بينما تحتاج معظَم الطوائف إلى وقتٍ طويل قَبلَ أن تتسَلَّح، فقد حَصَلَ الإسلام على جيشِه على الفَور تقريباً.

نجاحُ محمد الباهِر في أدوارِه السياسية والعسكرية في المدينة يجب ألا تَدفَع المَرء، سواء كان مسلِماً أو غير مسلِم، لِنسيان الجوانب الروحانية والأخلاقية في رسالَتِه خلال سنوات مكة، لأنها قَلبُ عقيدة الإسلام، وهي التي سوف تَبقَى. لقد أدَّتْ تلك السنوات القليلة الحافِلة بالأحداث في المدينة إلى تَطور الإسلام كظاهرة سياسية اجتماعية، إلا أنها تُشكِّل الدفعَة الثانية من الدفعات الثلاث في تَدفُّق التيار القومي العربي، إضافة إلى الهجرات الأسطورية من الجنوب القديم، والفتوحات القادمة عَبرَ ثلاث قارات. إنها مسرحية درامية على ثلاثة مَسارِح: مَأرِب، والمَدينة، والعالَم. وهي جزء مما يُلهِمُ الآن بعضَ الشباب الأوروبي المسلِم للهجرة مِن أَرضِ «الجاهلية الوثَنية» إلى «الدولة الإسلامية/ داعش» ويَحلمون بعالَمِ الفتوحات للمَرحلَة الرابعة الأخيرة الخالِدة: الجنة.

ذكَرتُ هَدفَ «فَصل الإسلام» عن تاريخِ العرب[٥٧]، وسيؤدي ذلك، حَسبَ رأي سَمير قَصير، إلى تحرير العرب مِن «حَجَر الرَّحَى»، واستِعادَة تاريخِهم من مَرَضِهِ الحالي[٥٨]. أدرَكتُ عند النظر إلى محمد في المدينة أن ذلك غير ممكِن تماماً، وكما كَتَبَ أحَدُ المُعلِّقين: «الإسلام دِينٌ، ولكنه أيضاً شَكلٌ من القومية الدينية. . . ذَهَبَ بعضُهم بعيداً في وَصف العروبة والإسلام بأنهما توأمان سياميان لا ينفَصِلان»[٥٩]. قد تكون عمليات فَصل دَموية، مِثل فَصلِ التَّوأمين القَديمين في مكة: هاشم وعَبد شَمس، وكما كانت الحالة في هجرة محمد. يبدو أحياناً أن تاريخ العرب وتاريخ الإسلام ملتَصِقان، ليس فقط عند الوِرك، بل في القَلبِ أيضاً. بَعدَ هذا القول، فإن ما يمكننا، وما يجب علينا فِعله، هو رؤيةُ الإسلام ليس كبِداية كلّ شيء، بل كجزء من الكلّ؛ إذ إنه لم يكن حَجَر الرَّحَى الواحِد، بل تم كذلك نَحتُهُ من صَخرةٍ متنوعةٍ أقدَم بكثير مما يَظهَر للوَهلة الأولى.

---

(٥٧) انظر: ص ٤٢ من هذا الكتاب.

(٥٨) Samir Kassir, *Being Arab* (London: Verso Books, 2013), pp. 34 and 92.

(٥٩) Lawrence Pintak, "Border Guards of the "Imagined" Watan: Arab Journalists and the New Arab Consciousness," *Middle East Journal*, vol. 63, no. 2 (April 2009), p. 202.

الحُرّاس المُتَبَسِّمون

استَسلَمتْ مكة في كانون الثاني/يناير ٦٣٠، وانتَصَرت المَدينةُ عسكرياً، إلا أنها لم تُحَقِّق النَّصر الحاسِم، فقد كانت هناك مفاوضاتٌ وهدنات، كانت هنالك مُصالَحةُ القلوب والعقول لِما سبَقَ من غَزوات، وقتالٌ بسيط في السَّنَتَين اللَّتَين سَبقَتَا ذلك. وفي النهاية، أدرَكَ الحَرَسُ القديم في مكة أنهم حتى لو كان بإمكانهم هزيمة محمد، فلربما كان الأربَح في الميزان هو الانضِمام إليه. لن تكون المَرَّة الأخيرة في تاريخ العرب التي يُلقي فيها نظامٌ قديم بنفسِه في أحضان عَقيدَةٍ فَتيَّة لكي يُطيلَ وجودَه، فمنذ فَترةٍ قريبة يَقفِزُ إلى الذِّهنِ مِثالُ آل سعود والوهابيين(*).

لم يَخطف الحَرَس المكي القديم ثورةَ محمد بالانضمام إليها، إلا أنهم اختَرقوها، وربما كانوا سُعداء بوضعِها في خِدمَة أهدافِهم. لا يَعرفُ إلا الله النِّيات الحقيقية لأبي سفيان وابنه الذي سيُصبح الخليفة معاوية، ونوايا جميع الآخرين الذين انتَقَلوا إلى جانب محمد. ولكن لا يبدو مُستَبعَداً أنّ استغلال الفرصة الرئيسية قد لَعِبَ جزءاً في قرارهم، إضافة إلى الرسالة الروحانية (وتلك الأموال الجاهزة لَكَسبِ قلوبِهم). وعلى كل حال، فإن شخصيتَين كبيرتَين من ماضي مكة صَنَعا من القَرية مَركَزَ حَجٍّ ناجِحاً، وهما عمرو بن لُحَيّ وقُصَيّ، اللذان جَلَبَا الأصنامَ المقدَّسة من شرق المتوسط ومن أرجاء شبه الجزيرة العربية، ووضَعاها مَعاً في مكان واحِد. وبِشكلٍ ما، كان محمدٌ يَنقُلُ فِكرَتَهُما إلى مرحَلةً أخرى أبعَد بتبديل كلّ تلك الآلهة في إلهٍ واحِد. ربما شَعَرَ بذلك زعماءُ مكةَ القدماء، ففي عَصرٍ كان التوحيد يَتفوقُ فيه على تَعدّد الآلهَة، ستَجذِبُ خطَّةُ محمد مزيداً من الحجّاج والمال إلى مَدينَتِهم. من الواضح أن مُشرِكِي مَكَّةَ قد اتَّخَذوا قَراراً حَكيماً لأن اعتِرافهم بمحمد، وتأكيد محمد على مَركَزية الكعبة، ضَمِنَ لهم ازدِهارَ مَدينَتِهم منذ ذلك الحين وحتى الفَترة المَنظورة من الأبدية.

أصبَحَتْ مكة مَعبَدَ التوحيد المُطلَق، وانطَلَقَ مَقصِدُ الحَجّ مُيَسَّراً بَعد تغيير علاماتِه القديمة، إلا أنّ الإدارةَ ظلَّتْ كما هي منذ ذلك الحين، وظَلَّت

(*) [وَجهُ الشَّبَه غير واضِح في هذا المِثال! فمن الذي استفاد من هذا التحالف؟ الوهابيون، أم آل سعود، أم كلاهما؟ وكان كلاهما نظاماً فَتِيّاً صاعِداً] (المترجم).

عَشيرة بَني شَيبَة القرشية التي كانت الحافِظَة لمُقدَّسات العُزَّى[٦٠]، ثم مُنِحَت مفاتيح الكَعبة، ومازالت تحمِل مَفاتيحَها حتى الآن. هناك قولٌ قديم في مكة: «عشيرةُ شَيبة مُكَلَّلَةٌ بالابتِسامات، لا بد أنه يومُ فَتحِ الكَعبة» [غير حرفي][٦١]، لأنهم بالطبع قد فَرَضوا رُسومَ دُخول. مع مرور الزمن لا بد من أنَّ الابتسامات قد أصبَحتْ في بُنيَتِهِم الوراثية ابتساماتٍ مُزمِنة. وبطريقة أخرى أيضاً، اتَّضح أن ثورةَ محمد كانت أقرَبَ إلى التطور في طَبيعتِها. أُصيبَت الفئةُ الحاكِمَة المكية بهزَّة، وسيُعاد توزيع ثَروتها إلى حَدٍّ ما في جميع فروع شجرة العائلة المكية. إلا أن الحياة استمرتْ، ودَارَ الطَّوافُ حول الكعبة كما كان دائماً، وسارَتْ قوافلُ التجارة على طُرق مكة التجارية. وبالنسبة إلى أهل مكة، كانت السَّنة الهجرية بَعيدة كل البُعد عن كَونها إعادة التأريخ على طريقة الخُمير الحُمر Khmer Rouge في كَمبوديا.

ولكن بطريقة أخرى، كانت الثورة قد بدأت للتَّو. وَحَّدَ محمد في شخصيته الأصوات القديمة للكاهِن والخَطيب والشاعر والسَّيد، إلا أنه تجاوزَهم جميعاً، وراحَ يوحِّد أصوات العرب المتَنافِرة دائماً كما لم يتمَكَّن أحَدٌ مِن فِعلِ ذلك قَبلَهُ ولا بَعدَهُ.

إِعلامُ المَدينة

حتى قَبلَ فَتح مكة، أتاحَ صَلحٌ عُقِدَ مَعَها سنة ٦٢٨ لمحمد تركيزَ قواتِه المزدَهرة لأماكِن أبعَد في الآفاق العربية. كانت القوةُ عسكريةً أحياناً، إلا أنّ التقنيات التقليدية في الإغارة لم تَذهَب بعيداً، ففي حالَة الطائف، التي كانت المَركز الحَضَري المُحَصَّن في منطقةٍ خصبة تقَعُ إلى شمال شَرق مكة، وقاعدة قوة قبيلة ثَقيف، فقد كان الوضع يحتاج إلى أسلِحة أثقَل حيث استُخدِم مَنجنيقُ الحصار ودَبَّابة من جِلدِ البَقر لحِماية المقاتِلين أثناء حِصار تلك المدينة سنة ٦٣١[٦٢]. يُظهِرُ ذلك مدى تطور دولة المدينة في الثِّقة، وانفِتاحها على الابتِداع العسكري (الدَّبَّابة تَعني حَرفياً «الزاحِفة»، وتُستخدَم

---

(٦٠) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨)، ص ٤٦٤.

(٦١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 320.

(٦٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٦٣.

هذه الكلمة الآن في وَصفِ الدَّبَّابة المَعدنية بالمَعنى العسكري الحديث).
ولكن حَملات أخرى كانت سائرة على قَدَم وساق باستِخدام تقنيات أخرى.
وفي تلك الفترة على الأقل، سيَفتَحُ الإسلامُ معظَم مناطق شِبه الجزيرة العربية
دون اللجوء إلى السلاح.

خلال القَرن الذي سَبَقَ ذلك، كان أجدادُ محمد القرشيون قد نَسَجوا
شبكةً تجارية عَبر معظم أرجاء شبه الجزيرة[٦٣]. ضَمَّتْ هذه الشبكة من
الطرق التجارية لُحمَةً من التحالفات القَبَلية، وتوازناً من المَصالح المتكاملة
شَمَلَ مَصالِح البَدو في النَّقل والحِراسة من جِهة، والعقول المدَبِّرة لتجار
قريش من جهة أخرى، مما مَنَحَ هذا النظام القوة والصمود. استَخدَم محمد
تلك الشبكة في نَشرِ رسالته، وتمكَّن في النهاية من إعادة توجيهها لمَصلَحتِه
بطريقةٍ ربما تشبه ما استَخدَمَهُ البَلاشِفة في أوائل القَرن العشرين من
اتصالاتهم الوثيقة مع العمال في شبكة القطارات الإمبراطورية لنَشر عَقيدَتهم
في الميادين القيصرية.

حقَّقَ محمد هذا التَّحول بالدبلوماسية وكذلك بفَضل التَّقَنية، كان ذلك
النبي «الأميّ» يَستفيدُ من وسائل التواصل والإعلام مثلما كان يفعلُ بالقرآن،
خاصة فيما يتعلق بتطَور كتابة اللغة العربية الذي لم يكن مُستَثمَراً بشكل
جيد، وذلك للتَّواصُل مع القبائل والشعوب البعيدة. كَتَبَ كلود ليفي ـ
شتراوس Claude Lévi-Strauss: «الظاهرة الوحيدة التي ارتبطَتْ دائماً بالكتابة
هي إنشاء المدن والإمبراطوريات، أي دَمجُ أعدادٍ كبيرة من الأفراد في نظام
سياسي»[٦٤]. أدركَ محمد إمكانيات الكتابة كوسيلة للسيطرة، فقد كُتِبَتْ في
أيامِه المكية إعلاناتٍ عامّة تم تَعليقها أحياناً على جِدار الكعبة[٦٥] (مثل
التَّحالف القَبَلي الذي عَقَدَهُ جَدُّهُ)، والمُفتَرَض أنه من غير المتَوقَّع أن أحَداً
غير القلَة المكية القادِرة على القراءة سيَستطيعون قراءتها بالفِعل، إلا أنها
شَكلٌ من الإعلان الرسمي، مِثل النَّشر في جريدة. كانت الكتابةُ جديدةً
بالنسبة إلى مُعظم العرب، خاصةً العرب القَبَليين، وكانت ظاهرةً قويةً محاطَةً

(٦٣) Robert B. Serjeant, *South Arabian Hunt* (London: Luzac, 1976), p. 62.
(٦٤) Claude Lévi-Strauss, *Tristes Tropiques* (New York: Penguin, 1992), p. 299.
(٦٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 835.

بإهابٍ من السِّحر والطاقة الروحانية. كانت إمكانياتها السياسية هائلة، وقد استَخدَمها محمد إلى أقصَى حَدٍّ ممكِن.

كانت الكتابةُ حديثة العَهد أيضاً في المدينة[٦٦]، وانطلَق محمد لتَدعيمِه وتَقويتِه؛ فإضافة إلى كتَّابِه من المسلِمين المَكّيين الذين كانوا يَعملون على تَسجيل كلمات الله في كِتابَةِ الوَحي القرآني، فقد أعطَى أوامره بأن يقومَ كل أَسيرٍ متعلِّم من المشركين في معركة بَدر بتعليم الكتابة لعَشرةٍ من أولاد المدينة[٦٧] لكي يفدي نفسه.

هناك وثائقُ أصليةٌ مَزعومَة صادِرة عن محمد، ويُفتَرَضُ أنها بَقِيَتْ حتى قرونٍ متأخرة، وهي تُعطِي فِكرةً عن المَدى الذي وصَل إليه في استِخدام الكتابة. إضافة إلى الوحي المقدَّس، كان هناك مِثالٌ حُفِظَ فَوراً يَدُلُّ على حكمَتِه بشكلٍ حديث عن طبيعة الإيمان أَملاهُ على ابن عمِّه وصِهره عَليّ بن أبي طالب[٦٨]. ولكن هناك وثائق أخرى متفرّقة، مثل وثيقة مَنحِ أرضٍ كُتِبتْ على سعَفِ النَّخل[٦٩]، أو طَلَب جِزيَة من جماعة يهودية ومن الحاكِم الكِندِي لدومَة الجَندَل[٧٠]، أو رسالَة إلى الحَضارِمَة يَطلُبُ منهم الصلاة إلى الله ودَفعَ مُستَحقَّاتِهم للمدينة[٧١]. بَقِيَتْ كثيرٌ من نصوصِ الرسائل مثل النَّصّ الأخير، ولو كان بعضُها افتراءاتٍ تَقِيَّة إلا أنها ربما تُبَيِّنُ إنتاجَ كتَّاب المدينة. لا ريب أن مِثل هذه الرسائل المَكتوبة بخَطٍّ كان يُنظَرُ إليه برَهبةٍ خارقةٍ للطبيعة، ويَقرَؤها مُبَشِّرونَ فُصَحاء اللسان، كان لها تأثيرٌ قوي على مُستَقبِليها. أما بالنسبة إلى اليَمنيين الذين استَخدَموا كتابةً جنوبية قديمة من المُفتَرَضِ أنهم قد هَجَروها في فترةِ ظُهورِ الإسلام[٧٢]، فلم يُرسِل إليهم محمد رسائل فقط، بل أوفَدَ مُعلِّماً للكتابة العربية قائلاً لهم عَن مَبعوثِه مُعاذ بن جَبل: «إني بعثت

---

(٦٦) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ٦٠ ـ ٦١.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٦٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٧١.

(٦٩) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٣.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٩.

(٧١) الجاحظ، **كتاب البيان والتبين**، ج ١، ص ١٨١.

(٧٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

إليكم كاتباً»[٧٣].

أما الدَّور الذي لَعِبَهُ القرآن في حَملة الاندماج هذه، فهو أقلّ وضوحاً، مع أنه المِثال الأعظم للمعجزة المَكتوبة. رُويَ عن محمد قولُهُ إن المدينة قد فُتِحَتْ بالقرآن[٧٤]، ولا شك بأن القرآن كان يُنشَر في أماكن بعيدة بشكلٍ أو بآخر. كانت لُغتُهُ مُتاحَةً لمعظم العرب مهما كانت لهجتهم المَحَلية اليومية لأنها هي ذاتها اللغة الفصحى في الشِّعر التي كانت تَتسلّل في كافة زوايا شبه الجزيرة لعِدة قرون مِن قَبل، وكما كتَبَ المَسعودي بأنها «صَدَمَتْ أسماعَهم وشَلَّتْ عقولَهم»[٧٥] [غير حرفي]. ولكنها ربما أدهَشتْهم في البداية بأجزاء وقِطَع مَنقولة شفهياً، خاصة السُّور الأولى الأقصَر والأقوى تأثيراً. النَّصُّ بكامِله استطراديٌّ جِداً، وصَعبٌ جِداً في غالبيته لكي يَنجَح كوسيلة دعائية، كما لم يَتوفَّر بشكلٍ نَصٍّ كامِلٍ، ولا نسخة مُجمَّعَة إلا بَعدَ وفاة محمد بفترة طويلة، إلا أن محمداً كان لديه كلمات أكثر للنَّشر في حَملَته الإعلامية.

لدى مراقَبَتي لِما يَجري خارج نافِذتي، والتساؤل عن السرعة القصوى التي تم فيها تحويل الجماهير إلى قضية جديدة، يبدو واضحاً أن ما شَدَّهم للاعتقاد به لم تكن النصوص الطويلة المقدَّسة الخَفية، ومن المؤكَّد أنه لم يكن الحِوار المَنطقي، بل تلك الأدواتُ الأقلّ دقّة، وهي الشِّعارات والنِّداءات. لدينا هنا الصَّرخة الإيرانية الأصل التي تُنادي:

الله أكبر، الموتُ لأمريكا، الموتُ لإسرائيل، لَعنَةُ الله على اليهود، النصرُ للإسلام!

تَصيحُ بها الجماهير في المناسبات العامة مثل صلاة الجمعة والمَسيرات والجنازات، وهي «تَجمَع الكَلمة» بالقوة الغاشِمة (الكلمة العربية التي تدل على «الصاروخ» تَعني الذي ينادي ويَصرخ، ولها علاقَة بكلمة الصَّرخة).

ربما لا يكون من الحكمة دائماً الاستقراء إلى الوراء، إلا أنني أعتَقدُ

---

(٧٣) ورد في: أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ٢٢.

(٧٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٧.

(٧٥) انظر: ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ من هذا الكتاب.

بأنه إذا كانت المدينة قد فُتحت بالقرآن، فإن معظمَ العرب قد تم غَزوهم بشِعاراتٍ وكلمات كانت أكثر بَلاغَة ومَعنى مما أسمَعه الآن. أولاً وقَبل كل شيء كانت هناك كلمات:

الله أكبر

(أي إن آلهتَكَ القَبَلية السابقة ضَعيفة وتافِهة)، ثم كانت هناك الكلمات المعطَّرة التي لا تُنسَى:

لا إله إلا الله

(أي إن آلهتكَ القَبَلية غير موجودة على الإطلاق)

محمد رسول الله

(أي إن كل ما يقولُه لا يَرقَى إليه الشك). ربما يَمتلكُ الشيطان أفضَل النغمات، حسب القَول الإنكليزي المَأثور، ولكن الله لديه كلماتٌ أفضل.

استمرَّت الكلماتُ فترةً طويلة مدهِشة، فمازالت هذه الشِّعارات تَعمل تماماً حتى هذه الأيام، ومازالت الجماعة تَستَقبِل «الرسالة»، فأول كلماتٍ يَسمعها مَولود مسلِم هي هذه الكلمات التي تُهمَسُ في أذنِه اليُمنى، كما أنها تُهمَسُ في أُذن المسلِم المُتوفَّى. ينادَى على المسيحين بِقَرعِ الأجراس، وهي مُبهِجَة إلا أنها ليست ذات مَعنى، بينما يُجمَعُ المسلمون إلى صلواتهم الأكثر تكراراً بالكلمات التي تَشمَل الجُمَل المَذكورة آنفاً، ويتم تَضخِيمها هذه الأيام (هناك ٤٠٠٠ جهاز مكبّر للصوت في نظام جديد تم تركيبه مؤخَّراً في الحَرَم المكي، ويمكن سَماعها على بُعد ٩ كيلومترات)[٧٦]. يتم ترديد هذه الجُمَل بشكلٍ اعتِراضي أثناء الكلام اليومي، وتَظهَر على عَلَم المَملَكة العربية السعودية وعلَى عَلَم تنظيم «الدولة الإسلامية/ داعش» الأسود الذي يُشبه عَلَمَ القَراصِنَة. سيَستَمع إليها المسلِم، وسيَنطقها كثيراً على مَدى حياتِه مَرات لا تُعَدُّ ولا تُحصَى. إذا كان لديه مَسجِد واحِد في مجالِ سَمعِه وعاشَ سَبعينَ سنة فسُيقالُ له «الله أكبر» نحو ٧٥٠,٠٠٠ مَرة. ربما تكون صعوبة التَّوقف عن الإيمان مثل صعوبة التوقف عن التَّنفس.

---

(٧٦) BBC, News from Elsewhere, "Saudi Arabia: An Even Louder Call to Prayer," 14 July 2014, <https://www.bbc.com/news/blogs-news-from-elsewhere-28292087>.

وهكذا فقد كان محمدٌ رسولَ الله، وقد نَشَرَ وأصحابه كلمةَ الله كِتابَةً، كما نَشروها في شِعارات شَفهية/سَمعية. كانت هذه أساليب مبتَكَرة لتَشكيل روح الجَماعة بين العرب لم يكن لها مثيل مِن قَبل، مما خَلَقَ عَصبيةً عُظمَى، وقد لَعبَت الشعارات دَورَها في المحافَظة على العَصبية وفي حِفظ اللغة العربية. مثلما لاحَظَ الباحث غير العربي البَيروني (وهو من أصلٍ إيراني) في القَرن الحادي عشر:

كم احتشد طوائف وخاصة منهم الجِيل والديلم، في إلباس الدولة جلاليب العجمة، فلم تنفق لهم في المراد سوق، ما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمساً(٧٧).

انهمَرتْ وسائل التَّواصُل التي نَشَرها محمد من المدينة مَحكِيةً ومَكتوبَة، ودَارتْ سُوَرُ القرآن والشعارات المقدَّسة في شبكَة شبه الجزيرة العربية، كما أُرسِلتْ دعواتٌ مَكتوبة أو استِدعاءات سَلَّمَها مَبعوثون مُتعَلِّمون إلى زعماء القبائل. فُتِنَ الزعماء وأجَابوا الدَّعوة، وذَهبوا إلى المدينة حيث أدهَشتْهم قوةُ محمد وشخصيته مثلما حَدَثَ لأبي سفيان وعُروَة. وفي مجتمع هَرَميّ، إذا جَذبتَ الزعيمَ فَستَجذِب معَه القَبيلةَ كلها. ربما كان «جَمع الكلمة» أقلّ أهمية بالنسبة إلى محمد مِن ملءِ الصَّمتِ والسُّكون بكلماتِه ورسالاتِه التي لم يُسمَع بمِثلها مِن قَبل. باستَعارَةِ تَعبير مارتن نواك Martin Nowak ثانية، فإن اللغة تُوصِلُ إلى السَّيطَرة بزَرع الأفكار(٧٨)، وكم ستَكونُ الأفكارُ أقوى إذا لم تَقابِلها أفكارٌ مُسبَقَة مثلما كانت عليه الحال خلال القَرن السابع في شبه الجزيرة العربية.

اندفَعَت الوفودُ إلى محمد من مناطق أبعَد خلال ٦٣٠ ـ ٦٣١، ولا سيما أنّ بعضَها كان من العرب المسيحيين من نَجران ومن شمال شرق شبه الجزيرة العربية(٧٩). لم يأتوا لكي يتَحوَّلوا إلى الإسلام، بل للتَّعبير عن

(٧٧) ورد في: Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 14.

(٧٨) Martin Nowak, *Supercooperators: Altruism, Evolution, and Why We Need Each Other to Succeed* (New York: Free Press, 2011), passim.

(٧٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 11, p. 219.

ولائِهم للقوة الصاعِدة. كان ال «إسلام» يَشملُ أكثر من مَعنى واحِد، فقد كان، ومازال من بعض النواحي، مسألةَ سياسَةٍ مثلما هو مسألة عَقيدة. أُجرِيَتْ اتصالاتٌ دبلوماسية مع أثيوبيا المسيحية والقسطنينية. أرسَلَ الإمبراطور البيزنطي إلى محمد مِعطَفاً من الفَرو، جَرَّبَهُ محمد قَبلَ أنْ يُرسِلَهُ إلى النَّجاشي الذي ربما كان أكثر حاجة إليه في هضبة الحبشة الباردة[٨٠]. تحَالَفتْ قبائل وشعوب بعيدة مع محمد، عن طريق زواجٍ متعدِّد أحياناً[٨١]. يَظهَر بعض التوتر بين القوى الصاعِدة والزائِلة في شبه الجزيرة العربية في حكايةٍ عن ليلَةِ زواج محمد من أسماء بنت النعمان من قبيلة كِندة، ويُروى أنه دَعاها إليه فامتَنعتْ قائلةً: «هل تهب الملكة نفسها للسوقة؟»[٨٢]، إلا أن الجاذبية النبوية غَلبَتها[*].

يبدو أن جاذبية النبي تَعمل على الجميع، إذ دَخَلَ مَزيدٌ من العرب في عَقد الصلاة إلى الله، وتقديم الوَلاء في الأرض إلى نَبيِّهِ، ودَفعِ رسوم العُضوية [الزكاة]. ليس واضِحاً كم كان المَبلغ المَدفوع في البدايات، لأن قواعد دَفعِ الزكاة لم تتشكَّل إلا فيما بَعد، ولكن يبدو أن المَبالغ لم تكن كبيرة. ومع ذلك فإن مجرد فِكرة دَفعِ أي شيء أصلاً كان أمراً مَكروهاً لكثير من العرب، خاصة البدو، وإن موافقَتهم على ذلك تُظهِر مَدى قوة شخصية محمد. وإذا لم تكن تلك القوة كافية بذاتها، فقد كان يستطيع العَودة دائماً لاستِخدام جماعَةٍ في الضغط على جماعة أخرى، وقد استَخدَم بشكلٍ خاص قبائل بدوية كوسيلةِ إقناع[٨٣]، مِثل هوازن التي طالما طافَت الأرجاء الغربية والوسطى من شبه الجزيرة.

لَزِمَ قليلٌ من الإقناع، فالنجاحُ يولِّدُ النجاحَ، ثم يأتي الخوف من

---

(٨٠) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٣٧٧.

(٨١) أحد عشر مرة بحسب: Barnaby Rogerson, *The Prophet Muhammad: A Biography* (London: Abacus, 2004), p. 109.

(٨٢) Michael Lecker, "Kinda on the Eve of Islam and during the "Ridda"," *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 4, no. 3 (1994), p. 353.

(*) [اختَلَفوا في قصة فِراقِه لَها، واتَّفَقوا على أنه لم يَدخُل بها، فلا تُعتَبر مِن زوجات الرسول ولا مِن أمّهات المؤمنين] (المترجم).

(٨٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 11, pp. 219-220.

التَّخلف عن القافلة. وهكذا تتالى التِحاقُ زَعيم إثرَ زَعيم، وقبيلةٍ بَعدَ قبيلةٍ بالخَطِّ المُتَطاوِل الذي التَوى حَولَ شبه الجزيرة العربيةً بعد أن أدرَكوا أن الانضِمامَ يَمنَحُهم السلامة مع الأعداد على المَدى القَصير، وربما فرصة للربحِ على المَدى البعيد سَواء كان ذلك الربحُ أرضِياً أو سَماوياً. نَجَحَ تأثير القافِلَة بشكلٍ باهِر، واتَّحَدَتْ شبهُ الجزيرة العربية لأول مرّة في تاريخِها، وستكون كذلك آخِر مرّة.

عامِلٌ فارِسِيّ؟

هناك احتمالٌ مثيرٌ حول السبب الأولي وراء هذه الوحدة غير المَسبوقة، هو أنّ دولةَ المدينة كانت استِجابَة للتَّعَدي الفارسي على شبه القارة العربية(٨٤). ناقَشَ ذلك مؤرخٌ حديثٌ واحِدٌ على الأقل، وتبدو فكرةً معقولة جِداً من النظرة الأولى. كان للفُرس وجُودٌ قوي بشَكلٍ ليس أقلَّ من نائبٍ للمَلك في اليمن، وكانوا نَشيطِين ومؤثّرين منذ زَمَن في الشرق في منطقة البَحرين، كما سَجَّلوا انتصارات مهمّة ضد البيزنطيين في الشمال وفي الهلال الخصيب وحتى في مصر. تبدو بالفِعل هَجمة من ثلاث جِهات ليست بعيدةً عما يبدو عليه تَدخُّل إيران الشيعية هذه الأيام في لبنان والعراق والبَحرين واليمن، من وجهة نظر حُكّام المملكة العربية السعودية ودول سواحل الخليج. ربما تَدعَم أدلةٌ مُنفَردةٌ أخرى فكرةَ التَّغلغل الفارسي المنتَشِر آنذاك، مثل الادِّعاء بأنّ خالِد بن سِنان العَبسي (الذي وَصَفَهُ محمد بأنه آخِر نَبيّ قَبلَه)(٨٥) قد أنقَذَ شبه الجزيرة العربية من التَّحول الكامل إلى الزَّرادَشتية التي كانت دِين الدولة الفارسية عندما تَجَوَّلَ بين الأعداد المتزايِدة من مَعابِد النار الزَّرادَشتية في شبه الجزيرة العربية، وأطفَأَ نيرانها المقدَّسة التي كانت مَركَز عِبادتهم(٨٦).

ربما لم تكن بلا أساسٍ فكرةُ دولة محمد الموحَّدة في ضَمِّ صفوف العرب لمواجَهة سياسةِ فارس التوسعية، إلا أنّ الدَّليل ظَرفيٌّ غير مباشر. لا

---

(٨٤) Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), p. 17.

(٨٥) انظر: ص ٢٢٤ من هذا الكتاب.

(٨٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٦٧ ـ ٦٨.

تَتضِح الخُطَط الكبرى في السياسات الجغرافية عادةً إلا من وجهة نظَر عَميقة لمؤرِخين في المستقبل، وذلك مِثل النظر إلى دَوراتِ المَحاصيل الزراعية التي لا تكون واضِحة على الأرض في حينها. كما أن الخطّة الكبرى ربما لم تكن في الأصل مثلما زَعَموا. ربما كان التَّصَدي للفُرس في ذِهنِ محمد أحَد العَوامِل في تَصمِيم دولَتِه الجديدة، فقد كان لديه هَدفٌ واضِح في توحيد القبائل، مثلما حاوَلَتْ كِندَة أن تفعَل قَبل الإسلام، وكذلك صِياغة وحدَةٍ أكبَر ضَمَّتْ شعوبَ الحضارات الجنوبية القديمة. تم التعبير عن جزء من الهوية العربية الجديدة الشَّاملة في تَعارُضِ العربِ والعَجَم، خاصة الفُرس. وهناك إشارةٌ في القرآن، الدليل الرئيسي الأول، على تأييد فكرة البدايات المضَادّة للفرس في المدينة، وذلك في إعلان أنَّ المسلمين سيفرحون بالنَّصر القادِم للبيزنطيين[٨٧]، والمُحتمل أنه نَصرهم على عَدوهِم الرئيسي من الفرس السَّاسانيين. إلا أنها في النهاية ليست سوى إشارة، كما أن أبا بكر، خليفة محمد، سيتَودَّد بنشاط للفرس الدُّخَلاء في اليمن، وسيستخدِمهم ضد مُعارِضِه العربي الأسود العَنسي[٨٨]. السياسة الواقعية هي المهمّة فيما يَجري على الأرض في الزمن الحقيقي، وليس في الخطط الكبرى والتصميمات العامة.

الأشَدُّ في الكُفر

كانت هنالك مَخاطِر في الوحدة غير المَسبوقَة التي كان محمد يَبنِيها، فقد وَرِثَت الأمّة الجديدة نقاطَ القوة في شبكةِ مكةَ العربية التي دَمَجَتْ تُجّار الحَضَر مع البَدو الذين يَنقلون البضائع، إلا أنها وَرِثَتْ تَوتُّراتِها أيضاً. كان الأعراب دائماً مَعروفين بِحبِّهم للاستقلال الذي كان الفَرْضية الأساسية في حياتهم. ومن الواضِح أنهم لن يَندَمِجوا بِحُبور في الأمة الجديدة الشاملة بطاعاتِها التامة لإرادة الله كما يُعبِّر عنها محمد.

كان محمد متحفِّظاً من الأعراب، يُدَّعَى أنه قالَ: «ما وُصفَ لي أعرابيٌّ قط فأحبَبتُ أنْ أراه إلّا عَنتَرة»[٨٩]، الذي كان شاعِراً وبَطلاً مَشهوراً وابناً

(٨٧) **القرآن الكريم**، «سورة الروم،» الآية ٤.
(٨٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١١٠.
(٨٩) شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية**، ص ٧٩٧.

لامرأةٍ سوداء من الرَّقيق. احتاجَ محمد وأمَّتُهُ إلى إمكانيات الإغارة لدى الأعراب من أجل التوسّع، وكانت السَّيطرةُ الحَذِرَةُ على تلك الإمكانيات ضروريةً لئلا يُهدِّدوا الأمَّةَ ذاتها في الوقت نفسِه. لِوَضع المُعضلَة بشكلٍ آخر، كان الأعراب البَدو نَشيطين، ولكنهم قد يكونون مُخرِّبين ومُدَمِّرين، وكان الأعضاء المُستقَرّون من الأمّة يُساهِمون في الأمن والاستقرار، إلا أنهم قد يَرتاحون إلى الرُّكود. كانت كلٌّ من القوتَين تَشُدُّ إلى جهةٍ مُغايِرة، وكان الخَطَر مُحدِقٌ بأن الأمّة قد تَتمزَّق. سيَقومُ عمر، ثاني خلفاء محمد وصاحِبُهُ المُقرَّب، بوَصفِ البَدو بأنهم «أصلُ العَرب ومادَّةُ الإسلام»[٩٠]، ولكن أكثر هذه المادة كان مادةً خَاماً مُتطايِرة. وقد وَصَفَهم اللهُ في القرآن:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٩١].

بالمُقارنة، قال محمد: «الإيمَانُ يَمَانٍ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ»، ومن المؤكَّد أنه كان يُشير بكلمة «يمانية» إلى المُضادّ التقليدي للأعراب، أي إلى شعوبِ الحَضَر المُتحَضِّرَة في اليمن، الجنوب.

الانتِماء والإيمان

سَخِطَ محمد على الأعراب لأنهم أضافوا تَوتُّراً آخر في مَشروعِه التوحيدي بين الإسلام والإيمان:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٩٢].

تتكَرَّر فكرة أنّ الأعراب أقلّ إسلاماً أو أقلّ إيماناً خلال الجُزء الإسلامي من تاريخ العرب، وتأخذ أحياناً شَكلاً فكاهِياً؛ فمثلاً، يُروى أنه سُمعَت جماعةٌ من البدو تدعو من أجل المَطر شِعراً في أوائل القَرن الثامن:

---

(٩٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٨٨.

(٩١) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ٩٧. انظر أيضاً: ص ٤٠ ـ ٤١ من هذا الكتاب.

(٩٢) المصدر نفسه، «سورة الحجرات،» الآية ١٤.

رَبَّ العباد ما لنا وما لكا

قد كنتَ تسقينا فما بدا لكا

أنزلْ علينا الغيثَ لا أبا لكا(٩٣)

يَصُبُّ البَدو شُكوكاً في الجُملة الأخيرة على «نسب» الله وكأنهم يُلَمِّحون إلى أنَّ اللهَ «مَجهول الأب» (وهم يُصيبون بالطبع في قولِهم إنَّ الله لم يُخلَق وليس له وَلَد). في السنوات الأخيرة، بعيداً عن فكرة أن الحياة في البراري توحي بالتأمل والتفكير في الخلود والأبدية، كان هناك افتِراضٌ عام بين المسلِمين الحَضَر أن العربَ البَدو الأكثرَ جَلافَة ربما كانوا مسلِمين بالاسم فقط، إلا أنَّ لديهم شعوراً بالمقدَّس مثل الوحوش البرّية.

بالعودَة إلى الآية القرآنية، فهي تَكشف مُيولَ البدو، إلا أنها تَستَدعي أمراً أبعَد وأكثَر إثارةً للدَّهشَة، وهو أنَّ المَرء قد يَبدو مسلِماً دون أن يكون مؤمِناً، فهي تلمّح إلى أنّ الإسلام هو مَظهَر عام وغَير شَخصي وله عَلاقة بالمجتمع والسياسة، بينما الإيمان يَسكُن القلب فهو داخِلي وشَخصي، وهو علاقةُ المَرء مع الله. كان محمد يدركُ جيداً الطبيعةَ ذات المَسارَين في الدِّين أثناء بِناء دولةٍ ومجتمع. قِيل ربما بِحَقّ: «مِن المَشكوكِ فيه أن محمداً قد فكَّر بأن الأمّة الاجتماعية الدينية التي أسَّسها في المدينة هي دِينٌ عالَمي»(٩٤). تُظهِر آياتٌ قرآنيةٌ كثيرة أن اليهودَ والمسيحيين يَشتَركون مع المسلمين بالإيمان الوجداني لكونِهم مُوَحِّدِين، ويمكنهم أن يُصبِحوا شركاءَ دافِعينَ للجِزية في الدولة المُسلِمة. وعلى العَكس، يستطيع البدو الأقلّ إيماناً أن يكونوا أعضاء كامِلين في تلك الدولة بِصِفَتِهم مسلِمين دون أن يؤمِنوا في داخِلهم بحَقائِقِ الإسلام الإيمانية. ولكنّ وَصفَ مجتمع المدينة بأنه «اجتماعيّ ـ دِينيّ» ربما يكون مُضَلِّلاً بالنظر إلى صَدى كلمة «الدِّين» بالإنكليزية. دَرَسَ باحِثون رَدَّ فِعل الشعراء المُعاصِرين لثورة محمد، وهُم أقرَب ما يمكن إلى المراقِبين المُحايِدِين، ووجَدوا أن مُعظَمهم اعتَبروا الإسلامَ «حَرَكَةً اجتِماعية سياسِية أكثر من كَونِه تجربةً روحانيةً عميقة»(٩٥).

---

(٩٣) Serjeant, *South Arabian Hunt*, p. 12.

(٩٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 372.

(٩٥) Ibid., vol. 9, p. 452.

بَدأ الإسلامُ كتجربةٍ روحانية عَميقة من خلال الوحي الذي أُنزِل على محمد في مكة. ومع الوقت والمساحَة، سيَستَعيد تلك الروح، ولكن أثناء العَقد الأول من تأسيس الدولة في المدينة بشكلٍ خاص، ربَّما تَجَاوزَت الاعتِبارات الماديةُ الجَوانبَ الروحية. كان الأمر المهمّ هو ضَمُّ الجميع إلى جانبكَ، بمَن فيهم أثرياءُ مَكَّةَ والأعراب، سواء كان ذلك بإخضاعِهم أو بدَعمِهم أو بإغرائِهم بالغَنائم، مهما كان الإيمان في شغاف قلوبِهم. لم يكن مهماً أنّ الروح كانت ضَعيفة ما دام الجَسَد كان مُستَعِداً. وإذا كان السلوكُ المُعلَنُ صَحيحاً بالانضمام إلى الصُفوف، وكانت الإجابةُ بـ «نَعمَ» على أوامِر الزعيم الأرضي، وقولُ «آمين» لله، فإن الضمير يمكن أن يظَلّ مسألةً شخصية خاصة، وهذا على العَكس من الحالَة في الغَرب الفَردي هذه الأيام حين انهارَ الدِّين المؤسَّساتيّ، إلا أن كثيراً من الأفراد يَتبَعون روحانيةً عميقة. وَصَفَت عالِمة الاجتماع غريس ديفي Grace Davie حالَتهم بأنها «إيمانٌ دون انتِماء»[٩٦]. أما في شبه الجزيرة العربية في زَمَنِ محمد، فإن الأعراب المَذكورين في تلك الآية القرآنية قد انتَمُوا دون أن يُصَدِّقُوا.

على كل حال، هناك فارقٌ أكبر بين شبه الجزيرة العربية في القَرن السابع، وربما بين ماضي العالَم بشكل عام، وبين «الغرب» الآن. ففي الحالة الأولى، كان الانتماءُ والتصديقُ اصطلاحَين مختلفَين ولكنهما منسجَمين ومتكاملَين مثل قطبَين لكُرةٍ واحدة، وبينَهما طَيفُ مقياسٍ مُنزَلِق بين السياسة والتَّقوى. الدِّينُ في اللغة العربية، والدارما *dharma* في السنسكريتية، والريلغيو *religio* في اللاتينية، كلها ربما تَدخُلُ في الكلمة الإنكليزية Religion، إلا أن الكلمة الأخيرة تَدفَعُ القارئَ الإنكليزي إلى أحَدِ القطبَين بما فيها من تركيزٍ على التقوى والصَّلاح الشَّخصي فيما بَعدَ البروتستانتية، ورؤيةِ الدِّينِ أساساً كمَسألَةِ إيمانٍ وتصديقٍ. الإيمانُ هو جُزءٌ، والانتماءُ هو الجزء الآخر، وكان البَشَر يقولون «آمين» لله، و«نعَم» لقيصر، في نَفَسٍ واحِدٍ ما دامت الآلِهة والقَياصِرة كانوا موجودِين. والإسلامُ بمَذهَبِه في التَّوحيد التَّام سياسياً وعقائدياً هو نموذجٌ مرتَفعٌ من هذه الظاهرة[٩٧].

---

(٩٦) Grace Davie, *Religion in Britain Since 1945: Believing without Belonging* (Hoboken: John Wiley, 1994), passim.

(٩٧) قارن أدونيس: ص ٥١ ـ ٥٣ من هذا الكتاب.

عقيدة التوحيد لا تَضمَن الوحدةَ المُستَدامَة. تَركَ محمد دَرجةً من التماسك الاجتماعي والسياسي لم يَسبق لها مَثيل في تاريخ العرب الطويل، إلا أنه تَرَكَ سؤالاً مُعلَّقاً، وهو: مَن الذي سيَخلفُه؟ لو أجابَ بحَسم فلربما ضَمِنَ الوحدَةَ بَعدَهُ لفترة ما، على الأقل من تاريخ العرب القادم والمتساوي الطول، إلا أن السؤالَ يظَلّ دون إجابة حتى الآن.

في نهاية شهر شباط/فبراير سنة ٦٣٢ قادَ محمدٌ أتباعَه مِن المدينة إلى مَسقَط رأسِه في مكة فيما أصبَح يُعرَفُ بحجَّة الوَداع. بَدأت الخُطبة التي ألقاها في ذُروَة الحَجّ وهو على ظَهر جَمَل، على طريقة مُلهِمِهِ القديم الخَطيب المتَجول قُسّ بن ساعِدَة، بهاجِسٍ عن قُربِ وَفاتِه قائلاً: «أيّها النّاس، اسْمَعُوا منّي أُبيّنْ لَكُمْ، فَإنّي لا أَدْرِي لعَلّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا، في مَوْقِفي هذا...». تابَعَ خطبَتَه في الحَديث عن حُرمَةِ الدّم والممتَلَكات، وعن أمورٍ مثل العلاقات الزوجية والإرث، ولكن ربما كان أهمّ مَقاطِعِها:

«أيها النّاسُ إنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ، كُلكُّمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب، إن أكرمُكُمْ عندَ اللهِ أتْقَاكُمْ وليس لِعَربيّ فَضْلٌ على عَجَميّ إلّا بالتّقْوىَ»(٩٨).

تُضيفُ بعضُ الروايات: «ولا لأسوَدَ على أبيَض»(٩٩). لو أنّ محمداً لم يكن يفكّر دائماً بالجَماعة التي أسَّسها كأمّة عالَمية، فلربما كان هذا إحساسٌ مُسبَق آخَر بأنَّ هذه الرسالة ستَدورُ ذات يوم حَولَ العالَم. كان مجتمعُ المدينة متَنوعاً، وضَمَّ فُرْساً وعَبيداً سوداً ورِجالاً أحراراً. ومهما كانت مَعانيها الأخرى فهي رسالةٌ شُمولية صَريحة.

على الرغم من ذلك الهاجِس الأول حَول وَفاته، فالقضية التي لم يتطَرَّق إليها محمد في خُطبَتِه كانت عن خَليفَته. وسرعان ما بَرَزَتْ هذه

---

(٩٨) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٩٩) انظر على سبيل المثال النسخة المقتبسة، في: Rogerson, *The Prophet Muhammad: A Biography*, p. 208.

القضيةُ فجأةً بَعدَ شَهرَين من عَودَته إلى المدينة، حيث أصابَهُ مَرضٌ وحَرارة سَيؤديان إلى وَفاته. لم يتمكّن من إمامَة الصلاة في الأيام العَشرة الأخيرة، إلا أنه طَلَبَ مِن صاحِبِه أبي بكر أن يفعَل ذلك. وقد أدّى ذلك، إضافة إلى أن صاحِبه المقرَّب هذا نفسه قاد رحلة الحَجّ في السَّنة التي سَبقَتها، إلى اعتِبار ذلك من جِهة الغالبية كدَليلٍ على أنّ محمداً أرادَ أبا بكر ليكون خَليفَته كزعيم للأمّة. لم يوافِق كل شَخصٍ على ذلك فَوراً، وعلى الرغم من أنَّ خطوطَ الخِلاف في الجَماعة لم تكن في البداية أكثر من شُقوقٍ شعريَّة، سرعان مازالت بسبب ضرورة الإجماع، إلا أنَّ الشقوقَ ستَتَّسِع إلى صُدوعٍ بَعدَ أقلّ من ثلاثين سنة.

توفي محمد بين ذِراعَي أصغَر زَوجاتِه سِنّاً عائشة بنت أبي بكر. بالنَّظر إلى كل الذكريات الوَرِعَة التي ستَدورُ حَولَ حَياتِه، وستُنتِج ذلك المليون المُفتَرَض من الأحاديث، فسيكون من الصعب كتابة نَعي مَوضوعيّ تماماً للنبيّ محمد. وربما يكون الأصعَب هو نَعيُ محمد الرَّجل، إلا بِشكلِ لَمحاتٍ: كان يُحِبُّ سباقَ الخَيل ولا يُمانِعُ أنْ يَخسَر؛ كان يأكُلُ جالساً على الأرض، وكان يَلعَقُ أصابِعَه؛ لم يَضرب عَبداً قَطّ؛ لم يُشاهَد وهو يَضحَك بِفَم مَفتوح[١٠٠]. بالنسبة إلى هذه النقطة الأخيرة، لم يَنقُصهُ حِسُّ الفكاهة والنُّكتة الجَافّة. سألَتهُ امرأة مُسِنَّةٌ ذات يوم فيما إذا كان الله يَسمَحُ للمرأة العجوز بدخول الجنّة، وعندما قال لها إنه لا يَسمَحُ بذلك، بَكَتْ، فقال محمد: «أخبِروها أنها لا تَدخُلها وهي عَجوز، إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۞ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[١٠١]. كما كان محمد يَتَمتَّع بِروح الدّعابة، وقد شوهِد ذات يوم وهو على أربَع وأحفادُه الحَسَن والحُسين على ظَهرِه وهو يقولُ لَهم: «نِعم الجمل جملكما!»[١٠٢]. في هذه اللمحات شُعورٌ بالطّرافة لا يستطيع المرء تَلفيقَها ولا يريد ذلك، ولكن كثيراً من العناصر الأقلّ انطِباعية ناقِصةٌ في الصور، مِثل كَم كان عمره آنذاك؟ اختَلفَت التلميحات عن عمره حين وَفاتِه بين السّتين والخامِسة والسّتين من السنوات

(١٠٠) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٢.

(١٠١) **القرآن الكريم**، «سورة الواقعة»، الآيات ٣٥ ـ ٣٧، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٩.

(١٠٢) حديث عن جابر.

القَمَرية[١٠٣]، ولكن الشكوك حول تاريخ يَوم الفِيل[١٠٤] ربما تَعني أنه كان أكبَر عُمراً.

يُقال إنّ محمداً نادِراً ما ظَهر عَلَناً دون حِجاب مِثل بعض المُحارِبين المَشهورين قَبل الإسلام[١٠٥]. وقد أصبح هو بالذات أقلّ ظُهوراً مع مرور الزمن، يتحَجَّبُ بطَبقاتٍ أسمَكَ من التَّقوى والوَرع. وإن مجرد فكرة تصويره جِسمياً فيها انتِهاكٌ للحُرُمات بالنسبة إلى مُعظَم المسلمين. وحتى في التقاليد الشِّيعية الإيرانية الأكثر مُرونَة، وحيث يمكن تصوير بقية الأنبياء، يَظهَرُ وَجهُ محمد خالياً في الرَّسم.

المِيراث

ادَّعى أحَدُ الباحِثين الذين دَرَسوا الموضوع بعُمقٍ أن «مَفهوم العرب كان على وشك الاندِثار كلياً» قَبلَ محمد. ومع ذلك لم يَندَثر هذا المَفهوم[١٠٦]، بل وَرَدَ بانتظام، إنما نادراً، في الشِّعر الجاهلي، وكان مَفهوماً نادِراً ما يُعبَّرُ عنه، إلا أنه لم يكن يَحتَضر. البدو القَبَليون، وسكان شبه الجزيرة، كانوا قد أصبَحوا «العرب» جَماعَةً إثنِية ذات لغة وهوية، واحتِكاكُهم مع «العَجَم» الذين لا يتكلَّمون العربية مَنَحَهم تَماسُكاً كَرَدِّ فِعل، والآن مَنَحَتْهُم النُّبوةُ الوحدَةَ في ذلك الوقت على الأقل، والإرادَةَ المُشتَرَكة التي يوجِّهُها إلهٌ مُشتَرَكٌ، مثلما كانت الحالة لدى شعوب جنوب شبه الجزيرة العربية غير القَبَلية.

ما فَعَلَهُ محمد هو مَنحُ تلك الهوية العربية التي ارتكَزَتْ على اللغةِ ظُهوراً جَديداً مَتيناً. كان مِيراثُهُ الأعظَم هو القرآن الذي يُذَكِّرُ سامِعيهِ دائماً بأن كلمةَ الله الأخيرة للإنسانية كانت باللسان العربي. قامَ محمد «بجَمعِ العَرب على كَلمةِ الإسلام»[١٠٧]، وجَمَعَ كلمة العرب السياسية كما لم

---

(١٠٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(١٠٤) انظر: ص ١٥٧ ـ ١٥٨ من هذا الكتاب.

(١٠٥) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ٤٠.

(١٠٦) Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads*, p. 626.

(١٠٧) انظر: ص ٤٧ ـ ٤٨ من هذا الكتاب.

يَجمَعها أحَدٌ قَبلَهُ ولا بَعدَه. ومِنْ ثَمَّ أخيراً، مَنَحت العربَ كلمتُهُ الموحَّدَة وإرادتُه الجامِعَة إمكانيةَ حُكم آخرين. إلا أنَّ هذه الإمكانيةَ لم تَتحقَّق بَعد، وربما لم يُعتَرَف بها. قِيلَ إنَّ محمداً دَعا لِسقوطِ غَسان وكِندة[١٠٨]، إلا أنه لَم يَدعُ لسقوطِ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية. مهما كان اتّساع آفاقِه الروحانية، يبدو أنَّ أُفقَهُ السياسي كان مَحدوداً بالعالَم الناطق باللغة العربية[*].

والسؤال الآن هو: ما الذي سيَحدُث بَعد ذلك؟ أما البعض من أعضاء الأمة، كان وَضعهم كَحالَة الأعرابِ البدو الذين استَجابوا لدعوة محمد، إلا أنهم لم يَتَبَنّوا جميعاً الإيمانَ الروحاني وراءَ تلك الدَّعوة، انضَمّوا جميعاً إلى عَقدٍ اجتماعي لم يكن مَدَنياً عَلمَانياً مثل الذي وصَفَهُ الأوروبيون في عَصر التَّنوير حيث يَتَخَلَّى مواطِنون عن حرياتٍ فَردية مُقابِلَ حِمايتِهم بمؤسَّساتِ الدَّولَة، بل كان عَقداً مع الله الذي يَحمي ويُوَجِّهُ شَعبَهُ، ويَعمَل كإرادتِهم الجماعية مقابِلَ تسليم إرادتِهم الفَردية، ودَفعِهم التزامات بِشَكلِ صلواتٍ وحَجّ وضريبة ممتلكات (زكاة).

نَجَحَتْ فكرةُ «حَبل الله»، ذلك العَقد أو العَهد الاجتماعي المقدَّس مع إلهٍ أعلى بشكلٍ معقولٍ جِداً على مَدى قرون في الجنوب السَّبئي القَديم حيث سُمِحَ هناك للشعوب الحليفة بالاحتفاظ بهويتِهم الخاصة واستقلالِهم بِشَكلِ آلهتِهم القديمة. كانت دولَةً دينية، ولكنها كانت لاهوتية فَضفاضَة ولامَركَزية. كما نَجَحَ العَهد المقدَّس بين اليهود ويَهوَه بكفاءَةٍ مقبولة، وكان الإلهُ واحِداً لا يُمَسُّ به، وما دامت لليهود دولَة مستقلة سياسياً، كان الإله يُلهِم سِلسلَةً من الأنبياء والنَّبِيّات لإظهارِ إرادَتِه لشَعبِه في أوقاتٍ وظروفٍ متغيرة. إلا أن ما أسَّسهُ محمد كان مختلفاً، كان دولَةً دينيةً موحّدَةً بِصَرامَة، إلا أنها أحادية أيضاً. كان محمد آخر الأنبياء، وإذا كان الوحي قد بَدَأ بآدَم، فقد توقَّفَ عند محمد. كان محمد آخِرَ مُستَلِم للعَصا في تَتَابع الوحي. لم يوجَد مَفهومُ الروح القُدُس الذي يُلهِمُ عالَم الجَماعة بلا نهاية، ويُعيدُ تَفسيرَ الوَحي في

---

(١٠٨) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨١.

(*) [لا تَتَّفِقُ هذه الفرضية مع ما رُوِيَ مِنْ تَنَبُّؤاتِ الرسول بسُقوطِ هاتَين الإمبراطوريتَين أثناء الهجرة وأثناء حَفرِ الخَندق حول المدينة] (المترجم).

العصور التالية والمتغيّرة. ولذا كانت دولةُ محمد مَركزيةً بشكلٍ غير عادي، ليس جغرافياً ولكن زمنياً؛ أي بمَعنى: انتَهى التاريخ أو دَخَلَ في حاضرٍ دائم، وسيُصبِحُ ماضِياً مَوجوداً باستِمرار. ولكن، مِثل الإعلان الأحدَث الذي قَدَّمَهُ فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، فإن الإشاعات عن نهاية التاريخ هي مبالغاتٌ عادةً. انتهى بالفِعل مَوضوعٌ رئيسيٌّ في التاريخ مع انتِهاء الوَحي، وهو موضوع علاقة الإله مع خَلقِهِ، غير أن أحداثَ الأرضِ استَمرَّت. توقَّفَت الساعة، إلا أن الزمن قد استمرّ.

كتَبَ ابن خلدون بَعدَ ٧٥٠ سنة: «فإذا كان فيهم النَّبي أو الوَلي الذي يَبعَثُهم على القيام بأمرِ الله، ويُذهِب عنهم مَذمومات الأخلاق، ويَأخُذهم بمَحمودِها، ويُؤلِّف كَلِمتَهم لإظهار الحَق، تَمَّ اجتماعُهم، وحَصَلَ لَهم التَّغَلبُ والمُلك»[١٠٩]. لم يَمتدَّ ذلك المُلك حتى الآن أبعَدَ من الحِجاز في وسط وغرب شبه الجزيرة العربية، مع وجود شبكة من المعاهَدات والعَلاقات التي ضَمَّتْ معظَم ما بَقِيَ مِن «جزيرة» العرب. وبما أن محمداً كان خاتَم النَّبيين، فهل سينتَهي ذلك المُلك بوفاتِه؟ كادَ ذلك يَحدُث، إلا أن الأمور لم تتهاوَ فَوراً، ولم يَنتَهِ التاريخُ، ولكن يمكن أن يُقالَ إنه أمسَكَ نَفَسَهُ، فقد كان واضِحاً أن تغيّراً قد انتابَ البيئة العربية ولو لم يَظهَر أنّ التَّغيّر آنذاك كان جَذرياً، مثلما اتَّضحَ فيما بعد للمُطَوِّرين والمُحَدِّثين في الإسلام.

شيءٌ من طبيعة ذلك التَّغيّر يُمكِنُ أنْ يُشاهَدَ حتى الآن على بُعدِ مِئة مِترٍ من المكان الذي أخُطُّ فيه هذه الكلمات.

مِن بَين الأنقاض

بُنِيَ مَسجدُ صنعاء الكبير سنة ٦٢٧ حسب أوامِر محمد المُفصَّلة في حديقةِ نائبِ المَلك الفارسي. أطلَّ عليه قَصر نائب المَلك، وهو قَصر غُمدان السَّبئي الذي بُنِيَ من عدة طوابق قَبلَ ٤٠٠ سنة، بنوافِذه الرُّخامية، والطيور والحيوانات من البرونز المُفَرَّغ على شُرفاتِه التي تُصَفِّر وتَزأر عندما تَمُرُّ الريحُ خلالها. أُدمِجَتْ في بَناء المسجد عناصر مِن كنيسةِ صَنعاء الكبيرة التي بَناها

---

(١٠٩) ورد في: أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ١: **الأصول**، ص ٢٩.

المُحتَلّون الإثيوبيون المسيحيون قَبلَ ذلك بقَرن (سيُعاد استِخدام لوحاتِ فُسيفُساء وأعمِدة من الكنيسة في كَعبة مكة)[١١٠]. كثيرٌ من المواد المعمارية كانت مُشكَّلة بدَورها على نماذِج بيزنطية بتيجانٍ نباتية وغيرها من الزخارف الكلاسيكية، ومازال أحَدُ التّيجان يَحملُ صليباً مسيحياً صغيراً. ثَبّتَ محمد حُدودَ مَسجدِ صَنعاء بحَجَر اسمه «المُلَمْلَمَة»، وهو مَدفونٌ الآن تحت الأرضية بتراكمات وتوسيعات متأخّرة، ولكن مَوضِعه مُحدَّدٌ بإشارة. يُعتَقَد بأنّ الحَجَر كان له أهمية قديمة لكي يُمنَحَ اسماً معروفاً في منطقة بعيدة مثل مكة. ضَمَّ المسجدُ أيضاً قَبرَ وَليٍّ مُوَحِّدٍ مَحليّ هو حَنظَلَة بن صَفوان، الذي يُفتَرَضُ أنَّهُ نَبيٌّ أُرسِلَ إلى السَّبئيين[١١١]. البناءُ وتَوجيهه إلى مكة حديثٌ، إلا أنه أُنشِئ بَينَ بقايا إمبراطورياتِ ـ خَلَّفَها الأحباش حلفاء البيزنطيين والفُرس السَّاسَانيين ـ ومنها. كما أنه أُسِّسَ على ماضٍ عربي مَحَليٍّ قديم حَدَّدَهُ وأضفَى عليه ظِلالَه. مسجد صنعاء هو نموذجٌ للتغيّر الذي صَنَعَهُ محمد، فهو هيكلٌ بُنِيَ لِيَضُمَّ مجتمعاً جديداً تماماً، إلا أنه بُنِيَ من مواد قديمة في إطارٍ مألوف.

نَعودُ إلى المدينة، وإلى النموذج المَبدئي للمسجد الجديد ـ القديم، وإلى الصفوف الرّاكِعة التي أدهشَتْ أبا سفيان وعُروَة، فإنّ ما صَدَمَهما بقوة لم تكن غرابة بعض الطقوس، ولا مواد إطارها العام، بل الحَماسَة الجديدة التي نَشَّطَتْ ووَحَّدَتْ شَعبَهما العربي نفسه، الشعب الذي كان ممزَّقاً منقَسِماً منذ أن وُجِدَ. ربما شَعَرَ هذَان المُراقِبان كيف أن هؤلاء العرب المتَّحِدين النَّشيطِين الجُدد قد يتمكَّنون من بِناء إمبراطوريتهم من أطلالِ إمبراطوريات جيرانهم الحقيقية، إمبراطوريات «فارسَ الكرام، والرُّوم ذات القُرون». ولو حَدَثَ ذلك فلربما أَحَسَّا بقوةٍ دافِعة تاريخية أساسية، وهي كيف أنّ العقيدة المُشترَكة تَجعَلُ المجتمع أكثر فعالية في الانتصار على الآخرين. ولكن ما لم يُمكِنهما تقديره أبداً هو مَدى سرعة حُدوثِ كل ذلك، أو كيف أنّ عبادةَ الله المَحَلية ستُصبح ثقافةً، ثم هَيمَنةً ثقافيةً عالميةً ستَعيشُ أطوَلَ مِن أية إمبراطورية.

---

(١١٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٩٢.

(١١١) أحمد بن عبد الله بن محمد الرازي، **تاريخ مدينة صنعاء**، عني بتحقيق ووضع الفهارس حسين بن عبد الله العمري وعبد الجبار زكّار؛ قدّم لها نبيه عاقل (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٤)، ص ٢٥٤.

السَّيطَرة

٦٣٠ ـ ٩٠٠

الفصل السابع

المُجاهدون
الفتوحات والانفِتاح

داعرات حَضرَمَوت

من نافِلة القول إن محمداً هو الشخصية الرئيسية في منتَصف التاريخ العربي، وهو شخصية شاهقة البروز في تاريخ البشر كله. ولكن ما يجب قَولُه هو أنه ليس شخصيةً عربية نموذجية، فهو نِتاج خَلفيته العامّة، ولكنّ ظِلَّهُ امتَدَّ أبعَد كثيراً بالالتزام والإخلاص الجَماعي لأكثر من مليار مسلِم حتى أصبَحَ شخصيةً تَضَعُ رِجْلاً في التاريخ والرِّجْل الثانية في الخَيال. من الصعب تحديد «العربي النموذجي» بسبب تنوعهم منذ بداياتهم، وعدم وضوح ما يَعني اسمهم بالضبط، ولكنّ الأحداثَ المعاصِرة التي جَرَتْ أثناء حياة محمد وبعدَها جَرَفَتْ معها كثيراً من مُعاصِريه في شبه الجزيرة، ووضَعتْهم على مَسارٍ مماثلٍ لحياةٍ جديدة بعيدة جِداً عن أصولِهم في معظم الأحيان. نَثَرَتْهم هذه الرحلات جَسَدياً، ومَنَحَتْهم وحدَةً في مُعايَشة التجربة بطريقةٍ مشابِهةٍ لمُشارَكةِ أبناءِ مُزارِعِ إسكتلندي فقير، وأبناءِ إقطاعيٍّ إنكليزي ثَريٍّ في مُعايَشة تجربة الإمبراطورية البريطانية. يَصعُبُ إيجاز العملية، ولكن أحياناً يبدو أن أحَدَ العرب يُلَخِّصُ في حياةٍ واحِدة رحلاتٍ كَثيرين.

أحد أولئك الأشخاص هو الأشعَث، الذي وُلِدَ في حَضرَمَوت في جنوب شبه الجزيرة العربية ربما في نهاية القَرن السادس، ومِثل الشاعر الكبير امرئ القيس في ذلك القَرن نفسه، فإنَّ الأشعث (أو مَعدي كَرب بن قَيس، وهو اسمُهُ الحقيقي الذي لا يُستعمَل إلا نادراً)، كان يَنتَمي إلى الأسرة الحاكِمة في قبيلة كِندَة. بعد أن تَجوَّلَت القبيلة كثيراً في شبه الجزيرة وظَلَّت

فترةً طويلة في منطقة قرية ذات كهل على طريق القوافل العربية، فَشِلَتْ مساعي الكِنديين قَبل الإسلام في تحقيق وقيادة وحدَةٍ بين القبائل العربية. كانت مُعظَم قبيلة كِندة قد هاجَرتْ جنوباً، واستقرَّتْ في حَضرَمَوت. وهنا في جُملَةٍ معقَّدَةٍ من الوديان العميقة التي تَنغمِسُ في نَجدٍ سَطحُه خاوٍ كالقمر، بدؤوا بالمَعيشة في حياةٍ مُنقَطِعة عن الأحداث العربية، حتى وصَلَتْ وفودُ محمد. شَجَّعَتْهم دعواتُ النبي للانضِمام إلى اتِّحاد القبائل المُتَنامي، وانضَمَّ الأشعثُ إلى الوفود نحو المدينة سنة ٦٣١ في عام الوفود على رأس جماعةٍ من كِندة، وتأثر بالجاذبية النبوية مِثل كثيرٍ غَيره، كما وافَقَ على تَزويج أخته لمحمد، مِثلَ كثيرٍ غَيره أيضاً، إلا أن النبي توفي قَبلَ أن تُغادِر قافلةُ العُرس حَضرَمَوت.

لا نَعرفُ رَدَّ فِعل العَروس على أخبار تَرَمُّلِها المبكر، إلا أنَّ رَدَّ فِعل الأشعَث على وفاة محمد كان مِثل أكثر العرب، وذلك بأنْ قَطَعَ كُلَّ وَلاءٍ للمدينة. سُرَّ كثيرٌ من أهلِه في حَضرَمَوت بذلك، ويَذكُرُ مؤرخون إسلاميون بشكلٍ خاص «بغايا حضرموت»، وهُنَّ مجموعة من النساء اللواتي غَنَّينَ ورَقَصنَ احتفالاً بالقَطيعة، ويبدو أنَّهن كُنَّ من عائلات الأشراف، وقِيلَ إن واحدَة مِنهنَّ كانت يهودية[١]، بينما كانت الأخرياتُ كاهِنات طوائفَ دينية قَديمَة «مُتزوجات» مِن آلِهَتِهِنّ (ومِن هنا جاء اتِّهامهنَّ بالبغاء)[٢]. ربما ظَنَّ وبقية أهل كِندَة أنهم بأمان في واديهم المُنعَزل على بُعدِ ١٥٠٠ كيلومتر من المدينة، حتى انقَضَّ عليهم جَيشٌ من المدينة البعيدة بسرعةٍ فائقَة، ونَفَّذَ الانتقام من الحَضَارِمَة المنشَقِّين. قُطِعَتْ أيدي البغايا وكُسِرَتْ أسنانهنَّ الأمامية[٣] بشكلِ عِقابٍ تقليدي للخُطَباء المُخرِّبين[٤]. حوصِرَ الأشعَث، ولكنه استَسلَم بضَمانِ خُروجِه الآمِن. كاد يكون ذلك آخر أعماله، لأنه نَسِيَ أن يَضَعَ اسمَهُ في وثيقة الاستسلام. بعد أن أُنقِذَ في اللحظة الأخيرة، أُخِذَ

---

(١) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) Alfred F.L. Beeston, "The So-Called Harlots of Ḥaḍramawt," *Oriens*, vol. 5 (1952), pp. 20-21.

(٣) Ibid., p. 19.

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ١٣٤.

إلى المدينة حيث عَفَا عَنهُ أبو بكر خَليفَةُ محمد، وزَوَّجَهُ مِن أختِهِ مثلما يُفعَل في أوساط الناس المحترمين.

بعد هذه السلسلة من تقلبات القدَر والولاء، دَخَلَ الأشعَثُ في المَسيرة الطويلة خارج شبه الجزيرة العربية، وقادَهُ نشاطُهُ بعيداً، فقاتَلَ سنة ٦٣٦ في اليرموك حيث فَقَدَ عَيناً في مَعركةِ النصر العربي الحاسِم ضد البيزنطيين، وقاتَلَ بعدَها بقليل في القادسية، معركة النصر العربي الحاسِم ضد الفرس. استقرَّ في الكوفة التي كانت بلدَة الحامِية العسكرية في جنوب العراق، وذَهَبَ من هناك في حَملَةٍ ناجِحة إلى أذربيجان في ٦٤٦ ـ ٦٤٧ حيث ربما عَمِلَ حاكَماً لفَترة فيها[٥]. بعد الفتنة الكبرى التي ستُفَرِّق الصَّف العربي، انضَمَّ إلى فريقِ عَليّ ابن عَمِّ محمد وصهره، ضِد معاوية زعيم الحَرَس المَكيّ القديم. قاتَلَ في صَفّ عليّ سنة ٦٥٧ في معركة صفّين غير الحاسِمة وغير المَجيدة بين العرب. في نهاية الاقتِتال، كان واحِداً من الذين حاوِلوا إقناعَ عليّ بقبول التَّحكيم بين الفَريقَين. توفي الأشعَث في الكوفة سنة ٦٦١، ولَعَنَتْهُ طائفَةُ المؤيدين لعَليّ، الذين أُطلِقَ عليهم اسم شِيعَةِ عَليّ منذ ذلك الحين بسبب نَصيحَتِه الكارثية.

ربما لا تكون صِفة مناسبةً لحياة الأشعَث، ولكن سيرته قد تقدم لنا صورة مصغرة لأحوال العرب أثناء أكثر حركاتهم نشاطاً في التاريخ. لم يَجمَع كثيرٌ من العرب غيره مثل ذلك في حياة واحدة، ولكن خلال جيلَين تغيَّرتْ حياةُ كثير منهم، حتى لم تَعُد تُعرَف. ففي نهاية القَرن الإسلامي الأول الحافِل، ظَلَّ العربي القديم يستطيع تَعريفَ السعادةَ بأنها «امرأة حسناء ودار قوراء وفرس فاره مرتبط في الفناء». غير أن ابنَهُ كان لديه تَعريفٌ جديد بأنّ السعادة هي: «لواء منشور وجلوس على السرير والسلام عليك أيها الأمير»[٦]. فَشِلَ العرب دائماً في محاولاتهم أن يحكُمَ بعضهم بعضاً، وفي فَرْضِ الوحدة، مثل حالَة قبيلة الأشعَث كِندة التي أرادَتْ أن تكون القبيلة الزعيمة. ظَهَر أن الأسهَل كان حُكم غير العرب، وسرعان ما اكتَسبوا شهيةً

(٥) Michael Lecker, "Kinda on the Eve of Islam and during the "Ridda"," *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 4, no. 3 (1994), passim.

(٦) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٧.

لذلك دون أن يَعني هذا نسيان النساء الجميلات والأحصِنة القوية. إلا أن الحياة أصبَحتْ أكثر تعقيداً بطرائق أخرى. كان العرب القَبَليون دائماً يَجلسونَ على أرضٍ ديموقراطيةٍ مستويةٍ إلى حَدٍّ ما، ولكن الجلوس على العروش كان الموضَة الجديدة. ومن ناحية أخرى يجب التنافس على العروش، وكلما كان الكرسيّ أعلى، ازداد خَطَر السقوط، وربما ليس مصادفة أن كلمة «عرش» قد تَعني أيضاً نَعشَ جثّة.

رهائن أنسُر

كان نجاح محمد استثناءً كبيراً للفَشَلِ الدائم في محاولات العرب لتوحيد أنفسِهم، والآن بعد وفاته كان على أصحابه أن يُتابِعوا مَشروعَه.

كان السؤال الأول هو اختيار وطبيعة القائد الذي سيَخلف محمداً. اتَّفَقتْ قبيلتُه قريش على اختيار واحِدٍ منها، وباعتِراف الجميع اختاروا أبا بكر الذي لم يكن من الفئة الحاكمة التقليدية للقبيلة، ولكنه كان أقرَبَ أصحاب محمد، والذي اختارَهُ لإمامَة الجَماعة في الصلاة أثناء مَرَضِه (يبدو أن مجرد فكرة أن يكون المُرَشَّح غير قُرَشِيّ قد تمّ إبعادُها تماماً). كان «انتخاب» أبي بكر مثل كل أمرٍ آخر، استمراراً لمُمارَساتٍ قَبَليةٍ سابِقةٍ للإسلام، وكذلك كان دَورُهُ كَمُحَكَّم وليس كَحاكِم مُطلَق[٧]. غير أن لَقَبَهُ كان جديداً: «الخليفة» لرسول الله. وهذا يَعني عَمليّاً أن سُلطَته ستكون أكبَر من السُّلطة القديمة لسيّد القبيلة، كما يَعني هذا عَملياً أن أبا بكر قد استَلَمَ زمام القوم، ثم تَمَّ التَّوافُقُ عليه؛ أي إنه كان انتِخاباً بَعدَ حُدوثِ أمرٍ واقِع، أي وَضعُ خَتمٍ، وكان خَتماً مُلَطَّخاً آنذاك[٨]، لأن النتيجة لم يَقبَلَها جميعُ كِبارِ صَحابَة محمد، فقد أخَّرَ عَليّ وغيره من فَرع محمد الهاشمي من قريش بَيعَتَهم وموافَقَتهم على قَبول أبي بكر غَير الهاشمي مُدَّةَ ستة أشهر[٩]. لم يكن

---

(٧) Bernard Lewis, "The Concept of an Islamic Republic," *Die Welt des Islams*, vol. 4 (1956), p. 6.

(٨) Ibid., p. 7.

(٩) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨، و *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 9, p. 420.

التغيير الأول في الحُكم المُتنازَع عليه في تاريخ العرب، ولن يكون الأخير.

طُرح السؤال الثاني على أعقاب الأول، وكان أكثر إلحاحاً: هل بَقِيَ أحَدٌ يقوده ذلك القائد الجديد؟ خلال أسبوع أو أسبوعَين من وفاة محمد، عندما بدأتْ أخبارها تَنتَشر في الشَّبكة العربية، بدأ تَهاوي وتَفكّك تلك الوحدة غير المَسبوقة[١٠]، والقافلة العظيمة الاجتماعية ـ السياسية الدينية من الأفكار التي انطَلَقَتْ والتي انضَمَّتْ إليها بحَماسٍ واضِحٍ قبائل من كافة أرجاء شبه الجزيرة. ومثلما فَعَلَ الأشعثُ وقَبيلَته كِندَةَ في حَضرَمَوت، رَفَضَتْ مُعظَم القبائل تماماً كلَّ فكرةٍ للحُكم المَركزي من أيّ نوعٍ كان بَعدَ وَفاة محمد.

لم يكن السبب حَنينَهم لآلِهَتِهم القديمة، وقد أدرَكَ محمد أنّ احتمالَ رُجوع العرب إلى ماضِيهم الوثَني كان حقيقياً، ولكنه كان احتمالاً بعيداً، وقد رُويَ قَولُهُ: «لا تَذهَبُ الدنيا حتى تَصطَكَّ أَلَيَاتُ نساءِ دَوْسٍ على ذي الخَلَصَة، يَعبُدونَهُ كما كانوا يَعبُدونَه»[١١]. وفي هذه الأثناء وضِعَ الحَجَرُ الذي يُمَثِّلُ ذا الخَلَصَة بِشكلِ عَتَبَةٍ في مَسجدٍ لكي تَدوسَهُ الأقدام. وتم التعامل مع جُيوبٍ وثَنية أخرى باختصارٍ رمزيٍّ مماثِل. وفي نهايةٍ تُشبِهُ الأحداث في الفيلم «طارِد الأرواح الشريرة»، يُروَى أنَّ الإلهَة العُزَّى قد تَجسَّدَتْ للبَطل المسلِم خالد بن الوليد بشكلِ امرأةٍ حبَشية شَعثاء تَهذي. فقطَعَ خالد رأسَها نصفَين فسقَطَتْ غُباراً ورَماداً أمام عَينَيه[١٢]. لا تُوجِّه إليها الأسطورةُ الإسلامية ضَربةً قاضِيةً فقط، بل تَنزِعُ عنها صِفَةَ العروبة، وتَجعَلُها امرأةً حَبشية، فهي تُلَوَّنُ بالسَّواد حَرفِياً ومَجازِياً.

استمتَعَ كثيرٌ من العرب بعَلاقَةٍ عَمَلية ومترفّعة مع آلِهَتِهم القديمة، وإذا لم تمنحكَ ما تريد، تستطيع كَسرَ أسهُمِها الإلهية مثلما فَعلَ الشاعر امرؤ القيس[١٣]، أو ربما يمكنكَ أن تَصِفها بالزّيف والشّك بأصلِها مثلما فَعَلَ

---

(١٠) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٦.

(١١) Hishām bin Muḥammad ibn al-Kalbī, *The Book of Idols*, translated by Nabih Amin Faris (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1952), p. 32.

(١٢) Ibid., pp. 21-22.

(١٣) انظر: ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ من هذا الكتاب.

البَدو السَّاخِرون في أنشودَتِهم عن المطر التي ذُكِرَتْ في الفَصل السابق[١٤].
وبينما أنتَ سائِر، تلتَقط حِجارةً لتكون أثافيَ قِدْرك، وحَجَراً كإلَه، وتَتركَها عندما تُغادِر المُخيَّم. لم يكن هنالك كثيرٌ من الحُبِّ المَفقود بين الأصنام وعُبَّادِها، ولذا لم تكن المشكلة التي ظَهرَت بَعدَ وفاة محمد مشكلةً عقائدية، بل كانت أنّ معظَم العرب الذين انضَمّوا إلى مَشروعِه لم يُدرِكوا النتائجَ السياسية لذلك الاتفاق. كان أهمّ عَمَلٍ للآلهة القديمة هو دَورها السياسي، إذ قامَتْ بدَورِ الرَّمزِ والشِّعار للقبيلة، وعلى نطاقٍ أوسَع وبشكلٍ رَسميّ بالنسبة إلى شعوب الجنوب. والآن أصبَحَ اللهُ هو الرَّمزُ الأعظَم للقبيلة الشّامِلة الأعظَم التي طالَبَتْ بالانضِباط التام وبالضرائب. انتَشَر خَبرُ وفاة محمد في الوقت الذي كانت فيه هذه المَفاهيم قد بَدأتْ أن تُفهَم. وبكل هدوء رَجعَتْ معظَم القبائل القديمة وشعوب شبه الجزيرة العربية إلى استقلالها الذي امتَدَّ قروناً قَبل أنْ يُقنِعَها محمد بالتَّخلي عنه قَبلَ سنة أو سنتَين. تابَعَتْ معظَمها الصلاةَ على الطريقة الإسلامية، فقد كان واضِحاً لهم أن المحافَظة على التَّواصل مع الإله الأعظَم هي فكرةٌ جيدة. أما بالنسبة إلى دَفعِ رُسومٍ إلى مُمَثِّليهِ في الأرض، فقد تَرَكوا القضيةَ تَسقط بهدوء.

لم يوافِق على هذا قادة قريش الذين وَرِثوا مَشروعَ محمد. لإعطاءِ فكرةٍ عما كان يَحدُثُ من المفيد اقتِباس تبادل كامِل قِيلَ إنه حَدَثَ في السنة ١١ للهجرة بين خالد بن الوليد، البطلِ الذي قَهَرَ العُزَّى، والمُرتَدّ المَزعوم مَالِك بن نويرة، الذي كان زعيم قبيلة يَربوع (زعيم القبيلة المبتَسِم الذي ذُكِرَ في الفصل الثاني)[١٥]. هناك رواياتٌ مختلفة للقصة[١٦]، ولكن تَسرُدُ أكثرُها شهرَةً أن مالِكاً كان أحَدَ أفرادِ الوَفدِ الذي زارَ النبيّ الذي قام بتَعيينِهِ مسؤولاً عن جَمع مَالِ زَكاةِ قَبيلَتِهِ[١٧]. بَعدِ وفاة النبيّ احتَفَظَ زعماء القبائل، ومنهم مالك بالأموال، وبذلك أصبَحوا مُرتَدِّين عن عَهدِهِم. أُرسِلَ خالد بن الوليد لتَهديدِ المُختَلِسين، وواجَهَ مالِكاً:

---

(١٤) انظر: ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ من هذا الكتاب.

(١٥) انظر: ص ١٢٤ من هذا الكتاب.

(١٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, pp. 267-268.

(١٧) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٣، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

قال مالِك: مازلتُ أصلّي حتى لو لَم أدفَع الزكاة. أتقتُلَني وأنا مسلِم أصلّي إلى القِبلة؟

فقال مالك: إني آتي بالصلاة دون الزكاة، فقال له خالد: أما علمتَ أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى، فقال مالك: قد كان صاحبك يقول ذلك، قال خالد: وما تراه لك صاحباً؟ والله لقد هممتُ أن أضرب عنقك. ثم تجاولا في الكلام طويلاً فقال له خالد: إني قاتلك، قال: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال: وهذه بعد تلك؟ والله لأقتلنك.

وقَبلَ أن يَضرِبَ رجالُ خالد عُنُقَ مالِك، يُروَى أنه استَدارَ إلى زوجَتِه أمّ تميم قائلاً: يا خالد، بهذا تَقتُلَني، هي قاتِلَتي (لأنها امرأةٌ جميلة جداً). التفت... إلى زوجته أم متمم وقال لخالد: هذه التي قتلتْني، وكانت في غاية الجمال.

تم تنفيذ حُكم خالد، واستَخدَم رأسَ مالِك كِدِعامَةٍ لِوِعاءِ طَبخٍ حتى أُحرِقَ فلا يُمكن التَّعَرُّفُ عليه (تَسويدٌ آخَر بَعدَ الموت). وكما توقَّعَ مالك، فقد تزوجَ خالدٌ مِن أمّ تميم. لا بُدَّ من الاعتراف بأن القضية أصبَحتْ فَضيحَةً في المدينة، لأن مالِكاً كان يؤدي صَلواته ولو أنه لم يَدفَع الزكاة، وقد أكَّدَ إلى النَفَسِ الأخير أنه مازال مسلِماً. إلا أن الخليفةَ أبا بكر رَفَضَ معاقَبَةَ خالد، فقد كان قائِداً مهمّاً لا يمكن إثارة عَداوته، وسيُثبِتُ قيمَتَه في أكبر صِراع في سبيل المحافَظة على الدولة الناشئة.

استمرتْ قبائلُ أخرى في الصلاة دون أن تدفَع الزكاة[١٨]، فقد اعتادوا على اتِّباع الدِّين بشكلٍ طَفيف، أما تقديم الولاء، خاصة دفع النقود، أو بالأصح دفع الإبل وغيرها من الحيوانات، مثلما كانت الحال في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية، فقد كان عِبئاً أثقلَ بكثير، ولا يمكن قبوله (على الأقل عندما تَخسَر جِمالاً في غزوة قَبَلية فلديكَ الفرصة لاستِرجاعِها، أما في حالة دولةٍ مَركزية آخِذَة للإبل فإن الاحتمالات صَعبة ضدكَ). كان لديهم قادَةٌ أقوياء ومُلهِمون في تَمردِهم. لم يكونوا فقط زعماء قبائل تقليديين مثل مالِك بن نويرة، بل كانوا نوعاً من القادَة الذين اكتَسبوا المَكانة حديثاً، إذ إن

(١٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٩٩.

جانباً من رسالة محمد كان ناجحاً جِداً، وكان الخطر الرئيسي على مَشروعِه ليس من الأصنام القديمة المزيَّفَة، بل من الأنبياء الكاذِبين الجُدد. فكانوا من ناحيةٍ مجرد مقلدين - والتقليد كما قيل أخلص أشكال الإطراء، ومن ناحية أخرى، بما أن «الأنبياء» الجُدد كانوا دَوماً من الكَهَنة على الطراز التقليدي، يَستطيعُ المَرءُ أن يَتخيلَ مَدى انزعاجِهم مِن رَجلٍ ناجح مثل محمد، تَصوَّروا أنه واحدٌ من طِينَتِهم. دائرةُ النار السَّاطِعة العظيمة التي بدأتْ بالتَّحرك، عادَت الآن لتُولِّدَ شراراتٍ مُحرِقَة.

كان أشهَرُ المُقلِّدِين هو مُسَيلمَة المَعروف للمؤرخين الإسلاميين بلَقَب «الكَذَّاب»، وكان النموذج الكامل للنبي المُزيَّف. حَصَلَ على كثير من الأتْباع في شَرق شبه الجزيرة، وكان لديه مُؤذِّن مِثلَ محمد لدَعوة أتباعِه للصلاة[١٩]، كما كان عِنده «قرآن» لكي يتَذاكَروه. قلَّدَ ذلك «القرآن» الآيات الإيقاعية المَسجوعَة التي لا يمكن مُجاراتها في القرآن الأصلي مع محتوى مختلف جداً. بعضُ المَقاطع المَزعومة التي بَقِيَتْ من ذلك الكتاب لها سِمات الدعاية السَّوداء، مثل:

يَا ضِفْدَعُ ابنة ضفدع! نِقِّي! مَا تَنِقِّينَ؟ أَعْلَاكِ فِي المَاءِ وَأَسْفَلُكِ فِي الطِّينِ! لَا الشَّارِبَ تَمْنَعِينَ، وَلَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينَ...

لنا نِصفُ الأرض، ولقريش نِصفها، ولكنَّ قريشاً قومٌ يَعتَدون[٢٠].

لا يَبتَعدُ السَّطرُ الأخير كثيراً عن الواقع آنذاك، على الأقل في العالَم المَحدود بشبه الجزيرة. بدأ هذا السطر بتَمَنياتِ مُسيلمَة الذي اقتَرحَ سنة ٦٣٢ على محمد[٢١] اقتسامَ شبه الجزيرة العربية مناصَفَة، أو أن يُقدِّم مُسيلمة ولاءَهُ بشَرطِ أن يَحِلَّ مَحَلَّ محمد في النهاية. وبالنظر إلى الطبيعة الشُمولية لمَذهَب محمد، فإن هذا الأمر لا يمكن أن يُقبَل. غَيرَ أن وفاة محمد كانت فرصةً لقضية النَّبيّ الكاذب، وظَهَرَ في مرحلةٍ عابرة أنّ مُسيلمة ربما يكون منافساً جديّاً خطيراً لدولة المدينة. أرسَلَ أبو بكر مُصلِحَ الأخطاء الذي لا

(١٩) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٢٠) Geert Jan van Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology* (New York; London: New York University Press, 2013), p. 112.

(٢١) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٩٣ - ٩٤.

يَتعَب خالد بن الوليد، وقُتِلَ مسيلمة في المعركة الأخيرة، ولكن قُتِلَ فيها أيضاً كثير من المسلمين (بين ٧٠٠ أو ١٧٠٠ حسب روايات مختلفة)[٢٢].

قَوِيَتْ شَوكَةُ مُسيلمة عندما ضَمَّ قواته إلى قوات سَجاح، التي كانت نَبيَّةً مُزيَّفة أيضاً، ولم يَتحالَفا في الحرب فقط، بل في العِبادة أيضاً، وحتى في الزواج حسب بعض الروايات. يَصعبُ تحليل الحقيقة من التفاصيل الشعبية التي سَجَّلَ بها مؤرخون من طَرف المنتَصرِين هذا التحالف. ولكن سَجاح كانت مَسيحية، أو على الأقلّ مُتأثِّرة بمَسيحيةِ قَبيلَتِها، ومهما كانت الحالة فقد أصبَحتْ مُسلِمَة صالِحَة بَعدَ هَزيمَة مُسَيلمة[٢٣]. وكذلك فَعلَ طُلَيحَة النبي المَزعوم بقُرآنِهِ الآخَر بَعدَ هَزيمَتِه[٢٤]، إلا أن طُلَيحَة اختَلَفَ عن أمثالِه مِنَ «الأنبياء» بأنه بَدَأ كزعيم لقبيلة بَدَوية، إضافة إلى كَونِه كاهِناً. كان مُسيلمة وسَجاح من خَلفيَّة حَضَرٍ مستقرين، وكانت لديهم أفكارٌ توحيدية قديمة. احتَقَرَ مُسيلمة البدو، لو صَدَقَ قُرآنُهُ المزيَّف، كما قالَ لأصحابه: «لقد فضلتم على أهلِ الوبر... ريفكم فامنعوه»[٢٥]. وعلى العَكس، فقد ازدَرى البَدوُ ذَرائعَ طُلَيحَة النَّبوية، وأرادوا ببساطَة التَّهرب من دَفع جِمالٍ للمدينة[٢٦]. بالنظر إلى هذه الهَزائم، ظَهَر واضِحاً مرة ثانية أنّ كثيراً من نجاح مشروع محمد كان بسبب الطريقة التي جَمَعَ بها الحَضَر والبَدو مهما كان التوازن هَشّاً بينهم.

كان لجنوب شبه الجزيرة مُتَنَبِّئُ أيضاً، وهو الأسوَد العَنَسي. اختُلِفَ في اسمِه الأصلي، ولذا فهو يُعرف بشكلٍ عام باسمِه الأسوَد. كان يُعرَف أيضاً بلَقَب ذي الخِمار، ذلك اللباس الذي اختُص به الزعماء الأبطال التقليديون. سيَحذِفُ الهجومُ الإسلامي نقطةً مِن هذا اللقب ليصبح «ذا الحِمار»، ويفسّره بِجَعلِ أهمّ أتباعِه هو حِماره الذي كان يسجد لصاحبه[٢٧]، كما سَيَصِفُهُ

---

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٠٤، و *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 738.

(٢٤) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢٥) Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology*, pp. 112-113

(٢٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 603.

(٢٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٠٩.

بالمُشَعوذِ الذي «يسبي بمنطقه قلب من يسمعه»[٢٨]. حَقَّقَ الأسود بعض النجاحات المهمّة مثل مُسيلمة، فطَرَدَ المَندوب المسلِم، واضطَهَدَ الفرس الذين احتلوا الجنوب وقَبِلوا الإسلام[٢٩] (لهذا السبب أُعيدَ تأهيلُ الأسوَد كبَطلٍ للقومية العربية سنة ١٩٧٠[٣٠] لدى الجمهورية اليمنية الشعبية الديموقراطية الماركسية الفِكر والتي لم تستمر طويلاً. مَن يراه بعض الناس نبياً كاذباً، يراه آخرون مناضلاً في سبيل الحرية. قَلبٌ أسيرٌ بالنسبة إلى رَجُلٍ، هو عَقلٌ مُعاق بالنسبة إلى آخَر). وفي النهاية، هَزَمَتِ الأسوَدَ المدينةُ التي تحالَفتْ مع الفُرس في الجنوب، وقَتَلَتْهُ بعد ذلك زوجَتُهُ (الفارسية).

انتَشَرَت الرِّدةُ على العَهد مع المدينة في أرجاء شبه الجزيرة العربية كالنار في الهَشيم. وبالسرعة ذاتها، كانت قواتُ المدينة تَهزمها وتَمحوها. يجب ألا نفكِّر بصِراعِ عسكري شامِل، ففي الحَرب التي أجِدُ فيها نفسي الآن، صَمَدَ آلافٌ من رجّالِ القبائل مُوزَّعين في آلافٍ من الكيلومترات المربّعة على أرضٍ وَعِرة ضِدَّ أحدَثِ الأسلِحة الجَوية المُوجَّهة بالليزر وبالأقمار الصناعية أكثر من ثلاث سنوات حتى الآن. وإنّ نجاحَ نظامِ المدينة في الإخضاعِ العسكري ليس على مَدى آلاف بل ملايين الكيلومترات المربَّعة في أقلّ مِن سنتَين، بالأسلحة ووسائل النَّقل والاتصالات البسيطة التي كانت آنذاك، كان بعيداً تماماً عن التساؤل. كانت هناك بعضُ الهزائم العسكرية العالية المُستوى، مثلما حَدَثَ لمُسَيلَمة، وحالات قليلة من العقوبات الرَّادِعة، مثلما حَدَثَ لبغايا حضرموت، وبعض الاغتيالات، مثلما حَدَثَ للأسوَد، والحالةُ الشاذَّة لأساليب قوات الصَّاعِقَة، مثلما حَدَثَ في البَحرين والذي انتَشر في أبيات شِعرية لتَخويفِ آخَرين قد تُحدِّثُهم أنفسُهم بالمقاومة:

تَرَكنَا شُرَيحاً قد عَلَتْهُ بَصيرَةٌ   كحاشِيَةِ البُرْدِ اليَماني المُحَبَّرِ
ونحنُ فَجَعْنا أمَّ غَضبانَ بابنِها   ونحنُ كَسَرْنا الرُّمحَ في عَينِ حَبْتَرِ

---

(٢٨) عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر** (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.])، ج ١، ص ١٥٥.

(٢٩) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٣٠) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), p. 44.

ونحنُ تَرَكنا مسمَعاً مُتَجَدِّلاً   رَهينَةَ ضَبعٍ تعتَريهِ وأنسُرِ[31]

وفيما عدا ذلك، فقد تمت المهمات، ورُوِّعَ الزعماءُ أو أُقنِعوا، وقامَتْ بالباقي لامُبالاة الغالبية العُظمَى وجُمودها، ذلك العامِل التاريخي المَنسي عادَة، والذي يَصمدُ على مَرِّ الزمن. كان واضحاً أنّ الله قد أيَّدَ شَعبَه.

لم تذهَب بعيداً تلك الشَّرارات العابِرة التي أشعلتها الوحدة الإسلامية، وعادَت قافِلَةُ محمد للسَّير في طريقِها، كما أصبَح قادَتُها القرشيون الآن جنرالاتٍ قَوَّتْهُم المَعاركُ، وخُبراءَ في المفاوضات يَستطيعون تَركيزَ طُموحاتِهم فيما وراء «جزيرتهم» نحو الأجزاء الشمالية من شبه القارة، ونحو المستقبل. لا بد مِن أنَّ أبا بكر قد أحَسَّ بأنّ العرب الذين أُخضِعوا مؤخَّراً يحتاجون إلى عَمَلٍ جَماعِيٍّ سَريع لتقوية وحدَتِهم الجديدة، فقامَ بتَنشيطِ التقنيات الجديدة مرَّةً أخرى، وأرسَلَ خطابات عبر الجزيرة العربية تدعو الناسَ للقتال ضد البيزنطيين[32]. ستُلاقي دَعواتُه نجاحاً مُنقَطِعَ النَّظير، إلا أنه هو نفسُه لم يَعِشْ لِيَرَى نتائجَه، فقد توفي لأسباب طبيعية في آب/ أغسطس ٦٣٤.

ألقَتْ خطبةُ وداعِ صاحِبِه محمد بظِلالها على طريقِ نمُو الإسلام إلى دِينٍ عالَمي وإلى ترسِيخ أخَويَّةِ الإيمان؛ وبالمِثل، أعلنَتْ آخر خطبة لأبي بكر كيف يمكن أن تتَطور دولةُ الإسلام إلى إمبراطورية دنيوية، إلا أنها ستكون مَسكونَةً بأشباحِ تَفَرُّقِ شَعبِهِ:

وإنكم اليوم على خلافة النبوة، ومفرق المحجة، وسترون بعدي مُلكاً عضوضاً، ومُلكاً عنوداً، وأمة شَعاعاً، ودماً مُفاحاً... فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن، والزموا الطاعة، ولا تفارقوا الجماعة... أي بلادكم خرسة؟ إن الله سيفتح عليكم أقصاها، كما فتح عليكم أدناها[33].

عضْد الغُلفان

استَخدَم أبو بكر وقادَتُهُ ومَبعوثُوه العَصا ليَهزموا ويُحثّوا ويَقودوا

---

(٣١) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٣٣) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

المُرتَدّين للعَودة إلى الصَّف. أما تحت قيادَةِ خَليفَتِه عمر، الذي اختارَهُ أبو بكر قُبيل وفاتِه[٣٤]، فقد جاء دَورُ الجَزَرَة بشكلِ الفتوحات التي ستُغري القافلة.. نحو بلاد جديدة ستَصِلُ إلى أقصَى الأرض، وستَجمَعُ رفاقاً سَائرين حيثما ذَهَبَتْ. سُرعان ما سيُصبِح الأتباعُ الجُدد أكثر بكثير من الأعضاء الأصليين العرب. إلا أن العرب لن يتَخَلّوا كلياً عن أمتِعَتِهم الأقلّ فائدة من مختلف المُعَوِّقات القَبَلية والعِرقية التي جاؤوا بها معَهم من شبه الجزيرة العربية. كان ذلك الحِملُ بالنسبة إلى بَعضِهم ثِقَلاً ربَطَهُم بأمور الدنيا ومَنَعَهُم من النظر إلى السماء.

في بداية خلافَةِ عمر، لا يُستبعَد أن الإسلام كان يُعتبر مَشروعاً عَربياً صِرفاً، هَدَفُهُ السياسي الرئيسي توحيد الناطقين بالعربية ضد التهديد الفارسي، حسب تلك النظرية الجَذّابَة التي لا يمكن إثباتها[٣٥]. لا شَكَّ بأن أُولَى الحَملات خارج شبه الجزيرة ستَسعَى لتوحيد الناطقين بالعربية[٣٦]. في المناطق الشمالية لشبه القارة، واجَهَ عالَمُ شبه الجزيرة العربية الهامشي الجسمَ الرئيسي من أوراسيا بما فيها من تُراثٍ إغريقِي وأخمِيني وهيلينستي وروماني وسَاساني وبيزنطي. وكان في منطِقَةِ التَّماس في شمال الهلال الخصيب نفسه تُراثهُ الأقدَم والأغنَى، ولكن في القرون السابقة تحت حُكم الغَساسنة واللَّخميين كان الناطِقون بالعربية قد تَسللوا (أو بالنظر إلى التاريخَ الأبعَد من الهجرات، قد عادوا) إلى تلك المَناطق، وتوزَّعوا بين الناطِقين باللغة الآرامية القريبة منها. وقَبلَ فترة أقرب، عَرفَ المكّيون تلك المناطق جيداً بفَضل التجارة التي كانت أساسَ ثروةِ كبيرِ مكة أبي سفيان الذي كان قد اشتَرى ضِياعاً في المناطق البيزنطية[٣٧]. ربما كان للعَرب «جزيرة» كانت مَوقِعَ إقامَتِهم الأساسي، إلا أنها كانت مُتَّصِلَة ـ مُنفَصِلَة، وكان معظَم جيرانها عائلة واحدة من الناحية اللغوية على الأقل.

في الجزء الغربي من الهلال الخصيب وفي امتداده المصري، تَعرَّضَ

---

(٣٤) Lewis, "The Concept of an Islamic Republic," p. 7.

(٣٥) قارن: ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ من هذا الكتاب.

(٣٦) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 93.

(٣٧) قارن: ص ١٩٧ ـ ١٩٨ من هذا الكتاب.

البيزنطيون إلى هَزائمَ حديثة مُخزية بِيَدِ فارِس المُتَجدِّدَة لفَترةٍ وَجيزَة. ولكن في العقد الثالث من القرن السابع، بينما كان محمد يُحارَب المَكيين المُشركين، كان الإمبراطور هِرقل يَطرُد الفرس. ومع نهاية ذلك العَقد، كان قد استَرجَع ما خَسِرتْه بيزنطة من الأرض[٣٨]. ولكن، بينما خَرَجَ قَومُ جالوت الإمبراطوريون من معارِكِهم مُضَرَّجِين ومُرهَقين ومُتَذَمِّرين، انبَعَثَت الحركةُ العربية الفتيّة من صِراعها أقوى مما كانت عليه من قَبل. والآن في سنة ٦٣٣، عندما تَوحَّدَت أخيراً شبه جزيرتهم بكامِلها (نظرياً على الأقل) بالعَقيدة، وتحت قيادة زعماء القوافل الذين أصبَحوا بارِعين في التكتيك الحَربي، والمُتَشَوقِين للإغارة، لم يَعُد العرب أولئك الرّعاة التّافهين الذين أثاروا استِياء الآشوريين وما تَلاهم مِن إمبراطوريات.

لم تدخل هذه التطورات في وَعي البيزنطيين، وعندما ظَهَرَتْ قوةٌ من ٢٤٠٠٠ في مناطِقهم[٣٩]، ليس عَبرَ الجبهة الفارسية الشرقية المُعتادَة، إنما مِنَ الجنوب، من شبه الجزيرة العربية حيث لا يوجَد شيء، فقد فوجِئوا وهُم نائِمون. كان تَسليحُ العرب خفيفاً، إلا أن مَزيجَ الجَمَل ـ الحِصان مَنَحَهُم السلاح الذي لا يُقهَر في السرعة والمُناورة. اندَحَرَتْ معظَم الحاميات البيزنطية المتفرِّقَة، وسرعان ما انضَمَّت القبائل العربية إلى طَرَفِ المسلمين[٤٠]. ولم يَظهَر السكان «المَحليون» الناطقون بالآرامية إلا من خلال صَمتِهم.

هل اعتَقدَ المسيحيون الناطِقون بالعربية أو بالآرامية في تلك المنطقة بأنّ المسلمين الغُزاة هم مُتَدَيِّنون بنفس ديانتهم ـ ولو مذهبهم فيها غريب؟ ذلك احتمالٌ ممكِن. ربما كان الإسلام آنذاكَ أكثر مُرونَةً من النواحي العقائدية مما تَطَوَّرَ إليه فيما بَعد، خلافاً لما يقودنا للظَّنِ به مؤرخون مُتَحَجِّرون. كما أن أشكالَ العِبادة الظاهرة لم تكن مختلفة، فَمَثلاً اشتركَ المسلمون مع المسيحيين في تلك المنطِقة بمُمارَسَة السّجود (ومازال يُمارَس في طقوس

(٣٨) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), pp. 147-148.

(٣٩) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١١٢.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

الكنيسة السريانية الأرثوذوكسية)[٤١]. كما شارَكوا كنائسَ المسيحيين في مُدُنٍ كبرى، مثل دمشق وحمص، وبعض المناطق الريفية مثل النقب، وهذا أمرٌ ربما لا يكون مُريحاً لو اعتبَر كل طَرَفٍ أن الآخر مُهَرطِقٌ سيَنتَهي في جَهنَّم. استمرّ ذلك التّعايش في دمشق بما لا يقلّ عن سَبعين سنة[٤٢]، وسرعان ما أصبَحَتْ عاصِمة الخِلافة الجديدة، واعتادَ المسلمون والمسيحيون دخول المَسجد ـ الكاتدرائية «من الباب نفسه... ثم يَتّجِهُ المسيحيون غرباً نحو كنيستهم، بينما يَتّجِهُ المسلمون إلى اليمين للوصول إلى مَسجدِهم»[٤٣] [غير حرفي]. انتَشَر التعايش كذلك فيما وراء عالَم العقارات الدينية، وسيَعمَل القديس يوحَنا الدمشقي كمَسؤولٍ ضريبيٍّ للمسلمين، وسينضَمّ إلى بلاط وصُحبة شَراب عائلة الخليفة. بَدأتْ حقبة طويلة من النَّقل الفكري عندما عَيَّنَ أميرٌ مِنَ العائِلَة راهِباً يونانياً اسمه ماريانوس لكي يُعلِّمَهُ الطب والكيمياء[٤٤].

مما لا شك فيه أن أغلبية المسيحيين من تابعي عقيدة الطبيعة الواحدة في المنطقة الذين اعتَبرتْهم القسطنطينية هَراطِقَة قد فَضّلوا حُكمَ المسلمين على حُكمِ البيزنطيين. أما بالنسبة إلى اليهود، فيُروى أنهم أقسَموا في حمص على التوراة أنهم لن يَقبَلوا حاكِماً بيزنطياً آخَر[٤٥]؛ كل ما كان مهماً بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلى معظم الناس في معظَم العصور، هو أن يتمكَّنوا من مُتابَعة حياتهم دون مضايقات كثيرة. وكان ذلك أيضاً كل ما يهمّ المسيحيين والآخرين من سكان المناطق التي كان يُديرُها الفرس، وكذلك أقباط مصر، الذين سرعان ما سَقَطوا تحت سَيطَرة دولة المدينة، على الرغم من أن «السقوط» ليس الكلمة المناسبة، فالجيوش المُدافِعة حارَبَتْ وسقَطَتْ بالتأكيد، إلا أن الأغلبية من غير المُحارِبين قد خَضَعوا للحُكم الجديد، وتذمَّروا من الضرائب الجديدة، إلا أنهم أدرَكوا أن الحكَّام الجُدد ليسوا سَيّئين، وتابَعوا حياتهم.

---

(٤١) William Dalrymple, *From the Holy Mountain: A Journey in the Shadow of Byzantium* (London: HarperCollins, 1997), p. 105.

(٤٢) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٣٣، و Hugh Kennedy, *The Great Arab Conquests* (London: Orion Publishing, 2008), p. 86.

(٤٣) Ibn Shakir quoted in: *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, s.v. Architecture.

(٤٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٣٠٠.

(٤٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٣٩.

لا يعني ذلك أن الأمر كان نُزهَةً بالنسبة إلى القوات العربية، فقد حَدَثَتْ حِصارات، وكان على العرب أن يُحاصِروا مدينة قَيسارية على ساحل فلسطين سَبع سنوات قَبل أن تَستَسلِم سنة ٦٤٠ (كانت دفاعاتها قوية، ولكن لا شك بأنّ صِفراً أو صِفرَين قد أضيفَا إلى عدد حامِياتها الذي قُدِّرَ بنحو ١٠٠,٠٠٠[٤٦]، كما أن «السَّنوات السَّبع» ربما كانت أقرب إلى كونها أشهُراً سَبعةً). كما كان هناك بطولات ومَذابح؛ يُروى أن امرأة تزوجَتْ حديثاً ثم تَرمَّلَتْ بمَقتَلِ زوجِها في معركة مَرج الصُّفَّر، فانتابها غضبٌ وجنون وأمسَكتْ بعَمود خَيمَة قَتلَتْ به سبعة جنودٍ بيزنطيين[٤٧]. ثم كانت معركة اليرموك، التي سُمّيت باسم نَهرٍ ينحَدِرُ غرباً إلى وادي الأردن قُربَ بحيرة طَبرية[٤٨]. شَهِدَتْ معركةُ اليرموك تَجَمُّعَاً كامِلاً لجَيشِ العرب الذي بلَغ تَعدادُه ٢٤,٠٠٠ لمُواجهة قوة بيزنطية مماثِلَة على الأقل. استمرّت مُناوشاتٌ عنيفة متفرّقة مدَّة شَهر في صيف سنة ٦٣٦ على سفوح هضبة الجولان قَبل أن تتم المعركة الشاملة بقيادة خالد بن الوليد، ذلك القائد الناجح في حروب الرّدة والذي أثار تساؤلات حول بعض تصرفاته. تمكَّن من اختراق صفوف البيزنطيين، وأشرَفَ على مَصرَعِهم في أودية اليرموك.

ومرة أخرى، قامَتْ نساءُ العرب بدَورِهِنَّ مع هند زوجة أبي سفيان المُشَجِّعَة آكِلَة الأكباد والشاعِرة التي أصبَحَت الآن في صَفِّ المسلمين، شَجَّعَت المقاتلين هذه المَرة بصَرخَتها: «عَضّدوا الغِلفان بسيوفِكم»[٤٩] كانت المعركة في تَصَوّر هند هي معركةٌ بين المَختونين وغَير المَختونِين. ولكن في الحقيقة لم يكن الأمر على هذه الدَّرجة من التَّباين؛ إذ لم تكن معركة اليرموك بين العرب وغير العرب، فقد اعتَمَدَ الجانب البيزنطي على وحداتٍ من مقاتِلين عَرَب من غسّان ولَخم وجُذام وتَنوخ وإياد وغيرها من القبائل[٥٠]. كان المَلِكُ العربي الغسّاني جَبَلَة بن الأيهَم قائد المقدّمة البيزنطية، وقد أشرَفَ قَصرُ أسلافِه القدماء على أرضِ المعركة. ولكي تكون

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٢١.
(٤٨) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, pp. 83-85.
(٤٩) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٣٧.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ١٣٦ و١٦٤.

الأمور أكثر غموضاً، قِيلَ إن جَبلَة قد غيَّر انتماءَهُ في خِضَمِّ المعركة على أساسِ أنه كان يُواجِهُ فيها «إخوته» من قَبائل الأوس والخَزرج (كانوا جميعاً من أصول بعيدة في جنوب شبه الجزيرة). يُروى أيضاً أنه قد اعتَنقَ الإسلام(٥١)، ولكن بعد أن هَدَّدَه الخليفة عمر بالعُقوبة لأنه صَفَعَ رَجُلاً رَجَعَ إلى كَنَفِ القسطنطينية والمسيحية قائلاً: «والله لا أقيم ببلد علي به سلطان»، وقد ظَلَّ مَلَكياً، ومِثل كثيرٍ غَيره، لم يَستَوعِب النتائج السياسية للإسلام. فبالنسبة إلى جَبلَة، استَدعَتْ روابط الدم انتماءاتٍ سياسية قديمة، ولكن في النهاية تَغَلَّبَ الشَّرفُ الشَّخصي والاستقلال الذاتي على كل أمرٍ آخَر، حتى على الإسلام.

غَربُ الشرق

في أوائل مواجهاتِهم مع البيزنطيين، وجَدَ العرب أنفسهم مِراراً بمواجَهة شخصياتهم «الجاهلية» المتمثلة في أمثال جَبلَة بن الأيهَم الغسّاني. وبالمقابل، عندما قاتَلَ العربُ فارِسَ في صراعهم الكبير، كانوا يقاتِلون الآخَرَ الذي طالما عَرَّفَهُم من قَبل.

يبرز الآخَر بوضوح في روايات مِثل حِوار الزعيم العربي المُغيرَة مع الجنرال الساساني الوصِي على العَرش رُستُم بينما كان المُغيرَة يَثقب برمحِهِ بساطَ رُستُم العَجَمي الفاخر، ثم يُحاوِل أن يَجلِسَ إلى جانب الحاكِم المَذهول على عَرشِه. ربما كان العرب أجلافاً كما يريد مُؤرِّخوهم رسمهم، إلا أنهم سَيأخذون دَورَهم على العَرش(٥٢). وكان الفُرس الذين أرهَقَتْهم الرسميات قد دَخَلوا طَور انحِطاطِ إمبراطوريتهم. اتَّفَقَ العرب لاشعورياً مع الإغريق والرومان في نَظرَتهم إلى الفرس كشعبٍ عاجزٍ خليع، واعتَبروا أنفسَهم مِثل من سبَقوهم أبطالاً مَلحَميين يقاتلون مُخَنَّثين شَرقيين. كان المسلِمون مثلما وصَفَهم ليفي شتراوس «غَرب الشَّرق»(٥٣) حتى في تلك المرحَلَة المبكرة.

---

(٥١) المصدر نفسه، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٣، و Kennedy, Ibid., p. 113.

(٥٣) Claude Lévi-Strauss, *Tristes Tropiques* (New York: Penguin, 1992), p. 405.

بالنظر لوجود مُحاوِرين مثل المُغيرة، لا يُستغرَب أنَّ تَقدُّمَ العرب في المناطق الفارسية قد أدّى إلى معركة كبيرة ثانية كانت في النهاية أكثر حَسماً لمَصير الساسانيين مما أدت إليه معركة اليرموك بالنسبة إلى البيزنطيين، فقد ظَلَّ البيزنطيون ثمانية قرون بَعدَها، وتمكَّنوا من القتال المُضادّ أحياناً، والتَّصرف كطَرَفٍ مُشاكِس في المَدار العربي أحياناً أخرى. وبالمقابل، فإن آخِر الحكّام الساسانيين يَزدجرد الثالث قاوَمَ قليلاً، ولكن بَعدَ أكثر بقليل مِن عَقدٍ واحد انتَهى مَطعوناً، وأُلقِيَ به في نَهرٍ آسيوي(٥٤)، وانتَهَت معه الإمبراطورية الفارسية. ساعَدَت الجغرافيا البَسيطة في ذلك، لأن العاصمة الفارسية المَدائن تَقَعُ في الجِهة العربية من الإمبراطورية على طريق تقدّم العرب، بينما كانت القسطنطينية مَعزولة بنحو ألف كيلومتر من آسيا الصغرى عن شبه القارة العربية(٥٥).

لم يُتَّفَق تماماً على موعد حُدوث المعركة، فربما حَدَثَتْ بين سنة ٦٣٦ وسنة ٦٣٨(٥٦). ومن المؤكَّد أن قتال المدينة ضد القوتَين العُظمَيين في الوقت نفسه تقريباً كان إما جنوناً أو إلهاماً. كما لا يوجَد خِلاف حول مكان حدوث المعركة في مَوقِعٍ يُسمى القادسية على مَسيرة يوم تقريباً من الحِيرة عاصمة اللَّخميين، ويقَع حيث يُصبح الهلال الخصيب سَهلاً جافّاً. ربما كان عدد القوات العربية القادِمة من المدينة نحو ١٢,٠٠٠(٥٧)، وكانت وراءهم «جزيرتهم» القاسية المُنيرة، وأمامَهم سَواد العراق المَشهور بأشجار النخيل ذات اللون الأخضر الدّاكن، وتُربَته الرطبة، وقَنَواته المائية المتَعرّجة التي جَذَبَت الغارات العربية على مَرِّ التاريخ. كان أمامهم أيضاً جيشٌ فارسي بقيادة رُستُم أكبر بكثير من جيشِهم، إذ بلَغ تعداده نحو ١٢٠,٠٠٠ حسبَ بعض التقارير(٥٨)، على الرغم من أن المرء يَشُكُّ بوجود شيء من حالَةِ داوود وجالوت أثَّرَتْ على المؤرخين الإسلاميين مثلما حَدَثَ في قَيسارية.

---

(٥٤) Kennedy, Ibid., pp. 190-191.

(٥٥) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 129

(٥٦) Kennedy, Ibid., p. 109.

(٥٧) Ibid., p. 108.

(٥٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٥٢.

وكالعادة، كانت السرعة والمُناورَة فعّالة منذ البداية إلا أن معظَم القتال دارَ على الأقدام، وفي النهاية كان الرّماة هم العامِل الحاسِم. كان جنود الفرس يصرخون: «دُوك دُوك» يعنون «مغازل»[٥٩]، بينما كانت دفقاتٌ متتالية من سِهام العرب الغاضِبة تَنهالُ عليهم، «ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدرع الحصينة والجوسن المضاعف». كانت معركةُ القادسية مثل معركة «أجينكور» عربية[*].

تطورَتْ رمايةُ السّهام العربية منذ زمن طويل بفضل الرماة المَهَرَة في الصّيد على المساحات العارِية في شبه الجزيرة، وربما كانت قتّالَة على مسافات بعيدة، غير أن معظَم معارك العرب كانت مَحدودَة في نِطاق الإغارة على مناطق مجاورة. كانت هناك شجرة نخيل واحدة في القادسية، وكان المصابون من المقاتلين العرب يَنظرون إليها ويَتساءلون: «هل اقتَربنا من السَّواد؟»[٦٠]. اقتَربوا بالفعل، وأصبَحتْ أرضُ النخيل لهم. إلا أن الإمبراطورية الشاسعة التي تمتد إلى قَلبِ بلاد فارس والسهول البعيدة، وتتصاعَد نحو جبال أرمينيا، وتَنحَدر عَبر آسيا إلى نهر جيحون وحدود السّند، هي مناطق أكبَر من شبه القارة العربية. كان كل ذلك الآن أبعَد من خَيال معظَم العرب، مما يجعل المُفارقة بين الطّرفَين أوسَع، وسقوط القوة العظمى القديمة أكبَر. وكذلك كانت روايات ما بَعدَ المعركة: قُبِضَ على خبّاز الإمبراطور الفارسي، ووضِع على بَغل وهو يرتدي الحرير المطَرز وقبعة من قماشٍ مذهَّب، وحوله صناديق رسمية مملوءة بالحلوى وأقراص العسل[٦١]. ابتاعَ تاجرٌ آخِرَ فِيلٍ تَبقّى من ثلاثين فيلاً حربياً فارسياً، وأَخَذَهُ مُستاءً في جَولَة عَرضٍ ليتَفرج عليه العرب[٦٢].

أدى سقوط السلالة الساسانية أيضاً إلى سقوط بقايا أتباعِها العرب من سلالة اللّخميين وسقوط عاصمتهم الحيرة التي كانت المَعقِل القديم للشّعر

---

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(*) [معركة كبيرة انتصَر فيها الإنكليز على جيشٍ كبير من الفرنسيين سنة ١٤١٥ في حرب المئة عام بفَضل رماة السّهام] (المترجم).

(٦٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٦١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٦٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨٢.

العربي والكتابة، وربما مكان ولادة الهوية العربية الموحَّدة. يُروى أن حُرَقة بنت النعمان الثالث ـ الذي كان يرعَى الشعراء ـ الأميرة التي كانت تَرْكَبُ إلى أملاكِها على طُرُقٍ مفروشة بالحرير، قد جاءت الآن بثيابٍ من الخَيش تتوسَّل الصَّدقة من المنتَصر العربي في معركة القادسية[٦٣]. سرعان ما أصبَحَت الحِيرة نفسها أطلالاً يَسكُنها الرّهبان. وأميرةٌ أخرى اسمها هند، أصبَحتْ راهبةً عمياء تتمتَّع بشهرة في آخر عمرها كخَبيرة بالجزيرة العربية القديمة[٦٤]. إلا أن هذه الأشباح من ماضي العرب زالَتْ وأصبَحَت المدينة العربية القديمة مَسكَناً للبومِ والصَّدى، مِثل طَيفِ طَيرٍ يخرجُ من جماجم الأموات[٦٥] تلاشَت الحِيرةَ المَهجورة وتَعفَّتْ مثلما زالَت بابل أو تشيرنوبل.

ستَخلُقُ دولةُ المدينة المتوسِّعة أطلالاً وأشباحاً أخرى، ففي أقصَى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية كانت حضارتا سَبأ وحِميَر القديمتان قد سقَطتا أولاً أمام الإثيوبيين ثم أمام الفرس. إلا أن قَصرَ غَمدان السَّبئي القديم قد بَقِيَ بنوافِذِهِ المَرمَرية وحواجِزه البرونزية، تَخرَّبَ بعضُه في عهد محمد، وأُزيلَ تماماً في عهد خليفته الثالث عثمان[٦٦]. كان التَّخريب شخصياً وعبثاً في بعض الأحيان. اعتَرَضَ شابٌّ متحمسٌ حديث العَهد بالإسلام طريقَ البطل المُحارب العَريق دُريد بن الصِّمَّة[٦٧] الذي تمسَّكَ بعاداتِه الوثَنية، وأرادَ الشابُ قَتْلَهُ بضرباتٍ قليلة غير حاذِقة، فقال دُريد: «اضرب بسَيفي». وقَتَلَ سيفُ المُحارب صاحبَه في الحال. بَعدَ وفاته، شوهِدَتْ على فخِذيه آثارُ جروحٍ كثيرة بسبب سنوات طويلة من ركوبه الحصان دون سَرج. قالتْ أمُّ الشابِ المتعصِّبِ لَهُ: «لقد أعتق قتيلُك ثلاثَ من أمهاتك»[٦٨]. كانت أشباحُ القبائل وأشباح الحِيرة وحِميَر أشباحاً عائلية، ولكنَ الجِيلَ المسلِم الجديد غادروا وطن أجدادهم المسكون غَيرَ آسِفِين،

---

(٦٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٦٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٦٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٢ ـ ١٠٥.

(٦٦) **الموسوعة اليمنية**، إعداد وإشراف وتحرير أحمد جابر عفيف (صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ١٩٩٢)، كلمة غمدان.

(٦٧) قارن: ص ١٢٠ ـ ١٢١ من هذا الكتاب.

(٦٨) لويس شيخو، **شعراء النصرانية في الجاهلية** (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨٢)، ص ٧٧٢ ـ ٧٧٣.

وأدَاروا ظُهورَهم إلى الماضي الذي وَسَمَهُ الإسلام باسم «الجاهلية». الجَهل هو جَهل الطفولة، وقد أصبَح العرب الآن رجالاً.

بعد فترة قصيرة، عندما بدأتْ حماسَةُ الإسلام الفَتيّ تَنتَقلُ إلى آخرين من الفرس الناهِضين والتُّرك المتَمردين، سيَنظُرُ العرب إلى الخَلفِ ويرون الجاهلية كعَصر ذهبي سعيد، مثل توهّج قَبلَ الفجر كان لهم وحدَهم قَبلَ شروق الإسلام العالَمي. ذكرياتُ ذلك التوهج هي التي حافَظَتْ على شرارة العروبة حيّة عَبرَ الألف سنة حين كانت شعلة الإسلام بيد آخرين. وهي الشَّرارة نفسها التي ستُشعِل في القَرن التاسع عشر شعوراً بعَظَمة العرب ووحدَتهم، شعوراً «بالبَعثِ واليقظة». ولكن العرب انطَلَقوا مع أول دَفقاتِ ذلك الشباب خارِجين من شبه الجزيرة العربية دون أن ينظُروا إلى الخَلف، وكأنما أطاعوا الاعتقادَ الذي وجِدَ قَبل الإسلام بأن المُسافر الذي يَنظر خَلفَه لن يُتِمَّ رِحلته[٦٩]. نَجَحَت الانطلاقة، وكان سقوطُ الأراضي الفارسية والبيزنطية بسبب ضَعف المقاومة وبسبب الحَظّ، ذلك العامِل العسكري الذي يُهمَل تأثيره دائماً (أو بالاصطلاح الإسلامي: مشيئة الله)[*].

لم يكن النجاح بسبب استراتيجية تقليدية ناجحة إلا إذا اعتُبر أن الهجوم على إمبراطوريتَين في الوقت نفسِه حِكمَةً، إلا أنه كان في الوقت نفسه بسبب الزَّخَم التّام. اكتَسَبَ قادةُ قريش العسكريون خبرةً عملية في حروب الرّدة، كما أنهم تمتّعوا كذلك بقدرٍ كبيرٍ من الجُرأة؛ يُقال مَثلاً إنَّ خالد بن الوليد قادَ رجالَهُ عَبرَ بادية الشام حيث ذَبَحوا جِمالَهم ليَشرَبوا من عُصارَة بطونِها[٧٠].

في النهاية، كان لا بد من أن تنجَح سياسة الاندِفاع إلى الأمام بلا هَوادَة، فقد كانت الفتوحات العربية في القَرن الإسلامي الأول بمثابة غارات كبيرة لمُفتَرسين عَنيدين لم يتمكّنوا بعد اتحادِهم من الإغارة على بعضِهم، أو

---

(٦٩) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨)، ص ٤٦٦.

(*) [يَعتَبر الكاتبُ أن الحَظّ هو أحَد أسباب نجاح الفتوحات الإسلامية، وأنّ الحَظّ في رأيه يُقابِل «الله» في نَظَرِ الإسلام!] (المترجم).

(٧٠) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, p. 75.

على إخوتِهم من عَرب الحَضَر. فإذا كنتم تصلّون معاً، فيجب ألا يَفتَرِسَ بعضُكم بعضاً، نظرياً على الأقل. يمكِنُ للمَرء أن يتساءل فيما إذا كان عرب القبائل قد وجَدوا سَبباً اقتصادياً آخَر لمعيشَتهم غير الإغارة. ويبدو أن الأمر ليس كذلك، أو ليس بَعد. كما أن قادةَ مكة كانوا سعداء باستغلال النَّزعة الافتِراسية، أو كما صاغَها هيو كَنَدي Hugh Kennedy: «كان زعماء الدولة الجديدة واعين تماماً أنها يجب أن تَتوسَّع أو تَنهار»[٧١]. يُعتَقَد بأن الإمبراطوريات تَنمو وتَتوسّع ببطء في العادة، ولكن إمبراطورية العرب تَوسَّعتْ بسرعة مثل عَجينِ فَطيرَةٍ مُخَمَّر.

أبناء العبّاس

لم يَتبَع نُمو القوة العربية قواعِدَ نُمو الإمبراطوريات، بل كانت إمبراطوريتهم حسب قول ابن خلدون: استثنائيةً ومُعجِزة[٧٢] [غير حرفي]. لا شك بأن تَضافر الظروف التي مَكَّنَت من التَّوسّع، مثل إنهاك الإمبراطوريتين المُجاوِرتَين في الحروب، وقوة القتال العربية، والتَّفرق وعدم الوَلاء بين الشعوب التي حَكَمَها الفرس والبيزنطيون، والعرب الذين وحَّدَتْهم عقيدة الإسلام بخِطابٍ لا يُمكن مُقاوَمته... كانت جميعها أكثر من أن يَحلُم أيّ فَرد باستِدعائها. ولكن كان هنالك ثَمَنٌ لا بد مِن دَفعِه، يبدو أنه إحدى قواعِد الإمبراطوريات، سواء كانت مُعجِزَةً أم غَيرَ ذلك، وهو أنه كلما كان ربحُها أسرَع كان بَقاؤها أقصَر (المَقدونية والمَغولية والنابليونية). ينطَبِقُ هنا تَشبيه خَبز العَجينة المُخمَّرة التي تَنتَفِخُ بسرعة ولكنها سرعان ما تَنهار إذا لم تَنهَشها أولاً قِوى جائِعة أخرى. وعلى العَكس، فالإمبراطوريات التي تَنشَأ ببطءٍ (الرومانية والصينية والروسية) تَدومُ أكثر. سيُسيطِر العرب على إمبراطوريتهم الموحَّدة نحو مئتَي سَنة (إلا أن الإمبراطورية الثقافية التي ألهمَتْها مازالت قائِمَةً حيّة).

كان العرب على مَدى القَرن الأول سائرين على طريقٍ مَزَجَتْ بين تكتيكات الإغارة وطرائق الحرب التقليدية. فبَعدَ أن يَربَحوا معركة كبيرة

---

(٧١) Ibid., pp. 56-57.

(٧٢) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 255.

تتواجه فيها الصفوف المنتظمة، يُرسِلون سرايا بأسلوبِ الغارات البدوية لمُطاردة الخصوم الهاربين، ويُظهِرون عادةً للفلاحين غير المُقاتلين مَن هو المُتحكِّم[٧٣]. كانت معادَلة ناجِحة جَمَعتْ بين العِناد والإلحاح مثل الجَمع القديم بين الجَمَل والحِصان، كما أنها حالَة أخرى اجتَمعتْ فيها صفاتُ مجتمعاتِ الحَضَر المستقرة وقبائل البدو المُتنقِّلة. وفي هذه الحالة، استُخدِمتْ أساليبُهم العسكرية معاً بفاعلية كبيرة. بشكلٍ عام، كان التركيز على الخِفَّة والحركة التي لا تُعوقُها قطاراتُ الأمتِعة المُتثاقِلة. قافلةُ الجِمال هي قطارُ النَّقل، وعلى كل حال فإن أدوات المُقاتِل العربي كانت أساسية: ترسٌ ودِرعٌ من الزَّرَد وخُوذَة ورُمحٌ طويل واحد وخَمسة رِماح قصيرة وخيطٌ من الكتّان وسَيفٌ عَريض ومقصّ وكِيسٌ وسَلَّةٌ صغيرة، إضافة إلى أسلِحَتِه الأخرى التي شَمَلتْ عادةً الرمح والقَوس والحِصان[٧٤]. عندما بَدأت الكُنوزُ تتدفَّق مِن ضَرائب المُقاطعات المفتوحة الجديدة نحو الخزينة المَركزية في المدينة، سَعى الخليفة عمر إلى دَفع ٤٠٠٠ درهم لكل مُقاتِل سَلفاً (أكثر من عشرة كيلوغرامات من الفضة)، وألفٍ لكلٍّ من سَفَرِه وأسلِحَتِه وراحِلَتِه، وألفٍ أخرى يَترُكُها لعائِلَتِه[٧٥].

تُشيرُ النقطةُ الأخيرة إلى أنّ المُقاتِلين العرب لم يَصطَحِبوا معهم نِساءَهم في البداية. عندما طَلَبَتْ زوجةٌ من رَجُلِها البدوي أن يأخذَها مَعهُ في الطريق، أجابَها بالرَّفضِ قائلاً:

إنكِ لو سافرتِ قد مَذِحْتِ

وحكّكِ الحِنْوانِ فانفشحتِ

وقلتِ هذا صوتُ ديكٍ تحتي[٧٦]

اصطَحَبَ القادَةُ زوجاتِهم أحياناً، خاصة إذا كُنَّ يُنشِدنَ بَيتاً أو بَيتَين من

---

(٧٣) انظر على سبيل المثال: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٢٤.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٣١٠.

'Broadsword' is tentative, reading mikhfaq for the mkhff (vowels uncertain) of the edition I have to hand.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٤٣٤.

(٧٦) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ١٢١.

الشِّعر لتَحفِيز الجنود في المعركة مثلما رأينا في حالَة هند زوجة أبي سفيان، ولكن الفاتِحين تَركوا زوجاتِهم في البيت بشكلٍ عام، لم يكونوا بحاجَة لأخذِهِنَّ، فقد كانت هناك كثيرٌ من السَّبايا.

سافَرَت الجيوشُ العربية خفيفةً، ومن الواضِح أنها كانت قليلة العَدَد أيضاً مثلما ذُكر في نسبة العَشرة إلى الواحِد أو حتى العِشرين إلى الواحِد في معركة القادسية. يبدو أن فكرة البطل الشابّ الصغير الذي يقاتل العِملاق قد دَفَعَت المؤرخين الإسلاميين إلى تضخيم حَجم قوات الأعداء، وفي الواقع كان على الاستراتيجيين العرب التعامل مع المشكلة الحقيقية في النَّقصِ العام المستمرّ في طَرَفِهم. بعد انهيار الجيش الفارسي الرئيسي في القادسية، التَقَطَت القوى العربية أنفاسَها بضع سنوات، ورسَّخت سَيطَرتها على السَّواد وبقية الأراضي المنخفضِة في العراق. إلا أن يَزدجرد، الشّاه الحازِم في هضبة إيران، كان يُحاوِل جَمعَ التأييد لحِماية ما بَقِيَ من إمبراطوريته. حَدَثَت المواجَهة الحاسِمة الثانية في نهاوند التي كانت موقِعاً مهمّاً سيَفتح في النهاية الهضبة الإيرانية والأراضي البعيدة إلى الشرق. ثَبَتَ أن المعركة التي جَرَت سنة ٦٤٢ كانت بالفِعل النَّصرَ الحيوي الذي فَتَحَ للقوات العربية بقية آسيا[٧٧]. ولكن الخليفةَ عمر كان مُحتاراً في كيفية مواجَهة جَيشٍ فارسي كبير مَرَّةً ثانية. فكَّر بِنَقلِ رجالٍ من سورية واليمن، ولكنه أدركَ أن ذلك سيَترك تلك المَناطق مُعرَّضَة للغزو المضاد من جِهة البيزنطيين والإثيوبيين. جَمَعَ في النهاية ما يكفي من المُقاتلين من الأمصار في العراق الذي فُتِح حديثاً[٧٨]. كان قيام رجال شبه الجزيرة العربية القليلة السكان بوَضع أنفسِهم مقابل جيوش بلادٍ أكثر سكّاناً مشكلةً دائمةً في تلك السنوات من التَّوسّع. لم يكن هنالك ما يكفي من المُقاتلين العرب على الأرض. أُسِّسَت الحامِيات في المراكز الرئيسية من المناطق المفتوحة الجديدة، ولكن الوجود العربي في بقية المناطق كان قليلاً في معظم الأحيان. كان حلّ المشكلة كما سنَرى هو في إنتاجِ مَزيد من العرب بطرائق مختلفة. ومع ذلك ظَلَّت الأعدادُ قليلة. وهذا هو السبب في أن ما اعتُبِر فتوحاتٍ ساحِقة لم يكن في معظم الأحيان

---

(٧٧) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, pp. 171-172.

(٧٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٩٦.

أكثر من غارات لم تَندَمِج، وربما كان جزئياً السبب وراء أن الإمبراطورية العربية الدنيوية ستكون مؤقّتة أيضاً.

انتَشَر جِيلٌ واحِد من العرب انتشارَ المروَحة عند فَتحِها، كما قالَ المؤرخ فيليب حتّي على مَدى ٦٠٠٠ كيلومتر من العالَم القديم[٧٩]، إلا أن مادَّة المروحَة كانت رقيقةً بشكلٍ مُؤلِم. حسبَ أحَدِ التقديرات «التقريبية جِداً» هاجَرَ نحو نصف مليون شخص من شبه الجزيرة العربية في السنوات العَشر الأولى من الفتوحات[٨٠]. يبدو العدد كبيراً، ويُقدِّر ابن خلدون العدد الكليّ لرجال القبائل العربية الشمالية والجنوبية بنحو ١٥٠,٠٠٠ في عهد محمد[٨١]. ربما كان ذلك أكثر واقعية بالنسبة إلى عَدَدِ الرجال البالغين، وربما لا يَدخُلُ في حِسابِه جميع الجنوبيين الحَضَر. ولا يُعتَقَدُ أنهم هاجَروا جميعاً. إذا كان صحيحاً أن عمر قد جَمَعَ ٣٠,٠٠٠ رَجل في معركة نهاوند[٨٢]، وأنه أرسَل إليها أقصَى ما يمكِن من رجال الحاميات في العراق، فمن الواضِح أنه لم يمتَلِك عَدداً كبيراً من المُقاتلين. من المؤكَّد أن تلك الفتوحات الأولى شَمَلَتْ تحريكَ مئات الآلاف من شبه الجزيرة، وربما كان جميعهم من الرجال، ولا يمكن القولُ أكثر من ذلك.

كان حَجمُ المروحَة وسرعة فَتْحِها لافِتٌ للنَّظر. ولم تكن حادثةً فريدة أن خمسَةً من أبناء عُمومَة محمد، وجميعهم من أبناء عمِّهِ العباس ومن أمّ واحِدة هي أمّ الفَضل، قد تُوفُّوا في مناطق مختلفة هي المدينة والطائف وسورية وتونس وسمرقند. ذَكَرَ قُثَم بن العباس الباقي في المدينة، أخاهُ المتوفَّى في سمرقند[٨٣]: «شتّان ما بين مولده ومقبره»، (وسيكون لِقُثَم بن العباس[٨٤] وجودٌ طويل بعد وفاته أيضاً، فهو مَعروفٌ في سمرقند باسم شاه زَندَه «المَلك الحَيّ»، ومازال ضَريحُه مَزاراً رئيسياً في المدينة في نهاية الطريق الذَّهبي). لم يذهَب أبناءُ العباس فقط من غرب شبه الجزيرة العربية

---

(٧٩) Hitti, *History of the Arabs*, p. 259

(٨٠) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 35.

(٨١) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 140.

(٨٢) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, p. 171.

(٨٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٣١.

(٨٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٩٨.

إلى شمال أفريقيا ووسط آسيا، بل تكاثَروا أيضاً: ففي سنة ٢٠٠ هجرية بَلَغَ عددُ أحفادِ العباس نحو ٣٣,٠٠٠[٨٥]، وهو عدد عجيب لكنه معقول جديرٌ بالثقة. عوَّضَ العربُ نقصَهم العَددي في القرون الإسلامية الأولى، إلا أنهم فَعَلوا ذلك بشكلٍ حَصريّ تقريباً عن طريق التّزاوج واتّخاذ السّراري من نساء شعوب البلاد المَفتوحة مثل البَربَر والأقباط والآراميين والفرس والكرد والتُّرك وكثير غيرهم. مُنِحَتْ صِفةُ «العربي» لنَسل الآباء، ولكن بعدَ عدة أجيال أصبَحتْ مادّةُ «المروحَة» أقلّ «كَثافة».

أصبح أبناء العباس الخمسَة بارزين بشكلٍ خاصّ لأنّ سلالَتهم الأبوية أصبَحَتْ إمبراطورية ستستمر ٥٠٠ سنة. ولكن حتى بالنسبة إلى الآخرين الذين انتَشَروا على مسافات بعيدة، فإننا نستطيع تَتَبُّعَ آثارِهم بشكلٍ أو بآخَر. كان الأثَرُ في معظم الأحيان هو نَسَبُ القَرابة الذي يتم تذكّره بعناية شديدةً، ويَربطُ أجيالاً مُعاصِرة في بورنيو أو في بروكلين بمكّة القَرن السابع. هناك آثار أقلّ وضوحاً يمكن تتبُّعها مثلَ الآثار اللغوية؛ فمَثلاً هناك عنصر لغوي يوجد معزولاً في لهجة عربية بأوزبكستان وكذلك في لهجة أخرى قرب بحيرة تشاد، أصله من منطقةٍ صغيرة في شَرق شبه الجزيرة العربية، ومن المؤكّد أنه يرجِع إلى زمن هجرات القَرن السابع[٨٦].

سَلكَت معظم الهِجرات طُرُقاً بريّة، فقد حَذَّرَ الخليفةُ عمر قادَتَهُ من الذهاب إلى أي مكان لا يمكن الوصول إليه على جَمَل[٨٧]. إلا أنه وجِدَتْ بعضُ الحَملات البحرية منذ أواخر ثلاثينيات القَرن السابع لعُبورِ بَحرِ العرب من عمان إلى بلاد السّند. لم يُسَرّ عمر بذلك، ووصَفَ الرجالَ على السفينة بأنهم «دُودٌ على عُود»[٨٨]. تمّ صَدُّ تلك الحَملة الأولى على بلاد السّند، إلا أنها ستُؤخَذ في بداية القَرن الثامن[٨٩]. سيَستمر فَتح المروحَة العربية الشَّفافة

---

(٨٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٨.

(٨٦) The feature is an intrusive syllable between participles and pronominal suffixes. Jonathan Owens, *A Linguistic History of Arabic* (Oxford: Oxford University Press, 2006), pp. 160-162.

(٨٧) قارن: ص ٨٤ ـ ٨٥ من هذا الكتاب.

(٨٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤١٦.

(٨٩) John Keay, *India: A History* (London: Harper Collins, 2004), p. 183.

في مناطق أخرى حتى منتصَف القَرن الثامن حين وَصَلَ طَرَفها الشرقي إلى حدودِ الصين في آسيا الوسطى واختَرقَ الآخر الغربي لفَترةٍ وَجيزة حُدودَ فرنسا.

ربما كان العرب مُندَفِعين بإعجاز، إلا أنهم لم يكونوا مَنيعِين، فقد تمّ سَحقُ جيشٍ عربي تعداده عشرة آلاف مُقاتِل في ستينيات القَرن السابع بين أودية طَبَرستان جنوب بَحر قزوين[٩٠]، وبعد ستين سَنة نَجَحَتْ حَملةٌ عربية ضد القوات التركية في وسط آسيا، إلا أنها فَشِلَتْ بمُتابَعتِها وتمّ صَدُّها. كان السبب حسب هجاء موجَّه للقائد العربي هو أنه ورجاله كانوا مَشغولين بالأسيرات:

فَسِرتَ إلى الأعداء تلهو بلعبة فأيرُك مشهورٌ وسيفُك مغْمَدُ[٩١]

كان السبب الرئيسي لفَشَل العرب في وسط آسيا هو تَفرُّق كلمَتِهم، فقد سُلَّتْ سيوفُهم ضد بعضهم. ولكن على الرغم من التوقف للراحة واللهو، فإن الحواجز الحقيقية الوحيدة أمام ذلك التوسع الأول السريع في آسيا وفي أقصَى غرب العالَم المَعروف كانت الحَواجِز الجغرافية. يُروى أن القائد القرشي عُقبة بن نافع قد أعلَنَ بَعدَ أن خاضَ بجَواده مياه المحيط الأطلسي في المغرب الأقصى في العقد التاسع من القرن الثامن: «يا رب، لولا أن هذا البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسالك ذي القرنين، مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك»[٩٢]. وذو القَرنَين هو شخصيةٌ غامِضة وَرَدَ ذِكرُهُ في القرآن ويُعتَقد أحياناً بأنه ملك قديم من جنوب شبه الجزيرة حَقَّقَ فتوحات بعيدة، ويُظَنُّ أحياناً أنه الإسكندر الأكبر. مهما كانت حقيقة شخصيته، فقد كان القائد القرشي في القَرن السابع يَستلهِم ماضِياً قوياً هو تاريخ جنوب شبه الجزيرة الذي يَكمُنُ وراء الإسلام، وربما التاريخ الهيليني أيضاً الذي كان العرب يرثونه جغرافياً وثقافياً.

في أَوجِ عظَمَتها، كانت الإمبراطورية العربية مثل حَجمِ إمبراطورية

---

(٩٠) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

(٩١) المصدر نفسه، ص ٤١٢.

(٩٢) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, p. 214.

الإسكندر التي زالَتْ سريعاً، ومثل الإمبراطورية الرومانية أو أكبَر[٩٣]، كما أصبَحتْ أكثر تعقيداً في الشَّكل، وأكثر عضويةً في الطبيعة من انتشار مروحَة الحثّيين، فقد تَطَورتْ إلى تلك الشجرة الحيوية التي نَشَرتْ أغصاناً وفروعاً جديدة، وأرسَتْ جُذوراً جديدة في الثقافات الأخرى في عمليةِ تَهجِينٍ للعالَم القديم[٩٤].

قراءة البلاذري

سيأتي التّعقيد والتّنوع المُثمِر فيما بَعد، أما الآن، فعلى الرغم من خطاب عقبة بن نافع عندما خاضَ بحصانِه في المحيط الأطلسي، إلا أنّ الروايات الأولى عن الانفجار العربي لم تهتم بالإيمان إلا قليلاً، وكان الاهتمامُ بِفَرضِ الجِزية على الكفار أكبَر من الرغبة بقتالهم.

لَعِبَت الكتابة دَوراً مهمّاً في المراحل الأولى من مَشروع محمد، ولكن الثورة الكبرى في الكتابة غير القرآنية ستَحدُث بَعدَ القَرن الإسلامي الثاني، ولذلك لا توجَد وثائق معاصرة كثيرة عن الفتوحات العربية الأولى. إلا أن المؤرخين في القَرن الثالث يَزعمون أنهم يَحتفِظون بتقارير شفهية. كان البلاذري واحِداً من أكثر الكتاب عمقاً وشُمولاً، توفي في بغداد سنة ٨٩٢ (واكتَسبَ لقَبَه من إدمانِه أكلَ البلاذر، وهو نوعٌ من المُكسّرات الذي يُعتَقد أنه يُقَوّي الذاكرة) [البلاذر هو الكاشو وهو نوع من البقوليات وليس المكسرات، ولكن هذا خطأ شائع فلا بأس]. يَبدأ كتابُهُ بهجرة محمد من مكة إلى المدينة، ويَتبعُ غزوات النبي، ثم حروب الردَّة التي حدثَتْ بعدَ محمد، والتي انتَشَرت مثل الدّوامة في أرجاء شبه الجزيرة العربية قَبلَ انفِتاح المروحَة في قارَّتَين، وفي جانب من قارّة ثالثة عَبرَ شرق المتوسط والهلال الخصيب وأرمينيا ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا، ثم انفتَحتْ شَرقاً عبر الإمبراطورية الفارسية إلى أذربيجان وخراسان والسّند.

عندما قال عُقبة إنه: «يُدافِع عن الدِّين»، كان يَلوي الحقيقةَ على نفسِها،

---

(٩٣) D. M. Dunlop, *Arab Civilization to A.D. 1500* (London: Longman Group Ltd.; Beirut: Librairie du Liban, 1971), p. 18.

(٩٤) قارن: ص ٥٣ ـ ٥٥ من هذا الكتاب.

فقد كان يتحدَّثُ في أقصَى الحدود الغربية لأطوَل حَملة هجومية مُنسَّقة منذ حَملات الإسكندر قَبلَهُ بنحو ألف سنة. ربما كان «نَشرُ الدعوة» أقرَب للواقع، ولكن عندما يَقرأ المَرءُ سَردَ البلاذري، يُلاحِظ أن قتالَ الكفار لم يكن هَدَفُهُ الأساسي ضَمَّهُم في دِينٍ عالَميٍّ واحِدٍ حقيقي، بل كان غالباً بقَصدِ الإغارَة وفَرضِ الجِزية والضرائب. كانت الغايةُ من الفتوحات مَلءَ الجيوب والأكياس أكثر منها كَسبَ القلوب والعقول. وبكلِّ وَعيٍ وضَمير حَيّ، فبَعد أكثر من أربَعة قُرون لم يكن النظامُ الأخلاقي الذي رُمِزَ إليه بالصّليب يتَعلَّقُ كذلك «بالصَّليبية» والجِهاد المقدَّس الذي رَفَعَتْهُ الدولُ الأوروبية (لا يَحتَكِرُ البدو العرب المَيل للإغارة والسلب، فقد حَوَّلَ تجارُ البندقية المُتحضِّرون الحَملةَ الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ إلى نَهبِ رفاقِهم المسيحيين في القسطنطينية، وكتَبَ جيفري فيلهاردوين Geoffrey of Villehardouin: «لم يَحدث نَهبٌ وسَلبٌ مثله لأي مدينة أخرى[٩٥] منذ أن خُلِقَ العالَم»، وربما ليس في ذلك مُبالَغة). يَنطَبق ذلك على الهِلال، وعلى ما يمكن أن يُسَمَّى: «الهلالية»، مع المُفارَقة، لأن الهلال لم يَرتَبط بالإسلام ارتباطاً قريباً إلا بَعدَ ذلك بكثير[٩٦].

يدلُّ نَصُّ اتفاقيةِ الحِماية التي فرضَها عِياض بن غَنْم على المسيحين في مدينة الرّقة في شمال سورية سنة ٦٣٩ أو ٦٤٠ على أولويات الفاتِحين:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطَى عِياض بن غَنْم أهلَ الرّقة يوم دَخَلَها.

أعطاهم أماناً لأنفسِهم وأموالِهم وكنائسِهم لا تُخَرَّبُ ولا تُسكَنُ إذا أعطوا الجِزية التي عليهم ولم يُحدِثوا مغيلة، وعلى أن لا يُحدِثوا كنيسةً ولا بِيعَة، ولا يُظهِروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً. شَهِدَ اللهُ وكَفَى بالله شَهيداً[٩٧].

(٩٥) Thomas Mathews, *Byzantium: From Antiquity to the Renaissance* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 1998), p. 41.

(٩٦) I was pleased to coin this, and then discovered that others had done so already. The trouble with the internet is that one can find out very quickly that one isn't as original as one thought.

(٩٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٧٤، و**القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ٤٣.

يضيفُ البلاذري أن الجِزية السنوية كانت أربعة دَنانير ذهبية عن كل رَجُل بالِغ (وَزنُ أربعة دنانير هو ١٧ غراماً من الذهب وقيمتُها ٦٥٠ دولاراً تقريباً، وقد فُرِضَتْ جِزية مماثِلة تماماً على المسيحيين في المنطقة ذاتها من جِهة «الدولة الإسلامية/ داعش» سنة ٢٠١٤[٩٨]. قَرؤوا هم أيضاً كتابَ البلاذري ولو أنهم لم يكونوا حَريصين على مَنح الأمان). الامتِناع عن دَفع الجِزية بعد الموافقَة على ذلك يَستَدعي «الكَفّارة»[٩٩]، والفِعلُ منها يَحمِلُ مَعنى عاماً هو «كونُ المرء غير مسلم» (وهو أصلُ الوَصفِ المُهين في جنوب أفريقيا «كافِر»)، ولكن حَسبَ الروايات المبكرة كان يدلّ على عدَم دَفع الضريبة[١٠٠] أكثرَ مِن دَلالَتِه على عدَم اعتِناق الإسلام، وهذا يُبَيِّنُ أينَ يَقَعُ اهتمامُ الفاتِحين[*].

واقعيةُ النظام واضِحة في الإعفاءِ مِنَ الجِزية أحياناً، فمَثلاً أُعفِيَ الجَراجِمَة المسيحيون (المَرَدة) في شمال سورية من دَفعِ الجِزية عندما وافَقوا على الغَزو مع المسلمين، كما أُعفِيَ العربُ المسيحيون من قبيلة تَغلِب الذين قدَّموا حجَّة ناجِحةً أنهم لا يَجب عليهم دَفعُ الجِزية لأنهم عَرَبٌ وليسوا من البرابرة المَهزومين[١٠١]. اهتَمَّ الإسلامُ في مرحلَة التوسّع بالاقتصاد والأصول العِرقية مِثلَ اهتِمامِه بالأخلاق والمُثل، كان العرب عادةً «مُدَقِّقين مُتَشدِّدين» في تطبيق أحكامِهم، واعتُبرتْ موادُّ البِناء التي أُخِذتْ من مَسيحيي الحِيرة لِبناء مدينة الكوفة الجديدة القريبة بأنها جُزء مِنَ الجزية[١٠٢] كما أن استِخدام العنف ضدّ المَدنيين كان استِثنائياً (مقابل العُنف الاقتصادي الذي شَمَلَ الاستِرقاق بسبب المُقاوَمة أو عدم دَفع الضرائب). كان هناك استِثناءٌ

(٩٨) *Daily Telegraph*, 27/2/2014.

(٩٩) انظر على سبيل المثال: البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٧٦ و٣٧٩.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(*) [استِنتاجٌ غريب للكاتب لا يتَّسِق مع نَصّ المُصالَحة الذي يُعطِي المَهزومين حَقّ الاختيار، كما أن نص القرآن الكريم عن الجزية لا يفيد معنى أنها بديل عن عدم دفع الضريبة! وهو يستند في استنتاجه هذا إلى البلاذري الذي يعتبره أكثر مصداقية من غيره من المؤرخين] (المترجم).

(١٠١) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٨١ ـ ١٨٣، و Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), pp. 56-57.

(١٠٢) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

نادِرٌ فريدٌ في مدينة اصطخر التي كانت عاصمة فارس، والتي استَسلَمتْ، ثم ثارَتْ وقاوَمتْ بقوة لفَترةٍ طويلة، ويُروى أن نحو ٤٠,٠٠٠ من سكانِها قد قُتِلوا[١٠٣]. ولكن بشكلٍ عام، عَرفَ العربُ جيداً الحكمَة في عدم قَتلِ الدَّجاجَة التي تَبيضُ ذَهباً[*].

ليس من الإنصاف وَصفُ الفتوحات بأنها مجرد فرض ضَريبة حِماية قامَتْ به عصابَةٌ على نِطاقٍ واسَع، ولكن غالباً ما يكون ذلك طبيعة الغَزو والإمبراطورية، ويمكن القول على سبيل المزاح إنها كذلك طبيعة العَقد الاجتماعي بمَفهومِه التَّنويري: إذا دفَعتَ الضرائب فستَحميكَ الدولة، وإذا لم تَدفع الضرائب فستُعاقبكَ الدولة (وربما لن تَقتلكَ ولن تَستعبِدكَ). كما أن المفردات العربية تَستَدعي المُقارنة، لأن دافِعِي الجِزية غيرِ المسلمين هم أهلُ الذِّمة «تحت الحماية». وفي هذه المسألة فإن كل ما يتعلَّق بالدِّين في شَكلِه «السياسي» المتَطور يتلَخَّص في قضيةِ المُستَحقَّات والمَدفوعات: كلمة «الدِّين» وكلمة «الدَّين» مشتقتان من أصل واحد.

ولكن هناك طرائق أكثر تطوّراً للحصول على المال في البلاد المفتوحة من الجِزية، فهناك الخَراج أيضاً، وهي ضريبة الأراضي الزراعية. المِثال الكبير على هذه الضريبة هو ما فُرِضَ على سَواد العراق الغَني المُنتِج للتَّمر بنظام الريّ القديم المتَطور فيه، ونحو نصف مليون فلاح من الأنباط غير العرب[١٠٤]، وهو عددٌ ليس بعيداً عن عَددِ العرب كلهم. كان سَواد العراق جاذِباً للغارات منذ أيام بابل حتى معركة القادسية، وتمّت معامَلته بشكلٍ خاص كأرضِ خَراجٍ عامة. قال الخليفة عمر الذي كان يَعرِفُ تماماً مُيولَ العرب القَبَليين: إنهَ إذا قسم أراضي السواد بينهم «فأخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه»، وعبّر عنها عليّ بن أبي طالب بكل صراحة: «لولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمتُ السواد بينكم»[١٠٥]. وكما حَدَثَ، فإن الدَّخلَ السنوي للمنطِقة قد انخفَضَ من مئة مليون دِرهم عند الفَتح، إلى أربعين

---

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٨، و Kennedy, *The Great Arab Conquests*, p. 184.

(*) [يُرجِع الكاتبُ عدم لجوء العرب إلى العنف في فتوحاتِهم إلى المَصلَحة الاقتصادية، ولا يستطيع أن يتَصور أنها نابِعةٌ من مُثُلٍ دينية وأخلاقية] (المترجم).

(١٠٤) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٢٦١ ـ ٢٦٤.

مليوناً في نهاية القَرن السابع[١٠٦].

طبَّقَ الفاتِحون وسائلَ أخرى أكثر استِدامَة للحصول على الدَّخل وزيادة الأرباح، كان أول الأعمال عند فَتح مدينةٍ عادَةً هو إنشاء سوقٍ باتِّفاقٍ مع أهلِ المدينة. فمثلاً، فَتَحَ أهلُ مدينة الرُّها (وهي الآن أورفا في جنوب شرق تركيا) «أبواب المدينة وأقاموا سوقاً للمسلمين على باب الرها»[١٠٧]. كان ذلك كما سنَرى فيما بَعد، عند تأسيس المُدُن العربية الجديدة، مرحلة مهمّة في العملية الطويلة المستمرة حتى اليوم للهندسة الاجتماعية التي حَوَّلَت البدو الرّعاة إلى تجار حَضَريين، فأصبَحَ البدو رِجالَ أعمال. استمرتْ هذه العملية على الأقل منذ القرن الثالث حين أُنشِئت القرية التجارية البدوية قَرية ذات كهل (قَرية الفاو)، وقد حصَلَت الآن على دَفعَة جديدة وكانت «التَّحول» الآخَر في الإسلام الذي لا يقلُّ أهميةً عن التَّحول الدّيني ولو كان أقلَّ وضوحاً. جاءَ محمد من مكة التجارية التي يسميها القرآن «أمّ القُرى»، وكان هو نفسُه تاجراً. كان نبياً عَرفَ عن الربح. أُقيمَت الأسواق والمساجِد جَنباً إلى جَنب من المدينة وإلى ما بَعدَها.

ظَلَّت الغَنائمُ مهمةً جِداً كذلك، وتمكَّن الخليفةُ عمر من تجنيد قوات قَبَلية إضافية لدعم الحَملة في العراق بإغرائِهم بالغَنائم، وعَرَضَ على جَرير زعيم قبيلة بجيلة ثُلُثَ الغَنائم (طبعاً بَعد خَصم الخُمس للخليفة كالعادَة). سيَختلِفُ جَرير هذا بعُنفٍ مع زعيمٍ عربي آخر حَولَ مَن الذي وجَّهَ الضربة القاتِلَة للقائد الفارسي [مِهران] في معركة النَّخيلة ـ لأن القاتِل يَحُقُّ لَهُ سَلَبَ المَقتول[١٠٨]. أحياناً كانت تُطرَحُ دوافِع أعلى، ويُقال إنَّ المُغيرة، الذي مَزَّقَ برُمحِهِ بساط رُستُم الثمين، قد أعلَنَ للقائد الفارسي أنه لا يُريد مالَه[١٠٩]، وأنَّ المطلوب هو أن يَعتَنِق رُستُم وأتباعُه الإسلام، وأنَّهم إذا رَفَضوا ذلك فإنَّهم سيُقاتِلونَهم ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

---

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

Such comparisons are exceedingly difficult to make, but the dirham might be thought of as being worth about couple of US dollars, or perhaps a little more.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾(١١٠). جاءَت الغَنائم أحياناً بشكلٍ بَشَري مثلما حَدَثَ في منطقة سيستان الإيرانية حيث أُخِذَ نحو ٤٠,٠٠٠ رأس من الرقيق خلال فترة ثلاثين شهراً من منطقة سيستان الإيرانية(١١١). يمكن تَصَور مَدى أبعَاد انتِشار عملية الإغارة فيما وراء أصولها في شبه الجزيرة بدراسةِ إحصائياتِ الحَملة الثانية الناجِحة على بلاد السّند التي أدارَها الحَجّاج حاكِم العراق في بداية القَرن الثامن. أقَرَّ بأن كلفَة الحَملة قد بلَغتْ ٦٠ مليون دِرهم، إلا أنّ رِبحَها الصافي كان ضِعفَ ذلك، وقالَ: «شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر»(١١٢)، وكان رَاجا داهِر هو حاكِمُ السِّند المَهزوم. أصبَحَت الإغارة صِناعَة عالَمية، وكان الانتِقام أقلّ أهمية من الرّبح.

يتعلَّمُ أطفالُ العرب في مدارسهم هذه الأيام أن الفتوحات كانت بهَدَفِ «نَشرِ الإسلام»، وهذا هو الخِطاب، وكان بالفِعل أحد نتائِج تلك الفَترة الاستثنائية. إلا أن واقِع الحال على الأرض هو أنه لم يكن هنالك دافِعٌ قويّ لنَشرِ الإسلام آنذاك، على الأقل بمَعنى تَشجيع آخرين على الدخول في الإسلام. كان الإسلام عقيدةً توحيديةً تَدعَمُ الفتوحات العربية والاستعمار. حَرصَ الحَجّاج دائماً على جَمعِ الثروة الدنيوية أكثر من السماوية، وكان يَعملُ بنشاطٍ لإقناع الفلاحين في السَّواد بعَدَم اعتِناق الإسلام(١١٣). طَرَدَ في إحدى المَرات مَن تَحوَّلَ إلى الإسلام مِنَ المُدُن العربية الجديدة، وجَعَلَهم يَدفَعون جِزيةَ الكفار(١١٤). يجب الاعتراف بأن الحجّاج الرّهيب لا يُمَثِّلُ نموذجاً للولاة في القَرن الإسلامي الأول. وبالمِثل كذلك، لا يُمثِّل الخليفةُ الأمويّ الراشِد عمر بن عبد العزيز نموذجاً عاماً حين دَفَعَ صَلاحُهُ وتَقواهُ وحُسن اختيارِهِ للولاة أعداداً كبيرة للدخول في الإسلام في بلاد السّند(١١٥)

---

(١١٠) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ٢٩.

(١١١) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٨٢.

(١١٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٣.

(١١٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 971.

(١١٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣٥٥.

(١١٥) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

وبين البَربَر في شمال أفريقيا(١١٦). إنهما يمَثّلان الدّرجة القُصوى والاستِثناء، أما القاعدة التي تَقعُ بينهما فهي أن التجارةَ تَتبَعُ الغَزو في تَتابُع سريع، بينما يتأخَّر الإيمانُ بَعدَهما. تُشيرُ إحدى الإحصائيات أنه بحلولِ سنة ٧٥٠ لم يَعتَنق الإسلام(١١٧) سوى نحو ١٠ بالمئة من سكان الأراضي المَفتوحة، وهذا التَّقدير تَخمِيني، ولكن مما لا شك فيه هو أنه على المَرء أن يَبحثَ طويلاً في كتاب البلاذري عَبرَ ٤٥٠ صفحة من تاريخ الفتوحات دون أن يَجِدَ ذِكراً لِدَوافِعَ أخلاقية أو روحانية. ربما اعتُبِرتْ مِثلُ تلك الدّوافِع بَديهية، أو أنها ببساطة لم تكن موجودة.

عرائسُ المدينة

يَعملُ الفَتحُ على الجِهتَين، كما ذَكَرَ أحَدُ المُعَلّقين مُتَلاعِباً بمعنيَي المفرد العربي بأنه لم يكنْ مجرّد «فَتح» للبلاد، بل كانت أيضاً «فَتحاً» للعقول العربية على التراث الثقافي لتلك البلاد(١١٨). إلا أن الفَتحَ المَعكوس لم يكن عَقلياً فقط، فقد تم «غَزو» المدينة، المَعقل الجديد للعروبة الإسلامية، بزوجاتٍ فارسيات. كان من أوائل وأهمّ تلك الزوجات ثلاثُ بناتٍ لآخِر حاكِم ساساني، وتم تَزويجهنَّ إلى الجِيل الأول من النُّبلاء الجُدد، فقد كان أزواجُهُنَّ أولاد الخلفاء أبي بكر وعمر وعليّ. ستكون نتائجُ ذلك بعيدةً جِداً؛ فمَثلاً، امتَدّ نَسلُ حَفيدَي محمد من أبناء عليّ الحَسَن والحُسين، ويَبلغُ الآن نَسلُ الحُسين ملايين ممَّن يَرجِع أصلُهم إلى تلك الأمّ الفارسية. يبدو أنَّ الدّم الجديد قد أعادَ القوة إلى نَسلِ قريش، لأن أولادَ تلك الزّيجات الأولى أصبَحوا «أكثرَ الناس استِقامَة وعِلماً» [غير حرفي] بين أهلِ المدينة، كما أن تلك الزّيجات صَنَعَتْ اتّجاهاً فورياً لإنجابِ الأولاد من الأسيرات الفارسيات(١١٩)، بينما كان مِثلُ ذلك النَّسل مِن قَبل يُعتَبر أدنَى مَنزلَةً من

---

(١١٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(١١٧) Efraim Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, 2nd ed. (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007), p. 43.

(١١٨) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ١٤١.

(١١٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

الناحية الاجتماعية[١٢٠]. ومن ناحية أخرى، سرعان ما بَدأت اللغةُ العربية الصافية في المدينة، وحتى في مكة، تُختَرق بمُفرداتٍ فارسية بسبب التَّداخل مع لِسان الأمهات[١٢١]. لم تكن المفردات الفارسية والأمهات الفارسيات الأمرَ الوحيد الذي بَدأ باحتلال أقدَس الأقداس العربية، بل ظَهَرتْ أيضاً العادات والسلوك الفارسي من حُبِّ التَّرف والكَسَل غَيرِ الرُّجولي لأولئك «الشرقيين»:

قال عمر حين رأى المهاجرين والأنصار قد أخصبوا، وهمّ كثيرٌ منهم بمقاربة عيش العجم: «تمعددوا واخشوشنوا»[١٢٢].

(مَعدّ هو أحَد الأسماء للعرب الشماليين من قبائل البدو). ستَذهَبُ نصيحةُ عمر أدراجَ الرياح، فما اعتَبَرَهُ اختلاطَ الأزواج في المَدينة كان إرهاصاتٍ للتَّزاوج الثقافي العربي ـ الفارسي العام الذي سيَحدث بعد قَرنٍ من ذلك.

بدأ غَزوٌ مُعاكِس آخَر في ذلك الحين بالتغلغل في القبائل العربية[١٢٣]، ليس بالأسيرات فقط، بل كذلك بالرجال الذين اعتَنقوا الإسلام. في بداية الإسلام وفي معظم الأحيان، لم يُعتَبر غير العربي مسلِماً إلا إذا أصبَح أولاً مَولًى لقبيلة عربية. يصبح الأرقاء المُحرَّرون مَوالي عادةً في قبيلة مالِكِهم الأصلي، إلا أن أي شخصٍ يستطيع الانتماءَ إلى هذه العَلاقة بالتَّوافق المُتبادَل. وبالنَّظرِ إلى العَدد القليل لِعَربِ القبائل بالنسبة إلى عدد سكان الأراضي التي احتَلوها، يبدو أن عدد المَوالي قد أصبحَ أكبَر من عدد العرب الأصليين. ومع نهاية القَرن السابع، كان العربيُّ في مدينة الكوفة الجديدة في العراق يتَجَول في المناسبات الرسمية وبِصُحبَتِهِ عشرة إلى عشرين من المَوالي[١٢٤]. كان المَوالي مُندَمِجين تماماً في القبيلة من الناحية السياسية النظرية، ويُشاركون في العَصبية والتَّضامن، إلا أن التمييز في أصول قَرابَة الدّم كان مَصوناً بصَرامَة. وبالفعل، يُقالُ إن التمييز كان يَصونُ نفسه؛ عندما

(١٢٠) Bernard Lewis, "The Crows of the Arabs," *Critical Inquiry*, vol. 12 (1985), p. 89.

(١٢١) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٠ ـ ١١.

(١٢٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩.

(١٢٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 846.

(١٢٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٠٨.

أُسِرَتْ جَماعةٌ من رجال قبيلة شيبان مع مَواليهم، وتم قَطعُ رؤوسِهم بِيَدِ أعدائِهم، أقسَمَ شاهِدٌ أن بِرَكَ دماء رجال القبائل ودماء المَوالي رَفَضَتْ أن تَمتَزج[١٢٥]. غير أنه مع مرور الزمن، حَدَثَ الأمرُ المحتّم وامتَزجَت الدماء، لأن المَوالي ورجال القبائل كانوا يَحمِلون أسماءَ مُتماثِلَة تَنتَمي إلى القبيلة ذاتها. عادَت الهوية العربية خلال قَرنَين من بلوغِ ذروَة تميزها وبُروزِها كجماعةٍ ذات لغةٍ خاصة تتمتَّعُ بكتابٍ مقدَّس ورِسالَة وطاقَة لا حُدودَ لها، ورجَعتْ إلى حالَة التغيّر المستمر من جديد. وكما ذَكَرَ ابن خلدون، فإن الشعوب الجنوبية كانت متَنوعة منذ البداية. أما بالنسبة إلى العرب الشماليين الذين يُفتَرَضُ أن أصولهم نقيّة، والذين يتَنافسون في الأصول القَبَلية وتَتَبع الآباء، فمَعَ نمو الإسلام واندماجِهم مع الفرس وغيرِهم «اختَفَت القبائل»[١٢٦] [غير حرفي].

تَتضِح أحياناً عملية زَرعِ غَيرِ العرب في شجرة العائلة العربية، مثلما يَظهَر في تَزويرِ نَسَبٍ عربي صَافٍ من جهة يحيى بن هبيرة، الذي يُحتمل أن أصله فارسي، في محاولة لتأصِيل نفسِه عندما أصبَحَ وزيراً للخليفة العباسي المتأخّر المقتفي[١٢٧]، إلا أن العمليةَ كانت غير ظاهرة في معظم الحالات، فيما عدا لَمحاتٍ من الهجاء، مثل سخرية الشاعر أبي نواس من عربيٍ من صنعة السوق» كان مَولى مُتواضِعاً في المدينة، وحاوَلَ أن يَلعَبَ دَورَ بَدَوِيّ «حقيقي» بإتقان حينما كان في البلاد[١٢٨]. بَرَزَ أحياناً «عربيٌّ» من أصول غير عربية بشكلٍ غير متوقَّع، مثلما حدث لمّا اكتَشَفَ عالِمُ النَّحو الفَرّاء أمراً «فيه بعض القبح» في نَسَبِ زميلِهِ ابن السكيت، هو أن الرجل المسكين يَحمل نَسَباً من الولاية الفارسية خوزستان، فحبَسَ نفسَه أربعين يوماً لكي يتجنَّبَ مُلاقاته[١٢٩] (كان الفَرّاء نفسه من أصلٍ دَيلَمي غير عربي)[١٣٠]. بشكلٍ عام،

---

(١٢٥) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ٢٤.

(١٢٦) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 100.

(١٢٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(١٢٨) أبو نواس، **ديوان أبي نواس**، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤)، ص ٥٢٤ و٥٧١.

(١٢٩) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٩٧.

(١٣٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٠.

أصبَحَ أن تكونَ عربياً مِثلَ أن تَكونَ مواطِناً رومانياً أو مواطِناً في الولايات المتحدة الأمريكية. ومع مرور الزمن، عندما استولَى آخرون، مثل الدَّيالِمَة والتُّرك والمَغول، على الإمبراطورية التي ربِحَها العرب، أصبح الأصلُ العربيّ أقلّ أهمية، كما سيُصبِحُ عِلمُ الأنساب، الذي كان مَحلَّ اهتمام العرب على الأقل منذ أيام النقوش الصَّفائية في الصحراء، فَنّاً أكثرَ منه عِلماً، بل ونَوعاً من الفَنِّ المُجرَّد.

لم يكن التزاوج العربي ـ الفارسي خاصةً، وعلاقات العرب مع غيرهم بشكلٍ عام، علاقةً سَهلةً أو متساوية، فقد قام غير العرب «بفَتحِ» الإسلام وحَضنِهِ وتَغذِيَتِهِ وجَعلِهِ الدِّينَ العالَمي الذي تَطَوَّرَ إليه. وبمَعنًى ما، فقد عَمِلَ العرب دائماً ضد هذا الانفتاح، وحاوَلوا الاحتِفاظ ليس ببعضِ «النَّقاء» العِرقيّ المُتَخَيَّل الذي لم يوجَد في الواقِع أصلاً وحسب، بل حاولوا أيضاً الاحتِفاظ على الأقلّ بأسبَقيَّتِهم وأبَويَّتِهم ووَضعِهم التَّبشيريّ بكِلا المَعنَيَين. كما كان بالنسبة إلى رغبة الشّاه بالزّواج من أختِ مَلكِ الحِيرة العربي[١٣١]، فلن ينجَحَ أن يوضَعَ غيرُ العربي في مَوقِعٍ فَوقِيّ. التعبير الاصطلاحي لزواج رَجُلٍ عَربيّ بامرأةٍ غَيرِ عربية هو «الهُجْنَة»، التي تَدُلُّ على «التَّهجين». أما الاصطلاح الذي يَدُلُّ على عَكسِ ذلك فهو «الإقراف»[١٣٢]، ويَدُلُّ على «العَدوى الكَريهَة»[١٣٣]. حَرَّضَتْ هِند المُقاتِلينَ العرب في معركة اليَرموك بالطَّلَبِ منهم أن «يُعضِّدوا» البيزنطيين غير المَختونين. وحَرَّضتْ أزْدة، شاعرةُ حربٍ عربية أخرى في معركةٍ ضِدَّ الفرس، بِندائِها: إنْ يهزموكم يولجوا فينا الغلفَ[١٣٤]، وكانت تلعبُ على إثارةِ خَوفٍ قديم مُريعٍ لم يَنتَهِ.

سَماءٌ من التَّمر وأرضٌ من الذَّهب

لم يتغيّر العرب فقط بسبب لقائِهم الوَثيق مع آخرين، فقد حَدَثَتْ تغيّرات إضافية من داخلِهم، وكانت تغيّرات مَقصودَة. بعد إخمَاد الرِّدة

(١٣١) انظر: ص ١٥٨ ـ ١٥٩ من هذا الكتاب.

(١٣٢) انظر على سبيل المثال: ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧.

(١٣٣) ج. هافا، **الفرائد الدرية في اللغتين العربية والإنكليزية، وهو كتاب مدرسي لأحد الآباء اليسوعيين** (بيروت: المطبعة الكاثولوكية، ١٩١٥)، مادة قرف.

(١٣٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٣٤.

العربية الكبيرة سنة ٦٣٣، بدأتْ سياسةٌ هادِفَة مَقصودَة من الهَندسَة الاجتماعية. كان المجتمعُ المسلِمُ عربياً في البدء مثل قبيلةٍ كبيرةٍ متَّحِدةٍ كما كانت الحال في شعوب الجنوب القديم بالانتِماء إلى إلهٍ واحِد مُشترَك. وأصبَحَت الهجرة الآن شكلاً من الهجرة الكبيرة، وقَطعاً ليس فقط عن مكان الولادَة، بل عن الجُذور في شبه الجزيرة العربية. سَمَحَ القَطعُ بالفتوحات البعيدة أو الغارات الكبيرة، وكانت مِثلَ هجرة محمد إلى المدينة، إنما بشكل واسِع.

بشكلٍ واسِعٍ جَداً في الواقع. هناك بعضُ التشابه بين فكرة الهجرة إلى الأمصار وفكرة الصهيونية الحديثة عن الهجرة الجماعية إلى أرضٍ محدَّدةٍ مَوعودَة، إنما مع تَوسِيع تلك الفكرة لتَشمل أنَّ كلَّ الأراضي هي أراضٍ مَوعودَة. يَستقرّ الصهيوني المُتَجَوّل في النهاية فيما يَعتَبِرُهُ أرضَ أجدَادِه، ويتَخلَّى العربي المُتجَوّل عن أرضِ أجدادِه، ويَظَلُّ دائِمَ الترحال مثلما يُعبِّر القرآن في أحَد مَقاطِعه مُشَجِّعاً على السَّفر:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾(١٣٥).

يمكن اعتبار أن هذه الهجرة الجديدة الموسَّعة جِداً كانت استِمراراً لهجرات القبائل قَبلَ الإسلام، وكانت جزءاً من شكلٍ قديم دائم التوسّع في السّجادة المَبسوطَة، ولم تكن عَشوائية، بل مُصَمَّمَة مَركزياً بحَذَرٍ ودِقَّة وتحكُّم. اعتمد التَّحكُّم على الاستِخدام المُتزايِد للكتابة، وعلى شَبَكةٍ بريدية مُتَنامِية. كان الهدف الأعظم للسياسة المَركزية هو خَلقُ تجمُّعاتٍ سكانية مُطيعَةٍ يمكن نَقلها وتَوطِينها في مُدُنِ الأمصار. وكما رأينا، كان التشجيعُ على الهجرة قوياً، بينما اعتُبِرَ عَكسُها «التَّعرُّب» نوعاً من الرِّدَّة(١٣٦)؛ بل وتم الادّعاء بأن محمداً قد لَعَنَ كل مَن بدى، أي رجَع إلى «البداوة» بَعدَ الهجرة(١٣٧). كانت إحدى نتائج ذلك هي ضَعف جانبٍ قديم من العروبة بالانتقال مِن «الدار الأعرابية» البدوية إلى دارِ الهجرة الجديدة(١٣٨). يؤدّي

(١٣٥) القرآن الكريم، «سورة نوح،» الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

(١٣٦) انظر: ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ من هذا الكتاب.

(١٣٧) Patricia Crone, "The First-Century Concept of "Hiğra"," *Arabica*, vol. 41 (1994), p. 356.

(١٣٨) Ibid., p. 363.

فِعلُ ذلك إلى التَّخلي عن أسلوب الحياة العربية وعدم البقاء على حالة «العرب» بمَعناها القديم مِن حياة الرّعي والإغارة. يَظَلُّ المَرءُ عربياً من الناحية اللغوية، ولكن حتى ذلك الجانب سيكون مُهدَّداً كما سَنَرى.

بدأتْ إعادةُ تَوطِين الجماعات فَورَ احتلال سورية سنة ٦٣٦. نُقِلَ العرب الذين كانوا موجودين هناك منذ ما قَبلَ الإسلام إلى مناطق أخرى في البلاد، ونُقِلَ بَدوٌ جُددٌ من شبه الجزيرة إلى مناطِق الحضر[١٣٩]. غَيرَ أن الحركةَ انطَلقَتْ بقوةٍ بعد تأسيس مُدُنٍ جديدة أُطلِقَ عليها اسم: الأمصار، وكانت بمَثابة «القواعد الأمامية عند الثغور». كان الهدفُ الواضِح للأمصَار هو جَعلُها قواعِدَ انطلاقٍ لتوسيع تلك المناطق الحدودية. ولكن كان لها هدفٌ آخَر هو تحقيق التوازن بين الحَضَر والبدو. تَحقَّقَ ذلك بطريقَتَين: **الأولى هي** «تجميع» البدو بإرسالِهم إلى المُدن الجديدة مع مهاجرين آخرين من شبه الجزيرة، وتوجِيه «شَوكَتِهم» وقدراتِهم الحربية بعيداً عن المدينة المنورة. لا ريب بأن عمر وغيره من القادَة في العاصمة العربية قد شَعَروا براحةٍ كبيرة بعد أن كادَتْ حَربُهم على المُرتدِّين تَفشَل، وارتاحوا لرؤيةِ رجالِ القبائل المشاكِسين يُغادِرون نحو فتوحات جديدة وراء الأفق بعيداً عن مَركز القوة (وبالطبع فقد نَشَرَتْ هذه السياسة بُذورَ دَمارِ الإمبراطورية القادمة، ولا يستطيع المَرءُ أن يُخطِّطَ لجميع الحالات الطارئة).

والثانية هي أن التَّوطِين في الأمصَار الجديدة قد حَوَّلَ القبائل البدوية من الإغارة إلى الجُنديّة النّظامية (أو على الأقل إلى الإغارة على آخرين بدلاً من الإغارة على بعضهم)، وكذلك إلى التجارة (أو على الأقل دَفع آخرين للقيام بالتجارة، ثم فَرض ضرائب عليهم). وكما رأينا فإن الفتوحات بالإضافة إلى مَعانيها الأخرى كانت «فَتحاً» لأسواقٍ جديدة. أصبحَ للقبائل العربية الآن طرائق جديدة للمَعيشة كانت أكثر ربحاً وتَرفاً من نهب الإبل. لَعِبَ الأدبُ الشفهي الترويجي على ذلك، وحسب تقريرٍ متحمِّسٍ عن مدينة البَصرَة الجديدة التي أُسِّستْ سنة ٦٣٨ وأختها التَّوأم: الكوفة، فإن طُرُقَ الأمصار كانت مَرصوفةً بالذَّهب، «نحن منابتنا قصب، وأنهارنا عجب،

---

(١٣٩) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٥١.

وسماؤنا رُطَب، وأرضنا ذهب»[١٤٠]. لا يمكن أن تكون أكثر اختلافاً في ذلك عن شبه الجزيرة الجَرداء. ولكن بالطبع لا يستطيع المَرء أن يَغرقَ في كَسَلٍ ثريّ، ليس بَعد. ربما كانت الأمصار ذَهَبية، إلا أنها كانت ثكناتٍ مُذهَّبة. كان مِنَ الرجولة أن تُعَلِّمَ أبناءكَ السباحة وركوب الخَيل[١٤١]، وربما أُرسِلتَ أنتَ وهُم في أي وقتٍ من نخيل الكوفة لكي تُقتَلوا في بلادِ السّند الرطبة[١٤٢]، أو بُعثتُم من نخيل البصرة لتَذوَوا في وسط آسيا البعيد. كانت تلك التَّنقلات أحياناً على مقياس عسكري ـ صناعي، فقد أُرسِلَ في أكبرِها سنة٦٧١ نحو ٥٠,٠٠٠ رَجُلٍ من البصرة المزدَحمة الناقِصة المَوارد إلى مرو على بُعد ألفَي كيلومتر[١٤٣].

انتقالٌ وتجميعٌ يذكراننا بطريقة ستالين بالتَّجنيد الجَماعي. ولكن الروح العامة في المدن الجديدة في القتال المَمزوج بِحُرِّية السُّوق في خِدمَة الإمبراطورية الفتيّة لها جميعها أمثلة أخرى. وُفِّقَ برنارد لويس Bernard Lewis في رؤية الكوفة والبصرة وغيرها من مدن الأمصار، مثل الفسطاط في مصر والقيروان في تونس، على أنها مثل جَبَل طارق وسنغافورة بالنسبة إلى العرب الذين اعتَمدوا على «قوة الصحراء»[١٤٤] مثلما اعتَمد البريطانيون على القوة البحرية. حكَمَتْ بريطانيا البحار، وحَكَمَ العربُ البراري. ولكن مرةً أخرى ربما تُمَثِّلُ شركة الهند الشرقية المُوقَّرة نموذجاً أقرَب، فالأمصارُ مِثل مُدُنٍ داخلية تُناظِرُ موانئ بومباي ومِدْراس في الهند، وتَعملُ مِثلَ الحصون ـ المصانع الأوروبية التي ستَنشَأ حول سواحل المحيط الهندي. قَبلَ قَرنٍ من الفتوحات العربية الكبرى، جاء تجار قريش بفكرة جَمعِ الأموال للمُضارَبة، وهو أساس مشاريع التجار الأوروبيين أيضاً. والآنَ مع وجودِ الأمصار وإضافَةِ القوة العسكرية، دَخَلَ التَّوسُّع مرحلةً إمبراطوريةً جديدة، مثلما ستَفعَل فيما بَعد بالنسبة إلى الشركة الموقَّرة.

---

(١٤٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٠٥.

(١٤١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٩.

(١٤٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(١٤٣) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, p. 237.

(١٤٤) Bernard Lewis, *The Arabs in History*, 6th ed. (Oxford: Oxford University Press, 1993), p. 54.

بالنسبة إلى القادَة العرب في القَرن السابع، كان كل ذلك نتيجةَ الانتصار في الجَدَلِ الطويل بين البدو والحَضَر. ومَن أفضَلُ مِن رجال مكة التجارية وأمّ القرى في فَهم أنَّ أسلوبَ «اقطَعْ واحرِقْ» في غارات الأعراب ربما سيُنتِجُ مُقاتِلين مُفيدِينَ على المَدى القصير، ولكنَّ الحصولَ على ربح مُستدام يقتَضي إنشاءَ أسواقٍ حَضَرية ورعايَتَها. لقد اقتُرِحُ أنَّ تطَورَ الاستِخدام الإسلامي لكلمة الهجرة ربما نَشَأ بتأثيرِ لغات الجنوب، لأن الجَذر السَّبَئيّ «هجر» لا يَعني «قَطَعَ»، بل يَعني «قرية»[١٤٥]. وهذا أمرٌ يُثير الإغراء، ولكنه قابِلٌ للنقاش، فكلُّ كلمةٍ نَستخدِمها تُحيطُ بها أشباحٌ تتعلقُ بدلالات الألفاظ، غير أن بعضَها ضعيفٌ جِداً. وربما الأكثر احتمالاً هو أنّ تأثيرات اقتصادية وليست لُغوية، قد جاءَتْ من الإمبراطوريات المجاوِرة القديمة. أصبَحَ كِبارُ تجار مكة الآن زعماءَ دَولَة المدينة الإسلامية، ويوجِّهون الطاقات الهائلة التي أطلَقَتْها ثورةُ محمد والوحدة غير المَسبوقَة التي خَلَقَتْها لإعادة تشكيل القَبَلية العربية إلى حالةٍ تشبه القوى العظمى السابقة البيزنطية والفارسية في أوجِها اقتصادياً وعسكرياً وحتى اجتماعياً. والآن بادَتْ فارس، وضَعفتْ بيزنطة، وسيَخلفهما العرب.

بالنظر إلى الأمام بعيداً نحو مشاريع إمبراطورية أخرى، نَشهَدُ شَبَهاً لمَسيرة العرب في الإمبراطورية البريطانية، خاصة في بداياتها التجارية المُساهمة. وبالنظر أبعَد مع مراعاة ما تقتضيه الحال، ربما كان المَسار العربي الإسلامي لا يَختلفُ كثيراً عن مَسار الصين الشيوعية التي أعادَتْ تَوجيهَ ثورتِها الثقافية لكي تَتأقلَم مع السّوق، وأعادَتْ وضعَ نفسها لكي تَخلفَ قوّى عظمَى أحدَث.

البيتُ ينقَسِم

سارَت الأمورُ بنجاح في البداية، ونَشَأت الأمصار في مَواقِع استراتيجية. بُنِيَت البصرة في العراق قريبةً من رأسِ الخليج، والكوفة في الأرض الحُدودِية التي طالَ الصّراع حولها بين الصحراء والمزارع قُربَ

Crone, "The First-Century Concept of "Hiğra","and p. 375, and

(١٤٥) ص١٠٨ من هذا الكتاب.

أطلالِ بابل القديمة والحِيرة الأكثر حَداثَة. أما في سورية، حيث استقرَّ سكانٌ عرب منذ زمن بعيد، ووجِدَتْ روابط قَبلَ الإسلام مع أعيان مكة، فقد اتُخِذَت المُدُن القديمة، مثل دمشق، كمَراكز إدارية، وقُسمَت الأرض إلى مناطق عسكرية. وفي مصر، التي استَعادَها البيزنطيون من الفرس سنة ٦٣١، فقد ذُهِلَ البيزنطيون وانهارَتْ مَعنوياتهم بما حَدَثَ لرِفاقِهم في سورية، وأظهَروا مُقاوَمةً مَحدودَة عندما بَدأت المناوشات العربية معهم سنة ٦٣٩. صَمدتْ مَدينةُ الإسكندرية الساحِلية فترةً أطوَل، ولكنَّ حُصنَ بابليون (القاهرة القديمة) سَقَطَ بِيَدِ القوات العربية سنة ٦٤١. بُنِيَ مِصْرٌ آخَر بقُربِها على شاطئ نهر النيل عند التِقاء مصر العليا بمِصر السُّفلى عند زاوية الدَّلتا الداخلية، أُطلِقَ عليه اسم الفسطاط (الخيمة) (الكلمة مصر هي أيضاً الاسم العربي لبلاد مصر، وكلمة «مصر» هي مفردَة ساميّة قديمة تعني «الحدود»، وكانت مصر هي البلاد الحُدودِية[١٤٦] في اللغة السّامِية قَبلَ أن يؤسِّسَ العربُ مِصرَهم هناك بزمَنٍ طويلٍ جِداً). وسرعان ما اختَرقَت الغزوات العربية نحو غرب مصر حتى وصلَتْ إلى أفريقيا الرومانية (تونس)، ولم تُؤسَّس هناك مدينة حامِية حتى سنة ٦٧٠، وكان اسمُها: القَيروان (من الفارسية: كَروان)، وهي تَعني في اللغة العربية عادَة «مُخَيَّم للحامِية». يَدُقُّ جَرَسُ التجارة في جَرسِ المُفردة الإنكليزية 'caravan' وهو مناسِب تماماً.

لا يوجد «مِصْرٌ» نموذجيّ، فقد تَطَوَّر كُلُّ واحدٍ مِنَ الأمصار بشكلٍ مختلفٍ في ظروف مختلفة، ولكنّ نظرةً سريعة لأول هذه الأمصار ستُعطِي فِكرَةً عما كانت عليه حالُها جميعاً. بَدأت البصرة كمُخيَّم ضَخم أو كمدينة يمكن «إزالتها ونقلها». حتى الأبنية العامة بُنِيَتْ مِن حِزَم قَصَبٍ ضَخمَة (مثل البيوت في شَطّ العرب)، التي يمكن تَفكيكها بِسرعة عندما تَذهَبُ الحامِيةُ في غزوات واسِعة[١٤٧]. إلا أن المدينة سرعان ما أصبَحتْ أكثرَ استقراراً، وتضَخَّمَ عدد سكانها وتَنوَّعوا، فضَمَّتْ في السنوات الأولى الفرسَ، وكثيراً من المهاجرين قَبلَ الإسلام من أصولٍ هندية، خاصَّة «الزُّط» أو «الجَات» الذين تحالَفوا مع القبائل العربية. في بادئ الأمر، مُنِحَ أفرادُ تلك الإضافة

---

(١٤٦) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Misr.

(١٤٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

اللازمة للقوة المُحارِبة حقوقاً ورواتِب جُندية مُساوية للعرب، ولكن في أواخر القَرن السابع ازدادَ عدد السكان العرب وازدادَ التَّعصُّب العِرقي وفَرغَتْ خزائنُ الدولة فتَمَّ طَردُهم[١٤٨]. أصبحَ عدد سكان البصرة نحو ٨٠,٠٠٠ مُقاتِل يَعولون نحو ١٢٠,٠٠٠ فَرد[١٤٩]. وكان ذلك العدد ضخماً بالمَقاييس العالمية في تلك الفترة. وعلى الرغم من تزايد عقلية «المدينة العربية» لدى حكّامِها وتَعصّبهم ضد غَيرِ العرب، إلا أن المدينة كانت تتطَور إلى مجتمع عالَمي. بَنَى أسرَى من أفغانستان مَسجِداً على «نمَطِ كابُل»[١٥٠]، أي ربما كان يعني آنذاك أنّه متأثّر بالأبنِية البوذية. استَفادَت البصرة من مَوقِعها الجغرافي عند التقاء نَهرَي دجلة والفرات اللذين يَصُبّان في رأسِ الخليج القريب، مما جَعلَها عالَميةَ التجارة. تَفاخَرَ بَصْريٌّ متأخِّر بقوله: «لنا الساج والعاج والديباج والخراج والنهر العجّاج»[١٥١]. إنه مُلَخَّصٌ أنيقٌ للمَصادر العالمية لثَروة المدينة من غابات الهند وفِيَلَةِ أفريقيا وحَريرِ الصين ومَزارِع نَخيلِها الشاسِعة في السَّواد، ويَحمِلُ نَهرُها العظيم كل هذه المنتَجات.

كانت البصرة في نِعمَةٍ جغرافية، ولكنها اشتَركتْ في صِفاتٍ عامّة مع الأمصار الأخرى في البدايات التي تبدو مؤقّتة، وفي ظُهور التوتر بين العرب وبقية السكان، والتَّنوع المَحتوم، والنُّمو الزائد. كما أنها اشتَركتْ بوجودِ عَيبٍ في التصميم سيعوقُ تَطور المدينة الحضاري العضوي، والأسوأ من ذلك أنها ستُدَمِّرُ اندماجَ سكّانِها العرب وتماسُكَم. في البداية، أصبَحَ العرب من أصولٍ بدوية ظاهرياً مِثلَ أهلِ الحَضَر، وعندما ضَرَبَتْ مَجاعَةُ الكوفة مثلاً، رَفَعَ معظم السكان العِصِيّ، وتَفرَّقوا ليَتَغَذّوا في السُّهوب[١٥٢]. لم تكن مُستَغرَبةً عَودَة ظُهورِ آليات البَقاء القديمة، ولكنهم كانوا أيضاً مجتمَعاً سَطحياً، ولم يكن التَّجميعُ عميقاً بدرجةٍ كافية لِمَحوِ الفَوارق. قاتَلَ الجنودُ تحت رايات قَبَلية منذ أن وضَعَ أبو بكر مَشروعَ حَملة سورية، وأمَرَ «القادَة

---

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥.
(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٣٨٤.
(١٥١) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٥٠.
(١٥٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٢٤٩.

بوَضعِ رايَةٍ لكلِّ قبيلةٍ تَظَلُّ في وَسَطِهم»[١٥٣] [غير حرفي]. ظلَّت الرايات في وَسَطِهم في الفتوحات التالية، وسارَتْ كلُّ قبيلة تحت رايتِها، بينما تَجمَّعَت القبائل الصغيرة تحت رايَةٍ مُشترَكة كنوعٍ من فَريقِ «المُقاطَعات الصُّغرى»[١٥٤]. كانت القبيلة العُظمى للإسلام (الأمّة)، ومازالت، فِكرةً مِثالِية. وإنَّ تَحوّل راياتِ القبائل إلى ألوان الأفواجِ والفُرَقِ سَيَحدُثُ مع ظُهورِ الدول القومية الأوروبية. لم يُحَقِّق العرب ذلك أبداً (في الواقع بالنظر إلى الفشل الواضِح للأفكار المُستورَدة الحديثة عن الدولة القومية، فإن عودة القَبَلية هي الاتجاه الحالي، على الأقلّ أمامَ نافِذَتي الآن). لم تَخفُق راياتُ القبائل في المَعارك فقط، فقد كانت الأمصار ذاتها مُنقَسِمَة، ففي الكوفة مَثلاً استَقرَّ اليمنيون («الجنوبيون» كما كانوا يُعتَبرون آنذاك على الرغم مِن قرونِ الاندِماج) وأقاموا في شرق المدينة، بينما سَكَنَ النِّزاريون «الشماليون» في غَربِها. انقَسَمتْ تلك الفئاتُ الكبيرة بدَورِها إلى أقسام قَبَلية أصغَر، وكان لكل قبيلة مَسجِدها[١٥٥]. وهكذا، حتى في جَوهَر أرضِ المِثال الإسلامي، كان الانقسام في صلاة الجماعة مستمراً. هناك غُرَفٌ كثيرةٌ في بيت الله، ولم تكن متواصِلَة مع بعضها.

سَرَدَ طه حسين بأناقَة بعضَ الانقسامات التي ستجزّئ بلاد العرب بسرعة بعد الاتحاد الأول المختَصَر أثناء التوسّع:

تجمَّعَ العَدنانيون ضد اليمنيين، والمُضَريون ضد بقية العَدنانيين، ورَبيعَة ضد مُضَر. انقَسَمتْ مُضَر نفسُها إلى قَيس وتَميم وقُريش، واحتَفَظَتْ كلٌّ منها بعَصَبيتها. انقَسَمتْ رَبيعَة أيضاً، وشكَّلَتْ تَغلِب وبَكر عَصَبيتهما الخاصة. ويمكن أن يُقالَ الشيء نفسه عن اليَمَنيين من أزد وحِميَر وقُضاعَة، ولكل منها عَصَبيتها[١٥٦] [غير حرفي].

كانت النتيجة أنه «في كل أمصار الإسلام رَجعَ العرب إلى حالَةٍ من

(١٥٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١١٣.
(١٥٤) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣.
(١٥٥) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٣.
(١٥٦) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ١٣٠.

التنافس والعَداوة التي كانت أكثر مرارة مما كانت عليه في الجاهلية»[١٥٧]. [غير حرفي] كان اتّحاد العرب «سائلاً مُعلَّقاً أكثر من كونه محلولاً مُذاباً»، مثلما هي الحال في الصَّلصَة التي تَختلِطُ مُكوِّناتُها ما دام المَزيج في تَحريكٍ مستمر، بالغَزو والفَتح، ولكن إذا توقَّفَت الحركَة وتُرِكَ المَزيجُ في سُكون تَبدأ مُكوِّناتُه بالانفصال.

جزءٌ من المشكلة هو أن روحَ الجماعة ظَلَّتْ قَبَليّة وجاهِلية. ستَتكَوَّن بُنيَة تَحتِية نَفسِية إسلامية في المدن الجديدة والبلاد المفتوحة لكن بَعدَ قرون. في تلك الفترة، كان العرب مَشغولين في مَضغِ الأراضي التي قَضموها، ولم يكن لديهم الوقت لبَلعِ ولا لهَضمِ التعليمات الأخلاقية الإسلامية، على الأقلّ لتَفَهُّم المساواة الأساسية بين العرب وغير العرب التي عَبَّرَ عنها محمد بقوة في خطبة الوَداع. لوَضعِ الحالَة بمصطلَحات التاريخ المسيحي، كانت الحالَة كأنما انطَلَقَ الصَّليبيون أثناء حياة الحَواريين. هذه العوامل من استمرار القَبَلية والفترة الزمنية بين بِناء المدن وبِناء المجتمعات المدنية تَعني أنَّ عرب شبه الجزيرة العربية القدماء سيَتَفرَّقون ويَضيعون في الإمبراطورية التي أنشَؤوها، وسيتمُ تَهميشُهم بكلِّ مَعنى الكلمة.

ولكن حتى في ذلك الوقت لن تضيعَ قصةُ العرب، بل ستَظهَرُ أنواعٌ جديدة من العرب مع التَّنوع الإمبراطوري، وسَيكونون خَليطاً مثلما كان العرب دائماً، وسيَبقون مُتَّحِدِين مع بعضهم ومع الماضي بفَضلِ الوَسيط القديم من اللغة؛ فقد كانت مُدُنُ الفتوحات الجديدة بُؤَراً لغوية ستَشِعُّ منها اللغةُ العربية لتُصبح لُغَةَ التجارة والثقافة والحياة اليومية. كثيرٌ من الفاتِحين، مثل القوطِيين والفانداَل والمَغول مثلاً، غَلبَتْهم الثقافاتُ التي انتَصَروا عليها. أما بالنسبة إلى العرب، فسيكون الأمر مَعكوساً، فقد «ذَابوا» هم أنفسهم، ولكنّ لغتَهم وثقافتَهم ظَلَّتا غالِبَتين، وهكذا سيَنظُر الشاعر أحمد شوقي من بدايات القَرن العشرين إلى الوراء ويتساءَل:

ما عِلمْنا لِغَيرِهِم مِن لِسانٍ زالَ أهلوهُ وَهْوَ في إقبالِ

(١٥٧) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

بَـلِـيَـتْ هـاشِـمٌ وَبـادَتْ نِـزارٌ وَاللسانُ المُبينُ لَيسَ بِبالي[١٥٨]

الجلوسُ على السرير

سيأتي العرب المثَقَّفون الجُدد، أما الآن فإن خروجَ العرب القدماء من شبه الجزيرة لم يكن ابتِعاد شَعبٍ عن أرضِه وماضِيه فحسب، بل كان أيضاً إشارَةَ بَدءِ ابتِعاد الإسلامِ عن وَسَطِهِ العربي. سيُسافِرُ العرب والإسلام كما رأينا بمعدَّلات انتِشارٍ مختلفة، تأخَّرَ الإسلامُ قليلاً في البداية، إلا أنه سرعان ما سَيلحَق ويذهَب أبعَد بكثير.

أما في الوطن، فقد كان تأثير الخروج مباشِراً، إذ أصبَح شبه الجزيرة مَكاناً سيُترَك، وأرضاً مقدَّسَة ستَزدادُ قداسَتُها مع الابتِعاد عنها. يبدو أن معظم الهجرة خارج شبه الجزيرة العربية ذاتها قد انتَهى مع وفاة الخليفة عمر سنة ٦٤٤. أما الهجرات التالية فقد كانت ثانويةً ومروراً عبر الأمصار في العراق ومصر. ومما لا شك فيه هو أن شبه الجزيرة العربية قد خَسِرَتْ كثيراً من «مَواهِبها» خلال عَقدٍ واحِد، وأنها عانَتْ من تَصَحُّرٍ ثقافي. سيتَسارَعُ ذلك في منتصَف القَرن السابع مع انتِقال عاصِمة الخِلافَة إلى دمشق في شمال شبه القارة العربية. مما يُثيرُ الاستِغرابَ لدى قراءةِ دراسةٍ للثقافة العربية مِثل كِتاب **وفيات الأعيان** لابن خَلّكان، وهو قاموسٌ عظيم لسِيَرٍ ذاتية صُنِّف في القَرن الثالث عشر، أنَّ شبه الجزيرة نادِراً ما تَرِدُ في سِيرةِ حياةِ المُتَوفِّين بعد القَرن الإسلامي الأول تقريباً إلا كَمكانٍ للحَجّ. أصبَحَت الأمصار، خاصةً البصرة والكوفة، مَراكزَ الثقافة الجديدة إضافة إلى كَونِها مَراكز عسكرية. اشتَكى ناقِدٌ في القَرن العاشر من أنه «لا يوجد للعرب تقاليدٌ علمية إلا في هاتَين المدينتَين»[١٥٩] [غير حرفي]. حتى في أوائل القَرن التاسع سيَقولُ الأصمَعي، المؤرّخ والنّاقد الأدبي، عن المدينة: «قضيتُ وقتاً طويلاً هناك ولم أجِد قصيدةً قديمَةً صحيحة واحِدة، كانت جميعُها مليئةً

(١٥٨) ورد في: محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ٥٣.

(١٥٩) ورد في: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٢، ص ٣٥٣.

بالأخطاء أو كانت مَنحولَة»(١٦٠) [غير حرفي]. حتى قَبلَ ذلك في القَرن الثامن، كانت هناك الإجابَةُ المُفحِمَة التي رَدَّ بها العالِم الكوفي ابن شُبْرُمَة على تَبجُّحِ عالِمٍ في المدينة»:

- «من عندنا خرج العلم».
- فقال ابن شُبرُمة: «نعم، ثم لم يرجع إليكم»(١٦١).

من الواضح أن شبه الجزيرة العربية قد عانَتْ نُضوباً ثقافياً شديداً، ولا يمكن قياس تأثير الخروج الكبير على المُوَرِّثات العربية. قال شاعرٌ مَجهول:

ذو اللب تنزع للرفاعة نفسُه وترى الشقي نزوعُه للموطن(١٦٢)

وذَهَبَ شاعرٌ آخَر أبعَدَ من ذلك بالقول إنّ «الذين يَظَلُّون في بيوتِهم مِثل سكان القبور»(١٦٣) [غير حرفي]. ربما جَلَبَتْ عَرائسُ فارس دَماً جديداً في الدَّفقَة الأولى من الفتوحات، ولكن منذ نهاية القَرن السابع أصبَحَتْ معظَم أرجاء الجزيرة العربية أكثر عزلَة. سيكون هناك مَزجٌ وراثي في مكة مع الحجّاج، وفي سواحل شبه الجزيرة العربية، وفي هوامِشِها الخَصبة. أما الجبال والأودية في الجنوب والشرق والسهوب الداخلية فقد أصبَح التّزاوج فيها داخلياً أكثرَ فأكثر، وانطوتْ على نفسِها. انسَحبتْ شبه الجزيرة العربية من التاريخ السَّائد أكثر من ألف سَنة تَلَتْ.

أما بالنسبة إلى النفوس الطَّموحَة، فسرعان ما أخَذَ منهم الخليفة عمر حافِزَ طُموحِهِم عندما وَضَعَ نِظامَ رِفاهية بِدَفعاتٍ وتَعويضاتٍ مِن عَائدَاتِ الفَتح الوفيرة التي وُزِّعَتْ على كل مسلِم كان له دَورٌ في تأسيس دولة المدينة، أو في حروب الرّدة، والآن في الفتوحات التوسّعية. بَلغَت الدَّفعات نحو ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ دِرهم كل سنة، ويمكن تَوريثها(١٦٤). يَصعُب تقدير ما يُعادلها في القِيمة هذه الأيام، ولكن يَستطيعُ المَرء أن يَعيشَ عليها. ليس

(١٦٠) ورد في: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٣.

(١٦١) ورد في: الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٤٢.

(١٦٢) ورد في: Franz Rosenthal, "The Stranger in Medieval Islam," *Arabica*, vol. 44 (1997), p. 51.

(١٦٣) ورد في: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ١٩٣.

(١٦٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, s.v. AṢā'

مُستغرَباً أنَّ عمر قد أُنذِرَ بأن الناس سيَعتادون على المِنَح، وَرَدَّ على ذلك بصَراحة تامّة: «ذلك أمرٌ لا يُمكِنُ تَجنُّبُه»[١٦٥] [غير حرفي]. كانت رؤيتُهُ لِدَولة الرفاهية بعيدةً، وشَمَلَتْ رعايةَ الأطفال[١٦٦]، ووصَلتْ إبداعاتُه الاقتصادية لدرجة التفكير بإصدارِ «عُملَة نَقدية» بشكلِ دَراهم من جِلد الجَمل[١٦٧]. إذا كانت وَصيَّتُهُ لخلفائه صَحيحة، فإن نوايا عمر كانت الأفضَل، لأنها تُظهِرُ أنه أرادَ تطويرَ الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لمَشروع محمد بالاستِثمار في المُدن الجديدة، وبِفَرضِ ضَرائب على الأغنياء وإعادَة توزيعها للفقراء، وأنهَى وَصيَّتَهُ بآيةٍ من القرآن:

﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾[١٦٨]، ولا تُغلِقوا أبوابَكم دونَ وجوهِ الناس وإلا أكَلَ القويُّ منهم الضَّعيف.

تَمَّ تَجاهُلُ وَصيَّة عمر بالطبع، وربما لم يُؤكَل الضعفاء تماماً، فلا بد من أن يَظَلَّ هناك من يقوم بالأعمال الشاقة بدَلاً عن الأغنياء، ولكن الأغنياءَ شَرَعوا بِلُعبَتِهم المَحتومَة بنَقلِ الثروة التي فاضَتْ على المدينة عاصِمة الإمبراطورية من البلاد المُحتَلَّة (المُفردَة القرآنية «دُولَة» تتطابَقُ تقريباً مع المُفردَة التي ستُستخدَم في وَصفِ «الدَّولَة»). مع وجود كل هؤلاء المُقاتلين وتلك الثروة، فإن تقسيم الغَنائم سيؤدي أيضاً إلى تقسيم الوَلاءات وإلى تآكل ثقافة الكَرم القديمة. سيَظَلُّ العرب عُظَماء، كما قال الحَكيم الأحنَف في ذلك الوقت تقريباً: «إذا تقلدوا السيوف وشدوا العمائم وركبوا الخيل... ولم تأخذهم حمية الأوغاد»[١٦٩] ولكن ضخامَةَ الأرباح ستُضحي بالفَضائلِ القديمةِ. لم يوجَد نَظيرٌ لكنوزِ البلاد المَفتوحة[١٧٠]، ولم يُحمَل شيءٌ قليل من الثروة إلى شبه الجزيرة العربية، وإلى الجيوب الواسِعة لِقلَّةٍ مِنهم. يَذكُر المَسعودي عن عثمان الذي خَلَفَ عمر:

---

(١٦٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٤٠.

(١٦٦) المصدر نفسه، ص ٤٤١.

(١٦٧) المصدر نفسه، ص ٤٥٢.

(١٦٨) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩، و**القرآن الكريم**، «سورة الحشر،» الآية ٧.

(١٦٩) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤. انظر أيضاً: ص ١٣٩ ـ ١٤٠ من هذا الكتاب.

(١٧٠) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, p. 173.

فكان له يوم قُتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه... مائة ألف دينار... وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة [كذا] أكثر من ذلك[١٧١].

وتستمر اللائحة. كان عثمان تاجِراً ثَرياً منذ شَبابِه، ولكن كان هؤلاء هم الثوار الذين كانوا مع مشروع محمد منذ البداية، تُحيطُ بهم نَفحَةٌ مما يمكن أن يُسمَّى في ظروفٍ مختلفة «اشتراكية الشمبانيا» (بالمُقارنة، لا بد من القول إنّ عمر شاركَ النبي بازدِراء الثروة، ففي إحدى المناسبات أنفقَ وهو خليفة ١٦ ديناراً في رِحلَتِه إلى الحجّ، وظَنَّ بنفسِه الإسراف)[١٧٢].

توسَّعَتْ مجالاتُ الثروة مع اتساع آفاق الإمبراطورية، وفي مَرتبة مختلفة عن أعيان فَجرِ الإسلام وفي زمن متأخر، حَصَلَ قاضٍ في القَرن التاسع على هدية من الذّهب والفضّة من زوجة خليفة. يوضّحُ سلوكهُ التَّغيُّر الذي حَدَثَ للعرب، إذ أخبَرَهُ صديقُهُ أن محمداً قد قال إن الهدايا يجب أن تُشارَكَ مع رفاقِ المَرء، فقال القاضي وهو يتمسَّكُ بهديته: «آه، كان ذلك أيام كانت الهدايا لَبَناً وتَمراً»[١٧٣] [غير حرفي]. إلا أن مثلَ هذا السلوك البَخيل ليس من الحكمة عندما يكون رفيقكَ شاعِراً (اسمه: البردخت الضبي) يستطيعُ أن يَنشُرَ ذلك للأجيال القادمة:

فلستُ مُسَلِّماً ما عشتُ حَياً ... على زَيدٍ بتَسليمِ الأميرِ

تذَكَّرْ إذ لحافكَ جِلدُ شاةٍ ... وإذ نَعلاكَ مِن جِلدِ البَعيرِ

فسُبحانَ الذي أعطاكَ مُلكاً ... وعلَّمكَ الجلوسَ على السريرِ[١٧٤]

---

(١٧١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٤١ ـ ٣٤٣؛ الترجمة من: **Ibn Khaldun**, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 163.

(١٧٢) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٣.

(١٧٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٥١، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣٩٣.

(١٧٤) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ١٦٧.

Poet and amir are unidentified, although Zayd can be the Arabic equivalent of 'Joe Bloggs'. In some accounts, the verses are aimed at an eighth-century governor, Ma'n ibn Za'idah.

كتُبٌ كثيرة في واحِد

إذا كانت النماذج الصَّالِحة في شبه الجزيرة العربية القديمة وفَجر الإسلام ضَحايا للمِزاج الجديد، فإن أعظَم ضحاياه ستكون الوحدَة التي صَنَعَها محمد. ستَستمر دائرةُ النار في الدَّوران، وستَتلَّقى دَفعَةً قوية جديدة مِن عثمان، أول الأثرياء في النصف الإسلامي من تاريخِ العرب المسَجَّل.

قُتِلَ عمر في ظروفٍ غامِضة على يَدِ أَحَدِ الأرقّاء(١٧٥). كان للخليفة المَقتول بَصيرةٌ استشرافيةٌ أقوى ممّن جاءَ بَعدَهُ، فقامَ بتَعيين لجنة لاختيار خَليفَتِه(١٧٦)، وكان اختيارهم عثمان الذي كان مِن نَسل أميّة، جَدّ من القَرن السادس لعَشيرةٍ كانت مِن زعامات مكة في العقود الأخيرة من «الجاهلية»، وبذلك كان أول خليفة أمويّ، ولكنه في الدوائر السّنية على الأقل لم يتأثَّر بالازدراء الذي خَيَّمَ على السلالة الأموية الوَشيكَة. كان يتمتَّع بشهرَتِه الخاصة كما سنَرى، ولكن أعظَم ما اشتُهر به هو جَمعُ القرآن بالشَّكلِ الذي نَعرفُهُ الآن، وفي هذا مُساهَمةٌ مهمّة في قضية الوحدة الثقافية العربية.

كان الخليفةُ الأول أبو بكر قد «جمع القرآن بين لوحين»(١٧٧)، جمَعَهُ ولكنه لم يرتّبه. بدأ عثمان وفريقُ تحريرٍ من صَحابةِ محمد بتَرتيبِ وتَحريرِ وتَقنينِ ونَشرِ نَصّ مُوحَّد من الكتابات المقدَّسة. أثارَ ذلك في البداية استِياء الصحابة الذين اعتادوا على تلاوة القرآن على مَدى جِيلٍ كامل اعتماداً على ذاكِرتِهم (مَدعومَةً دون شك بنُصوصٍ مَكتوبة غير مُجمَّعة ولا مُقنَّنة). مارَسوا نوعاً من السيطرة على كلمة الله، واشتَكوا: «كان القرآن كُتُباً، فتركتَها إلّا واحِداً»(١٧٨). تمّ تَجاهُلُ شِكاياتِهم، وكُتِبَتْ نسَخٌ ربما كانت كبيرةَ الحَجم، ومن المؤكَّد أنها كُتبتْ في الرق بالخَطّ الكبير ذي الزوايا الذي سُمي فيما بَعد بالخَطّ الكوفيّ، وأُرسِلَتْ نسخٌ إلى أرجاء الإمبراطورية. كُتِبَتْ نُسخٌ ثانوية من النسَخ الأصلية، ووزِّعَتْ في المَساجد حيث يستطيع الأفراد جَلبَ

---

(١٧٥) انظر على سبيل المثال: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٧٠.

(١٧٦) Lewis, "The Concept of an Islamic Republic," p. 7.

(١٧٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٣٣.

(١٧٨) al-Tabari, quoted in: Gregor Schoeler, "Writing and Publishing: On the Use and Function of Writing in the First Centuries of Islam," *Arabica*, vol. 44 (1997), p. 431.

أوراقٍ لكي يُكتَبَ كُتَّابٌ مَحلِّيون نسخاً مُجزَّأة نقلاً عنها[179]. أنتَجتْ صناعة الطباعة العربية حتى ذلك الوقت كتاباً واحِداً فقط، ولكن الدَّفعَةَ القوية لتَعلُّم القراءة والكتابة كانت خيالية. كما أنه كان مهمّاً وجودُ نَصٍّ رسميّ واحِد سيَلعَبُ دَوراً مَركزياً في توحيد اللغة العربية وتوحيد العرب. ومهما اختَلَفوا فيما بينهم، فإن الأمة القبيلة العُظمَى أصبَحَ لديها الآن نسخَة رَسمية مَكتوبة بلغتها الفُصحى يُمكِنها بها خَوض مَعارك لغوية.

كان كل ذلك ضرورياً لأن اللغة العربية كما رأينا كانت تَبدأ بخَسارة صَفائها، أو أنها قد استمرت في التغيّر حتى في مَعاقل الفَصاحَة في مكة والمدينة[180]. كان خَطَرُ التغيّر أكبَر بالنسبة إلى العرب في الشّتات. كانت اللغة قد مَنَحَتْهم الهوية ثم الوحدة من خلال محمد والقرآن، ولكن نَجاحَ تلك الوحدة نَشَرَهُم طولاً وعَرضاً وَرِقَّةً. كانوا مُهدَّدينَ بالذَّوبان بسبب حَرَكَتِهم ذاتها. كان نَسلُ العباسيين، الذين بلَغَ عددهم ٣٣,٠٠٠ كما ذَكرنا، عَرَباً من جِهة الآباء، ولكن أمَّهاتِهم كُنَّ من ثقافات متنوعة. تَعدَّدتْ أَلسِنة الأمهات عبر الأجيال بين الآرامية والفارسية والتركية والقبطية واليونانية والبربرية وغيرها (سنعود إلى قضية تَعدُّد ألسِنة الأمهات والتَّهجين بشكلٍ عام). ضَمِنَتْ نسخةُ عثمان الرسمية من القرآن على الأقلّ وجودَ شَكلٍ موحَّدٍ من الكتابة العربية، ومن ثَمَّ الثقافة العربية، وسيستمر ويَنمو ويزدَهر. كما صَوَّرَ ذلك ابن خلدون: «القرآن والسنة. . . حَفِظا اللغة العربية»[181] [غير حرفي]. ولكن المحافَظَة على الوحدَة السياسية بين عَرب الشّتات سيكون تحدّياً أكثر صعوبة بكثير. وسيكون التّحدي الأكبَر الآن هو المحافَظة على الوحدَة في المدينة.

التَّشقق

بينما كانت جيوشُ العرب تَشُقُّ طريقَها عبر القارات، بدأ اتفاق قادَتِهم في المدينة يتشقق. من السهل أن نَرى الأمور في ثُنائياتٍ مِثل: السّنة ضد

(١٧٩) الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه**، ص ٤٤٦.

(١٨٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٠ ـ ١١، وقارن: ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ من هذا الكتاب.

(١٨١) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 295.

الشيعة، وأن نُتابع العِلَل للوصولِ إلى سَبَبٍ واحِد أساسيّ، مثل الفَصل الدّموي الأسطوري للجدَّين المتّصلَين عَبد شَمس وهاشم[١٨٢]، ولكن في الواقع هناك عددٌ غير مَحدود من العناصر الفرعية التي تَصُبُّ في الانفصال القادم. تفترق ثنائياتٌ واضِحة إلى تفرّعاتٍ متعدّدةٍ من النزاعات، وبالنظر إلى السنوات الأولى بَعدَ محمد، فإن المشكلةَ الرئيسية لم تكن مسألةَ سياسةٍ أو تقوى، عقيدةٍ أو مَذهَب، فقد كان كل ذلك مَحكوماً بإرادة الله الفاضِلة. كانت المشكلة حول القوة والسلطة، وحول مَن سيكون مَلكَ القلعة.

هناك روايةٌ عن أول خليفة بَعدَ محمد، وهو أبو بكر الحَكيم التَّقي، وهي تُشيرُ إلى طبيعة المُنافَسَة القادِمة على السُّلطة. ففي أوائِلِ خِلافَتِه كان لديه أسبابٌ للحِدَّةِ مع أبي سفيان، كان والِدُ أبي بكر مازال حَيّاً آنذاك، وكان شَيخاً في التسعينيات من عمره، وعندما سَمِعَ ارتفاعَ صَوتِ ابنِهِ سَأل:

«على مَن يَصيح ابني؟» فقال له: «على أبي سفيان»، فدنا من أبي بكر وقال له: «أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عَتيقَ الله (وهو اللقب الذي كان يُناديهِ به والِده دائماً) وقد كان بالأمس سَيّد قريش في الجاهلية؟ لقد تعديت طورك وجزت مقدارك!»، فتبسَّم أبو بكر ومَن حضره من المهاجرين والأنصار وقال له: «يا أبت، إنّ الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذَلَّ به آخرين»[١٨٣].

ودارَت الأيام، وسرعان ما عادَ بنو أمية من التَّواضُع العابِر إلى رِفعَتِهِم السابقة. إنما في ذلك الوقت ظَهرَ أن الإسلام قد ساوَى بين الناس، ولو أن جميع اللاعبين الأساسيين كانوا من قبيلة محمد: قريش.

كان الخليفة أبو بكر، الذي حَكَمَ سَنتَين، ينتَمي إلى عَشيرة تَيم البَعيدة قليلاً عن بقية بطون قريش، ولم يُظهِر عَداوة خاصة للأمويين ولا تَحيّزاً خاصاً إلى الهاشميين، بل نَفَّرَ في الواقع بعضَ الهاشميين بِمَنع حصول أقرباء محمد على حِصَّةٍ مِن خُمس الغَنائم[١٨٤]. كما أن عمر، الذي كان ينتَمي

---

(١٨٢) قارن: ص٢٠٢ ـ ٢٠٥ من هذا الكتاب.

(١٨٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٠٦.

(١٨٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 420.

أيضاً إلى عَشيرة هامشية مِن قريش، كان كذلك حاكِماً غَيرَ مُتحيّز. ولكن عثمان الثّري كان أول الأمويين من قريش الذين بَرَزوا من جديد، وبدأت الأمور تتغيّر.

على الرغم من أن عثمان كان أحَدَ الخلفاء الراشدين، ولكن يبدو أنه فَقَدَ إحساسَهُ بالاتجاه في منتصَف خلافتِه تقريباً التي استمرت ١٢ سنة. يبدو أنه أضاعَ حينها خَتمَ محمد الذي كان يُستخدَم في المُصادَقة على وثائق الدولة، وقد أسقَطَهُ في بئر(١٨٥)، واعتَبَر بعضُهم أن تلك علامةٌ على ضياع التَّوجُّه. وبَغضِّ النَّظر عن الناصحين، فقد سمَحَ للفساد بالانتِشار وأبعَدَ المُنذرِين(١٨٦). والأسوأ من ذلك هو أنه حابَى أبناءَ عَشيرتِه الأمويين وأسنَدَ إليهم أعمالاً مُثمِرَة. كانت ولايةُ سورية بِيَدِ الأمويين قَبلَ ذلك باسمِ معاوية بن أبي سفيان. كما مَنَحَ عثمان ولايةَ مَراكز القوة في العراق: البصرة والكوفة، وفي مصر لأقربائِه، وأحاطَ نفسَه في المدينة بمُستشارِين أمويين. يُحاوِلُ المَرءُ أن يُدافِعَ عنه على أساس أنه يستطيع أن يُحكِمَ سَيطَرته بشكلٍ أفضَل من خلال المُقرَّبين إليه من عَشيرته، ولكن مَن سَبَقَه من الخلفاء لم يَشعُر بضرورة ذلك، وكان ذلك بالنسبة إلى كثيرين مَحسوبية صارِخة. يلخِّصُ التعليقُ الساخِر الذي صَرَّحَ به عمرو بن العاص فاتِح مصر الشُّعورَ العام؛ فعندما عَزَلَهُ عمر عن ولاية مصر بسبب تَرَفِ مَعيشَتِه، وعَيَّنَهُ قائداً عسكرياً في النيل، بينما عَيَّنَ عثمان قريبَهُ الأمويّ الذي ستكونُ له السيطَرة على الخزينة، علَّقَ عمرو: «أنا كماسك قرني البقرة والأمير يحلبها»(١٨٧). بدَأت الفتوحات العربية العظيمة تبدو كأنها إقطاعيةٌ كبيرة لعَشيرةٍ جاهلية حاكِمَة صغيرة من قبيلة عربية واحِدة. لم يُحَسِّن ذلك الانطباع وَصف أحَدِ ولاة عثمان في العراق مَزارِعَ النخيل الشاسِعة في السَّواد بأنها «بستان قريش».

في سنة ٦٥٦، ثارَ عددٌ من المُقاتلين العرب في الولايات، واشتَكوا من الفَساد وعَدَم المساواة، وسارَ كثيرٌ منهم نحو المدينة أمَلاً بِعَرضِ قَضيَّتِهم على الخليفة الذي كان أحَدَ المُقرَّبين من أصحاب محمد، وكان معروفاً

---

(١٨٥) Ibid., s.v. 'Uthmān.

(١٨٦) Abu 'l-Dharr: *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 382.

(١٨٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٢١.

بتَقواه على الرغم مما سيُسَميه مُؤيدوه فيما بَعد «أخطاء مُبرَّرة». كان من أهمّ القادِمين إلى المدينة أولئكَ الذين جاؤوا من مصر، البقَرةَ الحَلوب. وافَقَ عثمانُ على مَطالِبهم وردّهم إلى مصر. وهنا تُصبِحُ القصةُ معقَّدَةً، فقد أعطَى رسالَةً إلى المتمردين العرب الذين جاؤوا من مصر، ويُقالُ إنهم عندما فتَحوا الرسالَة وجَدوا فيها أوامِر بالقَبض على حامِلي الرسالة وقَتلِهِم فَورَ عَودَتِهم إلى أرضِ النيل. وبَدَلاً من ذلك، عادوا أدراجَهم إلى المدينة، وحاصَروا عثمان في بيتِه، ثم قَتَلوه في حزيران/ يونيو ٦٥٦.

سيؤدي تتالي هذه الأمور إلى مَزيدٍ من العنف: الفساد الزَّاحِف والمَحسوبية، همودُ الأغلبية وصَمتُها، الامتعاضُ الصّارخ للأقلية، المُواجَهة، الاستِرضاء، الازدِواجية في التعامل، النهاية الفاجِعة... وهي لا تَقتَصِر على التاريخ العربي، ولكن الطبيعة الأحادِية الاستِثنائية للإسلام قد وَلَّدَتْ بُعداً إضافياً: اللهُ واحِد، اللهُ هو الحَقّ، ومن ثَمَّ فالحقيقة واحِدة. ذلكَ هو القِياسُ المَنطقي الصَّريح الذي بَدأ فيه المُتنازِعون يُهاجِمُ بعضُهم بعضاً، وقد اقتَنَعَ كل طَرَفٍ بأنه هو على الحَقِّ الصَّريح الذي لا يَتزعزَع. يَجري هذا النَّمط عَبرَ التاريخ، ويمكن رؤيته مِراراً في الوطن العربي هذه الأيام. أستَطيع رؤيتَهُ هنا في الأرضِ التي تَبنَّتْني.

كتَبَ أدونيس: «كان مَقتلُ الخليفة عثمان إشارَةً إلى أن دارَ الإسلام سَتَدخل في صِراع سَيرفُضُ فيه كلُّ طَرَفٍ الطَّرَفَ الآخَر. لم تَتسِم السياسة والثقافة بالحِوار... بل بالاستِنكار والرَّفض، وكلُّ طَرَفٍ يؤمنُ بأنه يَتصرَّفُ وفقَ الحقيقة المُطلَقَة، بينما كان خَصمُهُ على ضَلالٍ تامّ»(١٨٨). [غير حرفي]

ولكن، إذا كانت ادعاءاتُ امتِلاك الحقيقة جديدة، فإن الأحداثَ التي أدَّتْ إلى مَقتلِ عثمان تَتبَعُ أيضاً دائرةً كلاسيكية لِعَجَلَةِ النار: الخِلافُ حول الغَنائم، الانشقاقُ في مِحوَرِ العَجَلَة، امتداد الانقسام نحو الخارج، نِهايةُ الوحدَة. في هذه الحالَة، كان التَّشَقُّقُ والانقسامُ مُكَبّراً بِشكلٍ مُتَناسِب مع عِظَمِ نَجاحِ محمد في صِياغة تلك الوحدَة العظيمة الأولى. انتَشَر الانقسام عَبر الزمن حتى العَصر الحاضر، وعند النظر إلى الثنائيات العَقائدية الواضِحة

---

(١٨٨) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ١: **الأصول**، ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

البسيطة، مثل: السّنة/الشيعة، فإننا نَدرسُ الأعراضَ فقط. جَذرُ المُشكِلَة هو مَن الذي سيحصَل على القوة والثروة والمَجد وكلِّ شيء آخَر يأتي معها.

سيطَرَ السؤالُ على السنوات الأربع التالية من تاريخ العرب. كان جزءاً من المأساة هو أن الخليفة الجديد عليّ بن أبي طالب، ابن عمّ محمد وصِهره، يبدو أنه لم يكن مهتماً بالثروة والسُّلطة، بل كان يَبحَثُ مِثلَ عمر عن إعادَةِ التوزيع العادِل للثروة، ولكنه اختَلَفَ عن عمر بأنه أفرَغَ الخزينة وهو يحاول تحقيق ذلك. كما أنه استَرجَعَ الأراضي التي مَنَحها عثمان لأقربائه(١٨٩). وكان عارِفاً، مِثلَ عمر، بتَعاليم الإسلام المقدَّسة، ولكنه كان أقدَر من جميع مُعاصِريه على التعبير عن هذه التعاليم بالكلمات. طُرِحَ السؤال: «كم بين الأرض والسماء؟»، قال: دعوة مُستَجابة. قالوا: كم بَينَ المشرق إلى المغرب؟»، قال: مَسيرة يوم للشمس»(١٩٠). قَصَدَ عَلِيٌّ أن الإسلام قد قرَّب السماءَ، وبَيَّنَ صِغَر العالَم في سِياقِه الكَوني. ولكنّ الإسلام قد أطلَقَ أيضاً شَرارةَ إمبراطوريةٍ دُنيَوية عظيمة نامِية مَغمورَة بالثروة، ولم تكن أمورُ السماء على رأسِ بَرنامَجِها. كان عليٌّ المُرَشَّحَ المِثالي لحُكم ما سيَصِفُهُ ابن خلدون بأنه «فرضِيةٌ نادِرةٌ وبعيدةٌ» [غير حرفي]، مَدينةُ الفلاسِفَةِ الفاضِلَة(١٩١). بينما سَعى آخرون لإدارة ما أصبحَ شَركةً قرشيةً عامّة.

كان طَلحَة والزّبير من أولئك الآخَرين البارِزين الذين وَرَدَتْ أسماؤهم في لائحة المَسعودي للأثرياء من أصحابِ محمد(١٩٢). كان الشخصُ الثالثُ هو زوجةُ محمد المُفضَّلة لديه، عائشة بنت أبي بكر. كان هؤلاء مُستائين أيضاً من حُكم عثمان، ولكنهم ظَلُّوا بعيدين عن العنف ضِده، ويَستطيعون الآن استِغلال الاتهامات بالتواطؤ في قَتلِ الخليفة المُسِنّ ضد عَلِيّ، الذي قَبِلَ بتسرع مبايَعَتَهُ على الخِلافَة من جَماعةٍ ضَمَّتْ بعض قَتَلَةِ عثمان. طالبَ طَلحَة والزّبير وعائشة بالإصلاح، ذلك الشِّعار الغامِض القوي الذي يَصنَع

(١٨٩) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٦٢.

(١٩٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ١٠٦.

(١٩١) **Ibn Khaldun**, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 257.

(١٩٢) انظر: ص٣١٦ من هذا الكتاب.

التَّضامُن على مَرِّ العصور، وجَمَعوا عُصبَةً من المؤيدين، وانطَلَقوا إلى العراق حيث أسَّسوا قاعِدةً لَهم. طارَدَهم عليّ، وانتَهى الأمرُ بمَزيدٍ من العنف الذي يُمكِنُ وَصفُهُ بالهَلاك.

كانت ذُروَةُ ذلك العنف في معركة يوم الجَمَل في كانون الأول/ ديسمبر ٦٥٦ حين تواجَهَ ابن عمّ محمد المفضَّل وأرمَلُ ابنتِه المُفضَّلة فاطِمة، مع زوجَتِهِ المُفضَّلة عائشة ابنَة صَديقِهِ المُفضَّل أبي بكر. اتَّخَذَت المعركة اسمَها من وجودِ عائشة في قَلبِ المعركة بأسلوب العَرَّافات قَبلَ الإسلام[193]، «على جمل في هودج من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر وجعلوا دونه اللبود وقد غشي على ذلك بالدروع»[194]. مع نهاية المعركة، «وقُطع على خطام الجمل سبعون يداً... ورمي الهودج بالنشاب والنبل حتى صار كأنه قنفذ»[195]. ويُقال إن أخبارَ المعركة طارَتْ إلى المدينة بشكلِ إحدى الأيدي المَقطوعَة وعليها خاتَمُ صاحِبِها يَحمِلُها نَسر[196]. إلا أنَّ أهلَ العاصِمة ظَلّوا قَلِقين بانتظار النتيجة. كان الأمرُ واضِحاً في مكانِ المعركة، فقد كان طَلحَة والزّبير بين القَتلَى الذين بلَغَ عددهم سَبعة آلاف على أقلّ تقدير[197]. ظَلَّتْ عائشة النشيطة حيّة، ولكنها لم تُقاتِل في يوم آخَر (إلا أنها حاوَلتْ بُعيدَ المعركة أن تَتدخَّل في خِلافٍ آخَر خاضَتْ غِمارَه على ظَهرِ بَغل، إلا أن أحَدَ رجال المدينة سَحَبَها بِلُطفٍ قائلاً: «والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل بعد، فكيف إذا قيل يوم البغل؟ فضحكت (عائشة) وانصرفت»[198].

كان ذلك آنذاك نَصراً لعَلِيّ، وربما لجوانب المساواة في الإسلام على مَصالِحَ مُكتَسَبة قديمة. هل كان أيضاً هزيمةً لاحتِمال عَودَة سُلطَة المرأة؟ لا شك بأن النساء كُنَّ يَتمتَّعنَ بسلطة عامة أكبَر قَبلَ الإسلام، وحتى في حروب

(١٩٣) Joel Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity* (London: Allen and Unwin, 1969), p. 91.

(١٩٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(١٩٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(١٩٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ١٠.

(١٩٧) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٦٠.

(١٩٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩.

الردّة، جَمعَت العرّافة سَجاح كثيراً من الأتباع. أما في حالَة عائشة، فالأمرُ مجرد تَكَهّنات، ولكن التكهّنات تبدو سائِرَةً مع الأحداث، ففي إحدى الروايات قِيلَ إن أحَد المقاتلين في صَفّ عائشة قال وهو يموتُ إنه كان «مَخدوعَ المرأة التي أرادَتْ أن تكون أميرَ المؤمنين»[١٩٩].

خَليفةٌ أنثى!... ذلك تَساؤلُ «ماذا لَو»، إن أمكَن ذلك أبَداً.

قرآنٌ على الرّماح

لم تكن روحُ النظام الأمومي قَبلَ الإسلام هي التي رَبحَتْ لَقَبَ القيادة، بل رَبِحَها الابنُ المُفضَّل لأعيان قريش قَبلَ الإسلام، معاوية بن أبي سفيان الذي كان أبوه «بالأمس سَيّد قريش»، كما ذكَّرَ الخليفةَ أبا بكر والدُه المُسِن. كان معاوية قد رَسَّخَ نفسَه والياً على سورية، وطالَبَ الآن بالثأر لمَقتل عثمان زعيم الأمويين، واعتَبر أن عَلياً قد شارَكَ في العملية. كانت قضيةً عشائريةً قديمة من الثأر لِدَم قَتيلٍ، والعَشائر الضخمة لها نزاعاتٌ ضخمة، بِغَضِّ النَّظَر عن المَسائل العَقائدية والمَذهبية السّنية والشيعية التي ظَهرَتْ لاحِقاً في هذه المَسألة. كانت كذلك جانباً سلبياً في معجزة محمد، وكلما كان التَّجمعُ أعظَم، كان التَّمزُقُ أقسَى. وسيكون الصِّراع على الخَلافة أقسَى من جميع «أيام العرب» القَديمة، وستَبدو أمامَها المعاركُ والغزوات الحاسِمة التي أسَّست الدولة الإسلامية شَذَراتٍ مِنْ رِمال، كما ستَبدو معركة الجَمَل مُناوَشةً تمهيدية، وحتى معركتا اليرموك والقادسية الحاسِمتان اللتان أسَّسَتا الإمبراطورية كانَتا أقلَّ دَموية.

جَرَتْ معركة صفّين على مَدى نحو أربعة أشهر في سنة ٦٥٧ على الضفة اليمنى من نهر الفرات قرب مدينة الرقة[٢٠٠]. بَدأتْ مِثلَ واحدة من المُشاجَرات القديمة بمُناوشاتٍ وحَماسَة شِعرية. فمَثلاً، سَخِرَ عليّ من معاوية (وأمّه هِند المَعروفة بآكِلَة الأكباد):

أَضـرِبُهُـم وَلا أَرى مُـعـاوِيَـةْ   الأَبـرَجَ الـعَـينِ الـعَظيـم الـحاوِيَةْ

(١٩٩) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٩.
(٢٠٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٤.

هَـوتْ بِـهِ فـي الـنـارِ أَمُّ هـاويَـةْ   جـاوَرَهْ فـيـهـا كِـلابٌ عـاويَـةْ[٢٠١]

وسرعان ما أصبَحَت المَعركة يائِسَةً مُتهوِّرة، فقد كانت معركةً حولَ ما كان إمبراطوريةً واسِعة، وقد كتَبَ المَسعودي:

وكان في هذا اليوم من القتال ما لم يكن قبل، ووجدتُ في بعض النسخ من أخبار صفين أن هاشماً المِرْقال لما وقع إلى الأرض وهو يجود بنفسه رفع رأسه فإذا عبيد الله بن عمر مطروحاً إلى قربه جريحاً، فحبا حتى دنا منه فلم يزل يغض على ثدييه حتى ثبتت فيه أسنانه لعدم السلاح والقوة، لأنه أصيب فوقه ميتاً[٢٠٢].

كان ذلك نوع التفاصِيل التي يَصعُبُ اختِراعُها، وهناك تفاصيل أخرى أكثر إثارةً للتساؤل، مِثلَ أنَّ عَليّاً قَتَلَ بنفسِه ٥٢٣ من الأعداء في يوم وليلة[٢٠٣]. ولكن مع تزايد حِدَّةِ القتال إلى ذُروَتِه، ضاعَتْ كل التفاصيل في ظَلامٍ حالِك:

وأصبح القوم على قتالهم، وكسفت الشمس، وارتفع القَتام، وتقطعت الألوية والرايات، ولم يعرفوا مواقيت الصلاة[٢٠٤].

مع غياب ألوان الرايات والضّياء، ضاعَت الهويات القَبَلية والفردية. وأُلغِيَ نورُ الإيمان وحتى مرور الوقت نفسه. مازال الظلام يُغطّي المكان حتى الآن، فهو مَسرحُ صِراعٍ منذ آلاف السنين من معارك البابليين والآشوريين حتى البارحة حينما جاء نَسلٌ بَعيدٌ مُشَوَّهٌ مِنْ عَلِيّ ومعاوية، دولةٌ عراقية يُسيطِر عليها الشيعة، و«دولة إسلامية/داعش» سُنيّة متشَدِّدة، وتضَاربوا في السهول الشاسِعة المُغبَرة، وقَصَفَت الصواريخُ مدينةَ الرقة عاصِمة «الدولة الإسلامية/ داعش» في سورية.

---

(٢٠١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٦.
(٢٠٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٧.
(٢٠٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٩.
(٢٠٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٩.

وإذا تأملتَ البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ[٢٠٥]

تصعُبُ الرؤية في العَتمَة، ولكن يبدو أن معاوية كان يَخسر. ثم تَذكَّرَ سِلاحاً في مُستودَعِه لم يُستخدَم بَعدُ، وهو القرآن. حَمَلَ نحو ٥٠٠ رَجُل من رجال معاوية نسخاً من القرآن، وربَط كل واحد منهم نسخته إلى سِنانِ رُمحِهِ ورَفَعَها عالياً[٢٠٦] (تتكَرَّر الفكرةُ عند القادَة العرب مهما كانت دَرجة إيمانِهم. يمكنكَ أن تُشاهِدَ صوراً باهِتة ممزَّقة لرئيسِنا السابِق هنا في اليمن يَرفَعُ نسخَةً). في حالَة معاوية، بالنظر إلى كِبَرِ حَجمِ نسخِ القرآن الأولى، يبدو من غير المُحتَمل أن نسخاً صَغيرةَ الحَجم كانت موجودة آنذاك، وأنّ المقاتلين ربطوا نسخاً كاملة من الكتاب إلى أسلِحَتِهم. والفكرة الأكثر مَعقوليةً هي أنهم رفَعوا على أسِنَّةِ الرماح صحائف متفرّقة أو أجزاء حُمِلَتْ بشكل تَمائِم. وعلى كل حال، لم يتأثَّر عليّ، وقالَ: «ليسوا بأصحاب دين وقرآن»[٢٠٧]. ولكن رجاله قرَّروا قبولَ تَحكيم كِتابِ الله، ووافَقَهم عليّ[٢٠٨]. وكالعادة، فازَت الكلمة العربية القاهِرة، وتَفوَّقَتْ على قوة السلاح في طَرفِ عليّ، وقوة الحجّة. يُغطّي مَشهَدُ أرضِ معركة صفّين الادّعاءات المُتضارِبة عن الحقيقة التي سيَستَخدِمَها السّنة والشيعة مع الزمن: في أحَدِ الأطراف، كانت الحقيقةُ الخطابية والكلمة المقدَّسة، مثلما تَعنيهِ التَّميمَةُ أو التَّعويذَة. وفي الطَّرَفِ الآخَر، كانت الحقيقةُ الرَّسولية والسُّلطة المُجَسَّدَةُ في شَخصٍ حَيٍّ هو الإمامُ الحَيّ.

عندما هَدَأَ غُبارُ معركة صفّين، وُجِدَ أن نحو سبعين ألفاً قد قُتِلوا على مَدى ١١٠ يوماً من القتال حسب معظَم التقارير. قُتِلَ نحو ٤٥,٠٠٠ من رجال معاوية، ونحو ٢٥,٠٠٠ من رجال عليّ[٢٠٩]. وترى بعضُ الروايات

(٢٠٥) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (القاهرة: بولاق، [د. ت.])، ص ٣٤٨، الترجمة من: Tim Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah* (London: John Murray, 2001), p. 226.

(٢٠٦) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٢٠٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠١.

(٢٠٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٢٠٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦١.

أن العدَدَ الكليّ للقَتلَى هو أكثر من نصف ذلك(٢١٠)، وكالعادة، فإن كل الأرقام مَشكوكٌ في صِحَّتِها، إنما لا شك بأن معركة صفّين كانت دَمويةً بشكلٍ مُذهِل، وأنها كانت ذُروةَ سلسلةٍ طويلةٍ من المواجَهات بين المُتنافِسين(٢١١). يُعتَقَدُ أنَّ استِخدامَ معاوية لكلمة الله قد أنهَى القتال، ولكنه لا يقل احتمالاً عن أنَّ السببَ كان ذلك المُحَفِّز على السلام الذي لا يتعَب، وهو التَّعب والإنهَاك.

قَبِلَ عليّ فكرةَ التَّحكيم تحت ضَغطِ كثيرٍ من أتباعِه الذين كانوا جميعاً مقتَنِعين بحقيقة موقِفِه(٢١٢). سيُقَرِّرُ حَكَمانِ مَن سيكون الخليفة، مُستَرشِدَين بالقرآن. كانت القضية بكاملها غير حاسِمة، لأن الحَكَمَين قد «اتَّفَقا على لا شيء»(٢١٣)، كما يمكن أن يصِفَها حُكمٌ موجَزٌ. بايَعَ العرب السوريون معاوية كخليفة، بينما استَشاطَ العراقيون غضَباً، وثارَ بعضُهم ضد عليّ بسبب تَخلِّيهِ المَزعوم عن القضية. أصبَحَتْ بيعةُ معاوية أكثر قبولاً بسبب انقسام صَفِّ المعارَضة.

انتهَى القَتلُ على الأقل آنذاك، ولكن ذلك الاتحاد العربي المُعجِز الأول والأخير الذي مكَّنهُ الإسلام قد انفَصَم الآن نهائياً. سيَسيرُ الفَصلُ على خطوطٍ قَبَليةٍ وطائفيةٍ دون أن تتمايز الصفوف بشكلٍ دائم، واعتُبِرت الطائفة غالباً استِعارَةً للقبيلة. يُروى أن محمداً قد تَنبَّأ بأنَّ جَماعَتَه ستَنقَسم ثلاثاً وسَبعين شُعبة(٢١٤). إنه تقديرٌ محافِظ، لأن القصيدة التي ربما كانت الأطول في اللغة العربية، والتي ضَاعَتْ في القَرن التاسع، وَبلغَ طولُها ٤٠٠٠ بيتٍ من الشِّعر على قافِيةِ «نا»، كانت سِجِلاً للطوائف والمَذاهب(٢١٥). ومن المؤسف القول إنها قد تكون مُرَشَّحةً أخرى لتَلعَب دَورَ المَلحَمة القومية.

أدّى الاستِخدامُ التكتيكي للكلمة إلى كَسبِ معاوية التأجيلَ في معركة صفّين. وإنّ ربحهُ في النهاية مَعركَة الخِلافَة لم يتَعلَّق بالإيمان أو بالحقيقة أو

(٢١٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٤.
(٢١١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦١.
(٢١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.
(٢١٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 265.
(٢١٤) قارن: ص ٣٩ ـ ٤٠ من هذا الكتاب.
(٢١٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٤٠.

بالحَقّ، ولا حتى بالقوة. لقد كان انتصار القديم على الجديد، انتصار نظام قريش القديم على طَرَفٍ أقلَّ قِدَماً من النظام؛ أو باستعارةٍ لغوية، انتصار الجِنّي الذي تَعرِفُهُ على الإنسان الذي لا تَعرِفَه. عَرفَ معاويةُ الحقيقةَ البسيطة وراء هذا التحول الحاسِم في تاريخ العرب، وقال: «كنت أحب إلى قريش من علي»[٢١٦].

قَبلَ أقلَّ من ثلاثين سَنة، شاهَدَ والِدُ معاوية تلك الوحدَة الاستِثنائية في المدينة، والآن خَضَعَ جِسمُ الإسلامِ لأولِ انقسامٍ في خَلِيَّتِه، وبدأتْ عملية اضمِحلال وتَجدُّد. حَدَثَتْ طَفراتٌ على مَرِّ الزمن، ولكن ظَلَّت الخطوطُ العامة هي ذاتها، ومَنَحَتْ وحداتها الخاصة في التاريخ العربي/الإسلامي، إن لم يكن للعرب أنفسهم. عند قراءَةِ دِراسَةٍ مبكرةٍ مثل أبحاث المَسعودي، تُفَكِّرُ أحياناً فيما إذا كنتَ تَقرأ تاريخاً أو أحدَاثاً حالِيَّة. يُقاتِلُ السّنةُ الشيعةَ في الأرضِ نفسِها حَرفياً ورَمزياً مثلما يَفعلون هذه الأيام. تدَّعي أطرافٌ مُتصارِعة أنها تَحتَكِرُ الأصالَةَ والحقيقة ذاتها تحت راياتٍ سوداء أو بيضاء أو خضراء أو مخطَّطَة، بينما يُقاسي الناسُ العاديون ويَموتون.

للمُفكِّر الإسباني ـ الأمريكي خورخي سانتيانا George Santayana قولٌ مأثور مَشهور: «الذين لا يَتَذَكَّرونَ الماضي مَحكومونَ بِتكرارِه». ولكن أحياناً تكون المشكلة في عَدَمِ نسيان التاريخ، أو على الأقل التوقف عند أقلِّ فصولِه تَنويراً. لا تتركَّز هذه المشكلة في بلادِ ما بين النَّهرَين فقط، بل توجَدُ أيضاً في إيرلندا الشمالية وكوسوفو. قد تكونُ الراياتُ برتقالية أو ربما تَحمِلُ صورةَ نُسورٍ بيضاء أو كتابَةً سوداء. وهناك اختيارٌ آخَر قد لا يكون صحياً كذلك، وهو إخفاءُ أوساخِ الماضي تحت السّجادة. يتَعلَّمُ طلابُ المدارس العربية عن اليرموك والقادسية، ولكن يومَي الجَمَل وصفِّين قد يواجَهان بنظراتٍ فارِغة. يُنشَر الإيمانُ المضِيء بينما تُدفَنُ الحقيقةُ المظلِمة.

في كثيرٍ من الأماكن، التُّراثُ جاذِبٌ للسَّائح، أما في الوطن العربي «فالتُّراثُ... هو مشكلةٌ اجتماعية ـ سياسية»[٢١٧] [غير حرفي] نادِراً ما

---

(٢١٦) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢١٥.

(٢١٧) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ٢٠٧.

تُدرَس بموضوعية أو بسُخرية ناقِدة، فكيف يمكنكَ أن تقومَ بتشريحِ جِسم عندما يكون حَيّاً؟ في بلادٍ مِثل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، حيثُ يُزعَمُ أنَّ التاريخَ قد مَضَى وانتَهى، يَستطيعُ المُتَحمِّسون أن يُعيدوهُ إلى الحياة بأمانٍ لفترةٍ ما؛ إذ تقوم جَماعات «إعادَةِ تمثيلِ التاريخ» أو «الفرسان الجُدد» أو «الاتِّحاديون الجُدد» أو «البَرلمانيون الجُدد» بتَجهيز أنفسها بأسلِحَة ومَلابِس تلك الفترات التاريخية، وتَمثيل مَعارِك حُروبٍ مَضَت. يَفعَلُ ذلك أيضاً بعضُ المُتَحمِّسين لمَعركَةِ صفّين، ولكن الدَّم حقيقيٌّ، والأسلِحَة حَديثَةٌ.

الفصل الثامن

مَملكة دمشق
حُكم الأمويين

جَمعُ الرؤوس

مع نهاية سنة ٦٩١، سافَرَ الخليفةُ الأموي الرابع عبد المَلِك من عاصِمتِهِ دمشق إلى مدينة الكوفة العراقية. كان مُصعَب بن الزّبير قد قُتِلَ هناك في معركة قريبة. كان مُصعَب زعيماً معارِضاً قديماً للأمويين، وأخاً للمدّعي بالخلافة المتنافس عبد الله بن الزّبير في مكة. وقَفَ عبد المَلِك في قاعةِ اجتماعٍ في قصر الحاكِم يتأمَّلُ رأسَ مُصعَب المَقطوع. وصَفَ الموقفَ أحَدُ مُرافِقيهِ الكوفيين فيما بَعد:

فرأى عبد الملك مني اضطراباً فسألَني فقلتُ: يا أمير المؤمنين، دخلتُ هذه الدار فرأيت رأسَ الحُسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع، ثم دخلتها فرأيتُ رأسَ ابن زياد بين يدي المُختار فيه، ثم دخلتها فرأيتُ رأسَ المُختار بين يدي مُصعَب بن الزّبير، وهذا رأسُ مُصعَب بين يديك، فوقاك الله يا أمير المؤمنين! قال: فوثب عبد الملك بن مروان وأمر بهدم الطاق الذي على المجلس[1].

تُلَخِّصُ الحكايةُ كثيراً من أحداث تاريخ الأمويين في مَقطَع واحِد، أو في أربع جُمَل. كان صاحِبُ أول رأسٍ هو الحُسين ابن الخليفة عليّ الذي توفيَ سنة ٦٨٠ أثناء محاوَلةٍ ضعيفة التخطيط لجَمعِ مؤيدين ضِدَّ الخلافة

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٣، ص ١١٧.

الأموية مَنَحَتْ «حزب» شِيعَةِ والِده عَلِيّ «الشيعة» شَهيدَهم الأعظم. انتَقَمَ المُختارُ للحُسين عندما واجَهَ عَدوَّهُ الوالي الأموي عبيد الله بن زياد، الذي لَقِيَ مَصرَعَهُ سنة ٦٨٦ في ثورةٍ قادَها المُختار، وهو من أوائل المُتطرِّفين الشيعة. ثم قُتِلَ المُختار في السَّنَة التي تَلَتْها عندما سَقَطَ جزءٌ كبير من العراق تحت حُكم عبد الله بن الزّبير، الذي أنشَأ خلافةً معارِضَة للأمويين في مكة. والآن في تشرين الأول/أكتوبر ٦٩١، سَقَطَ مُصعَب بن الزّبير، والي العراق وأخو عبد الله، وهو يُقاتِل على الرغم من عُروضٍ للمُصالَحة مع دمشق. كان كل ذلك بعيداً عمّا حَدَثَ قَبلَ ذلك بثلاثين سنة عندما بَرَزَ أخيراً الخليفةُ الأموي الأول معاوية من المعارك الدموية المضطربة على الخِلافَة بِصِفَتِه أكثر الحاصِلين على مُوافَقة سكان الدولة العربية. ومِنَ المُفارقة أنّ تلك السَّنة، ٦٦١، توصَفُ بأنها «عامُ الجَماعة»، أي سَنةُ الوحدَة[٢].

أنفُ العرب

كان «عامُ الجَماعة» مجرَّد تمنياتٍ منذ البداية، والذي دَلَّ عليه هو أنَّ أعيان مكة قَبلَ محمد قد نهَضوا من جديد ورَسَّخوا أنفسهم في معاوية ابن أبرَز زعماء مكة الوثَنية على الرغم من انتقالِهم إلى دمشق، وأن معظَم الناس قد رَضَخوا ببساطَةٍ للأمر الرَّاهن. قَبلَ ذلك بجِيلٍ واحِد، كان محمد قد قَلَبَ الطاولة. ورَجِعوا الآن من جديد. دَارَتْ ثورةُ الإسلام ٣٦٠ درجة، وكان العربُ سائرين إلى الأمام في الزمن نحو ماضيهم.

رسَّخَ معاوية إرثَ عائلتِه في السيطرة بتَعيينِ ابنه لِخلافَتِه. كانت فكرة ولايةِ العَهد مخالفة تماماً للأفكار السابِقة في الإسلام (حتى ذلك الوقت حَدَثَتْ أشكالٌ مختلفة من الانتخاب أو التَّعيين، إنما لم يَحدُث أبداً أن تَسَلَّمَ الحُكمَ فَردٌ من عائلة الخليفة السّابق). على كل حال، لم تَصدُر معارَضةُ التعيينِ عن المَبادئ الإسلامية التي كانت مُبهَمَة، بل عن تَصَوُّرِ النُّبلِ والشَّرف التقليدي القوي، واحتجَّ عبد الله بن الزّبير على معاوية قائلاً:

أتقدم ابنك على من هو خير منه؟ قال: كأنك تريد نفسك إن بيته بمكة

(٢) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 7, p. 265.

فوق بيتك. قال ابن الزبير: إنّ الله رفع بالإسلام بيوتاً فبيتي مما رفع. قال معاوية: صدقتَ، وبيت حاطب بن أبي بلتعة[٣].

رَدُّ معاوية الأخير ثلاثيّ القَصد، فقد كان حاطِب بن أبي بَلتَعَة من أصول عربية جنوبية، وبذلك فهو في موازين قريش ليس من أشرافِها، وإنه اعترَفَ بذلك بجَعلِ نفسِه مولى من موالي والِد عبد الله بن الزّبير، وكان مُعوَّلاً عليه. ولكن الإشارةَ المهمّة هي في اسمه الذي لا يُشير إلى رِفعَة أصلِه.

غيَّرتْ ثورةُ محمد نظرياً أساسَ المجتمع العربي وتَركيزَه من القبيلة إلى الدِّين، وتَغيّر مَعنى الدِّين مِن تَقديرِ الأجدادِ وآلهَةِ القبائل إلى عِبادَةِ إلهٍ واحِدٍ، وتَغيّرت السُّنةُ من تقليد أبطال القبيلة إلى تقليد نَبيّ الله. أطلقَت الثورةُ هجراتٍ جماعية وانتصارات عظيمة، وضَمَّتْ تحتَ جَناحَيها شعوبَ جنوب شبه الجزيرة العربية، وجَعلَت الفرس والمصريين أعضاء في أسرة الإسلام، وجَعلَتْ هؤلاء الأقوام متساوين مع العرب، وساوَتْ بين العرب. ولم تَستَند الأفضَلية والشَّرف إلا إلى التقوى، وليسَ إلى النَّسَب. ومع ذلك نَرى هنا عُضوَين من القبيلة الصغيرة ذاتِها يختَلِفان على أفضَليةِ مَن مِنهُما له أسرةٌ أكثر رِفعَةً وشرفاً. كان جَدَلاً مُماثِلاً لما دَارَ بين أجداد قريش مِن هاشم وأميّة قَبلَ الإسلام في أيام «الجاهلية»، وكان التنافس نفسه الذي حَفَّزَ على مَرِّ العصور إنشادَ قصائد فَخر وصِراعات دَم بين أبناءِ عُمومَة[٤]. ربما قَلَبَتْ ثورةُ الإسلام الأمورَ على رأسِها في الهوامش، ولكن الحركةَ في قَلبِ قريش كانت أقلَّ بكثير. لا تَختَلف عن خَيال الكاتب الهندي الأصل نيبول V.S. Naipaul في «العالَم الداخليّ الثّابت»، وهو الهند بالنسبة إليه، حيث الوجود الكليّ ذاته، بينما يَجيء المغول والبريطانيون والبوذيون والإمبرياليون ويَذهَبون[٥]. هناك أيضاً عوالِم داخلية في عوالِم داخلية، والعالَم الداخليّ

(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٣، ص ١٨٥.

(٤) قارن: ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥ من هذا الكتاب.

(٥) V.S. Naipaul, *An Area of Darkness* (London: Picador, 1995), p. 63. In Durkheim's terms, changing (Islamic) civilization 'articulates' essential (Arab) culture. Sami Zubaida, *Beyond Islam: A New Understanding of the Middle East* (London: Tauris and Co., 2011), p. 124.

الأكثر عُمقاً ربما يكون صغيراً جِداً، وقد يَطرَحُ أسئلةً عَمّا هو جَوهَرٌ وما هو فقاعَة عابِرة.

تَنبَّأ محمد بما قد يَحدُث لثَورتِه، ويُروى أنه قال: «الخِلافَةُ بَعدي ثلاثون سَنة، ثم تكون مُلكاً عَضوضاً»[٦]. ربما تكون مثل هذه الأحاديث متأثِّرةً طَبعاً بالمَشاعر المُناهِضَة للأمويين لَدى رُواةٍ متأخِّرين (ستَنطَلِقُ كتابةُ التاريخ العربي في عَهد العباسيين الذين شَهَّروا وشَيطَنوا أبناء عُمومَتِهم الأمويين وأسلافهم). ولكن لا يمكن إنكار أن معاوية قد أخَذَ العصبية التي صَنَعَها محمد، وأعادَ تَركيزَها على نفسِه، ليس كزعيمٍ لأمّة الضَّمِّ والمُساواة الدينية التي كانت النموذج الإسلامي، بل كمَلِكٍ عربي تقليدي قديم. وبالفِعل، كان الأمويون أول سلالة إسلامية، وربما يمكن تصورها بالمِثل على أنها آخِر السلالات العربية قَبلَ ـ الإسلامية. يَظهَر التَّداخُل في قصةٍ عن هند أم معاوية، العَجوز آكِلَة الكَبِد، التي اتَّهَمَها زوجها الأول بالزِّنا، وتمت تَبرِئتُها من جِهة كاهِن تابِع، وتَنبّأ بأنها سَتلِدُ مَلِكاً[٧]. ستَصدُقُ البِشارة، إلا أنها لم تَذكُر ظروفَ ذلك المُلك، ومسألةَ تَدخُّل الإسلام.

تابَعَ المَلكُ معاوية من حيث غادَرَت السلالة المَلَكية الغسَّانية (بينما كان جَبَلَة بن الأيهَم آخر ملوكِ الغَساسنة، الذي شَهدناه يَعتَنق الإسلام، ثم يَرتَدّ عنه، وذَهَبَ يَتودَّدُ إلى البيزنطيين. كان مِن نَسلِهِ الإمبراطور نَقفور الأول)[٨]. كان معظم رعايا معاوية في سورية مسيحيين يتَحدَّثون بالآرامية، وكان الغَسَّانيون قد حَكَموهم باسم سادَتِهم البيزنطيين. وإلى الشرق، كان السكان لم يَعتَنِقوا الإسلام بَعد ولم يَتعرَّبوا. سارَ معاوية وخلفاؤه على خُطَى مَذهَب محمد، فقد كان بالطبع وراءَ قوة المشروع الإمبراطوري كله، والذي منَحَ

(٦) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ١، ص ٢٢٥، و Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 281.

(٧) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨)، ص ٤٦٨.

(٨) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 300.

الأمويين الشرعيةَ على رأسِ هذا المشروع. ولكن المَنهج المَذهبي يمكن أن يكون مَرناً جِداً، وتَمتَّع كثيرٌ من الأمويين بمَباهِج غير إسلامية، مثل ابنة الكَرْم (الخَمر). يُقالُ إن الخليفة الوليد بن يزيد كان ذات مَرَّةٍ ثَمِلاً بالخَمر والغِناء حتى أصَرَّ على تقبيل جميع أعضاء المُغنِّي حتى عُضوه الذَّكري[٩]. غيرَ أن الوليد تَجاوَزَ حُدودَ الاستِقامة حين رُوِيَ أنه رَمَى نسخَةً من القرآن بالسِّهام، ونَعَتَ محمداً بأنه دَجّال[١٠]. ولم يُلَقَّبْ بِخَليع بني أمية من غيرِ سَبب، وكان الخَروفَ الأسوَد في سلالةٍ مُظلِمَة. يجب على المَرء عند تقييم الأمويين أن يأخُذَ بعين الاعتبار أنه قد تم تَشويهُ صورَتِهم فيما بَعد. ولكن لا شك بأن التقييم المُتوازن يُظهِر أن الجانب الدنيوي من حُكمِهم قد غَلَبَ الجانبَ الدّيني. كان للدِّين دَورٌ في ذلك الحُكم، ولكنه كان واجِباً أكثر مِن كَونِه مُتعَة. فمثلاً، كان مِن واجبات الخليفة إلقاء خطبة الجمعة، واشتَكى عبد المَلِك، الذي ذُكِر سابِقاً تأمُّلُهُ رأسَ الحُسَين المَقطوع، مِن أنَّ «عرض عقله» على الناس مَرَّةً كل أسبوع جَعَلَتْ شَعرَ رأسِه يَشيبُ مبكراً[١١]؛ ويَشعُرُ المَرءُ أنه كان صادِقاً في ذلك (إذا كان هنالك جانبٌ كان فيه الدِّين متعةً، بل شَغَفاً، فقد كان كما سنَرى في بِناء هياكل تُظهِر شَرعيةَ الأمويين الإسلامية).

كان معاوية أكثر راحَة في دَورِه العام من خلفائه، ولكنه كان دَورَ الزعيم العربي التقليدي وليس رأس دولة دينية. لا يستطيع المؤرخون الذين يَنظرون إلى الأمويين بارتياب أن يُنكِروا أن أول خليفة في سلالَتِهم كان حاكِماً عَمَلياً قَديراً. نامَ قليلاً، واستَمعَ دائماً إلى روايات مُثَقَّفة من تاريخ العرب القديم حتى أثناء الطعام، وأصغَى إلى شكايات رعيَّته، وتمتَّع بمَزيةٍ لا توجَد إلا لدى أكثر الزعماء نجاحاً، وهي الحِلم[١٢]، مَزيجٌ من الصَّبر والعَدل والحِكمة والرَّزانة والتَّوازن، مثل الـ *gravitas*، أي الوقار، عند الرومان. امتَزَجَ حُكمُ معاوية مع ماضي العرب قَبلَ الإسلام، واستَدعَى أيضاً ذكريات الحُكمِ البيزنطي في أيامِه الجميلة كما رَوى راهبٌ بيزنطيٌّ من بلاد ما بين النهرَين:

---

(٩) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.
(١٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(١١) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٦٠.
(١٢) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٩ ـ ٤١.

سادَ العَدل في أيامِه، وكان هنالك سلامٌ عظيم... سلامٌ عالَمي لم نَسمَع بمِثلِه لا مِن آبائنا ولا مِن أجدادِنا(١٣).

كتَبتْ باتريشيا كرون Patricia Crone أن الأمر الرئيسي الذي يُذكَر فيه الأمويون هو «انحرافُهم غير التَّقي عن تقاليد راسِخة»(١٤): تقاليد الإسلام. ومع ذلك فإن تلك «التقاليد الراسِخة» لم يكن عمرها أكثر من ثلاثة عقود عندما استَلَمَ معاويةُ الحُكم، بل كانت تتحَسَّسُ طريقَها، بينما كانت تقاليد المَلَكية العربية التي لم يَنحَرف عنها هو ولا خلفاؤه تَرجِع إلى ثلاثة قرون، إلى بدايات السلالة اللّخمية في الحِيرة، وكان معاوية جُزءٌ من استمرارٍ أقدَم. ربما كان معاوية أول مَلك مسلِم وخامِس خلفاء محمد، ولكنه كان «أنفَ العرب»(١٥) وأهمّ سِماتِهم وزَعيمهم، وقد سارَ التاريخ العربي في عَهدِه على مَسارٍ طبيعي قديم مثلما يَتبَعُ المَرءُ أنفَه.

التِّين والزَّيتون

فَعَلَ الأمويون ما فَعَلَهُ الغسّانيون، فوضَعوا رِجْلاً في عالَم البَدو، والأخرى في عالَم الحَضَر. أصبَحَت الجَابية، التي كانت عاصِمةَ خِيام الغسّانيين في هضبة الجولان، قاعِدةَ قوة للأمويين كذلك(١٦)، والقبائلَ العربية في البادِية السورية ذاتها التي حارَبَت مع الغَساسنة(١٧) قَبلَ الإسلام وحارَبتْ ضد المسلمين في معركة اليرموك، أصبَحَت العَمود الفقري لقوة الأمويين العسكرية. كما شَمَلتْ تَسليةُ الأمويين شَغَفَ البَدو في السَّبَق والصيد. ومِن بين الهياكل التي أنشَؤوها عددٌ من «مَنازل الصَّيد» بشكلِ قصورٍ لَهوٍ مصَغَّرَة مُجَهَّزة بحمامات ولَوحات جصّية (شَمَلَتْ شكلَ امرأةٍ عارية أحياناً) وضِعَتْ كأنما بفِعل الجن في نقاطٍ عبر البادية السورية الكبرى، وسبَقَهم بذلك الغسانيون(١٨)، إلا أن قَصراً أموياً مِثلَ قُصير عَمرَة يُظهِر مَدى

(١٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, p. 267.

(١٤) Patricia Crone, "The First-Century Concept of "Hiğra"," *Arabica*, vol. 41 (1994), p. 387.

(١٥) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٢١.

(١٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, p. 360.

(١٧) Ibid., vol. 7, p. 267.

(١٨) Ibid., vol. 2, p. 1021.

توسّع آفاقِهم الآن. بُنِيَ ذلك القُصير في أوائل القَرن الثامن في زمن الوليد بن عبد المَلك، وقد عُنونَتْ رسوماتُه بالعربية وباليونانية، وهي لا تُظهِر فقط الشخصيات الأسطورية في التاريخ والشِّعر والفلسفة والانتصارات، بل تُظهِر أيضاً أباطِرة البيزنطيين والأحباش، وشاه فارس الذي هُزِم منذ فترة طويلة، ومَلك القوط الغربيين رودريك، الذي هُزِم مؤخّراً في إسبانيا[١٩]. تُظهِرُ قُبَّةُ الحَمّام آفاقاً أوسَع، فقد رُسِمَتْ عليها قُبَّةُ السماء. قُصيرُ عَمرة هو واحَةٌ من صُنعِ الإنسان للولائِم والاستِحمام أثناء رحلات الصَّيد، إلا أنه كان كذلك نوعاً من كاميرا التصوير تَعكسُ منظراً شاملاً للإمبراطورية العربية في مَرحلَةِ توسّعِها، وتُظهِرُ كيف أصبَحَ العربُ الآن أعضاءً في نادي المُلوك الدولي تحت قُبَّةِ السماء، ومُشارِكين في الثقافات البائِدة والسَّائِدة.

كان وَزنُ الأمويين الرئيسي في الطَّرَف الحَضَري بدمشق حيث تَقبَعُ المدينة القديمة في حُضنِ الغوطة. يُقالُ إن محمداً قد وَصَل إلى أطراف المدينة في رحلةِ تجارة، إلا أنه رَجَعَ عن الدخول إلى جَنَّاتِها[٢٠]. أما الآن فقد هرعَ خلفاؤه للدخول حيث تَهَيَّبَ الرُّسُل من المَشي. بالمُقارنة مع مدينة محمد، كانت دمشق مثل لاس فيغاس، تقليداً دُنيَوياً للجَنّة. عبَّر عن ذلك النّعمان بن جَبَلَة أحَدُ قادَةِ معاوية ضِدَّ عليّ في معركة صفّين بتَلميحٍ إلى سورةٍ في القرآن:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٢١].

وقد أحسَّ أنه قد لا يَحظَى بالخلود في الجنّة بالوقوف إلى جانب الطَّرف الأكثر دُنيَوية، فقال النّعمانُ لمعاوية: «وسنُقاتِلُ عن تينِ الغوطة وزيتونِها إذ حُرِمنا أثمار الجَنة وأنهارِها»[٢٢].

(١٩) Hitti, *History of the Arabs*, p. 271.

(٢٠) Tim Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah* (London: John Murray, 2001), p. 166.

(٢١) **القرآن الكريم**، «سورة التين،» الآية ١ ـ ٦.

(٢٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٣٩٥.

كان عمرو بن العاص شخصيةً أخرى من الذين وَضَعوا أعينَهم على إغراءات الأمويين، وكان قد فَتَحَ مِصر ثم أُقصِيَ عن حُكمِها، وقال لمعاوية الذي حاوَلَ أن يُفاوضه على تأييده:

«لن أتَخلّى لكَ عن جوائزي السماوية إلا إذا أعطيتَني حِصَّةً من ثروتكَ الدنيوية». [غير حرفي]

طَلَبَ منه معاوية أن يكون أكثر تحديداً، فأجابَ عمرو: «اجعل لي مصر طُعمة»[٢٣]. فأعادَ تَنصيبَهُ حاكِماً على مصر.

أدركَ الولاة أن عليهم المحافَظة على تَدفُّق الأموال إلى دمشق، قال زياد حاكِمُ العراق للخليفة: «لقد أخضَعتُ لكَ العراق، وجَمعتُ خَراجَ أرضِها وبَحرِها، وجَلَبتُ لكَ جَوهَرها وكَنزها المُخبّأ»[٢٤] [غير حرفي]. كان على الكَنز أن يُغطّي تكاليف رفاهية البلاط التي كانت بعيدة عن الحياة البسيطة التي عاشَها محمد وأوائل خلفائه. يَروي خَبيرٌ في شِعر ما قَبل الإسلام، هو حَمّاد الراوية، أن الخليفة هشاماً استَدعاه مَرَّةً من العراق إلى دمشق، وأضاف حَمّاد:

فدخلتُ عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب. وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حمر من الخز وقد تضمّخ بالمِسك والعَنبر. فسلمتُ عليه فرَدَّ علي السلام، واستدناني فدنوت حتى قَبَّلتُ رجلهُ. فإذا جاريتان لم أر مثلهما قَطّ، في أُذن كل جارية حلقتان فيهما لؤلؤتان تتّقدان... قال: «أتدري فيمَ بعثتُ إليكَ؟»، قلتُ: «لا»، قال: «بعثتُ بسبب بَيتٍ خَطَرَ ببالي لا أعرف قائلَه». قلتُ: «وما هو؟» قال:

وَدَعوا بالصّبوح يوماً فجاءتْ   قينَةٌ في يَمينِها إبريقُ[٢٥]

---

(٢٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٣.

The word tu'mah, at least to later readers, has a nice extra meaning-as well as 'bait', it can also mean 'a percentage of taxes'.

Michael Lecker, "Kinda on the Eve of Islam and during the "Ridda"," *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 4, no. 3 (1994), p. 338.

(٢٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣٧٩.

(٢٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٤.

ومِن حُسنِ الحَظِّ أن حَمّاداً قد عَرفَ الشاعر وعَرفَ بقية القصيدة، خاصة أنّ نَزوَةَ الخليفة قد جاءَتْ به في رحلةٍ طَالَتْ أسبوعَين (ولو أنه لم يَعرف لاستَطاع أن يَرتَجِل)(*).

كان الأمويون رُعاةً لشُعراء معاصِرين لَهم على عادة مُلوكِ العرب القدماء، حازَ بعضُهم على تقديرٍ واضِح مثل الأخطَل، الشاعر السكّير المسيحي البدوي الذي كان شاعر بلاط عبد المَلِك(٢٦). انتَعَشَ الشِّعر التقليدي القوي، ولكن العَصرَ الأموي كان عَصرَ تحوّلٍ أيضاً. يَرمُزُ إلى هذا التّغير الشّاعر العُذريّ جميل الذي كان يستطيع أن يؤلِّفَ بَيتاً صدرُه كـ«أعرابي في شملة بالبادية»:

«ألا أيها الركب النيام ألا هبّوا»

وعجزُه «من مخنَّثي العقيق:

«أُسائِلُكُم هَل يَقتلُ الرَّجُلَ الحُبُّ؟»

لا يستطيع جميع الشعراء أن ينتَقِلوا بمِثل هذه السهولة من خُشونَةِ الخَيمة إلى نُعومَةِ العشق(٢٧)، ولكن الثقافة العربية بشكلٍ عام بدأتْ هَجرتَها من خُشونةِ البداوة إلى نُعومَةِ المدينة.

وَرِثَ الأمويون الشِّعر، ذلك التراث الثقافي العربي الكبير، كما وَرِثوا بالتّبني تقاليد عَريقة أخرى كان من أهمّها كما رأينا: التقاليد المِعمارية والتصويرية التي وضَعَها الخلفاء في قصورهم الصحراوية. وَصَلَ الاقتباس الفنيّ ذُروَتَه في الأبنِية الدينية الأموية التي كان أعظَمَها الجامعُ الأموي الكبير بدمشق. كان مَوقِعُهُ سابقاً مَعبدَ جوبيتر بدمشق، وقَبلَ ذلك كان مَعبداً للإله المَحَلي حَدَد، ثم أصبَحَ الكنيسة الرئيسية في المدينة. بَعدَ هزيمةِ البيزنطيين، اشتَرَكَ المُصَلُّون المسيحيون والمسلمون في المنطقة المقدَّسة مُدَّةَ سبعين

(*) [رُويتْ هذه القصة عن الخليفة يزيد، وعن الوليد أيضاً، والله أعلَم] (المترجم).

(٢٦) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. **al-Akhtal**.

(٢٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٢، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٤٥٩.

سنة. ولكن في سنة ٧٠٨ انتَقَلَ المسيحيون إلى كنيسةٍ جديدة قريبة، وبَدَأ الخليفةُ الوليد بن عبد المَلك سبع سنوات من البناء تُوِّجَتْ بتَزيين الجدران حول ساحة الجامع الواسعة بالفسيفساء التي صَنَعَها آلافٌ من الفنانين والحرفيين البيزنطيين. استُخدِمتْ ملايين القِطَع المتلألئة من الزجاج الملوّن المذهّب والأخضر والأرجواني وغيرها من الألوان، وحُوِّلَت الجدران إلى أحلام برَّاقَة من البيوت والقرى والجداول والرياض. بالنظر إلى قيود الإسلام على التصاوير، خاصة في أماكن العبادة، لم تُوجَد فيها صورٌ للبَشَر أو للحيوانات، غير أنها كانت غنيةً بالزرع والأشجار. كان في لوحاتِ الفسيفساء تِينٌ وزيتون في هذه المُحاكاة للجنّة في الأرض. أنشَأ الوليدُ مكاناً التَقَتْ فيه الدنيا بالآخرة.

تأثَّرَ وَفدٌ بيزنطيٌّ إلى دمشق بالجوانب الدنيوية بعد سنوات قليلة من اكتمال الجامع. وبمناسبة تولي الخليفة الجديد سنة ٧١٧ قِيلَ إن الخليفة الزاهد التّقي عمر بن عبد العزيز (الذي رأينا أنه أَلهَمَ التَّحولَ إلى الإسلام في جنوب آسيا وشمال أفريقيا)[٢٨] قد عَزَمَ على إزالةِ الفسيفساء، ومَنحِ الكميات الكبيرة من ذَهَبِها في صَدَقات. وَصَلَ الوَفدُ البيزنطي في الوقت المناسب لمشاهدة الجامع. أثّرتْ رَدَّةُ فِعلِهم على الخليفة عمر فغَيَّر رأيَهُ. نَظَرَ قائِدُهم فيما حَولَهُ، وشحبَ وَجهُهُ، وقال: «إنا كنا معاشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأيتُ ما بنوا علمتُ أن لهم مدّة لا بدّ أن يبلغوها»[٢٩]. لقد جاءَ القادِمون الجُدد لكي يَبقوا في الأرض. كما أن التعبير غير التصويري للأسلوب البيزنطي ربما أعجَبَ أذواق جيرانهم. لا يُعرَفُ فيما إذا كانت الفترة البيزنطية في تَحطِيم الأيقونات تَرجِعُ بأيّ جزء منها مباشرة إلى كَراهِيةِ الإسلام لتصوير الأجسام الحَيّة، ولكن في منتصف القَرن الثامن، عندما أزالَ الإمبراطور قسطنطينَ الخامس الأيقونات التي كانت تُصَوّر أجساماً بَشَرية في فسيفساء كنيسة بلاخرنا في القسطنطينية، استَبدَلَها بأشجار ومَناظر طبيعية ربما نُقِلَتْ مباشرةً من دمشق[٣٠].

---

(٢٨) انظر: ص ٣٠٠ من هذا الكتاب.

(٢٩) Yaqut quoted in: Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah*, p. 144.

(٣٠) Thomas Mathews, *Byzantium: From Antiquity to the Renaissance* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 1998), p. 58.

فسيفساء دمشق رائعٌ ويَدلُّ على علاقة الأمويين بالإسلام. سيَحتفلون بالإسلام عَلَناً بشكلٍ مبالَغ به لأنه أَوصَلهم إلى ما هُم عليه، غير أن تَعظيمَهُ كان شَكلياً مثل قِشرَةٍ لمّاعَة. عَبَّرَ عن ذلك مُعَلِّقٌ حَديثٌ عندما وَصَفَ الدولةَ الأموية بأنها تتألف من «قشرةٍ إسلامية وجَوهَرٍ ما قبل الإسلامي، وكلها مُحاطَةٌ بغِلافٍ بيزنطِيٍّ لمّاع»[٣١]. تمكَّن الخليفة عمر بن عبد العزيز، الاستِثناء القدّيسيّ في الأمويين، من رؤية القِيمة الحقيقية للعَقيدة وأنها الذَّهب الحقيقي الذي أضفَى اللَّمَعان على القِشرة الواسِعة، إلا أنه أدركَ هو أيضاً أن القُشورَ هي كل ما يهمّ الجمهور.

لم يستمر الخليفة القدّيس عمر بن عبد العزيز طويلاً. أَرسَلَ وَفداً إلى القسطنطينية، حيث كانت سُمعَةُ تَقواهُ مَعروفة جيداً، رَدّاً على زيارة الوَفد البيزنطي، وبينما كان الوَفد العربي موجوداً في العاصمة البيزنطية وَصَلَتْ أخبارٌ إلى الإمبراطور بأن الخليفة قد توفي. لم يَعرِف أعضاءُ الوَفد العربي ذلك. استَدعاهم الإمبراطور، واستقبلهم، «نَزَلَ عن سريره، ووضع التَّاجَ عن رأسِه، وقد تَغيَّرتْ صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة»، وبلّغهم الخَبَر. بَكى أعضاءُ الوَفد عندما سَمِعوا الخَبر. سألَ الإمبراطور:

«لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ولما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف... عجبتُ من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب. إنّ أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً»[٣٢].

استمرتْ خلافَة عمر أكثر من سَنتَين بقليل، ولم تُغيّر كثيراً مِنَ الطَّابَع الدنيوي للحُكم الأموي. لا يُعتَقد بأن المَديح كان تقريراً شفهياً حقيقياً، وربما كان هنالك نوعٌ من الاحترام الخاص المتبادَل بين الجارَين الإمبراطوريَين خلال حُكمِهِ القَصير. كما تَشهدُ تقاريرُ أخرى على صِفاتِ عمر الوَرِعَة، يَصِفُ أحَدُ الشّهود ملابِسَه وهو يَخطُب الجمعة: ثوبٌ وعِمامَة وقَميصٌ وسِروالٌ وقطعة قِماش على كتفيه وخُفّ، وقَدَّرَ أن قيمتها كلها لا

---

(٣١) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ١: **الأصول**، ص ٣١٧.

(٣٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٩٥.

تزيد على ١٢ دِرهماً[٣٣]، في تَبايُنٍ كبير مع حرير هشام الأحمر، أو مع الخليفة سليمان بن عبد المَلك الذي قد يَقضي الصَّباح وهو يفكّر في العِمامَة التي سَيلبِسها في الخطبة، وكان يُلبِسُ طَبَّاخيه كسوَةً فاخِرة ملوَّنة. بَعدَ نحو قرنَين، امتلكَ الخليفةُ العباسي هارون الرشيد مجموعةً من أثواب الخلفاء الأمويين، وكانت أكمامُ ثيابِ سليمان مازالت مُشبَعَةً بالدُّهن بسبب عادَته في البَحثِ داخل الكِباش المَشوية للوصول إلى كُلياتِها[٣٤].

يجب أن نكون حَذرين كالعادة من تَشويهِ السُّمعَة بأثرٍ رَجعيّ. ومن الخطر أيضاً اعتبارُ أن القدّيسَ عمر هو الخَروفُ الأبيض، والاستِثناءُ الذي يَكشِفُ أنّ بقيةَ الخلفاء الأمويين مُنحَرفون عن التقاليد الإسلامية. ومرة أخرى، لم تكن تلك التقاليد قد تَرسَّخَتْ بَعدُ. وُجِدَ القرآن كنَصٍّ أساسي رسمي، إلا أن هيكلاً دينياً قانونياً أخلاقياً شامِلاً كان في طَور التَّشكُّل بالاستِناد إليه. تم الحِرصُ على أركان الإسلام الخَمسة، الإيمان والصلاة والحجّ والصوم والزكاة، كما تمت المُحافَظَة الشفهية الدقيقة على مَعارِفِ الإسلام وأساطِيرِه، وكُتِبَ ذلك أحياناً، ولكن أحاديثَ محمد وأفعالَه وأعمالَ صحابَتِهِ لم تكن قد صُنِّفَتْ بَعدُ بأي ترتيب، ولم تُوضَع في نظام أخلاقي عام. ولِد أول الفقهاء مالِك بن أنَس أثناءَ بِناء الجامع الأمويّ الكبير، ولم يَبرُز إلا بعد سقوط السلالة الأموية. إضافة إلى أبنِيَتِهم الرفيعة المستوى التي ساعَدتْ على تَرسِيخِ وَضع العرب في الساحة العالَمية، كان الأمويون أكثر اهتماماً بما يمكن تَسمِيَتُه بالعَمارة الثقافية، أي بِناء هوية عربية تُناسِب دَورَها الجديد وظروفها المختلفة، من اهتمامِهم بالهياكل الأخلاقية التي قد تَضيعُ فيها تلك الهوية.

كما رأينا في الفَصل السابق، فقد أصبحَ العربُ سادَةَ شَريحَةٍ كبيرة من العالَم المتَحضّر من البرتغال إلى طاجيكستان، ومن عَدَن إلى أذربيجان. لم يحتاجوا فقط إلى مَذهَبِ الإسلام الموحّد، ولا حتى عامِل اللغة الفصحى الأقدَم الذي وَحَّدَ بينهم، بل احتاجوا أيضاً إلى قاعدة أساسية من أساطير مَتينَة قديمة يستطيعون بها أن يُثبِتوا وجودَهم بين الحضارات الأقدَم. كان

(٣٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٣٣٦.

(٣٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٣، والمسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

ذلك هو العَصر الذي صِيغَتْ فيه قصصٌ من الماضي السَّحيق قَبلَ الإسلام. سيُصغي معاوية إلى سَردياتِ أيام العرب البدوية، وإلى المؤرِّخين الشَّفهيين من الجنوب الحَضَري القديم مثل عُبيد بن شَريَة الجُرهُمي. سَرَدَتْ مَروياتُ عُبيد خَرابَ سَدِّ مأرب، والهجراتِ التي تَلَتْ ذلك، وضَمَّت الجنوبيين في تاريخ عربي أوسَع. تم تفصيلُ أساطير في عملية الضَّم هذه، ووُسِّعَت فتوحاتُ الجنوبيين أبعَدَ بكثير من حدودِها الحقيقية (التي كانت ضِمنَ وسَط وشَرق شبه الجزيرة العربية) حتى وصَلتْ إلى سَمَرقَند وحدود الصين. وهكذا عَكَسَت الإمبراطوريةُ المُتَخَيَّلَة القديمة إمبراطوريةَ الإسكندر الحقيقية، وتَنَبَّأتْ بفتوحات الإسلام. بَعدَ الاستِماع إلى رواية عُبيد الثَّريَّة المُزَركَشَة عن وصولِ الحِمْيَريين إلى كابُل وما وراءَها، قالَ معاوية: «فقد أورثنا الله ذلك من مُلكهم، فهو لنا اليوم»[٣٥].

قصة إسماعيل

لم يَرِث العرب إمبراطوريات غَيرِهم فقط، بل وَرِثوا أجدادَ الآخرين كذلك. كان قَدَرُ أحَدِهم أن يوحِّدَ العرب ويَجعَلَهم «عِرقاً»، لو أمكَن أن يُصبحَ أيُّ شخصٍ قَدَراً بأثَرٍ رَجعِيّ. وكما رأينا، فإن أول مَعنًى للعروبة ربما كان يَدُلُّ على «مَزيج من الناس»[٣٦]. يَعكسُ هذا المَفهوم الأمرَ الواقع؛ فمن ناحية النَّسَب، لا يُعتَبَرُ العربُ شَجَرةَ عائلَةٍ تنمو من جِذعٍ واحِد، بل انعكاسها على الماء، أو بشكلٍ أدقّ النهر نفسه الذي تُغذِّيهِ رَوافِدُ عديدة. كان البحثُ في العَصر الأموي عن مَنبَع النهر الأصلي، ووجَدوا ذلك في إسماعيل المَنفي المُتجوّل.

احتاجَ الرومان في العَصر الإمبراطوري الجديد إلى مَنبعٍ أصليٍّ أيضاً، إلى أبٍ مؤسِّسٍ، ووجَدوا ذلك في إينياس Aeneas المُهاجِر من طروادة. يؤسِّسُ هذا المَنفيّ سُلالةً جديدة، ويَربطُها بثقافةٍ أخرى سابقة تتميّز عنها وتوحِّدها في أرضٍ جديدة[٣٧]. وبالمِثل، احتاجَ العرب إلى قصص هجرة،

(٣٥) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في: وهب بن منبه اليماني، **كتاب التيجان وملوك حمير** (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف، العثمانية، ١٩٢٨)، ص ٤٨٤.
(٣٦) انظر: ص ٨٧ ـ ٨٨ من هذا الكتاب.
(٣٧) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ٩١.

وآباء مؤسّسين، وتَغيير ثقافة، وتَوحيد لتَسويغ تَنوّعهم التاريخي. ومثلما زَعَمَ أغسطس انحِدارَهُ من إينياس[٣٨]، انحَدَرَ أصلُ محمد من إسماعيل.

تَجمَّعتْ كلُّ عناصر الأسطورة أخيراً في العَصر الأموي، وهي تَروي كيف أنَّ العرب الشماليين انحَدَروا مِن إسماعيل بن إبراهيم مِن جارِيَتِه هاجَر التي جاءَتْ حسب التقاليد المَروية من قريةٍ في سيناء اسمها أمّ العرب[٣٩]. وقد رأينا كيف أن هاجَر وإسماعيل قد نُفيا في الرواية الإسلامية إلى مكة، حيث كادا يَموتَان من العطش لولا أن أنقذَتْهما معجزةُ ماءِ زَمزَم، كما رأينا كيف أن إسماعيل لم يتحدَّث العربية في الأصل بل تعلَّمها بلِسانِ عربٍ جنوبيين عاشوا في مكة[٤٠]، وكيف أنه تَزوَّجَ منهم. استُلهِمَت الرواية من المَظاهر الانطِباعية لإسماعيل في القرآن، وهي تَعكسُ أصولَ سِماتٍ عدّة من المَناظر الطبيعية في مكة. ولكن تم تطوير الرواية في العَهد الأموي بشكل كامل، ومَنَحَتْ أصلاً للعربِ أنفسِهم ولنبيِّهم الرئيسي أيضاً، الذي ثنى الناس عن التساؤلات حولَ أصول أجدادِه الأبعَدين[٤١]. وربما فُصِّلَتْ شجرةُ العائلة تماماً في زمن الحُكمِ القصير للخليفة عمر بن عبد العزيز[٤٢] ورَبَطَتْ مباشرةً جَدّاً قريباً لمحمد والقبائل الشمالية ـ وهو عدنان ـ بإسماعيل التوراتي/ القرآني.

هناك ثلاثُ روايات مختلفة على الأقل عن انتِساب عدنان إلى إسماعيل، مما يُقلِّلُ الثقةَ بها[٤٣]. ومع ذلك فإن قصةَ إسماعيل تؤدي دورها لأسباب كثيرة؛ فهي تَزرعُ محمداً ضِمنَ شجرةِ عائلةِ التوحيد، وتَضَعُ

---

(٣٨) Simon Hornblower and Antony Spawforth, eds., *The Oxford Classical Dictionary*, 3rd ed. (Oxford: Oxford University Press, 2003), s.v. Aeneas.

(٣٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٣٩، وشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ٧ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠)، كلمة أم العرب.

(٤٠) انظر: ص ١٩٢ ـ ١٩٣ من هذا الكتاب.

(٤١) انظر: ص ٢٠٢ من هذا الكتاب.

(٤٢) Jan Retsö, *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London: Routledge/Curzon, 2002), p. 33, and R.B. Serjeant, "Reviewed Work: La geste d'Ismaël d'après l'onomastique et la tradition arabes by René Dagorn," *The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, no. 2 (1982), p. 52.

(٤٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٢٧٣.

الجنوبيين في شجرةِ اللغة (تَتجنَّبُ بذلكَ مشكلةَ أنهم لم يتحدَّثوا باللغة العربية فِعلاً)، كما تُرجِعُ التَّحالفَ بين شعوب شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى آلاف السنين، وتَجعلُ إسماعيلَ نموذجاً للمُرتَحِل الذي يَستقر (وهذا مَثَلٌ مفيدٌ في عَصرٍ كان فيه البدو يتغيّرون إلى مُستعمِرين)، والأهمّ من ذلك كله أنها تغيِّر ثقافةَ الناس والتاريخ اليهودي والتوحيدي وتَجعَلها عربية. إذا أرادَ العربُ تَرسيخَ مكانَتِهم بين جماعة الملوك والثقافات الواسِعة التي صُوِّرَتْ في قَصرِ الوَليد الصَّحراوي، فإن إسماعيل هو الشخصية التاريخية الكاملة التي يَجبُ تَبنِّيها.

استُحضِرَ أجدادٌ آخرون من خَيالٍ أبعَد، فوضِعَ للجنوبيين جَدٌّ أكبر هو «يَعرُب». افتُرِضَ أن لِسانَهُ الأصلي كان سِريانياً مثلَ إسماعيل، إلا أنه تغيَّرَ بمُعجِزةٍ إلى لُغَةِ السماء بريح عظيمةٍ هَبَّتْ على بابِل[٤٤]، وهكذا طارَتْ إلى الفَناء جميعُ عائلة اللغات الجنوبية الحقيقية كالسَّبئية وأخواتها. كما اعتُبِر أن يَعرُب هو حَفيدُ الشخصية القرآنية هود، وهو نَبيٌّ عربيٌّ قديم أُرسِلَ لكي يُنذِرَ قَومَ عادٍ الأشرار بفَنائِهم القادم، وحَظِيَ الجنوبيون أنفسهم بحصَّتِهم من ميراثِ شَرَفِ النبوة[٤٥]. وأخيراً، لِحَبكِ الروايةِ جيداً، فإن سَلَفَ إسماعيلَ ويَعرُب قد أُرجِعوا في التاريخ لكي يَلتَقوا في سام بن نوح.

ليس كل ذلك تاريخاً، بل هو سِيَرٌ ذاتية مُستَلهَمَة ومُختَرَعَة، إلا أنها أصبَحتْ جزءاً من ذاكِرةِ العرب الجَماعية العَميقة. يَظهَرُ إسماعيلُ الآن في الضمير العربي العام كنَبيٍّ قرآني ثانوي. أما يَعرُب فلا يُذكَرُ إلا نادراً بشكلِ اختراعٍ مَشكوكٍ فيه جاءَ به عُلماءُ الأنساب الأوائل. ولكنّ كليهما يُجَسِّد القُوى التي خَلَقَتْ وجَمَعَتْ عالَماً عربياً متَّسِعاً. وسواء كانا أسطورةً أو خيالاً فهُما مُهمَّان في قصة الوحدَة العربية كشخصياتٍ تاريخية قوية مثل محمد، أو في العَصر الحديث مثل عبد الناصر رئيس مصر. رَكَّزَ مُعلِّقٌ مُعاصِر على أهمية أسطورة إسماعيل قائلاً إنها «صَنعتْ هويةً "عِرقية" موحّدَة للعرب لم توجَد مِن قَبل»[٤٦]. أو بشكلٍ أدَقّ، مَنَحَتْ أساساً بيولوجياً أسطورياً لهوية

(٤٤) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٤٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 448.

(٤٦) Michael C.A. Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language* (Oxford: Oxford University Press, 2010), p. 22.

عِرقية كانت قد بَدأتْ في التشكُّل قَبلَ ذلك بكثيرٍ في الألف الأولى قَبلَ الميلاد. ما حدَثَ كان مثل دَمجٍ تقليدي لغرباء في قبيلةٍ من المُفتَرَض أنها اجتَمَعَتْ على قَرابة الدَّم. ولكنّ على نطاقٍ واسِع، كان مِثلَ قولِنا إنَّ عَبداً مُستَرَقّاً مِن أصلٍ فارسي يمكن أن يَنتَمي إلى قبيلةٍ عربية أولاً بتَبنّي لغتها وعاداتها، وكذلك تستطيع شعوبٌ كاملة غير عربية، الحِميَريون والسَّبئيون المستقرّون وغيرهم من شعوب الجنوب في هذه الحالة. كانوا قد أصبَحوا عرباً في اللغة والثقافة في عمليةٍ بَدأتْ قَبلَ الإسلام بقرون. وحَصَلوا الآن على التَّصريح النهائي وعلى مكانٍ بين القبائل، ولكن كجُزء من هذه العَملية تم إلغاء اللغات التاريخية والتّنوع لتلك الشعوب، وأصبَحوا «قَبَليين»، وأُدمِجوا في نظامٍ استَندتْ فيه الوحدَة السياسية إلى الاشتراك في الجُدود البَشَريين، وليسَ فقط إلى الاشتِراك بآلهَة. بطريقةٍ ما، كان ذلك انتصاراً للقبيلة على الشَّعب، كما كان إنكاراً للفكرة الأساسية في ثورة محمد وهي الوحدَة في التَّنوع، أو على الأقل في الثُّنائية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾(٤٧).

تعارَضتْ ضرورةُ الوحدة العربية للسيطرة على دُنيا الإمبراطورية العربية مع رؤية محمد للقبيلة العُظمى والوحدَة العالمية في الإسلام. ولكن الوحدَة كان مَحكوماً عليها بالفَشل على كل حال. تَباعدَتْ أغصانُ شجرةِ العائلة وتَنافَستْ على ضَوء الشمس. وبالمِثل، ربما تؤدي جميع الطرق إلى مكة وإلى توحيد الله، ولكن عندما ينتَهي الحجّ يَسلكُ الحجّاج طُرُقَهم المُتشَعِّبة، وتَقلِبُ حقائقُ الأرضِ مثالياتِ السماء.

في أواخر العَصر الأموي، أصبحَ جميع سكان شبه الجزيرة عَرَباً على الأقل، وكانوا يحتاجون إلى ذلك؛ فعَلى الرغم من المُساواة المُفتَرَضة في الإسلام، كان العرب عملياً هم العِرق المُسَيطِر على إمبراطوريةٍ متضَخّمة، ولن يَتوفَّر ما يكفي من السادَة من دون الجنوبيين، وكان الخليفةُ عمر بن الخطاب كما رأينا واعياً بشكلٍ مؤلمٍ لهذا النَّقص(٤٨). قال أحَد الشعراء عن الجنوبيين:

---

(٤٧) القرآن الكريم، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

(٤٨) انظر: ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢ من هذا الكتاب.

لولا صوارم يَعرُب ورماحها   لم تسمع الآذانُ صوت مكبّر[٤٩]

ربما لم يكن يُبالغ كثيراً، لأن أبناءَ يَعرُبَ الجنوبيين القدماء كانوا الدَّعمَ الحيوي الذي ربما فَشِلَ المَشروع الإمبراطوري من دونِه.

أقلامٌ حَيوية

تَعرَّبَ سكان شبه الجزيرة أنفسهم هويةً ولغةً بفَضل التَّفصيلِ الدقيق للأسطورة في ظِلِّ حُكم الأمويين. كما حَدَثَ ذلك لأمرٍ آخَر ستكون له نتائج بعيدة المَدى كذلك.

تابَعَ الأمويون من حيث كانت سلالة الغَساسنة قَبلَ الإسلام، إنما كان هنالك فارقٌ كبير، فعَلى العَكس من الغَساسنة، أو من اللّخميين في فَلَكِ الفرس القديم، لم يكن الأمويون مجرَّد مُلوكٍ تابِعين، بل كانوا مُسيطِرين. اتَّبَعوا في البداية أساليبَ إمبراطورية من النظامَين الفارسي والبيزنطي، وكانت إدارتهم تُطَبَّقُ باليونانية وبالفارسية القديمة (البَهلَوية) في المناطق التي كانت ساسانية، واستَخدَموا النقودَ البيزنطية والفارسية. ولكنهم لم يكونوا راضين بالبَقاء إلى الأبَد في الأطلال الإدارية لمن سَبقوهم. كانت لديهم رؤيةٌ ورِسالة، وإذا لم تكن رسالةً إسلامية، فقد كانت عربية.

في سنة ٧٠٠ كان الخليفة عبد المَلك قد احتفَظَ برأسِه على كَتِفَيه على الرغم من لَعنةِ قَطعِ الرؤوسِ في الكوفة[٥٠]، وكان يُديرُ الإمبراطورية بثقة وقوة، واتَّخَذَ قراراً كانت له نتائج بعيدة المَدى، إذ أَمَرَ بِسَكِّ نقودٍ حَمَلَتْ نقوشاً عربية، والأهمّ من ذلك هو أنه أصدَرَ مَرسوماً بأن الإمبراطورية لن تُدارَ باللغات المَحَلية، بل باللغة العربية. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، على رقعةٍ شَمَلَتْ قارَّتَين، إذا أردتَ التقدّم والنجاح في مسار العيش فيجبُ عليكَ أن تَبذُلَ جُهدَكَ في تَعلُّمِ ذلك اللسان الصَّعب الذي يُثيرُ الحنق، ولكنها لغةٌ مُجزِيَة بلا حدود.

---

(٤٩) ورد في: محمد بن علي الأكوع، **اليمن الخضراء مهد الحضارة**، ط ٢ مزيدة ومنقحة (صنعاء: مكتبة الجيل الجديدة، ١٩٨٢)، ص ١٠٣.

(٥٠) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ١٩٢.

تفسّر إحدى الروايات التي تبدو مثيرةً للشك إلا أنها صَعبةَ التَّلفيقِ، أنّ ذلك التَّغير في اللغة الإدارية كان بسبب «أنّ رجلاً من كتّاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماءً فبال في الدواة فبلغ ذلك عبد الملك فأدّبه وأمر . . . بنقل الديوان [إلى العربية]»(٥١).

ربما أنّ كُتّاب اللغة العربية أقلّ مَيلاً للتّبول في المَحابر من كتّاب اليونانية هي نقطَة خِلافية، كما أنه يَصعُبُ التَّبولُ في مِحبَرة! إلا أنّ القصة يجب ألا تُهمَل بسبب عدم مَنطِقيّتِها أو سَخافَتِها لأنَّ نظريةَ الفَوضى تَنطَبق على التاريخ مثلما تَنطَبق على علومٍ أخرى (ربما كان بورخيس مُحِقّاً بقولِه: «لا يوجَد حَدَثٌ مهما كان تافِهاً لا يَعني تاريخَ العالَم بتَسلسُلِه اللانهائي من الأسباب والنتائج»)(٥٢). مما لا شك فيه هو نتائجُ قَرارِ عبد المَلك، ويكتُب ابن خلدون ببعض الصّواب ولو كان يُبَسِّط ويَضغَط ويُعَمِّم تأثيراً تمّ على فَترةٍ أطوَل بكثير أنه «منذ تلك اللحظة، تَحوَّلَ الناسُ من حياةِ الصحراء البَسيطة إلى ترَفِ الحضارة، ومن بَساطَة الأمّيّة إلى رُقيّ القراءة والكتابة»(٥٣) [غير حرفي]. وكما وَصَفَ مُعلِّقٌ أكثر حَداثَة أنَّ قَرار الخليفة «لَجَمَ وأغنَى لُغةَ الشِّعر والخَطابة والأمثال، وغَيَّرَها إلى لُغةِ حَضارَةٍ وعِلم»(٥٤) [غير حرفي].

لم يَستَفِد الجميع، فعندَما أخبَرَ عبد المَلك رئيسَ كُتَّابِهِ سرجون عن القرار:

غمّه وخرج من عنده كئيباً فلقيه قوم من كتّاب الروم فقال: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم(٥٥).

تأقلَمَ آخرون بشكلٍ أفضَل، واندَمَجوا في النظام الجديد. كان هنالك

---

(٥١) المصدر نفسه، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٥٢) Jorge Luis Borges, *"The Zahir", Labyrinths* (London: Penguin, 1970), pp. 196-197, and English version by Alberto Manguel, *A Reader on Reading* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2011), p. 56.

(٥٣) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 199.

(٥٤) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ٦٨.

(٥٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ١٩٣.

Sergius was the father of the future saint, John of Damascus; Sergius's own father had been in charge of taxes under the Byzantines.

سكانٌ في الهلال الخصيب الشمالي الذي ضَمَّ لغات وثقافات، وكانوا يُحسِنون لغاتٍ متعدِّدَة مثل الشابّ حسان التّنوخي، وهو عربيٌّ مسيحي كان يُحسِنُ قراءةَ وكتابة الفارسية والسريانية والعربية، ويستطيعُ أن يَخدِمَ الدولةَ ككاتب ومُتَرجِم(٥٦). كان على المَرء أن يتأقلَم أو يَخسَر.

جاء التَّغير بسرعة؛ فالكتابة العربية القديمة الأكثر استقامةً وتَزَوِّياً، والتي سُمِّيَتْ فيما بَعد بالخَطّ الكوفيّ، كانت تُشبه النَّبَطية(٥٧)، والآن وَلَّدَت الحاجَةُ المَاسَّة لمَزيدٍ من الكتابة ولسُرعَةٍ كبرى في النَّسخ، شَكلاً جديداً أكثرَ استِدارة(٥٨) من الخَطّ السَّلِس المُتَّصِل الذي يُشبِهُ مَعظَم الخطوط المَكتوبة باليَد هذه الأيام، «يمكنُ كتابتُهُ بسرعةٍ تستحيل مجاراتها في الخُطوط الأخرى»(٥٩) [غير حرفي]، كما قالَ الفيلسوف الكِندي عن الأسلوب الجديد الحَيوي. كما بَدأتْ علاماتُ التَشكِيل والتَّنقيط تَظهَر لِجَعلِ القِراءة أسهَل وأسرَع، وكانت قد أُخِذَتْ من السريانية، وظَهرتْ في العربية على الأقل منذ سنة ٦٤٣ كما أُرِّخَتْ في وَرَقَة بردي(٦٠).

كما سنَرى، فإن تَعريبَ الإدارة سيكون له نتائج أخرى أيضاً، إذ ظَهرَتْ فجاةً ضرورة أن يتعلَّم عددٌ كبيرٌ من الناس تعقيدات لُغَةٍ صَعبة جِداً، وبدأ التحليل الدقيق لتلك اللغة. كانت أولى العلوم العربية الرسمية هي علوم القواعد والنحو واللغويات(٦١)، وشكَّلَت «المَنهَج العلمي» العربي، وهو طريقةٌ شاملة لبَحثٍ وفَهم أنظِمةٍ معقَّدة. قارِنْ ذلكَ ببدايات المَنهَج العِلمي الكلاسيكي بالمُلاحَظة والتَّخمين عن «طبيعة الأشياء» منذ أيام

---

(٥٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٨٧.

(٥٧) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ١١١.

(٥٨) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 57.

(٥٩) الكردي، المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٦٠) Alan Jones, "The Word Made Visible: Arabic Script and the Committing of the Qur'an to Writing," in: Chase F. Robinson, eds., *Texts, Documents and Artefacts* (Leiden: Brill, 2003), p. 15, and Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language*, p. 1.

(٦١) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٧٦.

أناكسيماندر Anaximander[٦٢]. ووضِعَتْ أُسُسُ التشَعُّب في وجهَتَي نَظَر لرؤية العالَم: الأولى نظرية تَعتَمِدُ على سُلطة الكلمات والنصوص، والثانية تجريبية تَعتَمِدُ «نَفيَ الكلمات» كما هو في شِعار الجمعية المَلَكية الذي يَعني «عَدَمَ الأَخذِ بكَلِمَةِ أيٍّ كان».

أما بالنسبة إلى النقود، فقد أصدَرَ عبد المَلك عُملَةً جديدة عربية غير تصويرية تَحمِلُ جُمَلاً دينيةً تَقيَّة بَدَلاً عن النقود البيزنطية التي كانت تُستخدَم قَبلَ ذلك. يقول ابن خلدون إنَّ قرارَه كان «بسبب أنّ الكلمات البَليغَة وحدَها كانت مُناسِبَة للعرب أكثر من الصور»[٦٣] [غير حرفي]، وكأنما الحديثُ عن القيمةِ النِّسبية للكلمات والصُّور مَقلوبٌ بالنسبة إلى العرب. وبالطَّبع، غَطَّتْ صورٌ مُناسِبَة جُدرانَ القُصور والمَساجد الأموية، ولكن قِيلَ إنَّ إصدارَ البيزنطيين سنة ٦٩٥ لعُملَةٍ ذهبية تَحمِلُ صورةَ المسيح قد اصطَدَمَتْ بوضوحٍ مع مَنعِ الإسلام تصويرَ الأنبياء. يفسِّرُ البلاذري الإصدارَ الجديد بقصةٍ أخرى مَشكوكٍ بها إنما مَعقولة إلى حدٍّ ما، وهي بأنَّ النهايات المَرئية للَفائف ورق البَرديّ التي تم تَصديرها من مِصر إلى القسطنطينية كمادَّةٍ للكتابة قَبلَ الغَزو العربي كانت تَحمِلُ دائماً صلباناً ورموزاً وكلمات مسيحية أخرى، ولكن الحكّام العرب الجُدد في مصر أَمَروا بتَغيير ذلك إلى رسالات إسلامية مثل الآية القرآنية التي تَرفُضُ عقيدة التثليث: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٦٤].

ردّاً على ذلك، هدَّدَ البيزنطيون بوضعِ مَقولاتٍ معُاديةٍ لمحمد على الدَّنانير التي كانوا يُرسِلونَها إلى دمشق، ومنَ هنا جاء قَرارُ عبد المَلك بسَكِّ عُملَتِه[٦٥].

لغةٌ مقدَّسة، لغةٌ مُشتَرَكة

كان تَعريبُ عبد المَلك للدواوين والنقود مهمّاً في تأسيس ثقافة عربية دائمة مثلما كانت أهمية القرآن، فكانت الكتابةُ الفَصلَ الثاني في ثورةٍ

(٦٢) Hornblower and Spawforth, eds., *The Oxford Classical Dictionary*, s.v. Anaximander.

(٦٣) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 217.

(٦٤) **القرآن الكريم**، «سورة الإخلاص،» الآية ١.

(٦٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

مَكتوبَة. كان القرآنُ هو الفَصلُ الأول، وكان الكتاب الأول والوحيد في بداية القَرن الثامن، ومن المؤكَّد أنه مازال كذلك. أما الآن فإن الكتابة التي أُسِّسَتْ على الكتابة العربية المُتداوَلة الوحيدة، وهي لغةُ القرآن الفُصحى، ستَنتَشِرُ مع رَفع الشَّريطِ الأحمر (سيكون الفَصلُ الثالث هو ثورةُ الوَرَق التي بَدأتْ بَعدَ ذلكَ في القرن الثامن عندما استُبدِلَت أوراق البَردي الغالية بمادَّة الكتابة الأرخَص بكثير التي جاءَتْ أصلاً من الصين). لولا قَرارُ عبد المَلك، لظَلَّ القرآنُ نَصّاً محفوظاً مقدَّساً لربما انفَصَلَ تدريجياً عن الحياة العامّة في المجتمع الذي ساعَدَ على تأسيسِه، ولربما عانَتْ لغةُ القرآن والشِّعر العالية انحِداراً طويلاً محتَّماً لتُصبحَ لُغةً مَيتةً مثلما حَدَثَ للّغة اللاتينية، أو شَبَحاً جميلاً مِثل السنسكريتية المُخصَّصة لاستِخدامِ طَبَقةِ الكهّان. وبالفِعل، من دون ذلك التَّعريب المُفاجِئ والمُركَّز، فلربما لن يتكَوَّن العالَمُ العربي المُعاصِر، أو عالَمُ العربية The Arabic World في الحقيقة، عالَمٌ تُعَرِّفُه الكلمات. الإمبراطورياتُ التي تُصِرُّ على الإدارة بِلُغَةِ السَّادَة الإمبراطوريين قد تَعيشُ طويلاً مِثل الصينية، أو قد تتمتَّعُ بحياةٍ صحية أخرى مثل البريطانية. أما الإمبراطورياتُ التي تَستَسهِلُ التعامل بلغات الشعوب الخاضِعة لها فإنها تَميلُ إلى التَّفكك والزَّوال مِثل إمبراطورية المَغول.

استمرارُ عالَم العربية، الكلمة العربية، مُدهِشٌ. لم تتمتَّع أية جماعة مُشابِهة كالسكوثيين والترك والمَغول بمِثل ذلك الرابط الاجتماعي - اللغوي القوي الدائم. زالَ إغريقُ العالَم الهيلينستي ولاتينُ العالَم الروماني مع مرور الزمن. كما أن اللغة الإنكليزية القياسية التي كانت في الإمبراطورية البريطانية في طريقِها إلى الذَّوبان الآن. وإنَّ السكان الحاليين في كينغستون عاصمة جامايكا ربما ليس بينهم أمورٌ كثيرة مشترَكة لغوية ولا غيرها مع رجال قبائل الأنكلوساكسون من القَرن السابع. وبالمُقارنة، وعلى الرغم من التَّشابُه في البُعد الزمني والمَكاني، فإن شَخصاً متعلِّماً أسوَدَ البَشرة من كِناوَة المَغربية في طَنجة يَستطيعُ التَّخاطُبَ مع مَكِّيٍّ من القَرن السابع. فالروابط اللغوية أقوى من الروابِط الوراثية، وأقوى من الدَّم. ولهذا يجب أن نَشكُرَ الإسلام، الذي ليس له مثل يوم العَنْصَرة عند المسيحيين، الذي نزل فيه وحي بألسِنةٍ كثيرة[٦٦].

(٦٦) حول هذه العبارة أشكر بدوري الأستاذ كمال عبد الملك.

ويجب أن نَشكُرَ الأمصار، والمُدُن الاستعمارية الجديدة التي كانت بُؤراً لُغويةً ساخِنة. وربما يجب أن نَشكُرَ أيضاً ذلك الكاتب البيزنطيّ الذي لا اسمَ لَه الذي نَقصَ الحِبرُ عنده.

أصبحَت اللغةُ العربية المقدَّسة اللغةَ المُشترَكة أيضاً في منطقةٍ دائمة التَّوسُّع، إلا أن الثقافات المستَمرة والمنتَشرة قد تَدفَع ثَمنَ ذلك، فكما سنَرى بتفاصيل أكبر فيما بَعد، فإن المَهزوم يَميلُ إلى الاستيلاء على لُغَةِ المُنتَصِرين، ويَتَسلّلُ بين صفوفهم، ويَتغلَّبُ عليهم في النهاية. أحَدُ الأمثلة البارزة على مثل هؤلاء المُتَسلّلين هو حَمّاد الرَّاوية، وهو مِن منطقة الدَيلَم جنوب بَحر قَزوين، وقد رأيناه سابِقاً وهو يُساعِد الخليفةَ هشاماً على تَذَكُّر بَيتٍ شِعري قديم. كان مُحَرِّكَ بَحثٍ بَشَريّ فيما يَتعلَّقُ بالشِّعر العربي القديم وأيام المعارك في شبه جزيرة العرب. يُقالُ إنَّ حَمّاداً كان يَستطيعُ سَردَ ٢٩٠٠ قصيدةٍ جاهلية، مئة قصيدة لكلّ رَويٍّ، أي لكلِّ حَرفٍ مِن الحروف الأبجدية[٦٧]. من المَشكوكِ فيه أنَّ هذا العَدد الكبير من القصائد الأصلية قد بَقِيَ فِعلاً، ولكن الأكثرَ أهمية هو أن رُواةَ الشِّعر العرب التقليديين كانوا يَحفَظون فقط قَصائِدَ قَبائِلِهم، أما حَمّاد وآخرون مِن غَير العرب، فقد حَفظُوا قَصائِدَ كل القبائل. ومِن الطريف أنه بهذا العمل طَوَّرَ غير العرب فكرةَ العروبة كثقافةٍ شامِلة[٦٨]، مثلما حَدَثَ في سنوات التَّكوين قَبل الإسلام عندما صَاغَ الجيرانُ الإمبراطوريون من غَير العرب تَصَوُّرَ العرب عن أنفسِهم، كان الآخَر يُكَوِّنُ الذات (ربما لم تكن الحالَة تَناقُضاً، إذ يُمكنُ القَول إنَّ وجودَ الآخرين بالضَّبط هو ما يَمنَحُنا الشعورَ بذاتِنا كأفراد وشعوب).

كان الذين يُغَيِّرون ثقافتَهم يُحدِّدونَ الثقافةَ التي انضَمّوا إليها، إلا أنهم كانوا يَبدؤون بالإضافَةِ إليها. لم يصبح غير العرب هؤلاء رُواةَ شِعرٍ وحسب، بل أصبَحوا أيضاً شعراء. حتى رَقيقٌ مِن بلاد السِّند اسمُه أبو عَطا استَطاعَ تَعلُّمَ السِّحرِ القديم وأصبَحَ شاعراً تحت رعاية خلفاء بني أمية المتأخرين[٦٩].

---

(٦٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٩٣.

(٦٨) Rina Drory, "The Abbasid Construction of the Jahiliyya: Cultural Authority in the Making," *Studia Islamica*, vol. 83 (1996), p. 42.

(٦٩) Clément Huart, *A History of Arabic Literature* (London: William Heinemann, 1903), p. 57.

ربما كان لَفظُهُ مُرَوِّعاً إذا لم ينتَبه، ولكن اللغة العربية، حتى إذا لم تُلفَظ جيداً، تُعَوِّضُ عن غياب النَّسَب العربي، مثلما قالَ الشاعر العَبد الأسوَد نُصَيب بن رَباح:

مَن كان تَرفَعُهُ مَنابِتُ أصلِهِ   فَبيوت أشعاري جعلنَ مَنابِتي(٧٠)

لم يكن سكّان الجنوب القدماء وحدَهم في تغيير ثقافتهم تحت تأثير اللغة العربية، لأن الفتوحات كانت تَسير بالعَكس، وكانت الإمبراطورية الثقافية العربية كلها تحت احتلالِ الغرباء. ولم يُساعِد العرب كما سنَرى أن صفوفَهم لم تَكُنْ مُلتَحِمَةً أبَداً، فَعلَى الرغم من خِطاب الإسلام التوحيدي وجُهودِ تَصنيعِ مُستَعرِبين بكل تَنوعِهم لِجَعلِهم عَرَباً، إلا أنّ المَيل الانقسامي القديم كان يَعودُ للفَعالية والتأثير.

انقسامُ الشمال والجنوب

يَسهلُ دوماً تَصور الأمور في ثُنائياتٍ مُتعارِضَة، وكان عرب الشمال وسكان جنوب شبه الجزيرة العربية مفيداً حتى الآن، إلا أنه تَبسيطٌ لأمورٍ أعقَد بكَثير؛ إذ لا يوجَد أصلٌ لذلك من ناحية الأنساب. وكما رأينا سابقاً، تَطوَّرتْ نظريةٌ لجَماعَتَين كبيرتَين: أولئك المُنَحدرون من صُلبِ إسماعيل (يُسَمَّونَ عادَةً العَدنانيين أو النِّزاريين نسبةً إلى أجدادٍ قدماء في شجرةِ العائلة التي ربما تُجَسِّدُ قبائلَ حقيقية)، وأبناءُ يَعرُب (يُسَمَّون عادَةً القَحطَانيين للسَّببِ ذاتِه). إلا أن ذلك تبرير لفَهم حقائق أكثر تعقيداً، وفي العَصر الإسلامي كانت محاولَةُ تَصنيفِ العربَ كعَدنانيين «شماليين» أو قَحطانيين «جنوبيين» غير مفيدة، مِثل محاوَلة تَصنيف سكان المملكة المتحدة في القَرن الحادي والعشرين إلى كِليتين Celts وأنغلوساكسون. كان هنالك طبعاً انقسامٌ لغوي، إلا أنه اختَفى مع انتِصار اللغة العربية ببطءٍ وثَبات على اللغات الجنوبية. ولم يكن هنالك أساسٌ جغرافي حقيقي لهذا التقسيم، فقد وُجِدَتْ جماعاتٌ جنوبية مثل الغَساسِنة في شمال شبه القارة العربية، كما تَسرَّبَ عربٌ شماليون واستقروا في الجنوب. ويبدو أنهم جميعاً على كل حال قد

---

(٧٠) Bernard Lewis, "The Crows of the Arabs," *Critical Inquiry*, vol. 12 (1985), p. 95 (translation slightly modified).

جاؤوا في الأصل من الهلال الخَصيب الشمالي قَبلَ فترةٍ وَجيزة مِن بدء التاريخ العربي المُسَجَّل، أي منذ نهاية الألف الثانية قَبلَ الميلاد.

اتَّضَحَ الانقسام الشمالي الجنوبي أكثر ما يُمكِن في الطريقة التي أثَّرتْ فيها طبيعةُ سَطح الأرض والمناخ على المجتمع منذ البداية مُنتِجَةً واقِعَ البَدو والحَضَر من أهل القبائل والشعوب[٧١]. ظَهَرَ هذا الانقسام الاجتماعي في عَصر الإسلام، وسَألَ شماليٌّ جنوبياً في خلافٍ بمدينة بغداد في القَرن الثامن:

«ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد، أو ناسج برد، أو سائس قرد، أو راكب عرد، أغرقتكم فأرة، ودلّ عليكم هدهد»[٧٢].

الجِرذُ هو الذي يُفتَرَضُ أنه قَرَضَ سَدَّ مأرب، والمرأة هي مَلكة سَبأ التي ذَكَرَها هُدهُد لسليمان في القرآن، والقرود توجَدُ بكثرة في جبال الجنوب، أما «الأفراس الصغيرة» فهي الأحصِنة القوية التي تُناسِب السَّفر في الجبال أكثر من الأحصِنة المُدَجَّنة في سهوب العربية، أما بالنسبة إلى الدِّباغة والنَّسيج فهُما الحرفتان المُترفَتان اللتان اشتُهر بهما الجنوب، وكانتا من علاماتِ مجتمع المُستَهلِكين والمُصَدِّرين المُستَقِر. أما الجنوبيون، فقد اعتَبروا عربَ القبائل الشماليين «كِمالاً» ـ أي جِمالاً بالنطق «الحميري» الذي لم يزل جارياً في جنوب اليمن ـ تَخورُ ممن يُحاوِلون دائماً إصدارَ الأوامر: «إنا لا نطيق أفواه الكِمال ـ يريد الجِمال ـ عليهم المقال وعلينا الفعال»[٧٣]. احتَقَرَت التجارةُ الإغارةَ، والعَكسُ صحيح.

يبدو أن الجِدال القديم بين البدو والحَضَر لم يتجاوَز تبادُلَ الإهانات. من المُدهِش أن محمداً استطاع جَمعَ الشمال والجنوب، وأظهَرَ من الناحية

---

(٧١) قارن: ص ٦٧ ـ ٦٩ من هذا الكتاب.

(٧٢) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٤٣؛ المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ١٨٣، و Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), p. 5, and footnote.

(٧٣) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٥.

The last phrase goes, more literally, 'They must do the speaking while we must do the doing

(٧٤) قارن: ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ من هذا الكتاب.

الدينية أنَّ الله «القرشي» والرحمن «الإله الجنوبي الرحيم» هما إلهٌ واحِد[٧٤]، ووحَّدَ الجَماعتَين من الناحية السياسية والاجتماعية «بالمؤاخاة» بين المُهاجرين القرشيين، والأنصار من أهل المدينة، وهم جنوبيون في الأصل. ولكن بَعدَ وفاتِه، أُبعِدَ الأنصار عن أي موقِع قيادي في المجتمع الجديد. سبَّبَ الإبعادُ استياءً[٧٥]، وكان الانقسام القديم قد ترسَّخ في بداية الفتوحات عندما قُسِّمَت الولاياتُ السورية والأمصار العراقية وفقَ خطوطٍ قَبلية كانت قَبلَ الإسلام. وتحت الحكم الأموي، جميعُ سكان شبه الجزيرة ـ حضَرهم وبَدوهم، من الجنوب والشمال ـ أصبحوا كلهم عرباً، غير أن بعضَهم كانوا أكثر أصالة في العروبة. قامَ شاعرٌ قَبَليٌّ شمالي مَغرورٌ مِثل الفَرزدَق باعتبار الحَضارِمَة من جنوب شبه الجزيرة مَوالٍ لقريش[٧٦]، أو رجالَ قبائل من الدَّرجة الثانية، أو مثل المسكين حاطِب بن أبي بلتَعة الذي احتقَره معاوية. مُقابِلَ هذا النوع من العَصَبية الشمالية، حافَظ الجنوبيون على شيءٍ مِن تضامُنِهم القديم وهياكلهم الاجتماعية؛ فمَثلاً كانت عَشيرة ذي الكلاع، التي تَنحَدِرُ مِن نَسلِ أحَد الأقيال الزعماء الجنوبيين قَبلَ الإسلام، بؤرةً للوحدة الجنوبية في سورية الأموية[٧٧]، غير أن نموذجَ المجتمع القَبَلي الشمالي كان النَّمطَ المُسيطِر، واندَثَرَتْ بقايا الجنوب القديم تدريجياً.

إذا فتَحَ الانقسامُ الشمالي الجنوبي في العَصر الإسلامي شُروخاً قديمةً أسطورية أحياناً، فإن الحركةَ في تلك الانقسامات والشُّروخ قد دَفعَتْها الآن قوى معاصِرة، وليس بعيداً تماماً عن واقِع القَرن الحادي والعشرين، حين مازالت حدودُ اسكتلندا تَسيرُ على خَطِّ سورِ هادريان تقريباً، ولكن القوميةَ الاسكتلندية تتعلَّقُ بعائداتِ النفط والضرائب والاتحاد الأوروبي أكثر مما تتعلَّقُ بأنَّ أصلَ الفَردِ كان كِلتِياً، أو رومانياً، أو سكسونيّاً، أو يعقوبياً، أو كان ممّن يتحدَّثون باللغة الغيلية الاسكتلندية أو أي أصلٍ آخَر. كان الانقسام الشمالي الجنوبي خِلافاً عَشائرياً كبيراً، وكان أحدَث وأكبَر مِثالٍ على ذلك

---

(٧٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 545.

(٧٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٧٧) ميخائيل بيتروفسكي، **اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة: القرن الرابع حتى العاشر الميلادي**، تعريب محمد الشعيبي (بيروت: دار العودة، ١٩٨٧)، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥. وحول الأميال انظر: ص ١٦٢ ـ ١٦٣ من هذا الكتاب.

المَيل القديم لتفرّق الوحدات إلى قِسمَين: انقسامُ هاشم ضد أميّة. وكما سنَرى، فقد زادَ الانقسام وزادَته شدة الصراع على السُلطة في العَهد الأموي، وأشعَلَ حروباً بعيدةً في الزمان والمكان، كانت ظاهرة في خراسان، ثم في الهند في القَرن التاسع(٧٨)، وفي لبنان القَرن الثامن عشر(٧٩)، وعُمان القَرن العشرين(٨٠).

إنما كانت هنالك خطوطُ انقسامٍ أخرى قاتِلة بشكلٍ أكثر فورية.

قلوبٌ وسيوفٌ

أحَدُ الانقسامات كان قاتِلاً في البداية لبَعضِ أفرادِ عائلةِ عليّ وأتباعِهم من الشيعة (إنما بعد سَبعين سَنة سينفَتِحُ هذا الشَّرخُ وسيَبتَلِعُ الخلافة الأموية، وبَعدَ ١٢٧٠ سنة مازال يُهدِّدُ الوحدَة العربية والإسلامية، وبدرجةٍ قاتِلة مثلما كانت دائماً).

تمكَّنَ معاوية من الفَوز بدَعم كتلةٍ كافية من المؤيدين بعد حِيلَةِ التَّحكيم التي أنهَتْ قِتالَهُ مع عليّ، وأعلَن نفَسه خليفةً بحُكم الواقع وليس بالادعاء فقط. ازدادَ المؤيدون وتضَخَّموا بسبب الغالبية العظمى الصامتة، وكل تلك الأصفار التي لا تَعني شيئاً في حَدِّ ذاتها، إلا أنها تُحوِّلُ العَدَدَ ١ إلى مليون. وبالمقابل، تَضاءَلتْ خلافَةُ عليّ المنافِسة حتى أصبَحتْ سنة ٦٦٠ محصورةً في منطقةٍ أكبر قليلاً من الكوفة. اغتِيلَ الخليفةُ عليّ في السنة التالية بِيَدِ خَارِجِيٍّ استَخدَم سَيفاً مسموماً. رَفيقٌ مَطرودٌ قد يكون أكثرَ غضَباً من امرأةٍ مُحتَقَرَة. كَرِهَ الخوارجُ عَليّاً لأنه لم يَستمر في قِتالِ معاوية. إلا أن الكوفة ظَلَّتْ بَعدَ عشرين سنة بؤرةَ شيعةِ عليّ. بَعدَ وفاة معاوية واستلام ابنه يَزيد الخِلافة، التي أصبَحتْ عَرشاً وراثياً بشكلٍ صَريح، قَرَّرَ الشيعَةُ أن يَلذَعوا السلالةَ في تَبرعُمها ويؤسِّسوا دَولَتهم. ولِتَحقيقِ ذلك طَلَبوا من الحُسين، أحَد أبناء عَليّ من فاطِمة بنت محمد، القدومَ من المدينة لقيادة الثورة.

---

(٧٨) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٢٨.

(٧٩) Hitti, *History of the Arabs*, p. 281.

(٨٠) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Hinā.

نَصَحَ أصدقاءُ الحُسين في المدينة أنْ يُرسِلَ عملاء لتَحضير الأرض في العراق قَبلَ أن يُغامِرَ بنفسِه، إلا أنه كان واثِقاً من دَعمِه، فانطَلَقَ في أيلول/ سبتمبر ٦٨٠ بتَحضيراتٍ قليلة وقوةٍ صغيرة من أتباعِه[٨١]. وفي الواقع كان هنالك دَعمٌ مَعنوي حقيقي، غير أن الدَّعمَ العَسكري سيتَبَخَّر، وكما رُويَ عن الفَرزدَق قوله للحُسين عندما سألَهُ عن حالَةِ الرأي العام «القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر في السماء»[٨٢]. وكالعادة، كانت السيوفُ هي المهمّة.

قُتِلَ الحُسين ومن مَعه من المؤيدين القلائِل بِيَدِ قوةٍ أرسَلَها والي العراق الأموي، وأصبَحَ رأسُ حَفيدِ النبيّ أول الجَوائز القاتِمة الأربَع التي شوهِدَتْ في قَصرِ الوالي في بداية هذا الفَصل. أُرسِلَ الرأسُ بعدَ فترةٍ كدليلٍ مروّع على سَحقِ التَّمرد، وكإنذارٍ لأيّ متمردٍ قادِم. عندما وَصَلَ الرأسُ إلى دمشق، روي أن يزيد بن معاوية قابَلَهُ بِبيتٍ من الشّعر:

نـفـلِّـقُ هـامـاً مـن رجـالٍ أعـزَّةٍ　　علينا، وهمْ كانوا أعقَّ وأظلَما

يقصد قول الحصين بن الحمام المرّي:

نـفـلِّـقُ هـامـاً مـن رجـالٍ أعـزَّةٍ　　علينا، وهمْ كانوا أعقَّ وأظلَما

وقد تمثّل به يزيد في ذلك الموقف أمام رأس الحسين.

وبينما أنشَدَ ذلكَ ضَرَبَ بقَضيبٍ ثَناياهُ، وأدخَلَ صَولَجانه في فَمِ الرأسِ المَقطوع، إلا أن رجُلاً مُسِنّاً بين الحاضِرين كان من أصحاب محمد، وعَرفَ حَفيدهُ الحُسين حين كان طِفلاً، فاستَنكَر فِعلَ الخليفة قائلاً: «ارفع قضيبك فطال ما رأيتُ رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه يلثمه»[٨٣].

لم تكن القلوب كافية، فبَعدَ أن شَجَّعَ شيعةُ الكوفةِ الحُسينَ على الثورة، تركوهُ في وَضعٍ حَرِجٍ.

---

(٨١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٦٤ ـ ٦٦.
(٨٢) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٤٣.
(٨٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧٠ ـ ٧١.

ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيراً، بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه، ولمقتله بجانبهم فلم ينصروه[٨٤].

مازالَ شيعةُ عليّ يَندبون مَقتلَ مؤسّسِ حَرَكَتِهم وإمامِهم الأول، إلا أن الاستِشهادَ المَجيد لابنه الحُسين في المعركة مَنحَهم شَهيدَهم النموذجي، فأصبَح أكبر مَوضوع لدَعوتِهم والأكثَر استِمراراً. عندما يَتفجَّرُ أطفالٌ أعرِفُهم إلى أشلاء في حَربنا الحالية يُرفَعُ شِعار: «الشهداءُ يُوحِّدون الوطن!»، ويَتدفَّقُ شرابٌ مُخدِّر على شاشات التلفزيون وفي رسائل الهواتف، تَمتزِجُ فيه الوطنيةُ مع الإسلام السياسي لإعادة تَمثيلِ تلك التَّضحية التي حَدَثَتْ سنة ٦٨٠. شعورُ الشيعةِ المستمرِ بالمأساة لا يَرجِعُ فقط إلى الإحساسِ بالخَسارة، بل يتضَمَّنُ كذلك نَوعاً من الشُّعور بالذَّنبِ يُشبِهُ شُعورَ القدّيس بطرس بخِيانة المسيح. إنه شُعورٌ جماعي بالذَّنب يتم تَوريثُه. فمَثلاً يُشاهَد الزوّارُ الإيرانيون في الجامع الأموي[٨٥] بدمشق وهم يُقَبّلونَ ويَبكونَ في بُقعَةٍ يُقالُ إنَّ رأسَ الحُسين قد وضِعَ فيها أثناء رحلَتِه الطويلة على طريق الآلام (ربما إلى القاهرة، وربما عائداً إلى العراق، لا أحَد يَعرف على وَجهِ الدّقة)، وكأنها مشاهَدَةٌ لمَسرحيةٍ لا تَنتَهي من الشَّغَف والانفعالات، وفيها شُعورٌ بالذَّنبِ ثابتٌ لا يُمكِن إزالَتُه.

خليفةٌ وخليفةٌ مُنافِس

يَدفَعُ الشعورُ الجَماعي بالذَّنبِ إلى الشّعورِ الجَماعي بضَرورة الانتِقام. وفي النهاية، قُطِعَ رأس الوالي الأموي بدوره وعُرِضَ في قَصرِه. إلا أن تَحدّياً آخَر للحُكمِ الأموي بَدأ يَظهَر بعيداً عن الكوفة باتجاه الجنوب الغربي، في مكة. لم يكنَ مصيرياً على المَدى البعيد مثل خَطَرِ شِيعة عليّ، إلا أنه كان خَطَراً أكبَر بكثير في وَقتِه. فبَعدَ خمسين سنة من وفاة محمد، الذي مَنَحَتْ ثورتُهُ التَّحررَ من «جاهلية» الماضي، والمساواة أمام الله، والأخوّة بين البَشَر، عادَ العرب إلى دَورَتهم القديمة في عَجلَة النار. والأسوأ من ذلك أن العَجَلَةَ الآن دَفَعَتْها ادِّعاءاتٌ متنافِسة لحَقيقة نهائية واحِدة وحَقّ مقدَّس،

---

(٨٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٠.

(٨٥) Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah*, p. 144.

ادّعاءاتٌ بدأتْ تتصادَم بَعدَ مَقتلِ عثمان سنة ٦٥٦، واستمرَّ التَّصادم بدَموية وعنف في معركةَ صفّين في السَّنة التالية. كما أن اللغة العربية تُعبِّر عن «الحقيقة» و«الصواب» بمُفرَدَةٍ واحِدَة هي «الحَقّ». قام الحُسين بمحاوَلةٍ غير سَديدَةٍ للمُطالَبة بالزعامة. ولكن عبد الله بن الزّبير نَجَحَ في رَفع نفسِهِ كخليفة منافِس، وجَعلَ مكةَ عاصِمته، كما نَجحَ في السيطرة على رُقعَةٍ كبيرة من الإمبراطورية شَمَلَتْ معظَمَ أرضِ العراق التي كانت في أوجِها المِحوَرَ بين شبه الجزيرة العربية وفارس، وبين شبه القارة العربية وأوراسيا. تم الاعترافُ بخِلافَتِهِ حتى في بعض مناطق سورية في قَلبِ الخلافة الأموية. تمكَّنَ من تحقيقِ ذلك جُزئياً باستِغلالِ ذلك الشَّرخِ بين الشمال والجنوب، فقد وصلَ معاوية إلى الحُكم بفضلِ الجنوبيين في سورية، فتَقَرَّبَ عبد الله بن الزّبير إلى الشماليين وكَسبَ تأييدهم(٨٦).

أَقَرَّ معاويةُ وهو على فراش الموت بأنَّ قمع ابن الزّبير يحتاجُ إلى أكثر من السخرية. لم يكن وليّ العَهد يَزيد مَوجوداً، ولكن معاوية قال:

أبلغا عني يزيدَ وقولا له:... أما ابن الزبير فإنه خبّ ضبّ... فإن ظفرتَ بابن الزبير فقطّعه إرباً إرباً(٨٧).

كانت هذه آخر كلمات الخليفة المُحتَضر.

الضَّبُّ هو سِحلية يأكلها العرب التقليديون، إلا أن صَيدَها صَعب جِداً لأنها تَدخلُ برأسِها أولاً في جِحرِها، ولا يمكن إخراجها إلا بشَدِّها من ذَيلِها الشَّوكي المُتحرك المُلتوي الذي تَستخدِمه كسِلاح مؤلِم(٨٨)؛ وبالمِثل، سيُثبِتُ الخليفةُ المنافِس أنه صَعبُ الإخراج من مَعقِلِهِ في مكة. كان معاوية قد أرسل جيشاً ضد المدينة المقدّسة بقيادة عمرو بن الزّبير، وهو أخو الخليفة المنافِس. قُهِرَ ذلك الجيشُ، وخُلِعَتْ ملابسُ عمرو، وتم جَلدُه حتى الموت أمامَ بوابّةِ فِناء الكَعبة(٨٩). أصبَحَ يزيد الخليفة الجديد بدمشق،

---

(٨٦) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 280-281.

(٨٧) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٢١.

(٨٨) Freya Stark had a live Uromastyx, 'a charming pet and very tame, and answers to the name of Himyar'.
Freya Stark, *Seen in the Hadhramaut* (London: John Murray, 1938), p. 116.

(٨٩) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٨٥.

وأرسَلَ قوة أكبر بكثير، وحوصِرَتْ مكة ثانية. كانت الكَعبة نفسها ضَحيةً هذه المرة، إذ إنها دُمِّرَتْ بالمَنجَنيق، واحتَرقَتْ بشظايا حارِقة. في تلك الأثناء، توفي يزيد وابنُه الخليفةُ معاوية الثاني في تسلسلٍ سريعٍ لأسباب طبيعية[٩٠]. لم تَرتَدع الأسرةُ الأموية بهذه الأحداث المشؤومة، واختارَتْ ابنَ عمّ بعيدٍ قوي هو مروان بن الحَكَم كزعيم جديد للسلالة، بينما أعادَ الخليفة المنافِس بناء الكَعبة[٩١]. لم تستمر خِلافةُ مروان سوى بضعة أشهر، وسَرَتْ شائعةٌ أنه قُتِلَ مَسموماً بيد زوجَته فاخِتة التي كانت زوجَةَ يزيد، وحُرِمَ ابنُها من الحُكم[٩٢]. لو كان ذلك صحيحاً فإن قَتلَهُ لم يُحقِّق المَطلوب لأن جميع خلفاء بني أميّة بَعدَ ذلك كانوا من نَسلِ مروان، وأُطلِقَ عليهم اسم المَروانيين.

كانت الفوضَى سائدةً في تلك الفترة، ومرةً أخرى تفرَّقَت الوحدَة الاستِثنائية التي حقَّقتْها ثورةُ محمد، وأصبَحتْ ركاماً مِثلَ الكعبة، رَمزها الإسلامي في مكة. وحتى لو كان الخليفة المنافِس يُعيدُ بِناءَ «سُرَّةِ الأرض»[٩٣]، يبدو أن الرَّمزَ لَن يَعكسَ الواقِع على الأرض بَعدَ ذلك. فمَثلاً، في سنة ٦٨٨، كان هنالك أربَعة مَواقِع مختلفة للحجّ: لأتباع الخليفة، والخليفة المنافِس، وجماعة أولية من الشيعة التي قدّستْ ذِكرى عليّ، وجماعة الخَوارج التي احتَقَرَتْها[٩٤]. تلقّى قَلبُ الوحدَة ضربةً قوية عندما قامَ عبد المَلك بن مروان، الخليفةُ الجديد في دمشق، بمَنعِ الحجّ إلى مكة؛ إذ قِيلَ إنّ الخليفة المنافِس قد بَدأ بإجبار الحَجيج إلى مكة على التَّعهد بالوَلاء له. أعلَنَ عبد المَلك أن القُدس هي المكان البديل، وبَنَى قُبَّةَ الصَّخرة فيها سنة ٦٩١ تأكيداً على مَركزها للحجّ البَديل[٩٥]. بُنِيَ ذلك الهيكل الإسلامي الذَّهبي على جَبَلِ الهيكل اليهودي الفارغ، وزَخرفَهُ حِرَفيون بيزنطيون مسيحيون، ونَشَأ من انقِسام العرب.

---

(٩٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨١ ـ ٨٢.

(٩١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٢٢.

(٩٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٢ ـ ٩٧.

(٩٣) قارن: ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ من هذا الكتاب.

(٩٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 55.

(٩٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣٥.

إلا أن قُبَّةَ الصَخرة سرعان ما أصبَحتْ تحفةً رائعةً، ففي سنة ٦٩٢ قامَ عبد المَلك بهجوم ضخم ضد الضَّبِ في وكرِهِ المكي. قُصِفَت الكعبة مرة ثانية، إلا أن المدينة سَقَطَتْ هذه المرة، وأُرسِلَ رأسُ عبد الله بن الزّبير إلى دمشق[٩٦]، ورَجعَ توحيدُ حَجيج مكة إلى ما كان عليه. ومن المُستغرب أن شبه الجزيرة قد تم تهميشُها سياسياً وبكلِّ طريقة أخرى على الرغم من عَودتِها إلى ما كانت عليه كمَركَزٍ وحيدٍ لعبادة الحجّ، وظَلَّتْ مهمَّشَة حتى اكتِشاف النفط بعد نحو ١٣٠٠ سنة.

تُعتَبر السَّنة التي هُزِمَ فيها الخليفةُ المنافِس هي سَنَة الوحدَة الثانية للخِلافة الأموية «عام الجماعة»[٩٧]... إلا أنها كانت مِثلَ سابِقتِها الأولى التي حَدَثتْ قبلَها بثلاثين سَنة، تمنيات ولَّدَت الاسم. وَلَّدَ الخليفةُ المَكيّ المنافِس انقساماتٍ استمرتْ طويلاً بعد نهايتِه، خاصة بتَحفيزِ الانقسام الشمالي الجنوبي الذي سرعان ما سيَظهَر في مكانٍ بعيدٍ في ولاية خراسان الشرقية، وسيكون له نتائج كارثية.

كانت المتاعبُ قد بدأتْ تَظهَر أيضاً قريباً من المَركَز في أرضٍ حسَّاسة، في بَوتَقَةِ العراق[٩٨].

الطاغية ذو اللسان الفضّي

كان شيعة عليّ هم الخاسرين الرئيسيين في الانقسام الأول الكبير. وراحوا يَجمَعون قوتهم ثانية في العراق، وكذلك فَعَلَ خصومهم الخَوارج الأكثر جُرأة وصَرامة الذين أيّدوا علياً في أول الأمر ثم انقلَبوا ضِده. وجودُ هاتَين الفئتَين جَعلَ فكرةَ الوحدَة وَهماً وشكَّلَ خَطراً مباشراً على استقرار الخلافة الأموية، ولذا أطلَقَ عبد المَلك عليهم واليه الإمبراطوري الشديد الحجّاج الذي كان نباحُه أسوأ مِن عضّته.

بدأ الحجّاج بن يوسف حياتَه كمُعلِّم صارِم، إلا أنه وَجَدَ مَوهبتَه الحقيقية في الجُندية. كان معروفاً بقَسوته وشدّته، وكان وراء التخطيط لهزيمة

(٩٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 193.

(٩٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 842.

(٩٨) Hitti, Ibid., p. 207.

الخليفة المنافِس. على مَرِّ سَنتَين بَعدَ ذلك كان مُستَكشِفَ التَّمردات وقامِعَها، وتمكَّن من السيطرة على مُعارِضي الأمويين في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة. في نهاية سنة ٦٩٤، أرسلَهُ عبد المَلك لحلِّ المشاكل في العراق التي كانت أصعَب أماكِن الثورة والتمرد.

كان الوالي الجديد قاسياً في خِطابه أيضاً. يستطيع الحجّاج مِنْ على مِنبَر المَسجد، الذي كان مِحورَ السياسة، أن يجعَلَ ألسِنَةَ هتلر وأصحاب نورنمبرغ خَرساءَ مُهمَلَة. قدَّم خُطبَتَهُ الرئيسية عند وصولِه متَنكِّراً إلى الكوفة، التي كانت حينها بؤرةَ تَمرّد الخَوارج. صَعدَ دَرجات المِنبَر مُحتَجِباً بعِمامَة حمراء على نَمَطِ الخَوارج وتأمَّلَ العِمامات الحُمر أمامَه وبَدأ بِبَيتٍ من الشِّعر:

أَنَـا ابـنُ جَـلَا وطَـلَّاعُ الـثَّـنَـايَـا مـتَى أضَـعِ الـعِـمـامَـةَ تَـعـرِفُـونـي

كَشَفَ نفسَه، وتابَع قائلاً:

أما والله فإني لأحمِلُ الشَّرَ بثقلِهِ وأحذوهُ بنعلِهِ وأجزيهِ بمِثلِهِ، واللهِ يا أهلَ العراق إني لأرى رؤوساً قد أينَعَتْ وحانَ قِطافُها، وإني لَصاحِبها، واللهِ لكأني أنظُرُ إلى الدِّماء بين العمائمِ واللِّحى[٩٩]...

قام رجالٌ مسلَّحون بحراسَة الأبواب انتظاراً لسَفكِ الدماء.

كان يبدأ خطبَتَهُ عادةً بنعومَةٍ لا تَكادُ تُسمَع، ثم يَرفَعُ صوتَه تدريجياً حتى يُخيفَ الجالِسين في أبعَد زوايا الجامِع[١٠٠]، إلا أنها لم تكن دائماً دِماءً ورُعوداً، فقد كان يستطيع الإقناع ببَراعَة. قالَ أحَد سامِعيهِ: إنكَ ستظنّ في النهاية أنّ أهلَ العراق هم الذين أساؤوا معاملَته شخصياً، وأنّ قَطفَه للرؤوسِ كان عادِلاً ومُبرَّراً[١٠١]. أو بكلمة أخرى، تمتَّعَ بصفاتِ البلاغة التامة، إذ كان يستطيع أن يَجعلكَ تؤمِن بحقيقةٍ دِعائيةٍ كانت النَّقيضَ المباشر للحقيقة الواقِعة. ذَكَر معُاصِرٌ آخَر بَعد سقوطِه أنه:

---

(٩٩) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.
(١٠٠) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢١٣.
(١٠١) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٣.

كان عدو الله يتزين تزيين المومسة، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة، وأكذب في حديثه من الدجال»[١٠٢].

شَمَلَ التصرف كفرعون في العراق الإعدامَ بِدَم باردٍ لنحو ١٢٠,٠٠٠ خارجيّ وغيرهم من معارِضي الأمويين حسب بعضِ التقديرات. ثم كان هناك الضحايا (نحو ٥٠,٠٠٠ رجل و٣٠,٠٠٠ امرأة) الذين قُتِلوا في سجونه، والعَدد الذي لا يُحصَى من الذين قُتِلوا في المعارك[١٠٣]. هل كانت الأعداد مُضَخَّمة؟ ستَظَلُّ مخيفةً حتى لو خُفِّضَتْ عشرةَ أضعاف.

استَمتَعَ الحجّاج بسُمعَتِه المُخيفَة مِثل بَعضِ المدَرسين والمُستَبدِّين. اعتَرفَ مرة قائلاً: «أنا حديدٌ حقود، وذو قسوة حسود»[١٠٤]. كان خَطيباً ومُستبدّاً كنسخة سوداء من السَّادَة والخطباء في قديم القبائل الذين حَكَموا بالكلمات، وقد أثارَ مَزيجُهُ المُخدِّر من البلاغة والعنف سِحراً مُعتِماً، ففي قاموس سِيَرِ ابن خلّكان العظيم عن عالَم العربية المُصنّف في القَرن الثالث عشر، وَرَدَ ذِكرُ الحجّاج في ثلاث عشرة صفحة على أنه الرجل الذي تُحِبُّ أن تَكرَهه، وهي مِن أطول السِّيَر في ذلك الكتاب[١٠٥]. مازال السِّحر مستمراً، فقد كان نموذجاً يُحتَذى به لحاكِم حَديثٍ في العراق، هو صدّام حسين. وبالمِثل، هناك كثير من المُعجَبينَ الآن لذلك التلميذ من القَرن العشرين، وقد سَمعتُ رأياً متكرراً أنه «لا أحدَ يستطيعُ السيطرةَ على هؤلاء العراقيين المُخيفِين سوى الحجّاج وصدّام».

على الرغم من شدتِه وعُنفِه، إلا أن الحجّاجَ واحِدٌ من أعظم خطباء العرب في التاريخ. لا يُذكَر سوى شخص واحِد استطاعَ إسكاتَه، وهو زوجةُ الخليفة الوليد بن عبد المَلك، حين كان الحجّاج مُختَفِياً مع زوجِها، أرسلَتْ جاريةً وحَمَّلَتْها رسالةً إلى زوجِها: «ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة؟» ردَّ الخليفةُ أن ذلك الأعرابي الخَشِن هو الحجّاج واليهِ على العراق، فردَّتْ خائفةً: «والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل

---

(١٠٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٤.
(١٠٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(١٠٤) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٩.
(١٠٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٠٦ ـ ٢١٩.

الخلق!». سَمِعَ الحجّاج المُحادَثَة مع الجارية، ونَبَّهَ الخليفة على أهمية عدم الإصغاء لثَرثَرة النساء. عَرفَتْ زوجةُ الخليفة بقوله ذلك، فاستَدعَت الحجّاج في اليوم التالي، وتركَتْهُ ينتَظِر طويلاً، ثم أدخَلَتْهُ عليها، وأبقَتْهُ واقِفاً وهي من وراء حِجاب، وردَّتْ عليه بمَوعِظَةٍ بَدَأتْها بقولِها:

أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة!

وختَمَتْ تُشَكِّكُ برُجولَتِه. هَرَبَ الحجّاجُ إلى الخليفة، وأقَرَّ:

«والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظاهرها.» فضحك الوليد حتى فحص برجليه[١٠٦].

توفي هذا الرجل الذي تَسبَّبَ بكل هذا القَتل وهو راقِدٌ في سريرِه، ولكن هناك جانباً رهيباً في تلك النهاية؛ يُروى أنه عندما شَعَرَ بِقُربِ نِهايَتِه استَدعَى مُنَجِّماً، وسألَهُ عمّا إذا كان قد تَنَبَّأ بوفاة حاكِم، فقالَ المُنَجِّم:

«نعم، ولستَ هو... لأن الذي يموت اسمه كُليب». فقال الحجاج: «أنا هو والله، بذلك كانت سمّتني أمّي»[١٠٧].

إذا كان لروايةٍ أخرى أن تُصَدَّق، فإن طفولَةَ كُلَيب هي التي أثَّرتْ على مستقبلِه، فبَعدَ أن رَفَضَ رِضاعَةَ حَليبِ أمِّه وحَليبِ مُرضِعَتِه، فُرِضَ عليه على التّالي رِضاعَةَ دَمِ حَمَلَين أسودَين، وجدي أسوَد، وحَيَّة سوداء. نَجَحَ العِلاج «فكان بعدُ لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره»[١٠٨].

خَلَّفَ الحجّاجُ في العراق إرثاً من الدّم إضافة إلى ما خَلَّفَتْهُ الحربُ بين معاوية وعليّ، كما أنه تركَ إرثاً مِن الفُرقَةِ والانقسام. وكما رأينا، فإن الأمصارَ التي كانت في الأصل مُدُناً عالمية في العراق، قد تَحوَّلَتْ بأوامِره إلى معسكرات تمييزٍ عِرقي مَمنوعَة على غَير الناطقين بالعربية[١٠٩]. عندما أسَّس الحجّاج بلدَتَهُ الجديدة الخاصة واسِطاً، التي كانت تَقَعُ في وَسَطِ

---

(١٠٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٤، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٦٧ ـ ١٦٩.
(١٠٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٧.
(١٠٨) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٢.
(١٠٩) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٥٥.

المَسافة بين البصرة والكوفة، قِيلَ إنَّ مغفَّلاً ذَكَرَ الحقيقة التي لم يَجرؤ أحَدٌ على قولِها:

كان الحجاج أحمق، بنى مدينة واسط في بادية النبط ثم قال لهم: لا تدخلوها(١١٠).

كان كل ذلك جزءاً من المحاوَلة الفاشِلة للهَندسة الاجتماعية، والمحافَظة على العرب كَفِئةٍ حاكِمة، غير أنَّ الحجّاجَ وسادَتَه الأمويين كانوا يحاولون مَنعَ مَدٍّ لا يُقاوَم.

كلامُ المُولَّدين

أصبَحَ طوفانُ المَدِّ مَرئياً، أو بالأصَحّ مَسموعاً أكثر في الطريقة التي كانت تتغيَّر فيها اللغة العربية. بدأ غَير العرب بتَعلُّم أسرارِ اللغة الفصحى القديمة، وفي الوقت نفسه كان العرب أنفسهم يَفقدون اللسانَ الذي مَنَحَهم أقربَ شيءٍ للوحدَة لأطولِ فترةٍ في تاريخِهم. في البَدء، كان جَمعُ العربِ مع بعضِهم في الأمصار يضمَنُ محافَظتهم على لُغَتِهم، وأُسِّسَتْ مُدُن جديدة نامِية كانت مَراكز للعروبة في العراق ومصر وتونس، وقد أدّى ذلك مع الوقت إلى أنّ الناسَ في الخارج كانوا يُعَرَّبون أكثر ممّا كان فيه العرب يُصبِحون فُرساً أو أقباطاً أو بَربَراً. تَبنّى السكانُ المَحَليون لغةَ الجَماعةِ القوية، بينما حَدَثَ العَكسُ في مناطق لم توجَد فيها أمصار، مثل المناطق الشرقية الواسعة في خراسان حيث كان معظم العرب فيها يتحدَّثون الفارسية في منتصَف القَرن الثامن(١١١).

ولكن في قَلبِ الأمصار، وفي عُمقِ غُرَفِها الداخلية، كانت العربية تتغيّر. وفيما عَدا العربية الفصحى في الشِّعر والقرآن، فإن اللغة العربية المَحكِيَّة كانت موجودة دائماً بأشكال مختلفة كانت مَفهومَة بسهولة في شبه الجزيرة العربية. ولكن ما كان يتطَوَّر الآن هو أنّ اللغة بدأتْ تصيرُ مولَّدَة (مُهَجَّنَة) لأنكَ، حتى لو استطعتَ مَنعَ الرجال المَحَليين عن دخول الأمصار،

---

(١١٠) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٣.

(١١١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 530.

إلا أنكَ لن تستطيع مَنعَ النساء. جاءَ النَّسَبُ العربي من الآباء، إلا أن ما تَعرَّضَتْ له العربية جاءَ من الأمهات، واصطِلاح «اللغة الأمّ» يَشرحُ نفسَه. وإضافة إلى اللغة المُوَلَّدَة من الجَواري الأمهات، كانت هنالك عربيةُ ـ المطبخ للمُرضِعات ورَقيقِ البيوت، وكلُّ ذلك سيُسقِط لسانَ الملائِكة إلى الأرض.

جمَعَ الجاحظُ فَصلاً كاملاً عن سوء التصريف في اللغة شَمَلَ الأمّ الفارسية لأبناء الشاعر جَرير وهي تُحاوِل أن تقولَ لواحدٍ منهم إن الجِرذان قد صَعدَتْ على عَجينِها، إلا أنها قالتْ ما مَعناه أن جُردَين (كتيبَتَين من الفرسان) قد صَعدا على عِجانِها (دُبرِها). طلَبَ منها الأولادُ أن تظلَّ صامِتةً في حُضورِ الضيوف. هناك خَطأٌ فادِحٌ آخر مشهور عن مولى فارسي لزياد، والي معاوية على العراق؛ أرادَ أن يَطلُبَ حِماراً فطَلَبَ منه «هِماراً»، بسبب عدم قُدرَتِهِ على لَفظِ حَرفِ الحاء بشكلٍ صحيح. حاوَلَ أن يكون أكثرَ وضوحاً:

قال (زياد): «أي شيء تقول ويلك؟»

قال (المولى): «أهدوا إلينا أيراً.»

سُرَّ الرجلُ وهو يظُنُّ أنه قد نجَحَ بالتوصل إلى كلمةٍ مُناظِرة، إلا أنه لم يُدرك أنه جَعَلَ الحالةَ أكثرَ سوءاً بسبب عدم قدرَتِهِ على لَفظِ حَرفِ العَين بشكلٍ صحيح فطَلَبَ «أيراً» (قَضيباً)، وهو يَقصدُ أن يَطلبَ «عيراً» (حِماراً).

فقال زياد: «الثاني شرّ من الأول»[١١٢].

وبالفِعل، كانت العربية تتغيّر مِن سَيئٍ إلى أسوأ. كانت الأجناسُ تختَلط. وربما أمسَكَتْ مَحظِية جَرير لسانَها عندما جاءَ الضيوف، ولكنه تَنهَّدَ قائلاً:

أول ما أسمع منها في السَحرْ   تذكيرُها الأنثى وتأنيثُ الذَكر[١١٣]

---

(١١٢) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤ و٢٥٤.

As well as the 'Membrum virile', as Hava's dictionary terms it, ayr (without the twang) can also mean 'the north wind' and 'the east wind'. Sailors must have terrible problems.

(١١٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤.

كان الأمرُ يُشبِهُ ما كان عليه البريطانيون في الهند حيث كان كل منهم يتحدَّث بلهجَتِه الإنكليزية المَحَلية في اسكتلندا وإيرلندا... وكلهم يَفهَمُ بعضهم بعضاً، ويَكتبون إنكليزيةَ المَلكِ النظامية، ولكنهم لم يُرسِلوا أبناءهم إلى مَدارس الوطن الأصلي، ولم يَبتَعدوا عن النساء المَحَليات ـ فلو كان الوضع كذلك لأصبَحتْ بَشَرَةُ الأجيال التالية أغمَق لَوناً، وتغيّرت مفردات لُغَتِهم وقواعد النحو الأساسية فيها.

كانت العربية الفصحى نفسها تتغيّر، وكان الوليد بن عبد المَلك يَرتكِب أخطاء لغوية أحياناً لأنه لم يتعلم أصول النّطق السليم بطريقة التعليم البدوي التقليدي[١١٤]. اشتَكى أحَد سامِعيهِ من أنَّ أخطاءَه اللغوية أساءَتْ إلى كرامَتِه[١١٥]. وربما لم يُبالِغ في ذلك، ففي واحدة من أشهَر أخطائِه عندما أرادَ أن يَسألَ شخصاً:

«مَنْ خَتَنُكَ؟»؛ أي مَن هو والِد زوجتكَ؟

فسأل بدلاً عن ذلك: «مَن خَتَنَكَ»؛ أي مَن الذي قامَ بخِتانِكَ؟![١١٦]

أضيَعُ مِنَ الأيتام

إذا كان العرب أنفسهم قد بدؤوا يخسَرون تمكُّنَهم من لِسانِهم الفضّي الزَّلِق، فإن غير العرب كانوا يَشحَذون أقلامَهم بنشاط لدراسة اللغة الفصحى والمَكتوبة. كانت اللغة العربية تنضَمُّ إلى النادي الحَصري للغاتِ العالَم العظيمة، وستَنتَشِرُ جغرافياً أوسَع بكثير من رفيقتَيها اليونانية واللاتينية. كما أنها كانت تَسبقُ العربَ أيضاً، بل وإنَّ مسألةَ كَونِ المَرءِ عربياً قد بَدأتْ تَسبق نفسها.

لم يَدلّ تعريبُ اللغةِ بالضرورة على الأسلَمة، فقد كان ومازال هناك كثيرٌ من الناطقين بالعربية مِن غَير المسلمين. إنما في بداية الأمر كان اعتناق الإسلام يَقتَضي عادةً أن يُصبِحَ المَرءُ «عربياً»، بمَعنى ضرورةَ أن يَربِطَ نفسَه

(١١٤) انظر: ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ من هذا الكتاب.
(١١٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥١.
(١١٦) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 54.

بقبيلةٍ عربية ويُصبح مِن المَوالي[117]. ولكن الانتماء إلى المَوالي لا يجعلكَ من رجال القبائل العربية فوراً، فقد كان للمَوالي «عَوالِمهم الداخلية الثابتة»، باستِعارَةِ وَصفِ نيبول V.S. Naipaul مرةً ثانية. وكان المَوالي هم الأغلبية، وما كان يَحدُث هو أنَّ العربية والإسلام كانا يَخضَعان لوحدَة ثقافية جديدة، إلا أنها من النّوع الذي يَصبو إليه شِعارُ الولايات المتحدة الأمريكية القديم: «الوحدَةُ في التَّنوع». طالَما عَرَّفَ العربُ أنفسَهم بالمُقارنة مع الآخرين، خاصة من الناحية اللغوية: «العرب مقابِل العَجم». ولكن الآخرين الآن قد دَمَجوا أنفسَهم في التعريف وجَعَلوهُ مُخَيِّراً بإضافة مَعانٍ جديدة. أحَدُ الأمثِلة المبكرة على ذلك هو الوالي الأموي على العراق زياد، الذي وَرَدَ ذِكرُهُ سابقاً. يَعرِفُهُ المؤرخون عادةً باسم زياد بن أبيه، وأبوه الاسمي هو عَبدٌ فارسي، ويُقالُ إنَّ أباه الحقيقي هو أبو سفيان والِد معاوية، وبالفِعل اعتَرَفَ معاوية بأخيه غير الشَّقيق زياد فيما بَعد. مهما كانت صحة الادعاءات بشأن زياد، فإن مَوهِبَتَهُ في الخَطابة هي التي مَنَحَتْهُ القوة والسيطرة، وقال قرشيّ سَمِعَهُ يَخطُب وهو شابّ:

«والله لو كان هذا الشابُّ مِن قريش لقادَ العربَ أمامَه بعَصاه» [غير حرفي].

وفي النهاية، لم يَشُقّ زيادٌ طريقَه في قبيلة النبيّ فقط، بل أصبحَ أخا الخليفة ونائبه بسبب «شَرَف شَخصيَّته وبَلاغَتِه»[118] [غير حرفي].

وحَّدَت اللغةُ العربية العربَ إثنيّاً حتى قَبلَ أن يَجمَعَ محمد كَلِمَتَهم سياسياً، أما بَعدَهُ فسرعان ما بدأتْ تُفَرِّقُهم. وحسب نبوءةٍ قديمة، فإن «سيد الكلام»[119]، وهو اللسان العربي، كان يجعلُ أهلَه سادةً، إلا أنه كان يقَوّي آخرين كذلك. كان الحَلُّ التقليدي هو دَمجُ هؤلاء الآخرين في النظام القَبَلي، إن لم يكن كإخوة حقيقيين فَبِشَكلِ مَوالٍ. نَجَحَ ذلك في النظام العربي القديم حتى عَهدِ زياد وإخوته حين لم يَنجَح ذلك عندما أصبَح

(١١٧) انظر: ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ من هذا الكتاب.

(١١٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣٧٨.

(١١٩) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في: وهب بن منبه اليماني، **كتاب التيجان وملوك حمير**، ص ٤٣.

المَوالي الجُدد من البلاد المُحتَلّة أكثر عَدَداً من المُحتَلِّين. ومع انقسام العنصر المتَفوق على نفسِه، وإصرار سلالتهُ الحاكِمَة على المحافَظَة على المُيول العربية والملكية التقليدية، كيف سيتَعامَلون مع التَّنوع في الإمبراطورية؟

لم ينجَح كثيرٌ منهم في التعامل، ولَجَؤوا إلى العنصرية، مَعقِل الإمبراطوريات المُحاصَرة. على الرغم من إعلانِ محمد الشهير في خُطبةِ الوَداع ألّا فَضلَ لِعَربيٍّ على أعجَميٍّ إلا بالتقوى[120]، إلا أنّ بعضَ الناس لجؤوا إلى العنصرية والازدراء تجاه شعوب أخرى لم يُشهَد لها بعدم التقوى:

برابرة وصقالبة، وجرامقة وجراجمة، وأنباط وأقباط وأخلاط من الناس[121]...

كما وضَعَهُم جميعاً أحَدُ المُقاتِلين العرب في تَعصُّبٍ عُنصريٍّ صاحِب في خِطاب مُتقَنٍ مَمزوجٍ مع الخوف.

كان الخوفُ مُبرَّراً، فقد كانت الإمبراطورية تَنمو أكبَر وأكبَر، وأصبَح للغارة العظمى اندفاعها الذاتي في تفاعُلٍ متسلسلٍ من الفتوحات، وكان الفاتِحون مِن غَير العرب يَتزايَدون. ولِتَقديم مِثالٍ خاصّ لافتٍ للنظر فإنّ طارق بن زياد، فاتِحَ إسبانيا، كان مِن مَوالي المَوالي. بَدأتْ قَصّتُهُ بشكلٍ غير مباشر في ثلاثينيات القرن السابع ٦٣٠ عندما أغارَ القائد القرشي خالد بن الوليد على كنيسةٍ في العراق، وجَمَعَ عدداً كبيراً من الأسرى، كان بينهم جَدُّ أشهَر مَن كتَبَ سِيرَةَ محمد، ومؤسّس فَنّ تفسير الأحلام الإسلامي، وعربيٌّ مسيحيٌّ اسمه نُصَير[122]. أصبَح في البَدء مِنَ الرَّقيق، ثم تَمّ عَتقُهُ، وأصبَح مِن مَوالي العَشيرة الأموية[123]. وهكذا أصبَحَ ابنُه موسى بن نُصَير مَولى بالوراثة. قادَ موسى القوات التي غَزَتْ شمال أفريقيا حتى وَصَلَتْ مدينة

---

(١٢٠) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٨٣. قارن: ص ٢٦٠ من هذا الكتاب.

(١٢١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٥

Jarmaqis come from an oasis in the great desert of central Iran; Jarjumis are the Mardaite Christians of northern Syria.

(١٢٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٤٤.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

طَنجة في العَقد الأول من القَرن الثامن. يبدو أن مُقاتِليهِ العرب كانوا في هجومٍ كاسِحٍ لا يمكن وَقفُهُ، إلا أنهم وَصَلوا آنذاكَ إلى آخِر العالَم المَعروف، وضَمُّوا إليهم كثيراً من البَربَر في طَريقِهم، لِدَرجةٍ أصبَحَ مِنَ الصَّعبِ تسمية تلك القوات «عربية». كما كانت هناك مشكلةٌ أخرى، كان يجب دَفعُ أجورٍ لجميع هؤلاء الغُزاة الإضافيين، أو على الأقل مَنحُهُم مَأوى وطَعاماً وسِلاحاً. كان لا بد من أن تَتَّجِهَ أنظارُ موسى إلى الشمال عَبرَ المَضيق نحو إسبانيا، فأرسَلَ قائِدَهُ البَربَري ومَولاه طارق بن زياد عَبرَ البحر سنة ٧١١ لنزع شبه جزيرة إيبيريا من القوطِ الغربيين (في الطريق، مَنَحَ طارق اسمَهُ للجَبَلِ الذي يُشبِهُ زعنفَةَ القِرش في البَحر «جَبل طارق»). بَدأ التاريخُ المَجيد الطويل للمسلمين العرب في الأندلس على يَدِ عَبدٍ سابِقٍ بَربَري لابن عَبدٍ سابِقٍ مسيحي. مثلما تقومُ الأقليات العربية هذه الأيام في دُول الخليج بِتَركِ تَسييرِ الأعمال وإدارة البلاد وتَوسيع الاقتصاد لأناسٍ مِن غَير العرب غالبيتُهم من جنوب آسيا، كذلك كان العربُ في العَصر الأموي يَعهَدون بتَوسيع الإمبراطورية إلى غَير العرب(*).

لا يبدو محتَملاً، ولو كان ممكِناً، أنَّ طارقاً البَربَري استطاعَ أن يُلقي بالعربية الفصحى خطبَتَهُ البَليغة التي نُسِبَتْ إليه قَبلَ المعركة الحاسمة مع لُذَريق مَلك القوط الغَربيين (الذي كان أحَد الملوك الذين تم تصويرهم في قُصَير عَمرة الأموي الصّحراوي)، إلا أنها جَديرة بالذِّكر لأنها تُظهِر كيف عَرّبَ المؤرخون فَتحَ إسبانيا فيما بَعد:

«أيها الناس، أينَ المَفرّ؟ البحرُ مِن ورائِكم، والعَدو أمامَكم، فليس لكم واللهِ إلا الصدق والصبر، واعلَموا أنَّكم في هذه الجزيرة أضيَع مِن الأيتام في مأدب اللئام».

وسرعان ما تَتحول إلى أكثر أساليب العرب التقليدية في اللغة الفصحى في إيقاعِها وسَجعِها:

«وقد بلَغَكُم ما أنشَأت هذه الجزيرة من الحُور الحِسان، مِن بناتِ

(*) [معظم قادة الفتوحات كانوا من العرب، وطارق بن زياد كان استِثناءً، وجميعُهم كانوا مسلمين] (المترجم).

اليونان، الرافِلات في الدُّر والمَرجان، والحللِ المَنسوجَة بالعقيان، المَقصورات في قصور المُلوك ذَوي التّيجان، وقد انتَخَبكم الوليد بن عبد المَلك من الأبطال عُرباناً، ورَضيكم لمُلوكِ هذه الجزيرة أصهاراً وأختَاناً، ثقةً مِنهُ بارتياحِكم للطِّعان...»[١٢٤].

تُشير الجملةُ الأخيرة إلى اختِراق دُروع رِجال لُذَريق في المعركة، واختِراق «بنات اليونان» المَقصورات في السَّرير بَعد ذلك. لو قِيل هذا التلميح فِعلاً لَمَرَّ فوقَ رؤوسِ الجنود البربر دون تأثير، وكذلك كل هذه الخطبة. ولكن هذه الخطبة ليست مسألةَ حقيقة، بل هي تَعريبٌ مُتَخَيَّلٌ، ليس لطارق فقط، الذي أصبَحَ فيها سَيِّداً وخَطيباً عربياً تقليدياً، بل لِجنودِه من البربر أيضاً، الذين تَحوَّلوا إلى «فرسان من العربان». تم تَحويلُ شعوبِ جنوب شبه الجزيرة العربية إلى عَرب قَبل ذلك من أجلِ توسيع الإمبراطورية والسيطرة عليها. وقد أنتَجَ المؤرخون بشكلٍ رَجعِيٍّ مَزيداً من العرب من مَوادّ أبعَد مَصدَراً.

لم يكن هنالك بأسٌ في استِعانة العرب بمَصادر خارجية من أجلِ تَوسِعة الفتوحات وتَمرير الدَّفعِ الإمبراطوري إلى غَيرهم، لأنهم انتَشَروا على جَبهاتٍ كثيرة ولم يكن هناك بكل بساطة عَدَدٌ كافٍ من العرب لمُتابَعة الفتوحات بأنفسِهم. كان نقصاً مُدرَكاً منذ سنوات الفَتح الأولى عندما أُضيفَت الجَبهة الفارسية الثانية إلى جَبهة سورية الأصلية. كما أنّ ذلك أدّى إلى أنّ العرب أصبَحوا أكثر انعزالاً في إمبراطوريتِهم المزدَهِرة، وفي القرون التالية، عندما تَضيعُ الفَوارق بين العرب الأصليين والعرب الجدد، فإن الدَّيلَميِّين والأتراك سيَستَولون ليس فقط على الزَّخم الإمبراطوري، بل على الإمبراطورية ذاتها، ولَن يُصبحَ العرب الأصَلاء أكثَر انعِزالاً في العالَم الجديد الذي صَنَعوهُ فقط، بل سيصبحون أضْيَع من الأيتام.

سقوط سلالة بني أمية

مع فَتحِ إسبانيا في بداية القرن الثامن، أنهَى عالَم العربية إعادَة تَوجيهِ نفسِه على مِحورٍ جديد تماماً، فلم يَعُد مُتَوَّجِهاً بين الشمال والجنوب من

(١٢٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ١٦١.

هلالٍ خَصيبٍ إلى آخَر، بل أصبَحَ مُتَوجِّهاً من الشرق إلى الغرب، من المَشرق إلى المغرب، من أرضِ الشمس المُشرِقَة إلى أرض غروبها. كان تَوجُّهاً لِمَسرحٍ تاريخي أكبَر وأقدَم، مَسرح الأحداث الأفرو ـ أوراسي، وأصبَحَ الممثلون عالَميّين. كان الحُكّامُ الأمويون في ذُروَةِ قوتِهم، وسرعان ما سيَنحَدِرون عنها على رؤوسِهم. كانت المَخاطر تتزايد، وعلى الرغم من القضاء على الخليفة المنافِس في مكة، إلا أن سهول العراق كانت تَغلي، وشكَّلَ شيعةُ عليّ وأعداؤه خَطَراً مُضاعَفاً للحُكمِ في دمشق، لم يتمكَّن حتى الحجّاج الدّموي من السيطرة عليه. وإلى الشرق فيما وراء صحراءِ إيران الوسطى، وفي مناطق قربَ أفغانستان، كانت الحرارة ترتفعُ في بؤرةِ ثورةٍ ساخِنة هي ولاية خراسان.

منذ خلافة معاوية، كان العرب في خراسان مُتردِّدين في تسليم الغَنائم التي تراكَمتْ بَعدَ الفتح[١٢٥]. بَدَتْ خراسان كأنها عالَمٌ قائمٌ بذاتِه، يُحيطُ به نهرٌ وصحراء وجَبلٌ، ويستطيع حاكِمٌ مستقلٌ برأيِهِ أنْ يحكُم الولاية وكأنها إقطاعيتُه. وقد ساعد على بِناء نواةٍ من الدَّعم، أن يكون لديكَ ٣٠٠ ولَد، مثلَما كان للمُهَلَّب الذي كان أحَد الولاة في نهاية القَرن السابع، لأنهم شكَّلوا عَشيرة عربية هي المهالبة[١٢٦]. وجَدَ حاكِمٌ آخَر بَعدَه، هو قُتَيبة بن مُسلِم، أنَّ استيرادَ مؤيديهِ أسهَلَ من إنجابِهم. كان قُتيبة من أصلٍ عربي من شبه الجزيرة مثل المُهَلَّب، وكان كثيرٌ من رجالِه قادِمين جُدداً من أعرابِ منطقة الخليج كما أطلقَ عليهم قُتيبة، وقامَ بمُخاطَبتِهم وتَدريبِهم ليُشكّلوا قوةً مقاتِلَة:

الأعرابُ وما الأعراب؟ فلَعنةُ الله على الأعراب! جَمَعْتُكم كما يجتَمعُ قَزَعُ الخريفِ مِن مَنابِت الشِّيح والقَيصوم ومَنابِت القِلقِل وجزيرة أبْرَكاوان، تركَبونَ البَقر وتأكلون القَضْبَ، فحَملتُكم على الخَيل وألبَستُكم السلاح حتى مَنعَ اللهُ بكم البلاد وأفاءَ بكم الفَيء[١٢٧]!

---

(١٢٥) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٨٥.
(١٢٦) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(١٢٧) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢١.
Abarkawan, today called Qishm, is an island just inside the Strait of Hormuz.

نَجَحَتْ خطاباتُ بِناء الفريقِ وقادَ قُتيبة قواتِه في الجزء الأول من القَرن الثامن عَبرَ نَهر جيحون إلى الأراضي الخصبة فيما وراءه. إلا أن النجاحَ أطاحَ برأسِه في النهاية عندما كَتَبَ إلى الخليفة الجديد سليمان بن عبد المَلك مهدِّداً «بخَلعِ الوَلاء مثلما يَخلَعُ نَعلَيهِ» [غير حرفي] وإرسالِ جيشٍ ضِدَّه»[١٢٨]. إلا أنه لا أحَد من جنودِهِ أيَّده في ذلك، وقُتِل قُتيبة سنة ٧١٥[١٢٩].

كان الخليفة التالي في خراسان هو يزيد بن المُهَلَّب، أحَدُ أولاد الحاكِم السابق الذي كان لديه ٣٠٠ ولَد. كان قديراً جِداً، ونجَحَ في الوصول إلى الولاية مِن قَبل، إلا أنه خَسِرَ مَحبَّةَ الخليفة، وسُجِنَ ثم هَربَ. أعيدَ الآن إلى مَنصِبه، وأخَذَ في استِرجاع سُمعَتِه بتوسيع الحدود، خاصةً في المناطق المجاوِرة لبَحر قزوين. وكالعادَة، كانت المشكِلة في تقسيم الغَنائم، واتُّهِمَ في دمشق بالاحتفاظ بالغَنائم، وسُجِنَ مرةً ثانية، وهَرَبَ أيضاً. وانتقَمَ هذه المرة مِثل قُتيبة بِنزعِ وَلائِه للأمويين. هُزِم سنة ٧٢٠، وحسب بعض الروايات كان يزيد ينوي المطالَبَة بالخِلافة نفسها[١٣٠]. سواء كان الادّعاء صحيحاً أم لا، فلن تكون المرة الأخيرة التي تكون فيها خراسان مِنصَّةَ انطلاقٍ للثورة. وفي المرة التالية ستَنجَحُ الثورة نجاحاً باهِراً، وَستؤسِّس حُكمَ سلالة جديدة.

كانت بداية السلالة العباسية الجديدة ونهاية الأموية مُرتبطَتَان بسقوطِ الرأسِ الثالث من الرؤوس المَقطوعَة في قاعَة استقبال قَصر الكوفة، وهو رأس المُختار قائد الشيعة في فترتها الأولى. دَعا المُختار خلال تمرّدِه الدّموي القَصير في العراق إلى إمامَةِ محمد ابن الحَنفية، وهو أخٌ غير شقيقٍ للإمام الشهيد الحسين بن عليّ. بَعدَ وفاة محمد ابن الحَنفية في العَقد الأول من القَرن الثامن، ورِّثَتِ الإمامَةُ لابنِه أبي هاشم، وقامَتْ حركةٌ ثوريةٌ باسم الهاشمية في شرق الإمبراطورية، خاصة في خراسان التي كانت دائماً أرضاً خصبة للانشقاق. توفي أبو هاشم سنة ٧١٦ أو ٧١٧ دون أن يُخلِّفَ أولاداً، إلا أنه وَرَّثَ الإمامَة بشهامَةٍ إلى رأسِ فرعٍ آخَر من العائلة مِن نَسلِ العباس عمّ النبي محمد وعمّ عليّ... أو كان ذلك على الأقل ما أكَّدَهُ حكّام الفرع

---

(١٢٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤٨.

(١٢٩) Hugh Kennedy, *The Great Arab Conquests* (London: Orion Publishing, 2008), pp. 274-275

(١٣٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٥١ ـ ٣٥٤.

العباسي فيما بَعد. ربما كان ادعاء التَّوريثِ مُحاوَلةً مُعتادةً لتَغطِية المُطالَبة الصَّريحَة بالسُّلطة بوَرَقَةِ تِينٍ مِنَ الشرعية.

مهما كانت الحقيقة، فقد بَدأت الحَملةُ العباسية باسم الهاشمية في خراسان سنة ٧٤٧، وكانت ثورةً جَمَعَتْ مَزيجاً كبيراً من المُستائين الهاشميين المُتَشدِّدين، والفلاحين الفرس والنبلاء (معظمُهم مِن غَير المسلمين)، الجِيل الثاني والثالث من العرب الفارسيين، والعرب القادمين حديثاً من العراق، وكانوا جميعاً قد سَئموا من مُلّاكِ أراضيهم الغائبين في دمشق البعيدة. كان قائدُ الثورةِ المَولى أبا مُسلِم. لم يُعرَف فيما إذا كان أبو مُسلِم فارسياً أو عربياً أو ربما كُردياً في الأصل[١٣١]، إلا أنه كان يُجيدُ العربية والفارسية[١٣٢]، وفي الغالب أنه كان في البَدء عَبداً فارسياً. وعلى كل حال، كان شخصيةً أخرى من تلك النتائج المركَّبة من المَزيج الإمبراطوري، وأحَدَ اللاعبين المُوَلَّدين الذين بَدؤوا بوراثَة الزَّخم العربي والبلاغة العربية القديمة. عندما قامَ أبو العباس، أول الخلفاء العباسيين، بمَدحِ دَورِ أبي مُسلِم في الثورة، أجاب الأخير بأبياتٍ من الشِّعر بلغةٍ عربية صافية:

قد نلتُ بالعَزم والكِتمان ما عَجزتْ ... عنه ملوكُ بني مروان إذ حَشَدوا
ما زلتُ أضربهمْ بالسيف فانتَبهوا ... من رَقدَةٍ لم ينمْها قَبلهمْ أحَدُ
وطُفتُ أسعَى عليهمْ في ديارِهمُ ... والقومُ في مُلكهمْ في الشام قد رَقَدوا
ومَن رَعى غَنَماً في أرضِ مسبعَةٍ ... ونامَ عنها، تَولَّى رَعيها الأسَدُ[١٣٣]

حاوَلَ والي خراسان الأموي تَنبيهَ سادَتِهِ للخَطر شِعراً باستِخدام استِعارة النوم، إنما مَمزوجاً مع النار:

أرى تحت الرَّمادِ وميضَ جَمرٍ ... ويوشِكُ أن يكونَ لَهُ ضِرامُ
فإنَّ النَّارَ بالعودَين تُذكَى ... وإنَّ الحربَ مَبدؤها كَلامُ
فإنْ لَم يُطفِها عُقلاءُ قَومٍ ... يكون وقودَها جُثثٌ وهامُ

(١٣١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٤.
(١٣٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١.
(١٣٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٣.

'Marwan's line' are the later Umayyads, descended from Marwan ibn al-Hakam.

فقلتُ مِنَ التَّعجُّبِ: ليتَ شِعري   أأيقاظٌ أميةُ أم نِيامُ
فإن يكُ أصبَحوا وثَووا نِياماً   فقُلْ قوموا فقد حانَ القِيامُ![١٣٤]

صَيحةُ الإيقاظِ ذَهَبَتْ سُدى، لم يكن الخليفة مروان الثاني ابن محمد نائماً، بل كان مَشغولاً بمُحاوَلة قَمعِ تمردِ خَوارجٍ في شمال العراق، والتعامل مع اضطراباتٍ في تلك الأرضِ المشتَعلة، بينما اندَلَعتْ نارُ ثورةٍ أكبَر في خراسان، وانتَشرتْ حتى فاتَ أوان إخمادِها.

خلال سَنتَين تقريباً، سَحقَتْ جيوشُ الثورة الحُكمَ الأموي في فارس والعراق، وفي محاولةٍ أخيرةٍ لإنقاذ مُلكِهِ، واجَهَهم مروان الثاني في كانون الثاني/يناير ٧٥٠ في منطِقة الزّاب الكبير، وهو فَرعٌ من نهر دجلة. كان معاوية، أول الخلفاء الأمويين، قد بَرَزَ من عَتمَة القتال مع عليٍّ في صفّين على نهر الفرات. والآن، بتَناظُرٍ قاتِم، تُخَيِّمُ العَتمَةُ على آخِرِ خلفاء معاوية في معركةٍ قُربَ نهرٍ على الطَّرَف الآخَر من سَهلِ الهلال الخَصيب. اختارَ الثوارُ اللونَ الأسوَد شعاراً لهم:

وفي أوائلهم البنود السود يحملها الرجال على الجمال البُخْت... قال مروان لمن قرب منه: «أما ترون أرماحهم كأنها النخل غلظاً؟ أما ترون إلى أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع من الغمام سود؟» فبينا هو كذلك إذ طار من أفرجة هنالك قطعة من الغرابيب سود فاجتمعت على أول رايات عبد الله بن علي (القائد العباسي)... ومروان ينظر فتطير من ذلك فقال: «أما ترون السواد قد اتصل بالسواد، وكأن الغرابيب كالسحب سواداً؟» ثم نظر إلى أصحابه المحاربين وقد استشعروا الجزع والفزع والفشل فقال: «إنها لعدة، وما تنفع العدة إذا انقضت المدة؟»[١٣٥].

تخَرَّبَ كلُّ شيء، وعَمَّ الظلامُ مِنَ الشرق، وكان قدومُهُ على ظهورِ جِمالٍ غريبة ذات سنامَين يُشيرُ إلى مَدى غَرابة تلك القوى التي اجتَمَعَتْ ضِدَّ مروان. كان العرب أنفسهم منقَسِمين إلى جماعتَين: إحداهما شمالية والأخرى جنوبية، بشكلٍ واقعيٍّ أحياناً، وبسبب ادِّعاءات في أحيان أخرى.

---

(١٣٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١ ـ ٧٢.

(١٣٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٢٦٥.

أما إمبراطوريتهم، التي أصبَحتْ تَتوجَّهُ على مِحوَرٍ أفريقي ـ أوراسي مختلف، فقد بَدأت الصراعاتُ فيها تُواجِهُ الشرقَ بالغَرب؛ عليٌّ في العراق مقابل معاوية في سورية، والعباسيون في خراسان مقابل الأمويين في شرق المتوسط، وفيما بَعد سيواجِهُ العباسيون في بغداد خلافاتٍ مُنافِسة جديدة في مصر والأندلس. سَيأتي الأعداءُ من الشرق والغرب، وسيَهبِطون على الإمبراطورية العربية؛ الأعداءُ الصليبيون الأقل عدداً، ثم المصير الأعظم المُظلِم الذي سَيحلُّ مع المَغول من الشرق. حتى صراعات هذه الأيام، سواء كانت حقيقية أو مُتَخَيَّلَة، تميلُ للقُدومِ على مِحوَرٍ شرقي ـ غربي. لم يَستعدّ الأمويون لمواجَهة المَخاطر الجديدة في التَّعددية المُخيفَة.

هناك أسبابٌ عديدة بالطَّبع لسقوط الخلافة الأموية، ذَكَرَ أحَدُ النّاجِين القلائِل من عائلتهم بعضَ الأسباب بصَراحة تامّة: حُبُّ التّرف، وظُلمُ الناس، ومن ثَمَّ عدم رغبتهم في دَفِع الضرائب، وإفراغُ بَيتِ المال، وعدم دَفعِ رواتِبِ الجنود، مما أغراهُم بالانضِمام إلى صَفِّ الثورة... وكلها أسبابٌ نموذجيةٌ لانحِدار حُكم السلالات وزَوالِه. ولكن الأهمّ من ذلك كله، حسبما أقَرَّ النَّاجِي الذي لا اسمَ لَهُ، هو أنَّ انهيارَ الأمويين كان بسبب انفِصالِهم عن الواقع، «وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»[١٣٦]. أو بالأصَحّ أنه قِيلَ لَهم ذلك، كما وَرَدَ في إنذاراتِ النارِ والرؤوس والجُثث، إنما بَعدَ أن فاتَ الأوان.

أدرَكَت الوقائعُ مروان الثاني بصورةِ الهزيمة في مَعركة الزاب، وطارَدَتْه إلى مصر حيث حاوَلَ عَبَثاً دَفنَ شعاراتِ الخلافة: الثّوب والصَّولجان والعَصا، إلا أنها وُجِدَتْ، وكذلك قُبِضَ عليه[١٣٧]. أُرسِلَ رأسُهُ إلى أبي العباس الذي أعلَن خِلافَتَهُ في الكوفة. رأسٌ آخَر وتَناظرٌ آخَر. قامَ أبو العباس بقَطعٍ آخَر مع الماضي باتّخاذ لَقَبِ خِلافَة: «السَّفاح». كان لَقَباً مُناسِباً بطريقةٍ غريبةٍ، لأنه يُغطّي على جميع الاختلافات والتَّناقضات التي سَتَسِمُ الخِلافَةَ العباسية، لأنه لَقَبٌ يَعني «مانِحَ العَطايا أو الكريم»، ويَعني أيضاً «سَفَّاكَ الدِّماء» (كما يمكن أن يَعني بالعربية «الماهِر بالكلمات»).

---

(١٣٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤١.

(١٣٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٥.

الفترةُ الأموية التي كانت الأكثر «عروبة» في التاريخ العربي من كثير من الوجوه كانت كذلك الأقصَر، إذ إنها لم تستمر سوى أكثَر قليلاً من عُمرِ إنسان. إلا أنها كانت فترةً ارتَبَطَت فيها شعوبُ الجنوب من حيث النَّسَب بشَجرةِ القبيلة، وتم فيها تَعريفُ جميع سكان شبه الجزيرة أخيراً وبشكلٍ نهائي كَعَرَب، وكانت فترةً ارتَكَزَتْ فيها إمبراطوريتهم التي أصبَحتْ مُترامِيةً الأطراف على بَيتِهم في شبه قارَّتِهم. أما بالنسبة إلى الأمويين أنفسهم:

وأنهم معدن الملوك ولا تصلح إلا عليهم العربُ[١٣٨]

سيَكتُبُ الجاحِظُ آخِر كَلمةٍ عن الأمويين، وهو عالِمُ العروبة الكبير الذي سَرَدَ الوصفَ السابق، أما الخلافة العباسية التي عاشَ في ظِلِّها فكانت:

عَجَمية خُراسانِية، أما الخلافة الأموية... فقد كانت عرَبية أعرابية[١٣٩].

لا يمكنكَ أن تكونَ أكثَر عروبةً مِنْ ذلك.

قَصرُ هشام

كانت الخلافةُ الأموية مثيرةً للانقسام العميق أيضاً مثلما تَشهَد على ذلك الرؤوسُ الأربَعة في بِداية هذا الفَصل، إذا لم تُذكَر عشرات أو مئات آلاف الرؤوس الأخرى التي سَقَطَتْ على مَرِّ تسعين سَنة مِن حُكمِها، وستزداد الانقسامات عُمقاً في المستقبل.

هناك قصرٌ آخَر من قصور الصيد الأموية مِثل قُصَير عَمرة، ذي القبة السماوية واللوحات الجصية، يَقَعُ شمال مدينة أريحا الفلسطينية. يُسمّى القَصر في أريحا «خُربَة المَفجَر»، إلا أنه يُعرَفُ عامّةً باسم «قَصرِ هشام». لا توجَدُ كتاباتٌ أو وثائق تَربط القَصرَ بهِشام، ولكنَّ تزييناتِه الغنية تُناسِبُ ذلك الخليفة الذي كان يُحبُّ الشِّعر والحياةَ المُترَفَة، والذي وصِفَ سابقاً وهو مُلتَفٌّ بالحرير الأحمر المُضَمَّخ بالمِسكِ وحَولَهُ رُخامٌ وذَهَبٌ. تُواجِهُ أطلالُ

(١٣٨) الجاحظ، كتاب البيان والتبيين، ج ٣، ص ١٣٨.
(١٣٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٩.

القَصرِ الآن مَوقِعاً أكثَر حَداثة هو مُخيمُ النُّوَيعمَة للاجئين الفلسطينيين. ربما يكون تصويراً كامِلاً لسُخرية الأقدار. وقد وَصَفَ ذلك شريف الموسى مُعلِّقاً: «صورةٌ أكثر إثارةً للمَشاعر عن التبَّاين بين حالَة العرب آنذاكَ وحالَتهم الآن، لا يَستطيعُ أن يَتصَورها أكثرُ الشُّعراء جُموحاً في الخَيال»[١٤٠]. يجب أن يَعرفَ الموسى ذلكَ لأنه هو نفسُه شاعرٌ نَشَأ في مُخيَّم النُّوَيعمَة. إلا أن بُذورَ الانحِدار من الصراعات العائلية والعشائرية والقَبَلية والمذهبية كانت موجودة قبل بناء القصر. ربما يكون المخيم تبايناً في العمارة إلا أنه يَنتَمي تاريخياً لاستمرارٍ في التَّفرق والانقِسام كان القَصرُ جُزءاً منه كذلك. أنشَأ الأمويون قصوراً، إلا أنهم خَلَقوا مُخيَّمات سياسية مثل تلك التحالفات الشمالية والجنوبية التي كانوا سُعداءَ باستِخدامِها وسوءِ استِغلالها. فقد ساعَدَهم اللعب بِطَرَفٍ ضِدَّ الآخَر على تأسيس سلالتهم، وأنقذَها ذلكَ مِنَ الخليفة المنافِس في مكة. إلا أنه ساعَدَ في النهاية على التمرد في خراسان وعلى زَوالِهم. اتَّضَحَ أنَّ الانقسام الشمالي الجنوبي أكثر استمراراً من أية سلالة، وأكثر ضَرراً من الصراعات الأخرى التي ارتبطَتْ به أحياناً، وسارَتْ على مِحوَرٍ شرقي - غربي. أشارَ حتِّي:

«يبدو أن قضيةَ الشمال والجنوب قد ظلَّتْ حَيَّةً في لبنان وفلسطين حتى العصور الحديثة، لأننا نَعرفُ عن معاركَ ضَارية دارَتْ بين الفَريقَين في بداية القَرن الثامن عشر»[١٤١].

لم تَختَفِ القضية، بل استمرَّتْ في الوجودِ بأسماء مختلفة، كما أن القضيةَ الأعمَق في الجَدَل بين البَدو والحَضَر لم تَنتَهِ بَعد. قَصرُ هشام ومُخيَّم النُّويعمة هما تصويرٌ للتَّباين، وكذلك للاستمرار، كنُقطَتينِ على مَسارٍ مِنَ التَّرفِ إلى البؤس.

(١٤٠) Penny Johnson and Raja Shehadeh, eds., *Seeking Palestine* (Northampton, MA: Olive Branch Press, 2013), p. 36.

(١٤١) Hitti, *History of the Arabs*, p. 281.

الفصل التاسع

إمبراطورية بغداد
السيادة العَباسية

في وسَط العالَم

في سنة ٨٧١، قام مَغامِرٌ من أهلِ البصرة اسمُه ابنُ وَهَب بالإبحارِ إلى الصين بعد أن «نزعت به همّتُه». بَعدَ وصولِه سيطَرتْ عليه رَغبةٌ أخرى، فتابَعَ طريقَهُ إلى العاصِمة الإمبراطورية شَانغَان لزيارة إمبراطور سُلالة تانغ. نَجَحَ إصرارُ ابن وَهَب، وحَظِيَ بمقابَلة الإمبراطور بَعدَ انتظارٍ طويل، وكتابةِ كثيرٍ من الالتماسات، والخضوعِ لتَحقيقاتٍ واستفساراتٍ مِنَ البلاط الإمبراطوري. الملوك مهووسون برسميّات ترتيبهم بعضاً مع بعض، وكان مِن أوائِل الأسئلة التي طَرَحَها الإمبراطور على زائِره:

«فما منزلة سائر الملوك عندكم (أي عند العرب)؟» فقال: «ما لي بهم علم.» فقال للترجمان: «قل له إنا نعد الملوك خمسة، فأوسعهم مُلكاً الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملك الملوك، وبعده ملكنا هذا»[1].

يَعني نفسَه، ثم يليهما مُلوكُ التركِ والهند وبيزنطة.

إجابَةُ الإمبراطور مُدهِشَةٌ، ألَم تكن الصين المَملكة الوسطَى، وشانغان النقطة المتوسِّطَة في العالَم المُتَحضِّر؟ هل اعتَبر إمبراطور تانغ الخليفةَ العباسي في بغدادَ البَربَرية أكثَرَ أهمية مِنهُ حَقاً؟ يبدو ذلك بعيدَ الاحتمال

(١) Abū Zayd al-Sīrāfī and Ahmad bin Fadlan, *Two Arabic Travel Books: Accounts of China and India and Mission to the Volga*, edited and translated by Tim Mackintosh-Smith and James E. Montgomery (New York; London: New York University Press, 2014), pp. 79-81.

جِداً. كما أنَّ المَلك الكافِر الحَكيم الذي يقدِّمُ تعليقات موجَّهة ضِدَّ مُجتَمَعِه هو شخصيةٌ أدبيةٌ متكررة الظُّهور[٢]، فقد أعادَ المَسعودي سَردَ هذه القصة الصينية، كما كتَبَ عن مَلك النوبيين المسيحي الذي تَفَوَّهَ بانتقاداتٍ لاذِعة ضِدَّ الأمويين وعدَم تَدَيُّنِهم[٣]. ولكن، سواء تم ذلك اللقاء في شانغان أم لا فإن النقطة التي تَطرَحها القصة ليستْ أقلَّ صحة، فقد كانت بغداد تُسيطِر على أكبَر إمبراطورية في العالَم، وهي تقَعُ بالفِعل في منتصف الطريق بين أقصَى غرب أفريقيا وأقصى شرق الصين، وهما طَرَفا امتدادِ أكثَر شَريطٍ سكاني في الأعمال والتجارة في القارة الأفريقية ـ الأوراسية العظمى، وإقليم يَشمَلُ مصر والهلال الخصيب وفارس وشمال الهند والصين ذاتها. تقَعُ البصرة التي جاءَ منها ابنُ وَهَب على نهر دجلة إلى الدّاخل قليلاً من رأس الخليج، وهي ميناءُ بغداد، ومنتصفُ الطريق حولَ سواحل المحيط الهندي، وهي أيضاً المَوقع الذي يَصِلُ الساحل الغَنيّ لأعظَم بحار تجارةِ العالَمِ القديم إلى أعمَقِ نقاطِهِ داخل اليابِسة.

هناك دليلٌ صغير مَلموس على أن الإمبراطورية العربية كانت في وَسَطِ العالَم القديم، ليس فقط من الناحية الجغرافية. يأتي هذا الدليل من زاوية العالَم في أقصَى الشمال الغربي. أصدَرَ المَلك أوفا في إنكلترا سنة ٧٧٤ عُملَةً ذهبيةً تقليداً لِدينارِ الخليفة المَنصور، أول خليفة عباسيّ كبير. كُتِبَ في وَسَطِ القطعة النقدية: «أوفا ريكس OFFA REX»، أيّ «أوفا المَلِك»، بالأحرف الرومانية المكتوبة مقلوبةً بين الكلمات العربية:

محمد رسول الله

الشهادةُ الإسلامية تَرنُّ في عُملَةٍ إنكليزية، وحتى الاسم اللاتيني لهذا النوع من العملة «مانكوس mancus» ربما جاء من الكلمة العربية «مَنقوش». لا يدل ذلك على أنّ السكان الأنغلوساكسون في منطقة ميرسيا Mercia قد تَحوَّلوا فجأةً إلى الإسلام، ولكنه كان اعتِرافاً كتابياً بأن الدِّينار العباسيّ كان

(٢) Ibid., p. 11.

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٣، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

بمَثابة الدّولار الأمريكي آنذاك، وأنّ هنالك قوة عظمى جديدة، وثقافة عظمى جديدة، وأن العَصر الكلاسيكي قد انتَهى أخيراً[(٤)]. ومِن الممكن أنّ الكلمات العربية كانت مَقلوبَةً لأنه مِن غَير المعقول أن حِرَفِيّاً يَصُكُّ النقودَ في وَسَطِ إنكلترا كان يَعرِفُ طَريقةَ الكتابة العربية ومَعناها. ولكن، إذا عَكَسَ ذلك عَدَمُ الفَهم العام للقوة الثقافية الجديدة، فإن ذلك الانعِكاس صَحيح.

عالَم كرويّ، مدينةٌ مدورة

بَدأ العباسيون في منتصف القَرن الثامن بصياغَةِ عَصَبيةٍ جديدة، وعَجَلَة نارٍ جديدة، مثلما يفعلُ جميعُ الباحثون عن السُّلطة. ومثلما حَذَّرَ الوالي الأموي في خراسان:

فإن النارَ بالعودَين تُذكَى وإن الحربَ مَبدؤها كَلامُ
فإنْ لم يُطفِها عُقلاءُ قَومٍ يكون وقودَها جُثثٌ وهامُ[(٥)]

انتشَرَت النار من الشرق، واستَهلَكت كل شيء في طَريقها، إلا أنها سرعان ما ستَلتَهم نفسَها. منذ أن خَصَى العملاقُ البدائي كرونوس Cronus والِدَه، وتابَعَ بابتلاعِ أولادِه، أكَلَت الثوراتُ أبناءَها. وسرعان ما سيُبعِد العباسيون رفاقَهم الهاشميين الثوريين عن السُّلطة، وسيُبعدون كذلك شيعة عليّ بشكلٍ عام، ثم سيَستَديرون ضِدَّهم بشكلٍ عنيف فيما بَعد. ومرةً أخرى، ستأخُذُ عَشيرةٌ صغيرة من قبيلة قريش المَكّية رسالةَ الإسلام التي تَكسِر القَوالبَ الجامِدَة، وسيُعيدون تَشكيلَها للانفراد بالسُّلطة. ومرةَ أخرى، ستُحَوِّلُ وحدَةُ الإسلام المِثالية العالَمية إلى وحدَةٍ خاصّة، ووَلاءٍ لقُوةٍ دُنيوية.

ولكن كان هنالك فَرقٌ، فقد كان الأمويون الأعيان قَبلَ محمد، وحَكَموا فَترةَ قَرنٍ من الزمان تقريباً من العصر الإسلامي الجديد بأسلوبِ مُلوكِ العرب القدماء. وكان جُمودُهم ومقاوَمتُهم للتعّددية جُزءاً مهمّاً من أسباب سقوطِهم. تألّفَ العباسيون من عناصر أكثر مُرونَة، فقد كان جَدُّهم

---

(٤) انظر وجهة نظر هنري بيريني، في: D. M. Dunlop, *Arab Civilization to AD 1500* (London; New York: Longman; Beirut: Librairie du Liban, 1971), pp. 18-19.

(٥) قارن: ص ٣٧٤ من هذا الكتاب.

الذي مَنحَهم اسمَهم هو العباس عمّ محمد، وكان أحَد الذين عارَضوا محمداً، وحارَبوا ضِدَّهُ في معركة بَدر. ولكن عندما اتَّضَح أن النَّصرَ سيكون حَليفَ محمد، دَخلَ أبناءُ العباس بإخلاصٍ في المَشروع المتوسِّع، وانتَشَروا كما رأينا مِن شمال أفريقيا إلى وسَط آسيا[٦]. أما بالنسبة إلى ابنِهِ عبد الله الذي بَقِيَ في المدينة، فقد كان الجَدَّ الأكبر لأول اثنَين من الخلفاء العباسيين. ويُذكَرُ أنه أول المُفَسِّرين للكتابات الإسلامية. لم يَتبَع العباسيون خُطَى الإسلام فقط، بل ساروا إلى حيث قادَهم على طُرُقِ العِلم أو الغَزو. صَمَدَتْ مُرونَتُهم، وستَضمَنُ بَقاءَ سلالَتِهم، حتى لو اقتَضَتْ نهايَةَ سلسلةِ القوة العربية، كما أنها أدَّت إلى أنّ سلالتهم ستُناقِضُ نفسَها مِراراً. على الرغم من أنهم سيتَمَسَّكون بالخلافة أكثر من ٧٠٠ سنة، إلا أنهم لن يَحكُموا فِعلياً أكثر مِن قَرنٍ واحِد. وسيَحكُمون اسمياً أربعَة قرونٍ أخرى، وسيَعيشون بقيةَ عَصرِهم في قَفَصٍ ذَهَبيّ في القاهرة. إنهم أعظَم سلالة عربية حاكِمة، وسيكونون أيضاً آخِر سلالة عربية حاكِمة عظيمة، والأقلَّ عروبة مِن نَواحٍ كثيرة.

كانت مُرونَةُ العباسيين واضِحة منذ بداية حُكمِهم تقريباً. كان الأمويون قد ضَمنوا مكانَتَهم في العالَم الأفريقي ـ الأوراسي ـ المتوسطي، إلا أنهم لم يَفصِلوا أنفسَهم عن شبه الجزيرة العربية وماضي العرب الطويل. كانت عاصمتُهم المختارَة امتداداً لذلك التاريخ، فقد كانت واحَةً من أحلام العرب، وجَنَّة دُنيوية معتدِلة في أرضِ التين والزيتون، كما أنها كانت مدينةً سَكَنَها قَبلَهم حكّامٌ كُثُرٌ في لُعبَةٍ ألفِيَّةٍ من الكراسي الموسيقية المُتبادَلة. أسَّس العباسيون بدايةً جديدة، فأخَذوا بمَسح آثارِ مَن سَبقوهم بشكلٍ مَنهَجي بأقسَى الأساليب، ونَبشِ قُبورِهم، وحَرقِ جُثَثِهم. تَعرَّضَ مُحِبُّ الشِّعر هشام لمُعامَلةٍ قاسية خاصّة بَعد المَوت انتِقاماً لِصَلبِهِ وحَرقِهِ لثَورِيٍّ مِن شِيعة عليّ هو زيد بن عليّ. تم جَلدُ جثّة هشام ثمانينَ مرَّةً قَبلَ حَرقِها[٧]. ولحُسنِ حَظِّ مُحِبِّي الفَنّ الإسلامي، لم تَتعرَّضْ هذه العقوبات واللعنات التاريخية للأبنية الدينية الأموية العظيمة وقصور الأمويين الريفية البعيدة.

(٦) قارن: ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ من هذا الكتاب.

(٧) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٢١٩ ـ ٢٢٥، وشمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٣، ص ٢٦٠.

أدارَ العباسيون ظُهورَهم لسورية، وحَكَمَ أولُ خلفائهم أبو العباس السَّفاح من الكوفة. ولكنّ تلك المدينة ظَلَّتْ مَركَزَ نَشاطِ الشِّيعة، وعلى الرغم من أن شيعة عليّ كانوا رفاقَ الثورة، إلا أنهم لن يَظَلّوا كذلك فترةً طويلة، فقد تمّ استِخدامُهم، وسرعان ما سيُسحَقون أيضاً. ولذا فقد أسَّس السَّفاح عاصمةً جديدة على مسافةٍ مُريحَةٍ قُربَ الأنبار على بُعدِ ٢٠٠ كم على نهر الفرات. لم يَكَد الخليفةُ يَنتَقل إليها حتى توفي سنة ٧٥٤ إثرَ إصابتِه بالجُدَريّ. وهكذا فإن البداية الحقيقية للخلافة العباسية بدأتْ تحت حُكمِ أخيه أبي جعفر المَنصور.

أكثر ما يُذكَر عن المَنصور هو تأسيسُهُ لمدينة السلام والأحلام والكوابيس، التي تُعرَفُ عادةً باسم بغداد، وكانت مُستوطَنَة صغيرة وُجِدَتْ في المكان نفسه قَبلَها. كانت مدينةً جديدة أخرى في الأرض المِحوَريّة بين شبه الجزيرة العربية وفارس، إلا أن موقِعَها سيكون له مصيرٌ مختلف. بُنِيتْ بغدادُ على نهر دجلة مثل العاصمة الفارسية القديمة قطسيفون الموجودَة بقُربِها، إلا أنها تختلفُ عن قطسيفون بأنها كانت على ضفّتَي النهر، بحيث كانت ضَواحيها الشرقية على بداية الطريق الذي يؤدّي إلى خراسان. حتى ذلك الوقت، كانت المدن العربية الرئيسية، مثل الحِيرة القديمة والكوفة والبصرة الأكثر حداثة، قد بُنِيَتْ على الضفة العربية من نهر الفرات، وهو النهر الغربي. أعادَت العاصمةُ الجديدة تَوجيهَ جغرافية الإمبراطورية سياسياً ونفسياً نحو الشرق ونحو الغرب أيضاً. كان العرب قد انتَقلوا مع زَخم فتوحاتِهم الأولى إلى مناطق أوراسيا. ومع انتقالِ الأمويين إلى دمشق، وجَّهوا أنظارهم نحو الشمال والغرب من العالَم القديم، بينما احتَفَظوا برؤيةٍ نحو الجنوب إلى شبه الجزيرة العربية القديمة. نَظَرَ العرب من بغداد نحو الشرق أيضاً ونحو المستقبل.

كانت بغدادُ مدينةً عالمية إمبراطورية وتَمييزية انعَكَسَ توجُّهها العالَمي على تصميمها الذي تَرَكَّزَ حول المدينةِ المستديرة العظيمة التي تم تخطيطها بشكلِ دوائر متداخلة مثل الدَّريئة، ووُضِعَ قصرُ الخليفة في مَركزها. اشتَغَلَ ٥٠,٠٠٠ عامِل لِبنائها في وقتٍ واحِد[٨]. سرعان ما أمَرَ المَنصور التجارَ

(٨) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٨.

بالقدوم وتأسيس أسواقٍ حسب التقاليد التجارية المكية الجيدة. شكّلوا ضاحيةً تجارية اسمُها الكَرخ(٩). كانت دمشقُ مدينةً قديمة على طريق البخور، وسرعان ما أصبَحتْ بغدادُ المَركزَ الجديد لطرق تجارة الحرير والتوابل التي عَبَرَت البحرَ واليابسة. كانت المدينةُ المستديرة عاصِمةَ الخلافة إلا أنها لم تكن مدينةً انطوائية ممنوعَة. كانت بواباتُها في النقاط الرئيسية تقودُ إلى جهاتِ الإمبراطورية الأربع، وبَنَى المَنصور فوقَ كلٍّ منها مرصداً مَفتوحاً يستطيعُ أن يُراقِبَ منه القادمين والذاهبين(١٠). كان مُتَنَبِّهاً للعالَم الأوسَع ومَوقِعه من العالَم. ربما لم تُمَثّل فيه منطقة ميرسيا الأنغلوسكسونية سوى جزء من العالَم «الإفرنجي» العام، ولكن الأطراف الأخرى كانت واضِحة. قالَ في أحَد الأيام وهو يراقبُ السَّير على نهر بغداد: «هذه دجلة، ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كل ما في البحر»(١١).

لم تُؤسَّس بغدادُ إلا في سنة ٧٦٢ عندما كان المَنصور خليفةً لثماني سنوات كان خلالَها مَشغولاً بتسوية الأمور السياسية وإزالة جميع العَوائق أمامَ انفرادِه بالحُكم. كان أول تلك العوائق القائد العسكري للثورة العباسية والمُنتَصر في معركة الزاب الكبير بجِمالِه ذات السّنامَين ورايتِه السوداء: عبد الله بن عليّ، الذي كان عمّ المنصور. حاوَلَ المُطالَبة بالخلافة، فَحُوصِرَ، وقُبضَ عليه، ووضِعَ في إقامَةٍ مَنزلية إجبارية، ثم قُتِلَ عندما انهارَ البيتُ فوقَهُ بنوعٍ من المُصادَفة التي تَحدُثُ عندما يكون الحُكّامُ مُسيطِرين (تم استِدعاء أناسٍ موثوقين لكي يشهَدوا أنّ الأمرَ كان حادثةَ قضاءٍ وقَدَر)(١٢). بَعدَ أن تَعامل مع عمّه، حَوَّلَ المَنصور تركيزه إلى القائِد المُخلِص والزعيم الثوري الذي قَبَضَ عليه، أبي مسلِم الخراساني. هناك إشاراتٌ إلى أن القصة القديمة ستُكَرِّرُ نفسَها، وأن أبا مسلِم سيقومُ بمحاوَلةِ الاستقلال في خراسان، تلك الولاية الغنيّة البعيدة المشاكِسة. أمَرَ المَنصور بقَتلِه، ثم كان

(٩) أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٢٨٩.

(١٠) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(١١) Ya'qubi quoted in: Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, with afterword by Malise Ruthven (London: Faber and Faber, 2002), p. 64.

(١٢) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٢ و٣١٥ ـ ٣١٦.

عليه التعامل بدَموية مع جماعةٍ ثورية متمرّدة نَهضَتْ باسمِه(١٣). وعندما بدأ المَنصورُ العملَ في عاصِمَتِه الجديدة أخيراً، ثارَتْ عناصرُ شيعية كانت قد تحالَفتْ سابقاً مع العباسيين بقيادة اثنَين مِن أحفاد عليّ، وسرعان ما تم القضاء عليهما، واحِد في المدينة، والآخَر قُربَ الكوفة في ذلك المكان الذي تَسقطُ فيه الرؤوس. وبالطبع، تم قَطعُ رأسِ الأخير منهما(١٤). جَلَدَ العباسيون جُثَثَ الأمويين انتقاماً من سوءِ معاملَتِهم لأبناءِ عليّ وأحفادِه، وكأنهم أرادوا بذلك تلقين دروس التاريخ بالسوط. أما العباسيون أنفسهم فلم يتعلموا شيئاً، وذهبت دروس الماضي أدراج الرياح.

تَخَلَّلَ بُنيَتَها نِفاقٌ وتَناسٍ وخيانة واغتيال الأقرباء، وستَظَلُّ بغداد والإمبراطورية العباسية بشكلٍ عام مستقرةً بعض الوقت. وَصَلَت الفتوحاتُ إلى حُدودِها القُصوى خلال عَقدَين قَبلَ الانقلاب العباسي، وأصبَحتْ حُدودُ الإمبراطورية متماسِكة، وأسِّستْ فيها شبكةُ تَحكُّم واتصالات. تَوزَّعَ نَسلُ الإخوة العباسيين الخمسَة من الجِيل الإسلامي الأول في مناطق واسِعة امتَدَّتْ من شمال أفريقيا إلى سمرقند. وبالمِثل، في أوائل العصر العباسي، سيَجِدُ أخوان هما يزيد بن حاتم وروح بن حاتم أنفسهما والبَين في شمال أفريقيا والسّند. كان الفَرقُ هو أنه عندما توفيَ الأولُ منهما تم تَعيينُ الثاني في مَنصِبِه، ونَقلِهِ مِن أحَد أطرافِ الإمبراطورية إلى الطَّرفِ الآخَر عبر نصف امتِداد العالَم المَعروف آنذاك(١٥). كانت المدينة المستديرة مَركزَ السيطرة والاتصالات لإمبراطوريةٍ ضخمة ومتحركة. سُمِعَ هارون الرشيد، حَفيدُ المَنصور، وهو يُخاطِبُ غَيمَة: «امطري حيث شئتِ فإنّ خراجكِ لي». ولم يكن في ذلك الأمر كثير من المزاح، لأن الضرائب والتقارير والمهمّات الرسمية ستَتوارَد بسرعة متزايدة من مسافاتٍ متباعِدة. فمَثلاً، كان السفر مباشرةً من أقصَى نقطةٍ بعيدة في خراسان إلى بغداد ممكِناً خلال ١٢ يوماً، وهي مسافةٌ تُقارِبُ ١٥٠٠ كيلومتر(١٦). وحتى المَحاصيل نفسها يمكن أن

(١٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(١٤) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٧ ـ ٣١١، و Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), p. 290.

(١٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(١٦) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٧.

تُرسَل بما يشبه البريد السريع، ويمكن إرسالُ فاكهة الخوخ الكرزي مسافةَ ٢٥٠٠ كم من كابُل وتَصِل طازَجَة إلى بغداد[١٧].

بالنظر إلى هذا التَّواصُل الذي تم ترتيبه جيداً، وواقِع أنَّ دائرةَ البريد عَمِلَتْ أيضاً كدائرةِ مخابراتٍ للخليفة بكفاءة عالية، أصبحَ الاختِفاءُ عن العباسيين صَعباً جِداً. وهكذا انتَهى مَن بَقِيَ مِن نَسلِ عليّ بالتفرّق بين أصقاع متباعِدة من حدود الهند إلى شواطئ المحيط الأطلسي[١٨]. سيَظَلُّ كثيرٌ منهم في غياب وعزلة. زُرتُ مرةً مَعقلَ أسلافِ عائلة عَلَوية في موريتانيا، وكانت حِصناً طينياً في أبعَد حدود الصحراء عن بغداد[١٩]، حيث صَمدَ أفرادٌ من تلك العَشيرة ضد مضطَهِديهِم على بُعدِ ٣٥٠٠ كم منذ ١٢٥٠ سنة مضَت. إلا أن بعضَهم تمكَّن من تأسيس إماراتٍ مستقلة، مثل إمارة الأدارِسَة في المَغرب التي تأسَّستْ سنة ٧٨٨. وكان الأشهَر هو مُغامِرٌ شابّ من بقايا الأمويين المَخلوعين نَجَحَ في الوصول إلى إسبانيا حيث أسَّسَ فرعاً غربياً من الخلافة القديمة قَبلَ أن توضَعَ أول لَبنَةٍ في بِناء المدينة المستديرة بغداد.

ربما حَكَمَ مَلكُ الملوك في بغداد أكبَرَ دولةٍ في العالَم، إلا أنه سرعان ما سيُدركُ أنه كلما كانت الدولة أكبَر، تصَدَّعَتْ أطرافُها أكثَر.

قياسُ العالَم

إذا لم يَتَّضِح للأمويين قَبلَهم، فقد كان واضِحاً للعباسيين منذ البداية أنه لا يمكن المحافَظَة على مِثل هذه الإمبراطورية الواسِعة بالقوة العسكرية وَحدَها، بل كانت تحتاجُ إلى أمرٍ أكثر مَركزية وأشدّ قوة، هو الجَاذبية وليس الضَّغط.

كان حُكمُ الأمويين لإمبراطوريتهم المتوسِّعة إقصائياً وانعِزالياً، ولكن مع توسّع قاعِدة هَرَم الإمبراطورية وتَنوعها، ارتفَعتْ قمَّتها حتى فقَدَت التَّواصل مع الأرض. احتَاجَ الأمرُ إلى هندَسةٍ جديدة للإمبراطورية، هندَسة مستديرة

(١٧) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤١٥.
(١٨) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(١٩) Tim Mackintosh-Smith, *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah* (London: John Murray, 2010), pp. 252-254.

تستطيع أن تَضمَّ التّنوع وتتركّز في الخليفة وتُبَجّلُه، إلا أنها هندَسةٌ تُبنَى على مُستَوى مِثل هندَسةِ المدينة المستديرة. لم تكن الحالة بأي شكل من الأشكال أنَّ الإمبراطورية العباسية كانت تعتمد المُساواة سياسياً، إنما اعتُبر الخليفةُ أنه يُشارِكُ الرَّعيةَ على المُستوى الثقافي، سواء انحدَروا من نُبَلاء فارسيين، أو أرقّاء سود، أو فلّاحين هنود مهاجرين، أو بدو عرب. كانت الثقافة السائِدة في العَصر الأموي عربية ونُخبَوية من شبه الجزيرة العربية. وأصبَحَت الآن عربيةَ اللسان وإسلامية، ويمكن الوصول إليها بشكلٍ متزايد. ستَقِلُّ أهميةُ أنْ يكونَ المَرءُ عربياً قَبَلياً «حقيقياً» أو مِن المَوالي، بل كان الانتِماء إلى إلهٍ واحِد هو ما يَجعَلُ الإنسانَ عضواً في المجتمع مثلما كانت الحال في المجتمعات الجنوبية القديمة غير القَبَلية.

مَنَحَت اللغةُ العربية الناطِقين بها شعوراً بالوحدَة قَبلَ محمد بزَمنٍ طويل، ومَنَحَ خِطابُها العربَ منذ قدوم محمد شعوراً بالهدَف، وألهَمَهم بِناء الإمبراطورية والإغارة الكبرى تحت حُكم خلفائه. وبَدأ الآن فَتحُ الإسلام أخيراً، الفَتحُ الثالث بعد فَتح اللغةِ والسلاح. كان معدَّل التَّحول إلى الإسلام بطيئاً جِداً حتى عَهد السَّفاح والمَنصور؛ فمَثلاً ظَلَّ معظَمُ الفُرسِ زَرادَشتِيين[٢٠]. تغيَّر هذا في زَمنِ خلفائهما، وسيُكمِلُ الإسلامُ تَحوُّلَهُ من دِين الأقلية إلى سَيطَرة ثقافية. كان الدَّورُ الذي لَعِبَهُ الخلفاء المُتابعون مَركزياً في ذلك، إلا أنه كان أقرَب للدَّور الذي قامَ به المُلوكُ البريطانيون كرؤساء للكنيسة الإنكليزية مما كان دَور بابوات القرون الوسطى كأمراء بحُكمِ الأمرِ الواقِع، أو دَور البابوات الأحدَث كمُفَسِّرين مَعصومين للإرادة الإلهيةَ. كان الخلفاءُ حُماةَ الدِّين، وليس ضرورياً أن يكونوا نماذجَ مثاليةً لمُمارَسته. فبالنظر مَثلاً إلى مَسألة شُربِ الخَمر، كانوا كثيراً ما يَشربون مثلما كان الأمويون. عَبَّرَ عن ذلك ببلاغَة أعظم مفكريهم، المأمون بقولِه:

فأشرَبُها وأزعُمها حَراماً   وأرجو عفو ربٍّ ذي امتنانِ

لعله يقصد قول المأمون:

فأشرَبُها وأزعُمها حَراماً   وأرجو عفو ربٍّ ذي امتنانِ[٢١]

---

(٢٠) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 10, p. 226.

(٢١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

كان يكفي رَعاياهُم وجودُهم في قَلبِ الأمورِ وأنهم استَمدُّوا اسمَهم وأصلَهم من عمِّ محمد.

غَطّى الرَّعايا الطَّيفَ الإمبراطوري، يَظهَر تَنوّعهم في لائحة الشخصيات التي قَلَّدَها وسَخِرَ منها ابن المَغازِلِي، الكاتب البَغدادي الساخِر من أواخر القَرن التاسع، وكان فيهم الأعرابيّ البَدويّ والتركي والمَكّي، والنَّجدِي من وَسَط شبه الجزيرة العربية، والفلاح النَّبَطِي المَحَلي من الهلال الخصيب، والزنجي الأسود، والسّنديّ من وادي نهر السّند والجَاتيّ من السّند، و«أشكال» أخرى مثل المِثليين والقضاة والمَخصِيين وعلماء النّحو[٢٢]. لم يمثّل العرب سوى عددٍ قليلٍ من هذه الشخصيات، وإذا تمتع العربي بأية أوّلية، فقد كان من وجهَة نظَره فقط. أن يكون المَرءُ عربياً في بغداد القَرن التاسع يُشبِهُ أن يكون المَرءُ انغلوسكونياً بروتستانتياً أبيضَ بمدينة نيويورك في القَرن الواحد والعشرين: ربما يكون مهمّاً في اعتبارِه لنفسِه، غَيرَ أنَّ أهمية ذلك تتناقَص بين سكان نيويورك.

حَفَّزَ التّنوع في بداية العَصر العباسي تَفاعلاً فِكرياً كان يَغلي بالأسئلة التي لم يكن أقلّها عن الإسلام، القوة المُوحِّدَة المُتأخِّرة. لم تكن بغداد مَركزَ المَعرفة الرئيسي، واعتَبرها أحَد العلماء «حشو عسكر الخليفة»[٢٣]، بينما كانت الكوفة والبصرة، المَدينتان التَّوأمتان المتنافِسَتان، هما عاصِمَتا العِلم والمَعرفة، كصورة عباسية لأكسفورد وكامبريدج، أو لهارفرد ويَيْل. كان الجِدال حيوياً، والتفسير حُرّاً حسبما ذَكَرَ كاتِبٌ مُعاصِر لنا.

أهم مَرحلة من ازدِهار الفكر العربي كانت في العَصر العباسي. طُرِحَتْ فيه معظمُ الأسئلة التي مازالت مَطروحَة الآن. اتَّسَم الجِدال بدرجة عالية من الجُرأة، حتى الزَّنادِقة تمكَّنوا مِن طَرحِ آرائِهم. لا نَجرُؤُ هذه الأيام على مُناقَشَةِ جُزءٍ يَسيرٍ من الأسئلة التي طَرَحَها أسلافُنا. وبهذا المَعنى، فقد تأخَّرنا عن تلك الأيام[٢٤] [غير حرفي].

(٢٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٣.

(٢٣) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٢٤) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، =

كان من بين الأسئلة المَطروحَة تَساؤلاتٌ عن طبيعة الله والقَضاء والقَدر وحرّية الإرادة والخطيئة والتّوبة. في بداية العَصر العباسي كان المُعتَزلة أبرَز الباحثين المُحاورين، وأرادوا التَّركيزَ على دَورِ الأفراد، خاصة مسؤوليات الفَرد الأخلاقية[٢٥] وقُدرَته على الوصول إلى فَهم ذاتيٍّ للنصوصِ المقدَّسة، كما أكَّدوا على أهمية الاجتهاد بمَعانيه المختلفة، والذي كان بالنسبة إلى المُعتَزلة اجتهاد المَرءِ في فَهمِ ما أَرسَلَ اللهُ للبَشرية عَبرَ رسولِه محمد. حصَلَتْ آراؤهم على دَعم قويّ عندما تَبنّاها الخليفةُ المأمون، إلا أنهم تَعرَّضوا لخَطَرٍ عظيم سنة ٨٣٣ عندما قَرَّرَ المأمون قَبلَ أربعة أشهر من وفاته جَعلَهم عَقيدةً رسميةً، وحَوَّلَ بذلك ما كان يُعتَبر وجهاتِ نَظَر إلى صوابٍ وخَطَأ. أيَّدَ المأمونُ بشكلٍ خاص رأيَ المُعتَزلة في مَسألةِ خَلْقِ القرآن، وأنه ليس مَوجوداً مع الله منذ الأزل. قد تبدو المَسألة للوَهلة الأولى مسألةً دينيةً نظَرية دقيقة، ولكن عندما يفكِّر المَرءُ بالصراعات الدينية والسياسية التي كانت دائِرة حَوَل أسئلةٍ مسيحيةٍ مُشابهة في الفَترة البيزنطية الأولى حَولَ علاقة الله والرّوح القُدُس والمَسيح وطَبيعة التَّثليث، سيُدرِكُ أنَّ الساحةَ كانت جاهزةً لخِلافٍ مَريرٍ، مع اتهاماتٍ بالزَّندَقة، واتهاماتٍ مضادَّة بالهَرطَقة، حتى الدعوة لمَحاكِم التَّفتيش.

احتاجَ الأمرُ قَرنَين من الزمن لكي تَظهَر أول أرثوذكسيةٍ في الإسلام، وحتى ذلك الوقت كان «الإله» قد سارَ طويلاً من بداياته كإلهِ قبيلةِ قريش، وكذلك سارَتْ قريش. صَوَّرَ خلفاءُ بني أمية حُكّامَ العالَم العِظام على جُدران قصورِهم في إشارةٍ لوَضع مَكانَتِهم على خريطة مُلوكِ العالَم. أما عَشيرة بَني العبّاس فقد كان ذلك الادّعاء راسِخاً، وأرادوا مَكانةً لهم في المَعرفة مثلما كانت مَكانَتهم على الأرض، وتأسيس إمبراطوريةِ العَقل، إضافة إلى الإمبراطورية على الخارطة. ومثلما نَظَرَ الرومان الإمبراطوريون إلى الوراء نحو الإغريق، والإمبراطوريون الروس نحو فرنسا، فكذلك نَظَرَ حُكّامُ الإمبراطورية العربية إلى حاضِرِ وماضي جيرانِهم لمَلءِ حَقيبةِ ممتلكاتِهم الفكرية. وهكذا كانت الحواراتُ الدينية في تلك الفترة جُزءاً من الانفتاح

= ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ٣: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني**، ص ١٤٩.

(٢٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 326.

الفكري العام الذي وَصَلَ إلى أقصَى سعَتِه في بدايات خلافة المأمون. تُحاوِلُ قصة تفسير ذلك تحت عنوان: «ذكر السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد»، حيث كتَبَ ابن النّديم، بائعُ الكُتُبِ وكاتِبُ السِّيَرِ في بغداد:

يُروى أنَّ المأمون رأى في مَنامِه كأنَّ رجلاً أبيض اللون، مُشْرَباً حُمرةً، واسِع الجَبهة، مَقرونَ الحاجِب، أجلحَ الرأس، أشهَلَ العَينين، حَسَنَ الشَّمائل، جالس على سريره. قال المأمون: كأني بين يديه قد مُلئتُ لَه هَيبة، فقلتُ: مَن أنتَ؟ قال أنا أرسطاليس، فسررتُ به وقلتُ: أيها الحكيم أسألكَ؟ قال: سَل، قلتُ: ما الحُسْن؟ قال: ما حَسُنَ في العقل، قلتُ: ثم ماذا؟ قال: ما حَسُنَ في الشَّرع، قلتُ: ثم ماذا؟ قال: ما حَسُنَ عند الجمهور، قلتُ: ثم ماذا؟ قال: ثُمَّ لا ثُمّ[٢٦].

على الأقل في حُلم المأمون يبدو أن بغداد ربما تُصبح مدينةَ الفلاسفة المِثالية النظرية[٢٧]. فِي بَحثِهِ عن الكَمال كتب المأمونُ «إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع»[٢٨].

ربما كان الحُلمُ نفسُه من حُلم مُخترع لعَقلَنة اهتمامات المأمون، إلا أن اهتماماتِه كانت حقيقيةً، ولا يوجدُ أي خيالٍ في الطريقة التي طَبَّق فيها بعضَ أفكاره. وَرَدَ في سِيرةِ ثلاثةِ أبناء لموسى بن شاكر: «أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها». كتَبَ هؤلاء الأبناء مَعاً كِتاباً مَشهوراً عن الاختراعات الميكانيكية. في سَعيِهِ وراء تلك العلوم «القديمة» من الدراسات الإغريقية والهيلينستية عن العالَم الفيزيائي، قَرَأ الخليفة مثلاً أن محيط الكرة الأرضية هو ٢٤٠٠٠ ميل، فأرسلَ الإخوةَ أبناء موسى للتأكد من صحة هذا القياس. بَحَثوا عن أوسَع مساحَةٍ منبَسِطة، وقَرروا أنها في صَحراء سِنجار،

---

(٢٦) ورد في: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ٢٢٢.

(٢٧) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 257

ص٣٢٢ من هذا الكتاب.

(٢٨) ورد في: الجابري، المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

حيث قاموا بقياس مَيل نَجم القُطب، ثم سافَروا شمالاً حتى وَصلوا نقطةً ازدادَ فيها المَيل دَرَجَةً واحِدَة، وبقياسِ المَسافة التي سافروها بأوتادٍ وحِبال وجَدوا أنها ٦٦ ميلاً وثلثا المِيل. كَرَّروا التجربةَ بالسفر جنوباً حتى نَقصَ مَيلُ نَجم القُطبِ دَرَجَةً واحِدَةً، ووجَدوا أنّ المسافةَ مماثِلَة، ثم تأكَّدوا من صِحةِ قياساتِهم في الصحراء حول الكوفة، وضاعَفوها ٣٦٠ درجة وتوصَّلوا إلى أنَّ قياسَ محيطِ الكُرةِ الأرضية هو ٢٤٠٠٠ ميل، وهو المَطلوب إثباتُه[٢٩].

ليست نقطةُ التركيز هنا أصالَة التجربة، لأن «أرباب الأرصاد المتقدمين على الإسلام قد فعلوه(ـا)»، إنما في حقيقةِ أنَّ أبناء موسى تحت رعاية المأمون «اختصوا بهـ(ـا) في ملة الإسلام وأخرجوهـ(ـا) من القوة إلى الفعل»[٣٠]. لم تُكرَّر هذه التجربة في أرضِ الإسلام حسب مَعرفة الكاتب، وكان يُسَجلُ ذلك بَعدَ ٤٥٠ سنة من تلك الواقِعة. بَعدَ ذلك سيُصبح الحُكَّامُ المسلمون من المَغول والمُغول رعاةً متحمِّسين للعلوم التطبيقية، [المَغول Mongol والمُغول Mughal] أما بين الحُكّام العرب، فقد كان الخليفةُ المأمون ذُروَةَ البَحث العَمَلي.

إضافة إلى العلوم غير العربية (التي تسمّى عادةً العلوم العقلية)، فقد ازدَهرت علومُ العرب النَّقلية[٣١]. كانت العلوم النَّقلية في حقيقتها علوم اللغة العربية، لأنها كانت تَدورُ حول النصوص، مثل نَصِّ القرآن المَكتوب، والجِسم الضَّخم من أحاديث وأفعَال محمد وأصحابه التي وُجِدَتْ كنصوص شفهية أو مُدَوَّنات. في بدايات العَصر العباسي، بدأ تَسجيلُ السِّيرةِ النبوية وتَوثيقُها وكتابَتها على أوراقِ البَردي، ثم على ورق القرطاس كما سنرى، وبَدأتْ تَظهَر منها سجلاتٌ رسمية أخلاقية وقانونية في الإسلام. وبَين المؤسِّسين الأربعة للمَذاهب الفقهية السّنية، كان ثلاثةٌ منهم عرباً «وراثياً»،

---

(٢٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٣.

(٣١) [على أي أساس خَصَّصَ المؤلف غيرَ العرب بالعلوم العقلية، وخصَّصَ العربَ بالعلوم النَّقلية، وتَجاهَلَ الكِندي وابن رشد وابن النفيس وكثيراً من الفلاسفة والعلماء العرب؟!]. انظر: الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ١٣٥، و Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 72.

وكان الرابع «أبو حنيفة» من المَوالي وحَفيد عَبدٍ مِنْ كابُل(*).

أما الجِيل التالي من الذين شَرَحوا ونَشَروا أفكارَ المؤسِّسين، فقد مالَ معظمهم إلى كَونِهم عالَميين مثل الإمبراطورية، وأحَدُ أمثِلَتِهم هو القاسم بن سلام، الذي وِلِد في هَراة الأفغانية لأبٍ عَبدٍ بيزنطي، وأصبَحَ قاضياً في طَرسوس على البحر الأبيض المتوسط، وتوفي في مكة بَعد المأمون بقليل[٣٢]. وبالمِثل، فقد وضَعَ أخلاقَ المَذهب الشيعي وفِقهَه أئمَةٌ مِن آل عليّ، ولكن قامَ أتباعُهم من غَير العرب بتَطويرِها. قام هؤلاء «الغُرباء» بأخذِ جَوهَرِ القرآن والمَواد الخام غَير المُنظَّمة التي تُحيطُ به، ووضَعوها بشكلِ دِينٍ متكامِلٍ(**).

كان المأمون كذلك من رُعاة العلوم العربية التقليدية، لأنه دَرَسَ الفِقهَ الحَنَفيّ الناشئ في شَبابِهِ[٣٣]. وبهذه الخَلفيةِ الدينية، وحُلمِه بأرسطو، وقياس محيط الأرض، كان مُجهَّزاً بوضوح ليكون مُفكّراً واسِعَ الأفق، حتى لو وَصَلَ في أواخِرِ عُمره إلى قناعاتٍ بابَوية. لم تكن الإمبراطورية مستعدَّةً لتجربةٍ أخرى مِثلَه، وهي تَجربةٌ يبدو أنها لم تتكرَّر في أي مكان وبأي شَكل حتى القَرن العشرين(***). كانت تجربةً سياسيةً حاوَلتْ جَبرَ الشَّرخِ الكبير في الوحدَة العربية والإسلامية، وبين شيعة عليّ والآخرين. كان شَرخاً قد نَشأ بشكلِ كَسرٍ بسيطٍ، ولكنه خطير في قاعدة القوة العربية، إلا أنه سرعان ما ابتَلَعَ كثيراً من الناس والولاءات منذ معركة صفّين. وكان يَتّخذُ أبعاداً جديدة كانقسامٍ في طبيعة السُّلطة ذاتها بين الخلفاء والأئمة، بين سُلطَةٍ تعيشُ على النصوص وتفسيرها بإجماع العلماء، وسُلطَةٍ أخرى من نوعٍ أكثر باطنية، ورَسوليةٍ متوارَثة بِدَمِ الشهيد الحسين بن عليّ.

(*) [وهذه أضعَف الروايات في تحقيق نَسَب أبي حنيفة الذي تُرَجّحُ الرواياتُ أن أجدادَهُ مِنْ عَربِ الأزد الذين هاجَروا مِنَ اليمن وأصبَحوا مِنْ نَبَط العراق. ولِدَ أبو حنيفة في الكوفة، وكان أبوه مسلِماً، ونشَأ وتَربَّى وعاشَ أكثرَ حياته فيها] (المترجم).

(٣٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(**) [يهمِلُ المؤلفُ هنا أيضاً دَورَ العرب الكبير في الفِقهِ الإسلامي السّني والشّيعي، كما يَتناسَى أنَّ الإسلام لا يميِّزُ في علوم الدِّين بين العرب وغَيرِهم ما دام الفَقيهُ مُتَمَكِّناً من علوم اللغة والقرآن والسّنة] (المترجم).

(٣٣) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. al-Ma'mūn.

(***) [يُصِرُّ المؤلف هنا أيضاً على تَجاهُل سَيف الدولة وأمراء الأندلس وغيرهم] (المترجم).

لم يُرَسِّخ أسلافُ المأمون من خلفاء العباسيين الأوائل المَحبَّةَ بين الكتلتَين باستِلامِهم السُّلطَة على بِطاقَةٍ شيعيةٍ، ثم تَمزيقهم تلك البِطاقة أشلاءً بانتِحالِهم السُّلطةَ لأنفسِهم. ولكن في سنة ٨١٦، يبدو أنَّ المأمون قَرَّرَ التَّخلي عن احتكار العباسيين للسُّلطَة، فعَيَّنَ «عليّ الرِّضا»، وهو الإمام الثامن عند الشيعة، وَلياً للخلافة وزوَّجَهُ ابنتَه[٣٤]. دُهِشَ المُقرَّبون من الخليفة لهذا القرار، ولكنهم أطاعوه. شَعَرَ بعضُ الشيعة بانتصارِ قضيَّتِهم أخيراً، بينما شَكَّ آخرون بذلك. فَزِعَ العباسيون المُتَشدِّدون، وحَدَثَ أنْ توفي عليّ الرِّضا بَعدها بسنتَين، وتم تَناسي القَضية بهدوء، إلا أن الشيعة شَكَّكوا بوفاتِه، ورأوا أنها كانت خطّة لقَتلِه برُمَّانَةٍ مَسمومَة. ربما كانوا على صوابٍ في ذلك. ومهما كانت حقيقة الأمر، فقد دَفَنَ الخليفةُ الإمامَ «عليّ الرّضا» قُربَ والِده الخليفة هارون الرشيد، حيث توفي في حَملةٍ إلى خراسان. أصبح المكان معروفاً لدى الشيعة الإيرانيين باسم «المَشهَد»، ومازال أقدَسَ المَواقع في إيران.

نظرياتُ المؤامرة كانت ومازالت كثيرة. كانت هناك شائعَةٌ تافِهةٌ أنَّ المأمون نَبَشَ الجُثَّةَ سِراً، وبدَّلَ موقِعَي الجَسدَين[٣٥]. يَقفُ حُجّاجُ الشيعةِ على قَبرِ إمامِهم الثامن، ويَدعونَ لروحِه، ثم ينتَقلون إلى قَبر الرشيد المُجاوِر ويَلعَنونه ثلاث مرات[٣٦]، ولو كانت إشاعَةُ تبديلِ الجثتَين صحيحةً، فإنَّ دُعاءَهم ولَعناتهم ستكون متعاكسة في مَواقِعها. والله أعلَم.

لن تَحدُثَ المحاوَلةُ الرسمية الثانية للتوفيق بين السّنة والشّيعة حتى أربعينيات القَرن العشرين بتأسيس هيئةٍ عالَمية هي جَماعة التَّقريب، إلا أنها ستُخفِقُ وتَموتُ أيضاً خلال عَقدَين[٣٧]. ولكن لفَصلٍ قصيرٍ في بداية القَرن التاسع، يبدو أن تلك العضوية الكبيرة التي شَمَلَتْ نصف العالَم قد وصَلَتْ إلى النُّضج أخيراً، وتَركَتْ خلافاتِ طُفولتها العربية وراءها. ولكن مرةً أخرى، وقَفَ مجتمعُ الإسلام مثلما فَعلَ مباشرةً في السنوات بَعدَ محمد على

---

(٣٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٣٥) أبو عبد الله زكريا بن محمد القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ص ٣٩٢.

(٣٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 12, p. 605.

(٣٧) Ibid., vol. 10, pp. 139-140.

مفرق المحجة[٣٨]. والآن، بَعدَ قرنَين من الزمان، كان الاختيارُ بين طَريقَين فِكريَين: مِن ناحية أولى، الطريق التقليدي بحَقائقِه النَّصِّية الخَطابية؛ ومِن ناحية ثانية، طَريق العَقلانية بحَقائقِهِ التَّجريبية. وكذلك على مُفتَرقِ طَريقَين سياسيَين: سُلطَة الخِلافة العباسية السّنية، أو الإمامَة العَلَوية الشيعية... أو مِثلما أظهَرَ المأمونُ الزئبقي بجعلِ الإمام وَارثاً للخلافة، فلربما كانت هنالك أساليبُ وَسَطية لارتيادها، أساليبُ تسوياتٍ مع الوحدَة. ولكن كما هي الحال دائماً، كان الاتّفاق على عَدم الاتّفاق أسهل مِنَ التوصّل إلى تسويةٍ وتَفاهم، ودَعِ المُستقبلَ يُعاني من النتائج.

وجِدَ في التَّرجمة

على الرغم من الافتِراق فكرياً وسياسياً، إلا أن رابطَةً واحِدَةً عُليا ظَلَّتْ تَمنَحُ العضوية الكبيرة المعقَّدة شيئاً من الوحدَة والهوية، فمازال ذلك الكيان يكتُبُ باللغة العربية الفُصحى على الرغم من أنه نادراً ما تَكَلَّمَ بها. ربما كانت اللغة المَحكِية تتَشظَّى إلى لهجات، ولكن مع انتشار الإسلام لكي يُصبحَ دِيناً عالَمياً وثَقافةً عالَمية مَنَحَت اللغةُ العربية الكلماتِ للعالَم. في الرواية القرآنية لقصَّةٍ توراتية، عَلَّمَ اللهُ آدمَ الأسماءَ العربية لجميع المخلوقات[٣٩]، والآن مع إعادةِ الإسلامِ خَلقَ العالَم في صورَتِهِ، فقد عادَت العربيةُ لتقديم المُفردات، وستُقدِّمُ كثيراً منها بالاشتِقاق المباشَر. كانت العربية دائماً مَرِنَةً ودقيقةً وحَيوية، إذ يستطيع نظام جُذورِها واشتِقاقاتِها إنتاجَ فروعٍ بشكلٍ مباشَرٍ وذاتيّ. ولكن مثلما أنتَجَ الزواجُ من نساءِ البلادِ المَفتوحةِ عَرَباً مولَّدين جُدداً، ولغةً عربيةً مُهَجَّنَة، فكذلك خُصِّبَت اللغةُ من الألسِنة الأخرى، وتوسَّعَتْ مُفرداتُ اللغة العربية ذاتها.

لَعِبَت الترجمةُ الرسميةُ دَوراً مهمّاً في هذا التوسُّع مثلما فَعَلَ التَّواصُل اليومي. بدأت حركةُ الترجمةِ ببطءٍ في العَهد الأموي بترجَمةِ نصوصٍ في الكيمياء من اليونانية والقبطية إلى العربية لأميرٍ أمويٍّ متحمِّس في

(٣٨) قارن: ص ٢٧٩ من هذا الكتاب.

(٣٩) القرآن الكريم، «سورة البقرة،» الآية ٣١.

الإسكندرية[٤٠]. تسارَعَ البرنامجُ الآن مع التَّوجُّه العباسي الجديد نحو الشرق، وضَمَّ مَصادِرَ لُغاتٍ جديدة؛ فإضافة إلى اللغات الثلاث الأولى اليونانية والقبطية والسريانية للعلماء في الهلال الخصيب، دَخَلَت اللغاتُ الفارسية والبَهلوية والسَّنسكريتية. توسَّعَتْ آفاقُ العلوم أيضاً بَعدَ تَرجمة أعمالٍ في الطب وعِلم النبات والأدوية والفلَك والتَّنجيم والجغرافيا والهندسة والميكانيك والموسيقى والرياضيات وغيرها. لم يكن الازدِهار في اللغة العربية وحدَها، وفي العقول المُفكِّرة بالعربية، بل في المَعرفة العالمية كلها. تَبَنَّى العربُ مَفهومَ العَدد صِفر الذي كان مَحصوراً في الهند، ونقَلوهُ إلى بقية أرجاء العالَم القديم من خلال الأعداد العربية، مما خَدَمَ كثيراً في نَقلِ العالَمِ إلى العَصر الحديث.

لم تكن الحضارةُ العربية صِفراً في حَدِّ ذاتِها، وليست مجردَ وَصلَة بين الشرق والغرب، وبين القديم والحديث، فقد أضافَ العلماءُ المتحدِّثون بالعربية كثيراً من المَعارف إلى المعلومات القديمة، خاصة في مجالات الطب وعِلم المثلثات والرياضيات والفلَك، كما يَظهَر في المفردات في اللغات الأوروبية التي تبدأ بحرف «ال»، مثل الكحول والجَبر والخَوارزمية، وفي أسماء نُجوم مثل «الطَّير». هناك أمورٌ أخرى أقلّ وضوحاً مِثلَما حَدَثَ عندما استعارَتْ هوليوود اسمَ النَّجم «إبط الجَوزَة» كعنوان لأحَدِ أفلامِها.

كما يُظهِرُ حِلمُ المأمون، فقد كانت الفلسفة تُستَهلَكُ بشغَفٍ، خاصة فلسفة أرسطو، وكذلك فلسفة أفلاطون والأفلاطونية الجديدة. كان المأمونُ أعظَمَ رُعاةِ مَساعي الترجمة والعلوم، وكَذَّبَ الادِّعاءُ بأنَّ بغدادَ لم تكن أكثر مِن ثَكنةٍ عسكرية ضخمة. أسَّسَ المأمونُ نوعاً من المَعهد المَلكي في تلك المَدينة هو بَيتُ الحِكمة. رَكَّزَت المؤسسةُ العباسية على الترجمة، وكذلك على السماء بأجهِزَةِ مُراقَبةٍ فَلَكية في بغداد ودمشق. امتدَّت الرعايةُ بدرجةٍ أقلّ رفعَةً، ولو أنها لم تَصِل إلى مستوى الدَّعم الذي دَفَعَه الإخوةُ أبناءُ موسى لمُترجِميهم الخُصوصيين والذي كان ٥٠٠ دِينار ذهبي شَهرياً[٤١]،

(٤٠) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ١٩٤.

(٤١) Ibn al-Nadim quoted in: Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 359, note 2.

حينما كان راتِبُ جنديّ المُشاة ٢٠ دِرهماً في الشهر[٤٢]، أي نحو دينارَين فقط. وفي النهاية، مثلما كَتَبَ ديمتري غوتاس، «معظمُ الكتبِ اليونانية الوثَنية في العلوم والفلسفة. . . التي كانت متاحَةً في العصور القديمة المتأخِّرة في الإمبراطورية البيزنطية الشرقية والشرق الأدنى، تمت تَرجَمتها إلى اللغة العربية». لم تفقِدْ حَرَكَةُ الترجمةِ زَخمَها، بل لم يَعُد هناك مَزيد مِن النصوص.

وحتى في ذلك الوقت، لم تتوقف حَركَةُ الكتابة، بل غيَّرتْ سرعتَها، لأن الترجمات بدأتْ تُلهِمُ آفاقاً واسِعةً من التفكير الأصيل باللغة العربية، وأصبَحَ الفِكرُ يُوثَّقُ فيما أصبحَ الآن طريقةً جديدة تماماً في الكتابَة هي النَّثرُ العادي دون سَجع وإيقاع، وكان السَّرد يُكتَبُ مباشرةً مِثلَ النَّثر الذي أكتُبُ به الآن. كان أسلوباً جديداً تماماً في التعبير. وأخيراً، أصبحَ بإمكان كتّاب العربية أن يفكّروا بالحِبر إضافة إلى الصوت، وتستطيع اللغة أن تَخدُم المفكّرين بالإضافة إلى الشعراء والخطباء وكتّاب الدواوين الإمبراطورية. ولا بد من الاعتراف بأن قلّةً من المفكّرين والمثقفين كانوا عَرَباً أُصَلاء، بل شَمَلَهم طَيفُ التّنوع الوراثي في الإمبراطورية. أما في الفلسفة، فقد كان الكِندي «فيلسوفُ العرب» في القَرن التاسع أولهم وأحَد كِبارِهم، وكان كاتِباً غزيرَ الإنتاج، دافَع عن العِلم بكلِّ أشكالِه. كان ينتَمي إلى تلك الفئة من الأمراء والشعراء والرّواد المَوهوبين من بَيتِ الحكّام القدماء لقبيلة كِندة التي أنجَبتْ في القَرن الرابع المَلك امرأ القيس، كاتِب أحَدِ أقدَم النصوص العربية المَعروفة، وَسَمِيّهُ في القَرن السادس، الشاعر الجَوّال وأعظم شعراء الجاهلية، وذلك الأشعَث المتمرد في القَرن السابع الذي اعتَنقَ الإسلام وسافَر كثيراً وحارَب وعاشَ طويلاً.

يَرِدُ كثيراً أنه لولا العرب لما حَدَثَت النهضة لدَى الأوروبيين، وربما الأفضل أن يُقالَ إنَّ العباسيين كانوا هم أنفسهم أمراء النهضة، خاصّة

---

(٤٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ١٢٤. حول حركة الترجمة بشكل عام، انظر على سبيل المثال: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٣١٤ - ٣١٥؛ Joel Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity* (London: Allen and Unwin, 1969), pp. 167-170, and Nicholson, Ibid., pp. 358-360.

المأمون، الرّاعي المتحمّس الأعظَم مِن الروماني مايكَيناس Maecenas أو مِن آل مديشي الطّليان، وكان يتوسّطُ بينهم زمنياً، وكان عصر النهضة الأوروبية استمراراً بَعدَ فَترة خُمولٍ طويلة.

ثورةٌ على الورَق

النهضةُ العباسية، وولادَةُ العلوم العربية المكتوبة التي جاءتْ معها، قد دَعَمها الورق. تلك كانت المرحلة الثالثة في ثورة الكتابة التي بَدأتْ بكتابة القرآن، ثم انتشَرتْ مع ضرورة إدارة الإمبراطورية بلُغَةِ حُكّامِها.

كان التغيّرُ مِن كتابةٍ قليلةٍ على وَرق البَردي إلى كتابةٍ كثيرةٍ سريعةٍ على وَرَق القرطاس الأرخَص قَفزَةً في تقنيات المَعرفة لا تَقِلُّ أهميةً عن القَفزة مِن الوَرق إلى شاشات الكومبيوتر في أيامنا هذه. ولِدتْ أيضاً مفرداتٌ لم تكن كلها مهمة، ولكنها أضافَتْ حَجماً إلى النشاط الأدبي في زَمنِها. تُنبِئُنا التقاريرُ التقليدية كيف انتَقَلَ القرطاس غَرباً مع صُنّاعِهِ الصينيين ممن أسَرَهُم العرب في مَعركة نهر طلاس شرق نَهرِ سيحون سنة ٧٥١. قَرَّرَت المعركةُ أقصَى الحدود الشرقية لدُخول القوات العربية في آسيا. من المؤكَّد أن القصة تبسيطٌ لعمليةٍ أطوَل وأكثَر غموضاً. ذَكَرَ المُفَهرِس ابن النديم أنّ «الورقَ الخُراساني» المَصنوع من الكِتّان كان مَعروفاً في الغرب منذ أيام الأمويين[٤٣]، ولكن المؤكَّد هو الانتشار المُفاجِئ للقرطاس في العَصر العباسي. يُقالُ إن الرشيد والِد المأمون قد أمَرَ باستِخدام الورقِ في دَواوين الدولة لِمَنعِ الفساد[٤٤]، لأن الكتابة على الورق يَصعُبُ مَحوها، على العَكس مِن الكِتابة على الرِّقاق وَورَق البَردي التي يُمكِن حَكُّها بسهولة أكبَر. وَصَلَتْ أقدمُ الأوراق القرطاسية المعروفة عَن الإمبراطورية العربية مِن زَمَنِ الرشيد، وهي كتابةٌ يونانية بدمشق نحو سنة ٨٠٠[٤٥]. لا يُعرَفُ أينَ صُنِعَت هذه الأوراق، إلا أنه في ذلك الوقت كانت صِناعة الوَرق قد بَدأتْ في العراق، وكانت على وشك الانتشار غرباً.

---

(٤٣) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ٩٢.

(٤٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 419.

(٤٥) Jonathan M. Bloom, "The Introduction of Paper to the Islamic Lands and the Development of the Illustrated Manuscript," *Muqarnas*, vol. 17, no. 1 (2000), p. 17.

نُعومَةُ القرطاس بالمُقارَنة مع سطوح الكتابة الأخرى ساعَدتْ كذلك على الكتابة بحروفٍ عربية متَّصِلة أكثر استِدارة[٤٦] طَوَّرَها في الأصل كتّابُ الإمبراطورية الأموية لمساعَدَتِهم في التَّعامُل مع زيادة كمية النَّسخِ المَطلوبة. ساعَدَ القرطاس كذلك على زيادة جَمال الكتابة بشكلٍ عام، مثلما حَدثَ في الصين، وسيُوحِّدُ ذلك العالَمَ الإسلامي، ويُحافِظ على تَجذُّر أصولِه العربية، فكثيرٌ مِنَ الفَنِّ «الإسلامي» هو في حقيقَتِه فَنُّ كتابَةِ العربية. ومثلما كان النَّحتُ في اليونان القديمة، والسّينما في الولايات المتحدة الحديثة، فكذلك كان فَنُّ الخَطِّ بالنسبة إلى العرب في النصفِ الثاني مِن قصَّتِهم الطويلة. حتى عندما «اختَفوا» في ذلك الجُزء مع تَغيُّرِ دَورِهِم من دور «المبني المعلوم» إلى دور «المبني المجهول»، فقد ظَلَّت الكتابة تُكَرِّرُ ذاتَها ولو لم تَقُلْ شيئاً جديداً، إلا أنها تُقدِّمُ مَساراً مستمراً وحَبلَ حَياةٍ للهوية العربية التي ستقودُ العربَ حتى يَعودوا للظُّهورِ في تاريخِ العالَم في القرن التاسع عشر.

جَمالُ الخَطِّ العربيّ شاملٌ، وهو يَصِفُ حَرفيّاً، ويُسَجِّلُ المُقدَّسَ في وَحي القرآن، وتَدوير ناصية المَحبوبِ في حَرفِ «الواو»:

و[٤٧]

والعاشِقَين المُتَعانِقَين في «ال»[٤٨] التَّعريف في الخَطِّ الكوفيّ المضفَّر:



ولاستِكمالِ الدَّورةِ الجَمالية، توصَفُ الحروفُ بمُفرداتِ الجَمال الإنساني:



عَطِّروا دَفاتِرَ آدابِكم بجَيِّدِ الحِبرِ

فإن الأدبَ غَوانٍ، والحِبرُ غوال[٤٩]

---

(٤٦) Ibid., p. 22.

(٤٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٣٥١.

(٤٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٦.

(٤٩) الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه**، ص ٤٢١.

لم يكن لدى معظم الكتّاب على مَسرح ثورةِ الكتابة في العَصر العباسي وقت كافٍ لمِثل هذه النَّزوات، فقد كان عليهم كتابة كثيرٍ من النصوص، وبَدأ ذلك يَحدُثُ بكمياتٍ صناعية. فمَثلاً، كان على باحِثٍ في نَيسابور أن يَفتَحَ مُحاضراتٍ في الحَديث تحتاجُ لتَحضير ٥٠٠ مِحبَرة لكي يَقومَ الحاضِرون بتَسجيلِ كلماتِه(٥٠). يبدو أنه كان هناك تَدَفُّقٌ من الحِبر لا يُمكن إيقافُه. في بداية القَرن العاشر، كان الوزير ابن الفُرات يستطيع العودَةَ إلى مكتَبِهِ بَعدَ إجازةٍ مَرَضِيةٍ ليَجِدَ ألفَ رِسالَةٍ بانتظاره للتّعامل معها، وألفاً أخرى بانتظارِ تَوقيعِه، وكأنما هناك انفجارٌ في عُلبةِ البريد(٥١). كانت اللّفائفُ الحُمر تَخرجُ عن السيطرة أحياناً، مثلما وَرَدَ في قصةِ مَسؤولٍ أصابَهُ إسهالٌ وكان عليه تقديم طلَبٍ لاستِخدام الحمّام الوحيد الذي كان متوفِّراً، إلا أن الموافَقَةَ جاءَتْ متأخرةً(٥٢) وكان على البوّاب الأميّ أن يَستَدعي مَن يَقرؤها لَه، غير أن الوقتَ فاتَ في حالةٍ من تَناقُضِ المَنطِقِ مع الإسهال.

في الجانبِ الأدبي الآخَر مِن هذا المجتمع الكاتِب، كانت المَكتباتُ تَنتَشرُ وتَلعبُ دَورَها الخاص في تَرسيخ التَّجانس الثقافي. فمَثلاً، اضطُرَّ شاعرُ القَرن التاسع أبو تمّام إلى حَبسِ نَفسِه في مكتبةِ أحَدِ الأعيان المَحليين بَعدَما تقطَّعَتْ بِهِ السُّبُلُ في عاصفةٍ ثلجيةٍ بمدينة هَمَدان الإيرانية، فاستَغرَقَ في قراءَةِ الشِّعرِ الجاهلي [وردت في النص: شعر ما قبل الإسلام](٥٣) يمَثِّلُ المَشهدُ صورةً مصغَّرةً للإمبراطورية الثقافية: شاعِرٌ عربيٌّ مِنْ أصلٍ مَجهول، ربّما يونانيّ، يُسافِرُ عَبرَ فارس، ويَقرأ أعمالَ أسلافِهِ العرب القدماء. تَسارَعَ ظُهورُ المكتبات بازدِهارِ الكتابةِ وتَدفُّقِ الكلمات. عُرِضَ على الصَّاحب بن عَبّاد، أعظَم رجال الدولة في القَرن العاشر، إغراء لتغَييرِ مهنَتِهِ، إلا أنه رَفَضَ ذلك جُزئياً، لأنَّ مَكتَبَتُه وَحدَها ستَحتاجُ إلى ٤٠٠ جَمَلٍ لنَقلِها(٥٤). كان ذلك أيضاً عَصراً ظَهَرَتْ فيه أعمالٌ فَرديةٌ ضَخمةٌ كانت في حَدِّ ذاتِها محاولةً للاحتِواء والسيطَرة على فَيضانِ الحِبر الذي لا ينتَهي. وظَهرَتْ كُتُبٌ مثل

---

(٥٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٩٨.

(٥١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠١.

(٥٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٤.

تواريخ القَرن العاشر للطَّبري والمَسعودي، ويتألَّفُ كلّ منها مِن أجزاء كثيرة. ضاعَ كتابُ المَسعودي الأكبر، إلا أن مُلَخَّصَهُ الباقي: «**مُروجُ الذَّهب**»، الذي يتألفُ مِن أربَعة أجزاء، شاملٌ في حَدِّ ذاتِه، وهو أحَدُ مَصادِري، ويُعطِي رؤيةً عبّاسيةً لتاريخ العالَم، تبدو فيها الإمبراطوريةُ العربيةُ جُزءاً من استمرارٍ يَبدأ مِن آدَم، وهو مَركَزيٌّ لجغرافيةٍ إنسانيةٍ (مثلما لاحَظَ إمبراطور تانغ الصيني) تَضُمُّ القبطَ والفرس والفرنجَة والصينيين.

عايَنَ المَسعودي بنفسِه جُزءاً كبيراً من تلك الجغرافيا، ولذلك كان مؤهَّلاً بكَفاءة لتَقديم وجهَةِ النَّظَر العباسية. كان من سلالةٍ للصَّحابي العالِم عبد الله بن مَسعود، ونَشَأ في بغداد، إلا أنه زارَ مصر وفارس والسّند والهند والسَّرانِديب (سريلانكا) وربما الهند الصينية والصين وجُزُر الهند الشرقية ومدغشقر وشرق أفريقيا في طريقِ عودَتِه عَبرَ شبه الجزيرة العربية. ثم تجوَّلَ بَعد ذلك في شمال وغرب إيران وأراضي الهلال الخصيب[٥٥]. يُشبِهُ المؤرخ الروماني هيرودوت في تَشخيصِ عَصرٍ تزايدَتْ فيه الكُتُبُ والرحلات. كما أنه يُجَسِّدُ الميل إلى التحرك الذي وُجِدَ دائماً في شبه الجزيرة العربية، وانطلَقَ بَعد محمد عندما اندَفَعَ العربُ لريادَةِ إمبراطوريةٍ سياسية، ثم وَجَدَ مُتَنَفَّساً له الآن في التّرحال بَحثاً عن المَعرفة. الإمبراطورياتُ المُزدَوجَة من الأرض والمَعارف، كما وصَفَها إدوارد سعيد في كتابِه «**الاستشراق**»، ليست مُقتَصِرَةً على الغُزاة الأوروبيين المتأخرين.

لم يكن هنالك سوى قلَّةٍ ممن نافَسوا استكشافات المَسعودي على الأرض أو على الوَرق، غير أن اللغة والثقافة العربية التي استَخدَمها وصَدَّرَها هو وغيره قد ارتَحَلَتْ أبَعدَ مِنهُ. قَبلَ زَمنِ المَسعودي بكثيرٍ كان مَجلسُ الشاعر ابن الأعرابي، الذي كان أصلُهُ في الحقيقة من بلاد السّند، قد ضَمَّ زُوَّاراً مِنَ الأندلس وتركستان على أطراف الإمبراطورية البعيدة[٥٦]. لم تكن المقابَلَةُ فريدةً مِن نَوعِها، فقد تذكَّر الشاعر البغدادي ابن نباتَة فيما بَعد:

---

(٥٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٧ و١٠.

(٥٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٣٧٥. قارن: ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ من هذا الكتاب.

«كنتُ يوماً قائلاً في دهليزي فدُقَّ علي الباب فقلتُ: «مَن؟»، فقال: «رجل من أهل المشرق»، فقلتُ: «ما حاجتكَ؟»، فقال: «أنت القائل:

«ومَنْ لم يَمُتْ بالسّيفِ ماتَ بِغَيرِهِ   تَنوَّعَتِ الأسبابُ والدَّاءُ واحِدُ»

فقلتُ: «نعم»، فقال: «أأرويه عنكَ؟»، فقلتُ: «نعم». فمضى. فلما كان آخِرِ النهار دُق علي الباب، فقلتُ: «مَن؟»، فقال: «رجل من أهل تاهَرْت من الغرب»، فقلتُ: «ما حاجتكَ؟»، فقال: «أنت القائل:

«ومَن لم يَمُتْ بالسيفِ ماتَ بِغَيرِهِ   تَنوَّعَتِ الأسبابُ والدَّاءُ واحِدُ»

فقلتُ: «نعم»، فقال: «أأرويه عنكَ؟»، فقلتُ: «نعم». وعجبتُ كيف وصل إلى الشرقَ والغرب»(٥٧).

شاعرٌ آخَر، هو البُحتري، صَوَّرَ روحَ التّجوال في العالَم آنذاك بقولِه:

لَيواصلَنّك ركْبُ شعرٍ سائرٍ   يرويه فيك لحُسنه الأعداءُ(٥٨)

كان العصر العباسي متحرِّكاً جَسَدياً وفَنياً وفِكرياً. قاوَمَ الكِندي، سَليلُ تلك العَوائل العربية المَوهوبة منذ فترة طويلة قَبلَ الإسلام، وعارَضَ الجُمودَ الفكري بشدَّة، والمُتَخلِّفين الذين يُهاجِمون الفلسفة باسم الدِّين(٥٩)، وكتَبَ:

«ينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن جاء من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة»(٦٠).

لا يمكن أن توجَدَ مثل هذه الفكرة ويتمّ التعبير عنها إلا في مجتمعٍ وثقافةٍ واثِقَةٍ من قوّتِها.

انتَشَرَ تأثيرُ هذه الثقافة العالمية الجديدة، ليس فقط حتى وصل إلى الإمبراطور الصيني والعملَة الأنغلوساكسونية، بل مع تقلُّصِ مساحَةِ العالَم

---

(٥٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٢.

(٥٨) ورد في: Geert Jan van Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology* (New York; London: New York University Press, 2013), p. 280.

(٥٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 122.

(٦٠) ورد في: الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٢٤٠.

الكلاسيكي أَخَذَ أهلُ القسطنطينية يقلِّدون البغداديين في العمارة والمَلابس، فقامَ الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilus، الذي حارَبَ العربَ في ميدان القتال سنة ٨٣٠، ببِناء قَصرٍ على النَّمَطِ البَغدادي قُربَ البوسفور، بينما ارتدَى أثرياءُ البيزنطيين العِمامَة والقُفطان[٦١]، وشوهِدَ القُفطانُ العربي حتى في شوارع كانتون (غوانزو Guangzhou) الصينية. ولكن بينما كان العالَم يَصغُر، وتَعرَّب الكلماتُ التي يَتحدَّثُ بها ويَقرؤها والملابس وطرائق المَعيشة[٦٢]، أصبَحَ أقلَّ عروبةً، على الأقلّ في الرؤية العربية التقليدية.

بدءُ الكُسوف الطويل

حَذَّرَ آخِر الولاة الأمويين في خراسان سادَتَهُ بدمشق مِنَ الثورة العباسية[٦٣]، وأنَّهم إذا لم يُطفِئوها الآن فقد انتَهى تَحذيره الشِّعري النّاريّ إلى أنّ «على الإسلامِ والعَربِ السَّلام!»[٦٤]. ولكن انتصارَ العباسيين لم يَقضِ على الإسلام، بل أغناهُ بكثيرٍ مِنَ الطرائق. ولكن ماذا عن العروبة؟ كما شاهَدنا، فإنّ الجاحظ المتحمِّس للعرب قد كَتَبَ بَعدَ قَرن من استلام العباسيين، ووَصَفَ الخلافَةَ العباسية بأنها «أعجَميةٌ خُراسانية»[٦٥]. من المؤكَّد أن ثورتَهم قد انطلَقَتْ مِن خراسان، وأنهم استَخدَموا دائماً جُنوداً من تلك المنطقة، وبذلك فقد كانوا «خُراسانيين» بهذا المَعنى؛ ولكن «أعاجِم»؟ لا شك بأنّ الجاحظ كان يُبالِغ في طَرحِ نقطَةٍ خطابيةٍ لأنّ «أعجَمي» تَعني مُناقِضاً في اللغة، وكذلك في أصلِ النَّسَبِ ونَمَطِ المَعيشة وكل طريقة أخرى يمكن تَصورها تَختَلِفُ عن تَصَوُّرِ العربيّ لنفسِه.

كان العباسيون عَرَباً في اللغة بالطبع، وفي جميع الأصول المهمّة من جِهة الآباء والأجدَاد، إلا أن نَمَطَ مَعيشتِهم قد تطوَّرَ كثيراً في زمنٍ قصير. عندما تَحدَّثَ المُغيرة مع نائب الشّاه قَبلَ نحو قَرنٍ مِن ظُهورِ العباسيين، كان

---

(٦١) Thomas Mathews, *Byzantium: From Antiquity to the Renaissance* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 1998), pp. 77 and 91.

(٦٢) Susan Whitfield, *Life Along the Silk Road* (London: John Murray, 2000), pp. 89 and 107.

(٦٣) قارن: ص ٣٧٤ و٣٨١ من هذا الكتاب.

(٦٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٢٥٥.

(٦٥) انظر: ص ٣٧٧ من هذا الكتاب.

صورةً للعروبةِ البدويةِ الخَشِنة، وخَرَّبَ السجادَةَ الفارسية الثمينة، وألقَى بنفسِه على عَرش نائب المَلك[٦٦]. والآن أصبحَ العباسيون هم أصحاب السّجاجيد الفاخرة، والعروش المزخرَفة، على الرغم من لَقَبِ «مَلك المُلوك» العربي الذي وَصَفَهُ الإمبراطور الصيني، كما أن الخلفاء العباسيين لم يتَبَنّوا رَسمِياً ذلك اللَّقَبَ الفارسي، إلا أنهم استَخدَموا «الزّخارف» الفارسية[٦٧]. وبالمُقارَنة مع سهولةِ الوصولِ إلى الحُكّام العرب القدماء وأوائل الإسلاميين، فإن أول خليفة عباسي، السّفاح، اتَّبَعَ العادَةَ الفارسية في الجلوس وراء ستارة عند مقابَلة العَوام[٦٨]، مع الاعتراف بأنّ بعضَ الأمويين قد فَعلوا ذلك أيضاً[٦٩]. ذهَبَ الخلفاءُ العباسيون المتأخرون أبعَدَ من ذلك، وبدؤوا بلبسِ التّاج (وهي كلمة فارسية)، الذي ربما كان بالنسبة إلى العباسيين عِمامَةً مُرصَّعَةً بالجواهر[٧٠]. عَيَّنوا لديهم مُنَجِّمَ بَلاطٍ كان زرادَشتياً في زَمَنِ المَنصور، مما أعطاه نوعاً من الشَّرعيّة في أرضِ المَجوس[٧١] حيث تمسَّكَتْ غالبية السكّان بالدِّين القديم. كما تم تطبيق سياسات فارسية أيضاً، وقيلَ إنّ المَنصور قد استلهَم طريقةَ قَتلِ أبي مُسلِم من طريقة قَتلِ مماثلٍ قامَ به شاهٌ ساساني لقائدٍ مَوثوق به[٧٢]. كان عَمَلاً يصعبُ تَخَيُّلُهُ في العَصر الأموي حين كانوا يقاتِلون أعداءَهم حتى الموت، فقد كانوا أكثَر وَلاءً لأصدقائهم.

كانت ستارةٌ مَجازيةٌ تَفصِلُ بين الحكّام وأصولِهم، وتَفصِلُ بين العرب الجُدد العالَميين وأسلوب الأعراب القديم. اتَّضَحَ الانفصالُ في قصةٍ عن الخليفة العباسي الثالث: المَهدي، حين ضاعَ أثناءَ رحلةِ صَيد في البرّية، ولجَأَ إلى بَدويّ. استَدرَجَهُ البَدويّ بالنبيذ، فراحَ الخليفةُ يكشفُ هويتَه شيئاً

(٦٦) انظر: ص ٢٨٤ من هذا الكتاب.

(٦٧) David Cannadine, *Ornamentalism: How the British Saw Their Empire* (New York: Oxford University Press, 2002).

(٦٨) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٩.

(٦٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٧.

(٧٠) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 57.

(٧١) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٧٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٣، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

فشيئاً، فقال أولاً إنه من البلاط، ثم إنه واحِدٌ من قادَةِ الخليفة، ثم إنه هو الخليفَةُ بذاتِه. بينما كان البَدويّ يَنظُرُ بارتياب:

قال له المَهدي: «اسقنا».

قال: «لا والله، لا تَشربِ منها جرعة فما فوقها».

قال: «ولِمَ؟».

قال: . . . لا والله ما آمن أن أسقيك الرابع فتقول إنك رسول الله».

فضحكَ المَهدي.

في تلك اللحظة وَصَلَ حَرَسُ الخليفة، ووجَدوه في هذه الحالَة. ذُعِرَ البدوي في بادئ الأمر، ثم استجمَع نفَسه وقالَ للخليفة: «أشهد أنك صادق، ولو ادعيت الرابعة والخامسة لخرجتَ منها». فضحكَ المَهدي منه حتى كاد أن يقع من فرس حين ذكر الرابعة والخامسة».

من المُفتَرَض أنّ الادّعاء الخامس هو أنَّ الخليفة هو الله... وفي النهاية:

جعل له رزقاً، وألحقه بخواصه[٧٣].

يمكن قراءة هذه القصة كمَوعِظَة عن التغير الذي بَدأ بالإسلام، وتسارَعَ الآن من العرب التقليديين القدماء إلى الحَضَر سكان المُدن. أُخِذَ الأعرابي الهامشي الغريب مِنَ حياة البراري (على الرغم من أنها حياة مشبعة جداً بشرب الخمر) إلى مَركز الدائرة، حيث أُدخِلَ إلى ما وراءَ ستارةِ الخليفة، ونُقِلَ إلى قَلبِ المجتمعِ الحَضَري الجديد. كما تبدو وكأنها نهايةُ حقبَةٍ تاريخية. لم يكن مستقبلُ الخلافة هو مستقبلُ المَهدي المَجهول في البراري، بل مستقبلُ ابنه الرشيد بشَخصيتِه الخُرافية في ليالي **ألف ليلة وليلة**، المُتَخَفّي في ليالي بغداد، وليس مَجهولاً في الصحراء، بل مُتَخَفّياً في المدينة.

أما بالنسبة إلى نَمَط الحياة، فقد كان الجاحظ مُصيباً، فقد كان العباسيون في حقبَتِهم الطويلة أول عائلة عربية، والنموذجَ الأمثَل للتّماسُك

(٧٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

العربي، وكانوا بعيدين جِداً عن الوجود العربي التقليدي. وحتى في المَجالَين اللذَين قد يَظهَرون فيهما عرباً أنقياء، في اللغة والنَّسَب، فإن عروبتهم كانت مُتَحَوِّلَة، أو بشكلٍ أدقّ كان نَسَبُهم ولغتُهم يبتَعِدان عن الظروف التقليدية القديمة. ربما ارتكَبَ الخلفاءُ الأمويون أخطاء في نهايات الكلمات العربية الفصيحة، ولكن الأسوأ هو أنّ الخليفة المُعتصم، حَفيد المَهدي، اعتَرَفَ بأنه «جاهِلٌ» عندما لم يَعرِف مَعنى كلمة «كَلأ»[٧٤] التي تَعني المَرعَى، وهي أهمّ كلمةٍ عربية في حياة العربي التقليدي بَعدَ كلمة «الماء». وعلى الرغم من أنّ النَّسَب الأبوي هو المهمّ، إلا أن الانحِدار مِن جِهة الأمّ كان على درجَة مساوية من الأهمية في المجتمع العربي القديم. كان أولادُ الجواري قَبلَ الإسلام لا يَعتَرِفُ بهم آباؤهم عادةً[٧٥]، إلا إذا كانوا أبناءً وَلَّدُوا ذُرِيَّتَهم. ولكن بين ٣٧ خليفة عباسيّاً على مَدى ٥٠٠ سنة، وحتى انتَهوا عَملياً إثرَ الغزو المَغولي، لم يكن سوى ثلاثة خلفاء مِن أمّهات عربيات حرائر. وكانت بقيةُ الأمهاتِ جارياتٍ مِن أصولٍ مُتَنوعة شَمَلَت الأفغانيات والخَوارزميات والبيزنطيات والسلافيات والبربريات والفارسيات والتركيات والأرمينيات والحَبشيات[٧٦]. وكما قالَ المَعرّي شاعر القَرن الحادي عشر:

قَدِ امتَزَجَ العالَمُ الآدَمِيُّ فَغورِيَّةٌ مَعَ نَجدِيَّة
وَأُمُّ النُّمَيرِيِّ تُركِيَّةٌ وَأُمُّ العُقَيلِيِّ صُغدِيَّة

يقصد قول المعري:

قَدِ امتَزَجَ العالَمُ الآدَمِيُّ فَغورِيَّةٌ مَعَ نَجدِيَّة
وَأُمُّ النُّمَيرِيِّ تُركِيَّةٌ وَأُمُّ العُقَيلِيِّ صُغدِيَّة[٧٧]

كان ذلك انعِكاساً صحيحاً للتّنوع المعقّد في الإمبراطورية، إلا أنه بعيدٌ جِداً عن حياة الوطن في شِبه القارة العربية القديمة.

---

(٧٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٧٥) انظر قصة الشاعر عنترة على سبيل المثال في: Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, p. 115.

(٧٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 332.

(٧٧) ورد في: Henry Baerlein, *The Singing Caravan: Some Echoes of Arabian Poetry* (London: John Murray, 1910), p. 105.

تَفوَّقَت الحضارةُ وتَنوَّعَ التَّعايُش الناجح المستقر آنذاك على البداوة، وقضَى الشعبُ بمَفهومِهِ الإسلامي العالَمي الأوسَع على القَبَلية، وَوَضَعَها في دَورٍ هامشي صغير. لم يَعد المجتمعُ قَبَلياً، وربما ظَلَّ النَّسَبُ مهمّاً بالنسبة إلى بعض الناس، إلا أن الرعايا من خلفيات وراثية مختلفة تَمكَّنوا من العَيش مَعاً ضِمنَ أُسرَةِ الإسلام. والمهمّ أنّ غَير العرب لم يعودوا مُجرَّدَ مَوالٍ أو عمّال أو جَوارٍ، بل أصبَحوا أناساً لهم أهميتهم الذاتية.

سيُصبِحُ الوزيرُ في ظِلِّ العباسيين أكثر سُلطَةً في تسيير أمور الإمبراطورية، وكان مِن أهمّ الوزراء في أوائل الخلافة العباسية مِن عائلَةِ البَرامِكَة الفارسية الذين تَوارَثَ أجدادُهم حِفظَ المُقدَّسات في مَعبد نوبهار في بَلخ فيما يُعرَفُ الآن بشمال أفغانستان (كلمة «بَرمَك» في السنسكريتية تَعني «الزعيم»، وكلمة «نوبهار» تَعني «الدِّير البوذي الجديد»)(٧٨). خَدَمَتْ ثلاثةُ أجيالٍ مِنَ البَرامِكَة خلفاءَ عباسيين في أعمال مختلفة، كان أشهَرهم جَعفر البَرمَكي، مُرافِق هارون الرشيد في قصص **ألف ليلة وليلة**. كانت العلاقة بينهما قوية لدرجة أنّ إحدى الأساطير تَروي أنّ الرشيد كان لَديهِ ثَوب خاصّ بالتّوائم المُلتَصِقَة كانا يَرتَديانه معاً(٧٩)، ويَبرُزُ رأسُ كلٍّ مِنهما مِن فَتحَةٍ خاصّة.

لا تَنتَهي الأساطيرُ عند هذا، بل يُقالُ إن تلاقي الفرس والعرب كان قوياً لدرجة أنّ المُحرَّمات القديمة منذ أيام مُلوكِ اللّخميين قد تَحطّمَت(٨٠)، وأنّ الرشيد قد زَوَّجَ أختَهُ العَبَّاسَة لجَعفر البَرمَكي. وتَستمرُ الروايةُ بأن الأمورَ ساءَت بينهما عندما اكتَمَلَ الزواجُ بوِلادة ابنٍ لهذا الاتّحاد الذي كانَ من المُفتَرَضِ أن يكون شَكلياً(٨١). غَضِبَ الرشيد لفِكَرة أنَّ زَوجاً فارسياً، ولو كان صديقَه، قد لَوَّثَ نَقاءَ أختِهِ العربية، فأمَرَ بِقَتلِ جَعفَر، وحَبسِ بقية العائلة، ومُصادَرةِ ممتَلكاتِهم الثمينة الغالية.

---

(٧٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٢، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، و *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 1033.

(٧٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ١٧٠.

(٨٠) انظر: ص ١٥٨ ـ ١٥٩ من هذا الكتاب.

(٨١) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٠ ـ ١٧١، والمسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٨٥ ـ ٣٩١.

هل هذه القصة صحيحة؟ ربما ليست كذلك، وقد نَبَذَها ابن خلدون لسَخافتها، ويشكّكُ بالقصة بالتساؤل عن العَبَّاسَة: «كيف... تدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم؟»(٨٢). ربما يكون ابن خلدون أبا عِلم الاجتماع، إلا أنه ليس موثوقاً به في شؤون غُرَفِ النوم. ثم يُتابع بِشكلٍ أكثر إقناعاً، فيَقترحُ أنّ عائلةَ البَرامِكَة كانوا يُخطِّطون في الواقع لعَمَلِ انقلابٍ ضِدَّ الرشيد(٨٣). لا يوجَدُ دَليلٌ صَريحٌ يَدعَمُ هذه الفَرَضية، ولكنّ مَرثيّاتٍ متبقية مؤيدة للبَرامِكة ربما تَضُمُّ إشاراتٍ خَفِيَّةً إلى ذلك، تَضُمُّ إحداها هذه السطور:

كانتِ الدُّنيا عروساً بكُمْ وهي اليومَ ثكولٌ أرملةْ

يقصد قول صالح بن طريف:

كانتِ الدُّنيا عروساً بكُمْ وهي اليومَ ثكولٌ أرملةْ(٨٤)

يُشير هذا القولُ إلى أنّ زواجَ جعفر لم يكن بأخت الخليفة فقط، بل بعالَمِه أيضاً. وانتَهى الآن زواجُ الفُرسِ بالعالَم(*).

لم يُفَسَّر سقوطُ البَرامِكة تماماً(٨٥)، وربما لَعبَ التَّنافُسُ الشديد في البلاط دَوراً في ذلك، خاصّة بين البَرامِكَة ومُساعِدٍ آخَر مُقرَّبٍ للرشيد هو الفَضلُ بن الربيع(٨٦). ولكن ربما كانت في النهاية عودَةَ ظُهورِ المَخاوِف القديمة لدى الرشيد حولَ سيطَرة أعجَميّ، سواء كان ذلك في سرير الزوجية أو على سرير المُلك، لأنّ كلمة «السرير» تعني أيضاً بالعربية «العرش» (وكما رأينا فإن كلمة «العَرش» قد تَعني «النَّعش»). وربما كانت هناك أهميةٌ لذهاب الخليفة إلى الحجّ في مكة قُبيلَ تَحرُّكِهِ ضِدَّ البَرامِكَة، وما في طُقوس الحجّ

---

(٨٢) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 19.

(٨٣) Ibid., pp. 19-21.

(٨٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٣٩١.

(*) [ذَكَرَ ابن خلدون في مقدِّمَتِه نَكبَةَ البَرامِكَة قائلاً: «وإنّما نَكَبَ البَرامِكَةَ ما كان من استِبدادِهم على الدولة، واحتِجابِهم أموالَ الجِباية، حتى كان الرشيد يَطلُبُ اليَسيرَ مِن المال فلا يَصِلُ إليه، فغَلَبوه على أمرِه، وشارَكوه في سُلطانِه، ولم يكن له مَعهم تصَرّفٌ في أمورِ مُلكِه] (المترجم).

(٨٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 17.

(٨٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٢٥٦.

من ارتباط بالجُذور العربية. كان الرشيد آخِر خليفة عباسيّ يُجَدِّدُ تلك الرابِطة القديمة(٨٧).

الخوفُ من الآخَر، حتى لو كان تاريخياً قديماً، هو أمرٌ مبَرَّرٌ، فسرعان ما ستَنهارُ الهيمَنة العربية، وكان الفرس والترك على وشك تأكيد سيطَرتِهم ليس فقط على أجسادِ نساءِ العرب، ومن ثَمَّ «شَرَف» العرب، بل على كلِّ جِسمِ السياسة العربية. سيَبدأ صعودهم نحو السُّلطة بشكلٍ جدِّي مع جِيلِ الخلافة التالي، وبعد جِيلٍ واحِدٍ فقط سيُصبِحُ غير العرب هؤلاء قوةً عائقةً خانقةً لألفِ سَنة.

عُقمُ المَلَكية

تَرجِعُ الانهياراتُ والسَّقطاتُ الكبيرة دائماً لأسباب كثيرة، ربما فيما عَدا انقِراض الديناصورات. قد تكون بعضُ الأسباب تافِهة ويَصعُبُ كَشفُها، إلا أن بعضَها قد يكون أخطاء فادِحة وتقلّبات في الشخصية أو الظروف تؤدي إلى كارثة. كَتَبَ عبيد الله بن سليمان: «إذا أرادَ اللهُ تعالى هلاك قَوم وزوال نعمتهم، جعل لذلك أسباباً»(٨٨)؛ أو بكلمة أخرى، لا يَلعَبُ بالنَّرد. أما بالنسبة إلى العرب فإن المتَّهم عادةً هو الانقسِام المُهلِك الدائم الذي جاؤوا به معهم من شبه الجزيرة العربية، والذي يُقدِّمُ تفسيراً واضِحاً لسُقوطِهم من السُّلطة.

لا حاجة للقول إن تنافُسَ العائلةِ الحاكِمة لا يقتَصِر على العرب، فإن السلالة الأيوبية الكردية «ائتلفوا فملكوا ثم اختلفوا فهلكوا»(٨٩)، حسب تقييم كاتِم سِرِّ مؤسِّسها صلاح الدين. وبالمِثل، فإن معاصِريهم القَريبين منهم في الهند، سلاطِين دلهي الأتراك، «اتَّحَدوا لتَدميرِ أعدائِهم، وانقسَموا لتَدميرِ أنفسِهم»(٩٠). كما أن التنافُس ليس خطيئةً خاصةً بالعائلات الحاكِمة المسلِمة، فقد حَفَّزَ التنافس بيدرو مَلك قَشتالة Pedro of Castile ضِدَّ أخيه غير

---

(٨٧) محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير** (بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١)، ص ١٥٢.

(٨٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٨٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٩٠) ورد في: John Keay, *India: A History* (London: Harper Collins, 2004), p. 243.

الشرعي هنري تراستامرا Henry of Trastámara في إسبانيا، وقَذَفَ بيوتَ أبناء العُمومَة لخَوضِ غِمار حروب الورود بين يورك ولانكستر. الحروبُ الداخلية جزء من عملية حُكمِ السلالة، إلا أنها تفاقَمَتْ بسبب تَعدُّد الزوجات والجَواري وكثرة زوجاتِ الأب والإخوة غير الأشقّاء. وفي الحالة العباسية، عندما انقسَمتْ عائلةُ الخلافة، آخِر الرموز العظيمة لوحدَتِهم واستِمرارِهم، بسبب التّنافس بين الإخوة، كانت النتائج أكثر كارثية من كل ما سبقَها.

توصَّلَ المأمون الخليفة الفيلسوف وراعي العلوم إلى ما كان عليه بالوَسيلة الخالِدة، وهي القتالُ حتى الموت مع أقرَب المُقرَّبين إليه وأحبهم، ولن يَستعيدَ العباسيون ولا العرب عافِيَتَهم بعد ذلك. بين «العَصر الذهبي» لهارون الرشيد، وعَصر الفِكر الذهبي لابنه المأمون، قامَتْ حَربٌ هزَّتْ وحدَةَ الإمبراطورية كلها. ومثلما كانت الحالة في أسطورة الفَصلِ الدَّموي بين التَّوأمين المُتَّصِلين هاشم وعبد شمس، التي تَنبّأتْ بالانقِسام بين نَسلِهما من العشائر في قريش، فكذلك كانت قصة الشاب عبد الله (المأمون) وأخيه محمد (الأمين) نذيراً بانقسام العباسيين في المستقبل. كان العالِم الكِسائي يَزورُ الرشيد، واستَدعَى الخليفةُ المُحبُّ صَغيرَيهِ ليَعرضَ حِفظهُما لسُوَرِ القرآن والشِّعر. أنشَدَ محمد بَيتَين من الشِّعر عن الثروة والكَرَم والشَّرف، أما عبد الله فكانت قطعَتُهُ عن القَدَر والصبر في الشّدائد، وانتَهتْ بصورةٍ غريبة:

وتَرى قَناتِي حين يُغمِدُها   عَضُّ الثِّقافِ بَطيئةَ الكَسرِ

امتَدَحَهُما الكِسائي، ودَعا لَهما، وقال:

«أمَّنَ الرشيدُ على دعائي، ثم ضَمَّهما إليه وجَمَعَ يدَه عليهما فلم يَبسطها حتى رأيتُ الدموع تَنحدِرُ على صَدره، ثم أمَرهُما بالخروج، فلما خَرَجا أقبَلَ عَلَيَّ فقال: كأنكَ بِهما وقد حُمَّ القَضاء، ونَزلتْ مَقادير السماء، وبَلَغَ الكتابُ أجَلَه، قد تَشتَّتتْ كلمَتهما، واختَلَفَ أمرُهما، وظَهَرَ تَعاديهما، ثم لَم يَبرَح ذلك بِهما حتى تُسفَكَ الدماء وتُقتَل القَتلى وتُهتَك ستور النساء ويَتَمَنَّى كثيرٌ مِن الأحياء أنَّهم في عِداد المَوتى»[٩١].

(٩١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

مهما كانت صِحَّةُ القصة وإشاعَة وجودِ كِتابِ ألمَحَ إليه الرشيد يَتنبأ بمَصير الخلافة العباسية كلها، يبدو بالفِعل وجودُ حَتمية سقوط الأميرَين. فقد كانت أمّ محمد الأمين هي زبيدة التي كانت راعيةً لأعمال خيرية عظيمة، ومُحِبَّة لجَمعِ الأحجار الكريمة (لَبِسَتْ حذاءً مرصّعاً بالجَواهر)[٩٢]. كانت واحدةً من زوجات الخليفة القَلائل من الحَرائر العربيات، وكانت هي نفسها من العائلة العباسية. انتابَها القَلق على مستقبل الخلافة عندما أظهَرَ ابنُها الشاب مُيولاً واضِحة نحو الغلمان أكثر من مَيلِهِ للجَواري، فبدأت تُلبِسُ الجواري ملابسَ الصبيان، وأطلَقَتْ بذلك موضَةَ الغُلاميات[٩٣] وكُعوب الألماس. كان المأمون أكبر سِنّاً بقليلٍ، وأمُّه جارية. كانت هناك عداوةٌ واضِحة بين الوالِدتَين، مِثل علاقَة سارة وهاجَر، والعلاقةُ بين الولَدَين مثل العلاقةِ بين إسحق وإسماعيل[٩٤]. وكما هي العادة في تاريخ العرب، فإن وجودَ منافَسةٍ وعَداوة بين الأمهات، وغياب أسلوب البُكورة الصَّريح الذي يُمكِن التَّعامل معه، سَيُعقِّدُ انتقالَ السُّلطة. في هذه الحالة، وقَعَ الرشيدُ على «حَلٍّ» كارثيٍّ جَديرٍ بالمَلك لير في مأساة شكسبير *King Lear*: جَعَلَ الأمين وَليَّ عَهدٍ أوَّل للخلافة، والمأمون وَليَّ عَهدٍ ثانياً، إلا أنه قَسَّمَ مسؤولياتِ الإمبراطورية بينهما مع ابنٍ ثالث هو المُؤتمَن. مُنِحَ الأمينُ بغدادَ والسُّلطَة العامة، ومُنِحَ المأمون قاعدةَ قوة العباسيين في ولاية خراسان، وأُلقِيَتْ مسؤوليةُ الحَملات البيزنطية على عاتِقِ المؤتمن[٩٥]. وفي تَصرُّفٍ له رَمزيةٌ عظيمة وعلاقةٌ بأمورٍ مماثِلة في ممارَسات قبيلةِ قريش قَبلَ الإسلام، كُتِبَتْ وثيقةٌ بهذا القرار، وعُلِّقَتْ على جِدار الكعبة في مكة[٩٦]. وبصورةٍ مُنذِرة أخرى يُقالُ إن الإعلانَ قد سقَطَ أثناء تَعليقِه[٩٧].

لم يكن قرارُ الرشيد بحاجَةٍ إلى نذيرِ شُؤمٍ لكي يفشَل، إذ استَلَمَ الأمينُ الخلافةَ بعد وفاة الرشيد، ثم عَيَّنَ ابنَهُ الحديثَ الوِلادة وَليّاً لعَهدِهِ بَدَلاً مِن

---

(٩٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٨.
(٩٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٨.
(٩٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٠.
(٩٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p. 234.
(٩٦) قارن: ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ من هذا الكتاب.
(٩٧) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٦٤.

أخيهِ المأمون، بتَعارضٍ مع وَصيّة أبيه. صُدِمَ كثيرون، لأن مَفهومِ البُكورَة، وتَولِيَة مَولودٍ جديد، كانت أموراً غريبة، حتى قال أحَدُ الشعراء:

وأعــجَــبُ مِــن ذا وذا أنَّــنــا نُـبـايِـعُ لـلـطِّـفـلِ فـيـنـا الـصـغـيـرْ
ومَن لـيـسَ يـحـسـن مَـسـحَ اسـتـه ولـم يَخلُ مِن نَتنِهِ حِجْرُ ظِيرْ[٩٨]

كان المأمونُ مُحَصَّناً في خراسان، تلك الأرض التي تُنبِتُ الحروب، وسارَتْ قواتُهُ من هناك إلى بغداد حيث لم يكن شقيقُهُ مُستعِدّاً للمعارك (كان أكثر اهتماماً بالزَّخرَفة الداخلية وأسماكِ الزّينة، وكانت سَمَكَتُهُ المُفضَّلَة مُزَيَّنَةً بخواتِم ذهبية)[٩٩]. جَرَتْ حربٌ طويلة عنيفة في المدينة استمرت أكثر من سَنة، وَجاء في وصف المسعودي لها: «قاتَلَ الأخُ أخاه، والابنُ أباه، هؤلاء محمَّدية وهؤلاء مأمونية، وهُدِمَتْ المنازل وأُحرِقَت الدِّيار وانتُهِبَت الأموال»[١٠٠]. وقِيلَ في إحدى القصائد التي تُسَجِّل صُورَ الدّمار وانهيار مجتمعٍ كامل:

تقطَّعَتِ الأرحامُ بينَ العَشائِرِ وأسلَمَهمْ أهلُ التُّقَى والبَصائرِ
أبغدادُ يا دارَ المُلوكِ ومُجتَنَى صُنوف المُنى يا مُستَقَرَّ المَنابرِ
ويا جنَّةَ الدنيا ويا مَطلَبَ الغِنى ومُستَنبَطَ الأموال عندَ المَتاجرِ
تُرشُّ بماءِ المِسكِ والوَردِ أرضُها يَفوحُ بها مِن بَعدُ ريحُ المَجامِرِ
كأنْ لَم تكنْ بغدادُ أحسَنَ مَنظَراً ومَـلـهـى رأتْـهُ عَـيـنُ لاهٍ ونـاظِـرِ
بلى، هكذا كانتْ فأذهَبَ حُسنَها وبَدَّدَ مِنها الشَّملَ حُكمُ المَقادِرِ
وحَلَّ بهمْ ما حَلَّ بالنَّاسِ قَبلَهمْ فأضحوا أحاديثاً لِبادٍ وحاضِرِ[١٠١]

هؤلاء «الناس قَبلَهم» هم كلّ الذين حَكَمَتْ عليهم الفُرقَةُ والانقِسام منذ أيام أهل سَبأ الذين قال عنهم القرآن: «لقد كان في قَصَصِهم عِبرة»[١٠٢].

---

(٩٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦.
(٩٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٣.
(١٠٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٩.
(١٠١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(١٠٢) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآية ١١١، و«سورة سبأ،» الآية ١٩. انظر أيضاً: ص ١٣٥ من هذا الكتاب.

رؤيةُ بغداد في هذه الأيام ودمشق وما أراه من صَنعاء تحت نافِذَتي، يعني أنَّ القَصَص لم تَنتَه.

قُبِضَ على الأمين أثناء محاولته الهَرَبَ في قارب. شَهِدَ أسيرٌ معه من المَوالي اسمُه أحمد ساعاته الأخيرة:

قال (الأمين): «ادنُ منيّ وضمّني إليك، فإني أجد وحدَة شديدة». فضممتُهُ إلي فإذا قلبه يخفق خفقاناً شديداً... ثم قال لي: «يا أحمد، ما أشك أنهم سيحملونني إلى أخي. أفترى أخي قاتلي؟». قلتُ: «كلا. إن الرحم ستعطفه عليكَ»، فقال لي: «هيهات، المُلك عَقيم لا رحم له»[١٠٣].

كان مُحِقاً حَرفِياً من الناحية اللغوية، فإن رابطَةَ الدّم، وهي رابطَةُ «الرَّحِم»، هي بالضبط ما لَم يَشترِكْ به هذان الشَّقيقان بسبب اختلاف والدَتَيهما «اختِلاف الرَّحِم»؛ بل إن بعض المؤرخين المُناهِضين للأمين «يَمحونَ» قَرابَتهما من ناحية الأب، فيُسَمّون الأمين «محمد ابن زبيدة»[١٠٤]. لم يُرسَل الأمين إلى أخيه، بل تم قَتلُهُ ثم أُرسِلَ رأسُهُ، الجائزةُ المُعتادَةُ فقط (أما الأخ الثالث والحاكِم المُشارِك المُؤتمن، فقد ابتَعدَ بحكمَةٍ عن الصِّراع، وقَضى بقيةَ عُمرِه في غَفلَة).

كان المأمونُ مُنتَصِراً، وسيُصبِحُ فيلسوفاً، غير أن روابطَ العائلة والعَشيرة أو القبيلة قد أُصيبَتْ في مَقتَل مثلما أدرَكَ الشاعر والخليفة. ومنذ ذلك الحِين سيَشتَري الحكّامُ الولاءَ، وسيَعتمِدون على أتباع من غير العرب وعلى المُرتزقة. بَدأ هذا التَّوجُّه منذ الخليفة العباسي الثاني المَنصور الذي اعتَمدَ على مَماليكه وعُتقائه أكثر من اعتمادِه على العرب[١٠٥]. إلا أن المأمون سيُسَرِّعُ هذا كثيراً باستيراد جُنودٍ مما وراء النهر (من آسيا الوسطى) إلى بغداد برواتِبَ رسمية[١٠٦]. وكما سنَرى، سرعان ما ستَنسَحبُ السُّلطة العسكرية ثم السياسية من أيدي العرب. وكان هذا الغَزو المُضاد أكثر السِّمات تأثيراً

---

(١٠٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٢١.

(١٠٤) انظر على سبيل المثال: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٠٤.

(١٠٥) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٥.

(١٠٦) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

للغَزو المعاكِس للعرب من جِهة أهلِ البلاد المَفتوحة، لأنه سيُنهِي هَيمنةَ العرب إلى الأبد، وسَيقضي على فرصَتِهم في الوحدَة السياسية.

إضافة إلى ذلك، فإن التَّسللَ اللغوي إلى العربية من جِهةِ غَير العرب، والغَزو الوراثي في كافة نواحي المجتمع بأفواجٍ ضَخمة من الجَواري، أدّى إلى انزلاق الهوية العربية خارج السيطرة. ولكنّ ذلك لم يَحدُث قَبلَ أن تَتمَّ المُحافَظة على روايةٍ رسمية لتاريخ العرب والهوية العربية.

التَّدوين والاستقرار

خلال أكثر من قَرنٍ من التوسُّع الإمبراطوري الذي انطلَقَ في ثلاثينيات القَرن السابع، كانت الرؤيةُ العربية غير واضحة بسبب سرعة الحركَة، وتم امتِصاصُ طاقَة العرب بالحاجَة إلى المحافَظة على الاندفاع، وعلى الوحدَة بدرجةٍ أقلَّ نجاحاً. أما الآن فقد أُتيحَتْ لهم فرصةٌ للتفكير، مثلما يَستَقرُ روّاد الفضاء في المَدار بعد الإثارة والمَخاطر في عملية الإطلاق، ويفكّرون إلى أينَ يتَّجِهون ومِن أينَ جاؤوا، والأهمّ مِن ذلك يفكِّرون في أنفسِهم.

في محاولتِهم لإدراكِ عالَمِهم، سيَفعَلُ العربُ ما سيَفعَلونَه فيما بَعد، وربما ما يَفعَلونَه حتى الآن، وهو التمسُّكُ بماضِيهم، ليس فقط بالماضي الثوري لعَصر محمد، بل وكذلك بماضي العرب الأقدَم الذي انبَثَقَ منه الإسلام، ذلك الماضي القديم في «جزيرة» أسلافِهم. الحنينُ قوةٌ يُستَخَفُّ بتَقدِيرها في التاريخ. يَسيرُ الزمنُ إلى الأمام، غير أن الناس كثيراً ما يَهربون إلى الوراء، مِنَ الأزمَةِ والتَّعقيدِ إلى البَساطَة المُتخَيَّلَة والنَّقاء. ربما يكون الماضي مَوطِناً آخَر إلا أنه يظَلُّ الوطن الأمّ.

بالنسبة إلى العرب في زمن العباسيين، كان لا بد من استدعاء الماضي أولاً وتَسجيله. أُطلِقَ على تلك الفَترة اسم «عَصر التَّدوين»، الذي ربما كان نوعاً من الانعكاس لحركة الترجمة، وكان إحباطاً بالمَعنى الحَرفي للانعكاس في مِرآة، لأنَّ الترجمة لم تكن من الخارج، بل كانت اتجاهاً نحو الداخل وإلى الوراء نحو الهوية العربية، كما كانت بدايةَ انزلاقٍ مازال يؤثِّرُ على حياةِ الإسلام بين سَبرِ غَورِ النفس من ناحية، وانفتاحٍ أكبَر نحو العالَم فيما وراء الجزيرة العربية من ناحية أخرى. استَخدَم المُنفَتِحون نحو العالَم الأوسَع

اللغةَ العربية ومادةَ الإسلام لِخَلقِ حضارةٍ عالمية يتم فيها إثراءُ الطُّقوس العربية التقليدية بالحِكمَة المَحَلية التي كانت موجودَةً قَبلَ الغَزو في البلاد الأخرى. تمت مُقارَنَةُ النتيجة بجَدارةٍ مع الحضارة الهيلنستية(١٠٧)، إلا أنها كانت ومازالت حَضارةً يَشتاقُ كثيرون أن يَحجُّوا عائدينَ منها إلى ماضِيها العربي.

خَلقُ تُراث

المشكلةُ أنَّ كثيراً من الماضي كان قد ضاعَ، وانكَسرَ الاستمرارُ ومرآةُ الذَّاكِرة، وفي المجتمع الجديد المستقر لم يكن الخليفة وحدَهُ هو الذي نَسِيَ مَعنى «الكَلأ». لجَأ العلماءُ من أجل تصحيح ذلك إلى البَدو الذين كانت حياتهم لم تزل تدور حول ذلك الكلأ.

انطلاقاً من أواخر القَرن الثامن، اتَّجَهَ علماءُ فقهِ اللّغة والمَعاجِم مِنَ المُدن إلى مَن بَقِيَ من العربِ الذين يعيشون حياةً صافية لم تُشَوِّه نقاءَها أساليبُ حياة المُدن ولُغَتها. كان هدفهم جَمع التّراث الشّعبي بكلّ مَعانيهِ وأوسَع جَوانبِه، وكلّ المَعارف الشعبية المَوروثة. تُذكّرُ تلك الحركة أحياناً بما حَدَثَ من تغيراتٍ في أوروبا منذ نحو قَرن من الزمن عندما جَمَعَ سيسيل شارب Cecil Sharp البريطاني، وبيلا بارتوك Béla Bartók المَجَري الألحان والرقصات الشعبية. إلا أن الحركةَ العربية لم يُلهِمها الفضولُ الفنيّ أو الاتجاه الشعبي الفولكلوري، بل كانت بَحثاً تُراثياً حَيوياً لإنقاذِ البقايا الحَيَّة من تاريخ الأمة في مجتمعٍ متغيّر كانت الكلمات فيه دائماً أكثر أهمية من الأماكِن أو الفنون، ولذلكَ رَكَّزتْ على اللغة. كان لديها برنامجٌ وإيديولوجية مثل بعض الأبحاث التّراثية الأخرى التي جاءَتْ بَعدَها كالحركات القومية الصهيونية والهندوسية التي كانت حريصةً على تقديم وجهَةِ نظرٍ تاريخية معيَّنة. في الحالة العربية، كان التَّركيز على تاريخ البدو، أو على الأقل على ما بَقِيَ منه عند البدو الرُّحَّل في شمال شرق شبه الجزيرة والجزء الأقرَب إلى الكوفة والبصرة. أما التاريخ العربي الكبير الآخَر للمجتمعات الحَضَرية غير القَبَلية، وتاريخ السّدود والمَعابد الضخمة، فقد كان بعيداً جِداً ومَنسِياً في أعماق الجنوب، الجانب المُعتِم مِنَ القَمر العربي.

---

(١٠٧) Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*, pp. 58 and 154.

غالباً ما ارتبكَ البدو في إجاباتِهم عن أسئلةِ الباحِثين، مثلما حَدَثَ عند سؤال أحدِهم فيما إذا كان الأصَحُّ قول «إسرائيل» أو «إسراييل»، وفيما إذا كان لكلمة «فِلَسطِين» حالَةَ مُضافٍ إليه أو نِسبَة[١٠٨]... سألَ أحَدُ الأعراب: «إلى متى ستَسألني عن هذه التُّرهات؟ وإلى متى سأقدِّمُ إجابات مفيدة لكَ؟ ألا تَرى أنّ لحيتكَ قد غَلَبَها الشيب؟»[١٠٩] [غير حرفي]. استفادَ أحَدُ علماء المُعجم من اختِطافِه لسنواتٍ عديدة لدى قبيلةٍ بدوية[١١٠]. ودَفَعَ بعضُ الباحثين أموالاً لقاء تلك المعلومات[١١١]، بينما انتَقَلَ بعضُ البدو إلى المدن لبَيع معلوماتهم[١١٢]. وكثيراً ما حَدَثَ أنّ الباحِثين لم يُدَقِّقوا جيداً في مَصادِرهم، مثلما قالَ المَعري عنهم:

وكم روى النحاةُ عن طفل، ما له في الأدب من كِفْل، وعن امرأة، لم تُعدّ يوماً في الدَرَأَة[١١٣].

وبالطبع، كان تَركيزُ البحثِ على من لا يَعرفُ الحروف، وكانت النساء عادةً أفضَل المَصادر لأنَّهُنَّ أكثر مُحافَظَةً في الكلام من الرجال.

تَركَّزَت المَعرفة في علوم اللغة، ولكن دراسةَ اللغةِ تحتاجُ عادةً لِجَمع الشِّعرِ وفَهمِهِ، وجَمعِ معلوماتٍ عن الجغرافيا والأنسَاب في التاريخ قَبلَ الإسلام. وسيكون لكلّ ذلك تداعياتٌ أبعَد بكثيرٍ من اهتمامات الأثَريين، ومن المُحافَظَةِ على تُراثٍ غنيّ ومُثير، بل سيُحدِّدُ في الواقع هوية الأمة العربية إلى الأبد. ومازالت تلك الهوية مَعَنا حتى هذه الأيام مَوسومَةً عنى أناسٍ أصحاب تَنوُّعٍ كبيرٍ يمتد من موريتانيا إلى مَسقَط. ومرةً أخرى مثلما كانت الحال مع أولئك الرُّحَّل الأوائل من أصول متنوعة حين جَمَعَهم

---

(١٠٨) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(١٠٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٥٣٠.

(١١٠) Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), vol. 1, p. xxxiv.

(١١١) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ٢، ص ٤٣١.

(١١٢) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ص ٨٤.

(١١٣) Abū l-'Alā' al-Ma'arrī, *The Epistle of Forgiveness, Volume One: A Vision of Heaven and Hell*, edited and translated by Geert Jan van Gelder and Gregor Schoeler (New York; London: New York University Press, 2013), p. 321.

جيرانُهم مع بعضِهم تحت اسمٍ واحِد قَبلَ ثلاثة آلاف سنة، فقد أثبتَ اسمُ «العرب» قوته وصموده.

عودةُ البدو

كان الواقع العباسي بشكلٍ رئيسي هو مجتمعٌ مَدَني اندِماجي مستقرّ متزايد في تَعدّده وتَنوّعه، وقد أدّى البَدو العربُ دَورَهم كَرأسِ حَربَةٍ في الفتوحات، واندَمَجوا منذ ذلك الحين في المجتمع الجديد، أو إذا احتَفَظوا بِنَمَطِ حياتِهم السابق، فقد انسَحَبوا واختَفوا في الهوامش السياسية والجغرافية. وعندما يَظهَرون، كانوا يَعودون كمَصادر في اللغة أو كقوة تخَريبية، مثلما شارَكوا في سَنَتَي الحرب في سورية بين القبائل «الشمالية» و«الجنوبية» في زَمَنِ الرشيد[١١٤]، أو في الإغارة على قوافل حجّاج مكة مثلما فَعَلَتْ قوةٌ من ٦٠٠٠ مقاتِل من قبيلة طَيّئ سنة ٨٩٨[١١٥]. ستتكَرَّرُ تلك الظاهرة الأخيرة على مَدى ألف سنة حتى ظُهور قوة آل سعود المَركزية. القراصِنةُ العرب يُهاجِمون الحجّاج المسلمين... لا يوجد تصوير أفضَل من ذلك لاستمرار التاريخ القديم في الرَّعي والإغارة، أو الانفصال بين الإسلام وأصولِه في شبه الجزيرة.

عند توثيقِ التاريخ للأجيال القادِمة، كان إبرازُ ماضي الرّعي ـ الإغارة هو بالضبط ما أُعطِي بَريقاً بطولياً. غُرِسَت الرّوحُ البدوية عَميقاً في الذاكرة العربية الثقافية الجَماعية، وأصبَحَت المِثال مهما كانت الحقيقة في الواقع؛ أو بكلمة أخرى، أصبَحتْ نَوعاً من الشخصية القومية. وكما عَبَّرَ عنها ناقِدٌ معاصِر في عصر الاستقرار: «بدأت الشخصية العربية تعي ذاتَها»[١١٦] [غير حرفي]. ولكن إذا كانت تلك بداية الوعي الذاتي، فقد كانت أيضاً المرحلة الأخيرة في فترة طويلة من التطور. وجِدَتْ تلك الشخصية العربية جَنينياً فَترةَ قرون، وبَدأتْ في اتّخاذِ صِفاتٍ واضِحة قَبلَ العَصر المسيحي. لقد وِلِدَتْ قَبلَ الإسلام في فترةِ المُلوك اللّخميين، وشَكَّلَتْها ظروفها، خاصة وجود

---

(١١٤) عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر** (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.])، ج ٢، ص ١٣.

(١١٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٦١ ـ ٢٦٥.

(١١٦) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ١٩٢.

الجِيران الأقوياء غير العرب، ثم فُطِمَتْ على غذاءِ الفتوحات بعد محمد، وازدَهرتْ أكثَر في عَصر الأمويين بنَقلِ دمٍ من جنوب شبه الجزيرة العربية. وواجَهَت الآن في تَنوعِ الإمبراطورية عالَمًا أكثر تَعقيداً وتَهديداً من كل ما عَرفَتْهُ قَبلَ ذلك، فاندَفَعتْ في دفاعٍ عن النفس لتأسيس هويتها بالنَّظَرِ إلى الوراء. ونتيجةً لذلك، نَضَجَت الشخصيةُ إلى البُلوغ، وإذا امتَزَجَ الوعي الذاتي بنوعٍ مِن خِداع الذات، فإنَّ الكِبار يواجِهون العالَم بمِثل هذه التَّحولات.

وهكذا فإن عالَمَ البدو المُفتَرض أنه لم يتغيَّر قد مَلأ مَكتبةً مُتَّسِعَة من التعليقات الشاعرية والأعمال اللغوية والتاريخية والمَعاجم الأولى. ولكن، في الواقع الخراساني الأعجمي في المجتمع العباسي، تمت السخرية من العرب الحَضَريين الذين حاوَلوا الرجوعَ إلى جُذورِهم الأعرابية، وكان من بينهم الشاعر حَيص بَيص الذي قلّد الكلام البدوي القديم، وكان لَقَبُهُ تعبيراً بدويّاً قديماً استَخدَمَهُ هو نفسُه، ويَعني الشّدة واختِلاط الأمور، وقد ادَّعى انتِماءَهُ للقبيلة الكبيرة تَميم فقِيلَ لَه:

كم تَبادَى وكم تُطَوِّلُ طَرطو رَكَ؟ ما فيكَ شَعرةٌ مِن تَميم
فَكُلِ الضَّبَّ، واقْرُطِ الحَنظَلَ اليا بِسَ، واشربْ ما شِئتَ بَولَ الظَّليم(١١٧)

ولكن البدوي التقليدي ظَلَّ الهوية الكامِنة والشخصية الافتِراضية. على مَدى ألف سنة من القَرن التاسع حتى القَرن التاسع عشر، ومن «عَصر التدوين» إلى «النهضة العربية»، سَيَنقَسِمُ مَعنى «العرب» إلى مَعنَيَين: دَلَّ من ناحيةٍ على أنَّ جَميع مَن يَستخدمون اللغة العربية هم عَرَبٌ بالمَعنى الثقافي اللغوي؛ ومن ناحيةٍ أخرى باللغة المعتادَة، فإن العرب هم بَدوٌ غَير متَحَضِّرين يأكلونَ الضَّبَّ حتى ولو كان أجدادُهم أبطالاً. يُشاهَدُ هذا التقسيم في اليمن هذه الأيام حيث قد يقولُ أحَدُهم مستَصغراً الريفيين غير المُتحضِّرين الذين يَحمِلون البنادق: «إنهم ليسوا أكثر من قَبَليين». ولكنكَ إذا لَمّحتَ إلى أنَّ المُتَحَدِّثَ نفسه ليس من أصلٍ قَبَلي، فستهينه إهانةً مؤلمةً. العلاقةُ بين طَرَفَي هذه الشخصية المُنفَصِمة هي جُزءٌ من الجَدَلِ المستمر بين البَدو والحَضَر.

(١١٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٣٦٣.

أدَّى التقديرُ الاستثنائي لماضي البدو إلى أنَّ أيّ شخص يَحمِلُ ادّعاءات أدبية، أو أرادَ الحصولَ على عَمَلٍ إداري، عليه أن يَعرفَ «أيامَ العرب»، الغارات والمعارك بين القبائل قَبلَ الإسلام(١١٨). هناك كثيرٌ من تلك الأيام، وقد جَمعَ الأصفَهاني نحو ١٧٠٠ منها(١١٩). استمرَّ هذا الهَوَسُ في الزمان والمكان، وسيَحتَفلُ شعراء الأندلس الحَضَريون في القَرن الرابع عشر بالبداوة، وكذلك سيَحتَفلُ الشاعر اللبناني ـ البرازيلي المَهجَري إلياس فرحات بالخِيَم البدوية والإبِل في القَرن العشرين في سان باولو(١٢٠). وكثيراً ما تتغلَّب الشخصية البدوية على الأخلاق الإسلامية، وما الإغارة على حجّاج مكة إلا مِثال متطَرف على عدد كبير من حالات أقلّ وضوحاً تطغَى فيها العادات والتقاليد على قوانين القرآن، وكثيراً ما ستواجه ذَمّاً شديداً مثلما قال محمد الجابري:

ربما ليس من المبالغة القول إنَّ الأعرابي هو خالِق «عالَم» العرب، العالَمُ الذي يعيشُ فيه العرب على مستوى الكلمات والتعابير والتَّصور والخيال، أو على مستوى العَقل والقِيَم والمَشاعر. وهذا العالَم ناقِصٌ وفَقير وسَطحي وجَافّ، عالَمٌ مِن معَنى وطَبيعة غير تاريخيين، بل يَعكسُ صورة عَرَبَ ما قَبلَ التاريخ، عَصر الجاهلية قَبلَ الفتوحات وتأسيس الدولة(١٢١) [غير حرفي].

وفي هذه الأيام، يكمُن ذلك العالَم الآخَر وراء العالَم الذي نُشاهِدُه، وحتى في الوَضع المَدَني في الدّوحَة ودُبي مازال أمراء الشِّعر يُعَظِّمون البداوة البطولية. وقد قالَ فؤاد عَجمي إنَّ الحَنين إلى الصحراء «غريبٌ على الثقافة»(١٢٢)، وهو أمرٌ مدهِش لأنَّ الحَنين إلى الصحراء متضَمَّنٌ في الثقافة منذ العَصر العباسي. صورةُ العربيّ «التقليدي» عن نفسِه هي أقرَبُ إلى صورَتِه في الـ ١٧٠٠ يوم من نسخَتِها الحَضَرية الفارسية في الـ ١٠٠٠ **ليلة وليلة**.

---

(١١٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٦.

(١١٩) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Abū'l-Faradj.

(١٢٠) Ibid., vol. 5, pp. 1256-1257.

(١٢١) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٨٨ ـ ٨٩.

(١٢٢) Fouad Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey* (New York: Pantheon, 1998), p. 128. It is coincidental that Ajami's surname means 'non-Arab': his ancestors moved to Lebanon from Iran (p. 14).

التاريخُ العربي بكامِلِه منذ العصر العباسي مَسكونٌ بشعورِ انفِصال عن بقية العالَم وإلى أينَ يَتَّجِه، وبرجوعٍ مُزمِنٍ إلى الوراء، إلى بساطَةِ الإسلام المُفتَرَضَة قَبلَ أن يُغادِرَ شبه الجزيرة العربية، وأحياناً إلى نظرةِ الحَنين الضَّيقة إلى ماضي العرب الأعمَق. هذا الحَنينُ العام ليس سيئاً بالضرورة، لأنه يُقدِّمُ شعوراً بنوعٍ مِن الوحدَة، ويمدُّ في عُمرِ الأمّة الثقافية، وهو سببٌ آخَر يمكِّنُنا من كتابة «تواريخ العرب» وليس العالَم الناطق بالإنكليزية (الذي يُفتَرَضُ أنه تَخلَّى عن أساطيره القومية وأدركَ العالمية). إلا أنّ الحَنين، مِثل اللغة، يرتَبِطُ بمعنَيين: الأخوّة، والعبودية. إنه سببُ قول الشاعر نزار قباني:

أنا يا صَديقَةُ مُتعَبٌ بعروبَتي   فهَل العروبةُ لَعنَةٌ وعِقابُ؟[١٢٣]

حُرّاسُ المُعجَم

كان الإسلامُ يتطلَّعُ إلى الأمام وإلى آفاقٍ أوسَع في العَصر العباسي، وأخَذَت النظرةُ إلى الخَلفِ نحو ماضي العرب تَضيقُ تدريجياً. ضَعفَ زَخَمُ التَّوسُّع، وبَدَأَ العرب بالتركيز على أسطورَتِهم القومية. وهكذا تَطوَّرت الشخصيةُ العربية بسرعة من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم إلى سِنِّ اليأس حين بَدأ كل شيءٍ بالانحِدار والانحِلال. ومثلما كانت حالة «الخدعَة الكبرى»[١٢٤] للإمبراطورية البريطانية عندما تمكَّن سكّانُ جزيرةٍ هامِشية (أو في حالَة العرب: شبه جزيرة) من حُكم شَريحَةٍ كبيرةٍ من العالَم مِئتَي سنة، كانوا بحاجَةٍ إلى قَصَصٍ عن ماضٍ بطولي، خاصة عندما كان حُكمُهُم تحت تَهديدِ آخَرين.

يجب عدم استِغراب أن الباحِثين الذين استَرجَعوا ذلك التاريخ، مثل علماء اللغة وغيرهم، كان معظَمُهم مِن غَير العرب. عَلَّقَ باحِثٌ مُعاصِر على ذلك بصَراحة: في عمليةِ جَمعٍ وتَصنيفِ المَعارف عن الماضي «كان المَوالي العَجم هم الذين شكَّلوا في الحقيقة الهوية العربية للمجتمع العربي»[١٢٥].

---

(١٢٣) نزار قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ٣ ج، ط ١٦ (بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧)، ص ٨٥٧.

(١٢٤) العبارة من: Philip Ziegler, *Soldiers: Fighting Mens Lives, 1901-2001* (London: Plume/Penguin, 2003), p. 324.

(١٢٥) Rina Drory, "The Abbasid Construction of the Jahiliyya: Cultural Authority in the Making," *Studia Islamica*, vol. 83 (1996), p. 42.

ربما العبارة الأكثر دِقَّة هي: «أعادوا تَشكيلَ». وعلى كل حال فهو تَصريحٌ وافَقَ عليه ابن خلدون عندما خَصَّصَ فَصلاً كاملاً عن احتِكار غَير العرب للأبحاث والدراسات. وهنا أيضاً كانت الهوية العربية يُشَكِّلُها غير العرب(١٢٦)، مثلما صَنَعَتْ إمبراطورياتٌ قديمة غَير عربية أولَ شُعورٍ بالهوية العربية بِخَلقِ «مُلوكِ العرب».

هذا التَّشكيلُ كان يؤثِّر أيضاً على ذلك اللاعِب المستمر الأساسي في تاريخ العرب: اللغة العربية. تَطوَّرت اللغةُ العربية وازدَهرت بفَضلِ حَركَةِ الترجمة، غير أن ذلك الازدهار لم يَجِد طَريقَهُ إلى المَعاجِم التي بَدأَتْ في الظُّهور. نَظَرَ المفكرون المَدَنيون إلى الخارج نحو شعوب الإمبراطورية وجِيرانِها الأبعَدين في الهند والصين والقسطنطينية. بينما نَظَرَ علماءُ اللغة إلى الوراء نحو عالَم البَدو الذين لم يَهتَمّوا بالاصطلاحات الرياضية المُشتَقَّة مِنَ السنسكريتية، أوَ بالقياس المَنطقي المشتَقّ من اليونانية، بينما كانوا يَحلبون إبِلَهُم. كما أن علماء اللغة وغيرهم من المُهتَمّين بالمَعاجم ضَيَّقوا اللغةَ أكثَر بتَشذيبِ التَّنويعاتِ الكثيرة التي وُجِدَتْ في لهجاتِ القبائل المختلفة. عَرَضَ الأصمَعيّ مثالاً لهذه التَّنويعات، وهو المؤرخُ وعالِم اللغة المُنحَدِرُ مِن نَسلِ قبيلةٍ عربية، والمَشهور بذاكِرَتِهِ المُذهِلَة، توفي سنة ٨٢٨:

اختلف رجلان في «الصَقر»، فقال أحدُهما: بالصاد، وقال الآخر: بالسين. فتراضَيا بأوَّل واردٍ عليهما فحكيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول كما قلتما، إنما هو «الزَّقْر»(١٢٧).

وفي النهاية، لم تَظهَر في المُعجَم إلا بِشكلَ «صَقر»، لأن سياسةَ عالِم اللغة كانت البَحثَ عن الاستعمال الغالِب ومِنْ ثَمَّ تَوثيق أنَّهُ الشَّكلُ المَقبول الوحيد(١٢٨).

ولكن في عالَم الواقع، كانت العربيةُ تَنتَشر وتَتوسع وتَتغيَّر. كانت مَوجودةً دائماً بتَنويعات قَبَلية كثيرة، وكذلك في اللغة الفصحى للشعراء

---

(١٢٦) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, pp. 428-430.

(١٢٧) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ٢٠٧.

(١٢٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٦، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٢٢٣.

والأنبياء. تَفَرَّعَتْ أكثر مع الفتوحات والمَزج العِرقي إلى لَهجاتٍ جديدة، كما تَوسَّعتْ مُفردات المفكِّرين المَكتوبة بفَضلِ الترجمة وظُهُور علوم جديدة، بينما انكَمَشَت اللغةُ الفصحى المَكتوبة. وكلمة «الفُصحَى» مُشتقَّةٌ مِن كلمة «الفَصيح»، وهو الحَليب الصَّافي الخَالي من الرَّغوَة. كان الحليب دَسِماً، ولكنه أصبَحَ مُتجانِساً ومُبَستَراً منذ عَصر التدوين.

الكتابةُ العربيةُ مَبنِيَّةٌ، ومع تكوين هذه اللغة العربية العامّة الشامِلة، رَسَّخَ اللغويون فكرةَ أن القبائلَ والشعوبَ المتنوعة هي عِرقٌ واحِدٌ هو «العرب»، فالعِرقُ مَبنِيٌّ مثلما هي اللغة.

إلهٌ مَبنِيٌّ مِن أحرُف

كان الثوبُ القومي القديم للّغةِ مُنَوَّعاً بألوان جديدة لَفترةٍ ما، ولكنَّ علماء اللغة كانوا يواجِهونَ التَغيُّر ويَجعَلون العربيةَ ثَوباً رسمياً مَحصوراً بألوانِ الأرض البدوية، أصبَحَ مع الوقت ثَوباً حاصِراً سيُضَيِّقُ الحركةَ الأدبية، بل ويَضغَط حتى على الفِكر نفسه.

كان الأمويون قد دَفعَوا، بتَعريبِ الحكومةِ، كثيراً مِن غَير العرب إلى تَعلُّم لِسانِهم الصَّعب، واقتَضَى ذلك تَحليل اللغة، وأصبَحتْ علوم النَّحو والأسلوب وغيرها من علوم اللغة أولَ العلومِ العَربيةِ الرسمية[١٢٩]. والآن عندما تطَوَّرَتْ دراساتٌ عربية ـ إسلامية أخرى في ظِلِّ العباسيين، فقد نَمَتْ على نَمَط تلك العلوم اللغوية بدلاً من مَسارات العلوم الفيزيائية والنظرية للقدَماء غير العرب التي ألهَمَت المأمون. طُبِّقَتْ قواعدُ النَّحو بشكلٍ خاص على الفِقه وستُشَكِّل كلَّ عالَمِه الفكري. انغَمَسَ المأمون والكِندي وأمثالهما في عالَم الفِكر[١٣٠]، وقامَ المأمونُ فِعليّاً بقياسِ مُحيطِ الأرض. إنما اتَّخذَت الحضارةُ العربيةُ بَعدَهما طَريقَ الحَقيقة النَّصِّيَّة عندما واجَهَتْ ذلك التَّفرع في المَسار الفكري، وبَقيَتْ على ذلك الطَريق. سيَكون هنالك بالطَّبع كثيرٌ من العقول العربية التجريبية العظيمة التي لم تقيّدها اللغةُ التي فكَّرتْ بوسَاطَتِها،

(١٢٩) قارن: ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ من هذا الكتاب.

(١٣٠) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ١٢٤ ـ ١٢٧.

ولكنهم اشتَغَلوا بشكلٍ منعَزل أو على الهَوامِش[١٣١]. وسيظَلُّ الفِكر بشكلٍ عام مُقيَّداً بدراسَةِ النصوص، وستظَلُّ الحقيقة خطابية وليسَت تجريبية. فمَثلاً، كان عبد الصمد بن الفَضل، الذي كان أسلافُهُ يتَوارثون الخَطابة في البلاط الفارسي، يستطيعُ تقديمَ ثلاث محاضراتٍ بليغة طويلة عن البعوض، ولكن البَراعَة كانت في البَلاغَة وليستْ في الملاحَظة[١٣٢] التي كان عليها أن تَنتَظِرَ روبرت هوك Robert Hooke واختِراع المجهر(*). [لا العلماء]

إذا شك أحَدٌ بالمَركزية الداخلية الشديدة للغة العربية وتأثيرها على الفِكر العربي، يجب عليه أن يتأمَّل حقيقةَ أننا «نَعرِفُ أسماءَ أكثر من ٤٠٠٠ عالِم في النَّحو[١٣٣] خلال الفترة الواقعة بين ٧٥٠ و١٥٠٠»، حتى في لُغَةٍ غَنيَّةٍ مثل اللغة العربية فإن قِلَّةً منهم قالَ شيئاً جديداً، واكتفَى معظمهم بمجرّد إعادَةِ تَدويرِ ما قِيلَ قَبلَه في عَجَلَةٍ من الكلمات. أما علماء الطبيعة والفيزياء والكيمياء والفلَك والجغرافيا وغيرها فربَّما كانوا جميعاً أقلَّ من ألفِ عالِم خلال الفَترة نفسها، وتَفوَّقَ عليهم النُّحاةُ بكثير. وفي مكتَبَةِ الصَّاحِب بن عَبَّاد ـ التي ذُكِرَتْ سابِقاً والتي احتاجَ حَملُها إلى أربَعمئة جَمَل[١٣٤] ـ كان عدد أحمال الكتب الخاصة بعلوم اللغة العربية لا يقلّ عن ستّين حِملاً[١٣٥]. لماذا كل هذا الهَوَس؟

مع حلول العصر العباسي، أصبح من النادر أن يَتمكَّن شخصٌ مِنَ اللغة الفصحى دون أن يَبذُلَ جُهداً كبيراً[١٣٦] فيما عَدا قلّة مِن البدو الذين ظَلُّوا «أنقياء» لغوياً، خاصة عندما يُنشِدون الشِّعر. حتى في الدَّوائر السياسية، لم تكن العربية الفصحى متداوَلَةً بعد نحو سنة ٩٠٠[١٣٧]، وفي المواقف الأقلّ

---

(١٣١) المصدر نفسه، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(١٣٢) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٣١.

(*) [لا يَعتَرفُ المؤلفُ بتطبيقات المَنهَج التَّجريبي في العِلم التي قامَ بها جابر بن حيان وأبو بكر الرازي وغيرهما من العلماء التجريبين] (المترجم).

(١٣٣) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 74.

(١٣٤) انظر: ص ٣٩٩ من هذا الكتاب.

(١٣٥) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج ١، ص ٧٤.

(١٣٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٣٩.

(١٣٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 570.

رُقِيّاً لم تكن الفصحى مَعروفَة. اعتَقَدَ الناسُ أن عالِمَ لغةٍ يَستَخدِمُ كلماتٍ فُصحَى في السُّوقِ قد استَحوَذَ عليه جِنّيٌّ يتحدَثُ بالهندية[138]، كما أن مُشاكِساً دَفَعَ شاعراً ليس شاعراً، بل هو اللغوي ابن النحّاس، وكان في تلك اللحظة منشغلاً بعَروض الشعر، ويحرّك أصابعه يُنشِدُ أبياتِهِ بالعربية الفصحى على شاطئ النيل فغَرِقَ في النهر لأنه ظَنَّ أنَّ الشاعر يُلقِي لَعنَةً على النهر[139]. هوجِمَ نَحَويٌّ كان يُعلِنُ بصوتٍ مُرتَفِعٍ في مزرعةِ نخيلٍ عن صِيغَة الأمر لِشَكلٍ نادرٍ مِن فِعلٍ، فهاجَمَه الفلاحون لأنهم حَسِبوا أنه يَسخَر من القرآن[140]. تُعطِي القصةُ الأخيرة سَبباً لوجودِ عددٍ كبيرٍ مِن النُّحاة، ففي ثقافَةٍ زُرِعَتْ فيها فكرةُ أن الحقيقة تَكمُنُ في النصوص حتى عند أقل الناسِ تعليماً، فإن نَصّاً معيّناً، هو القرآن، كان يُعتَبَر أنه يَضُمُّ خلاصة كل الحقيقة، والآن عندما افتَرَقَت اللغة العربية الفصحى عن العامية، أصبَحَ علماء اللغة هم الوحيدون القادرون على احتِكار اللغة الفصحى، ومن ثَمَّ احتَكَرَ النُّحاةُ الحقيقةَ، وأصبَحوا الوسطاءَ الوحيدين للنَّصِّ المُقدَّس، واحتَلُّوا مَوقِعاً لا يَبتَعِدُ كثيراً عن مَوقِع الكَهَنة والقَساوسة في المسيحية. وفي الواقع، تم التعامل مع العلماء منذ العصر العباسي وكأنهم طَبَقَةٌ متميزة مثل الكَهَنة، وقد تم تمييزهم عادةً بملابِسِهم[141] التي شَملَتْ عِمامَةً كبيرة ووِشاحَ خَصرٍ فيه جَيبٌ لوَضعِ قَلَم بشكلٍ مائلٍ يُشبِهُ وَضعِيةَ الخِنجَر. لم يكونوا كَهَنَةَ الأرواح، بل كَهَنَةَ الحروف. لم يكن هذا التطور غير مناسب بالنظر إلى أنّ العباسيين أنفسهم قد انحَدَروا من عبد الله بن عبّاس، أول مُفَسِّرٍ عظيمٍ للقرآن.

كان هناك تحوُّلٌ في العقيدة على وشك الحُدوثِ في عَهدِ المُتوكِّل، الخليفة الثالث بعد المأمون، وكان ذلك حاسِماً في نمو هذه «الهَرَمِيَّة» الجديدة ومستقبل تاريخ الفِكر العربي، فربما من أجلِ التَّقَرُّبِ مِنَ الجماهير من خلال تأييدِ العلماء التقليديين قامَ المُتوكِّل بمَنع حِوارِ المُفكِّرين المُعتَزلة ونقاشاتِهم، وأصبَحَ مجرد التفكير بمسألَة خَلقِ القرآن وفَتح تفسيرِه للأفراد أمراً مكروهاً. فَرَضَ مَبدأَ التَّقليد، ومنذ ذلك الوقت لم يَعد ممكِناً لأيّ

(١٣٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٢٣٢.

(١٣٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٨.

(١٤٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(١٤١) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٨٩.

شخصٍ فَهم كلمةِ الله إلا وفقَ تفسيرات رسمية معتَمَدَة. كما أصبَحتْ كلماتٌ مِثل «النَّظَر» و«الرأي» تَعني «التَّخمين وتكوين الرّأي»، وصُبِغَتْ بالشك والزَّندَقة[142]. كانت حالة أخرى من التَّضييقِ مثلما كان علماء المعاجم يتَصَرفّون كَحرَاسٍ على المُفردات، يَحذِفونَ منها كل ما اعتَبروه استِثناءً مِنَ المُعجَم، وأُغلِقَ بابُ الاجتهاد في المحاولات الفَردية لفَهم مَعنى الوَحي الإلهي. وكما عَبَّرَ عن ذلك باحِثٌ معاصِر: «إغلاقُ بابِ الاجتِهاد هو إغلاقٌ للتَّفكير»[143] [غير حرفي]. وكالعادَة، ظَهَرَتْ أحاديث نُسِبَتْ إلى محمد لتأييد هذا التَّغير في السياسة، كان منها:

«مَن قالَ في القرآن بِرأيِهِ فأصابَ، فقد أخطَأ»[144].

طالما طارَ بعضُ الشعراء والصوفيين والطائفيين تحت أو فوق رادار العقيدة، وقاموا بمحاولاتهم الخاصّة لفَهم كلمةِ الله دون اللجوءِ إلى مُفَسِّرينَ أو وسَطاء، إلا أن معظم المجتمعات الإسلامية التي تَفخَرُ بنفسِها دائماً لعدم وجودِ الكَهَنة فيها، قد قارَبَت النَّصَّ المُقدَّسَ منذ منتصف العصر العباسي من خلال هَرَمِيَّةِ علماءِ اللغةِ والمُفَسِّرين وغيرهم من السُّلُطات، ومعظمهم توفي منذ أكثر من ألفِ سَنة، وأصبَحت المَعاني مُحَنَّطَة.

كان العلماءُ السابقون عادةً مجتَهِدين ومُدَقِّقِين، ولكنّ الله يَكمُنُ غالباً في التفاصيل، وقد تَضيعُ الدِّقَةُ والتَّفاصِيلُ مع التَّكرارِ ومُرورِ الزمن. أحَدُ الأمثلة على ذلك في سورة الفاتحة، التي تُشبِهُ في بعضِ جوانبِها دُعاءَ الرَّب عند المسيحيين، ويُكَرِّرُها المُصَلُّون مَرّاتٍ عديدة في الصَّلوات اليومية الخَمس، وفي مناسباتٍ كثيرة، وتَنتَهي بالدُّعاء إلى الله:

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[145].

نسخةُ القرآن المَوجودَةُ عندي مع حاشيتها وتَفسيرها باللغة الإنكليزية،

---

(١٤٢) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٦ و٣١٩.

(١٤٣) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ٣: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني**، ص ٢١٨.

(١٤٤) المصدر نفسه، ج ١: **الأصول**، ص ١٦.

(١٤٥) **القرآن الكريم**، «سورة الفاتحة،» الآيتان ٦ ـ ٧.

وهي نسخَةٌ يَعتَمِد عليها كثيرٌ من المسلمين الذين لا يَعرفون اللغة العربية (حتى لو كانوا يستطيعون نُطقَ ألفاظِها)، تَسرُدُ ما يلي من المَعاني:

طريق الذين أنعَمتَ عليهم، وليسَ (طَريق) المَغضوبِ عليهم (مِثل اليهود)، ولا الضَّالين (مِثل المَسيحيين)(١٤٦).

تَشرَحُ حاشِيَةُ التَّعليقَ عن اليهود والمسيحيين بأنَّها مَأخوذَةٌ عن حديثٍ نَبويٍّ وَرَدَ في أعمالِ اثنَين من علماء القَرن التاسع: الترمذي وأبي داوود، وكلاهما من أفضَل العلماء، ولكنَّ حقيقةَ أنَّ التَّفسير قد وضِعَ داخِلَ النَّصِّ الإنكليزي للكِتاب المقدَّس يَمنَحُهُ مَكانةً شبه مُقدَّسَة، حتى لو كان بَين قَوسَين. وبشكلٍ عَمليّ كما وجَدتُ عند سؤالِ أصدقاء مسلِمين، فإن الأقواسَ تُنسَى عادَةً، مثلما تُنسَى كلمَةُ «مِثل». تأثيرُ تَغطِيةِ هذا الموضوع قويٌّ حتى بين المسلمين الناطقين بالعربية، لِدَرَجَة أنَّ هاتَين الفِئتَين تُعتَبران ببَساطَةٍ هما فِعلياً اليهود والمسيحيون، وأنَّ اقتراحَ أنَّ الإرهابيين الذين يَقتُلون الناسَ باسم الإسلام ربما يَجدُرُ اعتِبارُهم مِنَ الذين غَضِبَ اللهُ عليهِم، ومِنَ الضَّالين، يُقابَلُ عادَةً باستِغرابٍ مُفاجِئ.

منذ عصر التدوين، خاصة بَعدَ تَحوّل الوَجه العَقائدي في عَهدِ المُتوكِّل، بَدأت النصوص المَكتوبة وحُرّاس مَعانِيها في إحكامِ قَبضَةٍ قويةٍ على عَقلِ الحَضارة العربية. هناك فتوحاتٌ كبيرةٌ ثلاثة في التاريخ العربي، كان الفَتحُ الأول في اللغة العربية هو الذي ثَبتَ أنَّهُ الأكثَر صُموداً وسَيطَرة على الإمبراطورية التي ساعَدَ على تأسِيسِها. أما بالنسبة إلى النَّصِّ الأول الذي لا يُضاهَى، فقد أصبَحَت السياسةُ الرسمية أنْ يُعتَبَرَ القرآنُ غير مَخلوق، ومعاصراً لله في أبَديَّتِه، وأصبَحَت الكلمةُ كلماتٍ مَكتوبة قَبلَ بَدء الزمان في «اللوح المحفوظ» الذي ذُكِرَ في القرآن(١٤٧). أحَدُ أكثر المُتطَرِّفين في تأييدِ فِكرَة تأليهِ القرآن كان عالِماً شيعياً من القَرن الثامن اسمُه المُغيرة بن سعيد البَجَلي، الذي تَمادَى حتى وَصَلَ إلى التفكير بالله الذي ليسَ كَمِثلِهِ شيءٌ بأنَّ

(١٤٦) Muhammad Taqi-ud-Din al-Hilali and Muhammad Muhsin Khan, *Translation of the Meanings of the Noble Qur'an in the English Language* (Medina: King Fahd Complex, 1417AH/1998), vol. 1, pp. 6-7.

(١٤٧) **القرآن الكريم**، «سورة البروج،» الآية ٢٢.

«أعضاءه على عدد حروف الهجا»[148].

كانت الكلمة مع الله، مثلما وَضَعَها الإنجيل، وكانت الكلمة هي الله. كانت تلك وجهَةَ نَظَرٍ مُتطَرِّفَة وصادِمَة، ولكن بالنسبة إلى الأرثوذكسية الجديدة للعصر العباسي في القَرن العاشر انتَصَرَ الحَرفُ على الرُّوح. أما الذين حَرَّكَتْهم الرُّوح فكان عليهم أن يَنتَبِهوا إلى خُطُواتِهِم.

موتُ الحَلّاج

انحَسَرَ سَيلُ فيضانِ العرب الذي استمرَّ مِئتَي عام، أو تمَّ امتِصاصُه في البلاد التي غَمَرَها، إلا أنه تَرَكَ وراءهُ طَبقَةً غَنيةً من اللغة سَعَت الدولةُ العباسية للسيطَرة عليها. كان ذلك أسلوبهم الجديد لسياسَةٍ قديمة في «جَمعِ الكلمة». لم تُحاوِل تَوحيدَ الأصوات فقط، بل سَعَتْ أيضاً إلى تَوحيدِ المَعاني والأفكار.

ارتفعَتْ أصواتٌ وعقولٌ مُناهِضَة ضِدَّ الكلمة المَجموعة الجديدة، كان أحَدها في بداية القَرن العاشر هو صوتُ الحَلّاج غَيرِ المُلتَزِم، والذي سيُعدَم سنة ٩٢٢. كان الحسين بن مَنصور الحَلّاج رَجُلَ زمانِه مِن جِهاتٍ عديدة، فقد وِلِدَ في فارس سنة ٨٥٧ أو ٨٥٨، ويبدو أن لُغَتَهُ الأولى كانت العربية، ولكن أصوله غامضة، فربما كان عربياً، ولكن هذا غير مؤكَّد. واستفادَ مِثل مُعاصِره المَسعودي من حرَكِيَّةِ عَصرِهِ، وسافَر وقَضَى فَترةً في الهند، وكان مُغامِراً ثقافياً مِثل المسعودي، وراقَبَ المجتمعات البوذية والهندوسية[149].

فلماذا لَقِيَ الحلاج العُقوبَةَ القُصوى؟ كان تصريحه الشهير «أنا الحق!» قد فُهِمَ بِمَعنَى حُلول اللهِ باسمِهِ الحَقّ، وكان ذلك كافياً لشَدِّ انتِباه المتزمتين. ولكن ربما كان هناك أكثر من فَهم مَجازيٍّ لاشُعوريٍّ في تَصريح الحَلاج بأنه كان يُعلِنُ «حَقَّهُ في التعبير عن الحَقيقة» كما شَعَرَ بها، ولكن ذلك يَعني فِعلِياً خرُوجهُ على احتكارِ الحُكّام والعلماء للحقيقة والصواب. لم تَعُد الحقيقة في تلك الفترة تَظهَرُ في أحلامِ الخلفاء عن أرسطو أو يَتمُّ تَبنيها مَثلما اقتَرحَ

(١٤٨) ورد في: الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٢٢٦.

(١٤٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, pp. 82-102.

الكِندي «من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة». كان ذلك مَمكِناً قَبلَ مئة سَنة عندما كانت الهوية العربية أقلَّ وضوحاً، أما الآن بَعدَ ذَوَبانِها فقد تَمَسَّكَت الهوية بتَعاريفَ أكثَر ضيقاً وتزمتاً في لغتها وتاريخها ودينها وحتى بالحقيقة ذاتها. عاشت الحقيقة وحدها في الحق، في الله واجب الوجود، وكان الوصولُ إليها يَخضَعُ لرقابَةٍ صارِمة. كانت الأصواتُ والأفكارُ المُنفَردة خطيرة «والحُلول» يَعني الفَوضَى.

كان هناك سببٌ آخَر لغَضَب السُّلطات على الحَلّاج، وهو أنَّه دَعا إلى مُمارَسة حَجٍّ رَمزيٍّ يمكن أن يَقومَ به أي شخصٍ في بيتِه عندما لا يستطيع السَّفر إلى مكة، بالطَّوافِ حولَ أيّ شيءٍ يَختَاره (مثلما فَعَلَ البدو بالطَّوافِ حَولَ أحجارٍ مِن اختِيارِهم)، ثم إطعام ثلاثين يتيماً وكِسوَتهم[١٥٠]. يبدو ذلك حَلاً عَمَلياً، إلا أنه كان أقصَى الزَّندَقة لأنه رَسَّخَ الفَردَ فوقَ الجماعة، مِثل إعلانه المُزعِج عن الحُلول. كما أنه قَوَّضَ التشريعَ العمَلي للوحدَة في المُقَدَّس، الذي يَرجِعُ عبرَ مكة إلى أقدَمِ طُقوسِ الحَجِّ قَبلَ الإسلام، مثل الحَجّ الذي قامَ به أهلُ جنوب شبه الجزيرة العربية إلى مَأرب قَبلَ محمد بقُرون[١٥١]. مثلما يُعَبِّرُ المسيحيونَ عن وحدَتِهم بأكلِ الخُبزِ مع بعضِهم، قامَ المسلمون ومَن سبَقَهم بالتعبير القوي عن ذلك في تَقديسِ سَفرِهم مَعاً. كانت ترقِيةُ الحَلّاج للفَردية وفكرة أنَّ اللهَ قد «يَزورُ» شخصاً بِعَينِه، وأنَّ الناسَ يستطيعون زيارَتَهُ في حَجٍّ فرديٍّ شخصيّ روحيّ قد اعتُبِرَتْ تَمَرُّداً وزَندَقة مِن أكثَر الأنواعِ خُطورَة[١٥٢].

كتَبَ ابن خَلِّكان بَعدَ ٣٥٠ سنة: ظَلَّ الحَلّاج شخصيةً مثيرةً للجَدَل لفترةٍ طويلة بَعدَ مَقتَلِه، واختَلفَت الآراءُ حولَه مثلما اختَلفوا حولَ المسيح[١٥٣]. كان شخصيةً مُتَلَوّنَة في بعض الأحيان، وذَكَرَ عَبدٌ خَدَمَهُ أثناء سِجنِهِ الأخير:

«دخلتُ عليه يوماً ومعي الطبق الذي عادتي أن أقدمه إليه كل يوم،

---

(١٥٠) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٦٢، وأبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج ٢، ص ٧٠ ـ ٧١.

(١٥١) انظر: ص ١٠٥ ـ ١٠٧ من هذا الكتاب.

(١٥٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٢.

(١٥٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦١.

فوجدته قد ملأ البيت بنفسه وهو من سقفه إلى أرضه وجوانبه، ليس فيه موضع. فهالني ما رأيت منه ورميت الطبق من يدي وهربت.» وحمّ هذا الغلام من هول ما رأى وبقي مدة محموماً. فكذّبه حامد (بن العباس الوزير)[١٥٤].

يبدو ذلك غير مَعقول إلا في ظروف التغيرات الفيزيائية في قِصةِ **أليس في أرضِ العَجائب**؛ أو يا تُرى هل امتلكَ الحَلاج القدرةَ على التَّنويم المغناطيسي؟ كَتَبَ المَعري: «وحرّك (الحلاج) يوماً يده فانتثر على قوم مِسكٌ، وحرّك مرة أخرى فانتثر دراهم»[١٥٥]، مثلَ رجالِ الآلِهة في الهند الذين نَعتَقِدُ أنه شاهَدَهم.

سواء كان شَيخاً أو مُشَعوِذاً، شَهيداً أو ساحِراً، فإن الحَلاج قد قَوَّضَ النظامَ العباسي. لم يكن ليشكِّل خَطراً في أيام شُعراء الصَّعاليكِ قَبلَ الإسلام كصَوتٍ واحِد مرتَفِع[١٥٦]، إلا أنه سيُعتَبَرُ متَمَرداً لو كان حَيّاً في عالَم العربية هذه الأيام في الوقت الذي مازالت تُعتَبَرُ فيه الحقيقةُ هي التعليمات، وربما يَقضي ذلك على حَياة كل مَن يَجرؤ على التَّحدُّث بِحُرِّيَة واستِقلال، مثلما حَدَثَ للمُفكِّر السوداني محمود محمد طَه[١٥٧].

اعتُبرت الحقيقةُ خطَراً على النظام الاجتماعي منذ أيام أوديب الذي حَلَّ أُحجِيةَ الوَحش أبي الهول، والسَّرقَة الأصلية مِن شَجرة المَعرفة [في الرواية التوراتية في سفر التكوين]. غير أنه كانت هنالك أخطارٌ أكثَر على المجتمع العباسي منها على المُقدَّسات، فلدَى العَودة إلى بدايات هذا الفَصل، فإن ابن وَهَب، الرَّحالَة الذي قابَلَ إمبراطور الصين، لم يُسافِر مَدفوعاً بمجرَّد «همّته»، بل كان في الواقع لاجِئاً قادِماً مِن قَلبِ الإمبراطورية. ربما وَصَلَ مَلِكُ المُلوك العربي إلى قمَّةِ تَرتيبِ المُلوكِ العالمي إلا أن عالَمَهُ لم يكن يتساقَط في أطرافِه فقط، بل كان يَتَعَفَّنُ مِن داخِله أيضاً.

(١٥٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦١.

(١٥٥) Al-Ma'arrī, *The Epistle of Forgiveness, Volume One: A Vision of Heaven and Hell*, p. 23.

(١٥٦) انظر: ص ١٦٩ ـ ١٧١ من هذا الكتاب.

(١٥٧) انظر: ص ٢٤٠ من هذا الكتاب.

الانهيار

١٣٥٠ _ ٩٠٠

الفصل العاشر

الثقافات المضادَّة والخِلافات المُنافِسَة
الإمبراطوريةُ تتهَدَّم



رَجُلُ الميدالية

في آخِر أيلول/سبتمبر ٩٣٨، بَعدَ عَقدٍ ونصف مِن قَتلِ الحَلّاج، ذَهَبَ مُؤَدِّبُ الخليفة الرّاضِي لتقديم وَلائه لتِلميذِه السَّابق. كان ذلك في يوم المهرجان، وهو عيدٌ فارسيٌّ قَبلَ الإسلام يَحتَفِلُ به أهلُ بغداد. قالَ المُؤَدِّب:

«اجتزتُ في يومِ مهرجانٍ بدجلة دارَ بَجْكَم التركي، فرأيتُ مِنَ الهَرجِ والمَلاهي واللَّعِبِ والفَرَحِ والسرورِ ما لَم أرَ مِثلَه، ثم دخلتُ إلى الرّاضي بالله فوجَدتُه خالياً بنفسه، قد اعتَراه هَمٌّ، فوقفتُ بين يديه، فقالَ لي: ادنُ. فدَنوتُ، فإذا بيدِهِ دِينارٌ ودِرهَم، في الدِّينار نحو من مَثاقيل، وفي الدِّرهم كذلك، عليهما صورةُ بَجْكَم شَاكٍ في سلاحِهِ، وحَولَهُ مَكتوبٌ:

إنما العِزُّ فاعلَمِ   للأميرِ المُعَظَّمِ
سيدِ الناسِ بَجْكَمِ

ومن الجانبِ الآخَر الصورةُ بعَينِها وهو جالسٌ في مَجلِسه كالمُفَكِّرِ المُطرِق، فقال الرّاضي: أما تَرى صُنعَ هذا الإنسان، وما تَسمو إليه همَّتُه، وما تُحدِّثه به نفسُه؟ فلم أُجِبهُ بشَيء»[1].

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج ٤، ص ٣٣٧.

لم يكن هنالك شيءٌ يُقال، فالنقود التي كانت هديةَ المهرجان مِن بَجْكَم قالَتْ كلَّ شيء: احذَر مِنَ التركِ الذين يَحمِلون الهَدايا، إذ إنّ مَملوكاً تركياً مِنَ المُفتَرَضِ أنه جاءَ لِيَحمِيَ الخليفةَ قد رَفَعَ مَركَزَهُ بالسَّكِّ على النقود، رَمز السِّيادة؛ بل وفَعَلَ ذلك بشَخصِه وبصورَتِه تَشَبُّهاً بِرِفعَة نُقودِ الخِلافة التي ظَلَّتْ أكثر مِن مِئتَي سَنة رَمزاً لقوة العرب، وتم تقليدُها حتى في وسَط إنكلترا. قامَ بتَكبيرِ النقودِ، وحَوَّلَها إلى ميداليات لامِعة، ولكي يُضيفَ إهانَةً سَمعيةً إلى التَّجريح البَصَرِيّ، غَيَّرَ النُّقوشَ الإلهية في النُّقودِ العربية بأبياتٍ فَجَّةٍ تُمَجِّدُ ذاتَه. الاسمُ الغريبُ «بَجْكَم» يُنهِي الكلمات العربية المَسجوعَة بِصَدمَةٍ سَمعيةٍ تبدو للأذنِ العربيةِ مُضحِكَةً وسَاخِرةً، واسمُهُ يَعني بالتركية «ذَيل الحصان» أو «ذَيل الثّور»[٢]. أما اسم الخليفة «الرّاضي بالله» فهو يَدُلُّ بشكلٍ مُناسِبٍ على شخصٍ ليسَ له أحَدٌ يَلجَأ إليه إلا الله.

توصَّلَ العربُ والفرسُ إلى تَوافُقٍ كما يُظهِر احتِفالُهما المُشترَك بعيدِ المهرجان، بينما يبدو أنَّ التركَ قد جاؤوا مِن وراءِ هامِشِ المَقبول. تُبَيِّنُ صُوَرُ مُحارِبينَ أتراك آخَرين سابقين مَنقوشَةٌ على ميداليات وأوسِمة أنهم مُسلَّحون يَنظُرون إلى المُتأمِّل بعيونٍ ضَيِّقَة غريبة. كان الترك يُعرَفون بشكلٍ عام أنهم أصحابُ العُيونِ الضَّيقة «الخزر»، وهي صِفَةٌ بعيدةٌ جِداً عن الصِّفات العربية[٣]. لم يكن الترك مجرد نَوعٍ آخَر من غَير العرب، بل هم نوعٌ من المُعادِين للعرب، وقد ضَجَّ الماضي بالتَّحذيرِ منهم. يُروى أنَّ جَدَّ العباسيين عليّ بن عبد الله بن عباس قد تَنَبَّأ بأنَّ سلالَتَهُ سَتَرِثُ حُكمَ العرب، «حتى تملكهم عَبيدُهم، الصغار العيون، العراض الوجوه، الذين كأن وجوههم المجانُّ المَطروقَة»[٤].

هناك قولٌ أقدَم يُنسَبُ إلى محمد: «اترُكُوا التُّركَ ما تَركوكُم»[٥]. ولكنّ الحُكّامَ العرب لم يَترُكوهم، بل أثارُوهم باستِعمالِهم حُرّاساً للخليفة،

---

(٢) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), s.v. Badjkam.

(٣) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ١، ص ١٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣١.

(٥) Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), s.v. *trk.*

ووَضَعوهم في بُؤرَةِ القوة، وفي مَركَز المدينة المستديرة، ثم تَفرَّجوا عليهم يائِسين وهُم يَستولون على السُّلطَة. سيُسَيطِرُ التركُ من الآن فصاعِداً، بشكلٍ أو بآخَر، على معظَم أرجاءِ الإمبراطورية العربية على مَدى ألفِ سنة تالية.

حاوَلَ مُؤَدِّبُ الخليفة في يوم المهرجان أن يُسَرِّي عنه بقصص تاريخية عن حُكَّام قامَ أتباعُهم بِعَزلِهم، إلا أنهم استَرجَعوا سُلطَتَهم، ولم تُخرِجْ تلك الرواياتُ الخليفةَ الرّاضي مِن كآبَتِه؛ لم تَنفَرِجْ أساريره إلا عندما ذكَّره المُؤَدِّبُ بروايةِ أشعارٍ عن أنّ كلَّ المَوقف لم يكن أكثر مِن مهرجان، وأنه إنْ لَمْ يَستطع التَّغلُّب على بَخْتِه فإنه يستطيع على الأقل إغراءَهُ بقَنينَةٍ أو اثنتَين من الخَمر المُعتَّق مع بعضِ الأصحاب. تكاثَرَ الأصحاب، وتَعدَّدَت القَناني حتى ضارَعَ احتفالُ الخليفة رَقصَ الأتراك على نهر دجلة[٦]. ولكن بالنسبة إلى الرّاضي وخلافَتِه العباسية، وإلى العرب سادَة الإمبراطورية، كان الاحتفالُ وَداعاً أخيراً للسُّلطَة الحقيقية.

كتَبَ المؤرخُ المَسعودي عن الأحداث التي كان يَعيشُها: «وهكذا، سَقَطَ العربُ وانتَهوا، زالتْ سُلطَتُهم، وضاعَتْ مَكانَتهم»[٧] [غير حرفي]، بَعدَ ثلاثة قرون فقط من تلك السنواتِ القليلةِ المُعجِزَةِ التي انطَلَقوا فيها مِن جَزيرتِهم وسَيطَروا على إمبراطوريتَين.

إشراقَةٌ تَخفت

عَجَلَةُ النار، تلك الدَّورَة القديمة من الوحدَة والانقِسام التي دارَتْ عَبرَ القرون، وجَمَعَت العرب، ثم أشعَلَتْ بعضهم ضِدَّ بعض، قد نَمَتْ في ظِلِّ العباسيين إلى عَجَلَةٍ أضخَم ظَلَّتْ أكثرَ استِقراراً في الظّاهِر مِثل نِظام شَمسيّ، وجَمعَتْ تحت ظِلالها مَزيداً من البَشَر في مجالِ جاذبيةِ الثقافَة العربية والإسلام. تَغيَّرَتْ في الوقت نفسه طبيعةُ الحُكم العربي كلها. حَكَمَ خلفاءُ محمد بأسلوبِ شيوخ العرب قَبلَ الإسلام، وحَكَمَ الأمويون مِثل مُلوكِ العرب قَبلَ الإسلام، وجَعلَ العباسيون أنفسِهم على صورة شاهنشاه «مَلك مُلوك» الفرس قَبلَ الإسلام، ووضَعوا التِّيجان، وجَلَسوا على عروشٍ

(٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٥.

مَرفوعَة، وسَتَروا أنفسَهم وراء سِتارة مثل الممثّلين على المَسرح وهم يَحكمون إمبراطوريةً شاسِعة لم تتمكّن حتى جاذبيةُ الإسلام الإضافية مِن شَدِّ أطرافِها إلى بعضِها فترةً طويلة. وهكذا لم يستمر الاستقرار طويلاً، وخَفَتَ إشراقُ الخلافة في مَركز المدينة المستديرة تدريجياً، ودُفِعَ العربُ أنفسُهم إلى مَداراتٍ أبعَد. وكما سنَرى، فقد حَصَلَ بعضُ هؤلاء العرب في الأطراف على شيءٍ من السُّلطة، وشكَّلوا نُوَيَّاتٍ لأنظِمَتِهم الجديدة.

في تلك الأثناء، كانت سُلطَةُ الخلافة في المركز الأصلي تتضاءَل وتَصغر على يَدِ الذين جَلَبَتْهم للمحافَظَة عليها من المَماليك الأتراك أمثال بَجْكَم. ظَهَر أنهم أكثر المُتَحَدّين نجاحاً لقوة العرب، ولكن تهديدات سابقة كانت قد قَوَّضَتْ وأضعَفَتْ فِكرَةَ سِيادَةِ العرب التي كانت فكرةً متأصِّلةً في شعور العرب بِحقِّهِم الطبيعي في الحُكم؛ ففي رأيِهم جاءَ النبيّ من شبه الجزيرة العربية بالإلهام والوَحي الذي أطلَقَ شَرارَةَ الإمبراطورية في البدء، وكذلك اللغة التي ربَطَتْها وجَمَعتْها. ولكن مع تعقيدات الإمبراطورية في ظِلِّ العباسيين، كان الاحتكاكُ بين العرب وغيرهم مُحتّماً، وكان يَظهَرُ أحياناً في الكلمات، وبشكلِ قِتالٍ دَمويّ في أحيان أخرى.

عَبيدٌ وفلاحون

كانت ثورةُ الزنج سنة ٨٦٩ ـ ٨٨٣ أول وربما أقوى صَدمَة لمَشاعر السِّيادة عند العرب. كان مَقبولاً أن يُحارِبَ العربُ بعضَهم، فقد فَعَلوا ذلك منذ بداية تاريخِهم، ويبدو أنهم سَيفعَلون ذلك إلى يوم القيامة، ولكن تَمرُّدَ الزنج (الاسم المُعتاد للسُّود من شرق أفريقيا) ظَهَرَ وكأنه قَلبٌ للنظام الطبيعي، فقد كانوا أرِقَّاء، ولم يكونوا مُحارِبين مثل الترك، وكانوا فلّاحين مُستعبَدين في المَزارع، وعلى الرغم من ذلك قاموا بتَخريبٍ مُخيفٍ فِعلاً في قَلبِ الإمبراطورية. أما ابنُ وَهَب، الذي قابَلناه في الفَصل السابق عندما ظَهَرَ أمام إمبراطور الصين، فقد كان في الحقيقة لاجِئاً هارباً مِن خَرابِ مَدينَتِه البصرة بَعدَ أنْ دَمَّرَها الزنج.

كان الرِّقُّ صِفةً دائمة في المجتمع العربي على مستوى الخَدَمات المَنزلية. بَدأت المشاكل مع الفتوحات والرغبة باستِغلال مساحات الأرضِ

الكبيرة بِيَدٍ عامِلةٍ رَخيصةٍ يمكن السيطرة عليها بسهولة. انخَفَضَتْ إيراداتُ الزراعة من جنوب العراق بشكلٍ كبير تحت حُكمِ الأمويين[٨]، واعتُبِرتْ عَمالةُ الرّقيق أسرَعَ طَريقة لزيادة الأرباح من جديد. وهكذا، استَثمَرَ أغنياءُ تجّار البَصرة بعَشَرات الآلاف مِن رَقيقِ شرق أفريقيا، وشَغَّلوهُم في تصريف أرضِ المُستنقعَات قُربَ المدينة. ولكنّ استغلالَ الأرضِ يَعني استغلالَ الرجال، وكانت ظروف مَعيشَتهم مُروِّعَة. ثارَ العبيدُ، وانضَمَّ إليهم معارِضون آخَرون بسبب احتِكار العرب للسُّلطَة والثروة والأرض والحياة. كما انضَمَّتْ إليهم شخصياتٌ غامضة مثل عليّ بن محمد، الذي ربما كان إيرانياً أو عربياً، أو ربما مِن أحفادِ ابنِ عَمّ النبيّ وصهره عليّ كما ادَّعى، لم يتأكّد أحَدٌ مِن ذلك، ولكن لم يكن هنالك أي شك من أنه وَجَّهَ استياءَ المنطقة إلى تَمَرُّدٍ عنيف وناجِح.

ليس هناك إحصائياتٌ مؤكَّدة عن الدَّمار الذي قامَ به التَّمرد. كانت تقديراتُ المَسعودي المحافِظَة هي أنّ عددَ الضَّحايا الكليّ بلَغَ ٥٠٠,٠٠٠، منهم ٣٠٠,٠٠٠ في البصرة وَحدَها. ولكنه اعتَرفَ بأنّه لم يَعرِف أحدٌ الأرقام الصحيحة تماماً[٩]، وربما أُضيفَ إليها صِفرٌ. ولا شك بأن الزنج قد قَلَبوا نظامَ الأمور، فأصبَحَ الرَّقيقُ سادةً يَشترون ويَبيعون العربَ الأحرارَ لِقاءَ دَراهِم مَعدودَة، واستَخدَموا نِساءً مِن نَسل محمد كمَحظيات، وفَرَضُوا عليهِنَّ العَملَ خادماتٍ لِنسائِهنّ. عندما تَجَرَّأتْ إحدَى الشَّريفات على الشكوى من سوءِ مُعامَلَتِها مِن قِبَلِ عَبدِها السابق، قِيلَ لَها: «إنه مَولاكِ الآن!»[١٠]، في مُفارَقَة لطيفة، لأن كلمة «مَولَى» ذات مَعنَيَين: «تابع وعَميل» أو «سَيّد». لم تتغير مُفرداتُ مُجتمعِ العَبيدِ والسَّادَة، ولكن تَغَيَّرتْ أقطابُها.

قُمِعَت الثورةُ بقواتٍ من بغداد بقيادة أفرادٍ من عائلة الخليفة، إنما بخسارةٍ كبيرةٍ في الأرواح والأموال. غَيرَ أن الاستياءَ أصبَحَ مُستَوطِناً في سهولِ جنوب العراق التي كانت مَسرَحاً قديماً لِغاراتِ العرب قَبلَ الإسلام، وحَكَموها بالدّم، ودَمَّروا زِراعَتَها خلال القَرن الإسلامي الأول، ثم أنهَكتْ

(٨) قارن: ص ٢٩٩ من هذا الكتاب.

(٩) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(١٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٠٨.

بالثورة. بَعدَ سنواتٍ قليلة من قَمعِ ثورة الزنج، تَمرَّدَ الفلاحون «النَّبطيون» المَحَليون بقيادة زعيم غَوغائي آخَر، هو حَمدان قرمط بَعدَ مُعاناةٍ طويلة. ربما كان حَمدان مِن أصلٍ إيراني، وكان مُعارِضاً لسيادة العرب واحتِكارِهم للمَعيشة والثروة في الإمبراطورية. وجَدَ فرصة في الفَرعِ الإسماعيلي المُتَنامي مِنَ الشيعة، الذي انفَصَلَ عن شيعةِ عليّ في آخِر القَرن الثامن بسبب خِلافٍ حولَ وِراثَةِ الإمامَة، واتَّخذَ ذلك مَطِيَّةً لثورةٍ متطَرِّفة. كانت القوةُ الدَّافِعة للثورة هي زيادةُ الضرائب، وتَهميشُ الفلاحين بَعدَ أن حَرَّكَهم مِثالُ تمردِ الرَّقيق للثورة على قُرونٍ مِنَ الاستعباد. ضَمَّ أتباعُهُ فئاتٍ أخرى، بمَن فيهم عربٌ من شرق شبه الجزيرة العربية، الذين شَعَروا أنهم كانوا مُهمَّشين في المشروع الإمبراطوري. أسَّس القَرامِطَة في شرق شبه الجزيرة جمهوريةً ادَّعتْ، وربما حَقَّقتْ، دَرَجةً من المُساواة لم تُعرَف في مَناطق أخرى من الإمبراطورية العربية. أُعجِبَ بعضُ الزُّوارُ بمؤسساتِها المَدَنية التي شَمَلَتْ توفيرَ ضَمانٍ اجتماعيّ لمواطِنيها. كَتَبَ رَحّالةٌ إيرانيٌّ من القَرن الحادي عشر: «كانت هنالك مَطاحِنُ تَملكها الدولة، تطحَنُ الحبوبَ للناسِ مجاناً، تَحمَّلَت الدولةُ تكاليفَ صِيانَتها وأجورَ الطَّحانين»[11]. ربما لا يُعجِبُ المتأخرينَ الاعتماد على عَمالَةِ الأرِّقاء الأفريقيين المُستورَدين التي أدَّتْ إلى كل ذلك.

استمرَّت الجمهوريةُ في القَرن الحادي عشر، إلا أنَّ القَرامطَة في ذُروَةِ نَشاطِهم في عقودِهم الأولى منذ نهاية القَرن التاسع تَمكَّنوا من تَخريبِ مَناطق في العراق والهلال الخصيب، وفي مناطق كثيرة من شبه الجزيرة العربية. كانت ضربتهم الأكثر جُرأة (أو جَريمَتُهم الأكثر غَدراً) هي هجومَهم على مكة سنة ٩٣٠ وسَرِقَة الحَجَر الأسوَد من الكعبة[12]، الجَوهرة السوداء في سُرَّةِ الخَلق. ظَلَّ الحَجَرُ الأسود في أيديهم عشرين سَنة حتى أقنعهم الخليفةُ الفاطميّ المنافِس للخلافة العباسية واستَعادَه (كما سنَرى، فإن الفاطميين والقَرامطَة كانوا من الشيعة الإسماعيلية، ولكن الفاطميين ادَّعوا أنهم مِن نَسلِ محمد وقبيلة قريش، والتَزموا باحتِرام المَركزية المُقدَّسَة لِمَقام أجدادِهم المُقدّس في مكة. وكان القَرامطَة بالنسبة إليهم مُنشَقِّينَ ضالِّين مِن «اليسار

(١١) ناصر خسرو، سفر نامه، نقلها الى العربية يحيى الخشاب (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣)، ص ١٤٣.

(١٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

المَعتوه» الإسماعيلي). ولكن النقطةَ قد تمَّ تَسجيلها: فإنَّ سَرِقَةَ واستِعادَةَ الحَجَرِ الأسود قد هَزَّ الإمبراطوريةَ في صَميمِها، لأنها أَظهَرتْ، ولو رمزياً ومؤقتاً، أنَّ المِحور القُرَشِيّ من النظام الدِّيني والثقافي ليس مَصوناً.

كما أنَّ القَرامطَة لم يُشكِّكوا فقط في مَركزية قريش في الإسلام، بل شَكَّكوا كذلك في العروبة الأساسية لِصَرحِهِ الثقافي الذي تم تَرسيخُهُ وتَوثيقُهُ مؤخَّراً إلى الأبد في عصر التدوين. قام إخوانُ الصَّفا في الثلث الأخير من القَرن العاشر بجِمعِ رَسائلَ مَوسوعية حاوَلَتْ تَصنيفَ وتَقديمَ جميع العلوم التي كانت مَعروفة في العالَم آنذاك. كانت الرسائل موجَّهَة كتعليماتٍ عُليا بين القَرامِطَة ورِفاقِهِم من الإسماعيليين. تُشبِهُ اهتماماتُ إخوان الصَّفا أهدافَ الخليفة المأمون وعَقلِيَّتَه المُنفَتِحَة في القَرن السابق، إلا أنها استَلهَمتْ مَجالاً أوسَع من التأثيرات. سَيطَرَت المَصادرُ اليونانية في الفلسفة، وشَملَتْ فيثاغورث وأرسطو وأفلاطون والأفلاطونيين الجُدد. ولكنْ كان التأثير أوسَع في المَجالات الأخرى، فشَمَلَ أفكاراً في عِلم الفلَك من فارس والهند وبابل القديمة، كما استَلهَمتْ رسائِلُهم عن الوَحي المُقدّس آراء من التوراة العِبرية، والإنجيل، وظِلالاً من الديانة الميثرائية أيضاً[١٣]. كَتَبَ إخوان الصَّفا رسائلَهم باللغة العربية، غير أن مجالَ مَصادِرهم كان عالمياً. أظهَرَ القَرامطَة من خلال جَناحِهم الفكري أنَّ العالَم الذي كان يَدورُ حول العرب يمكن أن يَهتَزَّ حولَ مِحوَرِهِ، مِثلَما أظهَرتْ ذلك سَرقَتهم للحَجَر الأسوَد.

أهلُ التَّسوية

خلال القَرنَين التاسع والعاشر، نشَأت تحدياتٌ أخرى للسيادة العربية، كانت على النَّقيضِ من حركَتَي الزنج والقَرامطَة، غَيرَ دَمويةٍ بشكلٍ عام، إلا أنها كانت مَريرةً، وبطَريقةٍ أو بأخرى ستَظهَرُ في أرجاء الإمبراطورية من إسبانيا حتى وسَط آسيا، وستُهدِّدُ العروبةَ المَزروعَةَ حَديثاً على امتداد قارّات ثلاث من الكرة الأرضية.

ظَهرَ الاستياءُ أولاً بين الفرس الذين تمتَّعوا بعَلاقة خاصة مَزَجَتْ بين الحُبِّ والكراهية للعرب منذ فَجرِ الإسلام. جَمعَت الفتوحاتُ التي حَدَثَتْ

(١٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, pp. 1075-1076.

بَعدَ ثورةِ محمد بين العرب والفرس بنوعٍ من الزواج، وأحياناً بزواجٍ حَرفِيٍّ، مثلما رُوِيَ عن الأميرات الفارسيات الثّلاث اللواتي تَزَوَّجنَ ثلاثةً من أهمّ شبابِ نُبلاء المدينة[١٤]. إلا أن العلاقة كانت غير متساوية، لأنها جَمَعَت الغالِبَ بالمَغلوب، رَجُلاً مُسَيطِراً بامرأةٍ خاضِعة، وستَظَلُّ كذلك. ربما تكون قصة هارون الرشيد ليس لها أساسٌ حقيقي عندما رُوِيَ أنه غَيَّرَ الأدوارَ المَعروفة بتَزويجِ أختِهِ لصَديقِهِ الفارسيّ الحَميم جَعفَر البَرمَكي، ثم إعدامِهِ عندما تَجَرَّأ الزوجان على الإنجاب[١٥]، إلا أنّ هذه القصة تصويرٌ قوي للعَلاقةِ العربية الفارسية ومَخاوف العرب.

وهكذا لم يكن الأرقّاء والفلاحون الذين تم استِغلالهم جَسَدياً واقتصادياً هُمُ الوحيدون الذين ثاروا ضِدَّ وَخزاتِ العرب، فقد فَعَلَ ذلك أيضاً المُتعلِّمون الفارسيون الذين سرعان ما تَعِبوا من فَوقِيَّةِ العرب المستمرة. مع تطور العصر العباسي بدأت اللغة العربية ثم الإسلام بالانتشار بشكلٍ أوسَع في العالَم الساساني، وازدادَ استياؤهم. انضَمَّ مزيدٌ من الفرس إلى العرب بالكتابة والنصوص المُقدَّسَة والمُعتَقَد الذي يُعلِنُ المساواةَ بين جميع المؤمنين. ألَم يَقُل النَّبيّ نفسُهُ في حجَّةِ الوَداع، التي ربما تُناظِر عظة المسيح على الجبل، ويُعلِن أن «لا فَضلَ لعَربيّ على أعجَمي إلا بالتقوى»[١٦]؟

بدأ رَدُّ الفِعل في أوائل العَصر العباسي. أعلَنَ بَشار بن بُرد، أولُ الشّعراء الكبار من غير العرب، مُفتَخِراً بِعَدَمِ عُروبَتِهِ قائلاً:

وَلا حَدا قَطُّ أَبي خَلفَ بَعيرٍ جَرِبِ
وَلا تَقَصَّعتُ وَلا أَكَلتُ ضَبَّ الحِزَبِ

وبَعدَ أبياتٍ كثيرة يُقَرِّعُ البدو، ويَنتَهي بِمَدحِ الإسلام، إنما كمُسلِم فارسيّ يَفتَخِرُ بماضِيهِ المَجيد:

نَغضَبُ لِلَّهِ وَلِلإِسلامِ أَسرى الغَضَبِ
أَنا ابنُ فَرعَي فارِسٍ عَنها المُحامي العَصِبِ

(١٤) قارن: ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ من هذا الكتاب.
(١٥) قارن: ص ٤٠٦ ـ ٤٠٨ من هذا الكتاب.
(١٦) انظر: ص ٢٦٠ من هذا الكتاب.

نَـحـنُ ذَوو الـتـيـجـانِ وَالـ ـمُـلـكِ الأَشَـمِّ الأَغـلَـبِ[١٧]

انتَشَرتْ مِثل هذه المَشاعر مع نهاية القَرن التاسع، وألهَمتْ حركة اسمُها «أهلُ التَّسويَة»[١٨] لأنهم طالَبوا بالمساواة مع العرب، وسرعان ما أصبَح اسمهم «الشّعوبية» ذات الأبعاد الإضافية. يرتَبطُ اسمُها فوراً بالآية القرآنية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[١٩].

وبالرُّوحِ ذاتها، كَرَّرَ محمدٌ في خطبة الوداع: «إنَّ أكرمَكُم عند الله أتقاكُم».

باستِدعاء الآية في اسمِهم، كان الشعوبيون يُعَرِّفونَ أنفسَهم بأنهم شعوبٌ ومجتمعات جَمَعتْها جغرافيةٌ مُشترَكة مثل قدماء شعوب جنوب شبه الجزيرة العربية، وليس بادِّعاء نَسَبٍ مثل عرب الشمال القَبَليين. كما أن ارتباطات أخرى تُحَلِّقُ فوقَهم بِأنهم «حَضاريون» أيضاً لأنهم لا يتَغنون بالجَمَلِ الأجرَب، ولا يَأكلون الضَّب.

بينما كان العربُ يُلمِّعون صورتَهم الذاتية كزعماء طبيعيين انبَثَقوا من شَظَفِ وقَسوَة أصلٍ نبيل بالفطرة (قارِن ذلك بفَخر روما الإمبراطورية بأبطال ماضيها الأقوياء، والرجال الرّواد في قَهر الغَرب الأمريكي)، بَذَلَ الشعوبيون جُهدَهم في تَشويهِها فقالوا إنَّ أجدادَ العرب لم يكونوا متوحشين نُبلاء، بل كانوا متوحشين لا غير، وإنّ خُشونَتهم مازالت عالِقَةً بهم مثل رائحة حيواناتهم:

كنتم رعاة الإبل والغنم... ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامُكم وغلظت مخارجُ أصواتكم، حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصمّان[٢٠].

---

(١٧) Geert Jan van Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology* (New York; London: New York University Press, 2013), pp. 35-36.

(١٨) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٣، ص ٣.

(١٩) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

(٢٠) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦.

لم تَبقَ كثيرٌ من كلمات الشعوبيين ذاتها، بل وجِدَتْ كاقتباساتٍ (حَفظَها أَحَدُ أَلدّ معارِضيهم)، وهي تُبَيِّنُ أنّ كثيراً مِنْ ذَمِّهِم قد تركَّزَ على القوة التي شكَّلَتْ كثيراً من تاريخ العرب، اللغة العربية. كان الشعوبيون حركةً أدبية انحَدَرَ معظمهم من طَبقة كبيرة متزايدة من غير العرب الذين تعلَّموا العربية وجَعلوا اللغةَ المَكتوبة لُغَتَهم. شكَّلَ العربُ اللغةَ المَنطوقة وخِطابَها، وقد جَمَعَهم ذلك وشكَّلَ هويتهم. إلا أن غَير العرب كما رأينا كانوا هم الذين حَمَلوا اللغةَ المَكتوبة الصغيرة التي كانت لُغَةً تتعلَّمُ كتابةَ حُروفِها، وصَقَلوها ووضَعوها في خِدمَةِ سادَتِهم الإمبراطوريين. كُتِبَ القرآن أولاً، وكان في البداية اللغةَ العربيةَ الوحيدة المَكتوبة بانتظام، ثم كُتِبَتْ ثقافةُ الشِّعر والتَّمائم التي كانت شَفهيةً في معظَمِها تقريباً. وفي العَصر الأموي، بَدأ كتَّابٌ كان معظمهم من غَير العرب باستِخدام العربية المَكتوبة لتَدوين السِّجلات. ولم يَظهَر النثر العربي إلا في العَصر العباسي بشكلِ أدَبٍ مَكتوب. كان أهمّ رواده الفارسي ابن المُقَفَّع، وسيكون للفرس وغيرهم من غير العرب دَورٌ كبير في تطوره. ولذا فقد شَعر هؤلاء المتعلمون غير العرب بأنَّ لهم الآن حصَّة في اللغة العربية كحصَّة العرب الأصلاء، مثلما كانوا شركاءَهم في الإسلام. لم يوافِق العرب على ذلك، وبدأ صراعٌ لم يتَدَفَّق فيه كثيرٌ من الدّم، بل تَدفَّقَ فيه كثير من الحِبر.

انزعَجَ العربُ بسبب الاتهامات بالتَّخلف، وغضِبوا لوَصفِهم برَفعِ الصوتِ وأكلِ الضَّبِ فقاموا بِرَدِّ الهجوم؛ أو بشكلٍ أصَحّ، قامَ غَير العرب بِرَدِّ الهجوم بدلاً منهم، ولم يَسنَّ العربُ «الأصلاء» أقلامَهم إلا باستِثناءات قليلة، ومثلما كان اعتمادُهم المتزايد على المَماليك الأتراك للدِّفاع عنهم عَسكرياً، اعتَمدوا أيضاً على أتباع مِن غَير العرب للدِّفاع عنهم في الجَدَلِ مع الشُّعوبيين. وهكذا كان الجاحِظُ، الكاتِب الغَزير، أعظَمَ المُنظِّرين للعروبة، ولم يكن سَليلَ أحَدِ أشرافِ القَبائل العربية القديمة، بل كان حَفيدَ عَبدٍ أسوَد في البصرة.

اعتَقَدَ الجاحظُ بأنّ الشُّعوبيين كانوا يَضرِبون على كَراهِيةٍ مَحسوسَة للعرب ستُهدِّد الإمبراطوريةَ والإسلام[٢١]. كان أقوى رُدودِهِ في **كتاب العَصا**

(٢١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, pp. pp. 514-515

الذي تم ذِكرُهُ سابقاً[٢٢]، والذي يواجِه فيه ازدِراء الشُّعوبيين للبَدو لأنهم يتَكَبَّرون ويَهزُّون عِصِيَّهم ويتَلاعَبون بالكلمات، واستخدَم ذلك في الرَّدِّ عليهم. استَخدَم في كتابِه عن العَصا هو والشعوبيون صورةً قوية، لأن العَصا صِفةٌ أساسية لأدواتِ العربي التقليدية تَظهَر في رسوماتِهم قَبلَ الإسلام وبأيدي راكِبي الإبِل في القَرن التاسع قَبلَ الميلاد[٢٣]، وفي أيدي الراقصين في الطُّقوس في القرون التالية قَبلَ الميلاد أيضاً[٢٤]، ومازالت تُحمَلُ هذه الأيام، كعِصيّ التَبختُر عند رجال القبائل التقليديين، وقد يَجِدُ المرءُ عَصا جَمَلٍ على لوحة قيادة أحدَث السيارات الرباعية الدَّفع (وربما يَجد أيضاً قِناعَ صَقرٍ على مقبضِ ناقِلِ الحَرَكَة). ولكن العَصا هي أيضاً من أدوات الحاكِم العربي، والخَطابة العربية، وكِنايَةٌ عن السيطرة. استَخدَم العرب العِصيّ والأصوات العالية لقِيادة جِمالِهم، وظَنّوا في رأي الشعوبيين أنهم يستطيعون فِعلَ الشيء نفسِه لقيادة البَشَر.

يدافِعُ الجاحِظُ عن العَصا وعن العروبة بأسلوبه الغريب من تيار الوَعي، ويَقترِحُ أنّ العَصا يمكن أنْ تُستخدَمَ فِعلاً في رَعي الحيوانات، وقد تُستخدَم أيضاً في إرشادِ البَشر إلى الدِّين الصحيح، مثلما قادَ العربُ الفرسَ برسالة محمد (في السياق المسيحي، عَصا الراعي المُنحَنِيَة هي عَصا الأسقُف المُزخرَفة). ولكن فوق كل شيء بالنسبة إلى الجاحظ، فإن العَصا هي أداة الواعِظ العربي ورَمزُ الخطابة، مثل عَصا المايسترو، وهي امتدادٌ لِيَدِ الخَطيب وتؤكِّدُ إشاراتِه[٢٥]، وهي إضافةٌ ضرورية للخَطابة العربية العامّة، وأسلوبٌ لا يستطيع غير العرب أنفسهم أن يمتلكُوا مَهارته. وهو يَعترِفُ قائلاً:

«وفي الفرسِ خُطَباء، إلا أن كلّ كلامٍ للفرس، وكل مَعنى للعَجم، فإنما هو عن طول فِكرةٍ وعن اجتهادِ رأي، وطولِ خَلوَة، وعن مُشاوَرة ومُعاونَة، وعن طولِ التَّفكُر ودراسَة الكُتُب، وحكاية الثاني عِلمَ الأول، وزيادة الثالث في عِلم الثاني، حتى اجتَمَعتْ ثِمارُ تلك الفِكَر عند آخِرِهم. وكلّ شيء

---

(٢٢) انظر: ص ٥٠ ـ ٥٢ من هذا الكتاب.

(٢٣) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Taylor and Francis, 2001), p. 92.

(٢٤) Robert B. Serjeant, *South Arabian Hunt* (London: Luzac, 1976), pp. 66 and 104.

(٢٥) الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، ج ٣، ص ٤٦.

للعرب فإنما هو بديهةٌ وارتِجال، وكأنه إلهام...»[٢٦].

هل توصَّلَ الجاحظُ إلى أعمَق أجزاء «العَقل العربي»؟ كلا، لأن مِثل هذا المُفرَد لم يوجَد قَطّ. لقد توصَّلَ فِعلاً لإدراكِ كثيرٍ عن اللغة الفصحى القديمة، وأصولِها كلِسانٍ خاصّ استِثنائي يَظهَر في «إلهام» الشُّعراء والعَرّافين. إلا أن افتِراضَهُ أنّ العربَ لديهم قابلِيَّةٌ وراثية فِطرية لبَلاغة الكلام هو مجرد تمنياتٍ لصالِح الثقافة العربية التي تَبنّاها، وهي تَنبعُ من مَخاوفِه على مستقبلِ تلك الثقافة. أصبحَ هو وأمثالُه من المُدافِعين عن العروبة أكثر تَشدُّداً كلما خَسِرَ العربُ سيطَرتَهم السياسية[٢٧]. لم تكن تلك الخسارة خَفيَّةً، فقد كان الترك، من أمثال بَجْكَم، يَحلُّونَ مَحلَّهم في وَضَحِ النهار، ويُحولُّون أنفسَهم مِن مَماليك إلى أمراء عسكريين. غير أن العرب لن يَعتَرفوا بخسارةِ لغتِهم للآخرين، لأنها كانت العاملَ الرئيسي الذي صَنَعَ هويتهم وحافَظَ عليها عبر التاريخ. هناك قولٌ يُنسَب إلى محمد يُروى أنَّه ذُكِرَ في سياقِ دِفاع عن صاحِبه سَلمان الفارسي، وكَرَّرَه الشّعوبيون مِراراً: «يا أيها الناس: إن الربَّ ربٌّ واحد، وإن الدين دينٌ واحد، وليست العربية بأحدكم من أبٍ ولا أم، فإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي»[٢٨] إلا أن ذلك أمرٌ لا يقبلُهُ معظَم العرب، فقد كانوا فَرِحينَ باستِخدام غير العرب اللغةَ العربية في العِبادة وتَسجيلِ الحِسابات وتَخليدِ أبطال العرب القدماء. أما المُطالَبة بأكثر من ذلك فيها، مثلما فَعَلَ الشّعوبيون، فقد كان مِثل محاولَةِ سَرقَةِ ما اعتَبروه رُوح عروبَتِهم.

يَظَلُّ سلوكُ العرب نحو لُغتِهم تَملُّكِياً، وقد وجدتُ أنَّ التحدُّثَ بتلك اللغة يُقابَلُ في البداية بالتَرحيب والتّشجيع، حتى يتحدَّث بها المَرء بشكلٍ متمكِّن ويَختلف مع مالِكيها، عند ذلك لا يَنظُرُ كثيرٌ منهم إلى مِثل ذلك المَوقِف على أنه حِوار، بل يَعتَبرونه خِيانةً وغَدراً وشقّاً للعَصا[٢٩] واجتِماع الكلمة. نادِراً ما يُعبَّرُ عن ذلك بكلمات، ومن الأمثلة النادرة على ذلك ما ذَكَرَهُ الباحِثُ المَغربي المُعاصِر عبد الفتاح كيليطو، الذي يَعترفُ في أحَدِ

(٢٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١.

(٢٧) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ١٨٣.

(٢٨) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ٢: **تأصيل الأصول**، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢٩) انظر: ص ٥١ من هذا الكتاب.

كُتُبِهِ بأنه لا يُحبُّ الأجانبَ الذين يَعرفون لُغَتَهُ(٣٠)، ويَشعرُ أنَّهم «سَرَقوها» منه(٣١). العنوان بليغٌ «لن تتكلم لُغتي *Thou Shalt Not Speak My Language*» (البروفسور كيليطو يُدَرِّسُ الفرنسية ويتكلمها). مثلما يُحذِّر مَثَلٌ إسباني: «لا تتحدَّث العربية في بيتِ المسلمين»(٣٢).

القاعدة المُهتزَّة

أدّى الشعورُ بعدم المساواة إلى صراعاتٍ مماثِلة بين العرب وغيرهم في أماكِن أخرى. كان هنالك شعوبيون من الأقباط والبربر في مصر وشمال أفريقيا(٣٣)، وفي أقصى الغرب الإسباني أدّى التميز ضِدّ السكّان المَحليين الذين اعتَنقوا الإسلام إلى انتفاضاتٍ ودِماء أحياناً. احتفَظَ المسلمون غير العرب بأسماءِ عائلاتِهم السابقة في أغلب الأحيان مع تَعريبِها لَفظِياً، مثل: بَنو بشكوال (Pascual)، بَنو غرسية (Garcia)، بَنو غوزمان (Guzman). إلا أن بعضَ العرب المُتعصِّبين نَسَبوهُم بألقاب عامّة ساخِرة، مِثل: بَنو العبيد. عندما استمرَّ التميز في القَرن الثاني من الحُكمِ العربي، ثارَ بعضُ المسلمين المَحَليين، وتمكَّنوا من تأسيس دُويلاتِهم الصغيرة التي لم تستمر طويلاً(٣٤). حوصِرَت الثورات مع الوقت، وهَدَأ المتمردون، إلا أن مثاليةَ المساواة الإسلامية لم تَتحقَّق مرةً أخرى، ورَجَحَتْ كَفَّةُ التَّعصب العربي دائماً. ظَهرَتْ شعوبيةٌ أدبيةٌ متأخرة في القَرن الحادي عشر بين المسلمين الإسبانيين من أصولٍ بربرية وأوروبية تُشبِهُ الحركةَ السابقة في المَشرق(٣٥).

في أقصَى الزاوية الجنوبية من الإمبراطورية، وفي النهاية البعيدة لجزيرتهم، وَجَدَ العرب أن إخوتهم من جنوب شبه الجزيرة العربية، الذين مِنَ المُفتَرضِ أنهم قد تَعَرَّبوا منذ زمن طويل، قد انقلَبوا ضدهم الآن، أو

(٣٠) Abdelfattah Kilito, *Thou Shalt Not Speak My Language* (New York: Syracuse University Press, 2008), p. 87.

(٣١) Ibid., p. 91.

(٣٢) ورد في: Patrick O'Brian, *HMS Surprise* (New York: HarperCollins, 1993), p. 89.

(٣٣) Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), p. 60

(٣٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7, pp. 807-808.

(٣٥) Ibid., vol. 9, p. 515.

على الأقل ضد وجهة النظر البدوية الضيقة للعروبة[٣٦] التي رُوِّجَ لَها في عصر التدوين. سَمِعنا الشاعر أبا نواس يَسخَر من تَخلُّفِ البدو، وهو ليس عربياً جنوبياً، بل من مَواليهم. كانت بعضُ انتقاداتِه مُشينَةً، وكان معروفاً بقصائِده المِثلية «الغُلاميات»، وسخريته من خُشونة الأعرابِ مملوءَةٌ بوَخزاتٍ ثاقِبة، مثلما في إعلانِه لو أنّ شعراءَ بدويين قدماء أشدّاء كانوا يَسكنون بغداد في أيامِه فسَيمشون متعَطِّرين مِثل الفرس، وسيَسيلُ لعابُهم على جَمالِ الفِتيان[٣٧]. ولم تَنجُ قُريشٌ من سخرية أبي نواس، على الرغم من كونها قبيلة النبي وخلفائه العباسيين، وكانت النتيجة أنَّ الشاعر قضَى فترةً طويلة في السجن بأمرِ الخليفة هارون الرشيد[٣٨]. حُذِفتْ وَخزَةُ أبي نواس من شخصيته الخيالية كرَفيقِ الرشيد المُسَلِّي في **ألف ليلة وليلة**.

كانت هجماتُ أبي نواس جُزءاً من أعراضِ الانقسام الشمالي الجنوبي الذي تعمَّقَ كثيراً في صراعات العصر الأموي[٣٩]، والآن مع تَقدُّم القَرن التاسع واشتِداد الشعوبية الفارسية في هجماتِها الأدبية، بَرَزَ مِن جديد في جنوب شبه الجزيرة العربية ذاتِها فَخرٌ واعتِزازٌ بسَبأ القديمة وأخواتِها من الحضارات والشعوب الأصلية. بَدأ حكَّامٌ مَحليون بتَرسِيخِ استقلالهم السياسي عن الخليفة في بغداد البعيدة، والتأكيد على انحِدارهم من أشراف مَحليين قَبل الإسلام. سيُحاول كتَّابٌ مَحليون، مِثل المؤرخ والجغرافي الهَمداني في القَرن العاشر إحياءَ مَجدِ الجنوب الغابِر، غير أنَّ جهودهم لم تؤثِّر كثيراً على الصورة الثقافية الأكبر للإمبراطورية العربية. كانوا يُخلِّدونَ أطلالَ ما أصبَحَ الآن وراء الوراء. ومثلما تَسَرَّبَ بَدو القبائل وعَرَّبوا الجنوب القديم في القرون التي سَبقَت الإسلام، ففي القرون التي تَلَتْهُ، خاصة في عصر التدوين العباسي، أصبَحَتْ روايةُ التاريخ ذاتها بدويةً.

وضَعَ الشعوبيون أهلُ التسوية من جميع الأنحاء لأنفسِهم هَدَفاً مستحيلاً في محاولتهم الالتقاءَ مع العرب على أرضِ المساواة. لم ينجَحوا أبداً في

(٣٦) قارن: ص ٩٩ ـ ١٠٠ من هذا الكتاب.

(٣٧) أبو نواس، **ديوان أبي نواس**، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤)، ص ٥٥٩.

(٣٨) حسين، **في الشعر الجاهلي**، ص ١٧٦.

(٣٩) قارن: ص ٣٥٣ ـ ٣٥٦ من هذا الكتاب.

إزاحَة العرب عن القاعدة التي بَنوها لأنفسِهم كشَعبِ النبي، والمالِكين الأصليين للغة القرآن. كان العربُ هم المُلوك من الناحية السياسية ولو أنها اسميّة، وكانوا فوقَ صَخرَتِهم، والأسودُ المُترصِّدة قد ابتَعدَتْ عنهم حتى حين. ومع ذلك فإن مَكانَة العرب كانت مُقلقَلَة سياسياً وثقافياً، وكانت الشعوبُ التي زَعَمَ العربُ حُكمَها تُحاولُ جُهدَها لزَعزَعَتِهم.

ستعودُ مَشاعرُ الشعوبية للظُّهور مع الزمن، وستَستَمرُّ سخريةُ الحَضَرِ من رجال القبائل الذين يأكلون الضَّبِ على مَدى قرون[٤٠]. ومِن جِهة العرب، فإن «نهضتهم» في القَرن التاسع عشر ستُعيدُ إحياءَ لُغةِ الجِدال، وسيُتَّهَمُ بالشعوبيةِ القوميون العثمانيون[٤١] ومُعارِضو القومية العربية[٤٢]، وحتى الماركسيون[٤٣]. اتُّهِمَ الإيرانيون خُصومُ صدّام حسين بالشعوبية في حرب الثمانينيات[٤٤]. والآن في الصِّراع الدَّائر تحت نافِذتي، اتُّهِمَ الحوثيون الذين تَلهمهم إيران بالسَّعي وراءَ برامجَ شعوبية. يشبه هذا من الناحية الزمنية اتِّهام الألمان في الحرب الكبرى بأنهم مِنْ قبائل «الهون». القتالُ الذي يَحدثُ أمامي الآن هو جزئياً قتالٌ حَولَ الهوية، فقد أنشَأ الحوثيون لأنفسِهم هويةً خاصة من أجزاء عديدةٍ متفرّقة من تواريخ غير مُتجانِسَة طائفية وثقافية وسياسية. ويَتَصَوَّرُ خُصومُهم السعوديون وغيرهم أنفسَهم جزءاً من الرواية العربية للتاريخ، ومازالوا يُحرِّكون عِصِيَّهم باختِيال.

(اتُّهِمَ الحوثيون في آخِر سنة ٢٠١٦ بإطلاق صاروخ باتجاه مكة، وتم تَشبيه هذا العَمل بما فَعَلَه القَرامطَة[٤٥] الذين سَرَقوا الحَجَر الأسوَد منها، وبما فَعَلَهُ أبرَهةُ الحبشي بهجومِه على المدينة المُقدَّسة في القَرن السادس[٤٦]. التاريخُ له مواضِيع كثيرة وتَنويعات لا يمكن تلخيصُها وتكرارها بدقّة، ولكنّها الشّعارات التي تُكرِّرُ نفسَها).

---

(٤٠) Gelder (ed. and trans.), *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology*, pp. 107-108.

(٤١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 515.

(٤٢) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 238.

(٤٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 515.

(٤٤) Suleiman, Ibid., p. 63.

(٤٥) مفتي العراق، ورد في: <http://www.baraqish.net>, December 2016.

(٤٦) شيخ يمني من عشيرة الشايف، ورد في: <http://www.baraqish.net>, December 2016.

وَقواق في عشّ الخليفة

ظَهرَت الأحوالُ وكأنّ العرب لم يَعُد باستطاعتهم فِعل أيّ شيء لوَقفِ نَزيفِ سُلطَتِهم السياسية على الرغم من محاوَلتِهم الدِّفاعَ عن إمبراطوريتهم الثقافية. قصةُ بَجْكَم التركي الذي أزعَجتْ ميدالياتُه المُصَوَّرة الخليفةَ الرّاضي كانت نَموذَجاً للقابِضين الجُدد على السُّلطة، فقد ارتَفَعَ مِن كَونِهِ مجردَ جُنديٍّ مَملوكٍ وَضيعٍ في الولايات إلى مَرتَبة رئيسِ شرطة الرَّاضي قَبل أنْ يَفرضَ نفسَه على الخليفة قائداً عاماً وحاكِماً فِعلياً في سنة ٩٣٨. ربما كان أولَ مُتَطَفّلٍ يُصَوِّرُ نفسَه على كرسيّ السُّلطة، ولكنّ آخَرين من نَوعِه كانوا يتطلّعون لذلك منذ فترة. قَبلَ نحو مِئتَي سَنة، قامَ الخليفةُ العباسي الثاني المَنصور ببدء سابِقة في الاعتِماد على حَرَسٍ من الأرِقّاء أو مِنَ العَبيد المُحرَّرين بَدَلاً من العرب الأحرار. وفي بداية القَرن التاسع، قامَ المأمون بِجَلبِ أعداد متزايدة من الجنود غير العرب إلى بغداد من مَركَز قوَّتِه الشرقي في خراسان[٤٧]. تابَعَ المُعتصم أخو المأمون هذا التَّوجُّه، وزاد فيه أثناء حُكمِهِ الذي بَدأ سنة ٨٣٣ حين جَلَبَ مَزيداً من المماليك، خاصة من الترك. وكانت مسألةَ وقتٍ فقط قَبلَ أن يقومَ هؤلاء الرجال المسلحون بلَعِبِ دَورِهم السياسي.

كانت الاستِعانَةُ بالمماليك مَعقولةً في غياب مَفهوم الدولة كمَركزٍ لوَلاء الجنود الأحرار والتِزامهم، خاصةً من نوعِ رجال القبائل العربية المسلَّحين سَلَفاً، الذين كانوا يُجَنَّدون عادةً، والذين يمكن شِراؤهم لمَن يَدفَع أكثَر، أو كَسب وَلائهم للخَطيب الأفضَل (أراقبُ الآن دولةً تتمزَّق بسبب ذلك، فقد تَحلَّلَ الجيشُ اليمني فجأةً إلى ميليشيات خاصّة كثيرة، وربما لم يكن أكثر من ذلك أصلاً)، بينما لا يُناقَشُ ولاءُ الأرِقّاء، نظَرياً على الأقل.

كان التركُ بالنسبة إلى المعتصم أفضَلَ المماليك. كتَبَ الجاحظ آنذاك: «التركُ... هم بَدو غَيرِ العرب»[٤٨] [غير حرفي]، ويُعتبَر ذلك منه مَديحاً

(٤٧) أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٤٨) Jahiz quoted in: Charles Pellat, ed. and trans. (into French), *The Life and Works of Jāḥiz*, trans. (into English) D. M. Hawke (London: Routledge and Kegan Paul, 1969), p. 97.

عالياً بالفِعل. كانت مَهارَتُهم في الغَزو ورَمي السِّهام أسطوريةً، وحَذَرُهم خارِقاً، «التُّركيّ لَه زَوجان من العيون، زَوجٌ في الأمام وزَوجٌ وراء رأسه»(٤٩) [غير حرفي]. لا ندري فيما إذا كان تفضيل المُعتصم للترك قد تأثَّرَ بحقيقة أنّ أمّه كانت مَحظية تركية(٥٠)، ولا شك بأنّ ذلك قد لَعِبَ دَوراً. جَلَبَ المُعتصم أفضَلَ المقاتلين الأتراك واحتفظ بهم كما يحتفظ السعوديون بأحدث الصواريخ الموجهة بالليزر، وجَمَعَ منهم خلال ثلاث سنوات من حُكمِهِ نحو ٤٠٠٠ مُقاتل، غير أن المُحاربين أصحاب العيون الضيقة رفَضوا البقاءَ في ثكناتهم، بل تَجَوَّلوا في بغداد، وسَبَّبوا الفَوضَى. كان حَلُّ المُعتصم مَزيجاً من التفكير الجانبي والتَّصميم الكبير: بِناء بغداد ثانية لَهم.

أسَّسَ المُعتصم عاصِمتَهُ الجديدة سامراء قُربَ نهر دجلة على بُعد ١٢٥ كيلومتراً شمال بغداد سنة ٨٣٦، ونَقَلَ الأتراكَ وغيرهم من الجنود الغرباء إليها(٥١). شُبِّهَتْ سامراء بفرساي(٥٢)، إلا أنها كانت كذلك مدينةً عسكريةً كبيرةً من الطُّوب الطيني والغُبار، يَسكُنُها فرسانٌ من وسط آسيا، وأتباعُ مُخيَّم الخليفة، مِثل مُهرّج المُعتصم عليّ الإسكافي(٥٣) الذي كان يخزن غازاته في جعبته الفسيحة ثم يطلقها على الحاشية الأكثر فظاظة. أما بالنسبة إلى الجنود من الترك والخراسانيين والفَرغانيين والشمال أفريقيين وغيرهم، فقد وُزِّعوا بحسب أصلِهم إلى معسكرات تَعكسُ مواقِعُها الأحوالَ الجغرافية لأوطانِ الأعراقِ المختلفة. كانت سامراء نموذَجاً مصَغَّراً للإمبراطورية(٥٤)، كما أنها تفرَّعَتْ ونَمَتْ إلى واحِدة من أكبَر مُدنِ العالَم من ناحية المساحة على الأقل. إلا أنّ زمَنَها كعاصِمة سيكون قصيراً، فلم تستمر أكثر من سِتِّينَ سَنة قَبلَ أنْ تُهجَر. يبدو أنَّ وجودَ ستِّ طرائق مختلفة لكتابة اسمِها باللغة

---

(٤٩) Jahiz quoted in: Pellat, Ibid., p. 93.

(٥٠) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 466.

(٥١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٥٢) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 263.

(٥٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٤ ـ ٥٥.

العربية[٥٥] يَعكسُ عدمَ استقرارها. ولكن المُفارَقة هي أنه على الرغم من انطِمار معظم آثارِ بغداد العباسية تحت طَبقاتِ مَعيشةٍ تالية، إلا أن مَسجدَ سامراء الكبير ظَلَّ باقياً على الأقل في خُطوطِه العامّة ومِئذَنَته المُلتَوية الغريبة التي ظَلَّتْ مُرتَفِعَةً فوق الغُبار، مُشيرةً إلى مركز «بابل» الصامتة في الوقت الحاضر.

سيطَرَةُ التركِ على الجيش جَلَبَتْ مَعَها مُفارقات أخرى؛ فمَثلاً في سنة ٨٣٨ أغارَ المُعتصم عميقاً في الأراضي البيزنطية، ودَمَّرَ مدينةَ عَمُّورية في جنوب غرب أنقرة، وأخَذَ كثيراً من الأسرى. احتَفَلَ الشاعر أبو تمام بن أَوس بهذه المَأثَرة في واحِدَةٍ من أشهَر القصائد العربية الرَّنانَة التي كان مَطلَعُها:

السَّيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ   في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
بيضُ الصَّفائِحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ في   مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ
وَالعِلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامِعَةً   بَينَ الخَميسَينِ، لا في السَّبعَةِ الشُّهُبِ[٥٦]

وهي أنشودَةٌ في تمجيد البَراعة العسكرية للعرب البدو، وقصيدة خطابية في جَلاءِ تَعبيرِ السيوف اللامِعَة والرماحِ التي تَضَعُ الحقائق اللغوية السَّردِية في الظِلّ (الحقائق اللغوية التي كتَبَها بالطبع الفرس وغيرهم من الغرباء)، كما أنها حَنينٌ لتلك الحقيقة الأكثر قَطعاً كما قالَ أحَدُ النّقاد المُعاصِرين: «ينقُلُ الشاعرُ القِيَمَ الأخلاقيةَ لأجدادِ قَبيلتِهِ وقَبيلةِ المُعتصم الوثَنيين إلى الأساسِ الأخلاقي للدولة الإسلامية»[٥٧]. غير أن استقصاءاتٍ إضافية تُبيِّنُ البُعدَ عن الواقع؛ إذ لم يكن الشاعر نفسه بِحُكم الوِلادة «ابنَ أوس»، وهو الاسم العربي الأصيل، بل كان في الحقيقة ابنَ تَضاوس الذي كان مسيحياً صَاحِبَ حانَةٍ في دمشق. والذي لا يُعتَرَفُ به هو أنّ البطولةَ العربية القَديمة

(٥٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٩.

(٥٦) ورد في: Robert Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature* (London: Penguin, 2000), p. 132.

(٥٧) Suzanne Pinckney Stetkevych, "The 'Abbasid Poet Interprets History: Three Qaṣīdahs by Abū Tammām," *Journal of Arabic Literature*, vol. 10 (1979), p. 64.

كانت مُجَسَّدَةً الآن بجيشٍ من الترك[٥٨]، ولا يُذكَرُ أيضاً أنّ ابنَ أخي المُعتصم، العباس بن المأمون، كان يقومُ بمحاولةٍ دَنيئة غير بطولية لِسَلبِ الخِلافة، وأفشَلَ خِطّةَ عَمِّهِ في مُتابَعةِ انتِصارِه بالسَّير نحو القسطنطينية[٥٩].

كانت الإغارة على الجيران تقليداً رائعاً مِثلَ حروبِ القبائل قَبلَ الإسلام، إنما بحروفٍ كبيرة، وبطريقَةٍ مختَلِفة، كان العَدوّ من داخِل العائلة، كما أنّ هذا التقليد العربي قد تَمَّت الاستِعانة بالأجانب لتَنفيذِه. وفي النهاية، لم يهتمّ التركُ الأجانب بالتقاليد، بل كان جُلُّ اهتمامهم بالطّبع هو السُّلطة، فقد كانت لديهم الأسلحة والأعداد، وشَكلٌ متزايدٌ من العَصبية، ولم يَهتَموا بالصواب والخَطأ، لأن القوةَ تُخيفُ الناسَ، حتى الخلفاء.

العَمى وضَرب الطبول

حَلَّت الكارِثَةُ مع ابنِ الخليفةِ المُعتصم المتوكّل الذي جاءَ بَعدَه حين أصبحَ الجنودُ المماليك الصغار لاعبين كِباراً، بينما أصبَحَت العائلةُ العباسية، التي كانت ينبوعَ الشّرف والعروبة، لاعباً صغيراً لا أكثر، وسيَبدأ من ذلك الوقت ظُهورُ الأسماء في لائحةِ فَترةِ حُكم الخُلفاء بأسماء لا تَقِلُّ فَخامَةً وعَظَمَةً، ولكنها تَنتَهي غالباً بنهاياتٍ عنيفة متماثِلَة.

فضَّلَ المتوكلُ ابنَهُ المُعتزّ ليَستلِمَ الخلافة بَعدَه، إلا أن ابناً آخر (مِن أمٍّ أخرى)، هو المُنتَصر، خَطَّطَ مع مَماليك أتراك ليَضمَنَ استِلامَ العَرشِ لنفسِه. اختارَ المُتآمرون ليلةً في كانون الأول/ديسمبر ٨٦١ للتنفيذ. كان الخليفةُ يَشربُ الخَمر مع خُلَصائِهِ المُقرَّبين. يَذكُرُ الشاعر البُحتري الذي كان أحَدَ الحاضرين:

«وسَكِرَ المتوكّل سُكراً شديداً... ومضَى نحو ثلاث ساعات من الليل، إذ أقبلَ باغِر ومعه عَشرةُ نَفَرٍ من الأتراك وهم مُتلَثِّمون، والسيوفُ في أيديهم تَبرُقُ في ضَوء تلك الشموع، فهَجَموا علينا، وأقبَلوا نحو المتوكّل حتى صَعدَ باغِر ومعه آخَر من الأتراك على السرير، فصاحَ بهم الفَتح: ويلَكم!!

(٥٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٦٠.
(٥٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٠.

مولاكُم، فلما رآهُم الغِلمان ومَن كان حاضِراً من الجُلَساء والنُّدَماء، تطايَروا على وجوهِهم فلم يبقَ أحدٌ في المَجلس غير الفَتح وهو يُحارِبُهم ويُمانعُهم. قال البُحتري: فسمعتُ صيحةَ المتوكّل وقد ضَرَبَهُ باغِر بالسيفِ الذي كان المتوكّل دَفَعَهُ إليه على جانبه الأيمن، فَقَدَّهُ إلى خاصِرتِه، ثم ثَناهُ على جانِبِهِ الأيسَر، ففَعلَ مِثلَ ذلك، وأقبلَ الفَتحُ يُمانعُهم عَنهُ، فَبَعَجَهُ واحِدٌ منهم بالسيفِ الذي كان معه في بَطنِه فأخرَجَه مِن متنِه، وهو صابرٌ لا يتنَحّى ولا يَزول. قالَ البُحتري: فما رأيتُ أحَداً كان أقوى منه نَفساً ولا أكرَم منه، ثم طَرَحَ بنفسِه على المتوكّل فماتا جميعاً، فَلُفَّا في البِساط الذي قُتِلا فيه، وطُرِحا ناحية، فلم يَزالا على حالَتِهما في ليلتِهما وعامّة نهارِهما حتى استَقرَّت الخلافةُ للمُنتَصِر فأمَرَ بهما فَدُفِنا جميعاً»[٦٠].

هناكَ تتمة؛ جَلَسَ المُنتَصرُ على البِساط الذي كُفِّنَ فيه والِدُه حتى أُشيرَ له أنه يُصوِّرُ أميراً فارسياً قديماً كان قد قَتَلَ والِدَه الشّاه، وكُتِبَ على البِساط أنه عاشَ ستةَ أشهر فقط بَعدَ جَريمتِه. وهكذا كان مع المُنتَصر، ويبدو أنه توفّي بحُمّى وسُعال شديد بَعدَ تَعرُّضِه للبَرد عندما نامَ في غرفَةٍ سُفلى تحت تيارِ هواءٍ بارِدٍ بَعدَ أنْ تَعرَّقَ كثيراً وهو يَلعبُ بالصّولجان. ولكن هناكَ إشاعة تَروي أنّ وفاته ربما جَرَتْ وفقَ خطَّة تركية أخرى بمَشرطٍ مَسموم[٦١] بَعدَ أن تصَرَّفَ بِغَيرِ حِكمَةٍ، وحاوَلَ تَرسيخَ حُكمِهِ فوقَ رِفاقِهِ في المؤامرة.

ابتَعدَ أخوهُ المُعتزّ بحِكمَةٍ عن النزاع على السُّلطَة حتى عندما رَمَتْ أمُّهُ في وَجهِهِ قميصَ أبيهِ المُضَرَّج بالدّماء وحَضَّتْهُ على أخذِ الثأر من الترك، قال لأمّه: «يا أمي، ارفعي وإلا صار القميص قميصين»[٦٢]. تَسَلَّمَ الخلافةَ حينها ابنُ عَمِّه المُستَعين. كانت السُّلطَةُ بِيَدِ اثنَين مِن قادَةِ الترك: بُغَا الأصغَر، الذي خَطَّطَ لِقَتلِ المُتوكّل، وزَميلهُ القائد وَصِيف. قالَ شاعِرٌ مُعاصِرٌ عَنهُما:

خليفةٌ في قفَصٍ بينَ وَصيفٍ وبُغا
يقولُ ما قالا لَهُ كما يقولُ البَبَّغا[٦٣]

---

(٦٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٦١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٦٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٤٩٤.
(٦٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٥.

وسرعان ما سَيسيلُ الدَّمُ من جديد، وستُصبحُ سنواتُ العَباسيين نسخةً من مأساةٍ شكسبيرية. ولِد المَسعوديّ في بغداد في مَعمَعةِ تلك المأساة، وشَهِدَ بعضَ فُصولِها المتأخرة، ولم يَحذف أيّ تفاصيلِ مؤلِمة وقصص شائِعة. وكان لأبيات الشِّعر المُعاصِرة لتلك الأحداث التي سَردَها أهمية خاصة، لأن الشُّعراء كانوا رُواةَ العَصر، وصَوَّروا رُدودَ الأفعَال. عندما أجبَرَ التركُ المُستَعين على التَّنازل في النهاية، ثم قَطَعوا رأسه[٦٤]، أورد المَسعودي أبياتاً أخرى صَريحة:

لـلّـه دَرُّ عـصـابَـة تـركـيّـةٍ　　رَدُّوا نـوائـبَ دَهـرِهِـمْ بـالـسـيـفِ
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد　　وكسوا جميع الناس ثوب الخوفِ
وطَغَوا فأصبَحَ مُلكُنا متَقسَّماً　　وإمامنا فيه شَبيهُ الضَّيفِ[٦٥]

العنفُ يَستدعي العنفَ. دفَعَ التُّركُ المُعتزَّ أخا المنتَصِر قاتِلِ أبيهِ إلى التَّغلُبِ على زُهدِهِ بالمَنصِبِ العالي، ونَصَّبوهُ في قَفَصِ الخلافة الذَّهبي، إلا أنهم سرعان ما فكَّروا باستِبدالِه بأخٍ آخَر هو المُؤيَّد الذي كان في السِّجن بعيداً عن الأذى. إلا أن المُعتَزَّ تَصرَّفَ بسرعةٍ، وأمَرَ بِخَنقِ أخيهِ في ملاءةٍ مَسمومَة[٦٦]. ثم خافَ مِن أنَّ بُغَا التركي «ينزل علي... من السماء، أو يخرجُ علي من الأرض»، فاستأجَرَ المُعتَزُّ عُصبَةً من المماليك الأفارِقة لقَتلِه. فوجِئ بقيةُ الأتراكِ في البداية، إلا أنهم سرعان ما استَجمَعوا قواهُم. وخَلَعوا المُعتَزّ أيضاً، وتم قَتلُهُ في سِجنِهِ بَعدَ ذلك بأيام[٦٧].

سيَسقطُ الخليفةُ التالي أيضاً على يَدِ التركِ إنما لأسباب أخرى. فالمُهتدي ابنَ عَمّ المُعتَزّ، كان نادِرَ المِثال بين العباسيين، بسبب تَزَمُّتِهِ وتَشَدُّدِه. حاوَلَ المُهتدي أن يَقتَدي بِعُمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي الوَرِع الذي كان استِثناء نادِراً في تلك الخلافة. سارَعَ بعد صعودِه إلى العَرش بهَزِّ الانحلالِ الأخلاقي العام، فطَالَب بتَغطية اللوحات الجِدارية

(٦٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٦٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦٩.
(٦٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٧٦.
(٦٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٧٧.

التَّصويرية في القَصر، ومَنعَ الفرقةَ الموسيقية، وتخلَّصَ من ديوكِ القِتالِ وتُيوسِ النِّطاحِ التَّابِعَةِ للخليفة، وأمَرَ بذَبحِ الوحوشِ في حَدائق الحيوانات. وإذا أرادَ النومَ، كان ينامُ في قميصٍ من الشَّعر فذلك شأنه الخاص(٦٨)، ولكن عندما أرادَ مَنعَ الخَمر وغِناءَ الجَواري في مناطِقِهِ، فقد بالَغَ في ذلك، لأن المناطق لم تكن تابعَةً له إلا بالاسم فقط. وحَسبَ روايةِ المَسعودي، فإن بعضَ أتباعِهِ المُترَفين خَطَّطوا للحَلِّ الذي أصبَحَ مُعتاداً بالاتفاق مع الحُكّام الحقيقيين من الحَرَس التركي(٦٩). وفي الواقع كان هنالك صِراعٌ مَعقَّدٌ على السُّلطَة يَشملُ الخليفةَ وجماعات تركية مختلفة(٧٠). ومهما كان السبب فإن النهاية كانت واحِدَة، وتم قَتلُ الخليفة الزاهد بِيَدِ تركيٍّ سِكّيرٍ، ويُروى أنه شَرِبَ مِن دَمِ ضَحيّته(٧١).

سُئِلَ المُهتدي قَبلَ ذلك لماذا كان يحاولُ تطبيقَ مثل تلك الإصلاحات التي لا تَحظَى بالشعبية العامّة؟ فأجاب: «أريدُ أحملهم (أي الناس) على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين». فقيل له: «إن الرسول ﷺ كان مع قوم قد زَهِدوا في الدنيا ورَغِبوا في الآخرة... وأنت إنما رجالكَ ما بين تركي وخَزري وفرغاني ومَغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم... وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا»(٧٢).

يُظهِرُ الرَّدُّ الساخرُ الحقيقيّ مرةً أخرى كم ذَهَبَ العربُ بعيداً خارج «جزيرتهم» منذ نحو ٢٥٠ سنة مضَتْ، وكم ضاعَ بعضُهم الآن في العالَم الأوسَع، وكيف أنَّ ذلك العالَم الأقدَم الأصغَر قد أصبحَ مِثالياً وضائِعاً. لن يكون المُهتدي آخِر العرب الذين يريدون استِعادَة ذلكَ العالَم المِثالي.

حَلَّ استقرارٌ نسبي لبعض الوقت، واستمرت خلافةُ المُعتَمد ابن عَمّ المُهتدي فترةً استثنائية بَلَغَت ٢٢ سنة. واستمرت خِلافةُ ابنِ أخيهِ المُعتَضد عَشرَ سنين نَجَحَ خلالَها في استِرجاع بعض الأراضي العراقية التي ضاعَتْ

(٦٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٦٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٣.
(٧٠) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. al-Muhtadī.
(٧١) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٦.
(٧٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٦.

أثناءَ ثورة الزنج والقَرامطَة. أما فيما وراءَ ذلك في فارس ومصر وغيرهما، فقد خَرَجتْ عن حُكم بغداد إلى الأبد كما سَنَرى. بعد ستّ سنوات من حُكمِ ابنِ المُعتَضد، عادَت المشاكُل المتتالية بزَخم انتقامي. استاءَ بعضُ المماليك الأتراك من حَفيدِ المُعتَضد، وجاؤوا بعَمِّه عبد الله بن المُعتَزّ، ونَصَّبوهُ مَكانَه. أما ابنُ المُعتزّ (الذي لم يَعِش طويلاً لاكتِسابِ لَقَبْ مَلَكي) فكان مُحبّاً للخَمر والشِّعر، وكان هو نفسُه من روّاد تَحديثِ الشِّعر. يستطيعُ المرء أن يَتَخيلَهُ وهو يَترنَّحُ ويَشتكي في الفَجر مِن بُرجِه العاجِيّ:

أَلا فَاسقِنيها قَد نَعى اللَيلَ ديكُهُ   وَأَغرى بِأُفقِ اللَيلِ فَهوَ سَليبُ
وَقَد لاحَ لِلساري سُهَيلٌ كَأَنَّهُ   عَلى كُلِّ نَجمٍ في السَماءِ رَقيبُ[٧٣]

كانت الخلافة بالنسبة إلى ابنِ المُعتزّ كأساً مَسمومَة كان يَستطيعُ بَلعَها دَفعةً واحِدة وكأنما يُعَوِّضُ فترتَي الحُكم الطَويل قَبلَهُ، ولم يستمر أكثر من يومٍ واحِد قَبلَ أن يَخنُقَهُ أنصارُ ابنُ أخيه[٧٤].

ومن المُفارَقة أنّ ابنَ المُعتزّ نفسه قد عَلَّقَ على انحِطاط الخلافة بصوتِ شِعرِه الأنيق[٧٥]. استمرت أصواتٌ أخرى بنَظم أفكارها شِعراً والتعبير عن الفوضى في القصر، كان منهم ابن بسام الذي لم يتَحَفَّظ بكلماته، فهاجَمَ الوَصيّ المُوفَّق وكلّ رَجُلٍ مُهمٍّ في الدولة بالاسم في قصيدةٍ طويلة مُستَنتِجاً:

فـخـلِّ الـزمـان لأوغـاده   إلـى لـعـنـة الله والـهـاويـةْ

يقصد قوله:

فـخـلِّ الـزمـن لأوغـاده   إلـى لـعـنـة الله والـهـاويـةْ[٧٦]

ربما يكون هذا صوت الرَّجل في السُّوقِ هذه الأيام: نُريدُ العَدالَة! إلا أننا نَعلَمُ أنها مؤجَّلةٌ إلى ما بَعدَ الموت.

---

(٧٣) ورد في: Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature*, p. 145.

(٧٤) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Ibn al-Mu'tazz.

(٧٥) Irwin, Ibid., p. 143.

(٧٦) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٩٨.

لم يَسلَم التركُ وغيرهم من الأغراب المُستَولينَ على السُّلطَة من هِجاءِ ابن بسام الذي شَمَلَ:

وأمـــيـــر أعـــجـــمـــيّ كـــحـــمـــار ابـــن حـــمـــارةْ
رحـــل الإســـلام عـــنّـــا بـــتـــولّـــيـــه الإدارةْ

يقصد قوله:

وأمـــيـــر أعـــجـــمـــيّ كـــحـــمـــار ابـــن حـــمـــارةْ
رحـــل الإســـلام عـــنّـــا بـــتـــولّـــيـــه الإدارةْ(٧٧)

غَيرَ أن الحَميرَ تمسَّكوا بالسُّلطَة، ومع مَجيءِ زمنِ بَجْكَم، الذي صَكَّ الميداليات، كانت حقيقةُ الموقفِ جَلِيَّةً في اللَّقَبِ الذي اتَّخَذَهُ لنفسِه: أميرُ الأمراء، وتلاشَى الرّاضي الذي كان بالاسم سَيِّدهُ حين أُصيبَ بِداءِ الاستِسقاء وكان عمره ٣١ سنة(٧٨). إلا أن العَلاقات بين خَليفَتِه المُتَّقي والأتراك أصبَحتْ سيئةً مرةً أخرى، وعادَت المَسرحية الكبرى، وتمّ خَلعُهُ بَعدَ سنواتٍ قليلة من الحُكم، وسُمِلَتْ عَيناه بينما كانت الطُّبولُ تُقرَعُ لإخفاءِ صوتِ صُراخِه(٧٩). قالَ عَمُّهُ القاهِر، الذي كان خليفةً قَبلَه وتمّ خَلعُهُ أيضاً وسُمِلَتْ عيناه: «قد صرنا اثنَين نحتاجُ إلى ثالِث»(٨٠). وبالفِعل، تم خَلعُ المُستكفي ابن عَمِّ المُتَّقي وخَليفَته، وسُمِلَتْ عَيناه أيضاً، إنما ليس بِيَدِ الترك، بل بِيَدِ عصابةٍ مِنْ رجالِ الجِبالِ الإيرانيين(٨١). يبدو ذلك تَغييراً مُنعِشاً في سِجِلِّ انحِدار العباسيين.

يبدو أنّ احتِكارَ الترك للسُّلطَة قد انكَسر، ولكن سرعان ما سيَتَبَيَّنُ أنَّ طَيرَ الوَقواق في عُشِّ الخليفة قد تم استِبدالُهُ بِوَقواقٍ آخَر لا يَقِلُّ عِنهُ تَعَطُّشاً للسُّلطَة.

---

(٧٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٩٩.
(٧٨) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. al-Rāḍī
(٧٩) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.
(٨٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٣.
(٨١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧١.

فاصِلٌ إيراني

جاءَ الإخوةُ البُوَيهيون الثلاثَة من جِبالِ الدَّيلَم في جنوب بحر قزوين، واستَولوا على مساحاتٍ من غرب إيران والعراق، واستَولوا على عاصِمة الخلافة بغداد سنة ٩٤٥. مِنَ الناحية السياسية، يبدو أنهم حَلُّوا فجأةً، وظَهرتْ قصصٌ وروايات لتَفسيرِ مَظهَرهم الخَفيّ. تَروي أَرجَحُ التَّقديرات أنهم جاؤوا مِن أصولٍ مُتواضِعة، وأنَّ أباهُم بُوَيْه، الذي مَنحَ السلالةَ اسمَها، كان صَياداً. إلا أنَّ حُظوظَهم تغيَّرتْ عندما وَجَدَ أَحدُهُم كَنزاً مُخَبَّأً[٨٢]. مهما كانت حقيقةُ الأسطورة، فإنّ الإخوةَ كانوا قد اعتَنقوا الإسلام حديثاً، واستَخدَموا صِفتَهم الإسلامية وسيلةً للحُكم. خَدَموا أولاً في جيوشِ قواتٍ مَحلية صاعِدة في إيران، ثم وجَدوا طَريقَهم للوصول إلى نفوذٍ أكبَر لأنفسِهم[٨٣].

كان انتماؤهم إلى المَذهب الشيعي مُتوقَّعاً، فقد كانت جِبال الدَّيلَم الوَعرة وما حولَها من ساحلِ قزوين الرَّطب الوَسِخ أرضاً خصبةً للدَّعوة الشيعية التي مُنِعَتْ مِن نَشرِ مَذهَبِها في مناطق أفضَل. وعلى كل حال، فإن انتماءَهم للمَذهبِ الشيعي لم يُحدِث فَرقاً، وكان بعضُ أَلَدِّ أعدائِهم من الحَمدانيين، وهم سلالةٌ عربية في شمال العراق وسورية كانت مُناصِرَةً للمَذهبِ الشيعي بشكلٍ عام[٨٤]. كما أنّ البوَيهيين لم يُحاوِلوا فَرضَ مَذهَبهم الطائفي في بغداد، التي كانت دائماً مدينة ثانية بالنسبة إليهم، إذ كانت عاصِمتُهم الرئيسية هي شِيراز في جنوب غرب إيران؛ بل ربما كانوا في مَركزٍ مِثاليّ كزعماءَ مِن مَذهبٍ آخَر في المَركز السّنيّ، ويستطيعون تَركَ الخليفةَ ليَستمتعَ بتَظاهُرِهِ الإمساكَ بالسُّلطَة على عالَم الإسلام السّنيّ القَويم دون أن يَشعُرَ الشّيعَةُ بالتِزام أخلاقيّ لاحتِرام سُلطَتِهِ التي كانتَ نظريةً على كل حال، ولم تكن الصِّفات المَذهبية مهمّة في النهاية. كان الدِّين كما هو في كثير من الأحيان، سَمَكةً حَمراء صَغيرة تُخفِي سَمكةَ قِرشٍ قويةٍ متعطِّشةٍ للسُّلطة.

تابَعَ البوَيهيون أساليبَ الترك في سياسَتِهم تجاه الرَّمز العَظيم للحُكم

(٨٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٨٣) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Buwayhids.

(٨٤) Ibid., s.v. Ḥamdānids.

العربي، وهو الخليفة العباسي. كان خليفتُهم المُروَّضُ الأولُ هو أخٌ آخر للرّاضي لُقِّبَ بجَدارَة: المُطِيع، ويَعني اسمُه أن يَطيعَ الله، إلا أنه في الواقع كان مُطيعاً لكلٍّ مَن يَضَعُهُ اللهُ مُسيطِراً عليه. وفي تلك الحالة كان فَناخسرو بن بُوَيه الذي مَنَحَهُ الخليفةُ لَقَبَ مُعِزِّ الدولة. في الحقيقة، لم يكن للخليفةِ اختيارُ عَدَم مَنحِ اللَّقَبِ لأنّ ينبوعَ الشَّرف أصدَرَ الألقابَ والمَناصِب، إلا أنَّ آخَرين سَيطَروا على مَسارِها. كَتَبَ المَسعودي في مُلحَقٍ متأخرٍ لتاريخِهِ أنَّ «المطيع في يده (أي يد معزّ الدولة) لا أمر له ولا نهي»[٨٥].

لم يتحدَّثْ مُعِزّ الدولة الدَّيلَمي باللغةِ العربية مِثل معظم الأمراء الأتراك قَبلَه[٨٦]، إلا أن البوَيهيين استطاعوا تأسيسَ حُكم سلالةٍ، وأصبَحوا جُزءاً من «فاصِلٍ إيراني»[٨٧] بين أمراءِ الحرب الأتراك والسلالات التركية التالية. وهكذا استمروا فترةً كافية لكي تَغزوهم اللغةُ العربية مثلما حَدَثَ لكثيرٍ غيرهم. كان عَضُد الدولة مِنَ الجِيل البوَيهي الثاني من حُكّام بغداد، وكان يُجيدُ اللغةَ العربية، ويَكتبُ أشعاراً في مَدحِ الخَمر[٨٨]. ومرةً أخرى تم دَمجُ المُتَطفِّلين الذين يَقتَنصون السُّلطَة ضمن المجتمع المستقر بفَضلِ غِراءِ اللغة. إلا أنَّ العلاقةَ ستكون عابِرةً. وبَعدَ جِيلٍ واحد من استيلاء البوَيهيين على الحُكم في بغداد، جاءتْ مَوجةٌ أخرى من الترك من الشمال الشرقي. لم يكن هؤلاء الغزاة الجُدد من المماليك، بل كانوا رجالاً أحراراً قادِمين بسُلطَتِهم وقوَّتِهم الذاتية النّامية.

ملك الدنيا

كان السلاجِقَة عَشيرةً من قبيلة أوغوز التركية العظيمة، ويمكن تَقَصِّي أُصولهم إلى القَرن التاسع في منطقة بحيرة بَيكال. في بداية القَرن العاشر، كانوا يعيشون حياةَ البداوة، ويَرتَحِلون بين مناطق نهر الفولغا وبحر الآرال، ثم اعتَنقوا الإسلام مثل البوَيهيين وفي الفترة نفسها، واستَخدَموه وَسيلَةً

---

(٨٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.

(٨٦) Efraim Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, 2nd ed. (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007), p. 64.

(٨٧) Minorsky quoted in: *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Buwayhids.

(٨٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٢٦٤.

للخِدمَة العسكرية في الدول الإسلامية النّامية في الجنوب، وللوصول إلى السُّلطَة أيضاً، إلا أنهم لم يكونوا في عَجَلَةٍ مِن أمرِهم مثلما كان البوَيهيون. دَخلوا منطقةَ الخلافة نحو سنة ٩٧٠، ولَم يَصِلوا إلى بغداد حتى سنة ١٠٥٥. كما أنَّ إسلامَهم كان على المَذهب السّني وليس على المَذهب الشيعي الذي اتَّبَعَهُ البوَيهيون، وهكذا فقد تمكَّنوا من تبرير استيلائهم على عاصِمة الخلافة بحجّة التَّخلص من الطائفية المتزايدة فيها. ادَّعوا أنهم مؤمنون مُخلِصون مستقيمون جاؤوا ليُخَلِّصوا الخلافةَ مِنَ البوَيهيين الشيعيين الزَّنادِقة.

كان هنالك فرقٌ آخر عمَّن سَبَقَهم مِن «حُماة» الخلافة، فقد كان طُغرل، أول حاكِم سَلجوقي في بغداد، مثل سابِقِه مُعِزّ الدولة البوَيهي لا يستطيع التَّحدُّثَ مع الخليفة إلا بمساعَدَة مُتَرجِم[٨٩]. ولكنْ تَبَنّى السَّلاجقةُ لغةً فارسية متجدِّدة كلغتهم الثقافية الأولى أثناء استيلائهم البَطيء الشّامل على العالَم الإيراني القديم. يبدو الآن أنَّ أيامَ اللغة العربية الفصحى القديمة، وآخِر بقايا السيادة العربية في عالَم الإسلام المُتَوسِّع، قد أصبَحَتْ مَعدودَة فيما عَدا استِخدامها كلغةٍ طقسية قديمة. ولكن على غير المُتوقَّع كما سنَرى، فإن اللغةَ العربية وكلّ إمبراطوريتها الثقافية ستَتلَقّى أعظَمَ دَفعَةٍ في ظِلِّ السَّلاجِقة.

كان على النُّفوذِ العربي في البداية أن يتضاءَلَ أكثَر. كان طُغرل قوياً جِداً لدرجة أنه تمكَّنَ من كَسرِ وعبور ذلك الخَط الأحمر الذي لم يُختَرَق منذ أيام مُلوكِ اللَّخميين قَبلَ الإسلام منذ نحو ٥٠٠ سنة. لقد تمكَّنَ تركيٌّ ضَيِّق العَينين مُسَطَّح الوَجه مِن فَرضِ نفسِه والزواج من ابنةِ الخليفة[٩٠] التي كانت امرأةً قرشيةً صافيةَ النَّسَب ومن أبناء عُمومَة محمد البَعيدين (مِن جِهة الآباء فقط، لأنها كانت عالميةً بجَدارَة من جهةِ الأمهات بَعدَ مرور ٤٠٠ سنة مِنَ الجواري والمَحظيات من كافة أرجاء العالَم القديم). إذا كان لأيِّ عَمَلٍ أنْ يُشيرَ إلى سُقوطِ الإمبراطوريةِ العربية، فإنَّ هذا الزواج هو الدّليل. حتى ألب أرسلان، ابنُ أخ طُغرُل، شَعَرَ بالحَرَج، وأعادَ الابنَةَ إلى أبيها بخَجَلٍ بَعدَ وفاة عَمِّه[٩١]. إلا أنَّ ألب أرسلان نَفسه اختَرَقَ خَطاً أحمَر آخَر رَمزياً

---

(٨٩) Hitti, *History of the Arabs*, p. 474.

(٩٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤.

(٩١) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Alp Arslān.

ومادياً، فقد كان أولَ تركيٍّ يَعبُرُ نهر الفرات[٩٢] الذي كان الحاجزَ النفسيّ الفاصِل بين بلادِ العرب الرئيسية و«جَزيرتهم» التي لم تُختَرق مِن قَبل. وإذا بَقِيَ أيّ شك في هذه العَشيرة الغَازية التي جاءَتْ من سهول آسيا البعيدة، فإن ابنَ ألب أرسلان وخليفَته قد أزالَهُ. كان ملك شاه تركياً جَمَعَ اسمُهُ بشكلٍ مناسبٍ الكلمتَين العربية والفارسية بمَعنَى «المَلك»، كما حَملَ اللقَبَ الشَّرَفي «أبو الفَتح». وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين. فكان في مملكته جميع بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة والشام. وخُطِب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المَغرب، فإنه ملك مِنْ كَاشغَر، وهي مدينة في أقصَى بلاد الترك، إلى بيت المقدس طولاً، ومِنَ القسطنطينية إلى بلاد الخَزَر وبحر الهند عرضاً. وكان قد قُدِّر لممالكه مَلك الدنيا[٩٣].

إذا كان هنالك أي شك قَبلَ ذلك بأنَّ العرب قد مَرَّروا عَصا الحُكمِ الإمبراطوري، فلَم يَعُد هناك الآنَ أيّ شكّ.

أما بالنسبة إلى الخليفة، «فلم يَبقَ لَهُ سوى لَقَبه»[٩٤] [غير حرفي]، ولكن تحت ظِلِّ السَّلاجِقة سُمِحَ له عادةً بالبقاء حَيّاً، على العَكسِ من عصر الرُّعاةِ الترك الآخَرين الذين سَبقوهم (حَدَثَ استِثناءٌ لذلك في قَتلِ الخليفة المُستَرشِد سنة ١١٣٨ في عَهد السلطان السَّلجوقي غياث الدِّين)[٩٥]. ولكن مهما كان شاغِلُ مَنصبِ الخليفة ضَئيلاً أو يَسهُلُ التَّخَلُّصُ منه، فإن الرابطَةَ بينه وبين التاريخ العربي في خلافة محمد قد احتَفظَتْ بأهميتِها الرمزية العظيمة. لقد تمكَّن الخلفاءُ بفَضلِ مَنصِبهم مِن وَضع التّاجِ على رأسِ أمراءِ السَّلاجِقة، ومَنحِهِم رموزاً أخرى من السُّلطَة الدنيوية، مثل الأساور الاحتفالية، التي سيَشتركُ بها مُلوك أوروبا[٩٦] مثلما حَدَثَ في ظروفٍ مُشابِهة حين مَنَحَ أحَدُ البابوات الضُّعفاء أميرَ حَربٍ من أقصَى شمال ألمانيا اسمُه أوتو Otto لَقَبَ الإمبراطور الروماني المُقدَّس سنة ٩٦٢. إلا أنَّ التَّناظُرَ ليس

(٩٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٦.
(٩٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٣.
(٩٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٥.
(٩٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٢.
(٩٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٨.

دقيقاً، لأن لَقَبَ السَّلاجِقة الرسمي «السُّلطان» لا يَحمِلُ لَمسَةَ قَداسَة. احتاجَ السلاطينُ الأجانب القادمون من السهول البعيدة إلى لَمسَةٍ من الوَرَع والحُرمَة المُستَمدَّة من الخلفاء المُتتالين بَعدَ النبي العربي.

خسِرَت الخلافةُ قوَّتَها الدنيوية، إلا أنها احتَفَظَتْ بقوّتِها الروحية، وسيَظَلُّ العباسيون مفيدين بصِفَتِهم رَمزاً عربياً إسلامياً في سورية ومصر تحت حُكم الزَّنكيين الأتراك وصلاح الدين الكُردي في القَرن الثاني عشر، وحتى في القَرن الرابع عشر تحت حُكم الأتراك المُغول في الهند. وظَلُّوا رابِطَةً حَيَّةً مع مكة القديمة، إلا أنهم لم يكونوا أكثرَ من ذلك. كَتَبَ ابن خلدون: «الحكّامُ العجم... أظهَروا الطاعَةَ للخليفة لكي يتَمتَّعوا بالبرَكات، غير أن السُّلطَةَ المَلَكية كانت لَهم بكل ألقابها وامتيازاتها. لم يكن للخليفة حصَّة فيها» [غير حرفي]. كما أن خسارَةَ الخليفةِ لِقوَّتِه الدنيوية كانت علامَةً أخرى، ربما حاسمة، «الغِياب العَصبية العربية، وإلغاء العِرق، والتدمير الكامل للعروبة»[٩٧] [غير حرفي]. إلا أن ابن خلدون يَعكسُ المُبالغةَ في تَشخيصه في مَوضِعٍ آخَر بقولِهِ إنَّ ما حَدَثَ من استيلاء السَّلاجِقة على السُّلطَة هو أنّ العرب «انقَبضت»[٩٨]، كما ستُظهِر الأمورُ بَعدَ ابن خلدون بكثير، وأنَّ هذا التَّصريح الأخير كان تقديراً أفضَل، كما أنّ ذلك الانكفاء على النَّفسِ كان آخِر انحِناءٍ في الاتجاه نحو تقييم الذات الذي بَدأ منذ القَرن العباسي الأول عندما ضاع العربُ في الإمبراطورية التي أنشَؤوها، وأعادوا النظر في ذاتِهم وفي تاريخِهم. ظَهَرَ الآن أنّ الفتوحات العَكسِية قد تَمّت، وأنَّ الشعوب المَقهورة، خاصةً الترك، قد استَرجَعوا مواقِعَهم، إلا أنَّ الفَتحَ العربي القديم، أول الفتوحات، لم يَنتَهِ بَعد.

سِهامٌ إلى عَرشِ الله

صارَ السَّلاجِقةُ الأتراك المُتأثّرون بالفُرس الزعماءَ السياسيين لِمَركز

---

(٩٧) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 166.

(٩٨) أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١**، عارضها بأصولها وعلّق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي؛ حررها وقدم لها نوري الجراح (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ أبو ظبي: دار السويدي، ٢٠٠٣)، ص ٣٩٤.

الإمبراطورية العربية القديمة ومعظَم أرجائِها الآسيوية الواسِعة منذ منتصف القَرن الحادي عشر، وبَدأت الثقافَة الإيرانية استعادَةَ بِناءِ ذاتِها فيما وراء حدودِ الحُكم السَّلجوقي أيضاً. أهدَى الفردوسي كتابَه **الشَّاهنامَة (كتابُ المُلوك)**، أولَ عَمَلٍ كبير في النهضة الفارسية، إلى محمود الغَزنَوي في منطقة أفغانستان. وكانت اللغة والثقافة العربيتان على وَشَكِ إحياءِ ذاتِها كذلك في حَركةٍ بدأتْ في الشرق أيضاً، وستَنتَشر في القرون التالية عَبرَ أرجاء الإمبراطورية العربية وما وراءَها، وستَضمَنُ بقاءَ اللغة العربية الفصحى أكثرَ من مجرد لُغةِ عِبادَة، وسيؤدّي ذلك في النهاية، بَعدَ أكثر مِن أربعة قرون مِن رأي ابن خلدون في نهاية العروبة، إلى أنَّ تلك اللغةَ النائمةَ الحَيَّةَ وثقافتَها ستُشعِلُ شَرارةَ إحياء العرب كـ «قوم».

ربما يَشعُرُ عربُ هذه الأيام بالامتِنان للإيراني نِظام المُلك الذي كان وزيراً لاثنَين من كبار السَّلاجِقة هما ألب أرسلان وملك شاه (راعي عمر الخيّام عالِم الرياضيات الكبير الذي اشتُهِرَ في الغرب بشِعرِهِ الفارسي). ولِدَ نِظام المُلك في خُراسان سنة ١٠١٩ أو ١٠٢٠، واهتمَّ بعلوم الحَديث التي نَشأتْ لدِراسَةِ ما رُوِيَ عَن أقوالِ النبي محمد وأفعالِه. لم يَدَّعِ أنه مُختَصٌّ بها، إلا أنه اعتُبِرَ في دائرة النُّخبة مِن رُواةِ الحديث، وقال: «أريد أن أربط نفسي في قطار النقلة لحَديثِ رسول الله، ﷺ»[٩٩]. ظَلَّ محمدٌ يَجمَعُ الكلمةَ بَعدَ أربعة قرون مِن وفاتِه مِن خلالِ قافِلَةِ الرُّواةِ الممتدَّة. جاءتْ أهميةُ نِظام المُلك من تأسيسِه أولى المَدارس لتَعليم اللغة العربية والدِّراسات الإسلامية، وضَمِنَ بذلك أنَّ مَسيرَةَ القافلة ستَستَمر في المستقبل. استَخدَم تَشبيهاً مختلفاً أكثر قبولاً لتُركِيٍّ مُحارِبٍ عندما حاولَ الحصولَ على تمويلٍ لمؤسساته الجديدة مِن سَيِّدِهِ ملك شاه:

«إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال، مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميتُه ميلاً... وأنا أجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من الدعاء سهامُه إلى العرش، لا يحجبها شيء عن الله تعالى»... فبكى السلطان وقال: «يا أبت استكثر من الجيش... والدنيا بين يديك»[١٠٠].

(٩٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ٢٥٥.
(١٠٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٥.

تَرجِعُ المَدارسُ إلى عَهدٍ قَبلَ نِظامِ المُلك(١٠١)، إلا أنه هو الذي وَضَعَ تَعليمَ العربية والدراسات الإسلامية في بِناءٍ مخصَّصٍ لها، ووضَعَ لها مِنهاجاً رسمياً، وخصَّصَ لها دَخلاً جيداً مَوقوفاً عليها. كانت أولى مَدارس نِظام المُلك هي المَدرسَة النظامية في بغداد التي تأسَّستْ في ١٠٦٥ ـ ١٠٦٧، وقدَّمت الإقامَةَ الكامِلَة لطلابِها، وعلَّمَت القرآن والشِّعر الجاهلي كأساسٍ لجميع العلوم(١٠٢). كما دَرَّسَت النظامية الفِقهَ على المَذهب السّنيّ الشّافعي. وفيما بَعد، قدَّمَت المدارسُ عادةً تدريسَ الفِقهِ على المَذاهب السّنيّة الرئيسية الأربعة، ومواضيع أخرى مثل الصّوفية(١٠٣)، وضَمَّ مُجَمعُ المدرسة دائماً مَكاناً للصلاة، وقَبرَ مؤسِّسِها أحياناً. سرعان ما أصبَحَ تمويلُ المدارسِ الوسيلةَ المِثالية للأعمال الخَيرية البارِزة، مثلما يَفعَلُ المُتبرعون لبناء جامعاتِ هذه الأيام، وسبَقَهم في ذلك مَن أنشَؤوا المدارس في القرون الوسطى الإسلامية (اقتَرَحَ بعضُهم أنّ بعضَ جوانب نظام الجامعات الأوروبي كانت تقليداً واعِياً للمَدارس النظامية)(١٠٤). كان بِناءُ مدرسةٍ بالنسبة إلى أصحاب السُّلطَة الدنيوية طريقةً مثاليةً لإنقاذِ أرواحِهم في نوعٍ من غسيلِ الأموال الروحيّ. وهكذا استطاعَ شاعرٌ في القاهرة أنْ يقولَ مُخاطِباً قَبرَ أحَدِ السلاطين الأيوبيين في المَدرسة التي بَناها:

بنيتَ لأرباب العلوم مدارساً   لتنجو بها من هول يوم المهالكِ(١٠٥)

ثَبتَ أنَّ المدارس والجَوامع هي أكثر الهياكل المِعمارية بَقاءً في العالَم العربي الإسلامي. فمَثلاً لم يَتَبقَّ مِن بغداد العباسية عندما كانت في ذروتِها مَركَزَ العالَم القديم ما يُشاهَد فوق الأرض الآن سوى المَدرَسة المُستَنصريّة التي أسَّسها خليفةٌ في أوائل القَرن الثالث عشر حسب التقاليد النظامية. تم ترميمُ أجزاء كثيرةٍ منها، ولكنها مازالت موجودة، وعلى

---

(١٠١) Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, with afterword by Malise Ruthven (London: Faber and Faber, 2002), p. 163.

(١٠٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 410.

(١٠٣) Hourani, Ibid., p. 163.

(١٠٤) Hitti, Ibid., p. 410.

(١٠٥) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (القاهرة: بولاق، [د. ت.])، ج ٢، ص ٣٧٥.

الرغم من أحداث تاريخية جَسيمة مَرَّتْ عليها عَبرَ ٨٠٠ سنة، إلا أن تدريسَها مستمرٌ في موقعٍ جديد باسم الجامعة المُستَنصرية، وربما الأكثر أهمية هو استمرار مِنهاجِ المدرسَة فيها وتدريس الفقه التقليدي وفقَ أسلوبِ المدارس النظامية القديم، وبالنسبة إلى دراسَة عِلم النَّحو وقواعد اللغة العربية الفصحى التي تَرسم الوحدَة الحقيقية الوحيدة للعالَم العربي فإنّ «طالِب الجامعة هذه الأيام يَدرُس مِنهاجَ النَّحو نفسه الذي دَرَسَهُ الطالِب في مدرسةِ أواخِر العصر العباسي»(١٠٦). أسَّسَ إيرانيٌّ هذا التقليد المستمر، ومَوَّلَهُ تُركيّ.

ربما كانت المدارس أعظَم مُنجزاتِ نِظام المُلك التي ستُحافِظ على الوحدَة الثقافية واستمرار الإمبراطورية العربية القديمة التي كانت تَنهار في عَصره(١٠٧)، إلا أنها كانت تتحوَّل إلى أشكال عديدة في مجتمع الإسلام الذي كان يتوسَّع. وَفَّرَت المَدارس مُرتَكزاً ومَلاذاً، ولكنها كانت قوّةَ سَحبٍ وجُمودٍ لأنّ التركيز على الأدبيات القديمة قَبلَ الإسلام عَكَسَ مع الزمن التراثَ العربي البدوي القديم الذي شكَّلَ الشخصيةَ العربية، وبطريقةٍ أخرى غَذَّت المدارس الانقسام والتَّفرقة. كانت المَدارس سُنيّةَ التصميم ومُضادَّةً للشيعة(١٠٨)، وسيَزداد التَّشدد والانقسام في قاعات الدِّراسَة مثلما اشتدَّ في ميادين القتال.

ازدهار عربي فيما بعد الربيع

أَخَذَت الإمبراطوريةُ العربَ في اتّجاه غرب ـ شرق على مَسرح أحداثِ المَغرب والمَشرق، إلا أنّ ابن خلدون اعتَبَر أنّ الحُكمَ العربي هو مَرحلَةٌ واحِدة في تاريخٍ طويلٍ امتدَّتْ مِنَ القَرن السابع إلى عَصرِه في القَرن الرابع عشر. يُمكنُ قِياس زَمَنِها على مِحوَرٍ آخَر في تأرجُحٍ شماليّ جنوبيّ بين العرب والترك.

(١٠٦) Chaim Rabin, "The Beginnings of Classical Arabic," *Studia Islamica*, vol. 4 (1955), p. 19.

(١٠٧) Marshall G.S. Hodgson, *The Venture of Islam*, 3 vols. (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1977), vol. 2: *The Expansion of Islam in the Middle Periods*, p. 48.

(١٠٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 20.

هؤلاء [العرب] في جنوب الأرض وهؤلاء [الترك] في شمالها ومازالوا يتناوبون المُلك في العالم، فتارة يملك العرب ويزحلون الأعاجم إلى آخر الشمال، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب، سنة الله في عباده(١٠٩).

كتَبَ ابن خلدون حينما كانت الإمبراطورية العثمانية في طفولَتِها ولم يَعرِف كيف سَتؤولُ الأمور إلى الترك وتَظَلّ كذلك. ولكن حتى في المراحل الأولى من السيطرة التركية قَبلَ نحو ٥٠٠ سنة، كانت الصورةُ أكثر تعقيداً، ليس فقط بشكلِ تحولاتٍ إمبريالية عملاقة، بل وبتَذَبذُبٍ مَحَلي في السُّلطَة احتَفَظَ العرب خلالَه ببعضِ سُلطَتِهم السابقة.

كانت السلالةُ الحَمدانية إحدى هذه الفترات حين ظَهَرتْ في شمال العراق وسورية خلال معظم القَرن العاشر. تَرجعُ أصولُهم إلى قبيلة تَغلب التي كانت طَرَفاً في حَربِ البَسوس التي استمرت أربعين سنة. هاجَرتْ عشائر مِن تَغلب ضَمَّتْ أجدادَ الحَمدانيين إلى شمال العراق قَبلَ الإسلام. مالت الأسرةُ إلى المَذهبَ الشيعي، ولم يكن ذلك أمراً مهمّاً جِداً، فإنّ المُتَّقي الذي خَلَفَ أخاهُ الخليفة الرّاضي، والذي كان الرئيسَ المُمَثِّلَ للسّنة، قد عَرَضَ التَّخلّي عن السُّلطَة لَهم لكي يَتَخلَّصَ مِن حُماتِه ومُضطَّهِديه التُّرك(١١٠). وعلى العَكس، فقد خاضَ الحَمدانيون معاركَ عنيفة ضد البوَيهيين الشيعة.

اشتهرَ الحَمدانيون بمتابَعةِ الرغبات العربية القديمة في الإغارة والشِّعر. وقيلَ إنَّ أشهرَ زعمائهم، سَيف الدولة، قد دُفِنَ وخَدُّهُ على لَبِنَةٍ صُنِعَتْ مِن غُبارِ المعارك الكثيرة التي خاضَها مع جيشِهِ ضدّ البيزنطيين(١١١). كانت له طريقتُهُ في التعامل مع الكلمات والسيوف، مثل المُحاربين الوَثَنيين القدماء، وهي تُظهِرُ الجانبَ الرَّقيق مِن شخصيتِه لأنه شَبَّهَ قَوسَ قَزح في شِعره:

وقد نَشَرَتْ أيدي الجَنوبِ مَطارِفاً — على الجَوِّ دُكْناً والحَواشي على الأرضِ

(١٠٩) ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١**، ص ٣٨٦.
(١١٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٣٤٠.
(١١١) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ١٩٣.

يُطَرِّزُها قَوسُ السَّحابِ بأصفَرٍ على أحمرٍ في أخضرٍ تحت مُبيَضِ
كأذيالِ خَودٍ أقبَلَتْ في غَلائل مُصَبَّغَةٍ، والبَعضُ أقصَرُ مِن بَعضِ(١١٢)

تُظهِر هذه الصور الدقيقة أنَّ الحَمدانيين كانوا نِتاجَ العصر العباسي المُتَحَضِّر، كما تُشيرُ إلى تُراثِهم القديم في خِيام الشِّعر، فكانوا قُرَّاءً وغُزاة. وكانوا رُعاةً لعُلماء وأدباء عالَميين، فاستَضافوا الفارابي، الذي كان باحِثاً تركياً ألمَعياً من السفوح البعيدة لجبال تيان شان، ودَرَسَ مع فلاسفة مسيحيين في بغداد، وكتَبَ في الفلسفة والموسيقى. أصبَحَ بلاط سَيفُ الدولة في حلب:

موسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر(١١٣).

كان أهمّ من رَعاهم سَيفُ الدولة هو المتنبي، الذي يُعتَبر حتى هذه الأيام أشهر شاعر عربي منذ الإسلام. التَقَى كَرَمُ الأمير بِحُبِّ الشاعر للمال بكميات كبيرةٍ كان يَجِبُ وَزنُها وليس عَدّها. يَروي زائرٌ أنه شاهَدَ المتنبي:

وقد أحضر مالاً من صلات سيف الدولة، فصُبّ بين يديه على حصير قد افترشه ووزن وأعيد في الكيس. وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال وقد تخللت خلل الحصير فأكبّ عليه بمجامعه ينقره ويعالج استنقاذها منه، ويشتغل بذلك عن جلسائه(١١٤).

لم يكن مُستغرَباً أنَّ خصوماً غَيورين قد سَمَّموا البلاط ضِدَّهُ فَهَرَبَ إلى حاكِم آخَر. وكما سنرى، فإن الراعي الجديد كان مِن أصلٍ مختلِفٍ جِداً عن الحَمدانيين العرب، إلا أنه كان نموذجاً للإمبراطورية الثقافية التي أسَّسها العرب.

---

(١١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩١.
(١١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩١.
(١١٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥٤.

تَفريغُ مَركَز السُّلطَة أمرٌ مهمّ، ولكنّ تآكُلَها على الأطراف كان يتَسارَع بشكلٍ يُنذِرُ بالخطر. كان موقفُ العرب في أقصى الشرق مُتأرجِحاً مُعظَم الأحيان، وكما رأينا فإن أحفادَ القَبَليين العرب الذين استقرّوا في خراسان سرعان ما انغَمَسوا في بيئتهم الجديدة وأصبَحوا يتحدَّثون بالفارسية(١١٥). أما في بخارى وما وراء النهر، فقد اضطُرَّ الغزاةُ العرب لتَركِ الحكّام المَحَليين يُسَيِّرون الأمور قَبلَ أن يَتجَذَّرَ الإسلامُ فيها، وجرَّبوا دَفعَ دِرهمَين لكل شخصٍ للذهاب إلى صلاة الجمعة، وسَمَحوا باستِخدام تَرجَمةٍ فارسية للقرآن(١١٦)، إلا أن استِخدامَ اللغة العربية في العبادة والكتابة سيَنشُرُها في كل مكان، أما في المحادَثة فقد ظَلَّ معظم السكان يَستخدِمون اللغات الإيرانية في العالَم الفارسي القديم الذي امتدَّ شَرقاً من العراق.

وجَدَ الاستياءُ الفارسي صوتَهُ الأدبي في الحركة الشّعوبية مبكراً وبشكلٍ واسِعٍ وباللغة العربية، ثم أخَذَ فيما بَعد يُعَبّرُ عن نفسه سياسياً بشكلِ ولاياتٍ مستقلة، كانت الدولة الصَّفارية في سيستان مِن أكثرِها نجاحاً، في منطقة الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان. نَجَحَ يعقوب بن الليث الصَّفّار في تَنصيبِ نفسِه حاكِماً لسيستان في عَهد المُتوكّل الذي قَتَلَهُ مَماليكُهُ الترك سنة ٨٦١. لم تكن بغداد بحالَةٍ تَسمَحُ لها بالاعتِراض عندما أصبَحَ الحُكمُ وراثياً في عائلةِ يعقوب فَترةَ قَرنٍ ونصف بينما كان الصَّفاريون يَتظاهرون بخدمَةِ الخليفة دون أنْ يَدفَعوا له أية ضرائب. إلا أنَّ يعقوب أرسَلَ إلى الخليفة المُعتزّ مَسجِداً متَنقّلاً مَصنوعاً مِن الفضّة يتَّسِعُ لخمسة عشر من المُصلّين(١١٧)؛ ربما كان رَمزاً لاشعورياً، وكأنَّ الإسلامَ قد ذَهَبَ ورَجعَ إلى أصولِه بقيمةٍ مُضافَة. لم يكن هناك مَعنًى خَفِيٌّ في تصرفٍ آخَر قامَ به يعقوب عندما دَخَلَ بجيشِهِ في عُمقِ مناطق الخلافة، وأعلَنَ حُكمَ جميع فارس والعراق(١١٨). لم يتطور الإعلان إلى شيءٍ أكثر مِن غارَةٍ عابِرة، ولكنّ حقيقة

---

(١١٥) قارن: ص ٣٦٥ من هذا الكتاب.

(١١٦) Hugh Kennedy, *The Great Arab Conquests* (London: Orion Publishing, 2008), pp. 261-261.

(١١٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٢.

(١١٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

أنّ تهديد يعقوب جاء في فترة ثورة الزنج في جنوب العراق أظهَرتْ أنّ مدينةَ بغداد العباسية المستديرة لم تَعُد منطقةً مُحصَّنة، بل أصبَحتْ هدَفاً جَلَسَ الخليفةُ العربي في وَسَطِ عَينِهِ.

استولى البوَيهيون على بغداد، وأصبَحَت المدينةَ الثانية بَعدَ عاصِمتِهم شيراز الفارسية، وكانت هذه إشارات أخرى على نهضة الإيرانيين. أدَّت غَلَبَةُ النمط الفارسي على حُكمِ «العالَم» الذي استمر طويلاً بِيَدِ السَّلاجِقة إلى خسارة العرب سيطَرَتِهم على الجَناح الشرقي من الإمبراطورية، ثم إلى خَسارةِ الثقافة العربية. بالطبع، سيستمر علماء الدين وغيرهم من أهل العلم في تمكّنِهم مِنَ اللغة العربية كلغة عبادة، وستَضمَن المدارسُ الجديدة ذلك. ستَتَضَمَّنُ اللغةُ الفارسية الجديدة كلماتٍ عربية في سجّادة لُغويةٍ غنية بالصور والألوان مع الاحتفاظ بالأصلِ الإيراني. ستَنزِلُ سِتارَةٌ أو بُردَةٌ ثقافيةٌ فارسية من بحر قزوين إلى الخليج عبر بوابات الشرق، سيَزدَهرُ وراءَها الفردوسي وسعدي وحافِظ ومستقبلٌ فارسي كامل حتى إيران الصَّفَوية والهند المُغولية وآية الله الخميني.

حافَظَ المغربُ على عروبتِه، بل وتمسَّكَ بها، إلا أنّ ذلك لم يتَطور إلى وحدَةٍ عربية سياسية، وظلَّ هذا هَدَفاً بعيدَ المَنال.

كيمياء العروبة

ساعدَ تَواصُل الإمبراطورية العربية على تفكّكها، وحتى في مصر كان الترك المُتحرّكون المُشاغِبون الذين جاؤوا مِن وَسَطِ آسيا البعيدة أولَ مَن تَحدُّوا سيادةَ بغداد. ففي سنة ٨٦٨ حينما كان الصّفاريون يُثَبّتونَ حُكمَهُم في الشرق، وبينما كان الزنج يَصُبُّون جَامَ غضبِهم على جنوب العراق، أعلَنَ حاكمُ مصر العسكري استقلالَهُ عن الخليفة[١١٩]. كان والِدُ أحمد بن طولون مَملوكاً مِن فَرغانة في خدمَة الخليفة المأمون، وهنا كان اعتماد العرب على الغرباء في ضمانِ أمنِهم سيؤدي إلى أنَّ مماليكهم ومواليهم سيَصِلون إلى السيادة عليهم. والأسوأ من ذلك بَعدَ عَقدَين من الزمان اجتاحَت القواتُ

(١١٩) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 452-453.

الطولونية سورية، واصطَدَمتْ بالخليفة على أرضِ العراق(١٢٠). أحاطَ الإيرانيون الصَّفاريون بالعباسيين من الشرق، والترك الطولونيون من الغرب، والزنج الأفريقيون من الجنوب، والحَرَسُ الأجنبي في المَركَز، ولم يُساعِد العباسيين أنْ يكونوا في وَسَطِ العالَم، مثلما بَيَّنَ الإمبراطور الصيني(١٢١).

لم تستمر السلالة الطولونية طويلاً، واستَرجَعَ الخليفةُ سُلطَتَهُ في مصر وسورية(١٢٢)، ولكن في سنة ٩٣٥ صَدَّرَتْ فَرغانة سلسلةً ثانية قصيرة من الحكّام المستقلين في مصر عندما رَفَضَ حاكِمٌ آخَر دَفعَ الضرائب وتقديم الوَلاء، وسيطَر الإخشيديون على سورية أيضاً مثلما فَعَلَ الطولونيون، وأضافوا إليها أجزاء من غرب شبه الجزيرة العربية وضَمُّوها تحت سيطرتهم. تَبَيَّنَ أنهم كانوا سلالةً صغيرة أيضاً لأنهم استَبدَلوا بالطائرِ كافور الذي كان في عُشِّهِم.

كان أبو المِسك كافور عَبداً مخصياً أسودَ، وكان وراء قوة العَرشِ الإخشيدي في مصر أكثر من عشرين سنة. حَكَمَ لوحدِهِ سَنتَين من ٩٦٦ ـ ٩٦٨. يرجِعُ عِظَمُ تقديرِ حُكمِهِ لمصر أكثر مما يَستَحق في تاريخ مصر الطويل إلى الشِّعر، خاصة مجموعةً من قصائد المتنبي الذي هَرَبَ مِن راعيهِ السابق في حلب. كان اسمُ كافور يُطلَقُ عادةً على الأرقّاء السّود على الرغم من أنَّ مادةَ عِطر الكافور شديدة البياض(١٢٣)، ولم يكن راعياً مُتَوقَّعاً للمتنبي. تمّ شراؤه بثَمَنٍ بَخسٍ مقابل ١٨ ديناراً(١٢٤)، إلا أنه سرعان ما صَعدَ في بَيتِ الإخشيديين، وأظهَرَ قيمتَهُ الحقيقية عندما سَيطَر على مصر. كان مُدرِكاً لمَهارات التَّلوي، ولم يَدَّخِر وسعاً في استِغلال ذلك كما هو مُتوقَّع مِمَّن غَيَّرَ اسمُهُ لونَهُ مِن أسوَد إلى أبيَض. عندما حدَثَ زلزالٌ في مصر أعلَنَ شاعِرٌ ذَكِيّ:

ما زُلزِلَتْ مصر مِن سوءٍ يُرادُ بِها لكنَّها رَقَصتْ مِن عَدلِهِ فَرَحا(١٢٥)

---

(١٢٠) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٠ ـ ٢١٣.

(١٢١) قارن: ص ٣٨٠ من هذا الكتاب.

(١٢٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 455.

(١٢٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٤٤٩.

(١٢٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٣.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

فدَفَعَ له كافور ألفَ دينار. ربما كان لَمَعانُ ذلك الذهب هو الذي دَفَعَ المتنبي للتَّوجُّه إلى أرضِ النيل، وتأليف سلسلةٍ من القصائد في مَدحِ كافور. على الرغم مِن كَون المتنبي أبا الشِّعر، إلا أنه سرعان ما فَقَدَ الأَمَلَ بِراعيهِ الجديد مثلما حَدَثَ لَه مع سيف الدولة، وتحوَّلَ في اللحظة الأخيرة مِن المَدحِ إلى الهِجاء. خَطَّطَ أولاً لِهَربِهِ سِرّاً، وكانت آخِر سُطورِهِ في هِجاء كافور:

وذاكَ أنَّ الفحولَ البيضَ عاجِزةٌ عن الجميلِ، فكيفَ الخِصيَةُ السُّودُ[١٢٦]

ربما كان في تَفتُّتِ الإمبراطورية مَقتَلاً لوحدَة الحُكم العربي، إلا أنه مَنَحَ حياةً جديدة للثقافة العربية، لأنه أدّى إلى كَثرة رُعاة الثقافة، وتَعدُّد الشُّعراء المتَجولّين مِثل المتنبي، وكَثرة العلماء المَشَّائين مِثل الفارابي. ما زلنا نعبر عن كافور وأمثاله من غير العرب بعبارات عربية، ويرجع فضل ذلك إلى قوة ومُرونة تلك الثقافة التي تَظهَر في لُغةِ المتنبي القوية، وفي انتِقالِه من بلاط إلى آخَر، ومِنَ المَديح إلى الهِجاء والسخرية. يمكُن القول أيضاً إنَّ الإسلام هو الذي وحَّدَ تلك الشعوب المختلفة وكلّ هؤلاء الشعراء والأمراء والعلماء والسَّلاطين من أصول متنوعة. وهذا صحيحٌ من الناحية النظرية، أما على أرض الواقع فقد كان الإسلام مُفرّقاً مثلما كان مُوَحِّداً. كانت إحدى أكثر وظائفه أهميةً هي كَونه وِعاء للمحافَظَة على اللغة والثقافة العربيتين ونَشرِهما. هذا هو نَصرُ العرب؛ لقد خَسِروا إمبراطوريتهم، إلا أن ثقافتهم انتَصَرتْ في النهاية.

كانت مصر مثالاً رائعاً على هذا الانتصار، فقد كانت بوتَقَةَ التعريب الذي وَحَّدَ تنوعاً استِثنائياً بين الطولونيين والإخشيديين من مناطق أوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزستان، مع كافور من جنوب الصحراء الكبرى الأفريقية. ولم يكن هؤلاء الحكام الوحيدين الغرباء عن مصر الذين سيَضُمُّهم التاريخ العربي، ستستمر الكيمياء في تأثيرها على قادِمين جُددٍ، مثل الفاطميين (المَشكوك في عروبتهم كما سنَرى)، والأيوبيين الأكراد، والقِبجاق وغيرهم من المماليك الأتراك، والعثمانيين من البلقان. في القَرن التاسع عشر، قال

(١٢٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٤.

ابن الحاكِم الألباني محمد علي باشا: «غَيَّرتْ شمسُ مصر دَمي وجَعلَتْهُ عربياً»[١٢٧]. عندما حَكَمَ العربُ أنفسَهم في مصر مرةً أخرى بَعدَ ثورة ١٩٥٢، سيُصبِحُ الانتماءُ العربي أكثر تعقيداً مما كان، ولن يَمنَعَ ذلك التَّعقيد الرئيسَ عبد الناصر، رَجُل الاستِعراض العظيم، مِنْ جَعلِ مصر قلبَ العروبة، وكان مُحقّاً في ذلك، لأن مصر كانت بوتَقَةَ الانصِهار الألفية، والمِرجَل الذي احتَوى الفراعنة والبَطالمة والهيلينيستيين والرومان والبيزنطيين والأقباط مع عناصر مَصدَرُها حوض البحر الأبيض المتوسط والهلال الخصيب الشمالي وأفريقيا السوداء. كان الطابعُ المُسيطِرُ في مصر على مَدى ألف سنة حتى عَهدِ عبد الناصر عربياً قوياً.

عندما انتَهى حُكمُ كافور، وأطاحَتْ بمصر عاصِفةُ قوّةٍ جديدةٍ جاءتْ هذه المرّة من الغرب، لم يكن غُموضَ الأصلِ العربي للقادمين الجُدد أمراً مهماً.

قَرابَة الدَّم وخطوط المَدِّ والجَزر

لم تَنقص كافور الشجاعة، فبَينَ التهديداتِ الكثيرة التي كانت تُحيطُ بمصر التي دافَعَ عنها بنجاح، كان الفاطميون السلالة الإسماعيلية التي تأسَّسَتْ قَبلَ بِضعة عقود في تونس. دَفَعَ صُمودُه عملاءَهم في مصر لكي يُطلِقوا عليه لَقَب «الحَجَر الأسود»[١٢٨]. كان رفاقُهم المُتطَّرفون القَرامطَة قد أراحوا مؤخَّراً الحَجَر الأسود الحقيقي من مكة، وكان على الفاطميين أنْ ينتَظِروا الموتَ الذي أزاحَ كافور سنة ٩٦٨. كان الخَبرُ إشارةً لقائدِ الفاطميين بالتَّقدُّم نحو مصر. كان قائدُهم العسكري هو جَوهَر الصّقليّ، وهو مولى ربما يَنحَدِرُ أَصلُهُ مِن شرق أوروبا أو مِن صقلية، وكان واحِداً مِن سلسلةٍ طويلةٍ من الغرباء الذين استعانَ بهم الفاطميون في شؤون الأمنِ والحُكم مثلما فَعَلَ العباسيون. أَسَّسَ جَوهَر مدينَتَهم الجديدة القاهرة سنة ٩٦٩، التي حَكَمَها غرباءُ آخرون مِثل الكُرد والترك والألبانيين للأعوام الـ ٨٠٠ الأخيرة

---

(١٢٧) ورد في: Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 80.

(١٢٨) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Kāfūr.

من الألف سنة القادمة، وقد خَلَفَتْ بغدادَ كمدينةٍ عالميةٍ في الإمبراطورية العربية، وكان ذلك دليلاً آخَر على كيمياء الثقافة العربية التي تَمتَصُّ وتُغيِّر.

على الرغم من أنَّ عروبةَ الفاطميين مَشكوكٌ بها، إلا أن اسمَ سلالَتِهم يُشيرُ إلى أنهم كانوا عرباً، بل ومِن قريش ومِن سلالةِ محمد مِن خلال زواجِ ابنتِه فاطمة من ابنِ عمِّه عَليّ. لم يُصَدِّق كثيرٌ من مُعاصِريهم هذه القَرابَة. كان هؤلاء المُنتَقدون يَعرفون جيداً أنَّ العروبة، خاصةً الانتماء إلى قريش، كان علاقةً مفيدةً أخرى مثل الانتِماء المَذهبي، وقد تكون إغراءً للحصول على السُّلطَة. وبالطبع، بَذَلَ المُتَمَسِّكون بالسُّلطَة جُهدَهم لتَخريبِ علاقةِ مُنافِسيهم المَزعومة. وربما كان ذلك ما حَدَثَ مع الفاطميين. انتَشَرتْ روايةٌ أنّ أجدادَهم لم يكونوا مِن الفرس فقط، بل مِنَ الأهواز الذين نَظَرَ العربُ إلى أهلِها بِعَينِ الازدراء. وهناك روايةٌ أخرى تقولُ إنَّ عُبيد الله، مُؤسِّس السلالة الفاطمية، كان في الحقيقة رَبيبَ أبيهِ المَزعوم وليس ابنَهُ، وإنَّ والِده الحقيقي كان يهودياً[١٢٩]. هناك قصةٌ تُلَمِّحُ إلى أنَّ الفاطميين أنفسهم كانوا حَسَّاسين لهذه القضية. سَمِعَ الحَاكِمُ الفاطميّ المُعزّ عند وصولِهِ إلى القاهرة الجديدة بالشكوك التي تُحيطُ بعائلَتِه:

فلما استقر المعزّ بالقصر جمع الناس في مجلس عام... فسلّ... نصف سيفه وقال: «هذا نسبي»، ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: «هذا حسبي». فقالوا جميعاً: «سمعنا وأطعنا»[١٣٠].

قد تكون القصة نَوعاً مِنَ الدِّعاية، ولكنَّ الطريقةَ الوحيدة لِتَطهيرِ اسم الفاطميين، أو ربما للتَّعمِيَةِ عليهِ إلى الأبَد، ستكون الاكتشافَ المُعجِز لِقَبرِ فاطِميٍّ مَفقود (لا يوجَدُ أيّ قَبر بَاقٍ حتى الآن) وفيه مادةٌ وراثية، ثم تُجرَى مُقارَنَةُ الجِيناتِ مع الأحياء ممن يُفتَرَضُ أنهم من أصولٍ عَلَوية فاطِمية لا شك فيها. ولكنْ مَنْ يَجرؤ على فَتحِ مِثلِ تلكَ العُلبَة مِنَ المادة الوراثية؟

ما إنْ رَسَّخوا وجودَهم في القاهرة حتى أصبَحَ السيفُ والذَّهبُ والسيطرةُ والمال أكثر أهمية لهم مِن اسمِهم، وتمكَّنوا من إعلانِ أنفسِهم

(١٢٩) المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج ١، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(١٣٠) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ٤٠.

منافِسين للعباسيين، الذين سَيطَرَ عليهم الترك، بفضلِ القوّة وطاعَةِ الرَّعية ووقوع ثروةِ وتجارتها بين أيديهم[١٣١]. اتَّخذوا كامِلَ مَظاهِرِ الخلافة والعمامَة المُرصَّعَة بالجَواهر، وكانوا قد استَخدَموا لَقَبَ الخليفة منذ عَهدِ عُبيد الله في تونس. كانت هنالك شَخصيةٌ أخرى تدَّعي الحَقَّ بالمَنصِب رَدّاً على استيلاء عُبيد الله عليه، وكانت في أقصَى الجَناح الغربي للإمبراطورية كما سنَرى؛ وهكذا، كان هنالك ثلاثةُ خلفاء في وقتٍ واحِد. ظَهَرَ آنذاك أنَّ الفاطميين كانوا أكثرهم نشاطاً، وسَيطَروا على مصر المُريحَة المضعفة. إلا أن سياسةَ الفاطميين في التقدّم قد توقَّفتْ، وتفَسَّخوا إلى سلالةٍ مِنَ المُتَعَثِّرين اللّاهِين في الكُتُبِ والجَواهر والخُمور وسِباقِ الحَمام والطِّبِّ البَديل الغريب والمُمارَساتِ الجِنسية غير العادية والسَّادِيَّة الصريحة[١٣٢]. تَرَكوا أعمالَ تَسيير الحُكم اليومية إلى وزراءَ مُتتالِين من أصولٍ عِرقيةٍ مختلفة. وعلى الرغم من أنهم كانوا يَنتَمون إلى الشيعة الإسماعيلية إلا أنهم لم يكونوا متشددين، وتَركوا الغالبيةَ السنية تُتابِعُ شؤون حياتها. انتَقلَت المُمارَسات الدِّينية المُتساهِلة إلى المَذاهب الأخرى؛ فَمَثلاً، كان أحَدُ وزرائِهم أرمَنياً، وعَمِلَ أيضاً قائداً عسكرياً عاماً، واتَّخَذَ لنفسِه لَقَبَ «سَيف الإسلام» على الرغم من أنه كان مسيحياً[١٣٣].

على الرغم من التساؤلات حول أصلِهم، إلا أنَّ الفاطميين قَدَّموا كثيراً لمُستقبلِ الحَضارة العربية بتأسيس القاهرة، التي مازالت تُسمَّى هذه الأيام «أمّ الدنيا»، مع أنها عَجوزٌ شَعثاء. كما أسَّسوا فيها الجامع الأزهر التعليمي العظيم، وهو أشبَهُ ما يكون بالفاتيكان في الإسلام السُّنيّ الذي لا يَعتَرِف بنظامٍ كَهنوتي. ولكنَّ أكثرَ ما قدَّموه لمستقبل عالَم العربية أهميةً لم يكن مُخطَّطاً له، إذ كان بين رعيتهم الأقلّ انضِباطاً قبيلةٌ عربية كبيرة مُشاكِسَة نصفُ بدوية هي بَنو هلال. كانت هذه القبيلة تَجولُ في الماضي في منطقة نجد في وسط شبه الجزيرة العربية، ثم هاجَر أفرادُها إلى مصر في القَرن الثامن. يبدو أنهم كانوا مُخرِّبين، وتَواطَؤوا مع القَرامطَة المُنشَقّين المُزعِجين، ونتيجةً لذلك فقد أُرسِلَ بنو هلال إلى صعيد مصر. لم يكن ذلك

---

(١٣١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٧.

(١٣٢) المصدر نفسه، كلمة الخلفاء الفاطميون.

(١٣٣) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Fāṭimids.

كافياً للفاطميين، فطَرَدوهُم في القَرن الحادي عشر إلى مناطقَ أبعَد نحو الغرب[١٣٤]. نَتَجَ عن هذا التَّهجير القَسري، إضافة إلى تَهجير قبيلةٍ أخرى مُزعِجة هي بنو سُلَيم، تَعريبٌ لِشمالِ أفريقيا، تأخَّرَ قليلاً، ولكن كانت له نتائج بعيدة. كان معظم شمال أفريقيا حتى ذلك الحين بربرياً في اللغة والثقافة خارج المدن التي أسَّسَها العرب[١٣٥]، وكما عَلَّقَ ابن خلدون: «أصبحَ العربُ أكثر عَدَداً وقوّة مِنَ البربر، وسَلَبوهم معظمَ أراضيهم»[١٣٦] [غير حرفي].

ربما اعتِبار أنّ عَددَ العرب كان أكثر من البربر فيه مُبالَغَة، فحتى لو بَلَغَ عدد المهاجرين العرب مليون نَسَمَة[١٣٧] (وهذا احتمالٌ بعيدٌ جِداً)، بمَن فيهم الأعداد المُتَناثِرة من الهجرات الإسلامية الأولى كما تَذكُر مَصادر مُعاصِرة، فسَيظَلُّ هنالك عددٌ أكبَر من البربر. ولكن العرب تمكَّنوا من قَهر البربر في تلك المنطقة عسكرياً ولغوياً بتَدَفُّقٍ بطيءٍ لا يمكن وَقفُهُ استَغرَقَ قَرنَين لكي يَصِلَ إلى أقاصِي غرب الجزائر. بَقِيَت اللغاتُ البربرية، إنما ظَلَّتْ مَحصورةً في المناطق الجبلية بعيداً عن العرب والعربية[١٣٨]. كان ذلك مُغايراً للفَيضان السَّريع في فتوحات القَرن السابع، ويُشبِهُ أكثر زَحفَ تَعريبِ (Creeping arabicization) جنوب شبه الجزيرة العربية الذي حَدَثَ في القرون التي سَبَقَت الإسلام. ولكنْ ثَبتَ في جميع تلك المناطق أنّ اللسان العربي قاهِرٌ قويٌّ تامٌّ مِثل السلاح العربي. لو أمكَنَ تطبيقُ مَبدأ البَقاءِ للأصلَح على اللغات، لكانت اللغةُ العربية بين أكثر اللغاتِ صَلاحيَّةً للبَقاء، وقد أضافَتْ لفُتوحاتِها جميعَ المَناطق في شمال قارّة أفريقيا.

أدّت مُغامَرةُ بَني هلال وبَني سُلَيم وغيرهم إلى تغيير الحياةِ القديمة المستقرة في شمال أفريقيا إلى الأبَد، وعَلَّقَ ابن خلدون على ذلك:

---

(١٣٤) Ibid., s.v. Hilāl, and Kennedy, *The Great Arab Conquests*, p. 205.

(١٣٥) Jonathan Owens, "Arabic Dialect History and Historical Linguistic Mythology," *Journal of the American Oriental Society*, vol. 123, no. 4 (October-December 2003), p. 732.

(١٣٦) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, pp. 29-30.

(١٣٧) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 96.

(١٣٨) Ibid., p. 96.

[كان] ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى.

ولكن مع قدوم البدو العرب أصبَحَت المنطقة «عادت بسائطها خراباً كلها»[١٣٩]. حُكمُ ابن خلدون قاسٍ، لأنَّ عوامل أخرى قد أثَّرتْ على المنطقة أيضاً، مثل تغيّر المناخ. ولكن لا شك بأنّ القادمين جَلَبوا معهم لغتهم ولَعنَةَ الإغارة القديمة التي سَتَتفَشَّى في المنطقة قروناً عديدة تالية. فمَثلاً، اشتَكى الحاجّ المَغربي العبدري في أواخِر القَرن الثالث عشر من أنّ «المسافِر منذ أن يُغادر منطقته في المَغرب حتى يصِلَ إلى الإسكندرية يواجِهُ الموتَ دَوماً على يَدِ المُجرمين»[١٤٠] [غير حرفي]. كان المُجرمون من رجال القبائل العربية. كان ركوبُ البحر الأبيض المتوسط لا يَقلُّ خطورَة، ويُقال إنه لمّا خلِق هدد المسافرين المؤمنين بالإغراق فلعنه الله لذلك[١٤١]. واجَهَ المسافرون من أقصَى الغرب إلى وسط الأراضي العربية خيارين كلاهما مرّان (اختيارَ هوبسون Hobson's choice): إما البدو أو البحر الأزرق العميق. سَلَّمَ ابن خلدون أسرتَهُ إلى البحر عندما سافَروا من الغربِ للالتِقاء به في القاهرة، وغَرقَت السفينة، وغَرقَتْ زوجَتُه وبَناتُه الخَمس[١٤٢].

ستتزايد الهجرة نحو الغرب. هاجَرَ بنو مَعقِل، وهم تَجَمُّعٌ بدويّ ضخم، عبر مصر، وتَبِعوا مَسارَ بني هلال وقبائل سُلَيم، إلا أنهم ذَهَبوا أبعَدَ من ذلك وتَسلّلوا منذ القَرن الخامس عشر إلى موريتانيا وأصبَحوا أكثريةً فيها. وهكذا بَلَغَ مَدُّ الهجرة العربية أقصَاه في نهاية العالَم القديم حينما بَدأت الهجرات الأوروبية خَوضَ غِمارِ البحار نحو العالَم الجديد، وتم انتقالٌ جديد لعَصا الإمبريالية. تُكَمِّلُ تلك الدَّفعَة الأخيرة لِحُدود العالَم العربي قَوساً تاريخياً ومَساراً جغرافياً. يُعرَفُ أحفادُ بني مَعقِل في موريتانيا باسم الحَسَّانيين الذين يُعيدون أصولهم إلى التَّجمّع العربي الكبير الذي يُسمَّى

---

(١٣٩) Ibn Khaldun, Ibid., p. 119.

(١٤٠) al-Abdari quoted in: Tim Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah* (London: John Murray, 2001), p. 52.

(١٤١) شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حققه ميخائيل جان دوغويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧)، ص ٢٨.

(١٤٢) ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون**، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١، ص ٢٩٥، هامش ١٣٦٤.

قبيلة مَذحِج[١٤٣] القديمة المُتجوِّلَة المعروفة في الكتابات العربية الجنوبية وفي نَقشِ النّمارة العربي. وبالنسبة إليّ، فإن عربيَّتَهم المَنطوقَة تُكمِلُ دائرةً لغويةً لأنني أَجِدُ صعوبةً في فَهمِ اللهجَة الحَضَرية المَغربية، أما في اللغة الحسّانية الموريتانية المُتَبَّلَة باللهجَة البربرية واللغة الولوفية، فإنني أسمَعُ إيقاعاتِ العربية ونغماتها، وأُدرِكُ أنني أفهَمُ ما يُقال.

انتَهتْ أيامُ الهجرات القَبَلية الكبيرة مع هِجرة قبيلة المَعقِل إلى الغرب البعيد، وبَدأت حركةٌ من نوعٍ مختلف ستُحافِظ كما سنَرى على الأمّة الثقافية في سنواتِ الانطواء العربي، وستُوسّعها في الاتّجاه الجديد المُفاجِئ مع حركةِ التجار والدّعاة. ولكن ظَلّت هناك أرضٌ أخرى في الغرب وجزيرةٌ أخرى ستَزدَهر فيها الثقافة العربية.

الصّقرُ والطّاووس

إذا كان أصلُ الفاطميين العربي القرشي مَحَلَّ شَكٍّ، فلم يكن هناك أيّ شكوكٍ بمُنافِسيهم في أقصَى الغربِ. في أواخر القَرن العاشر، تَسَلَّمَ ثالث الخلفاء، الذي كان يَحكُمُ قرطبة ومعظم أرجاء شبه جزيرة إيبيريا، رسالةً من منافِسه الفاطمي في القاهرة. كانت الرسالة غَيرَ دبلوماسية، ومَشحونَة بالحِقد والاحتقار. لم يتأخَّر الخليفة في قرطبة برَدِّهِ: «أما بعد؛ فإنكَ عرفتَنا فهجوتَنا، ولو عرفناكَ لأجبناك، والسلام»[١٤٤]. اللغةُ العربيةُ لاذِعَة.

يجب الاعتراف بأنه لو وُجِدَ مَن يَحُقُّ له التّكَبر في غَرب العالَم العربي، لكانَ الخليفة الأموي في قرطبة. كان أجدادُهُ قد تمّ مَحوهُم تماماً قبلَ نحو ٢٥٠ سَنة على يَدِ العباسيين، فيما عَدا شخصاً واحداً كان عبد الرحمن حَفيد الخليفة الأموي هِشام الذي كان يُحِبُّ الحرير والمِسك. نَجا عبد الرحمن بحياتِه، ووصَلَ إلى أطرافِ الإمبراطورية في إسبانيا. حازَتْ شجاعَتُهُ ورِحلَتُهُ الطويلة على إعجابِ الجميع حتى أعدائِه، فأطلَقَ عليه المَنصور، ثاني خلفاء العباسيين، لَقَبَ «صَقر قريش». انشَغَلَ أبناءُ الصَّقر وأحفادُه على مَدى قرنَين تقريباً في تَوسيع عُشِّهِم الغربي وتَرسيخِه. وفي سنة ٩٢٠، بَدأت الدولة

---

(١٤٣) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. al-Ma'qil.

(١٤٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ١٨٥.

الفاطمية في تونس بتَهديدِ إسبانيا. ورَدّاً على ذلك التهديد، وبامتِعاضٍ كبير من استِخدام الفاطميين المُتَغَطرِس لِلَقَبِ «الخليفة»، قامَ عبد الرحمن الثالث الأموي في قرطبة باتِّخاذِ اللَّقبِ المُقدَّس لنفسِه(١٤٥). وهذا يَعني أنه كان هنالك ثلاثُ خِلافات في الوقت نفسِه، وكلمة «خِلافات» في اللغة العربية تَعني أيضاً وجودَ صِراعات واختِلافات.

ظلَّتْ بغداد تَعتَبِرُ نفسَها عَينَ الإمبراطورية، وتنظر إلى الأندلس كصُقع منتزح. وكانت هناك فكرةٌ قديمة بأنَّ خَريطةَ العالَم المأهول كانت «على شَكلِ طائرٍ، رأسه المشرق، والجنوب والشمال جَناحاه، وما بينهما بطنُهُ، والمغربُ ذَنَبه». لم يُسمَح للقادِمين إلى المَشرق، خاصةً القادِمين مِنَ الأندلس، بأنْ يَنسوا أنَّهم قادِمون من مُؤخِّرة الطَّير. رَدَّ أحَدُ ضَحايا هذه الإهانَة السَّافلة: «هيهات ما عرفتَ أنت ما كان ذلك الطائر المشبه؟ كان طاووساً، وما فيه أحسن من ذنبه»(١٤٦).

كانت لديه وجهَةُ نَظَرٍ قوية، لأن أحفادَ صَقر قريش تفاخَروا بثقافتِهم العربية مثلما يَتَباهَى الطاووس. أصبَحَت الأندلسُ أكثرَ عروبةً في بعض الجَوانب من شبه الجزيرة العربية، وذلك مثلما احتَفَظَتْ بعضُ مقاطعات كَنَدا في ذَيلِ الإمبراطوريةِ البريطانية بالجَوهَر المُرَكَّز للوطَنِ الأمّ. كانت عروبةُ الأندلس حقيقيةً بالمُقارنة بعروبة شمال أفريقيا، فقد جَذَبَتْ خُصوبَةُ إسبانيا العربَ في القرون الإسلامية الأولى، وسرعان ما جاءتْ مَوجَةٌ من المُستَوطِنين العرب إلى الأندلس(١٤٧) بعدما فَتَحتْها حَملَةُ طارق بن زياد التي كانت في معظَمِها من البربر(١٤٨). فهارس الكتب العربية التي تخص الأندلس غنية بأسماء القبائل والأشخاص من شبه الجزيرة العربية، خاصةً من جنوبها، الذين استَعمَروا إسبانيا، مثل الأزد والأوس والحارث وحِميَر والخَزرج وخَولان، ويكفي تأمّل الأحرف العربية الأولى فقط في مِثل هذه اللائحة(١٤٩). ومثلما جَذَبَتْ كَنَدا مُستَوطِنين أسكتلَنديين، فقد جَذَبَ

(١٤٥) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. 'Abd al-Raḥmān III.

(١٤٦) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٢.

(١٤٧) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, pp. 309-310.

(١٤٨) قارن: ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ من هذا الكتاب.

(١٤٩) أبو العباس أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، حققه إحسان عباس، ٨ مج (بيروت: دار صادر، ١٩٨٨)، مج ٨، ص ٢٣١ ـ ٢٣٥.

العالَم العربي الجديد مُستَوطِنين من جنوب شبه الجزيرة العربية.

جَاءَت الهجرةُ العربية إلى إسبانيا بشكلٍ مُتقطِّع وغَير مُنتَظَم، على العَكس من الهجرات الضخمة لقبائل بَني هلال. يُوضِّحُ تاريخُ أُسرَةِ ابن خلدون نفسه نَمَطَ الحركةِ التي حَدَثَتْ، فقد كان جَدُّهُ الأكبَر وائِل بن حَجَر مِن حَضرَمَوت مِن سلالة قَحطان الجنوبية العَريقة. انتهى الأمرُ بوائِل هذا في الكوفة مع هجرات الإسلام الأولى، المدينة الجديدة بجنوب العراق. هاجَرَ حَفيدٌ مِنَ الجِيل السابع إلى إسبانيا، حيث انضَمَّ أحفادُهُ إلى جماعاتٍ من أصولٍ حَضرَمية في قرمونة، ثم إلى إشبيلية المُجاورة. خاضوا غِمار مَتاهَةِ السياسة، ونَجوا مِنْ تقلباتٍ وتغيّراتٍ في الأنظِمة كموظَّفين في الخِدمة العامّة. بَعدَ استيلاء المسيحيين على إشبيلية سنة ١٢٤٨، انتَقَلَ أجدادُ ابن خلدون إلى شمال أفريقيا[١٥٠]. يُظهِرُ كل ذلك ظُروفَ تَحرّك العرب على مَدى ستة قرون وثلاث قارات.

جَاءَ المُستَعرِبون كذلك وقد شَدَّهم ازدِهار الأندلس. كان مِنهم مَن نَقَلَ إلى الغرب بُذورَ الثقافة العباسية الفارسية ـ العربية الحَضَرية الجديدة، مثل زِرياب (ماء الذَّهب)، الذي كان عازِفَ عودٍ فارسيّاً شهيراً في القَرن التاسع، وكان مُجَدِّداً موسيقياً مثل موتسارت، أو برنس الذي هاجَرَ مِن بلاط بغداد إلى بلاط قرطبة (كان مَلِكُ قرطبة عبد الرحمن الثاني مُحِبّاً للموسيقى أيضاً، وأرسَلَ قائدةَ فرقَتِهِ الموسيقية «قَلَم»، وهي جاريةٌ من نبرة، لدِراسة الموسيقى في المدينة المنورة)[١٥١]. تَوافَدَتْ شخصياتٌ عالَمية إلى إسبانيا بسبب زيادة شهرة الخلافة الجديدة في القَرن العاشر. كان مِن هذه الشَّخصيات القالِي، عالِمُ اللغة المَشهور الذي ولِد في أرمينيا، وتَعلَّمَ في بغداد، وتَشبَّعَ بمَعرفةٍ مَوسوعية في العربية الفصحى كما تَتحدَّثها القبائل في مَوطِن العرب الأصلي[١٥٢]. كانت مَعارِفُهُ مَطلوبَةً لأنّ اهتمام عرب إسبانيا بأرضِ أجدادِهم ولغَتِهم كان عظيماً، وأدّى إلى مَآثِرَ رائِعة في النَّشر وشِراءِ الكُتُبِ مِن أماكِن بعيدة كان من بينها طَلَبُ الخليفة في قرطبة أعمالاً في تاريخ العرب القديم

(١٥٠) ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١**، ص ٥٠ ـ ٥٨.

(١٥١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 822.

(١٥٢) [أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ولِد في ديار بكر]. انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ١٢٢ وج ٣، ص ٥٢٢.

وعِلم الأنساب مِن الأصفَهاني في بغداد، وانتَقلَت الكُتُبُ والدَّفعاتُ المالية جِيئةً وذهاباً عَبرَ مسافة ٤٥٠٠ كيلومتر بين العاصِمتَين[١٥٣]. كانت أذواقُ المَعرفةِ عالميةً أيضاً، مثلما كان لَدى المأمون في بغداد، وقامَ الحَكَم، الخليفةُ الثاني في إسبانيا، بطَلَبِ كُتُبٍ من بيزنطة، مثل نسخةٍ فَخمةٍ من كتاب الطب الشهير *De materia medica*[١٥٤] لديوسكوريدس Dioscorides. وكان لديه عُملاء في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية كانت مهمّتهم التَكليف بنَسخ جميعِ الكُتُبِ المهمّة القديمة والجديدة. كان قَصرُهُ مَليئاً بالكُتُبِ والكتابَ وكأنه مَصنعٌ ليس فيه سوى نسَّاخِين ومجلّدين ورسامي صور[١٥٥]. [غير حرفي]

قِيلَ إنّ مكتبة الحَكَم ضَمَّتْ نحو ٤٠٠,٠٠٠ كِتاب[١٥٦]، وهذا رقمٌ مدهِش لو كان حقيقياً، فالمكتبة البريطانية مَثَلاً لَم تَصِل إلى مِثلِ هذا الرَّقم حتى النِّصف الثاني من القَرن التاسع عشر. ولم يكن اقتِناءُ الكُتُبِ مُقتَصِراً على الخليفة؛ كان في قرطبة نحو ١١٣,٠٠٠ بَيت، وقِيل إنه كان فيها مَخازن بَيعِ كُتُبٍ كثيرة، ولا أقلَّ من سبعين مكتبة خاصة[١٥٧].

استمرَّ هذا النشاطُ الثقافي حتى بَعدَ سقوطِ خلافة قرطبة واستِبدالِها منذ سنة ١٠٣٠ بدُويلاتٍ مسلِمة متعدِّدة حَكَمَها مُلوكُ الطوائف. ومثلَما حَدَثَ قَبلَ ذلك في المَشرق، فإن التَّنافُس بين الحكّام ربما رَفَعَ مستوى رعاية الأدَباء والعلماء[١٥٨]. ولكن على النَّقيضِ من المَشرق الذي لم يُشَجِّع على التفكير الحُرّ بَعدَ رَبيعِهِ القَصيرِ في عَهدِ المأمون وخلفائه المُباشِرين، فإن الانفتاحَ المَعرفيَ ازدَهَر في إسبانيا وتألَّقَ التفكير العَقلاني والفَردية في التفكير والأدَب، مثلما ظَهَر في أعمالِ ابن حَزم في القَرن الحادي عشر، الذي آمَنَ بأن «كلّ إنسانٍ لديه القدرة على التَّوصل إلى أحكامِه وآرائِه بحسب مواهِبه

---

(١٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٦.

(١٥٤) Thomas Mathews, *Byzantium: From Antiquity to the Renaissance* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 1998), p. 91.

(١٥٥) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ٣٠٢.

(١٥٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, p. 198.

(١٥٧) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 71.

(١٥٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٢، ص ١٥٨.

الخاصة»[159] [غير حرفي]؛ بل إنَّ العَوام غَير المتعلمين لم يكونوا مَجبورين على اتِّباع الآراءِ التي تَقبَلُها السُّلطَة. وفي القَرن التالي، قامَ المفكِّر الثوري ابن رُشد بدِراسَةِ ثُنائيَّةِ الحقيقة (الحقيقة الإيمانية والحقيقة العَقلانية)، وقَبِلَ تَعايُشهما الودِّي وقُبولَهما معاً، وسيَلقَى أتْباعاً لَهُ في أوروبا المسيحية حيث سيَستمرُّ صَدى أفكارِهِ عَبرَ القرون في عصر النهضة الأوروبية[160].

سيستمر تاريخُ العرب في إسبانيا نحو ٨٠٠ سنة، منذ أنْ حَطَّ طارق بن زياد قَدَمَهُ في جَبَل طارق حتى سقوطِ آخِر مَعاقِلِهم في غرناطة. سَرَتْ روحُ حَنينٍ عميقة للوطن القديم في شبه القارة العربية خلال تلك الفَترة؛ رُوِيَ أنَّ صَقر قريش نفسه قد خاطَبَ رفيقاً مُغتَرِباً في حَديقَتِه الإسبانية:

يا نخلَ أنتِ غريبة مثلي　　في الأرض نائية عن الأهلِ
تبكي وهل تبكي مكممة　　عجماء لم تُجبل على جبلي
لو أنها عقلتْ إذن لبكت　　ماء الفرات ومنبت النخلِ
لكنها ذهلتْ وأذهلني　　بُغضي بني العباس عن أهلي[161]

سيُعبِّرُ حَنينُ الأندلس عن نفسِه بقصائد كثيرة تذكِّر بماضي العرب، ورسائل أدبية إلى محمد في قَبرِهِ بالمدينة عَبرَ الزمان والمكان[162]. سيُنشِئ حَجُّ مُسلِمي إسبانيا الفِعليّ إلى مكة أدَبَ رحلاتٍ غنيّ، إلا أنّ قلَّةً منهم تمكَّنوا بالفِعل من القيام بهذه الرحلة، وعانَى عربُ شبه جزيرة إيبيريا من حَنينٍ مُزمِنٍ إلى شبه الجزيرة الأخرى بسبب قُدسيَّتها وتقاليدها. ربما كان ذَيلُ عالَمهم رائعاً، ولكن لم يكن هناك وراءهُ سوى أرض الفِرنجَة مِن جِهة، وبَحر الظلمات من الجِهة الأخرى. نظَروا بشوقٍ ومَحبَّةٍ نحو التُّراثيّ المَألوف بسببِ ما أحاطَ بهم من خطَرٍ ومَجهول.

جَعَلَ الحنينُ وعَقليَّةُ المَوقِع الأمامي البعيد مِنَ الأندلس مَعقلَ الشُّعورِ

---

(١٥٩) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٣٠٩.

(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ و٣٤٤.

(١٦١) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 418.

(١٦٢) انظر على سبيل المثال: ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١**، ص ٢٨٦.

بالعروبة، وعلى الرغم من التنوع العِرقيّ والدِّينيّ على الأرض، كانت عمليةُ التَّعريب تَجري بقوةٍ أكبر مما كانت عليه في مصر. لقد سك الملك أوفا الإنكليزي عملة ذهبية تحمل نقوشاً عربية(١٦٣)، أما مسلمو إسبانيا فكانت الظاهرة معكوسة لديهم لأن أولى مسكوكاتهم حملت نقوشاً لاتينية تترجم البسملة والشهادة العربيتين(١٦٤). انقلَبَت الأحوالُ في منتصف القَرن التاسع، فقد تَعرَّبَ المسيحيون تماماً، أو كما قالَ أحدُهم: «سَكِروا بالبلاغَةِ العربية»(١٦٥) [غير حرفي] وبالدِّراسَة إلى جانب المسلمين في جامِع قرطبة الجديد الرائع(١٦٦)، وسرعان ما فَقَدوا القُدرَة على قراءةِ كُتُبِهم اللاتينية، ونُشِرَ كتابٌ مُقدَّسٌ باللغة العربية للسكّان المسيحيين «المُزَرب Mozarab»(١٦٧)، وهي كلمةٌ إسبانيةٌ مأخوذةٌ عن العربية «مُستَعرب»، وهي الكلمةُ ذاتها التي وَصَفَت الشعوبَ المُستعرَبة القديمة في شبه الجزيرة العربية(١٦٨). استمرَّت العربية في الغَزو والدَّمج.

ثَبتَ أنَّ غَزوَ اللغةِ العربية لإسبانيا كان دائماً، فقد أُخرِجَ الإسلام إلا أن لغَتَهُ المقدَّسة مازالتْ تَسكُنُ الأرضَ ولُغَتها. استَعارَت اللغةُ الإسبانية دون شك نحو ٤٠٠٠ كلمة من العربية(١٦٩)، كما أنَّ اسمَ إلهِ قبيلة قريش مازال باقِياً في المشهد الإسباني الأكثر نموذجية. اسمُ مُصارِع الثيران بالإسبانية هو «الماتادور Matador» من الإسبانية matar بمَعنى «يَقتُل»، وربما مأخوذَة بدَورِها من العربية «ماتَ». يَرقُصُ الماتادور مع ضَحيّته وتَصرُخُ الجَماهيرُ «أولِيه Ole»، أسمَعُ في هذا الصراخ صَدى كلمة أخرى تَحمِلُ المَقاطِعَ الصَّوتية ذاتها، وتَحمِلُ الرَّهبَة ذاتها التي تَظهَرُ في صراخِ جَماهير كُرَةِ القَدَم العربية إذا أثارَها لاعِبٌ ماهِرٌ فتُنادي إعجاباً وطَرَباً: «الله»، والله العالِمُ بكلِّ شيءٍ، في دلالة الكلمات، وفي كلِّ الأمور.

---

(١٦٣) انظر: ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ من هذا الكتاب.

(١٦٤) Kennedy, *The Great Arab Conquests*, pp. 316-317.

(١٦٥) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 515-516.

(١٦٦) Ibid., pp. 530-531.

(١٦٧) Bernard Lewis, *The Arabs in History*, 6th ed. (Oxford: Oxford University Press, 1993), p. 134.

(١٦٨) قارن: ص ٧٤ من هذا الكتاب.

(١٦٩) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 228.

ظَلَّت الهويةُ العربية قويةً في إسبانيا ومصر، إلا أنها كانت نَمَطاً جديداً من الهوية، مَدَنية ولُغَوية ومُرَكَّبَة. كان النَّمَطُ السّائدُ في الإمبراطورية هو نمَطُ العرب القدماء من البدو المُغيرين الرّعاة. نَهضَت الإمبراطوريةُ وانقَسَمتْ وتَفتَّت الآن، وظَلَّتْ رائحةُ العروبة القديمة عالِقَةً في جميع الأجزاء، غير أنَّ مادَّتَها أصبَحتْ مُركَّبَة وأكثر تَعقيداً. ملايينُ الناس في العالَم الذين يَتحدَّثون العربية لم يُسمُّوا أنفسَهم «عَرَباً»، إذ عادَ هذا الاصطِلاح إلى مَعناهُ الأصلي الذي دَلَّ على أقليةٍ هامِشيةٍ قَبَليةٍ يَعيشُ معظمها حياةً ذات طبيعة بَدَوية، وأصبَحَتْ «أعراباً» مرةً ثانية.

عادَت العلاقة بين هؤلاء الأعراب الهامشيين والمَركَز الحَضَري إلى ما كانت عليه تقريباً أيام الإمبراطوريات السابقة الآشورية والبابلية والرومانية والفارسية. أصبَحَ الأعرابُ مرةً أخرى جماعةً متنوعة يميِّزُها اختِلافُها عن الحياة الحَضَرية المستقرة. لو وَجدتَ نفسكَ مُنعَزِلاً في عاصِمتِكَ مثلما حَدَثَ للخليفة العباسي القائِم بينما يتَعامَلُ مماليك الترك مع خصومكَ الفاطميين، فإلى مَن ستَلجأ في البادية؟ إلى أميرِ الأعراب المَحَلي المُهارِش بن المُجَلّي بن اللَّيث بن قَبّان(١٧٠)، الذي يُشيرُ اسمُهُ إلى أنه غريبٌ عن الحضارة الإسلامية العالمية ذات الطابع الفارسي التي انحدَرَ منها الخليفة. هناك فجوةٌ وفَراغٌ الآن بين الغالبية العظمى من عَرَبِ «اللغة» والأقلية الهامِشية من أعراب «البدو»(١٧١). وبينما استمرَّ عربُ اللغة في تطوير إمبراطوريةٍ ثقافية، فقد حُرِموا من السُّلطَة السياسية في كل أرجائِها تقريباً. كانوا مَركَزيين ثقافياً، ومُهَمَّشين سياسياً. وبكلمةٍ أخرى، أصبَحَت الأمّة/الدولة العربية أمّة/ثقافة، فالثقافة هي ما يتمَسَّكُ به الناس عندما يخسَرون كل شيء آخَر(١٧٢).

---

(١٧٠) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ١٠٥.

(١٧١) G.E. von Grunebaum, "The Nature of Arab Unity Before Islam," *Arabica*, vol. 10, no. 1 (1963), p. 8.

(١٧٢) ورد في: الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٣٨.
The original goes, "La culture, c'est. ce qui demeure dans l'homme lorsqu'il a tout oublié".

دخَلَ العربُ أيضاً نوعاً آخَر من الزمن، نوعاً من الحاضر الدائم المجهول به الذي يَختلفُ كثيراً عن الحاضِر البعيد الغابر للحياة القَبَلية قَبلَ الإسلام، عنيفاً وقصيراً ولكنه يختلفُ كثيراً عن الوجودِ النَّشيطِ في فَجرِ الإسلام الذي كان غَنياً باحتمالات المستقبل. كان مِن المستحيل الاستمرار بالطّاقة والسرعة في التوسُّع الذي حَدَثَ في القَرن السابع، فتباطَأ العربُ إلى سرعةٍ ساكِنَة، وسَقَطوا كما قالَ المَسعودي. لم يكن سُقوطاً إلى الزَّوال[١٧٣]، بل انحِداراً إلى الأرض وإلى العاديّ. وكما قالَ سَلمان رُشدي: «الأممُ والشخصياتُ الروائية المختَرَعَة... تَفقد طاقَتها ببَساطة»[١٧٤]. وبشكلٍ ما، فإنّ الأمّةَ ذاتها شُعورٌ روائي مُختَرَع.

إلا أن الروايةَ قد تحتوي أكثرَ مِن فَصلٍ بالطبع، وإذا أحرَقَتْ عَجَلَةُ النارِ نفسَها في فترةِ الاستِراحة هذه، فقد استَمرَّت الإمبراطوريةُ الثقافية بالنمو مِنَ الرَّماد نحو الخارج.

قَصرُ قابوس العالي

يمكنُ مَتابَعة سَيرِ النمو بمُتابَعة انتِشار الكتابة العربية عَبرَ القارات في الزَّخارف العربيةِ الطَّابع، إذ إنَّها لم تَنتَشر فقط على الأوراق، بل كذلك على الفخاريات والأقمِشة والجِصّ والخشب والآجر والحَجَر والمَعادن والنقود والأحجَار الكَريمة والأسلحة والدُّروع والتَّمائم وأغلِفَة الكُتُب والأبنِية. واحتَفَظَتْ بإيقاعِها وتَناظُرِها القديم أيضاً. نُقِشَت القَصائد وطُرِّزَتْ على كلِّ شيء، مِنَ المَحابِر إلى السُّروج والمَلابس[١٧٥]، وجَعَلَت الثقافةَ العربية مَرئيةً وواضِحة. رَبَطَت الكتابةُ غَيرَ العربِ بشبه الجزيرة العربية القديمة من خلال سلسلةٍ من الكلمات، مثلما تَعلَّقَ نِظامُ المُلك بقَوافِلِ ناقِلي السِّيرة والحَديث. استطاعَ الكتّابُ كتابةَ أنفسِهم في سلاسِلِ نَسَبٍ من التلامذة وأساتِذة الكِتابة، وجُمِعَتْ كتاباتُهم بكُتّاب محمد في مكة وأصحابه، ورَبَطَتْهم إلى نقوشِ الحِيرة قَبلَ الإسلام. يمكن تَتَبُّع هذه السلاسل في النَّسَب، ليس نَسَب قَرابة

---

(١٧٣) قارن: ص ٤٣٣ من هذا الكتاب.

(١٧٤) Salman Rushdie, *Midnight's Children* (New York: Penguin, 1991), p. 391.

(١٧٥) انظر على سبيل المثال: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ١١٩ و٤٨٢ ـ ٤٨٣.

الدّم، بل نَسَبُ قَرابة الحِبر، مِنَ الوقت الحاضِر حتى ١٥٠٠ سَنة مضَتْ[١٧٦].

مارَسَ فَنَّ كتابةِ العربيةِ كُتّابٌ يَصعُبُ تَوقُّعهم القيام بذلك، كان أَحَدُهُم قابوس بن وُشمَكير الحاكِم الإيراني لولاية جرجان في جنوب شرق بحر قزوين في أواخر القَرن العاشر. كان بارِعاً في فنون الطُّغيان والشِّعر والفلَك والخَطّ العربي. كان ماهِراً في تَدويرِ الشِّعر العربي مثلما كان ماهِراً في لَيّ الأعناق، إلا أنه تَفوّقَ في فَنِّ الخَطِّ العربي. شاهَدَ الصَّاحِبُ بن عَبّاد نموذَجاً مِن خَطِّه، وكان مؤهَّلاً للحُكم على الخطوط بحُكم ما كان لديه مِن مَكتبةٍ ضخمة مَشهورة يَحتاجُ حَملُها إلى ٤٠٠ بَعير[١٧٧]، وتَساءلَ: «هذا خَطُّ قابوس، أمْ جَناحُ طاووس؟»[١٧٨]. لا يوجَدُ نموذجٌ لكِتاباتِه على الوَرق الآن، ولكنّ هناك نموذجاً رائعاً مِنهُ على قَوالِب الطُّوب في بُرجِ قُنبَد قابوس، وهو قَبرٌ بُنِيَ بشكلِ بُرج مرتفع يُقال إنّ جَسدَهُ كان «يَطفو» في الهواء داخِلَ نَعشٍ زجاجيٍّ مُعلَّقٍ إلى السَّقف. ضاعَ الجَسَدُ المُعلّق، ولكنّ البُرجَ مازال قائماً. كَتَبَ روبرت بايرون Robert Byron، ناقِدُ الأبنِيةِ الصّارِمِ الذَّكي، عَن البُرج: «لَهُ زَخمٌ غير عاديّ... لا يُشبِهُ أيّ شيء آخَر في العَمارة... ويُصَنَّفُ ضمن الأبنِيةِ العَظيمة في العالَم»[١٧٩].

يرتَفعُ البرجُ خمسينَ مِتراً مثلَ صاروخ على وشكِ انطلاقٍ خالدٍ مِن سُهوبِ قزوين بعيداً جِداً عن شبه الجزيرة العربية وعن العالَم العربي المَدني الأحدَث في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة، إلا أنه ينضَمُّ إلى ذلك العالَم برابِطَةِ الخَطِّ الكوفيّ فوقَ الباب، وكِتابةٍ أخرى تَرتفعُ كثيراً تَحتَ الإفريز. ومن المؤكَّد أنّ الكتابتَين من تَصميم قابوس نفسه. تَذكُرُ الكتابَةُ السُّفلَى أنَّ البُرجَ هو «القَصر العالي» لقابوس، وأنه بُنِيَ سنة ٣٩٧ هجرية، أو في السَّنة الشَّمسية الإيرانية ٣٧٥، وهي تُوافِقُ السّنة الميلادية ١٠٠٦.

كان قابوس مِثالاً رائِعاً للتَّحول الثقافي إلى عالَم اللغة العربية، مثل

---

(١٧٦) انظر على سبيل المثال: الخط الخاص بالمؤلف للقرن العشرين: محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ٢١١ ـ ٢١٦.

(١٧٧) انظر: ص ٣٩٩ من هذا الكتاب.

(١٧٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،** ج ٢، ص ٢٧٥.

(١٧٩) Robert Byron, *The Road to Oxiana* (London: Picador, 1981), pp. 198-199.

الفيلسوف الفارابي وكثير غيرهما، إلا أن التَّحول كان في اتِّجاهٍ مختلف، فقد جاءَ الفارابي من الأطراف، واندَمَجَ في المَركَز الثقافي، بينما كان قابوس وأمثالُه يَنقلون الثقافة إلى الأطراف. وتُعتَبر أشرِطَةُ الخَطِّ التي زَيَّنَتْ قبرَه جُزءاً من محيطٍ ثقافيٍّ شاسِعٍ متَّسِع.

سيستمر تَوسُّعُ المحيطِ ونموه أبعَدَ من نقطةِ مَصدَرِه في الثقافة الشَّفهية الشِّعرية السَّاحرة في شبه الجزيرة العربية. يمكن اعتِبار أنَّ الخليفة الرَّاضي المُجَرَّد مِن سُلطَته، الذي بَدأ بِه هذا الفَصل، هو الرابِطَة المباشرة الأخيرة مع نقطَة الانطلاق تلك. يعتبره المؤرخون العرب «آخِر خليفةٍ حقيقي»[(١٨٠)]، بمَعنى أنه كان آخِر الخلفاء الذين يَؤمّون الناسَ في صَلوات الجَماعة في عاصِمة الإمبراطورية. وانتَهى بَعد مَوتِه دَورُ الخَطيب ـ الزعيم وخليفة الخطباء والكَهَنة والوعّاظ والعَرَّافين في عَصرِ ما قَبلَ الإسلام، وكذلك خلفاء النبي محمد، وسَكَتوا جميعاً لفَترةٍ طويلة. كانت تلك عَلامَة صغيرة، ولكنها بَليغَةٌ، أشارَتْ إلى سُقوطِ العربِ أنفسهم.

سيتردَّد صَدى البلاغَة القديمة، إنما سيَصدُرُ الآن مِن أبراج بليغةٍ من الطُّوبِ والحَجَر، ومِن قَصر قابوس العالي، ومن مَنارَة جَامٍ في جبال أفغانستان، ومن قطب منار في دلهي، التي ستَظَلُّ علاماتِ إشارَةٍ وتَنقيطٍ تَدُلُّ على مَسار العربية عَبرَ القارّة.

(١٨٠) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 469-470.

الفصل الحادي عشر

العَبقريّ في الزجاجة
الجَحافِل تَقتَرب

خيالُ الظِّل

كانت القاهرة دائماً عاصِمةَ الشاشةِ في عالَم العربية، وقد جَعَلَتْها المسرحياتُ والأفلام المصَوَّرَة باللغة الفصحى في سِياقِ بداية العَصر الإسلامي وكأنها هوليوود إسلامية. وطالَما كانت المُسلسلات التلفزيونية المصرية المُغَذِّي الدّرامي الرئيسي في المنطقة. من المُدهِش أنّ تاريخ الشاشاتِ المصرية يَرجِعُ إلى أوائِلِ الحُكم المَملوكي في القَرنَين الثالث عشر والرابع عشر. تمَّ في ذلك العصر تشكيل ألف ليلة وليلة وغيرها من القَصص وتقديمها لمستمعيها بِأشكال نَعرفُها هذه الأيام. انتَشَرتْ في تلك الفترة أيضاً تَسليةٌ شعبيةٌ في الشارع تُسمّى «خيالَ الظِّل»، التي تَعتَمد على دُمَى ثُنائية الأبعَاد، مثل التي تُعرَفُ هذه الأيامِ في جنوب شرق آسيا (التي ربما كانت مَنشَأها الأصلي)، يتمّ تَحريكُ اللُّعَبِ وراءَ شاشةٍ مُضاءَة تَنعَكِسُ عليها ظِلالُها. تُوجَدُ نصوصٌ لمَسرحياتِ خَيالِ الظِّل باللغة الفصحى، ولكنها تَعُجُّ بالفكاهة الوَضيعة والسخرية الحادَّة واللمَسات البَذيئة[1]. يجب علينا أن ننظر إلى خَليفةِ تلك الأيام على مِثلِ تلك الشاشات.

إذا اعتُبرَ الخليفةُ العباسي الرَّاضي في القَرن العاشر «آخِر خليفة حقيقي»[2]، ظِلّ الله على الأرض، فإن خليفتَه المُستَكفي سليمان في القَرن الرابع عشر كان ظِلَّ الظِّل. كان عباسياً أصلياً، إلا أنَّ قُدومَ المَغول إلى

(١) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), s.v. Khayāl al-Ẓill.

(٢) قارن: ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ من هذا الكتاب.

بغداد سنة ١٢٥٨ أدّى إلى هجرة عائلتِهِ إلى مصر كما سنَرى. أصبَحَ العباسيون الآن مُجَرَّدَ خَيالِ دُمَى يُشَغِّلُها أتراكٌ آخَرون من سلالة المماليك العَسكرية. والأسوأ من ذلك هو أنَّ المُستَكفي سليمان قد ازدادَ ضَعفاً أمام السلطان المملوكي في القاهرة، ونُفِيَ ثانيةً إلى مدينة قوص قُربَ الأقصر. لم تكن لديه أية أوهام حولَ مَوقِعه الحقيقي، واشتَكى في بعض أقوالِه:

مثلي يعيش بالموت، ويبلغ المنى بالفوت. إلى كم لهم العيشة الرطبة، ولي مجرد الخطبة؟ فلهم الملك الصريح، ولسليمان الريح[٣].

كان الرَّاضي وغيره من الخلفاء المتأخرين في بغداد عاجِزين، إلا أنهم كانوا في وَطَنِهم. أما سليمان فقد كان مَنفياً، وكان وعائلته بحاجَةٍ إلى المال حتى اضطروا أن يَبيعوا ملابِسَهم[٤].

كان الإسلامُ يتصاعَد وينتَشر بشكلٍ واسِعٍ عابِراً حُدوداً جديدة، خاصة في المناخ الاستوائي الذي امتدَّ مِن صَحاري غَرب أفريقيا إلى جُزُر البَهار في الهند الشرقية. كانت العربيةُ لغةَ كِتابِهِ المُقدَّس، وكانت مكة «سُرَّةُ العالَم» العربية بالنسبة إلى الحجّاج المسلمين. وفي الوقت نفسه، كان الإسلام قد قَطَعَ حَبلَ السُّرةِ التي رَبَطَتْه بوالِدِه العربي، وأصبحَ دِيناً عالَمياً[*]. تَبنّى الثقافةَ العربيةَ والد جديدٌ مُهَجَّنٌ في القاهرة «أمّ الدنيا» الخصبة. كانت الخِلافَتان المنافِسَتان قد زالَتا منذ زمنٍ طويل، ولكن ظَلَّ سليمان العباسي يُعتَبَرُ الرأس الفَخري لأول عائلةٍ في الدِّين والعروبة في سلالةٍ امتدَّتْ على مَدى ستة قرون مِنْ عَمِّ محمد في مكة. ومع ذلك فقد أصبحَ مُهمَّشاً ومُهمَلاً لدَرجَةِ نَفيِهِ مع أسرتِه بلا مالٍ إلى «سيبيريا» النيل. كيف حَدَثَ ذلك؟

---

(٣) عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر** (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.])، ج ٤، ص ١٣٢. الترجمة فضفاضة إلى حد ما ولكن تحمل في طياتها إلى حد كبير من الأصل: Tim Mackintosh-Smith, *The Hall of a Thousand Columns: Hindustan to Malabar with Ibn Battutah* (London: John Murray, 2005), p. 53.

(٤) أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق سالم الكرنكوي الألماني (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣)، ج ٢، ص ١٤٢.

(*) [في الحقيقة أعلنَ الإسلام عالَميتَه بِنَصِّ القرآن منذ انطلاقِ الدَّعوة في مكة بتَكرار نِداء: **يا أيها الناس**، وبمُخاطَبة الرسول: **إنا أرسلناكَ للعالَمين نبياً ورَسولاً**] (المترجم).

تهديداتٌ متعدِّدة

على مَدى قرنَين قَبلَ أنْ يُصبِحَ العباسيون لاجِئين، كانت بقايا الإمبراطورية العربية الممزَّقة مازالتْ تَحترِمُ انتِماءَها الاسمِيّ لأجدادِها المؤسِّسين العرب، سواء كان ذلك حقيقياً أو مَزعوماً، وكانت تتعَرَّضُ لضغوط كبيرة متزايدة من قوى جديدة. كانت هنالك تهديدات مِنَ العالَم المسيحي في نهايتَي عالَم العربية: الصليبيون في شرق المتوسط، والمُستَرِدُّون في إسبانيا. كما كان العربُ في إسبانيا تحت ضَغطٍ مُزدَوج: المسيحيون اللاتينيون من الشمال، والمسلمون البربر من الجنوب. كما سيَعتَدي الصليبيون على مصر التي أصبَحتْ مَركَزاً جديداً لعالَم العربية منذ إعادَة الثقافة الفارسية في المشرق وظُهورِ الفاطميين. سَينجَحُ صَدُّ الحَملات الصليبية، على العَكس من نجاح حروبِ الاستِرداد في إسبانيا، ولكن الاضطرابات التي سبَّبَها الصليبيون ستَجلبُ شَعباً آخَر غير عربي إلى المقدِّمة في سلالةِ صلاح الدين الأيوبية الكُردية. كان الكُردُ أقليَّةً حاكِمَةً صغيرة، ولم يظَهَروا خارجَ مَكانِهم الطبيعي لأنَّ شرق المتوسط، ومصر بشكلٍ خاص، كان قد اعتادَ على الخضوع لحكَّام مسلِمين من جميع الألوان. ولكن بَعدَ قَرن واحِد من الحُكم، سيتم استِبدالُهم بفَرع آخَر من المماليك الأتراك الذين عاصَروا خليفةَ الظِّل سليمان المُستَكفي بالله. منذ سنة ١٢٥٠، وعلى مَدى قرنَين ونصف، ستُسيطِرُ هذه الفِئة العسكرية الحاكِمة على المنطقة. سيَستمر تأثيرُهم فترةً طويلةً بَعدَ أنْ أصبَحَ أبناءُ عمومَتِهم البَعيدون مِنَ الأتراك العثمانيين القوةَ الإمبراطوريةِ العُظمى (في الواقع، سيحتاجُ الأمرُ إلى نابليون ومحمد عَلي باشا لاستِئصال وجودِ المَماليك نهائياً). ولكن حتى مع المماليك، فإن لائِحةَ القوى الجديدة لم تُستَكمَل، فقد اجتاحَ المَغولُ الشرقَ مع بداية العَصر المملوكي.

عندما هَربَ جَدُّ خليفة الظِّل سليمان المُستَكفي باللهِ مِنْ بغداد والمَغول، كانت القِيمةُ السياسية للعربِ قد أصبَحتْ قريبةً من الصِّفر. عَلِقَ سليمان في مَنفاهُ المَملوكي على بعد ٦٠٠ كيلومتر من القاهرة بعيداً عن الحضارة، وكان بذلك للمُفارَقة شَخصيةً اعتباريةً مناسبة للعرب بشكلٍ عام. كان تاريخُهم عظيماً عندما كان مُرتَحِلاً، كان تاريخاً يَمشي على حَوافِر. أحاطَتْ بهم الآن

شعوبٌ أخرى مُتحركة، وكانت جميعُها تَتداعَى إلى مناطقِ التقاءِ أفريقيا مع أوروبا، وأفريقيا مع آسيا، وآسيا مع شبه القارة العربية. المناطقُ التي كانت مهمّة دائماً على مَدى آلاف السنين. كانت عَبقريتُهم قد حُبِسَتْ في زجاجَةٍ مَقفولة، وبَدا كأنَّ أيامَ العرب المُنطَلِقَة النَّشيطَة قد شَارَفَتْ على نهايتها، وأنهم سيُصبِحون الآن المُتفرِّجين السَّلبيين على هامِش التاريخ، وربما ضَحاياه.

الأعداءُ والأصدقاءُ الفِرنجَة

عند النظر إلى هؤلاء الآخرين الذين يَتحرَّكون، فإنّ أكثرهم غَرابة كانوا الغُزاة الأوروبيين الذين سَيُسَمُّون أنفسهم الصليبيين، ويُعرَفون بالعربية باسم الفِرنجَة. بالمُقارَنة مع مَوجات البدو، ومعظَمُها تركية، من المُتَّجِهين غَرباً نحو الهلال الخصيب الشمالي مِنَ السهوب الواسعة داخل آسيا، فقد كان الفِرنجَةُ يأتون مِن قارَّةٍ مُزدَحِمَةٍ لا مخرج منها، ومُجَزَّأة بِخلجان وسَلاسل جِبال إلى دويلاتٍ تَربطُ سكّانها بالأرض: الجغرافيا والضّرورة. وعند النظر إلى نهاية القَرن الحادي عشر، عندما بَدأت جَحافِلُهم تَتجمَّع وتَتحرّك شَرقاً باسمِ الدِّين، مِنَ المُغري رؤية الحركَة بمَثابة رَدِّ فِعلٍ مُتأخِّرٍ على التَّوسُع العربي، وأنَّ الصليبيين هُم رَدُّ فِعلٍ انعِكاسي للهِلاليين. كان السببُ الذي طَرَحَهُ الأوروبيون أنفسُهم هو تحرير الأرض المسيحية المُقدَّسَة من حُكمِ المسلمين، ويبدو أنه يؤكِّد تلك النظرية وكأنّ العرب كانوا يُحَفِّزونَ، عن بعد، رَدَّ فِعلٍ مُساوياً في الاتِّجاهِ المُعاكِس، على الرغم من أنهم لم يَعودوا القوةَ الدَّافِعةَ الرئيسية للتاريخ.

سيكونُ الصليبيون بعيدين جِداً عن أن يكونوا مِثلَ العرب في تَوسُّعِهم، فالدويلاتُ الصغيرة المُتفرِّقة التي أنشَؤوها في شَرق المتوسط لم تَستمر طويلاً، ولم تكن مماثلَةً للإمبراطورية العربية، بل ربما كانت إرهاصَاتٍ للإمبريالية الأوروبية القادِمة. وعلى كل حال، هناك شَبَهٌ بين تاريخ العرب في القَرنين السابع والثامن والتاريخ الأوروبي في القَرنين الثاني عشر والثالث عشر، عندما صَاغَتْ أوروبا عَجَلاتِها النارية. استَخدَم الصليبيون «المُعارَضة» لتَوحيد أنفسِهم ولإنهاءِ حروبِ البارونات[٥]، مثلما فَعَلَ «الهِلاليون» في إنهاء

(٥) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 44

الحروب القَبَلية في شبه الجزيرة العربية قَبلَ الإسلام. قالَ البابا أوربان الثاني Urban II، أبو الحروب الصليبية في سنة ١٠٩٥: إنه مِنَ الأفضَل لو أنَّ «القتالَ الذي دَارَ حتى الآن بين المسيحيين أُعيدَ تَوجيهُهُ نحو الوثَنيين»[٦]. كانت القُدس بالنسبة إلى أوربان «سُرَّة العالَم» مثلما كانت مكة، وسيَحصُدُ الصليبيون ثروات ذلك العالَم مثلما حَصَدَها الهِلاليون من قَبل، «وستُصبحُ أملاكُ العَدوّ لَكم أيضاً، لأنكم سَتَغنَمون كُنوزَهم»[٧]. ومرةً أخرى كان الدِّين يُستَخدَمُ في سبيل تحقيق وحدَةٍ كبيرةٍ ولو كانت مُؤقَّتَة، وكذلك لتَقديم وَرَقَةِ تِينٍ تُغَطّي الطُّموحَ العاري مِن أجلِ نَهبِ الأرضِ والسَّلبِ والقوة. غير أنَّ نَهبَ الثروات كان أكثر عُنفاً مما حَدَثَ في أيام الهِلاليين[٨]. أقَرَّ المؤرخون المسيحيون أنفسهم بأن احتلال المَعَرَّة في شمال سورية سنة ١٠٩٨ تَخَلَّلَتْهُ مَجزَرةٌ وأكلٌ لِلحوم البَشَر. كما حَدَثَتْ مَجزرَةٌ للمسلمين واليهود أثناء احتلال القُدس في السَّنة التالية، في تَبايُنٍ صَادِمٍ مع الاحتلال السّلمِيّ الذي قامتْ به القواتُ العربية قَبلَ ٤٦٠ سنة[٩].

أعاقَت الفُرقَة والتَّمزق مُقاوَمَة المسلمين، وعندما أرسَلَ أهلُ دمشق وَفداً إلى بغداد بعد سُقوطِ القُدس، كان السلطان السَّلجوقي مَشغولاً بحَربٍ ضِدَّ أخيه في إيران. «اختلف السلاطين... فتمكن الفرنج من البلاد»[١٠]. أصدَرَ الخليفةُ تصريحات مُتعاطِفَة، ولكنها ضَعيفة. إلا أن الصِّراعَ لم يكن ببساطَة صِراعاً بين مسيحيين ومسلمين؛ فبَعدَ عَقدٍ تقريباً في سنة ١١١١ وَصَلَ رَجاءٌ آخَر إلى بغداد، إنما هذه المرة من الإمبراطور البيزنطي المسيحي أليكسيوس Alexius، يَذكُرُ فيه أن الفِرنجَة قد احتَلّوا بلادَه أيضاً، وأنه يَطلُبُ مُساعَدَةً من المسلمين لطَردِهم[١١]. تَحرَّكَ السلطان السَّلجوقي هذه المرة، إلا أن حَملَتَهُ خَرَجَتْ عن مَسارِها لأنَّ أخاً آخَر لَه في حلب رَفَضَ الانضِمام

(٦) Fulcher of Chartres quoted in: Efraim Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, 2nd ed. (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007), p. 73.

(٧) Fulcher of Chartres quoted in: Ibid., pp. 73-74.

(٨) Amin Maalouf, *The Crusades Through Arab Eyes* (London: Saqi Books, 1984), pp. 39-40.

(٩) Ibid., pp. 50-51.

(١٠) Ibn al-Athir quoted in: Karsh, Ibid., p. 77.

(١١) Maalouf, Ibid., p. 83.

إليها[١٢]. بَعد قَرن آخَر، غَيَّرَ الدوق إنريكو داندولو Doge Enrico Dandolo بشكلٍ سيئ مَسارَ الحَملة الصليبية الرابعة نحو رفاقِه المسيحيين في القسطنطينية، ومَلأ خزائن البندقية بالذَّهبِ البيزنطي. سَقَطَتْ وَرَقَةُ التِّينِ وفَضَحَت الشَّهوةَ العارِية.

إضافة إلى حَصدِ الرؤوسِ والأراضي والذَّهب، استطاعَ الصليبيون أن يَزرَعوا بُذورَ أسواقٍ جديدة، لأن وجودَ الأوروبيين والمستعمرات واختراقَ تُجارٍ أجانب لتجارة شرق المتوسط أدّى إلى تصاعد السَّير في البحر الأبيض المتوسط. وبينما كان المُقاتِلون يَتَحارَبون ويُقتَلون، كان التُّجارُ يَبيعون ويَشترون. وبغضِّ النَّظر عن تلك المَجازر الأولى، لم يُعطِّل الصِّراعُ الحياةَ المَدَنية بالضرورة[١٣]. كَتَبَ ابن جُبَير في أواخر القرن الثاني عشر في سرد رحلته من إسبانيا إلى الحجّ في مكة (كفَّارةً لإكراهِهِ على شُربِ الخَمر[١٤] مِنْ قِبَلِ سُلطانِه): «أهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب». عَلَّقَ ابن جُبَير كذلك على علاقَةِ الصَّداقة العامّة بين المسيحيين والمسلمين على الأرض، بما فيها تَبادُل الإحسان وإعطاء الصَّدَقات[١٥]. كان مُعاصِرُه عليّ بن أبي بكر الهروي سعيداً باختِبار مَعلوماتِ فرسان الصليبيين لكي يَجمَع دَليلَه للمزارات الإسلامية[١٦].

كان أسامَة بن مُنقِذ أكثرَ مَن وَصَفَ الفِرنجَة صَراحَةً، وكان عَدواً وصَديقاً للغزاة. كان من عائلةٍ ذات نُفوذٍ في سورية، وأُعجِبَ بشَجاعَةِ الصليبيين العَسكرية، إنما ليس بخِصالِهم الأخرى، «فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل»[١٧]. غَيرَ أنه أقَرَّ بأنَّ

---

(١٢) Karsh, Ibid., p. 77.

(١٣) محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير** (بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١)، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(١٤) أبو العباس أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، حققه إحسان عباس، ٨ مج (بيروت: دار صادر، ١٩٨٨)، مج ٢، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(١٥) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

(١٦) أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي، **كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات**، عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل ـ طومين (دمشق: المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ١٩٥٣)، ص ٣١.

(١٧) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، حرره فيليب حتّي (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠)، ص ١٣٢.

قلَّةٌ من الفِرنجَة الأكبَر سِنّاً الذين اختَلَطوا مع المسلمين قد اكتَسبوا بعضَ تَهذيبِهم[١٨]. أصبَحَ أسامة مُقرَّباً لواحِدٍ أو اثنَين مِن هؤلاء الفرسان على الرغم من أنَّ الصَّداقة كانت حَذِرَة. قال عن أحَدِ رِفاقِهِ الفِرنجَة:

يدعوني «أخي» وبيننا المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي: «يا أخي، أنا سائر إلى بلادي، وأريد تنفّذ معي ابنك ـ وكان ابني معي وهو ابن أربع عشرة سنة ـ إلى بلادي، يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثلي رجل عاقل». فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل، فإن ابني لو أُسِر ما بلغ به الأسرُ أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج. فقلت: «وحياتك، هذا الذي كان في نفسي، لكن منعني من ذلك أن جدته تحبّه وما تركتْه يخرج معي حتى استحلفتني أني أردّه إليها». قال: «وأمّك تعيش؟». قلت: «نعم». قال: «لا تخالفها»[١٩].

ظَلَّ مُعظَمُ الفِرنجَة بَعيدين عَنِ العرب، ولو كانوا قَريبين مِنهم جَسَدياً، إلا أنهم بَعيدون عنهم ثقافياً. جَلَبَ أسامَةُ بعضَهم إلى جَماعَةِ العربية فأصبَحَ بنديكت Benedict «ابن الدَّقيق»، وبوهِموند Bohemond «أبا المَيمون»[٢٠]. عَرَّبوا أنفسَهم أحياناً، فمَثلاً أصبَحَ قائِدُ الفِرنجَة في الشَّقيف على الساحل السوري طَليقَ اللسان باللغة العربية، ودَرَسَ تواريخ العرب، وحتى أحاديثَ محمد[٢١]. بَقِيَ قليلٌ من الفِرنجَة، وأصبَحوا مُستَعربين بشكلٍ دائم، وأسَّسوا سلالات تَحتفِظُ أسماؤها بذِكرى أجنَبيَّتِها، مِثلَ العائلات اللبنانية: ديكيز (deGuise)، شَنبور[٢٢]، فَرَنجيّة، صَليبي، بَردَويل (Baldwin)[٢٣]، إلا أن معظَمهم غادَروا مع نهاية القَرن الثالث عشر.

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٣٤ و١٤٠.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٣٢؛ الترجمة وردت في: Tim Mackintosh-Smith, "Interpreter of Treasures: Encounters," *Saudi Aramco World* (March-April 2013), p. 38.

(٢٠) ابن منقذ، المصدر نفسه، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٣، ص ٥٠٦.

(٢٢) Maalouf, *The Crusades Through Arab Eyes*, p. 276.

(٢٣) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 670.

غَزَت اللغةُ العربية وثقافَتُها وضَمَّتْ واعتَنَقَتْ بقوةٍ شَعباً بَعدَ آخَر، إلا أنَّ القادِمين من البلاد المسيحية اللاتينية، إن لم يكونوا مُضاهِينَ لَها، فقد كانوا لها بمثابة قطب متشابه متنافر. عادَ الفِرنجَة إلى قاعاتِهم البارِدة في الشمال آخِذين مَعهم كما سنَرى تذكاراتِهم اللغوية والثقافية لتلك العلاقَة الفاشِلة. ربما كان رَفضُ التَّعانق بالإضافة إلى ذكريات العَداء، هو ما صَبَغَ العلاقات منذ ذلك الحين.

المُستَرِدُّون RECONQUISTA

في هذه الأثناء، وفي الطَّرَف الآخَر من البحر الأبيض المتوسط، كان المسيحيون اللاتينيون يَضغَطون على إسبانيا المسلِمة المُمزَّقة. كان خلفاء بني أمية من سلالة صَقر قريش في قرطبة قد أُزيحوا عن الحُكم بدَفعاتٍ متتالية من المُرتزقَة البربر. انتَهى آخر حُكم لأمويٍّ سنة ١٠٣١ بفوضَى من ثورات شعبية، وعُصبة متنوعة من رجال أقوياء يُعرفون باسم ملوك الطوائف تقاسَموا كَعكَة الخلافة في الأندلس. كان بعضُهم من أصولٍ عربية، مثل سلالة العَبّاديين الصغيرة في إشبيلية الذين انحَدروا من ملوك اللّخميين في الحِيرة قَبلَ الإسلام[٢٤]، بينما كان آخرون من أصولٍ بربرية، أو من مرتزِقة الصَّقالِبَة الذين كانوا في إسبانيا المماليك من أصول أوروبية. ومن المتوقَّع أنّ تَجمُّعَ المُلوك سرعان ما تحوَّل إلى صراعٍ بين مُلوك الطوائف، بينما كان المُستَرِدُّون يَتقدَّمون في شبه جزيرة إيبيريا. بعد سقوطِ طُليطِلة سنة ١٠٨٥، ظَهَرَ أنّ قرطبة ذاتها ستسقط بَعدَها. حَدَثَ اجتماعٌ إسعافيٌّ لعلماء المسلمين في إسبانيا، وأصدَروا بَياناً عمّا كان واضِحاً: «لقد احتَلَّ الفِرنجَة مُدُنَ الإسلام بينما ينَشغِلُ مُلوكُنا في قِتال بعضِهم»[٢٥] [غير حرفي]. كانت صَرخةَ القلبِ ذاتها التي ستُسمَعُ لاحِقاً في الهلال الخصيب. أما في إسبانيا، فلم يَعد هناك خليفة، ولا حتى خليفة عاجِز يمكِن اللّجوء إليه، لذا اتَّجهَ طَلَبُ النَّجدةِ إلى القوة الإسلامية المُوحَّدَة الوحيدة في تلك المنطقة التي كانت تَجمُّعاً لقبائل صَنهاجَة البربرية في شمال أفريقيا. أطلَقوا على أنفسِهم اسمَ

(٢٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ١٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦.

المُرابِطين، وكما هو حال جماعة فرسان المَعبد الصليبية، ويحمل الاسمُ أصدَاءً مُقدَّسَةً وحَربيةً.

كان المرابطون أهوَنَ الشَّرَّين بالنسبة إلى الإسلام في إسبانيا. كان كلامهم ومَظهَرُهم غريبَين على الأُذن والعَين العربية، مثل الفِرنجَة، بسبب لغتهم الخاصة، ولبس رجالِهم اللِّثام (الملثمون). ولكنْ، كما قالَ الحاكِمُ العربي في قرطبة المُعتَمد بن عَبَّاد، «تاللهِ إني لأؤثِرُ رَعيَ الجِمال لسُلطانِ مراكش على أنْ أغدو تابِعاً لمَلِكِ النصارى، وأن أؤدّي له الجِزية، إنَّ رَعيَ الجِمال خَيرٌ من رَعي الخَنازير»[٢٦]. كان الخِيار الثاني حقيقياً، فحسبَ روايةِ زائرٍ ألماني، استعمَل المسيحيون الإسبان فيما بَعد التهديدَ بِرَعي الخنازير الإجباري لِضَبطِ رَعاياهم المسلمين[٢٧]. وكان مَصيرٌ آخَر يَنتظِرُ أبناءَ المُعتَمِد عندما استَولى المُرابِطون على عروش مُلوكِ الطوائف، وأصبحَ حَفيدُه، الذي حَمَلَ لَقَبَ فَخر الدَّولة، لاجِئاً في المغرب يُشَغِّلُ كِيرَ صَائِغٍ لكي يُعيلَ الأسرة[٢٨]، وذَوَى في غَياهِب النسيانِ مع ذلك الشابّ فَرعٌ آخَرٌ مِن الشجرة التي امتدَّتْ ٨٠٠ سنة على بُعد ٤٠٠٠ كيلومتر من الحاكِم اللّخمي امرئ القيس، أول «مَلِكٍ لكلِّ العرب»[٢٩].

كانت إسبانيا آخِر مَملكةٍ رئيسية في الإمبراطورية العربية ظَلَّتْ تحت سيطرة حُكَّام عرب بلا مُنازِع. سَيكتُبُ ابن خلدون أنَّ استيلاء المُرابِطين «قَلَّصَ الحُكمَ العربي إلى نهايتِه، وتَلاشَت القبائلُ العربية»[٣٠] [غير حرفي]. يبدو أن ذلك كان صورةً مماثِلة لسُقوطِ العرب في المَشرق[٣١]، إنما في واقع الأمر سيَنتهي التَّلاشي إلى خاتِمةٍ صغيرةٍ بَليغَةٍ، وفي ذَيلِ العالَم، سيُنشِدُ أحفادُ صَقر قريش أغنيةَ البَجعة المحتضرة.

---

(٢٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٦٩.

(٢٧) Ludolph von Suchem, *Description of the Holy Land and the Way Thither*, translated by Aubrey Stewart (London: Palestine Pilgrims' Text Society, 1895), p. 8.

(٢٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠ ـ ٢١.

(٢٩) انظر: ص ١٢٧ ـ ١٢٩ من هذا الكتاب.

(٣٠) أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١**، عارضها بأصولها وعلّق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي؛ حررها وقدم لها نوري الجراح (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ أبو ظبي: دار السويدي، ٢٠٠٣)، ص ٥٦.

(٣١) قارن: ص ٤٣٣ من هذا الكتاب.

كان المسيحيون اللاتينيون والمسلمون البربر يَضغَطون على العرب فيما بينهم لإخراجِهم من إسبانيا، وفي الثلث الأخير من القَرن الحادي عشر ازدادَ الضغطُ على العرب أيضاً في صقلية، التي كانت مَحطةً نائيةً للإمبراطورية العربية وابنَةً للأندلس(٣٢). كان تاريخُ صقلية الحديث صورةً مصغَّرة بالفِعل لتاريخِ إسبانيا، حيث كانت سلالةٌ حاكِمةٌ عربية من بَني كَلب تَتلاشَى ويَحلُّ مَحلّها نُموٌّ مُعقد من أمراء الحرب. جاء الضغط عليهم هذه المَرة من النورمان ـ العِرق الاستِثنائي النشيط ـ الذين ربما يُشبهون النَّظير الأوروبي البحري للعرب، (وكانوا يَحتلّون بريطانيا في الوقت نفسه). تَسارعَت الهجرة المَعكوسة نتيجةً لذلك، وأخَذَت اللاجئين مِن إسبانيا وصقلية عَبرَ البحر إلى المَراكز الحَضَرية في شمال أفريقيا حيث تركَّزَ رفاقهم العرب. سيَحمِلُ المهاجرون معهم حِملاً ثقيلاً من الحنين، خاصة إلى الأندلس، فردوسهم المَفقود.

فيها خلعت عذاري ما بها عوضٌ فهي الرياضُ، وكل الأرض صحراءُ(٣٣)

ولكن، إذا كان العرب أنفسهم في تَراجع آنذاك، فإنّ ثقافَتَهم ولُغتَهم استمرّتا في التَّقدم عبر المناطِق الغربية من إمبراطوريتهم القديمة.

التَّحولات ونَبشُ القبور

لم يَحتلَّ المرابطون البربر المناطقَ العربية فقط، بل احتلّوا التاريخَ العربي أيضاً بتَعريبِ أنفسِهم من ناحية النَّسَب. ربما اضمَحلَّتْ قوة العرب السياسية إلا أنهم احتَفَظوا بهَيبةٍ وتأثيرٍ قوي كمؤسِّسين لدِينٍ عظيم وثقافة باهِرة، واعتَقَدَ البربر أنهم بالاستفادة من هذه القوة سيَرفعون مِنْ شَأنِهم وشَرعِيتهم. حَبَكَ البربر شبكَةً من الأساطير التي رَبطوا بها أنفسَهم بأصلٍ من جنوب شبه الجزيرة العربية بجَمعِ نهاياتٍ مَفتوحةٍ لقصص حَملاتِ الحِميَريين قَبلَ الإسلام مع فتوحاتِ الإسكَندر الأكبر، وحتى استِعمار الفينيقيين القدماء لشمال أفريقيا. وهكذا أُطلِقَ على زعيمِ المُرابِطين الذي احتلَّ إسبانيا،

(٣٢) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٢٩٧.
(٣٣) المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، مج ١، ص ٢١٠.

يوسف بن تاشفين، اسم «الحِميَري» في التواريخ التقليدية[٣٤]. لكنّ مؤرخين أكثرَ رَصانَةً، مثل ابن خلدون، سَيُفَنّدون هذه الادعاءات[٣٥]. إلا أن أسطورة الرابِطة بين العرب والبربر مازالت حَيَّةً في حاضِرنا الأقلّ رَصانة[٣٦].

في القَرن التالي، تَبِعَ المرابطين إلى إسبانيا تَجَمُّعٌ بربري كبير آخر هم المُوحِّدون، وحَلُّوا مَحَلَّهَم. وكما يوحي اسمُهم العربي، فقد استَخدَموا الدِّين هم أيضاً لتَكوين جَبهَة سياسية قوية، وكانت رسالتُهم الرئيسية في القرآن مثلما كانت في فَجر الإسلام هي توحيد الله، مما مَنَحَهُم قالَباً شُمولياً في الحياة الدنيا. جَمَعَ مُؤسِّسُ الموحدين محمد بن تومَرت وحدَةً فوق ـ قَبَلية بين البَربَر بِفَرضِ عَقيدةِ التَّوحيد دينياً وسياسياً، وحاوَلَ تكرار التاريخ العربي من أيام النبي محمد بن عبد الله[٣٧] (سيُستَخدَم القالَب والاسمُ نفسُه مرةً أخرى بعد نحو ٦٠٠ سنة بلِسان المُصلِح العربي محمد بن عبد الوهاب، ومازال أتباعُهُ «المُوحِّدون» نَشيطين حتى الآن، ويُعرَفون عادة باسمِ الوهابِّيين).

أصبَحتْ حركةُ الموحدين خلال جِيلٍ واحِد سلالةً حاكِمة بخليفةٍ مُعارِض جديد. ولأول مرة في تاريخِها، الذي امتدَّ حينها ٥٠٠ سنة، يأخُذُ لَقَبَ «الخليفة» شخصٌ غير عربي وغير قرشي. وسرعان ما حَوَّلَ البربرُ أنفسَهم من أصولِهم الخَشِنة في قبائل شمال أفريقيا إلى مُقيمين حَضَريين طَبيعيين في ثقافةِ الأندلس العربية المَدَنية. وبشكلٍ خاصّ، كان يوسف بن عبد المؤمن، الخليفة المُوحِّديّ الثاني، والذي حَكَمَ في الفترة ١١٦٣ ـ ١١٨٤، عالِماً في الحَديث النبويّ والفلسفة، واختلَطَ ببعضِ كِبار العقول وأكثرها تَحرّراً في عَصرِهِ[٣٨]. وهكذا كان الموحِّدون تكراراً لبدايات

---

(٣٤) H.T. Norris, *Saharan Myth and Saga*, Oxford Library of African Literature (Oxford: Oxford University Press, 1972), p. 35.

(٣٥) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), pp. 14-15.

(٣٦) انظر على سبيل المثال، في: محمد حسين الفرح، **عروبة البربر** (صنعاء: وزارة الثقافة، ٢٠٠٤).

(٣٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3. p. 1064.

(٣٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩.

الإسلام ولنحو ٣٠٠ سنة من تاريخ العرب، مِنْ قَبَليةِ شبه الجزيرة العربية إلى بلاط المأمون الثقافي العالَمي في بغداد، إلا أنه كان تكراراً مَضغوطاً ومُتسارعاً. كانت سرعةُ التَّحول وغَرابته عَجيبةً حتى في نَظَر البربر أنفسهم. ذات يوم، ذَهَبَ الشاعر البربري أبو العباس الجَراوي مع الطبيب البربري سعيد الغُماري إلى مجلس يوسف، سَمِعَ الخليفة أنهما على بابِ قَصرِه، فنادَى:

من عجائبِ الدنيا شاعرٌ من جراوة (قبيلة بربرية) وطبيبٌ من غُمارة (قبيلة بربرية). فبَلَغَ ذلك الجَراوي فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، وأعجَبُ منهما والله خليفةٌ من كومية (قبيلة بربرية)[٣٩].

ربما أصبحَ العربُ مُتفرِّجين سَلبِيّين على هامِش التاريخ، غير أنَّ ماضِيهم العظيم سيتمُّ انتحاله مرّاتٍ ومرّاتٍ في أطلالِ إمبراطوريتِهم.

أثناء حُكم يوسف المُوَحِّديّ سنة ١١٦٩، إنما في الجِهة البعيدة من البحر الأبيض المتوسط، دَخَلَ سَمِيُّهُ الكرديّ القويّ يوسف بن أيوب إلى القاهرة، المَركَز الآخَر العظيم للثقافة العربية المَدنية. أصبَحَ عَمُّهُ شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي، وبَعدَ وَفاتِه المفاجِئة، تَبِعَهُ في ذلك المَنصب يوسفُ نفسُه، الذي اشتُهرَ باسم صلاح الدين. ولَعِبَ الكُردُ الوَرقَةَ الطائفية مثلما فَعلَ غيرهم؛ فقد كانوا من المسلمين السّنة، ووافَقَ ذلك مَذهب غالبية السكان، وسرعان ما أَطاحوا بالفاطميين الإسماعيليين. ألغَى صلاحُ الدين الخلافة الفاطمية في سنة ١١٧١ وأعادَ السِّيادةَ الاسمية للخليفة العباسي في بغداد.

كانت عروبةُ الفاطميين المَشكوك فيها دائماً مِثلَ هَيكلٍ عَظمِيّ في خِزانة السلالة، أما صلاح الدين فلم يُقدِّم أية ادّعاءات عن أصولِه. كانت هناك محاولاتٌ لتَعريبِ نَسَبِ الأيوبيين مثلما فَعلَ المُرابِطون، ولكنّ صلاح الدين نفسه صَرَفَ النَّظر عنها[٤٠]. تمتَّع القائدُ العظيم بمَعرفةٍ جيدة باللغة العربية،

---

(٣٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٨٠. الاقتباس القرآني من: «سورة يس،» الآية ٧٨.

(٤٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

وكان يستطيع إنشادَ الشِّعر[41]، كما كَتَبَ أخوه الأصغَر قصائدَ عربية بارِعة[42]. ولكن عروبة الدّم لم تَعُد مهمَّة بالنسبة إلى هؤلاء الحُكّام الكُرد في العصر الجديد ما بَعدَ العرب، مثلما أصبحَ الأمرُ كذلك بالنسبة إلى معظم سكّان الإمبراطورية العربية السابقة. كان المهم هو عروبةُ العَقل الذي تَغمِسُ فيه دفقاتٌ لغويةٌ مستمرة من كأسِ القرآن المُقدَّسة، ومن الأدب الإسلامي المُتوسِّع باستمرار، وكذلك مِن أوعيةٍ أقدَم من شِعر ما قَبلَ الإسلام. ربما ادَّعى مَن وَصَلَ قَبلَهم ممن هم أكثر خُشونة حُصولَهم على نَقلِ دَمٍّ خياليٍّ عربيٍّ نَبيلٍ، ولكن لم يَعُد أصلُ النَّسَب مهمّاً مثلما كان مِن قَبل. يتَّضِحُ هذا في كتابِ **وَفياتِ الأعيان** لابن خَلِّكان، وهو سِجِلٌّ موسوعيٌّ كبير لسِيرةِ الشخصيات المَعروفة في عالَم العربية جَمَعَهُ في القرن الثالث عشر (وهو نفسه من أصلٍ إيراني). ذُكر كثير من هؤلاء الأعيان في هذا الفَصل. يُقدِّمُ الكتابُ أحياناً سَرداً طويلاً لنَسَبِ القدماء يَرجِعُ إلى شبه الجزيرة العربية، إلا أن سلسلةَ النَّسَب تتضاءَل مع تقدّم القرون. أصبحَ الأصلُ العربي هامشياً مثلما أصبحَ الخليفة العربي.

ظلَّتْ شبه الجزيرة العربية الأرضَ المُقدَّسَة. نَبَشَ صلاح الدين جثمانَ عَمّهِ شيركوه وأبيهِ أيوب مِن قَبرَيهِما في القاهرة وأرسَلَ رُفاتَهما لكي يدفنا في المدينة[43]. لم يَقُم المُتوفَيان الكرديَّان وَحدَهما بتلك الرحلة، بل حَدَثَ أيضاً أنْ أُرسِلَتْ جَثامِين لكي يُطافَ بها حَولَ الكعبة، وتُقامُ طُقوسٌ مكية أخرى قَبل دَفنِها[44]. عَكَسَتْ مُمارَسة تلك الطُقوس بعد الموت بعضَ ما حَدثَ للمنطقة العربية والإسلام، فقد حاولَ المصريون قَبل ذلك الاحتفاظَ بجثمان نَفيسَة، وهي مِن الجِيل الخامس لنَسلِ محمد، عندما أرادَ زوجُها إعادَتَهُ إلى المدينة[45]، بينما أرادوا هم إنشاءَ مَقام مُقدَّسٍ دائم في بلادهم الغريبة عن شبه الجزيرة العربية. والآن بالمُفارَقة، تَتجِهُ جَثامينُ مصرية مِن أصلٍ كرديّ إلى مدينة محمد ليُصبحَ غُبارُ شبه الجزيرة العربية ذاته عالمياً.

---

(٤١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٠٧ و٥٥١.
(٤٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٢.
(٤٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
(٤٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٠.
(٤٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١١.

كان ذلك جانباً آخَر من الغَزو المُعاكِس والانفِتاح، ليس فقط للعقول العربية وللمَورثات العربية، بل حتى للأرض المُقدَّسة في «جزيرتهم».

غَير أنَّ الكُرد لم يَجِدوا الراحَة في شبه الجزيرة؛ فبَعد أن نَجَحَ الأيوبيون في تأسيس فرع لحُكمِهم في اليمن، سرعان ما أصبحَ حاكِمها، طوران شاه أخو صلاح الدِّين، مُشتاقاً إلى القاهرة، واشتكَى من عدم استطاعَتِهِ الحصولَ على الثلج في مَوقِعه بما يُشبه العُقوبة[٤٦]. وفَقَدَ حاكِمٌ أيوبيٌّ آخَر لليمن عقلَهُ هناك[٤٧]. تراجَعَت «الجزيرة» العربية إلى حالَةٍ من العزلة فيما عَدا كَونها مَقصداً للحجّ، ولم تَخرج بعضُ أجزائها مِن عزلتِها إلا مؤخَّراً (سمعتُ أصداء لشَكوى طوران شاه من أهلِ القاهرة الذين خَدَموا كجنود وأساتِذة في اليمن خلال الستينيات والسبعينيات). بدأ التَّراجُعُ قَبل ذلك بزمنٍ طويلٍ مع انتقال قوة العرب إلى دمشق ثم إلى بغداد. إلا أن التَّراجع تَسارَعَ عندما فَقَدَ العرب قوتهم تماماً «وانقبضوا»[٤٨]، مثلما وَصَفَ ابن خلدون. أثَّرَ الانطواء على العرب في كل مكان، ودَلَّ على ذلك أنَّ المؤرخين الفِرنجَة للحروب الصليبية لم يَذكروا العربَ إلا نادِراً، بل وَصَفوا أعداءهم دائماً باسم «ساراسان أو ساراسِن Saracens»، وهي كلمةٌ اختُلِفَ في أصلِها، مَشحونَة بأصولٍ متناقِضة، إلا أنها مُستخدَمَة على مَدى قرون عديدة.

بالنسبة إلى الفِرنجَة، فإنّ أشهَر السّاراسان ليس عربياً، بل هو صلاح الدين، شخصية من نِتاجِ غائم الحدود للإمبراطورية العربية بَعدَ ـ العرب. سيَظلُّ يُذكَر في أوروبا بَعدَ قَرنٍ ونصف من وفاتِه كنَموذجٍ لفروسيةِ السّارسان، وكان للأميرِ الأسوَد في إنكلترا إشاراتٌ لصلاح الدِّين مُطَرَّزَةٌ على ستائرِ سريرِه[٤٩]، كما أنَّ الشاعر الإيطالي جيوفاني بوكاتشو Giovanni Boccaccio زَخرَفَ حياتَه بالكلمات في كتابِه *Decameron*[٥٠]. يَعلو صلاح الدِّين في بلادِه على التاريخ المتوسط لِقَلب الإمبراطورية العربية القديمة، فهو شخصيةٌ من

---

(٤٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٠.

(٤٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٤٨) انظر: ص ٤٥٩ من هذا الكتاب.

(٤٩) Barbara W. Tuchman, *A Distant Mirror: The Calamitous 14th Century* (London: Macmillan, 1979), p. 294.

(٥٠) Giovanni Boccaccio, *Decameron* (New York: Oxford University Press, 1993), pp. 652-668.

عِرقٍ إيرانيّ، ولِدَ في العراق، ونَشأ في خِدمَة حكّام سورية الأتراك، ثم حَكَمَ بنفسِه مصرَ وسورية، وحارَبَ في أرجاء شرق المتوسط، وتوفي في دمشق. لديه أطوَلُ سِيرةٍ ذاتية في كتاب **وَفيات الأعيان**، أطوَلُ من سِيرةِ أيّ أميرٍ أو شاعرٍ أو خليفة أو قائدٍ من أصلٍ عربي[٥١]. نتذكَّر صلاح الدِّين بالاصطلاحات العربية، مثلما نتذكَّرُ كافوراً العَبدَ المَخصِّي الأسود الذي حَكَمَ مصر قَبله بقرنَين من الزمن. لم يكن بحاجَةٍ لنَقلِ دَم عربيٍّ مُتخَيَّل، بل كان النِّتاجَ المُفَضَّلَ للاندِماج الذي صَنَعَتْهُ ثورةُ محمد، ووساطَة لغوية أقدَم.

«تعا لهون» Tally-ho

ربما قضَى القادمون الجُدد من الفِرنجَة والكُرد والبربر على بقايا الدولة العربية، ولكنّ أمّةَ الثقافة العربية ظَلَّتْ بحالةٍ جيدة ومازالت تَنمو وتَزدَهر، ولن يمتدَّ تأثيرها إلى المسلمين مثل صلاح الدِّين فقط، بل سَينتَشر إلى العالَم المسيحي. كانت إسبانيا وصقلية وإيطاليا قد أصبَحتْ مَعابر لمُرور الثقافة العربية، يتَّضِحُ هذا من عَددِ وطَبيعةِ الكلمات العربية التي دَخلَتْ إلى لغاتِهم. ذَكَرنا أنَّ اللغةَ الإسبانية قد استَعارتْ نحو ٤٠٠٠ كلمة عربية[٥٢]، وهي ليست مجرد مُفرَدات غريبة؛ بل حتى بعض الأمور الأساسية، مثل لَقَبِ تَفخِيم المُخاطَب «usted»، مأخوذٌ مِنَ الكلمة العربية «أستاذ»، وهي بِدورِها مَأخوذةٌ من الفارسية. هناك كلماتٌ بسيطة في اللّهجَة الصقلية التقليدية مستعارةٌ من العربية، مثل المفردات التي يَستخدِمُها الفلاحون[٥٣]. وبين الكلمات الصقلية الأغرَب اسمُ ساحَةِ بالارو Ballarò في مدينة باليرمو المَأخوذ من الاسم العربي «سوق بالهارا» الذي يَعني سوق الكَماليات الأجنبية الذي أَخَذَ اسمَهُ العربي من المَلك الهندي الشهير بالهارا Balhara[٥٤].

---

(٥١) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٤٨١ ـ ٥١٩.

(٥٢) انظر: ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩ من هذا الكتاب.

(٥٣) Joel Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity* (London: Allen and Unwin, 1969), p. 256.

(٥٤) [تَعني باللغة السَّنسكريتية مالِكَ القوة، وهو لَقبٌ يَعني للهنود مَلك المُلوك حسب رأي المَسعودي] Henry Yule and A. C. Burnell, *Hobson-Jobson: The Anglo-Indian Dictionary*, edited by W. Crooke, 2nd ed. (London: John Murray, 1903), vol. 1, p. 241: "Balhara' itself is from a Prakrit title meaning "well-beloved king"".

سَرَّعَ الصليبيون عملية نَقلِ ونَشرِ الكلمات العربية والأفكار الشرق ـ متوسطية في أرجاء أوروبا، وليس مُستغرَباً أنَّ كثيراً من الاختراعات الحربية قد جُلِبَتْ من الشرق، مثل القوس المستعرض والحَمام الزاجل وحتى رُسوم شعارات الفرسان. إلا أنّ الإلهامَ ذَهَبَ أبعَد من ذلك، فربما استُوحِيَ أولُ مستشفى أوروبي نظامي مِن نماذجَ شرق ـ متوسطية، كما أن نَمَطَ المَعيشة بشكلٍ عام قد تَحسَّن بمُستورَداتٍ مادية مثل الأرز والليمون وقَصَب السُّكر وكثير من الأقمشة الجديدة والأصبِغة[٥٥]، وإنّ مُشارَكة الأوروبيين الهامشيين في الحَمَلات الصليبية العامة أدّى إلى أنّ التقنيات والمُفردات قد اندَفَعَتْ عَبر القارّة. وهكذا فإن اللغة الإنكليزية تحتوي على أكثر من ٢٠٠٠ كلمة عربية الأصل[٥٦]، مثل: cheque (من الصَّك)، carafe (من غَرَفَ)، alcohol (من الكحول)، coffee (من قهوة التي وصلت بعد الصليبيين بكثير ولكنها كلمة عربية قديمة تعني الخمر في الأصل)، sherbet, sorbet (من شَرِبَ)، chiffon (من شَفَّ)، mohair (من مُخَيَّر)، muslin (من مَوصِلِي)، satin (من زيتوني، نسبة إلى مدينة زيتونج الصينية)، jacket (من شَكَّة)، jumper (من جُبَّة)، sofa (من صُفَّة/ صوفا)، mattress (من مَطرَح)[٥٧]... أتَتْ كثيرٌ من هذه الكلمات إلى أوروبا خلال فترة علاقة الحُبِّ والكراهية والتَّمسُّك والنِّزاع والمُواجَهة مع الصليبيين والمُستَرِدِّين والتّجار والحجّاج والباحِثين. وربما عندما تَذهَب إلى الصيد وتُنادي «هيا بنا Tally-ho» فأنتَ تقولُ باللهجَةِ السورية: «تَعَا لَهون»، أي «تَعالَ إلى هنا».. ربما.. لأن كثيراً من الأمور في عِلم أصولِ الكلمات لا يمكن إثباتها.

بالنظر بعيداً عن المُعجَم إلى الجغرافيا، نرى أنّ العربية قد اندَفَعتْ أبعَد وأعمَق، فلم تَنحَصر في إسبانيا وأسماء أماكِنها العربية الكثيرة (مثل الوادي الكبير Guadalquivir)، بل وصَلَت العربيةُ عَبر شِبه جزيرة إيبيريا إلى لندن في

(٥٥) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), pp. 663-668.

(٥٦) Garland Cannon, *The Arabic Contribution to the English Language: An Historical Dictionary* (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 1994), passim.

(٥٧) الأمثلة من المصدر نفسه. يتنازع **قاموس أكسفورد الإنكليزي** على واحد أو اثنين.

ساحَة الطَّرَف الأغرّ Trafalgar Square، وإلى خليج سان فرانسيسكو في العالَم الجديد حيث يوجد سِجنُ الغَطَّاس Alcatraz، وهو اسمُ الطَّير الذي يَغطُسُ في البحر بَحثاً عن الغذاء (تَحوَّلَت الكلمةُ أكثر إلى اسم طَير البَتروسalbatross). ونَجِدُ على ساحل البرازيل كلمة Recife (من العربية: رَصيف). وقد يُقابِلُ المَرءُ في نهر الأمازون شَعباً خليطاً من البرتغاليين والسكان المَحَليين اسمُهم mamalucos (من العربية: المَماليك)(٥٨). وفي المحيط فيما وراء جبال الإنديز نَجِدُ أنّ حاكِم جزيرة روبنسون كروزو التشيلية يُلَقَّب باسم alcalde (من العربية: القاضي)، وبَيت ضِيافةٍ اسمُه aldea (من العربية: الضَّيعَة)(٥٩).

المُلوك يتزينون بالخَطِّ الكوفِيّ

كان هذا النوعُ من النفوذ اللغوي عُضوياً وبَطيئاً، ولكن كان هنالك انتقالٌ سريعٌ ومنظَّم للثقافة والمَعارف العربية إلى أوروبا. عندما قام ألفونسو السادس، حاكِمُ ليون وكاستيل، باحتلال طُليطِلة سنة ١٠٨٥ تأكَّد من استمرار التَّعلم العربي السابق، بل وأطلَقَ على نفسِه لقبَ «مَلك الدينين»(٦٠). وَلِيُّ العرشِ البريطاني الحالي الأمير تشارلز سيُوافِق على ذلك (أعلَنَ نِيَّته أنْ يكون «المُدافِع عن الأديان»). وبالمِثل، عندما احتَلَّ مَلك أرَغون مُرسِية بعد نحو قرنَين، تأثَّرَ بعالِم في المدينة هو محمد بن أحمد الرَّقوطِي:

كان طَرَفاً في المَعرفة بالفنون القديمة: المَنطق والهندسة والعَدد والموسيقا والطب، فيلسوفاً، طبيباً ماهراً، آية الله في المَعرفة بالألسن، يُقرئ الأمم بألسِنَتِهم فنونهم التي يَرغَبون في تَعلُّمِها، شديد البأو، مُترفِّعاً، مُتعاطِياً. عَرفَ طاغيةُ الروم (مَلك أرَغون) حَقَّهُ، لمّا تَغلَّبَ على مرسية، فبَنى

(٥٨) Elizabeth Bishop and Robert Lowell, *Words in Air* (New York: Farrar, Straus, Giroux, 2008), p. 317. In the French Caribbean colonies in the eighteenth century, a mamélouc was specifically a person with one black great-great-grandparent.
Patrick Leigh Fermor, *The Traveller's Tree* (Londonı Penguin, 1984), p. 243.

(٥٩) Gavin Young, *Slow Boats Home* (London: Penguin, 1986), pp. 322-324.

(٦٠) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 66.

له مدرسةً يُقرِئ فيها المسلمين والنصارى واليهود، ولم يَزل مُعَظَّماً عنده[٦١].

أدركَ المُستَردون المَسيحيون أنهم باستِرجاع الأرض كانوا يَخسَرون المَعارف التي كانت تَرشَحُ إليهم مِنها، ولذا فقد أسَّسوا برامجَ تَرجَمةٍ مِنَ العربية، وحافَظوا على التقاليد الأكاديمية العربية السابقة التي استمرَّتْ بالتَغلغُل في أوروبا. وهكذا سيَدرُسُ طلابُ الطب في جامعة باريس الكتبَ العربية في الفيزياء بَعد تَرجَمتِها إلى اللاتينية، وسيَستَفيدون أحياناً مِن مُعلِّمين مُسلِمين رَحَلوا إلى الشمال في تَسرُّب العقول الذي حَدَثَ آنذاك. عُرِفَ طُلابُهم باسم «المُستَعربون arabizantes»[٦٢]. حَقَّقَ تَعَلُّمُ اللغةِ العربية احتِكاراً في كليات الطب بأوروبا لدَرجة أنَّ الباحِث الإيطالي فرانشيسكو بتراركا Francesco Petrarca سَخِرَ من الإيطاليين الذين يُحبُّون العرب:

ربما نُساوي نحن الإيطاليون واليونانيون، بل ونَتفَوقُ أحياناً عليهم، ومن ثَمَّ على جميع الأمم ما عَدا العرب كما تَقولون! ما هذا الجُنون! وما هذا الدّوار والتّخدير أو الغِياب الذي أصاب العَبقرية الإيطالية[٦٣]!

قِيلَ إنّ سلوكَ كارِهِ العربِ قد تَطَرَّفَ حتى إنه كان يَرفُضُ تَناولَ أدويةٍ ذات أسماء عربية[٦٤].

مثلما بَيَّنَ رِثاءُ بتراركا، كانت إيطاليا وإسبانيا قَنوات رئيسية لنَقلِ العلومَ العربية إلى أوروبا، خاصةً بالنسبة إلى صقلية وجنوب إيطاليا تحت حُكم النورمانديين ومُلوك هوهنشتاوفن Hohenstaufen. كانت أهميةُ صقليةَ النورماندية أوسَعَ في المَدى والزمن من حدودِها المَحصورة، فلم تكن مجرد فكرةٍ متأخرةٍ للبَرِّ الإيطالي، بل مَركَزَ منطقةِ تقاطُع كانت متوسطية فِعلاً بين المَنطقتَين والثقافتَين. تصويرٌ ماديٌّ لهذا هو مُخَطَّطُ الرياح اليوناني - الإيطالي

---

(٦١) لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، شرحه وضبطه وقدّم له يوسف علي طويل، ٤ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ج ٣، ص ٤٨.

(٦٢) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), pp. 1-2.

(٦٣) ورد في: Abdelfattah Kilito, *Thou Shalt Not Speak My Language* (New York: Syracuse University Press, 2008), p. 2.

(٦٤) Ibid., p. 38.

القديم الذي استَخدَمَه البحّارة، ومَركَزه «يبدو في مكانٍ ما قُربَ صقلية في قَلبِ البحر الأبيض المتوسط»، وهو يَمزجُ اصطلاحاتٍ من أصلٍ لاتيني، مثل «شرق المتوسط Levante» للرياح الشرقية، مع اصطلاحاتٍ من أصلٍ عربي، مثل «شروقو Souróko» للرياح الجنوبية الشرقية(٦٥). تصويرٌ مَلموسٌ آخَر هو العَباءة الفَخمة التي صُنِعَتْ لِمَلكِ صقلية النورماندي روجر الثاني (١١٣٠ ـ ١١٥٤) المُطَرَّزَة بالأسود والجِمال وشجرة نخيل، وعلى محيطِها كتابةٌ عربيةٌ بالخَطِّ الكوفيّ البارز تُسَجِّلُ مَصدرَها من المَعامل المَلكية، وتاريخها ٥٢٨ هجرية، أي ١١٣٣ ـ ١١٣٤ ميلادية. العَباءَة مَحفوظةٌ الآن في فيينا، واستَخدَمها على مَدى أكثر من خمسة قرون: خلفاءُ روجر، وأباطِرةُ الإمبراطورية الرومانية المُقدَّسَة كرداءٍ في حفلات التتويج. في أقدَسِ لَحظات حياتِهم سيَرتَدون ثِياباً مُطَرَّزةً باللغة العربية.

كانت صقلية تبدو مَركَز العالَم فترةَ عقودٍ قليلة، واحتُفِلَ بمَركَزِيَّتِها في خريطةٍ مُسطَّحَةٍ للعالَم منقوشة على لوح مدوّر من الفضة وزنها ٤٠٠ رَطل، وعليها أسماء جغرافيّة صَنَعَها العالِم المغربي الإدريسي للمَلك روجر. لم تَسلَم الخريطةُ نفسها التي لَخَّصَت المَعارفَ الجغرافية في زَمنِها، ولكن كِتاب الإدريسي المُلحَق بها مازال موجوداً وكأنه خَريطَةٌ رُسِمَتْ بالكلمات. تُشبِهُ خريطةُ إنكلترا فيها رأس النعامة، ومعها جغرافيةٌ بَشَرية أيضاً: «لأهلها جلاد وعزم وحزم والشتاء بها دائم»(٦٦) (حتى في ذلك الوقت كانت الصَرامَةُ والمناخُ الرَّطب صِفاتٍ بارِزة في إنكلترا). عَدَّلَ الإدريسي أسماءَ الأماكن لِتُناسِب اللغة العربية، مثل هستِنكش Hastings، ومَدينَتِي عندما أُقيمُ في إنكلترا: أغريمس Grimsby(٦٧). كما عَرَّبَ راعيهِ النورماندي بِنَثرٍ فَخم وألقابٍ مَلَكية استَعارَها مِنَ العباسيين وسَلاطِينهم فمَجَّدَهُ: «روجر المُعِزُّ بالله والمُقتَدِرُ بقُدرَتِه... مُعِزُّ إمام رومِيَّة»(٦٨).

---

(٦٥) Patrick Leigh Fermor, *Mani* (London: Penguin, 1984), pp. 275-276.

(٦٦) أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ٢ ج (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤)، ج ٢، ص ٩٤٤.

(٦٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٨٠.

(٦٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣ ـ ٤.

To pick a nit, he was in fact the Strengthener of the Antipope Anacletus II.

عربيٌ آخَر وُجِدَ في صقلية النورماندية، هو ابنُ جُبَير، الذي وَرَدَ ذِكرُهُ سابقاً في الحديث عن الصليبيين، وهو يُشبه أسامة بن مُنقِذ الذي حارَبَ ورَاقبَ وتَصادَق مع أهلِ العالَم المسيحي وهو في أرضِه وبشروطِه، أما ابن جُبَير فقد سافَر في عالَمهم. كان في صقلية في عَهدِ ويليام الثاني (١١٣٣ ـ ١١٨٩) حَفيد روجر الثاني الذي كان يُجيدُ قراءةَ العربية وكتابتها، وامتلأ قَصرُهُ بالعامِلين المسلِمين بمَن فيهم رئيسُ الطّباخين[٦٩]. كانت صقلية بالنسبة إلى ابن جُبَير أرضَ «القصور المشيدة والبساتين الأنيقة ولا سيما بحضرة مُلكه»، وهي بلارمة أو باليرمو اليوم. ومثلما استَدعَى جَدُّ المَلك علماء مثل الإدريسي، فإن المَلك ويليام كان يَرعَى العلماء العربَ أيضاً:

متى ذُكِر له أن طبيباً أو منجّماً اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسلّيه عن وطنه، والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنّه[٧٠].

ربما كانت الجُملةُ الأخيرةُ غَمزاً ولَمزاً بأمثالِ الإدريسي الذين أغرَتْهم خِدمَةُ المسيحيين، وربما كان فيها مَسحَةٌ من الحَسَد بالنَّظَر إلى الانحطاط الواضِح الذي أصابَ كثيراً من بلاد ابن جُبَير العربية. بالمُقارَنة مع حَماسِه المُتَحَفِّظ لمدينة باليرمو، وَصَفَ الرَّحالَةُ بغداد بقوله:

هذه المدينةُ العَتيقة، وإنْ لَم تَزل حاضِرَة الخِلافة العباسية، ومَثابَة الدَّعوة الإمامية القرشية الهاشمية، قد ذَهَبَ أكثَرُ رَسمِها، ولم يبقَ منها إلا شَهيرُ اسمِها[٧١].

كانت بغداد وَسَطَ عالَم كبير بلا حدود في القَرن التاسع، غير أنها فَقَدَتْ مَركزيَّتها لصالِح مَواقِعَ أخرى في القاهرة وقرطبة. والآن، يَنتَقِلُ مَركَز الجاذبية ثانيةً نحو أوروبا الناهِضَة. خَفَّقَ قليلاً فوق صقلية في وسَط البحر الأبيض المتوسط، وجَذَبَتْ طُرُقُ البحر المَفتوحة رِجالاً وعُقولاً مُتفَتّحَة، وجغرافيين مثل الإدريسي، ورَحَّالَة مثل ابن جُبَير، وعلماء مَوسوعيين مثل ابن واصِل الحَموي[٧٢]، وحتى شعراء مدح بارِعين مثل ابن قلاقس

---

(٦٩) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠.
(٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.
(٧١) المصدر نفسه، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٧٢) أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج ٤، ص ٣٨ ـ ٣٩.

الإسكندري[٧٣]، مِن عالَم العربية إلى بلاط باليرمو وتَوابِعِه في كالابريا Calabria. وَجَدَ ابن جُبَير أنَّ أهلَ بغداد مُتمَلِّقون وجَشِعون ومُتعَجرِفون، ولم يُدرِكوا بَعدُ حقيقةَ وواقِعَ هامشِيَّتِهم، «كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم»[٧٤]. كان ألطَف في تقديره للخليفة الناصِر آنذاك الذي شاهَدَهُ وهو يَعبُرُ نَهرَ دجلة:

وهو في فتاءٍ مِن سِنِّه، أشقَر اللِّحية صَغيرها كما اجتَمع بِها وَجهه، حَسن الشَّكل، جميل المَنظر، أبيض اللون، مُعتَدل القَامَة، رائِق الرّواء، سِنُّهُ نحو الخَمس وعشرين سنة، لابِساً ثوباً أبيض شبه القِباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسِه قُلُنسُوة مذهَّبة مُطَوَّقَة بِوَبَرٍ أسوَد من الأوبار الغالية القِيِّمة المُتَّخَذَة لِلِّباس مما هو كالفَنك وأشرَف، متَعمِّداً بذلك زَيَّ الأتراك تَعمِيَةً لشَأنِهِ[٧٥]...

هذا النَّمَطُ من تصويرِ المَلابس نادِر في النَّثر العربي، ويَجعلُ الخليفةَ المشرِق الشابّ يَبرُزُ أكثر مُقابِلَ خلفيةِ بغداد المُعتِمة. غير أن اللوحة تَظَلُّ صورةَ شبابٍ هالِكٍ في مدينةٍ تَحتَضِر حيث يَتحتَّم على المَرء أن يرتدي ثِيابَ المُتَطفلين الأتراك تَعميةً لِشَأنِه. وخلال فترةِ حياةِ إنسان سَيَحلُّ على بغداد وعلى الخلفاء العرب ما هو أسوأ بكثير.

حديث يأكل الأحاديث

إذا كانت رؤيةُ ابن جُبَير الذي راقَبَ الفِرنجَةَ تُشبه انطباعات ابن مُنقِذ، فإن ياقوت الرّومي الذي جاءَ بَعدَه بقليل يُعتَبَرُ بمَثابَةِ إدريسيّ مَقلوب لأنه كان عالِماً في الجغرافيا الوَصفية إضافة إلى مَهاراتِه الأخرى، إلا أنه انتَقَلَ مِنَ العالَم المسيحي إلى عالَم الإسلام. وعلى النَّقيضِ مِنَ الإدريسي، لم يكن لدى ياقوت اختيارٌ في انتِقالِه، إذ أُتِيَ به إلى بغداد عندما كان طِفلاً مُستَرَقّاً في الخامسة أو السادسة من العُمر مِن أراضي بيزنطية. اشتراهُ تاجِرٌ أمّيٌّ، وسرعان ما لاحَظَ ذَكاءَ ياقوت الاستِثنائي فقامَ بتعليمِه. ذَهَبَ العَبدُ الشاب

(٧٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٣١٠.

(٧٤) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

في رحلات عَمَلٍ لحساب مالِكه، خاصةً في مناطق الخليج، ثم مُنِحَ ياقوتُ حريّته. تابَعَ رحلاتِه الخاصة وكِتابته. بعد فترةٍ طويلة من انتهاء قوة العرب السياسية، كانت اللغة والثقافة العربيتان مستمرتَين في استيعاب غُرباءَ مِثله، وإطلاقِهم في العالَم المتحرك الذي صَنَعَتاه.

كان ياقوت نموذجاً للعالِم المتنقل، وكان رجلاً يستطيع الاقتباس غَيباً من الأقوال العتيقة عن فضائل الحركة، «في الحركة بَرَكَة، والاغتراب داعيةُ الاكتِساب»[٧٦]. وَجَدَ في مَكتبات مَرو الغنية في تركستان كُتُباً قال عنها: إنه «وجد بها من الكتب... ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل خلّ صفي وسكن... فأقبل عليها إقبال النهم الحريص»[٧٧]. ارتَحلَ في معظم حياتِه، وقضَى آخِرَ عُمره في خانٍ قُربَ حلب[٧٨]. الرحلةُ الوحيدة التي لم يَقُم بها هي الرحلة التي كانت ستأخذه بعيداً عن جُذورِه. كان يرغَبُ في ترجَمةِ اسمِه «ياقوت» الذي كان يُمنَح فقط للأرقّاء المُستَعبَدين إلى اسم «يعقوب»، إلا أنَّ الاسمَ الجديد لم يَتأصَّل[٧٩]. وفي النهاية، كان الاسمُ الأدبي الذي كَسِبَهُ أعظم بكثير، ومازالت معاجمه عن شعراء العرب وكتّاب نَثرِهم مَراجِعَ قيمةً بعد نحو ٨٠٠ سنة من وفاتِه. ومن المُناسب أنَّ أكثرَ ما يُذكَر عن هذا العالِم المتَنقِّل هو مُعجَمُه الجغرافي العربي العظيم «**مُعجَم البُلدان**». ومع ذلك فإن ترحالَ ياقوت الذي كان من السِّمات العظيمة والأسباب المهمّة لاستمرار انتِشار الثقافة العربية قد وجَدَ نفسَهُ في مواجَهةِ خطرٍ قاتِل.

في سنة ١٢١٩ كانت هنالك كارثةٌ مزدَوجة، فقد احتَلَّ الصليبيون الميناء المصري المهمّ في دمياط، وكانت «الكارثةُ الكبرى»[٨٠] [غير حرفي] في هجومِ المَغول على أرضِ الإسلام. هناك تفسيراتٌ مختلفة لظُهورِ جنكيزخان وفرسانِه المَغول في خراسان التي كانت آنذاكَ جزءاً من المَملكة الخَوارزمية وعاصِمتها في جنوب بحر آرال. أحَدُ تلك التفسيرات هو أنّ خَوارزم شاه

(٧٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٢٧٠.
(٧٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٠.
(٧٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٨.
(٧٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٣.
(٨٠) أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج ٣، ص ١٢٢.

التركي التَّوسُّعي كان قد دَمَّرَ ولاياتِه العازِلة في وسط آسيا، فسمَحَ ذلك للمَغول بالدخول(٨١). يقولُ آخرون إنَّ الخليفة العباسي الناصر الشاب قد شَجَّعَ المَغول على غَزو خَوارزم لكي يُبعِدَ الخَوارزميين عن غَزو العراق(٨٢). تفسيرٌ آخَر يدَّعي أنّ القادَة الخَوارزميين تمكَّنوا من صَدِّ تقدُّمِ المَغول، وانشَغلوا بالغَنائم، مما سمَحَ للمَغول بالدخول(٨٣). مهما كانت الأسباب، فلا بد من أنهم كانوا سيَدخلون في جميع الأحوال.

كان قدومُهم مروِّعاً. أطلَقَ عليهم الكتّاب العرب اسمَ التّتار (باسم شعبٍ تركيٍّ انضم إلى حَملتهم)، كانت أخبار التتر «حديث يأكل الأحاديث، وخبرٌ يطوي الأخبار، وتاريخ ينسي التواريخ»(٨٤)، هكذا بَدَت الأمورُ لطبيبٍ من بغداد اسمُه عبد اللطيف. بينما تَصوَّرَ ابن الأثير، المؤرخ المُعاصِر الكبير، المَغولَ في ضَوءِ مستقبلٍ مُظلِم: «ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا»(٨٥). كان أحَدُ الذين حُصِروا في المأساة هو الرَّحالَة ياقوت كما كَتَبَ سنة ١٢٢٠ من الموصِل إلى راعيهِ في حلب، إذ انتَهتْ إقامَتُهُ المُؤقَّتَة في وسَط آسيا شرق بحر قزوين إلى نكبةٍ بسبب تقدُّم المَغول:

فإنّا لله وإنّا إليه راجعون مِن حادِثةٍ تقصِمُ الظَّهر، وتُهدِّمُ العُمر، وتَفتُّ في العَضد، وتُوهِي الجَلَد، وتُضاعِفُ الكَمَد، وتُشيبُ الوَلَد، وتَنخُبُ لُبَّ الجَليد، وتُسَوِّدُ القلب، وتُذهِلُ اللّب... وما كاد حتى استقر بالموصِل بعد مقاساة أخطار، وابتلاءٍ واصطِبار، وتَمحيصِ الأوزار، وإشرافٍ غَير مَرةٍ على البَوار والتَّبار، لأنه مَرَّ بين سيوفٍ مَسلولَة، وعَساكر مَفلولَة... وجُملَةُ الأمر أنه لولا فسحَةٌ في الأجَلَ، لَعزَّ أن يُقالَ: سَلِمَ البائِسُ أو وَصَل، وأُلحِقَ بألفِ ألف ألف ألف هالِكٍ بأيدي الكفار(٨٦).

---

(٨١) عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، **كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**، تحقيق أحمد غسان سبانو (دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٣)، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٨٢) أبو الفداء، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٦.

(٨٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٨.

(٨٤) البغدادي، المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٨٥) ورد في: Maalouf, *The Crusades Through Arab Eyes*, p. 235.

(٨٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٢٧١.

مهما كان عددُ القَتلى كبيراً فلم يُنكِر حتى مَن أيَّدَ المَغول حدوثَ مَجازر مَدَنية هائِلة. وفي الوقت نفسه، تَناقَصَ عددُ سكان الأرياف بشكلٍ كبير، وأدّى إهمالُ أنظِمة الرّي الدقيقة إلى دَمارٍ هائل في الزراعة لم يَتَحسَّن في بعض مناطق آسيا الوسطى أبداً. أما بالنسبة إلى مَدى عالَم العرب القديم الذي تَوسَّعَ واحتَوى كلَّ مَن وَصَلَ إليه تقريباً، فيبدو أنه قد انحَسَر أخيراً، أو ارتَدَّ إلى الوراء أمامَ زَحفٍ أقوى مِنه.

سقوطُ الشخصية الرّمزية

بعد أن اجتاحَ المَغولُ الشرقَ، حَدَثَ هدوءٌ طويل في تقدُّم المَغول، ولكن في سنة ١٢٥٨ تحت قيادة هولاكو حَفيد جنكيزخان، سيَجتاحُ تقدُّمُهم عاصمةَ الإمبراطورية العربية القديمة، وسَيَلُفُّ آخِرَ نماذِجها الحَية في غَياهِب النسيان.

كان العراقُ يَرزَحُ تحت كثيرٍ من المشاكل، فقد كان هنالك انحِطاطٌ عام مِنَ العَظَمة السابقة لاحظَه ابن جُبَير في بغداد، وكان المجتمعُ نفسه يتحلّل. مَرَّ ذلك الرّحالة بالكوفة ووجَدَها مدمَّرة تقريباً بسبب غارات قبيلة خَفاجَة[٨٧]. في القَرن الثالث عشر، اتَّجه أهلُ بغداد إلى الشَّغَبِ العنيف، وكثيراً ما نَشَبَ قتالٌ بين أحيائِها[٨٨]. غير أن كلّ ذلك لم يشكّل سوى تهيئةٍ صغيرةٍ للدّمار الهائل الذي سيَقومُ به المَغول. تذكُرُ أكثر الروايات أن وزير المُستَعصِم ـ آخِر خليفة في بغداد وكان أحَد أحفادِ الخليفة الناصر ذي اللحية الشقراء ـ قد حَرَّضَ المَغول على غَزو بغداد، وتقولُ الرواية إنَّ الوزير الشيعي قد استاءَ من الخليفة لأنه قامَ بغارةٍ تأديبية على قريةٍ شيعية[٨٩]، ولو كانت هذه الرواية صحيحةً لكانت أبلغَ مِثالٍ على الدَّمارِ الذي يؤدّي إليه التّفرق والانقِسام، إلا أنها قد تكون مِثالاً على الدِّعاية المُضادَّة للشيعة. مهما كانت الحالَة فإن اندفاعَ المَغول لم يمكن صَدّهُ. وكأنهم قوة من قوى الطبيعة أكثر منهم عامل من عوامل التاريخ.

---

(٨٧) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ١٨٧.

(٨٨) Robert B. Serjeant, *South Arabian Hunt* (London: Luzac, 1976), pp. 23-25.

(٨٩) أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج ٣، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

مَصيرُ المُستَعصِم غير معروف، فربما تمّ خَنقُه، أو إغراقُه في نهر دجلة، أو رَبطُه في كيسٍ وضَربُه حتى الموت(٩٠). قد يبدو قاسياً أن يُقالَ إن بُؤسَ الخلافة العباسيةِ قد انتَهى بذلك، إلا أنها كانت تعيش في الوقت الإضافي. بَدأ الخليفة العباسي الأول المَنصور قَبل ٥٠٠ سنة سلالةً مِن ٣٦ خليفة في بغداد، وأسَّس تلك المدينة، وبَدأ في الوقت نفسه في استِدانَة الوقت باعتِمادِه على المَماليك، وبَعد أقلّ مِن ٢٠٠ سنة تَسلَّط حَرَسُ الغرباء على القوة العربية، وأصبحَ الخليفةُ في حالَةِ غَيبوبة، واعتَمدَ على وسائل دَعم حياتِه بِيَدِ مُرافِقيهِ الترك والإيرانيين. ولكن إيحاءات المَوت كانت مَوجودَة حتى في عَصر ذُروَتِها، في عَهدِ الرشيد والمأمون.

يُقالُ إن الفيلسوف والفلَكي الكِندي «قد وَضَعَ توقّعاتٍ حول مستقبل السلالة العباسية، وأشارَ إلى أنّ دَمارَها وسقوطَ بغداد سيَحدُث في منتصف القَرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). لم نَجِد أيّ معلوماتٍ عن كِتاب الكِندي، ولم نَعرِف أيّ شخصٍ شاهَدَه، ربما ضاعَ مع الكُتُبِ التي رَماها هولاكو حاكِمُ التّتار في نهر دجلَة»(٩١). [غير حرفي].

وكما رأى الشاعرُ الروسي أوسيب ماندلشتام:

لا يكتَمِلُ قَدَرُنا إلا في الحَرب

وستَنتَهي معها التّنبؤاتُ أيضاً(٩٢)

سيكون للعباسيين حياةُ آخِرَةٍ مُظَلَّلَة في مصر. إلا أن نهايةَ المُستَعصِم، ودَمارَ بغداد، شكَّلا ضربةً نفسيةً قاصِمة لعالَم العرب؛ فقد مُسِحَ المَركَز البَشَري والمَركَز الجغرافي للعروبة عن الخريطة. على الرغم من اختِفاءِ السُّلطَة السياسية العربية منذ زمن طويل قَبل ذلك، إلا أنَّ الثقافة العربية

---

(٩٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٤.

(٩١) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, p. 261. It is known that al-Kindi predicted a slightly later date for the destruction-AH 693/ AD 1293. His margin of error is thus a creditable 7 per cent. See:

D. M. Dunlop, *Arab Civilization to A.D. 1500* (London: Longman Group Ltd.; Beirut: Librairie du Liban, 1971), p. 178.

(٩٢) Osip Mandelstam, "Tristia." 1922. translated by C. M. Bowra.

استمرّتْ في القوة والازدِهار. والآن يبدو أن تَدفُّقَ جَحافِل المَغول قد عَكَسَ مَسيرةَ التَّقدُّم على مَدى ٦٠٠ عام. اجتاحَ المَغول ياقوت وغيره من حَمَلَةِ الثقافة العربية أمام سَيلِهِم، ودَفَعوا بهم للتراجع نحو الغرب، وتَغلَّبوا على المَراكِز الحَضَرية لتلك الثقافة، وأحرَقوا المَكتبات حيث نَسِيَ ياقوت نفسَه وأصلَه في دراسة تاريخ العرب المَجيد. لقد مَسَحوا التاريخَ نفسه.

يبدو أيضاً أن جَحافِل المَغول قد مَسَحَتْ ٦٠٠ سنة من الحَضارة التي كانت تتصاعَد وتتغلَّب على البداوة، ومِن الآن فصاعِداً سَيستَمر عربُ القبائل في الإغارة على حَضَرِ العراق ونَهبِ المَزارع والقُرى(٩٣). كانت تلك التغيرات جُزءاً من تَحولٍ أكبر. في لحظةِ مراجَعةٍ عامّة، اعتَبَر ابنُ خلدون أنَّ الأمويين والعباسيين لم يكونوا سلالةً قرشية واحِدَة فقط، بل قِمَّةَ سلسلَةٍ من كياناتٍ سياسيةٍ بَدَأَتْ مِن حَضَرِ جنوبِ شبه جزيرة العرب قَبلَ التاريخ، وانسابَتْ في الإسلام، الحركة التي جَمَعَتْ بين الحَضَر والبدو، بين الشعوب والقبائل:

[كانت هناك] دول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة... ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس.

ولكن مع سقوطِ العباسيين، «لكن بعُد عهدُهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة»(٩٤). من المُدهِش أن يعتَقِد ابن خلدون أن العرب يَفقَدون «دِينهم»... وهو لا يَعني أنَّ جميع العرب قد توقَّفوا فجأةً عن تسمية أنفسِهم مسلمين، أو أنهم قد توقَّفوا عن الصلاة (على الرغم من أنَّ البدو، على الأقل في نظر الحَضَر، كانوا دائماً كفاراً ظاهرين)، بل إنَّ التوازن الذي خَلَقَهُ الإسلامُ بين الشعوب العربية والقبائل العربية قد بَدأ يَختَلّ. كما أنَّ العرب بشكلٍ عام يَعتَبرونَ الإسلامَ دائماً ظاهرة اجتماعية سياسية، إضافة إلى كَونِه دِيناً، ويَعتقدون أنهم قد خَسِروا شيئاً آخَر إضافة إلى التوازن هو نقطة الارتِكاز التي استَنَدَ التَّوازنُ إليها. كان الرّاضي، الذي توفي قَبل أكثر من ٣٠٠ سنة، «آخِر خليفة حقيقي»، أي آخِر خليفة يَؤمُّ الناسَ في

---

(٩٣) Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*, p. 246.

(٩٤) Ibn Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, pp. 121-122.

صلاة الجمعة[٩٥]. ولكن مَنصِبَ الإمام قد استمرَّ كإمكانيةٍ ما دام هناك خليفةٌ في بغداد. كانت الغالبيةُ السّنية العظمَى تَعتَبر العباسيين دائماً «أئمَّةً مُنحَدِرين من عَشيرة بني هاشم القرشية»[٩٦] [غير حرفي]، كما وصَفَهم ابنُ جُبَير. الإمامُ هو أولاً وأساساً إمامُ صَلوات الجَماعة، والآن بَعد قَتل المُستَعصِم قُطِعتْ سُلالة الأئمّة، ولأول مرّة منذ أنْ شاهَدَ أبو سفيان ابنَ عمّه الهاشمي محمداً يَؤُمُّ الناسَ في صفوف الصلاة بالمدينة، وأُعجِبَ بمَنظَر الانضِباط الذي لم يُشاهَد عند العرب من قَبل[٩٧]، لم يكن هنالك قائدٌ للوحدَة، ولو رَمزياً. لا يَهمُّ أنّ الخلفاء لم يكونوا أكثر من شخصياتٍ رَمزية على مَدى قرون، وقد ذَهَبوا الآن، وأدركَ الناسُ أنه مهما اتَّسَعتْ صفوفُ المُصلِّين وازدادتْ أعدادُهم فإنّ الإمامَ هو الذي كان يَجمَعُهم.

الأولادُ الضّائعون

بعد سقوط بغداد والعباسيين، يبدو أنّ المَغول سيُتابعون زَحفَهم ويَمسَحون الإسلامَ عن وَجهِ الخريطَة حتى من دون مساعَدَةِ الصليبيين والمُستَردِّين. أينَ كان المُنقِذ؟ أينَ صلاح الدِّين في هذه الأزمِنة المُخيفة؟

فعَلَ أبناءُ صلاح الدِّين وأحفادُه ما فَعلَتْهُ كلُّ سلالةٍ أخرى قَبلَهم، واعتَمَدوا في ضَمانِ أمنِهم على مَماليك أتراك، ثم سَقَطوا في صراعاتٍ بين بعضِهم، واستَولى التركُ على الحُكم، وهمُ الذين سَينقِذون الإسلامَ سنة ١٢٦٠ بوَقفِ تقدُّم المَغول على أبواب أفريقيا في مَوقعة عَين جالوت في فلسطين، كما تابَعوا بما لَم يَقمْ به عسكريٌّ تركيٌّ مُتسلِّط قَبلَهم، فجَعلوا أنفسَهم سلالةً حاكِمة أو مؤسَّسةَ المماليك. كانت تلك المؤسَّسة تُعيدُ إنتاج نفسِها لكي تضمَنَ استمرارَها بنجاحٍ أكبر من التوريث. جَلَبَ أمراءُ المماليك دائماً مُجنَّدين شَباباً جُدُداً مُعظَمُهم من قبائل القِبجاق التركية في شمال وشرق البحر الأسود، ثم جَلَبوا جُنوداً من شركس القوقاز. يَتدَرَّجُ هؤلاء الجنود في الرُّتَبِ العسكرية، ويُجنِّدون مَن يَحلُّ مَحلَّهم، واستمروا هكذا على مَدى أكثر من ٥٠٠ سنة حتى هَزمَهم جيشُ نابليون سنة ١٧٩٨، ثم قضَى عليهم محمد علي باشا سنة ١٨١٢.

---

(٩٥) انظر: ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ من هذا الكتاب.

(٩٦) انظر: ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ من هذا الكتاب.

(٩٧) انظر: ص ٣٨ ـ ٣٩ من هذا الكتاب.

وكما هي الحال دائماً في الزُّمَر الحاكِمَة، فقد استَندَت المؤسَّسةُ إلى تعليم النّخبة ومُغريَات الحصول على جوائز مُتألِّقة. وُضِعَ الجنودُ في مدارس ثكنات عسكرية قُسِّمَتْ إلى «بيوتٍ» تحت إدارةِ خِصيان، ودَرَّسَت العربية وأُسُسَ الإسلام. كان هنالك تَركيزٌ خاصّ على الرّماية، والألعاب الجَماعية مثل الصولجان، والتدريبات العسكرية القيادية. كانت الفكرةُ أنّ المماليكَ سيَتخرَّجون منها حُكّاماً ونُبَلاء

سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو اعتدى[٩٨].

ربما ظَهَرَ ذلك مِثلَ صورةِ الذّات البريطانية في ذُروَةِ قوّتِها الإمبريالية. اصطَفَّ آباءُ القِبجاق لإرسالِ أبنائِهم إلى مدارسِ المماليك في القاهرة. وكانت تلك المَدارس مَجانية! بل كان الآباء يَحصلون على الرُّسوم (هناك جانبٌ سيئ، إذ إنهم لن يَروا أبناءَهم بَعد ذلك). كان تَتالي الجلوسِ على العَرش وراثياً في بعض الأحيان، وأوضَحُ مِثالٍ على ذلك هو السلطان المَملوكي الناصر الذي طالَتْ فترةُ حُكمِهِ (١٢٩٣ ـ ١٣٤٠)، وحَكَمَ بَعدَه ثمانيةٌ مِن أولادِه[٩٩]، واثنانِ مِن أحفادِه، وواحِدٌ مِن أبناءِ أحفادِه. إلا أنَّ متوسط عَددِ سِنين حُكم تلك الأجيال الأصغَر سِناً كان نحو ثلاث سنوات، وكان معظمهم تحت قَبضَةٍ قويةٍ لأميرٍ مَملوكٍ من خارج العائلة.

كان نظاماً فَردياً، إلا أنه كان ناجِحاً، فقد كانت مصر وسورية مستقرّتَين تحت حُكمِ المماليك، وازدَهرت القاهرة كما وَصَفها الرّحالةُ ابن بطوطة في عَهد السلطان الناصر: «المتناهية في كثرة العمارة... تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها»[١٠٠]. في الواقع، ربما كانت القاهرة أكبر المدن في العالَم خارج الصين آنذاك. يَرجِع

(٩٨) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (القاهرة: بولاق، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢١٤.

(٩٩) Hitti, *History of the Arabs*, p. 673.

(١٠٠) Muhammed bin Abdallah bin Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, translated by H.A.R. Gibb and C. F. Beckingham (London: Published for the Hakluyt Society at the Cambridge University Press, 1958-1994), vol. 1: *Travels in North-West Africa, Egypt, Syria, and to Mecca*, p. 41.

ازدهارُها بسبب كَونِها حاضِرةً مزدوجة: المدينة ـ الأمّة المملوكية، والثقافة ـ الأمّة العربية. كان الجنودُ الأتراك ومَن تبعهم من الشَّركس هم المُسيطِرون سياسياً، ولكن السُّلطَة الثقافية المُهيمِنة كانت دائماً العربية الفصحى، ذلك الفاتِح الأول الذي لم يُقهَر. عَمِلَت الكيمياء العربية على المماليك أيضاً، فاستَعرَبَ الترك وغيرهم، ولم يَحدُثُ العَكس أبداً. إلا أنَّ المُستَعربين بَعدَ اندِماجِهم برعَيّتهم فَقَدوا استِعلاءَهم الانفِصالي وانتماءَهم إلى الطبقة الحاكِمة. استمرتْ إضافةُ الجنودِ الشباب الجُدد إلى النّخبة، وكانوا أولاداً ضائعين مما وراء البحر الأسود والقوقاز، وسيَجِدُ نَسلُهم مَكاناً لَهم في عالَمٍ جديد متنوع تَجمَعُه اللغةُ العربية.

في الوقت نفسه، لم يكن «العرب الحقيقيون» خارج الصورة نهائياً، واحتفَظَ بعضُهم بشيءٍ من الاستقلال السياسي، إلا أنهم عادُوا مثلما بَدؤوا «على رأس حجر بين الأسدين»[١٠١]. بَعد أن صَدَّ المماليكُ جَحافِلَ المَغول، وَقَفَت القوتانِ العَظيمتان تتأمَّلان بعضهما عبر الهلال الخصيب الشمالي: المماليك في مصر وسورية، والمَغول في العراق. بينما لَجَأ عربُ القبائل في تلك المنطقة آنذاك وما جاوَرها مِن البادية إلى مَوقِفهم في زَمنٍ مضَى عندما اختارَت إمبراطورياتٌ مُتَنافِسة «مُلوك العرب» (وكذلك في زَمنِ الاستعمار القادِم). أحَدُ الأمثلةِ على ذلك هو مُهنَّا بن عيسى أميرُ الأعراب في بَادية سورية الذي عَيَّنَهُ المماليك. كان مُهنَّا زعيم قبيلةِ طَيئ التي كانت قوةً مهمّة في المنطقة قَبل الإسلام. والآن، مثلما فَعل اللّخميون في الحِيرة وغيرهم مِن الأقدَمين مِن قبائل المُرتزِقَة على أطراف الهلال الخصيب، تابَعَ التَّلاعبَ بالقوى العظمى ضدَّ بعضها، وتَغيير موقِفِه بينَها حسبَما يُناسِبه، فقاتَلَ المَغول لحساب المماليك، ثم اختَلفَ مع المماليك وانتقَلَ لطَرفِ المَغول، وهاجَم حلب لحِسابهم بنحو ٢٥,٠٠٠ من رِجال قبائِله. وبَعدَ فترةٍ من الاستقلال عنهما مَعاً، عاشَ على طَريقةِ طَيئ القديمة بالإغارة على الحجّاج في الصحراء، ثم عادَ تحتَ جنح المماليك[١٠٢]. وقَعَ ابنُهُ وخليفَتُهُ فياض في وَرطَة مع المماليك عندما نَهَبَ تجاراً، فانقلَبَ إلى المَغول. تَنتَهي

---

(١٠١) انظر: ص ١٣٠ من هذا الكتاب.

(١٠٢) ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، كلمة مهنا.

سِيرتُهُ باقتِضاب: «وكان سيئ السيرة»[١٠٣]. ربما سيطَرت الجَحافِل على معظم العرب، غير أن بعضَهم ظَلُّوا متحركين، على الأقل في وَلاءاتِهم.

المَغول والجراثيم

تقدَّمَتْ أرتالُ المَغول بدروعِها الحرشفية وكأنهم تمساحٌ يبتلعُ أوراسيا، أما من الناحيةِ الدّينية فكانوا مِثلَ الحِرباء؛ فقد كانوا في البداية بوذيين اسمِياً على الأقل، كما تمسَّكوا بمُمارساتٍ سحرية قديمة، مَرُّوا في عَهد جنكيزخان على طَيفٍ من المُعتقدات مع لَمحات متنوعة من المسيحية، ولكن مع نهاية القَرن الثالث عشر حينما كان جناحهم الشرقي البعيد يتَحوَّلُ إلى سلالةِ يوان البوذية ـ الكونفوشية في الصين، بَدأتْ فرَقِهم الغربية الثلاث تَتبنَّى لَوناً إسلامياً. كان الإسلام لا يَعرفُ الكَلَل، مِثلَ اللغة العربية، ذلكَ الفاتِح الأول القادِم من شبه الجزيرة العربية، حتى عندما تَنبَّأ بعضُ الناس أنه يَترَنَّحُ مِنَ الهَزيمة. يُشبه المَغولُ السَّلاجِقةَ الأتراك، آخِر مَوجَة كبيرة من البدو الذين جاؤوا من الشرق، بأنهم تَبنّوا الفارسية وليس العربية كَلُغَة ثقافية أولى[١٠٤]. وهكذا وَضَعَتْ جَحافِلُ جنكيزخان وهولاكو حاجِزاً آخَر بين الأجزاء العربية والأجزاء الفارسية من العالَم الإسلامي. أسدَلَ السَّلاجِقةُ سِتارَةً لُغَويةً عَبرَ المدخل الجنوبي الغربي لآسيا، وحَوَّلَها المَغولُ إلى مصراع. تراجَعَت اللغةُ العربية تدريجياً عن مَكانتِها كلغة رئيسية في العالَم الإسلامي[١٠٥]. ومع ذلك، فقد فتَح المَغول باباً في الوقت نفسه. فبَعدَ أنْ رَسَّخوا انتصاراتِهم، استقرّوا لتَنظيم الحُكم في ظروفِ سلامٍ نسبي، وسَيطَروا على ما أصبَحَ يُعرفُ باسم عصر السلام المَغولي Pax Mongolica. ولأول مرة منذ الذروة العابِرة للإمبراطورية العربية في القَرن التاسع العباسي، أمكَنَ القيامُ بتجارة عالمية حقيقية، والتّرحال العالمي... وما إنْ ظَنَّ الناسُ بوجود الأمان على طريق الحرير ثانية، ضَرَبَ الطاعونُ الأسوَد.

حَلَّتْ أولُ هجمةٍ قاتلةٍ من الطاعون في أربعينيات وخمسينيات القَرن

---

(١٠٣) المصدر نفسه، كلمة فياض.

(١٠٤) Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 81.

(١٠٥) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, pp. 446-447.

الرابع عشر، وقَتلتْ نحو ثُلُث البشرية في رُقعَةٍ عَبرَ أوراسيا وشمال أفريقيا. وقد أتاحَ فَتحُ الطُّرق البرية والبحرية الجديدة حَرَكِيَّةً أكبر للسكان وكذلك للجراثيم. كان الطاعون الأسود رَتلاً آخَر قادماً من الشرق. كتَبَ العالِم السوريّ ابنُ الوَردِيّ:

ما صِينَ عنه الصين، ولا منع منه حصن حصين، سلّ هندياً في الهند واشتد على السند، وقبض بكفيه وشبك على بلاد أُزْبك، وكم قصم من ظهر فيما وراء النهر، ثم ارتفع ونجم وهجم على العجم، وأوسع الخُطا إلى أرض الخِطا، وقرم القِرَم ورمى الروم بجمر مضطرم[١٠٦]...

هناك لمسَةٌ من الخفَّة في السَّردِ الأصلي أيضاً؛ كوميديا سوداء في وَجهِ الرُّعبِ الأسوَد. ينتَهي التاريخُ الذي جاءَ معه بحَشدٍ مِنَ النَّعي، ثم يقفُ فجأةً في وسَطِ الفَصل، فقد قَتلَ الموتُ الأسودُ الكاتِبَ أيضاً. ربما فُتِحَتْ طُرُقُ الحرير ثانية، ولكن جاءَ معها «الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه»[١٠٧]، مثلما ذَكَرَ ابن خلدون. بَدا كلّ شيء في نهايتِه مِثلَ مَصيرِ الخليفة.

كان هناك مزيدٌ من الكوارث القادِمة في أواخر القَرن الرابع عشر، هجَمتْ بشكلِ مَوجاتٍ متأخرة من المَغول بقيادة تيمورلنك، وهو من أقارب نَسل جنكيزخان. حَصَدَ هجومُه مزيداً من القَتلى، خاصة مِن أهلِ الهلال الخصيب المستقرين الناطقين بالعربية. ففي حلب مثلاً، أمَرَ بجَمعِ رؤوسِ القَتلى في أهرامات يَنظُرُ فيها ٢٠,٠٠٠ وَجه نحو الخارج (وأسَفاه على حلب: هولاكو ١٢٦٠، مُهَنَّا ١٣١١، تيمور ١٤٠٠، وحَديثاً في ٢٠١٦ بشار الأسد). ثم جاء دَورُ دمشق، كان ابن خلدون في تلك المدينة عندما حَلَّ بها المَغول، وظَلَّ فيها بوضْعٍ حَرِجٍ بعدما هَرَبَ السلطانُ المملوكي الذي جاءَ في حاشيته. كان تيمور لَيِّناً تجاهَ العلماء، ولم يقتُل المؤرخَ الكبير، إنما كانت هناك مُقايَضَة، فقد وَجَدَ ابن خلدون نفسَه مضطَراً لكتابةِ دَليلٍ إرشاديٍّ

(١٠٦) ابن الوردي، في: أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج ٤، ص ١٥٢. الترجمة من: Tim Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah* (London: John Murray, 2001), p. 163.

(١٠٧) ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١**، ص ٧٤.

لتيمورلنك عن شمال أفريقيا تمّت تَرجمَتُه إلى اللغة المَغولية[١٠٨]. بالنسبة إلى رَجُلٍ كان يَسعى للتَّفوق على جنكيزخان، كان ذلك الدَّليلُ دَعوةً لغَزو كافة أنحاء الجَناح الغربي مِن العالَم الإسلامي. تمكَّن ابن خلدون من إرضاء ضميره بالكتابة إلى سلطان المغرب البربري، ونَبَّهَهُ عما يجب عليه أن يَحذَر منه بوَصفٍ مُفَصَّلٍ لتيمور وجيشِه[١٠٩].

كان أستاذُ الرؤية التاريخية قريباً جِداً من الأحداث لكي يتمكَّن من رؤيةِ الصورة الشاملة، إلا أنه يُعطي لَمحَتَين لما وَصَلَ إليه العربُ في تلك المرحلة المُخيفة. في أَحَدِ جوانبِ الطَّيف الاجتماعي كان رجل انتهازي من الأسرة العباسية يتَسَكَّعُ حولَ تيمور مُحاولاً شَدَّ الانتباه إلى نفسه كخليفة بديلٍ عن الخليفة الذي تبنّاه المماليك[١١٠]؛ وفي الجانب الآخر فإن ابن خلدون بَعدَ أن شارَفَ على الهلاك بِيَدِ المَغول، تَعرَّضَ للنَّهب على يَدِ بَدوٍ عَرَب في طريق عودَتِه إلى مصر، وتَركوهُ عارياً في الصحراء[١١١].

عصرُ المَظاهر

لو كان تيمور يخطِّط لغَزو المغرب مُستَعيناً بالدَّليلِ الإرشاديِّ الذي كَتَبَهُ ابن خلدون، فإنه لم يتمكَّن من فِعل ذلك. ولو فَعَل ذلك لوَجَدَ أنَّ العربَ في أقصَى الغرب فيما وراء المماليك والبربر كانوا يُغَنُّونَ أُغنيةَ البَجعةِ المحتضرة، ويتمتَّعون بآخِر شُعاعٍ من يوم إمبراطوريتهم الطويل في ساحلِ الشمسِ وأحضانِ جِبالِ سييرا نيفادا الإسبانية. كان حكّامُ إسبانيا المُرابطون البربر قد تَخلّوا عن العَرش لرِفاقِهم البربر المُوحّدين. إلا أنَّ المُستَردِّين الإسبان كانوا قد أخرَجوهم منها فيما عَدا جَيبٍ صغير من الثقافة العربية في غرناطة.

تمسَّكتْ غرناطةُ بعروبتِها، ربما لأنها كانت آخِر دولةٍ عربية في الشّتات الكبير وراءَ شبه القارّة العربية، وبقايا ساحِرة من إمبراطورية الأندلس،

(١٠٨) المصدر نفسه، ٤٠٨.
(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٤١٦.
(١١٠) المصدر نفسه، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(١١١) المصدر نفسه، ص ٤١٣.

وأرض خَسِرَتْ مُقتَنياتِها، وغالباً ما كانت تَدفَع ضَرائب لجيرانها القَشتاليين. تَباهَى حُكّامُها النَّصريون من بَني الأحمر بأصولِهم التي تَرجِع إلى الخَزرَج في مدينة يثرب قَبلَ أن تُصبِحَ مدينة محمد، وكان المؤرخون يؤكِّدون على عروبة سكّانها(١١٢). في الحقيقة، كان البربر هم الذين أسَّسوا غرناطة، ومع ذلك، إذا كانت أسرتَكَ قد تَعَرَّبَتْ تماماً على مَدى تسعة أجيال، فستَظَّلُّ تُصَنَّفُ مِن طَرَفِ كُتَّابِ السِّيَر المُتعَصِّبين بأنكَ «مَصمودِيّ [بَربَريّ] مِن مَوالي بَني مَخزوم [العَشيرة العربية القُرَشية]»(١١٣). كان هذا النوع من نظام الفَصلِ العُنصِري الذي يَقومُ على الأنسابِ قد تمّ التَّخلي عنه في مكانٍ آخَر، ولم يَعُد يَعكسُ الواقِع المُختَلط، ولم يكن كذلك في غرناطة التي كانت خَليطاً عِرقياً من البربر والقوط والصقالبة الأوروبيين واليهود والمسلمين مِن كافَّةِ المَذاهب الذين هَرَبوا مِنَ المُستَردِّين الإسبان. قابَلَ الرّحالة ابن بطوطة في القَرن الرابع عشر في غرناطة مُهاجِرين من غرب أفريقيا ومن الهند(١١٤). إلا أن العرب «الحقيقيين» (أي العرب من جِهة الآباء مهما كانت أصولُهم من جِهة الأمهات) صَنَعوا الطّابَع الواضِح المُسيطِر، وبهذا المَعنى كانت غرناطة عالَماً مُصَغَّراً ومُركَّزاً للإمبراطورية العربية مثلما كانت مَعقِلَها الأخير، وكانت نهايتُها بالمِثل نموذجيةً ومُثيرةً للشَّفَقة. بينما تقدَّمَت القواتُ القَشتالية، كان عَمٌّ وابنُ أخيهِ يتَحاربان على مُلكية السَّلطَنة(١١٥)، وكانت غرناطة ضَحيةَ تَمزُّقِها وانقِسامها مثلما كانت ضحيةَ وحدَةِ المسيحيين الإسبان.

سقطَتْ غرناطة سنة ١٤٩٢ بعد عقود قليلة من سقوطِ القسطنطينية بِيَدِ العثمانيين المسلمين في الطَّرف الشرقي المُناظِر لها من البحر الأبيض المتوسط. هناك كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية قد تقلَّصَتْ أيضاً إلى مدينة ـ دولة صغيرة وكان الأباطرة المُتهالِكون يَجلسون على بقايا نِهائيّة لمحاوَلَةٍ فَنيّة. حَدَثَ الأمر نفسُه لِبَني الأحمَر في غرناطة، ولن يكون أشهَر هياكلهم المُتبقيّة أكثر مُلاءَمة. قَصرُ الحمراء المُترامي الأطراف مهمٌّ ليس لأنه

(١١٢) انظر على سبيل المثال: ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج ١، ص ٣٦.

(١١٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣١.

(١١٤) Rachel Arié, *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492)* (Paris: Editions de Boccard, 1973), p. 303.

(١١٥) Hitti, *History of the Arabs*, p. 553.

المكان الوحيد الذي بَقِيَ منهم، بل لأنه الذِّكرى المِثالية لما وصَلَتْ إليه الدولة العربية الغَرناطية، إنه صَرحٌ مِعماريٌّ من الواجِهات، وقَصرٌ بارِزٌ مُزَخرَفٌ بكتابَةٍ عربية جميلة مُنمَّقة. إذا بَحثنا عن القوة المِعمارية المَتينة في تلك الفترة لوجَدناها بَدلاً من ذلك في الأبنية الجميلة القاسية للمماليك في القاهرة مثل جامع ـ مدرَسة السلطان حَسَن في القَرن الرابع عشر. وبالمُقارَنة، يَنتَمي قَصرُ الحمراء إلى عصرِ المَظاهِر، وهو نَصٌّ وقماشٌ بقدر ما هو عمارَة. كَتَبَ الشاعر والوزير الغَرناطي ابن زَمرَك قصيدةً نُقِشَتْ في قاعَة الأختَين مِن قاعات القَصر:

وللهِ مَبناكَ الجَميلُ فإنهُ يَفوقُ على حُكمِ السُّعودِ المَبانيا
فكم فيه للأبصار مِن مُتَنَزَّهٍ تَجِدُّ بِهِ نَفسُ الحَليمِ الأمانيا
وكَم حِلَّة جَلَّلْتَهُ بِحليِّها مِنَ الوَشْيِ تُنسِي السَّابِريَّ اليَمانيا(١١٦)

أصبَحَت المَباني مَلابِس، والشِّعرُ وتَرنيمَتُه جيدة الحَبكِ أيضاً فيما عَدا إشارَته إلى أنوال اليمن وأقمِشَته التي أصبَحَت مُهلهَلة جِداً الآن. قَبل ٨٠٠ سنة، خَتَمَ الشاعرُ امرؤ القيس «مُعلَّقَتَهُ» بصورةٍ عن أقمِشة اليمن، وتابَعَ الشعراءُ مِن بَعدِهِ ذِكرَ التشبيه نفسه. وبالطبع، فإن آخِر ما يَنظُر إليه المرء في الشِّعر العربي الفصيح هو أصالة الموضوع، لأن الشِّعرَ هو في الشَّكلِ وليس في المَضمون(*) ولكن حتى ألطَف النُّقاد سيَتَحتَّم عليه أن يَعتِرفَ بأنَّ اللغةَ العربية، ذلك الفاتِح الفَتِيّ دائماً، قد بَدأَتْ تبدو مُنهَكَة ومُتعَبَة بَعدَ أنْ عَبرَتْ قارّات وأصبَحتْ امرأةً مُسِنَّةً غارِقةً الآن في نَسجِ الأقمِشة ومَطارِفِ الزّينة.

نُقوشٌ على الأطلال

بدأ انحِدارُ الزَّخم الأدبي قَبل ذلك بقرون، فمَعَ خَسارة الحُكم أصبَحت السيوفُ والأقلام كَليلَةٌ أيضاً. كثيراً ما يُصَرِّحُ مُعلِّقون غير عرب أنه لَم يَعُد في الشِّعر، وهو أعظَمُ فنون العرب، ما هو لامِعٌ متميّز بَعد وفاة المَعري

---

(١١٦) ورد في:

Robert Irwin, *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature* (London: Penguin, 2000), pp. 306-307.

(*) [ربما هو كذلك في الشِّعر العربي الرَّديء] (المترجم).

سنة ١٠٥٨[١١٧]. يوافِقُ على ذلك ناقِدٌ عربي مُطَّلِع: «لو طُلِبَ مني تَسمية شاعر (بَعدَ القَرن الثاني عشر) سأجِدُ نفسي تائِهاً في الإجابَة»[١١٨] [غير حرفي]. كان هنالك دائماً كثير من القصائد، إلا أنها كانت أقلّ شاعرية بالمَعنى القديم المُلهِم «السّاحر». وكما عَبَّرَ عن ذلك أحَدُ المُتابِعين، «لا يستطيعُ الشِّعرُ أن يَسبقَ خَيالَه»[١١٩]. في الواقع، كان الخَيالُ يَربحُ السباق.

كانت النيرانُ القَديمة تَخبو في الأدب العربي عامّة، وسُمِّيَتْ تلك الفترة عادةً باسم «عَصر الانحِطاط»، وسَمَّاها آخَرون «عَصر التراجع»[١٢٠]. وسواء كان التطور نحو الانحِدار أو إلى الوراء، فقد كان يَسيرُ في دَورةٍ حَولَ نفسِه، وكانت النتيجة النهائية انحِداراً حَلَزونياً ولم تكن عَجَلَةً مِن نار، «كان عَصراً من التَّلخِيص والتَّفسِير، وتَلخِيصِ التَّلخِيص، وتَفسيرِ التَّفسِير، والتَّعليقِ على كل ذلك»[١٢١] [غير حرفي]. تَسارَعَ الانحِدار اللَّولَبي على مر الزمن، والآن مع صَدمَة المَغول وسُقوطِ الخِلافة خَسِرَ العرب رَمزَ وحدَتِهم الكبير والوصايَة على روحِهم الأدبي ولُغتِهم العَبقرية. وَصَلَ انطِواءُ ابن خلدون إلى قَلبِ اللَّولَب الفارغ ثقافياً وسياسياً[١٢٢]. بَعد قَرنٍ مِن ابن خلدون، أصبَحَ الانحِطاط أكثر وضوحاً. كَتَبَ السيوطي، مؤرِّخُ الأدب في القَرن الخامس عشر، عن مكتبة الصّاحِب بن عَبّاد في القَرن العاشر التي احتاجَ نَقلُ كُتُبِها عن فقهِ اللغة العربية وحدَه[١٢٣] إلى حِملِ ستين بَعيراً: «وقد ذهب جلّ الكتب في الفتن الكائنة من التتار [كذا] وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة

---

(١١٧) Henry Baerlein, *The Singing Caravan: Some Echoes of Arabian Poetry* (London: John Murray, 1910), p. 17, and Clément Huart, *A History of Arabic Literature* (London: William Heinemann, 1903), p. 98.

(١١٨) Kilito, *Thou Shalt Not Speak My Language*, p. 8.

(١١٩) Jaroslav Stetkevych, "Some Observations on Arabic Poetry," *Journal of Near Eastern Studies*, vol. 26 (1967), p. 9.

(١٢٠) انظر على سبيل المثال: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ٣٢٨.

(١٢١) محمد بن أحمد بن شقرون، **مظاهر الثقافة المغربية: دراسة في الأدب المغربي في العصر العريني** (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٥)، ص ١٠٤؛ الترجمة من: Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah*, p. 43.

(١٢٢) انظر: ص ٤٥٩ من هذا الكتاب.

(١٢٣) انظر: ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ من هذا الكتاب.

الآن في اللغة... لا تجيئ حمل جمل واحد»[١٢٤].

سَيستَمرُّ اللَّولَبُ في الانحِدار، ويَعتقدُ بعضُ المُتابعين أنَّ الانحِدار مازال مستمراً. حسب تَشخيص أدونيس، فإن عالَم العربية كان في تَراجُعٍ عَن الحَداثة منذ سُقوطِ بغداد[١٢٥]. وحسب تقديرات الجابري، سيطَرَ على عالَم العربية منذ ذلك الوقت طوال تلك القرون ما أسماه «العَقل المُستَقِيل»[١٢٦]. وربما كان الشاعر نزار قباني يَتحدَّثُ عن ذلك أيضاً من أطلال بغداد وسقوط غرناطة حتى أطلال بيروت المُعاصِرة، ثم بغداد مرةً أخرى، فالموصِل وتدمر وحلب... عندما قال:

نصف أشعارنا نقوشٌ وماذا

ينفع النقش حين يهوي البناءُ؟[١٢٧]

أو في الواقِع، إذا تَمَّ تَدميرُ البِناء بأيدي أهلِه؟

وداعاً للأبواق

لم يَنحَدر كلُّ شيء، وإذا كان المَعري الذي وِلد سنة ٩٧٣ آخِر شاعر عربي عظيم، فإن حياته تَتوافَق أيضاً مع ولادة فَنٍّ جديد هو فَنُّ المَقامات، وهي حكايات أبطال مشرَّدين تُروى بِسَردٍ مَسجوع من سلالة الخِطاب الساحر للعرّافين القدماء والقرآن، إلا أنها حُوِّرَتْ بطريقة مختلفة جِداً في رواية القصة، وهي غنيّة بألعابٍ لَفظية. سرعان ما وصَلَت القصص وشخصياتها الماكِرة الجَشِعة إلى أبعَد زوايا عالَم العربية. يُمكنُ سَماع تأثيرِ سَردِها الذكي الخبيث في كثيرٍ من الكتابات العربية التالية، مثل وَصفِ انتِشار الطاعون الذي ذُكِرَ سابقاً، ويَصعُبُ الهَرَب منها تماماً حتى من جِهة الكتّاب المعاصِرين هذه الأيام.

---

(١٢٤) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٧٤.

(١٢٥) Adonis, *An Introduction to Arab Poetics* (London: Saqi Books, 2003), p. 77.

(١٢٦) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٣٢٨.

(١٢٧) نزار قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ٣ ج، ط ١٦ (بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧)، ص ٧٨٥.

حَفَّزَت المَقامات على تقليدِها في اللغة الفارسية، وحتى العِبرية[١٢٨].
وقد تَطوَّر سِحرُ واقعيتها إلى أمرٍ آخَر هو الرُّسوم التوضيحية التي لم تكن مَعروفة في الكُتُب العربية السابقة (فيما عَدا الكُتُب العلمية). أكثرُ نماذِجها شهرة هو كِتاب **مَقامات الحريري**، الذي تم تصوير مخطوطة من مخطوطاتها في بغداد ربما سنة ١٢٣٧ قبل عَقدَين من سقوط المدينة بِيَدِ المَغول. جميع الرسوم بارِعَة لامِعَة مثل الجَواهر، وكان أقواها وأبرزها صورة لمجموعةٍ من خيّالة الخليفة براياتهم المَرفوعة المُحاطَة برسومِ أبواقٍ متقاطِعة وشعاراتٍ دينية، وعيونهم تحدِّق فيما وراءَ حدودِ الصفحات وكأنهم يَستعدون للقَفز بالخيول القوية. كأنّ كلّ طاقةِ الإمبراطوريةِ القديمة وحيويتها قد سُجِّلَتا في تلك الصورة.

هذه الصورةُ بديعةٌ إلا أنها مَحكومة بالفَشل، فالخليفة والبلاط والعاصمة التي احتفَتْ بها مَحكومون بالدَّمار تحت سَنابِكِ الجَحافل القادِمة، وكذلك كان عالَمٌ عربيٌّ أوسَع مازال يَنظُر إلى رايات الخِلافة على أنها نقطةُ تَجَمُّع الكلمة. كان مصيرُ الصورةِ ذاتها أنْ تكون أسيرةَ نجاحِها. تمت إعادَة طَبعِها على أغلِفَةِ وصفحات كُتُبِ التاريخ العربي وثقافته (بما فيها أحَدُ كُتُبي). يُبيِّنُ ذلك بالطبع مَدى روعَتها، إلا أنها روعَةٌ تُنذِرُ بالكُسوف الطويل القادِم، وكأنما كلّ كِتاب عربي عن تاريخ الغرب وثقافته قد وضِعَتْ صورةُ الموناليزا على غِلافِه. سيُنشَر بالطبع كثيرٌ من المُنَمنَمات «الإسلامية» الرائعة، إنما بالفارسية أو العثمانية أو المُغولية. لم تَصِل الرسومات في الأراضي العربية مرة ثانية إلى قوة تلك الصور وروعَتها ومستواها، بل ستَنتَهي سريعاً إلى الزوال، وسيستمر الخيّالة في المَسير وهم يَرفعون راياتهم إلى حيث لا مكان.

في دوائر السُّلطَة السياسية والنَّثر والشِّعر والرَّسم، يبدو أن العرب قد عَلِقُوا في حاضرٍ متكرّر يَتبَعُ مَسارَ الحَج ولا يُغادِرُ إطارَ الصورة. لا شك بأنّ تَكوين المَغول والمماليك والبربر والفِرنجَة لإطارِ الصورة الذي لا يمكن الخروج منه قد مَنَعَ تواصُلَهم مع أحداثِ أوراسيا الأوسَع، إضافة إلى أنّ تيموراً والعثمانيين، يَلوحونَ في الأفق حينما كانت أوراسيا تتماثَل للشفاء من

(١٢٨) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Makāmāt.

الضَّربةِ القاتِلة الأولى للطاعون الأسوَد. إنما سيكون هناك مَنفَذ للخروج، بابٌ خلفيّ عبر الهامش الخصيب لسواحل شبه الجزيرة العربية، وإذا كانت آفاقها القارّية مَسدودَة، فقد كانت هناك بحارٌ مَفتوحَة في أقصَى جنوب جزيرة العرب، عالَمٌ كامل مِنَ الرياح الموسمية يمتدُّ مِن موزمبيق إلى مَضيق مالاكا وما وراءه.

بطَلُ مَقامات الحريري هو أبو زيد الذي سيمُرُّ عَبر المَنفذ الخلفي. تُظهِرُهُ صورةٌ في النَّصِّ الشهير واحِداً بين وجوهٍ كالِحة في مقصورة سفينةٍ خشبية مُتهالِكة. تُظهِرُ صورةٌ أخرى السفينةَ قُربَ جزيرةٍ تَسكُنُها قرودٌ وببغاوات وكائنات خَيالية بوجوهٍ بَشَرية. كانت تلك الجزيرة خيالية، إلا أنّ هناك كثيراً من الجُزُر الحقيقية والسواحل التي استَكشَفها مُغامرون حقيقيون وتجار وعلماء وصوفيون وانتهازيون ومُتسَكِّعون؛ أفرادٌ يُتابعون على مَهل الهجرات العربية الكبيرة في القرنَين السابع والثامن. سيَدفعون مَوجَةَ فَتح ثانية سِلمية بطيئة لانفِتاح الثقافة العربية عَبرَ المحيط. هناك قلّةٌ من الأبطال في هذه الفتوحات، كان أحدُهم ابن بطوطة الذي كَتَبَ عن ذلك. فُقِدَتْ آثارُ معظم الآخرين، إلا أنّ بعضَ الرحلات الاستِثنائية يمكن ضَمُّ أجزائها أحياناً.





الكُسوف

١٣٥٠ _ ١٨٠٠

الفصل الثاني عشر

سادَةُ الرياح الموسمية
العرب حول المحيط الهندي

المِصباحُ في المِشكاة

ولِد ابن بطوطة في المغرب في بداية القَرن الرابع عشر، وارتَحلَ إلى مكة، ثم تابَع طريقه جيئةً وذهاباً في العالَم القديم من النيجر إلى الصين، ومن الفولغا إلى جنوب تنزانيا، وربما كان أكثر البشر ترحالاً وسَفراً قَبل عَصر البخار. تُمثِّلُ حياتُه رَجُلاً دائمَ التَّعرض للمَتاعب إلا أنه دائم التفاؤل، ورحلته هي مَلحَمةُ الأدب العربي في الرحلات، وليس مهمّاً أنه بربري الأصل، لأنه كان عربيّ الثقافة تماماً، ومُتعَمقاً في مَعارف اللغة العربية والقرآن والفِقه الإسلامي، ويَعتَبر القاهرةَ ومكة قُطبَيْ الفِكر والروحانيات في عالَمه.

لم يكن ابن بطوطة بَطَلاً في نَظَر أولاده، فقد تَزوجَ عَشر مرات على الأقل، واتَّخذَ عدداً لا يُحصَى من المَحظيات، وأنجَبَ وتَركَ نَسلاً من دمشق إلى المالديف. فمَثلاً، عندما غادَرَ دلهي سنة ١٣٤١، تركَ صبياً اسمُه أحمد مع أحَد أصدقائه، واعترَفَ فيما بَعد قائلاً: «ولا أدري ما فعل الله بهما»[1]. كان الوالِد المُتراخي لا يَتعَب في سُلَّمِ التَّرَقي الاجتماعي، وكان الراعي لابنه في الهند شخصية فخمة، وهو صديقه غياث الدِّين الذي انحدَر مِن نَسل الخليفة العباسي قَبلَ الأخير في بغداد، ويُعتَبَر بذلك ابنَ عَمٍّ بَعيداً للخليفة

(١) Muhammed bin Abdallah bin Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354,* translated by H.A.R. Gibb and C. F. Beckingham (London: Published for the Hakluyt Society at the Cambridge University Press, 1958-1994), vol. 3, p. 683.

الاسمي في مصر تحت سيطَرة المماليك[٢]. انجَذَبَ غياث الدِّين مثل ابن بطوطة إلى دلهي بسبب حَملَة سُلطانِها لِجَلبِ العرب لِترسِيخِ شَرعيته كما سنَرى. أما ما يؤهل هذا العباسي المتجول ليكون راعياً لولد ابن بطوطة، فليس من الواضح: كرّس ابن بطوطة صفحتين من كتابه لسرد قصص عن بخل غياث الدين[٣].

لا نَعرفُ حتى الآن ما جَرَت به المَقادير مع غياث الدّين والصبي المَتروك أحمد، إلا أننا نَعرفُ بالمصادفَة ما جَرى لعبد الله بن غياث الدّين، فقد وجِدَتْ شَاهدَةُ قَبرِهِ في مَقبرةٍ مَلكية قديمة في شمال سومطرة قُربَ البحر على ضفاف نهر باساي. كان ذلك مَوقِع العاصمة سامودرا ـ باساي Samudra-Pasai أول دولة إسلامية في أندونيسيا، وهي الآن أكبر دولة مسلمة في العالَم من حيث عدد السكان، وهناك توفي عبد الله. كُتِبَ بالعربية على قَبرِهِ التاريخ ٨٠٩ هجرية (١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ ميلادية) وخمسة أجيال من الأسلاف حتى الخليفة المُستَنصِر في بغداد[٤]. تَجمَعُ تلك الشَّاهِدة أُبَّهَةَ النَّسَب برِثاءِ النَّفي. كان عبد الله نموذجاً مَبدئياً للأمراء الرَّحالة مِنَ الرُّوس البِيض في القَرن العشرين الذين تم نَفيُهم من بلادِهم، وظَلّوا يُتاجِرون بأصولِهم النبيلة. ويبدو أنَّ تجارة عبد الله قد رَبحَتْ لأنَّ القَبر المُجاور له، الذي ربما كان قَبرَ زوجتِه، هو قَبرُ بنتِ السلطان[٥].

إذا انتهى عبد الله بن غياث الدّين بالزواج مِن أميرة، فإن مَصيرَ أخٍ له في بغداد كان مختلفاً تماماً. تأثّر ابن بطوطة في طريق عودَتِه من الشّرق بمَنظَرِ إمام جَامِعٍ في المدينة التي أصبَحتْ خَيالَ عاصِمةٍ عالمية وهو يُطالِبُ بِدَفعِ مُستَحقَّاتِهِ المُتأخِّرة التافهة التي بَلغَتْ درهماً واحِداً عن كل يوم. اتَّضَح أنّ الرَّجُلَ الشاب كان الابن الأكبر للصَّديقِ العباسي للرّحالة. كَتَبَ ابن بطوطة:

---

(٢) قارن: ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ من هذا الكتاب.

(٣) Ibn Battutah, Ibid., vol. 3, pp. 683-685.

(٤) C. Snouck Hurgronje, *Verspreide Geschriften*, 6 vols. in 7 (Bonn; Leipzig: Brill, 1924), vol. 4, pp. 101-102.

(٥) Elizabeth Lambourn, "From Cambay to Samudera-Pasai: The Export of Gujarati Grave Memorials to Sumatra and Java in the Fifteenth Century CE," *Indonesia and the Malay World*, vol. 31, no. 90 (2003), p. 235.

والله لو بعث إليه جوهرة من الجواهر التي في الخلع الواصلة إليه من السلطان (في دهلي) لأغناه بها، ونعوذ بالله من مثل هذه الحال(٦).

يُظهِر التَّباين بين الأخوين ما كان يَجري للعرب في تلك الأيام بعد اجتياح المَغول؛ ركودٌ في أرضِ الوطن القديم، وفُرَصٌ مفتوحة أمام الذين هاجَروا. كانت بلدان الهند وجنوب شرق آسيا (بلادُ الإنديز) جزءاً من صورة أكبر، ربما يبدو عبد الله، الرّحالة العباسي في سومطرة، كحالةٍ فَريدة، إلا أنه كان في قَوسٍ امتدَّ ١٢,٠٠٠ كيلومتر من الرّحالة البَحريين، وكانت شَاهدَةُ قَبرِه العربية أحَدَ الأمور التي كانت تَجمَعهم. جاءتْ شَاهِدَةُ القَبر من الهند، مثلما جاء هو أيضاً في الغالب، خاصةً من ميناء كامبي Cambay في الزاوية الشمالية الغربية للساحل الهندي حيث وُجِدت ورشات نحت قد تعتبر أنجح المعامل من نوعها في التاريخ. أنتَجَ الحرفيون في كامبي أعمالاً بنقوشٍ عربية على رُخامٍ مَحَلي ممتاز (أُخِذَ أحياناً من أبنيةٍ قديمة كما يَظهَر في بعض جوانبها السفلى) واستُخدِمَتْ شَواهِدَ ومُسطَّحات للقبور وغيرها من النُّصُب التذكارية، وتم تصديرها في أرجاء المحيط الهندي من شرق أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا. وُجِدَتْ نُصُبٌ تذكارية من كامبي في كِلوة كيسيواني Kilwa Kisiwani جنوب ساحل تنزانيا، وفي مَقديشو، وعَدَن، وظَفار في جنوب عمان، وفي لار بإيران، وفي كامبي ذاتها، وغوا، وكولام في كيرالا، وترينكومالي في سريلانكا، وجزيرة كينولهاس في المالديف (حيث اكتشفتُ واحدة نصف مَدفونة في رقعةٍ من غابةِ أشجار صغيرة)، وفي سومطرة، وغرسيك في جاوا(٧).

لا يَتَّضِحُ مباشرةً لماذا تَطلُبُ عائلةٌ في تنزانيا مثلاً شَاهِدَةَ قَبرٍ عربية من الهند على بُعدِ ٥٠٠٠ كيلومتر عبر المحيط، بتكاليفَ مالية مُرتفعة، وتحتاج إلى وقتٍ طويل لشَحنِها، حتى نُدركَ أنّ جميع الذين حُفِظَتْ ذكراهم بهذه الطريقة يستطيعون دَفعَ هذه التكاليف (سيطَرت العائلة في كِلوة على تصدير الذَّهب من جنوب أفريقيا)، وأنّ التّحولات السنوية في الرياح الموسمية تَعني

(٦) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, vol. 3, pp. 684-685.

(٧) Tim Mackintosh-Smith, *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah* (London: John Murray, 2010), p. 34, and Lambourn, Ibid., passim.

أنّ المواصلات البحرية كانت دقيقةً كالساعة، على الرغم من كونِها ساعةً بطيئة تَسير وفقَ السّنة الشمسية. يُرسَلُ نَصُّ المَرثية مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، فتَرجِعُ شاهِدَةُ القَبر مع الرياح الشمالية الشرقية. ويتمُّ تَخليدُ فَقيدكَ الغالي بالخَطّ العربي الذي نَما وازدَهر وانتَشر في وسط آسيا وعَبر المَمرات إلى شمال الهند، وأخَذ الآن بالانتشار حول السواحل المَدارية للمحيط الهندي. طَلَبُ مثل هذه النُّصُب التذكارية كان أسلوباً للإعلان عن الانتماء إلى ثقافةٍ غنية عالمية. يَطلُبُ أثرياءُ الصين هذه الأيام سيارات إنكليزية فاخرة، وفي تلك الأيام كان سلاطينُ المحيط وأمراء التجار يَطلُبون شواهِدَ قُبورِ كامبي. كان كلّ ذلك أسهَل من الإرسال للدَّفن في شبه الجزيرة العربية مثلما فَعلَ صلاح الدّين بجثمان أبيهِ وعمّه. شاهِدَةُ القَبر من كامبي تَجلُبُ شبهَ الجزيرة العربية إليكَ وعليها آيات قرآنية من اختيارِكَ، نَقَشَها أمهَرُ الحرفيين الهنود.

تَحمِلُ أحجارُ كامبي ما هو أكثر من الكلمات العربية، خاصة على أقواسِ قمَّتِها التي احتَوتْ غالباً صورةَ مصباحٍ زجاجيّ كُمَّثريّ الشَّكل يُشبه المَزهرية مُعلَّق في مِشكاة[٨]. بكل تأكيد إن هذا الشَّكل فيه إشارةٌ واضِحة لآيةٍ في القرآن:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٩].

يَسرُدُ النَّصُّ المَنقوش على الرخام أحياناً رسائلَ غَير متوقعَّة أحياناً، مثل اقتباسٍ من قصيدةٍ فارسية لسعدي[١٠]، أو عناصر زُخرفية أخرى تتضَمّن مواضيعَ مُستوحاة من البيئة الفنية الواسعة في كامبي، خاصة من معابد جاين

(٨) انظر على سبيل المثال: Werner Daum, ed., *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix* (Innsbruck; Frankfurt/Main: Pinguin Verlag, n.d. [c. 1988]), pp. 249-251.

(٩) القرآن الكريم، «سورة النور،» الآية ٣٥.

(١٠) Lambourn, "From Cambay to Samudera-Pasai: The Export of Gujarati Grave Memorials to Sumatra and Java in the Fifteenth Century CE," pp. 229-230.

Jain temples[11]. تذكّر الأحجارُ بتنوع الأموات: عربٌ مِثل عبد الله بن غياث الدّين، وكذلك الذين اعتَنقوا الإسلام من السواحليين والصوماليين والهنود والتّاميل والأندونيسيين.

ربما احترَقَتْ عَجَلَةُ النار العربية منذ زمن طويل، ولكن منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى الخامس عشر، أصبح قَوسُ المحيط نفسه مَكاناً تتوسَّطه شبه الجزيرة العربية، وتُشِعُّ نورَ الإسلام، وتَنشُرُ العربَ وكلماتهم شرقاً وغرباً. حُفَّتْ جوانبُ الكُسوفِ العربي بالنور والضياء.

الأوثان والفِيلَة واللغة العربية

ربما كان العرب قد تمّ حَصرُهم وتَطويقُهم في قَلبِ إمبراطوريتهم السابقة تحت ضَغط الجَحافِل القادِمة من آسيا وأوروبا، ولكن في الأطراف كما ظَهَرَ في رحلات ابن بطوطة كانت الحركةُ مستمرة. في مَجال التوسُّع بَعد الغَزو المَغولي الأول الكبير في القَرن الثالث عشر، استمرَّ العربُ والمُتعرِّبون في التقدُّم أكثر، ليس كمُحاربين هذه المرة، بل كتجار ودعاة ومُغامرين تَدفعُهم الرَغبة في الاكتِساب. وكما قالَ محمد: «مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي الْعِلْمِ لا يَشْبَعُ مِنْهُ، وَمَنْهُومٌ فِي الدُّنْيَا لا يَشْبَعُ مِنْهَا»[12] أَسَّسَ الرواد إمبراطوريةً تجارية وثقافية غير رسمية حول قَوس المحيط الهندي كانت فيها الثقافة العربية والإسلامية هي المسيطِرة. سَقَطَت الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨، وكانت أقدَم وأطوَل الكيانات السياسية العربية عُمراً، وسقَط معها آخِر مظاهر الوحدِة العربية، إلا أن الشّتات العربي الإسلامي استمرّ ٢٥٠ سنة تقريباً بطريقة غير بارزة حتى قدوم الأوروبيين إلى المحيط الهندي، وكان تأثيرهم لا يقلّ في أهميته ومَداه عن الانفجار العسكري الذي حَدَثَ في القَرنَين السابع والثامن. لقد شكل خريطةَ العالم الإسلامي التي نَعرِفُها هذه الأيام. كانت القصة القديمة ذاتها لحركيّةِ التّمزق والانكسار، كَسر البيضَة لِصُنعِ العجّة.

شكَّلَ التوسُّعُ الجديد أيضاً الطرائقَ التي ستتحدّث بها نسبةٌ كبيرة من

---

(١١) Ibid., p. 233.

(١٢) ورد في: Mackintosh-Smith, *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah*, p. 339.

سكان العالَم، وكيف تكتُب وتفكّر، لأنّ اللغةَ العربية المنتَصِرة ستتقدَّم كذلك، وليس فقط على شَواهِدِ قُبورِ المسلمين. ربما سيُدهَش ابن بطوطة نفسُه وهو الرّحالة العظيم في الشّتات بمَدى انتشار اللغة العربية. حَدَثَ له مَوقفٌ غريب حوالي سنة ١٣٤٦ بعد مغادَرتِه سامودرا ـ باساي لزيارة الجماعات العربية والفارسية في جنوب الصين. نَزلَ في مكانٍ سمّاه كَيلوكَري Kaylukari حيث كان الناس يَعبدونَ الأوثان ويُربون الفِيلة، وكانت تحكمُهم أميرةٌ اسمُها أُرْدُجا Urduja ولها حَرَسٌ من النساء المُحاربات. كانت هي نفسها مُحارِبة وأقسَمتْ ألّا تتزوجَ سوى مِن رَجلٍ يستطيع التَّغلبَ عليها في مبارزة واحِدة. لم يَغلبها أحدٌ حتى ذلك الحِين (لم يَجرؤ أحَدٌ على تحدِّيها) وظلَّت عَذراء[١٣]. تغلَّبتْ أُرْدُجا على جميع الباحِثين أيضاً، إذ استَنتجَ بعضُهم أنّ كَيلوكَري لم توجَد سوى في خَيال ابن بطوطة الخصب، واستَنتَج آخرون أنه خَلَطَ الحقيقةَ بالخيال، مثل تلك الجزيرة في مَقامات الحريري حيث عاشَت الببغاوات والقرود في انسِجام مع نَسرٍ خَطّافٍ خُرافِيّ ومع أبي الهول[١٤]. من الواضِح أنّ اللّومَ يقعُ جزئياً على رواياتِ بَحّارة، لأنّ أكثر المعلومات إثارةً عن الأميرة جاءتْ على لِسان قبطان سفينةِ ابن بطوطة. غير أن ابن بطوطة يقدِّم تفصيلات أخرى تَبرُزُ أكثر، ليس لأنها مُثيرة، ولكنها غير متوقعة أيضاً: قالَت الأميرةُ لأحَدِ الحاضِرين وهي تُريدُ إبهَارَ الرّحالة: «دواة وبَتَك كاتور»، بمعنى «أحضِر دواة وورقاً»[١٥]. جُلِبَ إليها ما طَلَبَتْ، فكَتَبتْ: «بسم الله الرحمن الرحيم». كان أول التّفاصيل غير متوقع ـ وهو أن الأميرة خاطبت ابن بطوطة بنوع من اللغة التركية ـ أما الثاني فكان أنها كَتَبتْ باللغة العربية بشكلٍ جيد، وهو أقلّ إثارةً للاستِغراب.

لو حدَثَ هذا اللقاءُ فِعلاً فإننا لا نَعرفُ أين كان ذلك. ادَّعَت الفلبين أنَّ الأميرة أُردجا منهم، وربما مَواقِعُ أخرى قد تكون أقرَب مِثل فيتنام أو بورنيو. ومهما كان المَكان ففي الغالب أن كَيلوكَري كانت مُستعمَرة من الإمبراطورية البحرية المنتَشِرة ماجاباهيت Majapahit التي كانت عاصِمتها في شرق جاوا. وإذا كانت الحال كذلك، فإن مَعرفةَ الأميرة لبعضِ الكتابة

---

(١٣) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta*, vol. 4, pp. 884-887.

(١٤) انظر: ص ٥٢٢ من هذا الكتاب.

(١٥) Ibn Battutah, Ibid., vol. 4, p. 886.

العربية ليس بَعيدَ الاحتمال. بَدأ استِخدامُ الخط العربي في كتابةِ لغةِ الملايو القديمة التي كانت لغةَ بعضِ ممتلكات إمبراطورية ماجاباهيت. هناك نقودٌ لهذه الإمبراطورية وربما رُموزٌ أو تَمائم تَظهَرُ على أحَد وجوهِها الرُّوحُ الجَاويّةُ(١٦) الحامِية سيمار Semar مع كريشنا وفِيل، وجميعها مَرسومٌ بأسلوبِ خَيالِ الظِّل، وعلى الوَجهِ الآخَر كتابةٌ عربية هي إعلانُ الإسلام:

لا إله إلا الله، محمد رسول الله(١٧)

إنها توفيقيةٌ مَجيدة تُثبتُ أنَّ دَليلاً أثَرياً مَتيناً قد يكونُ مُدهِشاً مثلَ قصص البحّارة وروايات الرحالة.

البحرُ المُبارَك

ساعدَت الرياحُ الموسِمية المنتظَمة على انتشارِ العرب والعربية، وشجَّعَت على ذلك ثرواتُ المحيط وسواحله. بالمُقارَنة مع البحر الأبيض المتوسط الشرير الذي لَعَنَهُ الله، فإن المحيط الهندي كان مباركاً بمُنتَجاتٍ ثمينة(١٨)، وكان حسبَ أقدَم كُتُبِ الرحلات العربية:

بحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعَنبر وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب وفي أفواه دوابّه العاج، وفي منابته الأبنوس والبقّم والخيزران وشجر العود والكافور والجَوزُبَوّا والقرنفل والصَّندل وسائر الأفواه الطيبة الذكية، وطُيورُه الفَفاغى (Fafagha) ـ يعني الببّغاوات ـ والطَواويس، وخرشات أرضِه الزباد وظبا المِسك وما لا يحصيه أحد لكثرة خيره(١٩).

(١٦) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 4, p. 1128.

(١٧) <http://masterpieces.asemus.museum/masterpiece/detail.nhn?objectId=11280> (accessed 1 November 2018). The glorious syncretism has lived on. Writing of those shadow-puppet deities in the mid-twentieth century, Anthony Burgess described a puppet-master calling, before a performance, 'on many gods and devils... not to take offence at the crude representation of their acts... he abased himself before their greatness. And he remembered the one true religion, invoking the protection of the four archangels of the Koran'.
See Anthony Burgess, *The Malayan Trilogy* (London: Vintage, 2000), p. 346.

(١٨) شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حققه ميخائيل جان دوغويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧)، ص ٢٨. انظر أيضاً: ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ من هذا الكتاب.

(١٩) Abū Zayd al-Sīrāfī and Ahmad bin Fadlan, *Two Arabic Travel Books: Accounts of China and India and Mission to the Volga*, edited and translated by Tim Mackintosh-Smith and James E. Montgomery (New York; London: New York University Press, 2014), p. 125.

كما أن المحيط يَتداخَلُ مع شبكةٍ أوسَع كما لاحَظَ الشاعر سعدي في القَرن الثالث عشر. ستَنتَشر أشعارُهُ في تلك الشَّبَكَة وتَظهَر في أماكِن غير متوقَّعة، ليس فقط على شَاهِدة قَبرٍ من كامبي اكتُشِفَتْ في سومطرة[٢٠]، بل كذلك في أغنياتٍ سَمِعَها ابن بطوطة على ظَهرِ سفينةٍ في المدينة الصينية هانغجو Hangzhou[٢١]. كتَبَ سعدي نفسه عن لقاءٍ في جزيرة كيش في الخليج، حيث حَلِمَ تاجرٌ ذات يوم بالرحلة التجارية العظمى:

سآخُذُ كِبريتاً فارسياً إلى الصين... وأوعيةً صينية إلى اليونان، ودِيباجاً إغريقياً إلى الهند، وفولاذاً هِندياً إلى حلب، ومَرايا حلب إلى اليمن، وأقمِشةً يمنيّة إلى فارس، ثم أتوقَّفُ عن التجارة[٢٢].

لم يكن التاجر في الواقع في أفضَل مَوقِع على جزيرة كيش، فقد كان الغَزو المَغولي قد دَفَعَ الأطرافَ الغربية للتجارة من الخليج وفارس والعراق إلى البحر الأحمر ومصر. فيما عَدا ذلك، كانت أواخر القَرن الثالث عشر فترةً ملائمةً للتجارة العالمية. أدّى الخَراب الذي قام به المَغول على الأرض إلى ازدِهار التجارة البَحرية[٢٣]، وعندما هَدأ وَرَثَةُ جنكيزخان واستقروا، فإنّ السلام الآتي أعطَى دَفقَةً حيويةً للتجارة البريّة أيضاً. كانت الرّقعةُ الكبيرة الممتدَّة في آسيا تحت حُكم المَغول موحَّدَة بشكلٍ فَضفاض مِنَ الهلال الخصيب الشمالي إلى البحر الأصفر. استَغلَّ أفرادٌ تيّاراتِ العالَم الجديد، وكذلك فَعَلَتْ شركات تجارية كانت أكثرها رِبحاً شركةُ الكارم في مصر وشرق المتوسط. كانوا مسلمين، إلا أنّ أصولَهم ربما كانت انتقائية، وتمّ تقديمُهم كتُجارِ تَوابل، إلا أن اهتماماتهم كانت أوسَع. كانوا موجودين قَبل ذلك بعدّة قرون وانتَعشوا بفضلِ السلام المغولي باكس مونغوليكا Pax Mongolica، وحقَّقوا حُلمَ تاجِرِ سعدي وأكثر، واشتَغلوا في شبكةٍ عالمية امتدَّتْ من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي عَبرَ العالَم القديم[٢٤].

---

(٢٠) انظر: ص ٥٢٩ من هذا الكتاب.

(٢١) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta*, vol. 4, p. 903.

(٢٢) Muslihu'd-Din Sa'di, *The Rose-Garden*, translated by Edward B. Eastwick (London: Octagon Press, 1979), p. 131.

(٢٣) Engseng Ho, *The Graves of Tarim: Genealogy and Mobility across the Indian Ocean* (Berkeley, CA; Los Angeles University of California Press, 2006), p. 100.

(٢٤) Janet L. Abu-Lughod, *Before European Hegemony: The World System AD 1250-1350* =

تأتي أحياناً الراياتُ وراءَ التجارة مثلما حَدَثَ في بِداية تاريخ الإمبراطورية العربية، وما سيَحدُث في الإمبراطوريات الأوروبية القادمة. في زاويةٍ بعيدة من القَوس، كانت الأسرةُ التي طَلَبَتْ شواهِدَ القبور من كامبي تحكُمُ سلطَنَةَ جزيرةٍ صغيرة هي كلوة كيسيواني Kilwa Kisiwani، كانت قابِعةً هناك منذ الرُّبع الأخير من القَرن الثالث عشر، وكانوا مُهاجرين من عرب اليمن، وربما مِن عَشيرةِ محمد الهاشمية[٢٥]. في كلوة، ومع ذلك، انضمُّوا إلى الثقافة غير المُحدَّدة حولَ المحيط الهندي، فجاءَت شَواهدُ قُبورِهم من الهند، وجاءت أطباقُ طعامِهم الفاخِرة من الخَزَف الـ «شينغباي» والـ «سيلادون» من الصين. كان مَصدَر ثَروتهم الذَّهب الآتي من جنوب أفريقيا، احتَكَروا تَصديرَه فكانوا مِثْل سيسيل رودس Cecil Rhodes، غير أن سَلطَنَتَهم لم تكن مثل روديسيا، ولم يكن فيها فَصلٌ عُنصري عِرقي أو ثقافي، وسرعان ما امتَزَجَ فيها خليطٌ متنوع مِنَ المجتمع الأفريقي ـ العربي السواحلي. كان طولُ الجزيرة بضعة كيلومترات، إلا أنها كانت تَنتَمي إلى سواحِليةِ شرق أفريقيا، وإلى القَوسِ الكبير للمحيط الهندي، مثلما كانت تَنتَمي إلى مُستقبلٍ سيتَولَّدُ عنه زنجِبار وسنغافورة وهونغ كونغ.

كان احتكارُ كلوة للذَّهب غير نموذجيّ، فقد كانت تجارة المحيط مَفتوحة وعضوية. إلا أنّ الثروات التي تدَفَّقتْ على الجزيرة أدَّت إلى تمكُّن السلطان من بِناء هياكل خالدة، مثل الجامع الحَجَري الذي كان لعدّة قرون أكبر جامِعٍ في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، والقَصر الكبير الذي حَمَلَ لَمسَةً مثاليّةً للرجل الغنيّ مازالت قائمة، وهي بركَةُ سباحةٍ بلا نهاية تُطِلُّ على البحر المُبارَك.

إمبراطورية الوَهم

مثلما كانت الحالة في الإمبراطورية الحقيقية في القَرن السابع والثامن، لم يُساهِم العربُ وحدَهم في إنشاء الإمبراطورية الثقافية الافتِراضية بَعد عَصر

(New York: Oxford University Press, 1991), pp. 228-230, and *The Encyclopaedia of Islam*, vol.= 4, p. 641.

(٢٥) Nehemia Levtzion and Randall L. Pouwels, eds., *The History of Islam in Africa* (Athens, OH: Ohio University Press, 2000), p. 255.

المَغول، بل ساهَمَ فيها أيضاً الفرس والبربر والترك وغيرهم. ومِثل تلك الإمبراطورية العسكرية السابقة، اكتسَبَت الإمبراطوريةُ الثقافية زَخمَها، ونَشرَ التجارُ المسلمون وغيرهم مَعارفَ المنطقة الإسلامية الحضارية المتقدِّمة إلى مناطق بعيدة، وإلى حُكّام اعتَنقوا الإسلام، خاصة من المؤسِّسين الجُدد الذين لا يتمتَّعون بأية أوراق اعتِماد سوى القوة العنيفة. ثم شَجَّعوا العربَ وغيرهم، خاصة العلماء المسلمين، للقدوم إلى مَجالسِهم لإضفاءِ الشرعية على أنفسِهم ببريقِ العِلم ونفَحَاتٍ مِن الأماكِن المُقدَّسة. ازدادت حركةُ التجارة والدَّعوة، وانتَشَر الإسلام شَرقاً عَبر العالَم، وتَغلغَل ببطءٍ في المجتمعات.

يُبَيِّنُ مِثالُ المَناطق حولَ مَضيقِ مالاكا كيف انتَشَرت الإمبراطوريةُ الثقافية في القَرنَين الرابع عشر والخامس عشر. كما رأينا، فإن حُكّامَ سامودرا ـ باساي في شمال سومطرة قد اعتَنقوا الإسلام قَبل ذلك مع نهاية القَرن الثالث عشر على الأقل. بَعد ذلك بنحو قَرنٍ آخَر، يبدو أنَّ العائلة السُّلطانية كانت مَسرورةً بضَمِّ رَجُلٍ عباسيّ يَحمِلُ دَماً نبيلاً إليها بالمُصاهَرة. يُزعَمُ بَعد ذلك أنَّ تُجاراً من سومطرة نصَحوا زعيمَ مالاكا بأنْ يُصبِحَ مسلِماً أيضاً(٢٦). لا تَتضِحُ كيفية بدء أسلَمَة جُزر الهند الشرقية، ويدَّعي مؤرخون مَحليون أنَّ دُعاةً قد أُرسِلوا مباشرةً من مكة إلى سومطرة(٢٧). غير أنّ مسلمين وعرباً كانوا يأتون إلى جنوب شرق آسيا، إنما ليس بقَفزَةٍ واحدة، بل عَبر الهند.

كانت الهندُ بوابةَ عبورٍ من داخل آسيا إلى قَوسِ المحيط الهندي أيضاً. احتلَّ مغامرون مسلمون أتراك دلهي في أواخِر القَرن الثاني عشر، ثم حَلَّتْ كارثةُ المَغول التي هجَّرَتْ تياراً من سكان آسيا الوسطى المسلمين إلى شبه القارة الهندية. ازدادَ التدَّفق في القَرن الثالث عشر بانتِشار أخبارِ الفُرَصِ الهندية من خلال شبكة التجارة وحجّاج مكة(٢٨). وفي منتصف القَرن الرابع عشر تحت حُكم محمد شاه بن تُغْلُق سلطان دلهي، الذي استضَافَ ابن بطوطة وغياث الدين، أصبحَ التدَّفقُ فيضاناً.

---

(٢٦) Ho, *The Graves of Tarim: Genealogy and Mobility across the Indian Ocean*, p. 102.

(٢٧) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Indonesia.

(٢٨) Peter Hardy, *Historians of Medieval India: Studies in Indo-Muslim Historical Writing* (New Delhi: Munshiram Manoharlal Publishers, 1997), p. 33.

انحدَرَ محمد شاه مِن أصلٍ تركي ـ مَغولي، وكان يريدُ احتلالَ شبه القارة الهندية بكاملها مثلما فَعلَ بَعدَه حُكّامُ الهند من أصول مَغولية (المُغول). جعَلتْ حَملاتٌ جنوبية من دلهي أغنَى دولة إسلامية في العالَم مَغمورَة بالذَّهب والعَبيد. حدَثتْ هجرةٌ تشبه هجرةَ الهنود هذه الأيام إلى منطقة الخليج. أرسَلَ محمد شاه أحياناً أساطيل مِنَ السُّفن إلى الخليج لاستِحضار العرب(٢٩). تَجمَّعوا حَولَ محمد شاه «مثل فراشاتٌ حولَ شَمعة»(٣٠)، حسب قولِ أحَدِ المُعاصِرين. أُعجِبَ رِجالُ الحاشيةِ العرب بالبلاط وغُرفَة الألفِ عَمود التي كانت تحتوي على ثروات ضخمة. تمتَّع غياث الدّين في قَصرِه بدلهي بمُقتَنيات يَحلمُ بها الأثرياء: حوض استحمام من الذهب(٣١)، وكانت أزرار معطَفِه مِن لآلئ حجمها كحجم البندق تكفي واحدةٌ منها لإنقاذِ ابنِه مِنَ الفاقَة في بغداد(٣٢). كان غياث الدّين صِهر السّلطان، وكان مفضَّلاً بشكلٍ خاص، إلا أن محمد شاه كان مُحاطاً بالعرب من جميع الأصول، وكان يُخاطِبهم بلَقَبِ «سيدي»(٣٣) ويَغمُرُهم بالهدايا.

كان وجود المرء في البلاط يعتمد دائماً على قبول السلطان. وبين العرب البارزين الذين ظَهرَوا في دلهي في ثلاثينيات القرن الرابع عشر، كان شابٌّ اسمُه غَدا، وهو حَفيدُ مُهَنَّا بن عيسى أمير العرب في سورية(٣٤) الذي تأرجَحَ وَلاؤه بين المماليك والمَغول. مَنَحَ محمد شاه ذلك الشابَّ دَخلَ مقاطعاتٍ واسِعة تُعادِل مساحَتُها ولايةَ غوجارات Gujerat الحالية، كما زَوَّجَهُ أختَهُ في احتفال مشهور(٣٥).

عظمه (السلطانُ) تعظيماً شديداً، وكان عربياً جافياً فلم يُقدر قدر ذلك، وغلب عليه جفاء البادية، فأداه ذلك إلى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه(٣٦).

---

(٢٩) Ross E. Dunn, *The Adventures of Ibn Battuta: A Muslim Traveler of the 14th Century* (Berkeley, CA; Los Angeles: University of California Press, 1989), p. 226.

(٣٠) Isami quoted in: Ibid., p. 183.

(٣١) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta*, vol. 3, p. 681.

(٣٢) Ibid., vol. 3, p. 683.

(٣٣) Ibid., vol. 3, pp. 745-746.

(٣٤) قارن: ص ٥١٣ من هذا الكتاب.

(٣٥) Ibid., vol. 3, pp. 686-689.

(٣٦) Ibid., vol. 3, pp. 689-690.

بَدأ الأمير الصغير بمُقارَعة مسؤولين من أصولٍ نبيلة، وانتَهى به الأمرُ في سِجنِ السلطان. مُنِحَ مُهلَةً في النهاية «تأدب وتهذب»[٣٧].

لم يَرتَكِب العباسي المُهذَّب غياث الدّين مثل هذه الأخطاء، واستطاعَ السلطانُ أن يُشرِكَهُ في امتيازاته (share his betel with him)، ولم يَفعَل ذلكَ مع أحدٍ غيره[٣٨]. أُعيدَتْ تَسميةُ الجُزءِ الذي عاشَ فيه غياث الدين في دلهي باسم «مَسكَن الخليفة»[٣٩]. وفي إحدى المناسبات، بَعد أن استَخَفَّ بهِ السلطان دون قَصدٍ، استلقى محمد شاه على الأرض وأجبَرَ غياث الدّين على وَضعِ قَدَمِ الخليفة على الرَّقَبة السُّلطانية[٤٠]. بل ذَهَبَ هَوَسُ السلطان بالعرب، خاصة بالعائلة العباسية، أبعَد من ذلك؛ فقَبلَ وصولِ غياث الدّين إلى دلهي تَخلَّى محمد شاه، الذي كان أغنَى حَاكِم مسلِم في العالَم، عن إمبراطوريته إلى الخليفة المُستَكفي سُليمان[٤١]، ذلك المَنفيّ الفقير في مصر الذي كان ألعوبةً بِيَدِ المماليك.

لا شك بأنّ سليمان قد تحيّر بذلك، غير أنه أَرسَلَ وثيقةً إلى محمد شاه أعلَنَ فيها أن سلطان دلهي هو نائبه ومُمثِّله، وأرسَلَ مجموعةً من الثياب السوداء بلَون السلالة العباسية. لم ينفَع هذا كثيراً ذلك السلطان الاسمِي الجديد في الهند، فعندما وَصَلَت الوثيقةُ أخيراً إلى محمد شاه سنة ١٣٤٣، ووضِعَ اسمُ سليمان على النقودِ بَدلاً من اسمِه هو، كان الخليفةُ قد توفي. لم يتردَّد محمد شاه في طَلَبِ وثيقةٍ أخرى من ابنه وخليفته[٤٢]. عملياً، كان ذلك أقلّ في مَعناه مِن كون الملكة إليزابيث الثانية رئيسةَ دولة استراليا. أما بالنسبة إلى محمد شاه، فقد كان ذلك يَحمِلُ مَعنى أكبَر بكثير، فقد كان رَجلاً يمتلكُ كل شيءٍ مادياً، إلا أنه كان يَفتقِدُ إلى الشَّرعية بصِفَتِه الوارث الثاني في سلالة تركية مَغولية سارِقة تَحوَّلتْ حديثاً إلى الإسلام، ولم يكن

---

(٣٧) Ibid., vol. 3, p. 692.

(٣٨) Ibid., vol. 3, p. 680.

(٣٩) Ibid., vol. 3, p. 619.

(٤٠) Ibid., vol. 3, pp. 682-683.

(٤١) انظر: ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ من هذا الكتاب.

(٤٢) Peter Jackson, *The Delhi Sultanate: A Political and Military History* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1998), p. 272.

لديه مِن شَرعيةٍ سوى قوّته الدنيوية. لم يُزعِج مِثلُ ذلك المَوقف معظم الحكّام، إلا أنه أزعجَ محمد شاه الذي كان واحِداً من أكثر الملوك إثارةً للإعجاب والخوف والتعقيد في تاريخ العالَم. يُظهِر مَقطعٌ من سِيرتِه الذاتية وقوعَهُ في ضائقةٍ نفسية عميقة كادَتْ تكون أزمةً وجودية:

منَعَني أبي من البَحث عَن إمام تَقيّ... لم أتمكَّن من تحقيق رغباتي ومخطَّطاتي... كنتُ أفضّلُ أن أكونَ وثَنياً على الرغم من الإسلام[٤٣].

أنقَذَ محمد شاه نفسَه من الوثَنية بأنْ وَجَدَ لنفسِه إماماً صالحاً في أولئك الخلفاء الضعفاء في ظِلّ مصر. استمرّت الإمبراطوريةُ العربية القديمة بسيطَرتها الوَهمية على أغنَى حاكِم في العالَم بالملابس السوداء ووَضعِ الرِّجلِ العَباسية على الرَّقبة السُّلطانية.

قَرنُ الطَّرد المَركزي

إذا كان محمد شاه الغامِض المُحِبّ للعرب حالَةً خاصة، فقد كانت دلهي مَقصداً واحِداً فقط من مَقاصِد المهاجرين العرب، ولم يكن معظم المُغامرين والباحثين عن الثروة من نَسلِ عباسيين أو أمراء القبائل الكبار. كان البربري الدَّم ابن بطوطة من عائلةٍ محترمة ولكن متواضِعة في طَنجة. قابَلَ في دلهي وفي الصين رَفيقاً مَغربياً اسمه البُشري، وكان رحَّالة مِن خَلفيةٍ مُشابِهة مِن مدينة سَبتة (بالإسبانية حالياً Ceuta) شمال مَسقط رأسِه[٤٤]. أقامَ فيما بَعد عند أخٍ للبُشري على الحافة الشمالية الغربية من الصحراء الكبرى[٤٥]، وصَرَّحَ قائلاً: «فيا شد ما تباعدا!»[٤٦]؛ كانا على بُعدِ نحو ١٢،٥٠٠ كيلومتر. ومثلما بَعثَرَ شتاتُ القَرنَين السابع والثامن عائلاتٍ عربية، ومثلما تَفرَّقَ أبناءُ العباس الخَمسة بين تونس وسمرقند[٤٧]، وتفرق الأخَوان اللذَان حَكَما تونس والسّند[٤٨]، فكذلك فَعَلَ قَرنُ الطَّردِ المَركزي بعد كارثة

(٤٣) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٤٤) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta*, vol. 4, pp. 899-900.

(٤٥) Ibid., vol. 4, p. 946.

(٤٦) Ibid., vol. 4, p. 900.

(٤٧) انظر: ص ٢٩٢ من هذا الكتاب.

(٤٨) انظر: ص ٣٨٥ من هذا الكتاب.

المَغول. انفتَحَت الآن أيضاً مناطق جديدة أمام المُغامرين، وليس فقط حَولَ المحيط الهندي؛ ففي جنوب الصحراء الكبرى والساحل وَجَدَ ابن بطوطة إمبراطورية مالي العظمى في غرب أفريقيا (أكبر بكثير من دولة مالي المُعاصِرة)، والتي كانت مقاماً لكثير من المهاجرين العرب، كان معظمهم من شمال أفريقيا، وكان بعضُهم من أصولٍ أخرى أبعد مثل السّاحلي، الغَرناطي المتميز العالِم والمِعماري، والتاجر الكُوَيك العراقيّ الأصل، اللذين شاهد ابن بطوطة قبريهما في تُمبُكتو(٤٩).

ظلَّ معظمُ العرب بالطبع في بلادِهم، على العَكس مما حَدَثَ في الهجرات الكبيرة في القرون الإسلامية الأولى. كان هذا شَتاتاً على الأطراف لأقليةٍ مُغامرة. من المستحيل مَعرفة الأعداد، ولكن تقديرها من خلال شَواهِد القُبور الإسلامية المُتبقّية في مَوقعٍ واحِد في الشرق الأقصى هو تشوانجو Quanzhou في مقاطعة فوجيان الصينية التي كانت بمَثابة هونغ كونغ في أيامها، يظهر أن العرب، اليمنيين بشكلٍ خاص، كانوا موجودين بشكلٍ واضِح بين المسلمين من أصولٍ أخرى من الفرس والترك(٥٠). هناك في المدينة التي اعتَبرها الصينيون «أغنَى مدينة تحت السماء»(٥١) كان هناك لا أقلّ من اثنَي عشر حاكِماً مسلِماً من الأربعة والعشرين الذين حَكَموا في ظِلِّ سُلالة يوان المَغولية(٥٢). ولم يكن جميعُ الرّحالة العرب والمُتَعرِّبين مسلمين. فمَثلاً، في شمال القوقاز فيما هو الآن جنوب روسيا، التَقى ابن بطوطة بيَهوديّ مِنَ الأندلس سافَرَ بَرّاً عبر القسطنطينية في أربعة أشهر. اعتَبَر رواةٌ مَحَليون مِثلَ هذه الرحلة أمراً عادياً(٥٣). ظَهَرَ مسافرون وتجار إلى مناطق بعيدة بانتظام في وثائق جنيزا القاهرة Cairo Geniza، وهي مخزن للوثائق القديمة في كَنيسٍ يهودي. اتَّضَح أنّ هذا السّجل الضّخم كَنزٌ

---

(٤٩) Ibn Battutah, Ibid., vol. 4, p. 969.

(٥٠) Mackintosh-Smith, *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah*, p. 199, and Chen Da-sheng et Ludvik Kalus, *Corpus d'inscriptions arabes et persanes en Chine I: Province de Fu-Jian (Quan-zhou, Fu-zhou, Xia-men)*, bibliotheque d'etudes islamiques (Paris: Geuthner, 1991), vol. 1, passim.

(٥١) Chen Da-sheng et Kalus, Ibid., vol. 1, p. 28.

(٥٢) Ibid., vol. 1, p. 33.

(٥٣) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta*, vol. 2, p. 480.

للمعلومات عن المصريين والجماعات اليهودية من القَرن الحادي عشر وما بَعده. تمكَّن الباحثون المُدقِّقون من مُتابعَة سِيرةِ أناسٍ أهمَلَهم المؤرخون المَنهَجيون. فمَثلاً، كان أبراهام بن ييجو رَجُلَ أعمالٍ يهودياً تونسياً في تجارة الهند(٥٤)، وأبو زكري هاكوهين، وأصلُهُ من سجلماسة في جنوب المغرب، كان يتعامَل ببضائع المحيط الهندي من القاهرة، وكان له صِهرٌ عَمِلَ كممثِّل له في سَواكِن السودانية(٥٥).

ربما لم يَشتَرِك أولئك الرّحالة بالدّين أو بالأصلِ العِرقي، غير أنهم اشتَركوا بعَقليةٍ عالمية، أو نصف عالمية على الأقل، وكانوا يُجيدون لُغة هذا العالم الرئيسية. وبفَضلِ انتِشار الإسلام واللغة العربية تمكَّن أشخاصٌ مثل ابن بطوطة من الانسِجام في مناطق بعيدة مثل مالي في غرب أفريقيا، وجزر المالديف، وحتى في أطرافِ العالَم المَعروف مع أُردُجا الأميرة الشرسة.

المفرداتُ الرُّجولِية

مثلما هي الحال مع رحَّالة هذه الأيام حيث تُغطّي مَعرفةُ اللغة الإنكليزية مع شيءٍ من الفرنسية أو الإسبانية معظَم الاحتياجات، فإن رحّالة القَرن الرابع عشر تمكَّنوا من الترحال باستِخدام اللغةِ العربية مع قليلٍ من الفارسية وربما التركية. التَّحدُّثُ بالعربية آنذاك جَعلَ السَّفر والتَّنقل سَهلاً مثل التَّحدُّثِ بالإنكليزية هذه الأيام، وكانت المُفارَقة أن العربية الفصحى كانت تَضعُفُ في الوطن الأمّ. استَمعَ ابن بطوطة إلى خطبةِ الجمعة في البصرة سنة ١٣٢٧، المدينة العراقية التي صِيغَتْ فيها قواعدُ اللغة العربية، وذُهِلَ عندما وجَدَ أنه «لما قام الخطيب إلى الخطبة وسردها لحن فيها لحناً كثيراً جلياً»، وعندما اشتَكى ذلكَ لأحَدِ العلماء المَحَليين، جاءَ رَدُّهُ بصَراحة: «إن هذا البلد لم يبق به من يَعرف شيئاً من عِلم النَّحو»(٥٦). يبدو أنَّ الانهيار السياسي والاجتماعي الذي ضَرَبَ قَلبَ البلاد عدةَ قرون، وما تَبِعَهُ من اجتياحِ

(٥٤) Amitav Ghosh, *In an Antique Land* (London: Vintage, 1994), passim.

(٥٥) Kirti N. Chaudhuri, *Trade and Civilisation in the Indian Ocean* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1985), p. 59.

(٥٦) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta*, vol. 2, p. 277.

المَغول، قد قَوَّضَ حتى أقدَم قواعِد الوحدَة العربية وأقواها، وهي اللغة العربية. كانت «القَواعِد» تَنهارُ بشكلٍ يُنذِرُ بالخَطر.

كانت اللغة العربية تَنشُرُ إمبراطوريتَها فيما وراء البحار، ربما في محاوَلَةٍ للتَّعويض. كانت قد استَعمَرت الفارسية والتركية، وَوصلَتْ مُفرداتُها إلى داخِلِ اللغات الأوروبية، واتَّجهَت الآن لغَزو بلادٍ جديدة وألسِنة جديدة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وفي الهند وجنوب شرق آسيا. انتَشَرت الكتابةُ العربية أيضاً مع التجارة والإسلام ومع الثقافة المادّية التي حَمَلَتْها. كانت التَّعبيرَ الحرفي لتلك الثقافة. وبَعد قليلٍ من ظُهورِ أحجارِ كامبي في سومطرة مَنقوشَةً باللغة العربية، ظَهَرَ أول نَصٍّ مَلايوي مَكتوبٍ بالعربية، وجِدَ عَبرَ المَضيق في شبه جزيرة المَلايو، وقد يرجع تاريخه إلى سنة ١٣٢٦[٥٧]. ستَطولُ لائِحةُ اللغات التي ستُكتَبُ بالحروف العربية وستُغطّي كثيراً من مناطق العالَم القديم؛ فإضافة إلى اللغات العربية والفارسية والتركية، ستَظهَر لغاتُ الملايو والكُردية ولغاتُ البَشتو والسّند وكَشمير والأردية، ولغة الأويغور في تركستان الصينية، والسواحلية في شرق أفريقيا، والفولانية والهوسية في غرب أفريقيا، وحتى الكُرواتية في البلقان لبعض الوقت[٥٨]، ولغة «ملايو رأس الرجاء الصالح» وهي في الحقيقة شَكلٌ من الأفريقانية التي استَخدَمها المسلمون مِن أهلِ أفريقيا الجنوبية في القَرن التاسع عشر، وكانت تُكتَب بالحروف العربية، وبعض اللغات «السّرية» بين عَشائر جنوب مدغشقر[٥٩]. اقتَضى الأمرُ في معظم الحالات إضافةَ بعضِ الحروف، وأحياناً تصميم أسلوب جديد تماماً في الكتابة، مثل خَطّ نَستَعليق في الفارسية، الذي يُقالُ إنه استُلهِمَ من حُلم أوحَى فيه عليّ بن أبي طالب ابن عمّ محمد وصهره وأحد خطاطيه وصاحبٌ للخَطّاط أن يَبحثَ عن الإلهام في

---

(٥٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 4, p. 1128.

(٥٨) Ibid., vol. 4, p. 1113; Michael C.A. Macdonald, ed., *The Development of Arabic as a Written Language* (Oxford: Oxford University Press, 2010), p. 22, note 47.

انظر أيضاً: محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه** (القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩)، ص ٤٧ ـ ٥٣.

(٥٩) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 232.

أشكال أعضاء البطّ(٦٠). في هذه الأثناء في الشرق الأقصى، كان الانتقالُ القديم من نَحتِ زوايا الكِتابة النبطية والكوفية إلى الخَطّ المُتَّصِل المَكتوب بالقَلم والحِبر في دواوين الخلافة قد تمّ تَبنِّيهِ بشكلٍ أعمَق في النصوص العربية الصينية المَكتوبة بفرشاةِ الحِبر والتي تبدو وكأنها هبَطَتْ مِن لَفائف الغيوم.

يمكن تقدير مَدى تَغلغُل اللغةِ العربية في اللغات ذاتِها مِنْ عَدَدِ المُفردات المُستَورَدة منها. في الجمهورية التركية سنة ١٩٣١ كانت ٥١ بالمئة من مُفردات الصحفِ عربيةً، وحتى بَعد جِيلٍ كامل من نَزعِ العربية، ظَلَّت النّسبة سَنة ١٩٦٥ نحو ٢٦ بالمئة(٦١). كانتْ هناك محاولاتٌ في الفارسية لتَغيير القواميس في القَرن التاسع عشر(٦٢)، إلا أن نحو ٣٠ بالمئة من المُفردات تظَلُّ عربيةً(٦٣). انتَقلَت العربيةُ عبر فارس إلى شبه القارة الهندية حيث كانت اللغة الهندية والأوردية وكثيرٌ من اللغات القَريبةِ غَنيةً بالمُفردات العربية، فنَرى أنّ مَفهوماً شديد المَحَلية مِثل «خالصة السيخ Sikh khalsa» يَتَّضِح أنّ لَه أصلاً عربيّاً مِن «خالص» بمَعنى نَقِيّ(٦٤). كما أنّ تاريخَ الهند الاستعماري الحديث أدّى كذلك إلى أنّ مَوجةً ثانيةً صغيرة من المفردات العربية وَجدَتْ طَريقَها عَبر أوروبا، خاصة مع النَّابوب nabobs «مِن العربية: النُّواب»، إلى بريطانيا ذاتها، وكلمة 'Blighty' مِن العربية «وِلايَة» إلى الفارسية فالهندية «بِلايَتي bilayati» والتي تَعني البلادَ الأجنبية خاصة أوروبا وبريطانيا(٦٥). مازالت عملية التعريب مستمرةً على الأقل في جُزءٍ من شبه القارة الهندية مثل اللغة البَنغالية في بنغلاديش حيث تُستبدَل مُفردات مُستعارة من السَّنسكريتية بكلماتٍ مِنْ أصولٍ عربية(٦٦).

---

(٦٠) الكردي، المصدر نفسه، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٦١) Kees Versteegh, "Linguistic Contacts between Arabic and Other Languages," *Arabica*, vol. 48, no. 4 (2001), p. 495.

(٦٢) Ibid., p. 491.

(٦٣) Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 4.

(٦٤) Henry Yule and A. C. Burnell, *Hobson-Jobson: The Anglo-Indian Dictionary*, edited by W. Crooke, 2nd ed. (London: John Murray, 1903), s.v. Khalsa.

(٦٥) Ibid., s.v. Bilayut, and Garland Cannon, *The Arabic Contribution to the English Language: An Historical Dictionary* (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 1994).

(٦٦) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 237.

في الجهة الجنوبية الشرقية مِن قَوس المحيط، وَرَّثَت اللغةُ العربية الإندونيسيين المُعاصِرين أكثرَ مِن ٣٠٠٠ كلمة مُستعارة[٦٧]. واستمرّتْ شَرقاً من جُزر الهند الشرقية، ليس فقط إلى كيلوكري ابن بطوطة الغامِضة، بل كذلك إلى جزيرة إيلكو قُرب قارّة أستراليا. يُسمّى الإلهُ هناك بلُغةِ الأبورجين المَحَلية «وَليثَى الوَليثَى 'Walitha' walitha» التي ربما جاءَتْ مِن احتكاكٍ قديم مع المسلمين مِن ماكاسار الأندونيسية والمُفردات العربية «اللهُ تَعالى»[٦٨].
وفي الاتِّجاهِ المُضادّ في أفريقيا، فإن هجرات القبائل العربية المتأخرة لبَني هلال وغيرهم في القَرن الحادي عشر وما بَعده قد أدّى إلى تَعريبِ الأراضي المُنخَفِضَة[٦٩]. إلا أنَّ اللغةَ العربية سَتتسَرَّبُ إلى اللغاتِ البربرية التي أصبَحَ الآن رُبعُ أو ثُلثُ مُفرداتِها عربياً[٧٠]. كما نَقَلَ التجار والدّعاة ورجال القبائل من المَغرب اللغةَ العربية نفسها نحو الجنوب حتى شمال نيجيريا حيث مازال يُستخدَم شَكلٌ من اللغة، ويَتحدَّثُ به سكانٌ من أصولٍ عربية[٧١]. انتَشَرت اللغةُ السواحلية التي لا تَقلُّ أهمية عن تلك اللغة مِن سواحِل الذِّراع الغربية لقَوس المحيط الهندي نحو الدّاخل عبر التجارة لكي تُصبحَ اللغةَ الوطنية في كينيا وتنزانيا. اللغةُ السواحلية هي لغةُ قبائل البانتو، ولكن العربية أعارَتْها نحو نصف مُفرداتها[٧٢]، ومثل اللغة التركية وكثير من اللغات الأخرى التي كانت تُكتَب بالحروف العربية، فإن السواحلية تَحوَّلَتْ إلى الكتابة بالأحرف اللاتينية، ولكن استمرَّ الاختراقُ القاموسي مثلما حَدَثَ في بنغلاديش؛ فمثلاً يَحلُّ مَحَلَّ مصطلح «سيكولوجية saikolojia» ذي الأصلِ اليوناني أي المصطلحُ العربي: «عِلمُ النَفسِ»[٧٣].

بالنظر إلى أنَّ اللغة تُعَبِّرُ عن الجِنسِ بطريقةٍ مختلفة في المُذكَّر

---

(٦٧) Ibid., p. 238.
(٦٨) *BBC Magazine* (accessed 25 June 2014).
(٦٩) انظر: ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ من هذا الكتاب.
(٧٠) Versteegh, "Linguistic Contacts between Arabic and Other Languages," p. 482.
(٧١) Ibid., p. 483.
(٧٢) أقل من ٤٠ بالمئة بحسب: Versteegh, "Linguistic Contacts between Arabic and Other Languages," p. 487.
أقل من ٥٠ بالمئة بحسب: Versteegh, *The Arabic Language*, p. 231.
(٧٣) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 230.

والمُؤنَّث، فليس من الخطأ أو من الوقاحَة النظَر إلى هذه العملية بِرمَّتِها على أنّ المُفردات الرجولية العربية (وهي دائماً في المفردات وليس في النَّحو) تَختَرِقُ دائماً تسلسُلاً من القَوالِب النَّحوية الهندية ـ الأوروبية والتركية والأفريقية ـ الآسيوية والأسترالية ـ الإندونيسية والبانتو. ومثلما تفرَّقَ رجالٌ عرب في القَرنين السابع والثامن في العالَم القديم وأنجبوا أجيالاً من المُولَّدين المَوهوبين، فكذلك حَدَثَ فيما بَعد، واستمرت لغتهم بإنتاج عالَمٍ غنيٍّ متوسِّع هَجين. وهذا يُعَوِّضُ الضَّعف السياسي بأثَرٍ رَجعيّ على الأقل.

رؤيةُ مَكَّة مِن بَعيد

بينما انتَشر الإسلام، تَغلغَلَ وأثرَى ثقافةً بعد أخرى، ونَما أكبر بكثير من أصوله العربية. ولكن على مَرِّ العصور، تشكَّلتْ شبكةُ ارتباطاتٍ ونَمَتْ واتَّسَعتْ وحافَظَتْ على صِلَةِ العالَم الإسلامي الأوسَع بشبه الجزيرة العربية وسُرَّةِ العالَم في مكة. كانت أقوَى الصِّلات هي لغةُ القرآن العربية المصونَة ولغةُ العبادات. كانت هنالك رابطَةٌ أخرى جَسَدية في الحجّ، وهو واحِدٌ من «أركان» الإسلام الخَمسة، ومن ثَمَّ واجِبٌ يَجِبُ أن يَقومَ به مَن استطاع إليه سبيلاً جَسَدياً ومالياً. لم يَتمكَّن من ذلك إلا قليل، ولم يَقُم بِه إلا أقلّ.

ولكن هنالك روابِط أخرى كانت أحياناً جَسَدية وشخصية، مثل قُبورِ أمّهاتِ وآباءِ المهاجرين العرب. ذُكِرَت السيدة نفيسة في القاهرة[٧٤]، وكذلك قُثم أحَدُ أولادِ العباس الخَمسة في سمرقند[٧٥]. كانت الرغبةُ أحياناً والِدَةَ الجثّة[٧٦]، وهكذا يُفتَرَضُ أنّ «أبا وقّاص» (يُزعم أنه سَعد بن أبي وقّاص، صاحِبُ محمد) مَدفونٌ ومُبجَّلٌ في تاميل نادو الهندية[٧٧] وفي غوانغجو الصينية، يقومُ بحياةٍ مضاعَفة بَعدَ الموت، مِثل القدّيس توما المسيحي، أو في الحقيقة ثلاث حَيوات لأنَّ سعد بن أبي وقّاص الحقيقي مَدفونٌ في المدينة. قد تُقَرِّبُ بقايا غَير بَشَرية شبهَ الجزيرة العربية، أحَدُ الأمثِلة على

---

(٧٤) انظر: ص ٤٩٨ من هذا الكتاب.

(٧٥) انظر: ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ من هذا الكتاب.

(٧٦) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, p. 679.

(٧٧) Asiff Hussein, *Sarandib: An Ethnological Study of the Muslims of Sri Lanka* (Dehiwala: Neptune Publications, 2007), p. 472.

ذلك هو البيتُ المُقدَّسُ في كانغابا في مالي المَعروف باسم «كعبابولون Kababolon»، أي «دهليز الكعبة»[٧٨]، ويقالُ إنها تحتوي على آثار ذات طبيعة غامِضة غير مُعيَّنة جَلبَها حاكِمُ إمبراطورية مالي من مَكّة في منتصف القَرن الرابع عشر.

إذا لم تستطع الوصولَ إلى شبه الجزيرة العربية بالوسائل العادية، تستطيع دائماً أن تَذهبَ إلى هناك بطريقةٍ خارِقة للطبيعة باختصارِ الزمن والمسافة. هناك حالةٌ قُصوى من ذلك تُنسَبُ إلى نِظام الدّين، العابِد الصُوفيّ الكبير في دلهي؛ يقالُ إنه زارَ الكعبة كل ليلةٍ على جَمَلٍ طائِر[٧٩]. يستطيع أناسٌ عاديون أحياناً أن يَقوموا بمِثلِ هذه الرؤيا، ففي مَوضِع اسمُه دَفتَر جيلاني في أعماق غابات سريلانكا هناك كَهفٌ يُعتَقَدُ أنه كان مَحَلَّ إقامةِ الوَليّ البغدادي عبد القادر الجيلاني لفترةِ عشر سنوات في القَرن الثاني عشر، وكان يستطيع هو أيضاً القيام بالحجّ الخارق للطبيعة. حتى في هذه الأيام، يستطيع آلافٌ من الزّوار الزَّحفَ إلى أضيَقِ جُزءٍ في الكَهفِ، والنَّظَر مِن خِلال ثقبٍ صغير، نَوع من المِنظار النَّفسي، ويَعتقدون جَازِمين أنَّهم يَرونَ مكة على بُعدِ ٥٠٠٠ كيلومتر[٨٠].

ترجَمةُ الإسلام

على الرغم من جميع نقاطِ الرَّبطِ والتَّواصُل مع شبه الجزيرة العربية، امتَزَجَ الإسلامُ مثلما حَدَثَ لتلك اللغات التي أثْرَتْها العربية. منذ عَهد المأمون في بغداد القَرن التاسع، كان قد بَدأ في التطَور من دِينٍ عربيّ ومجموعةٍ من الواجبات المَوروثة إلى مُعتَقَدٍ عالَميّ أضافَ الفلسفةَ والأخلاق إلى المَذهب. وانتَشرَ الآن في القرون التي تَلَتْ غَزوَ المَغول في عالَمٍ أوسَع، وتأقلَمَ واكتَسَبَ نمُواً وتَعاظُماً في طريقِه. كان الإسلامُ سيصبحُ عالَمياً ومَحَلياً بشكل حَتميّ.

---

(٧٨) Mackintosh-Smith, *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah*, p. 276.

(٧٩) Saiyid Athar Abbas Rizvi, *A History of Sufism in India, vol. 1* (New Delhi: Munshiram Manoharlal Publishers, 1997), pp. 9-10.

(٨٠) Mackintosh-Smith, *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah*, pp. 156-157.

ظَلَّ الإسلامُ في أرضِ الإمبراطورية العربية القديمة عَقيدةً توحيدية فَقَدَتْ قُدرَتَها على توحيدِ العرب منذ زَمنٍ طويل، وأصبَحتْ كَلمَتُهُ الحَيّة، القرآن، مُصَونَةً في قُدسيتِها، ومُحاطَةً بطبقاتٍ من التفسيرات، وكذلك كان الحَديث. وفيما عَدا بين الصّوفيين والباطنيين، كانت الطُّقوسُ العامّة أكثر أهميةً من الروحانيات الفَردية، وتركَّزَ الحوار مثلما كان على التّفاصيل النَّصّية، وعلى الكلماتِ والجُمَلِ والأحرف والنّقاط، مما أدّى لإنتاج مَزيدٍ من النصوص. كَتَبَ ابن خلدون عن قَرنِهِ الرابع عشر فصلاً تحت عنوان: «في أنَّ كَثرَةَ التآليفِ في العُلوم عائِقةٌ عن التَّحصيل»، وتابَعَ بِوَصفِ أنّ زيادةَ التَّحصيل الأكاديمي «شَرٌّ لا يمكِن شِفاؤه، لأنه أصبحَ مُتأصِّلاً ومُتحكِّماً بحُكم العادَة»[٨١] [غير حرفي]. لم يعُد كثيرٌ من العلماء يستطيعون رؤيةَ الخَشَبِ في الأشجار، ولا سَماعَ الكلمة في الأصوات. أما بالنسبة إلى المسلمين غير العرب، فإن الكلمات المُقدَّسَة لم تكن كافية، وكان عليهم أن يَبحَثوا عن المَعنى الأكبر والرّوح، مثلما يتَحَتَّمُ على الإنسان عندما يُتَرجِم. النتيجةُ الغريبة لذلك هو أنَّ بعضَ المسلمين مِن غَير العرب ربما فَهِموا في الحقيقة رِسالَةَ القرآن العربي مثلما فَهِمَها كثيرٌ من المسلمين العرب، أو ربما أفضَل. مثلَما قِيلَ لباحِثٍ مُعاصِر في عِلم اللغويات الاجتماعية، «فإنَّ المسلمينَ العرب يَتحدَّثون بالعربية أصلاً، ولا حاجَةَ عندهم للتَّرجَمة»[٨٢] [غير حرفي]. أما العرب الذين «لا يَتحدَّثون العربية» أو لا يُجيدون لُغةَ القرآن العربية الفصحى، فلا يَستَخدِمونَها في حياتهم اليومية. وهذه هي النقطَةُ التي تتعلَّقُ بالقرآن لأنه يَرتَفِعُ أعلى مِنَ التَّعبير الإنساني. ولا تُفيدُ كَثرةُ التَّفاسير التي تُحاوِل الوصولَ إلى المُستوى العالي في لُغةِ القرآن الذي يُحاوِلون شَرحَهُ. ربما يَتجاوَب الناطقون باللغة العربية مع روحانية القرآن أفضَلَ مِنْ غَيرهم مِنَ السّامعين، إلا أنّ الرسالةَ تضيعُ منهم أحياناً.

عَبَرَتْ نصوصُ الإسلام وطُقوسُه وتعاليمُه المُحيطات والصحارى

---

(٨١) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), pp. 414-415.

(٨٢) Niloofar Haeri, "Form and Ideology: Arabic Sociolinguistics and Beyond," *Annual Review of Anthropology*, vol. 29 (October 2000), p. 75.

سَليمةً، وتمّ شَرحُها وتَرجَمتُها، وكانت تُنقَلُ في معظم الأحوال إلى قواعد مُعتقَداتٍ مَحَلية سابِقة قد تكون خَفيةً، إلا أنها لا تُمحَى تماماً، وبُنِيَ عليها هياكل أعظَم ثقافية وأخلاقية وفلسفية وروحانية لا تَنتَمي إلى ما كانت عليه في شبه جزيرة العرب في القَرن السابع، ولا بغداد القَرن التاسع، بل تَنتَمي إلى ظروفِ الإسلام الجديدة، مثل الجامع الطِّيني الكبير في مدينة جينيه في مالي، ومَساجِد كيرالا ذات الطابع الهندوسي، وجَوامع المالديف ذات الخَشَب المُزخرَف والتي بُنِيَتْ على أساساتِ مَعابد بوذية، ومَساجد الصين ذات الأبواب القَمَرية والأفاريز المَعقوفة، وجميعُها تَنسَجم مع تاريخِها المَحَلي. وهكذا، بينما الكلمات والعبادات هي نفسها مِثل أولئك من العرب، قد تكون العمارة المَحَلية المُحيطَة بالطُّقوس والمُعتقَدات مُختَلفة.

مِنَ السَّهلِ تَمييزُ الهياكل الضخمة، مثل حياة الزهد في الكهوف التي تَبنَّاها الزاهِدون المسلمون الهنود مِن زملائِهم البوذيين[٨٣] أو أساليب برنايا ما pranayama في التَّحكُّم بالتَّنفس التي تعلَّموها من اليوغا[٨٤]. لاحَظَ ابن بطوطة في القَرن الرابع عشر كثيراً من المسلمين التائبين وهُم يَدرسون أساليبَ الزُّهد مع الـ«سادوين»، أتباع طَريقةِ شيفا سادوس Shaivite saddhus في خاجوراهو Khajuraho[٨٥]، كما شاهَدَ الدراويش الحيدريين الذين تَبنُّوا طقوسَ ثَقبِ القَضيب[٨٦] مِن الـ«سنياسيين»، أتباع طريقة الناغا Naga sanyasis[٨٧]. تصعبُ مُلاحظَةُ البُنيَةِ التَّحتية للمُعتقدات السابقة، ولكن ربما كانت حالَةَ جلال الدِّين التبريزي، المسلِم الدّاعية في البنغال في أوائل القَرن الثالث عشر ليست فريدةً؛ فقد حَوَّلَ مَعبداً هندوسياً إلى مَركَزِ عِبادتِه الرئيسي، ومَنَحَهُ اسماً هندياً ـ عربياً هو «ديفا مَحَل»، واحتوى ببساطة على الهندوسيين المَحَليين الذين «يُفتَرض» أنهم تَحوَّلوا إلى الإسلام مع تحويل المَعبد[٨٨]. سَيقومُ دُعاةٌ إسماعيليون على مَدى القَرنَين التالِيَين بتَجسيدِ

---

(٨٣) Rizvi, *A History of Sufism in India, vol. 1*, p. 88.

(٨٤) Ibid., pp. 95-6 and 189.

(٨٥) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, vol. 4, p. 790.

(٨٦) Ibid., vol. 3, p. 583.

(٨٧) Rizvi, Ibid., p. 307.

(٨٨) Bruce B. Lawrence, "Early Indo-Muslim Saints and Conversion," in: Yohanan Friedmann, ed., *Islam in Asia: Vol. 1: South Asia* (Jerusalem: Magnes Press, 1984), p. 123.

شخصياتٍ إسلامية في شخصياتِ الآلهة الهندوسية، فجَعَلوا آدم مُناظِراً لشيفا، ومحمداً لبراهما، وعليّاً لفيشنو[٨٩]. لا بد من أنْ تَضيعَ أمورٌ وتُكتَسب أمورٌ مع هذه «التَّرجَمة».

ساعدَ رُكوبُ الصوفية على الأمواج في تلك القرون الإسلامية التوسّعية، ولَعلَّ الأشهَر هو ابن عربي، عالِم الدِّين الأندلسي العظيم في القَرن الثالث عشر. وربما للمُفارَقة، بالنظر إلى اسمِه، فقد كان يُحَرِّرُ الإسلامَ مِنْ مَنبَتِهِ العربي. ظَلَّتْ مكة بالنسبة إليه أمّ القرى المَحبوبة، والكعبة سُرَّة العالَم[٩٠]، غير أنه لم يُصِرّ على تأمُّل السّرة ولا إلغاء مَحَبَّةِ غَيرها:

لقد صارَ قلبي قابِلاً كُلَّ صُورةٍ.. فمَرعًى لغُزلانٍ، ودَيرٌ لرُهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ، وكَعبَةُ طائفٍ.. وألواحُ تَوراةٍ، ومُصحَفُ قرآنِ
أدينُ بدِينِ الحبِّ أنّى تَوجَّهَتْ.. رَكائِبُهُ، فالحبُّ دِيني وإيمَاني[٩١]

ذهبَ مَزجُ الإسلامِ بعيداً في بعض الأحيان حتى تَولَّدتْ عنه مُعتقَدات لم تَعترف بها التياراتُ الرئيسية في الإسلام، أو تمّ تَصنيفُها كأديان جَديدة، مثل السِّيخ والبَهائية. بَقِيتْ فيها بعضُ الرموز الإسلامية والمُقدَّسات أحياناً، غير أن سِياقَ العبادات تغيَّر تماماً، مثلما حَدَثَ في الأقنِعة المُتحوِّلَة التي يَرتَديها أفرادُ مجتمع بورو Poro في غينيا. يُمَثِّلُ أحَدُ هذه الأقنعة وَجهَ إنسانٍ ومِنقارَ طائر، وهي مبطنة بأوراقٍ عليها حروفٌ عربية وإشاراتٌ إلى سورة القرآن التي لُعِنَ فيها عَمُّ الرسول [أبو لَهَب][٩٢]. هناك خَلطاتٌ أخرى أكثر غَرابة قُربَ كعبابولون في غربِ أفريقيا حيث توجَدُ ذَخيرةٌ مِنَ الآثار الإسلامية، يوجَدُ هيكلٌ يشبه بَيتَ أصنام جاهليّ تقليديّ يُفتَرَضُ أنَّ مؤسِّسه كان خادِماً لإمبراطور مالي الذي زارَ الكَعبة. قِيلَ لي إنَّ غرباء «جاؤوا إلى هناك وجَلَبوا معهم الإسلام، وذَهَبَ أباطِرَتُنا إلى مكة وجَلَبوا الإسلام، ولكنّ

---

(٨٩) Rizvi, Ibid., p. 110.

(٩٠) انظر: ص ١٩٩ من هذا الكتاب.

(٩١) Martin Lings, *Sufi Poems: A Mediaeval Anthology* (Cambridge, MA: Islamic Texts Society, 2004), p. 62.

(٩٢) Levtzion and Pouwels, eds., *The History of Islam in Africa*, p. 499, ill. 500.
انظر أيضاً: **القرآن الكريم**، «سورة المسد،» الآيات ١ ـ ٥، وص ٢٣٠ من هذا الكتاب.

الناسَ احتَفَظوا بمُعتقَداتهم كذلك»[٩٣]. غَير شَرعيّ، ولكنه عَمَليّ.

إمبراطورياتُ الآخرين

على الرغم من أنَّ ابن بطوطة وكثيراً غيره من الرَّحالة والتُّجار قد وصَلوا جنوباً حتى موزمبيق، إلا أن أبعَدَ مكانٍ في أفريقيا مازالَ غامضاً جداً. تُصَوِّرُ خريطةُ الإدريسي إجماعاً على أنَّ القارّة تَنحَني نحو الشرق وتَكادُ تَلتَقي بنهاية أوراسيا بحيث تكاد تُحيطُ تماماً بالمحيط الهندي وتَجعَلُهُ مِثلَ صورَةٍ كبيرة مماثِلَة للبحر الأبيض المتوسط. تمكَّن البحار العربي سليمان المَهري في أوائل القَرن السادس عشر من تصحيح ذلك لزملائه المَلّاحين. أظهَرَ بتقريرِ اكتشافٍ جديد قام به الفِرنجَة أنّ أفريقيا تمتدُّ نحو الجنوب أبعَد مما كان يُظَنُّ (إلى حيث يكون ارتفاع الدُّب الأكبر سبعة أصابع تحت الأفق)، وأنَّ الساحل يَنعرِجُ بشدّة نحو الشمال والغرب عند ما يسميه الأجانب «رأس الرَّجاء الصالح»[٩٤]. زالَ انحناءُ أفريقيا ولم يَعُد المحيط الهندي يشبه البحيرة. وفجأةً، أصبح البحر اللطيف لشبه الجزيرة العربية والهند مَفتوحاً للمُستكشِفين.

كانت موانئ الصين قد أُغلِقَتْ أمام الغرباء بَعدَ ثورة مينغ Ming التي أنهَتْ حُكمَ المَغول فيها سنة ١٣٦٨[٩٥]. توقَّفَت التجارةُ البحرية المباشرة بين الغرب والشرق الأقصى لأكثر من قَرن. والآن في سنة ١٤٨٨ ظَهَرَ البرتغاليون عَبرَ ذلك الطريق الجنوبي الغربي غير المتوقَّع، وأرادوا تَحويلَ المحيط المَفتوح إلى محيطٍ خاصٍّ بهم، وسيَتَّضِحُ أنَّ المحيط الهندي أكبر من أن يستطيعوا احتِكاره، ومع ذلك فقد بَذلوا جُهدَهم لإحراجِ العرب كوسطاء، وصَنعوا حلقةً من الحُصون حول قَوس المحيط، وقاموا بحِراسَتِه في سُفنِهم الجديدة الغريبة التي أشرعتها ومؤخراتها مربعة الشكل والتي تثبت أخشابها المسامير (في جميع الأرجاء الغربية من المحيط الهندي كانت أخشابُ السُّفن تُجمَعُ إلى بعضها بحِبالِ جَوز الهند).

---

(٩٣) Mackintosh-Smith, *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah*, pp. 278-279.

(٩٤) Gerald R. Tibbetts, *Arab Navigation in the Indian Ocean Before the Coming of the Portuguese* (London: Royal Asiatic Society, 1971), p. 43.

(٩٥) Abu-Lughod, *Before European Hegemony: The World System AD 1250-1350*, p. 259.

أحرَجَ الأوروبيون بعضَ الجيران الأقرَب إليهم، ففي سنة ١٤٥٣ ضَمَّ الترك العثمانيون أهمَّ نقاط إمبراطوريتهم الأوراسية باحتِلال القسطنطينية، المِحوَر وصِلَة الوَصلِ المَرغوبَة منذ زمن طويل بين القارّتَين. ربما كان لسقوطِ المدينة أهميةً رَمزية أكثر من استراتيجية، ومع ذلك فقد مَنَحَت العثمانيين عاصِمةً جديدة رائعة كانت جَوهَرة التّاج السُّلطاني، وكانوا مهتَمين بتحقيق سيادَةٍ مُطلَقة على السَّير الشرقي ـ الغربي في العالَم القديم، الذي كان آنذاك العالَم الوحيد. ولكن خلال أقلَّ من عُمرِ إنسان، انهارَ كل مَسار التجارة البرّية بين الشرق والغرب بدَوران البرتغاليين حَولَ رأسِ الرّجاء الصّالح والوَصول من الباب الخلفي إلى ثروات الهند. . . وفي الوقت نفسه، تم اكتشاف قارتَين جديدتَين في أقصَى الغرب ظَهَرَتا دون تَوقُّع من البحر المحيط. أُبعِدَ العثمانيون تماماً عن التجارة مع الأمريكتين إلا كمُستهلِكين، فأخَذوا يُرَوِّحون عن أنفسِهم باستِهلاكِ تَبغِهَا (tobacco).

ربما تُركوا وحدَهم للجَفاف بعيداً عن التيارات المتغيِّرة في التجارة العالمية، إلا أن العثمانيين ظَلُّوا يُعانون من الرغبات الإمبراطورية، ولكنهم عَلِقوا الآن، مثلما حَدَثَ للعرب قَبلَهم، بين أسَدَين يَكبُران: الدولُ الأوروبية التي تزداد غنى وقوة من جِهة الغرب، والقوميون الصَّفَويون الجُدد في فارس من جِهة الشرق. لم يكن أمامَهم من مَجالٍ لإشباع رغبتهم في التوسُّع سوى أطلال الإمبراطورية العربية القديمة. سَقَطَتْ مَواقعُ القوة العربية القديمة بِيَدِ العثمانيين بتَسارعٍ كبير: دمشق ١٥١٦، القاهرة وتوابعها في شبه الجزيرة العربية المدينة ومكة ١٥١٧، بغداد ١٥٣٤. ولم تَسقُط العواصِم القديمة فقط، بل حتى أبعَد أجنِحَة عالَم العربية في الجزائر التي استَسلَمَتْ بَعدَ وقت قصير من سقوط القاهرة، واليمن حيث احتاجَ الأمرُ للقتال في كلِّ فجّ (مَمرّ). على مَدى ٦٠٠ سنة قَبلَ ذلك، كان أتراكُ أبناءُ عُمومَةٍ بعيدة للعثمانيين قد أبعَدوا العربَ تدريجياً عن أهمّ تلك المَواقع، وأسقَطوهم في لُعبَةٍ طَويلة من كراسي العروش الموسيقية. وقد اختَلَفَ الوَضعُ الآن لأنّ الترك قد رَسَّخوا عَرشَهم على مَضيق البوسفور ولم يَعودُوا تلك الطيور في أعشاش العرب، بل نُسوراً إمبراطوريين يتمتَّعون بكامل الأهلية والكَفاءة.

سَرَّعَت الفتوحات أشكالٌ جديدة من الأسلِحة النارية. استَحضَرَ المؤرخ

المملوكي ابن إياس الطريقَةَ المفاجِئة التي احتلَّ بها العثمانيون القاهرة: «جاؤوا من كل اتِّجاه مِثل الغيوم... كانت أصواتُ بنادِقِهم تَصُمُّ الآذان، وهَجماتهم صاخِبة مَجنونة»[٩٦] [غير حرفي]. خلال أشهُرٍ قليلة أنهَى العثمانيون ٢٥٠ سنة من سَيطَرةِ المماليك على مصر وسورية. وسيَنتَهي بعد ذلك بقليلٍ عَصرٌ طالَ أكثر من ذلك. أقامَ عند المماليك خليفةٌ عباسيٌّ ألعوبَة هو المُتوكِّل الثالث (لم يعُد لديهم أسماء مَلَكية جديدة)، أخَذَهُ الغُزاة إلى القسطنطينية، التي أصبحَ اسمُها إسطنبول، «أُوقِفَت الخِلافة العباسية والمبايعة لها»[٩٧] [غير حرفي]. في أول الأمر، تم التعامل مع المُتوكّل في العاصمة العثمانية باحترام وتقدير، ولكنه اتُّهِمَ فيما بَعد باختلاسِ أموالِ الأوقاف الدينية، وأرسِلَ باحتِقارٍ إلى القاهرة حيث توفي سنة ١٥٤٣. مَضَتْ ٨٠٠ سنة منذ أن قامَت الثورةُ في خراسان التي وَضَعَتْ أسلافه على العَرش، ولكن مَضَت ٦٠٠ سنة منذ أن فَقَدَ ذلك العرش جَدِّيَّتَهُ في الحُكم، ومَضَت ٣٠٠ سنة منذ أنْ أصبَحَ مَهزَلة. لا يَضمَنُ حُكمُ السلالات دائماً تقديم أفضَل عَدَسَةٍ يمكن من خلالها النظر إلى الماضي. ولكن يبدو أن مَلحَمَةَ السلالة العباسية تُلَخِّصُ الفترةَ الوسطَى كلها من تاريخ العرب: قرنَان من القوة، تَبعهما ثلاثة قرون من الضَّعف، ثم ثلاثة أخرى من الانحِدار والسقوط.

ساهَمَ الأتراكُ في بدء الانحِدار العباسي الطويل، ونَفَّذوا الآن حُكمَ الإعدام. ربما يبدو مناسباً أن يتَّخِذَ السلاطينُ العثمانيون لَقَبَ الخليفة، وقد فَعَلوا ذلك بِحَذَرٍ[٩٨]، إذ يمكن أن تكونَ السلطان، أو العاهِل، أو سَيِّدَ العالَم، أو الإسكندر الثاني، ولكن لَقَبَ «الخليفة» لا يُؤخَذُ باستِخفاف لأنه مَشحونٌ بالتاريخ، وعلى الرغم من كل شيء، مَشحونٌ بقدسية العروبة.

وعلى كل حال، يبدو الآن أنه حتى تلك العلاقات المقدسة قد تَبدَّدَت.

---

(٩٦) ورد في: Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Penguin, 2011), p. 21.

(٩٧) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ١، ص ٣٧.

(٩٨) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 705.

يصعبُ تلخيصُ علاقاتِ العثمانيين برعاياهم الناطقين باللغة العربية لأن المنطقة من غرب المتوسط إلى جنوب البحر الأحمر كثيرة التنوع ولا تَسمَحُ بِطَرحِ تَعميمات، كما أن الفترة كانت طَويلة جِداً امتدَّتْ ثلاثة إلى أربعة قرون من التَّسامح المُتبادَل أو عدم الاهتمام الذي تَتخَلَّلُه فترات من الغضب. اشتَرَكَ العربُ والتركُ في الدِّين، والنَّصِّ القرآني، وكثيرٍ من الكلمات، إلا أنهم لم يَشترِكوا باللغة ذاتِها أبداً لا حَرفياً ولا مَجازياً. كان العثمانيون قد اكتَسبوا الفارسية خلال رحلَتِهم مِنَ الشرق مِثلَ الأتراك السَّلاجِقة الذين سَبقَوهم قَبلَ أن يَتعرَّبوا. ولكن العثمانيين، على النَّقيضِ من السَّلاجِقة وكثير غيرهم ممن حَكَموا العرب، كانوا يَحكُمونَهم الآن مِن خارجِ الإمبراطورية العربية القديمة، ومِن عاصِمةٍ أَخَذوها من البيزنطيين.

كان العثمانيون بالنسبة إلى العرب إخوةً في الإسلام، ولكنهم ظَلُّوا غرباء يجب التعاون معهم أو تَحَمُّلُهم، أو الثورة عليهم حسبما تَقتَضيه الحال. غالباً ما كان الترك يُسيطِرون بكَفاءة على المُدن فقط، وبِتواطُؤ مع نُخَبٍ مَحَلية في معظم الأحيان. إذا لاحَظَ زعماءُ العرب ضَعفاً لدى المُحتلِّين، فربما أشعَلوا عَجَلَةَ نارٍ مَحَلية. [هذه إشارة إلى نظرية المؤلف في دائرة النار في تاريخ العرب] ولكن بشكلٍ عام كان حَديثُ محمد مُطَبَّقاً: «اتركُوا التُّركَ ما تَرَكوكُم»[٩٩]. استقرَّ أفرادٌ من الترك والشراكسة والقوزاق والألبان وغيرهم أحياناً في قواعد إمبراطورية بعيدة، وتمّ اندِماجُهم مع جيرانهم الناطقين بالعربية. إلا أنّ الإمبراطورية العثمانية كانت فَسيحةَ الأرجاء ومتنوعة الأعراق والطّوائف لكي تَخضَعَ لقوة الثقافة العربية مثلما فَعَلَ حُكّامُ البربر في الغرب، أو الحُكّامُ الأكراد في مصر وشرق المتوسط. وإضافة إلى ذلك، كانت قوة الثقافة العربية في القَرن السادس عشر في الحَضيض، وقَبلَ الاحتلال العثماني بقليلٍ صَوَّرَ السيوطي بشكلٍ لا يُنسَى تَضاؤلَ القوافل القديمة للمَعارف العربية إلى جَمَلٍ واحِدٍ يَسيرُ مُتَهادِياً وهو يَنقُلُ حِملاً مُتواضِعاً من كُتُبٍ ثانوية[١٠٠]. ربما عَمِلَ العربُ مع الترك أو

---

(٩٩) انظر: ص ٤٣٢ من هذا الكتاب.

(١٠٠) انظر: ص ٥٢٠ من هذا الكتاب.

عندهم، ولكن الطريقة الوحيدة المؤدية إلى قلب العالم العثماني الغريب هي الاستِعباد، وهي حالَةٌ قانونية مُستحيلة لمُعظم العرب بحُكم كَونِ حُكّامِهم إخوةً لَهم في الإسلام. كانت الطريق إلى المَناصب العليا في الحَربية العثمانية أو المَناصب المَدَنية مُتاحَةً للبلغاري مسيحي الأصل مَثلاً ممّن تمّ استِعبادُهم بشكلِ «ضَريبة الأولاد» التي تُحَصَّل من الرعايا غير المسلمين[١٠١]. أما بالنسبة إلى معظم العرب فقد كانت تلك الطريقة مُغلَقَةً أمامَهم بإحكام.

عاشَ العربُ وماتوا مُستائين من مُحَصّلي الضرائب العثمانية على مَدى أكثر من ٣٠٠ سنة، وقدَّموا أدعيةً لفظية شكلية في صَلوات الجُمَع للسلطان ـ الخليفة الغائِب في بابِه العالي على البوسفور، إلا أنهم لم يُفكِّروا لحظةً بغيرهم من العرب في مناطق أخرى، ولا بفكرَةِ الوحدَةِ معَهم. وفي الواقِع، لم يفكّر معظم العرب أبداً بأنفسِهم كعرب، بل كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً. كانوا أناساً مِن فاس، أو مِن دمشق، أو مِن مَسقَط، أو من مناطق ريفية تَعتمِد على مُدُن، وكانوا رَعايا السُّلطان. ليس بالضبط كما ذكر أحد المراجع: «سَقَطَ العربُ في خمولٍ وتوقَّفوا عن الوَعي بعُروبَتهم»[١٠٢]. تَحدَّثوا وكَتَبوا بأشكال من اللغة العربية، وكان القليل من مفكِّريهم الذين يَبحَثون في مِثلِ هذه الأمور يُدرِكون الفَرقَ بين العرب والعَجم، وبين الناطقين بالعربية وغيرهم[١٠٣]، ولكن في الاستِخدام العام كانت كلمة العرب أو الأعراب تَعني مَرَّةً أخرى أولئك الناس الذين يعيشون على تُخومِ الحَضارة، ويَرعون المَاشية، ويُغيرون على أبناءِ آدَم الذين يَخافون الله. يقولُ مؤرخٌ مُعاصِرٌ للعرب تحت الحُكم العثماني عن احتِلال الأتراكِ لمصر: «كان الحديثُ مبكراً عن هويةٍ عربية متميّزة ستَعتَرِضُ على حُكم أجنبي»[١٠٤]. كان مُحِقّاً بالنَّظر لما حَدَثَ بَعدَ ذلك، ولكن عند النظر إلى الخَلف أيضاً كان الوَضعُ متأخّراً جِداً للحَديثِ عن تلك الهوية التي بَدأتْ تتشكّل قَبلَ الفترة المسيحية، وتَجمَّعَتْ تحت حُكمِ مُلوكِ اللّخميين والغَساسِنة، وتماسَكَتْ مع

(١٠١) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 31.

(١٠٢) Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History*, p. 83.

(١٠٣) انظر على سبيل المثال: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ١، ص ٤٦٢.

(١٠٤) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 24.

الإسلام، ووصَلَتْ ذُروَةَ قُوَّتِها في عَصر الأمويين وأوائل العباسيين، إلا أنها ضَعفَتْ وانحَلَّتْ في زمنِ وفاةِ آخِر خليفة «حقيقي» في منتصف القَرن العاشر. ما حَدَثَ بعد ذلك هو أن الهويةَ العربية قد انطَوت إلى بداياتِها مِنَ الرَّعي والإغارة. كانت فِكرةُ العروبة مُتحرِّكَة ومُتَنوِّعَة عَبرَ الزمن مِثلما كان الناسُ والقبائلُ الذين ارتَبَطَتْ بهم. ودَخَلَتْ في العَصر العثماني في انخفاض على طَريقِ استمرّ ٣٠٠ سنة وأصبَحتْ غَير مَرئية.

بَقِيَ هناك أمرٌ واحِدٌ يُحافِظُ على زَخَم العروبة في فَترةِ الانخفاض اشتَرَكَ فيه أهلُ فاس ومَسقَط، وأهلُ المُدُن الذين يَخافون الله، والبَدو غير الأتقياء، واليهود في اليمن، والمسيحيون في سورية: فقد كانوا جميعهم يَتحدَّثون بنَوعٍ مِنَ اللغة العربية، وإذا كَتَبوا كانوا يُحاولون الكتابةَ بالعربية الفصحى القديمة. وفي تَناقُضٍ صارخٍ مع الطريقة التي استعمَرتْ بها لُغَتُهم الشعوبَ التي خضَعَتْ لإمبراطوريتِهم، فإنَّ أقلَّ مِنْ ١ بالمئة مِنَ الناطقين بالعربية في الإمبراطورية العثمانية سيَتَعَلَّمون اللغةَ التركية[١٠٥].

مُفارَقاتٌ إمبراطورية

بعد الصَّدمَةِ الأولى من التِفاف البرتغاليين حَولَ رأسِ الرَّجاء الصَّالح، عادَ الزَّخَمُ القديم ثانيةً إلى المحيط الهندي. كانت الأنماطُ العضوية القديمة للهجرة والتجارة قد تقطَّعَتْ وتشَوَّهَتْ بسبب التَّوسُّع الأوروبي، ولكن سرعان ما تأقلَمَ العربُ مع التيارات الجديدة وبدؤوا بالسباحة معها. إذا كانت العروبةُ في انحِطاط في قَلبِ الإمبراطورية القديم، فقد كانت تتصاعَد في المحيط الهندي. كان رُوَّادُ المَوجَة الجديدة قليلين في العَدَد ومَحدودِين في الأصل، إلا أنهم كانوا مُتحرِّكين ومُغامرين مِثل مَن سبَقوهم في القَرنَين السابع والرابع عشر. سيَتبَعون في إحدى الحالات أسلوبَ بُناةِ الإمبراطوريات الأوروبية، ففي نهاية القَرن السابع عشر استَثمَر حُكَّامُ عُمان في القوة البحرية، وأسَّسوا إمبراطوريةً عربية صغيرة في ساحل أفريقيا الشرقي، تركَّزت بَعدَ ذلك في زنجبار، وأعادَتْ سِيرَةَ الدولة الصغيرة في كلوة التي تأسَّستْ قَبلَها بأربعمئة سنة، وستَستمر حتى ستينيات القَرن

(١٠٥) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 175.

العشرين. كانت قاعدتها الاقتصادية تَصدير العَبيد وليس الذَّهب، ثم صَدَّرَت القُرُنفُل.

عادَت الإمبراطوريةُ الثقافية غير الرسمية إلى توسُّعِها في مناطق أخرى، وبَرَزَ نُمُوها وازدهارُها بشكلٍ خاصّ مع سادَةِ حَضرَمَوت مِنْ نَسلِ محمد في جنوب شبه الجزيرة العربية. جاءَ جدهم إلى تلك المنطقة في القرن العاشر، وتَكاثَروا وأصبَحوا مُهِمّين مَحَلياً كوسَطاء وسَماسرة للسُّلطَة. والآن مع الهدوء الذي حَلَّ بعد وصولِ البرتغاليين إلى المحيط الهندي، رَكِبوا تَياراتِهِ الجديدة كتُجّار، كما أسَّسوا إمبراطوريتهم الصغيرة كزعماء دِينيين، وأحياناً كقادَة سياسيين. كانت عائلة الجُفري Joofree ناجِحَةً بشكلٍ خاصّ، ومازالت كذلك في بعض الأماكن. أسَّسوا أنفسَهم في القَرن الثامن عشر على ساحل مالابار Malabar الهندي، وسرعان ما أصبَحوا ظاهرين في المجتمع المسلِم المَحَلي (أحيوا بذلك رابطَةً قديمة، فقد كان العرب «سادَة السّاحل» هناك في عَصرِ المؤرخِ الروماني بلينيوس)[١٠٦]. سيُصبحُ السيد مُحسِن الجُفري في القَرن التاسع عشر أحَدَ كِبارِ الأغنياء في سنغافورة الناشِئة، وله عُملاء مُوزَّعون حولَ قَوس المحيط من السويس في مصر إلى سورابايا في أندونيسيا. خَدَمَ جوزيف كونراد Joseph Conrad على سفينةٍ تابِعَة للجُفري، ورَسَمَ صورةً للعائلة في قصَصِه. مازال بعضُ أفراد تلك العَشيرة في أماكِن بعيدة مثل شمال شرق بورنيو، حيث يعيشون في مستعمراتٍ تَحمِلُ أسماء مِثل «كامبونغ عرب»، أي قرية العرب[١٠٧]، ويُتاجِرون بالخيزران والعود الثمين[١٠٨]، وهي مُنتَجاتُ المحيط الهندي ذاتها التي وَرَدَتْ في أقدَم سِجلات الرحلات العربية[١٠٩]. انتَهى المَطاف بعائلاتٍ أخرى من السادَة الحَضارِمَة في مناطق مختلفة حول المحيط، مثل عائلة الكَاف، بالشد وعائلة السَّقّاف على شواطئ السواحل الأفريقية وفي سنغافورة، وعائلة عيديد في مَقديشو، وعيدَروس في أحمدأباد وكيرالا، وبافَقيه في كلكتا وكولومبو[١١٠].

(١٠٦) A. Cherian, "The Genesis of Islam in Malabar," *Indica*, vol. 6, no. 1 (1969), p. 1.
(١٠٧) Gavin Young, *In Search of Conrad* (London: Penguin, 1992), p. 269.
(١٠٨) Ibid., p. 244.
(١٠٩) انظر: ص ٥٣١ من هذا الكتاب.
(١١٠) Tim Mackintosh-Smith, *The Hall of a Thousand Columns: Hindustan to Malabar with Ibn Battutah* (London: John Murray, 2005), p. 287.

استمرَّ دُعاةٌ حَضَارِمَة في نَشرِ نورِ الإسلام كذلك في القَرن الثامن عشر إلى زوايا أبعَد في الهند الشرقية بين شَعب البوقس البحري في سولاوسي Bugis of Sulawesi بأندونيسيا والمناطق المجاورة(١١١). بَدأ مُحاربون مِن قبائل يمنية جنوبية بهَجرِ أرضِ أجدادِهم الجَرداء نحو فُرَصٍ أغنَى بصِفةِ مُرتَزقَة، خاصّة في دولة حيدرأباد الهندية الغنية. أصبَحَ بعض العرب حُكّاماً مُستقلِّين في الخارج، مثل المُغامر سيد محمد شمس الدين الحَموي من سورية، الذي وَصَلَ إلى المالديف في نهاية القَرن السابع عشر، وتزوجَ في طريقه إلى عَرشِ سَلطَنة تلك الجزر(١١٢). توفي قَبل أن يتمكَّن من تأسيس حُكمِ سلالته، ولكن سَلطَنات أخرى ستَعيشُ أكثر، كان مِن بينها سَلطَنَةُ حَضرَمِيٍّ من عائلة السيد اسمُها «جمل الليل»، لأن جده كان يَحملِ الماءَ بِوَرَعٍ في الليل لِمَلءِ أحواضِ الوضوء في المَساجد. حَكَمَتْ فروعٌ مختلفة من عائلة جمل الليل جُزُرَ القمر، ومنطقة آتشيه في سومَطرة (حيث تزوَّجوا من العائلة الحاكِمة المَحَلية مثلما فَعَلَ ذلك العباسي الشارد إلى سامودرا ـ باساي قبل ٣٠٠ سنة)، ودولة برليس الماليزية Perlis حيث مازالوا يَحكُمون هذه الأيام بصِفَةِ راجا (أمير أو مَلك)(١١٣).

لم تكن الأعدادُ كبيرةً في شتات المحيط الهندي، ففي سنة ١٩٠٥ بَلَغَ عَدَدُ الحَضارِمَة في أندونيسيا نحو ٣٠,٠٠٠(١١٤)، ولكن مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية التي جاءَ منها المهاجرون كلهم تقريباً أضحَتْ قليلةَ السكان، وكان طَيفُ المَقاصد واسِعاً، وكانت القوة الاقتصادية والروحانية المؤقَّتة وأحياناً السياسية لهؤلاء المُقيمين العرب أكبر بكثير من نِسبَتِهم إلى عَدَدِ السكان. اندَمَجَ كثيرٌ منهم إلا أنَّ هويتهم النفسية ظَلَّتْ عربية. لم تَنتهِ الإمبراطورية البحرية غير الرسمية بسبب ظُهورِ البرتغاليين في المحيط

(١١١) Ho, *The Graves of Tarim: Genealogy and Mobility across the Indian Ocean*, pp. 162-168.

(١١٢) Hasan Tāj al-Dīn, *The Islamic History of the Maldive Islands*, [edited] by Hikoichi Yajima, 2 vols. (Tokyo: Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa, 1982-1984), pp. 34 and 45-46.

(١١٣) Ho, *The Graves of Tarim: Genealogy and Mobility across the Indian Ocean*, p. 168 and note 15.

(١١٤) Versteegh, "Linguistic Contacts between Arabic and Other Languages," p. 499.

الهندي، بل قَضَى عليها تقسيمُ المناطق الإمبريالية إلى دولٍ قومية بَعدَ الحرب العالمية الثانية رسمياً أو بشكلٍ غير رسمي. لم يعُد ممكِناً أن يَظَلَّ المَرءُ خليطاً ممتَزِجاً كمواطن لسواحلِ المحيط الهندي، بل أصبَحَ عليه أنْ يَمتلكَ قوميةً أو جنسيةً، غير أنّ الدّم العربي مهما تم خَلطُه ومَزجُه يظَلُّ أثقَل مِنَ الماء، وسيَتضِح في المستقبل أنَّ جَواز السَّفر أقوى مِنَ الماء ومِنَ الدم.

استمرَّ انتشارُ الهجرات العربية أكثر من ثلاثة قرون على مساحاتٍ جغرافية واسِعة وغير مَلحوظَة في الغالب، ووسَّعَتْ نَمَطَ الحركة التي بَدأتْ بَعدَ المَغول في القَرن الثالث عشر، وشَكَّلَت العالَم الإسلامي المُعاصِر. جَرَت الهجرات هذه المرة في ظِلِّ إمبراطورياتِ شعوبٍ أخرى، البرتغاليين الذين تَبِعَهم تكرارٌ متزايد من الأوروبيين الآخرين، بَرَزَ مِنْ بينهم البريطانيون في الهند، والهولنديون في جُزر الهند الشرقية. بين المُفارَقات الإمبراطورية التي نَشأتْ هي تلك التي ستَجعل بيتَ وندسور المَلَكي البريطاني أكبَر سلالةٍ «إسلامية» في التاريخ(١١٥)، على الأقلّ مِن حَيث عَدَدِ رَعاياها المسلمين، وذلك لفترةِ سنواتٍ قليلة بَعدَ ١٩١٧ عندما سَيطَرتْ على القاهرة والقدس ودمشق وبغداد والهند.

هناك مُفارَقة أخرى للإمبراطورية في تلك القرون، وهي قمّة الوحدَة العربية مِن حيث وجود أكبَر عَدَدٍ من السكان العرب في ظِلِّ حاكِم واحِدٍ لأطول فترةٍ من الزمن، وأكبر اتساع جغرافي في عَهدِ العثمانيين. تم تحقيق هذه الوحدَةِ العربية على حِساب الاستقلال العربي والهوية العربية من جوانب عديدة. تبدو الهوية أحياناً قويةً جِداً مِثل نارٍ قوية تَصوغُ خَليطَةً مَعدَنية ثم تُبَخِّرُها. جُمِعَت الكلمةُ العربية، عالَمُ العربية، بأقوى كَفاءة واستِدامَة عندما كانت أقلَّ سَماعاً، وربما بسبب ذلك. ومثلما عَرفَ الطُّغاة عبر آلاف السنين، لا يمكن الوصول إلى الجِدال والانقِسام والتَّفرق إلا عندما ترتفع الأصوات.

ضَمَّ عالَمُ تلك الأيام إمبراطوريةً أخرى لا تَظهَر في أي خريطة على الرغم من أنها في مثل أهمية قارّات، كان فيها العربُ وسادَتُهم العثمانيون وجميع الذين كانوا يَستخدِمون الحروفَ العربية صامِتين تماماً.

(١١٥) James Mather, *Pashas: Traders and Travellers in the Islamic World* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009), p. 240.

إمبراطورية الكلمة المطبوعة

كان هذا العالَمُ الجديد هو إمبراطوريةُ الكلمَةِ المَطبوعة. تطَورت الطِّباعة والجغرافيا بشكلٍ مُفاجئ في وقتٍ واحِد معاً. صَدَرَ إنجيلُ غوتنبرغ المطبوع سنة ١٤٥٥ بعد سَنتَين من سقوطِ القسطنطينية بِيَدِ الترك. وعندما دارَ البرتغاليون حَولَ رأسِ الرَّجاء الصَّالح سنة ١٤٨٨، وتَبِعَ ذلك بسرعة سُقوطُ غرناطة، واكتشاف كولومبوس للعالَم الجديد سنة ١٤٩٢، كانت الطِّباعة قد انتَشَرت في أوروبا، وتحرَّكَتْ طِباعة الحروف اللاتينية والتوسُّع الإمبراطوري الأوروبي البَحري معاً. سَبقَت اللغةُ العربية الأوروبيين إلى حُدودِ العالَمِ القديم في القرآن، وعلى شَواهِدِ القُبور، وبِشكلِ كِتابةِ لغاتٍ غير عربية، حتى في بلاد أوردُوجا الأميرة المشاكِسة، إلا أنها لم تَنتَقِل إلى المَرحلة الحَيوية التالية في رحلتِها: الطِّباعة.

كانت هنالك مقاوَمَةٌ للطباعة منذ البداية من جِهة الذين يَستخدِمون الكتابة بالعربية. مَنَعَ العثمانيون الطباعةَ بالعربية تحت ضَغطِ علماء الدِّين منذ سنة ١٤٨٥، وأكَّدوا المَنعَ مِراراً بعد ذلك(١١٦). لا شك بأنَّ ذلك أبهَجَ النُّساخَ الذين يُقالُ إنَّ عَدَدهم في إسطنبول وحدَها بَلغَ عشرات الآلاف(١١٧). ولكن بغَضِّ النظر عن حجّة المُحافَظَة على عَمَلِهم والقُدسية الفطرية للحروف العربية بحُكمِ كَونها وَسيلَةَ نَقلِ رِسالَةِ الله، فإنَّ طِباعةَ اللغة العربية كانت كارِثَةً جَماليةً وتَقَنية. المُشكلَةُ الأساسية بَسيطَةٌ، فالخَطُّ المُتَّصِلُ وحَرفُ الطباعة المُنفَصِل لا يَنسَجِمان، أضِفْ إلى ذلك صعوبة إظهارِ الأحرف الصوتية التي لا تُشَكِّلُ حروفاً مُنفَصِلَةً، بل تُكتَبُ فوقَ أو تحتَ الحروف [حَركات التّشكيل]، وهذا يَعني أنَّ المجموعةَ الكاملة لحروف الطباعة العربية كانت تبلغ أكثر من ٩٠٠ حَرفٍ مختَلف(١١٨). يَبلغُ عدد مجموعة حروفِ طِباعَة اللغة الإنكليزية نحو عُشر ذلك (٩٠ حَرفاً فقط).

---

(١١٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, p. 795.

(١١٧) Ibid., vol. 6, p. 795.

(١١٨) Samir Abu-Absi, "The Modernization of Arabic: Problems and Prospects," *Anthropological Linguistics*, vol. 28, no. 3 (1986), p. 340.

لإعطاء مِثال عَشوائي عن ذلك فإنَّ الحَرف العربي «صاد» بكافّة أشكالِهِ المُتَّصِلَة وحَركاتِه يَحتاجُ إلى عَشرات الأشكال:

ص صَ صُ صِ صن صً صٌ صٍ صّ صُ صِّ صُّ صَّ صٌّ صِّ صَ صُ صِ صَ صِ صْ
صّ صّ صِ صً صُ صِ صًّ صٌّ صٍّ صد صُ صد صد صَ صُ صَ

والحرفُ «ميم»، وهو أحَدُ أكثر الحروف استعمالاً، يبدو وَحدَهُ مثل شرغوفٍ مُتواضِع: م يَظهَر بنحو ٧٣ شَكلاً مختلفاً[١١٩]، بينما يَظهَر نَظِيرُه اللاتيني بِشَكلَين فقط هما M وm. وَرِثَت اللاتينية حروفَها المُنفَصِلة وحروفَها الصوتية المُنفَصِلة عن الأبجَدية الإغريقية التي اتَّخذَتْ أشكالَها نحو منتصف القَرن الثامن قَبل الميلاد[١٢٠]. اشتُقَّت الحروفُ الإغريقية والعربية أيضاً مِنَ الفينيقية التي لا تحتوي على حروف صوتية، ولكنّ بعض الإغريقيين الأذكياء لَمَعَتْ لديهم فكرة تَبَنّي بعض الحروف من الخَطّ الأصلي، واستِخدامها لوَضع أصواتٍ بَينَ الحروف، وبإضافة خَمسة أحرفٍ فقط، مَنَحوا النصوص أصواتاً. ظَلَّ التعامل مع الكتابات السّامية التي لا تحتوي حروفاً صَوتية أصعَب قليلاً، بما يَشبه قِراءَةَ الشِّفاه بَدلاً من السَّماع. إنه مَثَلٌ آخَر لنظَريةِ الفوضَى تَعمَلُ عَمَلَها في التاريخ، فإن مَوجَةً دماغية في بحر إيجة في عَهدِ هوميروس كانت لها نتائج بعيدة المَدى عندما ظَهَرَ حَرفُ الطِّباعة المُتحرِّك بَعدَ أكثَر من ٢٠٠٠ سنة. وربما نتائج أبعَد من ذلك في الخَمسمئة سنة التالية كما سنَرى.

تَسمحُ الطِّباعةُ الحَجَرية بِطِباعةِ نُسَخ عديدة من قالَبٍ واحِد كُتِبَ باليَد، وربما سَمَحَ ذلك بتَجنُّب المَشاكل التَّقَنية في طِباعة العربية، وحافَظَ على وَظائف الكتَّاب في الوقت نفسه. غير أن ذلك لم يُختَرَع إلا في سنة ١٧٩٨، وهي السنة ذاتها التي تم فيها تأسيسُ الطباعة العربية أخيراً في عالَم العربية عندما جَلَبَها معه نابليون إلى القاهرة. عندما تَرسَّخَت الطباعة أخيراً، ظَلَّت النصوص المَطبوعة بَخيلةً في طِباعة الحروف الصوتية، فكانت قراءتها أصعَب مِنَ المَخطوطات. ومِنَ المُفارَقة أنها كانت تَهدفُ أصلاً إلى جَعلِ العربية

---

(١١٩) Ibid., p. 340.

(١٢٠) Simon Hornblower and Antony Spawforth, eds., *The Oxford Classical Dictionary*, 3rd ed. (Oxford: Oxford University Press, 2003), s.v. Alphabet, and

قارن: ص ١٤٨ من هذا الكتاب.

أكثر انتِشاراً، إلا أنها جَعَلَتْ قراءةَ العربية أقلّ «ديموقراطية» مما كانت. تَضُمُّ مَكتَبَتي المُتواضِعة كثيراً من الأعمال المَطبوعة في عدة مُجلدات، والحروف الصوتية فيها نادِرة. ومن دون هذه الحروف، فَقَدَت النصوصُ ألوانَها الصوتية و«مَنطِقها» وجَعَلَتْ قراءتها أصعَب قليلاً كَنوعٍ من الأحجِية بدلاً من أن تكون «سَريعة» مِثل النصوص المُناظِرة المَكتوبة يدوياً مع الحَركات والحروف الصوتية. أما الطباعة العربية فستكون مُخيفَةً للنَّظَرِ وفي القراءة، مِثل آثارِ خطوطٍ مُنفَصِلَة لِمَسارِ خُنفُسَةٍ عَرجاء. خسرت حتى الجمال البدائي الساذج للطباعة اللاتينية، وكانت صعبة جداً في التَّنفيذ.

جَرَتْ محاوَلَتان في القَرن التاسع عشر والقَرن العشرين لِجَعلِ اللغةِ العربية أكثر قبولاً للطباعة باستِخدام الحروفِ المُنفَصِلة فقط دون تحقيق أي نجاح[١٢١]. ولم تَنجَح مُحاولةُ اختراع ما يُعادل الحروف الكبيرة[١٢٢] التي تُساعِدُ كثيراً على الإبحار في النصوص اللاتينية. استَغنَى الأتراكُ سنة ١٩٢٨ عن الكتابة بالخَطّ العربي، وتَبنّوا الحروفَ اللاتينية في كِتابةِ لُغَتِهم، وأدّى ذلك إلى غَضبٍ شديد في بعضِ مناطِق عالَم العربية. كان ذلك أسوأ من التَّخريب المُتعَمَّد. ألهَمَ «الخَطُّ العربي» أحَدَ مُمارِسيه المُميزين آنذاكَ لِيَكتُب:

لم يرتَكِب [الخَطُّ العربي] ضِدَّ الترك أية خَطيئة. كان القرار فقط طَريقَتهم في مُجاراة «حَضارة» زائِفة... لم يَنشَأ القَرارُ من نظَريةٍ حَكيمة أو مَنطِقٍ عَقلاني... لم يكن سوى خاطِرة سَكرَى تَخمَّرتْ في رؤوسِ زعمائِهم الكِبار[١٢٣]. [غير حرفي]

كان أتاتوركُ يُلِحُّ على الاختلاف، ولم يكن تفكيرُ الزعيم التركي أقلّ من إعادَةِ تَوجيهٍ ثقافي لتركيا بَعدَ العثمانية بَعيداً عَن العالَم العربي ـ الإسلامي، وإعادة تَوجيهِها زمنياً من القرن الرابع عشر الهجري إلى القَرن العشرين الميلادي. ربما من المبكر جِداً مَعرِفَةُ إذا كانت نظريته حَكيمة أم لا.

---

(١٢١) الكردي، **تاريخ الخط العربي وآدابه**، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.
(١٢٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٧٢ و١٦٠.

وعلى كل حال، فمنذ عَهد أتاتورك حتى الآن حَدَثَتْ ثورةٌ أخرى أودَتْ أخيراً بالكَتَبَة، وربما ذَهَبَتْ بالشكوكِ حولَ جَدوى بَقاء الخط العربي في العالَم المُعاصِر. منذ عشرين سنة فقط، أردتُ أن تبدو الكتابةُ العربية في أولِ كُتُبي جَميلةً وجيدة، فلم أستَخدِم مُنَضِّدَ حروفٍ، بل طَلَبتُ خَطَّاطاً. تغيَّر كلُّ ذلك بوجود برامج إلكترونية لمُعالَجَةِ الكلمات، فأصبَحنا كلنا خَطَّاطين ونستطيعُ الطِّباعة فوراً مع حَركاتِ التَّشكيلِ ووَصلِ الحروف والتّصحيح والتَزيين وكلَ شيء

والحمد لله

ولكن، على مَدى ٥٠٠ سنة مِن غوتنبرغ إلى مايكروسوفت، كانت المشكلة هي عدم تَوافُقِ الطِّباعَة مع الحروف العربية.

كانت هنالك مُشكلاتٌ أخرى كذلك بعيداً عن المَصاعب التّقنية والجَمالية، فقد احتاجَتْ حروف الطباعة العربية المُتحرِّكَة نحو ثُلُثَي فترةِ الخَمسمئة سنة لكي تَتحرَّك في موطِنها. أقدَمُ الكُتُبِ العربية المَطبوعة التي ما زالت موجودة هي جُزءٌ من أدعِيَةٍ مَسيحية تم طبعها في إيطاليا سنة ١٥١٤[١٢٤]. منذ ذلك الحين، سيَطبَعُ المُستشرقون نصوصاً عربية في أوروبا. أما في بلاد العربية ذاتها، فقد جَرَّبَ مسيحيون في لبنان الطباعة بَعدَ نحو مئة عام[١٢٥]، وفي حلب بعد مئةٍ أخرى[١٢٦]، ولكنَّ التكنولوجيا لم تَنتَشر إلى الأغلبية المسلِمة. أُسِّستْ أول مَطبعة في إسطنبول سنة ١٧٢٢[١٢٧]، ولكن الطباعة لم تَظهَر في عالَم العربية، فيما عَدا المُحاولتَين المُجهَضَتَين السابقتَين، حتى جاءَتْ مع مغامرة نابليون في مصر سنة ١٧٩٨ وظَهرَتْ مُلصَقاتٌ دِعائية على جُدران القاهرة:

(١٢٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, p. 795.
(١٢٥) Ibid., vol. 6, p. 796.
(١٢٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 747.
(١٢٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, p. 795.

أميرُ الجيشِ بونابارتة... رَجُلٌ عقلاني حَكيمٌ ورَحيم ورؤوفٌ بالمسلمين، يُحبُّ الفقراء والمُحتاجِين![١٢٨] [غير حرفي]

تَبِعَ ذلك تأسيسُ محمد علي باشا مَطبعةً حكومية كاملة في المدينة سنة ١٨٢٢[١٢٩]. ولم تَترسَّخ الطباعة بشكلٍ دائم في بلاد العربية حتى ذلك الحين. وهكذا، بَعدَ ٣٥٠ سنة من انتشارِها في كافة أرجاء أوروبا، كان معظم المتحدِّثين بالعربية مَحرومين من الطباعة. من الصعب تقدير نتائج ذلك، إنما لا شك بأنَّ ذلك التأخير قد أعاقَ التَّقدم العِلميّ والتَّقنيّ بقوة، كما أنَّ الإعاقَةَ أبطَأت انتِشار الأفكار الجديدة. قِيلَ إنَّ ثورةَ الطِّباعة الأوروبية كانت وراءَ المَفهوم الجديد في الحقيقة كبرهان، مُقارَنة «بالبرهان» من خلال الشِّعارات والخطابات والسُّلطات المُقدَّسة أو البَشَرية. أدّى هذا المَفهوم الجديد بدَورِه إلى الثورة العِلمية كلها[١٣٠]. إذا كان هذا صحيحاً، فهو أمرٌ خَسِرَهُ عالَم العربية.

ذَكَرَ فرنسيس بيكون Francis Bacon وتوماس كرلايل Thomas Carlyle الطباعة والبارود والبوصلة والبروتستانتية كأعظَم الاكتشافات في العَصر الحديث[١٣١]. كَتَبَ كرلايل:

مَن استطاعَ تقليلَ جُهد الكَتَبَة بتَصميم الأحرف المُتَنقِّلَة، كان يُسَرِّحُ جيوشَ المُرتَزِقَة، ويَطرُدُ مُعظَمَ المُلوك والنُّواب، ويَخلُقُ عالَماً ديموقراطياً جديداً: لقد اختَرَعَ فَنَّ الطِّباعة[١٣٢].

تأجَّلَ حُلولُ ذلك العالَم الجديد لدى جُزء كبير من الإنسانية، ولم يكن السبب عند المُتحدِّثين بالعربية هو الاتجاه المُحافِظ عند الكَتَبَة والمُلوك فقط،

---

(١٢٨) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(١٢٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, pp. 797-798, and Joel Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity* (London: Allen and Unwin, 1969), p. 287.

(١٣٠) انظر على سبيل المثال في: David Wootton, *The Invention of Science: A New History of the Scientific Revolution* (London: Harper Collins, 2015), passim.

(١٣١) Francis Bacon, *Novum Organum* I, Aphorism 129, and Thomas Carlyle, *Critical and Miscellaneous Essays* (Boston, MA: D. Appleton and Company, 1877), "The State of German Literature".

(١٣٢) Thomas Carlyle, *Sartor Resartus* I, chap. 5.

بل كان أيضاً الخَطّ العربي الرائع الجَمال والذي لم يَنسَجِم مع الطباعة. تَخَيَّلْ مَثلاً في تَشبيهٍ مُماثِلٍ لو أنَّ الناطِقين بالعربية مُنِعوا مِن استِخدامِ الإنترنت ثلاثمئة سنة.

لم يَحدُث ذلك بالطبع، والعربُ مُتحَمِّسون جِداً لاستِخدام الإنترنت، خاصةً منذ ظُهور الهواتف الذَّكية. هناك التفافٌ آخَر في هذا لِنَتائج اختِراع الإغريق للحروفِ الصوتية، فربما يكون صحيحاً أنْ يُقالَ إنَّ كثيراً مِن عالَم العربية قد قَفَزَ فَوقَ الطِّباعة وحَطَّ مباشرة في عالَم تقنيات المَعلوماتية، أو ربما عالَم تقنيات المَعلومات الخاطِئة بسبب توفّر نسخ عديدة «للحقيقة» في الوقتِ نفسه، وهي نسخٌ تَعتَمِد مَرةً أخرى على الشِّعارات والخِطابات والسُّلطات المُقدَّسة أو البَشَرية مثلما تَعتَمد على الحَقائق التَّجريبية. أي إنَّ كثيراً من العرب قد قَفَزوا مباشرةً مما «قَبلَ الحقيقة» إلى ما «بَعدَ الحقيقة» دون المُرورِ بالمَرحَلَة بينهما.

أقبح الأجناس

إذا كانت ٣٠٠ سنة من وصول العثمانيين قد بدت أن تعيق التقدّم العِلمي في عالَم العربية، فإن الحالَة لم تَكن تبدو أفضَل بالنسبة إلى الهوية العربية. قَبلَ بدء الانخفاض العثماني، أشارَ ابن بطوطة إلى «العرب» مراتٍ قليلة في كِتاب رحلاتِهِ الطويل (نحو ألف صفحة في التَّرجَمة الإنكليزية)، على الرغم من تَغطِيَتِه ثلاثاً وثلاثين سنة ونحو ١٢٠,٠٠٠ كيلومتر من التجوال الذي شَمَلَ جميع البلاد الناطِقة بالعربية. ينقسم ما ذكره عنهم تقريباً إلى ثلاثة أنواع: ثُلُثها تَستَخدِمُ كلمةَ «العرب» كإشارَةٍ عِرقية ـ لغوية أو ثقافية، مِثل الفقراء [متصّوفي] العرب والفرس والترك والروم(١٣٣). ويُشيرُ ثُلُثٌ آخَر إلى العرب كَحرّاس ومُرشِدين في الصحراء على أطرافِ العالَم المُتحَضِّر الذي سافَرَ فيه ابن بطوطة، مثل أولئك المَوجودين في صحراء مصر الشرقية(١٣٤). أما الثُلثُ الأخير فيُشيرُ إلى العرب بِصِفَتِهم مَصدَر خَطَر، مِثل رِجال القبائل العربية السّارقين الغُزاة الذين شاهَدَهم

(١٣٣) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, vol. 2, p. 479.

(١٣٤) Ibid., vol. 1, p. 68.

يُحاصِرون تونس(١٣٥).

مع نهاية ثلاثمئة سنة مِنَ الانخفاض في أوائل القَرن التاسع عشر، قامَ أشهر مؤرخ عربي في عصره، وهو المصري الجبرتي (أصلُهُ إثيوبيٌّ وثقافَتُه عربية)، بالإشارةِ إلى العرب في سِجِلٍّ عن مصر من ألفَي صفحة أكثر مما فَعَلَ ابن بطوطة، ولكنه نادراً ما أشارَ إلى دَورِهم «الثقافي» أو اللغوي، وهم دائماً يأجوج ومأجوج على الأغلب: «الملاعين الأعراب الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاء محيط بالناس»(١٣٦). كان يكفي مُرَوِّجي الإشاعاتِ في القاهرة أن يَصرخوا: «نزلت عليكم العرب يا ناس»(١٣٧)، ليُثيرَ الرُّعبَ ويُحرِّكَ فِراراً جَماعياً مَذعوراً تُقتَلُ فيه النساءُ دَعساً تحت الأقدام.

إلا أنّ كل ذلك كان على وشك التغير، وستَستَيقظ هويةٌ عربية جديدة ستَشملُ شعوباً وقبائل مختلفة من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، وستَفشَلُ مِثلَ غيرِها في توحيدِهم.



---

(١٣٥) Ibid., vol. 4, p. 922.

(١٣٦) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٢، ص ٣٥٠.

(١٣٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٧.

الانجلاء

١٨٠٠ - إلى الوقت الحاضر

الفصل الثالث عشر

إعادة اكتِشاف الهوية

النهضات

يا جميل يا راخي العذار

كَتَبَ عبد الرحمن الجَبَرتي في نهاية القَرن الثامن عشر في مقدِّمة حولياته: «نبذ [تدوينَ التاريخ] أهلُ عصرنا وأغفلوه وتركوه»[1]. اعتَبَر الجَبَرتي كما رأينا أنَّ الأعراب هم أقبح الأجناس[2]، ولم يكن أقلّ تشاؤماً بشأن التاريخ نفسه:

فإنَّ الزمانَ قد انعَكَسَتْ أحوالُه، وتقلَّصَتْ ظِلاله... فلا تُضبَطُ وقائعُه في دَفتَرٍ ولا كِتاب، وإشغالُ الوقتِ في غير فائِدَةٍ ضَياع، وما مَضَى وفاتَ ليس له استِرجاع[3].

وقالَ إن هذا العَصر من النسيان والانحطاط قد جَرى منذ خمسين سنة أو يزيد. ذَهَبَ المَجدُ وحوصِرَ التاريخ الآن مِثل الأدبِ في لَولَبٍ هابِطٍ، يَغزو فيه البدو أهلَ الحَضَر الذين لا حَولَ لَهم ولا قوة، ويَنهَبون قوافلَ الحجّاج إلى مكة[4] ويسيطر فيه المماليك على القاهرة مِثلَما فَعَلوا منذ أكثر من خمسمئة سنة، بما فيها ثلاثمئة سنة من حُكمِ العثمانيين.

قَبلَ نهاية القَرن الثامن عشر، دَارَت الأيام دَورَتها وانطَلَقَتْ نحو مُستقبلٍ

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ١، ص ٩.

(٢) انظر: ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ من هذا الكتاب.

(٣) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢.

(٤) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

مَجهول. أثارَ البدو المُهاجمون على القاهرة الذُّعرَ والخوف، ولكنهم كانوا الشياطين الذين نَعرِفُهم على الأقلّ، وكما يُقال فإنهم أفضَل من البَشَر الذين لا نَعرفهم. وذلك لأنه عندما هَجَمَتْ جَحافل أخرى على مصر في تموز/ يوليو ١٧٩٨ لم يكونوا الشياطين المَعروفين، بل عِرقاً من الغُزاة البَشَر المَجهولين على مَدى خمسة قرون منذ أنْ هَجَمَ الصليبيون الفِرنجَة على دلتا نهر النيل. تم صَدُّ الصليبيين آنذاك، ولكن في هذه المرة كان الصِّراع أقلّ تَناظُراً، فقد انتَشَر المماليكُ أشلاء مُبَعثَرة تحت قَصفِ المَدافع القوية، ولم يكن لدَى أهل القاهرة ما يُدافِعون به في مواجَهة هذا النَّسلِ الجديد من الفِرنجَة سوى الدّعاء والعصيّ[5]، وسارَ نابليون نحو الدَّاخل.

لم يكن هَمُّهُ فقط تحقيق الحُلم الإمبراطوري في التوسُّع، بل تَدمير اتصالاتِ بريطانيا في شرق المتوسط، خاصة الطريق البرية القصيرة والحَيوية عبر مصر في طريقها نحو إمبراطوريتها الناشِئة في الهند. راقَبَ الجبرتي الفِرنجَةَ الجُدد بافتِتانِ باحِثٍ في عِلم الإنسان. وفي لَفتَةٍ فرنسية نموذجية، كان من أوائِلِ ما فَعَلوهُ هو فَتحُ مَطاعِم تُقدِّمُ خِدمَتها على طاولات وفقَ لائِحَةِ أطعِمَةٍ بسِعرٍ ثابت:

وعلى كل مَجلسٍ علامَتُهُ، ومقدار الدَّراهم التي يَدفَعها الدَّاخِل فيه... وبَعد فَراغ حاجَتِهم يَدفَعون ما وَجَبَ عليهم مِن غَير نَقصٍ ولا زيادة ويَذهَبون لحالِهم.

«من غَيرِ نَقصٍ ولا زيادة»[6] كانت إضافَةً أولى صغيرة في عاصِمَةِ المُساوَمَة. لاحَظَ الجبرتي أيضاً بمُراقَبَةِ غُرَفِ الطَّعام وغُرَفِ النَّوم أنَّ الفرنسيين لم يَتأخَّروا بإجراء علاقات مع مَحظيات المماليك المَهزومين، «ومَحفَّات للنِساء والجَواري البيض والسود والحبوش اللاتي أخَذَوها من بَيتِ الأمرا، وتَزيا أكثرهنَّ بزي نِساهم الإفرنجيات»[7] [غير حرفي]. كان المُحتَلّون الثوريون أقلّ نجاحاً في مَسألة الملابِس، عندما حاوَلوا إقناعَ أكبر ثلاثة شيوخ بتغيير ملابسهم التقليدية الداكنة، وهي نوعٌ من اللباس الأكاديمي

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٦.
(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٦.
(٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥١.

(الطَّيلسان)، إلى نسخة ذات الألوان الثلاثة للعلم الفرنسي الثوري[٨].

غير أنهم نَجَحوا في إطلاقِ منطاد صغيرٍ ذي ثلاثة ألوان، وكان فَشَلاً مُبالَغاً في الدعاية لَه، ومن حُسنِ الحَظ أنه كان بلا مَلّاح لأنه تَحطَّمَ في الهواء. توقَّعَ الجبرتي أن هذا المنطاد بَعيدٌ عن أن يكون «على هيئةٍ مركَبٍ تَسير في الهواء بحكمَة مَصنوعة، ويَجلسُ فيها أنفار من الناس ويُسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكَشفِ الأخبار وإرسالِ المراسلات، بل ظَهَرَ أنها مثل الطّيارة التي يَعملها الفَرّاشون بالمَواسم والأفراح»[٩]. كما أنه لم يرض على مشهد بعض النساء الفرنسيات اللواتي رَكِبنَ الخيول وجِئنَ مع قوة استِكشافية وهُنَّ يرتدين ملابسهن الباريسية، «وهُنَّ يَصرُخنَ ويَضحَكنَ ويَمزَحنَ مع الصِّغار وشباب العامّة»[١٠] [غير حرفي]. إلا أن بعضَ اختراعات الفِرنجَة بَهَرَتْهُ فِعلاً، مِثل ذلك الاختراع العَبقري: العربة اليدوية[١١]، وبَهَرتْهُ أكثر المكتبةُ العامّة التي افتَتحها الفرنسيون. قَضَى الجبرتي فيها ساعات طويلة، ولاحَظَ أنها كانت ذات شعبية حتى بين «الرُّتَب الدُّنيا من العَساكر»[١٢] [غير حرفي؟]. كما استَمتَع أيضاً بزيارة مَعرضٍ تفاعليٍّ حيث يستطيع المَرء مُراقَبَةَ تجارِبَ علمية عن قرب، وحتى تجربة تَلَقِّي صَعقاتٍ من جهاز توليدٍ للكهرباء السَّاكِنة، «ارتجّ بدنه وارتعد جسده وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجّة سريعة»[١٣].

فيما عَدا التَّقنيات الجديدة والمَلابس التي جَلَبها، كَنَسَ نابليون غُبارَ الماضي الثقيل الذي تَراكَمَ وأصبَح سَميكاً، حَطَّمَ البوابات التي فصَلَتْ بين أحياء القاهرة، وأمَرَ بتنظيفِ الطرق وإضاءتِها، وتَسجيلِ الأملاكِ في المدينة[١٤]، كما كَنَسَ بعضَ شَبكاتِ العَناكب العَقلية أيضاً، مِثل المؤسَّسات القضائية التي بُنِيَتْ مَدارِسُها الفقهية عَبرَ ألف سنة، والتي فوجِئتْ بأنَّ

(٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٠.
(١٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.
(١١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٢.
(١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٣.
(١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.
(١٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٦ ـ ٢١٠.

إجراءات المَحكَمة الفرنسية لم تَستَند إلى الدِّين، بل استَندَتْ إلى العَقل والمَنطق[١٥]. أدخَلَ نابليون أفكاراً سياسية جديدة مثل الانتخابات[١٦] والمَجلس النيابي[١٧]. وفي محاولة للسيطرة على العقول المُنفَتِحة الجديدة، أسَّسَ أيضاً أولَ مَطبوعات دِعائية في عالَم العربية بشكلِ مُلصَقاتٍ صَوَّرَ فيها نفسَه صَديقاً للإسلام[١٨]. لم تكن الصَّداقة واضِحة دائماً، فقد أدّى تَسجيلُ المُمتلكات بالطبع إلى خُطَطٍ لِفَرضِ ضَريبة عليها، أدَّت بِدَورِها إلى ثورة شعبية، رَدَّ عليها الفرنسيون بِتَدنيسِ الجَامع الأزهر[١٩].

على الرغم من تلك التَّحريضات، حافَظَ الجبرتي على حِيادِيته وعدم الحُكم على الفرنسيين. يبدو أنه اعتَبَرَهم مُثيرين لِفُضولٍ لا مَثيل له، ودَفعَةً لحولياته (بَعَثوا الحياةَ من جديدٍ في تاريخٍ نائم)، وعملاءَ قَصاصٍ مُقَدَّسٍ، فكَتَبَ مُقتَبِساً مِنَ القرآن:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٢٠].

كان الفرنسيون النَّظير البَشري للكوارث الطبيعية التي أنزَلَها اللهُ على العُصاة من قَوم عادٍ وثَمود وسَبأ في الماضي البعيد. اعتَبَر بعضُ سكان القاهرة الأقلّ فلسفةً أنّ الفرنسيين هم «كلابٌ كفار»[٢١]، بينما رَحَّبَ بهم آخرون. كانت هناك أغنيةٌ شعبية احتَفلَتْ بنابليون وهزيمَتِه للمماليك غير المَحبوبين، وصَدِّه لهجَمات البدو، ومَعانيها:

يا سلام أوحشتَنا يا جنِنار

يا جميل يا راخي العذار

وسيفك بيخ مصر

(١٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٩.
(١٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٥.
(١٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٨.
(١٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧. انظر أيضاً: ص ٥٦١ من هذا الكتاب.
(١٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٩ ـ ٢٢١.
(٢٠) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥١. انظر أيضاً: **القرآن الكريم**، «سورة هود،» الآية ١١٧.
(٢١) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٨.

دار على الغزّ والعُربان[٢٢]

إلا أن مزيداً من الدَّمار كان في الطريق، فعَلَى عَقِبِ الفرنسيين جاءَ نَوعٌ آخَر من الفِرنجَة بعدَ شهرٍ واحِد من اجتياح نابليون للقاهرة، إذ أبحَرَ الأميرال نلسون إلى أبي قِير ودَمَّرَ الأسطولَ الفرنسي في معركة النيل. انقطَعَ نابليون عن خَطِّ إمدادِه، وتمكَّن الجنرالُ الوسيم من الهَرب في السنة التالية، ولكنَّ وَضعَ الفرنسيين كان ضعيفاً، وأخرَجَتهم قوةٌ عثمانيةٌ بريطانية من مصر في صيف ١٨٠١.

مرةً أخرى، حوصِرَ العرب بين إمبراطوريات شعوبٍ أخرى مثلما حَدَثَ لهم في الماضي البعيد قَبلَ الإسلام عندما كانوا «مكعومين على رأس حجر بين الأسدين»[٢٣]، ومثلما حَدَثَ لَهم بعدَ ذلك مِراراً. حُصِروا هذه المَرّة بين ثلاثة أسود: الباب العالي العثماني الذي حَلَّ به الضَّعف، والمُتنافِسَين القويَّين الآن بريطانيا وفرنسا، الأولى تُحاوِلُ المُحافَظَة على جِسرِها البَرِّيّ القصير الحَيوي عَبر مصر إلى الهند، والثانية تُحاوِل قَطعَهُ. ساعَدَ العربَ كَونُهم وسَطاء ذات مَرَّةٍ حين توسَّطوا بين مَنطِقتَين كبيرتَين في تجارة العالَم القديم: البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي؛ أما الآن فَهُم بَينَ قوّتَين أوروبيَّتَين تُريدُ كلّ منهما السيطَرة على المنطِقتَين في الوقت نفسه. وَجَدَ العربُ أنفسَهم في الطريق (ولن تكون هذه هي المرة الأخيرة: كان قَيصَر وهولاكو، باعتبارهما الإمبراطوريتين المتنازعتين في الحرب الباردة والمميزة بأعظم شاعر عربي، يتجولان دائما ولا يزالان حول الشرق الأوسط)[٢٤].

شعوبٌ وقَبائل وإمبراطوريات

مَرة أخرى، ستُشكّل ضغوطُ إمبراطوريةٌ الهويةَ العربيةَ. يُعتَبَر دائماً قُدومُ الفرنسيين إلى مصر نُقطَةَ تَحوّلٍ في المنطقة، ونقطَة انعِطاف العرب نَحو عالَم غربيّ حَديث. لا شك بأنها كانت أقرَبَ احتِكاكٍ مع أوروبا بعد عَصر النهضةً

---

(٢٢) ورد في: David Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1989), p. 63.

(٢٣) انظر: ص ١٣٠ من هذا الكتاب.

(٢٤) نزار قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ٣ ج، ط ١٦ (بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧)، ص ٧٨٢.

حتى ذلك الوقت، إلا أنه لم يكن الاحتكاكَ الأول. كانت الإمبراطورية العُمانية عَبرَ المحيط قد استُلهِمَتْ وتَشكَّلتْ على مَدى أكثر مِن قَرن بتَزايد القوةِ البحرية الأوروبية[٢٥]. وفي الرُّبع الأخير من القَرن الثامن عشر، كانت الإمبراطورية البريطانية المزدَهرة تُرسِلُ سُفناً حربية إلى الخليج بغَرَضِ حمايةِ التجارة البريطانية الهندية مِن غاراتِ السُّفن العربية فيما يُعرَفُ الآن بدولة الإمارات العربية المتحدة[٢٦]. اعتِبار الغارات من قَراصِنة أو جِهاديين أو مُقاتلين في سبيل الحرية هو مسألة ذَوق، ومما لا شك فيه هو أنَّ العمليات البريطانية البحرية كانت دلالةً مُنذِرة بالتدَّخُلات الغربية في الخليج حتى وقتِنا هذا.

كانت تلك الاحتِكاكات المبكرة أحدَاثاً هامِشيةً على أطرافِ عالَم العربية، ولكن القوى التي هبَطَتْ على مصر كانت من مُستوى آخَر، فقد وَصَلَ جيشُ نابليون بعد حَملةٍ كاسِحة في إيطاليا، وكانت البحرية البريطانية في المتوسط تُسيطِر على الأمواج الغربية، وكانت مصر ذاتها القَلبَ الثقافي لِعالَم العربية منذ سقوط بغداد أمام المَغول قَبل خمسة قرون. تقَعُ مصر في منطقةِ تَلاقي المشرق بالمغرب بين قارّتَين، وكانت مَوطِناً لأكبر تَجَمُّعٍ سكّاني مِنَ الناطقين بالعربية في كلّ أراضي الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلكَ في سنة ١٧٩٨، كان القَلبُ الثقافي يَخفقُ ضَعيفاً، وكان وَعي مصر لعروبتِها نائماً. مَضَى وقتٌ طويل منذ أن جاءَ مُفكِّرون لامِعون مثل ابن خلدون للتَّدريس في مَدارس القاهرة الجديدة النّامِية. منذ نحو أربعة قرون مَضَت، كانت تلك المَحطّات لتوليدِ الفِكر وصُنَّاع المَعرفة المصرية العظيمة، مِن أمثال المفكِّر المَوسوعي القَلقشَندي، والمؤرخ الأديب السيوطي، قد جَمَعوا قَواعِدَ البيانات الضخمة للمَعارف العربية. والآن، في غروب العثمانيين كما سَجَّلَ الجبرتي، يبدو أنه لم يَبقَ شيء مهمٌّ يمكن إضافته إلى الماضي. والأسوأ من ذلك هو أنَّ الماضي نفسه كان يَضيعُ. وما بَقِيَ من المَدارس القديمة والمكتبات العظيمة كان مُعَرَّضاً للنَّهب والبَيع[٢٧]، كما رَثَى ذلكَ الجبرتي. كان جوهر التاريخ العربي والهوية العربية يُسرق ويَضيع.

---

(٢٥) قارن: ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ من هذا الكتاب.

(٢٦) James Parry, "The Pearl Emporium of Al Zubarah," *Saudi Aramco World* (November-December 2013), p. 35.

(٢٧) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ١، ص ١١.

والآن، في فَجر ما أصبَحَ يسمّى النهضة، زَرَعَ كل من فرنسا ثم بريطانيا أولى القُبُلات الخَشِنَة التي ستُوقِظُ العربَ مِن نَومِهم الطويل. بَعدَ ذلك في أواخِر القَرن التاسع عشر، ستَضَعُ الإمبراطوريةُ العثمانية ثِقَلَها على العرب بَعدَ أنْ كانت حاكِمَةً بعيدةً عن شؤونهم في معظم أرجاء عالَم العرب، وعندها ستَبدأ تلك الشعوبُ المُكَسَّرة المُتفرقَة في اعتبار نفسِها مرة أخرى كجَماعَةٍ مميّزة تَجمَعُها اللغةُ والتاريخ. سيَتَجَمَّعُ العرب بكل تَنويعاتِهم مِن جديد، ليس «على كَلِمة الإسلام» هذه المَرّة كما وَصَفَها ابن خلدون، ولكن على كلمة أخرى هي القومية. كان الألمانُ والطليان وشعوب أخرى في أوروبا تُعيدُ اكتِشاف (أو اختِراع) جُذورِها آنذاك، وتَكتَشِفُ أنها كانت أمَماً تَشترِكُ بلغاتٍ وتقاليد قديمة، وكذلك سَيفعَل العرب. ولكن بينما كانت كلمة «القومية» جديدةً بالنسبة إلى العرب، كانت الفكرَة قديمة. حاوَلَ الإسلامُ أيضاً جَمعَ شعوب الحَضَر والقبائل المُرتَحِلَة ليصوغهم معاً في «أمّة»، بمَعنى مجتمع كبير مُتماسِك. سَتؤسِّسُ القومية العربية نفسَها على قاعدة الأمّة العربية[٢٨]. عَرَّفَت اللغةُ المُشترَكة الناطِقين بها كجَماعة «أمَمية» حتى قَبلَ الإسلام بصيغة العرب مُقابِل العَجَم. وهكذا، إذا كانت النهضةُ في القرن التاسع عشر قد «زَرَعَتْ بُذورَ فِكرَة... أنّ العرب هم أمّة تُحدِّدُها لغةٌ مُشترَكَة وثقافة وتاريخ»[٢٩]، فإنها لم تكن أولَ مرة. كانت البِذرةُ قد زُرِعَتْ قَبلَ الإسلام، وأُعيدَ زَرعُها في القرون الإسلامية الأولى، وتمّت تَغذيتُها في أوائل العصر العباسي، عندما تم تَثبيتُ اللغةِ المُشترَكة والثقافة والتاريخ للمرة الأولى في الكتابة.

تَلاشَت الزراعاتُ القديمة، وستَنمو بِذرةُ القرن التاسع عشر أولاً إلى عَصَبية جديدة وشُعور بالتَّضامن سَيصبِحُ أقوى من أي عَصر آخر منذ فَجر الإسلام. وفي منتصف القرن العشرين، سيُغذّي التَّضامن عَجَلَةَ نارٍ مُركَّزة في مصر، وسَتعيدُ اشتِعالَها على مستوى عربي شامل. ومرة أخرى، سَيجِدُ العربُ أن وحدَتَهم صَعبةُ المَنال، وسَتأكلُ النار نفسَها.

---

(٢٨) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), s.v. Kawmiyyah.

(٢٩) **Eugene Rogan**, *The Arabs: A History* (London: Penguin, 2011), p. 171.

لم يكن كلّ هذا مُتخَيَّلاً في مصر القَرن التاسع عشر، كان المصريون مازالوا يَترَنَّحون تحت تأثير التَّحول التاريخي المُفاجئ الذي حَلَّ عليهم مع نابليون، ولكن إذا أمكَنَ تصديقُ زائرٍ أوروبي سنة ١٨٠٦، فإن الاحتِكاكَ القَصير مع الفرنسيين قد فَعَلَ فِعلَه مثلَ رَنَّةٍ إيقاظ.

أدّت الحملة الفرنسية إلى تغيُّرٍ سَعيدٍ في أفكار الناس. أُتيحَتْ لهم رؤية امتيازات عظيمة للحضارة، والتكتيكات العسكرية، والمؤسسات السياسية، وفنون الأمم الأوروبية وعلومها، كما تَوَفَّرَ لهم الوقت لتَقدير الأفكارِ الخَيرية التي تَشملُ جميع طَبقات المجتمع. ألهَمَهُم كلّ ذلك احترامَ الأمم التي تَحظَى بمِثلِ هذه الامتيازات على العرب والترك الذين اعتَرَفوا بتَخَلُّفِهم عن الأوروبيين[٣٠].

ربما لا يكون ذلك أكثر من مَركَزيةٍ أوروبية، لو لم يكن تأييداً ضِمنياً من المُراقِب المَحَلي الجبرتي، والأهم من ذلك هو الدليل الواضِح في تاريخ مصر أثناء العقود التالية في ظِلِّ حُكم محمد على باشا اللّافِتِ للنَّظر. سَيستَوردُ هو وخلفاؤه كثيراً من المُميزات في العِلم والأفكار، وسيجعلها مصرية الطابع.

إذا تَرَكَ الفرنسيون شُعوراً بالدُّونية، فقد تَركُوا أيضاً شُعوراً بالمصرية وبالأمّة. منذ البداية، أعلَنَتْ تصريحاتُ نابليون تأييدَ «شعب مصر... جميع الأمّة» [غير حرفي] ضِدَّ المماليك «الدخلاء»[٣١]. كان ذلك أمراً جديداً. كانت مصر ككتاب مُمحي ثم كُتب من الناس والأمراء، وكان المماليك مجرد آخِر وأطوَل سلسلة مِنَ الحُكّام المُستورَدين المُتَتالِين. إلا أن المماليك قد احتَفَظوا بالسُّلطَة فترةً طويلة بِعَدَمِ اندِماجِهم مثلما فَعَلَ الآخرون من الحُكّام. سيكون الوالي العثماني على مصر محمد عليّ مُختلفاً، سيَتعامَل هو وخلفاؤه مع الشعور بالدُّونية، وسَيبتَعدون عن إسطنبول، وسَيُحاولون تقليدَ أوروبا الغربية الحديثة. لن يكون المَوقفُ الجديد مجرد إعادَةِ تَوجيهٍ (أو تَغريب)،

(٣٠) Ali Bey, *Travels of Ali Bey* (Reading: Garnet Publishing, 1993), vol. 1, pp. 311-312.

(٣١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

بل سَيرسِّخُ بقوةٍ فكرة الأمّة المصرية، «أمّة كاملة» [غير حرفي] مثلما صَرَّحَ نابليون، وليست مُلكاً للباب العالي العثماني. من المحتّم أنّ ذلك سَيوقِظ عروبةَ مصر أيضاً.

كان محمد عليّ نفسه مُستورَداً، فقد كان ألبانياً ولِد في مَقدونيا، وارتفَعَ في الرُّتَبِ العسكرية العثمانية، ولكنه كان مِثل الطولونيين والأخشيديين وغيرهم من السلالات الحاكِمة الغريبة التي سبَقَتْه بألفِ سنة، فإنّ ذُرّيته سَتتعرَّب في مصر. صَرَّحَ أكبرُ أولاده إبراهيم باشا: «لقد غيَّرَتْ شَمسُ مِصرَ دَمي وجَعَلَتْهُ عربياً خالِصاً»[(٣٢)]. ومن المهمّ أنهم عَرَّبوا مصر ذاتها أيضاً باستِبدال اللغة التركية، ووَضعِ اللغةِ العربية مكانَها كلُغةٍ رسمية[(٣٣)]. أسَّسَ هذا اللغةَ العربية بقوة، ووضَعَها على أرضٍ وسطَى بَعدَ أنْ وُجِدَتْ فقط على الأطراف البعيدة من لغة العبادة الفصحى في جِهة، ولغة الناس العاديين في الجِهة الأخرى. قَبلَ ذلك، كانت العربيةُ العامّية تَعني هَيبَةً مُنخَفضة. اضطُر نابليون لاستِخدام الأتراك لحفظِ النظام، لأنَّ الناطقين بالعربية لم يَحظُوا بما يكفي من الاحتِرام والهَيبة[(٣٤)]. أعادَتْ سياساتُ محمد عليّ وخلفائه الاحترامَ بِمَنح اللغةِ العربية صِفتَها الرسمية من جديد. كما رفَعَ الباشا مستوى اللغة العربية بإحياء اختِراع فرنسي. كان نابليون قد غَمَرَ السوقَ بالإعلانات المَطبوعة، وأصدَرَ خليفتُه الثاني مينو Menou لفترة قصيرة في سنة ١٨٠٠ صَحيفة «التَّنبيه»[(٣٥)]، أول صَحيفة باللغة العربية. تابَعَ محمد علي هذه الفكرة سنة ١٨٢٨ بإصدار صَحيفته **«الوقائع المصرية»**. لم يكن العنوانُ إعلاناً بالاستقلال عن إسطنبول، إلا أنه كان تأكيداً قوياً على الذات.

أنهَى محمد عليّ أيضاً قروناً عثمانية طويلة من العزلَة عن أوروبا، فأرسلَ سنة ١٨٢٦ مجموعةً من الشباب المصريين للدراسة في باريس[(٣٦)].

---

(٣٢) ورد في: Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), p. 80;

وقارن: ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩ من هذا الكتاب.

(٣٣) Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 102.

(٣٤) Joel Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity* (London: Allen and Unwin, 1969), p. 250.

(٣٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, p. 465.

(٣٦) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، الثابت والمتحول: **بحث في الإبداع والإتباع عند العرب،** =

كان زعيمُهم رِفاعَة الطَهطاوي خريج الأزهر اللامِع، وقد عَبَّرَ عن مشاعره المُختلطة في المدينة الفرنسية في أبياتٍ:

أيوجَدُ مِثل باريسٍ دِيارٌ   شُموسُ العِلمِ فيها لا تَغيبُ
ولَيلُ الكُفرِ ليس لَهُ صَباحٌ   أما هذا وحَقِّكمُ عَجيبُ[٣٧]

ظَنَّ أنه من المستحيل أنّ أناساً أذكياء مثل الباريسيين لم يُصبِحوا مسلِمين. وعلى كل حال فقد رجعَ إلى القاهرة مُعجَباً بالعِلم الفرنسي، وكذلك بالحرية السياسية الفرنسية، وإدراكِ أنَّ «العَدالَة هي أساسُ ازدِهار الحَضارة»[٣٨] [غير حرفي]، كما هي في الإسلام نَظَرياً إن لم يكن، كما لمّح الطهطاوي إليه، عملياً. عادَ الطَهطاوي كذلك عالِمَ لغاتٍ بارِعاً، وتم تَعيينُهُ مُديراً مؤسّساً لمدرسة الألسُن التي أنشَأها محمد علي سنة ١٨٣٥ لتَرجَمة كُتُبٍ أوروبية[٣٩]. إنها الطَّبعَة الجديدة من بَيتِ الحِكمة التي أنشَأها الخليفةُ العباسي المأمون في بغداد قَبل نحو ألف سنة في ٨٣٢.

استمرَّت حركةُ الترجمة تحت رعاية خلفاء محمد علي باشا، إلا أنها سارَتْ في الاتِّجاهَين، ولم تشتمل على الكُتُب فقط، بل على المدينة ذاتها والثقافة والاتصالات في الدولة، وحتى جغرافيا التجارة الشرقية ـ الغربية. جَلَبَ وَرَثَةُ محمد علي باشا المُحرِّكَ البُخاريَّ إلى مصر، وروبرت ستيفنسون Robert Stephenson (ابن المُختَرِع جورج ستيفنسون) لتصميم الخطوط والقاطرات[٤٠]. وفي ستينيات القَرن التاسع عشر، قام إسماعيل، حَفيدُ محمد علي، بتَطويرِ القاهرة وجَعلَها مدينةً ذات شوارع عريضَة وساحات، وبَنَى الرمزَ الأعلى للانفِتاح على تقاليد الآخَر (أوروبا) بإنشاء دارِ الأوبرا. وخلال ذلك، كان العمل مستمراً لفَتحِ الطريق بين الشرق والغرب حَرفياً بِشَقِّ قناة السويس. أظهَرَ افتتاحُها سنة ١٨٦٩ أنّ الطَّرفَين يمكن أنْ يلتَقيا على الأقل لفَترة وَجيزة في حَفلِ الافتتاح:

= ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ٢٩ ـ ٣٤.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢ ـ ٣٣، و Rogan, *The Arabs: A History*, pp. 32-33.

(٣٩) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, pp. 169-170.

(٤٠) Sarah Searight, *Steaming East* (London: Bodley Head, 1991), p. 110.

رقصةُ كارمانيول مَجنونة... بين القياصرة والدراويش، الأباطرة وبَنات العَوالِم، البَطارِكة والبَبغاوات، الأمراء والمهندسين، شيوخ المسلمين والقَساوسة والبحّارة الطّليان، جميعهم اختلَطوا مع بعضِهم في هَرجٍ وَمَرج[٤١]...

أول ما مَرَّ في القناة كان أسطولاً من السّفن البخارية بما فيها سفينة إسماعيل الضخمة: المَحروسَة. أُجريَتْ فيها تعديلاتٌ كثيرة، ولكن من المدهِش أنها مازالت حتى الآن سفينةَ الرئاسةِ المصرية. ولكن كل ذلك جاءَ بثمنٍ مرتفعٍ لأنّ إسماعيل أفلَسَ الدولةَ المصرية، وفَتَحَ بذلك الطريقَ أمامَ تدخُّلِ جَانِبٍ غَير مُرَحَّبٍ به من أوروبا الغربية، هم مُحَصِّلو الدُّيون العَنيدون مِنَ الوكلاء البريطانيين.

انقلابُ الساعة الرّملية

بَدأت نهضة عربية أخرى في الجانب الآخَر من البحر الأحمر أدَّت إلى مَسارٍ مُختلف جِداً: نحو الماضي ونحو ذاتها. بالنسبة إلى رجال القبائل الوَهّابيين في شبه الجزيرة العربية فإنَّ مدرَسة الألسن بمَثابة بُرجِ بابل، ودار الأوبرا مَخدَعُ بَغايا بابل. اعتَبروا أنَّ البِدعَةَ هَرطَقةٌ وكُفر. ومع ذلك فقد كانت حَركَتُهم، مثل الأحداث التي انطَلقتْ في مصر، إرهاصاتٍ لانطِلاقةِ النهضَة العربية العامة[٤٢].

تَرجِعُ بدايات الوهّابية إلى منتصف القَرن الثامن عشر، إلا أنَّ العثمانيين لم يَنتَبهوا إلى هذا الخطر الداخلي إلا بَعدَ ١٧٩٨، السنة التي غَزا فيها الفرنسيون مصر. انزَعَجَ الأتراكُ من زيادة هجمات البدو المُنظَّمة على أرض الحَضَر في العراق، تلك الإشارةُ القديمة من عصر ما قَبلَ الإسلام على وجود اضطرابات في «جزيرة» العرب. أرسَلَ الأتراكُ جيشاً من ١٠,٠٠٠ جندي إلى شبه الجزيرة، واستَسلَموا بخِزي وعارٍ لمُقاتلين بَدوٍ رعاع[٤٣].

اتضَحَ أن ما كان يبدو عصابةً مِنَ الرعاع هم في الحقيقة جَيشٌ قَبليٌّ

---

(٤١) The Spectator on the opening celebrations for the Canal, quoted in: Ibid., pp. 117-118.

(٤٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 554.

(٤٣) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 70.

منظَّمٌ بشكلٍ مدهِش، كما كان أكبر بكثير من المتوقَّع، لأنه كان يُحشَدُ على مَدى جِيل كامل. ربما نستطيع تَجاوز الفِكرة التي ناقَشَها كاتبٌ عثماني سنة ١٨٨٠ بأن الوهّابية قد زُرِعَتْ في شبه الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر على يَدِ عَميل بريطاني اسمه «مستر همفر Mister Hempher»، لأن الحركةَ استَلهَمتْ أفكارَها واسمَها من شيخ في هضبة نَجد الجَرداء وسط شبه الجزيرة العربية. ولِد محمد بن عبد الوهّاب نحو سنة ١٧٢٠، وسافَرَ كثيراً في شَبابِه، ورَوَّعَتْهُ رؤيةُ عِبادة الأولياء وغيرها مِن أشكالِ «الفَساد» الذي أصابَ الإسلامَ في المناخِ القائِظ حَولَ مَوطِنه النَّجدي(٤٤). استَلهَمَ كتابات ابن تيمية المُتَزمِّت المَشهور في القَرن الرابع عشر، وبَدأ رِسالَةَ تَطهيرِ الإيمان والمُعتقَدات. استَندَت الجُذور المتعددة للحَركَة إلى الماضي في أفكارِ ابن تيمية كما يَظهَر في الاسم الرسمي للوهّابيين «المُوَحِّدين»، وفي رسالَة القرآن الأساسية: التَّوحيد، الذي يَعني الإيمان الخالِص بوَحدانية الإله، ويُزيل عنها كل ما عَلِقَ بها مِن شُركاء ووسَطاء(٤٥). وهكذا فقد اشتَرَكَ المُوحِّدون في شبه الجزيرة العربية في اسمِهم وهَدفِهم مع المُوحِّدين البربر في شمال أفريقيا وإسبانيا في القَرن الثاني عشر(٤٦)، وسَيثبتون أنَّهم نسخةٌ أكثر صَرامة وأصولية مازالت دَائرةً حتى الآن.

سيكون الوهّابيون المُوحدون مثلَ غيرهم من الحركات المِثالية قَبلَهم، إيمانيين وسياسيين، وسَيقولون «نعم» للحاكِم الدُنيوي مثلما يَقولون «آمين» للخالِق السماوي(٤٧). ومثل أولئك الآخرين، سَيجِدُ الموحدون الجُدد أنّ هناك فيلقاً متعدداً من الشياطين يسيطِر في الأرض مع وَحدانية الله. بَدأت الحركةُ نضالَها ضد الإرادة المُقدَّسة والطبيعة الإنسانية بسِعيِها إلى وحدَةٍ فوقَ - قَبَلية شامِلَة للعرب. إذا ظَهَرَت الروايةُ مألوفةً، فذلك لأن الوهّابيين أعادوا عن قَصدٍ بدايات الدولة الإسلامية في المدينة مثل المسلمين الأوائل، ووَصَفوا حَياتَهم قَبلَ الوهّابية بصِفَةِ الجاهلية(٤٨).

---

(٤٤) Reynold Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930), p. 466.

(٤٥) قارن: ص ٣٩ ـ ٤٠ من هذا الكتاب.

(٤٦) انظر: ص ٤٩٥ من هذا الكتاب.

(٤٧) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ١: **الأصول**، ص ٣١.

(٤٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p. 1064.

وخلالَ بَحثِهم عن النَّقاءِ والطَّهارَة، كانوا يَنظرون أيضاً إلى الوراء نحو نسخةِ الإسلامِ العربية الصافية خالِصَةً من شَوائبها الأجنبية والفَساد. ومرةً أخرى، كانت الهوية العربية تَتشكّلُ كَرَدِّ فِعلٍ على الغرباء، ليس فقط على العثمانيين المُتَفَسِّخين في شبه جزيرة العرب، والفاسِدين من شِيعةِ فارس الذين كانوا يَضغَطون مرةً أخرى على شرق شبه الجزيرة العربية مثلما فَعَلوا قَبلَ الإسلام[٤٩]، بل كذلك على كلِّ العالَم الذي غَرِقَ في عِبادة الأولياء والوثَنية والبِدَع.

ربما سيكون محمد بن عبد الوهاب وحيداً فوقَ هَضَبَةِ نَجد الصَّخرية مُحاطاً بتَهديداتٍ إمبريالية وعَقائدية، إلا أنه وَجَدَ نَصيراً حَيوياً في محمد بن سعود، زعيم عَشيرة نَجديةٍ بارِزة. أدركَ ابن سعود فرصَتَهُ، فمثلما حَصَدَ نظامُ قريش القديم نتائجَ جَمعِ الكَلِمَة الذي قامَ بِهِ النبي محمد بن عبد الله ليَتَمسَّكوا بحُكمِهم وبُوسْعِوه، فكذلك سَيفعَلُ آل سعود مع أتباع الإصلاحيّ محمد بن عبد الوهاب. سرعان ما أصبَحَتْ رسالَةَ ثَورةٍ بِفضلِ الدَّعمِ الدُّنيَوي مِن آل سعود وزيادَةِ تَدفُّقِ رجالِ القبائل للانضمام إلى نُصرَة القضية. أطلَقَ المُغيرون الوهّابيون موجةً من التَّخريبِ التَّطهيري في شبه الجزيرة، وحَطَّموا كلَّ ما ألمَحَ إلى الشِّرك، خاصة القُبورَ التي ارتَفَعتْ أكثرَ مِن قَبضَةِ اليَدِ عن سَطحِ الأرض لئلا تُشَجِّع الزُّوارَ على الانزلاق في مُنحدَرٍ من الاحترام والشَّفاعَة إلى عِبادة الأولياء. أثناءَ احتلال الوهّابيين للمدينة المنورة (١٨٠٥ ـ ١٨١٢) تم مَحو الكثير مما يمكن تمييزُهُ وزيارته من الماضي: هُدِمَت مراقد أصحابِ النبيِّ إلى كتلٍ مَجهولة من الرّكام. لم يَنجُ حتى النبيّ من الأذى، فنُهِبَتْ كُنوزٌ كانت قد وهِبَتْ لقَبرِه على مَدى قرون، وتَهالَكَت القُبَّةُ فوقَهُ نحو الانهيار[٥٠]. تم ذلك كله بكَبحِ نسبيٍّ مُقارَنَةً بفَورَةِ العُنف التي ضَرَبَتْ جنوبَ العراق سنة ١٨٠٢ حيث حَطَّمَ الوهّابيون كَربلاءَ الشِّيعة وخَرَّبوا القَبرَ المُبَجَّلَ للشهيد الحسين حَفيد محمد. ولم يَكتَفوا بتَدميرِ

---

(٤٩) Ibid., vol. 1, p. 554, and Parry, "The Pearl Emporium of Al Zubarah," p. 35.
انظر أيضاً: ص ١٣١ من هذا الكتاب.

(٥٠) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Wahhābiyyah.

المَوتى، بل قَتَلوا أهلَ المدينة الأحياء أيضاً[٥١].

كانت ساعةُ القَدَر الرَّملية، ذلك التاريخ المميت المُتكَرِّر للصِّراع الذي يَرجِعُ إلى العقود الإسلامية الأولى، يغطيه الغُبار على مَدى قرون. إلا أنَّ الوهّابيين قَلَبوها مِن جَديد ليَبدؤوا تحريكَ الصراعات القديمة مرة أخرى، وقَلَبَها وَرَثَتُهم وخُصومُهم مَراتٍ ومَراتٍ منذ ذلك الوقت.

كان الوهّابيون على مَدى قريب مِن بغداد، واضطُّر العثمانيون للقيام بعَمَلٍ ما. إلا أن هزيمةَ جيشِهم أمام رجال القبائل الوهّابيين سنة ١٧٩٨ قد بَيَّنَتْ أنَّ ذلك الأسَد الإمبراطوري كان في الحقيقة نمراً مِن وَرَق. طَلَبَ البابُ العالي المساعدَة مِن واليهِ في مصر محمد علي باشا بَعدَ أنْ تخلَّصَتْ مصر من الفرنسيين. مَنَحَ العمل إشارةً إضافيةً لاستقلال مصر، وبَدأت نَوعاً جَديداً من الصِّدام بين نَوعٍ جديد من الشعب الذي بدأ يَستَشعر طَريقه نحو القومية في المستقبل، ونَوعٍ جديد مُتَّحِدٍ من القبيلة العُظمى التي تُحاول أن تَستَكمِل ما اعتَبَرَته عمَلاً تأريخياً ناقصاً. باختصار، كان الصِّدام بين التقدُّم والرجعية، بين مستقبلٍ غامِض وماضٍ مُتَخَيَّل.

رَبِحَ المستقبلُ هذه المرّة في عام ١٨١٨ بَعدَ خَمس سنوات كالِحة من الحَملة العسكرية في شبه الجزيرة العربية لقواتِ محمد علي باشا. قُبِضَ على زعماء الوهّابيين، وتم إعدامُهم في إسطنبول. عُرِضَت الجثثُ ثلاثة أيام، ثم أُلقيتْ في البحر[٥٢] (هل عَرفَ الأمريكان ذلك عندما ألقوا أسامة بن لادن، السليل الروحي الوهّابي، في البحر بعد ٢٠٠ سنة؟). يبدو أنّ الوهّابيين قد لاقوا مصيرَ جيشِ فرنسا في معركة واترلو، إلا أنَّ تأثيرَ المُغيرين كان أصعَب مِن أنْ يُمحَى:

حماسٌ شامل مع صَرامَة مُتَجهِّمَة وشَراسَة حربية عند أناسٍ مُنغَمِسين في أفكارِهم الذاتية ولا يَتَحادَثون إلا مع بعضِهم. لم تَضعُف حَماسَتُهم بدخول أفكار جديدة بالتدريج، وانتَقلَتْ بكلّ قوتِها مِنَ الكِبار إلى الشباب[٥٣].

---

(٥١) Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, p. 466. Nicholson gives the number killed as 5,000.

(٥٢) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 87.

(٥٣) Samuel Johnson and James Boswell, *A Journey to the Western Islands* (London: Penguin Classics, 1984), p. 37.

هذه كِتابةُ صموئيل جونسون Samuel Johnson سنة ١٧٧٥ عن الكالِفِنيين الاسكُتلَنديين [التَّطهيريين]، وربما يَنطَبِقُ ذلك أيضاً على الوهّابيين في عَصرِه وفيما بَعد. في الثلث الأخير من القَرن التاسع عشر، كانت مصر تَتحادثُ مع أوروبا وخاصة في عصور البخار لخلفاء محمد علي. ولكن، بَعدَ خَمس سنوات من العَرضِ الأول لأوبرا عايدة في القاهرة سنة ١٨٧١، وَجَدَ الرَّحالة الإنكليزي داوتي Doughty أنَّ «التَّعصُّب الوهّابي الحامض قد روّب قُلوبَ البدو في تلك الأيام»[٥٤]. وستَظَلُّ بعضُ القلوب كذلك، وسَتُلِهم حركات قادِمة في القَرن العشرين بشَكلِ الإخوان، والقاعِدَة، و«الدولة الإسلامية/ داعش»، وغيرها مما لم تُسمَّ بعد[٥٥].

جميعُهم مُوَحِّدونَ للهِ وللرجالِ، إلا أن التوحيد الذي يَسعون إليه لم يكن أبداً خالِصاً مِنْ ذلك الإيحاء الآخَر في المَعنى: الوحدَة التي تَعني جَمعَ الكلمة، وتَعني أيضاً العزلَة والانطواء. ربما كان ذلك رؤية نحو الماضي، ولكن يَصعبُ تَخَيُّل حُدوثِ اليقظَة الوهّابية في أي مكان آخَر في عالَم العربية غير تلك الهَضبة المُنعَزِلَة البعيدة في قَلبِ شبه الجزيرة وكأنها جزيرة ضِمنَ «جزيرة» العرب. بينما حَدَثَتْ يقظَةُ وَعي مصرَ لذاتِها ولعروبتِها وللعالَم في مكانٍ يَفتَحُ فيه نهرُ أفريقيا الكبير مِروَحَةَ الدلتا إلى البحر الأبيض المتوسط.

ولادةٌ جديدة

مِثل الفِكر الوهّابي، سَعَت القومية العَلمانية التي تَطوَّرتْ في القَرن التاسع عشر كذلك لصُنعِ الوحدَة، غَير أنها لم تَقصد عَزلَ المُسلِم العربي، بل سَعَتْ إلى اندِماج عربيٍّ شامِل، وليس إلى صَوتٍ واحِد، بل إلى أصوات متعدِّدة في انسجام للأصوات العربية. سَتَنجحُ الأصواتُ المتعدِّدَة المُنسَجِمة في أوبرا عايدة، ولكنّ تَناسقَها سيكون صَعباً في الواقع العَمَلي.

كانت مصر تَستعيدُ هويتَها في ظِلِّ محمد علي باشا وخلفائه، وتُرَسِّخُ

(٥٤) ورد في: Kathryn Tidrick, *Heart-beguiling Araby: The English Romance with Arabia*, revised ed. (London: Tauris and Co., 1989), p. 151.

(٥٥) The Egyptian-based al-Ikhwan al-Muslimun, 'the Muslim Brotherhood', share a name and Wahhabi leanings with the Saudi Ikhwan, but usually not the latter's mad-eyed scariness.

استقلالَها عن العثمانيين كأمرٍ واقع، خاصةً عندما أظهَرَتْ تلك الحربُ الناجحة ضد الوهّابيين أنّ محمد علي لم يكن مِخلَبَ قِطٍّ، بل حاكِمَ جيشٍ قوي في حَدِّ ذاته. منذ ذلك الحين، استَعادَ هو وخلفاؤه لمصر صوتَها العربي، وأعادوا اللغةَ العربية كلغةٍ رسمية، وأسَّسوا مَطبعة عربية. بَدأ الصوتُ يَرنُّ عند الجيران في الهلال الخصيب أيضاً كَنِداءٍ للوحدَة في تلك المنطقة المتنوعة. كانت هنالك في مصر طَبعاً أقلية قبطية مسيحية كبيرة، وإن كانوا قد عُرِّبُوا لُغوياً، إلا أنهم لم يَتعرَّبوا تماماً، وظَلُّوا يُعتَبرون سُكاناً مَحَليين أجانب تمّ احتلالهم. وبالمُقارَنة، كان معظم المسيحيين في سورية الكبرى عرَباً في الأصل، أو ادَّعوا ذلك على الأقل، وانتَسَبَ بعضُهم إلى مُلوك الغَساسنة قَبلَ الإسلام. ظَهَرتْ بينهم فِكرةُ الدَّعوة الجديدة لجَمع الكلمة والوحدَة العربية الشاملة والأمّة التي لا تَستَند إلى الدِّين، بل تَستَند إلى اللغة. وقد أثبَتَ ذلكَ العاملُ المُوحِّد الأول مُرونَته العظيمة، ولم تَنجَح ألفُ سنة من حُكمِ آخَرين، معظمهم أتراك، في تَتريكِ العرب أو حِرمانهم مِن لِسانِهم القديم.

كان إبراهيم اليازجي في مقدمةِ جَبهةِ النهضة، وهو لبناني مسيحي ماروني من عائلةٍ من العلماء. لم تكن اللغة العربية بالنسبة إليه مجرد قوة وَحدَوية في الأمّة، بل «اللغة هي الأمة بعينها»[٥٦]؛ أي إنّ العربية هي روح الأمّة العربية ومادّتها. آمَنَ بأنّ اللغةَ قد جَمَعَت العربَ بقوةٍ أكبر مِن رابِطة الدّم والدِّين والتقاليد، وعَبَرَت الجغرافيا والطَّبقات والسياسة. لم تكن هذه نظرية أكاديمية فقط، فمثلما كانت الحالة في الماضي سيَستخدِم الشِّعر نُشَطاء مثل اليازجي لتَحويلِ الأفكارِ إلى أفعَال. في ستينيات القَرن التاسع عشر، كانت مصر قد انفصَلَتْ عن العثمانيين، على الأقلّ عملياً، إلا أنّ الهلال الخصيب المُفتَّت كان مُرتَبِطاً بإسطنبول، وكانت الدولةُ العثمانية، «رَجُل أوروبا المَريض»، وَزناً ثقيلاً يعوقُ تقدُّمَ العرب، ولذلك عندما انطَلَقَتْ قصيدةُ اليازجي:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب[٥٧]!

---

(٥٦) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, pp. 99-100.

(٥٧) قارن: ص ٤٨ ـ ٤٩ من هذا الكتاب

كانت صرخةً للنهضة واليقظة ولإبعَاد التركِ عن ظُهورِهم واستِعادَة هويتهم المَفقودة:

أَقْدَارُكُمْ فِي عُيُونِ التُّرْكِ نَازِلَةٌ   وَحَقُّكُمْ بَيْنَ أَيْدِي التُّرْكِ مُغْتَصَبُ
فَلَيْسَ يُدْرَى لَكُمْ شَأْنٌ وَلا شَرَفٌ   وَلا وُجُودٌ وَلا اسْمٌ وَلا لَقَبُ[٥٨]

قَبل ألف سنة تقريباً، كان أتراكٌ، مثل بَجْكَم، بأسمائِهم الغريبة وسُلوكِهم الأجنبي قد مَسَحوا العربَ عن نَقشِ النقود وعَن العَرش. ويَصدُرُ هنا الآن أخيراً نداءٌ عاطفيٌّ لاستِعادة اسمِ العرب وَوَجهِ العرب.

سيُنَشِّطُ مُفكِّرون عربٌ مسيحيون آخَرون القضيةَ القومية في القَرن التالي. بالنسبة إليهم، لم يوجَد أي تَناقض مع التيار الإسلامي الذي جَرَى في النصف الأخير من تاريخ العرب، بل على العَكس؛ فبالنسبة إلى قوميٍّ مثل ميشيل عَفلق، مؤسِّس حركة البعث في أربعينيات القرن العشرين، فإن الإسلام كان «تجربةٌ تاريخية عظيمة. . . ليس فقط للعرب المسلمين، بل لكلِّ العرب»[٥٩] [غير حرفي]. كانت رؤيتُهُ الشاملة صحيحةً إلى حَدٍّ ما، فالإسلامُ عقيدة وإيمان، ولكن مع انتقال محمد إلى المدينة أصبَحَ أيضاً مذهباً سياسياً سيضمّ عرباً من جميع الأديان والمُعتقَدات. كان الوهّابيون يُحاوِلون استِعادَة تركيب الإسلام المبكر وفقَ رؤيتِهم الضَّيقة لما يَجب أن يكون، أما القومية العربية التي استَلهَمَت النماذجَ الأوروبية جُزئياً، ومِن مصر الناهِضَة، فقد سَعَتْ لتَكرار وَضع يشبه العصر العباسي الذهبي. في ذلك العصر تَدفَّقَتْ كمياتٌ كبيرة من الحِبر، وتَشكَّلتْ هويةٌ عربية، وحُفِظَ التاريخُ واللغة العربية كِتابةً على الأوراق في مواجَهة سَرقات الشُّعوبية الفارسية وغيرها من حركاتِ الاستقلال الثقافي. والآن في العَصر المُتأخِّر لِطباعةِ العربية، استطاعَ الكتّاب أخيراً أن يَحتفِلوا بالعروبة مرةً أخرى، وأن يَتباهوا بها أمامَ هوياتٍ قومية أخرى. حَصلَت اللغةُ على حياةٍ جديدة بفَضلِ الطباعة، وبَرَزَ الأدبُ ثانيةً بَعدَ القرونِ القاحِلة التي بَدأ بِها هذا الفَصل. واجَهَ الوهّابيون التُّركَ بإسلامٍ ولِدَ

---

(٥٨) انظر: ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ من هذا الكتاب.

(٥٩) ورد في: Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, with afterword by Malise Ruthven (London: Faber and Faber, 2002), pp. 404-405.

مِنْ جديد. وفَعَلَ القوميون ذلك بلغةٍ عربية ولِدتْ مِن جديد وكانت تَحولاتهم لُغَوية. اقتَربوا أحياناً من المعجزات. فمَثلاً، وُلد ساطِع الحُصري في حلب، وتعلَّمَ فقط بالتركية في إسطنبول، واشتَغلَ طويلاً كموظفٍ عثماني في البَلقان، غير أنه تَخلَّى عن اللغة العثمانية، وتَبنَّى اللغةَ العربية عندما بلَغَ الأربعين من عمره، وأصبحَ واحِداً من أكبَر المُنظِّرين للقومية العربية(٦٠).

ومرةً أخرى، أدَّت تقنيةُ حروفٍ جديدة لإطلاق أفقٍ جديد في تاريخ العرب. أثَّرَت الكتابةُ الأولى وحَفِظَت القرآن، وأدَّت الدواوين الأموية إلى تَعريبِ الإمبراطورية. سَجَّلَ الورقُ الهويةَ العربية وحَفِظَها عندما كانت الإمبراطورية تَنحَدرُ وتَهوي. وساعَدَت الطباعة الآن على إحياءِ تلك الهوية. وفي الوقت نفسه، دَارَ التاريخُ دَورَتَه، كما كَتَبَ أحَدُ المُعلِّقين على الحضارة العربية: «عُدنا بالقوميةِ العربية مرةً أخرى إلى نقطَة بِدايتِنا»(٦١). إنها نقطةُ بدايةٍ سَبقَت الإسلام، وتَرجِعُ إلى زمنٍ كانت فيه شعوبٌ وقبائل متنوعة تَبحَثُ لنفسِها عن هويةٍ مُوحّدة. ومرةً أخرى، ستكون العربية الفصحى القديمة جَوهَر العَصبية. مثلما أعادَت النهضةُ الأوروبية اكتِشافَ ماضِيها الكلاسيكي، كانت النهضةُ استيقاظاً لوجودِ الكنوزِ العظيمة للغة العربية. وكأنما اكتَشَفَ العربُ فجأةً كَنزَ القصائد القديمة التي دَفَنَها مَلِكُ الحِيرة(٦٢)، واستَثمَروه في صُنعِ مستقبلِهم الأفضل.

اللسانُ المُتَشَعِّب

في البداية، كانت النهضةُ العربية في معظَمها نهضةَ نُخبةِ المسيحيين العرب في شرق المتوسط، بينما تابَعَ مُعظَمُ العرب نَومَهم، أصحابَ الأصول المختلفة الذين يَتحدَّثون عائلةً عريضةً من لهجاتٍ مختلفة، ويَعيشون في مناطق مختلفةٍ كثيراً، تَمتدُّ من المحيط الأطلسي إلى الخليج. سَيَحلُّ شُعورٌ عامٌّ بالعروبة على المنطقة إنما ببطءٍ شديد. فمَثلاً، لم تَلمِس هذه المَوجَةُ

(٦٠) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, pp. 127-132.

(٦١) D. M. Dunlop, *Arab Civilization to A.D. 1500* (London: Longman Group Ltd.; Beirut: Librairie du Liban, 1971), p. 25.

(٦٢) انظر: ص ١٤٩ ـ ١٥١ من هذا الكتاب.

أرضَ اليمن ـ أرضِي بالتَّبنّي ـ إلا بَعد نحوِ قَرنٍ من قصيدة اليازجي في سنة ١٨٦٨، والآن بَعد خمسين سنة، يبدو أنَّ اليمنَ يَغرقُ من جديد في غَيبوبَتِه القديمة المُضطَربة. كَتَبَ المؤرخُ الثقافي المَغربي محمد عابد الجابري في ثمانينيات القَرن العشرين: «النهضة العربية الحديثة... لم تَتحقَّق في الواقِع حتى الآن»[٦٣] [غير حرفي]. واليوم، يبدو الواقِعُ أحياناً أبعَدَ وأبعَدَ.

يَرجِع شيءٌ من هذه المُشكِلة إلى أنَّ حركةَ الإحياء الحديثة كانت مُتأصِّلَةً جِداً في تلك اللغة الفصحى القديمة الصَّعبة. بَدأت النهضة الأوروبية في الوقت الذي بَدأ فيه الناس الكتابةَ والإبداع بلغاتِهم العامّية، كما رسَّختْ نهضةُ البروتستانتية فيما بَعد، وتَرجَمةُ الكتاب المُقدّس تلك اللغات العامّية في الكتابة والمُحاوَرة، وسَتتغلَّبُ في النهاية على اللاتينية واليونانية. بالمُقارَنة، رَسَّخَت النهضةُ العربية، التي بَحثَتْ عن عامِلٍ مُشترَكٍ بين جميع العرب، انتصارَ اللغة الفصحى القديمة بصِفَتِها الوسيلةَ الوحيدة في الكتابة. يمكن أن يكون المُقابِل الأوروبي لهذا في اكتِشاف القارّة للشاعر فرجيل Virgil إنما دون أن تَحظَى بالكتّاب دانتي Dante أو شوسر Chaucer، ودون أن يوجَدَ مُنافِسٌ للإنجيل اللاتيني، ولا وِلادَة لوثر Luther أو ويكليف Wycliffe. فيما عَدا الطائفة اليهودية، والمسيحيين، وغيرهم من العرب غير المسلمين الذين لم يَدرُسوا اللغةَ الفصحى وكَتَبوا بالعامّية (بالحروف العِبرية أو السريانية أو غيرها وليس بالحروف العربية)، فإن معظم العرب لم تَخطُر لهم فكرة الكتابة باللغة العامّية. وفي العصور الأحدَث، خاصةً في الانحطاط التاريخي واللغوي في القَرن الثامن عشر الذي وَصَفَهُ الجبرتي، تَخلَّى الناسُ عن الكتابة كلها، أو على الأقل عن كِتابةِ أيّ جَديد، واكتَفوا بإعادة الصِّياغَة والتلخيص. وانطلَقَ الأدَبُ الإبداعيّ مِن جديد الآن مع اليقظة، إنما باللغة الفصحى القديمة وأساليبها. لن تُثيرَ قصيدةُ اليازجي مَثلاً أيّ اعتِراض عند شاعرٍ مِثل أبي تمّام الذي عاشَ قَبلَ أكثر من ألف سنة. يُقابِلُ هذا في الإنكليزية أن يَكتُبَ شاعرٌ مِثلَ بايرون Byron بأسلوبِ ولغةِ بيوولف Beowulf.

---

(٦٣) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص ٣٤٧.

كلّ ذلك كان جزءاً من «الانسِحاب عن الحَداثة»[٦٤] [غير حرفي] كما سَمَّاه أدونيس الشاعر والناقد المُعاصر. أي إن النهضةَ لم توقِظْ أمراً جديداً، بل «أعادَت الحاضِرَ إلى الماضي»[٦٥] [غير حرفي].

هذه العِبارةُ الأخيرةُ هي ما يُحاوِلُ معظم العرب تَطبيقه هذه الأيام، على الأقلّ عندما يَكتبون نَثراً رسمياً أو يَتحدَّثون رَسمياً في العَلَن. يُقالُ للمتعلمين الأجانب إنهم يدرسون ما يُسمّى «اللغة العربية الفصحى الحديثة». يبدو ذلك أنها يجب أن تكون شيئاً جديداً لامِعاً، إنما هي في الواقِع العربيةُ الفصحى الكلاسيكية، وهي مِثل لاتينيةِ العصور الوسطى بالنسبة إلى لاتينيةِ العَصر الذهبي، مُخفَّفة قليلاً من ناحية التركيب، غير رَشيقةٍ في الأسلوب، أوسَعُ في المفردات، إلا أنها هي ذاتها في النهاية. ربما لا يَستَخدِم شاعرٌ حديثٌ العَروضَ والقَوافي القديمة، إلا أنه يَستَخدِم اللغةَ القديمة ذاتها:

مَن يَستطيعُ اليوم قراءةَ نزار قباني [توفي سنة ١٩٩٨] يَستطيعُ قراءةَ العباس بن الأحنَف [توفي سنة ٨٠٣]... وهذه ظاهِرةٌ غريبة عجيبة قلّ أن نجد لها مثيلاً لدى شعوب أخرى[٦٦].

هي كذلك بالفِعل، وهي جزءٌ من العلاقة المعقَّدة لما يميّز العربَ وما يربط بعضُهم ببعض، ليس في المكان فقط ـ، بل في الزمان أيضاً. وحتى لو كان تَجمّعهم وتَرابطهم بمَسكِ رِقابِ بعضِهم.

وهكذا، عندما يَكتبُ العربُ أو يُلقون خِطاباً، فإنهم يَستَخدِمون لغةً ليست «غريبةً» تماماً، غير أنها ليست مَحَليةً بالتأكيد[٦٧]. الفرقُ الكبير بين لُغَةِ الأحاديثِ اليومية والعربية المَكتوبة[٦٨] الموجود مَثلاً في الدّار البيضاء قد

---

(٦٤) Adonis, *An Introduction to Arab Poetics* (London: Saqi Books, 2003), p. 77.
قارن: ص٥٢٠ من هذا الكتاب.

(٦٥) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ١: **الأصول**، ص ٤١.

(٦٦) Abdelfattah Kilito, *Thou Shalt Not Speak My Language* (New York: Syracuse University Press, 2008), p. 10.

(٦٧) Abd al-Rahman bin Muhammad bin Khaldun, *The Muqadimmah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), pp. 439-441.

(٦٨) on the distance between dialects themselves, Versteegh says it 'is as large as that between the Germanic languages and the Romance languages... if not larger.' Kees Versteegh, =

يكونُ مِثلَ الفَرقِ بين كتابات بترارك Petrarch [الشاعر والباحِث الإيطالي في عَصر النهضة] وبترونيوس Petronius [كاتب وسياسي في روما القديمة]؛ الرومانسية واللاتينية. البَحثُ عن الكلماتِ المناسبة هو الاهتمام الأول، بينما يكون المُحتوى ثانوياً (من السَّهلِ ارتكابِ خَطَأ نَحويٍّ في الأعداد مثلما حَدَثَ في صَكِّ عشرات الملايين من النقود التي تم تداولها في دَولَتي بالتَّبَني (اليمن) قَبلَ أنْ يُلاحِظَ أحَدٌ الخَطأ الصغير المهمَ: فقد كُتِبَ عليها «عشرون ريالٍ» بصيغَةِ الإضافة، بَدَلاً مِن «عشرون ريالاً» بصيغَةِ النَّصب. يَختَبئ الشيطانُ في التفاصيل). هناك كثيرٌ من المُتعلِّمين العرب الذين عَلِقُوا بين قَرنَي معضِلَةِ ثُنائيَّةِ اللسان، ويأخذون الطريق الأسهَل باستِخدام العربية في المُحادَثة، إنما الكتابة بلغات أخرى. جميع الأبحاث العلمية تقريباً تُكتَبُ باللغة الإنكليزية أو بلغاتٍ غير عربية، المُشكلةُ المضاعَفة في مَعرفة اللغة العربية بشكلٍ صحيح، والتَّوصُّل إلى المفردات الصحيحة هي مَسألةٌ شاقّة.

هل ثنائيةُ اللغة مهمّة فِعلاً؟ ربما وجِدَ خَطَرٌ نَبَّهَ إليه بعضُ المُراقبين وهو أنَّ لِساناً مُتشَعِّباً مِثلَ اللغةِ العربية ربما يؤدّي إلى التَّفكير بعقولٍ مُتَشَعِّبَة ومُتفَرِّقَة. كَتَبَ أحَدُ النقاد عن «الذات المِثالية» التي يتم التعبير عنها وتصديقها «بأسمَى نَبرَةٍ أخلاقية» باللغة الفصحى مُقارَنَةً «بالطَبقة الدّنيا من السّلوك الأخلاقي» الذي يتم التعبير عنه بالعامّية(٦٩). أتَفَهَّمُ ما يَعنيهِ، فقد استَمعتُ إلى أحَدِ مَعارفي يَستَنكِرُ فَسادَ وزراء الحكومة ويُتابع فوراً بمَدحِ مَهارةِ زوجته، وهي موظَّفة في وزارة، في الحصول على «حَقّ أبي هادي» (رشوة). توجَدُ المعايير المُزدَوجة في لغاتٍ أخرى، إنما يجب القيام بأبحاث قوية لمَعرفة فيما إذا كانت اللغة العربية حالَة خاصّة أم لا.

هناك خطرٌ أكبر لا شك فيه، حتى في هذه الأيام عندما تُبيِّنُ إحصائيات التعليم الرسمية أنّ القراءةَ والكتابة أعلى بكثير مما كانت عليه قَبلَ جِيلٍ واحِد، إلا أن قِلَّةٌ قليلة من العرب يَشعرون بالراحَة في الكِتابة بلُغَتِهم

The Arabic Language (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 98. I feel this is an= exaggeration.

(٦٩) E. Shouby, "The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs," *Middle East Journal*. vol. 5. no. 3 (Summer 1951). pp. 301-302.

«القومية»، وأقلّ منهم مَن يَرتاحُ للتَّحدُّث بها. مع مرور الزمن، أصبحَ معظم العرب يَصمتون خائفين أمامَ اللغة العربية الفصحى التي تَحمِلُ اسمَهم، ويُحرَمون مِن أصواتِهم الفَردية. يُخرِسُهم مراراً وتكراراً الطُّغاةُ الذين «يَتحدَّثون دائماً بصوتٍ مُرتَفع». وكما صَاغَها أحَدُ المُحلِّلين فإن معظَم العرب مُستَبعَدون عن لُغتِهم، «في اللغة، أنا غير موجود ـ ليس كشَخصٍ يُعبِّرُ عن ذاته الشخصية»[٧٠] [غير حرفي].

يَكتُبُ العربُ على وسائل التواصل الاجتماعي عادةً باللغة العامّية، وربما يؤدّي هذا إلى تَغيير، إلا أنه سيكون تَغييراً باتِّجاهِ التَّنوع وليس الوحدَة. مازال الوقتُ مبكراً جِداً لِتِبيانِ ذلك. معظم التَّغريدات بالعامّية، بينما معظم الدِّعايات والخِطابات بالفُصحى. والدِّعايةُ قويةٌ باللسان القديم المُقدَّس «واللغة الميتة التي تَرفُضُ أنْ تموت»[٧١]، كما وَصَفَها بول بولز Paul Bowles، إلا أنها مازالت ساحرةً غامِضةً تُخرِس السَّامعين مثلما فَعَلتْ على ألسِنة شعراء وكَهَنة ما قَبلَ الإسلام. مازال لها ثِقلها وحَجمها الذي يُخرِسُ التَّغريدات. وتَظَلُّ أقوى رموزِ الوحدَة البَعيدة المَنال: «أمتنا... لا تسكن أرضاً، وإنما تسكن لغتها»[٧٢]. ولو تَخلَّيتَ عن تلك المنطقة المُشترَكة، تلك اللغة الصَّعبة المستحيلة تقريباً، فستَتخلّى عن الجانب الوحيد من الوحدَة الذي ليس سَراباً.

المعجَم المُتأخِّر

في القَرن التاسع عشر كان مَقبولاً للناشطين في حركةِ النهضةِ إعادة حَيوية الأدب العربي، والأمل بأنّ اللغة ستَجمَعُ العرب في عصرٍ جديد، لأنها عامِلُ الوحدَة القديم، ولكن كانت هنالك مُشكلَة في مادّة اللغة الأصلية: المُفردات. لقد مَضَى وقتٌ طويل منذ أنْ تَعلَّمَ آدمُ باللغةِ العربيةِ أسماءَ كل شيءٍ مَخلوق[٧٣]، مِثل ذاتِه العِبرية في سِفر الخَلق. أصبحَ

(٧٠) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، ج ٣: صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني**، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٧١) Paul Bowles, *The Spider's House* (New York: Random House, 1955), p. 294.

(٧٢) منصف المرزوقي، «أي لغة سيتكلم العرب القرن المقبل؟،» الجزيرة. نت، ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، <https://bit.ly/3Cgtz8O>.

(٧٣) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٣١.

المُعجَم العربي الآن متأخّراً بشكلٍ بائسٍ للّحاقِ بضرورات العصر. كان أعظمُ إنتاجٍ أدبي في عَصر المؤرخ الجبرتي هو مُعجَم أستاذه الزبيدي الهائل الذي انتهى سنة ١٧٦٧[٧٤] وضَمَّ أربعين مُجلَّداً في الطَّبعة الموجودة عندي. كان نسخةً موسَّعةً من القاموس المُحيط الذي كان ضَخماً في أواخِر القَرن الرابع عشر، أضيفَتْ إليه اقتِباساتٌ وتَعريفاتٌ جديدة دون محتوياتٍ جديدة. كل ما دَخَلَ اللغةَ بَعدَ العصر الكلاسيكي كان «مُلَوَّثاً» وتمَّ إبعادُه وطَردُه من المعجَم[٧٥] مثلما تُطرَدُ مومِسٌ مِن بَيتِ راهبات. توقَّفَ المُعجَم عن تصوير الحياة الواقعية في عصر البُخار والأوبرا. عَملياً، كانت اللغةُ العربية تلائم كلمات قديمة، وتصوغُ كلمات جديدة، وتضمُّ مفرداتٍ كثيرة مِن لغاتٍ أوروبية، ولكنها كانت تفعَلُ كلّ ذلك عضوياً. ولكن، منذ منتصف القَرن التاسع عشر، حاوَلَتْ نُخبةُ الرّواد القوميين المثقَّفين في شرق المتوسط شَدَّ المعجَم نحو الحَداثة وتوحيد الصياغات الجديدة. أدرَكوا أنّ توحيد المفردات العربية الجديدة سيُساعِدُ على جَمعِ كَلمَةِ مَنْ يَستخدِمونها ويُحقِّقُ وحدَةً عربية سياسية شامِلة، وأنها خُطوةٌ مهِمَّةٌ ستَجعَلها أقرَب للتحقيق. ولكنَّ نوايا المُصلِحين كانت مَحكومَةً بالفَشل في ظروفِ السّعةِ الجغرافية الكبيرة مِن مَضيق جَبل طارق إلى خليج هرمز الخالِيَة بشكلٍ عامّ مِنَ الطباعة، والتي كان التعليمُ فيها قليلاً فيما عَدا مدارس القرآن، والسَّفَرُ في كثير من الأحيان كان بَطيئاً مثلما كان في عَهد أول عربيّ مَعروفٍ في القَرن التاسع قَبلَ الميلاد: جِنْدِبو مَالِك الإبِل (كانت الرِّحلة مِن دمشق إلى بغداد تَستغرقُ ثلاثة أسابيع على ظَهرِ الجِمال في بداية القَرن العشرين)[٧٦].

وهكذا فقد طَوَّرَت اللغةُ التي يُفتَرضُ أنها مُوحّدَة مُفرداتٍ غير مُوحّدَة. فمَثلاً كلمةُ 'Pendulum' هي البَندول في مصر، والرَّقاص في العراق، والنَّواس في سورية[٧٧]. وكلمة 'Tyre' هي في معظم الأحيان «تايِر»، ولكن قد تكون أحياناً «دولاب»، وأحياناً «كَفر»، وفي العربية الفصحى «إطار»، وفي مصر «كاوِتش». كانت هنالك بعضُ النَّجاحات أحياناً مثل كلمة «هاتف»

(٧٤) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

(٧٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 240.

(٧٦) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 89.

(٧٧) Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History*, p. 157.

التي أبعَدَتْ كلمةً أقلَّ جاذبية هي «إرزيز»[٧٨]. كان اختيارُ كلمةِ «قطار» واضِحاً للدَّلالَة على القِطار الآلي مثلما كانت تَدلُّ في الماضي على سلسلةٍ مِنَ الإبل. أما كلمة «جَمَّاز» للدلالة على التّرام فسرعان ما حَلَّتْ محلَّها الكلمةُ المُستعارَة «ترمواي»[٧٩]. بدأ استِخدامُ كلمة «فِتنَة» للتعبير عن الثورة[٨٠]، وانتَهى إلى كلمة «ثورة».

في بعض الأحيان، عندما كانت الكلمةُ استعارةً مباشرة لاسمِ شيءٍ مجردٍ أو معقَّدٍ فقد ضَاعَت الفِكرة تماماً في التَّرجَمة، مِثل كلمة الديموقراطية. كما أنّ هنالك كثيراً من الخسائر في الترجمة والاستِعمال؛ فمَثلاً من المُستَغرَب أنّ كلمة «المَشيَخة»[٨١] بَدأت تُستَعمَل في مصر النابليونية للتعبير عن «الجمهورية»، ولكن في سبعينيات القَرن التاسع عشر أصبحَ الاصطلاح هو «الجمهورية» بمَعنى حُكم الجماهير، وهي كلمةٌ تَظهَر في الأسماء الرسمية لكثير من الدول العربية، إلا أن معناها لا يتمثل حتى في ظل الواقع على الأرض. مثالٌ آخَر هو اصطلاح «المواطنين»، الذي بَدأ بكلمةِ «الرَّعية»، ثم أصبحَ «الشَّعب»، وانتَهى باصطلاحٍ مُبهَم هو «المواطنون». وعلى كل حال فإن المواطنين ككياناتٍ قانونيةٍ مُفرَدةٍ ذات علاقة متبادلة مع الدولة التي يعيشون فيها، وترتبط بحقوقٍ وواجباتٍ مِنَ الطَّرفَين، مازالت مَجهولةً تقريباً، ولعلها تشبه تلك الثدييات الصغيرة التي تَنتَظِرُ انقراضَ الديناصورات. من الناحية السياسية، يمكن اعتبار عالَم العربية مثل حديقة جوراسية كبيرة Jurassic Park، فهي واحِدَةٌ من أوضَح السِّمات للماضي الحاضِر دائماً. وعملياً، حتى الجمهوريات لها «رَعايا» لا «مواطنون»[٨٢]. تساءَلَ الكاتبُ اللبناني فارس الشدياق سنة ١٨٦٧: «متى سنتَعلَّم حقوقَنا ومَسؤولياتِنا؟»[٨٣] [غير حرفي]. كان رائداً في الصَّحوَة الأدبية والقومية ومُنتِجاً لكلماتٍ جديدة. الإجابةُ عن مِثل هذه التساؤلات

---

(٧٨) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 181.

(٧٩) Ibid., p. 181, and Chejne, Ibid., p. 152.

(٨٠) Versteegh, Ibid., p. 174.

(٨١) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 6, pp. 725-726.

(٨٢) Versteegh, Ibid., p. 174.

(٨٣) ورد في: Kilito, *Thou Shalt Not Speak My Language*, p. 68.

الكثيرة بَعد ١٥٠ سنة هي: «لَيسَ بَعد». بالنظر إلى العلاقة الوثيقة والسَّببية بين الكلمة والفكرة والأفعال، فإن عِلمَ القواميس والمَعاجم العربية ليس مجرد تَسجيل للغة، بل هو نشاطٌ سياسي أيضاً، وصُنعٌ للتاريخ.

لم يكن المُعجَم وحدَه الذي تَخلَّفَ، بل كذلك الصُّحُف. أسَّسَ محمد علي باشا صحيفة **الوقائع المصرية** سنة ١٨٢٨ وظَلَّت الصوتَ الوحيد حتى انضَمَّتْ إليها الصحيفة السورية **حديقة الأخبار** بَعد ثلاثين سنة[(٨٤)]. صَحيفَتان في عالَم العربية مُقارَنةً بنحو ٣٠٠٠ صحيفة في أمريكا وحدَها آنذاك[(٨٥)]. ارتَفعَ العَدد تدريجياً في النصف الثاني من القَرن التاسع عشر، ولكن أسلوب الصحافة لم يتقدَّم. كُتِبَتْ إحدى الصُّحُف شِعراً[(٨٦)]، وحتى في القَرن العشرين «لم يتمكَّن كاتبٌ يحترمُ نفسَه مِن نَشرِ مَقالةٍ سياسية بأيّ أسلوب سوى النَّثر المَسجوع»[(٨٧)].

إنما على الأقل كان العرب قد بدؤوا بنَشرِ آرائهم من خلال الصُّحف، ثم حَلَّ بهم نوعٌ آخَر من الصَّمت؛ فما إنْ توسَّعت المفردات وتَكاثَرت الصُّحف، حتى فَرَضَت السُّلطات العثمانية رقابةً صارِمة منذ الرّبع الأخير من القَرن التاسع عشر، ومَنعَتْ اصطلاحاتٍ مِثل «الثورة» و«الحرية» و«النهضة العربية» في الصُّحف العربية[(٨٨)]. أحسَّ البابُ العالي أنَّ رعاياه نصف الواعين الذين بَدؤوا بالتعبير عن آرائهم من العرب وغيرهم قد أصبَحوا خَطراً. وفي رَدِّ فِعلٍ أبعَد من ذلك، بَدأ العثمانيون باستِخدام لغتِهم كوسيلةِ سَيطَرةٍ إمبراطورية. وصَلَت الأمورُ إلى ذُروَتها مع بُروزِ القومية التركية وثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨. بَدأتْ إسطنبول في ظِلِّ تركيا الفتاة بفَرضِ لغتِها في عالَمها العربي[(٨٩)]، وما لم يتمكَّن الانتخابُ اللغوي الطبيعي من تحقيقِهِ في

(٨٤) Samir Abu-Absi, "The Modernization of Arabic: Problems and Prospects," *Anthropological Linguistics*, vol. 28, no. 3 (1986), p. 347, note 3.

(٨٥) Walt Whitman, *The Portable Walt Whitman*, edited by Michael Warner (New York: Penguin, 2004), p. 355. The figure of 3,000 was for 1856..

(٨٦) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 89

(٨٧) Clément Huart, *A History of Arabic Literature* (London: William Heinemann, 1903), pp. 444-445.

(٨٨) Donald J. Cioeta, "Ottoman Censorship in Lebanon and Syria, 1876-1908," *International Journal of Middle East Studies*, vol. 10 (1979), passim.

(٨٩) Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*, pp. 304-305, and Rogan, *The Arabs: A History*, pp. 182-183.

ألفِ سنة مِنَ الحُكم التركي، سيُحاول حِزبُ تركيا الفتاة الآن تحقيقه بالقوة. مَنَع تعليمَ اللغة العربية في المدارس إلا كَلُغَةٍ «أجنبية»[٩٠]. ومثلما وجَدَتْ عروبةُ العباسيين نفسَها وَجهاً لِوَجهٍ أمامَ حركةٍ شُعوبية فارسية قوية، سَتواجِهُ القوميةُ العربية الناشئة مُنافِسَتها القومية التركية الفتيّة الهُجومية[٩١].

ولكنّ العثمانيين لم يكونوا وحدَهم في الضَّغط على اللغة العربية، العُنصُر الجَوهري في الهوية العربية.

اللّعبة الكُبرى الأخرى

في أواخر القَرن التاسع عشر، دخَلَتْ ما يسمى «اللعبة الكبرى» مَرحَلَتَها الأخيرة من الصراع بين بريطانيا وروسيا في شمال شبه القارّة الهندية. وبينما دافَعَ بريطانيو الهند عن حدودهم البعيدة في آسيا الوسطى، كان فُرَقاء يضاهونهم أهمية يُواجِه بعضهم بعضاً في غرب تلك المنطقة. كانت جولَةً أخرى من الصراع الذي بَدأ مع نابليون. ربما ظَهَرَ الصراعُ هذه المرّة وكأنه مباراة «ودِّية»، إنما لم يكن هَدَفُ البريطانيين أقلّ أهمية من ضَمان أمنِ حُدودِ الهند، لأنهم في هذه المُقابَلة الثانوية كانوا يُؤَمِّنونَ الطريق هناك. عندما تكون عاصِمَتا إمبراطوريتكَ لندن وكلكتا تَبعُدان عن بعضِهما نحو ١٦,٠٠٠ كيلومتر بَحراً، حتى مع اختِصار الطريقِ عَبرَ قناة السويس، يجب عليكَ أن تَضمَنَ سفركَ بينهما بحرّية.

خابَ أمَلُ خُصوم بريطانيا النابليونيين في لُعبة الشرق الأدنى سنة ١٨٠١ في مصر، إلا أنّ الدَّافَع الإمبريالي الفرنسي لم يَضعف. بَعد جِيلٍ واحِد سنة ١٨٣٠ استَغلُّوا فرصةَ مُشاحَنَةٍ تجارية سياسية ليَبدؤوا الزَّحفَ نحو الجزائر التي كانت تابعَةً اسمياً للعثمانيين، مثل مصر. احتاجَتْ تلك المساحةُ الشاسعة إلى بعض الوقت لكي يتم احتلالها، إلا أن الفرنسيين تابَعوا حَملَتهم في تونس سنة ١٨٨٣، وأضافوا مَحمِيَّةً في أجزاء كبيرة من المغرب سنة ١٩١٢. سَتتسِعُ دائرةُ السيطرة الفرنسية على عالَم العربية بعد الحرب العظمى بالانتداب على سورية ولبنان سنة ١٩٢٠.

---

(٩٠) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, pp. 79 and 85-88.

(٩١) Ibid., p. 91.

حَصَلَ البريطانيون في تلك الأثناء على جزء صغير ولكنه مهمّ في جنوب شبه الجزيرة العربية بأخذِهِم ميناءَ عَدَن سنة ١٨٣٩، وكانت أول إضافةٍ فيكتوريةٍ للإمبراطورية، وأول حادِثٍ حَرَّكَهُ البُخار في المنطقة. كان البريطانيون يَبحثون عن محطة تزويدٍ بالفَحم للجِيل الجديد من السّفن البُخارية المتجهة إلى الهند. كانت عَدَن مَوقِعاً استراتيجياً مِثالياً بفَضلِ مِينائها الطبيعي الممتاز في مدخل البحر الأحمر ما دام المَرء لا يهتمُّ كثيراً بشحِّ المياه العَذبة فيها، والحرارة المرتفعة، وخَلفِيَّتها البركانية التي جَعَلَتْها مِثلَما وصفتها قصيدةُ الشاعر البريطاني روديارد كبلينغ Rudyard Kipling:

عَدَنُ العَتيقَة، مِثل فُرنِ ثكنة

لم يوقِدهُ أحَدٌ سِنينَ وسِنين

كانت بالنسبة إلى البريطانيين مكانَ التَّفريغِ المِثالي بالمَعنَيين: حُفرة الفَحم، وحُفرة جَهنّم.

ازدادتْ أهميةُ عَدَن للبريطانيين مع مرور الزمن، خاصة بَعدَ ثلاثين سنة من احتلالها عندما حَوَّلَتْ قناةُ السويس البحرَ الأحمر من طَريقٍ مُغلَقٍ إلى قضيةٍ حَيّةٍ وطريقٍ بَحريٍّ رئيسي. واحتَلُّوا بَعدَ وقتٍ قصير مَوقِعاً مناسباً جديداً آخَر في الباب الخَلفي للهند. أفلَسَتْ مصر بسبب الديون التي تراكَمَتْ في حَفرِ القناة، وتَحسينِ القاهرة، واستِضافة الإمبراطورة يوجيني Empress Eugénie وإمبراطور النمسا وهنغاريا، وتَوظيفِ ستيفنسون Stephenson وفيردي Verdi وكَوكَبة من نجوم الأوبرا، وتَحويلِ الجيش المملوكي إلى جَيشٍ حديث(*). كان الدَّائنون أوروبيين، ومنذ سنة ١٨٧٦، فَرَضَتْ قواتٌ أوروبية سيطَرتَها المالية على الدولة. وفي تلك الفترة، بدأتْ جهودُ محمد علي السابقة في زَرعِ الاستقلال المصري والعروبة فيها تَحمِلُ ثمارَها المُرَّةَ لِوَرَثَتِه. اندَفَعَتِ المُعارَضة الوطنية ضد الأوروبيين ونُخبَةِ الأتراك، وبَلَغَتْ ذروتَها سنة ١٨٨١ بفَرضِ ضباطٍ مصريين مَحَليين إرادتَهم على الخديوي توفيق. مع زيادة الاضطرابات في السنة التالية وتَحولِها إلى العنف، تَحركَتْ

(*) [لم يَذكُر تَزويرَ المُهندس دولسيبس لإيصالات الدَّيون وإغراق مصر في ديونٍ مُجحِفَة وغير ضرورية في مَشروع القناة] (المترجم).

بريطانيا بطَلَب من الباب العالي وهي تَحمِلُ عِبءَ الرَّجلِ الأبيض بتَنهيدَةٍ مُطيعَة، إلا أنها كانت مَسرورةً في الحقيقة لإبعادِ «الضفادع» (كما يلقب البريطانيون الفرنسيين) مرةً أخرى، ولأنها ستُصبِح مسؤولةً عن تلك القناة الرائعة الجديدة. سَيطَرَ البريطانيون على جميع المَضائق في الطريق الطويل نحو الهند من خلال سَيطَرتِهم على جَبل طارق وباب المَندب، والآن قناة السويس.

كان حامِلُ العِبءِ الأعلى في مصر هو إيفلن بيرنغ Evelyn Baring، الذي كان يَحمِلُ الجنسيةَ البريطانية رسمياً، ولكنه من أصولٍ ألمانية بعيدة، وكان المُسيطِر على ماليةِ تابعِ الخليفة ـ السلطان في إسطنبول، الذي تَعَرَّبَ وهو مِن أصلٍ ألباني بَعيد (بلَقب فارسي هو الخديوي أو الأمير). وسرعان ما اكتَسَبَ الترقية إلى مَنصِب القُنصُل العام البريطاني. وبصِفَتِه الحاكِم الجديد الفِعلي، انضَمَّ إلى سلسلةٍ من الموظفين الفراعنة الأجانب منذ عَهد كافور الإخشيدي، العَبد المَخصيّ الأسوَد وسَيّد مصر قَبل ٩٠٠ سنة. ولم يُسيطِر على مصر فقط، لأنّ البريطانيين وَجَدوا أنفسَهم مسؤولين عن الحوش الإمبريالي الواسع التابع لمصر، أي السودان. ومِن أجلِ الرسميات، اتَّخَذوا الملابس الفخمة لدَورِ الحُكم على الطريقة التركية مثل الطربوش، والألقاب مثل «بك» و«بكباشي». أما بالنسبة إلى الآمال الوطنية النامِية لدى الأغلبية العربية من السكان، فقد أرسَلَ الحُكّامُ الجُدد بِحُكمِ الأمرِ الواقِع رسالَةً واضِحَةً في حُكمِ الإعدام على زعيم الضباط الثائرين أحمد عُرابي، الذي يُطلَقُ عليه خَطأً اسم أحمد عَربي، ربما بتَسميةٍ فرويدية خاطِئة صَغيرَة.

تم تغيير حُكم الإعدام في النهاية إلى النَّفي. كما مَالَ البريطانيون نحو مَظاهر أقلّ تهديداً للهوية العربية. ظَلَّت القاهرة عاصِمةَ الطباعة العربية، وارتفعَ عددُ الصُحف والمَجلات، أسَّسَ كثيراً منها هاربون يَبحثون عن حرية التعبير الغائِبة في مناطق الحُكم العثماني المباشر[٩٢]. كانت تلك المؤسَّساتُ الجديّة الناطقة بالعربية جميعُها سياسيةَ الأشكال[٩٣]، وكان بعضُها قومياً

---

(٩٢) Fouad Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey* (New York: Pantheon, 1998), p. 297, and Atiyah, *The Arabs*, p. 84.

(٩٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, pp. 466-467.

صَريحاً. أما في المَغرب، فقد استَخدمتْ فرنسا سلاحَ اللغة مثلما فَعَلَ العثمانيون. ثَبَّطَ الفرنسيون إنشاءَ مدارسِ قرآنٍ جديدة(٩٤) داخل مُستعمراتِهم في شمال أفريقيا، خاصةً في الجزائر حيث حَاوَلوا مَنعَ تَعليم العربية الفصحى، وشَجَّعوا على استِخدام اللهجات المَحلية بدلاً منها(٩٥). حاولَ الفرنسيون بهذه الأعمال أقصَى جُهدهم لفَصلِ المَغرب عن القوميين الناشطين سياسياً في بقية أرجاء عالَم العربية. إضافة إلى الهجوم على الفصحى، حاوَلوا تَشجيعَ اللغات والثقافات البربرية في تلك المنطقة(٩٦). فَصَلوا إدارةَ منطقةٍ كاملةٍ في شمال الجزائر سنة ١٨٨١ وضَمُّوها إلى فرنسا. كانوا يُحاولون نَزعَ العروبة عن النهاية الأفريقية لُغوياً وثقافياً وسياسياً.

نَجَحوا بشكلٍ خاص من ناحية اللغة. وسيكون النضال ضد فرنسا في المغرب مِن أقسَى حروب التَّخلُّصِ مِنَ الاستعمار. ومثلما قاوَمَت الشُّعوبية الفارسية سيطَرَةَ اللغة العربية(٩٧)، كان السلاحُ الرئيسي على جَبهَةِ اللغةِ في شمال أفريقيا هو لُغَةُ القوة الإمبريالية ذاتها: الفرنسية. يُقالُ إنه بَعدَ الاستقلال استُخدِمت اللغةُ الفرنسية في المُخاطَبة حتى بَينَ الموظفين في مكتب المغرب لإعادة التَّعريب(٩٨). إنما لم يكن للغةِ العربية الفصحى وجُودٌ كبيرٌ في الجزائر بسبب تَباعُد مُدنِها، وكِبَرِ ريفِها، وكَثرَةِ النّاطِقين باللغات البربرية فيها، ومن ثَمَّ كان تأثيرُ الحَملَةِ الفرنسية فيها على اللغة عميقاً. وَكان معظم البَثِّ في راديو الجزائر باللغة العامّية(٩٩)، وكانت الجزائر الوحيدة التي تقوم بذلك في عالَم العربية، واحتاجَ بنِ بيلّلا، (أو: بن بلّة) أولُ رئيسِ وزراء للجزائر المستقلة، إلى أستاذٍ يُعلِّمُه اللغةَ العربيةَ(١٠٠)، ووَجَدَت الجمعيةُ الوطنية الجزائرية سنة ١٩٦٣ أنها لا تستطيعُ القيامَ بأعمالها إلا باللغة الفرنسية(١٠١).

---

(٩٤) Niloofar Haeri, "Form and Ideology: Arabic Sociolinguistics and Beyond," *Annual Review of Anthropology*, vol. 29 (October 2000), p. 70.

(٩٥) Versteegh, *The Arabic Language*, p. 132.

(٩٦) Atiyah, *The Arabs*, pp. 137-138.

(٩٧) Versteegh, Ibid., p. 198.

(٩٨) Ibid., p. 200.

(٩٩) Atiyah, Ibid., p. 204.

(١٠٠) Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History*, p. 109.

(١٠١) Versteegh, *Arabic Language*, pp. 200-201.

في تلك الأثناء في مصر والمشرق، أرض العربية في الشرق، أعادَ العربُ اكتِشافَ صَوتِهم ورَفَعوهُ أعلى وأعلى، والحركةُ القومية التي بَدأتْ ثقافيةً ولغويةً أصبَحتْ أكثر صَراحة سياسياً. مع بدايات حَركة التَّتريكِ في ثمانينيات القَرن التاسع عشر، ظَهَرتْ لافتاتٌ ولوحاتٌ في سورية العثمانية تُطالِبُ بالاعتراف باللغة العربية كلغةٍ رسمية، وبحريّة التعبير (التي مازالت مَطلَباً حتى الآن). بَعدَ عَقدَين من الزمن، عندما كَمَّمَتْ حركةُ تركيا الفتاة أفواهَ رعاياها الناطقين بالعربية بشدَّة أكثر، ومَنَعَتْ لُغَتَهم في المدارس الحكومية، ارتَفعَتْ أصواتُ الصحافة في القاهرة في رَدِّها على ذلك. إضافة إلى اللوحات والطباعة، لَعِبَ الشِّعرُ دَوراً أكثر تَحريضاً في السياسة، وحافَظَ على أوزانِه وقَوافِيه مثلما كانت قَبلَ الإسلام. كان الشِّعرُ يستطيع تَحريضَ رُدود فِعلٍ ضخمة، هاجَمَ الشاعر المصري أحمد شوقي السياسةَ البريطانية شِعراً، ولكنهم أخرَسوهُ سنة ١٩١٤ بنَفيِهِ إلى برشلونة[١٠٢]. بَعدَ ذلك، في التمرد ضد البريطانيين في العراق عشرينيات القرن العشرين، سيُلقي الشُّعراءُ الشَّعبَويون السياسيون قصائدَهم من على سُقُفِ السيارات[١٠٣] مِثل الصَّدَى للشُّعراءِ والوعَّاظ على ظُهور الجِمال قَبل الإسلام.

ربما فرَضَ الفرنسيون صَمتاً غاضِباً على مُستعمراتهم في شمال أفريقيا، بينما كانت الكلمة العربية تَجمَعُ نفسَها في رَفضٍ مُتصاعِد.

اللغةُ والأرض

استَلهَم المفكرون العرب أفكاراً عن اللغة والقومية من فيخته **Fichte** وهيردر **Herder** وغيرهما من المُنظِّرين الأوروبيين، غير أن العرب كان لديهم نَوعهم مِن «القومية» اللغوية قَبلَ هؤلاء الأوروبيين المتأخرين، إنما كان هنالك اختِلاف: رَكَّزَ الوَعيُ القومي الذي نَشأ قَبلَ الإسلام وفي عصره المبكر على اللغة والدين، والآن في غَسَقِ الإمبراطورية العثمانية، رَكَّزَ الشُّعور القومي على اللغة والأرض بالنَّمَط الأوروبي.

كانت هنالك مشاكِل في هذا التَّركيز، فقد وُجِدَتْ لُغةٌ موحَّدَة إنما لم

---

(١٠٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 9, p. 229.

(١٠٣) Ibid., vol. 9, p. 230.

يَتحدَّث بها أحَدٌ بصِفَتِها لُغته الأمّ، ومع انتِشار الأمّية لم يتمكّن معظمهم مِن قراءتها ولا كِتابتها. من المعقول أنْ يُغيِّرَ التعليمُ ذلك، ولكن لم يكن هناك كثيرٌ مما يمكن عَمَلُهُ لتَغيير العُنصِر الثاني من عناصر القومية الحديثة، وهو الأرض. المناطقُ العربية ليست منطقةً مُرتَّبَةً مُنفَصِلَةً مِثل معظم الدول القومية في أوروبا التي تَحُدُّها أنهارٌ أو سلاسل جِبال أو خِلجان. إنها أكبرُ من أوروبا كلها، وكانت مُتَبايِنَةً أيضاً مثل شعوبها، اقتصادياً على الأقلّ. كانت هنالك مُشكلةٌ ثالثة أيضاً، فقد كان الإسلامُ إحدى القُوى التي يُتَوقَّعُ أن تَجمَعَ المنطقة، ولكن يبدو أنه بَدَلاً من ذلك قد قوَّضَ الأمَلَ بتَكوين دولةٍ قومية. قال أحَدُ المُعَلِّقين المُعاصِرين إنّ «الدولةَ القوميةَ كانت مَفهوماً غَريباً تماماً عن الإسلام نَظَرياً وعَمَلياً»[١٠٤]، وذلكَ لأنَّ «النظريةَ الدستوريةَ الإسلاميةَ تَهتمُّ فقط بالمجتمع وليس بالأرض»[١٠٥]. ولكن «النظرية الدستورية الإسلامية» ليست مَصبوبَة مِنَ البرونز، إلا أنها صَلبةٌ بدرجة تكفي لصِياغَتها على الوَرق. والحقيقةُ هي أنَّ أفكارَ الباحثين الإسلاميين عن طبيعة الحُكم دَارَتْ عن الناس وليس عن الأرض؛ البَشَر وليس الخَرائط. ولذلك ليس مِنَ المُستَغرب أنَّ كثيراً من النّاشطين وراءَ القومية الحديثة كانوا مِن غَير المسلمين.

ويَجوزُ كذلك أنَّ المَشاكل التي تبدو متأصِّلَةً في فِكرة الدول العربية القومية هي جانبٌ آخَر من الجَدَلِ المستمرّ بين القبيلة والشعب؛ القبيلة المتحرِّكَة والشعب المستقرّ. تَقتَرِنُ الدولةُ بالاستقرار وليس بالتَّنقل والترحال، وسيكون الادعاء بأنَّ شعبَ جنوب شبه الجزيرة العربية كان يُشبه دولةً قوميةً حديثةً مُضَلِّلاً جِداً، بل كان بعيداً جِداً عن ذلك. ولكنّ الشعوبَ كان لديها جانبٌ قويٌّ في الارتباط بمنطقة، وبُنِيَ اقتصادُها على التعاون وليس على التنافُس، على المَنفَعَة المُشتَرَكَة وليس على الغارات المُتَبادَلة. ربما تكون حَرَكِيَّةُ البدو مفيدةً في المَراحل الأولى من بناء إمبراطورية، إلا أنها ليست مُفيدةً في تَرسيخ مَناطِقِ دَولَة. فالحدودُ التي تُعَرِّفُ دولةً لا تَعني شيئاً بالنسبة إلى البدو الرُّحَّل. ولكنّ دولةً ذات أرضٍ بلا حُدودٍ هي تَناقُضٌ في

(١٠٤) Ali A. Allawi, *The Crisis of Islamic Civilization* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009), p. 46.

(١٠٥) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 10, p. 127.

المُصطَلحات. ومع ذلك فإن الخطر هو أنه إذا كان لديك حُدودٌ فَعَّالَة فإنَّ البَدوَ، أو مَن يَحملون عَقليّةَ البَدو، سيُحاولون الإغارَة على دولَتِهم ذاتها.

لم تكن آفاقُ مثل هذه الدولة أو الدول مُشَجِّعَةً للعرب، ولكن، بينما كان القَرن العشرون يَتَّجِه نحو أوَّل صِراعاتِه العالمية، كانوا يَقترِبون تدريجياً من الوقت الذي سيكونُ عليهم فيه رؤيةُ عالَمِهم تُحَدِّدُهُ شروطُ الأرضِ والخُطوطِ على الخريطة، سواء رَغِبوا في ذلك أم لم يَرغَبوا. إلا أن الخُطوطَ لم يضَعوها بأنفسِهم، بل وَضَعَها آخرون، يبدو أنه لا يمكن الهروب منهم.

هجرات البخار

العقودُ التي سَبقَت الحربَ العُظمى ستكونُ عَصراً آخَر من الهجرات في عالَم ساكِنٍ غير مَحدود. حَدَثَ تَيارٌ مُستمِرٌّ مِنْ هجرات العرب مثلما حَدَثَ في أساطيرِ سَدِّ مَأربَ وتاريخ أول هجرةٍ إسلامية. ستكون هذه الهجرات الجديدة مرةً أخرى وسيلةً لتغير تحديثي. وانفتَحَ الآن بفضل قوة البُخار عَالَمٌ مِن المَقاصد الجديدة أوسَع وأكبَر من المحيط الهندي.

على الرغم من كَونِها بطَريقةٍ ما المرحلَةَ التالية مِنَ الهجرة التي بَدأتْ قَبلَ التاريخ، فإنّ عَصرَ «البَابُّور، مِنَ الفرنسية *vapeur* أيّ السَّفينة البخارية»، كانت له بداياتٌ تبدو حَديثَة، فقد حَدَثَتْ ثورةٌ بصِناعَةِ الحرير في لبنان خلال سبعينيات القَرن التاسع عشر، وسيُسافِر آلافٌ من المزارعين والتجار لقضاء عطلات الصيف في فرنسا(١٠٦). ولكن الفَورَةَ والرحلات انتَهتْ في سنة ١٨٩٠، وبَدلاً من ذلك ذَهَبَ عربُ شرقِ المتوسط للبَحثِ عن حُظوظِهم كتجّار أو باعَة مُتَجولين أو عُمّال في أوروبا وما وراءها، خاصةً في غرب أفريقيا والأمريكتَين. سافَرَ عَربٌ آخرون أيضاً، فاتَّجَهَ اليمنيون، روّادُ المُستوطَنات العربية في أراضي الرياح المَوسمية، نحو الشمال هذه المَرة من ميناءِ عَدَن في سُفُنٍ بخارية عَبرَ قناة السويس لتأسيسِ أول جماعات عربية في بريطانيا. اشتَغَلوا هذه المرة في أعمال السَّمسَرة والتَّفريغ والتّحميل بَدلاً من أعمال التجارة والتبشير. خَرَجَ معظم المهاجرين من موانئ شرق المتوسط، وفي بدايات القَرن العشرين أصبَحَت الهجرةُ «وباءً حقيقياً» في شرق

---

(١٠٦) Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey*, pp. 35-36.

المتوسط، خاصةً في لبنان[١٠٧]. يُقدِّرُ عددُ المهاجرين اللبنانيين «من رُبعِ عدد السكان إلى نصفِهم»[١٠٨]. قَدَّرَ مصدر آخر أنّ عددَ المهاجرين اللبنانيين الكليّ[١٠٩] إلى الأمريكيتَين قد بلغ ٣٠٠,٠٠٠ حتى سنة ١٩١٤[١١٠]. مهما كان العددُ الحقيقي، فقد كانوا سبَبَ ظُهورِ حَيٍّ سوري ـ لبناني في نيويورك[١١١]، وسبب مشاهدة سلمان رشدي لمَحلاتٍ «مصرية» (لبنانية في الحقيقة) في ماتاغالبا Matagalpa في نيكاراغوا، يُديرُها أشخاصٌ مِثل أرماندو مصطفى ومانولو صالح[١١٢]، وسبب جعْل فُطُوري في زيارةٍ إلى داكار يتضَمَّن خُبزاً بالشوكولا على الطريقة الفرنسية ـ الشرق متوسطية، وقهوة تركية، ونساء لبنانيات بتَسريحاتِ شَعرٍ وسَجائر مالبورو. وهم أيضاً سَبَبُ كَونِ رئيسِ الأرجنتين السابق مِنْ أصلٍ عربي (كارلوس منعِم)، ثم البرازيل (ميشيل تامر)، الذي تَبِعَهُ سنة ٢٠١٨ مُرشَّحٌ رئاسيٌّ آخَر من أصلٍ عربي (فرناندو حَدّاد). ولماذا بلَغَ الآن عددُ البرازيليين مِن أصلٍ عربيٍّ نحو ١٢ مليوناً لتُصبِحَ البرازيل الدولةَ العربية التاسعة مِن حَيثُ عَددِ السكان، وهي أكبرُ عَدداً من لبنان. هاجَروا وتكاثَروا وتَركوا البلادَ العتيقة وراءهم بكلِّ طريقة.

كانت هجراتُ البُخار سبب دخول الحداثة، أخيراً، إلى اليقظة العربية في الأدب؛ ليس بتقليدِ أشكالٍ أخرى من ثقافاتٍ أدبيةٍ مختلفة، بل بسبب التَّحررِ من الكِمامات القديمة، والانتِقال إلى مكانٍ جديد. كان أحَدُ الذين ألهمتهم الهجرة الكتابة هو اللبناني المَولِد جبران خليل جبران[١١٣]، الذي وَصَلَ إلى نيويورك سنة ١٩١٢. اشتُهِرَ فيما بَعدُ في الغرب بصِفَتِهِ صُوفيّاً ضَبابيّاً ومؤلف كِتاب «النَّبي»، كما كان مؤسِّسَ تَجديدٍ شِعريٍّ في

---

(١٠٧) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5, p. 1253.

(١٠٨) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 265

(١٠٩) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 5. p. 1253

(١١٠) Hourani, *A History of the Arab Peoples*. p. 294.

(١١١) Rawaa Talass, "Nayy Yark." (Unpublished Dissertation, Dubai, 2014).

(١١٢) Salman Rushdie, *The Jaguar Smile: A Nicaraguan Journey* (London: Picador, 1987), p. 75.

(١١٣) often spelled, including by himself. 'Gibran Kahlil Gibran'.

العربية[114]. يبدو أنه تَحرَّر مع غيره من المهاجرين مِنَ الماضي السَّلبي، ليس فقط من قرون العزلة العثمانية، ولكن أيضاً مِن سَيطَرةِ قوةِ شِعرِ شِبه الجزيرة العربية. جاءَ النشاطُ والإبداع مع الهجرة. خاطَبَ جبرانُ زملاءه الشّعراء المُلتَصقِين بالأسلوب القديم ورفاقه العرب الذين ظَلُّوا في البلَدِ القديم:

جاوَرتُمُ الأمسَ، ومِلنا إلى يَومٍ مُوشى صُبحُهُ بالخَفاء
ورُمتُمُ الذِّكرى وأطيافَها ونحن نَسعَى خَلفَ طَيفِ الرَّجاء
وجُبتُمُ الأرضَ وأطرافَها ونحن نَطوي بالفَضاءِ الفَضاء[115]

إذا راحَ «جيرانُ الأمسِ» إلى أيِّ مَكان، فقد كَتَبَ جبران في مَوضِع آخَر نثراً أنهم يَذهبون «من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة، ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع». ربما يكون الطريق الآمِن إلا أنه أقصَر الطُّرُقِ كذلك بين «مَهدِ الأفكارِ وقَبرِها»[116] [غير حرفي].

حكّامٌ مع مساطر

بالمُقارَنة مع العَصر الحالي المُحاط بالحُدود، الذي لا يُسمَحُ فيه لِحامِلِ جَواز سَفر سوريّ حتماً بالدخول إلى نيويورك[117] حتى مع فيزا صالِحَة وبِطاقَة هِجرة، فإنَّ المُسافرين إلى سورية والمُغادِرين منها سنة ١٨٧٦ لم يَهتَمّوا كثيراً بوثائق السَّفر. ذَكَرَ دَليلُ سَفَرِ بيديكِر Baedeker لفلسطين وسورية أنَّ «جَوازَ سَفَرِ المُسافِر ربما يُطلَبُ أحياناً، ولكنّ بطاقَةَ زيارةٍ عادية تَفي بالغَرَض»[118]. كما أنّ العثمانيين والبريطانيين لم يُبالوا بالمِثل عندما

(١١٤) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب**، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

(١١٥) ورد في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٦.

(١١٦) ورد في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٧.

(١١٧) almost the first of Donald Trump's acts as president was to ban all visitors from seven Muslim-majority countries entering the United States..

(١١٨) Karl Baedeker, *Palestine and Syria: Handbook for Travellers* (London: Dulau and Co., 1876), "Passports and Custom House".

وجَدوا أنفسَهم سنة ١٨٤٩ إمبراطوريتَين متجاورتَين في جنوب شبه الجزيرة العربية، ولم يَرسُموا الحدودَ بين مَحمِيَّةِ عَدَن واليَمن العثمانية إلا بعد خَمسين سنة، بعد أن أُعيدَ احتلالُ اليمن بعد غيابٍ استمرَّ مِئتَي سنة. عَمِلَتْ لَجنةٌ مُشترَكةٌ فترةَ سنتَين (١٩٠٢ ـ ١٩٠٤) ورُسِمَ الخط المُتعرِّجُ ببطءٍ في الداخل وإلى شمال مَضيق باب المَندب. أما في الطَّرفِ الأبعَد للمرتفعات الكثيفة بالسكان فقد أصابَهم المَلل واستَخدَموا المسطَرة لرسمِ خَطٍّ مستقيم عبر المُنحدَرات القليلةِ السكان، ثم مَدُّوهُ إلى الرُّبعِ الخَالي مع مَيلٍ نحو الشمال إلى الخليج عَبرَ ألف كيلومتر من شبه الجزيرة العربية. لم يكن الخَطُّ بِغَرَضِ تَخصيصِ السِّيادَة، بل لِتِبيان «دائرة النُّفوذ». بَعدَ أشهرٍ قليلة مِن إقرارِه سنة ١٩١٤، لَجأت القوَّتان إلى الحرب. سيَستَمرُّ القِسم الجنوبي الغربي حتى سنة ١٩٩٠ كحدودٍ بين الجزء الشمالي والجزء الجنوبي من اليمن[١١٩]. والآن بَعدَ أقل مِن ثلاثين سنة، يبدو أنّ ذلك الخَطّ يُعيدُ فَرضَ نفسِه. فيحمل المسيطرون الإمبرياليون ـ ومساطرُهم ـ مسؤولية كبيرة على ما سيحدث بعدهم. ولكنهم ليسوا مسؤولين عن كلّ شيء، ففي النهاية كان النَّفطُ فوقَ كلّ شيء هو الذي سَيُحوِّلُ الحدودَ إلى حَواجِز، ودَوائرَ النُّفوذِ إلى سِيادَة. أما في ذلك الوقت، فقد ساعَدَت الحربُ العظمى بين القوى الكبرى على تَرسيخِ الخُطوطِ الموجودَة في الخارطة.

أُعيدَ تَشكيلُ الهوية العربية في القَرن التاسع عشر مرةً أخرى من خلال الاحتِكاك بالقوى الخارجية. عندما ذَهَبَتْ تلك القُوى إلى الحرب، تَوَدَّدَتْ إلى الحكّام العرب مِثلما فَعَلَ الآشوريون والفرس والرومان وغيرهم مِن قَبل، إنما في هذه المرة انضَمَّت ألمانيا إلى القوى العظمى السابقة، البريطانية والفرنسية وتركيا العثمانية. كانت ألمانيا مَشحونَة بقوميتها الجديدة، وحَاولتْ تَنفيذَ سياستها في «الاندفاع نحو الشرق». وفي سبيل تحقيق ذلك، كان القَيصر فيلهلم الثاني Kaiser Wilhelm II قد شَجَّعَ العثمانيين سنة ١٨٩٨ للموافَقة على تَمديد سكّة الحديد التي كانت موجودةً في الأناضول نحو

(١١٩) Paul Dresch, *A History of Modern Yemen* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2000), pp. 10-11.

الخليج. كانت الفكرةُ صُنعَ خَطّ مُستمرّ من برلين إلى بغداد[١٢٠]، أو الطريق الألمانية الأقصَر إلى شواطئ النَّخيل، وربما إلى مستقبلٍ إمبريالي. كان العملُ والتمويل مُتقَطِّعَين، ولَن يَسيرَ أول قطار من إسطنبول إلى بغداد حتى سنة ١٩٤٠. ولم يَتبَعهُ كثيرٌ منها، فقد قَطَّعَتْهُ أحداثُ الحرب العالمية الثانية إلى أجزاء تلاشَتْ فيما بَعد[١٢١]. كان العثمانيون أكثر نجاحاً في بِناء خَطِّهم الحَديدي الحِجازي بتَمويلِهِ مِنَ العالَم الإسلامي، والذي صُمِّمَ لِنَقلِ الحجّاج، والجنود طبعاً، من دمشق إلى المدينة. أُعلِنَ عن البدء بالمشروع سنة ١٩٠٠، وانتَهى سنة ١٩٠٨، وكان أولَ تَحسينٍ على السَّفرِ في أرضِ شبه الجزيرة العربية منذ مَلِكَةِ سَبأ، وبالفعل منذ تَدجينِ الجَمَل.

استغرقَ الانتقالُ من ظُهورِ الجِمالِ إلى قِطارِ الحَجّ ثلاثةَ آلاف سنة. سَيسيرُ الخَطُّ الحَديدي الحِجازي أقلَّ مِن تِسع سنوات. عندما بَدأتْ أحداثُ الحرب العالمية الأولى، قَرَّرتْ بريطانيا تَخريبَ اندفاعِ الترك نحو الجنوب بتَدميرِ قِطارِهم العربيّ الجديد اللامِع، والأهمُّ مِن ذلكَ هو تَحويلُ مَسارهم عن الصّراع في الهلال الخصيب بتَحريضِ ثورةٍ قَبَليةٍ عربية ستُعرَفُ باسم «الثورة العربية». اتَّصَلوا مع الحاكِم العربي المَحَلي الذي يَمُرُّ جزءٌ كبيرٌ من الخَطِّ الحَديدي في أرضِه الحِجازية. كان الشريف حسين بن عليّ أمير مكة المعيّن من قبل العثمانيين، وقد عَرفَ البريطانيون من خلال عمليات سرية أنّ لديه وَجهاً آخَر مُضاداً للعثمانيين[١٢٢]. عَرَضَ البريطانيون وَجهَهم الآخر وحَرَّضُوا حسيناً، في شروطِ القومية الجديدة ذاتِها التي حاوَلوا قَمعَها في مصر مؤخَّراً، على تَحدِّي السَّيطَرة التركية والحصول على الاستقلال العربي. ستكونُ جوائزُ الثورة هي ذاتها دائماً من الذَّهب والسلاح بالطبع، وكذلك الاعتِراف بالشريف حسين مَلِكاً على الحِجاز وهو الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة. ومثلما كانت الحالَة أيام فارس السَّاسانية وروما الإمبراطورية، كان البريطانيون يَشتَرون تَحالُفاً مع زعيم عربيّ بِوَعدِهِ مَلَكيَّةً عَميلَة. لا تَنتَهي أصداءُ الماضي بذلك، مثل ذلك المَلكُ العَميل عند الفرس (أو الرومان، أو كِليهما معاً، فكان له أوجُهٌ عديدة كما رأينا)، وامرئ القيس بن عمرو الذي

(١٢٠) Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*, p. 302.

(١٢١) Searight, *Steaming East*, pp. 249-250.

(١٢٢) Atiyah, *The Arabs*, pp. 91-92.

فَخَّمَ نفسَه بِلَقَبِ «مَلك العرب» في ذلك النَّقشِ الأول الذي كُتِبَ عليه باللغة العربية، نَقش النَّمارَة سنة ٣٢٨، والآن في سنة ١٩١٦، رَفَعَ الشريفُ حسين لَقَبَهُ إلى «مَلك العرب»[١٢٣]، على الرغم من أنه أحياناً مِن أجلِ وَضعِ نفسِه في سياقِ القومية الأرضية قد استَخدَم لَقَبَ «ملك أراضي العرب»[١٢٤]. وهنا وجِدَ أيضاً صَدى آخَر مِن ماضٍ مستمرٍ آخَر؛ فكما أظهَر لَقبهُ الآخَر «الشريف»، كان حسين يَنتَمي إلى عَشيرة محمد الهاشمية القرشية، وبصِفَتِهِ أميرَ مكة مدينة قريش القديمة فهو يستطيع بِحَقٍّ أن يُعلِنَ أنَّهُ رئيس القبيلة التي أسَّستْ سُلالَتَين كَبيرتَين من الخلفاء العرب، الأموية والعباسية... ومن المؤكَّد أنه مع الوقت سيُعلِنُ لَقَبَهُ «الخليفة» أيضاً. ولكن أحلامَهُ في ذلك الوقت لم تَذهَبْ أبعَد مِن حُكمِ مَملَكةٍ عربيةٍ مُتَّحِدَة تضمُّ جميعَ أراضي المُتحدِّثين بالعربية وشعوبها شرقَ قناة السويس، أي كلّ المَشرق.

حَضَّرَت المفوضيةُ البريطانية العليا أمورَها، وكانت رُدودُهم على حسين غامضة[١٢٥]. كانوا يَبحثونَ عن دَعم حَربِ عصاباتٍ في شبه الجزيرة في عَرضٍ جانِبيٍّ للحرب العظمى. وجَدوا أنفسَهم الآن يفكّرون بإعادة إحياء مَملَكة عربية من خلال الرَّجُلِ المَغرور حسين. تَركوا أحلامَهُ تَسيرُ كما هي في تلك الفترة، وفي لَحظَتِها الحاسِمة، وحين أصبحت سَيطَرة الترك على العرب التي استمرّتْ ألف سنة على المحَكّ، ظَهرَت النهضة العربية وكأنها تَتحوَّل في السياسة وفي الشِّعر نحو «انسحابٍ مِنَ الحَداثة»، وظَهَرَ الشريفُ حسين وكأنه تجسيدٌ للماضي ولتاريخٍ كاملٍ من الملوك والخلفاء والقرشيين والهاشميين جُمِعوا في شخصٍ واحِد.

سَتتحطَّمُ آمالُ حسين على المَدى القصير، ولكن بريطانيا ستتواطأ على المَدى البعيد مع «إرجاعِ الحاضِر إلى الماضي» بمَنح عروشٍ عربيةٍ لأبنائِه. وربما ظَهَرَ رَفعُ نَسلِ قريشٍ إلى مستوى المَلَكية العَميلَة وكأنه استِقرارٌ واستِمرارٌ، غير أنّ كلّ ذلك سَيعقِّدُ شبكَةَ قوى مُتعارِضَة من الاستقرار والحركة، التقاليد والتأقلم، الماضي والحاضِر، وسيُحاصَر فيها مستقبلُ العرب.

---

(١٢٣) Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*, p. 319.

(١٢٤) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p. 263.

(١٢٥) Atiyah, *The Arabs*, pp. 92-94.

ستكون الشبكةُ أكثر قَسوة وتَعقيداً لأنها كانت مُحاطَةً بالازدواجية، فحتى عندما كان البريطانيون يَنسِجونَ مَملَكتهم العربية، كانوا يَخدَعونَه. في أوائل سنة ١٩١٦ ظَنَّ حسين أنَّ تاجَهُ كمَلِكٍ للعرب قد أصبحَ مَضموناً، وبَعدَ أشهرٍ قليلة اتَّفَقَ البريطانيون مع عَدوِّهم القديم فرنسا لاقتِسام الإمبراطورية العثمانية بينهما فَورَ هَزيمَتِها. وبينما سَجَّلَت الثورةُ العربية انتصاراتٍ بقيادة فيصل بن الحسين، بَرَزَ التِواءٌ مُفاجِئٌ في السِّكينِ القاطِعَة بشكلِ وَعد بلفور الذي وَرَدَ فيه:

تَنظُرُ حكومةُ صاحب الجلالة بِعَينِ العَطفِ إلى إقامة وطَنٍ قوميٍّ للشعب اليهوديّ، وستَبذُلُ غايةَ جُهدِها لتَسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يُفهَمَ جَلياً أنه لن يُؤتَى بعَملٍ من شأنه أن يَنتَقِصَ من الحقوق المَدَنية والدينية التي تَتمتَّعُ بها الطوائف غير اليهودية المُقيمَة في فلسطين[١٢٦]...

عندما اقترَبَتْ نهاية الحربُ العظمى لصالِح بريطانيا وحلفائها، ظَهَرَ أنَّ اليهود كانوا في طَريقِهم لتَحقيقِ ما كان العربُ يفكِّرون في طَريقةِ تَنفيذِه: أَخذُ مَجموعةٍ متنوعة من الناس، والجَمعُ في مِرجَلٍ واحِد بين بارونات روتشيلد في ميفير Rothschild barons in Mayfair مع رعاةِ المَاعز الحُفاة مِنَ اليمن، وجَمعِهِم بما هو أكثر بِقليلٍ من عقيدةٍ في نَصٍّ قديم (في حالة العرب، عقيدة من اللغة والنَّصِّ القديم)، وتَحويلِهم إلى «شَعب» يُطالِبُ بأرضِ دولةٍ قومية بالمُصطَلحات القومية الأوروبية الحديثة. اتَّفَقَ كثيرٌ من اليهود مع زَميلِ بلفور في مجلس الوزراء البريطاني الوزير اليهودي إدوين مونتاغيو Edwin Montagu ـ وهو يهودي ـ في وَصفِ الصهيونية بأنها ««عقيدةٌ سياسية مُؤذية» سَتُحرِّضُ على مُعاداة السَّامية»[١٢٧]. ربما كانت كلماته أكثر تَنبؤاً مما تَخَيَّلَ هو نفسُه، إنما على كل حال عوامل مختلفة من نموذج القومية الأوروبية كانت ناقِصَةً في الصهيونية، مثل اللغة المُشتَرَكة والعادات والتاريخ (على الأقلّ أثناء الألفَي سنة التي مَضتْ تقريباً)... غير أنّ كلّ ذلك سيتم التعامل معه في وَقتِه؛ أما الآن، فيمكن خداعها بفكرة أرضِ الميعاد. كانت المشكلةُ في الجزء الثاني من الوَعد: «على أن يُفهَمَ

(١٢٦) ورد في: Ibid., pp. 102-103.

(١٢٧) ورد في: David Gilmour, *Curzon* (London: Macmillan, 1994), p. 481.

جَلياً...». كان وَعد بلفور مُعادَلَةً غيرَ قابِلَةٍ للحَلّ، استِحالة مَنطقية، كأن يُقالَ مَثلاً إنكَ سَتَبني سَدّاً دون أنْ تؤذيَ أهلَ القُرى التي ستَغمُرُها بُحَيرَتُهُ.

يُسمّي العربُ «إعلان بلفور» باسم «وَعد بلفور» (ويُلاحظ أنّ كلمة «وَعد» تَحمِلُ تلميحاً بالتهديد). ليس المهَمّ أن تكونَ الأرضُ مَوعودَةً مِنَ الله أو مِنْ بلفور. تقول العربُ: «الوَعدُ كالرعد، والإيفاء كالمطر». في هذه الحالَة، كان الرَّعدُ مُنذِراً بالسُّوءِ الذي سيَحِلُّ مع الفيضان القادم. كانت النُّذُرُ صَحيحةً، وحَلَّ الطوفان. كان الجزء الثاني من الوَعد مَحكوماً عليه بالفَشل بكلّ وضوح بَعدَ مِئة سَنة. كان من المستحيل تَحقيقُه في أيّ مكانٍ آخَر من الأمكِنة الأخرى التي طُرِحَتْ كوَطَنٍ قَوميّ لليهود، والتي شَمَلَتْ جزيرةَ سُقطرى اليمنية(١٢٨). المكانُ الوحيدُ الذي كان يمكن فِعلُ ذلك فيهِ هو القُطبُ الجنوبي.

أضغاث أحلام

بعد الحرب العظمى في الشرق الأدنى، جَلَسَ المُنتَصرون لبَحثِ الأعمال الحقيقية للفائزين: اقتِسام الغَنائم، التي كانت في هذه الحالَة أراضي الإمبراطورية العثمانية. أما التَّمتَمات غَير المُلزِمَة للشريف حسين عن استقلال العرب فقد تمّ نِسيانها تماماً، بينما شَكَّلَتْ بريطانيا وفرنسا الهويةَ العربية وخَريطَةَ العالَم العربي. ناقَشَ بعضُ الباحثين أنَّ اتفاقيتَهم التي سُمِّيَتْ اتفاقيةَ سايكس ـ بيكو **Sykes-Picot Agreement** يمكن فَهمُها لِتِبيان أنَّ:

بريطانيا دَعَمَت استقلالَ العرب ووحدَتهم ضِدَّ مُعارَضة فرنسا. أو بكلمة أخرى، كانت اتفاقيةُ سايكس ـ بيكو وسيلةً للوحدَة ولم تكن أداة التَّقسيمِ والتَّجزِئة التي تُصَوَّرُ بها عادةً هذه الأيام(١٢٩).

هذه سَفسَطَة. لقد قَبِلَت الاتفاقيةُ في الواقِع مَبدأ استقلالِ العرب في

(١٢٨) Doreen Ingrams and Leila Ingrams, eds., *Records of Yemen*, 16 vols. (Neuchâtel: Archive Editions, 1993), vol. 9: *1933-1945*, pp. 737-738, and Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: Travels in Dictionary Land* (London: John Murray, 1997), p. 239.

(١٢٩) Efraim Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, 2nd ed. (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007), p. 193.

النهاية، إنما بِشَرطِ احتفاظِ القُوتَين بنفوذٍ دائم(١٣٠). لا يَعتَبِرُ السَّجينُ أنَّه حُرٌّ إذا كان تحت الإقامَة الجَبرية بَدلاً من الحَبس.

أصبَحَ واضِحاً أنَّ تَخَيُّلَ الشريف حسين نفسه المُهيمِن المُطلَق الوحيد على آسيا العربية ما هو إلا «أضغاثُ أحلام»(١٣١). أما ابنُهُ فيصل، الذي قضَى معظمَ سنواتِ تَعليمِه في إسطنبول، وقادَ الثورةَ العربية على الأرض، فقد تمتَّعَ بإدراكٍ أفضَل مِن والِده للواقعية السياسية، كما اعتَرَفَ بالأهمية المتزايدة للقومية العربية على النَّمَط الحديث، وكَتَبَ لمؤتمر السلام في باريس أنَّ هَدَفَ الحَرَكة هو «جَمعُ العرب في أمَّة واحِدة»(١٣٢) [غير حرفي]، وأقرَّ بأنَّ ذلك سيكون مستحيلاً على المَدى القريب بسبب الفُروقات الكبيرة في المنطقة، ولكنَّه لَخَّصَ بقولِهِ: «إذا تمّ الاعترافُ باستقلالِنا، وتَرسَّخَتْ كفاءَتُنا، فإنَّ التأثيرات الطبيعية للعِرق واللغة والمَصالِح سرعان ما سَتَجعلنا أمّةً واحِدة» [غير حرفي]. كانت مَشاعرَ نبيلة حتى لو كان «العِرق» دائماً مِن صُنعِ عُلماء الأنساب، وكانت «المَصالح» تُفرِّقُ العربَ عادةً أكثرَ مِنْ أنْ تَجمَعهم، فربما مازال الأملُ موجوداً باللغة القوية المُوحِّدَة. لم تَنزِلْ قضيةُ فيصل على آذان صُمّ، بل سَمِعَتْها آذانٌ كان سَمعُها قد أصبَحَ انتِقائياً في جَلَبَةِ الانتصار. قَرَّرَتْ عُصبةُ الأمَم سنة ١٩٢٢ مَنحَ الاستقلال المَبدئي للأراضي العربية مع خُضوعِها للانتِداب الذي مُنِحَ سابقاً لبريطانيا وفرنسا. تأكَّدَت الحدودُ التي رُسِمَتْ بِقَلَم الرصاص، وتم تَرسيخُها الآن بِحِبرٍ لا يُمحَى. تَصَلَّبَتْ «دَوائرُ النّفوذ» إلى كُتَلِ وِصايَةٍ إمبرياليةٍ ذات حَواف قوية.

كان لورنس Colonel T.E. Lawrence، رفيقُ فيصل في الثورة العربية، طِفلاً شاباً قادِماً من شمال أكسفورد تَصَوَّرَ نفسَه مِثلَ الشّاعر بايرون في ثيابٍ عربية. تَخرَّجَ مِنَ التَّنقيبِ عن آثار الحِثيين إلى نسفِ الخَط الحَديدي الحِجازي. أصِيبَ بخَيبةِ أمَلٍ مُطلَقَة بسبب الازدواجية البريطانية، أو بعض جَوانِبها. رَسَمَ خريطَتَهُ المِثاليّة للمنطقة بَعدَ اندِحار العثمانيين، ووَضَعَ على منطقةٍ واسعةٍ فيها تضُمُّ شمال شبه الجزيرة والعراق والأردن اسمَ «العرب:

(١٣٠) Hourani, *A History of the Arab Peoples*, p. 318.

(١٣١) القرآن الكريم، «سورة يوسف،» الآية ٤٤.

(١٣٢) ورد في: Rogan, *The Arabs: A History*, p. 195.

فيصل»، وتَظهَرُ فيها أجزاء صغيرة على ساحل المتوسط باسم «سيناء»، «فلسطين» (من دون الصهيونية طبعاً)، «لبنان». ومِنَ المثير للاهتمام وَضعُهُ كلمةَ «الأرمن» حول خليج إسكندرون. بينما مَناطق الأغلبيةِ الكردية في الأناضول وشمال العراق لَمْ يَضَع عليها أيّ اسم سِوى «؟؟». أعطَى جزءاً كبيراً من أعالي بلاد الرافدين الهلال الخصيب تحت مُسمَّى «العرب: زَيد»، الأخ الأصغَر لفَيصل، «(تحت النفوذ البريطاني)». أما الأخ الأكبر لفيصل، عبد الله، فقد مَنَحَهُ معظم العراق «(تحت إدارةٍ بريطانية مباشرة)». أما بالنسبة إلى ما بَقيَ مِنْ مَناطقَ واسِعة من شبه الجزيرة إلى جنوب حِصَّةِ فيصل، فقد كَتَبَ لورنس على حُدودِها الشمالية: «لا يُسمَحُ لأية قوةٍ أجنبيةٍ فيما عَدا بريطانيا العظمى بأية حِصَّةٍ في حُكم البلادِ جَنوب هذا الخَطّ»[١٣٣]. إذاً، حتى لورنس المُخلِص اعتَقَد بأنَّ كثيراً من رفاقِه العرب يَحتاجون إلى نظام صارِم من الأمّ بريطانيا، مثلما اعتَقَدَ الموظفون البريطانيون أصحابُ الازدواجية. أما بالنسبة إلى حِصَصِ فرنسا في خَريطَةِ لورنس، فقد كانت لا شيء.

لم تكن هناك فرصةٌ أمام تحقيق آمال حسين بالمَملكة الكبيرة المشرقية، ولا لِخريطة لورنس من دون فرنسا ومن دون الصهيونية. إلا أنَّ أولادَ الشريف حصَلوا على عروشهم الوليدة. نُصِّبَ فيصل مَلِكاً على سورية، وفي فرصة قصيرة أتيحت له بين المُتَسلِّطين، جَمَعَ مؤتمراً عامّاً أعلَن فيه أنه مَلِكُ لبنان وفلسطين أيضاً. ثم جاءَ الفرنسيون بقوةٍ من جنود شمال أفريقيا وطَردوه فَوراً[١٣٤]. نَقَلَهُ البريطانيون سنة ١٩٢١ إلى عَرش العراق حيث فَشِلَتْ جهودُهم الأولية في الحُكم بأنفسِهم بسبب ثورة قَبَلية عامة. كما نُصِّبَ أخوه عبد الله مَلِكاً على الأردن في السنة ذاتها. أما والِدهما الشريف حسين فقد شَعَرَ بمَرارة مُحِقَّةٍ في عرشِه الحِجازي. لم يكن أداءُ العائلة الهاشمية سيئاً في ثلاث مَمالك، ولكن الواقع هو أنهم كانوا مُلوكاً عُملاء مثلما كان اللّخميون والغَساسنة عُملاء للفرس والرومان قَبل أكثر من ١٤٠٠ سنة. ومرةً أخرى، حوصِرَ العربُ على صَخرتهم بين قوى مُفتَرِسَة، وكانت هذه القوى الآن على

---

(١٣٣) The map was shown at the exhibition, "Lawrence of Arabia: The Life, the Legend", Imperial War Museum, London, 2005.

(١٣٤) Ibid., p. 202.

الصّخرة أيضاً من خلال شخصياتِ المسؤولين البريطانيين والفرنسيين الذين يُعطونَهم «النصيحة» التي كانت إجبارية، ويُطيحون بالمُلوك ويُنَصِّبونَهم كما يشاؤون.

رَسَّخَ وجودُ الأوروبيين الحدودَ ووسَّعها، بمَعنى أن مناطق متجاورة جغرافياً ربما تُصبح مختلفة جِداً عن بعضها. كان لديهم دوماً ذلك الانفصال بين الحَضَر والبدو، بين الشعوب المستقرّة والقبائل، ولكن خطوطَ التقسيم لم تكن واضِحة أبداً. أما الآن فإن الأماكن التي تَغَرَّبَتْ، سَطحياً على الأقل، أصبَحتْ أكثرَ غَرابة مما كانت عليه بالنسبة إلى القَبَليين المُقيمِين حولَها في مَناطق لم تتغيَّر كثيراً. كانت حالَةٌ قُصوى من كافة النواحي، ولكن واحِدةً منها تُشير إلى انقِسامات أخرى صَنَعَها الحُكمُ الإمبريالي هي عَدَن في النهاية البعيدة لشبه الجزيرة. اعتَرَفَ أَحَدُ آخِر الإداريين فيها، هو المَندوب السَّامي السير كينيدي تريفاسكيس Sir Kennedy Trevaskis، بأنَّ «الحكمَ البريطاني الاستعماري حَوَّلَ عَدَن إلى جزيرةٍ ربما كانت مُنفَصِلَة بمِئة مِيلٍ من المحيط عن أرض جنوب شبه الجزيرة العربية»(١٣٥). عَدَن ذاتها هي شبه جزيرة صغيرة لها اتصالات عالَمية قديمة، ولم يكن اتِّصالها باليمن وبشبه الجزيرة بشكلٍ عامّ أبَداً أكثر مِن صِلَةٍ فَضفاضَة. ولكن بإدارتِها من بومباي الهندية مدَّةَ قَرن كامِلٍ، طافَ بها البريطانيون باتّجاه الهند (كانت نتيجة تطورها هي تَشكُّل خليجٍ - انقسام ذِهنيّ - بينها وبين بقية الدولة، وأدّى إلى الفوضى التي تَحدُثُ تحت نافِذتي الآن. وَجَدَ العَدَنِيُّون أنفسَهم مَحكومين منذ سنة ١٩٩٠ مِن زُمرَةٍ من القَبَليين العَسكريين من الجبال الداخلية. كان وَصفُهُم بالفايكينغ أَحَدَ أَلطَف الأوصاف التي نَعَتوهُم بها. لم تكن بدايةً جيدة للاتحاد). سَتؤثِّرُ أنواعٌ مشابِهة من الاضطرابات بدرجةٍ أقلّ على أماكِن أخرى شبه مُنفَصِلَة مثل البحرين والكويت.

شَكَّلَت الحدودُ عائقاً سياسياً واجتماعياً أمام الاندِماج والتكامل، ومَهَّدَتْ باستمرار لحُدوث مواجَهات دون سَفك دِماء أحياناً، مثلما حَدَثَ عندما قامَتْ قوةٌ من عُمان وأبوظبي بقيادةٍ بريطانية بِطَردِ سعوديين تدعَمهم أمريكا مِن واحَة البُرَيمِي سنة ١٩٥٥. وحَدَثَ سَفكُ دماء أحياناً أخرى

(١٣٥) Kennedy Trevaskis, *Shades of Amber* (London: Hutchinson, 1968), p. 94.

بفَظاعة، مثلما جَرى عندما قُصِفَ صدّام حسين لإخراج قواتِه من الكويت على «طريق الموت» سنة ١٩٩١. جميع الحدود العربية كُسورٌ وليست رَوابِط، مِنَ الحدود بين اليمن والسعودية، وهي جُرحٌ مفتوح، إلى الحدود بين المغرب والجزائر التي أُغلِقَتْ تماماً منذ سنة ١٩٩٤ بينما تَبادَلَت الدولتان الاتهامات بالإرهاب والتَّرويج للحرب مِثل جارتَين مَجنونَتين تَصرُخان عَبر سِياج. لاحَظَ صموئيل جونسون Samuel Johnson أنه «إذا كَرِهَ رَجُلٌ، فإنه سَيكرَه جارَه القريب منه»[١٣٦]، ويبدو الآن أنَّ جميع الحدود والكراهية تشعُّ من أمّ جميع الانقسامات: جِدار الفَصل الإسرائيلي.

لا تَحجُزُ الحدودُ ولا تَفصِلُ فقط، بل إنها تَسجُنُ وتَدفُنُ، مثلما رأى الأديب السوري خليل النعيمي: «أولئك الذين يَمنَعوننا مِنَ السَّفر... يَحكمون علينا بالموت البطيء في قَبرٍ كبير»[١٣٧] [غير حرفي].

أسافِين وشقوق

أصبحَ السؤالُ مُلِحّاً: إذا كانت الحدودُ قد فَرَضَها مُخطِّطٌ إمبريالي شرير، فلماذا لم يزيلها العربُ ببساطة عندما حَصَلوا أخيراً على استقلالهم الحقيقي؟ لماذا لم يَدخُلوا في وحدَةٍ أرادوها منذ زمنٍ طويل؟ لم يُشعِل خِطابُ تلك الوحدَة وشعاراتها أكثرَ من الخِزي المُضاعَف لبلفور وسايكس - بيكو[١٣٨]، ذلك التَّحالف الظَّلامي بين بريطانيا الغادِرة وفرنسا المُحتالة.

لا بدّ أنّ الإجابةَ قد أصبَحَتْ واضِحةً الآن. لم تكن الخطوط على الخَرائط هي التي مَنَعَت الوحدَة. لا شك بأنها لم تُساعِد عليها، ولكن كانت هنالك دائماً قوى داخلية تَدفَعُ العربَ بعيداً عن بعضهم. ربما يُلقون باللوم على إمبراطوريات الآخرين، إلا أنّ العربَ لم يكونوا عائلةً سعيدةً دائماً، ليس منذ تَقاسُم غَنائم الإسلام، وليس منذ حربِ البَسوس قَبلَ الإسلام التي استمرتْ أربَعين سَنة بسبب حقوق الرَّعي. في الواقع، لم يَكونوا عائلةً أبداً

---

(١٣٦) James Boswell, *The Life of Samuel Johnson* (London: Everyone Publishers, 1992), p. 238.

(١٣٧) ورد في: نوري الجراح، **أرض التعارف: صورة أوروبا، الحج، الرحلة المعاصرة** (أبو ظبي: دار السويدي للنشر، ٢٠١١)، ص ٢٩٠.

(١٣٨) Atiyah, *The Arabs*, p. 124.

سوى في الخيال القَبَلي للنَّسَب المُشترَك. إذا أُلقِيَ اللَّوم على الإمبراطوريات، فربما لأنها أثارتْ رَدَّ فِعلٍ خَلَقَ أسطورةَ وسَرابَ وحدَةٍ غير مُمكِنَة. لا شك بأن الإمبرياليين فَرَّقوا لِيَسودُوا، إلا أنهم في غالب الأحيان كانوا يَدفَعون أسافِينَهم في انفِلاقاتٍ قديمة. مثلما قالَ النَّاشِط الاستقلالي محمد علي جَوهَر لِحكَّام الهند البريطانيين في عشرينيات القَرن العشرين: «نحن نفترق وأنتم تَحكُمون»[١٣٩]. وبعَكس المَقولَة ذاتها يمكن القَول عن الحُكَّام العرب في عَصر ما بَعدَ الإمبريالية والقومية: «أنتُم تَقسِمون ونحن نَحكُم»، وقد وجَدوا أنّ إحكامَ السَّيطَرة أسهَل ضِمن المَناطق التي رَسَمتْها الحدودُ الإمبريالية السابقة.

ربما نستطيع الآن رؤيةَ بعض سِمات الإمبريالية بعد مرور فترةٍ كافية. إحدى هذه السِّمات هي شَرُّها العام، ومِيراث الكراهية والانقسام الذي خَلَّفَتْه. لا شك بأن الإمبريالية لها جانِبها الشرير، فما الذي يمكن أن يكون أسوأ مِن حادِثة دنشواي في مصر سنة ١٩٠٦[١٤٠]؟ كانت قرية مسالِمة في دَلتا النيل، وهَديل الحَمام يُسمَعُ في أبراج الفلاحين، وطيورٌ أخرى تَطوفُ فوق الحقول... وفجأةً، يَمُرُّ ضباطٌ بريطانيون جاهلون، ويُطلِقون النار على الطيور. رياضةٌ ممتِعة! هرِعَ رجالُ القرية، صرخاتٌ ولَكماتٌ وضَربات بالبنادق والنبابيت... ضربةٌ قوية على جُمجُمَةٍ بريطانية، ويَسقطُ أفندي. يَحدُثُ القَبضُ والمحاكَمةُ وتَلقينُ دَرسٍ للفلاحين العَنيدين: شُنِقَ أربعة من رِجالِ القرية، وحُكِمَ بالسجن المؤبَّد مع الأشغال الشاقة على اثنَين، وحُكِم بأحكام سِجنٍ مختلفة أقلّ شدّة، وبالجَلدِ على آخَرين. كان رَدَّ فِعلٍ مُبالَغاً فيه، وشَرّاً لا يُمكِن إنكاره. ولكن الشَّرَّ يجب تقديرُهُ بالمُعاناة التي يُسَبِّبُها، وإذا كان البريطانيون في فلسطين أسوأ مِنَ البريطانيين في مصر، والفرنسيون في الجزائر أسوأ مِنْ كِليهِما، فكذلك المصريون في مصر هذه الأيام حيث يستطيعُ النظامُ الحاليّ حَبسَ شابّ مدةَ سنَتَين لارتِدائه قميصاً كُتِبَ عليه «لا للتعذيب»[١٤١]، ويستطيعُ الحُكمَ بالموت على مُعارِضيه الإسلاميين بالمئات.

---

(١٣٩) ورد في: John Keay, *India: A History* (London: Harper Collins, 2004), p. 464.

(١٤٠) Rogan, *The Arabs: A History*, pp. 180-181.

(١٤١) BBC Report, 25 January 2017.

كان صدّام حسين في العراق أكثر شراً بقَتلِهِ ٣٠٠٠ كردي عراقي على الأقل باستِخدام أسلحةٍ كيميائية في قرية حَلَبجَة بضَربةٍ واحِدة. وكذلك السوري بشار الأسد، إذ يُقالُ إنّ نحو ١٨,٠٠٠ قد ماتوا في سجون سورية خلال السنوات الخمس الأولى من الحرب الأهلية[١٤٢]، بينما تُعتَبر قواتُهُ المُسلَّحَة والميليشيات مسؤولةً عن القَتلِ العنيف لنحو ٩٢,٠٠٠ إلى ١٨٧,٠٠٠ مَدَنِيٍّ سوريٍّ في الفترة نفسها[١٤٣].

مازال الوالي الأموي الحجّاج بن يوسف حَيّاً وقَتّالاً وشريراً مثلما كان دائماً، بل ويُثيرُ الإعجابَ لدى بعض العرب فيقولون: «إنه قويّ!». ولكن منطقياً إنَّ حقيقة أنَّ الحجّاج وبشاراً الأسد هم عَرَبٌ يقتلون عَرَباً بينما القاضي الذي حَكَمَ بالإعدام في دنشواي كان بريطانياً يَقتُلُ عَرباً يجب ألا تَدخُلَ في حسابات الشَّر النسبي. ولكنها تَدخُل! حيثما تَغيبُ الحريات المَدَنية يَحلُّ الفَخرُ القومي مَحَلَّ غيابها في معظم الأحوال. وجروحُ الفَخر القومي التي ارتَكَبَها أجانب يُمكِن تَضخيمُ آلامِها أكبر بكثير من الموت الذي سَبَّبَتْهُ فعلياً.

ملوكٌ وانتهازيون

بعد نجاحات بريطانيا وفرنسا في تَدافعهما السابق نحو أفريقيا، بَرَزَتَا الآن رابِحَتَين في التَّدافُع نحو الشرق الأدنى. لا يَعني ذلك القضاء على القومية العربية، بل على العكس، فقد أدّى ذلك إلى تَنشيطِ الحَركة، فثارَت المظاهراتُ والاضطرابات في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين ضد المُحتلّين الإمبرياليين، وكانت عنيفةً أحياناً. في المغرب، حيث ادَّعَتْ إسبانيا حِمايتَها لمناطق من الساحل الشمالي والمناطق الصحراوية في الجنوب الغربي (التي سميت الصحراء الإسبانية)، قامَتْ حربٌ دموية في الفترة ١٩٢١ ـ ١٩٢٦ شَنَّها البربر في جبال الريف الشمالية ضد المُحتلّين الإسبان والفرنسيين معاً، ولكنها فَشِلَتْ في تحريكِ بقية السكان، وتم إخمادُها بتَحالفِ القوّتَين الأوروبيتَين. ولكن في شرق المتوسط، قامت ثورةٌ

(١٤٢) Amnesty International quoted in: BBC Report, August 2016.

(١٤٣) *Guardian*, 12/10/2016.

جَبَلية أخرى في جبل الدّروز السوري، وأصبحت نقطةَ اشتعالٍ أخرى، إذ انتَشرتْ ثورةٌ مسلّحة سنة ١٩٢٥ ضد الفرنسيين من هناك إلى مناطق أخرى من سورية، ولم تُقمَع إلا في سنة ١٩٢٧ عندما جُلِبَتْ قواتٌ فرنسية من جَبَهات المغرب التي هَدَأتْ حديثاً.

سَيتضِحُ أنّ فلسطين هي أكبر صُداع لبريطانيا كما سنَرى. كما أن العراق في ثلاثينيات القَرن العشرين، بَعدَ أنْ قُمِعتْ ثورةُ القبائل العنيفة ضد البريطانيين سنة ١٩٢٠، ظَلّتْ في حالة مواجَهَة معلّقة. طَرَحَتْ مصر صَدمات أحياناً، مثل اغتيال السير لي ستاك Lee Stack الحاكِم العامّ للسودان الإنكليزي ـ المصري سنة ١٩٢٤. غير أن مُعارَضة الاستعمار قد تَستخدِم مداهنة إضافة إلى السلاح. كان هنالك تعاونٌ نحو الاستقلال، ولو كانت هنالك خيوطُ ارتباط، إضافة إلى النضال. تَحقّقَ أفضَلُ تقدّم آنذاك في مصر، التي أصبَحتْ مَلَكيةً دستورية سنة ١٩٢٣، وتكاثرتْ فيها أحزابٌ سياسية كان أكبرها حزب الوَفد، ولكن أحزاباً أخرى صَنَعتْ توازنَ قوة. ولا بد من الاعتراف بأن المَلك والبريطانيين كان لَهم ثِقلهم أيضاً، إنما كان هنالك حوارٌ حقيقي وتعدّدية.

بَدت المناطق الناطقة بالعربية وكأنها متعدّدة في فترةِ ما بين الحَربَين، ولو ظَهرَت القوى الاستعمارية متشابِهة أحياناً، فقد عارَضَتْها وَفرةٌ من القوى المَحَلية التي أعادَتْ ترتيبَ نفسِها دائماً. ضاعَ المُتحمّسون لفكرة الوحدَة العربية الكبرى، التي كانت رؤيةً بسيطة ألهَمتْها اليقظة العربية، وتاهوا في غَمرة تعقيدات الصورة. كما أنَّ صُنعَ المُلوك وتَحطيمَهم الذي حَدَثَ بعد الحرب الكبرى ذَكَّرَ القوميين العرب بمشكلةٍ خالِدة: حتى لو تمكّنَ العربُ من تكوين نوعٍ من الوحدَة بينهم، فمَن الذي سَيتزعمها؟

كان الشريف حسين المُرشَّح القوي الوحيد للزعامة، ولكنه تَحرَّرَ من وَهم اللَّقبِ الإضافي الذي تَبنّاه «مَلك العرب»، وسرعان ما تَبنّى لَقباً أفضَل عندما نُزِعَت الخلافة من السلطان العثماني السابق عبد المجيد الثاني سنة ١٩٢٤، وزالت إمبراطوريته، ونُفِيَ من تركيا؛ قَفَزَ حسين إلى مَنصِب الخلافة الخالي. بَعدَ ألفِ سنة من الخليفة الراضي «آخِر خليفة حقيقي»[١٤٤]، لم يكن

(١٤٤) انظر: ص ٤٨٣ من هذا الكتاب.

واضحاً ما هو عَمَلُ الخليفة بالضبط فيما عَدا أنه يَدلُّ على نوع غامضٍ من السيادة الروحية على عالَم المسلمين، أو السّنِّيين منهم على الأقل. غير أنه لم يَعتَرِف أحدٌ بادّعاء الشريف[١٤٥]. ربما استطاعَ حسين تَجنُّبَ خَيبةِ الأمَل هذه لو أنه أصغَى لاعتِراضات المسلمين الهنود السابقة، وهم أكثرُ المسلمينَ عَدداً في العالَم آنذاك، عندما أُجبِرَ الخليفة ـ السلطان العثماني المهزوم على التّنازل لَه عن سيادَةٍ مكة سنة ١٩٢٠[١٤٦]. سَلّطَ رَدُّ فِعلِ الهنود الضوءَ على تغيّر لم يَلحَظهُ معظم العرب آنذاك. لم يكن حسين أي شخص عربي عادي، فقد كان قرشياً هاشمياً ومِن نَسل النبي. مَنَحَهُ نَسَبُهُ في نَظَرِ نفسِه وبِعَين بعض الآخرين أعلى درجة مِنَ النُّبلِ والشَّرف، وأقوى حَقّ في حُكم المدينة المُقدَّسة. غير أن الإسلام كان قد تجاوز ماضيه العربي، فمنذ أيام المماليك أصبحتْ مكة مَوقِعاً عالمياً، وسُرَّة العالَم فِعلاً بالنسبة إلى الغالبية العظمى من المسلمين. لم يكن الإسلام شركة عائلية خاصة، بل مؤسَّسة عالمية. وإنَّ إعادَة مكة إلى حُكم مَحَلي كان بمَثابة إعطاءِ الفاتيكان إلى بلدية روما. كان إعلانُ حسين إضافةً إلى ذلك الآن أحقِّيته بلَقب الخليفة فَخراً وتَبَجُّحاً مآلُهُ إلى السقوط حتماً. وبالفِعل، كان العدو في طريقه من الجَارَةِ نَجد.

أثارَتْ ترقيةُ حسين مِنْ أميرِ مكة إلى مَلك الحجاز حَسَداً في جميع أرجاء شبه الجزيرة. ففي سنة ١٩٢٠، قام جارُهُ الجنوبي وابنُ عمّه البعيد الشريف يحيى إمامُ اليمن بترقية إمامَته إلى مَملكة. في ذلك الوقت من سنة ١٩٢٤ عندما طالَبَ حسين بالخِلافة، دَفَعَ ذلك جاراً آخَر لدخول معركة الحصول على اللقب. لم يكن شريفاً مِن نَسلِ النبي، بل فَرد من عشيرة آل سعود زعماء هَضبة نَجد العابسة، وكان مُقاتلاً، طويلاً، خَشِنَ البُنية، اسمه عبد العزيز بن عبد الرحمن، المعروف عادةً باسم ابن سعود. أيَّدَتْهُ القبائلُ الوهّابية التي كانت مُتحالِفةً مع عشيرته منذ زمن طويل. قضَى محمد علي باشا على تَحالفهم قَبلَ قَرن، واستَعادوا حَيويتهم الآن بَعد انهيار العثمانيين وبفَضل جاذبية ابن سعود وميزاتِه الحربية سَيطَروا على نَجد، ثم توجَّهوا نحو الحجاز وحسين البائس. هَربَ الشريفُ إلى قبرص، بينما احتلَّ ابن سعود

---

(١٤٥) Atiyah, *The Arabs*, p. 133.

(١٤٦) Keay, *India: A History*, p. 479.

أرضَه، ولقبه مَلك الحجاز، واحتلَّ مزيداً من أراضي شبه الجزيرة العربية بعد سنوات قليلة. ولكن فيما عَدا سيطَرته على مُدُن الحجّ الحِجازية، فإن الأجزاء الأكثر فائدة من أرض العرب في اليمن وعُمان لم تكن في حَوزَتِه. كان ابن سعود مَلكاً على صحراء ومَصادر قليلة بلا أسماء. وعلى الرغم من أنه وَحَّدَ كثيراً من أجزاء شبه الجزيرة لأول مرة منذ فَجر الإسلام، إلا أنه فَعَلَ ذلك بعُنفٍ طائفيٍّ شديد، مما أدّى إلى إثارة عَداوة الهاشميين وكثير من مناطق عالَم العربية. ولذلك عندما أطلَقَ اسمَ عائلته «المملكة العربية السعودية» على أراضيه، ظَهَر ذلك تَصرُّفاً مُتكَبراً مُطلَقاً آخَر.

في هذه المرة، لم يَتبَع السقوطُ التَّبَجّح، بل تَبعَهُ النفط. مَنَحَ ابن سعود أول حقوق الاستكشاف لشركة ستاندرد أويل الكاليفورنية سنة ١٩٣٣ بعد أن شَجَّعَتْ على ذلك اكتشافاتٌ نفطية أخرى في مناطقَ حول الخليج. احتاج الأمر إلى خمس سنوات قَبلَ أن يكتشِفوا النفط بكمياتٍ تِجارية في الظَّهران على ساحل الخليج، ولم يَنظُروا بَعدَها إلى الوراء. سَيتضِحُ أنَّ عالَم ابن سعود الجَاف يحتوي على أكبر احتياطيات النفط في العالَم، وسرعان ما سيكون له طريقٌ مباشر نحو ما سَيصبِحُ أكبر سوقٍ للنفط من خلال شركات أمريكية تَزاحَمَتْ عليه.

كانت القوى الأوروبية القديمة العظمى التي تطورتْ نتيجةَ التجارة البحرية وطاقة الفَحم قد بدأتْ تَخسر طاقَتها واندفاعَها على الرغم من توسُّعها الأخير في شرق المتوسط. كانت عَصا الإمبريالية تَنتَقل في سباقِ تَتابُعِ الإمبراطوريات إلى قوة عالمية جديدة، إمبراطورية السّيارة التي ستَنطلِق بمُحرِّك الاحتراق الداخلي والاستهلاك الواضِح. سَتتمسكُ أمريكا بابن سعود على الرغم من نُفورِها المَعروف مِنَ المَلَكيات المُطلَقة لأنها اكتَشَفَتْ ما يوجَد تحت أرضِ مَملَكته. وبالعناقِ الغريب بين الحُكم المُطلَق الذي يُحرِّكُه البترول (ابن سعود) وأرضِ الأحرار (أمريكا)، بَدأ فَصلٌ جديد في العلاقة بين القبائل والإمبراطوريات. تراجَعَ النفوذُ البريطاني ـ الهندي في شبه الجزيرة لصالِح أمريكا، ولصالح عالَم الجيوب المُنتَفِخَة بريالاتِ البترول لشركة أرامكو، التَّحالف العملاق بعد الحرب العالمية الثانية. في سنة ١٩٣٩، كانت حِصَّةُ أمريكا من إنتاج النفط في الشرق الأوسط ١٣ بالمئة،

بينما بلغتْ حصةُ بريطانيا ٦٠ بالمئة. وفي سنة ١٩٥٤، بلغتْ حصةُ أمريكا ٦٥ بالمئة، وبريطانيا ٣٠ بالمئة[(١٤٧)]

كانت العلاقةُ الأمريكية ـ السعودية ومازالت علاقةً غريبة للغاية. تُبَيِّنُ شيئاً من طَبيعتِها صورةٌ فوتوغرافية في كِتاب رحلة ريتشارد هاليبورتون Richard Halliburton سنة ١٩٣٦ «رحلة الخطى العملاقة *Seven League Boots*». تحت عنوان «المَلك يَقف مع الكاتِب» تُظهِر الصورةُ ابن سعود بغِطاءِ رأسِهِ البدوي ومَعهُ رَجُلٌ أمريكي صفيق يرتدي بَدلَةً بيضاء أنيقَة وتبدو عليهما الراحَة في صُحبَتِهما وكأنهما كَوكَبُ زُحَل وكَوكَبُ عُطارِد البعيدان كثيراً عن بعضهما ولكنهما يَدوران مَعاً في النظام الشمسي نفسه.

جَلَبَ التَّقارُبُ معه مَزيجاً غريباً من التغير والسّكون في شبه الجزيرة، ففي غزوات العشرينيات كان غُزاة ابن سعود الوهّابيون آخَر نموذج مِنْ نَوعِهم يَستخدِمُ الدَّمجَ القديم الفعّال بين الجَمل والحصان[(١٤٨)]. وفي الثلاثينيات، تَدفَّقَ المالُ مع وعودِ النفط وجَلَبَ لهم سيارات الفورد يَسوقُها أمامَهم أصحابُ الامتياز في البلاط من أمثال جون فيلبي St John Philby. لقد دَخلَوا عالَم الآلات. قال أحَدُ المسؤولين: «انتَهى عَصر غَزو القبائل»[(١٤٩)]. ولكنّ ألفَي سَنة من عادَةِ الغزو لن تُمحَى بسهولة، واستمرّ الغَزو كمؤسَّسة وازدَهر بأشكالٍ أخرى. حَكَمَ آل سعود دائماً في شَبَكَتِهم الخاصة من التوترات بينهم وبين الأمريكان، وكذلك بين مُقاتِليهم القَبَليين. كانت العلاقةُ الأخيرة تشبه أحياناً العلاقة بين دولة محمد في المدينة ومُقاتليها الخَطِرين الضروريين من غُزاة البدو[(١٥٠)]. لم يكن هنالك شك في الخَطر الذي خَلَقَهُ المُقاتلون، ففي سنة ١٩٢١ نَهَبَ رجال القبائل الوهّابيون وقَتلوا قافلةَ حجّاجِ اليمن الرئيسية في طَريقِها إلى مكة[(١٥١)]. حاوَلَ ابن سعود إعادة تاريخ بداية الدولة

---

(١٤٧) Jan Morris, *Sultan in Oman* (London: Eland Books, 2000), p. 36.

(١٤٨) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 1, p. 885.

(١٤٩) Ibid., vol. 3, p. 1068.

(١٥٠) قارن: ص ٤٠ ـ ٤٢ و٢٥٦ ـ ٢٥٧ من هذا الكتاب.

(١٥١) حسين بن أحمد العرشي، **كتاب بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام** (القاهرة: مطبعة البرتيري، ١٩٣٩)، ص ٩٣. ويزعم هذا المصدر أن عدد القتلى بلغ ٣٠٠٠.

الإسلامية حينما نَمَتْ سُلطَتُه، وحاولَ جَمعَ وتَهدئة جُموحِ البدو من رجالِه بوضعِهم في جماعات أطلَقَ عليها اسم «الهجرات»[١٥٢] (وهي الكلمة ذاتها التي تدلُّ على هجرة محمد إلى حياة جديدة). ومثلما فَشِلَ الخلفاء الأوائل في دَمج القبائلِ وتَهدئة مجاهِديهم في الأمصار الجديدة، فكذلك فَشِلَ ابن سعود[١٥٣]. ظَلّت الروابطُ القَبَلية قويةً كما كانت، وفي سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ثارَتْ ضده مَجموعةٌ من أكثر الوهّابيين تطَرُّفاً من قبائل الوهّابيين، الإخوان، واضطُرَّ لقَمعِ ثورتهم بالدّم[١٥٤]. من وجهَة نظَر ابنِ سعود، كان بعضُ الأعراب يَتصَرفون كما وَصَفَهم القرآن: «**أَشَدُّ كُفراً ونِفاقاً**»[١٥٥].

أما بالنسبة إلى أعراب المملكة الجديدة بشكل عام، فربما تمت دَعوتهم في القَرن العشرين، مثلما طُلِبَ منهم في القَرن السابع، أن يتَخلّوا عن نمَطِ حياة الترحال، وانخفَضَ عدد البدو في المملكة العربية السعودية من ٤٠ بالمئة في الخمسينيات إلى أقلّ من ٥ بالمئة سنة ١٩٩٨[١٥٦]، ولكن لم يَتحولوا جميعاً إلى مواطنين برجوازيين صالِحين. استمرت روحُ الإخوان النَّزِقَة المتقلبة، وتم تَحويلها ما أمكَن إلى الحَرَس الوطني وإلى جمعيةِ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكر، إلا أنها حَرَّضَتْ أحياناً على مَظاهر جديدة للتطرّف، كان تنظيمُ القاعِدة أولها فقط.

خاضَ البريطانيون مَتاعبَ مماثِلَة مع رجال القبائل في الجنوبِ عندما قَرّروا أخيراً في الثلاثينيات عَمَلَ شيء للفوضى الدائمة في مناطق عَدَن النائية الواسعة. ربما كان الوضع في حَضرَمَوت مثل حكم طوائف متعددة إلى حد الجنون. أُرسِلَ هارولد إنغرامز Harold Ingrams للتعامل معها، وذَكَرَ أن هناك نحو ٢٠٠٠ «حكومة» منفَصِلة في المحافَظة، بعضُها ليس أكثر من قرية صغيرة أو عائلة واحدة؛ وادَّعَتْ كلُّ واحدةٍ منها عَدَمَ وَلائها لأية سُلطَة عُليا[١٥٧]. حاوَلَ إنغرامز العملَ مع وسطاء مَحَليين تقليديين (مِن نَسل

---

(١٥٢) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p. 361, and Atiyah, *The Arabs*, p. 133.

(١٥٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p. 361.

(١٥٤) Ibid., vol. 3, pp. 1067-1068.

(١٥٥) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ٩٧. قارن: ص ٤٠ و٢٥٧ ـ ٢٥٨ من هذا الكتاب.

(١٥٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 12, p. 465.

(١٥٧) Harold Ingrams, *Arabia and the Isles*, 3rd ed. (London: John Murray, 1966), p. 25.

محمد)، وتوصَّلَ إلى اتفاقيةِ سَلامٍ أوقَفَت القتالَ المُزمِن بين الجماعات الكبرى. إلا أنَّ رجالَ القبائل أثبَتوا أنهم أكثر العناصر شَغَباً، واستمروا في العَيش كرعاة وحَمَّالين وغُزاة، واضطر البريطانيون لقَصفِهم للتوقف عن وسيلتِهم الثالثة في المَعيشة (الغَزو).

كانت حالهم حال نظرائهم الشماليين من قبائل المملكة السعودية، فلم تكن هناك طريقة لكي يُغَيِّرَ البدو طَبائعهم إلى الحَضَر سريعاً حتى مع الحُكم البريطاني والقَصفِ البريطاني. تُفَسِّرُ مصطلحات بدو حَضرَمَوت لجيرانِهم غير القَبَليين شيئاً مِن سَبَبِ ذلك: الناسُ المستقرّون هم «مَساكين»، اشتِقاقاً مِن جَذر «سَكَنَ»، مِثل «حَضارة» اشتِقاقاً من جَذر «حَضَرَ» بمَعنى هَدَأ واستَقَرَّ، ولكن «مِسكين» تَعني أيضاً «غير محظوظ أو بائِس»، كما يُشارُ إليهم أحياناً بكلمة «حِرثان» مِنَ الجَذر «حَرَثَ» بمَعنى فَلَحَ الأرض وزَرَعَها، وهي تَعني أيضاً «عَمِلَ لتَحصيلِ قُوتِهِ». لا يَعملُ رجالُ القبائل لتَحصيلِ قُوتِهم[(١٥٨)]، على الأقل لا يعملون في الأرض، بل يقومون بالرّعي والنّقل والإغارة، ويَحتقِرون التّجارة بغَطرَسَةٍ مِثل أيّ نبيلٍ أرستقراطي أوروبي (في عهد الدولة الحديثة، ربما يَستَجِرُّ رجالُ القبائل رواتبَ كموظفين حكوميين، خاصة في الجيش أو الشرطة، ولكنهم لا يكترثون عادةً بالقيام بمهامّ عَمَلِهم. الحصولُ على الراتب دون القيام بأي عَمَلٍ هو نوعٌ من الإغارة أيضاً على خَزائن الحكومة). تَبديلُ قطار الجَمَلِ بسيارَةِ شَحنٍ كان مقبولاً بالنسبة إلى البدو في حَضرَمَوت وغيرها، ولكن أن تغيِّرَ سَيفكَ أو بُندقيتكَ إلى سِكَّةِ مِحراث كان لَعنةً بَغيضةً في جميع الأوقات، لأنه يَعني أن تتوقفَ عن كَونِكَ مُقاتِلاً شَريفاً يَحمِلُ السلاح. السلامُ والسَّلبية والسكون والهدوء والزراعة والفِلاحة وتدبير المَعيشة بِعَرَقِ الجَبين تَعني نهاية التاريخ بمَفهوم فوكوياما **Fukuyama**.

ومع ذلك، وعلى مَدى عقدَين من الزمن، ظَهَرَ كأن الماضي قد انتهى. قالَ أحَدُ المُراقبين المدعين معرفة الأمور عن بَدو حَضرَمَوت في فترة السلام الذي عَقَدَهُ البريطانيون: «لقد ماتوا»[(١٥٩)]. كان التَّصريحُ سابقاً لأوانِه، فقد كان الزمن في حالة توقُّف فقط.

---

(١٥٨) Abdalla S. Bujra, *The Politics of Stratification* (Oxford: Oxford University Press, 1971), passim.

(١٥٩) Abu Bakr ibn Shaykh al-Kaff. quoted in: Ingrams, Ibid., p. 36.

الشّرقُ المشوّش

بينما كان آخِر العثمانيين يَقضي آخِر أيامِه في مَنفاه الباريسي، ويُرتِّب مجموعةَ فراشاتِه، نَدِمَ كثير من العرب على نهاية القرون البطيئة البسيطة في ظِلِّ الباب العالي، وأصبَحوا الآن في الضَّوءِ السَّاطِع للقَرن العشرين. وكان الشرق الأوسط في نظر الغربيين يُصبِحُ الشرق المشوّش. كانت حربٌ عالميةٌ آليةٌ ثانية على الأبواب، وفي الجو إثارةٌ وخَوفٌ بشأن المستقبل. هل ستَنتَهي إمبراطوريات أخرى إلى حَتفِها؟ وإذا حَدَثَ ذلك، فهل سَتصِل الخِطابات المُتنافِسة عن الوحدَة العربية أخيراً إلى جَمع كَلِمَتِهم؟ كان هذا الاحتمالُ الأخير بعيداً. فقد كان عالَم الناطقين بالعربية مُنقَسِماً مثلما كان دائماً، وعلى مَدى العَقدَين الثالث والرابع من القَرن العشرين كانت خَريطَتُه الاجتماعية والسياسية المُعقَّدة قد دَخَلَتْ في دوامَةِ انحِدار:

... بخَليطٍ من المَلَكيات التي يَدعَمها أجانب، وتَدَخُّلاتٍ استعمارية لَطيفة حِيناً، مثلما حَصَل في حَضرمَوت حيث حَقَّقَ إنغرامز سَلاماً وهو لابس النعل العربي والإزار والأساور الفضية، وألقى سلاحُ الجو البريطاني إنذارات لَبِقَة قَبل أن يلقي بالقنابل. أو بتَدخُّلاتٍ استعمارية عَسكرية كما حَصَلَ في حرب موسوليني التي طالَتْ تسع سنوات لكي يَقتَطِعَ حِصَّتَهُ من الوطن العربي في ليبيا. أو أنَّ التَّدخُّل كان بوَضع قَدَم في فتحَةِ البابِ بإصرار مثلما حَدَثَ في التَّدَفُّق المُتزايد من المُهاجرين اليهودِ الأجانب في فلسطين؛

بالتَّجاور الغريب للمُقاتلين البدو المُتعصِّبين مع رجال النفط الأمريكان في الساحة السعودية، بصاحبات الفساتين الإنكليزيات ورجال القبائل المَصبوغِين بالنيل في عَدَن، براكِبي الجِمال مع الرَّحالة الإنكليزية ـ الإيطالية فريا ستارك Freya Stark الذين استَعاروا مرهم الوَجه منها لتَلميعِ خَناجِرِهم[١٦٠]؛

بابنِ سعود ضد الهاشميين، والهاشميين ضد بعضهم في بعض الأحيان، وكلِّ واحِدٍ ضد المَلك عبد الله الهاشمي في الأردن الذي اعتُبِرَ

---

(١٦٠) Freya Stark, *The Southern Gates of Arabia: A Journey in the Hadhramaut* (London: John Murray, 2003), p. ix.

ألعوبةً بيَدِ البريطانيين والصهاينة[١٦١] وهو يَضَعُ عَينَهُ على حُكمِ سورية الكبرى[١٦٢]؛

... والفرنسيون يَستخدِمون جنوداً من المَغرب ضد متمردين في المشرق[١٦٣]، والبربر يَضربونَهم في المغرب، والدّروز في المشرق، والبريطانيون في فلسطين يَضربُهُم العربُ واليهودُ في الوقت نفسه عندما اتَّجه مَنطِقُ وَعد بلفور إلى مواجَهةٍ حَتميةٍ على الأرض؛

وفي مصر حيث أصبَحَ الخديوي مَلِكاً بَعدَ العثمانيين في صورَةِ تاجِ عَميلٍ آخَر لبريطانيا، وحكومته المُعارِضة للحكومة البريطانية تَسيرُ نحو قوميّتها النيلية الخاصة، وقِيل على لِسان رئيسِ وزرائها سعد زغلول وقد فَقَدَ الأمَلَ بفكرَةِ وَطنٍ عربيٍّ موحَّد: «إنّ صفراً زائد صفرٍ يساوي صفراً»[١٦٤].

... بكلّ ذلك، كانت احتمالات الوحدَة العربية تَتناقَصُ أكثر مِن ذِي قَبل.

سارِق النار

إذا بَدَت الوحدَة السياسية حُلماً مُحطَّماً، فعَلى الأقلّ نَهضَت الأمّة الثقافية العربية في اليقظَة، ويبدو أنها استَفادتْ من نومِها الطويل الجميل، ورَبحتْ كتّاباً مُبدِعين جُدداً، وشعراء مَنَحوا الهوية العربية حياةً وتماسكاً. إلا أن انقِساماتٍ ظَهَرَتْ هنا أيضاً، كانت الشكوك الفكرية والثقافية تَشعُّ من مصر في مَركَز عالَم العربية، وكانت تُهدِّدُ بتَقويض القاعدة الثقافية للقومية بكاملها.

كان الباحِثُ المصري طه حسين أعمَى مثل المَعري، الشاعر السوريّ في القَرن الحادي عشر، ولكنه حَمَلَ كالمعري بَصيرَةً مُقلِقَة. دَرَسَ في فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى، وتَزوج من امرأة فرنسية، وآمَنَ بأن مصر يجب أن تَتزوج الحضارةَ الهيلينية الأوروبية، وأن تَنفتِح مثلما كانت عَبر التاريخ

(١٦١) Atiyah, *The Arabs*, pp. 135-136.

(١٦٢) Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*, p. 335

(١٦٣) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 202.

(١٦٤) ورد في: Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, p. 149.

لتأثيرِ جميع «المُتَحضّرين في الشرق والغرب»[١٦٥] [غير حرفي]. تَجاوبَ هذا مع ما آمَنَ به كثيرٌ من المفكّرين المصريين آنذاك، ولكن بينما أقَرَّ طه حسين بأن اللغة العربية «قد امتَزَجَتْ مع حياتِنا بطريقةٍ صَنعَتْ وشَكَّلَتْ شخصيتَها»[١٦٦] [غير حرفي]، إلا أنه لم يَتَهيَّب فَحصَ نصوصِها التأسيسية ونَقْدَها، ليس القرآن المُقدَّس، وإنما في عُمقِ وأُسسِ التراث العربي الإسلامي وغير الإسلامي، واللغة التي مَنَحَتْ صَوتاً للنهضة العربية بكاملها. اندَفَعَ كِتابُهُ «في الشِّعر الجاهلي» سنة ١٩٢٩ مباشرةً إلى صُلبِ مَوضوعِه:

«الكَثرَةُ المُطلَقة مما نُسَمِّيهِ أَدَباً جاهلياً ليست مِنَ الجاهلية في شيء، إنما هي مَنحولَةٌ بَعدَ ظُهورِ الإسلام»[١٦٧] [غير حرفي].

أظهَرَ بمناقشةٍ وحِوارٍ مُتراكِبٍ أنَّ الكَنزَ الذهبي من القصائد، والمقياس المِثالي للغة، والذُّخر القديم لمستقبل الأمة، مُعظَمه مَنحولٌ، وأنَّ رُواةَ الشِّعر القديم في أوائل الإسلام كانوا مُزَوِّرين على قدماء الشعراء. اعتَقَدَ بأنَّ ماضي العرب ومن ثَمَّ هويتهم، لم يتشكلا فحسب في العصر الأموي والعباسي، بل تم اختِراعهما وتَزويرهما في «مَصانع» شِعرهم[١٦٨]. توصَّلَ إلى هذا الاعتقاد بفحصِ الدليل في القصائد، داخلياً وخارجياً، وبما سمَّاه «الانفِصال الدِّيكارتِي» ـ بتَناسي قوميَّته ودِينه، وأنَّ هذا الانفِصال الدِّيكارتِي (الشَّك الدِّيكارتِي) كان «العلامَةَ المميزة للعَصر الحديث»[١٦٩]. كان حَديثاً. ولكن في ثقافةٍ تُشَكِّلُ فيها الكلمات مادَّةَ الفَنِّ الوحيدة، والقصائد هي النِّتاج الثقافي الأقصى، فإنَّ ما فَعَلَهُ طه حسين كان مِثلَ تحطيم كُنوزِ التماثيل الإغريقية بمطرَقَةٍ ضخمة. والأسوأ من ذلك هو أنّ المُثُلَ التي حَطَّمَها كانت رسومَ الأجداد وليست رُخاماً بارداً، بل لَحماً ودَماً تَنبَعِثُ فيها الحياةُ مع كل إنشَاد.

لا يهمّ إذا كان طه حسين مُحِقّاً أو لا، فلا شك بأن بعض الشِّعر

---

(١٦٥) ورد في: Hourani, *A History of the Arab Peoples*, p. 341.

(١٦٦) ورد في: المصدر نفسه، ص ٣٤١.

(١٦٧) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ٧٠ ـ ٧١.

(١٦٨) المصدر نفسه، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(١٦٩) المصدر نفسه، ص ٧٤ ـ ٧٥.

مَنحول، وربما كثيرٌ غيره قد أُعيد صقلُه وصياغته في عصر الإسلام. يَعتقِد كثيرٌ من النقاد بأنه كان مُخطِئاً في "تحديد "الكَثرة المُطلَقة» من الشِّعر الجاهلي. إلا أن الضَّررَ كان قد حَصَل. فقد طَرَحَ الكِتابُ أسئلةً مُقلِقة إضافة إلى شُكوكِه بشأن الشِّعر. على الرغم من أنه لم يُطَبِّق شَكَّهُ الدِّيكارتي مباشرةً على النصوص المُقدَّسة[١٧٠]، إلا أن طه حسين ناقَشَ عَدداً من القصص العزيزة التي تُوجَدُ بين سطور القرآن الكريم، مثل الروايات التقليدية عن قوم عاد، وانهيار سَدِّ مَأرب، وغيرها من قصص نَشأة العرب الغامضة[١٧١]. مُنِعَ كِتابُهُ بحجّة أنه هَدَّدَ النظامَ العام بطَرحِ أسئلةٍ حولَ القرآن والنبي. وفي سنة ١٩٢٧ طُلِبَ للمُثولِ في المَحكَمة بتُهمة الزَّندَقة. اتَّهمَه شيخُ الأزهر، أعلى سُلطَة دينية، باتّهامات عديدة كان بينها التَّقليلُ من شأن أجدادِ محمد، وهو أمرٌ «لم يَجرؤ عليه كافِرٌ ولا مُشرِكٌ من قَبل»[١٧٢] [غير حرفي]، وتَلميحُهُ إلى أنّ الدِّين العربي الأصلي لم يكن التوحيد الإبراهيمي[١٧٣]. اعتَمدَ جُزءٌ كبير من القضية على تاريخيةِ ودَورِ إبراهيم وابنه إسماعيل[١٧٤]، التاريخية التي كانت مهمّة جِداً في صياغة هوية عربية موحَّدَة منذ أيام الأمويين وما تَلاها[١٧٥]. ولكن «صياغَة» بأي مَعنى: «تَشكيل أم تَزوير؟».

كان لطه حسين نفسه عَقلانِ حَرفِياً، ففي جَلسَة المَحكَمة أكَّدَ على أنَّه:

كمسلم ليس لديه أي شكّ بوجودِ إبراهيم وإسماعيل، ولا بأي مادَّةٍ في القرآن تتعَلَّقُ بهما، ولكنه كان مضطَراً كباحثٍ إلى الالتزامَ بمناهجِ البَحثِ الأكاديمي، ومن ثَمَّ لا يمكنه قبول وجودِ إبراهيم وإسماعيل كحقيقةٍ أكاديميةٍ تاريخية[١٧٦]. [غير حرفي]

كان ذلك هو المأزق التقليدي بين الإيمان والعَقل، الحقيقة

---

(١٧٠) المصدر نفسه، ص ٧٩.
(١٧١) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ص ١٧١.
(١٧٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(١٧٤) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ص ٨٩ ـ ٩١.
(١٧٥) قارن: ص ٣٤٣ ـ ٣٤٧ من هذا الكتاب.
(١٧٦) حسين، المصدر نفسه، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

الإيديولوجية والحقيقة التجريبية. وهناك قَبعَ طه حسين في حُفرة ولكنه نَظَرَ إلى الأعلى بشَجاعة. ربما كانت المُحاكَمة مِثلَ «مُحاكَمة غاليليو» جاءَتْ متأخرةً في العالَم العربي ـ الإسلامي.

لم يكن المفكِّر الإسلامي الأول الذي يَقعُ في فَخِّ الازدواجية، ولكن معظمهم أشاحَ نَظَرَهُ بعيداً عن مأزقه، مثل السِّجستاني فيلسوف القَرن العاشر الذي قالَ ببساطة إن القرآن مَعفيٌّ من المنطق(١٧٧). واعترافُ الأعمَى طه حسين بتلك الرؤية التقليدية كان فِعلياً وجهَةَ نَظرٍ «حَديثة» عميقة التَّمرد، كما أنها عَمَّقَت النظَّر في غرفةٍ مظلِمة في قَلب العروبة. كَتَبَ محمد عابد الجابري، وهو باحِثٌ فَطِنٌ أكثر حَداثة: «تُشكِّلُ الازدواجية جَوهَرَ أنْ يكونَ المَرءُ عربياً من جميع النواحي»(١٧٨) [غير حرفي].

يجب أن يَحذَرَ المَرءُ من المُسلَّمات النفسية، ولكن هذا النوع من الازدواجية، والقُدرة على النظر إلى ظاهرة واحِدة من وجهات نظر مُتناقِضة في الوقت نفسه، ربما يتَّجِه نحو تفسيرِ عَددٍ من الحالات الشاذة الظاهرة: فمَثلاً، كيف تستطيعُ مجموعةٌ من الكلمات العربية أن تَدلَّ على مَعنى مُعَيّن وعَكْسه (جَون = أبيض أو أسود(١٧٩)، جلل = كبير أو صغير(١٨٠))؟ كيف تستطيعُ جَماعةٌ أن تُحِبَّ زعيماً بينما تُقِرُّ في الوقت نفسه أنه كان فاسِداً بشكلٍ صارخ، وأن تَصِفَهُ دون تَناقض بأنه «سارِقٌ وطَني» أو «سارِقٌ عادِل»(١٨١)؟ وبعيداً عن وجهات النظر، هناك الازدواجيات الكبيرة التي لا يمكن إنكارها: الشعوب/القبائل، مكة الروحانية/المدينة الدنيوية، الحج/الهجرة، الحرام/الحلال، اليد اليسرى القَذرة الشريرة/اليد اليمنى النظيفة البارِعة، الصُّوفيون الهادئون/الوهّابيون المحاربون، العرب/العَجَم، الفصحى/العامّية... جَدَليَّةٌ دائمة في المجتمع والدِّين واللغة، عالَمُها سلسلةٌ من الأضداد المتصارِعة، الفرضيةُ ونَقيضُها. تمكَّنَ بعض المفكِّرين العرب

---

(١٧٧) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٢٦١.

(١٧٨) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(١٧٩) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ٢ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٣٠٥.

(١٨٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٦.

(١٨١) انظر: ص ١٢٢ من هذا الكتاب.

من اصطياد موضوع المُسَلَّمات النفسية، كما تمكَّنَ أدونيس من اصطياد ازدواجياتٍ مُتناقِضَة انتَهتْ بمفردات: «الريف/المدينة، العرب/اليونان، العرب/الغرب، النُّبوَّة/التَّقَنيَّة» [غير حرفي]، وذَكَرَ أن كل هذه الأمور هي «ثنائياتٌ متناقِضة تَشلُّ حركة الإبداع»[١٨٢] [غير حرفي]، وكأن العربَ مَحصورون في مُفارَقةِ حِمار بوريدان Buridan الذي لم يتمكَّن من الاختيار بين مذوَدين أيهما يعتلف منه حتى مات من الجوع... ولم يُحاصَروا على صَخرة بين أسدَين فقط، بل عَلِقوا في إسطبلٍ واقفين بين المعلقين.

من السَّهلِ رؤية كل شيء باصطلاحات المَانَوية، إلا أنها رؤيةٌ تَبسيطِية. ربما كان محمد عابد الجابري مُحِقّاً عندما فكَّرَ بأن ازدواجيةً معينةً تَكمُنُ في جَوهَر مَوضوعِ هذا الكِتاب: مشكلة الوحدَة العربية. لاحَظَ في مَسألة ازدواجية «الوحدة/الانفصال» كيف أنَّه:

تَتنافسُ الخصوصياتُ المَحَلية مع الكليّة القومية الشاملة دون أنْ تَسعى الأجزاءُ أو الكلّ لمَسحِ أو لنفَي الآخَر. سيكون هذا التَّناقُضُ عَملاً يهزم الذات لأن وجودَ أحَد العَناصر يَعتمدُ ويَشترط وُجودَ الآخَر[١٨٣] [غير حرفي].

مِثلَ ازدواجية العرب القديمة في الحجّ والهجرة، فإن فِكرَةَ الوحدة العربية تَعملُ مثل مغناطيس جاذبٍ ومُثَقِّلَة طَارِدَة في الوقت نفسه، فهي تَجذب ولكنها تَطرد بالضرورة. يُسافِرُ الحَجيج أمَلاً بالوصول، ولكن تَجِبُ عليهم المُغادرة. لا تستطيع مكة الحاضِنة أن تَستوعِبَهم جميعاً إلى الأبد، وحتى المُهاجرون الوَرِعون يتَحوَّلون إلى جَماهير صَاخبة. الموحِّدون هم حُجَّاجٌ أبَدِيّونَ أيضاً يَملؤهُم الأمَلُ على الطريق، ولكنهم يَهربون دائماً من الجماهير نحو الواقعية والبيت.

كان القاضي في مُحاكَمة طه حسين عالِماً مُنفتحاً، ورُفِضَت القضية، إلا أن الكِتابَ عُوقِبَ. سُمِحَ بإعادَةِ تَحريرِه وطِباعتِه بَعدَ حَذفِ الصفحات المُخالِفة وتَهذيبِها. ظَلَّ السؤالُ الأكبر بشأن الازدواجية والثنائية والانفصال

---

(١٨٢) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(١٨٣) الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص ٥٢.

قائماً بشكلٍ فاضِح. مازالَ غاليليو ينتَظِرُ تَحريره. في الواقِع، رسالةُ طه حسين أكثر إزعاجاً هذه الأيام. كلما ابتَعَدَت الوحدَةُ السياسية، أصبَحتْ تلك القواعد الشِّعرية العتيقة أكثر تَطميناً للتَّماسُك الثقافي العربي. وكلما تَمزَّقَ الإسلامُ بين مُتَطَرِّفيهِ المُتَناقِضين، ازدادتْ أهميةُ جَوهَرِهِ الثابِتِ الوَطِيد في النبي والقرآن.

ولكن طه حسين أطلَقَ شَرارةَ أفكارٍ مازالت تَشتَعل. ذَكَرَهُ الشاعر نزار قباني بِوصفِهِ «سارِقَ النار» واشتاقَ لِعَودَته(١٨٤). هل سيتمّ العَفو عنه لو وُجد وحوكم اليوم؟

تَعدُّدية الوحدات

في فترة مُحاكَمة طه حسين، كان لورنس T.E. Lawrence، الذي كان من الدَّاعين إلى وحدَة المَشرق العربي، وقد تَوصَّلَ إلى إدراكِ ما ذُكِر سابقاً من أنّ «وحدَةَ العربِ... هي خَيالُ رجلٍ مَجنون»(١٨٥). وهو إدراكٌ يتوصَّلُ إليه معظم الرومانسيين لو عشنا فترةً كافيةً في العالَم العربي الحقيقي. لو تَحقَّقَت الوحدَة العربية فِعلياً فلَن تكونَ المُحَصِّلَة الصّفرية التي رآها المُتشائِم المصري سعد زغلول، ولن تكون بُنيَةً أنيقةً لثُنائيةٍ موحَّدَة، بل حسب نتائج مُحاولاتِ تَحقيقِها في ثلاثينيات وأربعينيات القَرن العشرين ربما ستكون وَحشاً مُتعدِّدَ الرؤوس، مثل هِيدرا ذات شَخصيات مُتعدِّدَة مُنفَصِلة.

منذ سنة ١٩٣٦ والمَلك عبد العزيز بن سعود يَدعو إلى اتِّحاد عربي فدرالي تحت زعامَتِه. وفي الوقت نفسه، كان مَلك الأردن عبد الله يَدعو إلى وحدَة مع سورية تَضمُّ في النهاية فلسطين والعراق تحت زعامَتِه، إلى أنْ اغتيلَ سنة ١٩٥١. ثم حاولَ رئيسُ وزراء العراق نوري السعيد إقناعَ البريطانيين للعَمل نحو اتِّحادٍ مع سورية وفلسطين والأردن، إنما برئاسَة العراق(١٨٦). كان متوقَّعاً أنَّ جميع هذه الأفكار لن تَصِلَ إلى شيء. وكان أكثر إثارةً للدَّهشَة هو أن مصر تَخلَّتْ عن عزلَتِها الفرعونية واقتَرحَتْ ما

---

(١٨٤) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٨٠٨.
(١٨٥) قارن: ص ١٧٢ ـ ١٧٣ من هذا الكتاب.
(١٨٦) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 8, p. 246.

أصبحَ جامعةَ الدول العربية سنة ١٩٤٥. كان الأعضاءُ المؤسِّسون هم مصر ذاتها مع الرُّباعي المُتردِّد: سورية والعراق والأردن وفلسطين، وكذلك لبنان والسعودية واليمن. والمُستغرَب أيضاً هو أن كل من شغل منصب السكرتير العام للجامعة العربية كان مصرياً ـ باستثناء الفترة ١٩٧٩ ـ ١٩٩٠، حين طُردت منها مصر بعد اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل(١٨٧).

لا حاجَةَ للقَول إنّ الأعضاء الآخرين لن يُوافِقوا على احتكارٍ مصري واقعي لو كانت الجامعة العربية أكثر مِن مَجمعٍ للخطابات بلا أسنان، ونادٍ يَجتمعُ فيه الأعضاء لكي «يَتَّفِقوا على أنْ يَختلِفوا»(١٨٨). غير أنهم اتَّفقوا في البداية على بعض الأهداف الخَجولة التي كانت كافيةً لإرضاءِ أكثر أصحاب السِّيادة خَوفاً:

لتَقوية الروابِط بين الدول الأعضاء، والتَّنسيق بين برَامجهم السياسية للتَّوصل إلى تَعاون حقيقي بينهم، والمُحافَظة على استقلالِهم وسيادَتهم، والتَّشاور بشكلٍ عام في القضايا العامّة ومَصالح الدول العربية(١٨٩) [غير حرفي].

تَوسَّعتْ جامعةُ الدول العربية وضَمّتْ الآن ٢٢ دولة. شَرطُ العضوية هو اعتبارُ اللغة العربية لغةً رسمية(١٩٠). جَمَعَ ذلك بين زملاء غرباء، مثل الصومال وجُزر القمر. أما بالنسبة إلى إجابة جامعة الدول العربية عن السؤال القديم: مَن هو العربي، أو: ما هو؟ فقد كانت: هو شخصٌ لغتُهُ العربية، ويَعيشُ في دولةٍ تَتحدَّثُ بالعربية (يبدو أن هذا يَستبعِدُ الصوماليين وأهل جُزر القمر)، «ويَتعاطَفُ مع آمالِ الشعوب الناطِقة بالعربية» [غير حرفي؟]. ولكن التعبير عمّا هي تلك الآمال، وكيفية التَّعاطف معها، ليس أمراً واضِحاً. مِثلَ فِيلِ الماموث الغَزير الشَّعر والفِيل الذي ليس له أنياب، أظهَرَت الجامعةُ علامات حيويةٍ قليلة، ووصِفتْ بأنها «جَنينٌ مَيّتٌ منذ ولادَتِه»(١٩١)، ومؤسسة من «مؤسسات الاستبداد المحتضر»(١٩٢). ولكن تقاريرَ مَوتِها، سواء قَبلَ

---

(١٨٧) Ibid., vol. 12, pp. 240-241.

(١٨٨) Ibid., vol. 13, p. 246.

(١٨٩) ورد في: Atiyah, *The Arabs*, p. 169.

(١٩٠) Samir Kassir, *Being Arab* (London: Verso Books, 2013), p. 68.

(١٩١) David Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1989), p. 223.

(١٩٢) المرزوقي، «أي لغة سيتكلم العرب بعد قرن من الآن؟»، الجزيرة.نت، مصدر ورد سابقاً.

ولادَتِها أو في المستقبل، ربما تكون مُبالَغاً فيها، وربما فَعَلَتْ مِنَ الفوائد أكثَر من الأذى.

وعلى كل حال، مِثل أفضَل السَّحَرة، كان في جُعبَةِ المصريين أمرٌ أكثر إثارَةً للدَّهشَة، فقد كانت مصر مَركَزاً لولادَةِ اليقظة العربية، ووِلِدَ فيها سارِقُ النار. ولكن في خمسينيات القَرن العشرين أخرَجَتْ فارسَ الأحلام الذي سَيشعِل أكبرَ عَجَلَة نارٍ عربية منذ محمد، لفترةِ عَقدٍ واحِدِ مُضيء.

الفصل الرابع عشر

عَصر الأمل
الناصرية والبَعثية والتَّحرر والنفط

العَرشُ الخالي

في صيف سنة ١٩٥٢، طافَ جَمَلٌ سَمينٌ مُدَلَّلٌ حول القاهرة، ورافَقَهُ حَرَسُ شَرَفٍ وفرقة موسيقية نحاسية، وارتفَعَ فوقَ سنامِهِ محمَلٌ مُنَمَّقٌ له سَقفٌ هَرَمي أغلَقَتْهُ أقمشةٌ مزخرَفة زُيِّنَتْ بتيجانٍ من الفضة اللمَّاعة[١]. كان المحمَلُ يشبه خَيمةً صغيرة رائعة، وكان فارغاً إنما غَنياً بالرّموز. كان رَمزاً للسِّيادة والحركة والحجّ، وأشارَت الكِتابةُ على أغطِيَتِه إلى قوةِ اللغة العربية وجَمالِها. كان تأثيرُهُ مِثلَ غُرفَةِ عَرشٍ صغيرة مُسافرة، وكان في أيام خَلَتْ يُسافِرُ إلى مكة ليَنقُلَ احترامَ حَاكم مصر لبَيتِ الله. حَجٌّ جالِسٌ قام به الكرسي نفسه.

كان المحمَلُ مَشحوناً بالتاريخ أيضاً، ربما بَدأ منذ عصر الأمويين، ولكنه أصبَحَ مؤسَّسةً منتظمَةً في القَرن الثالث عشر تحت حُكم مماليك مصر[٢]، وسرعان ما بَدأتْ مَناطق أخرى تُرسِلُ مَحامِلَها إلى مكة، مثل اليمن وسورية وتركيا العثمانية بَعدَ ذلك، وكلها تُقدِّمُ البَيعَة والاحترام للوحدَة التي تَرمزُ إليها المدينة العربية العتيقة، سُرَّةُ العالَم، ولكن كلاً منها يعبِّر عن استقلاله في الوقت نفسه. عادَ المَحمَلُ إلى الوطن بعد الحجّ مثلما تَفعلُ

(١) انظر الرسوم التوضيحية، في: Mounia Chekhab-Abudaya and Cécile Bresc, *Hajj: The Journey Through Art* (Milan: Skira, 2013), pp. 104-119.

(٢) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St. Martin's Press, 1970), pp. 135-136.

قوافل الحجّ الأخرى. كانت رحلَتُهُ إلى مكة والعودة منها تَشدُّها وتَدفَعُها قوى الشَّدّ والدَّفعِ التي جَمَعَت العالَم العربي وفَرَّقَتْهُ.

كانت رحلات المحمَل تَتعلَّقُ بالسياسة المَحَلية وبالحجّ. أمَرَ نابليون بصُنعِ محمَلِ حَجٍّ جديد وإرسالِه إلى مكة[3] أثناء دَورِهِ القصير كَكَافِرٍ مُدافِعٍ عن الدِّين. تحدث المؤرخ الجبرتي عن المَوكِبُ الفرنسي ـ المصري الذي تَحرَّكَ بالمحمَل مِنَ القاهرة قائلاً:

كانت هذه الرُّكبَة من أغرَب المَواكب وأعجَب العَجايب لما اشتَملَتْ عليه من اختلاف الأشكال وتَنوع المِثال، واجتِماع المِلَل وارتفاع السَّفَل، وكَثرة الحشرات وعَجايب المَخلوقات، واجتماع الأضداد ومُخالَفة الوَضع المُعتاد[4].

سرعان ما أعادَت التقاليد فَرضَ نفسِها بعد ذهاب الفرنسيين. كانت بعضُها غريبةً في حَدِّ ذاتِها، فقد كان يمشي وراءَ المحمَل عادةً رَجُلٌ مُسِنٌّ اسمه «شَيخُ الجَمَل»، وكان شَعرُهُ طويلاً، ولا يرتدي شيئاً سوى بنطال بيجاما:

كان يرَكبُ جَمَلاً ويَدور رأسُهُ دون انقِطاع. . . ويؤكِّدُ الكلّ على أنه كان يدير رأسَهُ طوال الرّحلة[5].

أحياناً، كان يَسيرُ وراءَ الرَّجُلِ جَمَلٌ آخَر عليه امرأة مُسِنَّة بملابس بسيطة اسمُها «أمّ القطط»، وقد اصطَحبَتْ معها ستّ قطط إلى مكة جيئة وذهاباً[6]. لا مكان لمِثلِ هذه الشخصيات المُلَوَّنة في مصر الحديثة في أواخر القَرن التاسع عشر. منذ سنة ١٨٨٤ سافَرَ المحمَل المصري بالقطار إلى مدينة السويس في عربتِه الخاصة، ثم على سفينة بُخارية في البحر الأحمر إلى

---

(٣) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٥) Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, with Introduction by Jason Thompson (Cairo: American University of Cairo, 2003), p. 440.

(٦) Ibid., p. 441.

جدّة، حيث يُرفَعُ على جَمَلٍ عربي تقليدي. ربما ساعَدَ هذا التأقلم على بَقاء المحمَل المصري. أما المحمَل اليمني فقد اختَفى في القَرن السابع عشر. وسيَسقطُ المحمَل التركي السوري ضَحيةً للحرب العظمى[٧]. إلا أن المحمَل المصري كان مَحكوماً بالزَّوال أيضاً، ففي سنة ١٩٢٦ رَجَمَهُ بالحِجارة الإخوان الوهّابيون التّابعون لابن سعود الذين أصبَحوا حُماةَ مكة الجُدد، وضَرَبوا رِجالَ المحمَل المصري واصطَدَموا بِحَرَسِه[٨]، لأن رجالَ القبائل التَّطهيريين اعتَبروه بِدعَةً على الرغم من أنه «اختُرِع» قَبل ٦٠٠ سنة، أو ربما ١٢٠٠ سنة. بَعدَ ذلك ولِفترةِ جِيلٍ واحِد، دَارَ مَوكِبُ المحمَل في القاهرة بكافة ألوانه دون أن يُغادِرَ إلى أي مكان.

إلا أن موكِبَهُ سنة ١٩٥٢ كان الأخير. ففي أواخِر ذلك الصيف، أطاحَتْ مجموعةٌ من ضباط الجيش بمَلِكِ مصر الذي كان يَدعَمُه البريطانيون. أُرسِلَ الماضي ورُموزه السنوية، بما فيها محمَلُ الحجّ، إلى مَخزَنِ التاريخ. ومنذ سنة ١٩٢٦، كان الجَمَل ومحمَله الفارغ يذكِّر بالحاضِر المُرّ. كان السَّفَرُ أسهَل بَعد أن استُبدِلَتْ قوافلُ الإبِلِ وحَلَّت مَحلَّها القطاراتُ والسفن البُخارية. كان من المَفروض أن يَتقارَبَ العالَم العربي مُقابل الإمبريالية ورَبيبَتِها الجديدة الصهيونية المُشاكِسَة. غير أنَّ آخِر رموز الارتِباط القديم المُتبَقِّية قد رَفَضَهُ سَادَةُ مكة الجُدد، ورَفَضَهُ الآن سادَةُ مصر الجُدد أيضاً، فقد كان بالنسبة إليهم نَقيضَ الابتِكار، مُفارَقَة تاريخية. كانت رَمزيَّةُ المحمَل الفارغ فارِغة في حَدِّ ذاتها، وأكثر فَراغاً من الخِطابات التي كانت رَمزاً جديداً لارتِباط العرب بالقاهرة: الجامعة العربية.

تقَعُ القاهرةُ بين جَناحَي عالَم العربية المغربي والمشرقي، إلا أنها لا تَتْبَعُ أياً منهما، ونأتْ بنفسِها أكثر هذه الأيام عن بقية الدول العربية. كانت الثورةُ تَتبعُ تياراً أطلَقَتْهُ دعايةُ نابليون عن التحرر، وازداد قوةً منذ ذلك الحين. كانت مصر تسير في طريقِها الوطني الخاص نحو مستقبل مجهول. وكانت القوميةُ مصريةً وليست عربيةً. ذَكَرَ كُلُّ مُراقِبٍ أنها حَصَلَتْ أخيراً على أول حُكّامِها المصريين الحقيقيين منذ الفَراعنة، لم يكن واضِحاً ما هو

(٧) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), vol. 6, pp. 44-46.

(٨) Ibid., vol. 3, p. 1067.

المَقصود بوَصفَ: «المصريين الحقيقيين» في أرض كانت دائماً مُلتَقى البشرية من ثلاث قارّات منذ آلاف السنين. من المؤكَّد أنها لا تَقصدُ أنَّ الضباط الثوريين كانوا أقباطاً (وقد اشتُقَّ اسمُ الأقباط من اسم البلد، فالقُبطيّ Copt هو «المصري 'Gypt'»)؛ بل بالأحرَى إنها تَقصدُ أنَّ الزعماء الجُدد لم يكونوا من القادِمين الجُدد نسبياً، أي المماليك والعثمانيين والألبان والبريطانيين، بل جاؤوا من العرب أو من المُستَوطِنين المُستَعرِبين مثل الثوري أحمد عرابي الذي جاءَ قَبل سبعين سنة. في هذه الأرض ذات التاريخ الطويل، فإن ١٣٠٠ سنة كانت كافيةً لجَعلِ الغزاةِ العرب مصريين مَحَليين.

بعد أربع سنوات من ثورة ١٩٥٢، سَيغيّرُ حُكّامُ مصر الجُدد مَسارهم ليؤكّدوا على عروبتِهم، وليَستعيدوا قيادةَ العرب في كل مكان. كانت العروبةُ شيئاً يُنسى ويُعادُ اكتِشافه، يُتَخلَّصُ منه ويُستَرجَع لكي يُجمَعَ ويُشَكَّل. كان أمراً يتحركُ في مَدٍّ وجَزرٍ حسب مراحل الأوقات ومزاجِها السياسي، وحانَ الآن وقتُ المَدِّ الرَّبيعي.

الخِنجَر في الخريطة

بالمُقارَنة، كانت العروبةُ والوحدة العربية قَبلَ أربع سنوات من ثورة ١٩٥٢ في أدنَى درجاتِهما على الإطلاق. كانت الصهيونيةُ قد لَوَّحَتْ بِعَصا الدِّين على الاستعمار... وسَحَرَتْهُ إلى قوميةٍ مَحَلية. حَدَثَ التَّحول على خلفيةٍ من أحدَاث مُتوقَّعَة وغير مُتوقَّعَة.

كانت استِحالةُ تنفيذِ وَعد بلفور من الأمور التي كانت مُتوقَّعَة، ففي الفترة بين الحَربَين العالميتَين أدَّتْ هجرةُ اليهود المُنفَلِتَة وشراء الأراضي في فلسطين إلى اشتِعالِ العُنفِ الطائفي[٩]، وكان من المتوقَّع أيضاً أنَّ الفلسطينيين ثاروا ضد سُلطَة الانتداب البريطاني، التي ارتكَبتْ بِدَورِها عقوبات جَماعية قاسية[١٠]. فما الذي حَدَثَ «للسيد اللطيف العادِل الطّفولي»[١١] للعالَم، كما وَصَفَ جورج سانتايانا George Santayana بريطانيا

(٩) Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Penguin, 2011), pp. 247-248.

(١٠) Ibid., pp. 256-257.

(١١) ورد في: Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: The Unknown Arabia*, revised ed. (New York: The Overlook Press, 2014), p. 172.

الإمبريالية قَبلَ عَقدٍ واحِد فقط؟ ثم جاءَ دَورُ اليهودِ بالثورة عندما حاوَلَ البريطانيون تَقييدَ دخول المُهاجرين. كانت الأكثر عُنفاً هي العصابتان الصهيونيتان المتطرفَتان إرغون Irgun وشتيرن Stern.

باستِخدام أساليبِ الإرهاب لتَحقيق أهدافٍ سياسية... أَرسَتْ هذه المجموعاتُ سابِقَةً خطيرةً في تاريخ الشرق الأوسط مازالت تؤذي المنطقة حتى هذه الأيام(١٢).

كان المَوقع الكلاسيكي للإرهاب هو فندق المَلك داوود في القُدس الذي فَجَّرَتْه عصابة الإرغون سنة ١٩٤٦ وقَتلَتْ نحو مئة(١٣). مازالت أصداءُ التفجير تَتردَّد عَبر العُقود مِنَ المدينة المُقدَّسة إلى بيروت إلى بغداد إلى مانهاتن. بينما تَطَوَّرَ الإسرائيليون في هذه الأثناء مِنْ زَرع القنابل أو رَميها إلى طَريقةِ القَصف الأكثر تَحضُّراً.

أما الأحداث الأخرى التي لم تكن متوقَّعَة، فقد سَهَّلَت الانتقالَ مِنْ مستوطَنةٍ صهيونية إلى دولة ـ أمّة إسرائيلية. ما لم يكن توقُّعُهُ ممكِناً إلا لِنَبيّ هو جَرائمُ المَحرَقة التي ارتَكَبَها النازيون على يهودِ أوروبا. ربما أَدّتْ فَظاعَة المَحرَقة إلى صَمتِ وتَعامي العالَم بعد الحرب، وإلى عدم ملاحَظَتِه مُعاناة الشعب الفلسطيني. أما العرب فقد كانوا واعين لها جِداً، ولكن تَصَورهم لفلسطين كان مُنحَرِفاً بدرجاتٍ مختلفة حَسبَ مَصالِحهم الذاتية. وعندما حَدَثَت المواجَهة سنة ١٩٤٨ بين الصهاينة وجيرانهم مصر والأردن وسورية ولبنان والعراق، كان العربُ منقَسمين لدرجةٍ مميتة. تَحقَّقتْ أوضَحُ وحدَة بينهم عندما اجتَمعَ أربعةٌ منهم لمَنعِ مَلك الأردن الهاشمي عبد الله مِن تَوسيع مَملَكَتِه بأخذِه مناطق عربية فلسطينية. كانت مخاوفهم حقيقيةً، فقد اتَّصَلَ عبد الله مع الصهاينة وحاولَ الحصولَ على ضمانات لتَنفيذِ ذلك(١٤). وكما سَجَّلَها أحَدُ المراقبين المُعاصِرين، «فيما عدا تلك المحاوَلَة المُشتَرَكة لوَقفِ طُموحات عبد الله، كانت حَملَةُ «الدول العربية» مَشلولَةً بسبب غياب الوحدَة... وعدم الثِّقة المتبادلة»(١٥). كان عدم الثِّقة هو «الشيء الزائف

---

(١٢) Rogan, Ibid., p. 318.
(١٣) Ibid., pp. 314-315.
(١٤) Ibid., pp. 332-333.
(١٥) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), p. 180.

المُتعفِّن»[16] في صفوف العرب، وكان عَيباً مأسوياً «للخَمسَة ضِدَّ صهيون» مِثل تراجيديا اسخليوس «سَبعة ضد طِيبة». وكان ذلك مُدَمِّراً لتلك الصفوف المُتفرِّقَة مثلما حَدَثَ عندما ظَهَرَ الصليبيون لأول مرة في شرق المتوسط، «اختلف السلاطين... فتمكن الفرنج من البلاد»[17].

أدّى انتِصار إسرائيل إلى هجرات عربية كبيرة شَمَلَتْ هجرةَ عشرات الآلاف من اليهود العرب إلى فلسطين، ولكن الهجرات المُعاكِسة من الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين كانت هَرَباً وطَرْداً. كان إسماعيل وهاجَر في المَنفى مرة أخرى، إنما على نطاقٍ واسِع. بَعدَ حَرب سنة ١٩٤٨، كان هنالك ٧٥٠,٠٠٠ لاجئ فلسطيني[18] في الأراضي المُجاوِرة وما وراءها. حَلَّ الفلسطينيُّ المُتجَول الحديث الحقيقي مَحلَّ شخصيةِ اليهودي المُتجَول الأسطورية في القرون الوسطى.

مازالت نَكبةُ ١٩٤٨ حَيَّةً كتاريخ مُتحرِّك، وستَستمر كذلك مادام الفلسطينيون مُبعَدونَ عن وطنهم. وكما اعتَرفَ المحامي الفلسطيني رجاء شحادة:

سَنظل مَذهولين نُفكِّرُ كيف حَدَثَتْ؟ ولماذا؟ وكيف يُمكِن تفسيرُها وفَهمُها؟ ولا يمكننا أن نكتَفي منها[19]. هل هي مِثل المَحرَقة بالنسبة إلى اليهود الذين تأثَّروا بها؟

إذا شَملنا أولئك الذين تأثَّروا بشكلٍ غير مباشر، فسيكون هنالك قِلَّةٌ من اليهود الذين لم يتأثَّروا بالمحرقَة حتى بَعدَ سبعين سنة. وبالمِثل، ليس هنالك سوى قلَّة من العرب الذين لم يتأثَّروا بالألم الذي حَلَّ بالفلسطينيين. أصبحَتْ دولةُ إسرائيل مثل جُرحٍ في شمال شبه القارّة العربية، تشبه على الخريطة شَكلَ خِنجَرٍ عَتيقٍ يَقَعُ مِقبَضُه على طول ساحل المتوسط، وتَطعَنُ ذُؤابتُهُ رأسَ البحر الأحمر، ويَشُقُّ نَصلُهُ حَدّاً بين مصر وشرق المتوسط. كان

---

(١٦) Ibid., p. 185;

قارن: ص ١٦ من هذا الكتاب.

(١٧) Ibn al-Athir quoted in: Efraim Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, 2nd ed. (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007), p. 77.

قارن: ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ من هذا الكتاب.

(١٨) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 338.

(١٩) Raja Shehadeh, *Occupation Diaries* (London: Profile Books, 2012), p. 74.

الجُرحُ صغيراً ولكنه عَميق، ولَم يَلتئم أبداً، وسيَظلُّ الألمُ مستمراً ما دام جُرحاً مَفتوحاً.

احذر الأمريكان الذين يَحمِلون هَدايا

بعد الحرب العالمية الثانية، لَحِقَت الإمبراطوريات القديمة بمَسيرة نينوى وصُور. سَلَّمَ البريطانيون الهند التي انقَطَعَتْ دَموياً إلى جُزأين، وابتَعدوا بأنفسِهم الآن عن فوضى فلسطين المُقسَّمة. في مناطق أخرى من الوطن العربي، مَنَحَ البريطانيون العراقَ استقلالاً رسمياً سنة ١٩٣٠، إلا أن بريطانيا احتَفَظَتْ بسيطَرة فعَّالة على السياسة الخارجية للدولة بفضلِ تَرويضٍ مَعقول لِمَلِكِها الهاشمي، كما احتَفَظَتْ ببعض القواعد الجوية المفيدة[٢٠]. انسَحبَ الفرنسيون في تلك الأثناء من سورية ولبنان في نهاية ١٩٤٥ إلا أنهم تمسَّكوا بمُستعمراتهم في شمال أفريقيا.

أما في مصر، حيث حَكَمَ المَلك فاروق، فقد انسَحَبَت القواتُ البريطانية بعد سنة ١٩٤٥ إنما بَقِيَتْ في منطقة القناة حيث مارَسَتْ بريطانيا وجوداً عسكرياً قوياً. أثارَ هذا الوجودُ المستمر حَفيظَةَ وغَضَبَ كثيرين في الجيش المصري، خاصةً بين ضباط الرُّتَب المتوسطة المُجَنَّدَة من رجالِ صِغارِ مُلاكِ الأراضي الذين شَعروا بوَلاء لأرضِ مصر لم تَشعر به بالضرورة الطبقات الحَضَرية العليا. أثارَتْ كارِثةُ حَرب ١٩٤٨ غَضبَ الضباطِ بشكلٍ خاص بسبب ضَعف وفَساد المَلك وحزب الوَفد الحاكِم[٢١]. كان الاستياءُ يتزايد أيضاً بين فقراء المُدُن، وفي كانون الثاني/يناير ١٩٥٢ انفَجَرتْ اضطراباتٌ هوجِمَ فيها بريطانيون وأجانب آخرون في القاهرة وأُحرِقَتْ مُمتلكاتهم. استُدعِيَ الجيشُ للسيطَرة على الفوضى، وفَعلوا ذلك بسرعة وكَفاءة، مما رَفَعَ الثِّقة بالنَّفس بين الضباط المُعارِضين للنظام، فقد كان تحت إمرَتِهم وسيلةٌ فعّالة للعَمل السياسي وللحُكم. وفي لَيلِ ٢٢ ـ ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢ تَحركَ مَن يُسمون أنفسَهم الضباط الأحرار نحو قصر المَلك. خُلِعَ المَلك فاروق، ونُفِيَ على سفينة المَحروسة المَلَكية، وهي السفينةُ التي قادَت

---

(٢٠) Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, with afterword by Malise Ruthven (London: Faber and Faber, 2002), p. 329.

(٢١) Atiyah, *The Arabs*, p. 190.

الطريق في قناة السويس الجديدة قَبلَ سبعين عاماً. نُصِّبَ ابنُ المَلكِ الرَّضيع على العرش غيابياً في نوعٍ من محاولة تهدئة المُعارَضة على الانقلاب، وعُيِّنَ أكبرُ أعضاءِ مجموعة الضّباط اللواء محمد نجيب رئيساً لوزرائه. تم التَّخلّي عن الرواية المَلَكية بَعد سَنة واحدة، وأصبَحتْ مصر جمهوريةً برئاسة محمد نجيب. وعلى طَريقةِ ألف ليلة وليلة، ضَمَّت الروايةُ تَخَيُّلاً آخَر، فقد كانت هنالك قوةٌ أخرى وراءَ عَرش الجمهورية تبتَسِم خَلفَ أكتافِ اللّواء.

كما كان هنالك جِيلٌ آخَر من الإمبراطوريات العالمية في طَورِ النّشوء، ولم يَطل الأمر كثيراً قبل أنْ يَصِلَ وَفدٌ مِنْ إحداها. في أيار/ مايو ١٩٥٣، وَصَلَ وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية جون فوستر دالاس John Foster Dulles إلى القاهرة حامِلاً هديةً من الجنرال أيزنهاور إلى اللواء نجيب كانت مُسَدَّساً مَطليّاً بالنيكل مُحفوراً عليه نَقشُ الإهداء(٢٢). حَمَلَت الهديةُ مَعنى مُعيَّناً، لأنَّ إهداءَ مُسَدَّسٍ أمريكي في الحرب الباردة لا يمكن أن يكون مَحشواً سوى بالمَعنى المزدَوج: دَافِع عن المصالح الأمريكية، أو قُمْ بالفِعل النَّبيل (الانتِحار). ولكن عندما ذَهَبَ دالاس لمُقابلة الكولونيل جمال عبد الناصر، المُحرِّك الرئيسي للثورة والقوة الحقيقية في البلاد، لم يكن هنالك أية مَعانٍ مَخفية، فقد طَلَبَ ناصر أسلحةً أكبَر ودبابات وطائرات. أخبَرَهُ دالاس أنّ أمريكا ستكون مَسرورَةً بتَقديمِها إذا انضَمَّتْ مصر إلى حِلفٍ دفاعي مع أمريكا وبريطانيا ضد الاتحاد السوفياتي، ووافَقَتْ على ضَمانِ الوجودِ البريطاني في منطقة قناة السويس(٢٣). كان ذلك بمَثابة انتِحار سياسي بالنسبة إلى ناصر والثورة. رَفَضَ الصَّفقةَ بشكلٍ مُطلَق. وبدلاً من ذلك، اتَّجهَتْ مصر إلى الكتلة الشرقية، وحَصَلتْ على أسلِحتِها من السوفيات دون شروط. رَدَّ الأمريكان بتقديم تمويلٍ لبناء السَّد العالي في أسوان الذي كان أحَد مشاريع الثورة الطَّموحَة العاليةِ التكاليف، وذلك لتأمين مياه الرّي في مصر وتوليد الكهرباء للصناعة. ولكن، كان هنالك شَرطٌ آخَر: توقَّفوا عن شراء الأسلِحة السوفياتية(٢٤).

---

(٢٢) George Lyttelton and Rupert Hart-Davis, *The Lyttelton Hart-Davis Letters 1955-62: A Selection* (London: John Murray, 2001), p. 18.

(٢٣) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 364.

(٢٤) Ibid., p. 376.

ربما بدأت القوى الأوروبية القديمة بالانحناء قليلاً والانسحاب المُتردِّد من المنطقة، إلا أن مصر وجيرانها العرب كانوا على صَخرتهم ذاتِها، ودَخلَت إمبراطورياتٌ جديدة في لُعبَة القوة القديمة، تَدعَم وتُعارِض، تُقدِّم القُروض والأسلحة ثم تَسحبُها بعيداً. ما هو الأفضَل، العَمالة لأمريكا أم لُعبَة لروسيا؟ الاختيارُ بين الكتلتَين الشرقية والغربية كان دائماً مُقامَرة، لُعبَةُ روليت روسية بمُسَدَّسٍ أمريكي.

أدركَ الشاعر العربي الأكثر صَراحة في هذا العَصر أنَّ الأمورَ ستستمر على هذا المنوال ما دُمْنا:

هُزِمنا... وما زلنا شتاتَ قَبائِل　　تَعيشُ على الحِقدِ الدَّفينِ وتَثأرُ
يُحاصِرنا كالمَوتِ ألفُ خَليفَة　　ففي الشرقِ هولاكو... وفي الغربِ قَيصَر[(25)]

إنها صورةٌ شعريةٌ لسيمفونيةِ التاريخ، تُسَمّي المُصارِعَين في الحرب الباردة للقَرن العشرين بأسماءِ مَغولية من القَرن الثالث عشر، ورومانية من القَرن الأول قَبلَ الميلاد. ولكن هذه هي المسألة. ربما كان الزمن ساعة رملية، إلا أنه آلةٌ موسيقيةٌ أيضاً تَعزفُ تَنويعاتٍ على ألحان قديمة جِداً.

سِتارةٌ من الموسلين

هذه السطور المقتَبسَة من نزار قباني تأتي من قصيدة في عيد ميلاد عبد الناصر سنة ١٩٧١. كانت القصيدة مَرثيةً وليست احتفالاً لأنَّ «فارسَ أحلام» الشاعر كان قد توفي آنذاك. اغتَالتْ خَيبةُ الأمَلِ الأحلامَ والرَّجُلَ قَبلَ أنْ يَصِلَ إلى عَظَمَتِه الكُبرى. ولكن أتباعَ القائد المُتوفَّى يَعتَقدون بأنه في حالَةِ غِيابٍ مُعجِز، مثل إمامٍ غائبٍ عَلمانيّ، ويبدو أنّ شيئاً منه مازال حَيّاً بَعدَ تَحلُّل جَسَدِه؛ هل كانت الابتِسامَة؟ (كان وَجهُ عبد الناصر المُبتَسِم على الصفحة الأولى باكورَةَ ذكرياتي عن تاريخ العرب).

كانت ابتسامةَ قِطٍّ خَياليّ مِن رواية **أليس في بلادِ العَجائب**، أو ابتسامَةَ نَجمٍ مُحَبَّب. خَطَّطَ عبد الناصر وقادَ انقلابَ سنة ١٩٥٢، ولم يَستطع إلا أن

(٢٥) نزار قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ٣ ج، ط ١٦ (بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧)، ص ٧٨٢. قارن: ص ٥٧١ من هذا الكتاب.

يَكونَ الذَّكَرَ الأول. عندما بَلَغَ السادسة والثلاثين من عُمرِه أطاحَ باللواء نجيب مِن مَنصِبِه، ووضَعَهُ في الإقامَةِ الجَبرية، واستَلَمَ الرئاسةَ بنفسِه في آذار/مارس ١٩٥٤. لم تكن تلك سوى البداية. ليس واضِحاً متى بَدأ عبد الناصر يَرى نفسَه قائداً، ليس فقط لمصر بل للعالَم العربي كلّه. يُقالُ إنه قَبلَ سَنة ١٩٥٤ «لم يَتحدَّثْ عن نفسِه أبداً بأيةِ صِفَةٍ أخرى غير أنه مصري»[٢٦]، ولكن ربما كانت فكرةُ دَورٍ أكبَر موجودةً منذ البداية، لأنه ذَكَرَ في لِقاءٍ إذاعيّ بَعدَ ثلاثة أشهر فقط من استيلائه على السُّلطَة أنّ «هدف حكومةِ الثورة هو أن يُصبِحَ العربُ أمّةً واحِدةً يَعملُ جميعُ أبنائها في سبيل الصَّالحِ العامّ»[٢٧] [غير حرفي]. إلا أنه كان مَشغولاً جِداً بمصر في ذلك الوقت، ولم يَتمكَّن من السَّعي نحو الهَدَف الأكبر، كان مَشغولاً باستِخدام شَعبيَّتِه لنَزعِ سِلاح شَعبِه (لأنهم أحبُّوا أبُوَّةَ اللواء نجيب)، وتَسليح نفسِه ضد الإسرائيليين، والبحثِ عن تمويلِ السَّد العالي، وتَنظيفِ إسطَبلِ الفَساد في القاهرة[٢٨]. كانت السويس هي التي غَيَّرتْ كل شيء، ومَنحتْ عبد الناصر جُمهوراً عالَمياً، وألهَمتْهُ جَمْعَ كلمة العرب في كلِّ مكان.

في تموز/يوليو ١٩٥٦، نَفَّذَ الأمريكان تَهديدَهم وسَحَبوا عَرضَ تَمويلِ سَدِّ أسوان. بَعدَ ذلك بأسبوع واحِد أمَّمَ عبد الناصر شركةَ قناة السويس لاستِخدام ريعِها في تَعويضِ النَّقصِ الذي بلَغ ٢٠٠ مليون دولار في تمويل السَّد. وعندها اجتَمَعَتْ بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وعَقَدوا صَفقةً سرّية كانت نَتيجَتها تَقدُّم الإسرائيليين نحو القناة في تشرين الأول/أكتوبر. وكما هو مُتوقَّع، تَقدَّمَت القواتُ المصرية إلى منطقة القناة لمُواجَهتِهم. وهنا قامَتْ بريطانيا وفرنسا بصِفَتِهما مالِكَتَين شريكَتَين في شَركة القناة، وحَذَّرتا كلا الطَّرَفَين بضَرورة الانسِحاب. وكما قَدَّرَت الخطّة، فقد تَمسَّكتْ مصر بمَواقِعها، وفي تلك اللحظة أرسَلتْ بريطانيا وفرنسا قواتِها التي هاجَمتْ واحتَلتْ أجزاء من منطقة القناة في خطّةٍ مكيافيللية حتى ذلك الوقت. كان كلّ ذلك مِثلَ ذكرياتٍ خافِتة لِما حَدَثَ في العملية الناجِحة سنة ١٨٨٢ عندما

---

(٢٦) Joel Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity* (London: Allen and Unwin, 1969), p. 351

(٢٧) ورد في: Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, p. 155.

(٢٨) Atiyah, *The Arabs*, p. 193.

قامَتْ قوةٌ بحريّة بريطانية فرنسية مُشترَكَة بالنزول على مصر خلال ثورة عرابي وانتهى الأمر بأخذ بريطانيا للبلاد[٢٩] غيرَ أنّ ذلك حَدَثَ عندما كانَتا القوى العظمى، أما الآن بعد سَبعين سنة، حَدَثَ طارئٌ هو أنَّ خطَّتَهم، التي شَمِلَتْ تأليفاً بين إمبريالية السفن الحربية ومغامرة البنادق وسرقة العصابات، قد تَجاهَلَتْ احتمالَ أنَّ القوى العظمى الجديدة ربما لَن تُوافِق على تَدخّل أسلافِها في الشرق الأوسط. أما بالنسبة إلى المنطقة، فقد كان العربُ دائماً في الوَسَط، وكانوا دائماً وسَطاء، مثلما كانت الأحوال عندما توسَّطوا بين دائرتَي تجارة العالَم القديم، البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي. والآن في خمسينيات القَرن العشرين، لم تَكن أرضُ العرب أقلّ تَوسُّطاً، ولا أقلّ حَساسية، خاصة بسبب عدم وجود سِتارَةٍ حديدية تَفصِلُ بينهم، ولم يوجَدْ سوى حِجاب شَفّاف أو سِتارة مُتحرِّكَة مِنَ المُوسلِين بين الجناحَين الشرقي والغربي من عالَم الحَرب الباردة. وهكذا دَخلَت القوى العظمى في العِراك. هَدَّدَ الاتحادُ السوفياتي بالتَّدخل عسكرياً مع الطَّرَف المصري، وهَدَّدَت الولايات المتحدة الأمريكية ببَيعِ سَنَداتِ العُملَةِ البريطانية التي لديها وتدميرِ الاقتصاد البريطاني بهبوطٍ شديد في قِيمة الجُنيه الإسترليني. تم التَّخلّي عن مغامرة السويس، وانسَحَبَ الكَلبُ البريطاني وذَيلُهُ بَينَ ساقَيه، وصاحَ الدِّيكُ الفرنسي صَيحتَه الأخيرة، وظَلَّ الإسرائيليون يُقاتِلون يوماً آخَر، ولكنهم كانوا مُضطَّرين لأنَّهم وضَعوا أنفسَهم في وَسَطِ الوَسَط.

كانت كارثةً بالنسبة إلى فرنسا وبريطانيا. سَقَطَ رئيسُ وزراء بريطانيا، وتأرجَحَ نَظيرُهُ الفرنسي، وانهارَت المَعنويات القومية. وأدَّتْ تصرفاتهما المَحكومَة بالفَشل إلى رَدِّ فِعلٍ آخَر هو رَدُّ الفِعل العربي التقليدي القديم بالاتِّحاد في مواجَهة الضَّغط. جَمَعَتْ قناةُ السويس بين البحرين الأبيض والأحمر، وجَمَعَتْ أزمَةُ السويس بين العرب من الأطلسي إلى الخليج.

نَشوَةُ الجِماع والترانزيستور

إذا كانت السويس حَشرَجَةَ الموت للقوّتَين المَريضَتَين، فقد حَرَّكَتْ عند العرب ارتِعاشَة مفاجأة امتَزَجَتْ بما يسميه العرب «الشَّماتَة». وَضَعَها شاهِدُ

(٢٩) Rogan, *The Arabs: A History*, pp. 159-160.

عَيان بريطاني هو الصحفي ديفيد هولدن David Holden بعبارةٍ أكثرَ وضوحاً: «سَرَتْ إثارَةُ آخِرِ نَصرٍ عربي مِثلَ نَشوَةِ جِماعٍ في شوارع عَدَن»(٣٠)، وكان عبد الناصر وراءَ هذه النَّشوة. على الرغم من أن ضَغطَ القوة العظمى في الواقِع هو الذي قَهَرَ المُعتَدِين في السويس، إلا أنه حَوَّلَ الهزيمةَ إلى نَصرِهِ الشَّخصيّ(٣١). كان ضابطاً مُتَمَرِّساً ألهَمَ وقادَ انقلاباً، وكانت لديه طَريقَتُهُ الخاصة بالتعامل مع الكلمات، وارتدَى الآن بنفسِه عباءَةَ خِطابٍ تقليدي قديم. قادَ العربَ القدماءَ كَهَنَةٌ وشعراء وأنبياء جذّابون، وحَصَلوا الآن على رئيسٍ مصري جَذّابٍ استطاع أن يَخلقَ بِخِطاباتِه المُلتَوية حَولَ أزمَة السويس عَصبيةً قوية جديدة، عَجَلَةَ نارٍ أكبر بكثير من مصر، وكان يفعلُ ذلك بمُساعَدة عُنصرٍ آخَر: الهواء.

هَيّأت الطباعة المَجالَ لِوحدَةٍ عربية جديدة، ولكنها كانت مُرتَبِطَةً بالأرض ويمكن احتِواؤها. وضَعَ الفرنسيون مَنعاً صارِماً على الصحف والمجلات المصرية في مستعمراتهم بشمال أفريقيا لما احتَوَتْهُ مِنْ صورٍ خطيرة مُثيرَةٍ لجُنودِ عبد الناصر وهم:

يُعلِّمون الطلابَ طريقة رَمي القنابل اليدوية... ويَسيرون في شوارع القاهرة الفَخمة بملابِسِهم العسكرية. ظَهَرَ الجميعُ سُعداء وأصِحّاء، وكانت النساء والفتيات يُحيينَهم من نوافِذِ البيوت(٣٢).

ولكنكَ لا تستطيع مَنعَ الأوكسجين في أمواج الهواء. عندما أصبَحَ عبد الناصر رئيساً، تمّ اختراع الراديو الترانزيستور، الفرع الصغير القوي من جهاز الراديو القديم، وتم تَصنيعُهُ تجارياً سنة ١٩٥٦، وهي سَنة أزمَةِ السويس، وأصبَحَ واسِعَ الانتِشار ورَخيصَ الثَّمَن. دَخَلَتْ هذه الأجهزةُ الصغيرة التي تحمِلُ الكلامَ في عالَم العربية تحت أنفِ الاستعمار من طَنجة إلى عَدَن، ونَقَلَتْ خِطابات عبد الناصر وصَوتَه. وكان هناك تَطور آخَر في وسائلِ الاتصالات يَفتحُ مرحلةً جديدة في تاريخ العرب: نُمُو اللغة الفصحى المُوحَّدَة، كتابَةُ القرآن، الدَّواوين الأموية، صِناعة الورق العباسية، الطَّباعة

---

(٣٠) David Holden, *Farewell to Arabia* (London: Faber and Faber, 1966), p. 23.

(٣١) Rogan, Ibid., pp. 382-383.

(٣٢) Paul Bowles, *The Spider's House* (New York: Random House, 1955), p. 375.

في القَرن التاسع عشر، والآن الترانزيستور في القَرن العشرين، كلُّها فَتَحَتْ فصولاً جديدة في تاريخ العرب الطويل.

ارتَفعَتْ قوةُ بَثِّ الراديو في القاهرة من ٧٣ كيلوواط في سنة ثورة ١٩٥٢، إلى نحو ٦٠٠٠ كيلوواط سنة ١٩٦٦. وكانت مصر في ذُروَتِها تَبُثُّ ٥٨٩ ساعة راديو أسبوعياً، ولم تكن بعيدةً عن بَثِّ الإذاعة البريطانية الذي بَلَغَ حينها ٦٦٣ ساعة(٣٣). شَمَلَ البَثُّ ساعات كثيرة بلغات غير العربية، خاصة اللغات الأفريقية، وكانت رسالةُ عبد الناصر تأخُذُ أبعاداً جديدة، ولكن التَّركيز كان دائماً على العربية. من وجهة نظَرِ الناصرية، وكذلك الجامعة العربية، واليقظَة العربية، وفي التقسيم القديم للبَشَرية إلى عرب وعَجَم، فإن هويةَ العرب تُحدِّدُها اللغةُ فوق كل شيء(٣٤). والشيء العظيم في أمواج الراديو هي أنها لا تَحتَرِمُ أيَّ تَعريفٍ آخَر، بل تَقفزُ فوق حُدودِ التقسيمات الطائفية، والحدود الإمبريالية على الخريطة، وتَجمَعُ الوطَنَ اللغويّ.

أحيا البَثُّ الإذاعيّ القوةَ القديمة للعربية المَنطوقَة وجَمَعَ كلمة العرب على نطاقٍ واسِع مثل نِداءٍ للوحدَة. كان ذلك يُشبه نداءات فَجر الإسلام. كانت الوسيلة المِثالية لأن المُستَمِعين لا يستطيعون الرَّد. كانوا يستطيعون إغلاقَ الراديو في أيّ وقت، ولكن الرسالةَ كانت جديدةً تماماً ومُثيرةً جِداً وفي مُتَناوَلِ اليَد في المَنزل، وفي الدكّان في السُّوق. كانت أعدادُ المُستمِعين لعبد الناصر بالملايين، وكانت لديه مَوهِبَةٌ يُحسَدُ عليها، اللَّمسَة العامّة المُشتَرَكَة التي لا يستطيع كلّ فَردٍ الوصولَ إليها، إضافة إلى هدوءٍ بطوليّ حقيقي. في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٤ أطلَقَ قاتِلٌ النارَ على عبد الناصر ثماني مرات أثناء خِطابٍ كان يُلقِيه. لم تُصِبْهُ أية رصاصة، ولكن بينما كان يتم سحب كثير من الرؤساء في مثل هذا الموقف، ظَلَّ عبد الناصر في مَكانِه وتَوقَّفَ لَحظَةً عن الكلام ثم تابَع:

فليَبقَ كلٌّ في مَكانِهِ أيها الرِّجال، حَياتي فِداءٌ لَكم، دَمي فِداءٌ لَكم،

---

(٣٣) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, pp. 1014-1015.

(٣٤) Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), p. 125.

سَأعيشُ مِن أجلِكم، وأموتُ مِن أجلِ حريتِكم وشَرفِكم، فليَقتُلوني. حتى لو قَتَلوني فقد وَضَعتُ فيكم العِزَّة، فدَعهم يَقتلوني الآن، فقد غَرَستُ في هذه الأمّة الحريّة والعزة والكَرامة. إذا كان يجبُ أن يموتَ عبد الناصر، يجب أنْ يكونَ كلُّ واحِدٍ مِنكُم جمال عبد الناصر(٣٥)!

كان خِطاباً عربياً شامِلاً شَعبَوياً ولكنه شَخصيٌّ مُكَثَّفٌ، وصَدَرَ مباشَرةً مِنَ الرَّجُلِ نفسه. كان المُغني السياسي المِثالي الكامِل بفَضلِ جَمعِهِ الوسامَةَ والنظرات الجَذّابَة واللسان الحُلو والرسالةَ السَّاحرة. عَبدَ الرِّجالُ فيه البطولَةَ، وأُغمِيَ على النساء. استَعادَت الكلمةُ سِحرَها القديم، بل وقُدسِيَّتَها. تَحدَّثَ نزار قباني في مَرثيتِهِ: قصيدة «فارِس الأحلام»، بِلِسانِ الرَّجُلِ العاديّ في السُّوقِ العربية:

مَلأنا لكَ الأقداحَ، يا مَن بِحُبِّهِ   سَكِرنا، كَما الصُّوفِيّ باللهِ يَسكَرُ(٣٦)

تكادُ تكونَ تَجديفاً، ولكن هذه هي النقطَة بالذّات.

تَدَفّقَ الحُبُّ على أمواجِ الأثيرِ بضَخٍّ مُتزايد، ورَفَعَ الزعماءُ في أرجاءِ وَطَنِ العربية المستقلة قوة بَثّ إذاعاتِهم. أدركَ الطّامِحون إلى الزَّعامَة أيضاً الأهميةَ العظمى وقوةَ تأثير الراديو، ومنذ ذلك الحين كان أول الأوامر لأيّ انقِلاب هو: «احتَلّوا الإذاعة!»، مثلما حَدَثَ في الانقِلاب الذي أطاحَ بالمَلَكية في العراق سنة ١٩٥٨(٣٧). في المجتمعات التي تكون فيها الحَقائق تابِعَة للسُّلطَة البَشَرية أو الإلهية، فإن السَّيطَرة على حقيقةِ الخِطاب والشّعارات أكثر أهمية مِنَ السَّيطَرة على القَصر.

مع مرور الوقت، سيُصبحُ السلاحُ الاستراتيجي المُفَضَّل لدُعاةِ الانقلابات هو القنوات الفضائية التلفزيونية. ولكن، حتى في عَهدِ عبد الناصر، كان هنالك جانبٌ مرئي لرسالَتِه المُوجَّهَة للعرب، الذين كانوا المصريين في تلك الفترة عَملياً، فقد بَدَأت السينما العربية بالازدهار، وفي ذلك الوقت الأفلام العربية تعني الأفلام المصرية. نَشَرَت الأفلامُ المصرية

---

(٣٥) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 363.

(٣٦) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٧٨٠.

(٣٧) Rogan, Ibid., p. 394.

أفكارَ الوحدَة العربية وصورَ التَنوع. بَدأ العرب يُشاهِدون جوانبَ أخرى مِن أنفسِهم، ليس فقط صوراً مألوفَةً لفلاحِين بثِيابهم التقليدية ومُحيطِهم الريفي، بل كذلك صُور النساء بشُعورِهِنّ المُصَفَّفة وثياب السهرة في بيوت القاهرة المُريحَة. كما سَمِعوا لأول مرة كيف تَختَلِفُ لَهجةُ أبناءِ عمّهم المصريين في الحياة اليومية. عندما يفكِّرُ المرءُ أن كلمة «ماشي» في لَهجَةِ أهلِ صنعاء تَعني «لا»، بينما تَعني «نعم» في لَهجة القاهرة، يُدرِكُ أنَّ احتمالَ سوءِ الفَهم مُرتَفِع.

أن تُصبحَ عربياً

سَيستَغلُّ عبد الناصر نفسُه ازدواجيةَ اللسان العربي الزَّلِق، ففي خِطاباتِه للاستِهلاك الداخلي المصري سيَبدأ ويُنهي باللغة الفصحى[٣٨]، إلا أنه سَينتَقلُ بين العامّية والفُصحى فيما بينهما. كان هذا الانتقالُ اللغوي طَريقةً لتَركيزِ النقاط حَولَ «الوطَنية المصرية، والقومية العربية»[٣٩]. أما في خِطاباتِه لِعالَم العربية الأوسَع، فسَيستَخدِم الفصحى فقط[٤٠]. وإذا تَكرَّرَ موضوعٌ واحِدٌ خاص فيها جميعاً، فهو التهديدُ الذي تُمَثِّلُهُ الإمبريالية، وضَرورة أنْ يُحَقِّقَ العربُ الوحدَةَ لمُواجَهَتِها. بعد ٢٥٠٠ سنة من آشور وبابل، مازالت إمبراطورياتُ شعوبٍ أخرى أُسوداً مُتَجَوِّلَة، ولكن الآن كانت الصَّخرة هي العروبة، وهي مَغروسَةٌ بقوةٍ في مصر. كان عبد الناصر يَلعبُ بشكلٍ ممتاز دَورَ مُروِّض الأسود، وأصبحَ هو نفسه مُستأسِداً في حَرَكةِ عَدَم الانحياز. أما بالنسبة إلى المجموعات التي شَكَّلَتْ حَرَكَته، فقد كان يُضيفُ الآن عالَماً عربياً وَضَعَ مصر وذاتَهُ في مَركَزِه.

لم يكن كلّ واحِدٍ مَسروراً بأنْ تُصبحَ مصر حَجَرَ العروبةِ الكبير، وكان مِن بينهم مصريون. شَكَّكَ طه حسين بأصَالَة الشِّعر القديم، وتَزعَّم اتِّجاهَ التَّنوع في التُّراث المصري[٤١]، إلا أنه احتَفَلَ دائماً بالعربية الفصحى،

(٣٨) Kees Versteegh, *The Arabic Language* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013), p. 196

(٣٩) Clive Holes cited in: Jonathan Owens, "Arabic Sociolinguistics," *Arabica*, vol. 48 (2001), p. 442.

(٤٠) Versteegh, Ibid., p. 196.

(٤١) انظر: ص ٦١٩ ـ ٦٢٤ من هذا الكتاب.

ورَسَّخَ مَركَزَ مصر في قَلبِ الأدب العربي الحديث لأنه كان واحِداً مِن كِبار كتَّاب أساليبِها الحديثة. ولكن في أربعينيات وخمسينيات القَرن العشرين، ظَهَرَ عَددٌ من المُنشَقِّين المُتطَرِّفين، مثل الوطني المصري الطفل المُشاغِب لويس عَوَض. كان قبطِياً مُتَخَرِّجاً من مستفِزاً بطبيعته. أطلَقَ في كتابه **«بلوتولاند»** هَجمَةً عَنيفةً على «احتلال» مصر من العَرب واللغة العربية[٤٢]. ذكَّرَ المَوقفُ بالهَجمات الشّعوبية الأدبية ضد العرب في ذُروَةِ إمبراطوريتهم[٤٣]، ثم حَرَّكَ هُجومُ عَوَض اللفظي رُدودَ فِعلٍ عنيفة، فوُصِفَ مَثلاً بأنه «دَجّالٌ شرير مُحتال مُتجاوز دُميَة قَذر مَجنون كَريه فاسِد لَئيم عَديم الفائدة صَبيّ المُبَشِّرين...»[٤٤] [غير حرفي]. ودَعا شُعوبيون جُدد قَلائِل مِثل زَميل عَوض القبطِيّ سَلامَة موسى إلى قَطع لِسانِ العربية الفصحى المُوحَّدَة بكامِله. ناقَشَ موسى أنَّ المصريين يجب أنْ يَكتُبوا باللهجة المصرية وليس باللغة العربية الفصحى الشاملة. ومع ذلك فقد نَشَرَ دَعوتَهُ ولم يُمارِسْها لأنه كَتَبَ هو نفسُه بتلك اللغة الفصحى ذاتها[٤٥]. بالنظر إلى مِثل هذا الخَلطِ الفكري وعَدِ الأقلام المَسمومَة التي يستخدمها المُدافعون عن الثقافة العربية فقد فازتْ عروبةُ مصر.

لم يكن ذلك مُستغرَباً، فقد أصبحَتْ مصر مَركَزَ الثقافة العربية بعد سقوط بغداد قَبل ٧٠٠ سنة. وبعد النوم الطويل في العصر العثماني، كانت مَركَزيةً في اليقظَة العربية في القَرن التاسع عشر. والآن، وَضَعَ عبد الناصر مصر في المَركَز السياسي لِعالَم العربية. وإذا كانت خِطاباتُهُ تَرفَعُ شِعاراتِها فإنَّ أغنياتِ أمّ كلثوم، المُغنّية العظيمة، كانت ألحانَ المَوضوع الثقافي. تَصاعَدَ صَوتُها الرائع على أمواج الراديو غالباً كتَمهيدٍ لعبد الناصر الذي كانت خِطاباتُهُ تُبَثُّ بَعدَ حَفلاتِها. ظَهرت الحالةُ وكأنها كانت تُقَدِّمُهُ شَخصياً باسمِ كلِّ واحِدٍ من ملايين الأفراد الذين سَكِروا بُحُبِّه:

لستُ أنساكَ وقد أغرَيتَني.. بِفَمٍ عَذبِ المُناداةِ رَقيقْ

(٤٢) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 198.

(٤٣) انظر: ص ٤٣٧ ـ ٤٤٣ من هذا الكتاب.

(٤٤) ورد في: Suleiman, Ibid., p. 248, note 15.

(٤٥) Ibid., p. 182.

ويَـدٍ تـمـتـدُّ نـحـوي كَـيَـدٍ. .   مِن خِلال المَوجِ مُدَّتْ لِغَريقْ

هل رأى الحُبُّ سُكارَى مِثلَنا. .   كَم بَنينا مِنْ خَيالٍ حَولَنا(٤٦)

لأول مرة منذ القَرن السابع، رَكِبَ العربُ في كلّ مَكان مَوجَةَ الوحدَة. كانت الرحلةُ مُذهِلَةً وحَماسية، إلا أنها كانت كذلك خَيالية بالمَعنى الحَرفي للكلمة.

في غَمرة سِحرِ اللغة الفصحى لأمّ كلثوم، ورسالةِ القومية العربية لعبد الناصر، خاطَرَ مصريون بالتَّشكيكِ في عروبتِهم، ولكن كان هنالك مُتمرِّدون دائماً، كان مِنهم الشابة ليلى أحمد، التي كَتَبَتْ في مُذكراتِها في فَصلٍ تحت عنوان «أنْ تُصبِحَ عَرَبياً» أنها تَتذكَّرُ أستاذَةً غاضِبةً صَحَّحَتْ قِراءتَها العربية الفصحى في المدرسة في خمسينيات القَرن العشرين:

«أنتِ عربية!»، صَرَختْ بي في النهاية: «عَربية! ولا تَعرفِينَ لُغَتكِ!».

قلتُ فجأةً وأنا غاضِبة من نفسِي: «أنا لستُ عربية! أنا مصرية! وعلى كلِّ حال نحن لا نَتحدَّثُ مِثلَ هذا!»، وأغلقتُ كتابي بقوة(٤٧).

زَواجٌ مؤقَّتٌ جِدّاً

وَعد بلفور، والانتداب، والقواعد العسكرية، والمُلوك العُمَلاء، وبلاطات ومَجالِس وزراء القِطط السمينة، والبريطانيون في فلسطين، والفرنسيون في الجزائر، حيث كانت حُروباً دَموية من أجلِ الاستقلال بَدأت منذ ١٩٥٤، وتَعاون بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في السويس ١٩٥٦... كانت كلُّها سلسلةً متصاعِدة مِنَ الوعودِ الكاذِبة، وفِهرساً مِنَ الازدواجية والآمال المُحطَّمَة التي تَركَت العربَ في شَكٍّ من نوايا الغرباء نحو عالَمِهم، وغير مُقتَنِعين حتى الآن بَعدَ عُمرٍ كاملٍ بأنَّ الحُلولَ الغربية بالتَّنوع المنسَجم يمكن

(٤٦) من قصيدة: إبراهيم ناجي، «الأطلال،» <https://bit.ly/3UmRDyb> (تاريخ الزيارة ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٨).

(٤٧) Leila Ahmed, "A Border Passage. quoted in: Niloofar Haeri, "Form and Ideology: Arabic Sociolinguistics and Beyond," *Annual Review of Anthropology*, vol. 29 (October 2000), p. 79.

أن تَنجَحَ معهم. ولذلك تابَعوا سَرابَ الوحدَة، سَواء قادَهم إليها بَطَلٌ حَيّ مثل عبد الناصر، أو نَبيُّ الإسلام الذي توفي منذ زمن بعيد. استَعصَى عليهم السَّرابُ دائماً، ولكنه كان حُلمهم على الأقل، وليس هَذَيان آخَرين.

لم يكن عبد الناصر وحدَهُ بين الأحياء الذين يَدَّعون رِيادَتهم للقومية العربية، فقَبلَ عَقدٍ من وصولِهِ إلى السُّلطَة تَشكَّلتْ حَرَكَةُ البعث في سورية والعراق. كانت بداياتُها مثل بدايةِ نكتَة: «ثلاثةُ سوريين، مَسيحي وسُنّي وعَلَوي...»، إلا أن الثلاثة: ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وزكي الأرسوزي، كانوا جادِّين. كان البعثُ في عقول مؤسِّسيهِ حَركَةً وَعَدَتْ بِنَوعٍ مِنَ اليقظَة العربية المُروِّعَة، نهاية تاريخٍ عَلمانيةٍ سَينهَضُ فيها العربُ نهضةَ رَجُلٍ واحِد، وسَيدخلُون مرحلةً مِنَ الوحدَةِ المُبارَكة. كانت علامَةُ المُختارين هي ذاتها العَلامَة العتيقة للجميع، للبعثيين وللناصريين والقوميين الناشئين الذين عَرَّفوا العربيَّ باللغةِ فوقَ كلِّ شيء[٤٨]. قالَ أكاديميٌّ بَعثيٌّ سنة ١٩٥٦: «لغتُنا مِثل الرايةِ التي يَسيرُ خَلفَها الجنود»[٤٩] [غير حرفي]. احتاجَ البَعثيون العَقلانيون إضافة إلى الرَّايةِ إلى حَامِلِ رايَةٍ شَعبَوي. كان عبد الناصر حامِلَ الرايةِ المِثالي، تُغطِّيهِ أمجادٌ مُستَعارةٌ من أزمَة السويس، ويَتَشَمَّسُ في النُّجومِية.

في ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٥٨، طارَتْ مَجموعةٌ من كِبار ضباط الجيش ومعهم بَعثيون مِنْ دمشق إلى القاهرة لوَضعِ فِكرَةِ ضَمّ سورية ومصر معاً سياسياً. أرسَلَهم عبد الناصر إلى وطنِهم، في عيونِهم نُجومٌ، وفي جَيبِهم مُوافَقَة على وحدَةٍ كامِلَة مع مصر، تحت سيطرة عبد الناصر طبعاً. ووُجِّهَ السياسيون في دمشق بمهمّة تمّ تَنفيذُها. كانت سورية قد استَقلَّتْ قَبل نحو ١٢ سنة، ولم تَعد مُستقلَّة، بل أصبَحتْ جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة، وإذا لم يُرَحِّب السياسيون بذلك، يُمكِنُهم أنْ يَبتَلِعوا ذلك في السِّجن[٥٠].

---

(٤٨) Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, p. 125.

(٤٩) Ajlani quoted in: Anwar G. Chejne, *The Arabic Language: Its Role in History* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969), p. 21.

(٥٠) [يَعتَبرُ المؤلفُ الوحدَةَ الاندماجية بين مصر وسورية خَسارة لاستقلالِ سورية، وهذه بالطبع ليست وجهة نظر العرب الذين اعتَبرَ معظمهم أنّ تلك الوحدةَ كانت جَمعاً لكلمة العرب ضد الاستعمار وضد إسرائيل]. قارن بـ: Rogan, *The Arabs: A History*, pp. 386-388.

وبشكلٍ غير مُتوقَّع، اندفَعَ الإمامُ أحمد مَلك اليَمن المُطلَق الرَّجعيّ الغَريب الأطوار فوراً لضَمِّ بلاده في اتحادٍ فيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة. أُطلِقَ على الاتحاد الثلاثي اسم الدول العربية المتحدة. ربما لا يبدو انضمامُ اليَمن غريباً بَعدَ مَزيدٍ من التأمل، لأنّ الإمام أحمد كان، مِثل والِده الإمام يَحيى، يَلعَبُ دائماً على موضوعِ طَردِ البريطانيين من عَدَن ومَحمياتِها، وتَشكيلِ اليَمن الكبرى تحت سَيطَرته كمَلِك. ولِتحقيق ذلك، تَدَفَّقَت الأسلحة والمُستشارون الآن إلى بَلَدِه مِنْ مصر، كما أُضيفَت خِطابات وراديو اليَمن الذي رَفَعَ مِن طاقَتِه قليلاً وانضَمَّ إلى ألحانِ القاهرة. «سيَطرُدُ العِملاقُ العربي الإمبريالية إلى المَزبَلَة، وسَينشُبُ الموتُ أظفارَهُ في أعناقِ الإمبرياليين»[٥١] [غير حرفي].

لم ينضَمَّ إلى عبد الناصر اتّحادٌ واحِد، بل اتّحادَان يَدوران في فَلَكِه، ولذا شَكَّلَت المَملَكَتان الهاشِميَّتان المتبقِّيَتان، الأردن والعراق، اتّحادَهما الخاص[٥٢]. ولفَترةٍ تاريخيةٍ وَجيزة ظَهَرَ أنَّ العالم العربي يَتَّجِهُ ليس إلى الوحدَة، بل إلى ثُنائيةٍ أخرى، ربما إلى حَربِهِ الباردَة الخاصّة. ولكن، في تموز/يوليو ١٩٥٨ حَدَثَ انقلابٌ عسكري في بغداد باستِلهامٍ واضِحٍ من ثورة ١٩٥٢ المصرية مع اندفاعَةٍ دَمَويةٍ إضافيةٍ طالَما ظَهَرَتْ كَذَوق مَحَلِّيّ. قُتِلَ المَلكُ الشابّ ومُعظَم العائلة المَالِكة. وقَبلَ أنْ يَجفَّ الدَّم، فَكَّرَ الضباطُ البَعثيون بضَمِّ العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة[٥٣]، غيرَ أنَّ زَعيمَ الانقِلاب عبد الكريم قاسم خَشِيَ أنْ تَتفِقَ مصر وسورية ضِدَّهُ فألغَى الفِكرة[٥٤]. في هذا العالَم الذي يُسيطِرُ فيه الذَّكَرُ الأقوى، كان بعضُهم أقوى من الآخرين، ولكنهم عَرفوا جميعاً أن عبد الناصر كان الزعيمَ الأكبر.

كان من المحتَّم أن تَفشَلَ الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية المتحدة. ربما سارَ المُنَظِّرون العرب وراء رايَةِ اللغة العربية، غير أنَّ العرب

(٥١) ورد في: Paul Dresch, *A History of Modern Yemen* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2000), p. 82.

(٥٢) Hourani, *A History of the Arab Peoples*, p. 368.

(٥٣) David Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1989), p. 246.

(٥٤) Ibid., p. 342, and Rogan, *The Arabs: A History*, p. 399.

الواقعيين ساروا وراءَ إيقاعاتٍ مختلفةٍ غير منسَجمة مِنَ اللهجات المُختلفة لغوياً وسياسياً. لم يكن هناك لَحنٌ واحِدٌ بسيطٌ بإيقاعٍ مُوحَّد، بل تركيبات خيالية. وسرعان ما اتَّضَحَ اختلافُ الأهدافِ في سوريّة، حيث وَضَعَ أتباعُ عبد الناصر البَعثيين على الهامِش، وأمَّموا مُمتلَكات مَالِكِي الأراضي المَذهولين، وعَذَّبوا الجماهير بالروتين (اختَرَعَتْ مصر أوراقَ البردي، وكانت مولَعَةً بشكلٍ غير عادي بالمُعاملات الوَرَقية). في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٦١، وبَعدَ أقلّ من أربَع سنوات مِنْ دَعوَتِهم إلى الوحدة، قامَ ضباطٌ سوريون بانقِلابٍ وطَرَدوا المصريين[٥٥]. كما قَطَعَ الإمامُ أحمد علاقَةَ اليَمن بالدول العربية المتحدة بَعدَ أنْ أصبَحتْ لديه أفكارٌ أخرى عن هذا الاتحاد، كما قَطَعَ عَلاقَتَهُ بالجمهورية العربية المتحدة (واحتَفَظَتْ مصر بهذا الاسمِ لنفسِها بِحُزنٍ حتى سنة ١٩٧١). كان إمامُ اليمن مَلِكاً من طراز عصر ما قبل الحداثة، وهاجَمَ اشتراكيةَ عبد الناصر بسِلاحِ الشِّعر القديم [في أُرجوزَتِهِ: إلى العرب]:

مِنْ أَخْذِ مَا لِلناسِ مِن أموال ... وما تَكَسَّبوا مِنَ الحَلالِ

بِحُجَّةِ التأميمِ والمُعادَلَةْ بين ذَوي المَالِ ومَن لا مَالَ لَهْ

لأنَّ هذا مَا لَهُ دَليلُ ... في الدِّينِ أو تُجيزُهُ العُقولُ

فأخذُ مَالِ الناسِ بالإرغامِ ... جَريمةٌ في شِرعَةِ الإسلامِ[٥٦]

رَدَّ المصريون على الهجوم بشكلٍ لا يُنسَى في فِيلم روائيٍّ صَوَّرَ الإمامَ طاغيةً مُحِبّاً للجَواري، احتفَظَ بأسَد مُقيَّدٍ بالسَّلاسِل جَانِبَ عَرشِه[٥٧].

انتَهى حُلمُ عبد الناصر بالوحدَة، ولكن الأسوأ مِن ذلك بكثير كان قادَماً. سيتَّجِهُ فَرعَا حِزبِ البَعثِ الرئيسيان في سورية والعراق في اتِّجاهَين مُختلفَين، وسيحُارِبان بعضهما: سَيذوبُ البَعثُ في تَفاهاتٍ وصِراعاتٍ. قالَ سامي الجُندي، الذي كان عُضواً مبكراً في البعث: «ما بُعِثَ فينا غير عصر

---

(٥٥) Rogan, Ibid., pp. 402-403.

(٥٦) اقتبست من: Dresch, *A History of Modern Yemen*, p. 86.

(٥٧) «ثورة اليمن»، أواخر الستينيات.

المماليك»[58]. وفي العراق تحت حُكم صدّام حسين البَعثي سَيُصبِحُ الحالُ أقرَبَ إلى عَصرِ بُعبُعِ الأمويين الحجّاج بن يوسف. أما بالنسبة إلى دولة البعث الحالية في سورية، فهي آخِر لَكمَة، ونهاية القصة التي بَدأتْ بأولئك المؤسِّسين الثلاثة ونواياهم الحَسَنة تحت شِعار «وحدة، حرية، اشتراكية»[59]، الذي سيكون أكثر دِقَّةً لو تَغيَّرَ إلى «تَجزئة، طُغيان، فاشِيَّة». والمُفارَقة مرة أخرى هي أنَّ نداءات الوحدَة الناصرية والبَعثية ستؤدي إلى مِثلِ تلك الانقسامات. وكأنَّ زعماءَ القوميين العرب مغناطِيسات تَجذِبُ تأييدَ الجَماهير، حتى حاولَ الزعماءُ الالتِقاءَ ووجَدوا أنهم يُفرِّقون ويَتباعَدون مِثل تنافر الأقطاب المتشابهة.

لم يُضطَر بعضُ الزعماء إلى التَّقارب لكي يَشعروا بالتَّباعُد المُتبادَل. ففي سنة ١٩٥٨ سَرَتْ إشاعَةٌ أنّ المَلك سعود ابن المَلك عبد العزيز وخَليفَته في المَملكة العربية السعودية، قد عَرَضَ مِليونَي دولار (على المُخابرات السورية) لاغتيال عبد الناصر[60]. سواء كان ذلك صحيحاً أم لا، فقد بَرَزَت الكَراهية بشكلٍ مَفتوحٍ مُخيفٍ في اليَمن. ألهَمَ عبد الناصر هناك بعضَ ضباط الجيش، مثلما فَعَلَ في العراق، للإطاحَة بالمَلكية في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢. كانت المُحاوَلة الثالثة المَحظوظة، فقد سَبقَتْها مُحاوَلتان من الانقلابات الجمهورية ضد الإمام ـ المَلك أحمد السابق، وذلك في سنوات ١٩٥٥ و١٩٦١. تلقَّى في المُحاوَلة الثانية طَلقاتٍ من ثلاثة مُسدَّسات ولكنه ظَلَّ حَيّاً. حَدَثَ انقلابُ ١٩٦٢ بعد أسبوعٍ واحِد مِن وَفاة الإمام أحمد بأسباب «طبيعية» (وما الذي يمكن أن يكون أكثر «طبيعية» للحُكّام من الاغتيال؟). نَجَحَ الانقلاب في البداية، ثم بَدأ السعوديون بدَعم الإمام المَخلوع محمد البَدر. تَدخَّلَ عبد الناصر ودَعَمَ الجمهوريين. قِيلَ إنّ هذا التَّوَرط الجديد بالنسبة إلى الزعيم المصري كان «خَلطاً بين الشِّعارات والسياسة الواقعية»[61]. يمكن تَقديمُ هذه المُناقَشة بالنسبة إلى أي حَرب. تم الاعتراف

---

(٥٨) ورد في: Fouad Ajami, *The Arab Predicament* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981), p. 42.

(٥٩) Ibid., p. 180.

(٦٠) Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*, p. 278.

(٦١) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 417.

منذ زمن طويل بأنّ الصراعاتِ خطابيةٌ في الأصل عندما قالَ آخِر الولاة الأمويين في خراسان:

أرى تحت الرَّمادِ وميضَ جَمرٍ ويوشِكُ أن يكونَ لَهُ ضِرامُ
فإن النارَ بالعودَين تُذكَى وإنَّ الحربَ مَبدؤها كَلامُ[٦٢]

سرعان ما أصبَحتْ حَربُ اليَمن شُعلَةَ نارٍ ونابَالم في فيتنام مصر. إذا كان عبد الناصر مُتمكِّناً من الكلمات، فإنه لم يَتمَكَّن جيِّداً من الحروب.

عصفورٌ بين قَطَرات المَطر

هذا ما كان بالنسبة إلى الوحدَة العربية في عَهدِ عبد الناصر. وبالمُقارَنة، فإن العُنصُر الآخَر في مَوضوعِه، مُعاداَة الإمبريالية، كان أكثر نجاحاً في عَصر إزالةِ الاستِعمار في العالَم. مَنَحَتْ فرنسا الاستقلالَ لتونس والمَغرب سنة ١٩٥٦ بَعدَ مُقاومَةٍ شعبيةٍ اشتَعلَتْ بَعدَ ثورةِ ١٩٥٢ في مصر. إلا أنَّ الفرنسيين تمَسَّكوا بالجزائر أولَى مُستعمراتِهم العربية بِكُلفَةٍ رَهيبةٍ من الدَّم. ارتَكَبَ الطَّرَفان فظائعَ إرهابيةً ضد مَدَنيين، إلا أنَّ الأسوأ كانت تلكَ التي ارتَكَبَها المُستَوطِنون الفرنسيون ضد جِيرانِهم العرب. استَخدَمَت السلطات الاستعمارية التعذيبَ بِحرّية، وسِلاحَ الاعتقال دونَ مُحاكَمة، وكان لدَى فرنسا في ذُروَةِ الصِّراعِ نحو نصف مليون جندي على الأرض.

كان من نتائج الفظائع أنَّ العرب في كل مكان في المغرب والمشرق بَدؤوا الإحساسَ بتَضامُنٍ حقيقي وتَعاطُفٍ جَماهيري مع رفاقِهم في الجزائر ربما لأولّ مرة. كانت وحدَة في الروح تَجاوَزَت الحدود وتَجاهَلَت الخلافاتِ الشخصية بين زُعمائِهم. وهنا أيضاً كانت الإذاعَةُ حَيويَّةً في تَشكيلِ هذا الوَعي. وعلى العَكس مِن حَرب السويس، لم تَحتَج حَربُ الجزائر الطويلة المَريرة إلى التواءاتِ الناصرية، فقد كان أبطالُها وبَطلاتُها مُلهِمين في حَدِّ ذاتِهم. كان أشهَرهُم جميلة بوحيرد؛ شابَّةٌ في العشرينيات من عُمرها، نَقَلَتْ قَنابل ورسائل للمُقاوَمة، وجَعلَها القَبضُ عليها وتَعذيبُها شَهيدَةً عَلمانيةً في العالَم العربي:

---

(٦٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٧١ ـ ٧٢. قارن: ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ من هذا الكتاب.

وجميلةُ بين بَنادقِهِمْ
عُصفورٌ في وَسطِ الأمطارِ
الجَسدُ الخَمريّ الأسمَرْ
تَنفضُهُ لَمَساتُ التيَّارِ
وحُروقٌ في الثَّدي الأيسَرْ
في الحلمَةِ..
في.. في.. يا للعارِ..

ثائِرةٌ مِن جَبَلِ الأطلَسْ
يَذكُرُها اللَّيلَكُ والنَّرجِسْ
يَذكُرُها.. زَهرُ الكبَّادِ..
ما أصغَرَ (جَانْ دارك) فَرَنسا
في جانبِ (جَانْ دارك) بلادي[٦٣]..

حَاولَتْ فرنسا أنْ تَمتلكَ الجزائر لنفسِها، ولكن بتَحويلِهِ جميلة بوحيرد إلى جان دارك احتَلَّ خَيالُ الشاعر العربي مَلحَمَةَ المُحتَلِّ الوطنية. حُكِمَ على عَذراء الجزائر بالإعدام، ولكن خُفِّفَ الحُكمُ إلى السِّجن المُؤبَّد. بَعدَ أنْ أنْهَكَتْهم الحربُ والرأي العام في الوطن، غادَرَ الفرنسيون الجزائر سنة ١٩٦٢. تَزوجَتْ جميلةُ المحامي الفرنسي الذي دَافَعَ عنها[٦٤]. عجباً! إن هذا هو الاستقلال.

في تلك الأثناء، في الطَّرفِ الآخَر مِنَ العالَم العربي، كانت عَدَن هي أولى المُمتلَكات العربية التي احتلتها بريطانيا، مِثل الجزائر في العقد الرابع من القرن التاسع عشر (إذا استَثنَينا طَنجة، التي كانت مهرَ كاثرين أميرة

(٦٣) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٦٩٥.

(٦٤) **Wikipedia**, s.v. Djamila Bouhired. <https://en.wikipedia.org/wiki/Djamila_Bouhired>.

براغنزا Catherine of Braganza الذي دَفَعَتْهُ إلى تشارلز الثاني سنة ١٦٦٢، وتَمت مغادرتها سنة ١٦٨٤)، وكانت عَدَن هي الأخيرة أيضاً؛ إذ انسَحَبَ البريطانيون منها سنة ١٩٦٧ بعد أن طردتهم المقاومة المحلية بالقنابل، وقَلَّصَ ميزانيتَهم رئيسُ الوزراء هارولد ويلسون Harold Wilson ضِمنَ تَخفيضاتِه لمِيزانية الدِّفاع. تَخلّوا عن مجموعةٍ مِنَ الحُكّام العُملاء وهَرَبوا «مِثلَ لُصوصٍ في الظلام»[٦٥]، كما وصَفَهم الحاكِمُ العسكري لنت Lunt.

وعَبرَ شبه الجزيرة، خَلَّصَ البريطانيون أنفسَهم إلى حَدٍّ ما في آخِر دوائر نفوذهم العربية. ساعَدَتْ يَدُ الإمبراطورية المَيتة مَكيدَةَ تَنصيبِ الشيخ زايد حاكِماً لأبوظبي سنة ١٩٦٦، وسَهَّلَتْ استِلامَ السلطان قابوس في عُمان سنة ١٩٧٠. مازالت الحياةُ نابضة في تاريخ ألف سنة من صُنعِ الإمبريالية للملوك، ونَتَجَ عن ذلك اتِّحادُ الإمارات العربية المتحدة التي تَشكَّلتْ مِنْ أبوظبي وجاراتِها الست الصغيرات، وسَلطَنةُ عُمان التي لم تكن مستقرة تماماً. مع مرور الزمن لم تكن عُمان أوثَقَ اتِّحاداً من جارتِها اليَمن، ومن بين الخَمسة عشر حاكم سابق للشيخ زايد في أبوظبي، اغتيلَ ثمانيةٌ منهم، وخُلِعَ خمسة[٦٦]. إلا أنَّ قلَّةَ عدد السكان والخزائن المَليئة بفضلِ النفط، ساعَدَ على الاستقرار.

كان هنالك مَظهَر مُتأخِّرٌ للاستعمار سيكون أكثر ضَرراً. كانت خَطايا سايكس ـ بيكو ووَعد بلفور قد اتَّضَحَتْ بإسهابٍ لكثيرٍ من العيون الدولية، ولكن الكفارة لها بتضحية اليهود في المحرقَة لَم تكن واضِحة للعرب. لم يُدركوا سوى الحقيقة البسيطة بأنَّ غرباء كانوا يأتون ويَستوطنون في بلادٍ كان أهلُها يعيشون فيها منذ زمنٍ طويل. وفي الوقت نفسه، كان التَّدخل الصهيوني يَحمِلُ إمكانيةَ تكوين جَوهَرِ تَضامُنٍ عربي جديد. خَسِرَ العربُ حربَ ١٩٤٨ ضد الصهاينة بسبب ذلك الأمر «المُزوَّر الفاسِد» في أنفسِهم، ولكن قد تُثبِتُ دولةُ إسرائيل أنها أمرٌ مفيدٌ بشكلٍ غير مُتوقَّع.

---

(٦٥) ورد في: Mackintosh-Smith, *Yemen: The Unknown Arabia*, p. 158.

(٦٦) Jan Morris, *Sultan in Oman* (London: Eland Books, 2000), pp. 123-124.

في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، بينما كان ثُلُثُ قواتِ عبد الناصر في اليَمن، وَجَدَ نفسَه فجأةً ضِدَّ عدوٌ أقرب كثيراً إلى أراضيه. كان قد بَنَى قدراته العُدوانية بدباباتٍ وطائرات سوفياتية، جِمال وفُرسان الحرب الباردة. وكان قد وَقَّعَ مُؤخَّراً اتفاقيةً عسكرية مع سورية والأردن(٦٧). أرادَ الانتقامَ من هَزيمة ١٩٤٨، ويبدو أنَّ العرب كانوا على حافةِ لَحظَةٍ وَحدَويَّةٍ أخرى، وربما لَحظَة عَظَمَة. إلا أنَّ الإسرائيليين كانوا يُطَورونَ عضَلاتهم العسكرية، خاصة سلاح الطيران(٦٨). وجَّهوا الضربةَ الأولى في الخامس من حزيران/ يونيو، ودَمَّروا القوات الجوية المصرية على الأرض، وخلال أيام قليلة احتلّوا شبه جزيرة سيناء المصرية حتى قناة السويس، ليس ذلك فقط، بل احتلّوا كذلك هضبة الجولان في جنوب سورية، والأخطَر من ذلك أنهم احتلّوا الجزء العربي المُتَبَقّي من فلسطين (قطاع غزّة والأجزاء التي كانت تُديرُها الأردن: القُدس الشرقية والضفة الغربية). كان ذلك أسوأ من الحرب الطويلة البطيئة الكارثية في اليَمن. سَقَطَ عبد الناصر ضَحيةَ أحلامِهِ وخِطاباتِه. تَعلَّم أنَّ الشعارات والخِطابات بالنسبة إلى الحقيقة هي مِثل الأحلام بالنسبة إلى الواقع.

أنتَجَت المُصيبةُ كثيراً من المَراثي، وكثيراً من الصَّراحة والاستِقامة، ذلك الأمر النادر. لم يكن من المُمكِن صِياغة خسارةٍ على هذه الدرجة من السوء بأيّ شيء سوى الهزيمة. أصبحَ الشِّعرُ اعتِرافاً، خاصةً وأنه قد أصبحَ واضِحاً أنّ الكلمات قد تَبدأ حروباً ولكنها ليست بَديلاً عن القِتال الفِعلي بأسلِحةٍ حديثة تُستَخدَمُ جيداً. واجَهَ المصريون نابليون سنة ١٧٩٨ بالكلمات والشعارات والعصيّ(٦٩)، وبالمِثل في سنة ١٩٦٧:

إذا خَسِرنا الحَربَ لا غَرابَةْ
لأننا نَدخُلها..
بكل ما يَملِكُ الشَّرقيُّ من مَواهِبِ الخَطابَةْ

(٦٧) Hourani, *A History of the Arab Peoples*, p. 413.

(٦٨) Ibid., p. 413.

(٦٩) قارن: ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨ من هذا الكتاب.

بالعَنترياتِ التي ما قَتلَتْ ذُبابَةْ

لأننا نَدخلُها..

بمَنطِقِ الطَّبلَةِ والرَّبابَةْ[٧٠]

إذا كانت أبياتُ الشِّعر عن المُحاربين القدماء مِثل عَنترة لم تَقتُلْ ذُبابَة، فما الذي تستطيعُ فِعله ضِدَّ نفّاثات المِيراج الإسرائيلية؟ كما تابَعَ نزار قباني في التفسير في هذه القصيدة المُرَّة «هوامِش على دَفتَر النَّكسة» أنَّ الكارثة قد أخرَسَت الكلام والتعبير عن أفكار وآمال ومَخاوف الناس الحقيقية:

يا سَيديْ السُّلطانْ



لقد خَسرتَ الحَربَ مَرتَّينْ

لأن نِصفَ شَعبِنا.. ليس لَهُ لِسانْ

ما قيمةُ الشَّعبِ الذي ليس له لِسانْ؟[٧١]

وكثيراً ما دل جمع الكلمة على إخراس الجماهير.

كَتَبَ إدوارد عَطية قَبلَ أكثر مِن ١٢ سنة مِن حَرب ١٩٦٧ ملاحِظاً كيف أنّ العربَ كانوا واعِين إلى أنّ قوةَ الكِيان غَير المُرَحَّبِ به بين ظَهرانِيهم ربما تكون:

كبيرةً لدرجة ربما تُمكِّنُ إسرائيل مِن انتِزاعِ قِطعةٍ أخرى مِن المنطقة العربية في الأردن أو غزّة بكل سهولة (إذا لم تتمكّن الدولُ العربية من الدِّفاع عَن نفسِها بكَفاءة)[٧٢].

مِثلُ هذه النبوءات الحَكيمة كانت مَنسِيَّةً في نَشوَةِ اللحظة والتَّسَلح ووجودِ عبد الناصر الطَّنان على المَسرح. والآن حَدَثَ الأسوأ، أو ما هو أسوأ من الأسوأ، لأنَّ الإسرائيليين انتَزعوا تلك المَناطق وأكثَر. كانت هَزيمَةً أوقَفَت الزَّمنَ والحَركة نحو الوحدَة العربية. الحركة الوحيدة كانت للفَيضان

(٧٠) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٦٩٩.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٧٠٣.

(٧٢) Atiyah, *The Arabs*, p. 235

الجديد من اللاجئين، وبعضهم للمرّة الثانية بَعد أن طُرِدوا من بيوتهم القديمة سنة ١٩٤٨، والآن مَرَّةً ثانية سنة ١٩٦٧ من بيوتِهم المُؤقَّتَة. أما بالنسبة إلى المُحرِّكِ الأساسي نفسه «فارِس الأحلام» فقد أصبَحَ «جُثَّةً حَيَّةً»[٧٣] حَسبَ رأي نائِبِه وخَليفَتِهِ أنور السادات. أما بالنسبة إلى كاتِبِ سِيرَتِه سعيد أبو الرّيش فقد كان عبد الناصر «آخِرَ العرب»[٧٤]. على الرغم من المُبالَغة في هذا العنوان، إلا أنَّ أكثر من مئة مليون عربي فَقَدوا بالفِعل شيئاً ضَخماً: جَعلَهم عبد الناصر يَشعرون كأنَّهم شَعبُ «العرب»، والآن أصبَحَ المَوضوعُ المُعَرَّفُ في حالَةِ شَكٍّ مرةً أخرى. كانت يقظَة عربية جديدة، ولكنها قاسية. أصبَحَتْ أغاني أمّ كلثوم الآن عن هذا الصباح الحزين:

وانتَبَهنا بَعدَ مازالَ الرَّحيقْ وأفَقْنا لَيتَ أَنَّا لا نفيقْ
يقظَةٌ طاحَتْ بأحلامِ الكَرَى وتَولَّى الليلُ، والليلُ صَديقْ[٧٥]

تولى ليل الأحلام وفارسها.

لا يمكن أن يستمر حُلمٌ مهما كان نبيلاً بَعدَ كثيرٍ من خَيبات الأمَل: انهيارُ الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية المتحدة، وحَرب اليَمن، والآن هذه الهزيمة الشاملة. ومع ذلك فإن حُلمَ الوحدَة العربية، مثل بَطَلِهِ العظيم، سَيستَمرُ في الوجود مِثل مَيتٍ ـ حَيٍّ عند الجِيلِ التالي من الأصنام. بَعَد وفاةِ عبد الناصر سنة ١٩٧٠، بَرَزَ مُعَمَّر القَذّافي الشاب في ليبيا الغَنية بالبترول، وكان قد أطاحَ بمَلكِ ليبيا الذي نَصَّبَتْهُ بريطانيا. قدَّمَ القذافي ٥٠٠ مليون دولار لِجَسَدِ الزعيم المُتوفَّى[٧٦]. يبدو أنَّ التضخم قد تَرَسَّخَ، لأنَّ عَرضَ المَلك سعود المَزعوم كان مليونَي دولار لاغتيال عبد الناصر، ولكن غَرَضَ القذافي كان بناءَ ضَريح في ليبيا لأعظَم قِدّيس في العروبة العَلمانية. ربما سَقَطَت القوميةُ العربيةُ، ولكن القذافي زَعَمَ أنَّ عبد الناصر قد عَيَّنَهُ

---

(٧٣) ورد في: Karsh, *Islamic Imperialism: A History*, p. 171.

(٧٤) انظر: Said Aburish, *Nasser: The Last Arab* (New York: St. Martin's/Dunne Books, 2004).

(٧٥) من قصيدة: إبراهيم ناجي، «الأطلال،» <https://bit.ly/3UmRDyb>، (تاريخ الزيارة ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٨).

(٧٦) Ajami, *The Arab Predicament*, p. 14.

خَليفةً لَهُ بِصِفَتِهِ «أمين» الحَرَكَة[٧٧]. اعتَبَرَ نفسَه فارِسَ الأحلام الشاب الجديد، ولكنه سَيصبحُ مع الزمن فارِسَ الكَوابيس الكبير. إنما ظَهَرَ في تلك الفترة وكأنه نَموذجٌ رائعٌ لِناصِرٍ جديد.

أما في القاهرة، فعلى الرغم من الكارثة، فسَيُفتَتَحُ قَصر العروبة في ضاحية هليوبوليس لاستقبال الوفودِ العربية. ولكنَّ الشُّعراءَ المُتَحدِّثين دائماً عن الحَقائق الراسِخَة، أدرَكوا أن العروبة لم تكن قَصرَ أحلامٍ، بل كانت مَجموعةً مِنَ المُعسكرات المُتحارِبة:

تَناثَري كالوَرَقِ اليابِسِ، يا قَبائِلَ العُروبةْ

واقتَتِلي..

واختَصِمي..

يا طَبعَةً ثانيةً مِن سِيرَةِ الأندَلُسِ المَغلوبَةْ[٧٨]

مرة ثانية فإن التسلسل الزمني يَضغطُ القرن الخامس عشر إلى القَرن العشرين، ولكنَّ القتال والخِصام ليسَا تَصريحاً شِعرياً، ففي أيلول الأسود سنة ١٩٧٠ جَرَت الدماءُ في شوارع عَمّان حينما خاضَ مَلكُ الأردن الهاشمي حَرباً أهليةً ضد سُكّانِهِ الضيوف الفلسطينيين المُتطَرِّفين سياسياً.

حَجُّ البترول

ستكون هنالك طَبعَةٌ ثانيةٌ لِحَرب ١٩٦٧؛ ففي حَربِ ١٩٧٣ سيكونُ لَدَى العرب سِلاحٌ جديد أقوى من الكلمات وأكثر تدميراً من طائرات الميغ أو المِيراج. السلاحُ الجديد هو البترول، ومِن أجلِ إشهارِهِ سَيعَملُ العربُ معاً «لمَرَّةٍ واحِدَة» كما قالَ محمد حسنين هيكل[٧٩]، الكاتِبُ الخَفيُّ وراءَ الرئيسِ المُتوفَّى عبد الناصر. لم يَنتَهِ عَصرُ الأمَلِ بَعد.

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، شَنَّتْ مصر وسورية هجوماً مُشترَكاً

---

(٧٧) Ibid., p. 93.

(٧٨) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٧٦٢.

(٧٩) ورد في: Rogan, *The Arabs: A History*, p. 468.

على إسرائيل. عَبرَ المصريون قناة السويس، وهاجَمَ السوريون في الجولان المُحتَلّ. رَبِحَتْ مفاجأةُ الهجوم نَجاحاً مَبدَئياً، ولكن الإسرائيليين نَجَحوا في صَدِّه، وتَدخلَّت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي لِوَقفِ القِتال. لم يكن هنالك رابِحون أو خاسِرون حقيقيون، ولكنَّ شَرَفَ العرب قد استُرجِعَ جُزئياً. والأهمّ مِنَ الغارَة الفورية وصَدِّها كان نتائجها غير المباشرة والتي كانت عميقةً وبعيدة المَدى على الاقتصاد العالمي. فإضافة إلى الهجوم العسكري الثُّنائي، خَفَّضَ العربُ إنتاج البترول وهَدَّدوا بالاستمرار في تَخفيضِه ما دامت إسرائيل تَحتَفظُ بالأراضي العربية التي احتلَّتها سنة ١٩٦٧ في خَرقٍ صَارخٍ للقانون الدولي ولقرارات الأمم المتحدة. كما ذَهَبَت السعودية آنذاك أبعَد من ذلك، وأوقَفتْ تَصديرَ البترول إلى الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا التي اعتُبرتْ أشدّ المؤيدين لإسرائيل في أوروبا. مع نهاية السَّنة، ارتَفعَتْ أسعارُ البترول أكثر من خمسين بالمِئة مِن سِعره سنة ١٩٧٢ الذي كان أقلَّ من دولارَين للبرميل، إلى نحو ثلاثة دولارات. تلك كانت البداية فقط، لأن سهولة هذا الارتفاع الأولي البينة أظهرت أنَّ الأسعارَ ربما سَترتَفعُ أكثر. أدركَ أعضاءُ منظمة الأوبك بصراحة أنهم كانوا يَحصلون على صَفَقَةٍ جائِرة من المُشتَرين العالَميين الأغنياء، وحاوَلوا مَعرفَةَ السّعر المرتفِع الذي يستطيعون الحصولَ عليه. كانت النتيجة أنّ سِعرَ برميلِ البترول سنة ١٩٧٤ أصبَحَ ١٠,٤١ دولاراً[٨٠]. في تلك المَرحَلة، أصبَح لبّ الاقتصادِ يَئِنُّ من شدة الضغط في الدُّول المُستهلِكة. تَقَطَّعتْ واجباتي المدرسية وبرامج التلفزيون بسبب انقِطاع التيار الكهربائي أحياناً، وخَفَّفَتْ منظمةُ أوبيك الضغطَ، ولكنهم كانوا في تلك المَرحلة يَحصلون على خَمسة أضعاف المَبالغ مِن زبائِنهم أكثر مما كانوا يَحصلون عليه قَبلَ سَنتَين. كان لذلكَ أثرٌ لا يُمحَى، ليس فقط على الاقتصاد العالمي، بل وعلى «النظام» العالمي، والجزء الناطِق بالعربية مِنه. في سنة ١٩٦٧، كان المُعَلِّقُ على الدول العربية المُنتِجَة للبترول يستطيع أنْ يقول: «حتى الذين يَمتلِكون المالَ، ليسوا أكثر مِن جَداولَ خَلفيةٍ أصغَر مِن أنْ تُحدِثَ

(٨٠) *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 7. pp. 886ff.. and Hourani, *A History of the Arab Peoples*, pp. 418-419.

تأثيراً مهمّاً»[٨١]. تَغيَّر كل ذلك الآن. وفجأةً أصبحَ لدَى أثرياءِ العرب في السعودية والكويت وغيرها أموال طائلة تُمكِّنُهم من شراءِ مَواقِعهم في التيارات الرئيسية.

فجأةً أصبحَ أثرياءُ العرب مُتحَرِّكين وَمَرئيين على السَّاحَة الدولية. ظَهَرَ النقابُ والحِجابُ والعقال والشيشَة في شوارع لندن، وظَهَر وزيرُ البترول السعودي أحمد زكي اليَماني على شاشات التلفزيون زئبقياً مُلتَحِياً، وظَهرَتْ صورٌ لبَدوٍ في طائراتٍ نفاثة في رسومٍ كاريكاتورية، وشيوخ بترولٍ يَحشونَ مئات الدولارات بين أثداء راقصاتٍ في شارع الهَرَم بالقاهرة، ومحلاتُ هارودز في لندن وساكس في نيويورك تَفتَحُ أبوابَها خارجَ ساعات العمل مِن أجلِ أمراءِ البترول أمامَ نِسائِهنَّ المُقنَّعات. ولكنّ صوراً أخرى مَنَحَت العربَ أو بعضهم وجوداً صَلباً في الخارج أكثر من أي وقتٍ مَضى. فبَدلاً من كونِهم موضوعَ عَداءٍ للصليبيين وأساطير زمنٍ مَضى، أو رومانسيات سينمائية حديثة، أو إزعاجاً متقطّعاً (خَطف قَنواتٍ أو طائرات)، أصبَحَ العربُ الآن شَعباً ولهم تاريخٌ وثقافة في نَظَرِ الآخرين، كما ظَهَرَ في مناسباتٍ مثل مهرجان العالَم الإسلامي في لندن سنة ١٩٧٦. لم يكن عبد الناصر آخِر العرب، فقد عادَ العربُ إلى مَسرح العالَم بدَورٍ أكبَر مما لَعِبوهُ على مَدى ألف سنة مَضت.

أما في البلاد المُنتِجة للبترول فقد أصبَحتْ الأجزاء البترولية من شبه الجزيرة العربية فجأةً مَوقِعَ بِناء وإنشاءات، وتَكاثَرتْ مِنصّاتُ البترول، والقصور، والمَكاتب الحكومية، والمدارس. تَوافَدَ الأجانبُ للعمل في «السعودية» إذا أرادوا دَفعَ قَرضِ البيت. وفي بقية أرجاء عالَم العربية أصبَحَ البترول يَعني أيضاً الحَركَة وإعادَة الاكتشاف المُتبادَل. تَدفَّقَتْ جماعاتُ العمّال والموظفين والمُعلمين وغيرهم من العامِلين من الدول الأكثَر سُكّاناً والأكثَر تَعليماً إلى شبه الجزيرة الغَنية بالبترول. حَرَّكَ كلُّ ذلك شعوراً جديداً بالعروبة المُشترَكة وكأنَّ الشّتات الكبير في القَرن السابع قد عَكَسَ اتِّجاهَهُ أخيراً. كانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة إلى معظم العرب التي أُتيحَ لَهم فيها اللقاء شخصياً بأبناء عُمومَتِهم البَعيدين منذ الفراق الأول الكبير، فيما

(٨١) Carmichael, *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*, p. 357.

عَدا قلّة منهم جاؤوا مِن قَبل إلى الحجّ المُقدَّس في مكة. كانت هجراتُ البترول نوعاً من الحجّ العَلماني[٨٢] حَلّتْ فيه آبارُ بترولِ الظَّهران محَلَّ بِئر زَمزَم المُقدَّس، وكانَ بَيتُ القَصيد هو جَمعُ الثروة في الأرض.

دَخلَتْ حجَّ البترول أعدادٌ ضخمة، ففي إحصاء سنة ١٩٧٥ أصبحَ ١,٢٣ مليون يَمَنيّ شمالي في الخارج، وكان معظمهم في دولٍ بتروليةٍ مجاورة، خاصة في السعودية. كان ذلك نحو ١٩ بالمئة من عَدد السكّان الكليّ[٨٣]، وربما أقرَب إلى نصف عَدد الرجال البالِغين، وهم الوحيدون الذين كانوا يَذهَبون للعَمل في الخارج. إذا وجِدَ نَوعٌ أكبَر من التَّضامُن فَقَد كان تَضامُن العمّال في آبارِ البترول. تُرِكَت الأسَرُ بلا آباء فترةَ سنوات، ولكن المهاجرين أرسَلوا أموالاً إلى الوطن، وعادوا في النهاية وهم يحملون ساعاتٍ لمّاعَة، مع لَقَب الحاجّ في الغالِب لِقيامِهم بالحجّ المُقدَّس أيضاً. يَذكُرُ النَّحاتُ والكاتب عاصم الباشا والِدَهُ الذي هاجَرَ قَبلَ البترول إلى الأرجَنتين وعادَ إلى سورية وإلى عَمَلِهِ السابق في صُنعِ الخِيام مِنْ شَعر الماعِز قائلاً:

عَبَّرَ والدي عن دَهشَتِه مِنَ «الثروة» التي يَجمَعُها عمّال البِناء في السعودية ودول الخليج خلال سنواتٍ قليلة، ويُقارِن نَتائجَ عَمَلِهم برصيدِ عَمَلِه ٢٨ سَنة قَضاها في آخِر الدنيا[٨٤] [غير حرفي].

ساعَدتْ أموالُ البترول على صُنعِ تَبايناتٍ اقتصادية إلى حَدٍّ ما بين الأجزاء المختلفة من عالَم العربية، وكذلك بين الحكومات والمَحكومين، وبين المُدُن والقُرى بسبب التَّحويلات التي أُرسِلتْ إلى الأُسَر في القُرى عَبرَ وسَطاء مَحَليين. في نهاية سبعينيات القَرن العشرين «كان العالَمُ العربي أكثَر تَرابطاً اجتماعياً واقتصادياً... من أي وقتٍ مَضى في تاريخِه الحديث»[٨٥]، وربما في الحقيقة منذ أوائل العصر العباسي قَبل أكثَر من ألف سنة.

---

(٨٢) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 469.

(٨٣) Jon C. Swanson, *Emigration and Economic Development* (Boulder, CO: Westview Press, 1979), p. 55.

(٨٤) عاصم الباشا، **الشامي الأخير في غرناطة: دفتر يوميات وكتابات تسنت** (أبو ظبي: دار السويدي للنشر، ٢٠١١)، ص ١٦٠.

(٨٥) Sa'd al-Din Ibrahim quoted in: Rogan, *The Arabs: A History*, p. 496.

وفي الوقت نفسه، كلما قابَلَ العربُ بعضهم، أدركوا مَدى تَنوعهم، مثلما حَدَثَ مع الأفلام المصرية. أدركَ كثيرٌ منهم أيضاً أنَّ الثَّراء المُفاجئ لم يَخدُم كثيراً أفكارَ المساواة والمَحبَّة بين الأقارب. يَفرُضُ حَجُّ مكةَ مُحاكاةً للمساواة على الأقل في ثيابِ الإحرام، أما حَجُّ البترول فقد صَنَعَ نَوعاً جديداً من نَمَطِ مَوالي القبائل القديم، أو الحلفاء، وهم المَكفولون أو الوافِدون. لم يكن لَهم وَضعيةٌ قانونيةٌ شخصيةٌ مستقلةٌ في البلاد التي ذَهَبوا للعَمل فيها، بل يجب عليهم أن يَرتَبطوا بكَفيلٍ، إما شَخصاً أو شَرِكة. وبما أنَّ العلاقةَ كانت مُؤقَّتة، فربما كانت لَهم حُقوقٌ أقلّ من حقوقِ مَوالي القبائل في الماضي. يُثيرُ هذا شعوراً بالألَم، خاصة لأنّ كثيراً من الوافدين جاؤوا من مجتمعات يَعتَبرونَها أكثَر تَحَضُّراً. يستطيع سوريٌّ آخَر أنْ يقولَ عن عمال البِناء في الخليج: «ما فينا نحطّ بلاطة جنب بلاطة تا تقوم الناقة؟!» كان مواطِنُهُ نزار قباني متَشائماً بشأن تأثير البترول على المساواة:

والعالَمُ العربيُّ يَخزُنُ نفطَهُ
في خِصيَتَيهِ.. وربُّكَ الوَهَّابُ!
والناسُ قَبلَ النَّفطِ أو مِنْ بَعدِهِ،
مُستَنزَفونَ، فَسادَةٌ ودَواب[٨٦]

ويَفور الغَضبُ أحياناً فيقول:

أو أملكُ كرباجاً بِيَدي..
جَرَّدتُ قَياصِرَةَ الصَّحراءِ مِنَ الأثوابِ الحَضَريَّةْ
ونَزَعتُ جَميعَ خَواتِمِهِمْ
ومَحَوتُ طِلاءَ أظافِرِهِمْ
وسَحَقتُ الأحذيةَ اللَّماعَة.. والساعاتِ الذَّهَبيةْ
وأعَدتُ حَليبَ النُّوقِ لَهُمْ[٨٧]

(٨٦) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٨٥٨.
(٨٧) المصدر نفسه، ص ٧٣٨ ـ ٧٣٩.

يبدو كلُّ ذلك استمراراً ساخِناً لحِوارٍ قديم بين الشعوب المُتحَضِّرَة والقبائل غير المُتحَضِّرَة، بين الحَضَر والبدو.

اللؤلؤة السوداء

مَلأت حَربُ ١٩٧٣ قلوبَ عربٍ كثيرين بالفَخر، وعلى المَدى البعيد مَلأت جيوبَ بعضِهم بالمال. ومع ذلك فقد جاءَ بَعدَها استِسلام. في ضوء فَجر الحِكمَةِ الجديد الذي أطَلَّ بَعدَ النكسة، كانت حرباً واقعيةً وليست حربَ خِطابات وشِعارات. ربما ظَلَّتْ بعضُ الرؤوسِ الحامية بَعدَ ١٩٦٧ وموتِ القومية العربية مُهتاجَةً لِرَمي الصَّهاينة في البحر، ولكنَّ أنور السادات كان أكثَر تَواضُعاً في أهدافِه الاستراتيجية:

لم تُشَنَّ حَربُ ١٩٧٣ بالنسبة إلى السادات في سبيل تحقيق نَصرٍ عسكري، بل لإعطاءِ صَدمَة للقوى العظمى لكي يُبادِروا بالتَّفاوض للوصول إلى حَلٍّ للمَشاكل بين إسرائيل والعرب(٨٨).

والمُشكِلَة أنَّ التَّلميحَ ذَهَبَ أدراجَ الرياح. وهكذا، ففي سنة ١٩٧٧ ذَهَبَ الساداتُ بنفسِه إلى القُدس من أجلِ مفاوضاتٍ مباشرة. كانت الزيارة أكثر إثارة للصَّدمَة من الحرب، فقد حَطَّمَت الصفوف والقواعد، لأنّ العرب حتى لو كانوا يتَصارَعون في الخَفاء، حاوَلوا إظهارَ واجِهة من الوحدَة في مواجَهة الصهيونية. غير أن مصر كان لديها دائماً عادة السَّير في طريقِها الخاص. وإذا كان عبد الناصر إله الشمس المُبتَسم الذي أشرَقَ في الخارج ثم غَرَبَ، فإنَّ السادات كان مَخلوقاً في الجانبِ المُعتِم من مصر، كان لغزاً مثل أبي الهول.

أدَّتْ زيارةُ القُدس إلى استِضافة أمريكا لقِمَّةٍ في كامب ديفيد في السنة التالية، واستَعادتْ مصر سيناء من الإسرائيليين. ولكنَّ السؤالَ المَركزي بشأن مُستقبل احتلال الضفة الغربية وقطاع غزّة تم تَجَنُّبه بشكلٍ كارثيّ. تَحدَّثَ الإسرائيليون بغموضٍ عن حُكم ذاتيّ في تلك المناطق دون أن يتَعهَّدوا بتَفاصيل(٨٩). حَصَلَ الأمريكانُ على مُصافَحة مهمّة في الصُّور، وغَسلوا

(٨٨) Hourani, *A History of the Arab Peoples*, p. 419.
(٨٩) Ibid., pp. 419-420.

أيديهم الآن من العَمل المُوحِل مثلما فَعَلَ مُمَثِّل روما الخاص في فلسطين بيلاطس البنطي Pontius Pilate [عندما غَسَلَ يَديهِ مِن قَرارِ إعدامِ المَسيح].

كانت اتفاقيةُ السادات مع إسرائيل «سلاماً بارداً»، وأرسَلتْ رجفاتٍ من الاشمئزاز في عالَم العربية. كَتَبَ نزار قباني في يأسٍ من المستقبل:

لقد أعطونا الحَبَّةَ التي تَمنَعُ تاريخَنا مِنَ الإنجاب(٩٠).

قاطَعَت الدولُ العربية مصر، وحتى الجامعة العربية استَيقَظَتْ مِن سُباتِها ونَقَلَتْ نفسَها من القاهرة إلى تونس. تابَعَت الكفاحَ المسلح باسم الفلسطينيين منظمةُ التحرير الفلسطينية، التي تأسست سنة ١٩٥٩، مع منظمات أخرى، وحَصَدَتْ شعبيةً في البلاد، وزادَ نَشاطُها في الخارج. تُرِكَ المصريون يَغلون في غِمار غَدرِهم.

اغتيل السادات سنة ١٩٨١ بِيَدِ مُقاتلين إسلاميين نشيطين جُدد، وربما أثارَ ذلك نوعاً آخَر من الارتِجاف في عالَم العربية، ربما تَكفيراً عن بعض خطايا مصر. قام الزمنُ بدَورِهِ في الشفاء أيضاً. ولكن أمراً لا يَقلُّ سوءاً عن كامب ديفيد سيأتي في سنة ١٩٩٣ باتفاقيات أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل. مُنِحَ الفلسطينيون أخيراً تنازلاً للحصول على «حُكم ذاتيّ» في المناطق المُحتَلّة من فلسطين. انسَحبَ الإسرائيليون حسب الاتفاق، وتَركوا حُكماً مَحَلياً مَحدوداً بِيَدِ الفلسطينيين. ولكن الأسئلة الحيوية حول المُستوطَنات الإسرائيلية في الضفة الغربية والحدود وعودة اللاجئين والقُدس تُرِكَتْ دون حَلٍّ مَرةً أخرى. كانت مَسألةُ المستوطَنات الأكثر إثارةً للخِلاف. فَسَّرَ رجاء شحادة ـ الذي يَعرفُ كثيراً عن نزاعات الأراضي بِحُكم كَونِهِ محامياً فلسطينياً ـ بأنَّ منظمة التحرير الفلسطينية التي تُمَثِّلُ الشعبَ الفلسطيني الآن «حَسبَ اتفاقيات أوسلو»:

وافَقتْ على تَركِ منطقةٍ تساوي نحو ثلث الضفة الغربية يُشارُ إليها باسم المنطقة c خارجَ منطقة السُّلطَة الفلسطينية... قَدَّمَتْ إسرائيلُ ذلك لشَعبِها على أنه اعتِرافٌ ضمنِيٌّ من منظمة التحرير بأنَّ الأرضَ التي كانت إسرائيل قد

(٩٠) قباني، المصدر نفسه، ص ٨١٣.

سَجَّلَتْ معظمها سابقاً في سِجِلِّ الأراضي التَّابِعة لدولة إسرائيل سَتظَلُّ مع إسرائيل. مَنَحَ هذا دَفعَةً قوية لبرنامج الاستيطان(٩١).

وهكذا كانت اتفاقياتُ أوسلو «أسوأ وثيقة استسلام في تاريخِنا»(٩٢). اتفق الفلسطينيون المُعتَدلون والإسرائيليون المُتطَرفون كثيراً حول هذه النقطة على الأقلّ، ولو من وجهتي نظر متباغضتين. بالنسبة إلى إيجال عامير **Yigal Amir**، وهو إسرائيليٌّ من أصلٍ يَمَني، فإنَّ تَنازلَ رئيسِ الوزراء إسحاق رابين للفلسطينيين حتى لأضيَقِ الآفاقِ في الحُكم هو استِسلامٌ مِنْ أكثَر الأنواع غَدراً. اغتالَ عامير في سنة ١٩٩٥ رابينَ وقَتَلَهُ في لَمحَةٍ مِنَ التَّناظُر عَبرَ رُدهَةِ المَرايا الطويلة التي نسميها: التاريخ، تذكُّر بتَضحِية السادات.

تُلَمِّحُ الاتفاقياتُ دائماً إلى بعض الاستسلام من الطَّرفَين، ولم يَتَّضِح أنَّ الاستسلام الأكبر كان مِن طَرف الفلسطينيين إلا بَعدَ مرورِ الوقت. والآن، بَعدَ أكثر من عشرين سنة على أوسلو، وأربعين سنة على كامب ديفيد، أصبَحَت الأراضي المُحتَلَّة أراضي مَحاصَرَة. يُعتَبرُ قطاع غزّة ثالث أكثر مناطق الأرض كَثافةً في السكان على وَجهِ الأرض بَعدَ سنغافورة وهونغ كونغ. تمت السَّيطَرة على دُخولِها بِصَرامَةٍ شديدة، كما أنَّ مُغادَرَةَ سكَّانها أو مَساجينِها تكاد تكون مُستحيلة. الخروجُ عَبرَ الأنفاق هو أحَد الخيارات الأكثر سُهولة. وهكذا فإن قطاع غزّة هو مُعَسكَرُ اعتِقالٍ بِكلِّ ما تَعنيهِ هذه الكلمة على مستوى صِناعي. الضفة الغربية يشوّهها ويقطّعها جدار الفصل الإسرائيلي؛ أما أجزاؤها البعيدة عن الجدار، فإنها تلطّخ بطفح، فإنها لُطِّخَتْ بِطَفَحٍ متزايد من المُستوطَنات الإسرائيلية. أما الحُكمُ الذاتيّ للسُّلطَة الفلسطينية فهو رأسٌ حَيٌّ ربما يستطيع أن يُفَكِّرَ ذاتياً ولكنّ جَسَدَهُ خاضِعٌ للبَترِ والاحتلال الطفيلي مِثل مَشلولٍ يُمكِنُهُ أن يَشعرَ بالألم دون أن يستطيع فِعلَ أي شيء بِشأنِه.

يَنتَشرُ الألمُ خارجَ فلسطينَ إلى عالَم العربية، وما دامت إسرائيلُ جاراً عدوانياً واستفزازياً فستظلُّ هَديةً لطُغاةِ العرب. تَطوَّرَ «الكِيان الصهيوني»،

(٩١) **Raja Shehadeh**, *Palestinian Walks: Notes on a Vanishing Landscape* (**London: Profile Books, 2008**), pp. 109-145.

(٩٢) **Shehadeh,** *Occupation Diaries*, p. 160.

ذلك الطُّفَيلي المُثابِر، إلى لؤلؤةٍ سوداء ثمينة. تكادُ تكون عَدواً مُتَسامِياً أصبَحَ وجودُهُ موضوعاً لخطاباتٍ وشِعاراتٍ لا نهايةَ لها، وأعمالٍ رمزيةٍ أحياناً. فمَثلاً، أطلَقَ صدّام حسين صواريخ سكود على إسرائيل في أوائل ١٩٩١، وفازَ بتَملُّقِ كثيرٍ من العرب. سَبَّبتْ قَذائِفُهُ المُنَمَّقَة بعضَ الأضرار المادية، وأدَّت بشكلٍ مباشر إلى وفاة إسرائيليين اثنين (مات غيرهما بسبب أزمات قلبية وأسبابٍ مُشابهة)[٩٣]، وتم غُفرانُ قَتلِ عشرات الآلاف من العراقيين في عَهدِ صدّام، هذا إذا لاحَظَهم رَجُلُ الشارع في العراق. وفي سورية، كان الأسَد الأب وابنه سُعداء بِشَنِّ حربِ شِعاراتِ القتال في مواجَهةِ إسرائيل التي احتَلَّت الجولان، أرض أجدادِ مُلوكِ الغَساسنة، بينما سنَرى أنَّهما استَخدَما أسلِحَتَهما الثقيلة ضِدَّ مُعارِضيهم داخِلَ الوطن. أسلحة دَمارٍ شامل حَوَّلَتْها كلماتُ تَمويهٍ شامل. في الأرضِ التي تَبَنَّتْنِي، قالَ زعيمُ مجلسِ المُتَمَرِّدين الثوريّ: يجب إعادَة كِتابة مَناهِج المَدارس «لأنها خُطِّطَتْ مِن قِبَل أمريكا وإسرائيل»[٩٤]. ولا بد من أنَّ ذلك قد أدهَشَ وزراءَ التعليم السابقين في اليَمن. ولزيادة الخَلطِ في التَّخويف، ذَكَرَ وزيرُ التعليم الذي عَيَّنَهُ المُتمرِّدون مؤخَّراً أنَّ المَناهج قد خَطَّطَتْ لها «الدولة الإسلامية/ داعش» أيضاً[٩٥].

يُمَثِّلُ كلُّ ذلك تَعايشاً مُعتِماً غريباً: استمرار وجودِ إسرائيل العُدوانية التي تَتصرف بِظُلمٍ بَشِعٍ نحو أهلِ المَناطق التي تَحتلّها أمام القانون الدولي، مما يُطيل في عُمرِ الديناصور العربي العُدواني أيضاً، والظَّالِم أيضاً ضِدَّ أبناءِ وَطَنِه.

«الموتُ لأمريكا! الموتُ لإسرائيل»، يَصرخُ الأطفالُ الصِّغارُ في السَّاحة تحت بَيتِي. ولكنْ، هل يَعرف الذين يُعَلِّمونَهم تلكَ الصَّيحاتِ أنه لو ماتَ هؤلاء الأعداء فِعلاً فإنهم سَيموتون أيضاً؟ والمُفارَقة الكبرى بأضعافٍ مُضاعَفَة هي أنهم لَن يَستطيعوا مواجَهَةَ الظُّلم الإسرائيلي من مَوقِع القوة الحقيقية، مَعنوياً وليس عَسكرياً[٩٦]، إلا إذا انقَرَضَتْ الديناصورات وأصبحَ

(٩٣) الأرقام من الموقع الإلكتروني لـ: Jewish Virtual Library

(٩٤) report in baraqish.net, 14 September 2016.

(٩٥) report in baraqish.net, February 2017.

(٩٦) cf. Abdallah Laroui quoted in: Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*, p. 214.

العربُ أحراراً بالفِعل، وأنَّ كل تلك الحركات نحو الحرية ذاتِها قد وصَفَها الطُّغاة بأنها مُخَطَّطٌ إسرائيلي. سنَرى أنَّ «الربيع العربي» سَيتم وَصمُهُ بنجاحٍ مِنْ جِهَةِ القُوى الرجعية بأنه «الربيع العربي الصهيوني».

إنها معضلةٌ كبرى، ولكنها جُزءٌ من استمرارٍ كبير هو قيامُ إمبراطورياتٍ غريبة بتَشكيلِ الهويةِ العربية والتاريخ العربي منذ أيام آشور وبابل. الفارق هو أنَّ إسرائيل هي إمبراطوريةٌ صغيرة، وهي اللؤلؤةُ السوداء، والخنجَر الذي يَدورُ في الخريطة، وأنها تَقومُ بالتَّشكِيلِ مِنَ الدَّاخل(*). وهناك أيضاً تلك الثروةُ السائلة السوداء التي تَكمُنُ تحت أرضِ «جزيرة العرب»، وبغَزارةٍ كبيرةٍ تحت الأقواس القاحِلَة بين الهلالَين الخَصيبَين الشمالي والجنوبي. أعادَتْ هذه الثروة السوداء شَكلَ عدمِ توازنِ السعادةِ القديم بين الصحراء العربية واليَمن السَّعيد، كما أنها دعَمَتْ مُستوياتٍ جديدة من الجَشَع، وأشكالاً جديدة من الحُكم، خاصة منذ تلك القَفزَة في العائِدات سنة ١٩٧٣ التي أصبحَ بفَضلِها شيوخُ القبائل مُلوكاً أصحابَ سُلطَةٍ مُطلَقةٍ مِثلَ غيرهم في تاريخ البشرية.

في أوائل ثمانينيات القَرن العشرين، بَعدَ نحو عَقدٍ مِن وفاة عبد الناصر والقومية العربية، يبدو أنَّ الطُّغاة والمُلوك العرب قد قيَّدوا عالَمَ العربية فيما بينهم بدرجة أو أخرى. كانت هنالك استِثناءاتٌ في لبنان المُنقَسِم المُتفَجِّرَ، واليمن الجنوبي حيث تم التَّخلِّي عن الفِقهِ الإسلامي لصالِح الجَدَلِيَّةِ الماركسية والقَبَلية التي أُعيدَ التَّعبيرُ عنها بِشَكلِ حزبيةٍ ماوية ـ ستالينية. ولكنَّ المنطقةَ بشكلٍ عام بَدَتْ كأنها مُعَلَّقَة في شبكة من خطوط التوتر الممدودة بين أنامل الحكام، لا يمكن أن تتصافح فيها أيدي المُسيطِرين على السُّلطَة بحكم طبيعتها.

وفجأة، عادَت الوحدَة إلى جَدول الأعمال، وبَدَتْ كأنها ستسبب خلافات أشد منها في أي وقت مضى؟

(*) ربما جغرافياً، ولكنها غريبة وخارجية في المَضمون الحقيقي، وهي استمرار للهجوم الأمبريالي من الخارج (المترجم).

الفصل الخامس عشر

عصرُ خيبةِ الأمَل
المستبدون، الإسلاميون، ملوك الفوضى

غرنيكا على نهر العاصي

زُرتُ مدينةَ حَماة في سورية منذ نحو عشرين سنة، كانت مَكاناً نائِماً على نهر العاصي، تَتخلّلها بساتينُ مُتشابِكة مع أنينِ النَّواعيرِ الخَشبية الضخمة التي تَرفَع الماءَ من النهر المُنخَفضِ العميق. أردتُ بشكلٍ خاص أنْ أجِدَ قَصراً مَهيباً على ضفاف النهر هو بيت الكيلاني الذي شاهَدتُه في صورةٍ قديمة. كان للقَصر ناعورَتهُ الكبيرة الخاصة الغريبة بشكلٍ جميل، وكأنه نِصفُ قَصرٍ ونِصفُ سَفينة ذات مَجاديف. إلا أنه اختَفى، وفي مَكانِه والمنطقة المُجاورة وجَدتُّ حديقةً عامّة زُرِعَتْ بأشكالِ فُطْرٍ ضخمة بلاستيكية.

كان بَحثي عن الغَرائب أكثر نَجاحاً في الجامِع الكبير. أول شيءٍ لَفَتَ نَظَري في قاعَةِ الصلاة كان نَقشاً جميلاً قديماً لأول كلماتِ مَلحَمَةِ الأوديسة اليونانية:

ΑΝΔΡΑΜΟΙΕΝΝΕΠΕ..

أخبِرني عن الرَّجُل الذي...

بَعدَ ذلك لم تكن كلمات هوميروس، وليست عن أوديسيوس، بل عن شخصٍ اسمُه إلياس[1]، ولم تُسعِفني مَعرفَتي السابقة باللغة اليونانية في فَهمِ

(1) The inscription is the base of a missing statue commemorating a man who built a public bath, possibly around the fifth century AD. See: =

المَزيد. كانت مُفارَقَةً مضاعَفة، يونانيةٌ في جَامِع، وهوميروس لم يكن هوميروس. عندما نَظَرتُ حولي كان كل شيء خَطَأً أيضاً. كنتُ أعرِفُ أنَّ جامِعَ حَماة الكبير كان أمويّاً عُمره ١٣٠٠ سنة، ولكن لم تكُن فيه علاماتُ بِناءٍ عتيق، وكثيرٌ من أجزائه بَدَتْ كأنما بُنِيَت البارِحَة. ظَهرَتْ فيه تَفاصيل مُتَنافِرة، مثل أبوابٍ مِنَ الألمنيوم كُتِبَ عليها: ادفَع. يؤدّي البابُ إلى غُرفَةِ دَفنِ حاكِمٍ مِنَ القَرن الثالث عشر من عائلة صلاح الدّين. ظَهَرَت الغرفةُ وكأنها بُنِيَتْ على عَجلٍ منذ وقتٍ قريب. اختَفَتْ لوحَةُ القَبر الأصلية، ووضِعَ مَكانَها شيءٌ بُنِيَ بِشَكلٍ غير مَتينٍ أفضَل قليلاً مِن عُلبَةِ تَغليف.

قلتُ لبعضِ الحاضِرين في الجامع الذين كانوا يَتجوَّلون مَعي لإرشادِي: «لم أتوقَّعْ أنْ أجِدَ كلَّ هذا التَّرميم». لم يُجيبوا بشيء.

كان الجامعُ الكبير وبَيتُ الكيلاني وكثيرٌ من حَماة قد دُمِّرَ قَبلَ خمس عشرة سنة من زيارتي في شباط/فبراير ١٩٨٢ بقَصفٍ جَويٍّ تَبعَهُ قَصفٌ مِدفَعيّ[٢]. كانت حَماة مثل غرنيكا عربية Arab Guernica ونموذجاً لمَذبَحةٍ آليةٍ حديثة. كان معظم القَتلَى من الإخوان المسلمين الذين يَتبَعون إسلاماً مُحارِباً جديداً، وكانوا قد استَولوا على المدينة قَبلَ ذلك بأربعة أيام. قُتِلَتْ معهم عائلاتُهم بالطبع، وجيرانُهم وكثيرٌ ممن صادف وجودهم آنذاك. كان الرجلُ المَسؤول عن الدَّمار هو حافظ الأسَد، وهو نموذجٌ جديد ـ قديم من الطُّغاة. سَيطَر على سورية سنة ١٩٧٠، ولم يَرضَخ للمَطالِب المُتزايدَة من الإسلاميين المُتَشدِّدين. كَلَّفَ قِتالُ الخطوط المتَصلِّبة في حَماة نحو ٨٠٠٠ ـ ٢٥٠٠٠ حياة[٣]، وهو ما يعادِلُ خمسة أضعاف عدد ضَحايا غرنيكا الإسبانية حسب التقدير الأقل، أما التقدير الأكبر فهو أكثر من عدد ضحايا قَصف لندن في الحرب العالمية الثانية، ولا يستطيع أحَدٌ أن يتأكَّد من ذلك. يَستَندُ التأريخُ كثيراً إلى مِثلِ هذه الإحصائيات المختلفة، حتى عندما يَحدُثُ في ذاكِرةٍ حَيَّةٍ حديثة. لا يَتذكَّر كثيرٌ ممن هم خارج سورية أحداثَ حَماة، ولم

René Mouterde et Claude Mondésert, "Deux inscriptions grecques de Hama." *Syria*, vol. 34,= nos. 3-4 (1957), pp. 284-287.

(٢) Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Penguin, 2011), p. 513.

(٣) Michael Haag, *Syria and Lebanon*, Cadogan Guides Series (London: Cadogan, 1995), p. 153.

يكن لدى ضحايا حَماة رسَّام عظيم مثل بيكاسو ليُخَلِّدَهُم [في لَوحةٍ مِثل لَوحَةِ غرنيكا الإسبانية]، ولم يكن لديهم تشرتشل ليُشَجِّعَ النَّاجِين. كان الصمتُ هَيكلَ خلودِهم داخل الوطن، والأماكن الفارغة الجديدة، والصُّروح العتيقة التي أُعيدَ بِناؤها على عَجَلٍ في حَماة.

كان كل ذلك لازِماً للسيطرة على قيادة السفينة. كانت صُوَرُ حافظ الأسَد موجودةً في كل مكان، وجَعلَتْهُ يبدو في نَظَري مِثلَ بَقَّالٍ مَحَلِّيٍّ مَألوف أكثَر مِن أن يكون قائدَ دَولة. لا شك بوجودِ خَطأ ما إذا شعرتَ أنك مضطَّرٌ لِقَتلِ أكثر من ٨٠٠٠ شخص من أهلِ وطَنكَ في ضَربةٍ واحدة. فيما عَدا الطاعون الأسود والمَغول، فإن مِثلَ هذه الأرقام من الإعدام المُفاجئ لم نَعرفْها منذ عهد الحجّاج بن يوسف الذي ذَبَحَ مُعارِضيهِ في العراق في عَهدٍ كان يُبنَى فيه الجامِعُ الكبير في حَماة. إذا أرهبتَ مُعارِضيكَ إلى الصمت فربما يؤدّي ذلك إلى وحدَةٍ مُؤقّتة، ولكنه سيَجعلُ الأمورَ أسوأ على المَدى البعيد. وقد تَحقَّقَ هذا في عدد قَتلَى حَربِ سورية الجَارية الآن والتي شَنَّها ابنُ حافظ الأسَد والذي بلَغَ عددُ القَتلَى فيها حتى يوم كتابة هذه السطور نحو نصف مليون إنسان.

بَعدَ أورفيوس ORPHEUS

كتب المؤلف الفلسطيني سمير قصير، وهو يتذكر فترة منتصف الستينيات قبل سنوات قليلة من استيلاء الأسَد الأب على السُّلطَة، أنَّ عالَم العربية «كان متفائلاً بشكلٍ عام، يبدو كأن العربَ يتَحرّكون»(٤). كان العربُ لا يزالون بروحِ نشيطَةٍ انتقالية عادَتْ إليهم مع يَقظَتهم. وما لم تكن طاغية من نَمَطٍ قديم، أو ذَكَراً مُتَفوقاً، أو فلسطينياً مَطروداً، فإنَّ العُقود المتوسطة من القَرن العشرين كانت عَصرَ أمَلٍ من جوانب عديدة. أشارَ يوجين روغان Eugene Rogan: «في الفترة ما بَين الحَربَين، حَقَّقَتْ مصر أعلى دَرجَة من التَّعددية الديموقراطية في التاريخ الحديثِ للعالَم العربي»(٥). وذَكَرَ قصير أنَّ النساء في سورية حَصَلنَ على حَقِّ الانتخاب قَبلَ نساء فرنسا(٦). وفي

(٤) Samir Kassir, *Being Arab* (London: Verso Books, 2013), p. 32.
(٥) Rogan, *The Arabs: A History*, p. 238.
(٦) Kassir, Ibid., p. 63.

منتصف الخمسينيات، ظَهرَ أنَّ العراق سيكون له مستقبل واعِد جِداً، ربما مثل «نَوعٍ مِنْ كندا المَشرق»(٧). كانت الكويت جاهزة للديموقراطية الليبرالية(٨). وعلى الرغم من أخطاءِ عبد الناصر، إلا أنه كان يَشُعُّ بالأمَل. لا بد من الاعتراف بأنَّ نكسة حَرب ١٩٦٧ مع إسرائيل قد أضَرَّتْ تفاؤلَه كثيراً، ولكن ثورةَ أسعارِ البترول في السبعينيات أعادَت الحياةَ للعرب، ومَنحَتْهم أمَلاً جديداً. حتى في أرضي بالتَّبَنِّي التي تبدو عالِقَةً في الجبال وفي التاريخ، كانت موضوع كتاب أُصدِر عنها في أوائل الثمانينيات تحت عنوان «**اليَمن يَدخُل العالَم الحديث**»(٩). تحدَّثَ العربُ في كل مكان عن التَّقدم.

وفجأةً، توقَّفتْ حَركَةُ التقدم في الثمانينيات عندما اقتَرَبَ التأريخ الإسلامي من قَرنِهِ الخامس عشر. لم يكن مُفتَرَقَ طُرُقٍ أو تَرَدُّداً، بل استِدارَة كاملة بالنسبة إلى كثيرين. وكأنما بَدأ العرب بالشّعور أنَّ طريقَ التقدم تقودُهُم إلى منطقةٍ غريبة، إلى «العالَم الحديث»، بل إلى خارج عالَمهم العربي نفسه كذلك. كان ذلك على الأقل هو الإنذار الذي طَرَحَتْهُ عليهم مَوجَةٌ جديدة من المستبدين والإسلاميين الرَّجعيين. زادَ في قوَّتِهم انتفاخُ الثروة في المنطقة، وتَحريكُ القوى العظمى، وأخيراً تلك الخَميرة العتيقة الأخرى في تاريخ العرب، التَّطور في تَقنيات المَعلوماتية. استَخدَموا شِعارات قديمة بطرائق مُبدِعَة ومُقنِعة.

ربما شَكَّلوا مَوجَةً جديدة، كما أنهم وَرَثَةُ قوةٍ عتيقة جِداً كانت على وشك السقوط من أيديهم. في سنة ١٩٧٠ بَعدَ إصدار الطَّبعة العاشرة من كِتابِهِ «**تاريخ العرب**» الذي كان يُجَدِّدُه على مَدى ثُلُثِ قَرنٍ، كَتَبَ فيليب حتّي:

إعادةُ بناءِ المجتمع العربي على قاعدةٍ سياسية ديموقراطية، وتَوفيقُ الإسلام مع العالَم الحديث، تَظَلُّ [هذه المهمة] أكبرَ المَهام التي تُواجِه

(٧) Jan Morris, *Sultan in Oman* (London: Eland Books, 2000), p. 83.

(٨) Edward Atiyah, *The Arabs* (Harmondsworth: Penguin, 1955), pp. 222-224.

(٩) Ibrahim Rashid, *Yemen Enters the Modern World* (Chapel Hill, NC: Documentary Publications, 1984).

الجِيلَ المُعاصِر[١٠].

كانت تلك أكبر المَهام في عدة طَبعات من كِتابِه. في الواقع، شَغَلَتْ عمليةُ الإصلاح ستة أجيالٍ من المُفكّرين العرب منذ بداية النهضة في النصف الأول من القَرن التاسع عشر. في سنة ١٩٨٠، كانت عمليةٌ مازالت تحتاجُ إلى مَزيد من الوقت والتقدم إلى الأمام. على مَدى أربعة عُقودٍ تقريباً أوقَفَ المُتَسَلِّطون السياسيون والمُتَسَلِّطون الإسلاميون إعادَةَ بِناءِ المجتمع والتّوفيقِ الإسلامي في كل خُطوة. وهو ما يَتوقَّعه المَرء، لأنّ آخِر شيء يريدونه هو أنْ يَخسَروا السُّلطَة. وما هو أكثر إثارةً للاستغراب هو أنَّ معظم العرب قد ساروا معهم بصَمتٍ وطاعَةٍ إلى الوراء.

في تلك الأثناء، كانت رؤيةُ الوحدَة، الشبح المُتلألئ الذي سَعى العرب إليه في عَهدِ عبد الناصر، فارِسهم وساحِرهم وبَطَلهم الذي يُشبِهُ أورفيوس الإغريقي، قد تلاشَتْ أيضاً، ربما إلى الأبد.

أهلُ الكَهف

مع ذلك الشبحِ الهارب، كأنَّ كثيراً من العرب بعد عبد الناصر قد فَقَدوا الخَيطَ الذي يَربطُهم إلى عروبَتهم، وفَقَدوا التّعريفَ الذي حَدَّدَهم كَشَعب: العرب. ولكن في مَتاهَة العالَم الحديث، لِبَعثِ أسطورة أخرى من تحت الأرض، كان هناك خَيطٌ آخَر لِيَتبَعوه. يقولُ القرآن:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١١].

وقد رأينا أنَّ «الحَبلَ» هو أيضاً «العَهد والعَقد المُلزِم» ومن الواضِح أنه الاصطلاح نفسه الذي استُخدِمَ في النقوش القديمة للمُعاهدات التي عُقِدَتْ تحت رعاية إلهٍ مُقدَّسٍ رَبَطَ الدولَ المُتحالِفَة قَبلَ الإسلام في جنوب شبه

(١٠) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (New York; London: St Martin's Press, 1970), p. 755.

(١١) القرآن الكريم، «سورة العمران،» الآية ١٠٣.

الجزيرة العربية[١٢]. هل يستطيع الإسلام الآن أن يكون حَبلَ الوحدَة مَرةً أخرى؟ كانت الفكرةُ مُغريَةً، ولكن الواقع أكثر تعقيداً. الرابِطَةُ التي شَدَّتْ الدولةَ الإسلامية في المدينة قد انفَرَطَتْ خلال جيلٍ واحِدٍ بَعدَ وفاة محمد، وقد ضَعُفَتْ أكثر بَعدَ ذلك. يُصِرُّ الآن مُطالِبون طائفيون عَديدون على أنَّ لديهم الرابط الحقيقي الوحيد، ومِنَ المستحيل مَعرفَة مَن الذي يجب اتِّباعُه إلى المستقبل المُبهَم. كان البديلُ بالطبع هو فِعلُ ما فَعَلَهُ المُوحِّدون والوهّابيون وما حاوَلوا أن يَفعَلوه، والسَّير في الاتجاه الآخَر إلى الوراء نحو الوحدَة العابِرة المَجيدة في مدينةِ محمد. سَينتَشرُ هذا الاتجاه التَّراجعي بشكلٍ كبير في الإسلام في العقود الأخيرة من القَرن العشرين حتى أصبَحتْ اصطلاحاتٌ مِثلَ «الوهّابية» و«السَّلَفية» ضَيقةً للغاية وخاصَّةً جِداً به. ربما يكون أحَدُ الحُلولِ هو أنْ تُعتَبَر سياساتُ الدِّين مِثل الاتِّجاه إلى الأمام أو إلى الخلف، مثلما يتمّ التَّعبير عن السياسات العَلمانية بشكلٍ مُريحٍ وربما مُبَسَّطٍ باصطلاحاتِ اليمين واليسار.

كان المُقاتلون أصحابُ المُيولِ الرجعية في حَماة يَحلمون بتحويلِ سورية إلى دولةٍ إسلامية، بما يُشبِهُ الطليعةَ العربية للإسلام السياسي الجديد، ويَرجِعُ ذلك جزئياً إلى أنهم يَقفون في تَباينٍ حَادٍّ مع المَوقف العَلماني لسورية البَعثية والماضي القومي الأخير في المنطقة. كان الإسلامُ سياسياً منذ أن هاجَرَ محمد إلى يَثرب وأصبَحَت «المدينة» مَدينته وعاصِمَته. منذ ذلك الحين، استَخدَم الزعماءُ العرب الإسلامَ دائماً لأهدافٍ سياسية، مِنْ أبي بكر الصديق الذي هَزَمَ قبائل المُرتَدّين (المُعارَضَة بكلمة أخرى) في شبه الجزيرة العربية، إلى عبد العزيز آل سعود الذي احتَلَّ معظم شبه الجزيرة في القَرن العشرين بغُزاتِهِ من رجال القبائل الوهّابيين. لعلهم كانوا يَستخدِمون السياسةَ لأهدافٍ إسلامية؟ يَصعُبُ على البَشَر التَّفريقُ بينَ الحالتَين.

ولكنّ هناك أمراً جديداً ومختلفاً في الإسلام السياسي بشَكلِهِ العالَمي الحالي، فهو من صُنعِ العَولمة المُعاصِرة ومن النتائج الجانبية لفَشَلِ القومية العربية العَلمانية. ولهذا يبدو جديداً بالنسبة إلى مُراقِبٍ مِثل عليّ العَلاوي الذي يستطيع أن يقول: «لا أذكُرُ أبداً قراءةَ كلمة الجهاد في أيّ سِياقٍ

---

(١٢) قارن: ص ١٠٨ ـ ١١٠ من هذا الكتاب.

مُعاصِر»[١٣]، عندما كان يَكبر في خمسينيات القَرن العشرين في العراق. ومع ذلك، حتى في تلك الفترة، كانت الحركَةُ تَنبُت. اقتَضى الأمر جُهدَ أديبٍ أمريكي في أقصَى عالَم العربية لملاحَظة ذلك بوضوح. كَتَبَ بول بولز Paul Bowles عن خَليَّةٍ في حَرَكَةِ الاستقلال المغربية سنة ١٩٥٤، وعَرفَ أنَّ معظمهم كانوا مُتوجِّهين مع مصر عبد الناصر، غير أنَّ واحِداً منهم، اسمه بِنانِي، كانت لديه أفكارٌ مختلفة:

كانوا يَحلمون بالقاهرة، بحُكومتها المستقلة وجَيشها وصَحافتها ودور السينما فيها، بينما كان بِنانِي يَحلمُ وهو في الاتجاه ذاته فيما وراء القاهرة... بمكة. كانوا يُفكِّرون بالمَظالِم والرَّقابَة والالتِماسات والإصلاح، بينما كان هو... بالقَدَر والعَدالَة الإلهية... شاهَدوا المَصانع ومحطات توليد الكهرباء تَنهضُ في الحقول، بينما نَظَرَ هو إلى سماواتٍ تَشتعلُ وأجنِحَةِ مَلائكَةِ الانتقام، والدَّمار الشَّامل[١٤].

بالنظر إلى ضَوء أيلول/سبتمبر المُتوَهِّج سنة ٢٠٠١ والهَجمات على نيويورك، فقد كانت تلك رؤية تَنبؤيَّة تَقشَعِرُّ لها الأبدان. بعد فترةٍ وجيزة، كان مراقبون سياسيون مُخَضرَمون يَبدؤون بتَوقُّع نمو إسلامٍ سياسيٍّ جديد. فمَثلاً، في سنة ١٩٥٥ كَتَبَ إدوارد عطية: «إذا فَشلَت الديموقراطيةُ الغربية والديكتاتورية العَسكرية الإصلاحية، فإنَّ البَديل سيكون قوى الإسلام الإحيائيَّة الدِّينية»[١٥]. قبل ذلك الحين، كان الإسلام السياسي يبدو كأنه النقيض المباشر لكل ما هو معاصر وعالمي: بل كان يبدو كأنه محدود اللأبعاد وخارج من الزمن.

كان أحدَثُ نَجاحٍ سياسي وعسكري رئيسي يتَمَثَّلُ في غَلَبَةِ التَّحالف الوهّابي ـ السعودي، وكان مَحصوراً في شبه الجزيرة العربية التي ظَلَّتْ قَبَلية قَبلَ البترول، ولم يَتغَيّر فيها المجتمعُ كثيراً منذ القَرن السابع. أما الإسلامُ السياسي الجديد فسيكون بعيداً عن التفكير المَحدود، وأرضُ المِيعادِ فيه هي العالَم كله. إنه تَطورٌ مَنطقيٌّ، فقد حَقَّقَ محمد التوحيدَ سياسياً ودينياً في

(١٣) Ali A. Allawi, *The Crisis of Islamic Civilization* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009), p. ix.

(١٤) Paul Bowles, *The Spider's House* (New York: Random House, 1955), p. 104.

(١٥) Atiyah, *The Arabs*, p. 240.

«جزيرة» العرب. ونَشَرَهُ خلفاؤه في شبه القارّة العربية. حاوَلَت الفتوحاتُ التالية فَرضَهُ في العالَم القديم الأوسَع. والآن، في عَصر العَولمة، أصبَحَ المِثالُ أكبَر. وهكذا سيكون الشعور بالفَشل والغَضب أكبَر عندما يَصطَدِم المِثالُ بحقائِقِ كَوكَبٍ كثيرِ التَّنوع على الرغم من تَواصُلِهِ، ونَفتَرِضُ أنه سَيظَلُّ كثيرَ التّنوع بشكلٍ لا يمكن نَقضُه.

هناك عوامل رئيسية ثلاثة نَشَّطَت الإسلامَ السياسي بعد الغزوات السعودية. نَشَأتْ جميعُ هذه العوامل خارج السَّاحَة العربية. الأول كان تلك الانتصارات السَّاحِقة ولكن المُرشِدَة لليهودية السياسية والعسكرية في ١٩٤٨ و١٩٦٧[١٦]. والثاني كان الثورة الإسلامية في إيران في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩. وهنا ظَهَرَ إسلامٌ لا يُوحّدُ ويُنَشِّطُ رجالَ قَبائل فُقَراء، بل يَستولي على دولةٍ غَنية كان نِظامُها مَدعوماً مِن أحَدِ «الأسود» الأخيرة الذي يُمَثِّلُ الولايات المتحدة الأمريكية. كان الكفاحُ ضد الاستعمار التقليدي قد نَجَحَ في العُقود التي تَلَت الحرب العالمية الثانية مباشرة، أما النضال ضد الإمبريالية الجديدة الثقافية والاقتصادية في الحرب الباردة، فقد يَنجَحُ بِعَون الله (أو على الأقل باسمِه في آية الله الخُمَيني)، بدلاً من عبد الناصر أو غيفارا. دَخَلَ العامِلُ الثالث في نهاية تلك السنة نفسها ١٩٧٩ حين انقَضَّ الأسدُ الثاني، السوفياتي، على أفغانستان. وبمبارَكَةٍ مِنَ الولايات المتحدة الأمريكية وبِعَون الله، ذَهَبَ مُقاتلونَ عَرب للانضِمام إلى المُقاوَمة الأفغانية منذ سنة ١٩٨٣. رَحَّبَ الغربُ بالمُجاهدين الأفغان «والأفغان العرب». ستأتي فيما بَعد صِياغَةُ الدِّلالاتِ القائِمَة في كلمة «الجِهاديين».

في الحالاتِ الثلاث، كانت الضغوط مِنْ إمبراطورياتٍ أجنبية، أمريكا والسوفيات والإمبراطورية المَزروعَة الصغيرة إسرائيل، وكانت هذه الامبراطوريات تشَكِّلُ المنطِقة وتصنَع هويةً عربية، أو بِشَكلٍ أدَق تعيد تَشكيلَها كهويةٍ إسلامية، ليس فقط للشباب العرب الجُدد الذين ذَهبوا إلى أفغانستان. قامَتْ صَحيفة **الشرق الأوسط** بإجراء استِبيان سنة ١٩٨١ تَحدَّثَ فيه المُستجيبونَ العرب عن مِثالِ الوحدَة العربية. شَعروا بأنها انكشفت

(١٦) Fouad Ajami, *The Arab Predicament* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981), pp. 69-70.

كأسطورة، لكنهم مازالوا يشعرون بأنهم عرب بقوة ـ حتى لو لم يتمكنوا من تفسير السبب، إلا من حيث «الغموض رغم المَشاعر القوية». أظهَرَت النتائجُ أنَّ الهويةَ العربية في خَطَر «لأنَّ كَونكَ عربياً هذه الأيام على مستوى فَردي أو قومي يَعني أنْ تكونَ في أزمَةٍ بِشكلٍ ربما أكثر حِدَّةً من أي وقت مَضى منذ خمسين سنة»[١٧]. كان الاستبيان صَغيراً، واستِنتاجاتُه غامِضَة وانطِباعية، ولكن يبدو أنها تؤكِّد أنّ الحَبلَ العربيَّ قد ارتَخَى، أو أنه قد انقَطَع.

مع بداية الألفية الجديدة، كانت أزمَةُ الهويةِ العربية تتَسارع نحو الظُّهور. أظهَرَ استطلاعٌ أُجرِيَ في سِتّ دولٍ عربية سنة ٢٠٠٥ أنَّ نِصفَ المُشارِكين تقريباً عَرَّفوا أنفسَهم كمسلمين أولاً، والثُلث فقط كعَربٍ أولاً، وأقلية صغيرة كمواطِنين في دَولةٍ مُعيَّنة. يبدو أن شعورَ المَرءِ بعروبَتِهِ قد بَدَأ يَنحَسِر. أظهَرَت استطلاعاتٌ تاليةٌ أنَّ ٧٩ بالمئة من المُستَجيبين ذَكَروا أنَّ أولَ هويةٍ لَهم هي الإسلام (في مصر)، وأقلَّ مِن ١٠ بالمئة ذَكَروا أنَّ أولَ هويةٍ لَهم هي العروبة (في مصر والأردن والسعودية والمغرب والعراق والجزائر)[١٨]. ربما لم يكن عبد الناصر آخِر العرب[١٩]، ولكن منذ وفاتِه ودَفنِه دُفِنَت العروبةُ تحت هويةٍ إسلاميةٍ نامِية وجديدة من بَعضِ الجوانب.

ربما ساعَدَ النَّعيَ أنَّ واحِداً من أسودِ الحرب الباردة قد قضى نحبَه في ١٩٩١ جزئياً كنتيجةٍ للإرهاقِ مِن مُغامرتِه الأفغانية. انحَرَفَ اتِّجاهُ العالَم الجيو ـ سياسي عند ذلك، وأصبَحَ طَريقُ «التَّقدم» و«الحَداثة» أكثرَ تَضليلاً. فَقَدَ اليسارُ واليَمينُ تعريفَهما، تَمَسَّكَ زعماءُ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي السابق بالسُّلطَة، ولكنهم انحَرفوا نحو «اليمين». كانت الصينُ شيوعيةً اسمياً، ولكنها استَدارَتْ وأصبَحتْ رأسماليةً على نطاقٍ واسِع. في الوقت نفسه، بَدأ دَورُ مِحوَر الأمام ـ الوراء، استَدارَ «اليَمين» المُتَدَيِّنُ الأمريكي نحو ماضِيه المُتزمِّت، وأدَار ظهرَه إلى عُقودِ «التَّسامح» بَعدَ الحرب. ظَهَرَ الروسُ التقليديون مِنَ الغابَة، ونادُوا باستِعادَة روحِ القَيصرية.

---

(١٧) ورد في: David Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1989), p. 373.

(١٨) Lawrence Pintak, "Border Guards of the "Imagined" Watan: Arab Journalists and the New Arab Consciousness," *Middle East Journal*, vol. 63, no. 2 (2009), p. 196.

(١٩) قارن: ص ٦٥١ ـ ٦٥٢ من هذا الكتاب.

فأيّ اتِّجاهٍ سَيتَّخذُهُ العربُ في غَمرةِ هذا الدَّوَران العالَمي؟ وهل سَيتَّجهون مَعاً كَجِسم واحِد؟ يبدو من المُحتَّم أنَّ إسلاماً مُتَنَشِّطاً رَجعِياً ربما سَينجَحُ في خلق تَضامُنٍ عربيٍّ حيث فَشِلَت القوميةُ العربية العَلمانية، وتحت غِطائِه العَقائدي الجديد الذي يُشارُ إليه باصطلاح «الإسلامية» سيُحاولُ تَحقيقَ ذلك التَّضامُن كجُزءٍ مِنْ رِسالَتِه إلى وحدَةٍ عالَمية.

ولكنَّ محاولةَ تَكرار القَرن العربي السابع في القَرن الحادي والعشرين العالمي واجَهَتْ تحدياتٍ كثيرة. في المرة الأولى كان هنالك «تَطابقٌ» بين الإسلام والعرب، فقد ولِدَ الإسلامُ في شبه الجزيرة العربية من رَحِم مُعتقداتٍ وعاداتٍ عربية، ولكن الإسلام ذاته قد أصبَحَ عالمياً منذ زَمَنٍ طويل، وأضحَى بعيداً جِداً عن أصولِه العربية. فإضافة إلى الحقيقةِ الواضِحة أن ليس جميعُ العرب مسلمين، فالعربُ أنفسُهم مُتَنوِّعون جِداً منذ البداية، وقد أصبَحوا أكثَر تَنوعاً بَعدَ انتِشارهم في القارّات والقرون والسلوكيات. ذَكرتُ في فَصلٍ سابقٍ أخَوَين في القَرن الثامن انتَهتْ بهم الأحوال ليُصبحَ أحَدُهما حاكِماً في السّند والآخَر في شمال أفريقيا[٢٠]، والآن هناك أبعادٌ أكثَرُ مِنَ المَسافة، يمكنني أنْ أذكُرَ أخَوَين مِن مَعارفي، أحَدُهما لاعِبُ غولف مُحِبٌّ للطعامِ الفاخِر، والآخَر مُتَعاطِفٌ مع تنظيم القاعدة. قِياسٌ واحِدٌ لا يُناسِبُ الجميع.

وَجَدَ الإسلاميون المُعاصِرون أنكَ قد تَستطيعُ قَلْبَ السَّاعَةِ الرَّملية وتَستَعيدُ المَعاركَ والاستِشهاد، ولكن من الصعب أنْ تَجعَلَ الزَّمَنَ يَجري في الاتِّجاهِ المُعاكِس نحو الانسِجام المُتَخَيَّل في المَدينة الفاضِلَة، حتى لو كان اللهُ إلى جانبكَ. وهكذا أصبَحَ المؤيدون المُتطَرِّفون للإسلامية، مِثل «الدولة الإسلامية/داعش»، يُشبِهون أهلَ الكَهف[٢١] (القصة التي يَشترِكُ فيها القرآن مع المسيحية). تقولُ الروايةُ إنَّ أهلَ الكَهف قد اضطُهِدوا بسبب عَقيدتهم التوحيدية تحت حُكم الإمبراطور الروماني ديكيوس Decius في القَرن الثالث، فَلَجَؤوا إلى كَهفٍ حيث وَضَعَهُم اللهُ في حالَةِ سُباتٍ فترةَ ٣٠٩

(٢٠) انظر: ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ من هذا الكتاب.

(٢١) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآيات ٩ ـ ٢٦.

سنوات حسب الرواية القرآنية(٢٢)، وأيقَظَهم بأمانٍ أثناء حُكم الإمبراطور المُوحِّد ثيودوسيوس الثاني Theodosius. نقطَةُ التَّشابُه هي أنَّ اليَقظَةَ العربية في القَرن التاسع عشر كانت حَرَكَةً عَلمانية في أُسُسِ مَفاهيمها لأنها تَعتَرِفُ بمُرورِ عُصورٍ saecula مِنَ النوم الطويل، وضرورة التَّأقلُم مع التغيير. وبالمُقارَنة، فإن الإسلاميين الذين استَيقَظوا حديثاً يَجِدون أنفسَهم خارجَ السِّباق في عالَمٍ قد تغيَّر (من وجهَةِ نَظَرِهم، فقد أصبَحَ العالَمُ خارج سِياقِهم بالطبع). والحَلُّ عندهم هو تَجاهُلُ التَّغير، وتَجاهُل القوانين الأساسية للكَون والفَساد التي تَحكُم العالَم، وإنكار التاريخ والزمن.

قِيلَ إنَّ: «الإحساسَ بالتاريخ هو شُعورٌ بالخَسارة»(٢٣)، وهو أيضاً إحساسٌ بالتَّغيُّر. وهكذا، عندما يَرفُضُ الإسلاميون السياسيون المُعاصِرون التاريخَ، فإنهم يَرفُضون الحياةَ العضوية وقوةَ مُرونَةِ الإسلام الذي جَدَّدَ نفسَه باستمرار في عالَمٍ مُتغيِّر، وتَأقلَمَ مع تَعقيداته، ونَضَجَ. فِكرَةُ أنَّ الإسلامَ «هو عمليةٌ مُتَطورة مِنْ إيمانٍ وسلوكٍ تَرتَبطُ بالثَّقافَة»(٢٤) ليست فِكرةَ المؤرخين وعُلماء الإنسان فقط. لو كان الإسلامُ صَخرَةً صلبَةً لَتَحطَّمَتْ سريعاً فَورَ ظُهورِ الشُقوقِ الأولى.

استعاد الوهّابيون بدايات الإسلام على مستوى شبه الجزيرة العربية، واستعادت القوميةُ العربية عَصرَ التَّدوين، عَصر الاستقرار العباسي، حين تَمَّ توثيقُ روحٍ عربيةٍ بالحِبر. واجَهَ الوهّابيون والقوميون الشُّعوبيةَ (الخيارات الثقافية غَير العربية للعثمانيين والإمبراطوريات الأوروبية) بطرائق مختلفة. وفي أيامنا هذه، كان الإسلامُ السياسي يُحاولُ استعادة الكثير إنما على مُستوى أكبر. يُقاتِلُ الإسلاميون السياسيون المُعاصِرون ضِدَّ شُعوبيةِ كلِّ العالَم المُتواصِل، المُشَعَّث، المُتَعَدِّد الثقافات، المُعقَّد، الحائِر، المُتشابِك، المُقَيَّد، المُعَلَّق، يُقاتلون مِنْ أجلِ نموذجٍ واحِدٍ لِمثالٍ سماويّ مُقابِلَ واقِعٍ أرضِيٍّ مُتَنوع. تَجذُبُ المعركةُ بعضَ النَّاس لأنها تَعِدُ بالبَساطَة بَدَلاً مِنَ

---

(٢٢) In the Christian version, from Decius to Theodosius II would be a mere two centuries at most.

(٢٣) V.S. Naipaul, *An Area of Darkness* (London: Picador, 1995), p. 177.

(٢٤) Daniel Martin Varisco, *Islam Obscured: The Rhetoric of Anthropological Representation* (New York; Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2005), p. 125.

التَّعقيد، وبالتّوحيد مُقابِل التّعددية، ولكنها أيضاً نِضالٌ في سبيل الشُّمولية ضِدَّ الفَردية. قد تُشبِهُ من هذه الناحية الأخيرة أنظِمَةً شموليةً حديثةً أخرى. كان لدينا القُمصان البُنيّة، والقُمصان السود، ولدينا الآن القُمصان السود الطويلة (ليست طويلةً جِداً، تُغطّي الرُّكبَتَين دون أنْ تَلتَقِطَ أوساخاً روحانيةً من الأرض). ولكن تتغيرُ الملابسُ والأزياء، وسَيصبحُ الإسلامُ السياسي بزيّه الحاضر موضَةً قديمة.

سَتوجَدُ دائماً نَزعاتٌ ومُيولٌ جديدة. ظَهَرَتْ في البلادِ التي تَبَنَّتنِي، وانطَلَقَتْ سريعاً إلى الوراء حَرَكَةُ الحوثيين الزَّيدية الجَديدة الهاشمية المُتفَوقة. استطاع زعيمُهم النَومَ في كَهفٍ بأمانٍ من صواريخ السعوديين ومِنَ العالَم المُتَقدِّم.

جِيرانٌ متخاصمون

بالتوازي مع الإسلامية الجديدة، ظَهَرَتْ أنماطٌ أعمَق من الهوية العربية، ومع زوال القومية العربية، يبدو أنَّ كثيراً من العرب الآن قد عادوا إلى عاداتٍ قديمة من الانفصام والغارات المُتَبادَلة، بمساعَدَةٍ خارجية أحياناً. كانت الحالَةُ القُصوى في لبنان حيث تَقاتَلَتْ بعنفٍ جميع الطوائف السّنية والشيعية والمارونية والدّروز والفلسطينيين منذ سنة ١٩٧٥. دَخَلَتْ إسرائيل أيضاً في الصّراع في سنة ١٩٧٨ وسنة ١٩٨٢. كانت المرة الثانية قَتّالَة بشكلٍ خاص حين قامَ عُملاؤها من كَتائبِ المارونيين بمَذبَحَةٍ للفلسطينيين في مخيمات صَبرا وشاتيلا.

لم تكن الغاراتُ مُتبادَلَة فقط، ففي سنة ١٩٨٠ تَجَدَّدَت الظاهرةُ القديمة من إغارة العرب على الفرس بهجومِ العراقيين على إيران. كان الفَرقُ هو أنَّ الأهدافَ العربية القديمة كانت سَوادَ العراق، وأصبَحَت الآن الأرض السوداء في صناعة البترول الإيراني. كما أنَّ المُستَبِدَّ العراقي الجديد صدّام حسين كان قَلِقاً أيضاً بسبب الثورة الإيرانية الإسلامية الشيعية واحتمال انتِشارها إلى شيعة العراق الذين يُشكِّلون أكثرية رَعاياه[٢٥]. دَعَمَتْهُ في مغامَرتِهِ إمبراطوريةٌ

(٢٥) Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, with afterword by Malise Ruthven (London: Faber and Faber, 2002), p. 432.

خارجيةٌ هي الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت مَسرورَةً لِقيامِهِ بِشَنِّ انتقام بالنيابة عنها مِنَ الإيرانيين الثوريين الذين خَلَعوا عَميلها الشّاه. إلا أن حَرَكَةَ الإغارةِ السريعة سرعان ما غَرِقَتْ في حربِ خَنادق. وبَعدَ نِهايتِها غير الحاسِمة سنة ١٩٨٨ لم يكن هناك أيّ رابِح، إنما توفي نحو مليون إنسان[٢٦].

لم يُسَرّ الأمريكان كثيراً بِغارَةِ عَميلهم الثانية على الكويت سنة ١٩٩٠. ربما يُناقِشَ أحَدٌ مثلما فَعَلَ صدّام أنّ الكويت كدَولة ذات سِيادَة قد صَنَعَها الإمبرياليون البريطانيون، ولم تُصبِحْ عُضواً في الجامعة العربية حتى سنة ١٩٦١، وأنها كانت تاريخياً مُرتَبِطَةً بالعراق في معظم الأحيان. ولكنَّ العراق ذاته كدَولة ذات سِيادة، بَدَلاً من كَونِه منطقة غير مُحدَّدة جغرافياً كأرضٍ مُنخَفِضَةٍ بين النَّهرَين الكَبيرَين اللذَين يَجتَمعان لِيَصُبّا في الخليج (أشارَ الجغرافيون إلى أنَّ الاسمَ المُشتَرَك «العراق» هو قاعُ قُربَةِ الماء)، هو أيضاً من صُنعِ رَسّامِي الخَرائطِ البريطانيين. ربما كان البريطانيون يَتخَيَّلون بأقلامِهم، ولكن خلال سبعين سنة قَبلَ ذلك رَسَّخَ البترول الحدودَ وفَرَضَ وَقائِعَهُ الخاصة. كان صدّام يحاولُ إعادةَ توحيد عِراقٍ «طبيعي» وَطَني، إلا أنه بهذه المُحاوَلة لم يَنجَح إلا بالتَفريق بين العرب كَكلّ. عارَضَتْهُ أكثريةُ الحكوماتِ العربية، ووَقَفتْ إلى جانِبِ تَحالُفٍ بقيادة أمريكا طَرَدَهُ من الكويت سنة ١٩٩١، بينما وَقَفَتْ بقيةُ الحكومات ضِدَّ ذلك التدخل بقوة. ولكن كانت هنالك انشقاقاتٌ عميقة في الدول المُؤيِّدَة للتَّحالف بين الحكومات وشُعوبِها[٢٧]. أيَّدَ معظم رِجالِ الشارع رَجُلَ العراق القوي. يَصعُبُ تَقييمُ ذلك، ولكن ربما كان غَزو صدّام للكويت مُفرِّقاً ومُقسِّماً أكثر من أية حادِثة في تاريخ العرب منذ حرب القرن السابع المَصيرية بين النظامَين القديم والجديد في قريش أثناء حُكم معاوية وعليّ، كما أنه أدَّى إلى أضخَم تَدَخُّلٍ فِعلِيّ مباشر لقوةٍ عظمى في المنطقة منذ أيام البيزنطيين والسّاسانيين. كان عَدَدُ القوات الأمريكية وحدَها ٦٥٠,٠٠٠ في التَّحالُف المُضاد لِصدّام

---

(٢٦) [يتجاهلُ المؤلفُ هنا فضيحةَ إيران غيت التي ظَهَرَ فيها دَعمُ أمريكا وإسرائيل لإيران أثناءَ تلك الحرب]. انظر: Rogan, *The Arabs: A History*, p. 518.

(٢٧) Ibid., pp. 565-571.

الذي بَلغَ عَددُ جُنودِهِ المليون تقريباً[٢٨].

حَدَثَ تَدَخُّلٌ آخَر أكثر حَسماً بعَددٍ أصغَر سنة ٢٠٠٣ عندما قادَتْ أمريكا غَزوَ العراق بقَصدِ خَلعِ صدّام عن السُّلطَة. ونَجحَتْ في ذلك. ولكن ما حَدَثَ بَعدَها لم يكن جزءاً من الخطّة، لم تكن هنالك خطّة. وَضَعَ خطّةَ الغَزو الرئيسُ الأمريكي جورج بوش الابن مع مُستشاريهِ مِنَ المُحافِظين الجُدد. كان يريدُ خَلعَ حَاكِمٍ وَصَفَهُ بشكلٍ زائفٍ أنه خَطَرٌ على الغرب، كما أرادَ أن يُحرِّرَ العراقيين منْ طاغيةٍ ثَبتَ أنه كان خَطَراً على كثيرٍ من أفراد شَعبِه. قد يبدو الهدفُ الثاني حميداً صاخِباً، ولكنه كان من الأفضَل للرئيس بوش لو أنه تَذكَّرَ قَولاً مأثوراً لجيمس بالدوين James Baldwin: «الحريةُ تُؤخَذُ ولا تُعطَى، والناسُ أحرارٌ على قَدرِ ما يُريدون»[٢٩]. لم تكن الحالةُ في العراق أنَّ العراقيين لم يريدوا أنْ يَكونوا «أحراراً»، إنما كانت الحريةُ بالنسبة إلى كثيرين منهم أمراً مُختلفاً عمّا كان في ذِهنِ الرئيس بوش. «الحرية» بالنسبة إلى العراقيين ولكَثيرٍ من العرب هي الحَقُّ بأن يَتحَكَّمَ بِهِم واحِدٌ منهم، سواء كان ذلك مِن قَبيلتهم، أو طَائفتهم، أو فِئتهم، أو جَماعتهم، أو إذا لم يَتحقَّق ذلك، أنْ يَضمَنَ حِمايَةَ واحِدٍ مِنْ جَماعة أخرى. «الحرية» لا تَعني حتى الآن في عالَم العربية ما تَعنيه مِن أصداءِ الفَردية في أماكِن أخرى. وبينما يَسهُلُ على قوةٍ عظمَى تحقيقُ «تَغيير النظام»، إلا أن تَغييرَ المُعجَم أصعَب بكثير.

ربما مازال الوقتُ مبكراً لمَعرفة النتائج البعيدة المَدى لغَزو سنة ٢٠٠٣، ولكن على المَدى القصير (في تَباينٍ مع الأحداث الحاسِمة سنة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ التي بدأتْ بغَزوِ الكويت) فقد كان لضَغطِ القوةِ العظمى التأثيرُ المَعروف في جَمع العرب إلى بعضهم، واتَّحَدَت الحكوماتُ والشعوب هذه المرّة في شَجبِ الغَزو[٣٠]. كما أظهَرَ غَزو العراق أنَّ العرب واللغة العربية لم يكن لديهم احتِكارُ «الحقيقة» الخطابية الذي ظَهَرَ كذلك في ادِّعاءات الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها عن «التهديد» العسكري الذي وَجَّهَهُ صدّام حسين على الغرب.

---

(٢٨) Ibid., p. 567.

(٢٩) James Baldwin, *Nobody Knows My Name* (New York: Dial Press, 1961), "Notes for a Hypothetical Novel".

(٣٠) Rogan, Ibid., p. 614.

تَفجَّرتْ واحتَدَمتْ صراعاتٌ في مناطق أخرى خلال هذه الفترة من تزايد الانقسام والإحباط بَعدَ عصر القومية العربية بمساعَدَةٍ خارجيةٍ خفيفةٍ أو مِن دونِها. باستِعراضِ المَشهَدِ من المغرب إلى المشرق، كان المغرب والجزائر جارَين سَيئين خصوصاً بسبب دَعم الجزائر لجَبهَة البوليساريو، وهي حَركَةٌ انطلَقَتْ سنة ١٩٧٥ للتَّخلص من السَّيطَرة المغربية على المُستعمَرة الإسبانية السابقة في الصحراء الغربية. وفي الجزائر نفسها، رَبِحَ الإسلاميون الجَولَةَ الأولى من انتخاباتٍ وطنية في نهاية سنة ١٩٩١، ألغَى بَعدَها الحزبُ الحاكِم الجَولَةَ الثانية، وأطلَقَ حَرباً أهلية ربما قَضَتْ على ١٠٠,٠٠٠ شخص أو أكثر[٣١]. في ليبيا المُجاوِرة، سَيظَلُّ الديكتاتور المَسرحي معمّر القذافي في السُّلطَة نحو أربعة عُقود ليَبدأ عَرضاً لمُمَثِّلٍ واحِد لعَصرِ خَيبةِ الأمَلِ، ولَعِبَ دَورَ الناصريّ، وما بَعدَ الناصريّ، والإسلامي، والبَدَوي الجديد، وأخيراً الحاكِم المُطلَق المُسِنّ المُنعَزِل. استطاعَ خلال ذلك أن يَزُجَّ بنفسِه في خلافاتٍ مع معظم جيرانِه، ومع آخرين في أفريقيا ومناطق أبعَد.

ثم تَقعُ إلى الشرق الجارَتان الغَريبَتان مصر وإسرائيل اللتان تَبادَلَتا المُصافَحة وأغصانَ الزيتون، إلا أنَّ إسرائيل، الإمبراطورية الداخلية الصغيرة، استَمرَّتْ في خَلقِ عَدَمِ الاستقرار في المنطقة. اتَّضَحَ أنَّ الحديثَ عن «حُكم ذاتيّ» في المَناطق التي احتلَّتها سنة ١٩٦٧ كان مجرد مماطَلَة. انتَفَضَ سكّانُها الفلسطينيين ضِدَّ جَلاديِهم من سنة ١٩٨٧ حتى ١٩٩٣، ومرةً ثانية من سنة ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٥. أضَافوا بذلك كلمةً عربية جديدة إلى قاموسِ الإنكليزية، هي كلمة الانتِفاضَة. رَدَّ الإسرائيليون بقوةٍ زائدة، الرصاص مُقابِل الحِجارة. إلا أنَّ الحِجارة ستَتَحوَّلُ إلى شيءٍ أكثَر فَتكاً. وبينما حَشَدَ سُجناءُ مُعَسكَرِ الاعتقال الضخم في غزّة جُموعاً أكبَر وأكثَر غَضَباً، بَدأ حُكّامُهم الإسلاميون الجُدد من حَرَكَةِ حَماس بإطلاق صواريخ عَبرَ الحدود على إسرائيل. ومرةً أخرى كان رَدُّ سَجّانِي غزّة بقوةٍ زائدة. فمَثلاً، أثناء حَملة ٢٠١٤ كان عددُ القَتلى الفلسطينيين ٢١٠٠، معظمهم من المَدَنيين، بينما كان عَددُ قَتلى الإسرائيليين ٧٣، منهم سَبعة مَدَنيين فقط[٣٢]. تم التَّشكيكُ بعَدَدِ

---

(٣١) Hourani, *A History of the Arab Peoples*, p. 465.

(٣٢) BBC report, 1 September 2014, quoting UN figures.

القَتلَى الفلسطينيين، ولكنَّ عَدَمَ التَّناسُب يَظهَرُ حتى في الأرقام الإسرائيلية. وبشكلٍ عام من سنة ٢٠٠٠ حتى منتَصَف سنة ٢٠١٨ قَتَلَتْ قواتُ الأمنِ الإسرائيلية ٩٤٥٦ فلسطينياً، مُقارَنَةً بِعَددِ القَتلَى الإسرائيليين الذي بلَغَ ١٢٣٧، بنسبة 8:1 تقريباً(٣٣).

أما في الضفة الغربية، فإن سياسةَ إسرائيل سَتجعَلُ الاستعمارَ الأوروبي في القَرن التاسع عشر وسياسات الفَصلِ العُنصريّ في القَرن العشرين تبدو لِيبرالِيةً بالمُقارَنة. فمَثلاً، يَجعَلُ قانونُ الملكِيّة الإسرائيلية أية أرضٍ لا يَسكُنها أصحابُها ملكاً «لأصحابِها الأصليين»، أي للدولة الإسرائيلية(٣٤). وبما أنَّ الدولةَ الإسرائيلية بَدأتْ سنة ١٩٤٩ فإن استِخدامَ وَصفِ «الأصليين» يبدو غريباً، وهو بالطبع إشارة إلى الوجود اليهودي في فلسطين في القِدَم، وإلى التفسير الصهيوني الحديث لإشاراتٍ قديمة مُقدَّسَة عن «أرضِ الميعاد». يؤدي تطبيقُ تفكيرٍ مماثلٍ في بريطانيا إلى مُصادَرَةِ مُمتَلَكات مُلاكِ الأراضي الغَائِبين لِصالِح جَماعَةٍ أجنبية مِنْ طائفة الدرويد Druids التي بُعِثَتْ من جديد، لأنَّ تلكَ الأرض كانت مُقدَّسَةً لَهم قَبلَ غَزو يوليوس قيصر. وجهَةُ نَظَرِ دَولَةِ إسرائيل الضَّيقَةِ نحو التاريخ، وإنكارها للزمن، أكثَرُ إثارةً للاستِغراب من أيّ شيء جاءتْ به الدولة الإسلامية «داعش».

القبائل المتَصِرة

خلال تلك العقود المُضطَربة بشكلٍ متزايد، كانت هنالك جزيرةٌ من الهدوء النسبي في «جزيرة» العرب. غير أنَّ حروبَ الحدودِ اشتَعلَتْ هناك أحياناً خلال السبعينيات بين جزئي اليَمن المقَسَّم، بينما ظَهَر تَمرُّدٌ كبير في منطقة ظَفار جنوب غرب عُمان، وهَدَّدَ وحدَةَ السَّلطَنة الجديدةَ. لم تكن تلك الصراعاتُ صغيرةً، ولكنها كانت هامِشيةً. غير أن احتلالَ الحَرَم المَكّي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩ من جِهَةِ إسلاميين مُقاتلين، والقيام بِحِصارٍ دَمَويٍّ لإخراجِهم، أدخَلَ الطَّاقَةَ الخَطيرةَ للإسلام السياسي الجديد إلى سُرَّتِها.

---

(٣٣) الأرقام من منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية ـ بتسيلم، وردت في: *The Guardian*, 14/8/2020.

(٣٤) Raja Shehadeh, *Palestinian Walks: Notes on a Vanishing Landscape* (London: Profile Books, 2008), p. 13.

كان الإسلامُ والسياسة يتقاربان من جديد، وفي الوقت نفسه لم تتمكّن حتى أكثر السياسات التي تبدو عَلمانية مِن إبعادِ نفسِها عن العلاقات الدينية. تَطورَّت الاشتراكيةُ العلمية المُتَشَدِّدَة في جمهورية اليَمن الديموقراطية الشعبية خلال السبعينيات، وتبدو الآن في جَوٍّ من اللاواقعية حين جَرَتْ مناقَشَةُ تأميم العَجَلات، وتم تعليمُ البهلوانيات ورقص البالية، وانضَمَّت النسوة إلى الجيش[٣٥]. ولكن كانت هنالك خيوطُ ارتباطٍ بالماضي. تم إعدام رجالِ الدِّين المسلمين التقليديين، ولكنَّ عَدداً من الأنصار الرئيسيين للاشتراكية العِلمية كانوا من الأسرة الهاشمية ويَتبَعون النُّخبة الدينية ـ السياسية القديمة بينما كان:

رئيسُ المكتب السياسي المُفَسِّر هو عبد الفتاح إسماعيل الخَبير بالعَقيدة الاشتراكية وكان يُعرَفُ باسمِ «الفَقيه»، وتحتَ إرشاداتِه تمّ تَصنيفُ الخلفاء الإسلاميين الأوائل بحسب ميولِهم اليَمينية واليَسارية[٣٦].

ولكن، إذا كانت اليمن أرضاً مقسَّمة، فكذلك كان الحزب في الجمهورية الشعبية تَتجاذَبُهُ أجنِحَةُ اليساريين واليمينيين والتقليديين والإصلاحيين، وأصبَحَ «التَّشَرذُم» مُنتَشِراً، والصراعُ الداخلي أكثر عُدوانية. أدّى ذلك إلى تَصاعد العنف سنة ١٩٨٦ حين قُتِلَ الآلاف.

مثلما هي الحال في معظم الصراعات الطائفية «الدينية»، كانت الصراعات بين الفئات العَقائدية الاشتراكية المختلفة استِعارةً لخِلافات القبائل التي ظَهَرَتْ من جديد. فَشِلَت الوحدَة العربية، وبَدأت الآن كثيرٌ من الوحدات الصغرى تَتساقَط مهما كانت إشارات الخطوط على الخريطة إلى مناطق الدول الوطنية، وربما بالسرعة ذاتِها التي رُقِّعَتْ فيها مع بعضها. كان مِنَ السَّهلِ نسبياً على القوى الاستعمارية رَسم الحدودِ، وحتى نَزع سِلاح المُقاتلين من رجال القبائل، إلا أنَّ تَرسيخَ المؤسَّسات التي تحتاج إليها الدولة الوطنية للبَقاء والاستمرار كان أصعَب بكَثير. كَتَبَ ريتشارد كروسمان Richard Crossman وزيرُ الحكومة البريطانية في مُذكراتِه عَن عَدَن سنة ١٩٦٧

---

(٣٥) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: The Unknown Arabia*, revised ed. (New York: The Overlook Press, 2014), p. 165.

(٣٦) Ibid., p. 165.

أنه «سَتعمُّ الفوضَى بعد مُغادَرتِنا، وسنتخلص من إحدى مسؤولياتنا الكبرى، الحمد لله»[٣٧]. لم تكن «الفوضَى» في عَدَن وَحدها، بل عَمَّت معظم أرجاء عالَم العربية بشكلِ تَنافُسِ كثيرين على السُّلطَة والنّفوذ دون أنْ تَكبَحَهم مؤسساتٌ قوية، وسَيفعَلون ذلك بالوسائل التي تمّت تَجربتها آلاف السنين مِنَ القَرابة والقَبَلية والإغارَة والصِّراع، أو بكلمة أخرى سَيصنَعون عَجَلات نارٍ جديدة. ظَلَّ الشعراءُ الناطقين الوحيدين بالحقيقة بعد نحو ١٥٠٠ سنة مِن امرئ القيس والشَّنفرى. في سنة ١٩٨٠ لَخَّصَ المَشهدَ نزار قباني:

فمِنَ الخليجِ إلى المحيطِ قَبائِل   بَطِرَتْ فلا فِكرٌ ولا آدابُ[٣٨]

سارَتْ خُطبَةُ القباني في هجومِ طويلٍ مَريرٍ على ادِّعاءات العرب بالوحدَة والحَضارة، ولم تُنشَد لِزُمرةٍ مِّنَ المثقَّفين، بل للجامعة العربية في الاحتفال بِعيدِ مِيلادِها الخامس والثلاثين[٣٩]. لا يمكن أنْ يَنجو أحَدٌ من ذلك إلا شاعر.

يَتوافَق مُحيطُ عَجَلَةِ نارٍ أحياناً مع الخطوط على الخريطة، وانطَبَقَ هذا على بعض دويلاتِ الخليج الصغيرة والغَنية لدرجة كافية للمُحافَظة على تماسكها. كان هذا صحيحاً أيضاً في النهاية البعيدة لِعالَم العربية في المَغرب حيث وجِدَتْ كتلةٌ حَرِجَةٌ من التاريخ المُشترَك لثلاثمئة عام من حُكم سلالةٍ هاشمية، وجَمَعَ الحُكّامَ والمَحكومين معاً نضالُهم الحديث المُشترَك ضد الفرنسيين. ولكنّ حدودَ الدول كانت مختلفة عن الوَلاءات السكانية. كانت هذه الحال في العراق وسوريا، حيث إن الأغلبيات العددية مِثل الكُرد والشيعة مِن جِهة، والسُّنة من جِهةٍ أخرى الذين تمت السيطرة عليهم فقط بقوة السلاح والتَّرهيب مِنَ الزُّمرَةِ الحاكِمَة. سواء كانت الدولُ ناجِحَةً أم لا، فما كان واضِحاً هو أنَّ القبائل مازالت جُزءاً من القضية، بصَراحَةٍ في بعض الأحيان، أو مُتَستِّرَة بشكلِ طوائف دينية أو سياسية، أو كليهما معاً في أحيان أخرى. مازال الصراعُ القديم بين الحَضَر والبدو، والشعوبِ والقبائل، مستمراً بزَخَمٍ جديد.

---

(٣٧) Ibid., p. 158.

(٣٨) نزار قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ٣ ج، ط ١٦ (بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧)، ص ٨٥٧.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٨٥٣.

استمرَّ الصراعُ عادة بين الحَضَر والبدو بشكلٍ خلافٍ بين مؤسساتٍ ضعيفة ورجالٍ أقوياء، وحَكَمَ الرجالُ من خلال شَبَكَةٍ مِنْ قَرابة الدَّم وصَفقات الأعمال والولاءات العسكرية. كان الرجالُ الأقوياء يَربَحون الخِلافَ منذ الثمانينيات وما بَعدها، ويُصبِحون أكثر قوة. كان هذا صحيحاً حتى في مصر، الأرض التي حَقَّقَتْ مِنْ قَبل مستوى عالياً من حُكم الدولة، وتَمتَّعتْ بمؤسَّسات أكثَر استقراراً من أي مكانٍ آخَر في عالَم العربية. كان يَحكُمُها الرئيس حسني مبارك الذي جاءَ من خَلفيةٍ عسكرية ويَتحكَّمُ بسلاحٍ قويٍّ واقتصادٍ كبير، واستمرَّ في الحُكم ثلاثين سنة مما أدّى، كما هو مُتوقَّع، إلى ضَعفِ المؤسسات وانتِشار المَحسوبية ونُمو الفَساد.

فيما عَدا المَلَكيات المُطلَقَة الوراثية، ربما أهمّ أعمال زعيم دولة تُدارُ بِشكلٍ جيدٍ هو أن يُسَلِّمَ سُلطَتَهُ بهدوءٍ وسَلام، وأنْ يَتركَ البلادَ بنظامٍ جَيد. أما في الدول التي لا تُدارُ جَيداً، فيجب في أغلب الأحيان طَردُ الحَاكِم أو التَّخلُّص منه إذا لم يَمُتْ بشكلٍ مُلائِم. كانت تلك هي حالَةُ الدول العربية بَعدَ الاستعمار على مَدى عُقود، ولكن مع مرور الوقت ونُمو الأجهزةِ الأمنية وتَطورها تَقَنياً وزيادة كَفاءَتها، انخَفَضَ احتِمالُ انتِقالِ السُّلطَة بالانقِلاب. ومع بداية الألفية الجديدة، وَجَدَتْ معظم أرجاء عالَم العربية نفسَها مَحكومَةً إما بمَلَكيةٍ مُطلَقَة، أو بطُغيانٍ مُزمِن، وكلّ ما كان يهتمُّ به المَحكومون ليست عَلاقة المَرء كمواطنٍ في دولةٍ للجميع، بل علاقَتهُ بِشَبَكَةِ شخصيةِ زَعيم. وسواء كانت تلك العلاقات قَبَلية صَريحة أم لا، كان الأمر يَختلف مِن دولةٍ إلى أخرى. ولكن حتى في الدول التي لا تكون العلاقات فيها قَبَلية، فإنَّ روابطَ الدَّم وأشكالاً أخرى من الوَلاء كانت تزداد أهمية أكثَر فأكثَر مثلما كانت في القبائل القديمة وعلاقات نَسَبِها وقَرابَتِها المُفتَرَضَة بِمَواليها. أصبَحَت الدولُ أكثر قليلاً من شَبكات الوَلاء التي تُبنَى حَولَ عَناكِبَ جائعة لا تَشبَع.

الجُملكيّات/ الديموقراطيات المَلَكية Demonarchies

الدول العربية التي ليست مَلَكيات مُطلَقَة ظاهرة، اتَّخَذَتْ جميعُها اسمَ «الجمهورية» في اسمِها الرسمي ما عدا واحِدة؛ أي إنَّ الحُكمَ اسمِياً هو للجمهور (كان الاستِثناء هو ليبيا التي كانت حتى سقوط معمّر القذافي

«جَماهيرية» بصيغَةِ الجَمع، ربما في حالةٍ من الخوف من الفراغ في دَولةٍ واسِعة وعَدد سكّان صَغير، أما الآن فيَبدو أنَّ اسمَها قد أصبَحَ «دولَةَ ليبيا» ببساطة). مؤخَّراً، تمّت صِياغَةُ اسم جديد، ولكنه أكثَر استِقامَة، أُطلِقَ على كثيرٍ مِنْ هذه الجمهوريات المزيَّفَة، وهو «الجُملَكِيَّة»، وهو مَزيجٌ من الجمهورية والمَلَكية، وقد تُفسّر بمصطلح «الديموقراطيات المَلَكية 'Demonarchy'». مِثالٌ على ذلك هو الدولةُ التي تَبَنَّتْنِي. إذا ركَّزتُ عليها الآن فذلكَ لأنني شَاهدُ عَيان على تاريخِها الحديث، وهي تَقَعُ على كل حال في خَطِّ صَدْعٍ رئيسي بين الشعوب والقبائل، مِثل المناطق المضطَربة في الهلال الخصيب الشمالي. إنها دراسَةُ حالَةٍ في البَقاء المُدهِش لهذه القبائل.

ظَلَّ اليمن مُنقَسِماً حتى سنة ١٩٩٠ إلى جُزأين: جمهورية اليمن الشعبية الديموقراطية (اليمن الجنوبي) بَعدَ الاستعمار البريطاني التي يَدعُمها الاتحادُ السوفياتي، والجمهورية العربية اليمنية (اليمن الشمالي) الأغنَى والأكثَر سُكّاناً وغَير المُنحازَة بِشكلٍ غامِض. تَركَ البريطانيون اليَمنَ الجنوبي في حالَةٍ مِنَ «الفوضى»، ولكن مع سقوطِ الاتحاد السوفياتي وخَسارَةِ داعمِها الجديد، وَجَدَت البلادُ نفسَها أقلَّ قدرة على البَقاء، فاتَّحَدَتْ مع اليمن الشمالي في أيار/مايو ١٩٩٠ ليُشكِّلا جمهورية اليمن. كان التوحيد، أو إعادَةُ التوحيد، صَحيحاً وسَليماً؛ فعَلَى النَّقيضِ مِن دولةِ العراق الحديثة، شَعَرَ اليَمَنيون في جنوب الجزيرة العربية أنهم كُلٌّ طبيعي جغرافياً وثقافياً وتاريخياً. كان وَطَنَ دُوَلِ جنوبِ شبه الجزيرة العربية المستقرَة القديمة، وكانت مُتَّحِدَةً سياسياً أحياناً على مَرِّ ألفَي سنة وأكثر.

تُلَخِّصُ مُعادَلَةُ الاتِّحادِ الأخير كثيراً من تاريخِ العرب:

(جمهورية اليمن الشعبية الديموقراطية ـ الاتحاد السوفياتي) + الجمهورية العربية اليمنية = جمهورية اليمن

زالَتْ مَعارَضَةُ الضَّغطِ المُشتَرَك من جِهةِ قوّتَين عُظمَيين، فانخَفَضَت الهوية العربية. ومع حَذفِ القومية العربية مِنَ المَجموعِ الكليّ أيضاً، كانت الدولة الناتِجة أقلَّ عروبة بوضوح في اسمِها، فقد أُسقِطَتْ كلمةُ «العربية» من اسمِ الجمهورية العربية اليمنية السابقة. هل كان على العرب أنْ «يَزولوا» مرةً أخرَى ويَختَفوا مِنْ اسمِ الأمّة ـ الدولة الجديدة؟ لا يبدو ذلك، فمازالت

مصر: جمهورية مصر العربية، ومازالت سورية: الجمهورية العربية السورية، ومازالت الإمارات: الإمارات العربية المتحدة. مازالت الكُتُبُ المَدرَسية في اليمن تُظهِرُ خريطَةَ الوطن العربي، ومازالت تُظهِرُ خريطةَ العالَم وعليها يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي. ربما لم يهتمَّ أحَدٌ بتغيير الأسماء القديمة.

بعد توحيد اليمن بقليل، حدثت «حرب الوحدة» القصيرة المتناقِضة اسمياً في سنة ١٩٩٤ حين قادَ بعضُ زعماء جمهورية اليمن الشعبية الديموقراطية السابقين مُحاوَلةً انفصالية. تمت المحافَظَة على الاتِّحاد إنما بثَمَن، فقد رَسَّخَت الحربُ سيطرةَ اليمن الشمالي السابق وزعيمه عليّ عبد الله صالِح. وعندما أُضيفَ عُنصُرٌ آخَر إلى المُعادَلة، وهو الزمن، تقلَّصَت الحريات. مارَسَ صالح في البداية ديكتاتوريةً حَميدةً يُمكِنُ تَحمُّلها، ولكن في عالَم التَّغيُّر والتَّنَخُّر، والنّمو والفَساد، يكون عُمرُ الديكتاتوريات قصيراً مهما كانت بداياتها حَميدة، وذلك لأنَّ الحكَّام يَميلون مع التَّقدم في العُمر لأن يُصبحوا أقلَّ استقراراً وأقلَّ بَراءة. كان صالح عسكرياً من أصلٍ قَبَليّ، وكان يُلَقَّبُ في البداية بأنه «تَيسُ الضباط»[٤٠]. كان غَليظَ الجُمجمة، يَحني رأسَه ويَنطَحُ طريقَهُ إلى الأمام. وَجَدَ جانِبُهُ الرّعويّ المُتقلِّب أنه مِنَ الأسهَل إدارة الأمور بعَلاقات شخصية غير رسمية مع زعماء القبائل. قالَ سنة ١٩٨٦: «الدولةُ هي جزءٌ من القبائل، وشعبُنا اليَمني هو مَجموعةٌ مِنَ القبائل»[٤١]. كان ذلك تناقُضاً في المُصطَلحات، أو على الأقل في المُصطَلحات العربية القديمة، والمصطَلحات القرآنية، حين كانت الشعوب والقبائل كائنات مختلفة ومتميزة، مثل اختِلاف الخِراف عن الماعز. أم أنها كانت مُحاوَلة أخرى للتوفيقِ بينهما أخيراً؟

لم تكن كذلك، فقد استَعادَ المُجتمعُ القَبَليةَ قَصداً بَعدَ سنة ١٩٩٠. حَدثَ ذلك حتى في الجنوب السابق الذي كان قد تَخَلَّى عن القَبَلية اسمِيّاً. حاوَلَ البريطانيون هناك ثم الاشتراكيون نَزعَ أسلِحَةِ القبائل لتَحويلِهم إلى

---

(٤٠) the nickname is attributed to his assassinated predecessor-but-one as president of North Yemen, Ibrahim al Hamdi.

(٤١) ورد في: Paul Dresch, *Tribes, Government and History in Yemen* (Oxford: Clarendon Press, 1989), p. 7.

مواطِنين غير مُسلَّحين (مِن وجهَةِ نَظَرِهم بلا «شَرف وكَرامة»)، إلا أنَّ رجالَ القبائل لم يَقبَلوا أبداً أنْ يَلتَقِطوا المَحاريث، وأعادوا تَسليحَ أنفسِهم بَعدَ ١٩٩٠ بعزمٍ وحزمٍ. لم يَعتَبر المُدافعون ذلك مُفارَقَةً تاريخية، بل على العَكس، فقَد كَتَبَ أحدُهُم باختيارٍ بَليغ غَير مُناسِب في التَّعبير أنَّ أولئك الذين يُحَذِّرون مِن مَخاطِر القَبَلية التقليدِّية في الدولة الحديثة «ربما عليهم البحث عن قَوافل الإبِل في محطّات المِترو!»[٤٢]، ليَصطَدموا بالنَّوع الآخَر من القِطارات وهم يبحثون... فالقبائل تَتحرَّكُ أيضاً مثل القِطارات هذه الأيام، وربما تكون أكثَر خَطراً مما كانت عليه.

تَلاشَت الديموقراطية، ولم تَضعف شَعبيةُ صالح، لأن الصحافة أصبَحتْ أقلَّ حُريَّة مَرةً أخرى، والكلمة أكثر تَجَمُّعاً. وفي النهاية، غابَت «الجمهورية» عن المُعادَلة من كل جانب فيما عَدا الاسم، وأصبَحت الدولة «جُملَكِيَّة»، ديموقراطية مَلَكية، وأخَذَ صالح يهيئ ابنه أحمد ليَخلفَه. بَدَأتْ صُورهما بالمَلابس العسكرية والنظارات الشمسية تَنتَشر وتَكبر في الحَجم. أضافَت النَسَخ المتأخِّرة جِيلاً ثالثاً هو ابن أحمد الصغير الذي خَرَجَ مِن ثِيابِ الأطفال إلى الثياب العسكرية. واتَّخذَت الديموقراطيةُ المَلَكية سِمَةً أكثَر «قَبَلية» بِوَصفِ الرئيسِ كوالِدٍ للعائلَة، فقالَ أحَدُ أصدقائي مُعتَرِضاً على انتقادي للزعيم: «ولكنه أبي!». كانت العلاقةُ أكثر تعقيداً في بعض الأحيان، وَرَدَ في أَحَدِ الإعلانات: «عليّ، أنتَ أخي وابني وأبي!». لا يَرتكِزُ المجتمعُ في ظِلِّ مِثلِ هذا الزعيم على دستورٍ أو قوانين، ولا حتى على دِينٍ مُشترَك، بل مثل المجتمع القَبَلي، يَرجِع إلى تَخيّلات متعددة مستحيلة لعَلاقَة من قَرابَة الدَّم. أما بالنسبة إلى ألفِ سنة من التاريخ القديم في جنوب شبه الجزيرة العربية في تلك الأرض ذاتها، مِنَ الشعوب التي اتَّحدَتْ ليس برابِطَة الدَّم، بل بعُهودٍ إلهية، و١٤٠٠ سنة من التاريخ الإسلامي الذي تَلاها وبَنَى عليها عَبرَ قارّات، فكأنها لم تَحدُثْ.

فضَّلَ صالحُ السيوفَ على المَحاريثِ، وانغَمَسَ في فَورَةٍ مِن تَسليحِ نفسِه، ووضَعَ أقرباءه وأحبابَه في مَناصبَ عسكرية قيادية، كان هو القائد

(٤٢) أحمد عبد الرحمن المعلمي، **كتابة على صرح الوحدة اليمنية** (صنعاء: صحيفة ٢٦ سبتمبر، ١٩٩٤)، ص ٣٧.

العام بالطبع، وعَيَّنَ ابنَه أحمد قائداً للحَرَس الجمهوري النُّخبَوي، وقادَ أخوهُ القوات الجوّية، وهكذا. كانت الأسلحة والضباط الذين يَحمِلونها إشارات شَرَفٍ لرجال القبائل، وكان صالح يَتطَوَّر إلى رَجُلِ القبيلة الأعظَم. فُرِّغَت الدولةُ المَدَنيةُ تماماً من مُحتَواها. حتى الملابس المدرسية تم تغييرها إلى ملابس عسكرية خضراء. كانت عمليات مشابِهة تجَري في عالَم العربية مع بداية الألفية الجديدة. تَحدَّثَ مراقبون أجانب للمنطقة كثيراً عن صِدام الحضارات مع ظُهورِ تنظيم القاعدة المُشَتِّت للانتباه، ولم يَنتَبِهوا إلى صِدامِ الثَّقافاتِ الدَّاخلي، الشعوب ضد القبائل، الزراعة مُقابِل الثقافة العسكرية، وكانت القبائلُ والسلاح يَربَحان المَعركَةَ بكل سهولة.

اليمن دولة فقيرة، ولكنَّ كمياتٍ مُذهِلَة من أموالِها أُنفِقَتْ على التسليح. في الشمال، كان السعوديون يَفعَلون ذلك أيضاً (على نِطاقٍ أوسَع بكثير بسبب ثروتهم الأكبر بكثير). في سنة ٢٠١٥، دَمَّروا واحِدَةً من قواعد صواريخ سكود اليمنية الموجودة في جَبَلٍ يَبعُدُ عن بَيتي ٧ كيلومترات، مما جَعَلَ بَيتي يَهتَزُّ ثلاثَ مرات. ثم دَمَّروا مَخزَنَ أسلِحَةٍ جَبَلياً أقرَب، وانهَمَرتْ علينا صواريخُ صغرى من دون رؤوسِها الحربية بفَضلِ رحمة السماء. كان ذلك مُروِّعاً مِثلَ هَزَّةٍ أرضية كبيرة في نهاية الزمان عندما «تُخرج الأرضُ أثقالَها»[٤٣].

يُفتَرَضُ أنَّ مُعظم صَفقات السلاح تَرافَقَتْ برشاوى غَنية. حَكَمَ الفساد، حَرفِياً، ولم تكن الحالَةُ مجرد فَسادِ النظام، بل كان الفَسادُ هو النظام. لدى رؤيةِ المَوقفِ من زاوية أخرى، فقد كان بِكُلِّيَّتِهِ نِسخَة من اقتصادِ الإغارَة القديم الذي تم تَحديثُهُ لِعَصرِ الدولة الوطنية حيث يُغيرُ الزعيمُ على الدولةِ التي يَحكُمُها، ويحتَفِظُ لِنفسِه بِرُبعِ الغَنائم أو خُمسِها[٤٤]. ومِن وجهَةِ نَظَرٍ أخرى أيضاً، لا يَرجِعُ دَخلُ الدولةِ إلى الشعب، بل يَعودُ إلى القبيلةِ المُسيطِرة أو المَجموعة المُوالية، وبالفِعل إلى أبيها الذي يَحمِلُ اللَّقَبَ المُضَلِّل «الرئيس». أصبَح كل ذلك جَلِيّاً عندما أعلَنَت الأمَمُ المتحدة سنة ٢٠١٥ أن «تَيسَ الضبّاط» قد حَصَّلَ ما بين ٣٠ و٦٢ بليون دولار مِن عُقودِ

---

(٤٣) **القرآن الكريم**، «سورة الزلزلة،» الآية ٢.

(٤٤) قارن: ص ١١٩ ـ ١٢١ من هذا الكتاب.

النفط والغَاز ومِنَ الفَساد بشكلٍ عامّ[٤٥] خلال ثلاثين سَنة مِنْ حُكم اليمن. ضَحِكَ على ذلك وكأنَّ لَدَيه مِثل ذلك المَبلغ في البَنك! وبالطبع، لم يكن لديه في البنك، فقد أنفَقَ ذلك في الاقتصاد لشِراء الدَّعم، وأنفَقَ كثيراً منه لشراء السلاح (بالطبع، تَفعلُ مَلَكياتُ البترول المُجاوِرة الأمرَ نفسه، ولكنها لا تدَّعي أنها «جمهوريات»، ومن ثَمَّ فَهي تَستطيع فِعلَ ذلك بِشكلٍ صَارِخ، كما أنها تستطيع تَحمُّلَ التكاليف دون أن تَدفَع رعاياها إلى الفقر). لم يَظهَر في اليمن أنَّ كثيراً كانوا يُدرِكون تلك الاتِّهامات بالسرقة ولم تُصَدِّقها سوى قلّة قليلة من حيث المبدأ لأنها صَدَرَتْ عَن أجانب لا يوثَقُ بهم. ولم يهتمَّ أقلُّ القليل منهم بذلك، لأن اغتِناء حاكِم عربي ليس بالأمر الجديد. أما الفقراء الذين هم أكثر مَن حُرِموا بوضوحٍ من حصَّتِهم، فليس لَهم صوتٌ يُعَبِّرون فيه عن اعتراضِهم.

مِن وجهَة نَظرٍ موضوعية قاتِمة، يمكن اعتِبار النَّهب وإعادَة التَّوزيع الذي تقومُ به ديموقراطية ـ مَلَكية بمَثابة دَولة تَجمَعُ الضرائب، مع فارقٍ رئيسيٍّ هو أنه في حالَةِ الديموقراطية ـ المَلَكية لا يوجَدُ تَدقيقٌ وتَوازن، بل كلُّ ما هنالك هو دَفتَرُ شيكاتٍ وحَساب في البَنك يُمسِكُ بِهِ رَجُلٌ واحِد، وفي النظامِ تَصريحٌ بالاستِخدام الطويل. وكما نَصَحَ أحَدُ كتّاب زعيم المُوحِّدين يوسف بن تاشفين سَيِّدَهُ قَبلَ أنْ يُرسَلَ لاقتِطاع إسبانيا في أواخر القَرن الحادي عشر:

مَن جَادَ سَاد، وَمَن سَادَ قَاد، ومَن قادَ مَلَكَ البِلاد[٤٦].

الهدم أو الحُكم

لُعِبَتْ أدوارٌ مشابِهة في دولٍ أخرى حيث وضِعَ قِناعٌ جُمهوريٌّ في العالَم العربي. في الأراضي الواسِعة من العراق وسورية في الهلال الخصيب الشمالي، وفي امتدادِه الغربي بمصر، كان يتم تَحضِيرُ أبناءِ رؤساءٍ آخَرين لخِلافَة آبائِهم. ازدادت حَماسَتُهم بفوز الرئيس جورج بوش الابن برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية في انتخابات سنة ٢٠٠٠، وإذا فَعَلَها

(٤٥) BBC Report, 26 February 2015.

(٤٦) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٦ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ج ٣، ص ٤٦٩.

الأمريكان، فلماذا لا يَفعَلها العرب؟ كانت نقطَةً عادِلَة. ومهما كانت نِيَّتُهُ في غَزو العراق بالنسبة إلى الديموقراطية الليبرالية، فقد فشل فيها مُسبَقاً بِحُكمِ كَونِهِ ابنَ رئيسٍ سابِق: بوش بن بوش (التي تَعني «هَذَرٌ في هَذر» في بعض اللهجات العربية مأخوذَةً عن التركية).

بنظرةٍ مُتساهِلة جِداً، ربما تُعتَبر «الجمهورياتُ المُزَيَّفة» كأنها «نظامٌ سياسي حَيويّ... نظريةٌ ديموقراطية بَديلَة» صَنَعَها «رُكودُ... الليبرالية والجماهيرية والإسلامية»[٤٧]. ولكنها مع افتقادها إلى صحافةٍ حُرَّة، وقَضاء مُحايِد، وأيّ فَهم شَعبيٍّ لما تَعنيه الديموقراطية العربية حَقاً، فهي أضعَفُ الأشباح لنظريةٍ ديموقراطيةٍ بَديلَة. سيكون الأصَحُّ هو النَّظَرُ إلى الديموقراطية على أنها اسمٌ بَديلٌ لما كان يَدورُ في عالَم العربية منذ زمن طويل يصعب تَذَكُّرُه. إنها «جَمعُ الكلمة» بطريقة جديدة، إنما بالمَعنى القديم نفسه: ففي اللغة العربية «الأصوات الانتخابية» هي نفسُها «الأصوات»، والأغلبياتُ الهائلة التي ادَّعاها الزعماءُ بِنِسَبٍ مئويةٍ تَصِلُ إلى التسعينيات هي الدليل على السَّعي المستمر للوصول إلى الإجماع. فمَثلاً، في انتخابات ٢٠١٤ التي مَنَحَتْ أولَ شَرعيةٍ لرئيس مصر الحالي عبد الفتاح السيسي بعد سَنة واحدة من استيلائه على السُّلطَة، حَصَلَ قائدُ الانقلاب على ٩٧ بالمئة من الأصوات[٤٨]. صَمتَ بالضرورة أولئك الذين صَوَّتوا بحريَّة ونَزاهة لِسَلَفِهِ المَخلوع الرئيس محمد مرسي، إذ لم يوجَد لَديهم مَن يُصَوّتون له. الديموقراطيةُ العربية من ثَمَّ هي أقرَب إلى مَلَكِيَّةٍ بالتقسيط، مثلما حَدَثَ لنابليون (الذي انتُخِبَ إمبراطوراً بأغلبية ٩٩ بالمئة)، وأباطِرة الرومان (مِثل أغسطس الذي حَصَلَ بالإجماع على صلاحياتٍ مَلَكية فترة خَمس أو عَشر سنوات). إنه عالَم دَلالي بَعيدٌ عن «سيادة الشعب» في أقدَم مَعانيها، وعن الديموقراطية بمَعناها الحديث المَعروف. تَمتلكُ «الشعوبُ» نظرياً السُّلطَةَ «لانتِخاب» قادَتها، ولكنها لا تَمتلكُ السُّلطَة، وربما «الرؤية»، لِعَدم انتِخابِهم.

ربما يكون أكثر صِدقاً التَّخلي عن الكلمة الغريبة «الديموقراطية العربية»

---

(٤٧) Frédéric Volpi, "Pseudo-Democracy in the Muslim World," *Third World Quarterly*, vol. 25, no. 6 (2004), p. 1061.

(٤٨) Guardian Report, 20 March 2018.

والعَودَة إلى الاصطلاح العربي القديم «المُبايَعة»، بمَعنى مَنح الوَلاء. تُشتَقُّ الكلمةُ مِنْ جَذرٍ يَعني «بَيع أو شِراء أو عَقد صَفقة»، والاشتقاق الخاص يُشير إلى أنّ الصَّفقة مُتبادَلَة في نوعٍ من العَقد الاجتماعي: أنْ تَبيعَ أنتَ الحريةَ السياسية لتَحصلَ بالمُقابِل على العَدل والأمن والوجود المزدَهر حسبما تَسمحُ به الظروف. ولكن المُبايَعَة تَعني عَمَلياً «الانضِواء والخُضوع» كما يَرِدُ في القاموس:

بايَعَ الأمير: أقسَمَ الوَلاءَ للأميرِ وتَعَهَّدَ لَهُ بالطَّاعة والخُضوع لأحكامِه... وعَدم الاختِلاف معه حولَ أية قضية قادِمة، بل إطاعَته في كلّ ما يأمره به ولو كان يُرضِيه أو يُثير استِياءه[٤٩].

وبما أنَّ السُّلطَةَ مَفسَدَةٌ مع مرور الزمن، فمن المحتَّم أنْ يَتفَوَّقَ الاستياء. يُصبحُ الأميرُ أكثرَ إمارَةً وجَبَروتاً، ولا يؤدي دَورَهُ في الصَّفقة، بل يأخذ الحرية ولا يُقدِّم العَدل؛ يَتجاهَل رَعيّته، ويَبدأ بتَجاهُلِ مُستَشاريه، ويَدخُلُ في أعمال مُتَسَرِّعَة للتَّخلُّص مِن مُعارِضيه؛ يَرجِع إلى استِبدادِه العَسكري عادةً، ويَحكُمُ بالأمر والمكر، وليس بالتَّوافُق والتَّخطيط؛ يَتكاثَرُ حَولَهُ المُنافقون ويَمدَحون «حِكمَتَهُ»، وكما قالَ بيكون Bacon: «لا شيء يَضُرُّ بالدولة أكثر من ذلك المكر الذي يَعتَبِرُهُ الرجال حِكمَة»[٥٠]. عندما يُصبحُ الحُكمُ أكثَر استِبداداً وعَشوائية، تَضعفُ المؤسَّساتُ وتَذوي، خاصّة القانون. يُصبحُ الحاكِمُ نوعاً من الغِطاء على غِياب القانون، ويستطيع أن يَقول، مِثلما قالَ عليّ عبد الله صالح، بكثيرٍ من الحقيقة وانعِدام الصِّدق: «من دوني، سَتصبحُ البلادُ صومالاً ثانياً».

يبدو هذا التصريح وكأنه إنذار، ولكنه في الحقيقة تهديد. يُدركُ هؤلاء الرؤساء جيداً الخطر الذي يَحتَونَه، وهم يَحتاجون إلى التَّرهيب بالتَّطرف الطائفي، وغارات القبائل، وانهيار المجتمع، والطوفان القادِم مِن أجلِ المحافَظة على سَيطَرتهم. وهم ليسوا مديرين يديرون نظاماً مُرتَّباً، بل هم زعماءُ حَلبَةٍ من الفوضى، أو لتركيب اصطلاح جديد: مُلوكُ فوضى.

(٤٩) Edward William Lane, *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1863-1893), s.v. by'.

(٥٠) Francis Bacon, *Essays*, "Of Cunning".

ربما تكون فلسفتهم مثل فلسفة شيطانٍ ساقِط في قصيدة مِلتون Milton:

الحُكمُ في جَهنَّم أفضَل مِنَ الخِدمَة في الجنّة(٥١)

وسياستهم هي سياسةُ شخصيةِ أكيتوفيل للشاعر درايدن Dryden's Achitophel «المولود بهيئةِ كتلةٍ عَديمَةِ الشَّكل، مثل الفوضى»:

مُزيَّفٌ في الصَّداقَة، حَقودٌ في الكَراهية

عَقَدَ العَزمَ على هدم الدولة أو حكمها(٥٢).

تاريخٌ من الرَّماد(٥٣)

مع بداية الألفية الجديدة، يبدو أنَّ عصر الأمَل العربي قد أصبَح ذِكرى بعيدة، وأصبحَ المُتطَرّفون الإسلاميون المُحاربون أكثر جُرأةً يَضربون في سنة ٢٠٠١ سُرَّةَ العَلمانية العالمية في مَركَز التجارة العالَمي بمدينة نيويورك، بكعبتيه الرأسماليتين. شَدَّدَ مُلوكُ النفط ومُلوك الفوضى قَبضَتَهم في الوطن، وأصبَحوا يُشبهون بعضَهم أكثر فأكثر، ويُشبهون رَجُلَ البحرِ المُسِنِّ في قصص سندباد، الطُّفيلي المُقنِع الذي يُدَبِّرُ أمورَهُ لِيَجلِسَ على ظَهر مسافر مُطمَئِنّ، ثم يَلُفُّ رِجلَيهِ حولَ رَقَبَةِ الضَّحية ويَستخدِمه كَدابَّةٍ مَركوبَةٍ ليلتَقِطَ أطيَبَ الثِمارِ. كانت هناك أجيالٌ جديدة يتم تَحضيرُها للوراثة، شبابُ البحر. كانت التجربة الأمريكية في العراق سنة ٢٠٠٣ في «تغيير النظام» قد نَجَحَتْ بالإطاحَة بِرَجُلٍ مُسِنٍّ واحِدٍ عن ظَهرِ رعاياه، ولكنها رَفَعَت الغطاء أيضاً وكَشَفَت الفوضى المُخَبَّأة. هَزَّ حكماءُ الشارع العربي رؤوسَهم أسَفاً في أرجاء عالَم العربية وقالوا: «تحتاجُ العراق إلى صدّام، وإلى الحجّاج بن يوسف. تحتاجُ إلى العَصا». كانت القَبضَة والغطاء والعَصا موجودة زمناً طويلاً حتى أصبَحتْ تبدو طبيعيةً وضرورية. أصبَحتْ تبدو هي ما يَجمَعُ الأشياءَ مع بعضها.

---

(٥١) John Milton, *Paradise Lost*, book 1, line 261, and Fouad Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey* (New York: Pantheon, 1998), p. 142.

(٥٢) John Dryden, *Absalom and Achitophel*, part 1, line 173.

(٥٣) أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ج ٣: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني**، ص ٢٢٩.

العربِ الآن في عَصر خَيبة الأمَل، «تاريخٌ من الرَّماد» مثلما أطلَقَ عليه الشاعر والمُعَلِّق السياسي أدونيس. لأنَّ الإيمانَ بما قَبلَ الحياة يُثيرُ الارتياحَ مثلما يَفعلُ الإيمانُ بالآخِرة بَعدَ الحياة، لذا، فقد أخَذوا يَنظرون نحو العصور الذهبية المُفترَضَة. وَجَدَ بعضُهم الكمالَ كما رأينا في مجتمع المدينة في بداية القَرن السابع. مجتمعٌ رائعٌ للطُّموحِ إليه، ولكن الرجوعَ إليه مستحيل. وَجَدَ آخرون أنَّ دولةَ الحجّاج بن يوسف البوليسية الدَّموية في العراق أواخر القَرن السابع سَهلَة لإعادَةِ صُنعِها بوسائِلِ المُراقَبة والأسلحة الحديثة. أما العصر الذهبي الآخَر في بداية الفَترة العباسية من الثقافة والنسيج الفِكري الذي احتَفَى به العرب في القَرن التاسع عشر والقَرن العشرين، فيبدو أنه قد انحَسَرَ مع نهاية حُلم القومية العربية. سَخِرَ وَهجُهُ اللاحِقُ مِنَ الحاضِرِ الباهِت. حتى الحَنينُ لم يَعُد كما كان.

سَدَّتْ عَوائقُ أخرى طريق الهروب من خلال التعليم. كان مزيدٌ من الشباب يَحصلون على مؤهلات عليا في أرجاء عالَم العربية، ولكنَّ المجتمعَ لم يتطَور بَعدُ لكي يَستوعِبَ مَهاراتهم الجديدة وطُموحاتهم المتزايدة. ففي نظام يتألفُ من طَبقاتٍ أبَوية لا يمكن اختِراقها، لم يكن السَّقفُ مِنْ زجاجٍ فوقَ رؤوسِ معظم الخِريجين الجُدد، بل كان من صُخورٍ صَمّاء. ركبتُ دراجة نارية للأجرة في شهر كانون الأول/ديسمبر سنة ٢٠١٠ ووجَدتُ نفسي أناقِشُ أفكارَ ما وراء الطبيعة للشاعر إليوت Eliot في قصيدَتِه **الأرضُ اليَباب** مع السائقِ بِلُغَةٍ إنكليزية طَليقَة. كان الأول على دُفعَتِهِ مِنَ الخريجين، ولكنه لم يَجِد عمَلاً آخَر. تَمنيتُ له حَظّاً سعيداً. فهَزَّ كَتفيهِ قائلاً: «أشعرُ أنني في سجنٍ هنا في اليَمن».

سرعان ما سيُصبحُ لذلك الشاب وملايين من أمثاله أهمية مِثل أهميةِ الديموقراطيات ـ المَلَكية والطُّغاة بالنسبة إلى تاريخ العرب في عصرنا الحالي، لأنَّ شباباً مِثلَ سائقِ دراجة الأجرة الذي رَكِبتُ معه بَدؤوا بالبحثِ في الجِهةِ الثانية، خارجَ السِّجن، خارجَ الماضي، في عَصرٍ ذَهبيٍّ موجودٍ في المستقبل. فلماذا يجبُ على المَرء أنْ يَظَلَّ تحت رَحمَةِ المُصادَفة بين تَسلُّطِ المُلوك وتَسلُّطِ الإسلاميين، ولا يُحَدِّدُ المستقبلَ بينهما سوى السقوط الحُرّ في الفوضى؟ يُقِرُّ الإنسانُ بالطبع بأنَّ السببَ هو إمساكُ المُلوكِ والإسلاميين بكافة الأسلحة، وهي أسلحة مخيفة مِنْ نارِ البارود ونارِ جهنم. ولكن كما

عَرفَ أوائلُ شعراء العرب وعَرَّافوهم، وكما أثبَتَ القرآنُ ببلاغةٍ رائعة، فالكلماتُ قد تكون أسلحةً أيضاً.

الربيعُ الذي لم يكن له صَيف

قَبلَ أكثر من أربعين سنة، كان الكاتبُ المغربي عبد الله العروي قد أطلَقَ على عَصرِ خَيبةِ الأمَلِ هذا اسمَ «شتاء العرب الطويل»[٥٤]. كان يبدو طويلاً آنذاك، إلا أنه كان في بِدايته فقط. أحداثُ الألفية الجديدة: هجماتُ القاعدة على الولايات المتحدة الأمريكية، و«الحربُ على الإرهاب» التي شَنَّها الأمريكان، وزَعزَعَتهم لاستقرار العراق، سَتُغرِقُ الشتاءَ في انقِلابه المُعتِم. ولكنَّ الفصولَ تَدورُ في النهاية، وظَهَرَ في نهاية سنة ٢٠١٠ كأنَّ الوقت قد حانَ.

كأنما احتاجَ الأمرُ إلى أُضحِيَةٍ مع طقوس الربيع. رُوِيَت القصةُ كثيراً عن البائع المُتجَوِّلِ التونسي الشاب محمد بوعزيزي[٥٥] الذي أُهينَ على يَدِ الشرطة، فأشعَلَ النارَ في جِسمِه اعتِراضاً، وتوفي في كانون الثاني/يناير ٢٠١١. انتَشَرَ الغَضَبُ بسبب وفاته في أنحاءِ البلاد، ثم في كثيرٍ من أرجاءِ عالَم العربية. كان تَمَرُّداً عامّاً ضد الطغيان والفَساد والحُكم العَشوائي للأنظِمة الاستبدادية، وانتَشَر بشكلٍ عَفوي. ولكن العَفوية اتَّخذَتْ شكلاً وتَوجِيهاً بِالوسيلتَين الأبديتَين للثورة: اللغة والتِّقنية. اندَمَجَت الشِّعاراتُ التقليدية مع وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة لتَقودَ ما أصبحَ يُسمّى: الربيع العربي.

لا شك بأن احتمالَ الاحتِجاج كان قائِماً باستمرار، وكان يَظَلُّ كامِناً، ويَنطَلِقُ من حينٍ لآخَر، في مكانٍ أو آخَر. وكان الربيعُ حادِثةً فَصليةً مَحلية، ولكن ما كان مختلفاً هذه المَرة هو امتداده الجغرافي مِنَ المغرب إلى عُمان، وكذلك تَزامُنُه المُفاجئ. يَرجِعُ ذلك إلى تقنياتٍ جديدة، خاصة قنوات التلفزيون الفضائية والإنترنت. على الرغم من السرعة الجديدة والنِّطاق الواسِع للثورة، كانت هنالك ثَوابت موجودة، وكان أحَدها هو مَوقِع مصر

---

(٥٤) ورد في: Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*, p. 14.

(٥٥) انظر على سبيل المثال: Rogan, *The Arabs: A History*, pp. 626-631.

المَركَزي بين المغرب والمشرق. كانت دائماً أرضاً خصبةً للاحتجاجات. وبالعودة إلى الوراء في الزمن، حَدَثَتْ ثورةُ خُبزٍ عنيفة في مصر سنة ١٩٧٧. وفي سنة ١٩٦٨، بعد الهزيمة في الحرب مع إسرائيل، قام «جِيلٌ تمَّ الكذبُ عليه بشكلٍ مَنهَجي»[٥٦]، كما وَصَفَهم فؤاد عجمي، بمظاهراتٍ ضِدَّ ما اعتَقَدوه مِنْ نِفاقٍ في نظام عبد الناصر. وقَبلَ ذلك في تَمَرُّدِ أحمد عرابي في ١٨٨١ ـ ١٨٨٢[٥٧] قامَ جُنودٌ مُعادون للنظام بالدِّفاع عن الجماهير ضد الحاكِم واحتَلّوا ساحَةَ عابدين التي كانت الساحَةَ المَدَنية في أيامها. وقَبلَ ذلك أيضاً قامَتْ جماعاتٌ تنتمي إلى طَبقةٍ فقيرة تُسمَّى «الزُّعار» بانتفاضاتٍ متكررة ضد السُّلطَات العثمانية والمملوكية[٥٨]. وفي العصر المملوكي، قامَتْ جماعاتُ الحَرَافيش بالتَّظاهُرِ عَلَناً وبأصوات عالية ضد التجاوزات الدَّورية للسلطان الناصر الذي طالَ حُكمُهُ[٥٩]. وبالطبع، كان الفارِقُ في سنة ٢٠١١ هو السرعة التي انتَشَرتْ بها بُذُورُ الاستياء التي وِلِدتْ في تونس، ونَمَتْ في مصر، وانتَشَرتْ إلى الخارج: سيُتابِعُ المشاهِدون في التلفزيون، والمُتصَفِّحون على الإنترنت في كافة أرجاء عالَم العربية، هذه الاحتجاجات القوية وهي تتطَور. سيَظلُّ معظَمُهم خامِلين وغَير مُتأثِّرين، ولكنَّ قلَّةً منهم ستُلهِمُها الأحداث بما يكفي لانتشارِ الحَرَكَة.

كان هناك عاملٌ آخَر هو التقنيات الحديثة في نَقلِ الاحتِجاجات، فقد حَرَّكَتْ صفحاتُ برنامج فيسبوك المُحتَجِّين في القاهرة سنة ٢٠١١[٦٠]. كانت الصفحات السياسية في صحف القاهرة الجديدة هي التي حَرَّكَتْ أسلافَهم في انتفاضَةِ عرابي[٦١] (ثم كان هنالك النموذج الأولي العظيم في استِخدام الكِتابة الجديدة لنَشرِ الثورة الإسلامية الأصلية في القَرن السابع). إلا أنَّ

---

(٥٦) Ajami, *The Arab Predicament*, p. 88.

(٥٧) انظر: ص ٥٩٣ من هذا الكتاب.

(٥٨) *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1960-2005), s.v. Zu"ār.

(٥٩) Muhammed bin Abdallah bin Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, translated by H.A.R. Gibb and C. F. Beckingham (London: Published for the Hakluyt Society at the Cambridge University Press, 1958-1994), vol. 1: *Travels in North-West Africa, Egypt, Syria, and to Mecca*, p. 54.

(٦٠) Ahdaf Soueif, *Cairo: My City, Our Revolution* (London: Bloomsbury, 2012), p. 155.

(٦١) Sami Zubaida, *Beyond Islam: A New Understanding of the Middle East* (London: Tauris and Co., 2011), p. 168.

التقنيات في سنة ٢٠١١ كانت مُميَّزة في انتِشارها ووصولِها الواسِع جغرافياً واجتماعياً. كان «لِقاءُ العقول»[٦٢] أحَدَ العوامل الرئيسية المُحَرِّكَة في الربيع العربي، وكذلك لقاء أنماطِ تصفيف الشَّعر. يمكن أن يَعتَرفَ ناشِطٌ إسلاميٌّ مُعارِض في ساحة التحرير بالقاهرة لرَفيقِه اليساري الجديد «آدَم، العَلماني الأشعَث الشَّعر»:

«لم أتَخَيَّل يوماً أنني سأتَحدَّثُ إلى شخص له شَعرٌ طويلٌ مثلك». وأجابَ آدَم: «ولم أتَخيَّل أنا أبداً أنني سَأصادِقُ شَخصاً له لِحيةٌ طويلةٌ مِثل لحيتكَ»[٦٣].

التقى اليساريون مع الأصوليين، وكذلك التَقَت الكلماتُ والحرية. لم تكن السيطرة على تقنيات المعلومات الجديدة ممكِنة، ولا مُراقَبتها، وكذلك كانت الجُموع. كَتَبَت النَّاشِطَة المصرية أهداف سويف في ساحَة التحرير: «نحن كلنا معاً هنا، نفعلُ جميعاً ما لم نَستطع فِعلهُ منذ عُقود: يتكلَّمُ كلّ واحِدٍ ويتَصَرف ويُعبِّر عن نفسِه»[٦٤]. شَمَلَ كثيرٌ من ذلك التعبير عن النَّفسِ توضيحَ حَقائق مختلفة عمّا لدى الحُكَّام التقليديين. بالمُقارَنة، «يكذبُ هذا النظامُ (المصري) بشكلٍ طبيعي مثلما يَتَنفسُ»[٦٥]. فَعَلَتْ ذلك كل الأنظِمة. نَشَرَتْ وسائلُ إعلام النظام في كل مكان الأكاذيب القديمة المُتهالِكة بأنَّ المتظاهرين هم «عُملاء للخارج»[٦٦]. كانت المعلوماتُ المضلِّلة أكثر دِقّة في بعض الأحيان، فعندما قَتَلَ قَنَّاصون بالرصاص أكثر من خمسين مُتظاهِراً في العاصمة اليمنية صَنعاء في ١٨ آذار/مارس ٢٠١١ في يومٍ كانت حركةُ الاحتِجاج قد أَطلَقَتْ عليه اسمَ «جُمعةِ الكَرامة»، نَشَرَ نظامُ صالح أنَّ الرُّماةَ كانوا أهلَ بيوتٍ مَحَلية، أزعَجَت المظاهراتُ حياتَهم.

كانت الشعاراتُ حَيويةً مثلما هي الحال في جميع الثورات القوية منذ الإسلام وما بَعد. كان أهلُ القاهرة المُشاكِسون ماهرين في فَنِّ الهتافات السياسية بفَضلِ خِبرتِهم الطويلة في الاحتجاج عَبر القرون. كانت بعضُ الهتافات النموذجية:

---

(٦٢) Raja Shehadeh, *Occupation Diaries* (London: Profile Books. 2012), p. 112.

(٦٣) Ibid., p. 116.

(٦٤) Soueif, *Cairo: My City, Our Revolution*, p. 56.

(٦٥) Ibid., p. 133.

(٦٦) Ibid., p. 144.

عِيشْ!

حُرِيَّةْ!

كَرامَة إنسانيةْ[٦٧]!

صرخات في سبيل الكَرامة، ربما افتَقدتْ إلى الذّوق الغريب في الهتافات المؤيِّدَة للعثمانيين أيام احتلال نابليون للقاهرة:

الله يُنصُر السلطان!

ويهلكْ فَرط الرّمان![٦٨]

و«فرط الرمان» تحريف لـ«بَرْطَلَمِين»، اسم رجل مسيحي من أعوان الفرنسيين. أما بالنسبة إلى «حَرافيش» القَرن الرابع عشر فقد كانت شِعاراتهم الوَقِحَة تَهتفُ بالآلاف تحت أسوار قلعةِ القاهرة لمُطالَبة السلطان الأعرَج بالإفراج عن زعيمهم: «يا أعرج النحس أَخرِجْه!»[٦٩]، وعندما قُبِضَ عليه ثانية فيما بَعد، أخرجَتهُ من سِجنِه احتجاجاتُ جَمعٍ من يَتامى القاهرة.

بالعودة إلى سنة ٢٠١١، كانت الهتافات التي صَدَحَتْ في كل البلاد التي حَرَّكَها الربيعُ العربي بسيطةً وإيقاعية:

الشعب يريد إسقاط النظام

تبدو للوَهلة الأولى المَطالِبُ ذاتها التي أسقَطَتْ طُغاةً في أمريكا اللاتينية وهَزَّتْ عُروشاً في أوروبا. ولكن بالنسبة إلى مؤرخ لمنطقتهم إذا لم يكن مُؤرِّخاً لهم، فإن كلمة «الشعب» هي مُصطلَحٌ له أصدَاء أخرى، خافِتة ولكنها واضِحة: في تلك النقوش القديمة في جنوب شبه الجزيرة العربية حيث تدلُّ كلمة «الشعوب» على مجتمع مستقر حَضَري غير قَبَلي، ومن كلمة «الشُّعوبية» في القَرن الثامن وما بَعده حين سَعَت شعوبٌ متنوعة في

---

(٦٧) مقتبس من: Ibid., p. 18.

(٦٨) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٦٩) Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, vol. 1: *Travels in North-West Africa, Egypt, Syria, and to Mecca*, p. 54.

الإمبراطورية العربية للمساواة مع نُخبَتِهم الإمبراطورية الحاكِمة. فهو من ثَمَّ هُتافٌ مُحمَّلٌ بمَعنى عتيق، ولكنه مُحاطٌ كذلك بخَطرٍ حديث. أما الكلمة الأخيرة في الهتاف: «النظام»، فهي بالعربية ذات «قطبَين»؛ إذ يدلُّ مَعناها المُستورَد مِنَ الفرنسية على «نظام حُكم (فاسِد)»، ولكن مَعناها التقليدي يَعني «الترتيب والنظام القانوني (الجيد)». عندما جاءَت الثورةُ المضادَّة، لم يكن صَعباً على الحُكّام التقليديين الرَّجعيين نَشر الكَلمة بأنَّ شَبابَ الربيع العربي كانوا يَدعون في الحقيقة إلى الفوضى... ربما لم يكن المُتظاهرون «عُملاء أجانب»، ولكن هل كانت اللغةُ التي كانوا يَستخدِمونها أجنبيةً في حَدِّ ذاتِها بِنَوعٍ من الدَّلالة على الطَّابور الخامس؟ ثم إذا كان المُتظاهرون يَستوردون المَعنى، فإن الطُّغاة يُحرِّفونَهُ: لأنَّ نظامَهم «الجيد» ما هو في الغالب إلا واجِهَة للفوضى، والفوضى هي النظام القائم.

بِغَضِّ النَّظر عن دِلالات الألفاظ، فإن مجرد القدرة على التعبير كان تَحَرُّراً. ولم تكن الأصوات المرتفِعة مجرد هُتافِ شَبابٍ غاضِب. شاهَدَتْ امرأةٌ أكبر سِنّاً في مظاهرات ميدان التحرير في القاهرة أهداف سويف تُسَجِّلُ ملاحظاتِها، فقالتْ لها:

اكتُبي، اكتبي أنَّ ابني هنا مع الشباب، وأننا سَئِمنا مما كان يَحدُثُ في بلادنا. اكتُبي أن هذا النظام يُفَرِّقُ بين المسلمين والمسيحيين، وبين الأغنياء والفقراء، وأنها أصبَحَتْ بلداً للفاسِدين، وأنه أدخَلَ الجوعَ إلى بيوتِنا.

أدرَكَتْ سويف أنَّ «الجميعَ هنا قد أصبَحوا خُطَباء. لقد وَجدنا أصواتنا»[(٧٠)].

تلك كانت الكلمة المُتفَرِّقَة غير المجتمعة، لأنَّ احتكارَ الديكتاتور للكلام قد كُسِر (كلمةُ الديكتاتور باللغة اللاتينية تَعني أساساً «الشخص الذي يُملِي الكلام»). كان الأفرادُ يُعبِّرون عن آرائِهم عَلَناً من جديد مِثل تلك الأصوات العربية الأولى التي نُقِشَتْ على صخورِ الصحراء، ومِثل الشُّعراءِ الصعاليك الهائمين المستقلين، ومِثل الحلّاج، شَهيد حرية التَّعبير. كان كلُّ واحِدٍ خَطيباً، وكان الناسُ في كل مكان من الديموقراطيات المَلَكية يَهتفون،

(٧٠) Soueif, *Cairo: My City, Our Revolution*, pp. 145-146.

ليس بالانسجام المُطيع الذي يُحبُّهُ الطُّغاة، بل بأصواتِهم المتعدِّدة الخَشنة يُطالبون بدولةٍ مَدَنية يكون فيها الكلّ سَواسِية في ظِلِّ القانون، دولة مَدَنية لا يَحكُمُها العَسكر الذين يَنبَحون بالأوامر. كانت كلماتُهم تَهتف بالمَدَنِيّ، الكلمة المُشتَقَّة من المَدينة. كان بإمكانهم استِخدام كلمة أخرى ذات أصداء أقدَم هي «الحَضَري» لأنَّ الربيع العربي كان تنويعاً جديداً على موضوع قديم: الجَدَل بين الحَضَر والبدو، بين مَن أرادوا بِناء مجتمع، والذين أرادوا الإغارة عليه، بين الشعوب والقبائل.

بُعِثَ الأمَلُ في كل مكان، في أيار/مايو ٢٠١٣ شوهِدَ شاعرٌ مصري متفائل على التلفزيون يتَنبأ بعالَم عربيٍّ موحَّد «في ٢٠١٧» (قالَ المُشاهِدَ رَجاء شحادة: «كم أُعجبتُ به!»)[٧١]. ولكنَّ كثيراً من الأمل كان حَذِراً، وظَلَّت الغالبية من رجال الشارع الواقعيين صامِتَةً ساكِنَةً كَعهدِها دائماً، تَتفرَّج ولكنها لا تُشارِك، ولا تَتبنَّى في الغالب ما كانت المظاهراتُ تَدورُ حَولَه.

واتَّضَحَ في النهاية أنَّ الربيعَ العربي كان تغييراً سَطحياً. قالَ أدونيس الذي عُرِفَ كَشاعِر أنّ العرب:

واقِفون بين فُصول[٧٢] [غير حرفي]

وشَخَّصَ شِعراً طَبيعةَ المأزَق العربي منذ سنة ١٩٨٠ بداية الشتاء الطويل الحالي:

الأنظمةُ العربية الحالية هي في الحقيقة نِظام واحِد مهما كان عَددها... نظامٌ يَرتكِزُ على القَمع. يجب أنْ يُرفَضَ هذا النظام تماماً ويُحارَب على كافة المستويات. ولكنَّ مقاومَةَ النظام والتَّغلبَ عليه لا يَضمَنُ بالضرورة قُدومَ حُكم ديموقراطي، لأنَّ البُنيَة التَّحتِية الاجتماعية الاقتصادية رَجعيةٌ... ويجب إصلاحُهُا مِنَ القَواعد... المستوى السياسي في الثورة هو الأكثر ضَحالة... يجب أن يكون الحُصولُ على السُّلطَة تَتويجاً لِعَمليةٍ واسِعة من التَّفكيكِ. من دون هذه العملية لن يُغيِّرَ الحُصولُ على السُّلطَة شيئاً[٧٣]. [غير حرفي]

---

(٧١) Shehadeh, *Occupation Diaries*, p. 133.

(٧٢) ورد في: Ajami, *The Arab Predicament*, p. l.

(٧٣) أدونيس، **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**، ج ٣: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني**، ص ١٦٥.

مثلما أدركَ الثوارُ المسلمون الأوائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٧٤].

في هذه الأيام، تمّ كَتمُ تلك الأصوات المُفرَدة التي انطلقَتْ ذات يوم. وعادَ ربيعٌ آخَر بلا صَيف، بَدأه أولئكَ الجِياع للعَدالة، مِثل كثيرٍ من الثورات، كثورة محمد، إنما اختَطَفَهُ أولئك الجائعون للسُّلطَة. كان الاختِطاف مُضاعَفاً، مثلما حَدَثَ في كثير من الحالات، خاصة في مصر حيث اختَطَفَهُ الإسلاميون أولاً، أنصار الثورة القديمة. وسرعان ما طَرَدَ أصحابُ اللّحى الشَّعثاء، أصحابَ الشُّعور الطويلة، ثم عادَ أصحابُ النظام القديم نفسه من الديناصورات النَّهِمَة.

ربما يُقالُ إنّ تاريخَ العرب هو سِلسلَةٌ مِنْ ثورات مُختَطَفَة.

الديناصوراتُ تُقاتِلُ مِن جديد

بعد سنةٍ من حُصولِ الإخوان المسلمين على السُّلطَة بانتخاباتٍ وطنية في مصر، رَتَّبَ الحكّامُ السابقون مِنَ العَسكر انقلاباً. تم قَمعُ كلّ مُعارَضة إسلامية أو مستقلة، وسُجِنَ كثيرون، وحُكِمَ بالإعدام على مئات. وفي سورية، بَدأ بشار الأسَد، الحاكِمُ المُطلَق من الجِيل الثاني، بالقَضاءِ على مُعارِضيه بلا رَحمَة، وأشعَلَ حرباً أهلية قَتَلَتْ نحو نصف مليون إنسان. في البحرين، قُمِعَتْ سريعاً انتفاضَةُ أكثريةِ السكان الشِّيعة بمساعَدةِ دباباتٍ سعودية. كما أُخمِدَتْ أو خُنِقَتْ اضطراباتُ ربيعٍ عربيٍّ أقلَّ حِدَّةً في مَلَكيات صَريحة. ربما كانت تونس، حيث بَدأ الربيعُ، قصّةَ النجاحِ الوحيدة، وسَنعودُ إليها لاحِقاً.

حَدَثَتْ «قصةُ نجاحٍ» مَبدئيّ آخَر في اليمن، ولكنها سرعان ما تَحوَّلَتْ إلى فَشَل بنسَبٍ خُرافية، تَرجِعُ جُذورُ أسبابه إلى تواريخ عديدة مختلفة جِداً. راقبتُ الفشلَ أثناء حُدوثِه، وعانيتُ منه مِثلَ كلّ شَخصٍ آخَر في البلاد. تَنازلَ عليّ عبد الله صالح في البداية، بَعد أنْ أصبحَ تَيساً طَويلَ الأسنان وديموقراطياً ـ مَلَكياً طَويلَ العُمر، وبَعد التَّوصُّل إلى اتِّفاق، وحَلَّ مَحلَّه نائبُ

(٧٤) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد»، الآية ١١.

الرئيس. إنما على العَكس مما فَعَلَهُ الطاغية المَخلوع في تونس، لم يُغادر صالح إلى مَنفى فاخِر، بل بَقِيَ في الوطن بضَمانِ حَصانَته من المُحاكَمة. وكعادته دائماً في المكر وعَدم الحِكمة في الانتقام، أرادَ «غسلِ كبده»، كما يُقالُ باللغة العربية. تآمَرتْ معه حَركَةٌ مُقاتِلَةٌ إمامِيةٌ جديدة تأثّرت بالشيعية الإيرانية، وكانوا يُطلِقون على أنفسِهم اسمَ «أنصار الله». يُعرَفون أكثر باسم «الحوثيين» نسبةً إلى اسم عَددٍ من زعمائهم الرئيسيين، وجميعهم من الأقرباء والمُنتَمين، مِثل معظم أَفرادِ النُّخبة في هذه الجَماعة، إلى عَشيرة الهاشميين من قريش، خاصة إلى نَسلِ محمد من ابنتِه فاطمة وزوجها ابن عَمِّه عليّ بن أبي طالب. كان صالح قد بَدَّدَ حياة اليَمنيين ومَواردهم في قتالٍ استمرَّ عقداً خاضَ فيه لا أقلَّ عن ستّ حروب ضِدَّ الحوثيين أنفسِهم، ولكن بَعدَ أن خَسِرَ السُّلطَة قامَ باستِدارةٍ تامّةٍ مُفاجِئة وجَمَعَ قوّاته معهم للتَّخلص بقوة السلاح من حكومةِ الإجماع التي جاءِ بها الربيع العربي «الماعز، حتى القديمة منها، تتسم بالمرونة». تَوافقَتْ أفعالُهُ مع حكمَةِ اللورد بيفربروك Beaverbrook: «ما أريدُهُ هو السُّلطَة. قَبِّلهُم ذات يوم، واركُلهُم في يوم آخَر»[٧٥]. انقَسَمت اليمن مرةً أخرى الآن، وهي في حَرب مع نفسِها ومع جميع جِيرانها في شبه الجزيرة العربية (ما عدا عُمان التي ظَلَّتْ على الحِياد)، ومع تحَالفٍ عربيٍّ أوسَع. كانت نتيجة كل ذلك هي انهيار الاقتصاد، والفقر، وانتشار المَرض، وموت الأبرياء بأعداد كبيرة، ولا يسمح بالحقائق البَديلة، ويُعتَبر الدخولُ في مناقشةٍ إثارةً للفتنة، وانتَهى التنوع، وماتت الوحدة (أعلَنَ رفيقٌ قديمٌ أصبَحَ الآن مُتعاطِفاً مع الحوثيين: «فلتَذهَب الوحدَةُ إلى الجَحيم». ربما لم يكن تَصريحاً رسمياً، ولكنه صَدَرَ مِنَ القلب).

هناك ثلاثة أصداء في كل هذه الأحداث من ماضي العرب القديم: سَمَحَتْ وحداتٌ من الجيش مازالتْ مواليَةً لعليّ عبد الله صالح المَخلوع لمُقاتلي قبائل الحوثيين بالاستيلاء على العاصِمة وأجزاء كبيرة من البلاد، وكان بعضُهم أطفالاً لا تزيد أعمارُهم على عشر سنوات، وربما أعاد ذلك لبعض المُسنِّينَ في المدينة ذكرياتِ ما حدَثَ سنة ١٩٤٨ عندما استَدعَى

(٧٥) ورد في: *Kipling Journal*, vol. 38, no. 180 (1971), p. 6.

الإمامُ الحاكِم رجالَ القبائل لاحتلال العاصمة عِقاباً على اغتيالِ أبيه. ولكنّ اللعبَ على نِداء القبائل أقدَم من ذلك؛ فمنذ تَراجُعِ مَملَكة سَبأ قَبلَ الإسلام، استَدعَى حكّامٌ فاشلون رجالَ القبائل لمُمارَسَةِ النَّهبِ في انتقامهم ممّن خَلعوهم[٧٦]. إلا أنَّ الرئيس المَخلوع صالحاً سيُصبحُ ضَحيةً لمؤامرتِه لأنَّ كثيراً من رجال القبائل لم يكن لديهم وَلاءٌ له، فالوَلاءُ سِلعَةٌ تَذهبُ لمن يَدفَع أكثر، وفي هذه الحالة زايَدَ الحوثيون عليه. هناك صَدى آخَر من الماضي البعيد في شخصيةِ الحوثيين من العشيرة الهاشمية لقبيلة قريش المكية التي مازالت صامِدة بعد ١٤٠٠ سنة من ثورتها الأولى. نَصَّبَ صالح نفسَه رَجُلَ القبيلة الأعظَم، ولكنّ القرشيين، وأنسالهم الأموية والعباسية، قد أثبَتوا أنفسَهم القبيلةَ العُظمى مرات ومرات. أما الموضوع القديم الثالث فقد تَكرَّرَ في عُنفِ رَدِّ فِعلِ التَّحالف العربي ضد الحوثيين. فمن وجهة نَظَرِ جِيرانِ اليَمن في شبه الجزيرة اعتُبرت الحركَةُ التي استَلهَمت إيران بمَثابة عُملاء في صِراعِ ألفِيّ تَشُنُّهُ فارس للسَيطَرة على شبه القارّة العربية. ولم يتغيَّر هذا الموضوع الثالث كثيراً، فمنذ ١٤٠٠ سنة بَعدَ أن بَدأ أسلافُهم اعتناقَ الإسلام، مازالت الدِّعايةُ الخليجية الأكثر خشونة تُسمّي الإيرانيين الدّاعِمين للحوثيين باسم «المَجوس» وكأنهم مازالوا يَتبعون دِيانَةَ الدولة الفارسية الشاهانية. . . لا يحتاجُ المَرءُ لأن يكونَ كاتِباً قصصياً لكي يَرى التاريخَ مثلما رآه لورنس دوريل Lawrence Durrell: «تلك المجموعةُ الواسِعة مِنَ الأقيسة والمُقارَنات»[٧٧].

كان توحيدُ اليمن قَبلَ أقل من ٢٤ سنة من هذه الكوارث حَدَثاً يَجبُ الاحتِفاء به في شتاء العرب الطويل. ولكن، إذا مَزَّقَت الدولةُ نفسَها الآن مرة ثانية، فهي تَتبعُ نَمَطاً تقليدياً. ففي كل مكان في عالَم العربية، تَتحكَّم التَّفرقة والتَّمزق. هناك انقسامٌ غير مُعلَن في مصر حيث تُخنَقُ المُعارَضَة بالقانون أو بِحبلِ المشنقَة حَولَ رقَبتها. هناك انقسامٌ صريحٌ في كل مكان. ليبيا منقسِمة مثل اليمن إلى مناطق تَحكُمها حكومةٌ شَرعية، أو ميليشيات

---

(٧٦) مطهر علي الارياني، **نقوش مسندية: وتعليقات**، ط ٢، مزيدة ومنقحة (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٠)، ص ٣٢٩.

(٧٧) Lawrence Durrell, *Reflections on a Marine Venus* (London: Faber and Faber, 1953), p. 80.

وعصابات مسلحة لا تَستحقُّ حتى ذلك الاسم. وفي لبنان يُوجَدُ حزب الله مثلِ دولة ضِمنَ دولة. وفي فلسطين يَقسِمُ خِنجَرُ إسرائيل قطاعَ غزّة الذي تحَكُمُه حَماس، والضفة الغربية التي تَحكُمها فَتح، وكلاهما يَسحَب خَناجر. أما سورية فهي تَجعلُ صندوقَ بندورا Pandora's Box يبدو وكأنه لا أكثَر مِن صندوقِ دِيدان، وتَتصارعُ فيها القوة العظمى الأمريكية المُعاصِرة مع ثلاث قوى عظمى سابقة: تركيا وفارس وروسيا، ويَتحرَّكون مِثلَ مَجانين، وكذلك في عشِّ الدَّبابير في العراق الذي بَعَثَتْ فيه حَياةً مَسمومَةً تلك القوة العظمى الأولى. انقسَم السودانُ بشكلٍ أكثر وضوحاً وفَهماً إلى جزئين عربيين وغير عربيين. قد تكون الأمور أكثر سوءاً في الجزائر، ولكن ربما لأنهم كانوا في حالَةٍ سيئة جِداً في التسعينيات حين أودَت الحربُ الأهلية بحَياة مئات الآلاف، فَقَدَ الجزائريون الرغبةَ بِقَتلِ بعضِهم. يبدو أنَّ المَلَكيات المُطلَقَة هي التي ظَلَّتْ تَعملُ فقط، في نظامِ تَخلَّى عنه العالَم(*). وهكذا، ربما كان كُهّانُ السُّوق على حَقّ: العربُ مختلفون، فهُم يحتاجون إلى أنْ يَحكمهم الحجّاج أو صدّام بالعَصا، وأنّ الحديثَ عن الحرية والحقيقة والربيع هو ضَلالٌ غربي. وإذا كانت العَصا وراثية، صَولجان، فإنها سَتتجَنبُ كثيراً من سَفكِ الدماء عند انتِقالِها.

ولكن، هناك استثناءٌ حتى الآن في تونس، فهي الدولةُ الوحيدة التي حَقَّقَ فيها الربيعُ العربي نتيجةً ناجِحة مَعقولة. الدولةُ ليست بلا مَشاكل، بما فيها أعمالٌ متفرِّقة من الإسلاميين الإرهابيين. ولكن يبدو أن هناك استقراراً أساسياً. لماذا هناك وليس في أي مكان آخر؟ ربما جُزئياً لأنها كانت أول ثورةٍ في الربيع العربي، ولأنَّ الطَّاغيةَ السابق قد جَمَعَ خَساراتِه وهَرَبَ قَبلَ أنْ يَتعلَّم مِنْ تجاربِ الآخرين من الديناصورات في القِتال من جديد. وربما جُزئياً بسبب وجودِ قيادةٍ مُستنيرة، فقد بَرَزَ مُنصِف المَرزوقي وكأنه نَظيرٌ عربيٌّ لزاخاروف Sakharov وسولجينتسين Solzhenitsyn منذ أكثر من عِشرين سنة(٧٨) قَبلَ أن يُصبحَ أولَ رئيسٍ لتونس بَعدَ الربيع العربي. وربما أيضاً بسبب

(*) [ربما المشكلة الحقيقية بشكل أدق هي أنّ العالَم لم يَتخَلَّ عن النظام العربي القائم، وظَلَّ يَتدخَّل باستمرار، وذلك هو لُبُّ المشكلة في المنطقة] (المترجم).

(٧٨) Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*, p. 401.

رَجَحَان كفَّة الحضارة على البداوة في تونس منذ زمن طويل. جَعَلَ الفينيقيون ساحلَ تونس مَركَزَ استقرارٍ تجاري في القَرن الأول قَبلَ الميلاد، وكانت الولاية الرومانية الغنية في أفريقيا، وتُصَدِّرُ القَمحَ وزيت الزيتون إلى إيطاليا. وأصبَحتْ بعد الاحتلال العربي وتأسيس مدينة القَيروان العَسكرية التجارية المَركَزَ الإداري للمَغرب. استمرتْ بعد هجراتِ ونَهبِ بَني هلال وغيرهم من القبائل العربية في القَرن الحادي عشر بشكلٍ أفضَل من أماكن أخرى. تعامَلَ معها الاستعمارُ الفرنسي بشكلٍ أقلَّ عُنفاً مما فَعَلَهُ في بقية المناطق. كانت المهمّةُ الحضارية قد أُنجِزَتْ في العصور القديمة، وكان انفِصالُها عن فرنسا أقلَّ عُنفاً بكثير مما حَدَثَ في جارتِها الجزائر. كان لها زعيمٌ تقدُّميّ بَعدَ الاستقلال هو الحَبيب بورقيبة الذي أنفَقَ رُبعَ الميزانية العامّة على التعليم، وشَجَّعَ تَحرُّر المرأة، وحاولَ دون نَجاح أنْ يُمرِّرَ قوانين تَمنَع صِيامَ العامِلِين في رمضان[٧٩]. ولا توجَدُ فيها المناطق النائية المتخلفة القَبَلية التي تُشكِّل معظم مناطق الدول العربية. وأخيراً، في تَبايُنٍ مع معظم الدول العربية المُعاصِرة، فقد كانت تونس، ومازالت، تَتطلَّعُ دائماً نحو الخارج جغرافياً وثقافياً، وهي تَضَعُ قَلبَها على ساحِلِها.

ربما يكون الاستثناءُ في تونس هو الرَّدُّ على كُهّان السُّوق ونِساء القَصَبَة، وأنَّ افتِراضهم الأوّليّ بأنّ «العرب» يَختلفون عن كل الآخرين هو افتِراضٌ خاطئ. العربُ مُتَنوِّعون كثيراً، ويَختلفون جِداً عن بعضهم، وقد اختَلَطوا بعُمقٍ خلال زمنٍ طويلٍ مع شعوبِ إمبراطوريات كبيرة ومتنوعة، ولا يمكن جَمعُهُم كلُّهُم مَعاً في كِيانٍ واحِدٍ مُعَرَّف. والذي يَختلفُ لديهم هو ظُروفهم التاريخية، خاصة الإعداد التَّشكيلي لشبه القارة العربية الذي صَنَعَ الجَدَلَ الخالِدَ بين الحَضَر والبدو، مثل تَوأم مُتَّصِلٍ جَسَدياً يَتَجادَلُ باستمرار، ولكن وجودَه الكليّ حَتميٌّ وضَروري. لمْ تتمكَّن الحضارة المستقرة من تحقيق النَّصرِ الحاسِم الذي حَقَّقتهُ في معظم أرجاء العالَم. الحروبُ الدائرة حالياً هي الأقسَى في نقاطِ التَّماسِ الأكبَر الدائمَةِ الصِّراع بين نوعَين من المجتمعات: هنا في اليمن، في هِلالِنا الخصيب الجنوبي الأصغَر، وفي الهِلال الأكبَر في الشمال في أراضي سورية والعراق. كان الصِّراعُ أقلّ مَرارة

---

(٧٩) *The Encyclopaedia of Islam*, s.v. Tunisia.

حيث تفوَّقَتْ وسَيطَرت الحضارة المستقرة والانفِتاح على مَدى الزمن.

لا شك بأنَّ الصورةَ الأكبَر والأكمَل ليست بشكلٍ صَريح «البدو» ضد «الحَضَر»، أو القبائل ضد الشعوب، ولم تكن كذلك أبداً. ولكن يبدو أنَّ هذه الثنائية تَكمُنُ في أعماق التاريخ، وتؤثِّرُ على حاضِرٍ يُسيطِرُ فيه شَكلٌ مُشتَقٌّ من البداوة. اشتِقاقُهُ غير واضِح لأن «بدو» هذه الأيام لا يَركَبون الجِمال عادةً، ولا يَعيشون في بيوتِ الشَّعر. وإذا كان حافِظ الأسَد مثلاً يُشبهُ البَقَّال، فإن ابنَه بشاراً يُشبهُ طَبيبَ العيون الذي دَرَسَ في لندن، ومع ذلك فإنهما وأمثالهما مِنَ الطُّغاة ليسوا أقلَّ مَيلاً للإغارة والرَّعي من سلالات حُكَّام الصحراء الخَام الذين وَصَفَهم ابن خلدون في نظريته الكلاسيكية. تُستَمَدُّ قوَّتُهم ويتم الاحتِفاظ بها من خلال الإغارة[٨٠]، ويُسيطِرون على شَعبهم مِنَ الرَّعايا عن طريق الرَّعي، رَعي العُقول.

١٤٤١/٢٠٢٠

الرَّعيُ بالكلمات في الشِّعارات والخِطابات والدِّعاية أصبَحَ أكثر كَفاءة في العَصر الحديث. فمَعَ تَطور تَقنيات الاتِّصالات تَرعَى شعوبُ الحاكِم ورَعاياه راضِيَةً في أرضٍ تَخيُّلِيَّةٍ، فهم يؤمنون بما يُريدُهم أنْ يؤمنوا به. ولكن كيف يُمكِنُ ذلك في عالَم تَختَرقُهُ مَصادرُ معلوماتٍ بَديلَة؟ حتى أكثر الأنظمة العربية قَمعاً لم تَمنَع قَنَوات التلفَزَة الفضائية والإنترنت. من المؤكَّد أنَّ هذه التقنيات يجب أنْ تُرشِدَ إلى مَسرحٍ جديد في تاريخ العرب، مثل تقنياتٍ سَبَقَتْها، خاصة بعَرضِ الحرياتِ التي تَتمتَّعُ بها الديموقراطيات الليبرالية في العالَم. يجب أن تُلهِمَ عالَماً عربياً مَكبوتاً لفترة طويلة لكي يُطالِبَ بالمِثل. كان ذلك هو المُتوقَّع من الربيع العربي.

في البدء، واجَهَت الحقائقُ البَديلَة جِداراً نارياً مِنَ العَطالَة والكَسَل. تَدخُلُ في تَشبيهِ الجِدارِ الناريِّ استعارَةٌ أخرى، فكثيرٌ من العرب، ربما معظمهم، مُعرَّضون لما يمكن تسميته: ظاهِرة ستوكهولم جَماعية، إنها نوعٌ مِنْ «آليةِ التَّأقلُم». إذا خَضَعتَ لاستعبادِ جَماعةٍ من الرجال الأقوياء المُسيطِرين، فبَدلاً مِنَ الإقرارِ بأنكَ ضعيفٌ وعاجز، فتَخسَرُ بذلك احترامَكَ

(٨٠) قارن: ص ٥٩٠ من هذا الكتاب.

لنفسِكَ و«شَرفك»، فإنك تُعلِنُ أنَّ سادَتَكَ فُضَلاء. ومع مرور الوقت، تُصبِحُ حقيقةً خَطابية مهما ناقَضَتْها الأدلةُ التجريبية الواقعية. كثيرٌ من الحياة العربية العامّة يُعاشُ بهذه الطريقة مِنَ التَّعليقِ الطَّوعيّ للحقيقة. يكون التعليقُ عادةً إرادياً واعِياً، «نحن نَعرفُ أنه سَيئٌ، ولكننا نُحِبُّه!»، والشعور «بِعَدَمِ الكَفاءة لِشغلِ مَنصِبٍ عامّ» هو شعورٌ غير موجود، ومهما ارتفَعَ مستوى أخلاق الشعب في الحياة الخاصة، فمِنَ «المتوقَّع» أنَّ الحياة العامة لا أخلاقية. تُخلَعُ الأحذيةُ الملوثَةُ عند الباب، وفي الدَّاخل طَهارَةٌ تامّة. إنها واحِدَةٌ مِنْ أكبر الازدواجيات في الوجود العربي.

كان على معظم البشرية في معظم تاريخِها أن تَتعامَلَ مع الاستبداد مهما كان سيئاً، فقد كان ذلك مَسألةَ بَقاء. ولكنَّ حقيقةَ أنَّ العربَ مازالوا يَفعَلون ذلكَ لا تَرجِعُ فقط إلى حُكَّامِهم الطُّغاة، ولا إلى آلياتِ تأقلُمِهم، بل تَرجِعُ كذلك إلى الشَّكلِ الذي يَتَّخِذُه الإسلامُ بينهم في العادَة حيث تُمزَجُ العقائدُ الدينية بالسياسةِ قَصداً. وكما أنَّ هنالك «إسلاماً سياسياً»، ووجِدَ ذلك دَوماً، فهناك أيضاً «سياساتٌ إسلامية»، ليس بمَعنى الإسلام الروحي أو الأخلاقي أو العَقائدي، بل بمَعناه الأساسي في «الخُضوع والتَّسليم». هناك رسومٌ خارجَ نافذتِي، ورِاياتُ وَلاءٍ للزعيمِ الحوثيّ تَحملُ هذه الكلمات:

لَبيكَ يا قائدَ الثورة!

الكلمةُ الأولى «لَبيكَ» بعيدةٌ جِداً عن مفردات اللغة العربية اليومية، بل هي نادرةٌ حتى في العربية الفصحى. تُستخدَم عادةً في سِياقَين فقط: ظُهورُ الجنيّ من المصباح السِّحري في **ألف ليلة وليلة**، أو عندما يقتربُ الحاجُّ من مكة مُنادياً الله. الجنيّ والحاجّ كلاهما في حالَةِ خُضوعٍ وتَسليم.

يَفتَرِضُ أجانبُ مُتحمِّسين أنَّ العربَ يَطلُبون، أو عليهم أنْ يَطلُبوا، «الحرية» من طُغاتِهم. قلَّةٌ منهم يَفعَلون ذلك، ولكنهم أولئك الذين يَتحدَّثون أصلاً حَديثَ الأجانب. أما الغالبية العظمى الداخلية الخَرساء فهي تَتواطَأ وتَتعاوَن مع الطُّغاة. إنهم مُتواطِئون ومُشارِكون، مثلما يَصِفُ صموئيل جونسون Samuel Johnson: «لِلمَكرِ تأثيرٌ بسببِ سَذاجَةِ الآخرين»[٨١].

(٨١) Samuel Johnson and James Boswell, *A Journey to the Western Islands* (London: Penguin Classics, 1984), p. 288.

والسَّذاجَةُ تَعملُ في الاتّجاهَين: لأن «ثيابَ الإمبراطور الجديدة» ربما كُتبتْ لقارِئين عَرَب في هذه الأيام.

لاحَظَ مفكِّرون عرب، أو شُعراء بكلمةٍ أخرى، تأثيرات ظاهِرة ستوكهولم جَماعية منذ زَمنٍ طويل. ذمَّ امرؤ القيس قَتَلَةَ أبيهِ في القَرن السادس بأنَّهم العبيدُ المغفلون لزعمائهم، «عبيد العَصا»[٨٢]. قال شاعرٌ متأخِرٌ بمَرارة:

إذا رأيتَ امرءاً وضيعاً ... قد رفع الدهرُ من مكانهْ
فكن له سامعاً مطيعاً ... معظماً من عظيم شانهْ
فقد سمعنا بأن كسرى ... قد قال يوماً لترجمانهْ
إذا زمان السباع ولّى ... فارقص للقرد في زمانهْ[٨٣]

كان السَّطرُ الأخير مَثَلاً دارِجاً في زمنِ ابن خلكان الذي سَرَدَهُ في القَرن الثالث عشر. لقد طالَ انتظارُ إعادةِ إحياءِ هذا المَثَل.

هل سَيتحرَّرُ العربُ ذات يوم من نيرِ العَصا ويَخرجون عن الإيقاع المَفروضِ وعن هذه الرَّقصَة المُنوِّمَة إلى إيقاعِ موسيقى العَصر؟ تَكرَّرَ طَرحُ هذا السؤال خلال مِئتَي سنة منذ اليقظَة في بداية القَرن التاسع عشر. ربما سيكون التَّحرر حَتمياً، أو ربما يحتاجُ إلى قرونٍ من الربيع. هناك قولٌ مَشهورٌ نُقِلَ عن حسني الزعيم القائد السوري الجديد سنة ١٩٤٩: «أعطِني خمسمئة سنة وسَأجعَلُ سورية مُزدَهرة ومُستَنيرة مِثلَ سويسرا»[٨٤]. ربما كان على حَقّ، ولا يستطيعُ المرءُ أنْ يَستعجلَ التاريخ. ربما تَسيرُ أنواعٌ مختلفة من التَّقدم وفقَ ساعاتٍ مختلفة، والآن في سنة ٢٠٢٠ ميلادية، مازال معظم العرب يسيرون حسبما تَسيرُ هواتفهم المَحمولَة، بينما يَظلّون في سنة ١٤٤١ هجرية من نواحي التطور الاجتماعي السياسي، أي قَبلَ مَطبعةِ غوتنبرغ، والإصلاح الديني البروتستانتي، وعصر النهضة الأوروبية، والثورتين الفرنسية

(٨٢) امرؤ القيس، **ديوان امرؤ القيس** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ١٣٤.
(٨٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٣، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، وتنسب أحياناً للإمام الشافعي.
(٨٤) ورد في: Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*, p. 4.

والروسية، والحروب العالمية، وفصول الربيع (الناجحة على الأقل). ليس المَقصودُ أنْ تكون المُقارَنة انتقادية غير عادِلَة، بل بكل بَساطة هناك أنواعٌ مختلفة من التاريخ تَسيرُ بمُعدَّلاتٍ مختلفة في ظروفٍ مُختلفة، مثلما يَحدُثُ في عالَم العربية نفسه (كنتُ ضَيفاً في دبي على أمراء في أعلى ناطِحَةِ سَحاب في العالَم، وتناولتُ وليمَةَ طعامٍ في جزيرة سُقطرى اليمنية مع أهلِ كَهفٍ نأكلُ كُليَةَ نَعجَةٍ نَيئةٍ، وكان الاستقبالُ أميرياً هناك أيضاً). هناك دواماتٌ أيضاً حيث يَتدفَّقُ التيارُ مَعكوساً، وربما كان ذلك ما حَدَثَ في عالَم العربية أثناء العقود القليلة الأخيرة. إذا اعتُبِرَتْ كِنسِبَة في سياقِ تاريخ الإنسانية، فإن تلك الفَجوَة من ٦٠٠ سنة لا تُعتَبرُ شيئاً، حتى بالنسبة إلى التاريخ السياسي والفكري. وإذا وضَعنا بدايَتها عندما بَدأ البَشَر بالكلام منذ نحو ١٠٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ سنة مَضَت[٨٥]، فإنه فَرقٌ أقلّ مِنْ ١ بالمئة. وفي الوقت نفسه، فإن تلك الستمئة سَنة الأخيرة كانت نوعاً مِنَ التَّصاعد التاريخي المُتَسارِع، وكانت بالنسبة إلى أوروبا فترةَ نُضوجٍ سياسي. كان الربيعُ العربي جزءاً مِنَ البِداية المُتأخِّرة لذلك النضوج الذي تم تأجيلُهُ الآن. كان بدايةَ فقدانِ الإيمان بالحُكم الأبويّ، إنما بالنسبة إلى بعضهم فقط. أما بالنسبة إلى الباقين، فإن الحالَةَ القديمة مستمرةٌ في بَراءَةٍ مُربِكَةٍ بشكلٍ متزايد، مثل بَراءَةِ شخصيةِ بيتر بان Peter Pan الخيالية في المسرحية المشهورة.

بالطبع، لا يجب أنْ يَستغرقَ التغيير خمسمئة سنة، وقد تَمكَّنتْ دولٌ كثيرة في أوروبا الشرقية وأمريكا الجنوبية مؤخَّراً من استِبدال الديكتاتوريات بديموقراطيات عَمَلية مَقبولة خلال سنوات قليلة، وفَعَلَتْ إسبانيا ذلك في لَيلَةٍ واحِدةٍ تقريباً بعد وفاة الجنرال فرانكو. مِنْ مَصلَحَةِ الطُّغاةِ الديناصورات أنْ يَستغرقَ التغييرُ زمناً طويلاً، لأن ذلك يَمنَحهم تأجيل انقِراضِهم. وهم يَخافون مِنْ بعضِهم أكثر من خَوفِهم من شعوبِهم.

نارُ الحُكَماءِ الجيدة

هناك إجابةٌ أخرى للسؤال عن كيفية تَعامُل الأنظِمَةِ المُستبدَّة مع تعدّد مَصادر المعلومات، وهي سببٌ آخر يُفسِّرُ لماذا يَنامُ الطُّغاةُ مُطمَئنّين، وهي

(٨٥) Jared Diamond, *Guns, Germs and Steel* (London: Vintage, 2005), p. 40.

أنَّهم قد تَأقلَموا بشكلٍ استثنائي جيد مع ظروفِ المعلومات المتغيرة. هذا التَّأقلُم هو أحدَث التطورات في تقنيات المعلومات في اللغة العربية وفي السَّيطَرة السياسية التي بَدأت بتوحيد اللغة الفصحى وانطلَقَتْ مع كتابة اللغة العربية. ربما كان الربيعُ العربي «ثَورةَ الفيسبوك»، إلا أنه سرعان ما أصبحَ ضَحيةَ تقنياتِه المُساعِدة. في سنة ٢٠١١، كانت القِلَّةُ النِّسبيةُ من العرب الذين يَستخدَمون وسائل التواصل الاجتماعي هم أنفسهم الذين يَتَبَنّونَ الحريات التي قامَ الربيعُ العربي مِن أجلِها. هناك عددٌ أكبر بكثير من العرب الذين يَستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي هذه الأيام، ولكن الديناصورات دَخَلَتْ على فيسبوك كذلك، وفي كلِّ شيءٍ آخَر، وهم مُفَسبكون ومُغرِّدون نَهِمون، وهم الذين عَرفوا دائماً كيف يَجمَعون الكلمة، ولديهم الآن الوسائل المُثلى للقيام بذلك، ولزَرع تلك الكلمة مباشرةً في عقولٍ كثيرةٍ تتواصَلُ مع الهواتف الذكية. قالَ نزار قباني:

اللفظَةُ إبرةُ مورفِين

يَحقُنُها الحاكِمُ للجُمهور..

مِنَ القَرنِ السَّابعْ[٨٦]

يتم توجيهُ الكلماتِ لِعَقلِ الجمهور الآن بشكلٍ مباشَر. ربما يمكن تسمية تيارات المعلومات المَغلوطة «لاي ـ فاي lie-fi»، وهي تُسَرِّعُ المُستخدِمين بشكلٍ أعمَق في المنطقة التي سَمَّاها بينديكت أندرسون Benedict Anderson «المجتمعات المُتَخَيَّلَة»[٨٧]، أو حَسبَ مارتن نواك Martin Nowak «المُتَعاوِنون الفَائِقون Supercooperators»[٨٨]، أو حَسبَ ويتغنستاين Wittgenstein «سِحر ذكائِنا بوساطَةِ اللغة»[٨٩]. الناتِجُ النهائي هو طَبَقَةٌ عامِلة مُبَرمَجَة عَظيمة مَغسولَةَ الدِّماغ.

مازالت الوسائل القديمة لِجَمعِ الكلمة، أو لِقَمعِ المُعارَضَة، موجودة.

---

(٨٦) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٧٥٩.

(٨٧) قارن: ص ٢١٦ من هذا الكتاب.

(٨٨) انظر أفكار حول اللغة والعولمة في: ص ٤٧ و٢٥٢ أعلاه.

(٨٩) Ludwig Wittgenstein, *Philosophische Untersuchungen* (Frankfurt Am Main Suhrkamp Verlag 1953), part 1, section 109.

فمَثلاً، أسَّست العائلةُ الحاكِمَةُ في قَطَر قناةَ الجزيرة التلفزيونية الفضائية بأحدَثِ التّقنيات، ولكنها تستطيع كذلك أنْ تَلجَأ «لِقَطعِ لِسانِ» شاعِرٍ يُثيرُ غَضَبَها. عندما جَذَبَتْ انتباهَها أبياتٌ للشاعر القَطَري محمد العجمي تَنتَقِدُها بشكلٍ مُعتَدِلٍ، قُدِّمَ للمُحاكَمة، وحُكِمَ عليه بالسّجن خَمس عشرة سنة[٩٠]. تمّ العَفو عَنهُ بَعدَ أنْ قَضى في السّجن ثلاث سنوات، ولكن قِصَّتَهُ تُبيِّنُ كيف أنَّ سِحرَ الشِّعر القديم مازال يُخيفُ القابِضِينَ على السُّلطَة الأكثر واقعية. وإلى الشرق قليلاً في دبي على الخليج يوجَدُ مِثالٌ على شِعرِ السُّلطَة، حَولَ أرخَبيلٍ صناعيّ مَشهور صُنِعَ بِشكلِ أشجار النّخيل في حَلَقَةٍ خارجية من جُزُرٍ صناعية كُتِبَ بَيتٌ مِن الشِّعر للحاكِمِ يقولُ فيه:

أكتب على الماء ومن قبلي كتب ع الماء [كذا]

إن الصعايب لها بين الرجال رجال

بَعدَ ألفِ سَنة مِنْ تَعليقِ السلطان قابوس الجرجاني في تابوتٍ مِنَ الزجاج في بُرجِ قَبرِهِ المَنقوشِ بالخَطّ العربيّ[٩١]، تُوجَدُ إنشاءاتٌ رائعة بكتابات ضَخمة تَعكسُ قوةَ الأمراء وسِحرَ الحروف العربية المُلتوية المُتعرِّجَة. لا يمكن أنْ تَفعَلَ ذلك الحروفُ اللاتينية الكبيرة، بل ستكون نَكهَةً مِنْ عَلامَةِ هوليوود HOLLYWOOD في أمريكا.

أما بالنسبةِ إلى الخِطاب العربي بشكلٍ عامّ، فإنَّ قوَّتَهُ لم تَضعف، بل أصبَحَ دَورُهُ أكثر أهمية مما مَضى بالنظر إلى فَيضِ الحَقائق التي تَتنافس على موجات الأثير. ومازال قَولُ الحقيقةِ يُشبِهُ سَردَ طُرفَة: المُهمُّ هو طَريقَةُ إلقائِها، مثلما كانت الحال أيام الكاهِنَة طَريفَة التي كانت مَشهورةً في مَأرب قَبلَ الإسلام. يُلَخِّصُ شِعرٌ قديمٌ فَنَّ تَدويرِ الكَلام:

تقول هذا مُجاجُ النحل تمدحه   وإن ذممتَ تقلْ قيءُ الزنابير
مدحاً وذماً وما جاوزتَ وصفَهما   حسنُ البيان يُري الظلماء كالنور[٩٢]

(٩٠) BBC Reports, 30 November 2012 and 22 October 2013.

(٩١) قارن: ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ من هذا الكتاب.

(٩٢) ورد في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٢٤ ـ ٢٥.

لا بد من الاعتراف بأنَّ الفَنَّ لا يجبُ أنْ يكونَ راقِياً، فقد سَمعتُ مؤخَّراً على راديو صَنعاء:

المذيع (بنبَرةِ انفِصالٍ ساخِرة): على العَكس مما يَعتَقدُه كثيرون، إنَّ أمريكا ليست دولةً مسيحية، إنها دولةٌ يهودية(٩٣).

جائِحَةٌ مِنَ الإعلانات، بأحرفٍ يَبلغُ طولُها مِتراً، وخَطّ جميل، تُغطّي جُدرانَ أبنِيَةٍ في أماكِن عامّة. كُتِبَ على واحِدَةٍ منها أثناء جائِحَةِ كوليرا واسِعة في اليَمن سنة ٢٠١٧:

الكوليرا هَديَّةُ أمريكا

تَكتَسِبُ مِثلُ هذه «الحَقائق» سَرَيانها السريالي عن طريق التَّكرار، خاصة عندما لا يُسمَحُ لأيّ شخصٍ بالسؤال عنها عَلَناً. المفتاحُ هو جَمعُ كلمةِ وسائلِ الإعلام، ثم ضَخُّ القَيء والمُجاج بأعلى صَوت وبأكثَر تَكرار ممكِن. وإذا سَيطرتَ على محطات الراديو والتلفزيون، وإذا تَمكَّنتَ من دَفعِ تكاليفِ قناةٍ فضائية أو اثنتَين، وتَقنياتِ الوصولِ إلى ملايين الهواتف الذَّكية، تستطيعُ ضَخَّها بصوتٍ مرتفعٍ جِداً بالفِعل. النتائجُ مُرعِبَةٌ. فمَثلاً، الصِّراعُ في أرضي بالتَّبَنّي هو حَربٌ أهليةٌ تَدَخَّلَ فيها الجيران، ولكنها تَظهَرُ في مُقابلاتٍ مع أسرَى مُقاتلين مُعارِضين للتَّحالف أنَّ كثيراً منهم اعتَقَدوا أنهم لا يقاتِلون رفاقاً عرباً ومسلمين، بل يقاتِلون «أمريكان وإسرائيليين»(٩٤). لا غرابَةَ بأنَّ الوحدَةَ العربية صَعبة المَنال.

يستطيع كلود ليفي ـ شتراوس Claude Lévi-Strauss أنْ يَكتُبَ في الخمسينيات عن ضَعفِ الجماهير أمام «أكاذيب مَنشورة في وثَائق مَطبوعة. دون شك، لا يُمكِنُ العودة الآن»(٩٥). من المؤكَّد أنَّ العودةَ غير مُمكِنة الآن. لقد تابَعَ المُسيطِرون على الحقيقة تَزويرَهم على أجهزة الراديو الترانزيستور والتلفزيون والإنترنت والهواتف الذكية، ونَشَروا حقائقَهم ورسائلَهم بشكلٍ مباشَر وفَوريّ في عُقولِ الجماهير. سواء قُرِئتْ في

(٩٣) راديو صنعاء، شباط/فبراير ٢٠١٧.

(٩٤) report in baraqish. net, April 2017.

(٩٥) Claude Lévi-Strauss, *Tristes Tropiques* (New York: Penguin, 1992), p. 300.

سنة ٢٠٢٠ أو في سنة ١٤٤١، فإنَّ روايةَ **١٩٨٤** لجورج أورويل **George Orwell** تبدو قديمةً جداً.

مرقى إلى لا مَكان

يستطيعُ المَرءُ أنْ يُقاوِمَ بِصَمتٍ، ويُتابع العَيش في نَوعٍ مِنَ المَنفى الداخلي الصَّامت، أو أنْ يَتكلَّمَ ويُطلِقَ حَقائقَ بَديلَة ويُعاني مِنْ نتائِجِ ذلك. يَتبَعُ معظم الناس الطريقَ الأسهَل، فلا يقولون ولا يفكرون بشيء، فهذا أفضَل من أن يَخسَرَ الإنسانُ عَقلَهُ أو حَياته. ربما لا يكون الجهلُ المُزيَّف أو الحقيقي نِعمَة، ولكنه بَقاء على الأقل.

هناك طريقٌ آخَر للهرب، وهو الهجرة، الطريقة الجَسَدية القديمة. قُبيلَ اشتعالِ الربيع العربي، كان أحَدُ الذين سَلَكوا هذا الطريق هو خليل النعيمي، الكاتبُ المُقيمُ في باريس الذي يستطيعُ تَذكُّر المَلَل المَحَلي في طفولَتِه السورية ويُقارِنُها بِحَركِيَّتِه وإبداعِهِ الحالي:

ها أنذا أنطَلِقُ بعيداً... وأعودُ لأشاهد على أبعَد الآفاقِ مَناظر طفولتي المبكرة... أرى قَريةَ الطويلة بتِلالِها الحمراء القابِعة بفَخَارٍ فوق السَّهل، يَجري تَحتها مباشَرة نهر الخابور بمِياهِهِ الحَمراء المليئة بالطّين والأعشاب وبقايا أعوادِ القُطن التي جَمعناها قَبل أيام. سَيُنقَلُ القطنُ إلى حلب وقوافِلِهِ الضَّخمة، وإلى مكانٍ ما وراءها، بينما نَبقَى نحن حيث كنّا قابِعين مِثلَ جُثثٍ هامِدة بلا هوية.

وها أنذا الآن أجِدُ انتِقامي مِنْ كلِّ ذلك الجُمودِ غير الخَلّاق، في سَفري البعيد هذا...

اذهَب! اذهَب بعيداً! سَيبتهجُ الماضي في داخِلكَ، لأنه هو الذي دَفعكَ إلى هذا المكان[٩٦]. [غير حرفي]

إنه يَركَبُ المَوجَةَ ذاتها التي حَمَلَتْ مواطِنيهِ مِثل جبران خليل جبران إلى أوروبا والأمريكتَين قَبلَ ذلك بقَرنٍ من الزمان.

---

(٩٦) نوري الجراح، **أرض التعارف: صورة أوروبا، الحج، الرحلة المعاصرة** (أبو ظبي: دار السويدي للنشر، ٢٠١١)، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

والآن بَعدَ سنوات قليلة، لم يعُد السَّفر بالنسبة إلى كثيرٍ من السوريين وغيرهم رِحلَةَ إبداعٍ، بل هَرباً مِنَ الهلاك. تَحطَّمَ ماضيهم وضاع، ولا يَبتهجُ في داخلِهم، بل يَبكي دَماً. هَدَّدَ معمّر القذافي عندما أحَسَّ بقُربِ سُقوطِهِ بأنه سَيُغرِقُ أوروبا بالمُهاجرين. اتَّضَحَ أنَّ التهديد كان نُبوءة، إنما على نطاقٍ لم يَتَخيله حتى ذلك الطاغية اللّيبيّ. هَرَبَ أكثر من خمسة ملايين من سورية وَحدَها[٩٧]، نحو ثُلُث السكان. يبدو أنَّ تاريخَ العرب يَنهارُ حَلَزونيّاً في مُحاكاةٍ قاتِمَةٍ لبِداياته من تلك المَوجات المُتقطّعَة للهجرة من الهلال الخصيب الشمالي التي أصبَحَت الآن فَيضاناً بَشَرياً قاسياً مستمراً. وفي هذه المرّة، فإن مُعاناةَ إسماعيل، الصبيّ المُهاجِر المَذكور في القرآن والأب العربيّ الأسطوريّ، تَتكَرَّرُ مع ملايين. تُغلِقُ أوروبا وأمريكا أبوابَها لأنَّ الشّتات الجديد زَرَعَ الخَوفَ الذي رَسَّخَهُ سياسيون شَعبويون مُحافِظون في فرنسا وهولندا وبريطانيا (التي تَهرُبُ الآن من أوروبا)، والولايات المتحدة الأمريكية في عَهدِ ترمب. وبشكلٍ غير مباشَر، فإنَّ رَدَّ فِعلِ الطُّغاة العرب وأتباعِهم المُطيعين على الربيع العربي قد أصبَحَ عالمياً. لم تُصبح الأمورُ كما أرادَها الديناصورات، وربما لم يَحدُث ذلك في عالَم العربية وحدَه. لا شيء بأمان، لا الديموقراطيات الغربية الليبرالية، ولا حياة كلّ طفلٍ سوريّ أو يَمَنيّ.

أما مَنْ بَقِيَ في عالَم العربية، خاصة في مناطق الأحداث من الهلال الخصيب الشمالي والجنوبي، فإن عَصرَ خَيبة الأمَل يَدخُلُ الآن عَصرَ اليأس. يبدو أن أقدَمَ الأماكِن هي أكثرها سُخونَة، مَراكِز الحضارة القديمة على تُخوم مناطق القبائل، صَنعاء وتَعز في اليمن، والموصِل في العراق، والرقة وحلَب في سورية. تَقاتَلَ الجميعُ في حلب منذ أيام الأكّاديين، دُمِّرَتْ كثيرٌ من محطات القوافل الضخمة التي أُرسِلَ إليها القطن، القوافل التي ذَكَرَها النعيمي عن طُفولَته، وتَهدَّمَتْ لدرجة أنه لا يمكن التَّعرفُ عليها الآن، وقلعة حلب الشهباء، حيث حُمِّلَ الشاعر المتنبي بالذَّهب مِنْ قِبَلِ رُعاتِهِ الحَمدانيين في القَرن العاشر، والتي صَمدَتْ فيما بَعد أمامَ حِصار المَغول وهولاكو:

---

(٩٧) أرقام الأمم المتحدة، في: *The Guardian*, 31/3/2017.

وخرقاء قد قامت على من يرومها بمرقبها العالي وجانبها الصعبِ[٩٨]

وقد حُفِرَتْ فيها الآن فَجواتُ مَدفعيةِ القَرن الحادي والعشرين. الدَّمارُ الذي ألحقه بجامِعِ حَماة الكبير حافظ الأسَد الأبُ البَقَّال، حدث بمثله بحلب في عصر ابنه بشار طبيب العيون (على الرغم من الخلاف حول الجِهة التي قامَتْ بالتدمير).

في رِحلَتي السورية الأثرية قَبلَ عشرين سنة، رَوَّحَ عن حُزني العميق في زيارة حَماة ذلك الجامعُ الكبير في حلب، الذي كان عَبِقاً بالحياةِ والنورِ والتاريخ. قَبلَ أنْ يَبنيهِ الأمويون، كان المَوقعُ حديقةَ كاتدرائيةٍ بيزنطية، وكان قَبلَ ذلك حديقةً عامَّةً هيلينستية. جِئتُ باحِثاً عن سِمات القَرن الرابع عشر التي شاهَدَها الرَّحالة ابن بطوطة فيما سَمّاه واحِداً «من أجمل المساجد». أردتُ بشكلٍ خاص أنْ أشاهِدَ صحنه الذي «يطيف به بلاط عظيم الاتساع»، ومنبره «البديع العمل المرصع بالعاج والأبنوس»[٩٩]. بَعد أكثر من ستمئة سنة، كانت السَّاحة مثلما وَصَفَها الرَّحالة الذي سَبَقني، تُطِلُّ عليها مِئذَنَةٌ سَلجوقِيَّةٌ عاليةٌ تُحيطُ بها كتاباتٌ ونقوش. كان في الساحةِ أشكالٌ مستطيلةٌ مَبنيَّةٌ من أحجار فاتِحة وداكِنة مثل سجادةِ صلاة ضخمة مَصقولَة جَلَسَ فيها رِجالٌ حَلبيون مُسِنّون يقرؤون أو يَستمتعون بالشمس. كان المِنبَرُ هَديةً من الحاكِم المملوكي الناصر، وكان جديداً في زَمَنِ ابن بطوطة، وها هو الآن أمامي صامِداً واقِفاً بِدَرَجٍ خَشبيّ يَصِلُ إلى مِنصَّةِ خَطابة. مرقى إلى لا مَكان بكلمات مُتَدَفِّقَة عالية:

كان سَطحُهُ كتلَة مُتداخِلَة من مُضلَّعاتٍ مُطَعَّمة بخَشَبِ الفاكهة، مُزخرَفة بفُصوصٍ عاجيّة عميقة، ومُسطَّحاتٍ مُصغَّرة من أعمال دَرابزيناتِ الأبنوسِ المُتقاطِعَة، وعُقَدٍ عاجيّة صغيرة عند العُقد. ضاعَتْ بعض قِطَعِ الزَّخرَفة، وفيما عَدا ذلك كان المِنبَرُ نَضِراً ونَقيّاً مثلما كان عندما شاهَدَهُ ابن بطوطة. كانت صَنعَتُه رائعةً حَقاً بتَداخُلِ أجزائه المُلوَّنة وكأنها مَقطوعَةٌ موسيقية لباخ

(٩٨) ترجمة جب: Ibn Battutah, *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*, vol. 1: *Travels in North-West Africa, Egypt, Syria, and to Mecca*, p. 96.

(٩٩) Ibid., vol. 1: *Travels in North-West Africa, Egypt. Syria, and to Mecca*, vol. 1, pp. 97-98.

Bach وضِعَتْ أمامَ العيون[١٠٠].

وقفتُ أنظُرُ إليه بعيون ابن بطوطة. لم يَنقطع خَطُّ رؤيتِنا وزَمانِنا، وشَعرتُ للحظَةٍ أنني غارِقٌ في هندَسَةٍ ربما امتَدَّتْ إلى الأبَد.

والآن بَعد مُرورِ عَقدَين من الزمن، وسَبع سِنين من الحرب الأهلية، أصبَحَ جامِعُ حلب الكبير حُطاماً كذلك. سَقَطَتْ مِئذَنَتُه المُزَخرَفة بالخَطّ العربي سنة ٢٠١٣، ودُمِّرَتْ سَاحَتُه السجادية الحَجَرية وقاعَة الصلاة. أما المنبر فقد اختَفى، ربما «تمّ تَفكيكُه ونَقلُه إلى مكان مَجهول»[١٠١]، إنما لا أحَد يَعرف.

ربما بَعد أنْ تنتهي الحروب، ويتَّحِد طبيبُ العيون والتَّيس ودَاعش وأنصارُ الله وجميع الآخرين مع الأمويين وجِنْدِبو العربي، قد يَنهَض الباقون في حلب ويُرَمِّمون حياتَهم ومَدينتَهم. وربما منبرهم أيضاً مع تفاعله العاجي والأبنوسي. آمَلُ أنْ يَتحققَ ذلك. أما المنبر فهو الكلمةُ المتمثلة بالهندَسة، وحِوارٌ مُنسَجِمٌ بين الظِّلّ والنور.

(١٠٠) Tim Mackintosh-Smith, *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah* (London: John Murray, 2001), p. 188.

(١٠١) "Emergency Safeguarding of the Syrian Cultural Heritage," <https://en.unesco.org/emergencysafeguardingofthesyrianculturalheritage> (accessed June 2018).

خاتمة
في محطّة التاريخ

لو كَتبتُ هذا الكتابَ قَبل عَشر سنوات، لجاءَ مُختلفاً، فقد جَعَلَتْهُ الأحداثُ الأخيرة أكثر قَتَامَةً مما كان.

ربما سَيظهَر أنَّ عَصرَ خَيبة الأمَل أقصَر ممّا تَشعر بِه عندما تكون فيه، إلا أنه يَطولُ ببطء. بَدأ هذا التاريخ بصورَةِ زَمنِ العربِ في ساعَةِ نزار قباني الرّملية. هناكَ مقاييسُ أخرى للزمن في قَصيدَتِه «في انتظارِ غودو»:

نَنتَظِرُ القِطارْ

نَنتَظِرُ المُسافرَ الخَفيَّ كالأقدارْ

يَخرُجُ مِن عَباءةِ السِّنينْ

يَخرُجُ مِنْ بَدرٍ، مِنَ اليَرموكِ،

مِنْ حطّينْ..

يَخرُجُ..

مِنْ سَيفِ صَلاحِ الدّينْ..

يُحَدَّدُ الماضي بالمَعارك والأبطال. أما الحاضِر:

نَنتَظِرُ القِطارْ

مَكسورَةٌ منذُ أتَينا ساعَةُ الزمانْ

والوقتُ لا يَمرُّ..

تعالَ يا غودو..

وخَلِّصْنا مِنَ الطُّغاةِ والطُّغيانْ

ومِنْ أبي جَهلٍ، ومِنْ ظُلمِ أبي سُفيانْ

فنحنُ مَحبوسونَ في محطَّةِ التاريخِ كالخرفانْ[(١)]

يبدو كأنه الحاضِر المستمر الخالِد من الجَحيم[(٢)]، مثلما كان بالنسبة إلى القديس أوغسطين ST. Augustine. غير أنه في الواقِع ذلكَ الماضي الدّائم الوجود الذي وَصَفَهُ ماكس ويبر «الأمسُ الأبدي»[(٣)]، سُلطَةُ التقاليدِ المُتَصَلِّبة. ليس مِنَ المُصادَفَة أنَّ كلمة «حَديث» في اللغة العربية تَعني: «جديد»، وكذلك تَعني: «قول أو خبر موروث».

والآن، مازالت الساعةُ مَكسورة في الربيع العربي، ولكنّ الساعةَ الرَّمليةَ تَنقَلِب، وعُلبة الموسيقى تَلعَبُ الألحانَ القديمةَ نفسَها. وآخِرُ نسخَةٍ مِن مُلوكِ السعودية الذي بَلَغَ الثمانين من عُمره مازال مَشغولاً «بجمعِ الكلمة»، أي بقَمعِ المُعارَضَة، بِتَعيينِ ابنه وَليّاً للعَهد، ومُعاقَبة واعتِقال أبناءِ إخوته وأبناء عُمومَتِه من الأمراء المَلَكيين بشُبهَة الفَساد. وفي الوقت نفسه، يَتَجَمَّعُ السعوديون وحلفاؤهم ضِدَّ جارَتِهم قَطَر لأنها «تشقّ العَصا»، أي إنها تَنحَرِفُ عن الكلمة الجامِعَة في نادي أنظِمة الخليج.

كان مَصدرُ الأذَى بشكلٍ خاص بالنسبة إليهم هو صَوتُ وَسيلة الإعلام القَطَرية المُستقلّة: قناة الجزيرة العربية. وبَدلاً مِنْ أنْ تَنشُرَ قناةُ الجزيرة خَبَرَ أنَّ الحاكِمَ قد أرسَلَ بَرقيةَ تَهنِئة إلى رئيسِ دولةٍ نائيةٍ ما بمُناسَبَةِ يومِها الوطني الظَّريف، قامَتْ قناةُ الجزيرةِ بتَطويرِ وسائلِ الإعلام العربية باختِراعاتٍ مِثل الصَّحافَة الاستقصائية. تَعتَبِرُ الأنظِمَةُ المُجاوِرة أنَّ هذه الشَّبكة الفضائية تَنشُرُ نَسيمَ الربيع العربي المَسموم، كما أنهم يَعتَبِرون قَطَر قد قَطَعَت الخَطَّ الأحمر

---

(١) نزار قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ٣ ج، ط ١٦ (بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧)، ص ٧٥٤ ـ ٧٥٧.

(٢) Alberto Manguel, *The Library at Night* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009), p. 331, n. 23

(٣) Max Weber, *Gesammelte politische Schriften* (München: Drei Masken Verlag, 1921), p. 507.

القديم بتَواصُلِها مع إيران، العدو الألفي القديم. أصدَرَ بعضُهم قوانين ضد «إظهارِ التَّعاطُفِ مع قَطَر». قالَ الرئيسُ المصري السيسي إنه «سَيقطَعُ لِسانَ» قناة الجزيرة، ذلكَ التهديد القديم الذي أنذَرَ بِهِ الطُّغاةُ قَبلَ الإسلام شُعراءَ مُتَمَرِّدين. بينما أضَعُ اللمساتِ الأخيرة في هذا النَّص (أو بعبارة أخرى أطلق سراحه لأنَّ الكُتُبَ لا تَنتَهي أبداً، خاصة التاريخية منها)، يقرّ الديوان الملكي في الرياض أنَّ واحِداً مِن مُعارِضيها، وهو جمال الخاشقجي السعودي الجنسية، قد قُتِلَ أثناءَ زيارته لقُنصُلِيَّتها في إسطنبول[٤]. يبدو أنَّ ما قُطِعَ كان أكثر مِنْ لِسانِه. تدَّعي السُّلطاتُ التركيةُ أنَّ جَسَدَهُ قد تمّ تَقطيعُه، وأنَّ الأجزاءَ قد أُذيبَتْ بالحَمض. استَنكَر حلفاءُ السعودية مِنَ العرب الانتقادَ العالمي لجريمةِ القَتلِ على أنَّه تَدَخُّلٌ في سِيادَةِ المَملَكة والعروبة[٥]... جميعُ تلك العِصيّ المُجَمَّعَة بقوة مع بعضها هي رُموزٌ للسُّلطَة وأدواتُ إعدام. لا يُمكِنُ تَجاهُلُ أنها تُعتَبرُ في نَظَرِ التاريخ الأوروبي مِثلَ عَصا بَلطَةِ القَضاءِ الرومانية.

مازالت الكلماتُ أمضَى الأسلحة، وتَظَلُّ اللغةُ جَوهَر الهوية والمجتمع والاستمرار. تُدرِكُ الحكومةُ الإسرائيلية ذلك مِثلَما يَعرفُهُ كلُّ زَعيم عربيّ، ولذا فقد قامَتْ هي أيضاً في تموز/يوليو ٢٠١٨ بارتِكابِ قَطْعِ لِسانٍ جَماهيري عامّ بإزالَةِ اللغةِ العربية مِن اعتِبارِها لُغةً رَسميةً في دولة إسرائيل[٦]. يُشكِّلُ العرب ٥.١٧ بالمئة من عدد سكّان إسرائيل، وهم يعيشون في لُغَةٍ وأرضٍ، وليس هذا هو الحَلُّ الأخير، الذي يُمكِنُ أنْ يُعتَبرَ على نَمَطِ مَنعٍ إمبراطوري عثماني مِنْ تعليمِ اللغة العربية، بل ربما هو ما قَبلَ الأخير.

تبدو الساعةُ في معظم عالَم العربية ليست مَكسورةً فحسب، بل تَسيرُ إلى الوراء. حتى تونس، الأرض الوحيدة التي تبدو فيها ثورة ٢٠١١ قد حَقَّقتْ شيئاً ما، تَتعثَّرُ في تَقَدُّمِها إلى الأمام. لم تُنقِذ الثورةُ الاقتصادَ المريض، ولم يَنقَرض الطُّغاةُ العَلمانيون ولا الطُّغاةُ الإسلاميون ولا

---

(٤) BBC and Guardian Reports, 20 October 2018.

(٥) انظر على سبيل المثال: تصريحات للحكومة اليمنية الشرعية وردت على موقع: sahafah.net بتاريخ ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٨.

(٦) Guardian Report, 19 July 2018.

الديناصورات. وفي سورية، يبدو بشار الأسد طبيب العيون مُتمسِّكاً بالسُّلطَة مَدعوماً بالإمبراطوريتَين القديمتَين المُعَلَّقتَين: روسيا وإيران. أما الجامِعُ الكبير في حلب، الذي سَقَطَ ضَحيةَ الحرب التي أطالَتْ حُكمَ بشار الأسد (وربما ضَحية مَدفعيتِه)، يُعاد بِناؤه الآن بتَمويلٍ شيشانيّ[٧]. ومازال مَكانُ مِنبَرِهِ الرائعِ مَجهولاً.

في زاويتي الخاصة من عالِم العربية، العربية السعيدة السابقة، شاهدتُ جَماهير يَمَنٍ مُتَّحِدٍ مَعقولٍ يَسيرون في نومِهم، أو يُقادون وهم نائمون، نحو الكابوس الأعظَم: الحرب الأهلية. جلستُ أسمَعُ الصواريخ وأتساءلُ فيما إذا كانت الأصوات الأخيرة التي سَأسمَعُها. كان كلّ ذلك مأسوياً بكلِّ ما تَعنيه الكلمة من مَعنى. يَقتربُ هذا الكِتاب من نهايته، وكذلك فعل بَطلُنا ـ المُضادُّ للبَطلِ المأسوي عليّ عبد الله صالح، «تيس الضباط» الذي حَكَمَ ثُلثَ قَرنٍ. شَنَّ انتقاماً في سنة ٢٠١٤، ضِدَّ الشعب الذي خَلَعَهُ، بالتآمر مع تلك القوة المُتَشدِّدَة التي لا تَرحَم، الحوثيين. أسقَطوا حُكّامَ اليمن الجُدد بهجوم ساحِقٍ على العاصمة. وليس مُستغرَباً أنَّ الحوثيين، أنصار الله، لم يَرغَبوا في أن يكونوا أنصارَ عليّ الذي شَنَّ ست حروب ضِدَّهم مِنْ قَبل. ومع ذلك فقد استَمرَّ هذا التحالف المستحيل ثلاث سنوات قَبلَ أنْ يَنفجرَ في اتهاماتٍ مُتبادَلَة، ثم في عُنفٍ صَريح. بَلَغَ القَصفُ مَداهُ ليلةَ الثالث والرابع من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٧، وفي اليوم التالي جَاءت الأخبار بأنَّ التَّيسَ العتيق قد مات (قلتُ إنَّ ذلك كان مأسوياً، ألم تكن التراجيديا تُمارَسُ في الأصلِ في التَّضحِيَةِ بِعَنزَة؟).

عُرِفَ عليّ عبد الله صالح مؤخَّراً أكثر بارتِباطِه مع حَيوانٍ آخَر، فقَبلَ أنْ يُعلِنَ عن ذلك التحالف الكارِثيّ غير الطبيعي، كَتبتُ:

عليّ عبد الله صالح، الذي شَبَّهَ حُكمَ اليَمن «بالرَّقصِ على رؤوسِ الثعابين»، كان عليه أن يتذكَّر قولاً يمنياً قديماً: «آخرة المُحَنِّش للحَنَش»، أي أن الثعبان دائماً يقضي على ساحره[٨].

---

(٧) Reuters Report, January 2018.

(٨) Tim Mackintosh-Smith, *Yemen: The Unknown Arabia*, revised ed. (New York: The Overlook Press, 2014), "Afterword".

لم تكن نتيجةً يَصعُبُ التَّنبؤ بها، فقد انتَهى ساحِرُ الثعبانِ في اللَّفاتِ المَلساءِ المُتعدِّدَة التي صَنعَها، مِثلَ لاوكوون Laocoön، الشخصية الأسطورية الطروادية الذي عُوقِبَ في إحدى الروايات بسببِ زواج غير مُقدَّس. ماتَ كلٌّ منهما وهو يُصارِعُ المَصيرَ الساحق الذي صَنَعَهُ. ومع ذلك لم تكن نهايةُ صالح قَذِرَةً، فقد قاوَمَ وماتَ مِثلَ الجُنديّ الذي كان يُمَثِّلُهُ دائماً. نَعتقدُ أنَّ جَسَدَهُ يَقبَعُ في ثلاجَةٍ مِثل تاريخٍ لم يُدفَن، وماضٍ مُجمَّد.

ربما وَحَّدَ في وفاتِهِ جَماهيرَ أكثر مما جَمَّعَ في حياتِه. بينما يبدو الجِسمُ السياسي لجمهورية اليمن قد انقَسَم إلى شكلٍ لا يُمكِنُ المحافَظَةُ عليه إلى مَراكِز قوى في ثلاث مناطق على الأقل. وتَظَلُّ الوحدة دائماً ذلك السَّراب الذي لا يُمكِنُ الإمساك به أكثر من وَهلَةٍ وَجيزة.

هناك استثناءاتٌ، فمازالت الإماراتُ العربية متحدةً كاسمها، ومازالت تحيي الماضي الخطابي. وبينما يُطلِقُ حاكِمُ دبي أسهُمَ شِعرِهِ في مَعركَةٍ ضِدَّ التهديد الألفيّ في الخليج، يَجمَعُ ابنُه كَلمةَ البلاد في سُطورٍ مِثل هذه السطور كجُزءٍ من قصيدةٍ طويلة أنشَدَها في إنتاجٍ بارعٍ لفيلمٍ جماهيري:

نحن اتحدنا قبل واحد وسبعين

بقلوبنا وتوحدت عقبه الدار

تتوحد بفكرة رجال عربيين [كذا]

بأنساب تبقى ما هي أنساب تنهار

الله يعز شعوبنا، قولوا آمين

ولا يفرّق وحدة طوال [كذا] الأعمار(٩)

بين ناطِحات السَّحاب والأسواق الكبيرة، تَظهَرُ أجيالٌ جديدةٌ من الزعماء، وتَلتَقِطُ خيوطَ اللغةِ القديمة، ويَنسجون سِحرَ الكلمةِ الخالد.

(٩) من قصيدة الشيخ حمدان بن محمد آل مكتوم، «الجار للجار،» <https://lyrics-on.net/en/1096426-el-jar-lil-jar-lyrics.html> (accessed 14 November 2018).

ولكن الكلمات والأفعال مَزَّقت المجتمعات في كل مكان تقريباً، ولم توحِّدها. من المؤلم مُشاهَدَةُ ما يَحدُثُ في الأرضِ التي أُحبُّها، وأنْ أرى عالَم العربية الواسِع يُعاني مِنْ كلِّ ذلك الأذى لنفسِه. ولكن، هل أصبحَ الألَمُ أسوأ بسببِ تُراثي الشخصي، وشُعوري مُخلِصاً أنَّ الأمورَ ربما تكون أفضَل لو تَمَّ تَرتيبُها بطريقةٍ تُشبِهُ ما هي عليه في البَلَدِ الذي وُلِدتُ وتَرعرَعتُ فيه؟ قَبلَ نصفِ قَرنٍ كَتَبَت الحَكيمة دورين إنغرامز Doreen Ingrams، التي كانت آخِر وأعظَم امرأة رحَّالَةٍ إمبراطوريةٍ في شبه الجزيرة العربية ورائِدَة ما بَعدَ الإمبريالية، بَعدَ انسحابِ البريطانيين من عَدَن:

افتِراضُ أنَّ السكانَ «المَحَليين» يجب أن يُفَضِّلوا نظامَ إدارتِنا وقَضائِنا على الفوضى والظُّلم الذي عِندَهم هو أحَدُ الجوانب الأكثر إثارةً للدَّهشَة في سلوكِ البريطانيين نحو رعاياهم المُستَعمَرين[١٠].

بعد خمسين سنة، لا تَعُمُّ الفوضى في جميع أرجاء العالَم العربي، ولكن ربما في نِصفِهِ من حيث عدد السكّان، وربما يَعُمُّ الظُّلمُ في جميع أرجائه بشكلٍ فظيعٍ بمقاييس الديموقراطيات الليبرالية. ولكن هل يُعتَبر تطبيقُ هذه المقاييس اللِّيبرالية نوعاً مِنَ الاستعمار الفكري؟ وهل نأمَلُ بأن يَفعَل العربُ ذلك بأنفسهم؟ ربما كان صموئيل هنتينغتون Samuel Huntington مُصيباً بشأن صِدام الحَضارات. من المؤكَّد أنَّ ذلك ما يقوله طُغاةُ «داعش»، وما يَقولُهُ الحوثِيون، وهذا كلُّهُ جُزءٌ مِنْ طَريقَةِ إحكامِ قَبضَتِهم على السُّلطَة.

ولكن، إذا كانت دورين إنغرامز Doreen Ingrams حَكيمَةً، كما عَرفتُها قليلاً وأتذكَّرُها بمَحَبَّةٍ كبيرة، فإنَّ طه حسين قد كَتَبَ مِن قَبل خلال شَفَقِ الإمبريالية الغربية:

نحن نعيشُ في عَصرٍ. . . الحريةُ والاستقلالُ فيه ليسا غاية تقصد إليها الشعوبُ وتسعى إليها الأمـمُ، وإنما هما وسيلة إلى أغراض أرقى منهما وأبقى، وأشمل فائدة وأعم نفعاً[١١].

(١٠) Doreen Ingrams, *A Time in Arabia* (London: John Murray, 1970), p. 153.

(١١) ورد في: Yasir Suleiman, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003), p. 191.

يُفتَرَضُ أنَّ هذه الآمال تَشمَلُ النِّظامَ والعَدالَة في مجتمعاتٍ حُرَّةٍ مُستَقلَّة.

كلاهما على حَقّ بالطبع، إلا أنَّ طه حسين هو شخصيةٌ غامضة بالنسبة إلى العرب الذين يَعرفون فيه الحِكمَة والبَلاغة، ولكنه كان عالَمياً آمَنَ بالحضارة الهيلينية ـ الإسلامية. كان عربياً، ولكنه كان مصرياً أيضاً. وكان مُتزَوجاً من أوروبا حَرفياً ومَجازياً. آمَنَ بالحِوار وليس بالصِّدام. كما أنه كَتَبَ: «مع مرورِ الوقت، تَصبو عَقليتُنا العربية إلى التغيير، وتَتسارَع بتَواصُلِها مع الغربيين»[١٢] [غير حرفي]. إلا أنه كَتَبَ ذلك قَبلَ أكثر مِنْ تسعين سنة، وفي العُقود الأخيرة سارَ التَّسارع إلى الوراء. هناك تَخوُّفٌ مِنَ التَّجانُس، ومِنَ العَولَمة، ومِنْ خَسارةِ الروح. ورُوحُ الشعبِ ليست طَريقَةٌ غامضة في التفكير، أو «عَقلية عربية» ضَبابية، بل هي «الشخصية» في مَعناها الأصلي، شَخصيةُ الجَماعة وعَبقريتها وجنّيها الموحي وقَدَرها، وهي قوةٌ أكثر جوهرية مِنَ الدِّين المُنظَّم.

يُسببُ الخوفُ مِنْ خَسارَتِها تلك الارتباكات الزمنية جُزئياً. يُذكَرُ قَولٌ عربيٌّ قديم أنَّ الناسَ يُشبهون الأوقات التي يَعيشون فيها أكثَر مما يُشبهون آباءَهم. ولكنَّ الناسَ يُريدون غالباً أنْ يُشبهوا آباءَهم[١٣]، وأنْ يُحافِظوا على روحِهم وهويتهم. وهكذا تَحدُثُ الارتباكاتُ الزمنية، فهم يُحارِبون العَصر، ويُحافِظون في الوقت نفسه على الماضي الحاضِر دائماً. وهم يُدرِكون أنهم لكي يُصبِحوا جُزءاً مِنَ الحاضِر القائم الغامض يجب أنْ يَخوضوا غِمارَ أكبَرِ حَضارَةٍ في التاريخ، وأنْ يُصبِحوا مِثلَ جميعِ الآخرين في الأرض. ولكنَّ سِمَةً متكَررة في أنْ يكونَ المَرءُ عربياً كانت منذ البدءِ تَشمَلُ أنْ يكونَ المَرءُ مُستقِلاً على الأطراف ويَختلفُ عن جميعِ الآخرين، لِدَرجة أنه عندما يَدخُلُ المَرءُ الحَضارَةَ فإنه يَتوقَّفُ عن كَونِهِ عربياً بأحَدِ المَعاني الأصلية الأقدَم لهذه الكلمة. أطلَقَ العربُ بالإسلامِ شَرارَةَ ما كانت في وقتِها أكبَر حَضارةٍ عُظمى، فوصلت بهم إلى أطرافِها.

---

(١٢) طه حسين، **في الشعر الجاهلي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ١٠٩.

(١٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **كتاب البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ج ٣، ص ١١٣.

ماذا لو عادوا الآن مِنَ الأطرافِ واتَّخذوا مَكاناً نَشيطاً في الحَضارة الحالية الأوسَع بين المجتمعات المُتحَضِّرة التي تُحاوِلُ أنْ تكون ديموقراطية حقيقية، مُتحَررةً مِنَ طُغاةِ الديناصورات، ومِنَ الصِّراعِ المستمر، بمؤسَّساتٍ فعَّالة، ومُساواةٍ أمامَ القانون، وحريةِ التَعبير، وحرية الدِّين، ونكهاتٍ كثيرة متنوعة مِن مثلَّجات باسكن ـ روبنز Baskin Robbins في كلِّ مَكان (لا بد مِنَ الاعترافِ بأنها في كلِّ مَكان الآن، وقِيلَ لي إنها موجودةٌ مُقابِلَ أحَدِ أبوابِ المَسجِدِ الحَرام في مكة)؟ هل سَيصبحون مجرد «غَرب آسيويين» و«شمال أفريقيين»؟ لن يَتبَقَّى لَهم شيءٌ سوى لُغَتهم المُشترَكة وتاريخهم، باختصار: ثقافَتهم. هل سيكونُ ذلك كافياً؟ لا يَعرفُ ذلك أحَدٌ سِواهم.

لا توجَدُ حضارةٌ تستمرُّ إلى الأبد مهما كانت عظيمة، وليس انقِراضُ الديناصورات الطُّغاة حَتمياً. وبينما الديناصورات طلقاء، فإن بقاء مواطنيهم مثل القطيع، يَمنَحُ كثيراً من العرب قليلاً مِنَ الأمنِ مُعظم الوقت، مثلما فَعَلَ لمُعظَم البَشَر على مَرِّ تاريخ البشرية حتى لو عَرَّضَهم للإغارة والرّعي والبَقاء في محطّة التاريخ.

ولكن لا يجب أنْ تَظَلَّ الساعة مَكسورة، بل يمكن أنْ تُصَلَّح وأنْ تُضبَط على توقيتِ العرب. يمكن أن تسيرَ بالتوازي مع عالَم لَمْ يُحاصَر فيه العرب فوق صَخرةٍ مِراراً فقط، بل كانوا الوسَطاء الضَّروريين والتُّرسَ المُسنَّن المَركزي في ساعةٍ عالَمية.

سارَت القرونُ الحديثة بشكلٍ عام على توقيتٍ غربي تَرَكَ العالَمَ خارجَ حالَةِ الاستقرار. هذا التَّحيز لنصفِ الكُرة الأرضية (فِعلياً، نِصف نِصفِها الشمالي الغربي) قد تَرَكَ جيرانَها يَنظرون إليها بارتِياب. وبالنسبة إلى كثيرٍ من العرب بشكلٍ خاص، فإنَّ الغربَ غامِض. وإذا غرغونة، الوحش القاتل النَّظَرات، فهو في أفضَلِ الأحوال السيرانة التي تُثيرُ الفِتنة، وتُنذِرُ بالخَطر. ربما الأفضَل للعرب أنْ يَنظُروا بعيداً نحو أنفسِهم، وأنْ يَستَمِعوا إلى أصواتِهم. ومِنَ المؤكّد أنه لا يجب عليهم الخُضوع إلى «نَظرةِ الغربيّ الآخَر، نَظرة تُحطِّم كل آمالك»[١٤]، أو أنْ يَرفُضوا كلَّ ما يَظهَر أنَّها أفكارٌ

---

(١٤) Samir Kassir, *Being Arab* (London: Verso Books, 2013), p. 2.

«غربية» و«عالمية» باعتبار أنها أفكارٌ «صليبية» مُعادِيَة للعَقل المُسلِم[١٥]، مِثلَما اعتَبَرها محمد جلال كشك، أحد مؤسِّسي إسلام سياسي حديث. فالمُهمّ هو الفكرةُ ذاتها، وليس مِنْ أينَ جاءَتْ. ذلك ما أدرَكَهُ الكِندي، «فيلسوفُ العرب» في القَرن التاسع، فقد سَعى وراءَ الحق، «وإن جاء من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة»[١٦]. إنه ما عَرفَهُ الصُّوفي العظيم ابن عربيّ في القَرن الثالث عشر:

رَأى البَرقَ شَرقِيّاً فَحَنَّ إلى الشَرقِ وَلَو لاحَ غَربِيّاً لَحَنَّ إلى الغَربِ
فَإِنَّ غَرامي بِالبَريقِ وَلَمحِهِ وَلَيسَ غَرامي بِالأَماكِنِ وَالتُربِ[١٧]

لو نظَرَ العربُ لشاهَدوا البُروقَ في مِرآة تاريخِهم، كلّ تاريخِهم، وليس فقط بَرقَ العظَمَة المُبهِرَة في وسَطِه. سَيجدون أنَّ تلك الفَردانية والليبرالية والعالمية والاندِماجية والمجتمع المَدَني والحقيقة المَوضوعية كلها ليست جُزءاً من «صَليبيةٍ غربية»، بل جُزءاً من ماضِيهم ذاته. سَيجِدون مثلاً:

... البحث عن الحرية والاستقلال في أولئك الرواد المُبدعين المُتنوعين الذين غادَروا الهلالَ الخصيب الشمالي نحو الجنوب البريّ من شبه الجزيرة العربية، وربما كانوا الأعراب الأوائل؛

... مجتمعات الحَضَر قَبلَ الإسلام المُنتِجة غير القَبَلية في ذلك الهلال الخصيب الآخَر في جنوب شبه الجزيرة العربية؛

... شبكات التجارة والثقافة العالمية التي تَركَّزَتْ في مُدُن القوافل العظيمة، مثل تَدمر وقرية ذات كهل ومكة، التي كانت أماكن التقاء البدو والحَضَر؛

الفردية البليغة في الشُّعراء الصعاليك قَبلَ الإسلام، مثل الشَّنفرى، الباحِثين والناطِقين بالحقيقة فيما وراء حدودِ القَبَلية؛

---

(١٥) Fouad Ajami, *The Arab Predicament* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981), pp. 52-53.

(١٦) Ibid., pp. 52-53.

(١٧) نوري الجراح، **أرض التعارف: صورة أوروبا، الحج، الرحلة المعاصرة** (أبو ظبي: دار السويدي للنشر، ٢٠١١)، ص ٤١. أشكر الدكتور خلدون الشمعة على إنشاد هذه الأبيات لي أولاً.

سماء الآيات القرآنية الأولى الشّاملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١٨]؛

... اندِماجية دُستورِ محمد الأول في المدينة، وخُطبَة الوَداع التي بَلوَرَتْ رسالَتَه؛

الانفتاح القصير الرائع في ذُروَةِ المجتمع العباسي، خاصة في ظِلِّ الخليفة الفيلسوف المأمون (قَبلَ أنْ يُصبحَ مَعصوماً)؛

... الخلافة المُعاصِرة في قُرطُبة «المُثقَّف المُتطَور الواسِع الأفُق»، حيث كانت الحياة «أمراً رائعاً في حَدِّ ذاتِها، وتَسمو بالتَّعلم وتَغمُر بالحَيوية كل أنواعِ المَسَرَّة»[١٩]؛

تعاليم الصُّوفية التَّحررية؛

... التأقلم والعُمق الروحي الإسلامي في القَرنَين الرابع عشر والخامس عشر، عصر التَّوسُّع البحري وما بَعدَهما؛

الناشطين الفِكريين المتوسطين بين الديانات في يقظَة القَرن التاسع عشر؛

... دُعاة التعاون الثقافي في القَرن العشرين، مِثلَ طه حسين الذي تزوجَ أوروبا؛

شُعراء الشّتات الباحثون عن الحقيقة في أيامِنا، الأحفاد الروحيون للشُّعراء الصعاليك؛

... الباحثون عن الحرية والكَرامة والخُبز اليومي الآن وفي المستقبل.

طالَ انتظارُ العرب كثيراً لإعادة النَّظَر إلى ماضِيهم. صاغَ «الصُّعلوكُ» البارز في السنين الأخيرة هذا التَّحدي بقولِه:

نريدُ جِيلاً يَفلَحُ الآفاقْ

(١٨) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٦٢.

(١٩) Jan Morris, *Spain* (London: Penguin, 1982), p. 14.

وينكُشُ التاريخَ مِنْ جُذورِهِ
وينكُشُ الفِكرَ مِنَ الأعماقْ[٢٠]

التاريخُ إنسانيٌّ وحَيٌّ، سَيأتي بَعضُه وهو يَصرُخُ ويَقتُل كعرق اليَبْروح الأسطوري، ولكنَّ العربَ يجب أن يَصِلوا إلى الحقيقة في ماضِيهم، وأنْ يَسمَحوا لها بأنْ تَحصلَ على انتِفاضَتِها الخاصة، وأنْ تَنفُضَ الغُبار، ثم يُعيدوا فَحصَ الجُذور، ويَتشارَكوا بها مِثلَ مُمتلَكاتٍ عامّة كانت مَدفونَة في الاحتفال بالعَظَمة الإمبراطورية القصيرة، والحِداد الطويل لخَسارتِها. سيكون ذلك بالنسبة إلى العرب أكثر مِنْ مجرد المُحافَظَة على تراثِهم وثقافتِهم.

على الرغم من القولِ المأثور القديم، إلا أنَّ الحقيقةَ لن تَظهَر دائماً، لأنَّ بعضَها مَدفونٌ في عُمقٍ سَحيقٍ. ولكن يجب على طلاب المَدارس أنْ يَعرفوا تلكَ المَعارك غير المَجيدة بين العرب، مثلما يتَعلَّمون عن اليَرموك وحطّين وجميع الانتصارات على البيزنطيين والفرس والفِرنجَة، وأنْ يعرفوا عن تلك الأيدي السبعين المَبتورة، والسبعة آلاف قتيل في يوم الجَمل، والقتال بَين صِهرِ محمد وزَوجَتِهِ المُفضَّلَة، والسبعين ألف قتيل في صفّين، المَعركة بين النظام القديم والجديد في قبيلة محمد، وجميع المعارك الأخرى بين العرب منذ ذلك الحين وسلسلة الأصفارِ في قَتلاها. ستكون تلك استِعادَة الماضي، ليس كمَدينةٍ ترفيهية في الحاضِر، بل كأرضية لمُستقبل أفضَل.

ستكون طريقة للصدق مع أنفسِهم دون عُدوانية تجاه «الغرب». غالباً ما تكون الذات مُتَخيَّلَة، وأحياناً ظاهِرة ومُعرَبَة (بالمَعنَيين، «مُعَبَّر عنها» و«مُخرَجَة») بالمُعارَضَة. تَنطَلِقُ هتافاتٌ تحت نافذتي:

الله أكبر

الموتُ لأمريكا

لَعنةُ اللهِ على اليهود

النصرُ للإسلام

---

(٢٠) قباني، **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**، ص ٧٠٣.

ومازالت الهتافات مَصوغَةً بطريقةٍ سَلبية، بمُعارَضة للإمبراطورية الكبيرة في الخارج، والإمبراطورية الصغيرة في الدَّاخِل (والمُفارَقة هي أنَّ هذه النسخَة مِنَ القالَب القديم ذاته تَصدُرُ عن واحِدَةٍ مِنْ أقدَمِ الإمبراطوريات التي تقوم بالصِّياغَة، وهي إيران، وقد كانت هذه الهتافات مثل هتافات ثورة الخُميني). لا يَحُضُّ كتابُ الله على المُعارَضَة، بل يَحُضُّ على التحاذي والتَّعايش المُتوازي، ويَحُضُّ محمداً على القولِ لِمَنْ لا يؤمنون برسالَتِه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[21]، أي يَستطيعُ كلٌّ مِنّا أنْ يكونَ لَهُ دِينُهُ وروحانياتُه.

استِرجاعُ التاريخ مِنْ جُذورِه ربما يُقدِّمُ طرائق للتوفيق في الجَدَلِ بين الشعوب والقبائل، إذ يمكن للبداوة والحضارة أنْ تتعايَشا، مثلما يَتعايَش الداء والدَّواءُ، حَسبَ الحَديثِ الذي يُنسَبُ إلى محمد، في جَناحَي الذُّبابة. يَكمُنُ السِّرُّ في عدم إفساح المَجال أمامَ اللَّعنَة لكي تَغلِبَ الدواء، وعدم تَركِ «شيء فاسِد» لكي يُسيطِر[22]. أما بشأنِ جميعِ مُمارَسات الكَراهية في الواقع الحالي، فلا يمكن الاقتراب مِنَ التَّوافُق والتَّعايش إلا بالحقيقة مِثلما حَدَثَ في كلِّ مَكانٍ في التاريخ الحديث. ولا يُمكنُ دَفنُ مَشاكِلِ الحاضِر بشكلٍ جَيدٍ إلا بَعدَ إخراجِ حَقائق الماضي وتَفَحُّصِها. ولا يَستطيعُ أحَدٌ فِعلَ ذلك سوى العرب أنفسهم. ولا يُمكِنهم تَضييعُ الوقت بانتظار آخَرين لنَبشِ التاريخ، مثلما فَعَلَ أولئك القُرويون في مُقدِّمَةِ كتابي الذين انتَظَروا ألفَي سنة لكي يأتي البريطانيون ويَنبِشوا بِئراً رَدَمَهُ الرومان[23].

انتهيتُ أنا مِنَ الحَفر، ولكنني أثِقُ بأنَّ تاريخي قد أهَّلَني للتأريخ. كانت أولى ذكرياتي العربية هي وَجهُ عبد الناصر المُبتَسم، وبشكلٍ أقلّ وضوحاً ذكرى اندفاع البريطانيين للخروج مِنْ عَدَن على شاشةِ تلفزيونٍ أسود وأبيض مُتَرَجرِجَة. أنتَمي حتماً إلى ما بَعدَ الإمبرياليين، مُستَعرِبٌ ومُؤرِّخٌ بِحُكم دِراسَتي، ولكنني عروبيٌّ بِحُكم تَجربَتي، أعيشُ في السِّلم والحَرب داخِلَ بُرجي القائم على تل من الأطلال، وليسَتْ في مَكتَبة. أعيشُ في حاضِرٍ مَبنيٍّ على طَبقات عديدة مِنَ الماضي. وأنا ما بَعدَ استِشراقي لأنَّ «الشرق» بَيتي،

---

(٢١) **القرآن الكريم**، «سورة الكافرون»، الآية ٦.

(٢٢) قارن: ص ١٦ من هذا الكتاب.

(٢٣) قارن: ص ٣١ من هذا الكتاب.

وليس مجرد مَوضوع لِدراسَتي (أو مجرد مَوضوع للهَيمَنة، لا قَدَّر الله). لكل هذه الأسباب، وبينَما أنظُرُ حَولي وأرَى الفَوضَى والظُّلم، ووجوه القَتلَى الشباب تَبتَسِمُ هذه الأيام في مُلصَقاتِ الشهداء، ابتسامات مُتَفَجِّرَة بالمَعنَيَين، بينما أشاهِدُ كلَّ ذلك أعلَمُ أنه لا يمكن أنْ يُوجَدَ تبريرٌ للإمبريالية الجغرافية أو الثقافية، «غَربية» كانت أو أيّ شيء آخَر. لقد مَضَتْ تلك الأيام.

ولكن، هناك إمبريالية أخرى مازالت حَيَّةً تَنبُض، سَتَظهرُ أفضَلُ الأجوبة (وربما الأجوبة الوحيدة) عن أسئلةِ العرب الحالية مِن خِلال ماضِيهم. غير أنَّ ذلك الماضي كان دائماً، ومازال، مُعتَدًى عليه ومُستَعمَراً ومُستَغَلاً مِنْ طَرَفِ مُغيرين مَحَليين مُتَمَسِّكين بالسُّلطَة مِنْ أجلِ تَبريرِ قَبضَتِهم المُستمرة على الحاضِر، وليس فقط على الحاضر. وكما كَتَبَ جورج أوريل Orwell: سَيطِرْ على الماضي، تُسَيطِر على المستقبَل. استُعيدَتْ أراضي العرب من إمبراطورياتٍ قديمة مُستَعمِرة، ولكنَّ ماضي العرب مازال مُحتَلاً مِنَ الدّاخِل.

يجب أنْ تَعرفَ الأجيالُ الجديدة أنَّ ذلك الماضي هو أرضُهم أيضاً، وأنه يَنتَظِرُ أنْ يُحَرَّرَ وأنْ يُستَكشَف بأعيُنٍ وعُقولٍ مَفتوحَةٍ، وعندها فقط يستطيع الإنسانُ أنْ يُفكِّرَ ببِناءِ مستقبلٍ أفضَل.



التسلسل الزمني

الزمن	الأحداث	اللغة، الثقافة، المجتمع، الهوية
٢ مليون سنة قبل الحاضر؟	أشباه الإنسان تغادر أفريقيا عبر سيناء ومضيق باب المندب.	
١٢٥,٠٠٠ + سنة قبل الحاضر؟	الإنسان الحديث يغادر أفريقيا عبر سيناء ومضيق باب المندب.	
الألفية الثامنة إلى الخامسة قبل الميلاد	أحدث فترة «رطبة رئيسية» في شبه الجزيرة العربية.	
الألفية السادسة قبل الميلاد	البشر في شبه الجزيرة العربية يرعون الأبقار.	
الألفية الخامسة قبل الميلاد		تتفرع سمات تشبه اللغة العربية عن جذر لغوي ساميّ.
الألفية الرابعة قبل الميلاد	شعوب جنوب شبه الجزيرة العربية تبدأ زراعة المحاصيل وتطوير أنظمة الري. شعوب تستقر في سواحل شبه الجزيرة العربية وتستخدم شجر المنغروف في البناء، والمحار في الغذاء.	

الألفية الثالثة قبل الميلاد	تأهيل الإبل للحصول على الحليب، ربما في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية. شعوب تسكن منطقة الخليج تبدأ في تصدير اللؤلؤ.	
نحو ٢٠٠٠ قبل الميلاد	عربات حربية تجرها الخيول تستخدم في شمال شبه الجزيرة العربية.	
الألفية الثانية قبل الميلاد	بدء استخدام الإبل للحمل والركوب. رواد من البدو يتحركون من الهلال الخصيب إلى شبه الجزيرة العربية. أوائل السبئيين يغادرون سورية ـ فلسطين نحو جنوب شبه الجزيرة العربية.	
نحو ١٠٠٠ قبل الميلاد	استخدام النقل بالجِمال عبر معظم مناطق شبه الجزيرة العربية. ظهور مشاريع الري الكبيرة في جنوب شبه الجزيرة العربية.	ثقافة الإبل تُعَزِّز مجتمع البداوة المتحرك. يؤدي الري الضروري للمحاصيل الغذائية إلى تطور مجتمع الحَضَر المستقر.
الألفية الأولى قبل الميلاد	سبأ تصبح قوة كبيرة في جنوب شبه الجزيرة العربية. تكبير سد مأرب الموجود ربما قبل سبأ.	
القرن العاشر قبل الميلاد	زيارة ملكة سبأ من جنوب شبه الجزيرة العربية لسليمان حسب الرواية التوراتية.	

٨٥٣ قبل الميلاد	جِنْدِبو العربي يقدم جِمالاً لقوة مضادة للآشوريين.	أول كتابة معروفة (آشورية) تذكر العرب.
نحو ٨٠٠ قبل الميلاد	السبئيون يتاجرون مع الهلال الخصيب الشمالي.	
٧٥٠ قبل الميلاد وما بعدها	قيدار (ربما تَحالف قَبائل) ينشط في شمال شبه الجزيرة العربية.	
نحو ٧٥٠ قبل الميلاد	الآشوريون يهزمون شَمسي «مَلكة العرب».	
القرن السابع قبل الميلاد	الآشوريون ينصِّبون «الملكة» العميلة تَبوعة على قيدار.	تحالفات في جنوب شبه الجزيرة العربية تتحد بالولاء لإله واحد.
القرن الخامس قبل الميلاد	الفرس يوظفون عرباً للدفاع عن حدودهم ضد مصر.	
القرن الرابع قبل الميلاد؟	البدء باستخدام الخيول للركوب في شبه الجزيرة العربية.	
القرن الثالث قبل الميلاد وما بعده	الأنباط المتحدثون بالعربية يتاجرون من البتراء.	
القرن الثاني قبل الميلاد	المَعينيون في جنوب شبه الجزيرة العربية يتاجرون مع مصر وبحر إيجة.	
القرن الأول قبل الميلاد وما بعده	التدمريون الناطقون بالعربية يتاجرون من تدمر.	
٢٦ قبل الميلاد وما بعدها	حملة عسكرية رومانية تخترق مؤقتاً جنوب شبه الجزيرة العربية.	

مع سنة ميلاد المسيح	تحسين سرج الجَمل والقدرة على السفر الطويل. استخدام العرب على نطاق واسع بشكل مرتزقة لصالح قوى في جنوب شبه الجزيرة العربية.	انتشار نقوش عربية بدائية في شمال شبه الجزيرة العربية. بدء تشكل هوية عربية مميَّزة.
القرن الأول	الحميريون يصبحون قوة كبيرة في جنوب شبه الجزيرة العربية.	أول نص عربي معروف ضمن نص آرامي في منطقة النقب.
١٠٦	الرومان يقتطعون مناطق الأنباط.	
القرن الثاني	قبيلة ثمود في غرب شبه الجزيرة العربية تدفع قوات مجندة إلى الرومان.	
القرن الثاني وما بعده	مَزيج الحصان+الجَمل: حركية فريدة وقوة غزو.	العرب واللغة العربية تبرز في جنوب شبه الجزيرة العربية.
القرن الثالث وما بعده	بدو قبيلة كندة يطورون قرية ذات كهل كمركز تجاري لهم في وسط شبه الجزيرة العربية. في الروايات التقليدية، قبيلة خزاعة تسيطر على مكة.	تستمر اللغة السبئية في الكتابة، ولكن اللغة العربية تسيطر على لغة الخطاب في جنوب شبه الجزيرة العربية. مكة مركز مقدس.
٢٢٦	تأسيس السلالة الساسانية في فارس.	
٢٤٤	فيليب العربي المولود في مدينة شهبا (في السويداء) يصبح إمبراطوراً رومانياً.	

٢٦٧		أول نص عربي بالكامل في نقش بمدائن صالح (السعودية).
٢٧٢	روما تدمج المناطق التدمرية.	
أواخر القرن الثالث	حضرموت تسقط أمام دولة سَبأ التي يُهَيمِن عليها الحِميريون. توحيد جنوب شبه الجزيرة العربية في ظِل الدولة السَّبئية ـ الحِميرية. قبيلة لَخم تشكل سلالة عميلة للفرس في الحيرة (العراق).	اللخميون يصبحون نواة تتشكل حولها هوية عربية.
بداية القرن الرابع	الفرس ينشرون نفوذهم في المناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية. قبائل كِندة ومذحج تهاجر من وسط شبه الجزيرة العربية إلى جنوبها. الحِميريون يرسلون حملات شمالاً وشرقاً في شبه الجزيرة العربية.	المتحدثون باللغة العربية يدخلون مناطق الهلال الخصيب التي تتحدث بالآرامية.
٣٢٨	امرؤ القيس اللخمي في مرثيته: هو «ملك جميع العرب».	
قبل ٤٠٠؟		تطور شكل من العربية الفصحى. كتابات عربية تتطور من النبطية.
القرن الخامس وما بعده	استخدام رِكاب الخيل يزيد قدرة العرب القتالية. زيادة تسلل قبائل عرب البدو إلى جنوب شبه الجزيرة العربية. قبائل الأزد، ومنها فرعها الغساني، تهاجر شمالاً وشرقاً من مأرب.	الشعر العربي الفصيح يصبح إنتاجاً ثقافياً عربياً عاماً

القرن الخامس	وصول قُصَي، سَلَف محمد، وقبيلة قريش إلى مكة. قريش تبدأ في السيطرة على طرق التجارة في شبه الجزيرة العربية.	
حوالى ٤٩٠	فرع من الغساسنة يشكل سلالة عميلة للرومان في سورية. الدولة الحِميرية المريضة تصنع مَلِكها العميل العربي الخاص من قبيلة كِندة.	الغساسنة واللخميون يتنافسون في رعاية الشعراء. الثقافة والهوية العربية تترسخ بفضل التنافس بين السلالات.
٤٩٠ ـ ٥٣٠ القرن الخامس ـ القرن السادس	حرب البَسوس القَبَلية المتقطعة في شمال شبه الجزيرة العربية.	
بداية القرن السادس	البيزنطيون يمنحون عميلهم الحاكم لقب «ملك العرب». القتال بين الحِميريين والملوك التابعين للفرس.	
القرن السادس	اندلاع حروب قَبَلية متكررة في أرجاء شبه الجزيرة العربية. انتشار المسيحية في مناطق الغساسنة واللخميين. انتشار التوحيد (المسيحي واليهودي والمحلي) في جنوب شبه الجزيرة العربية.	أقدم القصائد العربية الفصيحة الموجودة لشعراء من قبيلة كِندة. ظهور الصعاليك القادة والشعراء المتمردين على القبائل.
بداية القرن السادس	الملك الحِميري يعتنق اليهودية.	
حوالى ٥١٨	مذبحة للمسيحيين بيد الحِميريين في نجران.	

٥٢٥	المسيحيون الأثيوبيون يحتلون الدولة السَّبئية ـ الحِميرية.	
منتصف القرن السادس	الشاعر ـ الزعيم الكِندي امرؤ القيس يتقرب من بيزنطة. حروب بين الغساسنة واللخميين. زعماء مكة يستخدمون رأس المال المشترك (المضاربة) لتوسيع تجارة القوافل.	احترام العربية الفصحى يعزز الوعي الذاتي الثقافي عند العرب.
٥٧٠	التاريخ التقليدي لغزو مكة بقيادة الأثيوبيين. التاريخ التقليدي لمولد محمد.	
حوالى ٥٧٥	الفرس يُحكمون السيطرة على جنوب شبه الجزيرة العربية.	
حوالى ٥٨٢	في التراث، الصبي محمد يُعتَرف به كنبيّ.	
أواخر القرن السادس	البيزنطيون والفرس يستغنون عن عملائهم من ملوك العرب.	الكتابة العربية تصل إلى مكة. مكة تكسب شعبية واسعة كمقصد للحج. محمد يعجب بالداعية الجذاب قس بن ساعدة. شعور قوي بالعرب بأنهم جماعة ثقافية تشمل كل أجزاء شبه جزيرتهم.
بداية القرن السابع	محمد يبدأ خلواته التأملية. الانهيار النهائي لسد مأرب.	

٦٠٢	الفرس يقتلون آخر عملائهم من ملوك اللخميين.	
٦٠٤	قبائل عربية تهزم قوة فارسية في معركة ذي قار.	
حوالى ٦٠٨	إعادة بناء الكعبة في مكة بعد فيضان. محمد يتوسط لحل خلاف بشأن إعادة بناء الكعبة.	
حوالى ٦١٠ وما بعده	الفرس يحتلون مناطق بيزنطية في سورية، وفي مصر مؤقتاً.	بدء نزول الوحي على محمد.
٦١٦؟	بعض أتباع محمد يلجؤون إلى أثيوبيا.	
٦١٩؟	وفاة أولى زوجات محمد.	
قبل ٦٢٠		القرآن، أول كتاب عربي يبدأ في التبلور.
القرن السابع	البيزنطيون يستعيدون مناطق من الفرس.	
٦٢٢	محمد وأتباعه يهاجرون من مكة إلى يثرب (المدينة).	هجرتهم هي بداية التقويم الإسلامي.
٦٢٤	محمد يغزو قافلة لمكة في بدر.	محمد يغير اتجاه قبلة الصلاة من القدس إلى مكة.
٦٢٥	هزيمة أهل المدينة أمام المكيين في معركة أحد.	
٦٢٦	طرد قبيلة بني النضير اليهودية من المدينة.	

٦٢٧	حصار المكيين للمدينة. قتل كثير من يهود المدينة بزعم دعمهم للمكيين. المستعمرون الفرس في اليمن يخضعون لحكم المدينة.	
٦٢٨	صلح بين المدينة ومكة.	
٦٣٠	محمد يستحوذ على مكة.	
٦٣٠ ـ ٦٣١	زعماء قبائل شبه الجزيرة العربية يبايعون محمداً.	
٦٣١	المدينيون يحاصرون الطائف. «النبيان الكذابان» مسيلمة (شرق شبه الجزيرة العربية)، والأسود (اليمن).	
٦٣٢	حجة الوداع التي قام بها محمد إلى مكة وخطبة الوداع. وفاة محمد. انتخاب أبي بكر خليفة لمحمد. ردة معظم قبائل شبه الجزيرة العربية وقطع علاقتها بالمدينة. تكاثر «الأنبياء الكذابين».	أبو بكر يجمع الأجزاء المتفرقة من القرآن.
٦٣٣ ـ ٦٣٤	هزيمة مسيلمة أمام قوة من المدينة. اغتيال الأسود. استسلام «أنبياء كذابين» آخرين. القضاء على الردة في شبه الجزيرة العربية بالقوة والدبلوماسية. توحيد شبه الجزيرة العربية نظرياً تحت حكم المدينة.	

٦٣٤	وفاة أبي بكر وتنصيب عمر خليفة.	
٦٣٥ ـ حوالى ٧٥٠	العرب يفتحون إمبراطورية من غرب أوروبا إلى وسط آسيا. هجرات كبيرة للسكان من شبه الجزيرة العربية (معظمهم في ٦٣٥ ـ ٦٤٤).	اتحاد جميع العرب نظرياً بالنص المقدس والإمبراطورية.
٦٣٦	هزيمة البيزنطيين أمام العرب في معركة اليرموك (سورية ـ الأردن).	
٦٣٦/٦٣٧/٦٣٨	هزيمة الفرس أمام العرب في القادسية (العراق).	
٦٣٨	تأسيس البصرة في العراق (مدينة الحامية العسكرية).	
٦٣٨ ـ أو بعده	تأسيس الكوفة في العراق (مدينة الحامية العسكرية).	
٦٣٩	العرب يبدؤون الغارات في مصر.	
٦٤١	العرب يحتلون حصن بابليون المصري. تأسيس الفسطاط في مصر (مدينة الحامية العسكرية).	
٦٤٢	معركة نهاوند تفتح شرق الإمبراطورية الفارسية أمام العرب.	
٦٤٤	وفاة الخليفة عمر، مبايعة عثمان خليفة له.	
٦٤٤ وما بعدها		لجنة تصدر قرآناً مكتوباً نظامياً. بقاء تنويعات شفهية غير نظامية من القرآن.

٦٥٦	تمرد بعض المقاتلين العرب في الولايات وتحركهم إلى المدينة. مقتل عثمان على يد المتمردين. عليّ، ابن عم محمد وصهره، يصبح خليفة. «معركة الجَمل» بين عليّ والعصبة «المؤيِّدَة لعُثمان».	
٦٥٧ وما بعدها	قتال عليّ ضد نظام قريش القديم في معركة صفين (سورية). ينتهي القتال. تُقدِّم الخصومة بين الطرفين لتحكيم غير حاسم.	
٦٦١	اغتيال عليّ بيد مؤيدين ساخطين من شيعته. مبايعة معاوية من نظام مكة القديم وقبوله خليفة بشكل واسع. معاوية أول خلفاء سلالة الأمويين. عاصمته دمشق تصبح عاصمة الإمبراطورية العربية.	
٦٧٠	تأسيس القيروان في تونس (مدينة الحامية العسكرية).	
٦٨٠	وفاة معاوية. الحسين بن عليّ يثور على حكم يزيد، ويُقتَل. يصبح الحسين أول شهيد كبير للشيعة، حزب عليّ.	

٦٨٠ ـ القرن السابع	قوات بقيادة عربية تصل إلى سواحل الأطلسي في شمال أفريقيا. عبد الله بن الزبير يؤسس خلافة معارِضة في مكة. عودة ظهور انقسام شمالي ـ جنوبي بين من ترجع أصولهم إلى شبه الجزيرة. ابن الزبير يقرب «الشماليين» ويربح مناطق حتى في سورية.	
٦٩١		إكمال بناء قبة الصخرة في القدس.
٦٩٢	هزيمة خلافة عبد الله بن الزبير المعارِضة. تهميش شبه الجزيرة العربية سياسياً.	تهميش شبه الجزيرة العربية ثقافياً.
٦٩٤ وما بعدها	الحجاج يحاول إنهاء معارضة الأمويين في العراق.	
أواخر القرن السابع	عدد سكان البصرة في العراق يصل إلى ٢٠٠,٠٠٠.	اللغة العربية المنطوقة تصبح مختلطة. انضمام أعداد كبيرة من غير العرب إلى القبائل العربية (الموالي).
حوالى ٧٠٠		ظهور عملة معدنية بكتابة عربية. العربية الفصحى تصبح لغة الإدارة في الإمبراطورية. ازدهار الكتابة يحسن الخط العربي. انتشار سريع للعربية الفصحى بين غير العرب. علوم اللغة (النحو وفقه اللغة. . .) تبدأ في التطور.

بداية القرن الثامن	تأسيس قوات بقيادة عربية في وسط آسيا (ما وراء النهر). العرب يؤسسون حكماً محدوداً في السند (باكستان).	
٧١١	طارق بن زياد يقود قوة معظمها من البربر في إسبانيا.	
٧١٥		استكمال بناء الجامع الأموي بدمشق.
نحو ٧٢٠		بناء نسل العرب الشماليين من إسماعيل. بناء نسل العرب الجنوبيين من قحطان. جميع العرب متحدون الآن نظرياً بالوراثة، إن لم يكن بالسياسة.
٧٣٢	قوات بقيادة عربية تصطدم بالكارولنجيين (الفرنجة) قرب بواتييه (فرنسا).	
٧٤٧	انطلاق الثورة العباسية في خراسان. يضم رفاق الثورة مؤيدون من شيعة عليّ.	
٧٥٠	القوات العباسية تهزم الأمويين وتنهي حكمهم. السفاح يصبح أول خليفة عباسي. العباسيون يتخلصون من رفاق الثورة.	

٧٥١	قوات بقيادة عربية تصطدم بالصينيين في شرق نهر سيحون.	
٧٥٤	المنصور يخلف السفاح كخليفة عباسي.	
منتصف القرن الثامن وما بعده		انتشار صناعة ورق القرطاس في عالم العربية. الكتابة العربية تنتشر بسبب رخص الورق. نعومة الورق تدعم تحسن الخط. بدء تشكيل الأنظمة الإسلامية الشرعية والأخلاقية.
٧٥٦	الناجي الأموي عبد الرحمن يؤسس سلالة إسبانية. الهجرة العربية إلى إسبانيا تزداد.	
٧٦٢	المنصور يؤسس بغداد.	
٧٦٢ وما بعده	المنصور يقضي على المعارضة في الأسرة العباسية، ويقضي على معارضة محتملة من النخبة الثورية العباسية، ويبدأ توجهاً نحو الاعتماد على المماليك من غير العرب كجنود.	
٧٧٤		أوفا ملك مرسيا في إنكلترا يقلد النقود العباسية.
٧٨٨		أحد أحفاد عليّ يؤسس السلالة الإدريسية في المغرب.

أواخر القرن الثامن وما بعده		بداية «عصر التدوين». في هذا العصر، إثراء التراث والهوية العربية للأجيال القادمة. الترويج للماضي «البدوي» (البدو الحقيقيون أصبحوا الآن هامشيين). الفرس ثم كثير غيرهم يبدؤون بإنعاش ثقافاتهم. الحركات الشعوبية تتحدى الهيمنة العربية الثقافية.
٨٠٩	وفاة الخليفة هارون الرشيد. انقسام الإمبراطورية بين ثلاثة من أبناء الرشيد. اقتتال بين اثنين من أبنائه: الأمين والمأمون.	
٨١٣ وما بعده	انتصار المأمون، وتأسيس حكمه على الإمبراطورية كلها. المأمون يجلب جنوداً مما وراء النهر في وسط آسيا إلى بغداد.	
بداية القرن التاسع		الانفتاح الثقافي في عهد المأمون. المعتزلة يشجعون على الحوار العقائدي. النثر العربي المكتوب يصبح أخيراً وسيلة للتعبير.
٨١٦	المأمون يعيّن الإمام الشيعي الرضا ولياً للعهد.	
٨١٨	وفاة الرضا. تعليق التوافق مع الشيعة.	

٨٣٢	المأمون يؤسس بيت الحكمة.	
٨٣٣	المعتصم يصبح خليفة ويجلب جنوداً أتراكاً وغيرهم. الجنود يسببون فوضى في بغداد.	
٨٣٦	المعتصم ينقل الجنود غير العرب إلى عاصمة جديدة هي سامراء.	
القرن التاسع		البلاذري يسجل الفتوحات العربية. الجاحظ يحلل العروبة ويرد على الشعوبيين. تسارع الأسلمة المتأخرة عبر أرجاء الإمبراطورية. أن تكون عربياً يصبح الآن أقل أهمية، والإمبراطورية تصبح عالمية. البيزنطيون والصينيون يقلدون ملابس العرب وأزياءهم. المسيحيون الإسبان يصبحون مستعربين تماماً.
منتصف القرن التاسع		معاداة لآراء المعتزلة في زمن الخليفة المتوكل.
٨٦١	مقتل المتوكل في مؤامرة قام بها ابنه مع حرس تركي. القوة الحقيقية بيد القادة العسكريين الأتراك.	
٨٦٨	السلالة الصفارية الفارسية تستقل عن بغداد في الشرق. مصر تبتعد عن بغداد في عهد الطولونيين القادمين من وسط آسيا.	

٨٦٩ ـ ٨٨٣	ثورة الزنج في العراق (رقيق المزارع من شرق أفريقيا).	
٨٩٠ وما بعد	ثورة الفلاحين في العراق وما وراءها بقيادة حَمدان قرمط. الثوار يتحالفون مع الإسماعيليين، جماعة منشقة عن الشيعة.	
أواخر القرن التاسع	هجر سامراء.	
بداية القرن العاشر	منذ الآن، سلطة الخليفة السياسية تنحصر في العراق.	
القرن العاشر	انقسام الإمبراطورية العربية بشكل نهائي. بروز السلالة الحمدانية في شمال العراق وسورية.	ولكن الثقافة ظلت عربية في الوسط والغرب، وازداد رعاة الثقافة. مختارات وتواريخ في مجلدات عديدة تمجد التراث العربي.
٩١٠	السلالة الفاطمية (من أصل عربي غامض) تتأسس في شمال أفريقيا. يتخذ الفاطميون لقب «الخليفة».	
٩٢٢	إعدام الحلاج، المفكر الحر ورائد التصوف.	
٩٢٩	عبد الرحمن الثالث (إسبانيا الأموية) يتخذ لقب الخليفة.	
٩٣٠	المتمردون القرامطة يغزون مكة ويبعدون الحجر الأسود.	

٩٣٨	بَجكَم، القائد التركي، يصبح الحاكم الفعلي في بغداد.	
٩٤٠	وفاة الراضي «آخر خليفة حقيقي» (حتى لو كان ضعيفاً). هناك الآن ثلاثة خلفاء متنافسين في بغداد والقاهرة وقرطبة.	فكرة الهوية العربية في الحضيض بعد أن بلغت ذروتها قبل ٣٠٠ سنة.
٩٤٥	البويهيون الإيرانيون يستولون على السلطة في بغداد.	
منتصف القرن العاشر		قرطبة الآن مركز عظيم للثقافة العربية.
٩٦٦ ـ ٩٦٨	العبد الخصي كافور يستولي على السلطة في مصر.	
٩٦٨	الفاطميون يدخلون مصر.	
٩٦٩	تأسيس القاهرة عاصمة جديدة للفاطميين.	
حوالى ٩٧٠	الأتراك السلاجقة يحتلون مناطق تابعة للخلافة.	
أواخر القرن العاشر	«الجناح الثقافي» للقرمطية ـ الإسماعيلية يجمع المعرفة العلمية.	
١٠٣١	تمزق الخلافة الأموية في إسبانيا. «ملوك الطوائف» يحكمون دولاً عديدة صغيرة في شبه جزيرة إيبيريا.	
١٠٥٥	السلاجقة يحتلون بغداد.	

منتصف القرن الحادي عشر	بنو هلال وقبائل عربية كبيرة أخرى يهاجرون غرباً من مصر.	تعريب متأخر لشمال أفريقيا الريفي.
١٠٦١ وما بعدها	النورمانديون يحتلون صقلية التي كان يحكمها العرب.	
أواخر القرن الحادي عشر	السلاجقة يسيطرون على كامل الجناح الشرقي من الإمبراطورية العربية القديمة.	تبنى السلاجقة اللغة الفارسية لغة لثقافتهم. الوزير السلجوقي نظام المُلك يشجع المدارس والدراسات العربية.
١٠٨٥	المسيحيون الإسبان يستعيدون طليطلة.	المسيحيون الإسبان يحافظون على تقاليد العلم العربية.
١٠٨٦ وما بعدها	المرابطون البربر يوقفون تقدم المسيحيين ويحتلون جنوب إسبانيا.	المرابطون يدَّعون أن أصولهم عربية.
١٠٩٩	الصليبيون يحتلون القدس ويقتلون كثيراً من سكانها.	
١١٣٠ ـ القرن الثاني عشر	بلاط روجر الثاني، ملك صقلية النورماندي، بثقافة معظمها عربية.	
القرن الثاني عشر		نقلَ الصليبيون مفردات وأفكاراً عربية إلى أوروبا. انتشار العلوم العربية إلى أوروبا عبر صقلية وجنوب إيطاليا.
منتصف القرن الثاني عشر	تحالف البربر الموحدين يحتل جنوب إسبانيا. زعيم الموحدين هو أول غير عربي صريح يتخذ لقب «الخليفة».	الموحدون يتبنون ثقافة عربية حَضَرية.

١١٦٩	تأسيس حكم السلالة الأيوبية الكردية في القاهرة.	
١١٧١	صلاح الدين الأيوبي ينهي الخلافة الفاطمية. صلاح الدين يعيد سيادة اسمية للخلفاء العباسيين.	
١٢١٩	الصليبيون يحتلون دمياط (مصر). المغول يظهرون في الأراضي الإسلامية. المغول يرتكبون مذابح في المدن وخراباً في الريف.	
القرن الثالث عشر		ابن خلكان يكتب معجم سير «**وفيات الأعيان**».
١٢٤٨	المسيحيون الإسبان يستعيدون إشبيلية.	
١٢٥٠	المماليك الأتراك يستولون على مصر وسورية.	
١٢٥٨	المغول يستولون على بغداد بقيادة هولاكو ويقتلون الخليفة المستعصم. المماليك يستضيفون خلافة عباسية شكلية في مصر.	انتهاء كل زعم بوحدة العرب. التفكك الاجتماعي: عرب القبائل يغيرون على أراضي الحَضَر.
١٢٦٠	المماليك يوقفون تقدم المغول في عين جالوت (فلسطين).	
أواخر القرن الثالث عشر	العرب يؤسسون سلطنة كِلوة كيسواني (تنزانيا). معظم الصليبيين قد غادروا شرق المتوسط.	المغول الغربيون يعتنقون الإسلام والثقافة الفارسية.

بداية القرن الرابع عشر	قبائل عربية تحول ولاءها من المماليك إلى المغول وبالعكس.	
القرن الرابع عشر	عالم السلم المغولي: انتعاش التجارة والسفر في نصف العالم. تجارة جماعة الكارم من قاعدتها في مصر تنشط من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي. بداية ٢٥٠ سنة من شتات العرب حول المحيط الهندي.	انتشار الثقافة العربية والإسلام بين غرب أفريقيا والهند الشرقية. الحروف العربية تستخدم في لغات كثيرة في أفريقيا وآسيا. المغربي ابن بطوطة يسافر في ثلاث قارات. القاهرة هي أكبر مدينة خارج الصين، وهي عاصمة الثقافة العربية. تزدهر الثقافة العربية أيضاً في غرناطة بإسبانيا.
١٣٤٣	سلطان دلهي نائب اسمي للخليفة العباسي الشكلي.	
١٣٤٠ ـ القرن الرابع عشر وما بعدها	الطاعون يقتل ثلث البشر من الصين إلى أوروبا.	
١٣٧٥ ـ ١٣٧٩		ابن خلدون يعمل على تاريخه.
حوالى ١٤٠٠	الزعيم المغولي تيمورلنك يدمر شرق المتوسط وغيره.	
القرن الخامس عشر	قبيلة المَعقل العربية تدخل موريتانيا.	التعريب المتأخر في هذه الهجرة الكبيرة الأخيرة.
١٤٥٣	الأتراك العثمانيون يحتلون القسطنطينية.	
١٤٨٥		العثمانيون يمنعون الطباعة باللغة العربية.

١٤٨٨	البرتغاليون يدورون حول رأس الرجاء الصالح. بدء محاولات الأوروبيين لاحتكار تجارة المحيط الهندي.	
١٤٩٢	سقوط غرناطة بيد قوات مسيحية من قشتالة.	
١٥١٦	العثمانيون يحتلون دمشق.	
١٥١٧	العثمانيون يحتلون القاهرة وتوابعها والمدينة ومكة. العثمانيون ينقلون الخليفة العباسي الشكلي إلى القسطنطينية.	
١٥١٩	الجزائر تخضع للسيادة العثمانية.	
١٥٢٠ ـ القرن السادس عشر	العثمانيون يرسخون وجودهم في اليمن.	
١٥٣٤	العثمانيون يحتلون بغداد	
القرن السادس عشر وما بعده	معظم مناطق عالم العربية يحكمها العثمانيون لأكثر من ٣٠٠ سنة القادمة. العرب موحدون سياسياً ولكن على حساب استقلالهم.	أي شعور بهوية عربية مشتركة على نطاق واسع يدخل مرحلة ضمور.
١٥٤٣	وفاة آخر خليفة عباسي شكلي، في الوقت الذي يأخذ فيه السلاطين العثمانيون لقب «الخليفة».	
بداية القرن السابع عشر		عرب لبنانيون مسيحيون يجربون الطباعة باللغة العربية. التجربة لا تنتشر.

١٦٣٠ ـ القرن السابع عشر وما بعدها	معارضة الحكم العثماني في اليمن، والعثمانيون ينسحبون منها.	
١٦٦٢ ـ ١٦٨٤	الإنكليز يسيطرون على طنجة (المغرب).	
أواخر القرن السابع عشر	العمانيون يوسعون قوة بحرية ويؤسسون إمبراطورية على ساحل شرق أفريقيا.	
حوالى ١٧٢٠	ولادة محمد بن عبد الوهاب، المصلح الأصولي.	
١٧٢٢		أول مطبعة عربية في القسطنطينية.
القرن الثامن عشر	شتات عربي جديد حول سواحل المحيط الهندي. مهاجرون من جنوب شبه الجزيرة العربية يقودون التجارة والدين والسياسة.	
منتصف القرن الثامن عشر	تعدٍّ فارسيٌ في شرق شبه الجزيرة العربية. ظهور الحركة الوهابية الأصولية في وسط شبه الجزيرة العربية. تحالف الوهابيين مع محمد بن سعود.	
أواخر القرن الثامن عشر	البحرية البريطانية تحمي سفنها التجارية في الخليج من غارات العرب.	
١٧٨٣	مغيرون بدو يحتلون البحرين.	

١٧٩٨	الوهابيون يهزمون جيشاً عثمانياً أرسل لإخضاعهم. الفرنسيون بقيادة نابليون يغزون مصر ويهزمون المماليك.	الفرنسيون يُدخِلون طباعة اللغة العربية إلى مصر.
١٨٠٠	الفرنسيون في مصر يطبعون أول صحيفة عربية لم تستمر طويلاً.	
١٨٠١	القوات العثمانية البريطانية تطرد الفرنسيين من مصر.	
١٨٠٢	الوهابيون يدمرون مواقع شيعية في جنوب العراق.	
١٨٠٥ ـ ١٨١٢	الوهابيون يحتلون مكة.	
١٨١٢	محمد علي باشا ينهي بقايا المماليك في مصر.	
١٨١٣ ـ ١٨١٨	محمد علي يهزم الوهابيين في شبه الجزيرة العربية.	
القرن التاسع عشر		محمد علي يعيد توجيه مصر ثقافياً نحو أوروبا. اللغة العربية تحل محل التركية كلغة رسمية في مصر. الطباعة تبدأ بالانتشار ببطء في عالم العربية. النهضة، إحياء الهوية العربية. تنشيط الكتابة بالفصحى بين المفكرين. فكرة «أمة عربية» تستلهم جزئياً من القومية الأوروبية.
١٨٢٢		تأسيس مطبعة حكومية في القاهرة.

١٨٢٦		إرسال مجموعة من الشباب المصري للدراسة في باريس.
١٨٢٨		تأسيس أول صحيفة حكومية مستمرة في القاهرة.
١٨٣٠	الفرنسيون يبدؤون باحتلال الجزائر.	
١٨٣٥		تأسيس «مدرسة الألسن» في القاهرة لترجمة كتب أوروبية.
١٨٣٩	البريطانيون يحتلون عدن.	
منتصف القرن التاسع عشر	العثمانيون يعيدون احتلال أجزاء من اليمن. دخول القطار البخاري إلى مصر.	إصدار أول صحف عربية خارج مصر.
١٨٦٠ ـ القرن التاسع عشر		القاهرة تأخذ نمطاً باريسياً في تخطيط الشوارع وبناء دار الأوبرا.
١٨٦٩	افتتاح قناة السويس.	
١٨٧٠ ـ القرن التاسع عشر وما بعدها	انتعاش عدن تحت حكم البريطانيين مع زيادة الرحلات البحرية.	العثمانيون يفرضون رقابة صارمة على الطباعة العربية المزدهرة.
١٨٧٦	إفلاس مصر: قوى أوروبية تفرض سيطرة مالية.	
١٨٨١	ثورة ضباط الجيش المصري بقيادة أحمد عرابي.	
١٨٨١ وما بعدها	شمال الجزائر يوضع تحت إدارة فرنسية مدنية.	الفرنسيون يمنعون استخدام اللغة العربية الفصحى، خاصة في الجزائر.

١٨٨٢	البريطانيون يدخلون مصر بطلب من العثمانيين، ويستلمون الإدارة.	
١٨٨٣	فرنسا تحتل تونس.	
١٨٩٠ ـ القرن التاسع عشر وما بعدها	عرب شرق المتوسط يهاجرون إلى أوروبا وغرب أفريقيا والأمريكتين. اليمنيون يؤسسون أول جوال عربية في بريطانيا. الألمان يتوددون إلى العثمانيين للحصول على وجود لهم في أراضٍ عربية.	
١٩٠٨	استكمال الخط الحديدي الحجازي. ثورة «تركيا الفتاة» القومية.	التأكيد على أن اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة في أراضي العرب.
١٩١٢	فرض الحماية الفرنسية على معظم المغرب. فرض الحماية الإسبانية في شمال وجنوب غرب المغرب.	
١٩١٦	البريطانيون يعترفون بالشريف حسين ملكاً على الحجاز. الشريف حسين ينصّب نفسه «ملك العرب». البريطانيون يدعمون حسيناً في «الثورة العربية» ضد العثمانيين. فرنسا وبريطانيا تتفقان على تقسيم أراضي العرب التي يحكمها العثمانيون.	

١٩١٧	وعد بلفور وتشجيع المستوطنات اليهودية في فلسطين.	
١٩١٨ وما بعدها	القوى المنتصرة تتقاسم الإمبراطورية العثمانية.	
١٩٢٠	الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان. الانتداب البريطاني على فلسطين والأردن والعراق. فيصل بن حسين ينصب ملكاً على سورية.	
١٩٢٠ ـ القرن العشرون	ثورة ضد البريطانيين في العراق. تزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين. اكتشافات البترول تبدأ في منطقة الخليج.	
١٩٢١	الفرنسيون يطردون فيصلاً من سورية. البريطانيون يُنصِّبون فيصلاً ملكاً على العراق. البريطانيون يُنصِّبون عبد الله بن حسين ملكاً على الأردن. رجال القبائل الوهابيون يغيرون ويذبحون حجاجاً يمنيين.	
١٩٢١ ـ ١٩٢٦	البربر المغاربة يقاتلون المستعمرين الفرنسيين والإسبان.	
١٩٢٢	عصبة الأمم تمنح الاستقلال العربي المشروط. الاستقلال مشروط بالانتداب البريطاني والفرنسي.	

١٩٢٣	مصر ملكية دستورية بتعددية سياسية.	
١٩٢٤	نزع لقب «الخليفة» عن السلطان العثماني المخلوع. الشريف حسين يقدم ادعاءً فاشلاً للقب الخلافة. عبد العزيز بن سعود يغزو الحجاز ويطيح بحسين.	
١٩٢٥ ـ ١٩٢٧	ثورة الدروز والسوريين ضد الفرنسيين.	
١٩٢٦	الوهابيون يهاجمون موكب الحج المصري في مكة.	طه حسين يشكك بحقيقة الشعر الجاهلي قبل الإسلام.
١٩٢٨		تركيا بعد العثمانية تتخلى عن الحروف العربية وتتبنى اللاتينية.
١٩٢٩ ـ ١٩٣٠	ابن سعود يقمع الإخوان المتعصبين.	
١٩٣٠	بريطانيا تمنح الاستقلال للعراق.	
١٩٣٠ ـ القرن العشرون	بريطانيا تحاول تهدئة المناطق النائية في محميتّي عدن.	
١٩٣٢	ابن سعود يسمي مناطقه في شبه الجزيرة العربية «المملكة العربية السعودية».	
١٩٣٤	الإيطاليون يؤسسون مستعمرة في ليبيا.	

١٩٣٦ وما بعدها	البريطانيون في فلسطين في صراع مع الفلسطينيين، ثم مع الصهاينة. ابن سعود يناقش فكرة الوحدة العربية برئاسته. عبد الله (الأردن) يناقش فكرة الوحدة العربية برئاسته. العراقيون يناقشون فكرة الوحدة العربية برئاستهم.	
١٩٣٨	اكتشاف النفط بكميات تجارية في الظهران، السعودية.	
أوائل الأربعينيات	تأسيس حزب البعث في سورية.	
١٩٤٥	تأسيس جامعة الدول العربية بمبادرة مصرية. فرنسا تنسحب من سورية ولبنان. القوات البريطانية تنسحب من مصر وتظل في منطقة قناة السويس.	
١٩٤٦	تفجير فندق الملك داوود بيد صهاينة متطرفين.	
١٩٤٨	الحرب بين الصهاينة وجيرانهم العرب. الحرب تهجر ٧٥٠,٠٠٠ فلسطيني.	
١٩٥٢	مظاهرات ضد البريطانيين في القاهرة. ثورة الضباط الأحرار في مصر تطيح بالملك الذي تدعمه بريطانيا.	

١٩٥٣	وفاة الملك عبد العزيز بن سعود.	
١٩٥٤	عبد الناصر يستلم الرئاسة في مصر. فشل محاولة الإخوان المسلمين لاغتيال عبد الناصر. بدء حرب التحرير الجزائرية.	
١٩٥٥	طرد السعوديين من البريمي (حدود عمان ـ أبوظبي).	
١٩٥٦	عبد الناصر يؤمِّم قناة السويس. بريطانيا وفرنسا وإسرائيل تواجه مصر في منطقة القناة. الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية يجبران بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب. فرنسا تمنح الاستقلال لتونس والمغرب.	
١٩٥٦ وما بعدها		راديو الترانزيستور الرخيص ينتشر بشكل واسع. الزعماء العرب يستخدمون البث الإذاعي. مصر تصبح المركز الثقافي والسياسي لعالم العربية.
١٩٥٨	مصر وسورية تشكلان الجمهورية العربية المتحدة. اليمن تنضم إلى الجمهورية العربية المتحدة لتشكل الدول العربية المتحدة. الأردن والعراق يشكلان اتحاداً مؤقتاً. عبد الناصر يلهم ثورة في العراق تطيح بالمَلكية.	

١٩٥٩	تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.	
١٩٦١	انحلال الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية المتحدة.	
١٩٦٢	انتهاء الحكم الفرنسي في الجزائر. عبد الناصر يلهم ثورة في اليمن تطيح بالمَلَكية.	
١٩٦٢ وما بعدها	حرب أهلية في اليمن. مصر تدعم الجمهوريين في الحرب، والسعودية تدعم المَلَكيين.	
١٩٦٧	ضربة استباقية إسرائيلية على جيرانها العرب. إسرائيل تحتل سيناء والجولان وغزة والقدس الشرقية والضفة الغربية. بريطانيا تنسحب من عدن ومحميتيها.	
١٩٦٩	قيادة اليمن الجنوبي تتبنى سياسة اشتراكية يسارية.	
١٩٧٠	وفاة عبد الناصر. حرب في الأردن بين الحكومة والسكان الفلسطينيين. حافظ الأسد يستولي على السلطة في سورية.	
السبعينيات	صراعات حدودية بين شمال اليمن وجنوبه. تمرد في ولاية ظفار في عمان.	

١٩٧٣	هجوم مشترك لمصر وسورية على إسرائيل. الدول العربية المصدرة للبترول تخفض إنتاجها، وأسعار البترول ترتفع. تدخل الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي وإنتهاء الحرب العربية ـ الإسرائيلية إلى طريق مسدود.	
نحو ١٩٧٤	ارتفاع أسعار البترول أكثر من ٥٠٠ بالمئة خلال سنتَين.	
منتصف السبعينيات	تدفق العمال إلى دول البترول الغنية في شبه الجزيرة العربية.	
١٩٧٥ وما بعدها	حرب أهلية في لبنان.	
١٩٧٧	الرئيس المصري أنور السادات يزور إسرائيل لمباحثات مباشرة.	
١٩٧٩	«الثورة الإسلامية» تطيح بالمَلَكية في إيران. اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل. مسلحون إسلاميون يحتلون المسجد الحرام في مكة، ويُطرَدون بمعركة دموية. الاتحاد السوفياتي يغزو أفغانستان.	
١٩٧٩ ـ ١٩٩٠	مصر مطرودة من جامعة الدول العربية.	

١٩٧٩	بروز الحركات الإسلامية.	
١٩٨٠ ـ ١٩٨٨	العراق تغزو إيران، والحرب الإيرانية العراقية.	
١٩٨١	إسلاميون مسلحون يغتالون السادات في القاهرة.	
١٩٨٢	حافظ الأسد يسحق ثورة إسلامية في حماة. إسرائيل تغزو لبنان.	
١٩٨٣ وما بعدها	مقاتلون عرب ينضمون إلى المقاومة ضد الاتحاد السوفياتي في أفغانستان.	
الثمانينيات	بناء سد مأرب الحديث.	
١٩٨٥	إعدام الإصلاحي الإسلامي محمود محمد طه في السودان.	
١٩٨٦	حرب قصيرة دموية في جنوب اليمن.	
١٩٨٧ ـ ١٩٩٣	الانتفاضة الفلسطينية الأولى ضد المحتلين الإسرائيليين.	
١٩٩٠	اتحاد شمال اليمن وجنوبه. العراق تغزو وتحتل الكويت.	
١٩٩١	طرد صدام حسين من الكويت أمام تحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. الإسلاميون يفوزون في انتخابات الجزائر ولكنهم يُمنَعون من الحكم. بدء حرب أهلية في الجزائر.	

١٩٩٠ ـ القرن العشرون وما بعدها		معالجة النصوص الرقمية تبسط الطباعة والكتابة باللغة العربية. القنوات التلفزيونية الفضائية تنتشر.
١٩٩٣	اتفاقيات أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل.	
١٩٩٤	اليمن الجنوبي السابق يحاول الانفصال: «حرب الوحدة».	
١٩٩٤ وما بعدها	إغلاق الحدود بين المغرب والجزائر.	
١٩٩٥	اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي بيد متطرف صهيوني.	
٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٥	الانتفاضة الفلسطينية الثانية ضد المحتلين الإسرائيليين.	
٢٠٠١	هجمات على الولايات المتحدة الأمريكية مستلهمة من السعودي المتطرف أسامة بن لادن.	
٢٠٠٣	تحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية يغزو العراق.	
٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٨	حملة إسرائيلية ضد مقاتلين في غزة.	
بداية القرن الحادي والعشرين		وسائل التواصل الاجتماعي تضع الأسس لحركات شعبية.

٢٠١١	مظاهرات في تونس تطيح برئيسها المستبد. حركات شعبية ضد المستبدين (الربيع العربي). البحرين بمساعدة السعودية تقمع المعارضة الشيعية. بدء الحرب الأهلية في سورية. جنوب السودان يصبح دولة مستقلة. الاضطرابات بعد الربيع العربي تزيد الهجرة إلى أوروبا وما وراءها.	النظم العربية تتبنى وسائل التواصل الاجتماعي كوسيلة للسيطرة.
٢٠١٢	الإخوان المسلمون يفوزون بالانتخابات في مصر.	
٢٠١٣	انقلاب عسكري ينهي حكم الإخوان المسلمين في مصر.	
٢٠١٤	حملة إسرائيلية ضد مقاتلين في غزة. داعش تسيطر على مناطق في العراق وسورية. المتمردون الحوثيون والرئيس السابق صالح يسيطرون على غرب اليمن.	
٢٠١٥ وما بعدها	حرب أهلية في اليمن.	
٢٠١٧	دول الخليج تفرض حصاراً على زميلتهم قطر. استعادة معظم المناطق من داعش. اغتيال الرئيس اليمني السابق صالح بيد حلفائه السابقين الحوثيين.	

٢٠١٨	يبدو أن النظام السوري نجا من الحرب الأهلية بمساعدة عسكرية من روسيا وإيران. النظام السعودي يطبق إصلاحات اجتماعية محدودة ولكنه يقمع المعارضة بصرامة أقوى.	إسرائيل تنزل اللغة العربية عن مركزها كلغة رسمية.

المراجع

١ ـ العربية

الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد. **المستطرف في كل فن مستظرف.** تحقيق محمد خير طعمه الحلبي. بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨.

ابن الخطيب، لسان الدين. **الإحاطة في أخبار غرناطة.** شرحه وضبطه وقدّم له يوسف علي طويل. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣. ٤ ج.

ابن جبير، محمد بن أحمد. **رحلة ابن جبير.** بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.** تحقيق سالم الكرنكوي الألماني. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن. **رحلة ابن خلدون، ١٣٥٢ ـ ١٤٠١.** عارضها بأصولها وعلّق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي؛ حررها وقدم لها نوري الجراح. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ أبو ظبي: دار السويدي، ٢٠٠٣.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.** بيروت: دار صادر، ١٩٩٧. ٦ ج.

ابن شقرون، محمد بن أحمد. **مظاهر الثقافة المغربية: دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني.** الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٥.

ابن منقذ، أسامة. **كتاب الاعتبار**. حرره فيليب حتّي. برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي. **المختصر في أخبار البشر**. القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.].

أبو نواس. **ديوان أبي نواس**. تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد. **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤. ٢ ج.

أدونيس [علي أحمد سعيد إسبر]. **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتباع عند العرب**. بيروت: دار الساقي، ٢٠١١. ٤ ج.

ج ١: **الأصول**

ج ٢: **تأصيل الأصول**.

ج ٣: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني**

ج ٤: **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**.

الأرياني، مطهر علي. **نقوش مسندية: وتعليقات**. ط ٢، مزيدة ومنقحة. صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٠.

الأكوع، محمد بن علي. **اليمن الخضراء مهد الحضارة**. ط ٢ مزيدة ومنقحة. صنعاء: مكتبة الجيل الجديدة، ١٩٨٢.

امرؤ القيس. **ديوان امرؤ القيس**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

الباشا، عاصم **الشامي الأخير في غرناطة: دفتر يوميات وكتابات تسنت**. أبو ظبي: دار السويدي للنشر، ٢٠١١.

البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف. **كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**. تحقيق أحمد غسان سبانو. دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٣.

البلاذري، أحمد بن يحيى. **فتوح البلدان**. عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

بيتروفسكي، ميخائيل. **اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة: القرن الرابع حتى العاشر الميلادي**. تعريب محمد الشعيبي. بيروت: دار العودة، ١٩٨٧.

الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور. **فقه اللغة وسر العربية**. تحقيق عبد الرزاق المهدي. بيروت: إحياء التراث العربي، ٢٠١٠.

الجابري، محمد عابد. **تكوين العقل العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١. (نقد العقل العربي؛ ١)

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **كتاب البيان والتبيين**. وضع حواشيه موفق شهاب الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.

الجبرتي، عبد الرحمن. **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. بيروت: دار الجيل، [د. ت.].

الجراح، نوري. **أرض التعارف: صورة أوروبا، الحج، الرحلة المعاصرة**. أبو ظبي: دار السويدي للنشر، ٢٠١١.

الحبشي، عبد الله محمد. (معد). **اليمن في لسان العرب**. صنعاء: مطابع المفضل للأوفست، ١٩٩٠.

حسين، طه. **في الشعر الجاهلي**. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.

خسرو، ناصر. **سفر نامه**. نقلها الى العربية يحيى الخشاب. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣.

الرازي، أحمد بن عبد الله بن محمد. **تاريخ مدينة صنعاء**. عني بتحقيق ووضع الفهارس حسين بن عبد الله العمري وعبد الجبار زكّار؛ قدّم لها نبيه عاقل. دمشق: دار الفكر، ١٩٧٤.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **المزهر في علوم اللغة وأنواعه**. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩. ٢ ج.

شيخو، لويس. **شعراء النصرانية في الجاهلية**. القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨٢.

عبد الله، يوسف محمد. **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: بحوث ومقالات**. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠.

العرشي، حسين بن أحمد. **كتاب بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام**. القاهرة: مطبعة البرتيري، ١٩٣٩.

الفرح، محمد حسين. **عروبة البربر**. صنعاء: وزارة الثقافة، ٢٠٠٤.

قباني، نزار. **الأعمال الشعرية والسياسية الكاملة**. ط ١٦. بيروت؛ باريس: منشورات نزار قباني، ٢٠٠٧. ٣ ج.

القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد. **آثار البلاد وأخبار العباد**. بيروت: دار صادر، ١٩٦٠.

الكردي، محمد طاهر بن عبد القادر. **تاريخ الخط العربي وآدابه**. القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩.

المرزوقي، منصف. «أي لغة سيتكلم العرب القرن المقبل؟.» الجزيرة. نت، ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، <https://bit.ly/3Cgtz8O>.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣.

المعلمي، أحمد عبد الرحمن. **كتابة على صرح الوحدة اليمنية**. صنعاء: صحيفة ٢٦ سبتمبر، ١٩٩٤.

المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. حققه ميخائيل جان دوغويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧.

المقري، أبو العباس أحمد بن محمد. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. حققه إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ١٩٨٨. ٨ مج.

المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**. القاهرة: بولاق، [د. ت.].

الموسوعة اليمنية. إعداد وإشراف وتحرير أحمد جابر عفيف. صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ١٩٩٢.

هافا، ج. **الفرائد الدرية في اللغتين العربية والإنكليزية، وهو كتاب مدرسي لأحد الآباء اليسوعيين**. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٥.

الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر. **كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات**. عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل ـ طومين. دمشق: المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ١٩٥٣.

الهمذاني، الحسن بن أحمد بن يعقوب. **الإكليل**. حرره وعلق حواشيه نبيه أمين فارس. برنستن: جامعة برنستن، ١٩٣١.

ـــــــــــ. **صفة جزيرة العرب**. تحقيق محمد بن علي الأكوع. صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣.

وهب بن منبه اليماني. **كتاب التيجان وملوك حمير**. حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٢٨.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله. **معجم البلدان**. تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠. ٧ ج.

٢ ـ الأجنبية

Abu-Absi, Samir. "The Modernization of Arabic: Problems and Prospects." *Anthropological Linguistics*: vol. 28, no. 3, 1986.

Abu-Lughod, Janet L. *Before European Hegemony: The World System AD 1250-1350.* New York: Oxford University Press, 1991.

Aburish, Said. *Nasser: The Last Arab.*New York: St. Martin's/Dunne Books, 2004.

Adonis. *An Introduction to Arab Poetics.* London: Saqi Books, 2003.

Ajami, Fouad. *The Arab Predicament.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981.

_______. *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey.* New York: Pantheon, 1998.

Allawi, Ali A. *The Crisis of Islamic Civilization.* New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities.* London; New York: Verso Books, 1983.

Antonius, George. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement.* London: Routledge, 1938.

Arié, Rachel. *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492).* Paris: Editions de Boccard, 1973.

Ascherson, Neal. *Black Sea: The Birthplace of Civilisation and Barbarism.* London: Farrar, Straus and Giroux, 1996.

Atiyah, Edward. *The Arabs.* Harmondsworth: Penguin, 1955.

Baedeker, Karl. *Palestine and Syria: Handbook for Travellers.* London: Dulau and Co., 1876.

Baerlein, Henry. *The Singing Caravan: Some Echoes of Arabian Poetry.* London: John Murray, 1910.

Baldwin, James. *Nobody Knows My Name.* New York: Dial Press, 1961.

BBC, News from Elsewhere, "Saudi Arabia: An Even Louder Call to Prayer," 14 July 2014, <https://www.bbc.com/news/blogs-news-from-elsewhere-28292087>.

Beeston, Alfred F.L. *A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian.* London: Luzac, 1962.

_______. "Kingship in Ancient South Arabia." *Journal of the Economic and Social History of the Orient*: vol. 15, 1972.

_______. "The So-Called Harlots of Ḥaḍramawt." *Oriens*: vol. 5, 1952.

_______ [et al.] (eds.) *Sabaic Dictionary*. Beirut; Louvain-la-Neuve: Peeters, 1982.

Bellamy, James A. "A New Reading of the Namārah Inscription." *Journal of the American Oriental Society*: vol. 105, no. 1, 1981.

Bey, Ali. *Travels of Ali Bey*. Reading: Garnet Publishing, 1993.

Bishop, Elizabeth and Robert Lowell. *Words in Air*. New York: Farrar, Straus, Giroux, 2008.

Bloom, Jonathan M. "The Introduction of Paper to the Islamic Lands and the Development of the Illustrated Manuscript." *Muqarnas:* vol. 17, no. 1, 2000.

Boccaccio, Giovanni. *Decameron*. New York: Oxford University Press, 1993.

Borges, Jorge Luis.*"The Zahir", Labyrinths*. London: Penguin, 1970.

Boswell, James. *The Life of Samuel Johnson*. London: Everyone Publishers, 1992.

Bowles, Paul. *The Spider's House*. New York: Random House, 1955.

Bujra, Abdalla S. *The Politics of Stratification*. Oxford: Oxford University Press, 1971.

Bulliet, Richard W. *The Camel and the Wheel*. New York: Harvard University Press, 1975.

Burgess, Anthony. *The Malayan Trilogy*. London: Vintage, 2000.

Burton, Richard F. *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Madinah and Meccah*. London: Tylston and Edwards, 1893.

Byron, Robert. *The Road to Oxiana*. London: Picador, 1981.

Cannadine, David. *Ornamentalism: How the British Saw Their Empire*. New York: Oxford University Press, 2002.

Cannon, Garland. *The Arabic Contribution to the English Language: An Historical Dictionary*. Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 1994.

Carlyle, Thomas. *Critical and Miscellaneous Essays*. Boston, MA: D. Appleton and Company, 1877.

Carmichael, Joel. *The Shaping of the Arabs: A Study in Ethnic Identity*. London: Allen and Unwin, 1969.

Chaudhuri, Kirti N. *Trade and Civilisation in the Indian Ocean*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1985.

Chejne, Anwar G. *The Arabic Language: Its Role in History*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969.

Chekhab-Abudaya, Mounia and Cécile Bresc. *Hajj: The Journey Through Art*. Milan: Skira, 2013.

Chen Da-sheng et Ludvik Kalus. *Corpus d'inscriptions arabes et persanes en Chine I: Province de Fu-Jian (Quan-zhou, Fu-zhou, Xia-men)*. Paris: Geuthner, 1991. (bibliotheque d'etudes islamiques)

Cherian, A. "The Genesis of Islam in Malabar." *Indica*: vol. 6, no. 1, 1969.

Cioeta, Donald J. "Ottoman Censorship in Lebanon and Syria, 1876-1908." *International Journal of Middle East Studies:* vol. 10, 1979.

Crone, Patricia. "The First-Century Concept of "Hiğra"." *Arabica*: vol. 41,, 1994.

Dalrymple, William. *From the Holy Mountain: A Journey in the Shadow of Byzantium*. London: HarperCollins, 1997.

Daum, Werner (ed.). *Yemen: 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix*. Innsbruck; Frankfurt/Main: Pinguin Verlag, [n.d.] [c. 1988].

Davie, Grace. *Religion in Britain Since 1945: Believing without Belonging*. Hoboken: John Wiley, 1994.

Diamond, Jared. *Guns, Germs and Steel*. London: Vintage, 2005.

Doe, Brian. *Southern Arabia*. London: Thames and Hudson, 1971.

Dresch, Paul. *A History of Modern Yemen*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2000.

________. *Tribes, Government and History in Yemen*. Oxford: Clarendon Press, 1989.

Drory, Rina. "The Abbasid Construction of the Jahiliyya: Cultural Authority in the Making." *Studia Islamica*: vol. 83, 1996.

Dunlop, D. M. *Arab Civilization to A.D. 1500*. London: Longman Group Ltd.; Beirut: Librairie du Liban, 1971.

Dunn, Ross E. *The Adventures of Ibn Battuta: A Muslim Traveler of the 14th Century*. Berkeley, CA; Los Angeles: University of California Press, 1989.

Durrell, Lawrence. *Reflections on a Marine Venus*. London: Faber and Faber, 1953.

"Emergency Safeguarding of the Syrian Cultural Heritage." <https://en.unesco.org/emergencysafeguardingofthesyrianculturalheritage>.

The Encyclopaedia of Islam. 2nd ed. Leiden: Brill, 1960?2005.

Ferguson, Charles. "Review of "The Arabic Language: Its Role in History" by Anwar G. Chejne." *American Anthropologist*: vol. 75, no. 2, April 1973.

Fermor, Patrick Leigh. *Mani*. London: Penguin, 1984.

_______. *The Traveller's Tree*. London: Penguin, 1984.

Friedmann, Yohanan (ed.). *Islam in Asia: Vol. 1: South Asia*. Jerusalem: Magnes Press, 1984

Gelder, Geert Jan van (ed. and trans.). *Classical Arabic Literature: A Library of Arabic Literature Anthology*. New York; London: New York University Press, 2013.

Ghosh, Amitav. *In an Antique Land*. London: Vintage, 1994.

Ghul, M.A. "The Pilgrimage at Itwat." *Proceedings of the Society for Arabian Studies: A.F.L. Beeston at the Arabian Seminar*: 2005.

Gilmour, David. *Curzon*. London: Macmillan, 1994.

Grunebaum, G. E. Von. "The Nature of Arab Unity Before Islam." *Arabica:* vol. 10, no. 1, 1963.

Gysens, J. Calzini. "Safaitic Graffiti from Pompeii." *Proceedings of the Society for Arabian Studies*: vol. 20, 1990.

Haag, Michael. *Syria and Lebanon*. London: Cadogan, 1995. (Cadogan Guides Series)

Haeri, Niloofar. "Form and Ideology: Arabic Sociolinguistics and Beyond," *Annual Review of Anthropology:* vol. 29, no. 1, October 2000.

Hardy, Peter. *Historians of Medieval India: Studies in Indo-Muslim Historical Writing*. New Delhi: Munshiram Manoharlal Publishers, 1997.

Harrigan, Peter. "Discovery at al-Magar." *Saudi Aramco World*: May-June 2012.

Harrower, Michael. *Water Histories and Spatial Archaeology: Ancient Yemen and the American West*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2016.

Healey, John F. and G. R. Smith. "Jaussen Savignac 17: The Earliest Dated Arabic Document." *Atlal*: vol. 12, 1989.

Hess, Richard S. *Studies in the Personal Names of Genesis 1-11*. Neukirchener: Butzon and Bercker, 1993.

al-Hilali, Muhammad Taqi-ud-Din and Muhammad Muhsin Khan. *Translation of the Meanings of the Noble Qur'an in the English Language*. Medina: King Fahd Complex, 1417AH/1998.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs*. 10th ed. New York; London: St Martin's Press, 1970.

Ho, Engseng. *The Graves of Tarim: Genealogy and Mobility across the Indian Ocean*. Berkeley, CA; Los Angeles University of California Press, 2006.

Hodgson, Marshall G.S. *The Venture of Islam*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1977. 3 vols.

Vol. 1: *The Classical Age of Islam.*

Vol. 2: *The Expansion of Islam in the Middle Periods.*

Vol. 3: *The Gunpower Empires and Modern Times.*

Holden, David. *Farewell to Arabia*. London: Faber and Faber, 1966.

Hornblower, Simon and Antony Spawforth (eds.). *The Oxford Classical Dictionary*. 3rd ed. Oxford: Oxford University Press, 2003.

Hourani, Albert. *A History of the Arab Peoples*. With afterword by Malise Ruthven. London: Faber and Faber, 2002.

Hoyland, Robert G. *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*. London: Taylor and Francis, 2001.

Huart, Clément. *A History of Arabic Literature*. London: William Heinemann, 1903.

Hurgronje, C. Snouck, *Verspreide Geschriften*. 6 vols. in 7. Bonn; Leipzig: Brill, 1924.

Hussein, Asiff. *Sarandib: An Ethnological Study of the Muslims of Sri Lanka*. Dehiwala: Neptune Publications, 2007.

Ibn Battutah, Muhammed bin Abdallah. *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*. Translated by H.A.R. Gibb and C. F. Beckingham. London: Published for the Hakluyt Society at the Cambridge University Press, 1958-1994.

vol. 1: *Travels in North-West Africa, Egypt, Syria, and to Mecca.*

Ibn Fadlan, Abū Zayd al-Sīrāfī and Ahmad. *Two Arabic Travel Books: Accounts of China and India and Mission to the Volga*. Edited and translated by Tim Mackintosh-Smith and James E. Montgomery. New York; London: New York University Press, 2014.

Ibn Khaldun, Abd al-Rahman bin Muhammad. *The Muqadimmah: An Introduction to History*. Trans. Franz Rosenthal, ed. and abridged N.J. Dawood. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989.

Ibn al-Kalbī, Hishām bin Mu,ammad. *The Book of Idols*. Translated by Nabih Amin Faris. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1952.

Ibrahim, Mahmood. "Social and Economic Conditions in Pre-Islamic Mecca." *International Journal of Middle East Studies*: vol. 14, no. 3, August 1982.

Ingrams, Doreen. *A Time in Arabia*. London: John Murray, 1970.

_______ and Leila Ingrams (eds.). *Records of Yemen*. Neuchâtel: Archive Editions, 1993. 16 vols.

Vol. 9: *1933-1945.*

Ingrams, Harold. *Arabia and the Isles*. 3rd ed. London: John Murray, 1966.

_______. *The Yemen: Imams, Rulers and Revolutions*. London: John Murray, 1963.

Irwin, Robert. *Night, Horses and the Desert: The Penguin Anthology of Classical Arabic Literature*. London: Penguin, 2000.

Jackson, Peter. *The Delhi Sultanate: A Political and Military History*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1998.

Johnson, Penny and Raja Shehadeh (eds.). *Seeking Palestine*. Northampton, MA: Olive Branch Press, 2013.

Johnson, Samuel and James Boswell. *A Journey to the Western Islands*. London: Penguin Classics, 1984.

Jones, Alan. "The Development of the Arabic Scripts by Beatrice Gruendler." *Vetus Testamentum*: vol. 44, no. 3, July 1994.

_______ (ed.). *University Lectures in Islamic Studies, volume 1*. London: Al-Tajir World of Islam Trust, 1997.

Karsh, Efraim. *Islamic Imperialism: A History*. 2nd ed. New Haven, CT; London: Yale University Press, 2007.

Kassir, Samir. *Being Arab*. London: Verso Books, 2013.

Kaye, Alan S. "Reviewed Work: A War of Words: Language and Conflict in the Middle East by Yasir Suleiman." *Journal of the American Oriental Society*: vol. 125, no. 3, July-September 2005.

Keall, Edward J. (reviewer). "The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads by Jan Retsö." *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*: no. 330, May 2003.

Keay, John. *India: A History*. London: Harper Collins, 2004.

Kennedy, Hugh. *The Great Arab Conquests*. London: Orion Publishing, 2008.

Kilito, Abdelfattah. *Thou Shalt Not Speak My Language*. New York: Syracuse University Press, 2008.

Kister, M. J. "Al-Ḥāra: Some Notes on Its Relations with Arabia." *Arabica*: vol. 15, no. 2, June 1968.

Knauf, Ernst Axel. "The Migration of the Script, and the Formation of the State in South Arabia." *Proceedings of the Society for Arabian Studies*: vol. 19, 1989.

Lambourn, Elizabeth. "From Cambay to Samudera-Pasai: The Export of Gujarati Grave Memorials to Sumatra and Java in the Fifteenth Century CE." *Indonesia and the Malay World*: vol. 31, no. 90, 2003.

Lane, Edward William. *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*. With Introduction by Jason Thompson. Cairo: American University of Cairo, 2003.

Lane, Edward William. *Madd al-Qāmūs: An Arabic-English Lexicon*. London: Williams and Norgate, 1863-1893.

Lecker, Michael. "Kinda on the Eve of Islam and during the "Ridda"." *Journal of the Royal Asiatic Society*: vol. 4, no. 3, 1994.

Lévi-Strauss, Claude. *Tristes Tropiques*. New York: Penguin, 1992.

Levtzion, Nehemia and Randall L. Pouwels (eds.). *The History of Islam in Africa*. Athens, OH: Ohio University Press, 2000.

Lewis, Bernard. *The Arabs in History*. 6th ed. Oxford: Oxford University Press, 1993.

_______. "The Concept of an Islamic Republic." *Die Welt des Islams*: vol. 4, 1956.

_______. "The Crows of the Arabs." *Critical Inquiry*: vol. 12, 1985.

Lings, Martin. *Sufi Poems: A Mediaeval Anthology*. Cambridge, MA: Islamic Texts Society, 2004.

Lyttelton, George and Rupert Hart-Davis. *The Lyttelton Hart-Davis Letters 1955-62: A Selection*. London: John Murray, 2001.

Maalouf, Amin. *The Crusades Through Arab Eyes*. London: Saqi Books, 1984.

al-Maᶜarrī, Abū l-'Alā'. *The Epistle of Forgiveness, Volume One: A Vision of Heaven and Hell*. Edited and translated by Geert Jan van Gelder and Gregor Schoeler. New York; London: New York University Press, 2013.

Macdonald, Michael C.A. "Nomads and the Ḥawrān in the Late Hellenistic and Roman Periods: A Reassessment of the Epigraphic Evidence." *Syria*: vol. 70, 1993.

_______. "The Seasons and Transhumance in Safaitic Inscriptions." *Journal of the Royal Asiatic Society*: vol. 2, 1992.

_______ (ed.). *The Development of Arabic as a Written Language*. Oxford: Oxford University Press, 2010.

Mackintosh-Smith, Tim. "Interpreter of Treasures: Encounters." *Saudi Aramco World*: March-April 2013.

_______. "Interpreter of Treasures: Food and Drink." *Saudi Aramco World*: May-June 2013.

_______. "Interpreter of Treasures: A Portrait Gallery." *Saudi Aramco World*: September-October 2013.

_______. *The Hall of a Thousand Columns: Hindustan to Malabar with Ibn Battutah.* London: John Murray, 2005.

_______. *Landfalls: On the Edge of Islam with Ibn Battutah.* London: John Murray, 2010.

_______. *Travels with a Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Battutah.* London: John Murray, 2001.

_______. *Yemen: Travels in Dictionary Land.* London: John Murray, 1997.

_______. *Yemen: The Unknown Arabia.* Revised ed. New York: The Overlook Press, 2014.

Maigret, Alessandro de. "The Arab Nomadic People and the Cultural Interface between the "Fertile Crescent" and "Arabia Felix"." *Arabian Archaeology and Epigraphy*: vol. 10, no. 2, 1999.

Manguel, Alberto. *The Library at Night.* New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009.

_______. *A Reader on Reading.* New Haven, CT; London: Yale University Press, 2011.

Mather, James. *Pashas: Traders and Travellers in the Islamic World.* New Haven, CT; London: Yale University Press, 2009.

Mathews, Thomas. *Byzantium: From Antiquity to the Renaissance.* New Haven, CT; London: Yale University Press, 1998.

Morris, Jan. *Spain.* London: Penguin, 1982,

_______. *Sultan in Oman.* London: Eland Books, 2000.

Mouterde, René et Claude Mondésert. "Deux inscriptions grecques de Hama." *Syria*: vol. 34, nos. 3-4, 1957.

Naipaul, V.S. *An Area of Darkness.* London: Picador, 1995.

Nicholson, Reynold. *A Literary History of the Arabs.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1930.

Norris, H.T. *Saharan Myth and Saga*. Oxford: Oxford University Press, 1972. (Oxford Library of African Literature)

Nowak, Martin. *Supercooperators: Altruism, Evolution, and Why We Need Each Other to Succeed*. New York: Free Press, 2011.

O'Brian, Patrick. *HMS Surprise*. New York: HarperCollins, 1993.

Owens, Jonathan. "Arabic Dialect History and Historical Linguistic Mythology." *Journal of the American Oriental Society*: vol. 123, no. 4, October - December 2003.

_______. "Arabic Sociolinguistics." *Arabica:* vol. 48, 2001.

_______. *A Linguistic History of Arabic*. Oxford: Oxford University Press, 2006.

_______ (ed.). *The Oxford Handbook of Arabic Linguistics*. Oxford: Oxford University Press, 2013.

Parker, A. G. and J. I. Rose. "Climate Change and Human Origins in Southern Arabia." *Proceedings of the Society for Arabian Studies*: vol. 39, 2009.

Parry, James. "The Pearl Emporium of Al Zubarah." *Saudi Aramco World*: November-December 2013.

Pellat, Charles (ed. and trans. into French). *The Life and Works of Jāḥiz*. Trans. (into English) D. M. Hawke. London: Routledge and Kegan Paul, 1969

Piamenta, Moshe. *Dictionary of Post-Classical Yemeni Arabic*. Leiden: Brill, 1990.

Pintak, Lawrence. "Border Guards of the "Imagined" Watan: Arab Journalists and the New Arab Consciousness," *Middle East Journal*: vol. 63, no. 2, 2009.

Pryce-Jones, David. *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1989.

Rabin, Chaim. *Ancient West-Arabian*. London: Taylor's Foreign Press, 1951.

_______. "The Beginnings of Classical Arabic." *Studia Islamica*: vol. 4, 1955.

Rashid, Ibrahim. *Yemen Enters the Modern World*. Chapel Hill, NC: Documentary Publications, 1984.

Rennie, Neil. *Far-Fetched Facts: The Literature of Travel and the Idea of the South Seas*. Oxford: Clarendon Press, 1995.

Retsö, Jan. *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads*. London: Routledge/Curzon, 2002.

Rippin, A. "The Qur'ān as Literature: Perils, Pitfalls and Prospects." *Bulletin of the British Society for Middle Eastern Studies*: vol. 10, no. 1, 1983.

Rizvi, Saiyid Athar Abbas. *A History of Sufism in India, vol. 1*. New Delhi: Munshiram Manoharlal Publishers, 1997.

Robb, Graham. *The Discovery of France*. London: Picador, 2007.

Robin, Christian. *Les Hautes-Terres du Nord-Yémen avant l'Islam I*. Istanbul: Nederlands Historisch Archaeologisch Institut, 1982.

Robinson, Chase F. (ed.). *Texts, Documents and Artefacts*. Leiden: Brill, 2003

Rogan, Eugene. *The Arabs: A History*. London: Penguin, 2011.

Rogerson, Barnaby. *The Prophet Muhammad: A Biography*. London: Abacus, 2004.

Rosenthal, Franz. "The Stranger in Medieval Islam." *Arabica*: vol. 44, 1997.

Rushdie, Salman. *The Jaguar Smile: A Nicaraguan Journey*. London: Picador, 1987.

_______. *Midnight's Children*. New York: Penguin, 1991.

Sa'di, Muslihu'd-Din. *The Rose-Garden*. Translated by Edward B. Eastwick. London: Octagon Press, 1979.

Schoeler, Gregor. "Writing and Publishing: On the Use and Function of Writing in the First Centuries of Islam." *Arabica*: vol. 44, 1997.

Searight, Sarah. *Steaming East*. London: Bodley Head, 1991.

_______ and Jane Taylor. *Yemen: Land and People*. London: Pallas Athene, 2003.

Serjeant, R.B. "Reviewed Work: La geste d'Ismaël d'après l'onomastique et la tradition arabes by René Dagorn." *The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*: no. 2, 1982.

Serjeant, Robert B. *South Arabian Hunt*. London: Luzac, 1976.

Shehadeh, Raja. *Occupation Diaries*. London: Profile Books, 2012.

_______. *Palestinian Walks: Notes on a Vanishing Landscape*. London: Profile Books, 2008.

Shouby, E. "The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs." *Middle East Journal*: vol. 5, no. 3, Summer 1951.

al-Sīrāfī, Abū Zayd and Ahmad bin Fadlan. *Two Arabic Travel Books: Accounts of China and India and Mission to the Volga*. Edited and translated by Tim Mackintosh-Smith and James E. Montgomery. New York; London: New York University Press, 2014.

Sizgorich, Thomas. ""Do Prophets Come with a Sword?": Conquest, Empire, and Historical Narrative in the Early Islamic World." *American Historical Review*: vol. 112, no. 4, October 2007.

Soueif, Ahdaf. *Cairo: My City, Our Revolution*. London: Bloomsbury, 2012.

Stark, Freya. *Seen in the Hadhramaut*. London: John Murray, 1938.

________. *The Southern Gates of Arabia: A Journey in the Hadhramaut*. London: John Murray, 2003.

Stetkevych, Jaroslav. "Some Observations on Arabic Poetry." *Journal of Near Eastern Studies*: vol. 26, 1967.

Stetkevych, Suzanne Pinckney. "The 'Abbasid Poet Interprets History: Three Qaṣīdahs by Abū Tammām." *Journal of Arabic Literature*: vol. 10, 1979.

Suchem, Ludolph Von. *Description of the Holy Land and the Way Thither*. Translated by Aubrey Stewart. London: Palestine Pilgrims' Text Society, 1895.

Suleiman, Yasir. *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003.

Sutherland, James (ed.). *The Oxford Book of Literary Anecdotes*. Oxford: Clarendon Press, 1975.

Swanson, Jon C. *Emigration and Economic Development*. Boulder, CO: Westview Press, 1979.

Tāj al-Dīn, Hasan. *The Islamic History of the Maldive Islands*. [Edited] by Hikoichi Yajima. Tokyo: Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa, 1982-1984. 2 vols.

Talass, Rawaa. "Nayy Yark." (Unpublished Dissertation, Dubai, 2014).

Tibbetts, Gerald R. *Arab Navigation in the Indian Ocean Before the Coming of the Portuguese*. London: Royal Asiatic Society, 1971.

Tidrick, Kathryn. *Heart-beguiling Araby: The English Romance with Arabia.* Revised ed. London: Tauris and Co., 1989.

Trevaskis, Kennedy. *Shades of Amber.* London: Hutchinson, 1968.

Tuchman, Barbara W. *A Distant Mirror: The Calamitous 14th Century.* London: Macmillan, 1979.

Varisco, Daniel Martin. *Islam Obscured: The Rhetoric of Anthropological Representation.* New York; Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2005.

Versteegh, Kees. *The Arabic Language.* Edinburgh: Edinburgh University Press, 2013.

_______. "Linguistic Contacts between Arabic and Other Languages." *Arabica,* vol. 48, no. 4, 2001.

Volpi, Frédéric. "Pseudo-Democracy in the Muslim World." *Third World Quarterly*: vol. 25, no. 6, 2004.

Weber, Max. *Gesammelte politische Schriften.* München: Drei Masken Verlag, 1921.

Whitfield, Susan. *Life Along the Silk Road.* London: John Murray, 2000.

Whitman, Walt. *The Portable Walt Whitman.* Edited with an introduction by Michael Warner. New York: Penguin, 2004.

Wilson, Robert T. O. *Gazetteer of Historical North-West Yemen.* Hildesheim: G. Olms, 1989.

Winnett, F. V. "Studies in Ancient North Arabian." *Journal of the American Oriental Society*: vol. 107, no. 2, April-June 1987.

Wittgenstein, Ludwig. *Philosophische Untersuchungen.* Frankfurt Am Main Suhrkamp Verlag 1953.

Wootton, David. *The Invention of Science: A New History of the Scientific Revolution.* London: Harper Collins, 2015.

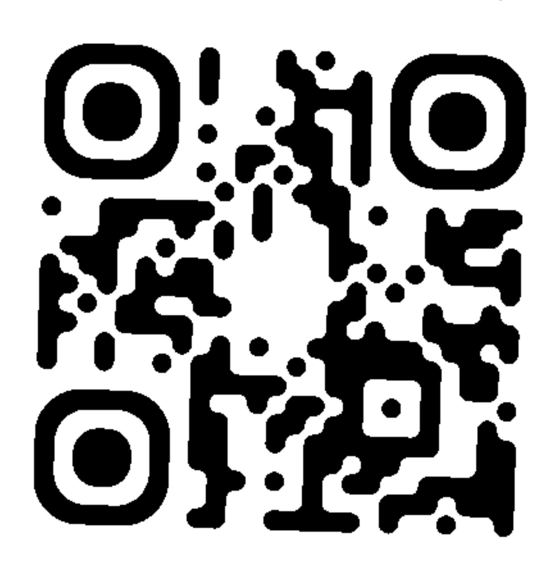
Young, Gavin. *In Search of Conrad.* London: Penguin, 1992.

_______. *Slow Boats Home.* London: Penguin, 1986.

Yule, Henry and A. C. Burnell. *Hobson-Jobson: The Anglo-Indian Dictionary.* Edited by W. Crooke. 2nd ed. London: John Murray, 1903.

Ziegler, Philip. *Soldiers: Fighting Mens Lives, 1901-2001.* London: Plume/Penguin, 2003.

Zubaida, Sami. *Beyond Islam: A New Understanding of the Middle East.* London: Tauris and Co., 2011.



■ "تيم ماكنتوش - سميث، يعجزُ عن كتابة سطرٍ مُمل". **(نيويورك تايمز)**

■ "مذهل جداً... كُتب هذا الكتاب بطريقة جيدة تحيطها لمسات شخصية لشخص عايش السنوات الثلاثين الأخيرة من تاريخ العرب موجوداً في صلب الأحداث. وأنا معجب بشدة بهذا الكتاب الملهم، المتّسم بنظرة إلى الهوية التاريخية للعرب أصيلة ومناسبة لزمانها". **(فيليب كينيدي، مؤلف كتاب الاعتراف في التقليد السردي العربي)**

■ "هذا التاريخ الجديد للعرب ليس مرجعاً في القصص يحتوي التواريخ والحقائق المعتادة، بل إنه يكشف عن مقالة تاريخية وفلسفية وفكرية تحلّل تطوّر الشعوب الناطقة باللغة العربية -العرب والمستعربون- كما يكشف الدور النافذ للغتهم في الوحدة والاختلاف.. أنصح بقراءته بشدة". **(بي. هاريس، تشويس)**

■ "أحدّثكم عن شخصٍ يقرأ كتاباً فيعجبه، ثم يأخذ يكلّمُ كل شخصٍ يلقاه عن هذا الكتاب، ويبلغ به الأمر أن يبحث عن مُستمعين لكي يحدّثهم فقط عن محاسن هذا الكتاب. المصيبة أنه قد يقضي سنة وسنتين ولا حديث له إلّا هذا الكتاب. ليتني أتخلّص من هذه العادة، ولكن هذا الكتاب سيرسخها في نفسي. تيم ماكنتوش - سميث، في كتابه عرب: ٣٠٠٠ سنة من تاريخ شعوب وقبائل وإمبراطوريات، يعرض لنا المؤلف وبأسلوب أخّاذ تاريخنا منذ سبأ وحِمير، ويمضي في استعراض التاريخ ولا يتوقف سوى قبل أعوامٍ قليلة". **(عارف حجاوي)**

■ "عاطفة جيّاشة تجاه إنجازات العرب العظيمة تولّدت لدى هذا المؤرّخ الذي قضى ٣٠ عاماً من حياته في الجزيرة العربية، مكرّساً جهده في بحث موضوع أحبّه. أثمر هذا العشق عدّة دراسات اتّخذت مسارين في آن واحد: استعراض سردي للتاريخ العربي، يتداخل مع دراسة تطوّر وانتشار اللغة العربية. يمكن تشبيه عمل ماكنتوش - سميث بأنه جمع بين تاريخ بروديل في توثيق الفترة من أواخر القرون الوسطى لمنطقة البحر الأبيض المتوسط إلى الأيام المظلمة من الحرب العالمية الثانية، وبين حماسة المؤرّخ اليوناني هيرودوت والمؤرّخ المسلم أبي الحسن المسعودي. يوضح ماكنتوش - سميث في كتابه أن الشعب العربي لا يمكن تعريفه إلا بلغته حيث لا توجد هوية عرقية خالصة، لأنه مزيج من شعوب الشرق الأوسط تشكّلت من خلال لغة تطوّرت في ملاذ صحراوي. إعجاب العرب بلغتهم لا يمكن لأحد في الغرب أن يفهمه، فما زال الجمهور العربي يملأ ملاعب كرة القدم للاستماع إلى صوت شاعر قديم، وفي المقابل من الصعب أن تجدهم يتذوّقون خطاباً سياسياً. لقد حاول ماكنتوش - سميث أن يقف على درجة حسّاسة بين تأثير اللغة والتاريخ وأن يكون الكتاب أصيلاً في محتواه. وهو يفتح نافذة لفهم أعمق ويتيح للقارئ فرصة الانخراط في السرد الرائع والترحال عبر ٣٠٠٠ سنة من الفتوحات العربية. مروراً بتأثير العامل التاريخي والتفاعل مع الإمبراطوريات الأخرى للأتراك والفرس والمغول والعثمانيين والاستعمار الفرنسي والبريطاني بالإضافة إلى عوامل ومتغيّرات أخرى عديدة". **(بارنابي روجرسون)**



الثمن: **٣٢ دولاراً**
أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-739-6

9 786144 317396